النظام الدولي الجديد

بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي

ياسر أبو شبانة

مدرس مساعد بكلية أصول الدين والدعوة
بجامعة الأزهر - المنصورة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

Dar Al Salam
PRINTING, PUBLICATION
& DISTRIBUTION
120 Al Azhar St. Po Box: 161 El Ghoriah
Tel.: (202) 2741578 - 2704280 - 5932820

دار السلام
طباعة نشر توزيع
القاهرة ١٢٠ شارع الأزهر ص.ب ١٦١ الغورية
تليفون ٢٧٤١٥٧٨ - ٢٧٠٤٢٨٠ - ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢)

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
تأسست سنة ١٩٧٣ م

Dar Al Salam
PRINTING, PUBLICATION
& DISTRIBUTION
120 Al Azhar St. Po Box: 161 El Ghoriah
Tel: (202) 2741578 - 2704280 - 5932820

دار السلام
طبع نشر توزيع
القاهرة: ١٢٠ شارع الأزهر ص.ب ١٦١ الغورية
تليفون: ٢٧٤١٥٧٨ - ٢٧٠٤٢٨٠ - ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢)

جائزة أفضل ناشر للتراث
Dar Al Salam PRINTING PUBLICATION & DISTRIBUTION

النظام الدولي الجديد

بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي

تأليف

ياسر أبو شبانة

مدرس مساعد بكلية أصول الدين والدعوة

جامعة الأزهر - فرع المنصورة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

أصل هذا الكتاب

رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الماجستير بتقدير ممتاز في الدعوة والثقافة الإسلامية من جامعة الأزهر . وقد أوصت لجنة المناقشة بطبعها على نفقة الجامعة وتبادلها مع الجامعات الأخرى .

* * *

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
مصر. القاهرة ١٢٠ شارع الازهر ص.ب ١٦١ الغورية
ت: ٥٩٣٢٨٢٠ـ ٢٧٤١٥٧٨ـ ٢٧٠٤٢٨٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)

الطبعة الأولى 1998 م - 1418 هـ



المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه واهتدى بهداه .. وبعد .

فلقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان في أحسن تقويم ، وأنعم عليه بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، ومن أعظم هذه النعم وأجلها أن هداه ربه إلى الصراط المستقيم ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [1] .

ومنذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها مسيرة الحياة الإنسانية على ظهر الأرض ، جاءها القانون الإلهي الخالد ، بأن من سار في طريق الحق واتبع الهدى الرباني أفلح وسعد في دنياه وآخرته ، ومن أعرض عن الهدى الرباني وسلك طريق الضلال فقد خسر الدنيا والآخرة .. وفي ذلك يقول الحق تباركت أسماؤه – مخاطبا آدم وحواء عليهما السلام آمرا إياهما بالهبوط من الجنة ، بعد أن عاشا فيها تجربة الإنسان مع غواية الشيطان ومغفرة الرحمن – : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [2] .

---

(1) سورة الإنسان : الآية (2) .

(2) سورة طه : الآيات (123 - 127) .

وظلت البشرية متمسكة بالمنهج الإلهي سائرة في طريق الخير ، إلى أن أفلحت الغواية الشيطانية في الانحراف بالفطرة الإنسانية السوية – عند البعض – عن الصراط المستقيم وأعرضت عن الهدي الإلهي .. ولكن رحمة الله التي وسعت كل شيء أدركت بني آدم فأرسل الله عز وجل إليهم الرسل الكرام – عليهم جميعا الصلاة والسلام – ليردوهم إلى جادة الصواب ، وليزيلوا غشاوة الجاهلية فيعود للفطرة الإنسانية نقاؤها وصفاؤها من جديد ... إلى أن أذن المولى تبارك وتعالى بمجيء النبي الخاتم والرسالة الأخيرة ، فكانت رسالة الإسلام على يد محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ... جاءت رسالة عالمية لجميع الأجناس والألوان والأزمان والأوطان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . ﴾ (1) .

وتحقيقا لعالمية هذا الدين ، انطلق المسلمون الأوائل لينشروا هذا النور المبين في جميع أقطار الأرض ، واستطاعوا – بفضل الله وعونه – أن يتغلبوا على الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ، اللتين كانتا تمثلان القوتين المهيمنتين على الساحة العالمية في ذلك الوقت ، ومن ثم أصبح المسلمون هم سادة النظام الدولي وقادته ، وقد أنشأوا حضارة عامرة ، شيدت على أسس متينة من العبودية الخالصة لله ، والعدالة ، والحرية ، والمساواة ، فنعمت البشرية بظلالها الوارفة وعاشت الإنسانية أزهى عصورها وأجمل أيامها .

ولكن ، ما لبث الزمان أن دار دورته ، فتخلى المسلمون عن المكانة القيادية في النظام الدولي ، حينما أهملوا الحفاظ على المقومات الروحية والمادية اللازمة لقيادة المسيرة الحضارية الإنسانية . ومنذ ذلك الحين والحضارة المادية الغربية هي التي تحتل موقع الريادة في النظام الدولي ، في صورة تنافس استعماري شديد بين أسبانيا والبرتغال ، ثم بين انجلترا وفرنسا ، إلى أن كان نظام توازن القوى بين الدول الأوربية حتى الحرب العالمية الثانية ، التي أفضت إلى نظام « ثنائية القوة » بين المعسكرين : الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي ، والغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية .

ومن المنطقي بعد كل حدث أو تطور ذي أهمية كبرى على المستوى العالمي أن يطلق على الفترة التي تعقبه « النظام الدولي الجديد » .. ولقد كان للتطورات الهائلة في بلدان المعسكر الشرقي عموما ، والاتحاد السوفيتي السابق على وجه الخصوص ، آثارها المذهلة

(1) سورة سبأ : الآية (28) .

التي دفعت إلى الحديث عن نظام دولي جديد يلوح في الأفق ، ولكن استخدام هذا المصطلح لم ينتشر هذا الانتشار الواسع إلا بعد تكرار ذكره على لسان الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) أثناء أزمة الخليج الثانية بين عامي 90/1991 م . ومنذ ذلك الحين والحديث لا ينقطع في الدول الكبرى عن هذا النظام وفضائله ومزاياه ، وعن السلام والعدالة والرخاء والمساواة ... وغيرها من القيم النبيلة والمعاني الجليلة التي تهفوا إليها الأفئدة في كافة بقاع الأرض .

من هنا تنبع أهمية هذا البحث ، من خلال دراسة هذا النظام ومعالمه الأساسية وإجراء موازنة تقويمية بين ما هو معلن وما هو مطبق فعليا ، كل هذا بهدف التعرف على الوضع الدولي الجديد في الفترة القادمة ، بصورة علمية منهجية ، بغية اتخاذ الموقف الصحيح منه سلبا أو إيجابا .. وقد جعلت دراستي هذه تحت عنوان : النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي .. وآثرت اختيار لفظ « الدولي » بدلا من اللفظ الآخر المستخدم على نطاق واسع وهو « العالمي » لأني أرى أن إسباغ صفة « العالمية » على هذا النظام لا محل لها ، إذ أن هذا الوصف يعني أن جميع دول العالم قد شاركت في وضع أسس وقواعد هذا النظام وارتضتها ، بينما الحقيقة التي لا تخطئها العين أن قواعد النظام الدولي تضعها الدول الكبرى وتفرضها على بقية دول العالم .. لذا ، كان التعبير بـ « الدولي » أيسر شأنا وأهون أمرا من التعبير بـ « العالمي » ، لأن النظام الجديد ليس له من « العالمية » حظ ولا نصيب .

وبعد .. فلست أزعم أني أنظر إلى عملي هذا بعين الرضا التام ، ولكن حسبي أني قد استفرغت فيه أقصى طاقتي وبذلت فيه أقصى جهدي ، فإن كنت أصبت فالفضل لله تبارك وتعالى وحده ، وإن كانت الأخرى فعذري أني قصدت الخير لديني ولأمتي ، متمثلا مقولة سيدنا شعيب – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – فيما حكاه القرآن الكريم على لسانه : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . ﴾ (7) .

وأسأل الله العلي القدير أن يجعله عملا صالحا ولوجهه خالصا ، وأن لا يجعل للشيطان فيه حظا ولا نصيبا .. ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ

(7) سورة هود – عليه السلام : جزء من الآية (88) .

عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [1] ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

ياسر أبو شبانة

مدرس مساعد بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر – المنصورة

(1) سورة البقرة : جزء من الآية (286) .

تعريف « النظام الدولي » لغة واصطلاحًا

قبل أن تنطلق إلى آفاق النظام الدولي الجديد ، لابد من بيان المراد بهذا المصطلح « النظام الدولي » حتى يمكن التعرف على ما هو قديم أو جديد فيه ، ولذا سأتحدث في السطور التالية عن تعريف النظام الدولي في اللغة أولا ثم في اصطلاح السياسيين ثانيا .

أولا : تعريف « النظام الدولي » في اللغة :

يتكون هذا المصطلح من كلمتين : « نظام » و « دولي » :

أ – مدلول كلمة « نظام » في اللغة :

« النَّظْمُ » في اللغة : هو التأليف ، وضَمُّ شيء إلى شيء آخر ، يقال : نَظَمَ الأشياء يَنْظِمُهَا ، نَظْما : ألَّفها ، وضَمَّ بعضها إلى بعض .

ونَظَم اللؤلؤ ونحوه : جعله في سلك ونحوه .

ونَظَم شعرا : ألَّف كلاما موزونا مُقَفًّى .

وكل شيء قرنته بآخر ، أو ضممت بعضه إلى بعض : فقد نظمته [1] .

ب – مدلول كلمة « دولي » : في اللغة :

حينما يوصف شيء بأنه دولي ، فإنه نسبة إلى الدول [جمع دولة] ، ويعود الأصل اللغوي في تلك النسبة إلى الفعل « دال » يقال : دَالَ الدهرُ دَوْلا ودَوْلة : انتقل من حال إلى حال .

ودالت الأيام : أي دارت ، قال تعالى : ﴿ ... وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ .. ﴾[2]
والدَّوْلة – بفتح الدال – في الحرب بين فئتين : « أن تُهزم هذه مرة وهذه مرة ، والجمع : دُوَل ودِوَل ، بضم الدال وكسرها .

---

(1) يراجع : لسان العرب ، لابن منظور (6 / 4469) ، القاموس المحيط للفيروزآبادى (4 / 181) ، مختار الصحاح محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية (2 / 970) .
(2) سورة آل عمران (ص 667) جزء من الآية (140) .

والدُّولة – بضم الدال – في المال : يقال : صار الفيء دُولة بينهم ، أي يتداولونه مرة لهذا ومرة لهذا ، والجمع : دُولات : ودُول . قال تعالى : ﴿ ... كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ .. ﴾ [1] وقيل : « إن الدَّولة والدُّولة ، في المال والحرب سواء » [2] .

وقد ورد لفظ « الدولة » بمعناه العصري في المعاجم اللغوية الحديثة ، فقد جاء في المعجم الوسيط : « الدولة : جمع كبير من الأفراد ، يقطن بصفة دائمة إقليما معينا ، ويتمتع بالشخصية المعنوية وبنظام حكومي ، وبالاستقلال السياسي » [3] .

إن لهذا المفهوم العصري للدولة – فيما أرى – صلة قوية بالمعنى اللغوي الأصلي للفظ ؛ فقد اقتضت السنن الإلهية أن تتبدل أوضاع الدول ، وأن تتغير أحوالها من حيث الاتساع المكاني ، أو النظام السياسي ، أو المكانة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية ... وهذا الانتقال من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ، هو بعينه المعنى الأصلي اللغوي لهذه الكلمة .

ومن خلال ما سبق ، يمكن بجمع اللفظين معا « نظام – دولي » استخلاص المعنى اللغوى للنظام الدولي بأنه : جمع الدول وتأليفها وضم بعضها إلى بعض برباط يجمع الكل في إطار واحد .

وأنتقل الآن إلى المعنى الاصطلاحي :

ثانيا : تعريف « النظام الدولي » في الاصطلاح :

كما هو الشأن في تعريف أي مصطلح اختلفت تعبيرات السياسيين في تعريفهم للنظام الدولي ، تبعا للزاوية التي ينظر منها الباحث إلى هذا المصطلح . وسأذكر فيما يلي بعض التعريفات :

1 – **تعريف الدكتور / أنور عبد الملك :**

يعرف النظام الدولي بأنه : « شكل سياسي واقتصادي واستراتيجي تنتظم في إطاره وحدات وأنماط من العلاقات ، تنطوي على صراعات ومواجهات وعمليات تنمية وتطور

---

(1) سورة الحشر : جزء من الآية (7) .

(2) يراجع : لسان العرب (2 / 1455) ، القاموس المحيط 3 / 377 ، مختار الصحاح 215 , 216 ، المعجم الوسيط 1 / 315 .

(3) المعجم الوسيط « الموضع السابق » .

اجتماعي وتحديث تقفز أحيانا بسرعة هائلة ، ثم تتوقف أو ترتد أو تصاب بضربات وهجمات مضادة تكسر شوكتها » [1] .

2 - **تعريف الدكتور / عبد الخالق عبد الله :**

ذكر في تعريف النظام الدولي أنه : « تجسيد لنشاطات وتفاعلات وارتباطات الدول والمنظمات والشركات متعددة الجنسيات والتكتلات العسكرية والدفاعية ، والوحدات السياسية الرئيسية والفرعية الأخرى ، المكونة للعالم المعاصر [2] .

3 - **تعريف أ / أحمد شرف :**

يرى أن النظام الدولي هو : « مجموعة الحقائق الاقتصادية - الاجتماعية ، والجغرافية - السياسية التي تحكم علاقات المجتمع الدولي بكل أشخاصه ومؤسساته وبكل الأنساق القيمية والقانونية التي تعبر عن هذه الحقائق ، والتي تنظم علاقات الدول بعضها ببعض ، وعلاقة الدول بالمجتمع الدولي ككل ، وعلاقة الدول والمجتمع الدولي بالطبيعة ، وآليات التنفيذ لهذه العلاقات [3] .

4 - **تعريف الدكتور / حسين شريف :**

قال في تعريفه للنظام الدولي أنه : « مجموعة القواعد العامة للتعامل الدولي ، في جوانبه الصراعية والتعاونية ، كما تضعها القوى الكبرى في الجماعة الدولية وتفرضها على القوى الأخرى في مرحلة تاريخية معينة . » [4] .

5 - **تعريف الدكتور / سيف الدين عبد الفتاح :**

عرف النظام الدولي بأنه « نسق من التفاعلات بين الفاعلين الدوليين على مستوى العالم ككل [5] .

---

(1) تغيير العالم ص 11 سلسلة : عالم المعرفة (95) صفر 1406 هـ - نوفمبر 1985 م .

(2) العالم المعاصر والصراعات الدولية ص 36 . سلسلة : عالم المعرفة « 133 » جمادى الأولى 1409 هـ يناير 1989م .

(3) مسيرة النظام الدولي الجديد قبل وبعد حرب الخليج ص 22 ط . دار الثقافة الجديدة / الأولى 1992 م .

(4) السياسة الخارجية الأمريكية .. اتجاهاتها وتطبيقاتها وتحدياتها - من الحرب العالمية الثانية إلى النظام الدولي الجديد 1945 - 1994 م (2 / 543) .

(5) حول التحيز في مفهوم النظام العالمي الجديد : مستقبل العالم الإسلامي (فصلية يصدرها مركز دراسات العالم الإسلامي في مالطا للدراسات الاستراتيجية والجيوسياسية وقضايا الاجتماع البشري في العالم الإسلامي العدد 8 ، خريف 1992 م : ص 62 هامش رقم (21) .

6 - **تعريف الدكتور / توفيق الشاوي :**

ذكر في تعريفه أنه هو « وجود منظمة دولية عالمية ، هدفها المحافظة على السلم ، ولها اختصاص شامل بالقضايا المتعلقة بالعلاقات الدولية . » [1] .

نظرة تحليلية لهذه التعريفات :

الصلة بين التعريفات الثلاثة الأولى صلة تكاملية ، إذ أن ما جاء مجملا في أحدها جاء مفصلا في الآخر ... فمثلا : ذكر الدكتور أنور عبد الملك في تعريفه أن النظام الدولي تنتظم في إطاره وحدات وأنماط من العلاقات ... فجاء تعريف الدكتور عبد الخالق عبد الله ليفصل هذا الإجمال ، ذاكرا أن هذه الوحدات تشمل الدول ، والمنظمات ، والشركات المتعددة الجنسيات ، والتكتلات العسكرية والدفاعية والوحدات الأخرى - الرئيسية والفرعية - المكونة للعالم المعاصر . كما جاء تعريف أحمد شرف ليفصل أنماط العلاقات التي وردت بصورة مجملة في التعريف الأول ، حيث ذكر من بينها ، علاقات الدول بعضها ببعض ، وعلاقات الدول بالمجتمع الدولي ككل ، وعلاقة الدول والمجتمع الدولي بالكون والبيئة .

ويختلف التعريفان الثالث والرابع عما سبقهما ، إذ أنهما قد حصرا نطاق النظام الدولي في إطار التفاعلات الحاصلة بين القوى الكبرى ، التي تنتج قواعد للتعامل الدولي ، تصنعها الدول الكبرى وتفرضها على بقية دول العالم ، كما ذكر الدكتور حسين شريف ، الذي يمتاز تعريفه أيضا ببيان أن هذه القواعد تستمر لفترة تاريخية معينة ، مما يعني أنها تتغير من آن لآخر تبعا للتطورات الحادثة في شكل النظام الدولي ، وفي القوى الكبرى الفاعلة فيه .

ويؤخذ على التعريفات جميعا ، أنها أغفلت الجانب الأهم في صياغة قواعد التعامل الدولي وأعني به الجانب الديني ، إذ أنه أهم العناصر المؤثرة في تشكيل النظام الدولي ... وليس أدل على ذلك من تلك الحملة المسعورة التي تشنها قوى عديدة ضد الإسلام والمسلمين ، فالملاحظ على مدار التاريخ أن الخلافات الكبيرة بين التيارات المختلفة والطوائف المتعددة لا تلبث أن تزول وتتلاشى إذا تعلق الأمر بشيء يخص الإسلام

---

(1) الجديد في النظام العالمي الجديد . المسلمون « السنة (8) العدد » « 400 » بتاريخ الجمعة 6 من ربيع الآخر 1413 هـ - 2 من أكتوبر 1992 م ص 9 .

والمسلمين ، وهذا واضح في تجمع الأوروبيين - على اختلاف مذاهبهم الدينية والسياسية - ووقوفهم صفا واحدا أمام المسلمين في الحروب الصليبية ، وكذلك التحالف اليهودي النصراني لإسقاط الخلافة العثمانية ، والتحالف اليهودي النصراني الشيوعي لاغتصاب فلسطين وزرع الكيان الصهيوني في قلب المنطقة الإسلامية ... وغير ذلك من المواقف التي سيأتي تفصيلها في ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله ، والتي تؤكد ما نحن بصدده الآن من بيان أهمية الجانب الديني في صياغة قواعد النظام الدولي .

أما التعريف الخامس والذي قاله الدكتور توفيق الشاوي ، فأحسب أنه تعريف للتنظيم الدولي وليس للنظام الدولي ، والفارق بينهما كبير ، مما يقتضي أن أذكر تعريف « التنظيم الدولي » حتى يتبين الفارق بينه وبين « النظام الدولي » .

ولكن الحديث عن « التنظيم الدولي » لابد أن يسبقه حديث عن بعض المصطلحات التي قد تذكر على أنها مترادفة مع أنها ليست كذلك ، والحديث عنها ضروري للتمهيد للحديث عن التنظيم الدولي كما سيتضح مما يلي :

1 - المجتمع الدولي :

تعبير يقصد به الوسط الاجتماعي الذي تنمو فيه وتتفاعل العلاقات بين الدول .. ويتكون المجتمع الدولي من دول تختلف فيما بينها من حيث : القوة أو الضعف ، الغنى أو الفقر ... إلخ .

وقد ذكر الدكتور عبد العزيز مخيمر عبد الهادي أن بعض الباحثين يميل إلى استخدام تعبير « الجماعة الدولية » أو « الأسرة الدولية » على أساس أنه يبرز وحدة الجنس البشري أمام مشاكل وأمور مشتركة ، كحماية البيئة ونزع السلاح ، واحترام حقوق الإنسان ، والقضاء على التمييز العنصري وحل المنازعات بالطرق السلمية .

والتفرقة بين المصطلحين « المجتمع الدولي - الجماعة أو الأسرة الدولية » ليست مجرد تفرقة شكلية أو لفظية ، وإنما يترتب عليها العديد من الآثار القانونية ... من بين هذه الآثار : أن المعاهدات والاتفاقيات التي تبرمها الدول ينبغي ألا تخالف القواعد القانونية الدولية .

يضاف إلى هذا :أنه من حق كل دولة أن ترفع دعواها إلى محكمة العدل الدولية ، عندما ترى أن الأسس التي تقوم عليها الجماعة الدولية قد انتهكت ، ليس على أساس أن حقا من حقوقها المقررة قانونا قد انتهك ، بل على أساس انتهاك حقوق ومصالح الجماعة

الدولية [1] .

2 – **العلاقات الدولية :**

تعرّف العلاقات الدولية – بصفة عامة – بأنها العلاقات التي تتجاوز حدود دولة واحدة . ولابد من التمييز بين العلاقات الدولية بمفهومها الواسع الذي يشمل الروابط والعلاقات والمبادلات بين الدول المختلفة ، والعلاقات الدولية بمفهومها الضيق الذي يتناول قضايا تتعلق بنواحي قانونية وبشئون المنظمات الدولية .. والمعنى الأول هو المراد عند الإطلاق . أما المعنى الثاني فهو المراد عند الحديث عن العلاقات الدولية كعلم يدرس في الجامعات – ويهمنا في هذا المقام المعنى الأول .

وقد تطورت العلاقات الدولية بفعل التطورات المتلاحقة في حياة الجنس البشري حيث انتقل الإنسان من حالة الانخراط في مجتمعات بشرية بسيطة كالأسرة والعشيرة والقبيلة إلى مجتمعات بشرية أوسع نطاقا ، كالمدينة والولاية والدولة . ومع الاختلاط الدائم والاتصال المستمر بين الدول كان لابد من وسيلة لتنظيم العلاقات بين الدول ، ووضع القواعد القانونية لتلك العلاقات [2] .

3 – **القانون الدولي :**

هو مجموعة القواعد التي تنظم العلاقات الدولية ، وتحدد حقوق وواجبات كل دولة في حالي السلم والحرب .

وبتطور العلاقات الدولية تطور القانون الدولي وتعددت فروعه ، فأصبح يعالج مسائل شتى فهناك :

1 – القانون الجوي الدولي .
2 – القانون الدولي للبحار .
3 – قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية .
4 – قانون العمل الدولي .

وغيرها من القوانين التي تغطي كافة الأنشطة الدولية [3] .

---

(1) يراجع : قانون المنظمات الدولية / د. عبد العزيز مخيمر عبد الهادي / ص 3 : 8 ، ومسيرة النظام الدولي الجديد قبل وبعد حرب الخليج مرجع سابق / ص 13 : 18 .

(2) يراجع : أصول العلاقات السياسية الدولية / د . أحمد سويلم العمرى .
تحليل العلاقات الدولية / كارل دويتش / ترجمة : شعبان محمد محمود ، العلاقات الدولية بين النظرية والتطبيق د / . عبد المنعم ابراهيم البنداري ، المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية / د . محمد حسن الإبياري .

(3) يراجع في تفصيل ذلك : القانون الدولي العام د . علي صادق أبو هيف ، مبادئ القانون الدولي العام د . محمد حافظ غانم ، الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام . المستشار / علي منصور ، القانون الدولي العام / د . الشافعي محمد بشير .

4 – التنظيم الدولي :

بعد أن أدركت الدول مدى حاجتها إلى القواعد القانونية التي تنظم وتحكم العلاقات فيما بينها عادت وتبينت أنها لابد أن تقيم هياكل وأجهزة تشرف على تطبيق تلك القواعد ... وكانت البداية عندما قامت الدول بعقد العديد من المؤتمرات الدولية ، التي أسفرت عن اتفاقيات دولية لإقامة منظمات وأجهزة دائمة .

ولقد كان تنظيم الملاحة في الأنهار الدولية من أولى الحالات التي حظيت بتنظيم دولي ثابت ، ومن أمثلة ذلك : اللجنة الأوروبية للدانوب ، التي تشكلت بمقتضى اتفاقية « باريس » في عام 1856 م ، ولجنة الراين بمقتضى اتفاقية « مانهايم » عام 1868 م .

ثم تتابع التجاء الدول إلى إنشاء اتحادات دولية عامة لإنماء المرافق الدولية المختلفة من بينها :

* اتحاد البرق العالمي ، الذي أنشئ بمقتضى اتفاقية « باريس » 1865 م وقد تطور حتى أصبح في الوقت الحالي « الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية » .

* اتحاد البريد العام ، الذي أنشئ بمقتضى اتفاقية « برن » 1874 م للتغلب على الحواجز التي تقيمها الحدود القومية في وجه التبادل الحر للبريد . ثم تقرر في اجتماع باريس 1878 م أن يطلق عليه « اتحاد البريد العالمي » .

* مكتب النقل الدولي ، الذي أنشئ بمقتضى اتفاقية « برن » 1890 م للإشراف على نقل البضائع بالسكك الحديدية ، ولا يزال يباشر نشاطه حتى الآن .

* منظمة الأرصاد الجوية ، التي اتفقت الدول على إنشائها في مؤتمر « أوترخت » 1878 م وأصبحت تسمى الآن : « الهيئة العالمية للأرصاد الجوية » [1] .

وعلى المستوى السياسي تتابعت الجهود لإنشاء منظمة دولية على النطاق العالمي ، ولم يتحقق ذلك إلا في القرن العشرين ، حينما أنشئت عصبة الأمم في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولكنها فشلت في مهمتها ، ولم تنجح في منع نشوب الحرب العالمية الثانية ، التي نشأت في أعقابها منظمة الأمم المتحدة [2] .

---

(1) المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية – مرجع سابق – ص 51 - 52 / بتصرف .

(2) للوقوف على التفاصيل : يراجع : التنظيم الدولي : د . عائشة راتب ، التنظيم الدولي : د . إبراهيم العانى ، التنظيم الدولي : د . الشافعي بشير ، المنظمات الدولية : د . جعفر عبد السلام ، الحكومة العالمية : د . بطرس غالي ، سلسلة كتاب أكتوبر .

يفهم من هذا العرض أن التنظيم الدولي هو وجود منظمة تضبط حركة العلاقات بين الدول الأعضاء في المجتمع الدولي من خلال قواعد القانون الدولي ... قد تكون هذه المنظمة عالمية كالأمم المتحدة أو إقليمية كجامعة الدول العربية ، ومنظمة الوحدة الأفريقية ، ومنظمة الدول الأمريكية .. وغيرها .

بعد هذا الاستعراض الموجز لتلك المصطلحات ، يتبين أن « النظام الدولي » يشملها جميعا أما « التنظيم الدولي » فهو أخص من ذلك بكثير ، إذ أنه لا يعني سوى وجود منظمة دولية تنظم العلاقات الدولية بخلاف « النظام الدولي » الذي يتشكل من خلال تجسيد تفاعلات قوى عديدة على الساحة الدولية ، ليست المنظمة أو المنظمات الدولية ، إلا إحدى هذه القوى [1] بل بالتعبير الأصح هي أضعف هذه القوى ، لأن دفة تسييرها بيد القوى الأخرى ، وهي الدول الكبري صاحبة النفوذ في المنظمة الدولية ، والتي توجهها إلى حيث تريد [2] .

« فالمبدأ الذي أنشئ على أساسه النظام العالمي في عهد عصبة الأمم ، وفي عهد الأمم المتحدة والذي يقوم عليه النظام العالمي الآن ، يتلخص في أن القوي المنتصر في الحرب هو الذي يتحكم في السلم ، وهو الذي يهيمن على المنظمة الدولية التي أنشئت للمحافظة على السلم ، أي أن النظام العالمي ما زال من صنع المنتصرين في الحرب سواء في ذلك الحرب العالمية الأولى ، أو الحرب العالمية الثانية أو الحرب الباردة » [3] ومعنى هذا أن النظام الدولي « تقرره بالفعل قدرة الدول الكبرى وإمكاناتها ومصالحها المختلفة » [4] .

وتأسيسا على ما سبق ، يمكن وضع تعريف للنظام الدولي ، يجمع خلاصة التعريفات السابقة ويتدارك النقص الحاصل فيها ، ويميل إلى الإيجاز والوضوح ، فيقال في تعريفه : « هو مجموعة قواعد التعامل الدولي الناتجة عن التفاعلات : الدينية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعسكرية ، والثقافية ، الحاصلة بين القوى الدولية الكبرى وأثرها على العالم كله ، في مرحلة تاريخية معينة » .

---

(1) يقول د . عطية حسين أفندي : إن الأمم المتحدة أداة لا تعمل في فراغ وإنما في محيط اسمه النظام الدولي ، وهي مرآة للعلاقات السائدة في هذا النظام ، وتعكس ما فيه من صراع وتعاون ، تدهور وتحسن ... إلخ .
ينظر : الأمم المتحدة والتغيرات العالمية : د . عطية حسين أفندي / الأهرام 21 / 10 / 94 / ص 7 .

(2) سيأتي الحديث عن ذلك مفصلا في الفصل الأول من الباب الأول إن شاء الله .

(3) الجديد في النظام العالمي الجديد . مصدر سابق .

(4) النظام العالمي الجديد .. ملامح ومخاطر : د . شفيق المصري ص 34 .

وأحسب أن هذا التعريف هو الأولى بالقبول لما يلي :

1 - استوعب جميع التفاعلات التي تحدث بين القوى الكبرى ، وجعل الجانب الديني في مقدمتها .

2 - لم يسهب في بيان الوحدات المؤثرة في إطار النظام الدولي ، وإنما عبر عن الجانب الفاعل منها بـ « القوى الدولية الكبرى » وهو مصطلح يعبر به - كما يقول الدكتور حامد ربيع - عن « تلك العناصر التي تملك فاعلية التأثير في التعامل بين عناصر الأسرة الدولية ، بحيث تساهم بطريق مباشر أو غير مباشر في صنع القرار الدولي.. ويقصد بالقرار الدولي : أي قرار تتعدى آثاره المباشرة النطاق الداخلي أو القومي لدولة من الدول . » [1] وهذه العناصر المؤثرة في القرار الدولي تشمل الدول والأحلاف ، والتكتلات ، والمنظمات الحكومية أو غير الحكومية ... وغيرها .

3 - جعل الآثار الناجمة عن تفاعلات القوى الكبرى وتأثيرها على العالم كله ، من عناصر النظام الدولي .

هذا هو النظام الدولي عامة ، فماذا عن النظام الدولي الجديد بالتحديد ؟ ما المراد به ؟!

الإجابة عن هذا هي محور الحديث فيما يلي .. والله الموفق ..

---

(1) الإسلام والقوى الدولية : د . حامد ربيع / ص 32 , 33 بتصرف .

المراد بالنظام الدولي الجديد

من الأشياء المعتادة في حياة البشر إطلاق وصف « الجديد » على كل أمر حدثت فيه تطورات وتغيرات لم تكن موجودة من قبل .

والنظام الدولي أيضا ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، نتيجة حدوث تطورات جديدة في مراكز القوة الفاعلة على المسرح الدولي ... وفي كل مرة يطلق على المرحلة الجديدة وصف « النظام الدولي الجديد » حدث هذا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ثم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ثم عاد هذا المصطلح من جديد بعد التطورات المذهلة التي حدثت في المعسكر الشيوعي في النصف الثاني من عقد الثمانينات .

وسأتحدث فيما يلي عن هذه المرات الثلاثة التي استخدم فيها هذا المصطلح ، مع التأكيد هنا على ما ذكره الأستاذ / جميل مطر [1] من أن المراحل الدولية لا تبدأ من يوم محدد أو عام محدد ولا تنتهي عند يوم أو عام محدد ، فالباحثون يتفقون على أن مرحلة دولية جديدة أو أن نظاما دوليا جديدا قد نشأ ، ولكنهم يختلفون حول تحديد الحدث أو التطور الذي يمكن جعله بداية تاريخية للنظام الجديد ، ونهاية للنظام القديم ..

المرة الأولي : بعد نهاية الحرب العالمية الأولى :

لا شك أن النظام الدولي قد تغير كثيرا ومر بمراحل متعددة ، فلقد غير المسلمون الأوائل شكل النظام الدولي حينما قضوا على الإمبراطوريتين : الفارسية والرومانية ، وأصبحوا هم القوة الكبرى في النظام الدولي ، وأقاموا حضارة عظيمة عاش العالم كله في ظلالها الوارفة وخيراتها العميمة .. ثم تخلى المسلمون عن مقومات حضارتهم ففقدوا زمام القيادة ، وانتقلت إلى الحضارة المادية الغربية ، وتغير شكل النظام الدولي بصعود أسبانيا والبرتغال ، ثم إنجلترا وفرنسا ..

لاشك في هذه التغيرات كلها ، ولكننا لم نستعرض تفاصيلها ، لأن مدار البحث في

---

(1) في ندوة أقامها مركز دراسات العالم الإسلامي في مالطا ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة – تحت عنوان : العالم الإسلامي والمستقبل . وقام مركز دراسات العالم الإسلامي بنشر أعمالها في مجلد بنفس العنوان ضمن سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية (5) ص 79 / ط : الأولى / شتاء 1992 م .

هذا الموضع ليس استعراض التغييرات التي حدثت في النظام الدولي ، وإنما نستعرض هنا المرات التي استخدم فيها مصطلح « النظام الدولي الجديد » والمعنى المقصود منه في كل مرة أطلق فيها .

ولقد استخدم للمرة الأولى قرب نهاية الحرب العالمية الأولى حينما بات من الواضح انتصار الحلفاء على ألمانيا والدولة العثمانية .. فقد كان النظام الدولي قبل الحرب قائما على توازن القوى بين الدول الأوروبية الكبرى .. وكانت بريطانيا هي الطرف الأقوى في هذا النظام لحفظ هذا التوازن .. وبعد الحرب « تبنى أصحاب الرأي وقادة الفكر في المجتمعات الأوروبية الدعوة إلى بناء نظام دولي جديد على أساس تكريس الهيمنة والسيادة الأوروبية على العالم ، وتسخير عصبة الأمم لرعاية هذه السيادة وتنظيمها [1] .

من هنا يمكن القول بأن مصطلح « النظام الدولي الجديد » قد أطلق للمرة الأولى في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، مرادا به : وضع أسس جديدة للعلاقات الدولية ، تقوم على أساس الهيمنة الأوربية على العالم .

المرة الثانية : بعد نهاية الحرب العالمية الثانية :

دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب ، مما رجح كفة الحلفاء وأدى إلى هزيمة دول المحور (ألمانيا – إيطاليا – اليابان) .. وبعد انتهاء الحرب اجتمع قادة أمريكا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا في قمة « يالطا » (فبراير 1945) لإعادة رسم الخريطة العالمية وتوزيع مناطق النفوذ بين المنتصرين في الحرب .

وقد كان الالتقاء بين الدول الثلاث التقاء مرحليا دون جذور تاريخية ثابتة ، يضاف إلى ذلك أن هذه المجموعة لم تكن متجانسة من حيث تاريخ تحركها السياسي والاستراتيجي ، ولذلك لم تمض سنوات حتى تحول شكل النظام الدولي إلى القطبية الثنائية ، بعد تكوين حلف الأطلنطي (1949) وامتلاك الاتحاد السوفيتي القنبلة الذرية وتكوين حلف وارسو (1955) [2] .

وبقي العالم يرزح تحت نير هذا النظام ، الذي استطاع فرض نفوذه ، على جميع

---

(1) يراجع : الإسلام والنظام العالمي الجديد : مولاى محمد علي ، ترجمة : أحمد جودة السحار . ص 12 ، 13 . النظام العالمي الجديد « ملامح ومخاطر » مرجع سابق . ص 59 , 60 . تعيير العالم – مرجع سابق – ص 14 ، 15 ، 17 ، 18 .

(2) يراجع : تغيير العالم ص 24 : 29 .

الدول خارج نطاق المعسكرين ما بين تبعية لهذا المعسكر أو ذاك ، مما جعل الاستقلال الذي حصلت عليه دول العالم الثالث مجرد كلمة فارغة المضمون .

واندفع العالم إلى صراع محموم وتنافس رهيب على امتلاك أسلحة التدمير الفتاكة ، والدخول في حروب شعواء لمصلحة الطرف الشيوعي أو الرأسمالي ، الأمر الذي أدى إلى استنزاف الموارد البشرية والاقتصادية لشعوب العالم الثالث ، ووصولها إلى حالة من الفقر المدقع الذي لا تقوم لها معه قائمة .

ويتضح هذا الأمر جليا من خلال قراءة أرقام « الإنفاق على التسليح » وأرقام معدلات الفقر في العالم خلال الفترة من عام 1960 م إلى عام 1985 م . ففي هذه الفترة » أنفق العالم ما مجموعه (114) ألف مليار دولار على الشئون العسكرية ، كما بلغ الإنفاق العسكري في العالم عام 1986 وحده (900) ألف مليون دولار ، أي ما يعادل مليوني دولار كل دقيقة .. وكانت الحصيلة لهذا الإنفاق الهائل هي امتلاك العالم مخزونا من الأسلحة ومن القدرات التدميرية يقدر بحوالي (16) مليار طن من مادة (تي إن تي) شديدة الانفجار ، وهو معدل يوازي خمسة آلاف مرة ضعف جميع القدرات التدميرية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية .

لقد تسببت هذه الأسلحة الجديدة التي تم تطويرها بعد الحرب العالمية الثانية في مقتل (15) مليون نسمة ، في أكثر من (110) حربا أهلية اندلعت منذ عام 1945 ، ولا يزال أغلبها مندلعا في أكثر من بقعة في قارات العالم » [1] .

في هذا الوقت الذي ينفق فيه العالم مليوني دولار كل دقيقة على التسلح « هناك (2000) مليون نسمة من سكان الأرض مصنفون كفقراء ، منهم (450) مليون نسمة يعانون المجاعة المزمنة . كذلك ، في الوقت الذي يعاني فيه (800) مليون شخص من مرض الملاريا ، فإن النفقات العسكرية لنصف يوم فقط تكفي لعلاجهم جميعا ، بل إن نسبة واحد من الألف في المائة (0,001 ٪) من النفقات العسكرية تكفي للقضاء على هذا المرض كليا في العالم أجمع .. كما أن ثمن غواصة نووية (واحدة) يساوي إجمالي ما يطلبه العالم من أجل توفير التعليم لمائة وعشرين مليون طفل لا يحصلون على فرص التعليم ، وسيظلون أميين طوال حياتهم . » [2] .

(1) ينظر : العالم المعاصر والصراعات الدولية - مرجع سابق - ص 93 ، 94 .

(2) أزمة الحضارة : « جوزيف كاميللرى » ص 212 ط : وزارة الثقافة والإرشاد القومي . سوريا / 1983 م / د.ق بتصرف .

كما يموت أحد عشر مليون طفل بعد الولادة مباشرة بسبب نقص الرعاية الطبية ، ويوجد 600 مليون شخص عاطل عن العمل ، و 800 مليون يعانون من الأمية المطلقة ، في الوقت الذي ينفق فيه العالم على الأسلحة بلا حدود ، وينتج قنبلتين نوويتين في اليوم الواحد ، ويصنع صاروخا نوويا كل شهر من شهور السنة » [1] .

والأرقام والإحصائيات في هذا المقام كثيرة ، ولكن الأمر الأكثر مأساوية أن القوتين العظميين اللتين سيطرتا على النظام الدولي في ذلك الحين استخدمتا سلاح التجويع لإخضاع شعوب الجنوب الفقيرة وإذلالها .. « فلقد أصبح الغذاء في الوقت الراهن سلاحا أساسيا مستخدما ببراعة وبلا ضمير في تذويب مقاومة الشعوب الفقيرة ، وإخضاعها لسياسة الدول التي تمسك بمفاتيح مخازن الغلال في العالم .

وفي عالمنا العربي ، جربنا الابتزاز الغذائي أكثر من مرة ، كان أشهرها في السنوات القليلة التي سبقت حرب 1967 م . وكان هذا الابتزاز إحدى المقدمات الممهدة لقيام تلك الحرب .. وكل الدلائل تشير إلى أننا سنزداد تعرضا لهذا الابتزاز يوما بعد يوم ، لأن قدرتنا على إنتاج ما يكفي أعدادنا المتزايدة تقل يوما بعد يوم ، رغم أننا نملك الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة وجيوش الفنيين والفلاحين » [2] .

باختصار ، كان العالم في هذا الوقت عالما ثنائي القطبية ، توزعت فيه إمكانات العالم الفعالة بين قوتين متنافستين ومتسلطتين تسلطًا مطلقا [3] .

لابد من الإشارة والتأكيد هنا على أن التنافس بين القوتين العظميين كان يتحول إلى تعاون واتفاق تام ، حينما يتعلق الأمر بقضية تخص الإسلام والمسلمين ، وأبرز الأمثلة على ذلك مناصرتهما وتأييدهما للكيان الصهيوني الغاصب منذ اللحظة الأولى ، وأيضا الغزو السوفيتي الغاشم لأفغانستان المسلمة ، وغير ذلك من الأمثلة الدالة على أن النظام الدولي لم يكن يوما في صالح القضايا الإسلامية خاصة ، وقضايا الجنوب أو العالم الثالث عامة .

ولهذا .. أعجب حينما أرى بعض الباحثين يقرر أن التنافس بين القوتين العظميين

---

(1) يراجع : العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم – موريس غورنييه.

(2) ينظر : صناعة الجوع وخرافة الندرة ، تأليف : فرانسيس مورلابيه – جوزيف كولينز – ترجمة : أحمد حسان ص 6/ سلسلة عالم المعرفة (64) / الكويت . ويراجع في هذا المجال أيضا : أمريكا وصناعة الجوع ، لنفس المؤلفين بالاشتراك مع « ديفيد كينلي . ترجمة د / حسن أبو بكر . ص 23 وما بعدها .

(3) ينظر : الاستراتيجية والسياسة الدولية / د . إسماعيل صبري مقلد . ص 58 .

ونظام القطبية الثنائية ، كان يتيح فرصة للمناورة أمام دول الجنوب ، من خلال اللعب على حبال التناقضات بين المعسكرين « الشرقي والغربي » .. ويستدلون لذلك بحركة عدم الانحياز ومجموعة السبعة وسبعين وغيرها من التجمعات في دول الجنوب [1] . « والواقع أن هذه التجمعات لم تكن ذات تأثير يذكر لأن أغلب أعضائها كان في حقيقة الأمر هذا المعسكر أو ذاك ..

والحق الذي لا جدال فيه ، أن النظام الدولي ثنائي القطبية كان وبالا على دول العالم الثالث من كافة الوجوه ، والأرقام التي سبق ذكرها تدل على ذلك أوضح دلالة .

الدول النامية تطالب بنظام دولي جديد عادل ورشيد :

إزاء الظلم الصارخ الذي حاق بالدول النامية ، رفعت عقيرتها منادية بنظام عالمي جديد يرفع هذا الظلم والعناء عن كاهلها :

* نظام عالمي جديد : يعكس – بقراراته السياسية – الأكثرية العددية للرأي العام الدولي .

* نظام عالمي جديد : يتضمن مشاريع إنمائية اقتصادية ، تردم الهوة بين الشمال والجنوب ، وتمكن الجنوب من تحقيق إنمائه الذاتي وضمان أمنه الاجتماعي والاقتصادي .

* نظام عالمي جديد : يعدل منطق « الفيتو » [2] الذي بسط مزاجه الكيفي على السياسة الدولية إلى منطق الحوار المثمر بين الشمال والجنوب .

* نظام عالمي جديد : يحترم إرادة الشعوب ، وينفذ القرارات التي اتخذتها « الجمعية العامة للأمم المتحدة » بصدد إدانة الاستعمار ، واستقلال جميع الشعوب ، وتقرير مصيرها السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي تحت رعاية منظمة دولية قادرة وفاعلة » [3] .

* نظام عالمي جديد : ينهي الاحتكار الثقافي والإعلامي الذي يمارسه الشمال ، لفرض اتجاهاته وأفكاره وأنماط حياته .

---

(1) من هؤلاء الباحثين : د. علي الدين هلال . ينظر : حول مستقبل النظام الدولي . ندوة العالم الإسلامي والمستقبل مرجع سابق ص 31 . د / برهان غليون . ينظر : ندوة العالم الإسلامي والمستقبل ص 90 . د . شفيق المصري في : النظام العالمي الجديد « ملامح ومخاطر . ينظر ص 134 , 135 . الرئيس الجزائري السابق الشاذلي بن جديد ينظر ص 174 ، 175 من كتاب أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد « مارسيل ميرل » ترجمة : د / حسن نافعة . سلسلة دراسات أزمة الخليج (4) الأولى 1992 م .

(2) حق الـ « فيتو » أي النقض أو الاعتراض ، هو حق منحه ميثاق الأمم المتحدة للدول الخمسة دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي وهي حاليا : الولايات المتحدة الأمريكية – روسيا – بريطانيا – فرنسا – الصين ، وهو حق يمكن أي دولة من هذه الدول من تعطيل وعرقلة وإلغاء أي قرار للمجلس .

(3) النظام العالمي الجديد « ملامح ومخاطر » ص 14 .

بدأت الدول النامية تحركها النشط في هذا الاتجاه على كافة الأصعدة الفكرية والاقتصادية والإعلامية والسياسية ..

وسأتحدث فيما يلي عن بعض الجهود التي بذلتها الدول النامية لتحقيق هدفها المأمول وغايتها المرجوة :

1 – على الصعيد الفكري :

بدأ استخدام هذا المصطلح منذ الخمسينيات ، وكان للمفكرين المسلمين دور رائد في بلورة وتأصيل فكرة نظام دولي جديد ، يقي البشرية المخاطر والآلام التي تحدق بها من جراء الاندفاع خلف الصراعات ، والسعي لتكديس الأسلحة الفتاكة وتطوير قدراتها التدميرية .. فلقد كان السبق في هذا المضمار للمفكر الجزائري الراحل « مالك بن نبي » في كتابه « الفكرة الأفرو أسيوية » .

وتأثر بهذه الأفكار الفيلسوف البريطاني الراحل « برتراندرسل » حيث نشر في عام 1961 م كتابه « هل للإنسان مستقبل ؟! » وحذر فيه من فناء الجنس البشري ما لم يقم نظام عالمي جديد ، خال من الأسلحة الذرية ، ويستند إلى العدالة والمبادئ ، لا إلى القوة والتهديد »[1] .

وفي أواخر السبعينيات ، قامت منظمة اليونسكو[2] ، التي كانت آنذاك تحت تأثير إدارة من العالم الثالث – بتكليف عدد من العلماء للقيام بدراسات وأبحاث وسلسلة من المؤلفات عن الحاجة الملحة إلى نظام عالمي جديد ... وكان في مقدمة تلك المؤلفات كتاب أعده عضو لجنة القانون الدولي في الأمم المتحدة ، الباحث والوزير الجزائري د .محمد بوجاوي[3] .

كما أن اليونسكو أيضا ، جعلت عنوان العدد الرابع والثلاثين من المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، الصادر في الربع الأول من عام 1979 م « نحو نظام عالمي جديد » تضمن

(1) ينظر : النظام الدولي بين المقصود والمنشود : محمد خليفة ص 9 , 10 سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية (7) ط : الأولى – ربيع 1992 م .

(2) منظمة اليونسكو هي : إحدى المنظمات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة وهذا الاسم مكون من الأحرف الأولى للكلمات التي يتشكل منها اسم هذه المنظمة باللغة الإنجليزية واسمها بالكامل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة . وقد أصدرت هذه المنظمة عدة موسوعات عن تاريخ الإنسانية ، فيها الكثير من الأخطاء والمغالطات والمفتريات على الإسلام – يراجع في هذه المسألة : مفتريات اليونسكو على الإسلام / محمد عبد الله السمان ، كما يراجع أيضا : العرب واليونسكو د . حسن نافعة ص 45 ، 46 . سلسلة عالم المعرفة (135) يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت .

(3) ينظر : النظام الدولي بين المقصود والمنشود . ص 10 .

عددا من الأبحاث المتعلقة بمبادئ نظام عالمي جديد ، ترغب الدول النامية في تشكيله » [1] .

2 – على الصعيد الاقتصادي :

ينص البند الأول من ميثاق منظمة الأمم المتحدة على الأخذ بأيدي الشعوب الفقيرة للسير في قافلة التقدم وركب الحضارة ... ولكن النظام الدولي كان يعمل في اتجاه معاكس ، إذ اتجهت دول الشمال إلى انتهاج سياسات كان من شأنها توسيع الفجوة الحاصلة بين الأغنياء والفقراء ..

ونتيجة لهذه السياسات الغاشمة أصبح « العالم يضم شعوبا غنية متخمة بالغنى على حساب شعوب أخرى فقيرة أشد الفقر وبائسة أشد البؤس . فأغنياء العالم يشكلون 25 ٪ من سكانه لكنهم يتمتعون بـ 80 ٪ من ثرواته .. أما فقراء العالم فيشكلون 75 ٪ من إجمالي سكان الأرض ولا يملكون سوى 20 ٪ فقط من خيراتها .. لذلك فإن ثمانية من كل عشرة من سكان الأرض لا يشاركون ولا يتمتعون مطلقا بما حدث من تقدم مادي ، ومن رفاهية اجتماعية وحياتية في عالم اليوم [2] .

ويعترف رئيس البنك الدولي « باربر كونابل » بأن البؤس الذي يسود كوكبنا فضيحة أخلاقية وعار ، لا من الزاوية الإنسانية فقط ، بل من الزاوية الاقتصادية أيضا [3] .

نعم .. إنها فضيحة بكل المقاييس .. فالإحصائيات تؤكد وجود (1000) مليون نسمة من بينهم مليون طفل – يعيشون في حالة نقص تغذية ومجاعة مزمنة ، وقد تحولت حياتهم إلى بؤس يومي قاتل ، وهم يعيشون فقط لأنهم غير قادرين على الموت طوعا .. إن 800 مليون فرد من هؤلاء فقراء بكل معايير الفقر ، التي تشمل انعدام المأوى والرعاية الصحية ، والخدمات الأولية الضرورية ، والتعليم ، بالإضافة إلى انعدام الملكية وانعدام الدخل [4] .

لهذا كله ، كان لابد أن تتحرك الدول النامية ، وأن تبذل قصارى جهدها لتعديل هذا الوضع السيئ ، فتقدمت 77 دولة – على رأسها الجزائر – بمقترحات إلى دورة

(1) حول التحيز في مفهوم النظام العالمي الجديد / مرجع سابق / ص 62 - 63 .

(2) العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم – مرجع سابق – ص 148 .

(3) بين النظام المقصود والنظام المنشود – نظام عالمي جديد أم نظام حياة جديد ، بحث للأستاذ : محمد خليفة . ندوة العالم الإسلامي والمستقبل . ص 43 .

(4) العالم الثالث وتحديات البقاء . جاك لوب – ترجمة أحمد بلبع (ص 7) . سلسلة عالم المعرفة (104) الكويت . 1406 هـ – 1986 م .

الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1974 م تحت عنوان « إعلان حول إقامة نظام اقتصادي جديد » وقد شكلت الجمعية العامة لجنة خاصة لدراسة هذا الإعلان ، دارت خلال المناقشات مناوشات حامية بين دول العالم الثالث والدول الصناعية الكبرى التي اعترضت على كثير من المقترحات ، ووصلت اللجنة الخاصة في النهاية إلى حلول وسط قدمتها إلى الجمعية العامة في دورتها الطارئة السادسة حيث وافقت عليه ، وأصدرت في أول مايو 1974 م ما أسمته « إعلان بإقامة نظام اقتصادي دولي جديد » ، جاء فيه :

« نحن أعضاء الأمم المتحدة .. نعلن تصميمنا الموحد على العمل – على وجه الاستعجال – من أجل إقامة « نظام اقتصادي دولي جديد » ، مبني على الإنصاف وتساوي جميع الدول في السيادة ويكون من شأنه تصحيح الفروق ومعالجة المظالم القائمة ، وتقريب المسافة الشاسعة بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية ، وكفالة الإنماء الاقتصادي والاجتماعي المطرد [1] .

وقد وضع الإعلان مبادئ يقوم عليها هذا النظام الاقتصادي الدولي الجديد ، تمثل بعض المطالب والأماني الخاصة بالشعوب الفقيرة وهي :

1 – تعاون جميع الدول على أساس من الإنصاف بما يكفل إزالة الفوارق السائدة في العالم وضمان الرخاء للجميع .

2 – حق كل بلد في الأخذ بالنظام الاقتصادي والاجتماعي الذي يراه أكثر ملاءمة لإنمائه .

3 – سيطرة كل دولة على مواردها الطبيعية سيطرة فعلية ، واستغلالها بالكيفية التي تراها ، بما في ذلك حقها في التأميم أو نقل الملكية إلي مواطنيها .

4 – حق جميع الدول والأقاليم ، والشعوب الواقعة تحت الاحتلال الأجنبي ، أو السيطرة الأجنبية أو الاستعمارية أو التمييز العنصري ، في استرداد مواردها الطبيعية وجميع مواردها الأخرى والحصول على تعويض كامل عن استغلالها واستنزافها وإلحاق الضرر بها .

5 – تنظيم ومراقبة الشركات الأجنبية بما يخدم مصلحة الاقتصاد الوطني .

6 – مد يد المساعدة للبلدان النامية ، والشعوب والأقاليم الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية والأجنبية .

---

(1) ينظر : التنظيم الدولي . د / الشافعي بشير . مرجع سابق ، ص 74 ، 75 .

7 – إقامة علاقة عادلة منصفة بين أسعار المواد التي تصدرها الدول النامية وأسعار المواد التي تستوردها من الدول المتقدمة .

8 – توفير المساعدات غير المشروطة للدول النامية .

9 – إصلاح النظام النقدي الدولي .

10 – تمكين البلاد النامية من الحصول على منجزات العلم والتكنولوجيا العصرية .

وجاء في نهاية هذا الإعلان : « إن جميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة مدعوة إلى بذل أقصى الجهود ، بغية تنفيذ هذا الإعلان ، الذي يمثل أحد الضمانات الأساسية لخلق ظروف أفضل يتاح فيها لجميع الشعوب التوصل إلى حياة جديرة بكرامة الإنسان » .

كما أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في أول مايو 1975 م ، البرنامج العملي التنفيذي لهذا الإعلان ، تضمن عرضا للمشكلات التي تواجهها الدول النامية ، والحلول الناجحة لها ، بما يضمن تقريب المسافات الشاسعة التي تفصلها عن الدول الصناعية المتقدمة » [1] .

ولكن سفينة هذا المشروع العظيم تحطمت على صخرة تعنت الدول الصناعية الغنية ، التي رأت فيه خطرًا داهما على مصالحها ومكانتها ورفاهية مواطنيها ، فنجحت في تفريغ الإعلان من مضمونه الجوهري ، وجعله مجرد حبر على ورق .. وتبدد الحلم الجميل الذي كانت الدول النامية تسعى لتحقيقه . وأنَّى لها بلوغ مرادها المشروع في ظل حضارة مادية ، لا تقيم للفقراء وزنا ، ولا تأبه بصرخات الجوعى وأنين المحرومين ، ولا تمدُّ يدها لتسعف مريضا يتلوى من شدة الألم ولا يجد كسرة خبز يقيم بها أود حياته ولا قارورة دواء تسكن آلامه .

ولم تيأس دول الجنوب الفقيرة ، بل عاودت الكرة مرات ومرات ، مطالبة بنظام اقتصادي عالمي عادل وبالمقابل ، ما فتئت الدول الكبرى تجهض كافة المحاولات في هذا الاتجاه .

3 – على الصعيد الإعلامي :

لم تكتف دول الشمال بفرض هيمنتها السياسية والاقتصادية على بلدان الجنوب النامي ، وإنما أضافت إلى ذلك جانبا أكثر خطورة وأعظم أثرا ، وهو جانب الهيمنة

---

(1) ينظر : المرجع السابق ص 75 - 77 .

الإعلامية والثقافة .

« تكمن خطورة هذا التحدي الثقافي في توظيف دول الشمال لإمكاناتها التقنية الضخمة ووسائل الإعلام ، وقنوات الاتصال المختلفة ، لكي تخضع ثقافات الجنوب لتوجيهات الشمال وقناعاته الفكرية الخاصة ... كما يقوم الشمال بتصدير تجربته الحياتية والحضارية والتنموية ، ويعمقها عالميا ويصورها على أنها التجربة الحياتية الناجحة والمثالية ، والتي تستحق أن تكون نموذجا جديرا بالاقتباس والمحاكاة ... فهو يوظف الإعلام والثقافة والعلم لخدمة أهداف هيمنته على العالم المعاصر » [1] .

والأمر الأكثر خطورة يتمثل في أن « الهيمنة الثقافية لا تفرض فرضا من قبل الدول الاستعمارية وإنما يتم قبولها – تدريجيا وطوعا – من الفئات الحاكمة ، التي تقوم بعد ذلك بترويجها بين شعوب الجنوب ، ولا يكتفي الشمال بهذا القبول الطوعي لقناعاته وتصوراته الثقافية والفكرية وإنما يقوم بتعزيزه وترسيخه مستعينا على ذلك بالشركات متعددة الجنسيات ، ومؤسسات الإعلانات الدولية ووكالات الأنباء العالمية ، وبجيش هائل من الفنيين والخبراء وعلماء النفس ، ومن الذين يتقنون فن تزييف الوعي وترويض العقول » [2] .

وأبرز مظاهر الهيمنة الثقافية « أن أربع وكالات أنباء رأسمالية هي : (رويتر – وأسوشيتدبرس ويونايتدبرس ، وفرانس برس) تحتكر – فيما بينها – (80 %) من إجمالي تدفق المعلومات العالمية وتكرس هذه الوكالات (80 %) من أنبائها لدول الشمال .. وتتصدر وكالات ومؤسسات الأنباء التابعة للولايات المتحدة ، موجة الهيمنة الثقافية والإعلامية في العالم ، حيث إنها تسيطر على 75% من إجمالي الإنتاج العالمي من البرامج التلفازية ، و 90 % من المعلومات المخزنة في الحاسبات الإلكترونية [3] .

لاحظت دول العالم الثالث هذا الاختلال الخطير في الميزان الإعلامي بين الشمال والجنوب فكان لابد من تحرك سريع لمواجهته .. وبدأت تلوح في الأفق فكرة إنشاء نظام عالمي جديد في مجال الإعلام وكانت حركة عدم الانحياز صاحبة المبادرة في هذا الاتجاه منذ بداية السبعينيات حيث أشارت إليه قمة الجزائر لدول الحركة عام 1973 م ثم تبني

---

(1) العالم المعاصر والصراعات الدولية ص 206 ، 207 .

(2) المتلاعبون بالعقول – هربرت شيللر . ترجمة عبد السلام رضوان . سلسلة عالم المعرفة (106) / سنة 1406 هـ 1986 م ، كما يراجع : العرب والنموذج الأمريكي د . فؤاد زكريا .

(3) العالم المعاصر والصراعات الدولية ص 208 .

ملتقى خبراء الإعلام في دول الحركة الذي عقد في تونس ، وضع تصور لنظام إعلامي عالمي جديد ، صادق عليه وزراء الإعلام ، ووافقت عليه قمة كولومبو في أغسطس 1976 م .

ثم انطلقت الفكرة إلى ساحة المنظمات الدولية ، حيث تبني المؤتمر العام التاسع عشر لليونسكو المنعقد في نيروبي عام 1976 م برنامجا يعطي الأولوية للإجراءات الرامية إلى تقليص الفارق في ميدان الإعلام ، بين الدول الصناعية والدول النامية ، وأقر المؤتمر إنشاء لجنة دولية لمعالجة قضايا الاتصال .

وفي عام 1978 أقر المؤتمر العشرون لليونسكو لائحة يؤيد بمقتضاها مبدأ إرساء نظام عالمي جديد للإعلام والاتصال ، ويدعو المدير العام إلى مواصلة الجهد من أجل تحقيق هذا النظام الجديد .

وبعد أقل من شهر أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثالثة والثلاثين لائحة مماثلة تؤكد بوضوح ضرورة إرساء نظام عالمي جديد للإعلام والاتصال ، وتساند الجهود المبذولة من أجل إرساء هذا النظام ، وتؤكد الدور الأساسي لأجهزة الأمم المتحدة في سبيل تحقيق هذا الهدف ، ومن الجدير بالذكر هنا أن المفكرين المسلمين كان لهم دورهم البارز في بلورة وتأصيل فكرة النظام العالمي الجديد للإعلام والاتصال ، فلقد كان وزير الإعلام التونسي السابق الدكتور / مصطفى المصمودي أحد الأعضاء البارزين في اللجنة الدولية التي كلفتها منظمة اليونسكو في سنة 1977 م ، بدراسة القضايا الدولية لمشكلات الإعلام ، ووضع أسس النظام الإعلامي العالمي الجديد ، وقد قام بتأليف كتاب تناول فيه هذا الموضوع بمختلف جوانبه [1] .

وظنت الدول النامية أنها حققت أهدافها ، وأن حلمها الجميل لتحقيق العدالة الإعلامية سيتحول إلى واقع ملموس خاصة وأن الجمعية العامة للأمم المتحدة قد تبنت هذه القضية .

ولكن الحقيقة أن مشروع النظام العالمي الجديد للإعلام والاتصال لم يكن أسعد حظا من توأمه الاقتصادي ، إذ هبت الدول الكبرى وشحذت أسلحتها لتحكم على المشروع الوليد بأن يقتل في مهده وأن يلحق بسابقه ، ليذهبا سويا إلى أدراج النسيان وزوايا الإهمال .

4 - على الصعيد السياسي :

دأبت الدول النامية على المناداة بنظام عالمي جديد يرفع عن كاهلها - كما سبقت

(1) النظام الإعلامي الجديد . د : مصطفى المصمودي . سلسلة عالم المعرفة (94) أكتوبر 1985 م .

الإشارة إليه – الظلم والمعاناة . وكان لحركة عدم الانحياز أيضا الدور الرائد في هذا المضمار ... ومن يتتبع « المقررات والتوصيات التي صدرت عن حركة عدم الانحياز في جميع مؤتمراتها يجد أن تلك العبارة (الحاجة إلى نظام عالمي جديد) شكلت لازمة ثابتة في خطاب الحركة الموجهة إلى النظام الدولي مطالبا بالتغيير والتطوير السلمي له ، وتوسيع قاعدة الشراكة الدولية » [1] .

ومن أمثلة ذلك : ما جاء في القرار الذي صادقت عليه اللجنة السياسية في مؤتمر قمة هافانا لدول الحركة عام 1979 م حيث أكد أهمية الكفاح من أجل إرساء علاقات عالمية جديدة [2] .

كما جاء في مقدمة التقرير المسمى بتقرير لجنة الجنوب : « إن عالما ينعم ربعه بالرفاهية ويعاني ثلاثة أرباعه من الحرمان لا يمكن أن يقدم أساسًا ثابتًا للأمن والسلام ، بل يصدق هذا بشكل أعمق في زمن تتسع فيه الفوارق بين الأغنياء والفقراء . إن الدواعي التي تحتم السير نحو عالم يقل فيه التفاوت ما برحت تشتد باستمرار » [3] .

يستخلص مما سبق أن مصطلح « النظام الدولي الجديد » قد استخدم للمرة الثانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، تعبيرا عن حدوث تغيير في شكل النظام الدولي الذي كان سائدا في فترة ما بين الحربين .. من الهيمنة الأوروبية – خاصة الإنجليزية والفرنسية – إلى نظام « ثنائي القطبية » بين المعسكرين : الشرقي الشيوعي ، والغربي الرأسمالي (وهما وجهان لعملة واحدة هي الحضارة المادية الغربية) .

ويستخلص أيضا أن الدول النامية وشعوب الجنوب قد دأبت على المطالبة بتغيير سلمي لهذا النظام لما جرّه على الشعوب الفقيرة من خراب ودمار شديدين .. وأن الدول الكبرى – خاصة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي – قد حاربت بشدة هذه التطلعات ، ووقفت لها بالمرصاد رغم أنها مطالب مشروعة حظيت بتأييد المنظمات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة .

* * *

المرة الثالثة : في منتصف الثمانينيات :

بدأ مصطلح « النظام الدولي الجديد » يعود للظهور من جديد في وسائل الإعلام بعد

(1) النظام الدولي بين المقصود والمنشود ص 9 بتصرف .

(2) من مقدمة د . محمد الرميحي لكتاب النظام الإعلامي الجديد ص 8 .

(3) حول التحيز في مفهوم النظام العالمي الجديد ص 63 .

حدوث الوفاق الدولي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وبين الولايات المتحدة والصين أيضا في بداية السبعينيات .. » [1] ولكن المصطلح شاع استخدامه كثيرا بعد وصول « ميخائيل جورباتشوف » إلى قمة السلطة في الاتحاد السوفيتي وإعلانه عن سياسة إعادة البناء الداخلي ، التي بينها في كتابه الشهير (البيروسترويكا) حيث تحدث عن تغيير الوضع العالمي قائلا : « إن سباق التسلح عبثي وانتحاري . ولذلك فإن الطريق الوحيد المفضي إلى الأمن هو طريق الحلول السلمية ، طريق نزع السلاح .. الأمن كل لا يتجزأ ، وبإمكانه أن يكون أمنا متكافئا أولا يكون البتة ، وأساسه البين هو الاعتراف بمصالح كافة الشعوب ... ومن الضروري تغيير الوضع العالمي ، وبناء عالم خال من السلاح النووي ، وخال من العنف والإكراه والخوف والشك ... » [2] .

وظل جورباتشوف يتحدث عن النظام الجديد الذي يخلف الحرب الباردة ، ويستند إلى الوفاق وانتهاء خطر المواجهة بين الشرق والغرب .. ولكن مصطلح « النظام العالمي الجديد » لم يصبح متداولا على هذا النطاق الواسع عالميا ، إلا بعد نشوب أزمة الخليج الثانية ، واتجاه الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش إلى الحديث عنه والتأكيد عليه مرارا وتكرارًا [3] .

فلقد دأب منذ ذلك الحين على الحديث عن نظام عالمي جديد . وكانت المرة الأولى التي تحدث فيها عن هذا النظام كهدف للسياسة الخارجية الأمريكية والتي يمكن اعتبارها بمثابة الإعلان الرسمي له في 11 سبتمبر أيلول من عام 1990 م [4] حينما قال في خطابه أمام الكونجرس الأمريكي : « إننا نتطلع إلى نظام عالمي جديد يصبح أكثر تحررا إزاء التهديد بالإرهاب ، وأكثر مناعة في إقرار العدالة ، وأكثر أمنا في السعي من أجل السلام .. إننا نتطلع إلى عالم جديد ، يسوده القانون بدلا من شريعة الغاب وتعترف فيه الأمم بمسئولياتها المشتركة في تحقيق الحرية والعدالة » [5] .

كانت هذه الكلمات بداية انطلاق مصطلح « النظام العالمي الجديد » بقوة إلى وسائل الإعلام وانتشاره على نطاق واسع دون تحديد دقيق للمراد به .. وقد حاولت كل

---

(1) ينظر : بين النظام المقصود والنظام المنشود – مصدر سبق ذكره – ص 38 .

(2) النظام العالمي الجديد – ملامح ومخاطر – ص 18 .

(3) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1991 م – ص 81 . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية مؤسسة الأهرام بالقاهرة سنة 1992 م .

(4) ينظر : النظام العالمي الجديد .. أفلح إن صدق . ستيفانو سلفستري . ترجمة : أحمد شوقي جلال . الثقافة العالمية . العدد (54) . (ص 151) .

(5) النظام العالمي الجديد . ملامح ومخاطر ص 65 .

من مجلة « تايم » الأمريكية وصحيفة « الجارديان » البريطانية تحديد معنى دقيق لما أعلنه الرئيس « بوش » عن قيام « نظام عالمي جديد » واستكتبت كل منهما عددا من المفكرين والكتاب حول هذا الموضوع فاتسمت جميع الإجابات برأي مشترك يفيد أن المصطلح غامض وقابل للتفسير على أكثر من وجه » [1] .

وظل الوضع على هذا الحال إلى أن بين الرئيس الأمريكي مقصده ومفهومه للنظام الجديد في مناسبة أخرى .. ولكن قبل عرض هذه النظرة أو الرؤية الأمريكية للنظام الدولي الجديد يحسن استعراض نظرة أو رؤية الدول الكبرى الأخرى لهذا النظام بهدف التعرف على وجهة نظرهم لمقارنتها بالنظرية الأمريكية بعد ذلك .

والواقع أن التعرف على رؤية هذه الدول وتصورها للنظام الدولي الجديد يقتضي بيان موقف هذه الدول في أزمة الخليج الثانية ، والدور الذي لعبته كل دولة من هذه الدول فيها .. إذ أنه مع الاقتناع التام بأن هذه الأزمة ليست سبب النظام الدولي الجديد وحدها ، إلا أنه – في الوقت ذاته – لا يمكن الشك في « أن شعار » النظام العالمي الجديد « هو شعار تم صَكُّه وتعليبه أثناء أزمة الخليج وارتبط بها ارتباطا عضويا » [2] . وكما يقول المفكر الفرنسي « مارسيل ميرل » : « من الصعب أن نحدد على وجه الدقة ، صاحب الفضل في إطلاق صاروخ « النظام العالمي الجديد » إلى السوق الإعلامية إذ يبدو أن هذه الصيغة هي نتاج لجهد مشترك كان بسببيله إلى إعداد « وجبة » بعض مكوناتها معروفة سلفا ، ولكن الغزو العراقي وحده هو الذي ساعد على إنضاجها على هذا النحو » [3] .

ولقد استعرض « ميرل » مواقف الدول الكبرى من العدوان العراقي على الكويت ، ورأى أن الظروف الاستثنائية للحدث ساهمت بشكل فعال في إتمامه على النحو الذي حدث به ، كما ساهمت في تحديد الدور الذي لعبته كل دولة على حدة :

فبريطانيا : ترتبط مع الولايات المتحدة بعلاقات خاصة تجعل التطابق بينهما في التوجهات والمواقف أمرا منطقيا ومعقولا .

وفرنسا : كانت حريصة على تأكيد خصوصية موقفها وبعده عن الانسياق الكامل وراء الموقف الأمريكي ورأت في أزمة الخليج فرصة لتلعب دورا عالميا ، يفند حجة

---

(1) يراجع : النظام الدولي بين المقصود والمنشود ص 13 - 15 .

(2) من مقدمة د . حسن نافعة لكتاب أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 16 / بتصرف يسير .

(3) المرجع السابق ص 74 . بتصرف يسير .

المطالبين بتعديل مجلس الأمن على نحو قد يؤدي إلى فقدان مكانتها في الأمم المتحدة ومقعدها الدائم في مجلس الأمن .

والاتحاد السوفيتي (سابقا) : رأى في هذه الأثناء ألا يقف موقف الند أو المعارض ، بل حرص على إظهار التوافق التام والانسجام الكامل مع التوجهات الغربية ، حرصا على الدعم الاقتصادي والمعونات المالية ، إلى ضمان سكوت الدول الغربية عن طريقته في مواجهة النزعات الانفصالية في دول البلطيق .

والصين الشعبية : انتهجت في معالجتها للأزمة أسلوبا يؤدي إلى إنهاء عزلتها الدولية بعد الأحداث الطلابية عام 1989 م وكذلك الحصول على الاستثمارات الغربية .

ويخلص « مارسيل ميرل » من ذلك بنتيجة يعبر عنها بقوله : إن استعراض وجهة نظر الدول دائمة العضوية على النحو السابق بيانه ، يظهر بوضوح أن عملية البحث عن « نظام عالمي جديد » بدأت بداية سيئة ، فالصين تتعمد أن تنأى بنفسها بعيدا ، وبريطانيا تتجنب الدخول في حلبة نقاش يتجاوز ما هو مطلوب للتعامل مع العراق ، ويؤثر على صياغة المستقبل ككل .

أما بالنسبة للثلاثة الآخرين فعلى الرغم من استخدامهم لنفس المصطلح ، إلا أن كلا منهم يفهمه على طريقته ولديه زاوية خاصة لما يتعين أن يكون عليه النظام الدولي في المستقبل - فالأمريكيون ينظرون إلى النظام الدولي الجديد على أنه انتصار لمفهوم السلام الأمريكي ، بينما يرى فيه السوفيت ضمانا للهيمنة الثنائية الأمريكية - السوفيتية المشتركة ، في الوقت الذي يعتقد فيه الفرنسيون أنه يمكن أن يضفي عليهم وضعا متميزا ، ويضمن لهم مشاركة أكثر فعالية في تصريف الشئون الدولية » [1] .

النظرة الأمريكية للنظام الدولي الجديد :

بعد التعرف على وجهات نظر الدول الكبرى حول النظام الدولي الجديد من خلال التحليل السابق أريد أن ألقي هنا مزيدا من الضوء على النظرة الأمريكية بالتحديد .. لأن الولايات المتحدة هي التي تولت إعلان ولادة هذا النظام .

واستخلاص النظرة الأمريكية للنظام الدولي الجديد ليس بالشيء العسير إذ يكفي أن يتمعن الباحث قليلا في أقوال وتصريحات الرئيس « جورج بوش » ليدرك من خلالها

---

(1) يراجع : المرجع السابق ص 119 : 169 .

الرؤية الأمريكية لهذا النظام ... فبعد أن أعلن الرئيس « بوش » ميلاد « النظام العالمي الجديد » خلال خطابه في الكونجرس الأمريكي كما مضى بيانه عاد ليفصح عن قصده ، ويكشف الجوهر الحقيقي لهذا النظام في خطاب ألقاه في إحدى القواعد العسكرية ، أثناء زيارته لها في 13 أبريل 1991 ، حيث قال : « إن النظام العالمي الجديد لا يعني تنازلا عن سيادتنا الوطنية ، أو تخليا عن مصالحنا . إنه ينم عن مسئولية أملتها علينا نجاحاتنا [1] .

ويزداد الأمر وضوحًا في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في 23 من سبتمبر 1991، إذ أفاض في الحديث عن فضائل النظام العالمي الجديد ومزاياه ، ثم ختم خطابه قائلا : « ...وأخيرا لعلكم تتساءلون عن دور أمريكا في العالم الجديد الذي وصفته ، دعوني أؤكد لكم أن الولايات المتحدة لا تنوي النضال من أجل سلام يتحقق وفقا للتصور الأمريكي ، إلا أننا ننوى أن نبقى عاملين ولن نتقهقر وننسحب وننعزل ، إننا سنقدم صداقة وقيادة .. » [2] .

بتحليل بسيط لهذه الفقرة وللفقرة المستقاة من خطابه الآخر ، يتبين أن الولايات المتحدة تنظر إلى النظام الدولي الجديد على أنه يعني انفرادها بقمة النظام الدولي ، وسيطرتها الكاملة على حلبة السياسة الدولية ، خاصة بعد تحلل الاتحاد السوفيتي وزواله من الوجود رسميا في نهاية عام 1991 وتفكك المعسكر الشرقي باندثار الشيوعية ، وانهيار حلف وارسو .

ولئن كانت أقوال بوش السابقة مغلفة بغلاف دبلوماسي حذر ، فإن خطابه أمام الكونجرس في 29 / 1 / 1991 م يكشف عن المعنى السابق بما لا يدع مجالا للشك ، إذ قال يومئذ : « كانت الولايات المتحدة على مدى قرنين من الزمان هي مثل العالم الأعلى في الحرية والديمقراطية ، وقد حملت أجيال متعددة راية النضال للحفاظ على الحرية وتعظيم المكاسب التي حققتها .. واليوم – وفي عالم يتحول بسرعة شديدة – فإن زعامة الولايات المتحدة لا غنى عنها » [3] .

وفي مناسبة أخرى يتحدث في زهو وغرور قائلا : « لقد أنقذنا أوروبا ، وتغلبنا على الشلل ووصلنا إلى القمر ، وأضأنا العالم بثقافتنا .. والآن ، ونحن على مشارف قرن جديد ، نسأل : لمن سينسب هذا العصر ؟! .. إنني أؤكد أنه سيكون عصرا أمريكيا آخر .. [4] » .

---

(1) النظام العالمي الجديد – ملامح ومخاطر – ص 65 .

(2) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 – ص 31 .　　(3) أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 127 .

(4) ما الجديد في النظام الدولي : افتتاحية مجلة مستقبل العالم الإسلامي . السنة الثانية . ع 8 خريف 1992 ، ص 3 .

من هنا يتبين أن تصريحات بعض المسؤلين في الولايات المتحدة عن عدم وضوح المقصود بالنظام الدولي الجديد ، مجافية للحقيقة ، فالنظرة الأمريكية الرسمية لهذا النظام واضحة كل الوضوح في الأقوال والتصريحات السابقة .

* * *

يتضح من العرض السابق أن مصطلح « النظام الدولي الجديد » قد عاد للظهور بقوة منذ منتصف الثمانينيات للتعبير به عن الأسس الجديدة للعلاقات الدولية ، والشكل الجديد للنظام الدولي في ظل التطورات المتلاحقة في « المعسكر الشرقي » عامة وقائد هذا المعسكر - الاتحاد السوفيتي - بصفة خاصة .

ويتضح كذلك أن هذا المصطلح قد انطلق بسرعة إلى وسائل الإعلام وإلى الدراسات الأكاديمية ، بعد أن استخدمه الرئيس الأمريكي السابق « جورج بوش » مرات عديدة ، وكان يقصد به انفراد الولايات المتحدة بقمة « النظام الدولي » بينما فهمته الدول الكبرى في ذلك الوقت فهما مغايرا ، كل حسب مصلحته وأهدافه .

* * *

غني عن البيان هنا ، أن « النظام الدولي الجديد » المعلن يختلف تماما عن « النظام الدولي الجديد » الذي كانت الدول النامية تطالب به وتسعى لتحقيقه . فشتان ما بين الاثنين .. مما يثير في الأذهان الكثير من التساؤلات حول السبب الكامن وراء اختيار هذا المصطلح بالذات .. فمن المنطقي أن اختيار هذا المصطلح لم يتم بصورة عشوائية لأن « من طبيعة أجهزة السياسة وصناعة الرأي العام الأمريكية ، أنها تحرص على صك عبارات ومصطلحات مشحونة بأكبر قدر من الإيحاءات والمعاني وترويجها على أوسع نطاق في العالم لأغراض سياسية تلائم مخططاتها ومصالحها ، في كل حقبة من الحقب ، وقد أطلق الناقد المعروف د / إدوارد سعيد على هذه الصكوك اللغوية وصف (الدمغات أو الأختام والطوابع الجاهزة) .

إن اختيار هذه العبارات ليس عملية صحافية أو أدبية بسيطة بل عملية سياسية معقدة ، يشارك فيها علماء نفس وخبراء إعلان ومفكرون متخصصون ، بحيث يكون لها سحرها وجاذبيتها لتلقى الرواج المطلوب » [1] .

(1) بين النظام المقصود والنظام المنشود - مرجع سابق ص 36 .

ولا تزال تتردد في أذاننا أصداء بعض تلك المصطلحات الخبيثة التي أطلقتهَا أبواق الدعاية الأمريكية الخاضعة خضوعا تاما للنفوذ الصهيوني ، مثل : الأصولية الإسلامية – التطرف الديني – التشدد الشيعي – الإرهاب ... وغيرها من المصطلحات ... وهذا ما ينطبق تماما على مصطلح « النظام الدولي الجديد » .

فالولايات المتحدة والدول الكبرى الأخرى تعلم يقينا أن الدول النامية كانت تطالب دوما بنظام عالمي جديد ، فقامت باغتصاب المصطلح ، وأعلنت عن قيام نظام عالمي جديد ، وقامت بتزيينه وتجميله وتعداد فضائله ، وكأنها تريد أن تقول للدول النامية هذا أملكم قد تحقق ، وهذه أمانيكم توجد على أرض الواقع ، بعد طول انتظار ، فهلموا إلى نظام عالمي جديد ، يعم فيه السلام ، وتنتهي النزاعات والحروب ، ويسود العدل والرخاء... و ... و ... إلخ ...

وكانت الدول الكبرى تهدف من وراء ذلك إلى ضمان الخضوع والقبول لهذا النظام الجديد من قبل الدول الأخرى .. ولم لا ؟ وهو « نظام » .. والنظام نقيض الفوضى ، والنظام يعني الاستقرار . وهو « جديد » والنفس البشرية نزاعة إلى كل جديد ، تواقة إلى كل حديث .. هكذا اختير المصطلح الذي يتقبله المتلقي سريعا ، لتوافقه مع تطلعاته وغرائزه ، وهو ما حدث بالفعل مع كثيرين في منطقتنا العربية بالذات .

وخلاصة الأمر ، وبعيدا عن النظرة الأمريكية للنظام الدولي الجديد ... أرى أن هناك نظاما دوليا جديدا بالفعل بمعنى أنه قد حدثت بعض التغييرات في شكل النظام الدولي وفي القوى الكبرى فيه ، وهو ما سنتعرض له في الباب القادم إن شاء الله .

الباب الأول

معالم النظام الدولي الجديد والقوى الكبرى فيه

الفصل الأول

معالم النظام الدولي الجديد

المبحث الأول : تسخير الأمم المتحدة لتحقيق أهداف الدول الكبرى .

المبحث الثاني : ازدواجية المعايير ، والكيل بمكيالين في القضايا الدولية .

المبحث الثالث : نظام التجمعات الاقتصادية العملاقة .

المبحث الرابع : غلبة القيم الرأسمالية وتوحد أهداف القوى الكبرى لتغريب العالم .

المبحث الخامس : السيطرة اليهودية على النظام الدولي الجديد .

المبحث السادس : العداء السافر للإسلام والمسلمين .

الفصل الأول
معالم النظام الدولي الجديد

تمهيد :

لابد من التعرف على معالم النظام الدولي الجديد ، إذ يترتب على معرفتها اتخاذ المواقف المناسبة حيالها سلبا أو إيجابا .. وإن الباحث المنصف لا يمكنه أن يستخلص ملامح هذا النظام من خلال التصريحات المعلنة من جانب قادة الدول الكبرى صاحبة المصلحة في هذا النظام ، لأنه من المنطقي أن يقدم هؤلاء صورة وردية لهذا النظام الذي يحاولون فرضه على العالم تحقيقا لمصالحهم وأطماعهم .. وبالفعل تحدث هؤلاء عن النظام الدولي الجديد الذي سيضمن لجميع شعوب العالم الأمن والسلام والرخاء والمساواة والعدالة ... إلخ » [1] .

ولكن الواقع المشاهد قد كذب جميع هذه التصريحات وأظهر جليا أنها كانت مجرد شعارات براقة لاستقطاب السذج والبسطاء والحصول على تأييدهم لهذا النظام .

ومن هنا سأحاول في السطور التالية رصد أهم ملامح النظام الدولي الجديد حتى يتسنى للمسلمين التعرف عليها . والله الموفق !

---

(1) تعددت تصريحات قادة الدول الكبرى في تعداد فضائل النظام الدولي الجديد ، وكان القاسم المشترك الأعظم في كافة التصريحات متمثلا في الحديث المتكرر عن إعادة نفخ الروح في منظمة الأمم المتحدة ، لإرساء قواعد الشرعية والعدالة والمساواة وكذلك الحديث عن تحقيق الرخاء والازدهار من خلال وقف سباق التسلح والوقوف في وجه العدوان أيا كان مصدره وأيا كان اتجاهه ... إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن الوقوف على تفاصيلها من خلال مراجعة ما يلي :

أ - تصريحات الجانب البريطاني :

* كارثة الخليج وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي د . محمد عصفور ص 318 .

* أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 122 .

ب - تصريحات الجانب الفرنسي : أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 76 , 82 , 83 .

جـ - تصريحات الجانب السوفيتي (سابقا) : كارثة الخليج ص 318 : 320 . أزمة الخليج ص 77 : 79 ، 80 · 82 .

د - تصريحات الجانب الأمريكي : كارثة الخليج ص 318 . أزمة الخليج ص 79 , 80 , 83 , 84 . النظام العالمي الجديد ملامح ومخاطر ص 65 , 66 حول التحيز في مفهوم النظام العالمي الجديد ص 64 . مسيرة النظام الدولي الجديد قبل وبعد حرب الخليج (ص 238) . التقرير الاستراتيجي العرب سنة 1991 (ص 27 : 31) .

المبحث الأول

تسخير الأمم المتحدة لتحقيق أهداف الدول الكبرى

« أدركت الأمم المتحدة وشعوب العالم ، أن فرصة جديدة قد سنحت فبانتهاء الحرب الباردة غدا بإمكان الأمم المتحدة ، أن تؤدي الدور المحوري في إقامة النظام العالمي وتحقيق التقدم في العالم ، الذي ألقاه على عاتقها واضعوا الميثاق »[1] .

هذه كلمات الأمين العام للأمم المتحدة في مقدمة تقريره عن أعمال المنظمة (سبتمبر 1993) ثم يضيف د / بطرس غالي قائلا : « ولا تدع الـ « 12 » شهرا الماضية مجالا للشك في أن الفرصة قد اغتنمت بصورة إيجابية .

فقد اعتُرف بما لدى المنظمة العالمية من إمكانات هائلة . وبدأ استخدام هذه الإمكانات في إقامة نظام عالمي أكثر استقرارا ، بوصفها صوتا مؤازرا لأفقر البلدان ، وموصلة للإغاثة الإنسانية ، وحارسة لحقوق الإنسان وحقوق الأقليات ، ومنقذة للدول في وقت الأزمات ، وأداة لإصلاح البيئة العالمية إن أصابها ضرر ... »[2] .

فهل بدأ حقا استخدام الأمم المتحدة وإمكاناتها لإقامة نظام عالمي أكثر استقرارا ، أم أنها قد استخدمت كالعادة – أداة لتحقيق أهداف الدول الكبرى ومطامعها ؟؟ السطور التالية تجيب على هذا السؤال .

أولا : الأمم المتحدة في أزمة الخليج :

في خضم الأحداث المتلاحقة أثناء أزمة الخليج ، كثر الحديث عن تنشيط الأمم المتحدة – كما سبق بيانه – بصورة مكثفة .

ولكن هل كانت الأمم المتحدة في هذه الأزمة فاعلا حقيقيا أو مجرد أداة لتنفيذ طموحات القوى الكبرى وتثبيت دعائم الهيمنة الغربية ؟!

---

(1) من مقدمة التقرير السنوي للأمين العام للأمم المتحدة ص 5 . ملحق مجلة السياسة الدولية ع 114 ، أكتوبر 1993 م ، بتصرف يسير .

(2) المرجع السابق ، ويراجع أيضا للأمين العام : نحو دور أقوى للأمم المتحدة ، السياسة الدولية ع 111 ، يناير 1993 م ، ص 6 - 13 ، عصر جديد للأمم المتحدة لحفظ السلام ، فرصة جديدة للسلام ، دور جديد للأمم المتحدة .. الديمقراطية وحقوق الإنسان ، السياسة الدولية ع 115 يناير 1994 ، ص 339 . كما يراجع : الحرب لأهداف إنسانية ، الأمم المتحدة وحفظ السلام السياسة الدولية العدد السابق ص 332 - 335 . هل هناك حق التدخل لأهداف إنسانية ، كريستوفر جرينوود ، المرجع السابق ص 335 - 338 .

إسناد مهمة معالجة الأزمة إلى مجلس الأمن :

بادئ ذي بدء ينبغي التنبيه إلى أن ملف أزمة الخليج ومهمة معالجتها قد أوكلت إلى مجلس الأمن وحده دون بقية آليات الأمم المتحدة كالجمعية العامة ومحكمة العدل الدولية .

ويرجع السبب في ذلك - بصفة أساسية - إلى طبيعة الإلزام التي تتصف بها قرارات المجلس بمقتضى المادة (25) من ميثاق الأمم المتحدة ، بخلاف ما تتخذه الجمعية العامة من قرارات ليس لها الصفة الإلزامية ولا تتعدى كونها مجرد توصيات .

أضف إلى ذلك أن اللجوء إلى محكمة العدل الدولية يحتاج إلى وقت طويل وإجراءات عديدة لم يكن الموقف ليتحملها في نظر القوى الكبرى .

مهمة مجلس الأمن كما حددها ميثاق الأمم المتحدة :

لقد أوكل ميثاق الأمم المتحدة إلى مجلس الأمن بصفة أساسية مهمة المحافظة على السلام والأمن الدوليين ، ومن أجل إنجاز هذه المهمة يتولى المجلس عددا من الوظائف المختلفة ومنها :

أ - وظيفة التحقيق في النزاعات الدولية :

ويمارسها عملا بالمادة (33) من الميثاق ، والتي تمكنه من أن يوصي بإحالة النزاع إلى المفاوضات أو المصالحة أو التسوية بين الفرقاء ، أو التحكيم أو القضاء الدولي ، أو ما إلى ذلك من توصيات يراها مناسبة .

ب - وظيفة التسوية السلمية للنزاعات :

ويستند المجلس في إقرارها على المواد 33 : 38 ، وهي تعطيه الحق في حفظ السلام والأمن بدءا بالمساعي الحميدة ، ومرورا بإرسال مراقبين دوليين لمراقبة الهدنة أو وقف إطلاق النار وقفا ثابتا ، وانتهاء بإرسال قوات طوارئ دولية تتضمن وقفا نهائيا لإطلاق النار ، ومساعدة الحكومات المحلية بشكل أو بآخر .

جـ - وظيفة الإجراءات التنفيذية :

وهي التي يتخذها مجلس الأمن بالاستناد إلى الفصل السابع من الميثاق (المواد من 39 : 47) في أحد حالات ثلاثة : (تهديدات السلام - انتهاكات السلام - أعمال العدوان) وتنقسم هذ الإجراءات التنفيذية إلى قسمين :

أولهما : إجراءات غير عسكرية : وتتمثل في « المقاطعة الكاملة » أو « الجزئية » للعلاقات الاقتصادية والمواصلات والبريد والنقل البحري والجوي والاتصالات اللاسلكية وقطع العلاقات الدبلوماسية وما إلى ذلك .. أي أن مجلس الأمن يطلب من الدول الأعضاء اتخاذ هذه الإجراءات بحق الدولة المخالفة .

ثانيهما : إجراءات عسكرية : وتشمل استخدام القوات الحربية (البرية والبحرية والجوية) ضد الدولة المخالفة من أجل إعادة السلام والأمن الدوليين .

وتنص المادتان 46 , 47 على أن يستعين مجلس الأمن في وضع الخطط اللازمة لاستخدام القوات التي توضع تحت تصرفه ، وفي قيادة هذه القوات ، بلجنة أركان حرب ، تشكل من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين في المجلس أو من يقوم مقامهم... وتكون هذه اللجنة مسئولة عن التوجيه الاستراتيجي لأية قوة مسلحة موضوعة تحت تصرف المجلس [1] .

هذه هي الصلاحيات المخولة بمجلس الأمن لتأدية رسالته في المحافظة على السلم والأمن الدوليين .

مدى توافق قرارات مجلس الأمن مع الميثاق :

من خلال استعراض قرارات مجلس الأمن الصادرة بشأن أزمة الخليج – وخاصة القرار رقم 678 (نوفمبر 1990) يمكن القول بأن ميثاق الأمم المتحدة لم يحترم ولم يتم تطبيقة على الوجه الأمثل – فالقرار المشار إليه جاءت صياغته كما يلي :

« يصر المجلس على أن تقوم العراق بالتنفيذ الكامل للقرار 660 (1990) وكل القرارات المعنية اللاحقة ... ودون أن يقوم بتعديل أي من هذه القرارات ، قام بمنح العراق مهلة كفرصة أخيرة لتنفيذها ولذلك : صرح للدول الأعضاء المتعاونة مع حكومة الكويت – في حالة ما إذا لم تقدم العراق على تنفيذ هذه القرارات قبل 15 يناير 1991 – باستخدام كافة الوسائل اللازمة لفرض احترام وتطبيق القرار 660 (1990) وجميع القرارات المعنية اللاحقة التي اتخذها مجلس الأمن ، وكذلك لإعادة السلم والأمن الدوليين إلى المنطقة » [2] .

---

(1) المعلومات القانونية الواردة هنا مستقاة من موجز القانون الدولي العام د . علي صادق أبو هيف ص 329 - 338 – مرجع سابق – المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية ص 323 - 335 – مرجع سابق – التنظيم الدولي د .الشافعي بشير ص 200 - 222 – مرجع سابق – قانون المنظمات الدولية .. النظرية العامة . الأمم المتحدة د . عبد العزيز مخيمر عبد الهادي ص 223 - 238 النظام العالمي الجديد « ملامح ومخاطر » ص 105 - 107 .

(2) أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 92 .

ويلاحظ على هذا القرار :

1 - أن مجلس الأمن لم يطبق المادة 42 من الميثاق والتي تجعل إمرة القوة العسكرية بيد مجلس الأمن وحده . هذا مع العلم أن مثل هذه القيادة هي في صلب « المسئولية الرئيسية » للمجلس ولا يجوز التخلي عنها لأي دولة من الدول .

2 - كذلك لم توضع المادتان 46 ، 47 موضع التنفيذ ، حيث إن المجلس لم يقم بإحياء دور لجنة أركان الحرب المنوط بها وضع الخطط والتوجيه الاستراتيجي للقوات الدولية ، وبالتالي يمكن القول بأن الإجراءات الجماعية التي تم اتخاذها لم تنطلق من أرضية قانونية شرعية » [1] .

« وكان يمكن لهذا الأمر (بل كان يجب في الأوضاع العادية) أن يتم في سياق الأحكام المقررة بموجب الفصل السابع من الميثاق .

فعلى الرغم من أن مجلس الأمن لم يكن ليستطيع الاعتماد على قوات سابقة التجهيز (نظرا لأن الاتفاقات الأولية المنصوص عليها في المادة 43 لم تبرم أصلا) إلا أنه كان بمقدوره وفقا لاتفاق خاص أن يطلب إلى الدول الأعضاء وضع وحدات من قواتها الوطنية تحت تصرفه والإشراف على قيادتها الميدانية .

فالقواعد والأحكام الموضوعة وفقا للفصل السابع هي - بحكم المنطق السليم - قواعد وأحكام تضامنية ، ولا يمكن تفسيرها بطريقة أخرى ، إذ تنص المادة 42 على أنه « يحق لمجلس الأمن أن يقوم بأي عمل يعتبره ضروريا للمحافظة على السلم والأمن الدوليين أو إعادة تثبيتهما مستخدما القوات الجوية البحرية والبرية » .

وعندما تضيف المادة نفسها على الفور « أن هذا العمل يمكن أن يتضمن استعراضا للقوة وإجراءات لفرض الحصار وعمليات أخرى تنفذها القوات الجوية والبحرية والبرية التابعة للدول الأعضاء في الأمم المتحدة » فإن هذا لا يعني مطلقا أن الدول المعنية تستطيع أن تتخذ وحدها وبطريقة منفردة زمام المبادرة بالعمليات العسكرية .

فلكي يصبح هذا العمل عملا من أعمال مجلس الأمن - حتى وإن تم من خلال قوات وطنية بسبب عدم توافر قوات مجهزة سلفا وتابعة مباشرة للأمم المتحدة - يتعين أن يتم وفقا لنص المادة 46 من الميثاق والتي لا تحتمل أي خلاف في التفسير ، وهو النص

---

(1) النظام العالمي الجديد .. « ملامح ومخاطر » ص 110 ، بتصرف واختصار .

القاضي بـ « أن الخطط الرامية إلى استخدام القوة المسلحة يجب أن ترسم بواسطة مجلس الأمن وبمساعدة لجنة الأركان .

وتبدو لجنة الأركان – في الواقع – وكأنها حلقة الوصل التي لا غنى عنها بين الجهاز السياسي الذي يناقش ويقرر ، والأداة العسكرية التي تعمل وتنفذ في الميدان »[1] .

3 – يلاحظ كذلك على القرار (678 / 1990) أنه مماثل لقرار سابق اتخذه مجلس الأمن بشأن الحرب الكورية وهو القرار (83 / 1950) والذي أوصى فيه المجلس الدول الأعضاء بتقديم المساعدة اللازمة لجمهورية كوريا لصد الهجوم العسكري ولإعادة السلام والأمن الدوليين إلى المنطقة .

وأوجه التشابه بينهما كثيرة . لعل أهمها ما تمثل في تخلي مجلس الأمن عن صلاحياته ، وقيامه بتفويض الدول أو بمعنى أدق دولة واحدة هي الولايات المتحدة الأمريكية في القيام بصد العدوان . ولذلك فإن القائد الأمريكي في الحرب الكورية الجنرال « ماك آرثر » لم يتصل بمجلس الأمن ، ولم يرفع له تقريرا واحدا عن مهمته . كما أن المجلس ذاته لم يستطع أن يؤثر – ولو بشكل بسيط وظاهري على الأقل – في الأحداث التي رافقت تلك الحرب .

وقد أصبح هذا الوضع الغامض مصدرا من مصادر عدم الارتياح العميق ، عندما بدا واضحا أن القائد الأمريكي كان يخطط لمبادرات تتجاوز المهمة التي حددتها الأمم المتحدة وتهدد بنشوب حرب عالمية ، وتحرك الأوروبيون لمواجهة هذا الخطر ، ولكن الرئيس « ترومان » وليس السكرتير العام للأمم المتحدة – هو الذي اتخذ قرارا باستدعاء الجنرال « ماك آرثر » .

وكما تغافل « ماك آرثر » عن مجلس الأمن بشكل كلي في العام 1950 م ، كذلك فعل الجنرال « شوا رزكوف » في حرب الخليج عام 1991 م ، لأنه لم يتصل ولم يبلغ المجلس ولو بتقرير واحد عن مهمته .

ولقد نجحت الولايات المتحدة في استخدام القرارين كغطاء قانوني لتحركاتها ، من غير أن يكون لمجلس الأمن أي تأثير أو دور سواء في حجم القوات العسكرية أو رقعة عملياتها ... ولعل هذا هو السبب في رفضها الدعوة السوفيتية لإحياء دور لجنة الأركان – والتي أعلنها « شيفرنادزه » في خطابه أمام الجمعية العامة وأيدها وزير

(1) أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 108 - 110 .

الخارجية الفرنسي « رولان دوما » إذ كانت أمريكا تبغي حرية الحركة والانطلاق لتفعل ما تريد هي لا ما يريد مجلس الأمن »[1] .

4 – مما يلاحظ أيضا على القرار المشار إليه ، أنه جعل جميع القرارات السابقة المتعلقة بالعراق حزمة واحدة مترابطة ، يجب على العراق القبول بها جميعا وتنفيذها حرفيا .

وهو أمر لم تظهر خطورته إلا فيما بعد حينما عرض العراق مبادرة عن طريق « موسكو » يهدف من خلالها إلى تجنب الحرب البرية وتقضي بقبول تنفيذ القرار 1990/660 بالانسحاب من الكويت في مقابل تسليم مجلس الأمن بفكرة أن القرارات الأخرى تصبح غير ذي موضوع ، وتفقد مبرر وجودها بمجرد إنهاء الاحتلال العراقي للكويت . ولكن هذه المبادرة باءت بالفشل الذريع لأن الرئيس « بوش » أعلن في نفس اليوم قراره ببدء العمليات البرية .

كما تبين مدى التصميم المتخفى تحت عباءة مجلس الأمن ، واستغلال حزمة القرارات أسوأ استغلال حينما أصدر المجلس قراره رقم 686 الصادر في 3 مارس 1991 .. إذ أن هذا القرار الطويل الذي يشتمل على 34 مادة تقع في عدة صفحات من الحجم الكبير قد أبقى على الحصار الاقتصادي والعقوبات ، كما ألزم العراق بتحمل مسئوليته عن كل خسارة أو ضياع أو فقدان أو مساس ألمَّ بمصالح الكويت أو الدول الأخرى ورعاياها وشركاتها بسبب الغزو والاحتلال غير المشروع للكويت . كما وضع العراق تحت الوصاية الدولية عن طريق تدمير قوته العسكرية ومراقبته على المدى البعيد .

باختصار : تصرفت الأمم المتحدة – كما يقول « مارسيل ميرل » – كمنتصر في مواجهة مهزوم ، وفرضت وصاية دولية على العراق – كما يقول الدكتور « شفيق المصري » – تحدد له وضعه العسكري والسياسي والاقتصادي كتلك التي فرضت على ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية »[2] .

هذه هي أهم الملاحظات على قرارات مجلس الأمن فيما يختص بأزمة الخليج .

الأمم المتحدة في أزمة الخليج : فاعل أم أداة ؟!

وهنا يعود السؤال ليطرح نفسه مرة أخرى بقوة وإلحاح : هل كانت الأمم المتحدة في

(1) يراجع : أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 107 - 108 . النظام العالمي الجديد ملامح ومخاطر ص 110 - 112 .
(2) يراجع : المرجعان السابقان .. الأول ص 96 - 103 ، والثاني ص 112 - 113 .

أزمة الخليج فاعلا حقيقيا ، أم مجرد أداة لتوفير الغطاء القانوني الدولي لتحركات تصب في النهاية في مصلحة القوى الكبرى المهيمنة على النظام الدولي الجديد وبصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ؟!

هذا هو السؤال .. والإجابة نتركها لواحد من أصحاب الشأن وهو الأمين العام - في ذلك الوقت - للأمم المتحدة « خافيير بيريز دي كويار » .

فحينما أراد المسئول الدولي أن يقوم بمهمة دبلوماسية لاحتواء الأزمة ، سافر إلى العاصمة الأردنية « عمان » لمقابلة وزير الخارجية العراقي « طارق عزيز » .. وقبل أن يشد « دي كويار » الرحال استقبله الرئيس الأمريكي « جورج بوش » ونبهه إلى أن هناك حدودا يتعين على الأمين العام للأمم المتحدة الالتزام بها وهو يخاطب وزير خارجية العراق [1] .

وهي واقعة خطيرة تدل على أن التحرك الفاعل هو للرئيس الأمريكي وحده ، وأن خيوط اللعبة بأكملها في يد الولايات المتحدة وليس الأمم المتحدة .

وهذا ما يفسر تصريحات الأمين العام قبل اللقاء المذكور حينما قال : « لا أستطيع تقديم أي تنازلات تخص قرارات مجلس الأمن لأنها ليست قراراتي ولا تخصني ، لكني أستطيع أن استطلع وجهات النظر وأتبادل الرأي لأنني أتصور أن الحكومة العراقية حريصة بدورها - كحرصنا نحن تماما - على التوصل إلى حل عادل ودائم للمشكلة » [2] .

ثم تخلى « دي كويار » في مناسبة أخرى عن حرصه ودبلوماسيته ، فأعلنها صريحة مدوية عندما صرح لصحيفة « لوموند » الباريسية في 9 فبراير 1991 قائلا : « لقد صرح مجلس الأمن باستخدام القوة لكن هذه الحرب ليست حرب الأمم المتحدة ، ولا توجد قوات تابعة للأمم المتحدة أو ترفع علمها ، ويتم إحاطتي علما - فقط - بما يدور على مسرح العمليات العسكرية من خلال تقارير تبعثها الدول المتحالفة .

ولا نستطيع القول بأن الأمم المتحدة مسئولة عن هذه الحرب ومع ذلك فهي حرب قانونية في سياق معنى محدد ، وهي أنها حرب مصرح بها من جانب مجلس الأمن ، أما عن نطاق هذه الحرب فتلك مسألة أخرى » ا . هـ

ومن الصعب أن يشرح المرء بطريقة أوضح تحفظ السكرتير العام للأمم المتحدة على

---

(1) كارثة الخليج وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي ص 333 .

(2) أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 115 .

المسار الدبلوماسي والعسكري لعملية لم يكن فيها من دور سوى دور المتفرج الذي لا حول له ولا قوة . فقد وجه – في نفس اللقاء الصحفي المشار إليه – انتقادات غير مباشرة إلى سلوك الولايات المتحدة في مرحلة التفاوض وإلى ضخامة الهجوم الجوي في المرحلة الأولى للحرب [1] .

وحتى لا يعد الحديث عن استخدام الأمم المتحدة ومجلس أمنها كأداة أو كغطاء لتوفير الحماية القانونية من باب التجني والاتهام بالباطل ، فلابد من الحديث عن موقف مجلس الأمن حينما عرضت خطة السلام السوفيتية على المجلس في 23 / 2 / 1991 م بهدف تجنب الحرب البرية إذ باءت المحاولة بالفشل الذريع لأن الرئيس « بوش » أعلن في نفس اليوم قراره ببدء العمليات البرية .

ورغم ذلك فإن « بيريز دي كويار » كان قد ترك الباب مفتوحا أمام إمكانية التوصل إلى حل وسط حين أعلن في إحدى فقرات الراحة بين جلسات المجلس ، أنه قام بتذكير المجلس ليس فقط بالتزامه بدعم المبادئ التي أدت إلى اتخاذ قراراته السابقة ، ولكن أيضا بالضرورات الأخلاقية العليا وواجبه نحو العمل على تجنب إزهاق المزيد من الأرواح الإنسانية – وليس من المستحيل تحقيق الانسجام والجمع بين هذين الهدفين معا » [2] .

ولكن هذه الضرورات الأخلاقية لم تصمد أمام إصرار الدول الكبرى على التطبيق الكامل لقرارات مجلس الأمن جملة واحدة ، لأسباب دفينة يفصح عنها مندوب اليمن في مجلس الأمن حينما يخاطب المجلس بعد فشل محاولة عقد اجتماع لتجنب الحرب البرية التي بدأت في نفس اليوم .. إذ قال : « يجب أن نتحلى بالصراحة تجاه العالم أجمع ، إن اجتماعنا هذا أفقد المجلس اعتباره ومكانته بسبب الهجوم البري الظالم .

ففي الوقت الذي كان من الممكن فيه تسوية بعض الأمور من خلال المفاوضات ، أصبح لا مناص الآن من تعرض آلاف الأشخاص للموت . نستطيع أن نوجه اللوم إلى صدام حسين ، لكن العراق أقدم في النهاية على الخطوة التي كان ينتظرها الجميع . إن هذه اللحظة شهادة واضحة على فشل مجلس الأمن والنظام العالمي الجديد الذي استخدم الأمم المتحدة كغطاء » [3] .

بعد هذا لا مجال للشك في أن الأمم المتحدة ومجلس أمنها قد استخدما كغطاء

(1) أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 114 - 115 .　　(2) المرجع السابق ص 95 .

(3) أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 174 .

قانوني لتحركات القوى الكبرى ، وكستار يجري العمل من خلفه لتحقيق أهداف أعلنت عنها بكل الصراحة رئيسة الوزراء البريطانية آنذاك « مارجريت تاتشر » عندما قالت في مؤتمر حزب المحافظين في 90/10/12 : لا يوجد أي شيء يمكن التفاوض بشأنه مع صدام حسين ، بل ويتعين – بعد استعادة الكويت – إجباره على دفع تعويضات عن الخسائر التي تسبب فيها وتحميله مسئولية جرائمه .

ثم أكدت مواقفها المتصلبة هذه مرة أخرى عندما قابلت بعد ذلك بأيام قليلة المبعوث السوفيتي « بريما كوف » إذ صرحت آنذاك قائلة : « إن انسحاب القوات العراقية من الكويت لا يكفي ، لأنه من الضروري توجيه ضربة ساحقة إلى العراق ، وتحطيم العمود الفقري لصدام حسين ، وهدم البنية العسكرية – وإن أمكن – البنية الصناعية أيضا لهذا البلد » [1] .

ولقد قطعت « جهيزة » قول كل خطيب ، وكفتنا السيدة تاتشر مؤونة الحديث عن الأهداف الحقيقية التي من أجلها سخرت « الأمم المتحدة » ، وسيق مجلس الأمن ، ولوى عنق القانون الدولي .

وبهذا يتبين أن تلك الخطب الرنانة عن إعادة بعث القانون الدولي ونفخ الروح في منظمة الأمم المتحدة ، إن هي إلا اختلاق أو إفك افتراه الغربيون وأعانهم عليه قوم آخرون ممن فتنوا بالحضارة المادية الغربية فقد جاءوا ظلما وزورا .

ثانيا : الأمم المتحدة بعد أزمة الخليج :

استمرت القوى الكبرى – وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية – على نهجها في استغلال الأمم المتحدة وتطويع مجلس الأمن ليضفي الشرعية الكاملة – في زعمهم – على كافة تحركاتها الرامية إلى بسط السيطرة الغربية على الساحة العالمية .

والأمثلة على ذلك غاية في الوضوح في قضية الأزمة بين ليبيا وكل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، والمعروفة بقضية « لوكربي » التي سوف يتعرض لها البحث تفصيليا في الباب الخاص بموقف النظام الدولي الجديد من بعض قضايا المسلمين .

يتبين من هذا كله أن القوى الكبرى هي التي تمسك بعجلة القيادة في الأمم المتحدة ، توجهها إلى حيث تريد ، وتدفعها دفعا إلى اتخاذ مواقف قد تتعارض مع ميثاقها ومع أبسط مبادئ القانون الدولي ... وفي ذلك يقول « كورنيليوس كاستورياديس » : « إن

(1) المرجع السابق ص 120 - 121 .

الأمم المتحدة ليست سوى جهاز تستخدمه القوى الكبرى ... ولا تبدو فاعلة إلا في حدود ما تسمح به الاتفاقات الظرفية بين الأقوياء » [1] .

وقد اعترف الأمين العام للأمم المتحدة نفسه بأن القوى الكبرى هي التي تتحكم في المنظمة ، وهي التي تقرر ما تريد حسب أهوائها ومصالحها ، وما الأمم المتحدة إلا إطار « قانوني » لتقنين هذه المصالح وتنسيقها ... وقد تكرر هذا المعنى على لسان بطرس غالي أكثر من مرة [2] .

الدول الكبرى ونظرتها للأمم المتحدة منذ نشأتها :

إن كل ما تقدم يدحض بشدة تلك الصيحات الانتصارية التي رافقت الحملة العنيفة على العراق عن الدور الجديد للأمم المتحدة في إطار النظام العالمي الجديد .

أنى لنا أن نصدق هذا الادعاء وكلنا يعلم علم اليقين حقيقة النظرة الغربية للأمم المتحدة منذ نشأتها والتي عبر عنها بصدق وصراحة يحسد عليهما الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون حينما قال : « ... يؤمن كثير من هؤلاء الذين يندفعون في الشوارع رافعين اللافتات الداعية إلى « السلام » و « نزع السلاح الشامل » بأن الحل الوحيد لتجنب خطر الحرب هو إقامة نظام عالمي ترعاه منظمة دولية .

لقد دحض القرن العشرون كثيرا من الأساطير ، لكن ليس هناك أشد تدميرا من الفكرة القائمة على التمني القائلة بأن المنظمات الدولية يمكن أن تحقق السلام الكامل .

لقد كانت هناك تجربتان عظيمتان في النظام العالمي إبان هذا القرن ، هما عصبة الأمم ، وهيئة الأمم المتحدة ، ومنيت كل منهما بفشل ذريع » .

لقد أعلن « وود رو ويلسون » في خطاب طالب فيه بعضوية الولايات المتحدة في عصبة الأمم « إنها تشكل ضمانة حاسمة للسلام ، إنها ضمانة حاسمة بالتعهد بالوقوف ضد العدوان » وبعد أقل من عامين من إنشاء العصبة انغمس العالم في الحرب الأشد تدميرا في التاريخ .

---

(1) ينظر المرجع السابق ص 177 - 188 .

(2) في حديث خاص للتليفزيون المصري أذيع في 25 / 3 / 1994 م كما عاد وأكد هذا المعنى في حديثه لصحيفه الأهرام 9 / 4 / 1994 ص 5 ، ثم إلى صحيفة الأخبار 28 / 4 / 1994 م ص 3 . ثم في الأهرام 11 / 12 / 1995 ص 7 وأيضا 6 / 1 / 1996 م ص 9 .

ولم يكن فرانكلين روزفلت أقل تفاؤلا بشأن الأمم المتحدة فقد قال : « ينبغي لنا هذه المرة ألا نفقد الأمل في إقامة نظام دولي ، يكون قادرا على حفظ السلام وتحقيق عدل أكثر اكتمالا بين الأمم على مر السنين » .. ، لقد نشبت مائة وعشرون حربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وتأسيس الأمم المتحدة ، وقتل ثمانية عشر مليون شخص في هذه الحروب . وهذا الرقم يزيد على العدد الكلي للذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى ، إن بعضا من أقدر الدبلوماسيين يمثلون بلادهم في الأمم المتحدة ولا يمكن أن يتعرضوا لمهمة أكثر مدعاة للإحباط من هذا ، وذلك أنهم يستطيعون أن يتكلموا عن كل شيء ولا يفعلون أي شيء .. إنهم يستحقون احترامنا وتعاطفنا .

ولا تستطيع الولايات المتحدة أن تعرض القضايا التي تؤثر في مصالحها على منظمة منحازة بدرجة كبيرة ضدنا . ففي عالم الواقع ، يتوافر لأمة بالغة الصغر لديها ست دبابات ، أو ستة إرهابيين وضعاء لديهم قنبلة صغيرة ، قدر من القوة الحقيقية يزيد عما للجمعية العامة للأمم المتحدة مجتمعة بكل أبهتها الرفيعة في « إيست ريفر » .

إن القوة هي التي تدفع العالم صوب الخير أو الشر ، ولن تتخلى أية أمة ذات سيادة عن أي من سلطتها وقوتها للأمم المتحدة أو أي هيئة أخرى ، لا الآن ولا في أي وقت . ذلك جانب لا يتبدل في الشخصية الوطنية ، وكلما سارعنا بمواجهة هذه الحقيقة – وسارعت شعوب الأمم العظمى – خاصة في الغرب – بالكف عن الإحساس بالذنب لأنهم أقوياء – سارعنا بإقامة نظام دولي حقيقي يستند إلى توازن مستقر للقوى الوطنية (1) .

وبعيدًا عن مناقشة الأفكار الواردة في هذا المقطع من كلام ريتشارد نيكسون ، فإن الحقيقة التي أكد عليها تتلخص في أن القوى الكبرى تجعل من قبيل الأساطير : الأمل في تحقيق السلام العالمي عن طريق منظمة دولية وتعتبر أن القوة وحدها هي التي تدفع العالم صوب الخير أو الشر .

ولا يسع المرء إلا أن يقذف بهذه الكلمات في وجوه أولئك الذين جعلوا إحياء الأمم المتحدة وتفعيل آلياتها أولى ملامح النظام الدولي الجديد .

---

(1) 1999 نصر بلا حرب ريتشارد نيكسون ص 30 - 31 . ترجمة وإعداد وتقديم المشير / محمد عبد الحليم أبو غزالة .

المبحث الثاني

ازدواجية المعايير والكيل بمكيالين في القضايا الدولية

يتناول هذا المبحث الركيزة الثانية والدعامة الكبرى التي شيد عليها بناء النظام الدولي الجديد وفقا لما جاء على لسان قادة هذا النظام ، الذين أعلنوا أن سطوع شمس القانون وبزوغ فجر الشرعية أصبحا حقيقة لا شك فيها ولا جدال .

وسأبدأ في مناقشة هذه القضية من خلال موقفين اتخذهما المجتمع الدولي أثناء وبعد أزمة الخليج الثانية التي شهدت تصعيدا شديدا للحملات الإعلامية عن الشرعية الدولية ، والتطبيق الكامل لمبادئ القانون الدولي .

ولن أتعرض هنا للقرارات الصادرة عن الأمم المتحدة بخصوص القضية الفلسطينية وخاصة قراري مجلس الأمن رقمي 242 و 338 ، كذلك القرار 425 الخاص بلبنان .

وسبب ذلك أنه يمكن لأحد المجادلين أن يعترض بأن هذه القرارات لم يكتب لها التنفيذ لأنها صدرت في وقت كانت الأمم المتحدة فيه مغلولة الأيدي ومكبلة بقيود الحرب الباردة أما بعد انتهاء الحرب الباردة وتغير مناخ النظام الدولي فقد أصبحت الأمم المتحدة طليقة اليدين وغدت الشرعية الدولية أساس التعامل في النظام الدولي الجديد .

والحالتان موضع البحث هنا ، يتعلق كلاهما بالقضية الفلسطينية ، وقد صدرت بشأنهما قرارات دولية واجبة التنفيذ ولكنها وئدت في مهدها وظلت خامدة حبيسة الأدراج ، بالإضافة إلى أنها قرارات هزيلة لا تفي بمتطلبات الموقف الذي صدرت بشأنه ، مما حدا بكثيرين من الغربيين أنفسهم إلى الحديث عن المعايير الازدواجية والكيل بمكيالين في مجال العلاقات الدولية .

الموقف الأول : مذبحة المسجد الأقصى (أكتوبر 1990 م) .

في خضم الأحداث المتلاحقة في الخليج ، وقعت مذبحة المسجد الأقصى ، التي استشهد فيها 20 شخصا وأصيب 150 آخرون .وهنا توقع الجميع في ظل الحديث عن الشرعية – أن يكون موقف المجتمع الدولي حاسما وحازما ، ولكن الحقيقة المؤلمة أن رد

الفعل الدولي كان هزيلا ، ولم يزد على قرارات ثلاثة ضرب بها الكيان اليهودي الغاصب عرض الحائط .

قرارات مجلس الأمن بشأن القضية :

أ – القرار رقم 672 (12 أكتوبر 1990) والذي يدين أعمال العنف التي ارتكبتها سلطات الأمن الصهيونية ويطالب الكيان الصهيوني باحترام ومراعاة مقتضيات القانون الدولي في الأراضي المحتلة منذ عام 1967 م .

ب – القرار رقم 673 (24 أكتوبر 1990) والذي يستنكر رفض حكومة الكيان اليهودي الغاصب استقبال بعثة السكرتير العام إلى المنطقة ويطالب الحكومة نفسها بالتطبيق الصارم للقرار 672 والسماح لبعثة السكرتير العام بأداء مهمتها .

جـ – القرار 681 (20 ديسمبر 1990) وهو يعبر عن قلق مجلس الأمن الشديد بسبب رفض الصهاينة للقرارين 672 , 673 ويدين أعمال طرد المدنيين الفلسطينيين من الأراضي المحتلة .. إلخ [1] .

أثر هذه القرارات والموقف الأمريكي حيالها :

لم يكتب لأي من هذه القرارات أن يتم تنفيذه بل لم تتجاوز كونها حبرا على ورق وكان مصيرها ما سبق وحدث لجميع القرارات الصادرة ضد الكيان اليهودي .

ولم يتسبب الرفض التام لهذه القرارات في تعريض الكيان اليهودي لأي شكل من أشكال العقوبات أو لأي إجراء من جانب المجتمع الدولي ، في الوقت الذي كانت الأمم المتحدة فيه تحاصر العراق وتفرض عليه عقوبات متعددة بل وتصدر قرارا يجيز استخدام القوة العسكرية لفرض احترام وتطبيق قرارات الأمم المتحدة ومبادئ الشرعية الدولية .

والعجيب في الأمر أن القرار الأول – وهو الأصل في القضية – قرار هزيل ، يكتفي بمجرد الشجب والإدانة ولا يوفر ضمانات كافية لحماية الفلسطينيين من بطش قوات الاحتلال اليهودية .

أضف إلى ذلك أنه اعتبر البعثة المرسلة إلى الأرض المحتلة موفدة من قبل السكرتير العام لا من مجلس الأمن ، وهو ما يعني عمليا حرمان المجلس من إصدار قرار أو اتخاذ الإجراءات المناسبة لمواجهة الحقائق التي يكشف عنها التحقيق .

---

(1) يراجع : أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد ص 93 .

كما أن الوفد الأمريكي حاول أن يضيف إلى القرار فقرة تسجل إدانة للانتفاضة الفلسطينية ، وتنص على أن مجلس الأمن يدين أعمال العنف الاستفزازية ورد الفعل في آن واحد .

والأخطر من ذلك أن أمريكا رفضت رفضا قاطعا أن يتضمن القرار إشارة إلى مدينة القدس باعتبارها أرضا محتلة ، واستطاعت فرض رأيها هذا ، إذ اتفق في اللحظة الأخيرة – وقبل التصويت – على حل وسط يقضي بأن يعلن رئيس المجلس في الاجتماع الرسمي أن مفهومه لعبارة « الأراضي التي تحتلها إسرائيل منذ عام 1967 » هو أنها تشمل القدس .

وخطورة الأمر هنا أن الدولية اليهودية تعتبر القدس عاصمتها الأبدية الموحدة ، وأنها لا تدخل قطعا في جملة الأرض المحتلة .

والأكثر عجبا أن الولايات المتحدة لم تشأ أن تبقي على الرمق الأخير في هذا القرار الهزيل فقد أعلن المندوب الأمريكي توماس بيكرينج تفسير بلاده لهذا القرار قائلا : « إن ما قام به مجلس الأمن لا يعطيه صلاحية معالجة أي موضوع يخرج عن المسائل المباشرة التي تضمنها القرار » .

إن هذا القرار يوضح تماما أنه لا يتطرق بأي شكل من الأشكال إلى وضع عملية السلام في الشرق الأوسط ولا يغير إطلاقا دور الأمم المتحدة في هذا المجال ... ولقد علق المندوب اليمني على هذا التفسير أو التحجيم الأمريكي لدور مجلس الأمن قائلا :

« إن هذا التفسير قلل كثيرا من أهمية القرار ، وأعطى إشارة فحواها أن الولايات المتحدة ليست ملتزمة عملا جديا بعد وصول تقرير البعثة ، كما أنها لا تريد لهذا الموضوع أن يخرج عن نطاق ضيق . وإن ذلك يتناقض مع إعلان بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي والصين وبقية الدول الأعضاء في المجلس أن التقرير بداية لمعالجة أوسع للقضية .. » [1] .

إذا ... أخرجت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الوجود مسخا مشوها في صورة قرار لمجلس الأمن لم ينل من الجانب اليهودي إلا الاحتقار .

والحقيقة أن هذا الموقف الأمريكي مبدأ ثابت للسياسة الخارجية الأمريكية فقد استخدمت حق النقض « فيتو » قبل الغزو العراقي بيوم واحد – لمنع صدور قرار من مجلس الأمن ينص على إرسال فريق مراقبة دولي إلى الأراضي المحتلة ، وتعللت أمريكا

---

(1) يراجع : كارثة الخليج وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي ص 348 - 350 .

بأن الدولة اليهودية سترفض القرار وستعترض على دور وفد من الأمم المتحدة وتعتبره تعديا على سيادتها [1] ، وهذا أمر غاية في الغرابة ، أن تنصب الولايات المتحدة الأمريكية نفسها متحدثا رسميا باسم الكيان اليهودي ، وأن تتحمل نيابة عنه مسئولية الاعتراض على قرارات الأمم المتحدة » [2] .

وللمرء أن يتساءل هنا عن الشرعية الدولية المزعومة ، وعن سطوع شمس القانون ، وعن تلك التصريحات المتعددة ، عن العدالة والمساواة ... أين هذا كله ؟!!!

الموقف الثاني : مأساة المبعدين الفلسطينيين (ديسمبر 1992) :

وهذه مأساة أخرى تقف شاهدة على كذب الادعاءات الغربية عن الشرعية والعدالة في النظام الدولي الجديد .

فقد قامت الدولة اليهودية الغاصبة بطرد 415 من الفلسطينيين في 16 / 12 / 1992 م منتهكة بذلك كافة الأعراف والقوانين الدولية خاصة اتفاقية جنيف الرابعة التي تتعلق بحماية المدنيين أثناء الحرب وتحت الاحتلال . وهو ما ينطبق على هؤلاء النفر المبعدين .

ولقد أصدر مجلس الأمن قراره رقم 799 مطالبا الحكومة اليهودية بإعادة هؤلاء المبعدين فورا بدون قيد ولا شرط .

وكما هو متوقع دائما فإن الدولة اليهودية الغاصبة قد ضربت بهذا القرار عرض الحائط ، ولحق هذا القرار البائس بأخوة له سبقوه إلى نفس المصير .

إذ لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يصدر فيها قرار من مجلس الأمن بإدانة مثل هذه الجرائم التي دأبت على ارتكابها الحكومات اليهودية المتعاقبة ، حيث كان مجلس الأمن قد أصدر القرارات التالية :

* القرارات 468 , 469 , 484 لسنة 1980 م .
* القراران 607 , 608 لسنة 1988 م .
* القراران 636 , 641 لسنة 1989 م .

---

(1) يراجع : المرجع السابق ص 347 .

(2) هذه هي كلمات مندوب بريطانيا في مجلس الأمن - ينظر المرجع السابق نفسه - ص 347 .

* القرار 681 لسنة 1990 م (1) .

وكما هو متوقع – أيضا – فإن امتناع الدولة اليهودية عن تنفيذ هذه القرارات كافة ، لم يتسبب في تعريضها لأي شكل من أشكال العقوبات ، أو حتى التهديد بها . في الوقت الذي دمر فيه العراق تدميرا شاملا ، ووضعت ليبيا تحت الحصار الشديد ، بدعوى عدم امتثالهما للشرعية الدولية وعدم التزامهما بتنفيذ قرارات مجلس الأمن .

فأين هي إذا تلك الشرعية المدعاة ؟! وأين العدالة وأين المساواة ؟! وأين تلك الشعارات الطنانة عن سيادة مبادئ القانون في النظام الدولي الجديد ؟! بل وأين هي المشاعر الإنسانية حينما عرضت شاشات التليفزيون مأساة هؤلاء المبعدين وهم يعيشون في ظروف بالغة القسوة في منطقة تكسوها الثلوج وتنخفض فيها درجات الحرارة إلى ما تحت الصفر بمراحل ؟!

كل هذه الأسئلة – وغيرها – تحتاج إلى إجابة من قادة النظام الدولي الجديد الموصوف – زورا وبهتانا – بالشرعية والعدالة والمساواة .

أصوات في الغرب تندد بسياسة الازدواجية والكيل بمكيالين :

صدرت في الغرب أصوات تندد بسياسة ازدواجية المعايير والكيل بمكيالين في النظام الدولي الجديد – فهذا نائب في مجلس العموم البريطاني عن حزب المحافظين هو (سيردينيس وولترز) يقف ليندد بازدواجية المعايير في تعامل النظام الدولي مع كل من العراق والكيان الصهيوني الغاصب فيقول : « لا يكفي أن تتعامل الولايات المتحدة والمجتمع الدولي مع عمل عدواني واحد فقط ، ولن يكون مقبولا لدى الجماهير العربية أن الأمم المتحدة تحت زعامة أمريكية – قد تعاملت بسرعة مع جريمة ، بينما تسمح لجرائم أخرى بالاستمرار ... إن 23 سنة مرت منذ أن دعيت (إسرائيل) إلى الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلتها بالقوة . وقرار الأمم المتحدة رقم 242 صريح جدا ، ولكن (إسرائيل) لم تتزحزح بل واصلت قمعها الوحشي ضد الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة ولم يأبه به أحد . » .

وأضاف قائلا : « قبل سنوات غزت إسرائيل لبنان ، وقصفت مدافعها بيروت بلا

---

(1) يراجع : المبعدون الفلسطينيون ، القضية وأبعادها : عبد الله صالح أحمد . السياسة الدولية ع 112 أبريل 1993: ص 122 - 127 . إبعاد الفلسطينيين بين اتفاقية جنيف والقوى الكبرى د . عبد العليم محمد – الأهرام 1 / 1 / 1993 م ص 7 .

رحمة لأسابيع متواصلة فماذا فعل المجتمع الدولي آنذاك ؟! ... وأغارت إسرائيل على تونس – عاصمة دولة مستقلة – وكان ذلك عمل قرصنة دولية واضحا وأخفق المجتمع الدولي مرة أخرى في اتخاذ إجراء فعلي ... » [1] .

ورئيسة الوزراء البريطانية السابقة « مارجريت تاتشر » وفي صحوة ضمير مفاجئة – أنحت باللائمة على الغرب والنظام العالمي الجديد لفشله الذريع في إقرار الشرعية والعدالة فيما يتعلق بمأساة البوسنة والهرسك » [2] .

كما انتقد بعض أعضاء الكونجرس الأمريكي موقف الغرب من هذه المجزرة [3] .

ولا ينبغي أن يغفل المرء هنا تصريحا لواحد من قادة النظام الدولي الجديد ، وممن بذلوا غاية الجهد لتسويقه وترويجه . ففي مؤتمر صحفي مشترك مع رئيس الوزراء الإيطالي جوليو أندريوتي تحدث الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران عن الذبيحتين فلسطين والكويت فقال :

« إن القانون هو القانون ، والحقوق هي الحقوق ، ولا يستطيع المرء أن يدافع عن حقوق الإنسان هنا ويتجاهلها هناك .. » [4] .

ولكن هذا هو ما حدث بالضبط فقد تظاهروا بالدفاع عن حقوق الإنسان في الكويت ، وتجاهلوا حقوق الإنسان في فلسطين الذبيحة ... والحقيقة أنهم حينما ينظرون إلى الإنسان المسلم لا تجد للشرعية ولا للعدالة في قلوبهم حظا ولا نصيبا .. ومن هنا كانت ازدواجية المعايير وكان الكيل بمكيالين ثاني المعالم البارزة لما يسمى بـ« النظام الدولي الجديد » .

---

(1) كارثة الخليج وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي ص 341 - 342 بتصرف .

(2) تراجع تصريحاتها في جريدة المساء 20 / 9 / 1992 ، كذلك في أخبار اليوم السبت 17 / 4 / 1993 . ص 6 حيث امتدحها الكاتب كمال عبد الرؤوف – ورغم أن الإنصاف يقضي بالإشادة بموقفها في قضية البوسنة إلا أنه – في الوقت ذاته لا يمكن نسيان أو تناسي مواقفها المتصلبة تجاه العراق وفلسطين ويبدوا أن آراء السياسيين تختلف حسب موقع صاحبها في السلطة أو خارجها .

(3) الأخبار 27 / 5 / 1993 الصفحة الأخيرة في ثنايا مقال الأستاذة / مها عبد الفتاح ، حيث أوردت بعض تصريحاتهم .

(4) كارثة الخليج وأزمة الشرعية ص 340 .

المبحث الثالث

نظام التجمعات الاقتصادية العملاقة

تقوم هذه التجمعات في البداية على أساس اقتصادي بحت . ولقد كان من الآثار المباشرة لتفكك الاتحاد السوفيتي السابق ظهور تيار جديد يضع العامل الاقتصادي في مقدمة أسباب الصراع والمنافسة في العالم الجديد .

ومن هؤلاء الدكتور : سليم الحص ، الذي رأى في محاضرة ألقاها في الجامعة الأمريكية في بيروت ، أن النظام الدولي الجديد « سيكون نظام التجمعات الاقتصادية العملاقة ولا مكان فيه للصغير » [1] .

والمثال الأكثر وضوحا في هذا المقام يتجلى في التكتل الجديد الذي ظهر هناك على الجانب الآخر من الأطلنطي حينما توصلت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسيك في الثاني عشر من أغسطس عام 1992 – وبعد شهر من المفاوضات الشاقة – إلى اتفاقية لإقامة منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية المعروفة اختصارا باسم « نافتا » ، أصبحت أكبر تجمع تجاري يضم بمفرده ، 360 مليون مستهلك ، ويبلغ حجم التجارة السنوي له مائتي مليار دولار ، كما يبلغ الناتج المحلي له ستة مليارات من الدولارات سنويا ، بل إن حجم إجمالي الدخل السنوي يمكن أن يصل إلى 6200 مليار دولار [2] .

وتبرز هذه الأرقام مدى ضخامة هذا التكتل الجديد الذي يفوق المجموعة الأوروبية بمراحل عديدة إن على الصعيد الاقتصادي أو السياسي .

فعلى الصعيد الاقتصادي ، يتضح من مراجعة الجدول التالي مدى تفوق الـ « نافتا » على المجموعة الأوروبية في نصيب الفرد من الدخل وإجمالي القوة العاملة ومعدل نمو دخل الفرد السنوي ، كما تتفوق الـ « نافتا » في نسبة الإنفاق الصحي والعسكري من الدخل القومي ، ناهيك عن المساحة الجغرافية الهائلة .

في الوقت ذاته الذي يقل فيه معدل البطالة في دول النافتا عنه في المجموعة الأوروبية ،

---

(1) النظام العالمي الجديد .. ملامح ومخاطر ص 99 .

(2) ينظر : القطب الأمريكي . محاولة الانطلاق وتحديات المنافسة – حسين معلوم ، السياسة الدولية ع 112 أبريل 1993 – ص 173 .

ويحدث الشيء نفسه عند مقارنة المعدل السنوي للتضخم في الكتلتين [1] .

التكتل / المؤشــــــــــــــر	المجموعة الأوروبية	النافتــــــــا
نصيب الفرد من الدخل	12,8 ألف دولار	21 ألف دولار
القوة العاملة	8 , 44 % من السكان	9 , 49% من السكان
معدل نمو دخل الفرد السنوي	% 1 , 4	% 1 , 7
معدل البطالة	% 8 , 5	% 5 , 7
نسبة الإنفاق العسكري من الدخل القومي	% 3 , 1	% 5 , 5
المساحة	230 مليون هكتار	1840 مليون هكتار
المعدل السنوى للتضخم	% 7	% 4 , 1
نسبة الإنفاق الصحي من الدخل القومي	% 7 , 3	% 11

وعلى الصعيد السياسي ، يتكون تكتل النافتا من ثلاث دول فقط ، مما يعطيه المرونة والسرعة في اتخاذ القرار وتوحيده ، بعكس الاتحاد الأوروبي الذي يضم 15 دولة حاليا ، الأمر الذي يعرقل عملية اتخاذ القرارات ويضيع الجهود في محاولات التوفيق بين الآراء المتعارضة داخل المجموعة مثلما حدث في مسألة توسيع المجموعة ومسألة الأمن الأوروبي ... وغيرها من المسائل التي سيأتي تفصيل الحديث عنها في الفصل التالي .

وخلاصة الأمر أن تكتل النافتا يتمتع بالعديد من المزايا الجغرافية والاقتصادية والسياسية التي تضعه في مرتبة أعلى من المجموعة الأوروبية ، وإن كان الاثنان معا يسيطران على نحو 57 % من الدخل العالمي (النافتا 29 % والمجموعة الأوروبية 28 %) على نحو 54 % من إجمالي قيمة الصادرات في العالم (النافتا 16 % ، والمجموعة الأوروبية 38 %) وهما اللذان يضمان 13 % فقط من سكان العالم ، كما يبينه الجدول التالي [2] :

---

(1) يراجع : النافتا ... عوامل القوة وآفاق المستقبل : أحمد محمد فرج ، السياسة الدولية ع (111) يناير 1993 م ص 119 .

(2) المرجع السابق ص 120 .

المؤشر	مجموع الدول الثلاث	النسبة من العالم	نسبة المجموعة الأوروبية من العالم
عدد السكان	363 مليون	7 %	6 %
الدخل القومي	6457 مليار دولار	29 %	28 %
الصادرات	576 مليار دولار	16 %	38 %
إنتاج النفط	6 , 11 مليون برميل يوميا	19 %	الأوبك 40 %
إنتاج السيارات	7204 مليون سنويا	5 , 21 %	39 %

وإن كان لهذا الأمر من دلالة فإنه يدل على سيطرة هذين التكتلين على الاقتصاد العالمي وإذا وضعنا في الاعتبار نجاح عملية توسيع التكتلين فإن الأمر سيزداد خطورة بالنسبة لبقية دول العالم فالمجموعة الأوروبية نجحت بالفعل في ضم كل من : النمسا ، والسويد ، وفنلندا ، إلى الاتحاد الأوروبي ، وتنتظر دول أخرى دورها .

وعلى الجانب الآخر فإن الحلم الأمريكي بتكوين منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية والجنوبية « الناسافتا » بدا قابلا للتحقيق بعد ما وقعت الولايات المتحدة 16 اتفاقية تجارية مع دول أمريكا اللاتينية كما أن المجموعات الاقتصادية في القارة الأمريكية الجنوبية يمكنها أن تتقارب لتمهد الطريق أمام الانضمام الجماعي للنافتا وهذه المجموعات هي :

1 – مجموعة الإنديز : وتضم فنزويلا وكولومبيا وبوليفيا وبيرو وإكوادور .

2 – مجموعة ميركوسور : وتضم الأرجنتين والبرازيل وأورجواي وباراجواي .

3 – مجموعة الكاديكوم : وتضم دول الكاريبي الناطقة بالإنجليزية .

4 – إحياء السوق المشتركة لدول أمريكا الوسطى ، وتضم جواتيمالا والسلفادور ونيكاراجوا وكوستاريكا وتتدافع دول أمريكا الجنوبية فرادى وجماعات للانضمام إلى النافتا [1] .

وعلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية .. تجرى محاولات لتكوين كتلة اقتصادية تضم الدول ، حديثة التصنيع في جنوب شرقي آسيا . واليابان أيضا تحاول من جانبها

---

(1) المرجع نفسه ، يراجع ص 121 - 122 ، وقد تم التوقيع فعلا بين 34 دولة من أمريكا الشمالية والجنوبية على إقامة هذا التكتل عام 2005 ، ينظر الأهرام 3 / 12 / 1994 م ، ص 9 ، 21 / 12 / 1994 ص 4 .

تكوين جبهة اقتصادية أسيوية عملاقة لتواجه التكتل الأوروبي ونظيره الأميريكي . ولكن كافة المحاولات في هذا الاتجاه لم تتعد بعد مرحلة الأمنيات الطيبة والأفكار الحالمة .

كما تجرى في هذه الآونة مشاورات ومباحثات جادة لإقامة منطقة تجارة حرة بين دول المحيط الهادي في آسيا وأمريكا ، وتضم عددا كبيرا من الدول المطلة على هذا المحيط ، من بينها الولايات المتحدة ، كندا ، المكسيك ، اليابان ، الصين ، أندونسيا ، هونج كونج ، وعدد من دول شرق آسيا وأمريكا اللاتينية (18 دولة) ويسمى هذا التجمع الجديد بـ « آبيك » ويخطط لإتمام المشروع في عام 2020 . [1]

ولقد بدأت بالفعل الإجراءات التنفيذية العملية لإتمام مشروع منطقة التجارة الحرة لدول جنوب شرق آسيا والمحيط الهادي [آبيك] ، حيث يعقد زعماء وقادة هذه الدول مؤتمر قمة سنويا لمتابعة تنفيذ المشروع .. وفي اجتماع قمتهم الأخير في العاصمة الفلبينية « مانيلا » اتفق القادة على تحرير التجارة بين الدول المتقدمة في المجموعة بحلول عام 2010 بينما مُنحت الدول النامية مهلة حتى عام 2020 لتحقيق هذا الهدف .. ومما يجدر بالذكر أن دول الـ « آبيك » تستحوذ على 40% من حجم التجارة العالمية ، كما يشكل ناتجها الصناعي أكثر من نصف الإنتاج العالمي ، ويتجاوز إجمالي عدد سكانها نصف سكان الأرض [2] .

يتجه العالم كله إذا إلى التكتل والاندماج ، ويحدث هذا في الوقت الذي يغيب فيه عالمنا الإسلامي والعربي في سبات عميق ... وأصبح الحديث عن السوق الإسلامية المشتركة أو نظيرتها العربية مجرد مادة إعلامية دسمة لا تفيد إلا في التصريحات الصحفية التي تصدر بعد كل مؤتمر لمنظمة المؤتمر الإسلامي أو جماعة الدول العربية .

يحدث هذا في الوقت الذي تتوافر فيه كافة المقومات اللازمة لتحقيق التكامل والاندماج بين الدول الإسلامية ومن الممكن لو خلصت النيات واعتصم الجميع بحبل الله المتين واجتمعوا على كلمة سواء أن يبرز إلى الوجود تكتل إسلامي له كيانه القوي من حيث المساحة والثروة . إذ يملك المسلمون الرصيد الإيماني الذي يدفعهم إلى التكامل والوحدة فهم أمة واحدة . بعكس التكتلات الأخرى القائمة على المصلحة المادية وحدها ، والتي لا تصلح كأساس ثابت لوحدة طويلة الأمد .

---

(1) ينظر : الأهرام 15 / 11 / 1994 ص 4 ، الأخبار 30 / 11 / 1994 ص 2 .
(2) ينظر : الأهرام 24 / 11 / 1996 م ص 5 .

المبحث الرابع

غلبة الرأسمالية وتوحد أهداف القوى الكبرى لتغريب العالم

أ – بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية أصبح الفكر الرأسمالى المذهب السائد في النظام الدولي الجديد ، بل وصل الأمر بأحد مسؤولي وزارة الخارجية الأمريكية وهو « فرنسيس فوكوياما » النائب السابق لمدير مجموعة تخطيط السياسة بالوزارة إلى اعتبار أن الانهيار الشيوعي يعني نهاية التاريخ . وأن المذهب الرأسمالي سيظل إلى الأبد ، وأصدر كتابا تضمن خلاصة أفكاره ، وأثار جدلا واسعا على مستوى العالم .

ولئن كانت أفكار فوكوياما تجنح إلى المبالغة ؛ فإن كثيرا من الباحثين يرون أن النظام الدولي الجديد هو نظام الأيديولوجية الرأسمالية الأحادية ، ومن هؤلاء الأستاذ / جميل مطر الذي يقول : « تكاد الرأسمالية تكون « الأيديولوجية الرسمية » للنظام الدولي في مرحلته الانتقالية الراهنة وأقول « تكاد » لأنها لم تتمكن بعد من إزاحة منافستها الاشتراكية من معقل اشتراكي مهم في الصين الشعبية ، وفي حفنة من الدول الصغيرة ، أي أنها لم تهيمن بعد هيمنة كاملة ، رغم أنها تسعى لهذه الهيمنة الكاملة . ولذلك يمكن القول – مع تجاوز بسيط – أننا نعيش مرحلة أحادية الأيديولوجية » [1] .

ولقد أسهب الرئيس الأمريكي السابق « جورج بوش » في الحديث عن مساوئ الشيوعية والاشتراكية وعن المكاسب التي تنتظر العالم من جراء انتصار مفاهيم اقتصاد السوق وإلغاء سيطرة الدولة على الاقتصاد ، وذلك في الخطاب الذي ألقاه في الجمعية العامة للأمم المتحدة [2] .

والحقيقة أن تلك النغمات الانتصارية عن موت الاشتراكية وسيادة القيم الرأسمالية وعن رذائل الأولى وفضائل الثانية ، إن هي إلا نغمات شاذة لا تعبر عن الحقيقة بأي حال من الأحوال . فما خرجت الاشتراكية والرأسمالية إلا من تحت عباءة الفكر المادي ، البعيد عن القيم والفضائل ، والقائم على المادية البحتة ، وما الصراع بين الفكر الاشتراكي

---

(1) من تعقيب جميل مطر في ندوة العالم الإسلامي والمستقبل مرجع سابق ص 77 .

(2) يراجع خطاب الرئيس الأمريكي في : التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ، ص 27 - 31 .

وصنوه الرأسمالي إلا نزاع عائلي بين طرفين من أسرة واحدة .

ولنستمع إلى أحد مفكري الغرب ليقرر تلك الحقيقة بنفسه ، يقول المؤرخ الإنجليزي الأشهر « أرنولد توينبي » :

« إن المنافسة بين الاتحاد السوفيتي وبين الولايات المتحدة على زعامة العالم ، وبين المذهب الحر والشيوعية ، هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي » [1] .

وما دام الأمر كذلك فإن تغييرا جوهريا لم يحدث ، بل حدثت تغيرات في شكل النظام الدولي فقط ، وبقيت الحقيقة التي يعبر عنها الدكتور / سعد الدين السيد صالح ، حينما يصف النظام الدولي الجديد بأنه « نظام جاهلي بحت ، لا يضع اعتبارًا لغير المادة وعبادة القوة ، فالمحرك الأساسي له الاقتصاد والمصالح والمنافع الدنيوية ، ولا مجال فيه لقيم الأخلاق ولا مبادئ الأديان السماوية الصحيحة ، فالفلسفة التي يقوم عليها هذا النظام هي الفلسفة البراجماتية النفعية التي تربط الحق والعدل والخير بما ينتج عنهم من منافع مادية » [2] .

ولا شك أن الإسلام الحنيف بمواءمته بين المادة والروح يقف على النقيض من هذا النظام المادي البغيض .

ب – أظهرت التطورات الجارية الآن على الساحة الروسية أن الاتجاه العام للدول الكبرى أصبح واحدا وأصبح الجميع يلتقون على أهداف واحدة ، بعد زوال التناقضات الثانوية الشكلية بين الرأسمالية والشيوعية بزوال الأخيرة .

من هنا أصبح التحرك على الساحة الدولية يتم لمصلحة الكبار جميعا ، وبالتفاهم التام بينهم ، والواقع أن جميع قرارات مجلس الأمن – التي صدرت أو التي ستصدر – يجب أن تدور بشكل أو بآخر – حول مصالح « الدول الدائمة العضوية في المجلس » وإلاجوبهت بالفيتو من أي منها ، وغني عن القول ، أن قرارات المجلس التي صدرت بصدد « حرب الخليج » وما أعقبها ، إنما هي في الإطار ذاته ... واستنادا إلى هذه التجربة الناجحة ، فقد أصبحت هناك قناعة أمريكية – أوروبية مؤداها أن « الردع الجماعي » الذي يهدف إلى تطبيق قرارات مجلس الأمن – والتي تكون قد اقترحتها أو تبنتها دول الشمال – إنما هو الوسيلة الفضلى لتأمين نظام عالمي مسالم وفاعل .

---

(1) المواجهة بين الإسلام والغرب / د . محمد مورو ص 27 ، ط أولى 1413 هـ 1993 .

(2) النظام العالمي الجديد ... رؤية إسلامية ، د . سعد الدين السيد صالح ، ص 27 .

ولتأمين هذا الدور المضمون بدأت السياسة الدولية تتسم بطابع جديد ينم عن وحدة دول الشمال من جهة ، وتكييف دور مجلس الأمن مع هذه الوحدة من جهة ثانية [1] » .

جـ – أصبحت الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة بعد حرب الخليج الثانية – في وضع يسمح لها بحرية الحركة عالميا بعد الانتصار الهائل في المعركة غير المتكافئة .

ومن ثم أرادت تلك الدول استثمار نتائج الحرب في محاولة « تغريب العالم » بمعنى فرض القيم والممارسات الغربية على المستوى العالمي .

والواقع أن هذه المحاولة ليست جديدة ، بل إنها تضرب بجذورها في أعماق تاريخية بعيدة ولكن الانتصار الهائل في الخليج أعطاها دفعة قوية وأسلوبا جديدا يهدف إلى المواجهة المباشرة مع القيم المعارضة والاتجاهات المناقضة .

ولعل أوضح الدلائل في هذا الاتجاه ما حدث في الاتحاد السوفيتي سابقا ، فرغم إيماننا الكامل كمسلمين بحتمية سقوط الشيوعية لمعارضتها الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ، إلا أنه لا يمكن إعفاء الغرب من دوره في تسريع إيقاع عملية السقوط والانهيار فالغرب الأمريكي والأوروبي كان يسعى إلى إنهاء النظام القائم في الاتحاد السوفيتي وكذلك في أوروبا الشرقية وفي أماكن أخرى كالصين مثلا . فالمطلوب – من وجهة نظر الغرب – كان ولم يزل – تغيير الأنظمة اليسارية في العالم ، وإحلال القيم والممارسات الغربية محلها ، من خلال تبني الأسس التي يعتنقها الغرب السياسي مثل : حقوق الإنسان الفرد قبل حقوق المجتمع أو الشعب ، والديمقراطية التمثيلية ، والسوق الاقتصادية الحرة ... إلخ .

وعلى هذا الأساس كان زعماء الغرب الأمريكي والأوروبي يتريثون في تقديم أي مساعدة للاتحاد السوفيتي طالما أن نظامه السياسي لم يتغير [2] .

ولم يقدم الغرب المساعدات التي وعد بها السوفيت ، ولم يكتف بذلك ، بل وضغط على الجانب السوفيتي حتى تفكك الاتحاد وانهار تماما في نهاية عام 1991 م [3] .

---

(1) النظام العالمي الجديد .. ملامح ومخاطر ، ص 72 بتصرف يسير .

(2) النظام العالمي الجديد .. ملامح ومخاطر ، ص 74 .

(3) تكشفت في الآونة الأخيرة معلومات عن مساهمة بابا الفاتيكان الحالي « يوحنا بولس الثاني » في مؤامرة مع المخابرات الأمريكية لتسريع إيقاع عملية تدمير الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية سابقا .. فقد أصدر الكاتب الأمريكي « كارل برنيشتاين » والإيطالي « ماركو بولتين » كتابا تحت عنوان : « جون بول الثاني .. والتاريخ الخفي لعصرنا » ، كشفا فيه عن قيام مدير المخابرات المركزية الأمريكية في عهد الرئيس « رونالد ريجان » بزيارات منتظمة للفاتيكان تبادل فيها مع =

والحالة الصينية أيضا شاهدة على قضية تغريب العالم ، حيث تتوالى الضغوط من كل جانب على الحكومة الصينية لتسرع خطاها في مسار الأخذ بالنمط الغربي في الحياة ، وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير » (1) .

وتبدو الصورة في عالمنا الإسلامي أشد وضوحا ، فكل دولة تخرج عن الخط الغربي ، ولو ظاهريا على الأقل فإنها سرعان ما تواجه حملة غربية شعواء تقذفها بحمم من الاتهامات التي تتراوح ما بين الرجعية ومساندة الإرهاب وصولا إلى اتهامها بزعزعة الأمن والاستقرار ليس فقط على المستوى المحلي أو الإقليمي بل على المستوى الدولي .

= البابا معلومات غاية في الأهمية وصورًا لمنشآت معيّنة في الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية تم التقاطها عن طريق أقمار التجسس الصناعية .. وأكد الكاتبان أن التعاون بين الجانبين قد وصل إلى حدود بعيدة .. وأورد الكاتبان تعليق البابا على دوره في انهيار الكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتي بقوله : « إن الشجرة كانت مهترئة بالفعل ، وقد قمت بهزها بشكل طيب فسقطت ثمار التفاح النتنة » . يراجع : الأهرام 5 / 9 / 1996 م ص 4 .

(1) يراجع : رؤية مستقبلية لواقع المتغيرات داخل الصين . محمد إبراهيم الدسوقي . السياسة الدولية : ع 112 [أبريل 1993 م] . ص 152 : 155 .

المبحث الخامس

السيطرة اليهودية على النظام الدولي الجديد

لا يعد من قبيل المفاجأة كون النظام الدولي الجديد صناعة يهودية صليبية وإلحادية مشتركة ، فلقد لعب اليهود دورا كبيرا في تشكيل النظام الدولي قديمه وجديده .

ولقد أصبح من البدهيات الآن أن اليهود كانوا وراء الكثير من الأحداث الدولية التي شكلت النظام الدولي في القرون الأربعة الأخيرة .

وليس المقام مقام تفصيل وإسهاب ، ولكن بات من المؤكد أن اليهود كانوا المحرك الأول للثورة الإنجليزية (1640 - 1660 م) وكذلك ثورة 1830 . وقد لعب آل روتشيلد دورا خطيرا في التاريخ البريطاني [1] .

وفي عالمنا الإسلامي ، تمكن اليهود من القضاء على الخلافة العثمانية بعد تدبير عدة مؤامرات تهدف في النهاية إلى إسقاط الخلافة ، وتمزيق أواصر الدولة العثمانية ، تمهيدا لإقامة دولتهم المغتصبة لفلسطين السليبة . الأمر الذي تحقق لهم فعلا بعد نجاحهم في تسخير القوى العالمية الكبرى . بإحكام سيطرتهم على مقاليد الأمور فيها – لمؤازرتهم ونصرتهم [2] .

وبعد قيام الدولة اليهودية ، استطاعت الحفاظ عل كيانها والتوسع في مساحتها بالعدوان على الدول العربية واحتلال أجزاء شاسعة منها ... يحدث هذا كله تحت مظلة حمائية كفلتها الدول الغربية عموما والاتحاد السوفيتي السابق خصوصا والولايات المتحدة الأمريكية على وجه أخص .

ولقد كان لليهود الدور الأكبر في سقوط المعسكر الشيوعي وذلك منذ عام 1989 م . وليس أدل على ذلك من أن اليهود سيطروا على جميع الحركات الشعبية والانتفاضات الهائلة التي قامت لإسقاط الحكم الشيوعي في بلدان شرق أوروبا .

---

(1) للوقوف على تفاصيل الدور اليهودي في تحريك الأحداث الدولية واستغلالها ، يرجى الرجوع إلى الكتب التالية :

* أحجار على رقعة الشطرنج . وليام غاى كار ترجمة : سعيد جزائرلي . مراجعة وتقديم : م . بدوي .
* حكومة العالم الخفية . شيريب سبريدوفيتش ترجمة : مأمون سعيد ، تحرير وتقديم : أحمد راتب عرموش .
* خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية عبد الله التل.
* نظرة حول المؤامرات الدولية اليهودية . د / سعيد محمد أحمد باناجة .

(2) عن الدور اليهودي في تقويض أركان دولة الخلافة .. يراجع : الماسونية – عقدة المولد وعار النهاية ص 214 - 260 ، ص 265 - 304 ، نظرة حول المؤامرات الدولية اليهودية ص 85 - 94 .

فالمجلس الانتقالي الحاكم في رومانيا – بعد سقوط نيكولاي تشاوشيسكو – كانت أغلبية أعضائه من اليهود ، كما أن المانيا الشرقية سابقا – وبعد سقوط « إيريك هونيكر » – أسلمت زمامها إلى « إيجون كرينز » ومن بعده « جريجور جيزي » وكلاهما يهوديان [1] .

فاليهود هم الذين أقاموا الشيوعية ، وهم الذين عادوا ليهدموها ، ولا عجب أن « الصهيونية العالمية هي الرأس المدبر لكل ما حدث اليوم ، فهي ترمي إلى أهداف قريبة وأخرى بعيدة . وقد استلزم تحقيق أهدافها البعيدة توحيد القوى العالمية حتى تستطيع أن تقيم دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات على حساب العرب والمسلمين » [2] .

وسوف أتحدث عن السيطرة اليهودية على النظام الدولي الجديد من خلال سيطرتهم على الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم على منظمة الأمم المتحدة .

الفرع الأول : اليهود والولايات المتحدة الأمريكية

أولا : نبذة تاريخية عن الوجود اليهودي في الولايات المتحدة :

كان التركيز اليهودي منصبا على الدول الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، ونجح اليهود في بسط هيمنتهم الكاملة على مراكز القوة في القارة الأوروبية .

وفي هذه الأثناء كان التواجد اليهودي على الساحة الأمريكية ضئيلا ، ولا أدل على ذ لك من أن عدد اليهود عند إعلان استقلال الولايات المتحدة لم يكن يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف ، ووصل عددهم إلى أربعة آلاف عام 1820 .

ويمكن تبين المراحل التالية في تاريخ الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة :

1 – الهجرة اليهودية الأولى : ويمكن حصرها بين عامي 1654 , 1825 ولم تحمل إلى « العالم الجديد » على مدى قرنين من الزمان تقريبا إلا أقلية ضئيلة من اليهود كانت تقارب الألفي نسمة فقط .

2 – هجرة اليهود الألمان ، على مدى القرن التاسع عشر خصوصا بين عام 1825 و 1894 ، والتي ارتفع معها عدد اليهود الأمريكيين خلال قرن واحد من ألفين إلي 250 ألف نسمة .

3 – هجرة يهود أوروبا الشرقية ، والتي تمت بين عامي 1881 وعام 1921 ، وهي أضخم

---

(1) وذلك حسبما ورد في تحليل لأحداث أوروبا الشرقية في إذاعة العدو الصهيوني .

(2) النظام العالمي الجديد .. رؤية إسلامية ص 8 .

الهجرات اليهودية إلى أمريكا وأكثرها تأثيرا في تكون المجتمع اليهودي فيها . إذ أنه خلال أربعين عاما وصل إلى الولايات المتحدة حوالي 3,5 مليون يهودي ، وارتفع بذلك عدد اليهود في أمريكا من 250 ألف نسمة عام 1880 إلى 4 ملايين و 200 ألف نسمة عام 1924 م .

4 – الهجرة اليهودية في ظل قانون الـ « كوتا » : وهو قانون أصدرته الولايات المتحدة للحد من ارتفاع معدلات الهجرة إلى أمريكا ، ولم يكن موجها إلى اليهود وحدهم ، بل كان شاملا للجميع ، ولكن أمريكا استغلت هذا القانون لتوجيه اليهود إلى فلسطين تمهيدا لإنشاء الوطن القومي لهم وإقامة دولتهم الغاصبة .

وتشير الإحصائيات إلى أنه من بين 2 مليون و 562 ألف يهودي أوروبي نزحوا من بلادهم بين عامي 1935 و 1943 لم تستقبل الولايات المتحدة منهم سوى 170 ألفا فقط ، كذلك لم تسمح الولايات المتحدة لأكثر من 25 ألف يهودي بالدخول إلى أراضيها بين عام 1945 وعام 1948 .

ثانيا : النفوذ اليهودي في المجتمع الأمريكي حاليا :

أما عن الوجود اليهودي في الولايات المتحدة حاليا ، فيبلغ عدد اليهود الأمريكيين حوالي 6 مليون نسمة يشكلون حوالى 43 % من مجموع يهود العالم ، وحوالي 60 % من مجموع اليهود المقيمين خارج الدولة اليهودية .

وتجدر الإشارة إلى أن 4 ملايين (من أصل 6 مليون يهودي أمريكي) يعيشون في 9 مدن أمريكية وضواحيها فقط . أهمها « نيويورك الكبرى » حيث يقيم ما يناهز المليونين ونصف المليون وتضم مدينة نيويورك ذاتها حوالي المليون وربع المليون يهودي ، وهي بذلك أكبر مدينة يهودية في العالم ، كما يتواجد اليهود بكثافة في المدن الكبرى مثل « لوس انجيليس » (نصف مليون) وشيكاغو (ربع مليون) إضافة إلى جاليات يهودية كبيرة في ميامي وبوسطن وواشنطن وبالتيمور .

ويعيش أكثر من 68 % من اليهود الأمريكيين في مدن يزيد عدد سكانها عن المليون نسمة ، بينما لا يعيش في هذه المدن سوى 30 % من الكاثوليك الأمريكيين ، و 10 % من البروتستانت الأمريكيين ، ولهذا التوزع الديني بين المدن الكبرى وسائر المدن والأرياف دلالته .

ويصل التمركز اليهودي في ولاية نيويورك إلى حد أن أكثر من ثلث يهود أمريكا يقيمون فيها كما تضم ولايتا نيويورك وكاليفورنيا وحدهما نصف يهود أمريكا ، بينما

يتوزع النصف الآخر على باقي الولايات .

وتواجد اليهود الفعال في ولايات كبيرة ونافذة سياسيا مثل (نيويورك وكاليفورنيا وفلوريدا ونيوجرس وميتشيجان وسلفانيا وماريلاند) ضاعف من تأثيرهم وقدرتهم على الضغط على المستوى الوطني [1] .

ولقد عمل اليهود - منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدامهم الأرض الأمريكية - على توطيد دعائم نفوذهم ، فعملوا بالتجارة ونشطوا في تحصيل المال بكل الطرق والوسائل حتى أصبح اليهود - الذين لا تتجاوز نسبتهم 2,5 % من إجمالي السكان - الطائفة الأكثر ثراء والأوسع نفوذا داخل الولايات المتحدة .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن التصنيف الذي تم حول الـ 400 شخص الأكثر غنى في الولايات المتحدة عام 1985 م أظهر أن بينهم 114 يهوديا - أي أكثر من الربع - وهي نسبة مرتفعة للغاية إذا ما أخذنا في الاعتبار نسبة اليهود إلى مجموع السكان والتي لا تمثل إلا 2,5 % كما سبق [2] .

والأمر الأكثر خطورة - في واقع الحال - يتمثل في السيطرة اليهودية شبه الكاملة على كل ما يمت بصلة إلى « صنع » الأفكار و « تسويقها » في الولايات المتحدة من الجامعات ، إلى مراكز الأبحاث ، إلى مجمل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية . ويقر « إيلي برنافي » بأن اليهود الأمريكيين يتمتعون بنفوذ بالغ في الصحافة والجامعات والعلوم والفنون في برودواي وهوليود - كما يعترف « آرتور هرتزيرنج » بأن الصناعة السينمائية الأمريكية لا تزال إلى حد كبير تحت سيطرة اليهود ، وأن أكثر من نصف رؤساء الجامعات الأمريكية الكبرى هم من اليهود [3] .

ويسيطر اليهود سيطرة كاملة على أكثر من 220 صحيفة يومية ومجلة (أسبوعية أو شهرية أو دورية) ووكالة أنباء ، جميعها يهودية 100 % وبعضها يصدر باللغة العبرية [4] .

« كذلك الشركات التليفزيونية الأمريكية الثلاث الكبرى قد أسسها يهود أمريكيون ، فضلا عن الصحافة الكبرى مثل الـ « نيويورك تايمز » والـ « واشنطون بوست » وغيرها ،

---

(1) يراجع في تفصيلات هذا الموضوع : تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا ، فيصل أبو خضرا ص 69 - 101 ، اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة وأوروبا فايز سارة ص 27 - 49 .

(2) يراجع : تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا « الموضع السابق » . (3) المرجع نفسه - يراجع - ص 96 .

(4) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية - يراجع - ص 208 .

والتي يملكها يهود أميريكيون أيضا » [1] .

ولا يخفى على أحد مدى التأثير الإعلامي على الفرد والمجتمع في أمريكا ، فإذا كان اليهود هم أصحاب السيطرة الحقيقية على وسائل الإعلام فهم - في الحقيقة - أصحاب السيطرة على المجتمع والدولة في الولايات المتحدة ، يساندهم في ذلك أنهم أصحاب الثروة ، وأنهم يتواجدون بكثافة عالمية في الولايات الأكثر أهمية في الاتحاد الأمريكي ، بالإضافة إلى السبب الأكبر وهو السبب الديني ، وسيأتي ذكره في حينه .

ولقد ساعد ذلك كله في بسط الهيمنة اليهودية الكاملة على أعلى مؤسسات الدولة الأمريكية ممثلة في البيت الأبيض ومن يحل فيه رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية .

ولقد بدأ النفوذ اليهودي البارز في الدوائر السياسية والاقتصادية والإعلامية الأمريكية منذ زمن بعيد ، والدليل على ذلك أن أول « دكتوراة » منحتها جامعة هارفارد في العام 1642 كانت بعنوان « العبرية هي اللغة الأم » وأول كتاب صدر في أمريكا كان « سفر المزامير » وأول مجلة كانت مجلة « اليهود » [2] .

ثالثا : رؤساء أمريكا ودورهم في تحقيق أهداف اليهود :

1 - **جيفر سون** : ولقد بلغ التأثير اليهودي مداه حتى بلغ حدا اقترح معه الرئيس « جيفرسون » اتخاذ رمز لأمريكا يمثل بني إسرائيل تظلهم غيمة في النهار وعمود من نور في الليل - بدلا من شعار النسر - وذلك توافقا مع ما يتضمنه سفر الخروج [3] .

2 - **بنجامين هاريسون** : وتطورت الأمور بعد ذلك سريعا ، وأصبح اليهود الأمريكيون غاية في النشاط لإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين ، واستطاعوا تسخير أرباب الكنيسة الإنجيلية للضغط على البيت الأبيض بهدف الحصول على التأييد الأمريكي لهذا المشروع .

وكان القس وليم بلاكستون من أنشط الدعاة في هذا المجال ، فقد تقدم بعريضة للرئيس الأمريكي بنجامين هاريسون في 5 / 3 / 1891 ، موقعا عليها من 413 شخصية أمريكية من السياسيين وأعضاء الكونجرس والقضاة ورجال الأعمال والصحفيين ، تأييدا

---

(1) تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا . ص 97 .

(2) الأصولية الإنجيلية (أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكي) محمد السماك ، ص 63 - 64 ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطا ط الأولى 1991 م .

(3) المرجع السابق ص 65 .

لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين [1] .

3 - **وودر ويلسون** : ثم جاء الرئيس وودر ويلسون ، الذي أحاط نفسه بمجموعة من المستشارين اليهود منهم برنارد روخ وهنري مورجانتو وفيلكس فرانكفورتر وغيرهم [2] .

ولقد كان لهم الأثر الأكبر في توجيه سياسة الولايات المتحدة نحو توطيد دعائم الوجود اليهودي في فلسطين ، ويتجلى ذلك في المذكرة التي بعث بها الرئيس ولسون إلى الحاخام ستيفن وايز يبلغه فيها بموافقته على وعد بلفور . ومما جاء فيها :

« راقبت باهتمام مخلص وعميق العمل البناء الذي قامت به لجنة وايزمان في فلسطين بناء على طلب الحكومة البريطانية ، وأغتنم الفرصة لأعبر عن الارتياح الذي أحسست به نتيجة تقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة والدول الحليفة منذ إعلان السيد بلفور باسم حكومته عن موافقتها على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، ووعده بأن تبذل الحكومة البريطانية قصارى جهدها لتسهيل تحقيق ذلك الهدف ... » .

وقبل ذلك بفترة ، كان الرئيس ويلسون قد وافق على وعد بلفور قبل صدوره ، بل وشجع الحكومة البريطانية على إصداره ، وقد بعث الكولونيل هاوس وهو أقرب المستشارين لقلب الرئيس برقية إلى الخارجية البريطانية في 16/10/1917 تتضمن موافقة ويلسون على إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين .

ثم أعلن الرئيس الأمريكي في أغسطس 1918 التأييد الصريح للمشروع قائلا : « أعتقد أن الأمم الحليفة قد قررت وضع حجر الأساس للدولة اليهودية في فلسطين بتأييد تام من حكومتنا وشعبنا .

هذا الموقف للرئيس الأمريكي أملته عليه بالدرجة الأولى تربيته الدينية كابن لقسيس إنجيلي يؤمن بأن الله أعطاه فرصة تاريخية لتحقيق الإرادة الإلهية بمساعدة شعب الله المختار على استعادة الأرض التي خصه الله بها [3] .

ولم يكن الرئيس الأمريكي وحده في الميدان ، فقد سارع الكونجرس الأمريكي بإعلان الدعم الكامل والتأييد المطلق لإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين وأصدر مجلس

---

(1) يراجع : المرجع نفسه ص 67 - 68 .

(2) يراجع : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص 201 - 202 .

(3) يراجع : الأصولية الإنجيلية ص 68 - 69 ، وتاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا ص 106 - 108 .

الشيوخ في يونيو 1922 بيانا جاء فيه : « إن الولايات المتحدة الأمريكية تؤيد إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وفقا للشروط التي يتضمنها وعد الحكومة البريطانية الصادر في الثاني من نوفمبر – تشرين الثاني – من العام 1917 والمعروف بوعد بلفور .

كما وافق مجلس النواب في نهاية الشهر نفسه على وعد بلفور في بيان جاء فيه : « حيث إن الشعب اليهودي كان يعتقد لقرون طويلة ويتشوق لإعادة بناء وطنه القديم ، وبسبب ما تمخضت عنه الحرب العالمية ودور اليهود فيها ، فيجب أن يمكن الشعب اليهودي من إعادة إنشاء وتنظيم وطن قومي في أرض آبائه ، مما يتيح لبيت إسرائيل فرصته التي حرم منها لفترة طويلة وهي إعادة تأسيس حياة يهودية وثقافة مثمرة في الأرض اليهودية القديمة ... » .

وفي 21 / 9 / 1922 وافق المجلسان معا على وعد بلفور كخطوة تأكيدية للموافقة المنفردة لكل منهما . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الولايات المتحدة شريكة بريطانيا في تنفيذ الوعد الذي أصبح وعدا بريطانيا أمريكيا مشتركا » [1] .

4 – **روزفلت** : وتعاقبت الحكومات الأمريكية ، وما برح النفوذ اليهودي يزداد وينمو ، حتى جاء روزفلت الذي شهد عهده بداية مرحلة جديدة ، تعد الأشد خطورة في تاريخ النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية . « فلقد كان روزفلت نفسه يهوديا ، واسم عائلته الأول « روزنفلت » ولذلك جمع في أيام حكمه أكبر عدد من اليهود وحشرهم في دوائر الحكومة ، ومكن اليهود من السيطرة على اقتصاديات البلاد ومواردها الطبيعية . وفي عهد روزفلت ، اتخذت نجمة داود وسليمان شعارا رسميا لدوائر البريد ، وللخوذ التي يلبسها الجنود في الفرقة السادسة ، وعلى أختام البحرية الأمريكية ، وعلى طبعة الدولار الجديد ، وميدالية رئيس الجمهورية ، وخفراء الشرطة في شيكاغو ، وشارة الصدر التي يضعها العمدة في كثير من المناطق [2] .

ولعل أهم ما قام به الرئيس روزفلت ، هو : « ممارسة الضغط على بريطانيا لحملها على التراجع عن الكتاب الأبيض للعام 1939 الذي نص على تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين . وذلك أن الصهيونية المسيحية التي كان يشارك روزفلت في الإيمان بها كانت ترى في هذا التحديد عرقلة لإرادة الله وتعطيلا للنبوءات المقدسة » [3] .

---

(1) المرجع السابق ص 70 - 71 .

(2) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص 202 .

(3) الأصولية الإنجيلية ص 73 .

5 – **هاري ترومان** : وحينما توفي روزفلت في 12 / 4 / 1945 خلفه نائبه هاري ترومان ، الذي يعد الأكثر تجسيدا للصهيونية الأمريكية في العصر الحديث فقد جمع حوله أقطاب اليهود ومكنهم من ناصية البلاد .

« وقد حث تورمان رئيس الوزراء البريطاني « آتلى » في 31/8/1947 على السماح لمئة ألف يهودي بالهجرة إلى فلسطين ، وذلك لتأمين أغلبية يهودية في فلسطين في ظل الانتداب البريطاني تمهيدا لتحويل فلسطين إلى دولة يهودية بعد إنهاء فترة الانتداب ... » .

كما اعترف ترومان فعليا بالكيان الصهيوني في 14/5/1948 وحتى قبل أن تطلب منه الحكومة الصهيونية ذلك بشكل رسمي ... ولم يكد يصدر الإعلان الرسمي بقيام الدولة اليهودية الغاصبة حتى بادرت الولايات المتحدة إلى تقديم منحة لها قدرها مئة مليون دولار مخصصة لمشاريع التنمية بالإضافة إلى قرض – تحول إلى منحة بقيمة 35 مليون دولار ...

وليس بعجيب على ترومان أن يفعل ذلك كله ، فلقد كان لتربيته الدينية الأثر الأساسي في هذا التوجه .. كان ترومان إبراهام لنكولن قد درس التوراة على نفسه ، وكان يؤمن بالتبرير التاريخي لوطن قومي يهودي وبأن وعد بلفور يحقق الآمال القديمة للشعب اليهودي .

كان ترومان – كمعمداني – يحس بشيء عميق له مغزاه في فكرة البعث اليهودي ، وكان معروفا عنه حبه للفقرة التوراتية الواردة في المزمار 137 والتي تبدأ بـ « لقد جلسنا على أنهار بابل وأخذنا نبكي حين تذكرنا صهيون » ولقد اعترف ترومان أنه ما من مرة قرأ فيها قصة إنزال الوصايا العشر في سيناء إلا وشعر بوخز خفيف يسري في عروقه ، وقد صرح بأن موسى تلقى المبدأ الأساسي لقانون هذه الأمة على جبل سيناء »[1] .

كما « صرح مرارا بأن كتابه المفضل هو التلمود »[2] .

6 – **آيزنهاور** : وجاء من بعد ترومان الجنرال آيزنهاور ، وهو من سلالة يهودية كسلفه ترومان . وقبل وصوله لسدة الرياسة كانت عواطفه يهودية صهيونية ماسونية ، وكان عضوا مؤازرا للجمعية الإرهابية اليهودية « بناى برث » وصديقا لجماعة « شهود يهوه » .. وظل آيزنهاور طوال مدة حكمه خادما أمينا لأهداف اليهود الماسونية ، فهو الحاصل على الدرجة 33 كسلفه ترومان .[3] .

---

(1) يراجع : المرجع السابق ص 74 - 77 .　　(2) خطر اليهودية ص 203 .

(3) خطر اليهودية ص 206 بتصرف .

7 – **ليندون جونسون** : واستمر الوضع قائما على حاله حتى جاء الرئيس ليندون جونسون الذي فاق جميع من سبقوه ، وقطع شوطا بعيد المدى في تأييده للدولة اليهودية .

« إن وصول ليندون جونسون إلى منصب الرئاسة الأمريكية بعد اغتيال جون كينيدي في تشرين الثاني / نوفمبر 1963 هو نقطة تحول رئيسية في تاريخ الأجهزة الصهيونية في الولايات المتحدة ، وفي تاريخ العلاقة الأمريكية الصهيونية .

فعلى الصعيد الرسمي كانت الولايات المتحدة ملتزمة – وبحزم – بمساندة الاستقلال السياسي ووحدة أراضي دول الشرق الأوسط . لكن « فريق الشرق الأوسط » التابع لجونسون تعمد أن يمكن الدولة الصهيونية سرا من إعادة رسم حدودها مع الدول العربية المجاورة كافة وفي شكل يخدم مصلحتها » [1] .

والتأييد الكامل للدولة اليهودية من جانب الرئيس جونسون ، يمكن أن نتلمس دوافعه الدينية بوضوح حينما نتأمل كلماته التي وردت في سياق خطاب ألقاه في جمعية أبناء العهد « بناى برث » اليهودية عام 1968 م حيث قال :

« إن معظمكم – إن لم يكن كلكم – لديكم روابط عميقة بأرض وشعب إسرائيل مثلي تماما ، لأن إيماني المسيحي ينبع منكم ، وقصص التوراة منقوشة في ذاكرتي تماما مثل قصص الكفاح البطولي ليهود العصر الحديث » [2] .

8 – **ريتشارد نيكسون** : وتتوالى الأيام وتتغير الأوضاع والأحوال ولا يبقى ثابتا في السياسة الخارجية الأمريكية إلا مبدأ واحد لم يتأثر بمرور الأيام أو تغير الأوضاع أو اختلاف الأشخاص ، ذلكم هو التأييد الكامل والإخلاص العميق للكيان اليهودي في فلسطين المحتلة .

ونترك المجال هنا للرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون للتعبير عن حقيقة الارتباط الديني بين الولايات المتحدة والدولة اليهودية الغاصبة .

يقول نيكسون في كتابه « 1999 نصر بلا حرب » ، وهو يتحدث عن حرب العاشر من رمضان « لقد أمرت في حرب 1973 ببدء جسر جوي ضخم للمعدات والمواد التي مكنت إسرائيل من وقف تقدم سوريا ومصر على جبهتين .. إن التزامنا ببقاء إسرائيل التزام عميق . فنحن لسنا حلفاء رسميين ؛ وإنما يربطنا معًا شيء أقوى من أي قصاصة

(1) يراجع : تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا ص 116 - 117 .

(2) اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة وأوروبا . ص 43 .

ورق . إنه التزام معنوي ، إنه التزام لم يخلّ به أي رئيس في الماضي أبدا ، وسيفي به كل رئيس في المستقبل بإخلاص ، إن أمريكا لن تسمح أبدًا لأعداء إسرائيل الذين أقسموا على النيل منها بتحقيق هدفهم في تدميرها .. » [1] .

ثم يعود نيكسون لتأكيد هذا الموقف بوضوح أكثر في كتاب جديد له صدر مؤخرا تحت عنوان « الفرصة السانحة » فيقول :

« إنني أتذكر بوضوح اجتماعا حدث في عام 1973 مع المسئولين بخصوص حرب الشرق الأوسط وكانت في بدايتها ، ولم تكن هذه البداية في صالح إسرائيل ، وعندما سأل أحد أعضاء الكونجرس إذا كانت الولايات المتحدة ستتخذ أي إجراء في هذا الشأن أجبته بلا مواربة : ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل ، وأمرت عندئذ بعمل جسر جوي ليدفع عن إسرائيل الهزيمة [2] » .

ثم يسير نيكسون في ركب من سبقوه في التأكيد على البعد الديني والتاريخي للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية رافضا بشدة أن تكون المصالح الاستراتيجية أو غيرها الرباط الجامع بينهما ، يقول نيكسون في هذا الصدد : " إن التزاماتنا تجاه إسرائيل عميقة جدا ، فنحن لسنا مجرد حلفاء ، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق ، نحن مرتبطون معهم ارتباطا أخلاقيا .

إن إسرائيل ليست مكسبا استراتيجيا للولايات المتحدة بخلاف الرأي السائد في هذا الشأن ، إن تعاوننا في أجهزة المخابرات والمناورات والمسائل الحربية مهم ولكنه ليس حيويا ، لقد أثبتت الجيوش الإسرائيلية حقًا كفاءتها في الحروب إلا أن تأثير إسرائيل محدود في المنطقة .

ولكن التزامنا تجاهها ينبع من ميراث قديم ، فلن يستطيع أي رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل » [3] .

9 - **جيرالد فورد** : وإنه ليحق للمرء أن يقذف بهذه الكلمات في وجه أولئك الذين

(1) 1999 نصر بلا حرب ص 291 .

(2) الإسلام وأمريكا .. حوار أم مواجهة (تحليل لكتاب الفرصة السانحة لريتشارد نيكسون) د . محمد مورو ص 69 .

(3) المرجع السابق ص 69 - 70 ولهذا لم أتعجب حينما أسهب رئيس وزراء الكيان الصهيوني في الثناء على نيكسون عند وفاته في 23 / 4 / 1994 فقد أشار رابين بمساندة نيكسون لإسرائيل في حرب أكتوبر 73 وقال : إن نيكسون تحدى العالم ليدعم بلاده في هذه الحرب وقال : إسرائيل فقدت صديقا ، الأخبار 24 / 4 / 1994 م .

يتحدثون عن أهمية الدولة اليهودية استراتيجيا وارتباطها مع أمريكا برباط المصلحة .
ومن هؤلاء الرئيس الأمريكي الأسبق جيرالد فورد الذي حاول تغليف البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الدولة اليهودية بغلاف المصلحة الاستراتيجية قائلا :

« إني مؤمن تماما بأن مصير إسرائيل مرتبط بمصالح الأمن القومي للولايات المتحدة . ومن ثم فإنه لا يمكن أن أقبل وضعا تلقي فيه الإدارة إسرائيل في عرض النيل » [1] .

10 – **جيمي كارتر** : ثم تأتي كلمات الرئيس الأسبق جيمي كارتر في الكنيست الإسرائيلي لتكون عنصر الحسم في هذه المسألة حيث خطب هناك في شهر مارس من العام 1979 م قائلا :

« جسد مَنْ سبق مِن الرؤساء الأمريكيين الإيمان ، بأن جعلوا علاقات الولايات المتحدة مع إسرائيل هي أكثر من علاقات خاصة . إنها علاقات فريدة لأنها متأصلة في ضمير وفي أخلاق وفي دين وفي معتقدات الشعب الأمريكي نفسه . لقد أقام كلا من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية مهاجرون رواد ، ثم إننا نتقاسم معكم تراث التوراة » [2] .

وتعد هذه الكلمات تفسيرا لما حدث بعد ذلك في انتخابات الرئاسة الأمريكية بين كارتر وريجان والتي كانت مسرحية هزلية بكل المقاييس . فلقد تبارى المرشحان – ومعهما المرشح الثالث أندرسون – في تقديم فروض الولاء والطاعة للكيان اليهودي الغاصب .

" ففي مؤتمر جمعية « بناى برث » اليهودية الأمريكية ، تكلم رونالد ريجان كتلميذ صغير يتلعثم في الامتحان أمام أساتذته ، فأكد أن إسرائيل جزء من استراتيجية الولايات المتحدة الشاملة وأن العلاقة القائمة بين هاتين الدولتين تمثل التزاما مثاليا ، وجدد العهود التي أخذها على نفسه بأن يرفض – متى تولى الرئاسة – قيام دولة فلسطينية وإشراك منظمة التحرير في أية مفاوضات تجرى لتسوية أزمة الشرق الأوسط .

وقال ريجان – بحركة تمثيلية بارعة – « إن كارتر يرفض وصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها منظمة إرهابية ، أما أنا فلا أتردد في ذلك !! »

وهرول كارتر في اليوم التالي إلي المؤتمر اليهودي ليتنصل من التهمة ويزايد على منافسه ، فأعلن أمام اللوبي اليهودي – وتحت نجمة داود – أن شيئا لن يؤثر على التزام بلاده نحو إسرائيل وأن القدس يجب أن تبقى موحدة إلى الأبد ، وأضاف : إنني فخور أنه

(1) اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة وأوروبا ص 43 .   (2) الأصولية الإنجيلية ص 85 - 86 .

خلال فترة رئاستي قدمنا نصف المساعدات التي تلقتها إسرائيل منذ قيامها قبل 32 سنة » .

واستطاع أندرسون المرشح الثالث أن يزج بنفسه في المناظرة فأفاض في اليوم الثالث بما أسعفته به القريحة من إشادة بإسرائيل وخدماتها الكبرى للإنسانية والحضارة .

وقد سبق لهذا المرشح أن سافر إلى تل أبيب ليؤكد لقادة الاحتلال الإسرائيلي تحيزه التام للصهيونية ، ويستجدي مقابل ذلك الأصوات اليهودية ، وكانت سابقة لا مثيل لها في التاريخ أن يذهب مرشح لأكبر منصب في أكبر دولة في العالم ، إلي دولة هزيلة تعيش على مساعدات بلاده ، ليستعين بعطفها على الفوز بمنصب الرئاسة في وطنه .

وقد أطال أندرسون الوقوف أمام حائط المبكى وهو يعتجر القلنسوة اليهودية ، ولولا خجله من ابنته التي كانت ترافقه لركع وبكى . وبلغ من غلوه في التصريحات وإسرافه في الوعود أن قال أحد المعلقين : يبدو أن أندرسون قد غدا أكثر صهيونية من مناحم بيجن [1] .

11 – **رونالد ريجان :** ولم يكن خنوع كارتر ولا خضوع أندرسون ليشفع لها عند أسيادهما من اليهود والصهاينة فلقد ذهب المنصب الرفيع إلى رونالد ريجان ، الذي قبع على العرش الأمريكي فترتين متواليتين ولم يكن له من المؤهلات السياسية أو الشخصية ما يستحق به هذا المنصب سوى أنه كان عبدا مخلصا للصهيونية ومثالا بارزا للصهيونية المسيحية .

فلقد كان ريجان يؤمن إيمانا عميقا بأن قيام دولة إسرائيل واحتلال مدينة القدس مقدمتان لحدث ثالث يتمثل في بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى .

إذ أن هذه الأحداث الثلاثة تعد في نظر الإنجيليين ضرورة لابد منها لوقوع معركة « هَرْمجَدُّون » وهي معركة نووية يعتقد الإنجيليون المتهودون أنها ستقع في سهل مَجِدُّون ... (القدس وعكا) وأن التنبؤ بها قد ورد في أسفار حزقيال ويوشع ويوحنا ، وتتلخص تلك النبوءة في أن قوات الكفار من المسلمين والملحدين سوف تدمر فيها تدميرا شاملا بواسطة حرب تشبه الحرب النووية ، وأن المسيح سوف يظهر فوق أرض المعركة ، ويرفع أجساد المؤمنين به ويخلصهم من الدمار ، ومن ثم يحكم العالم مدة ألف عام حتى تقوم الساعة .

ولقد كان رونالد ريجان من أشد الناس تمسكا بهذه العقيدة منذ كان حاكما لولاية كاليفورنيا وحتى انتهاء فترة رئاسته الثانية عام 1988 م » [2] .

---

(1) يراجع غطرسة أمريكا والقوة ص 55 ، 56 .	(2) يراجع الأصولية الإنجيلية ص 84 ، 86 .

ففي عام 1971 – وفي حفل عشاء – تحدث ريجان إلى جيمس ميلز الرئيس السابق لمجلس الشيوخ في ولاية كاليفورنيا قائلا : « إن جميع النبوءات التي يجب أن تتحقق قبل « هرمجدون » قد مرت ؛ ففي الفصل 38 من حزقيال أن الله سيأخذ أولاد إسرائيل من بين الوثنيين – حيث سيكونون مشتتين – ويعودون جميعهم مرة ثانية إلى الأرض الموعودة . لقد تحقق ذلك أخيرا بعد ألفي سنة ولأول مرة يبدو كل شيء في مكانه بانتظار معركة (هرمجدون) والعودة الثانية للمسيح .

وعندما ذكّر « ميلز » ريجان أن الشيء الوحيد الذي ينص عليه الكتاب المقدس بوضوح هو أن العودة الثانية للمسيح لا يعرف أحد متى ستحدث ، رد « ريجان » بصوت عال : إن كل شيء يأخذ مكانه ، لن يطول الوقت الآن . إن حزقيال يقول : إن النار والحجارة المشتعلة سوف تمطر على أعداء شعب الله . إن ذلك يجب أن يعني أنهم سوف يدمرون بالسلاح النووي » .

ولقد ظل ريجان على عقيدته تلك ، مؤمنا بها ، وداعية مخلصا لها ، في أكثر من مناسبة قبل توليه الرئاسة وبعدها – ففي عام 1976 ناقش ريجان معركة « هرمجدون » في مقابلة مسجلة مع « جورج أوتيس » الذي سبق له وأن تنبأ بوصول ريجان إلى الرئاسة . كما تحدث ريجان في الموضوع ذاته مع الإنجيلي « هارولد برتسون » .

وعندما كان ريجان مرشحا للرئاسة عام 1980 كان لا يزال يواصل الحديث عن « هرمجدون » فلقد قال للإنجيلي « جيم بيكر » في مقابلة تليفزيونية أجراها معه : إننا قد نكون الجيل الذي سيشهد « هرمجدون » وبعد أن تولى الرئاسة كشف ريجان عن تجذر العقيدة في نفسه فظل يواصل الحديث عن تلك المعركة :

* فلقد تحدث في هذا الشأن مع أحد أقطاب اللوبي الصهيوني وهو « توم داين » .

* ثم عاد ليخاطب الاتحاد الوطني للمذيعين الدينيين ثلاث مرات أعوام 1982 , 1983 , 1984، وفي خطابه عام 1983 كشف ريجان عن أهمية الكتاب المقدس في حياتة قائلا : بين دفتي هذا الكتاب الوحيد توجد جميع الإجابات على جميع المشاكل التي تواجهنا اليوم » .

* وقال « جيمس ميلز » : إن « ريجان » – كرئيس للولايات المتحدة – أظهر بصورة دائمة التزامه القيام بواجباته تماشيا مع إرادة الله ، وذلك كأي مؤمن آخر يحتل منصبا عاليا . وأضاف ميلز : إن ريجان كان يشعر بهذا الالتزام – بصورة أخص – وهو يعمل

على بناء القدرة العسكرية للولايات المتحدة وحلفائها (أي إسرائيل) [1] . وقال : « صحيح أن حزقيال تنبأ بانتصار جيوش إسرائيل وحلفائها في المعركة الرهيبة ضد قوى الظلام ، ومع ذلك فإن المسيحيين المحافظين مثل رئيسنا لا يسمح لهم السمو الروحي بأن يأخذوا هذا الانتصار كمسلَّمات .

إن تقوية قوى الحق لتربح هذا الصراع المهم هو في عيون هؤلاء الرجال عمل يحقق نبوءة الله انسجاما مع إرادته السامية ، وذلك حتى يعود المسيح مرة ثانية ليحكم الأرض ألف سنة » [2] .

وهذه الكلمات هي التفسير الوحيد والمعقول لهذا الكم الهائل من المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي قدمها ريجان للدولة اليهودية والتي لم يسبقه إليها رئيس أمريكي من قبله ، ناهيك عن معاهدة التحالف الاستراتيجي بين الدولتين والتي تم توقيعها عام 1983 م .

« وفي مطلع شهر أيلول (سبتمبر) 1982 قدم الرئيس ريجان مشروعه الشهير والذي عرف باسمه لحل أزمة الشرق الأوسط . وقد تضمن نص المشروع التزامه تأمين إسرائيل حيث قال : « لا يخطئن أحد الظن ، فإن الولايات المتحدة ستعارض أي اقتراح من أي جهة جاء وفي أية مرحلة من مراحل المفاوضات يعرض أمن إسرائيل للخطر ، إن التزام الولايات المتحدة تجاه إسرائيل التزام لا يتزعزع » [3] .

12 – **جورش بوش** : ويبدو أن عدوى الاندفاع وراء التأييد الكامل للكيان الصهيوني قد انتقلت من الرئيس ريجان إلى نائبة جورج بوش الذي انتخب رئيسا للولايات المتحدة عام 1988 ، ومنذ اللحظة الأولى لانتخابه قام بتسخير سياسة بلاده الخارجية لصالح الدولة اليهودية على طول الخط :

(1) فلقد مارس ضغوطا هائلة على الاتحاد السوفيتي السابق للسماح بتهجير اليهود السوفييت إلى فلسطين المحتلة ، وهو ما وقع فعلا على مدار الأعوام 1989 - 1991 بكثافة عالية واستمر بعدها وإن كان بمعدل أقل قليلا » [4] .

---

(1) ما بين القوسين زيادة من عندي لتوضيح قصد المتحدث ولقد أفصح هو نفسه عن أن إسرائيل هي المقصودة بتعبير « حلفائها » .
(2) يراجع في مسألة الخلفية الدينية للرئيس ريجان ؛ الأصولية الإنجيلية ص 86 - 94 .
(3) السلام الأمريكي في الشرق الأوسط .. الأهداف والنتائج د . حسين شعبان ص 118 ، الفكر الاستراتيجي العربي ، العدد 43 ، كانون الثاني (يناير) 1993 م .
(4) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 – يراجع ص 167 - 176 للوقوف على معدلات الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي سابقا إلى الكيان الصهيوني الغاصب .

ولقد أفصح دان كويل نائب الرئيس الأمريكي عن دور رئيسه في هذه العملية قائلا :

« لقد بذل الرئيس جهده في مسألة الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل التي شكلت مصدر اهتمام بالغ لليهود الأمريكيين ولشعب إسرائيل » [1] .

(2) كما أن الرئيس بوش أعلن في مؤتمر صحفي عقده في واشنطون بتاريخ 1991/9/12 أن بلاده قدمت إلى الدولة اليهودية مساعدات رسمية بلغت نحو 4,4 مليار دولار .

فإذا ما أضيف إلى هذه المعونة الرسمية ، ما تحصل عليه الدولة الصهيونية من معونات أخرى فإن المبلغ سيرتفع إلى 9,5 مليار دولار تحصل عليها من خلال بيع السندات الإسرائيلية في أمريكا (2 مليار) ومن المعونات غير المباشرة عبر العقود التقنية والعلمية والامتيازات التجارية الأخرى (2 مليار) وما تقدمه الجالية اليهودية الأمريكية (2 مليار) .

كل هذا دون حساب الكلفة الحقيقية التي تكبدها الدولة الصهيونية لأمريكا ؛ إذ تدفع أمريكا في المنطقة وحولها مبالغ هائلة لبناء استراتيجية إقليمية ملائمة لأمن الكيان الصهيوني ، فضلا عن خسائر أمريكا التجارية في العالم العربي ، مما يرفع الكلفة الإجمالية إلى أكثر من 20 مليار دولار سنويا ، ولقد بلغ حجم ما قدمته الولايات المتحدة للكيان اليهودي من المساعدات الرسمية والمعونات الخاصة والاعتمادات الطارئة والتعويضات والمنح الأخرى فيما بين عامي 1948 , 1990 حوالي 148 مليار دولار [2] .

(3) وفي اعتقادي أن جورج بوش قد عبر عن ولائه للصهاينة في عملين كان لهما أكبر الأثر في تشكيل المواقف في المنطقة في السنوات القليلة الماضية والسنوات المقبلة :

الأول : حرب الخليج الثانية 1991 : فلقد كان الحفاظ على تفوق الكيان اليهودي عسكريا على الدول العربية مجتمعة مبدأ ثابتا في السياسة الأمريكية . ولقد كان الجيش العراقي الضخم يمثل غصة في حلوق الصهاينة وأذنابهم . ورغم إيماننا العميق بأن تهديدات العراق للكيان الصهيوني لم تخرج عن إطار المزايدات اللفظية التي تعودها الناس من رجل عهده الناس في جميع مواقفه غوغائيا ذا تصريحات طنانة وتعبيرات ثورية فارغة المضمون ، ورغم إيماننا العميق كذلك بأن قوة الجيش العراقي لم تكن بهذه الضخامة ولا بهذا الحجم الهائل الذي صورته لنا وسائل الإعلام الغربية الواقعة في حبائل

---

(1) السلام الأمريكي في الشرق الأوسط ص 118 - 119 .

(2) يراجع : تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا ص 30 - 32 ، ص 163 - 182 .

الصهيانية وأتباعهم .

رغم الإيمان العميق بهذا كله ، إلا أن مجرد وجود جيش قوي في دولة عربية يمثل في حد ذاته خطرا هائلا يقض مضاجع الغربيين وينغص عليهم حياتهم . فتنادوا مصبحين واجتمعوا وأجمعوا على ضرورة القضاء على هذا الخطر قضاء مبرما . وبعيدا عن الغوص في بطون أحداث لم تظهر كافة حقائقها بعد ، وبعيدا عن الحديث عن افتعال أزمة الخليج – وإن كان هناك الكثير والكثير من علامات الاستفهام حول هذه القضية – إلا أن الرئيس العراقي – بجريمته الشنعاء وبعدوانه الأحمق على الكويت – قدم الفرصة الذهبية للجانب الآخر لتحقيق هدفه والوصول إلى غرضه ، فتم تحطيم القوة العراقية تحطيما ، سواء على الجانب العسكري أو الاقتصادي . وعن طريق قرارات مجلس الأمن ظل العراق تحت المراقبة الصارمة ولفترة غير محدودة .

وليس من باب الافتراء أو التجني الحديث عن تحطيم القوة العسكرية والاقتصادية العراقية في حرب الخليج الثانية . فكلمات رئيسة الوزراء البريطانية السابقة خير دليل على ذلك ، وقد سبق إيراد حديثها عن ضرورة تحطيم البنية العسكرية والصناعية العراقية ، وذلك قبل عدة أشهر من اشتعال نيران الحرب وبدء المعركة .

وقضية الارتباط التام بين حرب الخليج الثانية وسعي أمريكا الدائم للحفاظ على التفوق الصهيوني ، أكدها بكل وضوح الجنرال كولين باول رئيس هيئة الأركان المشتركة الأمريكية ، في خطابه أمام المؤتمر الثاني والثلاثين للهيئة الأمريكية الصهيونية للعلاقات العامة ، حيث تحدث باول في حضور ألفي مندوب من هذه الهيئة عن حرب الخليج الثانية فقال يوم 19 / 3 / 1991 : لن تضحي الولايات المتحدة بأمن إسرائيل على الإطلاق ، وقد أكدت ذلك عملية عاصفة الصحراء [1] .

أما « نورمان شوارزكوف » قائد القوات المتحالفة في حرب الخليج الثانية فكان أكثر صراحة ووضوحا ، حينما أعلن من القاهرة (!!) خلال شهر يوليو 1991 م الغرض الحقيقي والهدف الأساسي لهذه الحرب فقال : « إن حرب الخليج كانت من أجل أمن إسرائيل والمنطقة ، وإنني شخصيا سأكون مخلصًا لإسرائيل ، سواء كنت في الخدمة أو خارجها . » .

وأرجو أن لا تأخذك الدهشة أو يستدلي عليك العجب ، فالذي لا يعرفه الكثيرون أن

(1) اليهود والنفط والمستقبل ، خير الدين عبد الرحمن ، رسالة الجهاد ، السنة العاشرة العدد « 105 » جمادى الأولى 1411 هـ / ديسمبر 1991 م ص 122 .

قائد الحملة الدولية على العراق كان يهوديا !!! [1] .

ولقد قالت مجلة نيوزويك في عددها الصادر بتاريخ 3 / 9 / 1990 : « إن السبب الحقيقي للتدخل الأمريكي – والذي لن يجد بوش مناصا من مفاتحة الكونجرس بشأنه – لا يمت بصلة إلى البترول ، ولا إلى الكويت ، ولا إلى الدفاع عن السعودية ، وإنما تكمن القضية الحقيقية في مساعي بغداد للالتحاق بالنادي النووي [2] .

ولابد من إفساح المجال هنا لشاهد من أهلها ألا وهو « دان كويل » نائب الرئيس « جورج بوش » ليتحدث بكل صراحة ووضوح قائلا : « يجب النظر إلى الرئيس بوش على أنه صديق قوي وداعم لإسرائيل . ولننظر إلى السجل : إن صدام حسين الذي هو أكبر أعداء إسرائيل وجد آلته العسكرية مشلولة إلى درجة بالغة ، وهو الآن ليس بالقدر ذاته من التهديد الذي كان عليه ولن يتمكن إطلاقا وأبدا من أن يقوم مجددا بما قام به في الماضي » [3] .

ولا يملك المرء بعد هذا الاعتراف الصريح من هذا المسئول الكبير إلا أن يقرر أن التدخل الأمريكي في الخليج لم يكن في حقيقته – إلا عملا صهيونيا صليبيا – ويأتي معبرا عما التزمت به أمريكا أيام ريجان طبقا لمشروعه المذكور سابقا ، ولخطابه الذي أرسله إلى « بيجن » وناقشه مجلس الوزراء الإسرائيلي في 24 أبريل 1982 متضمنا ثلاث نقاط في مقدمتها : الحفاظ على التفوق الإسرائيلي كما وكيفا ... » [4] .

وقد استمر هذا الالتزام في عهد بوش ، ففي إحدى فقرات رسالة الضمانات الموجهة من الحكومة الأمريكية إلى حكومة الكيان الصهيوني قالت الحكومة الأمريكية : « إننا نعدكم أن التزامنا أمن إسرائيل باق بلا مساس . وكل من يحاول دق إسفين بيننا – في محاولة للمس بهذا الالتزام ، لا يستطيع أن يفهم العلاقة المتينة القائمة بين بلدينا وطبيعة التزامنا أمن إسرائيل ، بما في ذلك التزامنا المحافظة على تفوقها النوعي [5] .

الثاني : مؤتمر مدريد 1991 م : « إن مصلحة إسرائيل تكمن في التفاوض على السلام الآن وهي أقوى من خصومها ، بدلا من الانتظار حتى تُجبر قوتهم المتناميةُ إسرائيل على أن تفعل ذلك ...

---

(1) يراجع : أمة تنضج على النار المستشار الدكتور / علي جريشة . ص 38 .

(2) كارثة الخليج وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي ص 22 .

(3) السلام الأمريكي في الشرق الأوسط ... ص 118 .

(4) كارثة الخليج وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي ص 22 .

(5) السلام الأمريكي في الشرق الأوسط ص 118 .

إن مصلحة إسرائيل تتطلب تسوية سلمية لقضية الأراضي المحتلة في 1967 . فلو ضمت إسرائيل هذه الأراضي فستصبح دولة لحامية عسكرية مكونة من قوميتين ، يشكل فيها العرب المحرومون من حقوقهم نحو نصف سكانها . وبالإضافة إلى ذلك ، ففي ضوء معدلات المواليد المرتفعة للشعب الفلسطيني سرعان ما سيصبح الشعب اليهودي أقلية في الدولة اليهودية ، ولو استمرت إسرائيل في احتلالها العسكري واستيطانها التدريجي لهذه الأراضي ، فإنها ستوحد العالم العربي في النهاية في العداء لها ... ينبغي لأمريكا أن تستخدم نفوذها لجمع الطرفين معا وخلق حوافز للتسوية .. » [1] .

هذه مقتطفات من أقوال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتاب أصدره عام 1988 م وهي تبين – بكل وضوح – أن مصلحة الدولة اليهودية الغاصبة تكمن في السعي للحصول على السلام ، وأن الولايات المتحدة يجب أن تضغط بقوة لدفع هذه المسيرة السلمية إلى الأمام .

وهذا هو التفسير الصحيح للحركة الأمريكية النشطة في سبيل إنهاء حالة الحرب بين الدول العربية والكيان الصهيوني ، إنها حركة تصب – في المقام الأول والأخير – في مصلحة الجانب الصهيوني ، لأنه قد بات مؤكدا أن الكيان الصهيوني يريد أن يحقق عن طريق السلم ما لم يستطع الحصول عليه عن طريق الحرب .. فالعلاقات المتبادلة والحدود المفتوحة هي الطريق الأيسر والسبيل الأسهل لتحقيق الحلم القديم حلم إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات .

وما فعله « جورج بوش » في هذا المجال خدمة كبرى للدولة اليهودية . فلقد استغل الآثار النفسية الناشئة عن الانتصار الأمريكي المدوي في الخليج ، واستطاع أن يجمع الطرفين في مؤتمر مدريد لتبدأ من هناك مرحلة طويلة من المفاوضات التي لا تنتهي ، والتي يمارس فيها الجانبان اليهودي والأمريكي ضغوطا مكثفة للحصول على ما يريدون ، وعلى ما يجعل الحلم القديم سهل المنال .

ويعترف نائب الرئيس الأمريكي دان كويل بهذه الحقائق حينما يقول في سياق تدليله على كون الرئيس بوش صديقا قويا وداعما للدولة اليهودية .

« .. ونجح الرئيس بوش – للمرة الأولي – في جمع جيران إسرائيل معها في مفاوضات

---

(1) 1999 نصر بلا حرب ، يراجع 290 - 293 .

مباشرة وجها لوجه – علما بأنهم (الإسرائيليين) ومنذ إنشاء إسرائيل يقولون : إنهم يريدون المفاوضات المباشرة وجها لوجه مع جيرانهم ، والرئيس بوش حقق لهم ذلك » [1] .

(4) ولقد نصب جورج بوش نفسه محاميا عن الكيان الصهيوني ومدافعا عن الصهيونية ، في خطابه الذي ألقاه في الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 23 سبتمبر 1991 م ، داعيا إلى إلغاء قرار سابق للجمعية يجعل الصهيونية دعوة عنصرية يقول بوش :

... يجب علينا أن نشجع قضية الانسجام الدولي بمعالجة الخصومات القديمة ، ويجب علينا أن نأخذ على محمل الجد تعهد الميثاق « بممارسة التسامح والعيش في حسن جوار » .

إن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 3379 ، ما يسمى قرار « الصهيونية دعوة عنصرية » يسخر من هذا التعهد والمبادئ التي قامت على أساسها الأمم المتحدة ، وأدعو الآن إلى إلغائه . إن الصهيونية ليست سياسة ، إنها الفكرة التي أدت إلى إقامة وطن للشعب اليهودي ودولة إسرائيل – ومساواة الصهيونية بخطيئة العنصرية التي لا يمكن تحملها إنما هو تشويه للتاريخ ، ونسيان للمعاناة القاسية التي عاناها اليهود في الحرب العالمية الثانية ، وما عانوه في الواقع عبر التاريخ . إن مساواة الصهيونية بالعنصرية هو رفض لإسرائيل نفسها وهي من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة [2] . وتحقق حلم الصهيوني الأمريكي المسمى « جورج بوش » وألغت الجمعية العامة القرار المذكور .

يؤكد هذا الموقف – بما لا يدع مجالا للشك – الإيمان العميق بالمبادئ الصهيونية المترسخ في نفس الرئيس الأمريكي . وهو ما يفسر لنا موقفه فيما يسمى بمعركة المليارات العشرة .

(5) وخلاصة القضية أن الدولة اليهودية طلبت من الحكومة الأمريكية منحها ضمانات لقروض بقيمة 10 مليار دولار لتوطين اليهود السوفيت في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولكن الرئيس « بوش » طلب تأجيل البت في هذا الطلب لمدة 120 يوما . وهنا قامت قيامة جماعات الضغط اليهودية وشنت حملة شعواء على الرئيس وصلت إلى حد اتهامه بالعداء للسامية ، وهي أقسى التهم التي يوجهها اليهود إلى خصومهم . وعقد «بوش » مؤتمرا صحفيا انتقد فيه – بصورة غير مباشرة – اللوبي الصهيوني والضغوط التي يتعرض لها من قبله . وأصر بوش على موقفه بتأجيل البت في الطلب لمدة 120 يوما مما جعله هدفا لانتقادات لاذعة من جانب الحكومة اليهودية ووسائل الإعلام الخاضعة

---

(1) السلام الأمريكي في الشرق الأوسط ... ص 119 .   (2) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 29 .

للنفوذ اليهودي في الولايات المتحدة . وقد وافق الكونجرس على رغبة الرئيس بعد أن لوح باستخدام حقه في نقض أي قرار معاكس يتخذه الكونجرس .

وهنا تهللت أسارير السذج والبسطاء ممن لا يفهمون حقيقة العلاقة بين أمريكا والكيان الصهيوني وأخذوا يصفون موقف « بوش » بأنه موقف جريء واستثنائي وتاريخي ... إلخ [1] مع أن الرجل لم يرفض الطلب اليهودي بل طلب فقط تأجيل البت فيه مدة 120 يوما ، ريثما تقدم الحكومة الصهيونية ضمانات بعدم توطين هؤلاء المهاجرين اليهود في الأراضي التي احتلتها الدولة اليهودية عام 1967 .

ثم عاد بوش إلى مبادئه الصهيونية ، وخذل جميع من بنوا قصورا من الأوهام عن العلاقة الجديدة بين أمريكا والكيان الصهيوني ، حينما أعلن في شهر آب / أغسطس 1992 – وأثناء زيارة رئيس وزراء الكيان الصهيوني لواشنطن – موافقته على منح ضمانات القروض للدولة اليهودية متراجعا عن شروطه السابقة بوقف الاستيطان في الأراضي المحتلة ، ولم يكتف الرئيس الأمريكي « بالنبأ السعيد » الذي أعلنه وسط مظاهر حفاوة بالغة بـ « إسحاق رابين » بل حث حكومات الدول الأخرى أن تحذوا حذو واشنطن في مساعدة إسرائيل على استيعاب المهاجرين اليهود . ولم يفُت بوش بالطبع أن يؤكد أن السياسة الأمريكية ستستمر على مبدئها في أن تكون إسرائيل متفوقة نوعيا في القوة العسكرية في الشرق الأوسط » [2] .

13 – **بيل كلينتون** : ويبدو أن هذه التأكيدات لم تكن كافية لحصول « بوش » على منصب الرئاسة لفترة ثانية . بل حصل عليه من كان أكثر خضوعا للصهيونية وأكثر إخلاصا في التقرب إلى الكيان اليهودي ، إنه الرئيس الحالي « بيل كلينتون » الذي ما فتئ يقدم نفسه – خلال الحملة الانتخابية – كخادم أمين للصهيونية قائلا : « لن نخذل إسرائيل أبدا » [3] .

[1] كما وجه انتقادات حادة إلى خصمه الرئيس « بوش » مدعيا أن إدارته « قد أضرت ضررا بالغا بالعلاقات المتميزة مع إسرائيل ، حيث إنها – أي إدارة بوش – مارست الضغوط على إسرائيل لتقديم تنازلات من جانب واحد في عمليه السلام ،

---

(1) تبارى من يصفون أنفسهم بالخبراء والمحللين والمراقبين في الإشادة بموقف الرئيس الأمريكي وتحدثوا عن مرحلة جديدة في العلاقات الأمريكية الصهيونية . ينظر على سبيل المثال ، تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا ص 44 - 49 .

(2) السلام الأمريكي في الشرق الأوسط ... ص 131 . (3) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 55 .

وتجاهلت المقاطعة الاقتصادية القاسية والمعوقة من جانب الدول العربية ضد إسرائيل . أيضا رفضت إدارة « بوش » طلب إسرائيل للحصول على مساعدة إنسانية من أجل إعادة توطين اليهود الروس . وأخيرا أحدثت تآكلا في أمن إسرائيل ببيعها أسلحة متطورة بمليارات الدولارات إلى جيرانها العرب .

وخلص برنامج « كلينتون » بشأن العلاقة مع إسرائيل إلى التأكيد على معارضته للإجراءات التي اتخذتها إدارة « بوش » مؤكدا أنها ليست بأي حال هي الطريقة التي يُعامل بها صديق دائم وديمقراطية مستقرة ، وفيما يتعلق بعملية السلام أكد برنامج كلينتون أن الولايات المتحدة سوف تعمل مع حكومة إسرائيل من أجل دفع عملية السلام قدما ، مع التأكد على أن السلام الذي لا يوفر أمن إسرائيل لن يكون سلامًا آمنا ودائما . وأعاد التأكيد على أن القدس الموحدة هي عاصمة إسرائيل الأبدية والموحدة » [1] .

إن دلت هذه الآراء على شيء فإنما تدل على مدى التغلغل الصهيوني في قلب مؤسسة الرئاسة الأمريكية .

[2] وسرعان ما أخذ اللوبي الصهيوني في إحكام قبضته على الرئيس الجديد ، فبعد ساعات من إعلان فوزه بمنصب الرئاسة تحرك اللوبي الصهيوني لحصد ثمار جهده ، وتنفيذ مخططاته لإحكام السيطرة على الإدارة الجديدة .

وقد نشرت صحيفة الأهرام في صفحتها الأولى تحت عنوان : اللوبي الصهيوني ساوم كلينتون على منصبي وزير الخارجية ومستشار الأمن القومي ، أن رئيس اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة (إيباك) وهي أقوى مجموعات الضغط الصهيونية في أمريكا ، قدم استقالته بعد أن أذيع تسجيل لمكالمة هاتفية بينه وبين أحد المستثمرين اليهود في « نيويورك » أكد فيها أن الجماعة اليهودية (إيباك) تفاوضت مع الرئيس المنتخب بيل كلينتون حول اختيار وزير الخارجية القادم ومستشار الرئيس لشئون الأمن القومي كما أكد أن الجماعة توصلت بالفعل إلى اتفاق مع « جيمس بيكر » يتضمن منح إسرائيل ضمانات القروض الأمريكية التي تصل إلى 10 مليارات دولار بهدف إعادة توطين اليهود السوفيت ، فضلا عن المليارات الثلاثة التي تمنح لإسرائيل سنويا ، بالإضافة إلى مليار دولار أخرى في شكل بضائع [2] .

---

(1) المرجع السابق بتصرف يسير .

(2) الأهرام 6 / 11 / 1992 م . ص 1 .

[3] ثم تواصل الضغط الصهيوني على الرئيس الأمريكي بهدف استخدام نفوذ الولايات المتحدة لإجبار الدول العربية على التسليم والقبول التام لشروط الدولة اليهودية في عملية السلام وللوصول إلى الهدف النهائي بإنهاء المقاطعة العربية لإسرائيل . وكم من مرة تحدث فيها الرئيس الأمريكي ووزير خارجيته « وارين كريستوفر » عن هذه المقاطعة التي دائما ما توصف في الأوساط الأمريكية بأنها ظالمة قاسية لا مبرر لها [1] .

والعجيب أن وزير التجارة الأمريكي قد أثار هذا الموضوع في اجتماعه بالدكتور / عصمت عبد المجيد الأمين العام لجامعة الدول العربية . والأمر الأكثر عجبا أن نائب الرئيس الأمريكي « آل جور » جعل مقاطعة الدول العربية للكيان الصهيوني المادة الرئيسية لخطابه الذي ألقاه في المؤتمر العالمي الكبير الذي عقد بمدينة مراكش المغربية في 15 أبريل 1994 للتوقيع بالأحرف الأولى من قبل 124 دولة على اتفاقيات التجارة العالمية الجديدة وإنشاء المنظمة العالمية للتجارة . وطالب نائب الرئيس الأمريكي برفع المقاطعة ضد إسرائيل . كما أن الوفد الأمريكي في المفاوضات طالب بتوقيع عقوبات على الدول العربية التي تتمسك بمقاطعة الدولة اليهودية [2] .

ولابد من النظر إلى هذا الأمر بعين الاعتبار ، فالحكومة الأمريكية تجعل من نفسها حامي حمى المصالح الصهيونية . يحدث هذا في الوقت الذي نؤمن فيه إيمانا عميقا بأن هذه المقاطعة شكلية بحتة ولا تأثير واقعي لها على الإطلاق ، وأن بعض الدول العربية – للأسف الشديد – تهرول الآن نحو الدولة اليهودية تخطب ودها وتعرض الفرص المتاحة لعلاقات متينة وقوية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

[4] وأما عن أخطر المواقف الأمريكية المؤيدة للصهيونية فيتجلى في مسألة القدس والأراضي المحتلة عام 1967 م .

فلقد دأبت الإدارات الأمريكية المتوالية على الاعتراف – رسميا على الأقل – بالضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية كأراضي محتلة تنطبق عليها جميع قرارات مجلس الأمن الصادرة حول القضية الفلسطينية .

ولكن الإدارة الجديدة بدأت تعطي إشارات شبه رسمية لموقف جديد تمليه الاعتبارات

---

(1) تراجع أقوال الرئيس الأمريكي حول هذا الموضوع في : كلينتون بين التطبيع الآن والسلام غدا ، سعد الدين وهبة الأهرام 3 / 9 / 1994 ص 14 .

(2) الجات في خدمة إسرائيل ، سعد الدين وهبة الأهرام 23 / 4 / 1994 ص 20 .

الصهيونية والتي تدير دفة الأمور من خلف الستار .

وكانت البداية في الإذاعة الصهيونية حينما أوردت أن الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » أعلن أن القدس هي العاصمة الأبدية لإسرائيل ، وسرعان ما أصدرت السفارة الأمريكية بالقاهرة بيانا نفت فيه بشدة تلك الأنباء . وقال مكتب الإعلام بالسفارة : إن هذه التقارير خالية تماما من الصحة . وأشار إلى أن الرئيس « كلينتون » عبر عن سياسة الولايات المتحدة تجاه القدس في تصريح واضح أثناء المؤتمر الصحفي المشترك مع رئيس الوزراء الإسرائيلي يوم 16 مارس بالبيت الأبيض . وقال : إن الرئيس « كلينتون » أكد أن موقف الولايات المتحدة تجاه القدس لم يتغير ، ولكن هذا الموضوع متروك للأطراف لتقرره خلال المرحلة الأخيرة من المفاوضات [1] .

ويبدو أن هذا التراجع من جانب أمريكا لم يعجب قادة الصهاينة هناك ، فبادر خمسون من زعماء اليهود الأمريكيين إلى الاجتماع بالرئيس « كلينتون » وأعلن « ليستر بولاك » أحد زعماء اليهود أن كلينتون أكد خلال الاجتماع أن الوعد الذي قطعه على نفسه خلال حملته الانتخابية بأن القدس يجب أن تبقى عاصمة موحدة لدولة إسرائيل سوف يتحقق في عهد إدارته الحالية [2] .

وبالفعل وافق مجلس الشيوخ الأمريكي في 24 / 12 / 1995 م وبأغلبية ساحقة [93 صوتا مقابل 5 أصوات] على تشريع يقضي بنقل السفارة الأمريكية في الدولة اليهودية من تل أبيب إلى القدس ، باعتبارها عاصمة إسرائيل الأبدية الموحدة ، وذلك في موعد أقصاه 31 / 5 / 1999 م . وكان مجلس النواب هو الآخر قد وافق بأغلبية ساحقة على القانون ذاته . ومن المؤسف أن يصدر هذا القانون في الوقت الذي كان فيه ياسر عرفات في ضيافة زعماء اليهود في الولايات المتحدة [3] .

ولم يقتصر الأمر على القدس ، بل تعداها إلى مجمل الأراضي الفلسطينية التي احتلتها الدولة الصهيونية عام 1967 م . ففي معرض بيان موقف بلادها من قرار مجلس الأمن حول مذبحة الحرم الإبراهيمي قالت « مادلين أولبرايت » مندوبة أمريكا في الأمم

---

(1) الأخبار : 23 / 3 / 1994 م ص 1 .   (2) أخبار اليوم : 26 / 3 / 1994 ص 1 .

(3) الأهرام 25 / 12 / 1995 م ص 1 .. ومما يؤسف له كذلك أن الملك الحسن الثاني ملك المغرب قد صرح بأن استعادة العرب للقدس والسيطرة عليها نوع من الوهم . وأكد أن عودة القدس إلى الوضع الذي كانت عليه قبل احتلال اليهود لها عام 1967 م أمر مستحيل [ينظر الأخبار 10 / 11 / 1994 م ص 1] ومن المفارقات أن الحسن الثاني هو رئيس لجنة القدس في منظمة المؤتمر الإسلامي !!!

المتحدة بالحرف الواحد : « نحن لا نؤيد وصف الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب 1967 م بأنها أراضي فلسطينية محتلة » [1] . هذا هو الموقف الجديد لحكومة الرئيس بيل كلينتون .

وإحقاقا للحق ، فإن إدارة كلينتون لم تحظ وحدها بشرف خدمة الصهيونية إلى هذا الحد فلقد كان « جيمس بيكر » وزير الخارجية في إدارة الرئيس « بوش » سباقًا في هذا المضمار ، حينما أدلى بتصريحات استخدم فيها تعبير الأراضي في الضفة الغربية دون أن يصفها بأنها أراضي محتلة . ويومها تعجبت الأستاذة مها عبد الفتاح وتساءلت : هل هذا موقف جديد أم زلة لسان بدون قصد ؟ ! ثم تقول : ولكن تبين بعدها أنها لم تكن زلة لسان [2] .

هو موقف ثابت إذا للسياسة الأمريكية ، ولكن الذي يتولى كبر إعلانه رسميا هو عميل الصهاينة « بيل كلينتون » الذي بلغ في خدمة الصهيونية مدى بعيدا .

[5] وموقفه من مذبحة المسجد الإبراهيمي ليس بعيدا عن أذهاننا ، ففي فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان المعظم 1414 هـ الموافق 25 فبراير 1994 ، وفي ذكرى غزوة بدر الكبرى – أطلق مجموعة من المجرمين اليهود نيران أسلحتهم الرشاشة على الفلسطينين المسلمين وهم سجود بين يدي ربهم ويؤدون صلاة الفجر ، وأسفر الحادث البشع عن استشهاد أكثر من ثمانين من المصلين وجرح ما يزيد على الثلاثمائة .

ولقد كان من المنتظر أن يحرك هذا الحادث البشع المشاعر ويلهب الأحاسيس فيتحرك المجتمع الدولي لاتخاذ موقف حاسم من هذه الفاجعة المؤلمة ، ولكن عبيد الصهاينة ، في الإدارة الأمريكية حالوا دون صدور قرار فوري من مجلس الأمن بإدانة المذبحة – مجرد إدانة – وتوفير ضمانات لحماية الفلسطينيين العزل . وتسببت الحكومة الأمريكية في تأخير صدور القرار بالإدانة حتى 19 مارس 1994 وجاء قرارا هزيلا لا يتناسب وبشاعة الحدث ولا يحقق الحد الأدنى من المطالب العادلة للفلسطينيين [3] .

[6] ومن الدلائل المهمة للغاية على مدى التأثير الصهيوني في الولايات المتحدة أنها جعلت المحافظة على تفوق الدولة اليهودية عسكريا على جميع الدول العربية مجتمعة

(1 ، 2) الأخبار 23 / 3 / 1994 ، مقال / مها عبد الفتاح (من وراء البحار) ص 14 تحت عنوان ، متابعة للموقف الأمريكي من القدس .

(3) يرجع في تفاصيل ذلك إلى الصحف الصادرة في تلك الآونة كما يراجع : مذبحة الخليل ومسار التسوية السلمية . محمد عبد السلام ص 152 - 156 . السياسة الدولية ع 116 أبريل 1994 م .

بندًا أساسيا في الاستراتيجية الأمنية للولايات المتحدة ... [1] وتنفيذا لهذا الالتزام وقع الطرفان على معاهدة استراتيجية بينهما خلال زيارة « شيمون بيريز » للعاصمة الأمريكية في نهاية أبريل 1996 م ، كان من أهم بنودها :

1 - التزام « واشنطن » الكامل بالدعم العسكري للجيش « الإسرائيلي » وتحديثه وتطويره حتى يحافظ على تفوقه النوعي في مواجهة الدول العربية كلها .

2 - إمداد « إسرائيل » بأية أنواع من الأسلحة في حالة حصول أية دولة عربية على نوعيات مماثلة ، وبحيث تكون النوعيات المقدمة للطرف الصهيوني أكثر تطورا وأعلى كفاءة من تلك التي تحصل عليها الدول العربية .

3 - تتعهد الولايات المتحدة بإمداد « إسرائيل » بمعلومات استخباراتية عن إطلاق الصواريخ تجاهها بمجرد إطلاقها من قواعدها ، وذلك عن طريق الأقمار الصناعية .

4 - تطوير الصاروخ « بيتشي » الذي يستثمر الطرفان في إنتاجه 500 مليون دولار .

5 - تطوير مشروع جديد لاستخدام أشعة الليزر في إسقاط صواريخ « الكاتيوشا » [2] .

ومن الجدير بالتسجيل هنا أن « بيريز » قد حصل على هذه الامتيازات جميعا ويداه لا تزالان تقطران بدماء مئات الضحايا الأبرياء في لبنان ، إثر العملية العسكرية الإجرامية التي أطلقت عليها الدولة اليهودية اسم « عناقيد الغضب » .

أفبعد هذا يبقى للشك مجال ؟ .. أفبعد هذا لا يحق للمرء أن يجزم بأن خيوط التحرك الأمريكي في العالم إنما تتلاعب بها الأيدي الصهيونية كيفما تشاء وحيثما تريد ؟!..

هذه هي الحقيقة المؤكدة التي نراها بعد هذه الجولة الطويلة في التاريخ الأمريكي .

صيحة تحذير تاريخية لم يلتفت إليها أحد :

والشيء المثير حقا أن الخوف من السيطرة اليهودية الكاملة على أمريكا لم يكن غائبا عن ذهن الأمريكيين منذ اللحظات الأولى لإعلان الاستقلال ، فهذا هو بنجامين فرانكلين يعلن في المؤتمر الذي انعقد لإعلان الدستور سنة 1789 م عن الخطر اليهودي قائلا :

« هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك الخطر العظيم هو خطر

---

(1) ينظر : الأهرام ص 1 والأخبار ص 2 . كلاهما بتاريخ 19 / 5 / 1995 م .

(2) بنود المعاهدة في : الجمهورية ص 1 بتاريخ 29 / 4 / 1996 م .

اليهود .. أيها السادة .. في كل أرض حل بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقي وأفسدوا الذمة التجارية فيها ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم ، وقد أدى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب ماليا كما هي الحال في البرتغال وأسبانيا ...

منذ أكثر من (1700) سنة واليهود يندبون حظهم العاثر ويعنون بذلك أنهم قد طردوا من ديار آبائهم (!) ولكنهم – أيها السادة – لن يلبثوا إذا أعطتهم الدول المتحضرة اليوم فلسطين أن يجدوا أسبابا تحملهم على ألا يعودوا إليها .. لماذا ؟ لأنهم طفيليات ، لا يعيش بعضهم على بعض ولا بد لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى عرقهم ...

إذا لم يبعد هؤلاء من الولايات المتحدة بنص دستورها فإن سبيلهم سيتدفق إلى الولايات المتحدة في غضون مئة سنة إلى حد يقدرون معه على أن يحكموا شعبنا ويدمروه ويغيروا شكل الحكم الذي بذلنا في سبيله دماءناوضحينا له بأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الفردية ، ولن تمضي مئتا سنة حتى يكون مصير أحفادنا أن يعملوا في الحقول لإطعام اليهود ، على حين يظل اليهود في البيوت المالية يفركون أيديهم مغتبطين ...

إنني أحذركم أيها السادة ، إنكم إن لم تبعدوا اليهود نهائيا ، فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم . إن اليهود لن يتخذوا مثلنا العليا ولو عاشوا بين ظهرانينا عشرة أجيال ، فإن الفهد لا يستطيع إبدال جلده الأرقط ...

إن اليهود خطر على هذه البلاد إذا ما سمح لهم بحرية الدخول ، إنهم سيقضون على مؤسساتنا ، وعلى ذلك لابد أن يستبعدوا بنص الدستور » [1] .

ولكن صيحات الرجل ذهبت أدراج الرياح وصارت هباء منثورا ، فأحكم اليهود قبضتهم على الدولة والمجتمع الأمريكيين بوسائلهم المعروفة من المكر والخداع والتزوير والرشوة والانحلال الخلقي .. إلخ [2] .

وبات لزاما على كل من يتقدم لترشيح نفسه في أية انتخابات أمريكية أن يظهر ولاءه للصهيونية وأن يعلن عن تأييده للدولة اليهودية تأييدا مطلقا . يصدق هذا على انتخابات حكام الولايات أو عضوية الكونجرس ، بل على انتخابات الرئاسة نفسها .

---

(1) حكومة العالم الخفية ص 29 - 31 ، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص 209 - 211 .

(2) للوقوف على أساليب اليهود القذرة في السيطرة على المجتمعات الأخرى ، يراجع فصل : طرق التدمير في المجتمعات غير اليهودية في كتاب جذور البلاء : عبد الله التل ص 172 - 195 .

وأستشهد في هذا المقام بتصريح لأحد أعضاء مجلس الشيوخ في استنتاج له حول قوة اللوبي الصهيوني في الكونجرس الأمريكي حيث قال « أدلاي ستيفنسون » : لرئيس إسرائيل تأثير على السياسة الأمريكية الخارجية في الشرق الأوسط أكثر منه على سياسات حكومته بوجه عام .. ويعبر « بول فندلي » الذي أمضى 22 عاما في مجلس النواب الأمريكي عن مدى قوة منظمة « إيباك » وهي اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للعلاقات العامة ، والتي تعد أقوى منظمات اللوبي الصهيوني وأكثرها تنظيما وأشدها تأثيرا على الكونجرس الأمريكي فيقول : « لا أبالغ إذا قلت إن « إيباك » تتحكم فعلا بكل تصرفات « الكابيتول هيل » بشأن السياسة الشرق أوسطية ، ويكاد جميع أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب يطيعون – بلا استثناء – أوامر هذه اللجنة ، لأن معظمهم يعتبر « إيباك » المنظمة ذات القدرة السياسية التي تتيح أمامهم فرص النجاح في الانتخابات أو تقضي عليها »[1] .

وفي تفسير وتحليل عوامل قوة النفوذ الصهيوني في أمريكا لا تكاد تجد اختلافا حول تعليل هذا النفوذ بقوة المال الصهيوني وسيطرة اليهود على مجمل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية بالإضافة إلى قوة الصوت اليهودي في الانتخابات خاصة في الولايات ذات النفوذ والتأثير .

ولكن عامل القوة الأكبر – فيما أرى – يعود إلى خلفية دينية ذات تأثير قوي على الشعب الأمريكي ، فالمسيحيون البروتستانت يؤمنون بأن عودة اليهود إلى فلسطين وتكوين دولتهم هناك إنما هو تحقيق لنبوءة توراتية وردت في الفصلين 38 , 39 من سفر حزقيال ، وأن هذا الوجود والتوسع الإسرائيلي ليس سوى مقدمة للمعركة الحاسمة « هرمجدون » وظهور المسيح فوقها ليحكم العالم من هناك ألف سنة .

وإذا وضعنا هذه الخلفية الدينية في الاعتبار كان من اليسير علينا أن نفهم حقيقة النفوذ الصهيوني ليس فقط في الولايات المتحدة الأمريكية بل في جميع الأنحاء .

---

(1) يراجع : تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا ص 132 .. ولا ينسى المرء هنا تسجيل حدث بارز لا يمكن إعفاله بحال من الأحوال ، فلقد كان الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » أول رئيس في تاريخ الولايات المتحدة يشارك في المؤتمر السنوي لمنظمة « إيباك » والذي انعقد في شهر مايو من عام 1995 م ... صحيح أن الإدارة الأمريكية جمهورية أو ديمقراطية .. كانت تمثل في المؤتمر تمثيلا رفيعا قد يصل إلى حد مشاركة نائب الرئيس ، ولكن كلينتون كان أول رئيس أمريكي يشارك بنفسه في المؤتمر ويلقي فيه كلمة .. يراجع : للمرة الأولى : الرئيس الأمريكي في مؤتمر « إيباك » محمود أحمد الأهرام 4 / 5 / 1995 م ص 8 .

الفرع الثاني : اليهود ومنظمة الأمم المتحدة

قبل الحديث عن اليهود والأمم المتحدة ، لابد من الإشارة إلى دور اليهود في المنظمة الأخرى التي سبقت الأمم المتحدة وهي عصبة الأمم :

أولا : اليهود وعصبة الأمم :

فلقد كانت عصبة الأمم – وباعتراف اليهود أنفسهم – فكرة يهودية خالصة ، حيث أشار إليها اليهودي « ماكس نوردو » في المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد سنة 1903 م ، كما جاء الحديث عن إنشاء سلطة عالمية عليا هي عصبة الأمم في محاضر مؤتمر المحافل الماسونية العالمية والذي عقد في الفترة من 28 إلى 30 / 6 / 1917 .

ويعترف اليهودي الماسوني لينهوف في عام 1927 قائلا : « لقد صدق الذين يربطون بين عصبة الأمم والماسونية ، لأن عصبة الأمم – كما هي اليوم – مشتقة من تعاليم الماسونية وأفكارها » .

ويقول الزعيم الصهيوني « ناحوم سوكولوف » في المؤتمر اليهودي الذي عقد في « كارلسباد بتاريخ 1922/8/27 » : « إن عصبة الأمم فكرة يهودية ، لقد خلقناها بعد كفاح دام 25 سنة ، ستكون القدس – يوما ما – عاصمة للسلم العالمي ، وإن ما حققناه – نحن اليهود – بعد كفاح 25 سنة يرجع الفضل فيه إلى زعيمنا الخالد تيودور هرتزل » .

وكان أول عمل قامت به عصبة الأمم هو قيام السيد « إريك ورموند » بتوجيه رسالة رسمية إلى كبير الصهاينة « حاييم وايزمان » يؤكد فيها على أن حماية حقوق اليهود ستكون من أهم واجبات عصبة الأمم » [1] .

وبالفعل قدمت العصبة خدمة جليلة لليهود حينما أقرت صك الانتداب البريطاني على فلسطين في شهر يوليو سنة 1922 . وقد كان ينص على أن توضع فلسطين في ظروف إدارية وسياسية واقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي ، وأن تشجع حكومة الانتداب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإسكان اليهود في الأراضي الفلسطينية ، وأن تعتمد الحكومة تشكيل وكالة يهودية ترعى شئون اليهود في فلسطين وفي أنحاء العالم وتشرف على بناء الوطن القومي اليهودي ، وأن تفضل الوكالة اليهودية

---

(1) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، يراجع ص 212 - 215 .

عند منح امتيازات المشاريع لاستثمار الثروة الطبيعية في فلسطين » [1] .

ثانيا : اليهود والأمم المتحدة :

هكذا لعبت عصبة الأمم لعبتها ، ووضعت اللبنة الأولى في بناء الدولة الصهيونية في فلسطين المحتلة ، ثم جاءت الأمم المتحدة لتكمل المسيرة وتعلي البناء ، وتضفي الشرعية الدولية والصبغة القانونية - في زعمهم - على هذه العصابات المجرمة التي أعلنت قيام دولة يهودية في فلسطين المحتلة .

ولا عجب فقد كانت الأمم المتحدة فكرة يهودية كسالفتها عصبة الأمم . ومنذ إنشائها والأخطبوط اليهودي ينشب أظفاره فيها ويوجه نشاطها صوب مصالح اليهودية العالمية .

وقد كانت الأمم المتحدة - عند تأسيسها - تخضع لإدارة يهودية شبه كاملة ، حيث بلغت نسبة اليهود بين موظفيها حوالي 60 % يحتلون المواقع الكبرى والمناصب العليا مع أن نسبة اليهود إلى سكان العالم كانت تبلغ فقط 5, % . [2] .

وبهذا التواجد النشط وبالهيمنة على القوى الكبرى ، استطاع اليهود تحقيق مآربهم والوصول إلى هدفهم .

ففي فبراير 1947 تظاهرت حكومة الانتداب البريطانية بالعجز التام عن إيجاد حل لمشكلة فلسطين وقررت إحالة القضية إلى الأمم المتحدة ، وهي أمنية طالما تمناها اليهود الذين يسيطرون سيطرة تامة على الأمم المتحدة ، ونجحت اليهودية العالمية في تدبير انعقاد دورة استثنائية للجمعية العامة في أبريل 1947 اتخذ فيها قرار بإيفاد لجنة تحقيق دولية إلى فلسطين تضم ممثلين لإحدى عشرة دولة .

ولقد تم اختيار ممثلي الدول في اللجنة بما يتوافق مع أهداف الصهيونية العالمية ، فلقد كانت أغلبيتهم ذوي ميول يهودية صهيونية ، واجتمعوا سرا بالمنظمات الإرهابية اليهودية وتبادلوا مع رؤسائها الآراء .. لذا لم يكن غريبا أن ترفع اللجنة إلى الأمم المتحدة توصياتها مطالبة بتقسيم فلسطين .

وبدأت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها العادية (سبتمبر 1947) النظر في

(1) المرجع السابق ص 240 .

(2) المرجع نفسه - وينظر أيضا : النفوذ اليهودي في المؤسسات الدولية والأجهزة الإعلامية ، فؤاد بن سيد الرفاعي - الكويت ، د . ن . ق . ت .

تقرير لجنة التحقيق ، وعرض توصياتها للتصويت . وكان لابد لإقرار تلك التوصيات من موافقة ثلثي الدول الأعضاء .

وهنا نشطت الصهيونية العالمية وكثفت جهودها من أجل تأمين النسبة المطلوبة ، ولعبت الصهيونية الأمريكية الدور الأكبر في هذا المجال ، حيث مارست الحكومة الأمريكية ضغوطا هائلة على العديد من الدول لتأييد قرار التقسيم . وقد قالت النيويورك تايمز في عددها الصادر بتاريخ 27 نوفمبر 1947 ما يلي : « أجّلت الجمعية العامة للأمم المتحدة التصويت على قرار تقسيم فلسطين أمس ، بعد أن وجد مؤيدو الصهيونية أنهم لا يضمنون ثلثي الأصوات اللازمة لنجاح المشروع » .

وكان مندوبو الولايات المتحدة قد طلبوا تأجيل التصويت بحجة الاحتفال بعيد الشكر . ولكن الحقيقة أنهم كانوا يرغبون في استغلال الوقت لزيادة الضغط على الدول الصغيرة التي تستجدي المعونات الأمريكية كما حدث مع دولة ليبريا وغيرها . وفي ذلك تقول النيويورك تايمز في 28 نوفمبر 1947 بكل صراحة : « منذ يوم السبت الموافق 22 نوفمبر ، ومندوبو الولايات المتحدة في الأمم المتحدة يجرون اتصالات مع مندوبي الدول الأخرى لضمان تأييدهم لمشروع التقسيم . والأنباء الواردة من هايتي تشير إلى أن ضغطا ما وإغراءات ما قد وقعت على حكومات بعيدة . ويبدو أن التصويت الذي سيتم اليوم يعتمد كثيرا على اتصالات المندوبين الأمريكان مع عواصم بعيدة » .

ولقد حققت الضغوط الأمريكية الصهيونية نجاحا مذهلا ، إذ أسفر التصويت عن موافقة 33 دولة مقابل رفض 13 دولة فقط . وهكذا وضعت الأمم المتحدة في 29 نوفمبر 1947 م اللمسة قبل الأخيرة تمهيدا للإعلان الرسمي عن قيام الدولة اليهودية المجرمة وهو ما حدث فعلا في 14 مايو 1948 م » [1] .

وهكذا تبين الدور الذي لعبته الصهيونية العالمية في تسخير المنظمة الدولية لتحقيق أهدافها والوصول إلى غايتها .. وإذا كانت الأمم المتحدة قد تولت بنفسها عملية ولادة الدولية اليهودية فليس عجيبا أن تظل مؤازرة لها حريصة كل الحرص على تحقيق أهدافها . وبقيت الأمم المتحدة حتى هذه اللحظة أسيرة المصالح الصهيونية والمطامع اليهودية . فكلما انتهكت الدولة اليهودية القانون الدولي وخرقت الشرعية الدولية وقفت الأمم المتحدة مكتوفة الأيدي عاجزة عن اتخاذ أية قرارات تنفيذية تعيد للقانون هيبته

(1) يراجع : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص 290 - 297 .

وللشرعية سيادتها وصولجانها . حتى في المرات القليلة التي صدرت فيها قرارات ضد الدولة الصهيونية فإنها لم تتجاوز كونها مجرد كلمات فارغة المضمون سخرت منها الدولة الصهيونية وضربت بها عرض الحائط .

أين هذه القرارات كلها ؟! لقد وئدت في مهدها ، ودخلت في ذمة التاريخ شاهدة على مدى هيمنة الصهاينة على المنظمة الدولية التي أنشئت - كما يقال - للمحافظة على القانون والشرعية ولنصرة المستضعفين والمظلومين .

* * *

بعد هذا الحديث عن سيطرة اليهود على الولايات المتحدة الأمريكية ومن ثم على الأمم المتحدة تصبح قضية السيطرة اليهودية على النظام الدولي الجديد قضية واضحة ومؤكدة .

وقد اكتفيت ببيان سيطرة اليهود على الولايات المتحدة فقط لأن المقام لا يتسع لبيان السيطرة اليهودية الكاملة على مجمل الحكومات الغربية ، التي إن لم تكن يهودية خالصة ، فهي - على الأقل - تؤيد اليهود وتناصرهم وتنتصر لهم في كافة المحافل وعلى كافة الأصعدة .

ولعل أكثر الدلائل وضوحا على ذلك أن أي مسئول حكومي في أية دولة غربية يظهر مجرد استنكاره واشمئزازه من الإجرام اليهودي الشنيع ، ويعلن مجرد إعلان عن تعاطفه مع الشعب الفلسطيني فإن مصيره السياسي إلى زوال ، بل ويكاد يصل الأمر إلى فقدان حياته .

والسجل في هذا المجال حافل بالشخصيات الغربية التي استيقظت ضمائرها فعبرت عن تعاطفها مع الحق ومع القضية العادلة للشعب المسلم في فلسطين المحتلة [1] .

وقد ألف الصهاينة مكاتب ولجانا تنحصر مهمتها في اقتفاء آثار كبار المسئولين

---

(1) فهذا هو نائب رئيس الوزراء ووزير الاقتصاد في ألمانيا يقدم استقالته إلى المستشار الألماني « هيلموت كول » الذي قبل الاستقالة بخطاب جاف خلا من عبارات الشكر والمجاملة المعتادة عند استقالة أي وزير . ومما زاد الطين بلة أن الوزير المستقيل هو رئيس الحزب الديمقراطي المشارك في الائتلاف الحاكم وكان من المنتظر أن ينتصر له أعضاء حزبه ويتضامنوا معه ، ولكن المفاجأة أن الجميع خذلوه ولم يقل أحد منهم في حقه كلمة طيبة . والسبب المعلن لهذه الاستقالة أن نائب رئيس الوزراء ووزير الاقتصاد كتب على أوراق وزارته الرسمية خطابا إلى إحدى شركات « السوبر ماركت » يوصيها بشراء منتجات شركة يملكها ابن خالة زوجته لأنها من النوع الجيد ، ولكن السبب الحقيقي للاستقالة أن اليهود قد شنوا حملة شعواء على الوزير بسبب تحمسه للقضية الفلسطينية ورئاسته جمعية الصداقة الفلسطينية الألمانية . وقبل ذلك أرغم وزير التراث البريطاني على الاستقالة من منصبه وتبين أنه هو الآخر كان يعطف على القضية الفلسطينية ويتحمس لها .

والتنقيب عن آرائهم ، فإذا تبين أن أحد هؤلاء المسئولين يتعاطف مع القضية الفلسطينية شنوا عليه حملات إعلامية شعواء ، وسلطوا عليه الصحف والمجلات ومحطات التليفزيون التي يمتلكها الصهاينة حتى يرغموه على تقديم استقالته وقد تتطور هذه الحملات لتتخذ شكل مظاهرات تهتف بسقوط كل من يقف ضد الصهيونية وأطماعها [1] .

والحقيقة أن هذا أسلوب قديم يتبعه الصهاينة منذ زمن بعيد [2] .

من أجل هذا نجد كبار المسئولين في الدول الكبرى إن لم يكونوا مؤمنين بالمبادئ الصهيونية فهم – على الأقل – يقدمون فروض الولاء والطاعة للصهاينة حرصا على حياتهم وضمانا لمستقبلهم السياسي .

وهذا من أقوى البراهين على الحقيقة القائلة بأن السيطرة الصهيونية هي أبرز ملامح النظام الدولي في مرحلته الجديدة الراهنة .

---

(1) يراجع مقال مصطفى أمين « فكرة » في جريدة الأخبار عدد الجمعة 8 / 1 / 1993 م .

(2) من أبرز الأمثلة قديما على هذا ، ما حدث لوزير الدفاع الأمريكي السابق « جيمس فورستال » الذي كان يعارض سياسة أمريكا والأمم المتحدة تجاه فلسطين ، فقام اليهود بطرده من منصبه ثم ألقوا به من شرفة منزله في نيويورك ، وادعوا أنه انتحر بعد إصابته بانهيار عصبي .. ومما يؤكد ضلوع الصهاينة في قتله ما ذكره في مذكراته من أن اليهودي « برنارد باروخ » قد نصحه بأن لا يعني بمسألة فسطين لأن أصابع الاتهام عينته سلفا وأخذت تشير إليه بشكل ليس في صالحة بالمرة ، يراجع خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص 208 , 292 , 294 .

المبحث السادس

العداء السافر للإسلام والمسلمين

قد يظن المطالع لهذا العنوان – الذي جاء في سياق ملامح النظام الدولي الجديد – أنه مجرد استنتاج أو استنباط !.. ولكن الأمر بخلاف ذلك ، فالعداء السافر للإسلام بات حقيقة مؤكدة نطقت بها ألسنة أقطاب النظام الدولي الجديد ، وترجمتها أفعالهم إلى واقع محسوس ..

أ – على الجانب الحكومي الرسمي :

في السطور التالية سأعرض بعض النماذج لتصريحات رسمية وشبه رسمية أفصح فيها بعض المسئولين في الغرب عن حقيقة شعورهم تجاه الإسلام والمسلمين ، والمقصود بالتصريحات الرسمية تلك التي صدرت عن أناس يتولون مناصب حكومية رسمية ، أما التصريحات شبه الرسمية فهي التي أطلقها أناس ليس لهم الصفة الرسمية ولكنهم قريبون من المنصب الحكومي ؛ إما لكون آرائهم يؤخذ بها وتراعى عند اتخاذ القرارات ، أو لأنهم كانوا مسئولين رسميين سابقين .

ففي إطار حملته الانتخابية عام 1992 قال الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش : « إني هنا أمثل أمريكا التي تمثل بدورها الحضارة اليهودية المسيحية التي تقود عالم اليوم بلا منافس » ويقول نائبه دان كويل : « إن أخطر ثلاث حركات في القرن العشرين هي : النازية ، والشيوعية ، والحركة الإسلامية » . وعن الفكرة نفسها يعبر « ريتشارد شيفتر » مساعد وزير الخارجية الأمريكي السابق فيقول : « إن الإسلام يمثل تهديدا كبيرا للاستقرار العالمي » [1] .

والرئيس الأمريكي السابق « ريتشارد نيكسون » يرخي لخياله الجامح العنان فيتصور هجوما إسلاميا كاسحا يضطر الغرب – في سبيل مواجهته – إلى أن يتحد مع موسكو ، لدرء الخطر ومواجهة العدوان .

يقول نيكسون : « ... يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة « جيوبوليتيكية » ، متطرفة ، وأنه مع التزايد السكاني والإمكانيات المادية المتاحة سوف

(1) يراجع : المواجهة بين الإسلام والغرب ص 17 - 20 .

يشكل المسلمون مخاطر كبيرة ، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي » [1] .

وفي بريطانيا قالت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة « مارجريت تاتشر » : « يجب المحافظة على حلف الأطلنطي لمواجهة الخطر الإسلامي » .

ويؤكد وزير خارجية إيطاليا فكرة بقاء حلف الأطلنطي لمواجهة الخطر الإسلامي فيقول : « ما تزال مهمة حلف الأطلنطي قائمة بل ضرورية ، فإذا كان الخطر الشيوعي قد انتهى ، وإذا كان حلف وارسو قد ذهب ، فإن الخطر الإسلامي باق ولم يذهب » [2] .

وعلى الجانب الفرنسي تطالعنا تصريحات الرئيس « جاك شيراك » أثناء حملته الانتخابية فهو يصف المسلمين بالوساخة والرائحة النتنة وافتعال الضجيج المتواصل ..

والواقع أن « شيراك » ليس وحيدا في هذا المضمار ، فلقد أصبح الهجوم الضاري على الإسلام والمسلمين الطريق الأيسر أمام الساسة الفرنسيين للحصول على أصوات الناخبين ، ولم تعد هذه الظاهرة قاصرة على « جان ماري لوبان » زعيم الجبهة اليمينية المتطرفة ، بل تعدَّته إلى مجمل السياسيين في فرنسا ، فالرئيس الفرنسي الأسبق « جيسكار ديستان » شن هجوما ضاريا على الجزائريين والأتراك وطالب بحرمانهم من الجنسية الفرنسية ..

ويتحدث رئيس مكتب الهجرة الدولية بفرنسا عن الإسلام فيقول : « إن الديانة الإسلامية هي الأكثر انغلاقا وتشددا بين الديانات » وهذا ما يفسر تشدده تجاه المهاجرين المسلمين حيث يشترط تخليهم عن الإسلام كشرط لاستيعابهم في المجتمع الفرنسي ، ويقول : « إن فرنسيا من أصل توجولي استطاع الوصول إلى مركز وزير دولة لأنه تنصر وأصبح يذهب باستمرار إلى الكنيسة .

وفي بلجيكا أصبحت السجون مكتظة بالمهاجرين العرب والمسلمين بخلاف خمسة آلاف مسلم قامت السلطات البلجيكية بطردهم خلال النصف الأول من عام 1991 م [3] .

---

(1) الإسلام وأمريكا ... ص 23 مرجع سابق .

(2) المواجهة بين الإسلام والغرب ص 49 - 50 .. ويبدو أن الحلف قد بدأ بالفعل اتخاذ الإجراءات العملية في هذا المضمار حيث صرح أمينه العام بأن « الأصولية » الإسلامية تمثل خطرا لا يقل عن الخطر الشيوعي الذي واجهه الحلف في الحرب الباردة ... ومن ثم بدأ الحلف يجري اتصالاته المكثفة مع كل من مصر والدولة اليهودية والمغرب وتونس وموريتانيا لبحث كيفية مواجهة الخطر الإسلامي . ينظر الأهرام 9 / 2 / 1995 م ص 1 .

(3) يراجع : الإسلام وأمريكا ص 49 - 50 .

أما أكثر الخطوات دلالة على ما نحن بصدده من عداء رسمي سافر للإسلام والمسلمين فتمثلت في قرار البرلمان الأوروبي بأغلبية ساحقة قطع جميع المعونات المالية عن تركيا والوقف الفوري لجميع القروض التي كان من المقرر تقديمها لها في إطار برنامج المساعدات الأوروبية لتركيا ، المعروف بـ « ميديا » .

وقد برر البرلمان الأوروبي هذه الخطوة بعدم مراعاة تركيا لمبادئ حقوق الإنسان وعدم حدوث أي تقدم على صعيد الديمقراطية هناك [1] .

ولكن الحقيقة التي لا تخطئها العين أن هذه القرارات لم تتخذ إلا بعد نجاح التيار الإسلامي في الانتخابات التركية وقيامه بتشكيل الحكومة – للمرة الأولى في تاريخ تركيا الحديث – بالاشتراك مع حزب « الطريق القويم » أحد جناحي العلمانية التركية ..

ولا يخفى أن المقصود بهذه الخطوة ومثيلاتها إنما هو تضييق الخناق على حكومة حزب « الرفاة الإسلامي » ومحاولة إفشال تجربتها بأي شكل من الأشكال ..

وأتساءل هنا : ألا يعد هذا دليلا حاسما على قضية العداء للإسلام والمسلمين في النظام الدولي الجديد ؟! والإجابة أتركها لضمير القارئ وعقله ..

ب – على الجانب الشعبي :

هذه الحملة الرسمية نبعت من حملات الكراهية والعنف على المستوى الشعبي والتي ازدادت حدتها بصورة غير معهودة ، فالحركات العنصرية المعادية للمسلمين والإسلام تكسب كل يوم أنصارا ومؤيدين ، « ففي الدانمرك حصل حزب التقدم على ما يقرب من 10 % من الأصوات ويمثله اثنا عشر عضوا في البرلمان .. وفي النرويج حصل حزب يحمل ذات الاسم على نفس نسبة الأصوات .. وفي السويد حصل حزب الديمقراطية الجديدة على 6,6 % من الأصوات وأصبح بذلك ممثلا في البرلمان .

وإلى جانب هذه النماذج الأوروبية الصاعدة فإن هناك دولا مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا تعد الساحات الرئيسية لظهور التيارات اليمينية قبل عدة أعوام ، وتبدو الآن وقد رسخت أقدامها إلى حد كبير » [2] .

« ولقد تميز الوضع في ألمانيا بشيء من الخصوصية ، حيث عمدت التنظيمات اليمينية

---

(1) الأهرام 21 / 9 / 1996 م ص 4 .　　(2) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 76 .

إلى التعبير عن مواقفها من خلال العنف الصريح والمبالغ فيه ضد الأجانب ، وتشير الإحصاءات إلى أن عام 1992 شهد أكثر من 1900 حادث اعتداء على الأجانب (والأجانب هم المسلمون حيث لم يتجه العنف إلا إلى المسلمين ، خاصة الأتراك) .

وكشفت دراسة قامت بها الحكومة الألمانية عن جملة من الحقائق المثيرة ، مثل ارتفاع عدد المنتمين إلى منظمات يمينية تعتنق الأفكار النازية وتدعو إلى طرد الأجانب من البلاد ، وقدر عددهم بـ 40 ألف من النازيين الجدد ينتمون إلى 76 منظمة يمينية ، بينما كان عددهم عام 1990 حوالي 30 ألف عضو ينتمون إلى 69 منظمة » [1] .

ومما يدل على تنامي المد الشعبي الساخط على الإسلام والمسلمين تلك المظاهرات التي تخرج بصفه شبه يومية في بعض العواصم والمدن الكبرى الأوروبية تهتف بشعارات وتحمل لافتات كلها حقد على الإسلام والمسلمين مثل : « عودوا إلى بلادكم أيها الشحاذون ، ارجعوا إلى وطنكم أيتها النفايات ، لا نريد مسلمين ، لا نريد مسلمين ، المسلمون هم قمامة العالم » [2] .

وتتحدث هيئة الإذاعة البريطانية عن فرق « البوب » الجديدة في ألمانيا ، وأغانيها المليئة بالصياح والصراخ والعنف وتقول إحدى أغنياتهم : ... اقتلوا أطفالهم .. احرقوا بيوتهم . استأصلوا شأفتهم .. خربوا ديارهم .. ويعنون بذلك المهاجرين المسلمين من الأتراك والمغاربة والجزائريين والباكستانيين والبوسنيين [3] .

جـ - على الجانب الإعلامي :

لايجد المتابع لوسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية في الغرب إلا هجوما مستمرا على الإسلام وسخرية واستهزاء بالمسلمين .

فصورة الإسلام عندهم لا تخرج عن إطار كونه دينا رجعيا ، يدعو إلى الحرب ، وينادي بالقضاء على كافة أعدائه ، ويقف سدا منيعا أمام المدنية والحضارة ، ويظلم المرأة ، ولا يراعي حرمة الأقليات غير المسلمة في المجتمعات الإسلامية ... إلخ .

---

(1) المرجع السابق ص 77 .

(2) يراجع : المؤامرة الكبرى ، د . مصطفى محمود ص 34 - 35 ، سلسلة كتاب اليوم (346) ، دار أخبار اليوم ، 1993 م .

(3) المرجع السابق ص 62 .

وصورة المسلم لا تخرج من إطار كونه إنسانا عنيفا عدوانيا دمويا ، لا يهتم بنفسه ومظهره ولا يأبه بالديمقراطية والحرية وتعدد الآراء ... إلخ [1] .

« ولقد لعب الإعلام الغربي دورا بارزا في تشكيل رؤية غربية للإسلام السياسي [2] ، ونفخ كثيرون من القائمين عليه في النيران ، حتى تكوّن بالفعل رأي عام بات يعتقد بأن الإسلام هو هاجس العصر ومصدر الخطر والتهديد القادم .

ولم تفلح القلة المعارضة لهذا الاتجاه من الإعلاميين أيضا في إيجاد توازن في الصورة لصالح الحقيقة وبدلا من ذلك عمد الفريقان إلى توجيه النصح للحكومات والمسئولين الغربيين ووضع الإرشادات التي ينبغي اتباعها لمواجهة ذلك التهديد الجديد .

وكأنما اتفق كلاهما على أن التهديد الذي يمثله الإسلام حقيقة مفروغ منها ، ولابد من الالتفات إلى ملاقاته » [3] .

د – على الجانب الأكاديمي :

لا يعد الهجوم الإعلامي الغربي الكاسح على الإسلام والمسلمين شيئا ذا أهمية إذا قورن بهجوم الدراسات الأكاديمية وما يسمى بمراكز البحوث المتخصصة .

وتكمن الخطورة في استخدام البحث العلمي الحرّ كستار للتنفيس عن حقد قديم وغل متأصل في قلوب الغربيين تجاه الإسلام والمسلمين ،إذ أن اللافتات العلمية والألقاب الضخمة تعطي للمتلقي إيحاء بالحيدة والنزاهة والعمق ، بخلاف الحملات الإعلامية التي غالبا ما توصف بالسطحية والسذاجة والاندفاع .

وتوجد العديد من المراكز البحثية المتخصصة في الدراسات المتعلقة بالعالم الإسلامي تضم جيشا ضخما من الخبراء والباحثين في طبيعة المجتمعات المسلمة .. وفي تقرير أمريكي تم إعداده لمؤسسة « فورد » ورد « أنه يوجد 2800 من المتخصصين الحاصلين على درجة

---

(1) يراجع في ذلك : الغرب والإسلام ، تقديم وتحليل : منى ياسين ، مراجعة وتعقيب د : محجوب عمر .

* الإسلام وأزمة الديمقراطية ، د . أحمد عبد الحميد مبارك ، سلسلة كتاب : رسالة الجهاد (7) ط الأولى سنة 1986 م . جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس – الجماهيرية الليبية .

* جذور الإرهاب ، محمد السماك ، سلسلة كتاب : رسالة الجهاد (8) ط الأولى 1986 م جمعية الدعوة الإسلامية العالمية .

(2) هذا تعبير خاطئ يستخدمه أعداء الإسلام ولا يصح الانسياق خلفهم ؛ فالإسلام وحدة واحدة وكل لا يتجزأ .

(3) الغرب والإسلام ص 34 .

الدكتوراة بالولايات المتحدة في تخصص الشرق الأوسط [1] وشمال أفريقيا ، ويمثل هذا الرقم 10% من إجمالي عدد المتخصصين الحاصلين على درجة الدكتوراة في الدراسات الدولية ، وإذا ما ضم إليهم عدد الخبراء المختصين بشئون المجتمعات المسلمة في أفريقيا وجنوب آسيا وآسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا ، سيتجاوز الرقم الإجمالي لهؤلاء الخبراء الدكاترة ثلاثة آلاف خبير .

ولكن ماذا عن نوعية هؤلاء المحترفين وعملهم ؟!

عن هذا خلص البروفيسور « ليونارد بايندر » الرئيس السابق لجمعية دراسات الشرق الأوسط للقول بأن واقع الأمر يتمثل في أن دراسات الشرق الأوسط تعاني من عدم النظرة الموضوعية ، وتغير الأهواء ، والتشويه الأيدلوجي ، والتعمية الرومانتكية ، والتحيز الديني ، بالإضافة أيضا إلى قدر كبير من الدراسات غير الاختصاصية » [2] .

هذه شهادة أحد المسئولين عن واحد من كبار مراكز بحوث الإسلام في الولايات المتحدة وهي تعبر بصدق عن فقدان المصداقية في تلك البحوث ، وتحيزها الدائم ضد الإسلام والمسلمين ، ومع ذلك فإن هؤلاء الموصوفين بالخبرة والتخصص يتم توظيفهم من قبل إدارة المخابرات والبحوث في الحكومة الأمريكية ، وهيئة خدمات البحوث التابعة للكونجرس الأمريكي ، ومجلس الأمن القومي بالبيت الأبيض [3] .

وكثيرا ما يتم استدعاؤهم للإدلاء بشهادات في لجان الكونجرس المختلفة ، مثلما حدث في مناقشات اللجنة الفرعية لشئون أوروبا والشرق الأوسط التابعة للجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ ، حيث عقدت اللجنة سلسلة من جلسات الاستماع حول ما سمي بالأصولية الإسلامية [4] ، والتطرف الإسلامي برئاسة « لي هاميلتون » ، واستمعت اللجنة في هذا الإطار إلى كل من « د . هيرمان إيلتز » مدير مركز العلاقات الدولية بجامعة

(1) هذا المصطلح (الشرق الأوسط) مصطلح خبيث أطلقته أبواق الاستعمار من باب التعمية والخداع ويكثر استعماله الآن بصورة خطيرة ، فهو المصطلح الوحيد الذي يصبح بمقتضاه الكيان الصهيوني جزءًا من منطقتنا العربية الإسلامية ، ولذا حرصت أقلام مفكري الغرب وأقطابه على استخدامه وتابعهم - للأسف الشديد - كثير من كتابنا ومفكرينا .

(2) « أنكل سام » والإسلام (ملف خاص عن سياسات الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين) من إعداد هيئة التحرير بوكالة الصحافة الإسلامية ، آن آربور - ميامي - الولايات المتحدة ، ترجمة وتعريب : طارق السيد خاصر ، ص 40 .

(3) المرجع السابق ص 40 - 41 .

(4) هذا المصطلح أيضا في غاية الخبث ، فكل المسلمين أصوليون بالمعنى الحرَفّي لكلمة أصولية والتي تعني التمسك بأصول الدين . والمصطلح نفسه مأخوذ من أصل لاهوتي مسيحي ، ويعد ريتشارد هرير دكمجيان « أول من استخدمه تعبيرا عن حركة الصحوة الإسلامية في العالم العربي .. » يراجع كتابه الأصولية في العالم العربي ترجمة د . عبدالوارث سعيد .

بوسطن و د : « جون اسبوستيو » من قسم الدراسات الدينية في كلية الصليب المقدس ، الذين تحدثا عن خطر حركة الإحياء الإسلامي وكيفية تعامل الولايات المتحدة مع هذا الخطر المحدق [1] .

ويوضح هذا مدى خطورة الاتجاه الأكاديمي المعادي للإسلام ، فالبحوث تعامل معاملة خاصة ، وتوضع تحت تصرف صاحب القرار سواء في السلطة التشريعية أو التنفيذية .

هـ - الدور اليهودي المشبوه :

ما فتئت الدولة اليهودية تقدم نفسها للعالم كحائط الصد وخط الدفاع الأول في مواجهة الصحوة الإسلامية واليقظة الدينية في العالم الإسلامي .

« ويعترف بعض المحللين في الغرب بأن للدولة الصهيونية دورا في خلق تهديد إسلامي ، فقد دأب مسئولو الحكومة الصهيونية وأكاديميوها مؤخرا على الترويج لما يدعون أنه شبكة عالمية من الإرهابيين والمتعصبين المسلمين المكرَّسين لتدمير الحضارة الغربية ، وعمدت الصهيونية إلى تحريض العالم على تشكيل ما أسمته بتحالف دولي ضد الأصولية والتطرف الإسلامي .

ولا يكاد يمر يوم دون أن تنشر الصحف العبرية تصريحات لمسئولين صهاينة كبار يحذرون فيها من الحركات الإسلامية ، ويدعون أنها أضحت الخطر الأول ليس على استقرار المنطقة فحسب بل على العالم أجمع » [2] .

وعلى سبيل المثال : يقول إسحاق شامير رئيس وزراء الكيان الصهيوني السابق: « بعد ذهاب الاتحاد السوفيتي فإن الأسس الجديدة للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية أهمها معارضة الصحوة الإسلامية » [3] .

وفي أواخر مايو 1992 ، وأثناء زيارته لبولندا ، قال الرئيس الصهيوني : « إن العالم يواجه خطرا لا يدرك أبعاده . إنه خطر الأصولية الإسلامية .. وإننا ندق ناقوس الخطر ...

وترويجا لهذه النظرة بعثت مخابرات العدو الصهيوني خطابات إلى الدول الغربية ، جاء فيها أن الدولة الصهيونية تعتقد أن الأصولية الإسلامية سوف تسيطر على المنطقة

---

(1) قام الدكتور : أحمد إبراهيم خضر بنقل وترجمة وقائع تلك الجلسات من خلال مضابط الاجتماعات ونشرها في كتابه : الإسلام والكونجرس الأمريكي ط أولى شعبان 1413 هـ يناير 1993 م .

(2) ينظر الغرب والإسلام ص 36 .

(3) المواجهة بين الإسلام والغرب ص 19 .

عام 2000، وأن على الغرب أن يتعاون مع الصهياينة استعدادا لمواجهة هذا الخطر » [1] .

ويقول ابن جوريون رئيس وزراء العدو الصهيوني السابق : « نحن لا نخشى الاشتراكيات ولا الثوريات ولا الديمقراطيات في المنطقة ، نحن فقط نخشى الإسلام ، هذا المارد الذي نام طويلا وبدأ يتململ من جديد .. [2]

ويقول أيضا : « إن أخشى ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمد جديد .. » [3] .

ويقول شيمون بيريز وزير خارجية العدو الصهيوني : « إنه لا يمكن أن يتحقق السلام في المنطقة ما دام الإسلام شاهرا سيفه ، ولن نطمئن على مستقبلنا حتى يغمد الإسلام سيفه إلى الأبد » [4] .

وعندما قامت الحكومة الصهيونية بطرد أكثر من أربعمائة فلسطيني مسلم من أنصار حركة حماس الإسلامية المجاهدة ، وقوبل هذا العمل الأحمق بحملات اعتراض شديدة ، تحدث « إسحاق رابين » رئيس الحكومة الصهيونية المجرمة بكل صراحة - بل بكل وقاحة - قائلا : « لماذا لا يرى العالم في إسرائيل الطليعة التي تحميه من الهجمة الإسلامية المتطرفة ، والخط الدفاعي الأول الذي يرد عن العالم وبال هذا الإرهاب ؟! ولماذا لا يرى في إبعادنا لمجموعة الأربعمائة من منظمة حماس الإسلامية بادرة محمودة جديرة بالتشجيع والتأييد من الأمم المتحدة ؟! ألسنا في الحقيقة الدرع التي تحمي العرب كل العرب من هذا الإرهاب الإسلامي الذي يهددهم ؟! » [5] .

بمثل هذا الأسلوب يعبر الصهاينة عن مكنون صدورهم تجاه ديننا الحنيف ويستعدون الغرب المسيحي لتكوين تحالف يهودي - مسيحي لمواجهة الخطر الإسلامي المزعوم .

والسؤال هنا : هل الغرب المسيحي في حاجة إلى تبصير اليهود له بحقيقة الخطر الإسلامي الزاحف ؟! بمعنى آخر هل كان الغرب المسيحي منتظرا لمثل هذه التحذيرات ؟!

أم أن العداء للإسلام أمر متأصل في قلوب الفريقين معا ؟! الحقيقة أن الغرب المسيحي لم يكن بحاجة إلى هذه التحذيرات الصهيونية ، فالتصريحات التي سبق ذكرها لقادة

---

(1) يراجع : الإسلام والنظام العالمي الجديد ، الصادق المهدي (رئيس وزراء السودان السابق) ص 22 نشر : دائرة الإعلام الخارجي في حزب الأمة السوداني ، سلسلة آفاق جديدة (2) بدون تاريخ .

(2) مخطط تدمير الإسلام وإبادة المسلمين في العصر الحديث ، نبيل بن عبد الرحمن المحيش ص 7 .

(3) قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام .. أبيدوا أهله ، جلال العالم ص 39 .

(4) مخطط تدمير الإسلام ص 7 . (5) المؤامرة الكبرى ص 142 .

الغرب تبرز بوضوح أن العداء للإسلام شيء ثابت في نفوسهم متمكن من قلوبهم .

و - دور الفاتيكان :

انتهز الفاتيكان فرصة التغيير التاريخي في النظام الدولي ، فأصدر البابا يوحنا بولس الثاني منشورا بابويا نشرته جريدة نيويورك تايمز الأمريكية دعا فيه الكاثوليك إلى الخروج ونشر المسيحية في كافة بقاع العالم ، بما فيها الأماكن الإسلامية التي تمنع القوانين الإسلامية فيها تغيير الأديان (1) .

وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل تمادى الفاتيكان في عدائه للإسلام إلى الحد الذي يعلن فيه البابا أنه لا يمانع في الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة للدولة اليهودية ، ثم يحاول تخفيف وقع المفاجأة فيضع لهذا الاعتراف شرطا واحدا هزيلا يتمثل في توفير الحرية الكاملة لزيارة الأماكن المقدسة (2) .

وقد يتعجب البعض وتأخذه الدهشة من هذا الموقف البابوي ، ولكن المسألة إذا وضعت في إطارها التاريخي فإنه لا محل للتعجب أو الاندهاش .

ففي تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1961 جاء وفد من اليهود الأمريكيين ليشكروا للبابا يوحنا الثالث والعشرين مواقفه منهم ، فاستقبلهم بهذه الكلمات :

« أنا يوسف أخوكم . أجل ، إن ثمة فرقا بين الذي لا يؤمن إلا بالعهد القديم (يعني اليهودي) وبين الذي يؤمن أيضا بالعهد الجديد (يعني المسيحي) إنه الشريعة الهادية العليا ولكن هذا الفرق لا ينقص شيئا من الأخوة القائمة على أصلنا الواحد ، ألسنا جميعا أبناء أب واحد في السماوات ؟! فيجب أن يكون بيننا حب مشرق ، حب نشيط فعال » (3) .

وفي الوقت نفسه كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق للتحضير للمجمع المسكوني الثاني وقد طلب معهد التوراة في روما أن يكون للمجمع رأي في « الوجود اليهودي » وطلب العالم اليهودي « يوليوس إسحاق » من البابا أن يحذف كل الفقرات المعادية لليهود في الصلوات والمواعظ المسيحية وتحقق له ما أراد ، ثم قام الفاتيكان

---

(1) يراجع : أمتنا والنظام العالمي الجديد ص 45 .

(2) يراجع : الإسلام وأمريكا ص 71 ، هذا وقد اعترف الفاتيكان فعلا بالكيان اليهودي العاصب وتبادل الجانبان السفراء بعد توقيع الاتفاق الخاص بينهما ، والذي يعترف فيه الفاتيكان بالسيادة اليهودية على مدينة القدس .ينظر : الفاتيكان يعترف ، عبد العظيم حماد ، الأهرام 3/1/1994 ص 4 ، الفاتيكان وإسرائيل والقدس ، سلامة أحمد سلامة ، الأهرام 4/1/1994 ص 8 .

(3) التبشير والاستعمار في البلاد العربية د . مصطفى خالدي ، د . عمر فروخ ص 263 - 264 .

بإصدار وثيقة رسمية – تم إقرارها في المجمع المسكوني الثاني – تضمنت أمورا غاية في الأهمية والخطورة ، تعد تذويبا حقيقيا للمسيحية في اليهودية .

ومن النقاط الأساسية في تلك الوثيقة كما وردت فيها : [1] .

* تقرر الكنيسة بأن جذورها تذهب بعيدا في أرض إسرائيل القديمة .

* إن أوثق صلات الكنيسة بالشعب اليهودي « إنسانية » المسيح . إن الكنيسة لا تستطيع أن تنسى – ولا تريد أن تنسى – أن الله لما أصبح أخا للبشر اختار أن يكون يهوديا ، وبتعبير آخر أن مخلص العالم عاش ومات على أنه شخص من الشعب الذي أنعم الله عليه فاختاره واعتنى به ، ولا يسع الكنيسة أن تنسى أيضا أن مريم أم يسوع كانت من بيت داود ، وأن الرسل والحواريين كانوا من نسل إبراهيم ، وأن هؤلاء جميعا قد قضوا أيام طفولتهم بين أبناء إسرائيل .

* ومع أن السكان القدماء في القدس كانوا كلهم من اليهود الذين آمنوا بيسوع مسيحا مهديا ، فإن القسم الأكبر من الشعب المختار لم يؤمن بيسوع مسيحا ، ولقد استنتج أهل العصور الماضية من ذلك ما يلي :

« بما أن اليهود بجملتهم لم يؤمنوا بيسوع مسيحا ، فإن جميع بني إسرائيل أخذوا بهذه الجريرة » ، والمجمع المكسوني يعلن – خلافا لذلك – أنه من الخطأ أن يستنتج الإنسان من الكتاب المقدس مثل هذه النتيجة .

* فاتهام الشعب اليهودي إذن – من عاش منه في الماضي ومن يعيش منه اليوم – باطل. إنه انسياق في الضلال ، وارتكاب للظلم . أما فيما يتعلق بالذين أرادوا قتل المسيح ، فإنهم زمرة قليلة العدد من اليهود وروماني واحد وحفنة من السوريين التابعين للكتيبة العاشرة التي كانت مرابطة في فلسطين ، وقد قال السيد المسيح عنهم كلهم – كما قال رسله بعده : « اغفر لهم (يا رب) فإنهم لا يدرون ما يفعلون » .

هذه هي النقاط الأساسية في تلك الوثيقة التاريخية الصادرة عن المجمع المسكوني الثاني ، وهي تهدم كل الموروثات العقائدية في المسيحية ، وتحابي اليهود وتتملقهم بصورة عجيبة .

ونحن – المسلمين – نؤمن بأن سيدنا عيسى – على نبينا وعليه الصلاة والسلام –

---

(1) يراجع : المرجع السابق ص 264 - 266 . وأسوق هذه الكلمات دون التدخل في ألفاظها التي تقف على النقيض تماما من معتقداتنا الإسلامية .

لم يُصلب وإنما نجاه الله ورفعه إليه ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1) .

ولكن عقيدة الصلب من العقائد المسيحية الأساسية منذ أن وقع التحريف في رسالة التوحيد التي جاء بها المسيح عليه السلام ، وظل اتهام اليهود بجريمة قتل المسيح وصلبه من الأمور الثابتة في الفكر المسيحي ، وكان سب اليهود ولعنهم فقرة من فقرات أي قداس مسيحي ، إلى أن جاءت هذه الوثيقة لتنسف كل هذه الأفكار ولتمحو العداوة ولتزيل البغضاء بين الفريقين ، تحقيقا للآية القرآنية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) .

والحق أن اجتماع اليهود والنصارى على كلمة سواء في مواجهة الإسلام ، أصل ثابت وواقع ملموس منذ ظهور الإسلام وعلو كلمته وارتفاع رايته .

ز – على الجانب العملي التنفيذي :

لا يحتاج الموقف إلى فطانة حادة ولا إلى ذكاء متَّقِد لإدراك مدى العداوة والبغضاء التي تحكم توجهات النظام الدولي الجديد في تعامله مع القضايا الخاصة بالإسلام والمسلمين .

فإن الباحث المدقق لو تتبع مواقف النظام الدولي الجديد في السنوات القليلة الماضية لوجد الظلم الفادح في أوضح صوره يتجلى في المعاناة القاسية التي تكابدها الشعوب المسلمة في العديد من الأقطار نتيجة قرارات دولية ظالمة ، في الوقت الذي يقف فيه المجتمع الدولي مكتوف الأيدي عاجزا عن اتخاذ أية إجراءات عملية لمواجهة أي عدوان يقع على شعب مسلم هنا أو هناك ، وقد سبق أن ذكر البحث نماذج كثيرة لذلك في فلسطين والعراق .. إلخ .

كما يغض المجتمع الدولي الطرف عن المذابح الجماعية التي تتعرض لها الأقليات المسلمة في شتى بقاع الأرض ، ومن بينها ليبيريا وكشمير والفلبين والهند وبلغاريا وكوسوفو وكثير من الدول الأوروبية ... إلخ .

---

(1) سورة النساء / الآيتان 157 ، 158 .   (2) سورة المائدة الآية 51 .

كذلك لا يسمع للمجتمع الدولي صوت في مناصرة أذربيجان المسلمة ضد العدوان الأرمني المسيحي .. والأمثلة كثيرة تعيا على الحصر .

ولكن المثال الأكثر وضوحا يتمثل في مأساة البوسنة والهرسك التي كانت متنفسا للحقد اليهودي الصليبي على الإسلام والمسلمين .

فوزير الإعلام الصربي يتحدث بروح صليبية واضحة فيقول : إن القوات الصربية التي تذبح المسلمين وتبيدهم تؤدي دور فرسان الصليب الذين ذهبوا لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين إبان الحروب الصليبية .. وزعيم الصرب في كوسوفو يقول : « الصرب حاربوا هنا لإنقاذ أوروبا من الإسلام ، وما زلنا نحارب لمنع الإسلام من الانتشار في قلب أوروبا » [1] .

ولقد صرح الرئيس الصربي « سلوبودان ميلوسيفيتش » مرات عديدة بأنه « لا أحد يريد أن تبقى للإسلام دولة في أوروبا .[2] » ولهذا فإن صربيا لا تخشى المجتمع الدولي لأن القوى الكبرى تشاركها رؤيتها وأهدافها .

وما يفعله الجنود الصربيون من قتل وذبح واغتصاب وغيره إنما يتم بدوافع صليبية بحتة وأحقاد قديمة ، وهذا هو السفاح الصربي « فوشتيك » أحد قادة الجيش يتحدث لمجلة ديرشبيجل الألمانية متباهيا بأنه قتل وحده مئات من المسلمين ، وأنه أطلق الرصاص على أسرى من المسلمين . وحينما نبهته المجلة إلى أن هذا العمل يخالف القانون الدولي قال : إنني لم أجد سيارات لنقل هؤلاء الأسرى فوجدت أن قتلهم بالجملة أرخص كثيرا .

وحينما سألته المجلة عن الهدف من تلك الحرب قال دون تردد : هدفنا هو القضاء على المسلمين ، فالمسلمون في أوروبا يجب أن يختفوا كأمة .. وأنا أقتل كل قادر على الحرب من المسلمين ومن لا أقتله أقوم بخرق عينيه ، ونحن نلجأ إلى تهشيم أيدي الأسرى ببطء حتي يعترفوا بما نريد من معلومات [3] .

إن هذا الإجرام الشنيع وتلك الفظائع المهولة قد ألهبت بعض المشاعر وحركت بعض الأحاسيس لدى وزير البريد في ألمانيا ، حيث تقدم باستقالته إلى المستشار هيلموت كول لأنه - أي الوزير المذكور - « لم يقبل أن يشارك في حكومة تقف مكتوفة اليدين أمام

(1) المواجهة بين الإسلام والغرب ص 19 .

(2) لقد دأب الرئيس الصربي وزميله - سفاح الصرب في البوسنة رادوفان كاراد زيتش على التأكيد بأنهم يقومون بمهمة تتمثل في حماية أوروبا من الإسلام ، ينظر على سبيل المثال : تصريحات ميلوسيفيتش إلى محطة c . n . n في المساء 20 / 9 / 1992 ص 2 .

(3) المؤامرة الكبرى ص 93 .

ذبح وتجريح واغتصاب أطفال ورجال ونساء البوسنة والهرسك العزل تحت سمع وبصر الدول الأوروبية دون أن تتحرك لنجدة هؤلاء الضحايا ، ودون أن تسمح لهم بجلب السلاح ليدافعوا عن أنفسهم .. » [1] .

ولكن أنى للدول الأوروبية أن تتحرك لإنقاذ مسلمي البوسنة ، والكثير منها يقف في خندق واحد مع السفاحين الصربيين لاستئصال شأفة الوجود الإسلامي في أوروبا .

وكشفت مأساة البوسنة والهرسك عن متانة التحالف الصليبي اليهودي ضد الإسلام والمسلمين فلقد ذكرت مجلة « نوفيل أفريك » الفرنسية أن جهاز المخابرات في الكيان اليهودي « الموساد هو الذي يقوم بتدريب القوات الصربية ، وأن المذابح الجماعية ، وقطع الأطراف ، وبقر البطون ، وفقء العيون واغتصاب بنات المسلمين هي من بعض فنون « الموساد » التي خططوا لها ، لإذلال وكسر شوكة الإسلام في أوروبا ودفنه إلى الأبد » [2] .

والحق أن التحالف بين الفريقين تحالف وثيق وقديم ، ولقد كان للنصارى الدور الأكبر في إقامة الدولة اليهودية ودعمها حتى تبقى غصة في حلوق المسلمين وشوكة في جانبهم . ويعبر « راندولف تشرشل » عن هذا فيقول : « لقد كان إخراج القدس عن سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء .. إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود . » [3] .

ومن مظاهر العداء للإسلام في النظام الدولي الجديد تلك الحرب غير المعلنة في المجال الاقتصادي ومجال التسليح .

ففي المجال الاقتصادي تبذل محاولات عدة لخنق الدول الإسلامية اقتصاديا والقضاء على ما تملكه من مواد خام تعتمد عليها اعتمادا كليا كالنفط . وفي مجال التسليح ، تحارب الدول الكبرى بضراوة ضد الدول الإسلامية التي تحاول تكوين جيش قوي أو تحاول الحصول على التكنولوجيا المتقدمة في المجال العسكري ، في الوقت الذي تغض فيه الطرف عن امتلاك الدولة الصهيونية للقنابل النووية [4] .

بات من المؤكد إذن أن العداء السافر للإسلام من أهم ملامح النظام الدولي الجديد ، باعتراف كبار أقطاب هذا النظام ، ولكن المغالطة الكبرى التي يكثر ترددها أن الإسلام

---

(1) المرجع السابق ص 56 . (2) المرجع نفسه ص 70 .

(3) مخطط تدمير الإسلام وإبادة المسلمين في العصر الحديث ص 12 .

(4) للوقوف على تفصيلات البرنامج النووي اليهودي يراجع :

* « الخيار شمشون » تأليف . سيمورهرش ، ترجمة : محمد رجب ، ط . الأولى 1412 هـ 1992 م .

أصبح الآن عدوا للغرب بعد سقوط الشيوعية وانهيار المعسكر الشرقي ، إن هذا قول يجافي الحقيقة ويناقض الواقع ويتصادم مع الحقائق التاريخية الثابتة . فمعاداة الإسلام شيء ثابت قبل سقوط الشيوعية .

فمن ناحية نجد أن الشيوعية والرأسمالية هما فرعان لأصل واحد هو المادية ، وقد ثبت - فيما سبق - أن النزاع بين الشيوعية والرأسمالية إنما هو نزاع عائلي بين أفراد البيت الواحد ، له قواعد لا يتجاوزها وله حدود لا يتعداها .

ومن ناحية أخرى وعلى افتراض قيام النزاع بين الشيوعية والرأسمالية ، فإنهما - في مواجهة الإسلام - حليفان لا يختلفان .

والتاريخ يثبت أن المسلمين كانوا أكثر الشعوب معاناة من الشيوعية وتجرعا لآلامها ومراراتها فعلى الرغم من اعتماد البلاشفة على المسلمين في تثبيت دعائم ثورتهم - بعد إيهامهم بالحرية والعدالة ... إلخ - إلا أنه « بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا سنة 1917م ، أقيمت للمسلمين مجازر رهيبة ، فعلى مدار خمسين عاما تم إفناء عشرين مليون مسلم ، كما ثبت في الإحصائيات الروسية أن الزعيم الروسي الجزار ستالين قد قتل حوالي أحد عشر مليون مسلم » [1] .

وليس يخفى على أحد ما كان يقاسية المسلمون في كافة الدول الشيوعية سابقا من تنكيل وتشريد وتعذيب وقتل بالجملة وإغلاق المساجد وتحويلها إلى متاحف ، وإحراق جميع المصاحف وكافة الكتب الدينية ، بل ووصل الأمر ببلغاريا - مثلا - إلى حد إجبار المسلمين على تغيير أسمائهم بالقوة [2] .

إن هذا كله يؤكد أن الإسلام كان مستهدفا من قبل الفريقين ، كيف لا ، وكلاهما فكرة غربية مادية بحتة . تقول صحيفة شيكاجو الأمريكية ، في عددها الصادر يوم 22 / 2 / 1979 م :

« إن الشيوعية أفضل من الإسلام ، لأنها - في الأصل - فكرة غربية يمكن الالتقاء معها ، أما الإسلام فلا التقاء معه ولا تفاهم إلا بلغة الحديد والنار » [3] .

---

(1) ينظر : العالم الإسلامي والمكائد الدولية ، فتحي يكن ص 89 .

(2) يراجع : الإسلام في وجه الزحف الأحمر ، محمد الغزالي . العالم الإسلامي بين الماضي والحاضر د . محمد عبد العليم العدوي .

(3) مخطط تدمير الإسلام ... ص 12 .

ويؤكد « لورانس براون » المبشر النصراني هذا المعنى فيتحدث قائلا : « لقد كنا نُخَوَّفُ بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصغر (اليابان والصين) وبالخطر البلشفي ، إلا أن هذا التخويف كله لم نجده كما تخيلناه . إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد . ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا ، أما الشعوب الصفر فإن هناك دولا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها .

ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته . إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي » [1] .

يستخلص من هذا أن الإسلام هو عدو المادية الغربية بكافة صورها وجميع أشكالها – شيوعية كانت أو رأسمالية – وأن عداء الغرب النصراني للإسلام ليس حكرا على حقبة تاريخية بعينها أو فترة زمنية بذاتها . ولقد كان المستشرق الألماني « كارل بيكر » محقا حينما عاد بأسباب العداء الغربي للإسلام إلى بداية ظهور الإسلام وانتشاره في جنبات الأرض وفي ذلك يقول : « إن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى أقام سدا في وجه انتشار النصرانية ، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها ... » .

يقول المستشرق جاردنر : « إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا » [2] .

وفي الإطار ذاته يتحدث المفكر الألماني باول شمتز فيقول : « إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوروبا ، وهتاف يجوب آفاقها ، يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبي لمواجهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو وينفض النوم عن عينيه . هل يسمعه أحد ؟!.. هل من مجيب ؟!.. » [3] .

هذه صيحة « باول شمتز » هل من مجيب ؟! وكانت الإجابة في صورة معاهدة أوروبية للوحدة بين أقطارها ، أنها معاهدة « ماستريخت » التي تضمنت ديباجتها حديثا عن الخطر الإسلامي المحدق وضرورة التجمع والاتحاد لمواجهته والقضاء عليه [4] .

---

(1) التبشير والاستعمار ... ص 184 بتصرف يسير ، كما يراجع : الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، د . سعد الدين صالح ص 26 ط أولى .

(2) التبشير والاستعمار ص 36 .

(3) أمتنا والنظام العالمي الجديد ص 46 .

(4) ورد ذلك على لسان أ . د / جميل حسين – رئيس قسم القانون الدولي بكلية الحقوق في جامعة المنصورة خلال ندوة عقدت بالكلية مساء يوم 17 / 4 / 1994 تحت عنوان « السياسة الدولية في إطار النظام الدولي الجديد » .

ووزير الدفاع الفرنسي يجتمع بمسئولين عسكريين من أسبانيا وإيطاليا ، ويدلي بتصريح يقول فيه : إن الدول الثلاث ستقوم بتكوين جيش طوارئ ، تنحصر مهمته في مواجهة الأصولية الإسلامية [1] .

إن الغربيين يخشون الإسلام باعتباره قوة الدفع التي لابد أن تصل بالمسلمين يوما إلى اجتماع الصف ووحدة الكلمة ، يقول ديكتاتور البرتغال السابق « سالازار » : « إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم ، وحينما اعترض أحد الصحفيين بأن المسلمين مشغولون بخلافاتهم ونزاعاتهم ، أجاب قائلا : أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم إلينا » [2] .

يدرك الغربيون بلا شك أن الإسلام هو قوة الدفع اللامتناهية ، وأن ضعف المسلمين وتفرقهم مسألة وقتية لا تلبث أن تزول ، ولهذا فهم يخططون ويدبرون للقضاء على الصحوة الإسلامية قضاء مبرما .

* * *

بعد هذا الاستعراض الشامل لأهم ملامح النظام الدولي الجديد ، يتبين للناظر المدقق أن أكثر هذه المعالم لا تعد جديدة كل الجدة . ويدرك الباحث أن تغييرا كبيرا وجوهريا لم يحدث ، وإنما تغير فقط شكل النظام الدولي .

والعلة في ذلك أن النظام الدولي في صورتيه القديمة والجديدة تحكمه القوانين الحضارية التي أفرزتها الحضارة المادية الغربية .

ولقد عانت البشرية الكثير والكثير من الآلام في ظل القيادة الغربية ، ولم يهنأ العالم بالسلام والأمن ، بل تعددت الحروب وكثرت النزاعات ، وضاعت - في خضم المآسي والأهوال - كل المقومات والنعم التي وهبها الله تبارك وتعالى للإنسان .

وإن البشرية الآن لترنوا بأبصارها إلى أفق أرحب وإلى نظام عالمي عادل ورشيد ، يكفل لها الأمن والطمأنينة ، ويجلب لها السعادة والرخاء .

ولن يتحقق هذا كله إلا في رحاب نظام عالمي قائم على أسس ربانية ، بعيدة عن أهواء البشر ونزعاتهم .

(1) ينظر : الإسلام في خندق ، د . مصطفى محمود ص 119 - 120 سلسلة كتاب اليوم فبراير 1994 دار أخبار اليوم - بالقاهرة .
(2) أمتنا والنظام العالمي الجديد . ص 40 .

ذلكم هو النظام العالمي الإسلامي ، الذي عاشت في ظله البشرية حينا من الدهر ، فنعمت بالأمن وتمتعت بالرخاء ... وسيكون لهذه النقطة حديث خاص بها في الباب الرابع من هذا البحث إن شاء الله تعالى ..

ولكن القضية الملحة الآن – بعد التعرف على ملامح النظام الدولي الجديد – تتعلق بتحديد القوة أو القوى الكبرى الآخذة بزمام هذا النظام ، باعتبار ما سبق ذكره في تعريف النظام الدولي من أن القوة أو القوى العظمى هي التي تفرض قواعد اللعبة الدولية وأسلوب ممارستها ..

فما هو يا ترى شكل توزيع القوة في النظام الدولي الجديد ؟! هل هو نظام القطب الواحد (أي قوة عظمى واحدة مهيمنة ومسيطرة) أو نظام متعدد الأقطاب ؟!

الإجابة عن هذا التساؤل هي محور الفصل التالي ..

الفصل الثاني

القوى الكبرى في النظام الدولي الجديد

تمهيد :

يدور الحديث هنا حول التعرف على مراكز القوة الفاعلة في النظام الدولي الجديد باعتبار ما سبق بيانه والتأكيد عليه في تعريف النظام الدولي من أن القوى الكبرى هي التي تضع مبادئه وترسي قواعده ، وتفرضها على بقية دول العالم ، وتُسَخِّر المنظمات الدولية لإضفاء الصبغة الشرعية على تلك القواعد والمبادئ .... من هنا ينبغي التعرف على مراكز التأثير في القرار الدولي والقوى الفاعلة في النظام الدولي الجديد .

وفي الحقيقة أن عملية تحديد القوى الفاعلة في النظام الدولي الجديد ليست بالمسألة اليسيرة ، من ناحية تحديد العناصر التي يمكن من خلالها القول بأن هذه الدول أو تلك قوة كبرى ذات تأثير في القرار الدولي ، إذ أن تحديد هذه العناصر « مسألة نسبية ، تختلف من حقبة تاريخية إلى أخرى ، طبقا لاعتبارات عديدة : سياسية ، واقتصادية ، وتكنولوجية ، وعسكرية ، ترتبط بقدرات وإمكانات القوى الرئيسية في النظام الدولي »[1] .

من هنا ينشأ الاختلاف في المنظور التقويمي ، تبعا لأهمية هذا الجانب أو ذلك ، وإن كان الجانب الاقتصادي قد بدأ يأخذ مكان الصدارة في تحديد عناصر قوة الدولة ، فعلى سبيل المثال يرى عوض خليل أن « تقرير فواعل النظام الدولي الجديد لا يمكن أن يجري بمعزل عن التطورات الاقتصادية الجارية على قدم وساق ، والتي يلعب فيها امتلاك أية دولة لناصية التقدم العلمي والتقني ، الدور الرئيسي في مكانة هذه الدولة في القمة الدولية .

ليست هذه الحقيقة نابعة فقط من التراجع النسبي لوزن القوة العسكرية في معادلة القوة الدولية بل لحقيقة أخرى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحقيقة الأولى ، وهي أن القوة الاقتصادية باتت تحتل نصيب الأسد في إعادة تشكيل العلاقات الدولية ، بصرف النظر عن المدى الزمني الذي قد يستغرقه ترسخ هذه الحقيقة .

لقد ظهر ذلك بجلاء في النظام الدولي السابق ، إذ كان تخلف الاتحاد السوفيتي عن

---

(1) السياسة الخارجية الأمريكية – مرجع سابق – ص 556 .

مقدرات الثورة الصناعية الثالثة سببا رئيسيا في انهياره . وتجلي أيضا - بصورة واضحة - في التأثير الذي أحدثته - وتحدثه - هذه الثورة بإنجازاتها الهائلة في إعادة صياغة وتعريف عناصر قوة أية دولة ، وإعادة تشكيل التوازنات الدولية القائمة . » [1] .

خلاصة هذا الرأي أن القوة العسكرية لم تعد العامل الحاسم في قياس قوة الدولة أو ضعفها ... ومن هنا ظهر الاتجاه الذي يقضي بالتمييز بين مستويين في تحديد شكل النظام الدولي :

الأول : النظام الدولي العسكري .

الثاني : النظام الدولي الاقتصادي .

فعلى المستوى الأول (العسكري) تظل الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا الاتحادية (وريثة الاتحاد السوفيتي المنهار) على القمة ، رغم التغيرات الكبيرة في الجانبين .

وعلى المستوى الثاني (الاقتصادي) ، سيشهد العالم تعددية لمراكز القوة الاقتصادية العالمية .. فإلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، توجد الجماعة الأوروبية واليابان ... وتبرز من الجماعة الأوروبية بالذات ألمانيا الموحدة ، التي هي حجر الزاوية في البناء الأوروبي [2] .

والحق أنه من الصعوبة بمكان الفصل بين الجانبين : العسكري والاقتصادي في ميدان المقارنة بين دولة وأخرى ، وتحديد القوى الفاعلة في النظام الدولي الجديد ، والاتجاه السابق يفترض استمرار الانفصال بين القدرة العسكرية لدولة ما والأساس الاقتصادي لها . وإذا كان ذلك صحيحا في حالتي اليابان وألمانيا الغربية في ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فإنه كان وضعا استثنائيا بكل المعايير ولا ينبغي افتراض استمراره .

ففي حالة هاتين الدولتين اللتين هزمتا في الحرب ، فرضت عليهما شروط وقيود تتعلق بالقدرة العسكرية ، ومع التغيرات التي تحدث في العالم الآن ، يمكن لهما أن تطورا قدرات عسكرية ذات شأن ، والإنفاق العسكري الياباني المتزايد يشير إلى ذلك بوضوح .

من ناحية أخرى فإن افتراض قدرة روسيا (وريثة الاتحاد السوفيتي) على الاستمرار في الحفاظ على وضعها العسكري المتميز هو أيضا محل نظر ، وبالذات في ضوء أزماتها

---

(1) توجهات وأهداف عوض خليل الشاهد [شهرية تصدر في قبرص] العدد 90 : 91 [فبراير - مارس 1993 م] ص 22 .

(2) ينظر : حول مستقبل النظام الدولي . د / علي الدين هلال ص 28 , 29 . السياسة الخارجية الأمريكية ص 554 ، 555 .

الاقتصادية ومشاكلها الداخلية [1] .

وعلى هذا فإن تحديد القوى الفاعلة في النظام الدولي الجديد لابد أن يضع في الاعتبار جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية ...

وقد تتبعت آراء الباحثين في هذا الموضوع فوجدتها لا تخرج عن النظريات الثلاثة الآتية :

النظرية الأولى :

وخلاصتها أن العالم يمر الآن بمرحلة انتقالية بين نظام دولي انتهى ونظام دولي لم تتحدد ملامحه النهائية بعد ، وأن هذه الفترة تتميز بالسيولة الشديدة في الأحداث المتلاحقة .

النظرية الثانية :

وهي أن النظام الدولي الجديد يتمحور حول قوة عظمى واحدة هي الولايات المتحدة الأمريكية [أي أنه نظام القطب الواحد] .

النظرية الثالثة :

وهي أن النظام الدولي الجديد يتجه إلى تعدد القوى العظمى [أي أنه نظام متعدد الأقطاب] .

وسأستعرض في هذا الفصل كافة هذه النظريات ، والاعتراضات الواردة عليها ، مع بيان الوجهة الصحيحة في ذلك .. والله الموفق !..

---

(1) حول مستقبل النظام الدولي ص 29 بتصرف .

المبحث الأول

النظرية الأولى : فترة انتقالية في النظام الدولي

يصور الدكتور علي الدين هلال خلاصة هذه الرؤية قائلا : « يرى أصحاب هذا الرأي أنه من المبكر للغاية تصور شكل النظام الدولي ، وذلك بالنظر إلى حجم المتغيرات التي تحدث في العالم وسرعتها ، وتلاحقها ، وأنه من الأرجح أن العالم سيمر في حالة سيولة - وربما فوضى - دولية لفترة .

ينطلق هذا الرأي من أن القواعد التي تحدد أسس النظام الدولي ، وتحكم حركة القوى الفاعلة فيه في طور تغير وتحول ، ولا تظهر بين يوم وليلة ، وأن ذلك سوف يتسبب في حالة من الغموض والاضطراب وعدم الاتفاق على قواعد الممارسة في الوضع الدولي الجديد » [1] .

ويرى عوض خليل أنه « من المبكر الحديث عن نظام دولي جديد ، فالوضع القائم الآن أقرب ما يكون إلى المرحلة الفاصلة بين نظامين ، أحدهما انهار والآخر قيد التشكيل ، وليس بوسع أحد الآن أن يقرر المدى الذي قد تستغرقه عملية التشكل هذه ، ولا التنبوء بصورة حاسمة حول سمات وخصائص وفواعل هذا النظام » [2] .

وقد أكد الرئيس مبارك في خطابه أمام القمة الأفريقية التاسعة والعشرين « أن العالم لا يزال يمر بمرحلة انتقالية صعبة ، ويعاني من مخاض عنيف ، يفرض على شعوب العالم المختلفة أن تعيد تشكيل الضوابط والقيم التي ظلت سائدة حقبة طويلة ، وأن تتخلى عن كثير من النظم الموروثة ، دون أن تكون قد توصلت إلى أسس واضحة متعارف عليها للنظام الجديد . » [3] .

ويقول ستيفانو سلفستري : « إن المشكلات القاسية المتعلقة بالتنمية الاقتصادية ، وبالاستقرار السياسي والأمن العسكري ، يلزم التعامل معها من خلال استراتيجية شاملة تصاغ حديثا . وقد تكون أنماط حسم الأزمات الجديدة في سبيلها إلى الظهور ، ومختلفة عن أنماط حسم المشكلات فى الماضي .

---

(1) حول مستقبل النظام الدولي ، ص 29 . بتصرف واختصار .

(2) توجهات وأهداف . مصدر سبق ذكره ص 22 .

(3) الأهرام ص 3 ، الأخبار ص 4 كلاهما بتاريخ 29 / 6 / 1993 م . وممن يؤيد هذه النظرية الدكتور : بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة . ينظر الأهرام 11 / 1 / 1994 م ص 5 ، 11 / 12 / 1995 م ص 7 . 6 / 1 / 1996 م ص 9 .

وإذا كان ثمة معنى لهذا الكلام ، فإن المعنى الوحيد هو أن النظام العالمي الجديد سيكون المشروع الابتدائي لمثل هذه الاستراتيجية الشاملة » [1] .

أما الدكتور أسامة الغزالي حرب ، فإنه يصل في تأييد هذه الرؤية إلى أبعد مدى ، وذلك حينما يؤكد « أن القول بانهيار النظام العالمي القديم – الذي قام على القطبية الثنائية – لا يعني على الإطلاق أن معالم ما هو « جديد » قد تحددت ، بل إن اعتبار هذا الجديد « نظاما » ما هو أمر لم يحسم بعد . » [2] .

يتضح من المقتطفات السابقة أن هؤلاء الباحثين يميلون إلى اعتبار الفترة الراهنة مرحلة انتقالية في النظام الدولي ، ومن ثم يجب الانتظار حتى يتبلور الشكل النهائي للنظام الدولي الجديد ، ويجب كذلك عدم إطلاق الأحكام أو استشراف آفاق المستقبل .

ولا شك أن هذه دعوة خطيرة من شأنها أن يبقى المسلمون بمنأى عن التطورات الجارية على الساحة الدولية ، غافلين عما يدور حولهم من تطورات هم هدفها الرئيسي وغايتها الأولى ، ومن شأنها كذلك أن نبقى دائما في موضع المتلقي الذي ينتظر الأحداث على أنها قدر حتمي لابد من الانصياع له وعدم مقاومته ، وهذه قمة المآسي !! فالبون شاسع والفارق كبير بين من يستشرف آفاق المستقبل ويتوقع أحداثه ويهيئ نفسه للتعامل معها ، وبين من يظل قابعا في مرابض التخلف ، لا يرى إلا تحت قدميه ، ولا يكلف نفسه عناء النظر إلى الأمام .

لاشك أن الكل يرون أن النظام الدولي الذي قام على أساس الثنائية القطبية منذ الحرب العالمية الثانية ... أو بعدها بقليل ... قد انتهى بانهيار أحد أطرافه وهو المعسكر الشرقي الشيوعي وتفكك الاتحاد السوفيتي ، ولا شك أن الجميع يرون أيضا أنه قد بدأت مرحلة جديد في النظام الدولي تقوم على أسس وقواعد تختلف عن سابقتها قليلا أو كثيرا ... فيجب – والحالة هذه – بيان شكل هذه المرحلة والقوى الفاعلة فيها ، لأنها – في النهاية – مرحلة جديدة ، انتقالية كانت أو ثابتة لفترة طويلة ... خاصة وأن المرحلة التي نعيش أحداثها ينتظر أن تستمر لفترة طويلة نسبيا قبل أن يحدث تغيير

---

(1) النظام العالمي الجديد .. أفلح إن صدق .. ستيفانوسلفستري . ترجمة : شوقي جلال الثقافة العالمية [شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت] السنة التاسعة – العدد (54) ربيع الأول 1411 هـ – سبتمبر 1992 م ص 112 .
(2) 1992 - 1993 م آلام التفكك والاندماج د / أسامة الغزالي حرب – افتتاحية مجلة السياسة الدولية التي يصدرها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية – مؤسسة الأهرام – القاهرة – السنة « 29 » العدد « 111 » يناير 1993 م ص 4 .

جذري في قواعدها ومبادئها ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

إن الدعوى الغربية بقيام نظام عالمي جديد ليست بالبساطة التي يتصورها الكثيرون ، إذ أنها تنطوي على مفاهيم حضارية ، لها بعدها التاريخي الموغل في القدم ، فهل يتصور هؤلاء الداعون إلى الانتظار وعدم البحث عن القوى الفاعلة وعن شكل هذا النظام وملامحه ، هل يتصورون أنهم بهذا قد أراحوا ضمائرهم ؟!! ....

لقد أحسن الدكتور سيف الدين عبد الفتاح صنعا حينما استعار بعض أسماء الفرق الكلامية وأطلقها على هؤلاء ، حينما وصفهم بأنهم « مرجئة » النظام الدولي الجديد ، أو أنهم « المجسِّمة » الذين لا يرون من سبيل إلا أن يتجسَّم هذا النظام الجديد بحيث يمكن الإمساك به ومعاينته ، حتى يمكن اتخاذ المواقف منه [1] .

وهو منحى من التفكير جد خطير يجب الحذر منه ، فلقد عاش المسلمون دهورا طوالا يتلقون الأحداث ويعانون آثارها ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء بحثها وتوقعها ، فضلا عن المشاركة في صنعها .

---

(1) يراجع : حول التحيز في مفهوم النظام العالمي الجديد ص 28 : 31 . حيث قسم الدكتور . سيف الدين عبد الفتاح طوئف الناس فيما يتعلق بالنظام العالمي الجديد ، تقسيما طريفا ، مستعيرا أسماء الفرق الكلامية فهناك شيعة ، ومعتزلة ، وخوارج ، ومرجئة ، ومجسمة ... وغيرهم .

المبحث الثاني

النظرية الثانية : نظام القطب الواحد

تأثر كثير من الباحثين بالنظرة الأمريكية للنظام الدولي الجديد ، وجنحوا تحت تأثير هذه النظرة – وتحت تأثير التحرك الأمريكي النشط على الساحة الدولية – إلى القول بأنه نظام القوة العظمى الواحدة وهي الولايات المتحدة الأمريكية ..

فعلى سبيل المثال يقول د / صلاح العقاد : « إن النظام العالمي الجديد – في تقديري – لا يعني تدعيم مركز الأمم المتحدة – كما يقال – ، بقدر ما يعني انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة العالمية » [1] .

ويقول محفوظ عزام : « إنه النظام الدولي الجديد على الطريقة الأمريكية البحتة » [2] كما أن المفكرين الأمريكيين أنفسهم يؤكدون أن أمريكا هي قائدة العالم بلا منازع ، ويسارعون بالرد على ما يثار حول هذه القيادة من شكوك ، فها هو المفكر الأمريكي د / زبجنيو بريجنسكي الذي كان يشغل سابقا منصب مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي ، يقول : « إن أفول نجم الاتحاد السوفيتي معناه تفرد الولايات المتحدة بمركز الدولة العظمى ذات المسئولية العالمية .... إن أوروبا ستكون في أحسن الأحوال قوة اقتصادية ، ولو أن توسعها نحو الشرق يؤخر اندماجها وتوحيدها بعض الشيء ، ولن تتحول اليابان إلى قوة عسكرية – سياسية ، إلا بعد مضي بعض الوقت ، وهكذا تبقى الولايات المتحدة الأمريكية القوة العالمية الوحيدة [3] .

وسأتحدث فيما يلي عن الوقائع التي استند إليها القائلون بالهيمنة الأمريكية المطلقة ، ثم عن التحديات والصعوبات التي تقف في وجه تلك الهيمنة .

أولا : الوقائع التي استند إليها القائلون بالهيمنة الأمريكية المطلقة :

يستند القائلون بالهيمنة الأمريكية المطلقة على قمة النظام الدولي الجديد ، إلى الحركة الأمريكية النشطة على المستوى الدولي ، دون أن تجد معارضا أو مناهضا ، خاصة في

---

(1) ينظر : أمتنا والنظام العالمي الجديد . د / عبد الوارث سعيد ص 35 .

(2) المرجع السابق .. وينظر أيضا : السياسة الأمريكية تجاه المنطقة العربية .. توازنات ما بعد حرب الخليج . محمد خالد الأزعر . مستقبل العالم الإسلامي العدد « 7 » صيف 1992 م ص 59 .

(3) ينظر : العلاقات الدولية .. دراسة للمفاهيم والمكونات وأنماط التفاعل الدولي . د / بلقاسم كرمني ص 50 .

إدارة وإخراج أزمة الخليج الثانية ، التي سبق القول بأنها كانت الفرصة التاريخية الذهبية أمام الولايات المتحدة لتعلن ميلاد النظام الدولي الجديد ، ولتؤكد انفرادها بقمة هذا النظام ..

1 - على الصعيد السياسي والدبلوماسي والأمم المتحدة :

أثناء أزمة الخليج « نجحت الولايات المتحدة في شن حملة قومية لإدانة السلوك العراقي ، وتمكنت من استصدار بيان مشترك مع الاتحاد السوفيتي يدين الغزو ، ويطالب العراق بالانسحاب ، على الرغم من العلاقات الودية التي كانت تربط موسكو ببغداد ... ونجحت الولايات المتحدة أيضا في تحييد الموقف الصيني ، وذلك من خلال التلويح بتحسين صورة الصين لدى الرأي العام العالمي - لاسيما الغربي - بعد التشوه الذي أصاب تلك الصورة ، بسبب المبالغة في وصف القمع الحكومي للحركة الطلابية الصينية في وسائل الإعلام الغربية .

وفي هذا الإطار أيضا ، نجحت الولايات المتحدة في تمرير أحد عشر قرارا من مجلس الأمن ، دون اعتراض - أوحتى امتناع عن التصويت - من جانب أي من الدول الأربع الأخرى دائمة العضوية في مجلس الأمن . كما أمكنها استصدار قرار من مجلس الأمن يخول لها الحق في استخدام القوة لطرد العراق من الكويت تحت غطاء من الأمم المتحدة . أي أن الدبلوماسية الأمريكية نجحت في إدارة الأزمة من خلال استصدار ما أرادت من قرارات في مجلس الأمن الدولي .

ويلاحظ هنا أن الدول الأخرى ذات العضوية الدائمة في مجلس الأمن لم تعارض التوجه الأمريكي ، وكل ما استطاعت فعله كان الضغط من أجل إضافة بعض اللمسات على شكل الصيغة الأمريكية ، دون أن تعدل من الجوهر [1] .

وواصلت الولايات المتحدة هيمنتها على الأمم المتحدة ، واستصدار القرارات التي تتواءم مع مصالحها وأهدافها ، دون أن تجد معارضة من بقية الدول الكبرى ، والمثال واضح في حالات ليبيا ، والصومال وهايتي ... وغيرها .

2 - على الصعيد العسكري :

تعمل الولايات المتحدة جاهدة على أن تظل بمفردها القوة الأساسية والرئيسية في العالم .. ففي تقرير عن الاستراتيجية الأمريكية المستقبلية أكد الجنرال « كولين باول »

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 م ص 80 بتصرف .

الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية أنه في الوقت الذي تعمل فيه الولايات المتحدة على خفض الإنفاق العسكري وعدد الجنود ، وإغلاق بعض القواعد العسكرية ، فإنها ستظل تعمل في الوقت نفسه على الاحتفاظ بالتفوق العسكري الأمريكي الكامل ، بحيث تظل الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم ، وأكثر الدول استعدادا لمواجهة المشاكل ، والتدخل لإنهاء الأزمات في ظل النظام العالمي الجديد وأضاف « باول » أن خفض عدد القوات الأمريكية سيرتبط بتحديد احتمالات الموقف العالمي وتطوراته خلال السنوات القليلة القادمة ، فلابد وأن تبقى الولايات المتحدة الأمريكية القوة العسكرية الأساسية والرئيسية في العالم [1] .

وبالإضافة إلى هذا ، كثفت الولايات المتحدة وجودها العسكري في المناطق العديدة من العالم :

– ففي أوروبا لا تزال القوات الأمريكية ترابط فيها ، من خلال حلف شمال الأطلنطي ، رغم تفكك حلف وارسو وانهيار الاتحاد السوفييتي .

– وفي آسيا ، تحتفظ أمريكا في منطقة المحيط الهادي بتواجد عسكري مكثف ، وقد صرح الرئيس السابق « جورج بوش » خلال زيارته للمنطقة بأن القوات الأمريكية ستبقى فيها بعد زوال الاتحاد السوفييتي لحفظ الاستقرار في المنطقة ، بالإضافة إلى تواجد دائم لحوالي خمسين ألف جندي أمريكي في اليابان .

– وفي الخليج ، صرح وزير الدفاع الأمريكي في 23 / 3 / 1992م بأن القوات الأمريكية ستبقى في الخليج حتى نهاية هذا القرن [2] .

وإذا ما انتقلنا من تصريحات كبار المسئولين إلى الوثائق الرسمية فسنجد الأمر واضحا غاية الوضوح . ففي دراسة قام بها محمد عبد السلام [مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام] تناولت عددا من الوثائق الأمريكية بالتحليل الدقيق ، ومنها :

(1) تقرير استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة [نشر في أغسطس 1991 م] .

(2) التقرير السنوي الذي أعدته وزراة الدفاع الأمريكية عن الاستراتيجية العسكرية

---

(1) نشرت الأهرام ملخصا لهذا التقرير ص 1 بتاريخ الجمعة 20/ 11 / 1992 م .. وقد أكد ذلك أيضا وزير الدفاع الأمريكي السابق « ديك تشيني » في تقريره المرفوع إلى الرئيس الأمريكي والكونجرس في فبراير 1992 م والذي قام العميد الركن المتقاعد / نافع أيوب لبس بترجمته لينشر بمعرفة مركز الدراسات العسكرية في سوريا . د . ق . ت .
(2) يراجع : النظام العالمي الجديد .. ملامح ومخاطر ص 68 ، ص 84 : 87 ، ص 149 .

القومية الأمريكية [نشر في يناير 1992 م] .

(3) وثيقة سرية وضعها فريق عمل يضم مسئولين من وزارة الدفاع والمخابرات [نشرت في فبراير 1992 م] .

(4) وثيقة سرية أخرى لوزارة الدفاع الأمريكية ، حصلت عليها صحيفة « نيويورك تايمز » ونشرها في 8 / 3 / 1992 م ، تتضمن تصورًا أمريكيا محددا للنظام العالمي الجديد ، ودور الولايات المتحدة فيه ، ووسائل تنفيذ هذا الدور وخلاصة ما تؤكده هذه الوثائق ما يلي :

« أ » هدف أمريكا الأساسي هو إرساء قواعد نظام عالمي تسيطر عليه الولايات المتحدة سيطرة تامة ، باعتبارها القوة العظمى الوحيدة المؤثرة في تشكيل الأحداث العالمية .

« ب » إن الولايات المتحدة ليست على استعداد للتنازل عن وضعها كقوة عظمى وحيدة في العالم ، حتى ولو اقتضى الأمر استخدام القوة لردع أية دولة أو مجموعة دول تتحدى التفوق الأمريكي [1] .

3 - على صعيد إبقاء الهيمنة الأمريكية وتدويمها :

بقدر حرص الولايات المتحدة على بقائها كقوة عظمى ، فإنها تحرص على اتخاذ كل التدابير الوقائية اللازمة لمنع أي دولة من أن تعزز قواتها العسكرية ، حتى لا تصبح دولة عظمى منافسة للسيادة العسكرية والاستراتيجية الأمريكية .

فالعودة إلى « الثنائية القطبية » أمر ممنوع أمريكيا ، وكذلك العودة إلى « التعددية القطبية » .. من هنا يأتي الإصرار على « النظام العالمي الجديد » بقدر ما يتضمن من « أحادية قطبية » يجب تدويمها وحمايتها أطول فترة ممكنة .. ويبدو أن التقرير الصادر عن « البنتاجون » - والذي نشرته جريدة « النيويورك تايمز » - في إطار التخطيط لدور الولايات المتحدة في « النظام العالمي الجديد » يشرح تصميم الولايات المتحدة على عدم السماح لأي قوة عظمى منافسة بالبروز ، سواء في أوربا ، أو في آسيا أو في جمهوريات الكومنولث .

ويرى بعضهم أن لدى الولايات المتحدة من الإمكانات والوسائل ما يكفل لها - خلال العقد الحالي على الأقل - الاستمرار بقيادة « النظام العالمي الجديد » ، من دون منافس جدي ولا منازع خطير :

---

(1) يراجع : حدود القوة العسكرية في النظام الدولي الجديد ، محمد عبد السلام ، دراسة نشرتها الأهرام في 10 / 7 / 1992 ص 7 .

– فهي قادرة على ممارسة الترهيب من خلال قوتها العسكرية الهائلة وانتشارها الاستراتيجي في العالم .

– وهي قادرة على إمكانات الترغيب ، من خلال مراعاتها مصالح دول الشمال ، ووعودها المتكررة بمساعدة روسيا والدول الأخرى في الكومنولث .

– وهي قادرة على تحييد الآخرين ، من خلال الإبقاء على وجود عسكري رمزي لكل من ألمانيا واليابان .

– وهي قادرة على تقييد « دول العالم الثالث » من خلال حظر اقتناء الأسلحة المتطورة ، وحظر نشاطاتها الاقتصادية المتطورة أيضا .

وهكذا ، فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تقوم بأدوار : الترغيب ، والترهيب ، والتحييد والتقييد ، بقدر ما يستلزم هذا النظام الدولي الجديد من شروط ومجالات . »[1] .

ثانيا : التحديات التي تعترض طريق الهيمنة الأمريكية المطلقة :

لم تسلم نظرية الهيمنة الأمريكية المطلقة من الانتقادات الحادة لدرجة وصفها بالرؤية السطحية الساذجة ، التي ترتكن إلى ظواهر الأمور دون الغوص في حقائقها وبواطنها ..

---

(1) النظام العالمي الجديد .. ملامح ومخاطر ص 149 , 150 وينظر أيضا : أضواء على التحولات الاستراتيجية في السياسة الخارجية الأمريكية (3) طه المجدوب الأهرام 24 / 5 / 1994 ص 5 ويلاحظ أن هذا الحرص الشديد من جانب الولايات المتحدة على التفرد بالزعامة والقيادة والهيمنة ليس أمرا طارئا ، ولا وليد لحظة أو فترة تاريخية بذاتها ، بل هو جزء أصيل من التركيبة النفسية والمزاجية الأمريكية .. والمسألة حينما توضع في إطارها التاريخي تجعل النزوع إلى الهيمنة والسيطرة على النظام الدولي الجديد من قبل الأمريكيين شيئا عاديا غير مستغرب .. فالكلمات التي يقولها « جورج بوش » في تسعينات القرن العشرين تكاد تكون هي الكلمات التي قالها أسلافه منذ اللحظات الأولى لتكوين الاتحاد الأمريكي وعلى امتداد تاريخ الولايات المتحدة ، وتتلخص في أن العناية الإلهية قد خصت الشعب الأمريكي برسالة سامية لهداية الإنسانية ، وتحريرها من ربقة العبودية والتخلف إلى آفاق الحرية والتقدم ... تراجع تصريحات زعماء ومفكري أمريكا حول هذه الدعوى في :

* أمريكا وغطرسة القوة . قدري قلعجي ص 11 : 37 .
* 1999 نصر بلا حرب . ريتشارد نيكسون ترجمة وإعداد وتقديم : المشير / محمد عبد الحليم أبو غزالة . ص 28 مركز الأهرام للترجمة والنشر – مؤسسة الأهرام – القاهرة . الثالثة 1412 هـ – 1992 م .
* أمريكا والشرق العربي . ميشيل كامل . ص 5 , 6 ط وزراة الثقافة ، د . ق . ت . ، أثر حرب الخليج على مفهوم الأمن القومى ، د / عبد المنعم المشاط ، ضمن بحوث ندوة حرب الخليج الثانية . النتائج والآثار ، نظمها ونشر بحوثها : مركز دراسات العالم الإسلامي – مالطا – سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية (4) ، ط الأولى شتاء 1992 م ص 37 .
* أزمة الخليج والنظام العالمي الحديد ص 127 ، 128 .
* التقرير الاستراتيجي العربي 1991 م ص 31 .

يقول « ستيفانو سلفستري » : « من الواضح أن حرب الخليج أكدت وضع الولايات المتحدة على قمة النظام العالمي ، وأثبتت أنها البلد الوحيد الذي يملك حقا وفعلا قدرات عظمى في النطاق العسكري ، وهذا لا يعني بالضرورة أن العالم سوف يتحرك في اتجاه نظام أحادي القطب ، يكون فيه للولايات المتحدة الدور الحاسم .... ولا يعني ذلك أيضا أن الولايات المتحدة ستكون قادرة على النهوض بجميع المهام السياسية والاقتصادية التي ستنجم حتما عن أزمة الخليج ، أو عن كثير من الأزمات التي ستلوح في الأفق ... » [1] .

ويرى سيد سعيد أنه إذا كان أصحاب نظرية الهيمنة الأمريكية المطلقة يجدون من الوقائع الكثيرة ما يدعم وجهة نظرهم (مثل القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة طبقا للرغبة الأمريكية) ، فإن معارضيهم يستندون إلى وقائع داخل الولايات المتحدة وخارجها تجعل من مسألة صيرورة النظام الدولي إلى نظام القوة الواحدة أمرا غير واقعي [2] .

والواقع أن انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقمة النظام الدولي يواجه تحديات ومصاعب كثيرة على المستويين الداخلي والخارجي .

أولا : التحديات الخارجية :

في ظل المصاعب التي تواجهها الولايات المتحدة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي - والتي سيأتي ذكرها بعد قليل - في ظل هذه المصاعب ، تصبح القوة العسكرية - كما يقول حسين معلوم - هي مناط التفوق الأمريكي وموئله ، وهذه القوة - في ظل هذه المصاعب أيضا - تواجه تحديات - أو بالأحرى تواجه قيودا - تحد من هذا الانطلاق في التفوق ، وذلك من وجوه ثلاثة :

الوجه الأول : (عسكري) : ويتمثل في وجود قوى نووية متعددة لديها صواريخ عابرة للقارات - بمعنى آخر - يقف الرادع النووي والصاروخي لدول أخرى حائلا يمنع انفراد الولايات المتحدة بموقع القمة العسكرية مثلما كان الوضع في أعقاب الحرب الأوروبية الثانية [3].... خاصة وأن هناك احتمال تزايد الدول الحائزة على السلاح النووي ، إذا ما

---

(1) النظام العالمي الجديد .. أفلح إن صدق ، مصدر سبق ذكره ، ص 112 .

(2) يراجع . حقوق الإنسان وأسطورة النظام العالمي الجديد ، سيد سعيد ، بحث مجلة القاهرة ، التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد 127 ، يونيو 1993 م ص 145 .

(3) يميل « حسين معلوم » لوصف الحربين العالميتين بأنهما أوروبيتان وليستا عالميتين ، بينما يميل د / أنور عبد الملك إلى وصف الحرب الأولى بالأوروبية ، بينما يصف الثانية بالعالمية ، يراجع : تغيير العالم ص 17 , 18 .

حاولت الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتي تسويق بضاعتها النووية ، تحت تأثير الحاجة الاقتصادية .

الوجه الثاني : (سياسي) : ويتمثل في مدى مصداقية القوة العسكرية للولايات المتحدة في خدمة القرار السياسي والاقتصادي الأمريكي ، أي أنه إن لم تخدم القوة العسكرية الولايات المتحدة في المحافظة على وضع القمة ، تصبح قوة غير قابلة للتصديق . وفي الأمد المنظور ، فإن الولايات المتحدة ليست في خصومة شديدة مع أية دولة أخرى ذات مصداقية عسكرية مهمة ... خاصة على مستوى القوة العسكرية النووية ... وبالتالي ، فتفوقها العسكري لا يدغل بالضرورة أو بشكل حاسم في توازنات القوة بين القوى الصناعية الكبرى ، وهو الأمر الذي يجعل من بلدان ما كان يسمى « العالم الثالث » (الجنوب الآن) وجهتها ومختبرها ، وليس في هذا ما يدل على تأكيد التفوق .

الوجه الثالث : (تكنولوجي) : ويتمثل في مدى التقدم « التكنولوجي » في عدد من الدول الصناعية الكبرى ، بمعنى آخر ، لقد استطاعت الولايات المتحدة خلال شهور قليلة (بعد ديسمبر 1941) بناء أقوى قوة عسكرية في العالم حدث هذا نتيجة لدرجة عالية من التقدم التقني واتساع قاعدة التصنيع الأمريكية . إذا كان هذا قد حدث في الأربعينيات ، فكم من الوقت تحتاج اليابان وألمانيا في التسعينات لبناء قوة عسكرية متفرقة ؟!! [1] .

ثانيا : التحديات الداخلية :

تتمثل تلك التحديات أساسا في ما تواجهه الولايات المتحدة من مصاعب جمة في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية .

(1) على الجانب الاقتصادي :

« تظهر الأرقام مدى المأزق الاقتصادي الأمريكي ، إذ وصل عجز الميزانية إلى 350 مليار دولار ، ووصلت الديون الخارجية إلى 3,5 تريليون دولار (التريليون يساوي مليون مليون) ، وزادت ديون الأفراد بنسبة 12 % سنويا ، في حين لم يرتفع دخل الفرد إلا بنسبة 7 % فقط ، كما ارتفعت معدلات البطالة إلى 6.6 % وهبطت معدلات البيع في أسواق السيارات والعقارات هبوطا حادا [2] .

ومن ناحية أخرى أكد عدد من الخبراء الأمريكيين أن أمريكا ستعاني خلال 60 عاما

---

(1) ينظر : القطب الأمريكي .... محاولة الانطلاق وتحديات المنافسة ... حسين معلوم ، السياسة الدولية ع 112 ، أبريل 1993 م ص 171 : 173 .

(2) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 86 .

من نقص الطاقة بسبب نضوب حقول البترول فيها خلال 20 عاما وأنها ستعاني كذلك من فقدان 120 مليون فدان من أراضيها الزراعية بسبب تعدي المدن عليها وعوامل التعرية ، في الوقت الذي سيزداد فيه عدد السكان إلى 520 مليون نسمة [1] .

وقد تعاظم العجز في الميزان التجاري الأمريكي حتى بلغ 162,3 مليار دولار ، وتراجعت الحصة الأمريكية في إجمالي الناتج العالمي من 35 % عام 1965 إلى نحو 26 % عام 1989 وبعد أن كانت الولايات المتحدة أكبر دولة دائنة في العالم تحولت لتصبح أكثر دول العالم مديونية [2] .

(2) على الجانب الاجتماعي :

يجد المطالع لأرقام الإحصائيات المنشورة عن حجم الجرائم في أمريكا ، يجد نفسه أمام مجموعة من الأرقام المفزعة الرهيبة ، لا يكاد يصدقها عقل ، إذ « بلغت حوادث القتل في أمريكا 34700 شخصا في عام 1991 وحده ، وبذلك يصبح معدل جرائم القتل 9,8 لكل 100 ألف شخص ، وهو أعلى معدل للجريمة في العالم » [3] .

(3) على الجانب التعليمي والبحث العلمي :

تراجعت الولايات المتحدة عن مركز الصدارة على المستوى العالمي في مجال التعليم والبحث العلمي ويذكر تقرير التنمية البشرية في العالم عام 1992 ، الصادر عن الأمم المتحدة « أن نسبة العلميين والفنيين في الولايات المتحدة لكل ألف من السكان هي 55 ، بينما نجد النسبة في اليابان مثلا تصل إلى 317 ، وفي كندا 257 ، وفي السويد وهولندا 129 ... أضف إلى ذلك أن التقارير العلمية تشير باستمرار إلى تدهور حال المدرسة الأمريكية وطلابها ، خاصة أمام الطلاب الأجانب ، وبالتحديد في علوم كالرياضيات والكيمياء وعلوم الحاسب الآلي ...

كان هذا ما دفع الأمريكيين لوضع تقرير « أمة في خطر » عام 1984 لإصلاح حال التعليم ، وكذلك وضعوا تقريرا رئاسيا آخر عام 1991 بعنوان « استراتيجية للتعليم في أمريكا حتى سنة 2000 » ، طالب فيه الرئيس الأمريكي أن تتحول الولايات المتحدة إلى أمة

---

(1) ينظر الأهرام 19 / 2 / 1995 ص 4 .

(2) كلينتون وتجديد الليبرالية الأمريكية ، دراسة للدكتور / طه عبد العليم (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية) ، نشرتها الأهرام بتاريخ الجمعة 20 / 11 / 1992 م ص 7 ، بتصرف .

(3) من إحصائية بعنوان : أمريكا بالأرقام نشرتها أخبار اليوم بتاريخ السبت 14 / 11 / 1992 ص 6 وسيأتي تفصيل ذلك في الباب الثالث إن شاء الله .

من الدارسين ، إذا أرادت إنقاذ مستقبلها بعد ما وصلت نسبة الأمية بها إلى 8 % – [1] .

لكل هذه التحديات لا ينتظر أن تظل الولايات المتحدة مهيمنة على النظام الدولي منفردة .... ويؤكد « حسين معلوم » ذلك بعبارات لا تخلو من الصرامة فيقول : « من الخطأ – إذا – الاعتقاد بأن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تنجح في الاحتفاظ بوضعية القوة المهيمنة على النظام الدولي أو أن النظام قد استقر في شكل نظام « أحادي القطبية » .... إذ أن الإدراك بهذه القيود (أي التحديات السابق ذكرها) يشير إلى أن الولايات المتحدة يمكن أن تصبح – على أقصى تقدير – قوة إقليمية كبرى ، أكثر منها قوة دولية عظمى » [2] .

والواقع أن كثيرا من المفكرين والساسة الأمريكيين أنفسهم يؤكدون هذه الحقيقة ، وعلى سبيل المثال : أكد المفكر الأمريكي « ديفيدسون » في كتاب أصدره بالاشتراك مع الكاتب البريطاني « ويليام ريزموج » تحت عنوان : « الحساب العظيم » أكد أن الولايات المتحدة تسير على نفس الخطى التي سارت عليها بريطانيا وأدت إلى تحولها من قوة عظمى إلى دولة عادية ، وأشار كلاهما إلى أن الولايات المتحدة تعاني من نفس المشكلات التي عانتها بريطانيا في فترة ما بين الحربين العالميتين مثل : ارتفاع معدل الضرائب ، وزيادة الأسعار ، واتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، وتزايد نفوذ جماعات الضغط ، وتدني التعليم ، والميل الشديد للاستيراد ، وارتفاع عجز الميزان ، وفقدان روح الطموح والعمل .

كما تطرق الكتاب إلى معدلات الجريمة غير العادية في الولايات المتحدة ، فعمليات السطو – على سبيل المثال – تزيد بنسبة .. 17 % عن اليابان وقد أدت هذه النسبة الهائلة إلى استئجار مليون شخص للعمل فى المجالات الأمنية في الفترة من 1975 حتى 1988 م . الأمر الذي كلف الميزانية مئات الملايين من الدولارات إلا أن معظم هذه الأموال لا تذهب إلى أغراضها الحقيقية ، وتؤكد الإحصائيات أنه من بين كل 100 دولار تنفق على رجال البوليس فإن حوالي دولارين أو ثلاثة فقط تذهب إلى غرض منع الجريمة [3] .

وبهذا ينتهي المبحث الثاني الذي استعرض النظرية الثانية في شكل النظام الدولي ، وتحديد القوى الكبرى الفاعلة فيه ، بما لها وما عليها ...

---

(1) القطب الأمريكي .. محاولة الانطلاق ، وتحديات المنافسة ص 173 .   (2) المرجع نفسه ص 172 .

(3) ينظر : أمريكا في طريقها للتحول إلى دولة عادية ، عاطف الغمري ، الأهرام 5/ 4 / 1995 ص 1 .. كما يراجع أيضا : هل حدث انهيار حضاري في أمريكا ؟! ، عاطف الغمري ، الأهرام 19 / 11 / 1995 ص 8 ، حيث عرض آراء ما يزيد على سبعين مفكرًا وسياسيا أمريكيا حول هذه القضية .

المبحث الثالث

النظرية الثالثة

تعدد الأقطاب في النظام الدولي الجديد

تقوم هذه النظرية على أساس اقتصادي بحت . وقد سبقت الإشارة في بداية هذا الفصل إلى أن الجانب الاقتصادي قد بدأ يأخذ مكان الصدارة في ميدان تقويم الدول ، وتحديد القوى الكبرى الفاعلة والمؤثرة في النظام الدولي الجديد .

ويعود القول بتعدد القوى إلى ما سبق بيانه من التدني المتواصل والركود المستمر في الاقتصاد الأمريكي ، وانخفاض الحصة الأمريكية في الناتج القومي الإجمالي العالمي ، في الوقت الذي تسعى فيه اليابان وألمانيا سعيا حثيثا نحو القمة الاقتصادية العالمية ، يضاف إلى هذا ، أن المجموعة الأوروبية قد دخلت طورا جديدا من التوحد والاندماج ، يجعلها قوة اقتصادية هائلة ... كما أن الصين تشهد نموا اقتصاديا بمعدلات خيالية فاقت كل التوقعات ... وكذلك مجموعة الدول الآسيوية المسماة بـ « النمور الآسيوية » تحقق هي أيضا معدلات نمو مرتفعة ...

من هنا نشأ الخلاف في تحديد أقطاب النظام الدولي الجديد عند أصحاب النظرية القائلة بتعدد القوى ... ومن خلال تتبع الآراء في هذه المسألة يتبين أنها لا تخرج عن الاتجاهات الآتية :

الاتجاه الأول :

يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وألمانيا ، هي الدول الكبرى والأقطاب الثلاثة في النظام الدولي الجديد .

الاتجاه الثاني :

يميل إلى أن الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان هي أقطاب النظام الجديد .

الاتجاه الثالث :

يتوسع أصحابه في تحديد شكل النظام الدولي ، فيضيفون إلى الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان ، كلا من الصين ومجموعة النمور الآسيوية .

الاتجاه الرابع :

وهو يميل إلى توسيع دائرة الاتجاه الثاني والثالث ، بدمجهما معا حيث يرى أصحاب هذا الاتجاه أن النظام الدولي الجديد هو نظام المجموعات والتكتلات الاقتصادية الثلاثة الآتية :

1 – الكتلة الأمريكية :

تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية ، ويدور في فلكها كندا والمكسيك ، وتجمعهم منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا NAFTA) . وقد تنجح الولايات المتحدة في توسيع مداها لتشمل جميع دول أمريكا الجنوبية ، والمجال الحيوي الغربي بكامله .

2 – كتلة أوروبا الغربية :

التي تسعى للتوحد والاندماج الكامل ، ويرشح المراقبون ألمانيا كقوة بازغة لتتزعم هذه الكتلة وقد تمتد هذه الكتلة لتشمل دول شرق ووسط أوروبا الشيوعية سابقا ، بل وقد تشمل روسيا وبعض الجمهوريات السلافية في الاتحاد السوفييتي المنهار .

3 – كتلة شرق آسيا :

تتزعمها اليابان ، ويدور في فلكها الدول حديثة التصنيع مثل كوريا الجنوبية وسنغافورة وتايوان ، بل وربما الصين أيضا .

وأحسب أن هذا الاتجاه قد بالغ كثيرا في تصور إمكانية قيام هذه الكتل في القريب العاجل أو في المدى المنظور ... ولذا فإني سأستعرض في هذا المطلب أوضاع كل من : الاتحاد الأوروبي – اليابان – الصين . الدول الصناعية الآسيوية الجديدة ... مبينا قدرات كل منها ، وإمكاناتها التي تؤهلها لاحتلال موقع القطب في النظام الدولي الجديد ، والعقبات التي تقف في سبيل تحقيق هذا الهدف وذلك من خلال الفروع الآتية :

الفرع الأول : الاتحاد الأوروبي .

الفرع الثاني : اليابان .

الفرع الثالث : الصين .

الفرع الرابع : مجموعة الدول الصناعية الآسيوية .

الفرع الأول : الاتحاد الأوروبي

ونحاول في السطور التالية إلقاء الضوء على الجماعة الأوروبية منذ أن كانت فكرة خيالية تداعب خيال الأوروبيين إلى أن أصبحت واقعا مجسما وحقيقة باهرة ، وينظر إليها كقطب دولي له مكانته في النظام الدولي الجديد .... وكذلك عن التحديات والصعوبات التي تواجه تلك الجماعة في مسيرتها الوحدوية والتي تمثل عائقا صعبا في محاولة الجماعة الأوروبية دخول القرن القادم ككتلة دولية واحدة لها تأثيرها على الساحة الدولية [1] .

(1) **نبذة عن المسيرة التاريخية للجماعة الأوروبية :**

(أ) تعود فكرة الوحدة الأوروبية إلى عدة قرون مضت في التاريخ السياسي للقارة ، وبعض المفكرين الأوروبيين من أنصار الوحدة يعودون بها - كما يقول محمد حالد الأزعر - إلى نهاية عصر الإمبراطورية الرومانية ، ولكن فكرة أوروبا الموحدة في صورة « ولايات متحدة أوروبية » لم تظهر بشكل محدد سوى في القرن التاسع عشر ... أما في القرن العشرين فقد ظهرت أكثر من محاولة لتوحيد أوروبا غداة الحرب العالمية الأولى ، ثم قبيل الحرب الثانية .

وبصفة عامة لم تحظ معظم الدعوات الوحدوية السابقة على الحرب العالمية الثانية بالنجاح لأن نزعة الوحدة لم تعبر عنها سوى مشاعر ضيقة ، ولم تتصدرها حركة سياسية منظمة أو استراتيجية واضحة المعالم ، كما أن نزعة الوحدة لم تكن قد استثيرت إلى الحد الذي يجعل منها تيارا سائدا في أجواء السياسة الأوروبية عامة .

(ب) تصاعدت حدة النزعة إلى الوحدة الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية ، وتكونت بالفعل عدة منظمات أوروبية متعددة الاختصاصات ، ولكنها لم تنجح في أداء مهماتها باستثناء « الجماعة الأوروبية للفحم والصلب » التي كانت بمثابة البذرة التي أنبتت فيما بعد شجرة الوحدة الأوروبية ، إذ أنها جمعت ألمانيا وفرنسا عدوتي الأمس في سياق منظمة واحدة ، تم التوقيع على ميثاقها في أبريل 1951 بعد انضمام كل من : إيطاليا - بلجيكا - هولندا - لوكسومبورج .... وقد حاولت فرنسا جذب بريطانيا إلى هذه المنظمة لكنها لم تفلح في ذلك .

(ج) أسهم النجاح الذي حققته جماعة الفحم والصلب في دفع أعضائها إلى التفكير بجدية في توسيع مداها لتحقيق الوحدة الأوروبية الشاملة ... وبعد تفكير طويل واجتماعات متعددة تم التوصل إلى إنشاء الجماعة الاقتصادية الأوروبية ، والجماعة الأوروبية للنشاط الذري ، ثم تم دمجهما مع المنظمة الأولى وانصهر الجميع في بوتقة واحدة هي الجماعة الأوروبية التي تم التوقيع على معاهداتها في روما خلال شهر مارس 1957 .

(د) لم تكتف بريطانيا بعدم الانضمام إلى الجماعة وإنما قامت بإنشاء منظمة مضادة عام 1960 هي « منطقة التجارة الحرة الأوروبية » وتضم أيضا : النمسا - الدانمارك - النرويج - البرتغال - السويد - سويسرا .... وتعرف اختصارا بمنظمة الـ « إفتا » - وقد نشبت بين المنظمتين منافسة حامية ، كانت الغلبة فيها للأولى ، مما حدا ببريطانيا إلى أن تتقدم بطلب للانضمام إلى الجماعة الأوروبية عام 1961 وظلت تحاول جاهدة إلى أن تحقق أملها في عام 1972 ، وانضم معها كل من أيرلندا والدانمارك ، بعد أن رفض الشعب النرويجي الانضمام .... ثم التحقت اليونان بركب الجماعة الأوروبية عام 1981 ثم أسبانيا والبرتغال 1986 مما رفع العدد الإجمالي للدول الأعضاء إلى اثني عشرة دولة .

(هـ) مع بداية الثمانينات أدركت الجماعة الأوروبية حجم المنافسة الاقتصادية الرهيبة بينها وبين كل من الولايات المتحدة واليابان ، مما يستدعي تطوير العمل الجماعي وإنشاء السوق الأوروبية المشتركة .... وتم في هذا المضمار إصدار وثيقتين تتضمنان برنامج العمل المتكامل والإطار الزمني الدقيق لتنفيذ مشروع السوق الموحدة بحلول عام 1992 .

للوقوف على التفصيلات يراجع :

* التنظيم الدولي : د / الشافعي بشير ، ص 253 , 321 .

=

أولًا : معاهدة « ماستريخت » وتكوين الاتحاد الأوروبي :

تضافرت عدة عوامل لدفع مسيرة الجماعة الأوروبية إلى مزيد من التوحد والاندماج ، من أهم هذه العوامل :

(1) تصاعد القوة الألمانية بعد توحيد شطريها ، مما أثار مخاوف الأوروبيين بسبب الماضي الألماني الذي لا تزال ذكرياته عالقة بالأذهان ... لذا لم يكن للأوروبيين من بديل – في مواجهة القوة الألمانية المتصاعدة – سوى ربط الوحدة الألمانية بصياغة فيدرالية أوروبية ، بحيث يتم تقييد وتكييف الأداء السياسي لألمانيا الموحدة من خلال مؤسسات وصياغات جديدة للعلاقات ، يمكن عبرها موازنة القوة الألمانية الصاعدة .

(2) حالة عدم الاستقرار في شرق أوروبا وجنوبها بعد انهيار الكتلة الشيوعية .... وقد أيقنت الجماعة الأوروبية أنها لن تستطيع السيطرة على الموقف إلا إذا أقامت هياكل موحدة تمكنها من ضبط الإيقاع الحركي في هذا الجزء من القارة .

(3) التغييرات التي حدثت في النظام الدولي بتفكك الاتحاد السوفييتي وقيام الولايات المتحدة بدور القوة العظمى الوحيدة فكان لابد من تعزيز المكانة الدولية لأوروبا بالتوازي مع الولايات المتحدة [1] .

من هنا تسارعت الخطى نحو تعميق الوحدة الأوروبية ، وتواصلت الاجتماعات والمشاورات ، إلى أن كللت جهود الأوروبيين بالنجاح ممثلا في توقيع اتفاقية للوحدة السياسية والنقدية ، عرفت بمعاهدة « ماستريخت » نسبة إلى المدينة الهولندية التي شهدت حفل التوقيع في 10 / 12 / 1991 .... ومن أهم ما تضمنته هذه المعاهدة التاريخية :

1 – **تكوين الاتحاد الأوروبي** : حيث تتحول الجماعة الأوروبية إلى الاتحاد الأوروبي ، بفضل السلطات الجديدة الممنوحة للهيئات المركزية في « بروكسيل » بحيث تغطي أهداف الدول في توحيد السياسة الخارجية والاقتصادية والدفاعية .... إلخ .

= * المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية ، ص 231 .

* كما يراجع في المجلد الذي خصصته دورية « مستقبل العالم الإسلامي » لموضوع : (الوحدة الأوروبية وآثارها الإقليمية والدولية) العددان 10 ، 11 ربيع وصيف 1993 البحوث التالية :

* الجماعة الأوروبية .... قراءة في المعوقات السياسية للوحدة – محمد خالد الأزعر – ص 29 : 34 .

* مشروع الوحدة الأوروبية وتأثيراته في الوطن العربي – حسين معلوم – ص 139 : 141 .

* العلاقات العربية الأوروبية في ضوء المتغيرات الدولية – محمود خليل – ص 161 : 163 .

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 – ص 91 ، 92 – بتصرف واختصار .

2 - **في المجال الاقتصادي** : تصك عملة نقدية موحدة لتحل محل العملات المختلفة للدول الأعضاء عام 1997 ولتطبق رسميا في أول يناير 1999 ، كما يتم إنشاء بنك مركزي أوروبي ليبدأ عمله عام 1997 .

3 - **في المجال السياسي** : شددت الاتفاقية على السياسة الخارجية الموحدة للاتحاد الأوروبي .... وبعد توحيد السياسة الخارجية للدول الأعضاء حجر الزاوية في هذه الاتفاقية .

4 - **في المجال الاجتماعي** : تطرقت المعاهدة إلى التشريعات الاجتماعية والعمالية الموحدة ، والتي تقضي بضرورة استشارة نقابات العمال الأوروبية ، ومشاركتها في القرارات الخاصة بالسياسات الاجتماعية والعمالية ... وقد اتفق القادة الأوروبيون على توقيع معاهدة مستقلة للجانب الاجتماعي ، تفاديا للمعارضة البريطانية الشديدة .

5 - **في المجال الدفاعي** : انتهجت المعاهدة سياسة الاعتماد على قوة دفاع أوروبية موحدة ، ولذا جعلت « اتحاد غرب أوروبا » [1] جزءا من مكونات الاتحاد الأوروبي ، واعتبرت الفيلق الألماني - الفرنسي [2] نواة لجيش أوروبي مشترك [3] .

هكذا بدأت أوروبا تنفيذ مخططاتها بغية دخول القرن القادم كقطب له اعتباره وكتلة لها وزنها في النظام الدولي ، إذ « يبلغ عدد سكان الاتحاد الأوروبي 337 مليون نسمة تقريبا ، ويبلغ الناتج القومي الإجمالي 3,5 ترليون دولار ، أي أقل قليلا من الناتج القومي الإجمالي للولايات المتحدة والذي يبلغ 4 ترليون دولار .... وتبلغ مساحة دول الاتحاد 2,260,000 كم 2 ، وتبلغ حصتها في الإنفاق على البحث العلمي في العالم الرأسمالي 20 % ، كما أنها تملك 1/3 الاحتياطي العالمي من الذهب وترتبط باتفاقيات ومعاهدات اقتصادية مع أكثر من 100 دولة ، وقد صدرت سلعا وخدمات أكثر من أمريكا بـ 3,7 ومن اليابان بـ 1,4 ضعفا ، وذلك في عام 1987 .

وإذا استطاعت دول الاتحاد الأوروبي تجميع بقية الدول الأوروبية في إطار واحد فإن تلك الكتلة يمكنها أن تصبح القوة الكبرى الوحيدة في العالم بلا منازع ، إذ سيبلغ عدد سكانها 850 مليون نسمة يتمتعون جميعا بمستوى تعليمي جيد وإمكانات اقتصادية هائلة [4] .

---

(1) هو عبارة عن منظمة دفاعية أنشأتها بعض الدول الأوروبية عام 1948 .... للوقوف على وظيفتها وهيئاتها يراجع : المنظمات الدولية الحديثة .... ص 276 : 279 .   (2) سيأتي الحديث عنه قريبا .

(3) يراجع : الأسرة الأوروبية : من معاهدة روما إلى معاهدة « ماستريخت » مفيد قطيش ، مستقبل العالم الإسلامي ص 27 . التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 93 , 94 .   (4) ينظر : الأسرة الأوروبية .... مرجع سابق .. ص 27 .

من هنا ذهب الدكتور / أسامه الباز إلى أن السيادة الأوروبية على الساحة العالمية أمر حتمي الوقوع في المستقبل المنظور .. [1] ويقول ريتشارد نيكسون : « إن شعوب أوروبا تملك القوة والتعليم والقدرة الصناعية والخبرة التكنولوجية التي تطوع لها أن تخطو إلى الصف الأول للأمم ، وإن زيادة طاقتها العسكرية التقليدية زيادة كبيرة تؤهلها لأن تضطلع اضطلاعا كاملا بدورها القيادي في تشكيل مستقبلها الخاص ومستقبل العالم [2] .

تستند هذه القوة الاقتصادية الأوروبية الهائلة – في جانب كبير منها – إلى متانة الاقتصاد الألماني وضخامته ، إذ أن الاقتصاد الألماني هو عصب الاقتصاد الأوروبي وعموده الفقري .

ثانيا : ألمانيا الموحدة .... حجر الزاوية في البناء الأوروبي الكبير :

كانت ألمانيا على مدار تاريخها محط أنظار الأوروبيين ، وظلت تتقلب ما بين انتصار ساحق وانكسار ماحق ... والتاريخ الألماني حافل بالعديد من الحروب التي خاضها هذا الشعب الثائر بطبيعته [3] .

وهذا التاريخ نفسه شاهد على المعجزة الألمانية في النصف الثاني من القرن العشرين . فبعد الهزيمة الساحقة للجيوش الألمانية في الحرب العالمية الثانية ، وتقسيم الأمة إلى شطرين ، والقضاء على كافة المقومات الحيوية للدولة ....

بعد هذا كله ، نجد ألمانيا على أعتاب القرن الحادي والعشرين قائدا لقطار الوحدة الأوروبية ، وتتصدر ركب القافلة الأوروبية باعتبارها الركن الركين ، والقوة الاقتصادية الأعظم فيها .

عناصر القوة في الاقتصاد الألماني :

بإطلالة سريعة على الإحصائيات الاقتصادية الدولية نجد ألمانيا مؤهلة لتصبح بمفردها قطبا دوليا مؤثرا يتفوق في بعض النواحي ليس على اليابان وحدها فقط ، بل على الولايات المتحدة الأمريكية كذلك .

فمساحة ألمانيا بعد توحيدها تبلغ 357,041 كم2 (ألمانيا الغربية 248,708 كم2 + ألمانيا الشرقية 108,333 كم 2) ، وهذه المساحة الكبيرة تشغل موقعا متميزا يمثل قلب أوروبا وهمزة الوصل بين شرقها وغربها .

---

(1) يراجع حديثه في الجمهورية 21 / 3 / 1992 ص 2 .

(2) يراجع فصل « العملاق المفتت » في كتاب : 1999 نصر بلا حرب .. مرجع سابق ص 207 : 233 .

(3) يراجع في ذلك : ألمانيا !! إلى أين المصير . د / جاد طه . دار المعارف . سلسلة « اقرأ » .

ويبلغ عدد سكانها 78,452 مليون نسمة وهو ما يمثل ربع سكان الاتحاد الأوروبي [1] .

وفيما يتعلق بالقدرة الاقتصادية الهائلة ، ووفقا للإحصائيات الخاصة بالناتج القومي الإجمالي للدول الصناعية الكبرى لعام 1990 ، تجدر الإشارة إلى أن ألمانيا الغربية (سابقا) - من منظور هذا المؤشر - تعتبر القوة الاقتصادية الثالثة في العالم بعد الولايات المتحدة واليابان ، فلقد بلغ حجم الناتج القومي الإجمالي لكل من الدول الثلاث على التوالي 4847,3 مليار دولار و 2843,7 - و 1201,8 مليار دولار .

وفي مجال آخر لتفسير أبعاد تميز القدرة الاقتصادية الألمانية ، يمكن القول : إن ألمانيا الغربية حققت نموا اقتصاديا متميزا يقدر بنحو 4,5 % في عام 1990 يفوق معدلات الدول الصناعية الرئيسية باستثناء اليابان التي بلغ معدل نموها الاقتصادي في العام ذاته 5,6 % وبالمقارنة مع دول أوروبا الغربية ، نجد أن دولها حققت معدل نمو اقتصادي متوسط أقل ، بل إن بعض دولها (بريطانيا) على سبيل المثال حققت معدلا ضئيلا للغاية [2] .

ومن الملاحظ أنه « رغم انخفاض الفائض التجاري الألماني من 71,5 مليار دولار الى 55,8 مليار دولار بين عامي 1989 و 1990 ، فقد استمرت ألمانيا صاحبة أكبر فائض تجاري بين الدول الصناعية

وقد حلت « ألمانيا الغربية » محل الولايات المتحدة باعتبارها أكبر مصدِّر في العالم في عام 1990 حيث زادت صادراتها مقارنة بعام 1989 بنحو 16,8 % وبلغت 398,4 مليار دولار . وتراجعت الولايات المتحدة إلى المرتبة الثانية بقيمة للصادرات بلغت 393,9 مليار دولار ، ثم اليابان التي استمرت في المرتبة الثالثة بقيمة صادرات 287,6 مليار دولار ، ويلاحظ أن الصادرات الأمريكية قد زادت في هذا العام بنحو 8,3 % كما زادت الصادرات اليابانية بنحو 5 % ، وهو ما يقل بدرجة كبيرة عن نمو الصادرات الألمانية (الغربية) » [3] .

ومن مظاهر القوة الاقتصادية الألمانية كذلك ، تلك القاعدة الصناعية الضخمة ، حيث إن « قطاع الصناعة يشكل وحده 40 % من الإنتاج المحلي الإجمالي ، فضلا عن أنه يتميز بسمة رئيسية تنفرد بها ألمانيا مع قلة من الدول الصناعية الكبرى - هي التركيز

---

(1) القوة الألمانية الصاعدة : المعطيات والممارسات في إطار النظام الدولي الراهن . د/ خالدة شادي - الفكر الاستراتيجي العربي - العدد 41 يوليو (تموز) 1992 ص 31 : 32 - يصدرّها : معهد الإنماء العربي بيروت - لبنان ، الهيئة القومية للبحث العلمي طرابلس ، ليبيا .

(2) المرجع السابق ص 33 .

(3) التقرير الاستراتيجي العربي 1990 ص 166 بتصرف واختصار .

على الصناعات الاستراتيجية كالصلب والحديد والسيارات وبناء السفن ، بالإضافة إلى الهندسة الميكانيكية والصناعات الكيميائية وصناعة الطائرات ومعدات الماكينات .

والأهم من ذلك التفوق الساحق في مجال الهندسة الميكانيكية ، حيث تحتل ألمانيا المرتبة الأولى على مستوى العالم في غالبية الفروع المتخصصة لهذا القطاع (21 فرعا من 37) وبالنظر إلى التكنولوجيا الحديثة للصناعة الكيميائية ، فإن ألمانيا تتمتع بالريادة في هذا المجال أيضا » [1] .

وهذا التطور الهائل يعود بالأساس إلى كم الإنفاق على البحث العلمي والتطوير التكنولوجي والأهداف البعيدة المدى للسياسة المختصة بذلك . ولقد تضاعف الإنفاق على البحث والتطوير في المعاهد البحثية (غير الجامعية) والجامعات والشركات الصناعية من 23 مليار مارك في عام 1975 إلى 50,8 مليار مارك في عام 1985 إلى أن بلغ في عام 1986 حوالي 55 مليار مارك ، وهو ما يعادل نسبة 2,9 % من الدخل القومي الإجمالي ، محققة بذلك معدلا متساويا تقريبا مع كل من الولايات المتحدة واليابان [2] .

العنصر السياسي في مُرَكَّب القوة الألمانية :

وإذا أضيف إلى هذه القوة الهائلة ، القوة السياسية التي تتمتع بها ألمانيا ، وثقل وزنها في المجالين الإقليمي والدولي ، فإنه يمكن القول بأن ألمانيا ستصبح قطبا دوليا مؤثرا على الساحة العالمية . وعندما تم توحيد ألمانيا في نهاية عام 1990 ، ثارت مخاوف الأوروبيين من هذا العملاق القادم والذي يرون فيه خطرا داهما لا تزال الذكريات المؤلمة التي أحدثها بهم في الماضي عالقة بأذهانهم ؛ لذا سارعت أوروبا إلى صهر هذه القوة الألمانية المتصاعدة في بوتقة أوروبا الموحدة ، من خلال تسريع الإيقاع الوحدوي في أوروبا .

ومن جانبها فقد حرصت ألمانيا على طمأنة شركائها الأوروبيين ، وإزالة مخاوفهم ، من خلال إعلان تمسكها بالنهج الوحدوي الأوروبي ، وفي هذا الإطار تأتي تصريحات المستشار الألماني « هيلموت كول » التي يقول فيها :

« نحن نريد تحقيق التآلف بين الألمان في كل الوجوه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية

---

(1) القوة الألمانية الصاعدة .... ص 37 ، باختصار .

(2) يرجع الجدول رقم (4) ص 38 من المرجع السابق ، والذي يستعرض حجم الإنفاق على البحث والتطوير في ألمانيا من عام 1975 حتى عام 1985 ، ثم يراجع ص 37 كذلك .

والمعنوية . نحن نريد الاشتراك في بناء نظام السلام الدائم والعادل في أوروبا على النحو الذي يحقق التآلف والتكامل بين الشعوب الأوروبية في إطار من الحرية ... نحن نتطلع للمساهمة في بناء السلام العالمي الذي لابد وأن يتأسس على مبدأ سيادة حقوق الإنسان وحق تقرير المصير للشعوب المختلفة » [1] .

ولا يحتاج المرء إلا لقليل من التعمق في الفقرة الأخيرة من هذا التصريح ، لإدراك التطلع الألماني لمزيد من التأثير في الساحة العالمية بالقدر الذي يتوافق مع مكانة ألمانيا وحجمها .

ففي الوقت الذي تحرص فيه ألمانيا على إبراز هويتها الأوروبية ، تؤكد – في الوقت ذاته – أحقيتها في تبوأ مكانة تليق بها دوليا .

وهذا ما تعبر عنه « ريتا سوث موث » رئيسة البرلمان الألماني « البوند ستاج » في تصورها للأوليات الألمانية ، والتي ترتبها على النحو التالي :

1) ألمانيا المتضامنة .   2) ألمانيا الأوروبية

3) ألمانيا المساهمة بنظرة شمولية أوسع ومسئولية أكبر تجاه العالم [2] .

ولكن ، وبالرغم من كل التصريحات الألمانية المتعددة ، فإنها لم تكن كافية لبث الطمأنينة في نفوس الأوروبيين .

وإذا عاد المرء بذاكرته إلى الوراء قليلا ، يلاحظ مدى الانزعاج والمخاوف التي انتابت أوروبا الغربية بسبب توحيد ألمانيا .

« فما إن طرح موضوع توحيد ألمانيا على جدول الأعمال الأوروبي ، حتى بدا وكأن القارة ذاتها تعيش ذاكرتها التاريخية أكثر من الواقع الحقيقي والمعاش – والمقصود هنا ألمانيا الحالية غير النووية التي ترتبط وحدتها بإرادة القوى الكبرى المنتصرة في الحرب العالمية الثانية – واستحضرت الذاكرة الأوروبية على الفور شبح ألمانيا القوية المهيمنة والطموح ، الباحثة عن « مجال حيوي » .. وهذا الانزعاج – وبشكل جزئي – أمر يتعلق بمسألة الحجم ، فبكل مقاييس القوة الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية فإن ألمانيا الموحدة – بالمقارنة مع بلدان أوروبا الأخرى – ستضحي أقوى مما كانت عليه ألمانيا الغربية ، والقوة لابد وأن تستخدم ، ومن المحتمل أن يستخدم الألمان هذه القوة أساسا في

(1) المرجع نفسه ص 42 .   (2) القوة الألمانية الصاعدة .... ص 42 .

تحقيق أهداف « ألمانية » فقط لا « أوروبية » .

وتدرك الدول الأوروبية الغربية أنه حتى لو توفرت لها فرصة المشاركة في تحديد هذه الأهداف ، فإنها ستظل بعيدة عن مراكز القوة الجديدة .

ومن المنظور الأوروبي فإن هذه المخاوف سوف تستمر إلى أن يشعر الألمان أنفسهم بأنهم أوروبيون أولا أكثر من كونهم ألمانا ...

وقد أثار توحيد ألمانيا كذلك تساؤلات عن إمكانية مطالبة ألمانيا الموحدة بضم الأقاليم الأوروبية التي تقيم فيها الجماعات الجرمانية في بولندا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويقدر عددهم بنحو خمسة ملايين ينطقون الألمانية [1] .

أما عن المخاوف الاقتصادية ، فقد تحولت إلى واقع مجسد في قوة البنك المركزي الألماني « البوند سبنك » .. والعملة الألمانية « المارك » أمام العملات الأوروبية بل والعالمية الأخرى .

وعندما أراد « جاك ديلور » رئيس اللجنة التنفيذية للمجموعة الأوروبية سابقا أن يعبر عن مدى قوة البنك المركزي الألماني المعروف باسم « البوند سبنك » لم يملك إلا أن يقول : « لست واثقا من إيمان كل الألمان بالله ، لكنني أعلم تماما أنهم يؤمنون جميعا بـ« البوند سبنك » .. لكن يبدو أن ديلور لم يلتفت إلى أن جميع شعوب الدول الأوروبية والصناعية – وليس ألمانيا وحدها – أصبحت تؤمن – بـ « البوندسبنك » بعد أن ظهر جليا أن مصير الاقتصاد الأوروبي والعالمي ككل معلق بقرارات هذا المصرف الذي أصبح أقوى مؤسسة نقدية في العالم وأقدرها على التحكم في معدلات التضخم وإرساء دعائم ثابتة لاقتصاد مستقر .

وليس أدل على قوة « البوندسبنك » ومدى تأثيره في الاقتصاد العالمي مما حدث في مطلع شهر فبراير من العام 1993 ، حينما قرر خفض أسعار الفائدة الرئيسية في ألمانيا ، وهو القرار الذي رحبت به جميع الدول الصناعية الكبرى بما فيها الولايات المتحدة واليابان ، واعتبرته خطوة مهمة في سبيل دفع الاقتصاد العالمي إلى الأمام وتخطي مرحلة الركود التي عانى منها طويلا .

والأهم من ذلك ، أن هذا القرار الألماني كان بمثابة طوق النجاة للنظام النقدي

---

(1) ينظر التقرير الاستراتيجي العربي 1990 ص 77 - 78 . ومن الجدير بالذكر أن دولة تشيكوسلوفاكيا قد انقسمت إلى دولتين هما تشيكيا ، وسلوفاكيا وذلك في مطلع عام 1993 .

الأوروبي الموحد بل ولمسيرة الوحدة الأوروبية ذاتها ، حيث أعطى الفرصة لبعض العملات الأوروبية كالفرنك الفرنسي والفرنك البلجيكي ، والكرونة الدانمركية ، والجنيه الاسترليني .... وغيرها ؛ لاستعادة قوتها ووقف التدهور المستمر في قيمتها [1] .

وقرب نهاية الربع الثالث من العام ذاته 1993 (في أواخر يوليو وبداية أغسطس) نشبت أزمة جديدة في البناء النقدي الأوروبي ، تدل هي الأخرى على القوة الهائلة للعملة الألمانية ومدى التأثير الذي تحدثه القرارات الاقتصادية الألمانية في الهيكل الأوروبي الموحد . فقد رفض البنك المركزي الألماني تخفيض أسعار الفائدة المسماة بـ(أسعار الخفض) مكتفيا بتخفيض أسعار الفائدة التي يقرض بها . وقد أحدث هذا الرفض صدمة للسوق النقدية التي اشتعلت أسعارها ، وانطلق المارك الألماني ليهاجم الفرنك الفرنسي بضراوة .

وإن كان لهذه الأزمة دلالة فإنما تدل على أن المارك هو سيد الموقف في أوروبا ، بمعنى أن السياسة النقدية التي ترسمها ألمانيا لابد أن يكون لها تأثير مباشر على جميع الدول الأوروبية [2] وقد تكرر هذا المشهد مرة أخرى في مارس 1995 م .

وقد أحسنت ألمانيا استغلال التفوق الاقتصادي الكاسح في فرض توجهاتها على كثير من القرارات الاقتصادية والسياسية الأوروبية .

فعلى الصعيد الاقتصادي : « نجحت ألمانيا في جعل البنك المركزي الأوروبي المشترك المزمع إنشاؤه – مستقلا بذاته عن المؤسسات السياسية الأخرى للاتحاد الأوروبي .

كما أفلحت ألمانيا في جعل بداية عمل هذا البنك في مطلع العام 1997 م وهو ما يتيح لها الفرصة لتتغلب بنجاح على الصعوبات الناجمة عن الوحدة الألمانية وتكاليف إدماج الجزء الشرقي سابقا في الاقتصاد الموحد [3] .

وعلى الصعيد السياسي : وفي سياق أزمة يوغوسلافيا السابقة ، تمكنت ألمانيا من فرض رؤيتها التي تقضي بالاعتراف باستقلال الجمهوريات التي كان يتشكل منها الاتحاد اليوغسلافي سابقا . فقد انتصرت الدبلوماسية الألمانية باستصدار قرار للمجموعة

---

(1) يراجع حلم الوحدة الأوروبية .. هل يصبح رهينة ألمانية ؟ ! تحليل في الأهرام ص 6 « الأسبوع العالمي » بتاريخ الجمعة 12 / 2 / 1993 – طارق الشامي .

(2) يراجع : الأزمة النقدية ومصير السوق الأوروبية – نيرمين السعدني – ص 176 - 180 ، السياسة الدولية – ع 114 أكتوبر 1993 م ص 94 .

(3) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 94 .

الأوروبية ينص على « تحديد منتصف يناير 1992 موعدا للاعتراف باستقلال كرواتيا وسلوفينيا والجمهوريات اليوغسلافية الأخرى ، ويأتي ذلك في سياق تجميد ألمانيا من جانب واحد لاتفاقات النقل مع جمهوريتي الصرب والجبل الأسود ، ومنع طائرات شركة الطيران اليوغسلافية من دخول مجالها الجوي ، ثم اعترافها فعليا في 23 / 12 / 1991 م باستقلال كرواتيا وسلوفينيا وإعلانها تبادل التمثيل الدبلوماسي معهما في الموعد الذي حددته الجماعة الأوروبية لاعتراف بـ « الدول الجديدة » [1] .

وهكذا تمضي ألمانيا قدما في تعزيز مكانتها الأوروبية كقاعدة انطلاق صوب الهدف الأكبر المتمثل في دور على الساحة العالمية يتناسب وقدراتها وإمكاناتها .

وفي هذا الإطار تحاول ألمانيا أن تتجاوز نقطة ضعفها الرئيسية المتمثلة في الناحية العسكرية وذلك بالتركيز « على تعزيز وتطوير القدرة الدفاعية للجيش الاتحادي ، وتحويل نظام الدفاع من نظام مستقر إلى نظام الانتشار السريع ، حتى تكون قواتها قادرة على استمرار المساهمة في عمليات الدفاع الأطلسية وفي عمليات حفظ السلام التي تقوم بها الأمم المتحدة خارج النطاق المحدد لحلف شمال الأطلسي بمجرد تعديل الدستور الألماني ليسمح بذلك [2] .

وقد حدث هذا بالفعل ، وشاركت ألمانيا في عملية الأمم المتحدة بالصومال على سبيل المثال .

وتتزايد في الوقت الحاضر الأصوات المنادية بضرورة حصول ألمانيا على مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي ... وهو ما يغلب على الظن حصوله في المستقبل القريب ، خاصة بعد التصريحات الأمريكية المتعددة بتأييد السير في هذا الاتجاه [3] .

واذا ما تحقق هذا المطلب الألماني فإنه لن يكون إلا مزيدا من ترسيخ مكانة أوروبا في النظام الدولي الجديد ، حيث سيصبح لها ثلاثة مقاعد دائمة في مجلس الأمن (إنجلترا - فرنسا - ألمانيا) .

الأمر الذي يعطي مزيدا من الدعم للذين ينظرون إلى أوروبا باعتبارها قطبا دوليا في النظام الدولي الجديد متعدد الأقطاب .

---

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 .

(2) يراجع مقال وزير الدفاع الألماني « جيرهارد شتولتنبرج » في الأهرام 3 / 10 / 1990 ص 14 .. كما يراجع : القوات الألمانية .. هل ستجد طريقها خارج الحدود ؟! عبده مباشر . الأهرام 11 / 5 / 1994 ص 5 .

(3) السياسة الدولية : ع (113) يوليو 1993 شهريات ، ص 309 ، ع 114 أكتوبر 1993 ، شهريات ... ص 307 .

ثالثا : التحديات التي تواجه مسيرة الوحدة الأوروبية :

تواجه مسيرة الوحدة الأوروبية كثيرا من التحديات التي تمثل سدودا هائلة أمام سفينة الوحدة الشاملة وتقف دون بلوغ أوروبا هدفها المنشود . وتنقسم هذه التحديات إلى قسمين : تحديات تنبع من داخل الجماعة الأوروبية ذاتها ، وأخرى تفرزها البيئة الدولية المعاصرة .

أ - التحديات الداخلية :

تختلف آراء دول الاتحاد الأوروبي حول العديد من القضايا اختلافا جوهريا يصل في كثير من الأحيان إلى حد التعارض التام والتناقض الكبير ... ومن الأمثلة الدالة على ذلك :

(1) الاختلاف الحاد حول شكل الوحدة :

تبلور داخل الجماعة الأوروبية اتجاهان :

الأول : يهدف إلى تسريع خطى الوحدة الشاملة وتأكيد الهوية السياسية للجماعة .

الثاني : يسير في اتجاه معاكس بالتعثر والتباطؤ المتعمد في تطبيق إجراءات المشروع الوحدوي الكبير . وتقف ألمانيا وفرنسا على قمة الاتجاه الأول وتمثل قوى الجذب المركزي التي تسهم في تلاحم الجماعة ، بينما تقف بريطانيا على قمة الاتجاه الثاني الذي يمثل قوى الطرد والتي تشارك في تقويض البناء الأوروبي من خلال عرقلة مراحل تنفيذه [1] .

إن هذا المسلك البريطاني يعكس التخوف البريطاني القديم من المد الوحدوي الأوروبي ، حيث كان البريطانيون - كما سبق في المسيرة التاريخية - قد رفضوا الانضمام إلى الجماعة في البداية ، ولم يلحقوا بالركب إلا بعد أن تأكدوا تماما من أن مصالحهم تحتم الانضمام ...

ومع هذا فلا يمكن الزعم - فيما يرى محمد خالد الأزعر - بأن البريطانيين تخلوا تماما عن مخاوفهم القديمة ، فما زال فريق منهم يصف ما هو مقبل من أحكام نتيجة الوحدة بالهيمنة والاستبداد ويرى أنه لا يمكن التخلي عن الشخصية البريطانية على مذبح الوحدة الأوروبية ، بل إن حساسية البريطانيين لثقافتهم وتاريخهم القوميين ذهبت ببعضهم إلى القول متهكما بأنه مع اقتراب الأسرة الأوروبية من تحقيق التكامل

---

(1) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1990 ص 76 .

والاندماج فقد يأتي اليوم الذي تنشأ فيه حركة تحرر بريطانية ضد الأوروبيين المستعمرين [1] .

وتظهر استطلاعات الرأي العام أن 31 % فقط من البريطانيين يوافقون على الوحدة السياسية الأوروبية ، بينما يؤيد 25 % فقط التخلي عن الجنيه الاسترليني كعملة وطنية لصالح إصدار عملة أوروبية موحدة ولهذا وقفت الحكومة البريطانية دائما في وجه الاقتراحات الفرنسية الألمانية الهادفة إلى تسريع خطى الاندماج الأوروبي [2] .

وتخطيا للعقبة البريطانية ، وتفاديا للفشل في طريق الوحدة « اضطر القادة الأوروبيون إلى استثناء بريطانيا من مبدأين جوهريين في اتفاقية « ماستريخت » :

الاستثناء الأول : يمكّن الحكومة البريطانية من العودة إلى البرلمان (مجلس العموم البريطاني) قبل التخلي عن الجنية الاسترليني . وربما يعني ذلك عمليا إعفاء بريطانيا من الالتزام بالتعامل بوحدة النقد الأوروبية في أسواقها الوطنية حتى بعد عام 1999 .

أما الاستثناء الثاني : فهو يتصل بإلغاء الفصل الخاص بالسياسة الاجتماعية وتنظيمات العمل من معاهدة « ماستريخت » والتوقيع عليه كاتفاقية منفصلة من بقية الدول الأوروبية ، وهو ما يعني إعفاء بريطانيا من الالتزام بالسياسات الاجتماعية والعمالية المشتركة [3] .

وقد شكل هذا الاستثناء البريطاني سابقة خطيرة أتاحت للدول الأخرى الفرصة للمطالبة باستثناءات وإعفاءات مماثلة ، وهذا ما حدث بالفعل مع الدانمارك حينما رفض شعبها المصادقة على معاهدة « ماستريخت » بأغلبية 51 % ، بسبب الاعتراض على بعض الالتزامات المنصوص عليها في نطاق الدفاع المشترك ونظام العملة الموحدة ... « وطرح ذلك علامة استفهام واسعة حول مستقبل عملية الوحدة الأوروبية بأكملها لفترة من الزمن . ولم تنته هذه الأزمة إلا مع اتفاق قادة الجماعة الأوروبية في مؤتمر قمة « أدنبره » في ديسمبر 1992م على إعفاء الدانمارك من بعض الالتزامات المذكورة ... [4] مما أدى إلى موافقة الشعب الدانماركي على المعاهدة في الاستفتاء الشعبي الثاني الذي أجري في مايو 1993 م بأغلبية 56,8 % فقط » [5] .

وقد يتعجب المتابع لعملية الوحدة الأوروبية من هذه النسبة الضئيلة للموافقين على

---

(1) الجماعة الأوروبية : قراءة في المعوقات السياسية للوحدة ص 37 بتصرف .

(2) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 94 ، 95 بتصرف . (3) المرجع السابق ص 95 .

(4) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية / مؤسسة الأهرام / القاهرة 1993 ص 83 .

(5) السياسة الدولية ع 114 أكتوبر 1993 شهريات الأحداث الدولية [مايو 1993] ص 301 إعداد : أبو السعود إبراهيم .

الوحدة الأوروبية في الدانمارك مما يؤكد عدم الرغبة الشعبية في إتمامها ، ولكن الواقع أن الشعب الدانماركي ليس وحده في هذا الميدان ، فمن خلال الاستعراض الذي قامت به نبية الأصفهاني لمسيرة التصديق على المعاهدة في الدول الأوروبية يتبين أن 3 دول فقط هي التي قامت بإجراء استفتاء شعبي حول المعاهدة ، وهي الدانمارك وفرنسا وأيرلندا ، بينما آثرت بقية الدول التصديق عليها من خلال المجالس النيابية رغبة في انتزاع التأييد اعتمادًا على الأغلبية التي تتمتع بها الحكومات في البرلمانات وتفاديا لإجراء استفتاءات شعبية قد تأتي نتائجها على عكس المطلوب – كما حدث أولا في الدانمارك – أو تتم الموافقة بأغلبية ضئيلة كما حدث في الدانمارك ثانيا وفي أيرلندا التي حصلت المعاهدة فيها على أعلى أغلبية 68,7 % من المشاركين في الاستفتاء وبلغت نسبتهم 57,3 % فقط من مجموع الناخبين ، وكما حدث أيضا في فرنسا التي كان الاستفتاء الشعبي فيها معركة سياسية ضخمة حيث قاد الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران بنفسه حملة التأييد للمعاهدة ، وقام بما يشبه استعطاف الشعب الفرنسي حتى تحقق له ما أراد ولكن بنسبة غاية في الضآلة حيث وافق على المعاهدة 50,04 % فقط من جملة الناخبين .. [1] .

هذا .. وقد اتفق قادة الاتحاد الأوروبي في اجتماعهم بالعاصمة الإيرلندية في 1996/10/6 م على بدء مفاوضات مكثفة لإتمام معاهدة جديدة للاتحاد تحل محل معاهدة « ماستريخت » وأكد القادة التزامهم بإنهاء تلك المفاوضات بحلول منتصف العام القادم (1997م) [2] .

ولكن بريطانيا – كالعادة – أكدت أن المعاهدة المقترحة تتضمن عددا من السياسات التي لا يمكن القبول بها من جانبها ، خاصة في مجال : العمل والبطالة ، وشئون القضاء والهجرة ومكافحة الجريمة ، والسلطات الجديدة التي ستمنح لمحكمة العدل الأوروبية [3] .

والواقع أن نبرة التصريحات البريطانية المعادية للاتحاد الأوروبي قد ازدادت حدتها وعلى أعلى المستويات ، فوزير الدفاع البريطاني « مايكل بورتيلو » – وفي خطابه أمام المؤتمر السنوي لحزب المحافظين – شن هجوما عنيفا على المفوضية الأوروبية وأكد أن بريطانيا ستدافع عن سيادتها ولن تخضع لأية أوامر من « بروكسل » [4] .. بل إن رئيس الوزراء « جون ميجور » قد بالغ في ذلك إلى حد القول بأن بريطانيا تفضل العزلة بدلا

(1) يراجع : معاهدة ماستريخت بين التوقيع والتطبيق نبية الأصفهاني / السياسة الدولية : ع : 111 يناير 1993 ص 110 : 116 .. وينظر أيضا الاتحاد الأوروبي ما زال منقسما ولا يجرؤ على التغيير . تحليل إخباري في الأهرام 7/12/1995م ص 5 .

(2) الأهرام 7 / 10 / 1996م ص 64 . 8 / 10 / 1996 ص 11 .

(3) الأهرام 22 / 10 / 1996 م ص 5 .

(4) الأهرام 12 / 10 / 1995 ص 5 .

من الانضمام للعملة الأوروبية الموحدة ، وأن سياسة بلاده تعمل من أجل هدف واحد هو مصلحة بريطانيا ، وإذا كان ذلك سيؤدي إلى خلافات مع الشركاء الآخرين في الاتحاد فليكن ما يكون [1] .

من هنا بدأ اتجاه جديد كشف عنه قادة بارزون في الاتحاد الأوروبي ، يقضي بإعداد خطة لاتحاد أوروبي بديل يضم 14 دولة فقط باستبعاد بريطانيا [2] ، التي يؤكد كثير من المفكرين البريطانيين أنفسهم أن أوهام العظمة هي التي منعت البريطانيين من اللحاق بقطار الوحدة الأوروبية . وأنهم ينظرون إلى بلادهم باعتبارها جزيرة منعزلة وليس جزءً من أوروبا [3] .

نستنتج من هذا أن فكرة الوحدة لم تستحوذ بعد على قلوب الأوروبيين ، وأن هناك انفصاما بين طموحات القادة ورغبات الشعوب ، فإذا أضيف إلى هذين الاستنتاجين ذلك الاختلاف القديم – والجديد أيضا – حول شكل الوحدة ، فإن هذا كله يمثل تحديا بالغ التعقيد يحول – بلا شك – دون بلوغ مسيرة الوحدة الأوروبية هدفها المنشود وغايتها المأمولة .

(2) تعثر إجراءات الوحدة الاقتصادية :

يأتي هذا التحدي ليمثل خطرا داهما على المسيرة الوحدوية الأوروبية ، إذ أن « التكيف مع نصوص معاهدة الوحدة يختلف من دولة لأخرى ، تبعا لخصوصية الوضع الاقتصادي لكل دولة » [4] ومما يؤكد صعوبة الوفاء بالمواعيد المحددة في اتفاقية « ماستريخت » ذلك التعثر الشديد في تطبيق الإجراءات المنصوص عليها في الورقة البيضاء التي صدرت عام 1985م ، وحددت نهاية ديسمبر 1992م موعدا لقيام السوق المشتركة ، وهو ما لم يحدث نتيجة تلكؤ الدول الأوروبية وتباطؤها في تطبيق إجراءات المشروع . فدولة مثل إيطاليا حتى نهاية عام 1991 لم تكن قد طبقت سوى 67 بندا من بين 282 بندا مطلوب تنفيذها . ومن بين 137 إجراء تتطلب إصدار تشريعات وطنية لم يتبلور سوى 49 إجراء فقط في شكل قوانين في جميع الدول الأعضاء في الجماعة ، وهناك خمس دول على الأقل لم تطبق من تلك الإجراءات سوى الحد الأدنى [5] .

وإذا كانت متطلبات « ماستريخت » تفوق متطلبات الورقة البيضاء بكثير ، فإن

---

(1) الأهرام 3 / 12 / 1995م ص 4 . (2) الأهرام 11 / 6 / 1996م ص 5 .

(3) يراجع : أوهام العظمة منعت البريطانيين من اللحاق بقطار الوحدة عبد الله عبد السلام الأهرام 22/5/1996م ص 6 .

(4) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 95 . (5) ينظر المرجع نفسه ص 90 .

الالتزام بإتمام إجراءات الوحدة في مواعيدها المحددة يعد أمرا بالغ الصعوبة والتعقيد .

وليس أدل على ذلك من أن معاهدة « ماستريخت » قد اشترطت أن يقل العجز في ميزانية دول الاتحاد عن 3 % من إجمالي الناتج المحلي ، وأن لا تتجاوز الديون الداخلية نسبة 60 % في عام 1997 م بحيث تصبح الدولة التي تحقق ذلك مؤهلة للانضمام إلى الوحدة النقدية الأوروبية ..

وقد أكدت دراسة أجرتها المفوضية الأوروبية أن دولتين فقط هما : فرنسا ولوكسمبورج سوف تنجحان في تحقيق ذلك ، بينما تستطيع ست دول هي : الدانمرك - ألمانيا - فنلندا - بريطانيا - إيرلندا - هولندا تحقيق شرط واحد فقط ، في الوقت الذي لن تتمكن فيه ست دول أخرى من الوفاء بشروط المعاهدة ، وفي النمسا - على سبيل المثال - يبلغ العجز في الميزانية 3,1 % وتبلغ الديون الداخلية 73,9 % وهو معدل أعلى بكثير من المطلوب في معاهدة « ماستريخت » مما يجعل النمسا ضمن ما يسمى بدول المؤخرة في الاتحاد وتشمل : اليونان - أسبانيا - إيطاليا - السويد .

وتوقعت دراسة المفوضية الأوروبية أن لا يتجاوز معدل النمو الاقتصادي في دول الاتحاد الأوروبي هذا العام (1996 م) 1,5 % . [1] هذا وقد قال « برناردكونولي » رئيس الإدارة المسئولة عن الاتحاد النقدي في المفوضية الأوروبية . إن إصدار العملة الأوروبية الموحدة سيفجر الصراع بين ألمانيا وفرنسا على السيادة على أوروبا ، وهو أمر كفيل بإنهاء فترة السلام بين البلدين واشتعال الحرب بينهما من جديد [2] .

(3) الاختلاف الحاد حول قضية توسيع الجماعة :

احتلت قضية توسيع الجماعة حيزا كبيرا من المناقشات وأثارت الكثير من الخلافات داخل الجماعة الأوروبية ، بسبب التزايد المطرد في عدد الدول الراغبة في الانضمام إلى الجماعة ، مع وجود اتجاه غالب يتزعمه رئيس المفوضية الأوروبية ويرى أن « توسيع » الجماعة يشكل خطرا على هدف « تعميق » العلاقات بين الدول الاثنتي عشرة صوب المزيد من الوحدة السياسية [3] .

وقد بدأ إثارة هذه المشكلة اتجاه كثير من دول أوروبا الشرقية نحو طلب الانضمام

---

(1) ينظر : النمسا وشروط ماستريخت . مصطفى عبد الله . الأهرام 9 / 6 / 1996م ص 7 .

(2) الأهرام 5 / 9 / 1995م ص 1 .

(3) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1990 ص 78 .

إلى صفوف الجماعة وكذلك دول رابطة التجارة الحرة الأوروبية :

* فيما يتعلق بدول أوروبا الشرقية تم إبرام مجموعة من اتفاقات الارتباط معها لمدة 10 سنوات دون تضمين تلك الاتفاقيات أية نصوص تعد باحتمالات منح العضوية لأي من هذه الدول ... ولا تعد مسألة انضمام هذه الدول مثيرة للكثير من الجدل في الوقت الراهن ، إلا أن ضرورات إعادة التوازن بين الدول الأعضاء قد تجر خلافات كثيرة حول منح بعض هذه الدول العضوية الكاملة قبل نهاية فترة السنوات العشر [1] .

* أما مسألة انضمام دول رابطة التجارة الحرة الأوروبية (السويد - سويسرا - فنلندا - النرويج - النمسا - أيسلندا - ليخنشتين) فهي التي تثير الكثير من الجدل ، فهي دول وإن كانت صغيرة ومجموع ناتجها القومي أقل قليلا من نصف الناتج القومي الألماني إلا أنها دول متقدمة وغنية ، لذا لم يكن ممكنا تجاهل مطالبها للانضمام إلى الجماعة الأوروبية ... وهنا ثارت خلافات كبرى لأن انضمام هذه الدول « يثير مشكلة سياسية مزدوجة » .

فمن ناحية أولى ، تقترب هذه الدول عرقيا وثقافيا إلى ألمانيا أكثر بكثير من الدول الأخرى ، مما أدى إلى تخوف الأوروبيين من زيادة الهيمنة الألمانية على أوروبا ، الأمر الذي سيدفعهم إلى التمسك بوجود أمريكي في أوروبا لموازنة الدور الألماني .

ومن ناحية ثانية ، تحتفظ دول « الإفتا » بتقاليد أساسية تترجم غيرتها الشديدة على استقلالها القومي ، والابتعاد عن السياسة الأوروبية ، والاحتفاظ بروابط قوية مع الولايات المتحدة ، وهذا يعني أن عضوية هذه الدول ستخلق مشكلات كبيرة بالنسبة لعملية اندماجية تستهدف تحقيق وحدة أوروبية كاملة مستقلة عن الولايات المتحدة [2] .

وتحقيقا للتوازن بين المؤيدين والمعارضين لانضمام هذه الدول ، اقترح رئيس المفوضية الأوروبية في يناير 1989 خطة للتنسيق بين دول الرابطة ودول المجموعة وإنشاء صلة اندماجية بينهما . ولكن محكمة العدل الأوروبية حكمت بعدم دستورية هذه الخطة ، مما جعل منح العضوية الكاملة لدول الرابطة أمرا ضروريا ، وبالفعل بدأت مفاوضات المجموعة الأوروبية مع أربع دول من الرابطة وهي : السويد - فنلندا - النمسا - النرويج

---

(1) يراجع : المراجع السابق ص 80 ، التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 96 هذا وقد وضعت القمة التي عقدت في ألمانيا في ديسمبر 1994 خطة لتحديد الخطوات التي يجب على 6 دول من أوروبا الشرقية اتخاذها قبل الانضمام للاتحاد دون موعد زمني لذلك ... الأهرام 12 / 12 / 1994 ص 4 .

(2) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 96 بتصرف يسير .

واستمرت طوال عام 1994 إلى أن انتهت بانضمام كل من السويد والنمسا وفنلندا إلى الاتحاد الأوروبي بداية من يناير 1995 ، وتخلفت النرويج عن القافلة بعد أن رفض شعبها الانضمام خلال الاستفتاء الشعبي الذي أجرى هناك في نوفمبر 1994 [1] .

ومما يبرهن على أن قضية « توسيع » الجماعة الأوروبية تمثل تحديا كبيرا أمام تحقيق الوحدة الأوروبية الشاملة ، التحفظ الشديد التي أبدته فرنسا إزاء خطط منح العضوية لدول شرق أوروبا ، بحجة خشيتها من تضاؤل نفوذها داخل الاتحاد الأوروبي لحساب ألمانيا ، حيث تتمتع الأخيرة بوجود اقتصادي قوي داخل هذه الدول [2] .

كذلك فإن مواقف الدول الأوروبية تجاه مسألة انضمام دول « الإفتا » تؤكد مدى التباين في المواقف واختلاف نظرة كل دولة بحسب مصالحها فقط ، فقد وقفت بريطانيا بكل ثقلها مع التيار المؤيد لمنح العضوية لهذه الدول بهدف إحداث توازن – من وجهة نظر بريطانيا – بين بروتستانت الشمال وكاثوليك الجنوب ، بينما أبدت دول مثل أسبانيا خشيتها من تحول اهتمام الاتحاد نحو الشمال والشرق على حساب الجنوب [3] .

ومن هنا نخلص إلى القول بأن الاختلاف الحاد بين الجماعة الأوروبية حول قضية توسيع الاتحاد الأوروبي يمثل تحديا كبيرا وخطيرا أمام مسيرة الوحدة الأوروبية الشاملة .

(4) معوقات توحيد السياسة الخارجية :

ترغب دول الجماعة الأوروبية في توحيد موقفها إزاء القضايا والأحداث الدولية المتلاحقة والخروج إلى العالم بموقف موحد يعبر عن أوروبا ككيان مستقل بذاته وكتلة دولية لها وزنها وثقلها ... ولكنها فشلت في تحقيق ذلك تبعا لتباين المصالح وتعارضها في كثير من الأحيان .

كما يرجع الفشل في ذلك أيضا إلى « اختلاف عمق المصالح على الساحة الدولية ، وطبيعة الروابط الخارجية ، وتباين نظرة كل دولة إلى أهمية التعاون السياسي ذاته ، ومدى إمكاناته في تحقيق مصالحها الذاتية وتنمية روابطها الدولية والحفاظ عليها .

وعلى سبيل المثال : فإنه في الوقت الذي يوجد فيه لكل من بريطانيا وفرنسا تاريخ مميز

---

(1) ينظر المرجع السابق ص 95 , 96 ، التقرير الاستراتيجي 1990 ص 78 , 79 ، الأهرام 7 / 2 / 1994 ص 4 ، 4 / 4 / 1994 ص 5 ، 30 / 12 / 1994 ص 4 , 5 .

(2) الأهرام 10 / 12 / 1994 ص 4 .

(3) الاتحاد الأوروبي .. يلامس روسيا ويناطح أمريكا – طارق الشامي – الأهرام 11 / 3 / 1994 ص 5 بتصرف .

وممتد في السياسة الدولية ، وارتباطات متعددة الأبعاد عبر أقاليم غير أوروبية ، وتمتلكان قوة نووية خاصة بهما وتتمتعان بعضوية دائمة في مجلس الأمن ، فإن هناك دولا أخرى كأيرلندا ولوكسمبورج والدانمارك اعتادت دورا ضئيلا في الأقاليم الخارجية والسياسة الدولية ... كما أن هناك ألمانيا التي تمتلك قوة اقتصادية دولية عملاقة مقابل دور سياسي لا يتناسب وهذه المكانة الاقتصادية أو يوازيها ، مما يدفع إلى ضرورة أن تمارس دورا دوليا متوازنا سياسيا واقتصاديا ، حتى تتمكن من الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن .

وأيضا ، يختلف مفهوم التعاون السياسي بين الدول الأعضاء بالجماعة ، فالدول ذات الثقل الدولي المميز ترى فيه وسيلة للتنسيق بين الأوروبيين وآلية لحشد بقية الدول خلف وجهة نظرها ... فيما تعدُّه الدول الأقل ثقلا وتأثيرا أداة للتكامل وتحقيق الوحدة لأنها من خلال ذلك قد تحصل على مكانة دولية لم تكن لتحظى بها منفردة .

إن هذا التباين في نظرة دول الجماعة إلى أهمية التعاون السياسي ليس جديدا على الساحة الأوروبية ، فهو يعود إلى بداية الستينات ، حينما بدأت تلك الدول في دراسة كيفية وضع السياسة الخارجية الموحدة موضع التنفيذ ، حيث تراوحت مواقفها بين اتجاهين :

الأول : تزعمته فرنسا وألمانيا ، ويتمسك بصيغة التعاون السياسي غير الملزم ، بحيث يقتصر على مجالات التشاور وتبادل وجهات النظر في حين تبقى المواقف الأخيرة من شأن الدول وسيادتها القومية .

الثاني : وكانت تدعو إليه إيطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج ، وكان يطالب بقيام صيغة تعاون سياسي ملزم إلى حد كبير .

وحتى الآن لم يتجاوز التعاون السياسي ذلك الخلاف القديم بين هذين الاتجاهين ، مما يجعل الصعوبات التي تقف دون توحيد السياسة الخارجية الأوروبية مؤهلة للتفاقم والتعقيد بحكم الأحداث المستجدة حول الجماعة أوروبيا ودوليا [1] .

(5) الخلاف الحاد حول معضلة الأمن الأوروبي :

تعد قضية الأمن الأوروبي من أشد القضايا الأوروبية تعقيدا وأكثرها إثارة للجدل الحاد والخلاف العميق .... ورغم أن التطورات الجديدة على الساحة الأوروبية والعالمية تجعل

(1) يراجع : الجماعة الأوروبية ... ص 43 ، 44 . المشروع الفيدرالي الأوروبي .. إلى أين ؟! افتتاحية مستقبل العالم الإسلامي مصدر سابق ص 3 .

القارة أقل عرضة للتهديد من الناحية النظرية - حيث انهار حلف وارسو وتفكك الاتحاد السوفييتي - إلا أن الأمر الواقع يؤكد أن القارة الأوروبية الآن تجابه عددا من المخاطر النابعة من داخلها ، والتي تجعل الاتجاه إلى بلورة منظومة دفاعية جديدة أمرا واجب الحدوث ...

فمثلا ، تواجه القارة مخاطر الاضطرابات والتناقضات على الصعيد الداخلي خاصة « فيما يتعلق بالتناقضات المذهبية بين الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت ، والتناقضات السياسية والاجتماعية القائمة على تعدد الهويات القومية بين شعوب دول أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية ، والتناقضات القومية والدينية في داخل كل دولة على حدة ، والتناقضات الاقتصادية التي يمكن أن تنبع تحت تأثير الأقليات غير الأوروبية التي نزحت إلى أوروبا الغربية أو التي يمكن أن تنزح إليها مستقبلا .

وعلى وجه الخصوص فإن الفترة الانتقالية الراهنة التي تمر بها دول شرق أوروبا والكومنولث تجعلها مؤقتا بمثابة منطقة طاردة للسكان ، الأمر الذي يثير المخاوف لدى دول أوروبا الغربية من عدم قدرتها على استيعاب مشاكل أوروبا الشرقية وتدفق الهجرات منها إلى غرب أوروبا ، مما يشكل مصدرا خطيرا للإخلال بالأمن فيها ، لاسيما من حيث إن هذه المشكلات يمكن أن تتسبب في تقويض الهيكل الراهن للاستقرار الداخلي والتعايش السلمي بين الجماعات المختلفة داخل مجتمعات غرب أوروبا ، وتجد نفسها تواجه تحديا جديدا يذخر بكافة التناقضات القومية والدينية والمذهبية والسياسية ، بما يمكن أن يحول تلك المجتمعات إلى ساحة رخوة قابلة للانفجار » [1] .

هذا عن المخاطر النابعة من الداخل ، أما على الصعيد الخارجي فلا تزال الترسانة النووية والتقليدية الهائلة التي تمتلكها دول حلف وارسو السابق على وجه العموم ، بل دول الاتحاد السوفييتي السابق خصوصا ، بل ما تمتلكه روسيا الاتحادية بمفردها على وجه أخص ... لا تزال هذه الترسانة الهائلة تشكل خطرا داهما على أوروبا الغربية ، حيث تظهر الإحصائيات الخاصة بموازين القوة العسكرية في أوروبا عام 1992 مدى تفوق القدرات العسكرية الروسية على القدرات العسكرية لكل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا والقوات الأمريكية في أوروبا مجتمعة [2] ... وهذا يؤكد أهمية التفكير في إيجاد هوية أمنية أوروبية قوية .

وهنا يثور الخلاف الحاد داخل الجماعة الأوروبية ، « ذلك أن فرنسا وألمانيا تريان أن

---

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 79 .
(2) يراجع الجدول في المرجع السابق ، ص 81 .

المتغيرات العالمية القائمة تدفع في اتجاه بناء قوة أوروبية غربية ، لا سيما وأن العلاقات الأوروبية – الأمريكية باتت تشهد تنافسا اقتصاديا متزايدا ، وأصبحت الولايات المتحدة تنظر إلى الجماعة الأوروبية بوصفها خصما تجاريا أكثر منها حليفا أو صديقا ، علاوة على أن بعض الدوائر الأوروبية تعتقد أن البيئة الدولية تتيح لأوروبا الغربية إمكانية القيام بدور أكثر فعالية واستقلالية على الساحة العالمية ، مثلما كان الوضع قبل الحرب العالمية الثانية ... وبادرت فرنسا وألمانيا في هذا الإطار إلى الدعوة لإقامة جيش أوروبي موحد وأعلنتا تكوين فيلق مشترك بينهما في 16 أكتوبر 1991 » [1] .

أما بريطانيا وإيطاليا وهولندا فقد تزعمن حركة المعارضة القوية لمحاولات فك الارتباط الدفاعي بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة « ودعت بريطانيا وهولندا إلى جعل الجيش الأوروبي الموحد بمثابة الذراع الأوروبية لمنظمة حلف شمال الأطلنطي . وتقوم الحجة الأساسية لأصحاب هذا الاتجاه على أساس أن الولايات المتحدة وحدها يمكن أن توازن الثقل العسكري لدول رابطة الكومنولث داخل نظام الأمن الأوروبي ، ويؤكدون أن حلف الأطلنطي لا يزال يعتبر البناء العسكري الأكثر قدرة على توفير الضمان لأية دولة أوروبية تخشى أن تكون عرضة للتهديد » [2] .

وقد سلكت معاهدة « ماستريخت » طريقا وسطا بين الرؤيتين الفرنسية الألمانية من جهة ، والبريطانية الإيطالية من جهة أخرى ، وذلك بدعمها لمنظمة اتحاد غرب أوروبا دون أن يؤثر ذلك سلبا على احترام بعض الدول الأعضاء لالتزاماتها داخل حلف الأطلنطي ... ومع أن مجرد إحياء اتحاد غرب أوروبا وتمكينه من وضع السياسية الدفاعية الأوروبية الموحدة يشكل انتصارا للرؤية الألمانية الفرنسية فيما يتعلق بالموقف من الاستقلال الدفاعي لأوروبا عن الولايات المتحدة [3] . إلا أن المعاهدة ربطت بينه وبين حلف الأطلنطي بصورة جعلت الأول مجرد فرع مكمل للثاني ، وبالتالي فإن الفيلق الفرنسي الألماني المشترك سيكون بدوره خاضعا لحلف الأطلنطي بشكل أو بآخر ،

---

(1) مستقبل نظام الأمن الأوروبي – أحمد إبراهيم محمود – مستقبل العالم الإسلامي ص 67 هذا وقد شرعت الدولتان في اتخاذ الإجراءات العملية حيث تم تشكيل هيئة أركان الفيلق وتحديد مهامه ومكوناته على أن يبدأ عمله في أكتوبر 1995 . ينظر التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 82 , 83 . وقد انضمت بلجيكا إلى هذا الفيلق في أكتوبر 1993 .. ينظر السياسة الدولية ع 115 يناير 1994 شهريات أكتوبر 1993 ص 343 .

(2) مستقبل نظام الأمن الأوروبي ص 66 , 67 بتصرف . (3) التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 94 .

بحيث يصبح مجرد وحدة إضافية متعددة الجنسيات تعمل تحت قيادة الحلف [1] .

وبالإضافة إلى هذا الخلاف الحاد داخل الجماعة الأوروبية ، تعارض الولايات المتحدة الأمريكية تكوين هوية أمنية أوروبية مستقلة ، سواء على المستوى الثنائي ، أو على مستوى الجماعة ، أو على مستوى منظمة مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي ، وتريد أن تحتفظ لنفسها بدور متميز في مسألة الدفاع عن أوروبا ، فهي تشعر بحساسية بالغة « إزاء التقارب القاري في أوروبا لاسيما بين الشرق والغرب ، حيث ترى أن هذا التقارب يمكن أن يؤدي إلى عزلها تماما عن شئون الأمن الأوروبي ، مما يولد خطرا حقيقيا على الأمن الأمريكي ذاته .

فالولايات المتحدة ظلت منذ نشأتها قبل حوالي قرنين من الزمان تنظر إلى نفسها باعتبارها جزيرة منعزلة لا يمكن الدفاع عنها إلا إذا ظلت أوروبا - آسيا (أوراسيا) نفسها منقسمة إلى قوى متنافسة ، مع ضرورة أن تؤدي موازين القوى السائدة في القارة الأوروبية إلى الإبقاء على هذا الانقسام والحيلولة دون نجاح قوة ما في فرض سيطرتها على القارة الأوروبية بأسرها ، جنبا إلى جنب مع ضرورة الحفاظ على دورما للولايات المتحدة في ترتيب أوضاع الأمن الأوروبي . وعلى الرغم من أن انهيار الاتحاد السوفييتي قد أنهى مخاوف السيطرة السوفيتية على منطقة (أوراسيا) ، إلا أن الولايات المتحدة تجد أن هناك مخاطر حقيقية تواجهها حال نجاح الدول الأوروبية جميعها في بناء أكبر قدر من التجانس والتوافق السياسي والأمني فيما بينها بعيدا عن الولايات المتحدة [2] .

ولمزيد من التوفيق بين الجانبين (الأوروبي - الأمريكي) وقع حلف الأطلنطي معاهدة مع اتحاد غرب أوروبا تقضي بمساعدة الحلفاء الأوروبيين على القيام بدور أكبر في الدفاع عن أنفسهم [3] .. وفي خطوة تالية . ولتحقيق قدر أكبر من الاعتماد الأوروبي على النفس ، أنشأ حلف الأطلنطي منظمة دفاعية أوروبية تقضي بتشكيل هياكل عسكرية أوروبية للتعامل مع النزاعات الساخنة والقيام بعمليات حفظ السلام ، وذلك باستخدام إمكانات الحلف . وبمقتضى الاتفاق تستطيع دولتان أو أكثر من الحلف تشكيل قوة عمل من قواتها والاستعانة بإمكانات الأطلنطي مثل : طائرات النقل العملاقة . ومعلومات

---

(1) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 98 : 102 . التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 83 : 85 مستقبل نظام الأمن الأوروبي ص 70 , 73 .

(2) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 86 ، وينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 101 المشروع الفيدرالي الأوروبي ... ص 3 .

(3) الأهرام 7 / 5 / 1996 ص 4 .

الأقمار الصناعية ووسائل الاتصال المتطورة .. ومعظم هذه الإمكانات أمريكية [1] .

لهذا كله ؛ فإنه إذا لم تنجح الدول الأوروبية في حل معضلة الأمن الأوروبي فإن حلم الوحدة الأوروبية لن يتحول إلى واقع محسوس .

(6) صراع القيادة والهيمنة داخل الجماعة الأوروبية :

ثارت مشكلة التنازع القيادي بين الدول الكبرى داخل الجماعة ، خاصة بين ألمانيا وفرنسا وبريطانيا :

بين فرنسا وألمانيا : تأمل كل منهما في إتمام الوحدة الشاملة بهدف تكريس الهيمنة والزعامة على الجماعة الأوروبية ، ومن ثم على القارة بأكملها ، وقد بدأ النزاع بينهما منذ بدأ التفكير في تكوين الجماعة ، فقد رأى « روبير شومان » وزير خارجية فرنسا أن تكوين الجماعة يهدف – بين أهداف أخرى – إلى احتواء القوة الألمانية ، من غير أن يفرض على ألمانيا مرتبة دنيا [2] .

وبعد إتمام الوحدة الألمانية كثر الحديث عن الهيمنة الألمانية الحتمية على أوروبا ، ودأبت فرنسا على تأكيد أن الهدف الوحدوي الأوروبي هو السبيل الوحيد لتفادي الهيمنة الألمانية . أما ألمانيا فإنها من جانبها تبارك المسيرة المتسارعة الخطا إلى إقامة البناء الأوروبي الموحد ، حيث ترى في ذلك تأكيدا وتكريسا لهيمنتها على القارة الأوروبية .

بين فرنسا وبريطانيا : لا يخفى على أحد أن بريطانيا كانت في البداية تعارض الجماعة الأوروبية ، وأنها لم تنضم إليها إلا بعد أن رأت نجاحها المتوالي بشكل يهدد مكانة بريطانيا كقوة عظمى منفردة ، وتيقنت بريطانيا من أن فرصتها في التأثير في الشئون العالمية وهي واحدة في مجموعة قوية أفضل مما لو ظلت بمفردها ... وليس أدل على ذلك من قول أحد كبار المسئولين البريطانيين في تعليل انضمام بلاده للمجموعة الأوروبية : إنه كان على المرء أن ينضم إلى الآخرين ، وإلا أحيل إلى المرتبة الثانية .

ولقد وقفت فرنسا طوال الستينات في وجه انضمام بريطانيا إلى المجموعة الأوروبية متعللة بأسباب اقتصادية في الظاهر ، ولكن الحقيقة أن فرنسا رأت في هذا الانضمام

---

(1) الأهرام 4 / 6 / 1996 ص 1 .. ولتحليل هذه الخطوة وتقدير أبعادها ، يراجع : حلف الأطلنطي وأبعاد الثورة الهائلة ، سلوى حبيب ، الأهرام 11 / 6 / 1996م ص 5 .

(2) الجماعة الأوروبية قراءة في المعوقات السياسية للوحدة ص 40 .

تحديا سافرا للنفوذ الفرنسي وللزعامة الفرنسية في أوروبا على وجه العموم [1] .

بين بريطانيا وألمانيا : تعد حالة التنافس القيادي بين بريطانيا وألمانيا أقل وضوحا في أجواء الجماعة ، إلا أن هناك دلائل كثيرة على وجوده ، فبريطانيا عبرت دائما عن مخاوفها من التحالف الألماني الفرنسي والتنسيق التام بينهما بحجة أنه سيؤدي إلى فرض التوجهات الألمانية الفرنسية على القارة الأوروبية ، أما ألمانيا فقد أوحت مرارا بامتعاضها من العراقيل التي دأبت بريطانيا على وضعها في طريق الوحدة الشاملة [2] . وقد ظهر الخلاف بين الجانبين بصورة سافرة خلال مؤتمر قمة الاتحاد الأوروبي في اليونان ، حيث رفضت بريطانيا بعناد شديد تعيين « جان لوك ديهاين » رئيس وزراء بلجيكا في منصب رئيس اللجنة الأوروبية رغم حصوله على تأييد كافة دول الاتحاد الأخرى ، وذلك لأنه – من وجهة نظر بريطانيا – المرشح المفضل لكل من فرنسا وألمانيا ، مما يعني أنه سيكون خاضعا لنفوذهما وتأثيرهما ، وقد نجحت بريطانيا بالفعل في إبطال مفعول التأييد الألماني الفرنسي لهذا المرشح ، الأمر الذي أحدث هزة عنيفة داخل الاتحاد الأوروبي لم تنته إلا بعد الاتفاق على تعيين « جاك سانتير » رئيس وزراء لوكسمبورج في هذا المنصب .[3]... وقد كشفت هذه الأزمة الحادة مدى التنافس على الهيمنة والقيادة بين الدول الكبرى في الاتحاد الأوروبي .

هذا وقد راعت التنظيمات الفرعية للجماعة الأوروبية مدى التفاوت في المكانة السياسية والثقل الاقتصادي والعسكري للدول الأعضاء ، فأعطت الدول الكبرى نصيبا أكبر من حيث عدد الأصوات في المجلس الأوروبي أو عدد الأعضاء في البرلمان الأوروبي ، ولم تعتمد مبدأ المساواة بين الدول [4] .

هذه هي أبرز التحديات النابعة من الجماعة الأوروبية ذاتها والتي تمثل عقبة كأداء في طريق الوحدة الأوروبية الشاملة .

---

(1) يراجع المرجع السابق ص 38 : 41 . (2) ينظر المرجع نفسه ص 41 .

(3) ينظر : أوروبا .. ضيف ثقيل في جزيرة كورفو .. سامح عبد الله .. الأهرام 4 / 7 / 1994 ص 5 .

* مطلوب زعيم لأوروبا .. هاني محمد فرج .. الأخبار 12 / 7 / 1994 ص 11 .

* البناء الأوروبي ومأزق التناقض بين الفيدرالية والاستقلالية .. شريف الشوباشي .. الأهرام 5 / 7 / 1994 ص 5 .

* الأهرام 3 / 7 / 1994 ص 1 .

(4) يراجع : التنظيم الدولي د / الشافعي بشير ص 263 : 321 .

ب – التحديات الخارجية :

تتمثل هذه التحديات في المنافسة الحامية الوطيس بين أوروبا والولايات المتحدة واليابان في كافة النواحي ، الاقتصادية والصناعية والتكنولوجية .. إذ يسعى كل جانب لإحراز قصب السبق في هذه المجالات باعتبارها مدخل القوة والريادة في النظام الدولي الجديد .

« وليس معنى هذا أن الولايات المتحدة واليابان تعارضان إتمام إجراءات الوحدة الاقتصادية بين الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي ، بل على النقيض من ذلك تماما فإن هاتين الدولتين تشجعان كافة الخطوات في هذا المجال خاصة إقامة السوق المشتركة وإزالة الحواجز بين الدول الأعضاء في الاتحاد إذ يكفي أن يكون لأية مؤسسة اقتصادية أمريكية أو يابانية فرع في إحدى الدول الأعضاء ليصبح من حقها التحرك بحرية في كافة بلدان الاتحاد ... يضاف إلى ذلك أن قيام المشروع الأوروبي على مبادئ الاقتصاد الحر يعطي دفعة كبيرة لحركة تدفق رأس المال ، ويوفر سوقا كبيرة (337 مليون مستهلك) دون حدود فيما بينها ... » [1] .

أما منبع التحدي – فيما أرى – فيكمن – بالإضافة إلى المنافسة الصناعية والتقنية – في وقوف الولايات المتحدة في وجه تكوين كيان سياسي أوروبي موحد ، وقادر على صياغة منظومة أوروبية دفاعية موحدة بعيدا عن المظلة الأمريكية ، وبعيدا عن الدور الأمريكي التقليدي في الشئون الأوروبية .... ومما يؤكد ذلك بوضوح : النظرة الألمانية الفرنسية التي ترى أن أوروبا أصبحت في أعين الأمريكيين الآن خصما تجاريا أكثر من كونها حليفا أو صديقا ..

* * *

تلقي هذه التحديات – الداخلية والخارجية – ظلالا كثيفة من الشك حول إمكانية تحول الوحدة الأوروبية إلى واقع ملموس في الفترة القليلة القادمة ... ويذهب حسين معلوم إلى التأكيد على أن أوروبا لن تصبح قطبا دوليا في هذه الفترة فيقول : « لما كان القطب الدولي يعني ثلاثة عناصر متداخلة هي :

* بناء من القيم الفكرية والأيدولوجية المتميزة .

* وسلطة مركزية تملك حق القرار السياسي والاقتصادي .

---

(1) مشروع الوحدة الأوروبية وتأثيراته في الوطن العربي ص 142 بتصرف .

* وقوة عسكرية كبرى تعكس التقدم التكنولوجي والاقتصادي معا .

فإن مشروع أوروبا الموحدة - في حال تحققه - لن يتجاوز العنصر الأول المتعلق ببنائها القيمي والأيديولوجي (الليبرالي) والذي تشارك فيه الولايات المتحدة واليابان وقوى أخرى عديدة ... أما العنصران الآخران (السلطة المركزية الواحدة ، والقوة العسكرية الواحدة) فإنه لا يوجد في الواقع الأوروبي الحالي أو الوثائق الأوروبية الحالية ما يشير إلى إمكانية وجودهما حتى بدايات القرن القادم » [1] .

وعلى الرغم من الإنجازات الهائلة التي تحققت على صعيد العمل الأوروبي الموحد ، والتي لا يملك الباحث المنصف إلا الاعتراف بها وتسجيلها إلا أنه لا يمكن الجزم بأن هذا التوجه الوحدوي الأوروبي سيكتب له الوصول إلى غايته ، فبالإضافة إلى التحديات المذكورة آنفا ، لابد من النظر إلى هذا الأمر من زاويتين :

الأولى : أن هذا المشروع قد أقيمت دعائمه على أساس المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة ، أي أنه لم يقم على أساس متين من عقيدة صحيحة تصلح لأن ينضوي الجميع تحت لوائها ، ووقائع الأيام تؤكد أن كل تجمع هذا حاله وتلك طبيعته محكوم عليه بالفشل الذريع ، حيث تتعارض المصالح ، وتتناقض الأهداف وتتباين الدوافع ، فلا مبدأ يجمع الكل على قلب رجل واحد ولا هدفا إيمانيا تهون في سبيله المصلحة الخاصة ، بل اندفاع في سبيل الهيمنة ، وسباق محموم من أجل الغلبة والسيطرة .

الثانية : أن تاريخ أوروبا في القديم والحديث لا يجعل للحديث عن وحدة أوروبية كاملة معنى أو مغزى إذ الصراعات الحادة والحروب الدموية والاقتتال الدائم هو أول ما يطالع الناظر في هذا التاريخ المظلم للقارة الأوروبية ... ولا تزال ذكريات هذه الحروب المؤلمة تعشش في قلوب وضمائر شعوب أوروبا .... ولا تزال الأحقاد والضغائن في الصدور على حافة الاشتعال وتجد لها متنفسا في المناسبات المختلفة .

من هنا لابد من التمهل والحذر عند الحديث عن وحدة أوروبية شاملة في الأمد المنظور ...

---

(1) المرجع السابق ص 143 ، 144 .

الفرع الثاني : اليابان

إذا أطلق أي لفظ على القفزة اليابانية الهائلة بعد الحرب العالمية الثانية فإنه سيكون تعبيرا قاصرا لا يفي بحق اليابان وما حدث فيها ، وليس أدل على ذلك من قول الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون من أنه « حتى فترة متأخرة تصل إلى عام 1929 ، كان نصيب اليابان من الإنتاج الاقتصادي العالمي 4 % مقابل 34 % للولايات المتحدة و 10 % لكل من بريطانيا وألمانيا والاتحاد السوفييتي و 5 % لفرنسا . أما اليوم فيبلغ نصيب اليابان من الناتج القومي الإجمالي العالمي 10 % وتلي في ذلك نصيب الولايات المتحدة فقط ... لقد هزمتها الولايات المتحدة بقنابلها عام 1945 ، وحطمت مشروعاتها الصناعية لكنها أصبحت في 1987 أكبر شريك تجاري لأمريكا – بعد كندا – وتجاوز ناتجها القومي الإجمالي مثيله لدى الاتحاد السوفييتي »[1] .

وهنا تكمن العبقرية ، فدولة دمرتها الحرب تدميرا شاملًا تعد الآن القوة الاقتصادية الثانية في العالم ومرشحة لتكون إحدى القوى الكبرى في النظام الدولي الجديد ... وفي السطور التالية سأتحدث عن المؤهلات التي ترشح اليابان لاحتلال هذه المكانة وأيضا عن التحديات التي تقف دون بلوغ هذا الهدف .

أولا : عوامل القوة في الاقتصاد الياباني :

نقل ريتشارد نيكسون عن رئيس وزراء اليابان في مطلع الخمسينات « شيجيروبوشيدا » قوله في معرض بيان الاستفادة اليابانية من أهوال الحرب بأسلوب شبه مزاحي : « لحسن الحظ أن اليابان حولتها الغارات الجوية إلى أنقاض ، فعندما تقيم اليابان آلات ومعدات جديدة الآن تغدو قادرة على أن تصبح بلدا رائعا تتفوق إنتاجيته كثيرا على البلدان التي تكسب الحرب .. إن إزالة الآلات والماكينات القديمة أمر مكلف ، وقد فعله العدو نيابة عنا[2] .

ولقد تحققت بالفعل توقعات الزعيم الياباني ، فطبقا لتقديرات صندوق النقد الدولي يتبين « أن معدل النمو للاقتصاد الياباني يقدر بنحو 5,1 % في عام 1990 ، وهذا المعدل وإن كان أعلى من تقدير منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية ، فإن كلا من التقديرين –

فضلا عن غيرهما من التقديرات – يؤكد احتفاظ اليابان بأسبقية النمو الاقتصادي بين مجموعة الدول الصناعية ، وهي أسبقية حققتها خلال معظم سنوات السبعينات

(1) 1999 نصر بلا حرب – ص 237 بتصرف يسير .   (2) المرجع السابق – ص 238 .

والثمانينات واحتفظت بها عام 1990 ، رغم أنها الأكثر تضررا من الصدمات النفطية وارتفاع أسعار النفط . وقد انعكست أسبقية النمو الاقتصادي ، وتفوق عوامل هذا النمو ، في زيادة متوسط نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي الحقيقي في اليابان بنحو 4,5 % ، وهو أعلى معدل في الدول الصناعية عام 1990 ، كما انعكست في معدل للبطالة لم يتعد 2,1 % مقابل معدل بلغ 6,2 % في مجموعة الدول الصناعية » [1] .

وقد احتلت اليابان المرتبة الثانية عالميا من حيث قيمة الفائض التجاري الذي بلغ عام 1990 حوالي 52,2 مليار دولار ، كما زادت الصادرات اليابانية في العام ذاته بنسبة 5 % وشغلت المرتبة الثالثة عالميا بعد ألمانيا وأمريكا بقيمة للصادرات بلغت 287,6 مليار دولار.... كما شغلت اليابان المرتبة الأولى بين الدول الصناعية من حيث حيازة الاحتياطات من النقد الأجنبي في نهاية 1990 ، حيث بلغت حيازتها 78,5 مليار دولار ، رغم تراجع هذه الحيازة مقارنة بعام 1989 ، ورغم ارتفاع الاحتياطات الأمريكية الدولية حيث بلغت 72,3 مليار دولار ....

وبالجملة يتبين من خلال مؤشرات الجدول الخاص بالاقتصاد العالمي في نهاية عام 1990 أن اليابان تحتل المرتبة الثانية في سلم اقتصاديات الدول الصناعية السبع الكبرى وبالتالي على المستوى العالمي [2] .

مقارنة بين الولايات المتحدة واليابان :

عقد الخبير الاقتصادي الأمريكي « وليام نستر » مقارنة بين الاقتصاد الياباني والاقتصاد الأمريكي من عدة نواح ، فخرج بالنتائج التالية :

* معدل التضخم في أمريكا 4,4 % ، بينما في اليابان 2,6 % فقط .

* معدل البطالة في أمريكا 5,7 % بينما في اليابان 2,2 % فقط .

* انخفض الدخل القومي الأمريكي من 33% من الدخل العالمي عام 1960 إلى 21% فقط عام 1990 ، بينما ارتفع الدخل القومي الياباني من 3 % إلى 15 % في الفترة نفسها .

* أكبر ثمانية بنوك في العالم ملك لليابان ، و 14 بنكا من بين أكبر 25 بنكا في العالم ملك لها أيضا .

---

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1990 ص 60 , 61 . (2) يراجع : المرجع السابق ص 166 : 176 .

* تجارة اليابان مع أمريكا تقدر بـ 20 % من تجارة اليابان الخارجية .

* 58 % من صادرات السيارات اليابانية يذهب إلى السوق الأمريكية ، كذلك 48 % من الألكترونيات و 49 % من الكهربائيات .

* يتركز 41 % من مجموع الاستثمار الياباني المباشر في الولايات المتحدة ، وهو يمثل 17 % من إجمالي الاستثمار الأجنبي داخل الولايات المتحدة .

* انخفض نصيب أمريكا من الصادرات التكنولوجية من 27 % عام 1970 إلى 20 % عام 1986 ، بينما ارتفع نصيب اليابان في الفترة ذاتها من 10 % إلى 19 % .

* كانت نسبة الأمريكيين الذين سجلوا حقوق ابتكار إلى مجموع حقوق الابتكار المسجلة في أمريكا 65 % عام 1970 ثم انخفضت إلى 54 % عام 1986 .... وفي عام 1987 تساوت 4 شركات يابانية مع 4 شركات أمريكية في عدد حقوق الابتكار داخل أمريكا .

* من بين 94 مجالا تكنولوجيًا تتقدم الولايات المتحدة على الدول الصناعية الأخرى في 25 مجالا فقط وتتساوي مع اليابان في 29 ، وتتقدم اليابان عليها في 21 مجالا ... [1] .

ويضيف الخبير الاقتصادي الأمريكي « ليسترثرو » إلى ما قاله « وليم نستر » ما يلي :

* خلال 20 سنة فقط تحول الناتج الإجمالي القومي لليابان من كونه لا يتعدى نصف الناتج الإجمالي للولايات المتحدة إلى ناتج يفوق الولايات المتحدة بحوالي 22 % إذا تم تقويم هذا الناتج باستعمال القيمة العالمية لعملة البلد .

* بينما كانت اليابان ترزح تحت نير عجز تجاري كبير ومديونية لا بأس بها ، أصبحت اليوم أكبر مقرض في العالم ....

* في الـ 15 سنة الأخيرة وصل معدل نمو اليابان إلى ضعف نمو المجموعة الأوروبية وإلى زيادة تقدر بـ 75 % مقارنة بالولايات المتحدة ... [2] .

---

(1) ورد ذلك في كتاب لـ « وليام نستر » بعنوان : القوة الأمريكية .. النظام العالمي الجديد والتحدي الياباني .. قامت « السياسة الدولية » بتلخيص أهم ما تضمنه من معلومات تحت عنوان : العلاقات الأمريكية اليابانية .. يراجع : ع 114 أكتوبر 1993 ص 256 : 258 .

(2) قامت وحدة التحرير والترجمة بمركز دراسات العالم الإسلامي في مالطا – بعمل ملخص لكتاب « ليسترثرو » [وجها لوجه .. المعركة الاقتصادية القادمة بين اليابان وأوروبا وأمريكا] ونشرته في : مستقبل العالم الإسلامي ع 10 , 11 ربيع وصيف 1993 ص 213 : 234 .

التطلعات اليابانية إلى الساحة العالمية :

بدأت اليابان تتطلع إلى دور على الساحة العالمية يتناسب ومكانتها الاقتصادية الكبيرة ، وسلكت في سبيل الوصول إلى هذا الدور المأمول عدة وسائل ... أهمها :

1 - قامت اليابان بتوسيع نفوذها الإقليمي في شرق آسيا عن طريق زيادة الاستثمارات اليابانية في المنطقة ... « وقد أشارت إحصائيات وزارة التجارة والصناعة اليابانية إلى أن الاستثمارات المباشرة بواسطة قطاع التصنيع وصلت في دول شرق آسيا إلى 1,7 مليار دولار وفي كل القطاعات 4,87 مليار دولار ، وقد حققت أرباحا طائلة وصلت إلى 487 مليار ين ياباني ، بينما لم تحقق الاستثمارات اليابانية في أوروبا سوى 6,6 مليار ين فقط ... كما تشير الإحصائيات أيضا إلى ارتفاع نصيب آسيا من الاستثمارات اليابانية إلى 14,3 % عام 1992 مقابل 12,2 % عام 1990 ... » [1] .

2 - كما قامت أيضا بزيادة القدرات الدفاعية زيادة كبيرة حتى لا تظل معتمدة على غيرها في هذا المجال ... ولدعم هذا التطور ، « شهد الإنفاق العسكري الياباني تضاعفا 1 % من إجمالي الناتج القومي في مطلع الثمانينات إلى أن وصل إلى ما يزيد على 3,2 % من إجمالي الناتج القومي الياباني عام 1991 ، الذي أنفقت فيه اليابان ما قيمته 22139مليون ين ياباني (1608 مليون دولار) لأغراض البحوث والتطوير في المجال الدفاعي . » [2] .

3 - عمدت إلى تحسين العلاقات مع الجار الصيني العملاق ، رغم أن الميراث العدائي التاريخي بين الدولتين لا يجعل ذلك أمرا ميسورا ، إلا أن الدولتين تحاولان نبذ هذا الماضي الكئيب والتطلع بنظرة أكثر واقعية إلى المستقبل الذي يجعل المحتم عليهما النظر إليه من خلال تلاقي المصالح المشتركة .

4 - كما دعمت التكتل القائم في شرق آسيا لمواجهة التكتلات الأخرى كالمجموعة الأوروبية وغيرها [3] .

فعلت اليابان هذا كله انطلاقا صوب الهدف الأكبر والحلم الأعظم ، المتمثل في الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي ... وتستند اليابان في مطالبتها بهذا الأمر إلى مكانتها الاقتصادية من ناحية ثم التزايد المطرد في حجم ما.تساهم به في ميزانية

(1) الترتيبات الأمنية والاقتصادية اليابانية في آسيا - أحمد محمد فرج - السياسية الدولية : ع 113 يوليو 1993 ص 184 .
(2) يراجع التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 96 : 98 .
(3) يظر : الترتيبات الأمنية والاقتصادية اليابانية في آسيا ص 184 : 185 .

المنظمة الدولية من ناحية ثانية ، حيث أصبحت اليابان مساهما رئيسيا في تمويل ميزانية الأمم المتحدة ... « ففي عام 1983 بلغت الحصة اليابانية 10,32 % من الميزانية العامة للمنظمة بعد الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . ومنذ عام 1986 واليابان تحتل المركز الثاني في تمويل نفقات الأمم المتحدة بعد الولايات المتحدة ، كما تساهم اليابان بنسبة كبيرة في تمويل عمليات حفظ السلام التي تضطلع بها المنظمة الدولية في مختلف أنحاء العالم ... وعلى المستوى التطوعي ، فإن اليابان تساهم بتقديم مبالغ كبيرة لمساندة مختلف أنشطة الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة ، واحتلت في ذلك المركز الثاني بعد الولايات المتحدة ....

وقد شهدت الثمانينات كذلك ارتفاعا ملحوظا في مشاركة الموظفين اليابانيين في العمل داخل فروع الأمانة العامة للأمم المتحدة . ويرأس اليابانيون عددا من أجهزة ومنظمات الأمم المتحدة ، ومنها : المفوضية السامية لشئون اللاجئين ، ومنظمة الصحة العالمية [1] .... » كما بدأت اليابان تشارك في عمليات حفظ السلام تحت رعاية الأمم المتحدة ، وأرسلت بعض جنودها إلى كمبوديا في إطار قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام هناك [2] ... وقد جعلت الحكومات اليابانية المتعاقبة قضية احتلال مقعد دائم في مجلس الأمن مبدأ أساسيا في قائمة أولوياتها [3] .

لهذا كله ، لا تجد أحدا يتحدث عن النظام الدولي الجديد إلا واليابان عنده من أقطاب هذا النظام [4] حتى هؤلاء الذين يتحدثون عن الأحادية القطبية لا يغفلون العملاق الياباني القادم بقوة ، والذي يشكل تهديدا جديا للنظرية الأحادية .

ثانيا : عقبات في وجه المسيرة اليابانية :

تواجه اليابان – في مسعاها لاحتلال مكانة كبرى في النظام الدولي –، عددا من التحديات الاقتصادية والسياسية :

(أ) على الصعيد الاقتصادي :

بعد الانطلاقة الاقتصادية الهائلة في الثمانينات وحتى عام 1990 تراجع معدل النمو

(1) محددات العلاقة بين اليابان والأمم المتحدة – أحمد محمد فرج – السياسة الدولية ع 112 أبريل 1993 ص 175 .

(2) ينظر : المرجع السابق ص 175 , 176 .

(3) يراجع : تطلعات المستقبل للحكومة اليابانية الجديدة – نبية الأصفهاني – السياسة الدولية ع 114 أكتوبر 1993 ص 221 : 225 .

(4) ينظر على سبيل المثال تغيير العالم – د . أنور عبد الملك ص 71 : 75 ، 188 : 190 النظام العالمي الجديد – ملامح ومخاطر د . شفيق المصري ص 98 ، 156 ، 159 .

الاقتصادي من 4,4 % عام 1991 إلى ما يقرب من 2 % عام 1992 ، أي أقل من نصف ما كان عليه في العام السابق ، وسط ركود ملموس في قطاعات الإنتاج المحلي والعقارات على الرغم من استمرار الفائض التجاري لليابان .

ومع أن الاقتصاد الياباني سجل نموا ملموسا في بدايات عام 1992 – بعد تراجع في العام السابق – إلا أنه ما لبث أن تعرض لركود في الشهور التالية وحتى نهاية العام ، وبسبب ذلك الركود ارتفعت معدلات البطالة في صفوف القوى العاملة ومعدلات الإفلاس التجاري والصناعي ، وتعرضت أرباح الشركات للانخفاض ، وسجلت بعض الشركات خسائر في حساباتها بسبب تراجع الطلب الداخلي والخارجي على السواء [1] .

بالإضافة إلى هذا الركود ، تجد اليابان نفسها في مواجهة حرب تجارية ضروس من جانب الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية ، الأمر الذي يزيد من العقبات التي تواجهها المسيرة اليابانية .

(ب) على الصعيد السياسي :

يقف الدستور الياباني حجر عثرة في مسيرة اليابان نحو تدعيم مكانتها الدولية ، إذ أنه يتضمن مادة مناهضة للحرب ، كما أن الحديث عن الحرب – في حد ذاته – يثير مشاعر الشعب ويهيج أحاسيسه ، وهو أمر مفهوم ومنطقي إذا وُضع في الاعتبار أن اليابان هي الدولة الوحيدة في العالم التي ذاقت أهوال الحرب النووية حينما ألقت الولايات المتحدة قنبلتين على مدينتي « هيروشيما ونجازاكي » اليابانيتين خلال الحرب العالمية الثانية .

لهذا كله ، حينما فكرت اليابان في المشاركة بقوات في عملية حفظ السلام الدولية في كمبوديا استغرقت المناقشات البرلمانية حول هذا الموضوع عشرين شهرا – فكيف يكون الوضع إذًا في المستقبل حينما يطلب من اليابان زيادة إسهاماتها العسكرية في عمليات حفظ السلام ؟ .

لذا ؛ فإنه ما زال أمام اليابان خطوات كثيرة حتى تصبح قطبا دوليا استراتيجيا في النظام الدولي الجديد .

---

(1) التقرير الاستراتيجي العربي ، 1992 ص 170 .

الفرع الثالث : الصين

منذ 160 عاما تحدث « نابليون » عن الصين فقال : « إنها مارد نائم اتركوه يغط في نومه ، لأنه عندما يستيقظ سيهز العالم » ويعلق « ريتشارد نيكسون » على ذلك قائلا : « وقد استيقظ المارد !! لقد حانت لحظته ، وهو يتأهب ليهز العالم » [1] .. وبالفعل بدأت الصين التي تضم بين جنباتها ما يزيد على خمس سكان الكرة الأرضية تحقق معدلات نمو مرتفعة للغاية .

أولا : وقائع الانطلاقة الصينية الهائلة :

في عام 1992 بلغ الناتج القومي الصيني – بعد تعديله بأخذ القدرة الشرائية للعملة الصينية الـ « يوان » في الاعتبار – نحو 350 مليار دولار بزيادة 12,8 % عن عام 1991 . وقد حقق الاقتصاد الصيني في النصف الأول من عام 1993 نموا كبيرا بلغت نسبته 14 % وفقا للمعدل السنوي ، بينما حقق الناتج الصناعي نموا بلغ 25,1 % خلال نفس الفترة ، وبلغ حجم التجارة الخارجية للصين عام 1992 حوالي 66 مليار دولار ، سيضاف إليها تجارة هونج كونج التي ستعود إلى الصين بعد عدة أعوام وهي تصل إلى 240 مليار دولار .. وفيما يتعلق بالصادرات ونموها المتزايد ، فقد بلغت قيمة صادرات الصين عام 1991 حوالي 72 مليار دولار أي أكثر من 20 % من الناتج المحلي الذي وصل في العام نفسه إلى 350 مليار دولار .. وتحقق الصين فائضا تجاريا متزايدا في تجارتها مع العالم الخارجي ، إذ ارتفع إلى أكثر من 10 مليارات دولار عام 1992 مقارنة بـ 8 مليارات فقط عام 1991 .

كما تزايدت الاستثمارات الأجنبية في الصين بسبب الإقبال الهائل من جانب المستثمرين للعمل والاستثمار ، وقد بلغت جملة الاستثمارات خلال الربع الأول فقط من عام 1993 حوالي 25 مليار دولار بزيادة قدرها 347 % عن نفس الفترة من عام 1992 ، كما وافقت الحكومة الصينية على مشاريع استثمار أجنبية بقيمة 5 , 17 مليار دولار تساهم في إقامة العديد من المشروعات الضخمة . كالسكك الحديدية ، وإنشاء السدود العملاقة وإقامة مناطق صناعة وتجارية حرة ومطارات ضخمة ... إلخ [2] .

وقد قفزت الصين فجأة إلى المرتبة الثالثة – بعد الولايات المتحدة واليابان – في قائمة

---

(1) 1999 نصر بلا حرب ص 258 .

(2) الإصلاحات الاقتصادية والسياسية في الصين – أحمد محمد فرج ، السياسية الدولية : ع 114 أكتوبر 1993 – ص 227 ، 228 التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ، ص 171 الصين تتسلق « السور العظيم » في الطريق إلى القمة – أحمد نافع – الأهرام 9 / 7 / 1933 ص 5 .

اقتصاديات الدول الكبرى التي أعدها صندوق النقد الدولي في شهر مايو 1993 ، مما أثار ضجة كبرى حيث تجاوزت الصين كلا من بريطانيا وفرنسا وألمانيا .. وخلاصة ما حدث أن الصندوق تحول إلى نظام جديد في تقويم الدول اقتصاديا ، يقوم على أساس إعادة تقويم السلع والخدمات في كل دولة وفقا لقيمتها الحقيقية ، بدلا من الطريقة القديمة التي كانت تقوم على أساس تحويل الناتج المحلي لكل دولة - مقدرا بالعملة المحلية - إلى دولارات وفقا لسعر الصرف بين الدولار الأمريكي وعملة الدولة المعنية .. والطريقة الجديدة تعطي ثقلا أكبر لاقتصاديات الدول النامية وعلى رأسها الصين التي كان حجم اقتصادها يقدر بـ 400 مليار دولار ، وقفز بعد استخدام الطريقة الجديدة ليصبح 1,7 تريليون دولار - وتؤكد مصادر البنك الدولي أنه إذا واصلت الصين معدلات نموها الاقتصادي الحالية فإن اقتصادها - مضافا إليه اقتصاد هونج كونج وتايوان - سيصبح أضخم من اقتصاد الولايات المتحدة في فترة تقل عن عشر سنوات فقط .

كما يؤكد الخبراء أن إجمالي الناتج القومي الصيني سيتجاوز مثيله في الولايات المتحدة ، وسيصبح ضعف الناتج القومي الياباني وثلاثة أضعاف الألماني خلال السنوات العشر القادمة [1] .

استنادا إلى هذه الأرقام والإحصائيات انتهى بعض الباحثين إلى اعتبار الصين واحدة من القوى الكبرى وقطبا من أقطاب النظام الدولي الجديد .. ويعد « ريتشارد نيكسون » والدكتور / أنور عبد الملك من أبرز هؤلاء المتطلعين إلى رؤية الصين في هذه المكانة المرموقة [2] .

ثانيا : التحديات التي تواجه المسيرة الصينية :

بالرغم من هذه الإنجازات الاقتصادية الهائلة في الصين إلا أنها لا تزال تواجه كثيرا من التحديات والعقبات التي تقف دون بلوغ الصين هدفها المنشود باحتلال مكانة القطب في النظام الدولي الجديد ، ومن أهم هذه التحديات :

(1) معدلات التضخم المرتفعة التي بلغت على المستوى الكلي 6,1 % وفي بعض الأقاليم 11 % ، ويمكن أن تصل إلى 20 % في العديد من المدن الصينية الكبرى [3] .

(1) خلاصة ما نشر من التقرير في أخبار اليوم 29 / 7 / 1993 ص 6 .

(2) يراجع : فصل العملاق يستيقظ من كتاب : 1999 نصر بلا حرب . ريتشاد نيكسون . ص 255 : 277 ، كما يراجع : تغيير العالم د / أنور عبد الملك / في مواضع عدة منها على سبيل المثال : ص 33 , 34 ص 70 / 75 .

(3) الإصلاحات الاقتصادية والسياسية في الصين ص 288 .

(2) إن افتراض استمرارية النمو الاقتصادي الصيني بهذه المعدلات العالية أمر مشكوك فيه إلى حد كبير ، خاصة في ظل معدلات التضخم العالية ، والتطورات الجديدة في النظام الاقتصادي الدولي ، والحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة .

(3) يعترف كبار المسئولين الصينيين أنفسهم بأن التقديرات التي ترفع الاقتصاد الصيني إلى مصاف اقتصاديات الدول الكبرى مبالغ فيها ، ويؤكدون أن هناك مشكلات كثيرة تواجه الصين مثل التضخم والخلافات الإقليمية والجريمة ... وغيرها .

(4) كما يعترفون أيضا بأن أمام الجيش الصيني شوطا طويلا ليصبح جيش دولة عظمى تكون لها الكلمة المسموعة وتفرض سياساتها على من حولها [1] .

من هنا يتبين أن الطريق التي يجب على الصين أن تسلكها مليئة بالكثير من المصاعب والعراقيل التي لابد من تجاوزها حتى تصبح هذه الدولة واحدة من القوى الكبرى في النظام الدولي الجديد .

---

(1) أخبار اليوم 29 / 7 / 1993 ص 6 .

الفرع الرابع

الدول الصناعية الجديدة في جنوب شرق آسيا (النمور الآسيوية)

تتوجه الأنظار الآن صوب الدول حديثة التصنيع في جنوب شرق آسيا التي حققت طفرات هائلة في النمو الاقتصادي خلال أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات .. ولكن لابد أولا من التفرقة بين عدة مصطلحات جغرافية واقتصادية يخلط الكثيرون من الناس بينها .. وهي : دول شرق آسيا – مجموعة دول جنوب شرق آسيا – النمور الآسيوية .

« يقصد بدول شرق آسيا جميع الدول التي تقع في شرق القارة العملاقة ، وهو مصطلح جغرافي أكثر منه اقتصادي ، أما مجموعة دول جنوب شرق آسيا فهي منظمة تضم في عضويتها (سنغافورة – تايلاند – ماليزيا – الفلبين – بروناى – أندونيسيا) وتعرف اختصار باسم « آسيان » ..

ويقصد بالنمور الآسيوية الأربعة : الدول الصناعية التي تقتدي بالنموذج الياباني وهي (كوريا الجنوبية – هونج كونج – تايوان – سنغافورة) .. هذا إلى جانب مصطلح ظهر مؤخرا وهو : اقتصاديات التصنيع الجديدة ، ويشمل بالإضافة إلى النمور الأربعة كلا من : « أندونيسيا – ماليزيا – تايلاند » [1] وسينصب الحديث في السطور التالية عن الدول المنضوية تحت لواء المصطلح الأخير .

بمراجعة سريعة لتقارير صندوق النقد الدولي وبنك التنمية الآسيوية – التي أوردها التقرير الاستراتيجي العربي 1990 , 1991 , 1992 ، يتبين أن المعدل السنوي للنمو في هذه الدول بلغ عام 1989 : 5,5 % وتوقع خبراء الصندوق أن يصل إلى 6,3 % عام 1990 ولكنه ظل ثابتا على نفس المعدل نتيجة لبعض المتغيرات على الساحة الدولية .. وعلى العكس من ذلك تماما توقع الخبراء أن يتراجع النمو في هذه الدول إلى 5 % عام 1991 ولكنه ارتفع إلى 5,7 % ثم وصل في عام 1992 إلى 6,9 % .

وقد نما الدخل الفردي في هذه الدول بنحو 5,3 % عام 1990 وهو أعلى معدل لنمو الدخل الفردي في الدول المتقدمة ، بما فيها الدول الصناعية السبع الكبرى – وقد أصبحت تايوان مالكة لأكبر احتياطي نقدي في العالم مع نهاية عام 1990 [2] .

---

(1) الترتيبات الأمنية والاقتصادية اليابانية في آسيا ص 183 .

(2) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي ، 1990 ص 162 , 166 ، 1991 ص 193 ، 1992 ص 287 , 288 .

وفي نهاية 1993 أصدر البنك الدولي دراسة عن تلك الدول السبع بالإضافة إلى اليابان تحت عنوان : « المعجزة الآسيوية ، النمو الاقتصادي والسياسة العامة » جاء فيها : « إن معدل النمو في هذه الدول في الفترة ما بين 1965 إلى 1990 غير مسبوق وغير قابل للمنافسة ، فقد كان معدل النمو الحقيقي 5,5 % سنويا ، بينما كان المعدل في الدول الصناعية 2,5 % و 2 % في جنوب آسيا ، وأقل قليلا في الشرق الأوسط وأمريكا الجنوبية .. تتألق المعجزة الآسيوية أكثر في مجال تصدير المنتجات المصنعة ، ففي عام 1965 كان نصيب اليابان حوالي 8 % من مجموع التجارة العالمية في المنتجات المصنعة ، وكان نصيب الدول الآسيوية السبع حوالي 2 % ، بينما كان نصيب الدول النامية الأخرى حوالي 10 % .. وفي عام 1980 ارتفع نصيب اليابان إلى 12 % والدول السبع إلى 5 % بينما انخفض نصيب الدول النامية إلى حوالي 6 % .. وفي عام 1990 ظل نصيب اليابان 12 % ، وارتفع نصيب الدول الآسوية السبع إلى 10 % ، بينما انخفض نصيب الدول النامية إلى 4 % أو أقل [(1)] .

ومن أهم الظواهر التي صاحبت النمو الاقتصادي في هذه الدول خلال عام 1992 « زيادة قيمة المبادلات التجارية الإقليمية فيما بين بعضها البعض ، الأمر الذي يشير إلى بوادر تكوُّن كتلة اقتصادية عالمية جديدة لها خصائصها المشتركة في منطقة جنوب شرقي آسيا » [(2)] .

ويكفي للدلالة على مدى التطور الهائل الذي شهدته تلك الدول ذكر نموذج واحد له دلالته ومغزاه .. فهذه بعض الأرقام عن سنغافورة ، طبقا لإحصائيات عام 1991 :

* السكان : 3 ملايين . نسبة إجمالي الناتج القومي : 100 مليار دولار . حجم التجارة الخارجية : 160 مليار دولار .

* الدخل السنوي للفرد : 13500 دولار .

* البطالة : أقل من 2 % .

* ميناء سنغافورة :

– به إمكانات لاستقبال 700 سفينة تجارية مرة واحدة .

– تدخل إليه وتخرج منه سفينة كل 5 دقائق .

---

(1) ينظر الملخص الذي أعدته مجلة السياسة الدولية لهذه الدراسة في : ع 115 يناير 1994 ص 287 , 288 .

(2) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 177 .

- به محطة حاويات تتسع لـ 6,5 مليون حاوية كل عام [1] .

ولكن – وبالرغم من هذا كله – هل من الممكن أن تصبح هذه الدول قوة كبرى في النظام الدولي الجديد ؟!

أرى أنه من الصعوبة بمكان الإجابة بنعم ، وذلك لعدة أسباب :

(1) لا تزال هذه الدول في عداد الدول النامية ، صحيح أنها تأتي في مقدمة الدول النامية . إلا أن البون بينها وبين القوى الكبرى لا يزال شاسعا .

(2) لا يبدو في الأفق إمكانية تجميع تلك الدول في كتلة اقتصادية واحدة ولا يزال هذا حلما بعيد التحقق وأقصى ما أمكن رصده في هذا المضمار عام 1992 هو زيادة المبادلات التجارية بين هذه الدول ، وهو أمر لا يمكن أن يستدل به على قرب قيام منطقة تجارة حرة فيما بينها .

وعلى صعيد (رابطة دول جنوب شرق آسيا) التي تضم 4 دول من بين هذه الدول السبعة ، كانت القمة التي عقدت في سنغافورة خلال شهر يناير 1993 هي الوحيدة « التي أوصت بإنشاء منطقة تجارة حرة بين دولها ، ولكنْ ثمة شكوك إزاء إمكانية إتمام هذا المشروع في الموعد المخطط له وهو عام 2008 ، خاصة مع ضعف الروابط التنظيمية والمؤسسية والاتصالية بين دول المجموعة » [2] .

(3) يضاف إلى هذا ما تواجهه تلك الدول من تحديات اقتصادية خطيرة تتمثل في إلغاء منظمة الجات وإنشاء المنظمة الجديدة للتجارة العالمية .. فالمعروف أن هذه الدول قد حققت معدلات النمو الهائلة التي سبق ذكرها في ظل حماية جمركية صارمة أتاحت لها الانطلاق بحرية في مسيرة النمو .. والآن . وبعد تحرير التجارة الدولية فإن هذه الدول تواجه مستقبلا اقتصاديا يكتنفه الغموض .

(4) إن أقصى ما يمكن أن تصل إليه تلك الدول – حتى في حالة تجميعها في كتلة اقتصادية واحدة – أن يصبح لها نفوذ اقتصادي قوي ، دون أن تصبح قطبا دوليا له كلمته المسموعة في النظام الدولي نظرا لضعف إمكاناتها العسكرية ..

* * *

(1) أخبار اليوم 14 / 11 / 1992 ص 7 .

(2) الترتيبات الأمنية والاقتصادية اليابانية في آسيا ص 185 .

بهذا الحديث الموجز عن الدول الصناعية الجديدة في جنوب شرق آسيا ، ينتهي الحديث المتعلق بالنظرية الثالثة في فصل القوى الكبرى في النظام الدولي الجديد ، وهي النظرية القائلة بأنه نظام « متعدد الأقطاب » .

وهنا لابد من وقفة أخيرة مع هذه النظريات الثلاث لبيان مالها وما عليها ..

* * *

نظرة تحليلية :

بنظرة تحليلية للنظريات الثلاث : يمكن القول بأن أيا منها لا تحظى بالقبول التام ، حيث لم تسلم جميعها من الأخذ والرد .. وذلك على النحو التالي :

أولا : فيما يتعلق بالنظرية الأولى التي يرى أصحابها أن النظام الدولي يمر بمرحلة انتقالية بين نظام القطبين المنهار ونظام دولي جديد لا يمكن تحديد ملامحه بسبب سيولة الأحداث وتلاحقها ... فقد سبق بيان خطأ هذا التوجه وخطورته ، وأنه يجب اعتبار هذه المرحلة الانتقالية – إن سلمنا لهم بما يرون – نظاما دوليا جديدا يجب التعرف عليه واستكشاف ملامحه ، استعدادًا للتعامل معها واتخاذ المواقف تجاهها ، خاصة وأنها فترة ستمتد طويلا قبل أن يتغير شكل النظام الدولي .

ثانيا : بالنسبة للنظرية الثانية القائلة بأن النظام الدولي الجديد هو نظام « القطبية الأحادية » ، حيث سيخضع تماما لهيمنة أمريكية مطلقة ... فقد أغفل أصحاب هذه النظرية ما سبق ذكره من تحديات داخلية وخارجية تحول دون انفراد الولايات المتحدة بقمة النظام الدولي – وحينما استدل هؤلاء لرأيهم بدور أمريكا في إدارة وإخراج أزمة الخليج على المستويين السياسي والعسكري ، فإنهم قد أغفلوا أن الولايات المتحدة قد تصرفت في هذه الأزمة – فيما يرى الأستاذ / جميل مطر –[1] بصورة لا تؤيد قضية انفرادها بالهيمنة على النظام الدولي الجديد .. والدليل على ذلك ما يلي :

1 – أنها لجأت إلى الأمم المتحدة لإضفاء الصفة القانونية على تحركاتها .. ورغم نجاح أمريكا في الحصول على ما أرادت من قرارات بدون اعتراض أي من القوى الكبرى الأخرى ، إلا أنه من المؤكد أن مجرد المضيّ في هذا الدرب أساسا يضعف حجة من استدلوا بهذا النجاح على أن أمريكا هي القطب الأوحد في النظام الدولي الجديد ، لأنها

---

(1) يراجع : العالم الإسلامي والمستقبل (ندوة) مرجع سابق ص 80 : 82 .

لو كانت كذلك حقا لما احتاجت إلى الأمم المتحدة وقراراتها ، ولتدخلت بنفسها مباشرة كما فعلت ذلك مرارا ، في فيتنام وإيران وبنما وجرينادا وليبيا ... إلخ .

2 – قيام أمريكا بتكوين تحالف من 29 دولة تقف هي على قمته .. فلو أنها كانت تتحرك كقطب أوحد لما فعلت ذلك ...صحيح أن أمريكا كانت تستطيع بمفردها القضاء على الجيش العراقي ، وصحيح أيضا أنها احتكرت لنفسها قيادة هذا التحالف وفرضت أدوارا معينة لكل دولة مشاركة فيه ، إلا أن مجرد تكوين التحالف ينفي بشدة انفرادها بقمة النظام الدولي ، يضاف إلى ذلك أن الدول المشاركة لم تكن خاضعة للنفوذ الأمريكي خضوعا مطلقا ، ولم تكن مسلوبة الإرادة بحيث ينحصر دورها في تنفيذ توجيهات الولايات المتحدة .. غاية الأمر أن المصالح توافقت والأهداف توحدت .

وهكذا تسرب الاحتمال إلى دليل القائلين بالهيمنة الأمريكية المطلقة ، والدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال كما هو معروف .

ثالثا : أما النظرية الثالثة القائلة بتعدد القوى في النظام الدولي الجديد فإنها تقوم على أساس اقتصادي بحت في تقويم الدول دون أخذ الجانب العسكري في الاعتبار .

وهنا أود أن أؤكد على أن الفصل بين الجانبين (الاقتصادي والعسكري) في تقويم الدول وتصنيف القوى الكبرى أمر يصعب تحقيقه ، إذ يتكامل الجانبان في سياق إبراز مكانة الدولة على الساحة العالمية .. إن الجانب العسكري يكاد يمثل بمفرده العامل الحاسم في الحكم على أهمية الدولة ومكانتها .

والدليل على ذلك واضح كل الوضوح في الحالة الروسية .. فبعد الانهيار السوفييتي في نهاية عام 1991 برزت روسيا كوريث للاتحاد السوفييتي المنهار ، حيث تمتلك بمفردها الجانب الأكبر من القوة النووية التي كانت بحوزة الاتحاد السوفييتي السابق .. وإذا استخدم الباحث المدقق الميزان الاقتصادي وحده كأساس تقويمي لروسيا الاتحادية فلن يستطيع إدراجها في قائمة الدول الكبرى ، أو جعلها قوة مؤثرة في النظام الدولي الجديد ، حيث تعاني أوضاعا اقتصادية غاية في التدهور ، وتضطر – تبعا لذلك – إلى استجداء المعونات الغربية مقابل تنازلات ضخمة في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية [1] .

---

(1) يكفي أن يطالع القارئ الكريم الأرقام التالية ليقف على حجم الأزمة الاقتصادية الروسية :

1 – 32,5 مليون مواطن روسي يعيشون تحت خط الفقر بنسبة 22 % من المواطنين الروس .

2 – الديون الخارجية المستحقة على روسيا لدول العالم ومؤسسات التمويل الدولية حتى عام 1995 بلغت 120,4 مليار دولار . =

ففي لقاء (كلينتون / يلتسين) في مدينة « فانكوفر » الكندية في شهر أبريل 1993 « تعهد الرئيس الأمريكي بتقديم مساعدة عاجلة لروسيا بمقدار 1,5 مليار دولار ، وقد حددت الولايات المتحدة بطريقة تفصيلية أوجه إنفاق تلك المعونة بطريقة لا تسمح لروسيا بالتصرف بحرية في شأن من أخص شئونها الداخلية .. » [1] كما أن وزراء خارجية ومالية الدول الصناعية السبع الكبرى حينما قرروا في الشهر نفسه زيادة المساعدات لروسيا بقيمة 19 مليار دولار عن عام 1992 ليصل إجمالي المساعدات إلى 43,4 مليار دولار .. حينما فعلوا ذلك اشترطوا على روسيا إحراز تقدم في الإصلاحات السياسية والسياسات النقدية ، وقد رضخت روسيا لذلك تماما [2] .

إذا أضيف إلى ذلك ما تواجهه روسيا من خطر التفكك والتمزق ، وما تشهده من صراعات داخلية وتنافس على السلطة ، وغير هذا من المشكلات التي تضرب بجذورها في أعماق روسيا [3] .. إذا أضيف ذلك كله إلى المصاعب الاقتصادية الحادة فإنه لا يمكن تصور أي دور لروسيا في النظام الدولي الجديد .. ولكن واقع الحال أن روسيا لا تزال تحتفظ بمقعد دائم في مجلس الأمن . ولا تزال تمتلك حق النقض (الفيتو) الذي يمكن من خلاله عرقلة أي قرار أو إجراء تُقْدم الأمم المتحدة على اتخاذه .. فإذا كان الجانب الاقتصادي المتدهور لا يعطي لروسيا الحق في الحصول على هذه المكانة ، فلا يبقى إلا أن يكون الجانب العسكري هو المؤهل الذي به تمكنت روسيا من الاحتفاظ بهذه المكانة الدولية الكبيرة ، حيث تحتل المرتبة الثانية عالميا – بعد الولايات المتحدة – في المجال

= 3 – عدد العاطلين عن العمل – وفقا للتقديرات الرسمية في نهاية 1995 م 6 ملايين عاطل بنسبة 8,2 % ارتفعت إلى 9,2 % في نهاية أغسطس 1996 م .

4 – انخفض الناتج القومي الإجمالي عام 1995 بنسبة 4 % مقارنة بعام 1994 ، الذي كان قد انخفض بدوره بنسبة 13 % عن عام 1993 م .

5 – العجز في الميزانية بلغ 48,7 تريليون روبل [العملة الروسية] بنسبة 2,9 % من إجمالي الناتج القومي .

6 – بلغ سعر الصرف للروبل الروسي في أول أكتوبر 1996 مقابل الدولار الأمريكي 5400 روبل ، بينما كان الدولار في نهاية 1995 يعادل 4600 روبل ، أي أن العملة الروسية انخفضت خلال تسع أشهر بنسبة 17,4 % يراجع : الأهرام 26 / 10 / 1996 ص 23 .

(1) قمة كلينتون – يلتسين .. وهموم روسيا ، آمال المغربي – الأخبار 6/ 4 / 1993 ص 9 .

(2) الأهرام 16 / 4 / 1993 ص 1 .

(3) في بيان المشكلات الروسية وجذورها التاريخية ، يراجع في السياسة الدولية : ع 113 يوليو 1993 ما يلي :

* العلاقات الأمريكية الروسية وقمة فانكوفر – معتز محمد سلامة ص 215 : 222 .
* جذور الأزمة السياسية في روسيا – د . عزمي خليفة ص 226 . 230 .
* المأزق الروسي بين ضروريات الإصلاح وحدود الديمقراطية . أماني محمود فهمي ص 231 : 235 .

النووي كما أن في جعبتها من الأسلحة التقليدية وغيرها ما يجعلها صاحبة التفوق الساحق في ميزان القوة العسكرية في أوروبا ، إذ أن قدراتها العسكرية تتفوق على قدرات كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا والقوات الأمريكية في أوروبا مجتمعة [1] .

وبالإضافة إلى هذا ، يحرص الغرب على تقديم يد العون والمساعدة إلى الاتجاه الذي يميل إلى الأخذ بالنمط الرأسمالي ، ويحرص كذلك على مراعاة المصالح الروسية عند التحرك في منطقة لروسيا فيها مصالح حيوية ، مثل منطقة شرق أوروبا [2] . والبلدان التي كان يتشكل منها الاتحاد السوفييتي السابق [3] . كل هذا يؤكد أهمية الجانب العسكري في عملية تقويم الدول وتحديد أقطاب النظام الدولي الجديد .

ولكن .. في الوقت الذي يتأكد فيه أهمية الجانب العسكري فإنه يتأكد أيضا أهمية الجانب الاقتصادي ، وأن الجانبين يتكاملان معا في سياق تحديد مكانة الدولة على الصعيد السياسي العالمي .. والحالة الروسية أيضا هي الدليل على ذلك ، فضعفها الاقتصادي الحاد جعلها الطرف الأضعف في المعادلة الدولية ، وقام بتحويلها من دولة كبرى إلى دولة كبيرة ، أي من دولة تمثل قطبا مستقلا في مواجهة القطب الأمريكي إلى دولة ذات دور غير منافس أو مناهض ، بل تميل إلى التفاهم والمشاركة بدلا من المعارضة والمواجهة .

وظلت السياسة الروسية تنتهج هذا الخط في علاقاتها مع الغرب إلى أن صعد ما يسمى بالتيار اليميني المتشدد وفاز بأغلبية الأصوات في الانتخابات البرلمانية نهاية عام 1993 ، وعندئذ بدأ الساسة الروس في تغيير نبرة حديثهم عن العلاقات مع الغرب إلى لهجة يغلب عليها إظهار القوة والتشدد ، فقد قال يلتسين مثلا : « لن نقبل اعتبارا من الآن دور الشريك الأصغر كما يحلو لبعض الدوائر الغربية أن ترسمه لموسكو ، وسنعارض توسيع حلف شمال الأطلنطي على حساب روسيا ، لأنها ليست ضيفا على أوروبا ، بل عضو كامل في المجتمع الأوروبي ، ولن تسمح بتجاوزها في مشاكله » وقد سار أندريه

---

(1) ينظر الجدول في التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 81 ولعل هذا ما دفع مدير المخابرات الأمريكية للقول بأن روسيا دولة عظمى رئيسية في العالم ، وأنها ستظل كذلك لسنوات طويلة – الأهرام 19 / 3 / 1994 ص 4 .

(2) فقد دأبت روسيا على معارضة توسيع حلف الأطلنطي بضم دول أوروبا الشرقية التي كانت تشكل حلف وارسو سابقا .. ينظر : الأهرام 6 , 7 / 1 / 1994 ص 4 ، 10 / 1 / 1994 ، ص 5 ، 11 / 1 ص 4 ، 10 / 12 وقد أثمرت هذه المعارضة تأجيل خطط الحلف في هذا الاتجاه والاكتفاء بما سمى خطة « المشاركة من أجل السلام » التي انضمت إليها روسيا أيضا في يوليو 1994 بعد مفاوضات طويلة .. ينظر : روسيا في قلب الأطلنطي « عبد الملك خليل » الأهرام 4 / 7 / 1994 ص 5 والأهرام 28 , 29 / 6 / 1994 ص 4 .

(3) ينظر الأهرام 1 / 4 / 1994 ص 5 .

كوزيريف (وزير الخارجية) على نفس الدرب حينما أكد « أنه في الوقت الذي لا تسعى فيه روسيا لإحياء الإمبراطورية ، فإنها لن تسمح بتجاهلها في أي تحركات أو أحداث دبلوماسية ، كما أن مستقبل الأمن الأوروبي لا يحدده الغرب وحده ، بل روسيا أيضا »[1] .. وقد تأكد فيما بعد أن هذه التصريحات لم تكن سوى مجرد رد فعل للتصريحات النارية التي اعتاد التيار اليميني المتشدد على إطلاقها في كل مناسبة وبدون مناسبة ، وقد اعترف « كوزيريف » نفسه بهذا مؤكدًا أن روسيا تحتاج إلى إعادة تأكيد دورها كقوة عالمية عظمى ، ولكن هذا لا يعني بحال من الأحوال اتخاذ موقف معاد للولايات المتحدة أو حلف الأطلنطي[2] .. كما أن « يلتسين » أيضا أشار إلى هذا الأمر حينما قال : « إن روسيا تقف للمرة الأولى على الساحة الدولية كقوة عالمية دون أن تشكل تهديدا لأحد »[3] .

يؤخذ من هذا كله أن النظرية الثالثة قد جانبها الصواب حينما اعتمدت الجانب الاقتصادي وحده كأساس لتقويم الدول وتصنيف القوى الكبرى في النظام الدولي الجديد .. وبهذا ينتهي العرض التحليلي للنظريات الثلاث وبيان مالها وما عليها .

* * *

الخلاصة :

من هنا يمكن وصف النظام الدولي الجديد بأنه « جماعي القيادة » بدلا من وصفه بأنه « متعدد الأقطاب » لأن التعبير الثاني يشير إلى المصالح المتعارضة والأفكار المتناقضة والمذاهب الفكرية المتضادة ، بينما يشير التعبير الأول إلى التوافق الفكري بين مجموعة الدول التي تمسك بزمام النظام الدولي في شكله الجديد .

وإن كنت قد تابعت الأستاذ / جميل مطر في استخدام وصف « جماعية القيادة » بدلا من « تعدد الأقطاب » إلا أنني احتفظ برؤيتي الخاصة في تحديد أعضاء هذه المجموعة القيادية من ناحية ، وفي بيان مدى تفاوت المكانة والنفوذ والتأثير داخلها من ناحية أخرى .. فإننا لو تخيلنا العالم في ظل النظام الدولي الجديد شركة أو مؤسسة كبرى لكانت المجموعة القيادية بمثابة مجلس الإدارة الذي يتولى وضع التخطيط العام والسياسات الشاملة ، ولكانت بقية دول العالم بمثابة الموظفين والعمال الذين تتفاوت مراتبهم ودرجاتهم بحسب ما يملكون من مؤهلات استراتيجية شاملة (سياسية –

(1) ينظر : روسيا .. البركان السياسي لم يخمد بعد – عبد الله عبد السلام ، الأهرام 4 / 3 / 94 ص 5 .
(2) الأخبار 5 / 4 / 1994 ص 2 . (3) الأخبار 13 / 5 / 1994 ص 2 .

اقتصادية - عسكرية) أما عن توزيع المناصب والأدوار داخل صفوف المجموعة القيادية ، فستكون رئاسة المجلس من نصيب الولايات المتحدة صاحبة الحظ الأوفر والنصيب الأكبر في الأسهم الاقتصادية والعسكرية .. وفي العضوية يتشارك عدد من الدول ، يأتي في مقدمتها كل من بريطانيا وفرنسا في المرتبة العليا بحيث يمكن اعتبارهما نائبي الرئيس ، ثم يأتي بعد ذلك كل من ألمانيا واليابان ثم روسيا والصين .

وواضح تماما أن التوافق الفكري متحقق في هذه المجموعة القيادية ، وقد يعترض على ذلك خصوصا في الحالتين الروسية والصينية ، ولكن الواقع المشاهد يؤكد أن الاتجاه إلى اقتصاد السوق وتحرير الاقتصاد من سيطرة الدولة هما الشغل الشاغل لهاتين الدولتين .. ولا شك أن ذلك واضح جلي في روسيا ، أما في الصين فإنها قد تخلت بدورها عن المبادئ الجوهرية والأساسية للنظام الشيوعي حينما سمحت بالملكية الفردية وحرية الاستثمار وتنقل رأس المال ، وبات الحزب الشيوعي مجرد صورة تراثية لا تلبث أن تختفي ولو بعد حين .

يستخلص من هذا أن التوجه الجديد في النظام الدولي والقرارات الصادرة عنه تنطلق من أرضية مشتركة وقاعدة فكرية (أيدولوجية) واحدة ، وأن ما يبرز على السطح أحيانا من اختلاف بين المجموعة القيادية لا يكون مبعثه التناقض الجذري في المبادئ ، وإنما هو التنافس المصلحي داخل الدائرة الفكرية الواحدة ، أو مجرد توزيع للأدوار بين تلك القوى إزاء قضية من القضايا .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هنا : إلى متى يستمر هذا الوضع الراهن ؟ وهل سيظل النظام الدولي بشكله الحالي ؟ .

الحقيقة أن أية إجابة على هذا السؤال لن تخرج عن دائرة توقع أمر مستقبلي لا قبل لإنسان أن يحيط به علما ، ولكن ما على الباحث المنصف إلا أن يأخذ من الواقع المشاهد ما يمكن تسميته بـ « المادة الخام » التي تعينه على استشراف آفاق المستقبل بناء على ما يتوافر لديه من حقائق هذا الواقع المعايش .

من هنا يمكن القول بأن تغيير الوضع القائم لن يتأتى إلا من ناحيتين :

الأولى : تغيير داخلي بين دول المجموعة القيادية ذاتها ، بأن تتقدم ألمانيا أو اليابان نحو القمة بعد أن يتخطيا الصعوبات التي تواجه كلا منهما خاصة العسكرية ، أو تتقدم روسيا أو الصين بعد أن يتخطيا كذلك التحديات التي تعترض طريق كل منهما .

الثانية : تغيير خارجي يأتي من كتلة لا تنتمي فكريا إلى المجموعة القيادية - والمسلمون وحدهم هم الذين يتوافر فيهم شرط المخالفة الفكرية للمجموعة القيادية - إذ أن مجموع الدول الصناعية الجديدة في جنوب شرق آسيا تنتهج المنهج الاقتصادي والفكري المتبع في الدول الكبرى ، فإذا اتحدت هذه الدول ، وشكلت كتلة اقتصادية واحدة ، وأصبحت واحدة من المجموعة القيادية ، فإن ذلك لا يعدو أن يكون تغييرا داخليا لا أثر جوهري له في شكل النظام الدولي الجديد .

أما المسلمون - حينما يتمسكون حقا بمبادئ دينهم العظيم - فهم حقا الذين يملكون مقومات التغيير ، حيث لا يتوافر لغيرهم من أسباب التوحد والاجتماع على كلمة سواء ما يتوافر لهم ، إذ أنهم يجتمعون على مبدأ عقائدي إيماني .. وما بين المسلمين من لغة مشتركة وتاريخ حضارة ... إلخ يجعلهم جميعا على قلب رجل واحد ، دون التوقف عند المصالح المادية المشتركة التي هي أساس جميع التكتلات القائمة الآن أو المخطط لقيامها مثل : الاتحاد الأوروبي ، منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا) منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية والجنوبية (ناسافتا) رابطة دول جنوب شرق آسيا (آسيان) ... إلخ .

فالمسلمون قادرون بعون الله - إن اتحدوا وتجمعوا في كيان واحد - أن يحدثوا التغيير المنشود ، وأن يأخذوا بيد البشرية التائهة الهائمة على وجهها المتخبطة في دياجير المادية وظلمات الجاهلية إلى نظام عالمي رباني ، لا ظلم فيه ولا ذل ولا هوان ، بل حرية وعدل ورخاء وسلام وتقدم وازدهار .. وسيأتي يوم قريب - بإذن الله - تعود فيه البشرية لتتنسم عبير الحرية وتتذوق طعم الرخاء والازدهار ، حينما يستعيد المسلمون سيرتهم الأولى ، ويمسكون بزمام الحضارة الإنسانية من جديد .

الباب الثاني

موقف النظام الدولي الجديد من بعض قضايا المسلمين

تمهيد

الفصل الأول : في القارة الإفريقية :

(السودان – الصومال – ليبيا)

الفصل الثاني : في القارة الأسيوية :

(فلسطين – لبنان – العراق – إيران – أذربيجان – الشيشان)

الفصل الثالث : في القارة الأوروبية :

(البوسنة والهرسك)

تمهيد

يدور الحديث في هذا الباب عن موقف النظام الدولي الجديد من بعض قضايا المسلمين محاولا رصد الواقع بكل آلامه لرسم صورة للمستقبل بكل آماله .

وبادئ ذي بدء ، ينبغي التأكيد على مبدأ غاية في الأهمية قبل الانطلاق إلى آفاق هذا الفصل وهو أن أوضاع المسلمين المتردية وكونهم يتعرضون لضربات متلاحقة ، إنما مردُّه - في المقام الأول - إلى تفريطهم في مقومات العزة والكرامة حينما طرحوا دين الله وراءهم ظهريا ، وصار المنهج الإلهي نسيا منسيا ، حينئذ تفرق المسلمون شيعا وأحزابا ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فطمع فيهم أعداؤهم ، ووجهوا إليهم سهامهم وحرابهم ، ولولا أن الله قد تكفل بحفظ الإسلام ولولا بقية من خير في المسلمين ، لأصبحوا مجرد ذكرى في تاريخ الزمان ...

ولعل أصدق وصف لحال المسلمين في هذا الزمان قول النبي ﷺ في حديثه الشريف : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ ؟! قال : بل أنتم يومئذ خلق كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » [1] ..

ويأتي هذا الحديث الشريف تصديقا للقانون الإلهي الخالد الذي أوحى الله به آدم وحواء حينما بدأت اللحظات الأولى للمسيرة الإنسانية على ظهر هذه الأرض ، حيث قال سبحانه : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [2] .

صحيح أننا لا نستطيع أن نتجاهل العوامل والأسباب الخارجية التي أدت إلى تخلف

---

(1) أبو داود : ك / الملاحم ب / في تداعي الأمم على الإسلام 4 / 108 [4297] - أحمد 5 / 278 .. كلاهما من حديث ثوبان رضي الله عنه يرفعه .

(2) سورة طه : الآيات 123 - 127 .

المسلمين وتخليهم عن زمام القيادة الحضارية .... ولكن الحقيقة أنهم هم الذين فعلوا بأنفسهم كل هذا ، فلو أنهم ظلوا على حالهم الأول من الاعتصام بحبل الله ، والاجتماع على قلب رجل واحد ، لما استطاعت المؤامرات مهما عظمت ، ولا المخططات مهما بلغت ، أن تفلح في النيل منهم ، أو أن تنال منهم نقيرا .... وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [1] . وصدق المصطفى ﷺ إذ يقول : « تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنتي » [2] .

وسيتضح - بمشيئة الله تعالى - هذا الأمر جليا في ثنايا هذا الباب ، حينما تجد النظام الدولي يفعل الأفاعيل ببعض الأقطار المسلمة ، بينما المسلمون في الأقطار الأخرى غافلون أو متغافلون وكأن الأمر لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد .... بل ووصل الحال من السوء لدرجة أن وقف فريق من المسلمين في خندق واحد مع أعداء الإسلام - عسكريا أو سياسيا أو اقتصاديا - ضد دولة أخرى مسلمة سواء كان ذلك فيما يتعلق بالعراق أو ليبيا أو الصومال أو البوسنة .... أوغيرها .... كما سيأتي بيانه .

ولقد اقتضت طبيعة هذا الباب تقسيمه إلى فصول ثلاثة ، طبقا للعوامل الجغرافية البحتة حيث لا يمكن تقسيمه تاريخيا بسبب تداخل الأحداث وتشابك القضايا ، وتسارع الوقائع والقرارات ... من هنا قسمت هذا الباب بالاعتبار الجغرافي إلى الفصول الثلاثة الآتية :

الفصل الأول : في القارة الأفريقية .   الفصل الثاني : في القارة الآسيوية .

الفصل الثالث : في القارة الأوروبية .

وسيكون الحديث منصبا على مواقف القوى الكبرى من هذه القضايا ، وكذلك على القرارات التي صدرت بشأنها عن الأمم المتحدة ، لبيان خلفية هذه المواقف والقرارات ، والدوافع التي أدت إلى صدورها ، كمظاهر للصراع الحضاري في إطار النظام الدولي الجديد .. وبالله التوفيق .

---

(1) سورة آل عمران : الآية 120 .

(2) أبو داود : ك / المناسك / ب صفة حجة النبي ﷺ 2 / 189 [1905] مطولا - ابن ماجه : ك المناسك ب حجة رسول الله ﷺ 2 / 1022 [3074] مطولا ... كلاهما من حديث جابر رضي الله عنه - مالك في الموطأ بلاغا 899 / 2 [3] - ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله : ب الحض على لزوم السنة والاقتصار عليها 2 / 221 - وصححه السيوطي في مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة (7) .

الفصل الأول

في القارة الأفريقية

إن تاريخ الإسلام في القارة الأفريقية تاريخ عريق ، فلقد عم نوره أرجاء القارة السوداء ، التي تمثل دولها الإسلامية الآن العمود الفقري لمنظمة المؤتمر الإسلامي ... وقد شهدت القارة حلقات عدة في مسلسل الصراع الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة المادية الغربية التي اتخذت النصرانية المحرفة شعارا لها ... فقد أهاج الانتشار الإسلامي الكاسح في القارة الأفريقية أحقاد النصارى في الغرب ، فقاموا بتعبئة جهودهم وتنظيم صفوفهم للوقوف في وجه هذا التيار المتدفق ...

والناظر المدقق في مواقف الدول الكبرى والأمم المتحدة تجاه القضايا الأفريقية عموما والمسلمين فيها على وجه الخصوص ، يدرك بسهولة أن هذه المواقف نابعة من الحقد الاستعماري الصليبي القديم وأنها امتداد طبيعي له .. والسطور التالية تؤكد هذه الحقيقة ..

1 - السودان

يواجه السودان في ظل النظام الدولي الجديد حملة شعواء ، ترمي إلى تفتيته وتجزئته ، بهدف إقامة دولة مستقلة في الجنوب ، الذي يشكل وحده ربع المساحة الكلية للدولة ، أي ما يعادل أكثر من مساحة ألمانيا الموحدة .

والواقع أن قضية تفتيت السودان والفصل بين شماله وجنوبه قضية عميقة الجذور [1] ...

---

(1) **الجذورالتاريخية لقضية جنوب السودان :**
لعب الاستعمار البريطاني على أوتار التعدد القبلي والعرقي والديني واللغوي في السودان ، حيث يوجد في السودان 597 قبيلة ، وهناك أيضا التنوع العرقي ، (النيلية والحامية والزنجية) بالإضافة للتنوع اللغوي (العربية ، والإنجليزية ، واللهجات القبلية) حيث يوجد أكثر من 110 لغة ولهجة محلية ، وفي الجنوب وحده 53 لغة ولهجة ، أبرزها : العربية والدينكا والإنجليزية ... أما عن التنوع الديني فيتركز المسلمون في الشمال وفي الجنوب : 18 % مسلمون ، 17 % نصارى والنسبة الباقية 65 % وثنيون لادينيون – يراجع الأمة في عام (تقرير حولي عن الشئون السياسية والاقتصادية الإسلامية 1413 هـ – 92 / 1993 م) ص 214 مركز الدراسات الحضارية – القاهرة بدون تاريخ .
وقد مارس الإنجليز سياستهم الاستعمارية البغيضة وقت الاحتلال « فَرِّقْ تَسُدْ » فعملوا على المباعدة بين الشمال والجنوب ، وتوسيع الهوة بينهما ، ووضع بذور الشقاق والبغضاء ... ومن الوسائل التي استخدموها لتحقيق ذلك :
* في بداية هذا القرن ، استبعدت سلطات الاحتلال البريطاني القوات السودانية المسلمة وأحلت محلها قوة نصرانية جنوبية تحت إمرة ضابط انجليزي .
* أصدرت السلطات الاستعمارية عام 1922 قانونا خطيرا سمي بـ « قانون المناطق المقفولة » يعد من أكثر القوانين =

المؤامرة المتجددة على السودان في ظل النظام الدولي الجديد :

يتضح من الخلفية التاريخية أن المؤامرات الصليبية على السودان ليست وليدة ظروف أو أحداث بعينها اليوم ، وإنما تمتد جذورها إلى زمن بعيد ... ومن هنا فإن التوجه الإسلامي في السودان – ولو مجرد شعارات – لم يكن الدافع الأساسي لحدوث التمرد العسكري في الجنوب . بل الحقيقة المؤكدة أنه حينما قامت الكتيبة 115 بقيادة « جون قرنق » بإعلان تمردها في أبريل 1983 ، كان ذلك قبل سبعة أشهر كاملة من إعلان « جعفر نميري » تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان في سبتمبر من العام نفسه [1] .

كذلك فإن الشعارات الإسلامية للثورة التي تطلق على نفسها « ثورة الإنقاذ » لم تكن هي الأخرى سببا للحملة لأنها عندما قامت عام 1989 كانت قوات التمرد التي تطلق على نفسها اسم « حركة تحرير شعب السودان » تستولي على معظم الجنوب السوداني ؛ لذا لا مفرَّ من الجزم بأن الحملة الحالية على السودان ليست إلا حلقة في سلسلة طويلة من المؤامرة الصليبية على هذا البلد المسلم ، كان لابد وأن تحدث – قامت ثورة الإنقاذ أو لم تقم ، أعلنت توجهها نحو الإسلام أو لم تعلن .

= خطورة في سبيل الفصل بين الشمال والجنوب ، حيث لم يسمح في ظله للشمالي أن يدخل مناطق الجنوب إلا بتصريح .

* كما نظمت سلطات الاستعمار البريطاني مؤتمرا في منطقة جنوبية عام 1928 ، حضره 41 شخصا من الجنوبيين والأجانب والقساوسة ، وقرروا اعتماد اللغات المحلية في مراحل التعليم الأولى ثم الانتقال إلى الإنجليزية في المراحل الأعلى ، والتخلي تماما عن اللغة العربية .

* قامت السلطات الاستعمارية الصليبية بعدة خطوات تهدف إلى عزل الجنوب عن الشمال عزلا تاما حيث اعتُبر يوم الأحد الأجازة الرسمية الأسبوعية بدلا من الجمعة ، كما مُنع بيع وارتداء الزي العربي التقليدي ، وفرضت الملابس الغربية فرضا ، وحُوربت اللغة العربية ، وفتح الباب على مصراعيه أمام المبشرين والكنائس للعمل على أوسع نطاق ، كما شكلت أول فرقة عسكرية جنوبية خالصة وجرى الاستغناء عن كل شمالي في الوظائف الحكومية ، وتم ترحيل بعض القبائل العربية بعيدا عن الحدود مع الجنوب ، ومُنع الاتصال بين القبائل الشمالية والجنوبية .

* ساهمت الإدارة البريطانية في حدوث أول تمرد عسكري جنوبي على الحكومة المركزية حيث قامت الفرقة الجنوبية المتمركزة في مدينة « توريت » بإعلان التمرد والعصيان ، واستولت على مخازن السلاح والذخيرة ، وذلك بعد أن أشاعت الإدارة البريطانية أن استدعاء تلك الفرقة إلى الخرطوم بحجة المشاركة في احتفالات الاستقلال كان بهدف القضاء عليها ومحاكمة أعضائها ، مما دفعها إلى التمرد ... وكان المبشرون الصليبيون أصحاب الدور البارز في نشر هذه الشائعة وترويجها على أوسع نطاق ، كمحاولة أُخيرة يقوم بها الاستعمار الصليبي قبل رحيله لبعثرة السودان وتفتيته بفصل شماله عن جنوبه ... يراجع الأمة في عام ص 214 , 215 .

وبقي هذا الميراث الاستعماري البغيض راسخا في الأذهان ، وساهمت الحكومات العسكرية المتعاقبة في تنميته ، الأمر الذي أتاح للنظام الدولي الجديد أن يصعِّد حملته على السودان بغية تحقيق الحلم القديم ....

(1) يراجع الأمة في عام ص 216 .

وسأعرض فيما يلي بعض جوانب تلك المؤامرة :

[1] اتهام السودان بدعم الإرهاب :

بدأت الحملة على السودان باتهامها بدعم ومساندة الإرهاب ، وهي التهمة الجديدة والسلاح المبتكر الذي اعتادت الدول الكبرى أن تشهره في وجه الدول أو المنظمات التي تعارض فرض المنهج الغربي على العالم .

وقد بدأت الولايات المتحدة الهجوم على النظام الحاكم في السودان ، وهددت في مطلع عام 1993 بإدراج السودان ضمن قائمة الدول التي ترعى الإرهاب ، وأدلى « هيرمان كوهين » مساعد وزير الخارجية الأمريكي للشئون الأفريقية بشهادته أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب متهما السودان بإيواء ودعم المنظمات المسماة الإرهابية مثل : تنظيم الجهاد الإسلامي ، وحركة حماس وحزب الله ، وحركة « أبو نضال » ، كما اتهم السودان بالتعاون مع إيران في تدريب عناصر من (المتطرفين) في معسكرات سودانية وتوزيعهم على الدول العربية لإسقاط أنظمة الحكم فيها [1] .

ثم قامت الحكومة الأمريكية بتنفيذ تهديدها في 1993/8/19م وأدرجت السودان في قائمة الدول التي ترعى الإرهاب رسميا ، وقال الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » : إنه لم يكن أمام الولايات المتحدة سوى إدراج السودان في القائمة لأن الدليل ضد السودان واضح ، وعلى حكومة الخرطوم أن تغير من سلوكها ...

وخطورة هذا القرار تكمن في قيام الولايات المتحدة بقطع المساعدات العسكرية عن السودان وحثها المؤسسات المالية الدولية والدول الكبرى على عدم تمويل السودان ، ووقف التعامل معه ، وفرض قيود على الصادرات إليه ، والضغط كذلك على العديد من الدول الآسيوية والأوروبية لاتخاذ مواقف مؤيدة للقرار الأمريكي [2] .

واستمرت الوتيرة التصاعدية للحملة الغربية على السودان ، فلقد دأبت أجهزة المخابرات الغربية على اختلاق معلومات كاذبة وتسريبها إلى وسائل الإعلام لنشرها على أوسع نطاق ... ومن ذلك ما ذكرته صحيفة « صنداي تايمز » البريطانية من أن السودان يدرب أجيالا جديدة من الإرهابيين ، عن طريق مدربين من الحرس الثوري الإيراني يبلغ

---

(1) ينظر : الأخبار ص 1 والأهرام ص 1 كلاهما بتاريخ 19 رمضان 1413 هـ - 12 مارس 1993 .

(2) الأهرام ص 1 بتاريخ 20 / 8 / 1993 م .

عددهم ثلاثة آلاف رجل [1] .

كما ساهمت المعارضة الجنوبية السودانية بدورها في ترويج هذه المزاعم ، ففي حديث مع صحيفة « الأهرام » تحدث « ألدو أجو » نائب رئيس البرلمان السوداني الذي انشق عن الحكومة وطلب حق اللجوء السياسي لبريطانيا ، تحدث عما أطلق عليه الوسائل الخفية التي تلجأ إليها الحكومة السودانية لتضليل العالم عن مواقع وطبيعة عمليات تدريب الإرهابيين داخل السودان ، زاعما أن التدريب يتم في مساجد ومزارع خاصة ، تقع على أطراف الخرطوم [2] .

وقد قدمت الخارجية الأمريكية مذكرتين رسميتين إلى الحكومة السودانية ، كانت الأولى في سبتمبر 1992 ، وتتضمن اتهامات خطيرة بأن السودان من الدول المساندة للإرهاب الدولي [3] . أما المذكرة الثانية فكانت أكثر حدة وصرامة ، حيث لم تكتف باتهام السودان بمساندة الإرهاب الدولي بل تعدت ذلك في أغسطس 1993 إلى اعتباره من الدول المصدرة للإرهاب [4] .

ثم تطورت الأمور بشكل خطير لتصل إلى حد إصدار قرارات في مجلس الأمن تتهم السودان رسميا بدعم وصناعة وإيواء « الإرهابيين » .. فبعد محاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك التي وقعت في العاصمة الأثيوبية « أديس أبابا » في 1995/6/26 م ، انطلقت الاتهامات من هنا وهناك لتحميل الحكومة السودانية مسئولية هذه المحاولة ، وقدمت كل من أمريكا وبريطانيا وأثيوبيا إلى مجلس الأمن ما تسميه « أدلة دامغة » على تورط الحكومة السودانية في محاولة الاغتيال وفي دعم ما يسمى بـ « الإرهاب الدولي » وترتب على ذلك صدور عدة قرارات ضد السودان على النحو التالي :

1 - القرار (1044) في 1996/1/31م ، والذي يطالب السودان بتسليم ثلاثة من المتهمين في محاولة اغتيال مبارك ، يدعي المجلس أنهم في السودان - كما يطالب القرار بتوقف السودان عن دعم الأنشطة الإرهابية .

2 - القرار (1054) في 27 / 4 / 1996 م الذي يتضمن فرض عقوبات دبلوماسية على السودان بدعوى عدم امتثاله للقرار السابق ويتضمن القرار تخفيض عدد البعثات

---

(1) الأهرام ص 5 بتاريخ 17 / 5 / 1994 م .
(2) يراجع الحديث كاملا في الأهرام 17 / 1 / 1994 م ص 6 .
(3) الأخبار ص 1 بتاريخ 17 / 9 / 1992 م .
(4) السياسية الدولية : ع 114 أكتوبر 1993 . شهريات الأحداث الدولية (أغسطس 1993) ص 310 .

الدبلوماسية السودانية ومراقبة تحركات باقي أفرادها .

3 – القرار (1070) في 17 / 8 / 1996 م ويقضي بفرض حظر على نشاط شركة الخطوط الجوية السودانية بالإضافة إلى بقاء العقوبات السابقة كما هي [1] .

حقيقة هذه الحملة والدوافع التي أدت إليها :

إذا وُضعت هذه الحملة في الإطار التاريخي السابق ذكره ، فإنه لا مناص من القول بأنها لا تخرج عن كونها محاولة جديدة تقوم بها القوى الصليبية اليهودية لتحقيق الحلم القديم بإقامة دولة صليبية في جنوب السودان ... ولئن كانت الخلفية التاريخية تكفي لبيان ذلك ، فلابد أيضا من الإشارة هنا إلى أمرين :

الأول : يتعلق بمسألة توقيت الحملة وبدايتها ، فإذا علمنا أن بابا الفاتيكان قد قام بزيارة جنوب السودان ، واجتمع ببعض أعضاء البعثات التبشيرية التي تعمل هناك في يوليو 1993 ، ثم قام بزيارة « واشنطون » واجتمع بالرئيس « بيل كلينتون » ونقل إليه انطباعاته عن الأوضاع في جنوب السودان [2] ... إذا علمنا هذا كله سهل علينا إدراك حقيقة ودوافع هذه الحملة الشرسة على السودان .

الثاني : يتعلق بمسألة العلاقة بين إيران والسودان .. حيث يرى الدكتور / رفعت لقوشة أن هناك قوانين موضوعية تحكم العلاقة بين منطقة الخليج ومنطقة القرن الأفريقي منذ فجر التاريخ وحتى استشرافاته المعاصرة ، فالعلاقة بين المنطقتين تحكمها – جغرافيا وسياسيا – سلسلة ثلاثية تجمع بين قوة خليجية وقوة أخرى تقع عند باب المندب وقوة ثالثة تستقر في القرن الأفريقي ...

وكانت هذه الثلاثية في الماضي تشتمل : فارس – اليمن – الحبشة .

ثم أصبحت بعد ذلك تشمل : العراق – اليمن – الصومال .

وأصبحت بعد هزيمة العراق وتفتيت الصومال تضم ، إيران – اليمن – السودان [3] .

---

(1) يراجع : السياسة الدولية . نشاط الأمم المتحدة ، ع يوليو 1996 م ، ص 307 , 308 ، وع أكتوبر 1996 م ص 283 وللوقوف على موقف السودان تجاه هذه القرارات ونفيه المطلق لدعاوى مساندته الأنشطة الإرهابية تراجع وقائع الندوة التي عقدت بالأهرام مع وزير الخارجية السوداني ، وهي منشورة في ملحق الجمعة بتاريخ 20 / 9 / 1996 م 4 / 10 / 1996 م .

(2) الأخبار ص 4 بتاريخ 10 / 9 / 1993 م .

(3) ينظر : القرن الأفريقي وإفرازات حرب الخليج (مقال) د / رفعت لقوشة الأخبار ص 5 بتاريخ 8 / 12 / 1992 م .

إذا ، ليست الحملة على كل من إيران والسودان إلا وسيلة لتفتيت وتحطيم هذه السلسلة الثلاثية خاصة إذا وضع في الاعتبار ما حدث في اليمن من حرب أهلية وإشعال فتيل النزاع الحدودي مع السعودية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، تقف كثير من العوائق والسدود حائلا منيعا في وجه تنامي العلاقات السودانية الإيرانية ، وأهمها - كما يقول هانئ رسلان - الاختلاف المذهبي بين الطرفين ، فالثورة الإيرانية ذات انتماء شيعي ، في الوقت الذي ينتمي فيه السودان إلى المذهب السني ... كما برز نوع من الحذر المتبادل بين الطرفين ، فإيران لا تعتبر الجبهة الإسلامية القومية في السودان حليفا استراتيجيا ثابتا لها ، في الوقت الذي تؤكد فيه الحكومة السودانية على أولوية الدوافع الاقتصادية في توجهها إلى إيران ...

ومن الأمور ذات المغزى العميق في هذا الصدد ، رفض إيران إمداد السودان بأية منتجات نفطية ، إبّان الأزمة البترولية التي تعرض لها في النصف الأول من عام 1993 م ، إذ أصرت إيران على ضرورة وجود ضمانات من دولة أوروبية لتمويل الصفقة ، الأمر الذي عجز عنه السودان بطبيعة الحال [1] .

بعد هذا لا مجال للشك في أن اتهام السودان بدعم الإرهاب ومساندته وتصديره اتهام باطل ابتكرته وروجته المخابرات الغربية ، وانساقت خلفها بعض الدول الإسلامية تردد تلك المزاعم ، دونما التفات إلى النفي المتكرر للحكومة السودانية ، ودونما التفات إلى المنهج القرآني الذي يأمر بالتثبت من نبأ الفاسق ... فما بالك بالكافر ؟! وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [2] .

[2] اتهام السودان بانتهاك حقوق الإنسان :

لجأت الدول الكبرى الصليبية في حملتها على السودان إلى اتهامه بانتهاك حقوق الإنسان ، وهي التهمة التي تحسن القوى الكبرى استخدامها بمهارة فائقة ضد الدول التي تخرج عن النمط الغربي الذي تعتبره القوى الكبرى العقيدة الرسمية للنظام الدولي الجديد .

ففي ديسمبر 1992 م ، تقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا ودول أوروبية أخرى

(1) يراجع : السودان والحركات الإسلامية .. الدور وأبعاد العلاقة - هانئ رسلان . ضمن ملف : الإسلام والعنف في السياسة الدولية . السياسة الدولية : ع 113 يوليو 1993 ص 109 - 112 .
(2) سورة الحجرات الآية 6 .

بمشروع قرار في الجمعية العامة للأمم المتحدة لإيفاد مبعوث خاص إلى السودان للتحقق والتأكد من مدى التزام الحكومة واحترامها لحقوق الإنسان ، ويدعو المشروع إلى إقرار تلك الحقوق ، ومطالبة السلطات السودانية بوقف الاضطهاد العنصري الذي تمارسه ضد شعبها ، كما يطالب مشروع القرار المبعوث الدولي برفع تقرير إلى الجمعية العامة عن نتائج اتصالاته وتحقيقاته ومدى التزام الحكومة السودانية بمبادئ حقوق الإنسان (1) . وقد أصدرت الجمعية العامة بالفعل قرارًا في 19/12/1992 م يدين انتهاك السودان لحقوق الإنسان (2) .

وفي مارس 1993 أدانت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة النظام الحاكم في السودان بممارسة عمليات الإعدام والتعذيب والاعتقال والطرد للمواطنين على نطاق واسع ، وأمرت بالتحقيق العلني في سجلات حقوق الإنسان بالسودان ... وقد صوتت اللجنة المكونة من ممثلي 53 دولة بأغلبية كبيرة على تعيين محقق خاص في هذه القضية ، بمقتضى الإجراء الذي يتخذ عادة مع الدول صاحبة أسوأ سجلات في حقوق الإنسان (3) .

وقد تم بالفعل تعيين محقق دولي هو « كاسباريبرو » ، الذي رفع تقريره إلى اللجنة في 23/11/1993 م ، متهما الحكومة السودانية بارتكاب مجازر وقتل عشوائي واختطاف الأطفال لاستخدامهم كعبيد أو جنود ، مما أدى إلى صدور قرار جديد بإدانة السودان في 14 / 12 / 1993 م (4) .

ولم تشأ منظمة العفو الدولية أن يفوتها شرف الاشتراك في هذه الحملة العنيفة على السودان ، فوجهت بدورها اتهامات إلى السودان في 14/11/1992 بقتل 300 ألف من المدنيين العزل في مدينة جوبا (5) ، ثم عادت في 19/2/1993 م إلى اتهامه بممارسة القتل الجماعي والتعذيب الحاد للمواطنين في النوبة (6) .

وسارت منظمة العمل الدولية في ذات الاتجاه ، حينما أصدرت تقريرا في مارس 1993 اتهمت فيه المجموعات المسلحة التابعة للحكومة السودانية باستعباد الأشخاص

---

(1) السياسة الدولية : ع 11 1 يناير 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 340 .
(2) السياسة الدولية : ع 2 11 أبريل 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 274 ، 275 .
(3) السياسة الدولية : ع 113 يوليو 1993 م نشاط الأمم المتحدة ص 320 .
(4) السياسية الدولية : ع 116 أبريل 1994 م نشاط الأمم المتحدة ص 347 ، 348 .
(5) السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 م شهريات الأحداث الدولية (نوفمبر 1992 م) ص 262 .
(6) السياسة الدولية : العدد السابق . شهريات الأحداث الدولية (فبراير 1993 م) ص 271 .

ويبعهم بسعر يتراوح مابين 30 إلى 60 دولارا للشخص الواحد [1] .

وقد ذهبت بريطانيا إلى أبعد مدى في الحملة الشعواء التي تشنها على السودان ، وذلك حينما قامت بدعوة المعارضة السودانية إلى البرلمان البريطاني لبحث ومناقشة قضية حقوق الإنسان في السودان [2] ، في سابقة تعد الأولى من نوعها في العالم ، وتمثل – في تقديري – انتهاكا صارخا للقوانين والأعراف الدولية ، حيث تمثل اعتداء سافرًا على سيادة السودان واستقلاله ، وتدخلا في صميم شئونه الداخلية .

من جانبها ، نفت الحكومة السودانية كافة الاتهامات الموجهة إليها في هذا الصدد ، واتهمت المحقق الدولي « كاسباربيرو » بأنه استقى معلوماته التي ضمنها تقريره إلى لجنة حقوق الإنسان من أفواه المعارضة دون التأكد من صحتها أو الاستماع إلى رأي الحكومة بشأنها ، كما هدد السودان بمقاطعة اجتماعات لجنة حقوق الإنسان احتجاجا على عبارات وردت في هذا التقرير تتضمن مساسا بالعقيدة الإسلامية [3] .

كما أصدرت وزارة الخارجية السودانية بيانًا في أكتوبر 1992م وصفت فيه الحملة الغربية ضد السودان بأنها حملة مغرضة لا تستند إلى أدلة حقيقية ، وأن هدفها النهائي هو تشويه صورة السودان تمهيدًا لعمل عدائي ضده ، وتبريرًا لتدخل دولي في الجنوب ، كحملة صليبية جديدة [4] .

[3] صندوق النقد الدولي والمؤامرة على السودان :

في إطار الضغط على السودان ، استطاعت الدول الكبرى أن توظف نفوذها وهيمنتها على المنظمات الدولية في سبيل إحكام الخناق على هذا البلد المسلم .... فقد رفض صندوق النقد الدولي منح السودان أية قروض وذلك تنفيذًا للتهديدات الأمريكية التي أعلنتها حينما أدرجت السودان في قائمة الدول المساندة للإرهاب [5] .

وفي الشهر نفسه قام الصندوق بتجريد السودان من حق التصويت في اجتماعاته ، وقد وصف الرئيس السوداني « عمر البشير » هذا القرار بأنه قرار سياسي لا علاقة له بالاقتصاد [6] .

---

(1) الأخبار ص 1 بتاريخ 12 / 3 / 1993 م .

(2) ينظر : الأهرام ص 6 بتاريخ 13 / 1 / 1994 م ص 1 بتاريخ 13 / 2 / 1994 م .

(3) السياسة الدولية : ع 116 أبريل 1994 م نشاط الأمم المتحدة ص 347 , 348 .

(4) الأمة في عام – مصدر سبق ذكره – يراجع ص 223 . (5) الأهرام ص 1 بتاريخ 12 / 1 / 1994 م .

(6) السياسة الدولية : ع 114 أكتوبر 1993 م نشاط الأمم المتحدة ص 320 .

[4] دعم المتمردين ماديا ومعنويا :

تقوم القوى الكبرى اليهودية والصليبية بدعم حركة التمرد في جنوب السودان ، باعتبارها نواة الدولة المزمع إقامتها في الجنوب بعد فصله تماما عن الشمال ، ومن المؤكد أنه لولا هذا الدعم ما استطاعت الصمود إلى هذا الوقت .

والعجيب هنا أن تلك القوى الكبرى لا تخجل من إعلان دعمها العلني للحركة الصليبية المتمردة .. ومن أبرز الأمثلة في هذا المضمار :

أ – بذلت الولايات المتحدة الأمريكية جهودا مكثفة لاحتواء الخلافات والانشقاقات التي حدثت في صفوف الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة « جون قرنق » .... ففي أغسطس 1991 م حدث الانشقاق الأول حينما أعلن كل من « رياك مشار » والدكتور « لام أكول » تكوين حركة جديدة تقوم على أساس المطالبة بانفصال جنوب السودان وتكوين دولة مستقلة فيه ، ودارت رحى الحرب بين الجناحين (جناح « جون قرنق » ويطلق عليه « جناح توريت » والآخر يطلق عليه « جنح الناصر ») [1] .... كما أعلن « وليام نون باى » نائب قرنق في سبتمبر 1992 توليه قيادة الحركة الشعبية وجيشها ، ودعا جميع مقاتلي الجيش إلى الانضمام إليه والانفصال عن « قرنق » [2] .

إزاء هذه الخلافات والانشقاقات قامت الولايات المتحدة بجمع الجناحين الكبيرين في « واشنطن » لتسوية الخلافات بينهما ، وأشرقت وزارة الخارجية واللجنة الفرعية لشئون أفريقيا التابعة للكونجرس على المباحثات التي جرت بين الفريقين ، والتي أسفرت عن صدور « إعلان واشنطن » في 1993/10/23 م باتفاق الجانبين على قضية انفصال جنوب السودان ، وتسوية الخلافات فيما بينهما بالطرق السلمية .

وقبل ذلك كان الفريقان قد توصلا في العاصمة الكينية « نيروبي » أواخر مارس 1993 م بوساطة الرئيس الأمريكي الأسبق « جيمي كارتر » وبرعاية السفير الأمريكي في الخرطوم ، إلى اتفاق حول إنشاء مناطق آمنة في جنوب السودان [3] .

ب – دأبت الولايات المتحدة على التدخل بطريقة أو بأخرى لحماية الحركة الصليبية المتمردة كلما قامت الحكومة بشن حملة عسكرية عليها .... فما إن تبدأ الحملة

(1) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1991 م ص 129 , 131 .
(2) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 م ص 165 .
(3) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1993 م ص 137 .

العسكرية الحكومية حتى تسارع أمريكا والأمم المتحدة بالحديث المبالغ فيه عن مآسي الحرب الأهلية وأهوالها .... وقد قام السفير الأمريكي « رونالد باترسون » بزيارة المناطق التي يسيطر عليها المتمردون ، وطفق يتحدث عن هجوم القوات الحكومية الذي تسبب في تشريد المدنيين ونزوحهم إلى مناطق القحط والجفاف [1] .

وقد احتج السودان على هذه الزيارة ، ووصفها بأنها انتهاك فاضح لسيادته وتحيز واضح للمتمردين [2] .

جـ - لم تكن بريطانيا بعيدة عن المضمار ، فقد قام الدكتور « جورج كاري » كبير أساقفة الكنيسة الإنجليزية بزيارة مماثلة لمناطق الجنوب الخاضعة لسيطرة حركة التمرد الصليبية ، في الوقت ذاته رفض دعوة الحكومة لزيارة رسمية للخرطوم ، ونتج عن ذلك أزمة حادة أدت إلى طرد سفيري كل من البلدين في البلد الآخر [3] .

د - لم تتخلف الأمم المتحدة أيضا عن الركب ، فقد ساهمت بدورها في تقوية موقف المتمردين عن طريق توجيه التهم الجزافية إلى السودان ، وتهديده بالتدخل الدولي في جنوبه لإقامة مناطق آمنة ... هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تقيم الأمم المتحدة الدنيا ولا تقعدها بسبب اتهامات غير مؤكدة ضد الحكومة ، بينما تقف عاجزة ذليلة أمام المتمردين حينما يرتكبون جرائم بشعة تضرب هيبة المنظمة ومصداقية المجتمع الدولي في الصميم .

فقد لاذت الأمم المتحدة بالصمت التام عندما أعلن المتمردون في 18/8/1992 م أنهم سيسقطون طائرات الإغاثة التابعة للأمم المتحدة [4] .... كما اكتفى الأمين العام للمنظمة الدولية بالشجب والإدانة والاستنكار حينما قتل المتمردون ثلاثة من موظفي الإغاثة الدوليين [5] ... ثم عاد مرة أخرى ليندد باستيلاء حركة التمرد الصليبية على باخرة إغاثة تابعة للأمم المتحدة واعتقال الموظفين العاملين على متنها [6] ... والسؤال هنا ... هل كان الموقف سيتغير لو أن الطرف الآخر - الحكومة السودانية - هي التي ارتكبت هذه

(1) الأهرام ص 6 بتاريخ 21 / 2 / 1994 م .

(2) السياسة الدولية : ع 117 يوليو 1994 م شهريات .. (فبراير 1994 م) ص 358 .

(3) يراجع السياسة الدولية : ع 116 أبريل 1994 م شهريات الأحداث الدولية (ديسمبر 93 ويناير 1994 م) ص 329 , 336 والأهرام ص 1 بتاريخ 1 / 1 / 1994 م ، ص 4 بتاريخ 4 / 1 / 1994 م و ص 1 بتاريخ 5 / 1 / 1994 م .

(4) السياسة الدولية : ع 111 يناير 1993 شهريات ... (أغسطس 1992 م) ص 325 .

(5) السياسة الدولية : العدد السابق نشاط الأمم المتحدة ص 340 .

(6) السياسة الدولية : ع 118 أكتوبر 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 341 .

الجرائم ؟! .... والإجابة هي : نعم ، بكل تأكيد ....

أدى هذا الدعم المقدم إلى الحركة الصليبية المتمردة في جنوب السودان إلى استمرار هذه المأساة الدامية بكل جراحها وآلامها :

* فبرنامج الغذاء العالمي يؤكد أن 2,8 مليون سوداني يواجهون خطر الموت بسبب الحرب والمجاعة ، وأن 1,7 مليون شخص هجروا ديارهم ، و1,1 مليون أصابتهم المجاعة [1] .

* ومنظمة الصحة العالمية تؤكد أيضا أن حوالي 400 ألف شخص مهددون بالإصابة بداء الـ « كلازارما » ولا يمكن علاجهم ، خاصة في منطقة أعالي النيل التي هي ميدان الحرب [2] ، التي راح ضحيتها 1,3 مليون قتيل منذ عام 1983 م [3] .

[5] التهديد بالتدخل الدولي وفرض الوصاية الدولية على السودان :

بدأت في شهري أغسطس وسبتمبر من عام 1992 م حملة غربية تدعو إلى تدخل دولي في السودان وإقامة مناطق آمنة فيه على غرار ما حدث في العراق والصومال ، كما سيأتي بيانه . وقد قادت هذه الحملة في بدايتها الكنائس الكاثوليكية الأوروبية والكنائس الكاثوليكية الأفريقية السبع المشاركة في مجلس الكنائس الأفريقي ، ثم تولت الدول قيادة الحملة بنفسها فأصدرت المجموعة الأوروبية والكونجرس الأمريكي ومجلس اللوردات البريطاني بيانات تدعو إلى التدخل الدولي الفوري في جنوب السودان لوقف ما أسمته « عمليات التطهير العرقي ضد المسيحيين في جنوب السودان » [4] ... ثم أعلنت الولايات المتحدة أنها تبحث إقامة مناطق آمنة لحماية الهاربين من الحرب الأهلية والمجاعة [5] .

وليت الأمر اقتصر على حدِّ إقامة مناطق آمنة في الجنوب ، وإنما توسعت الحملة ضد السودان لتشمل أيضا إقامة مناطق آمنة في الشمال وحول العاصمة « الخرطوم » ، ومناطق أخرى منزوعة السلاح ، ومناطق ثالثة لإعادة توطين النازحين وضحايا الحرب ، ليس في الجنوب فقط وإنما في مناطق جبال النوبة بالغرب والإنجسنال على الحدود السودانية الأثيوبية ، كما شملت الحملة أيضا دعوة مجلس الأمن إلى فرض حظر على بيع الأسلحة والوقود إلى السودان ، وطرد البرلمان السوداني من الاتحاد البرلماني الدولي ،

(1) السياسة الدولية : ع 113 يوليو 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 320 .
(2) السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 م نشاط الأمم المتحدة ص 283 .
(3) الأهرام ص 6 بتاريخ 11 / 2 / 1995 م . (4) ينظر الأمة في عام ص 222 , 223 .
(5) الأخبار والأهرام ص 1 بتاريخ 12 / 3 / 1993 م .

باعتباره هيئة غير شرعية [1] .

باختصار ، تسعى القوى اليهودية الصليبية العالمية إلى فرض الوصاية على البلد المسلم ، مثلما حدث مع العراق بعد حرب الخليج الثانية .

[6] منظمات الإغاثة ودورها التآمري :

تعمل في السودان كثير من المنظمات التي تدعي أن دورها ينحصر في تقديم الإغاثة والمعونات الإنسانية للمنكوبين من ضحايا الحرب والمجاعة ، بينما الحقيقة التي لا مراء فيها أن هذه اللافتات البراقة ليست إلا ستارا لنشاط تنصيري صليبي مكثف من ناحية ، ونشاط عسكري تجسسي لصالح المتمردين الصليبيين من ناحية ثانية .

فالحكومة السودانية من جانبها دأبت على طرد كافة المنظمات الصليبية التي تستخدم أعمال الإغاثة كستار لممارسة النشاط التبشيري الصليبي ، مما كان يتسبب في تصعيد الحملة عليها من جانب الجهات الكنسية والسياسية الغربية ، كما أعدمت السلطات السودانية ثلاثة من موظفي هيئة المعونة الأمريكية وموظفا آخر من الوكالة الأمريكية للتنمية ، لقيامهم بأعمال التجسس على القوات الحكومية وإمداد المتمردين بالمعلومات عن تحركاتها ومواقعها [2] .

ومن المفارقات العجيبة في هذا الصدد أن منظمة للإغاثة قامت بتوزيع أغذية فاسدة ، غير صالحة للاستهلاك الآدمي .. فقد قدمت الحكومة السودانية أعضاء « وكالة تنمية المناطق » – وهي منظمة أمريكية – للمحاكمة ، بتهمة بيع وتوزيع أطعمة فاسدة للمشردين والمنكوبين في السودان [3] .

[7] إفساد العلاقة بين السودان وجيرانه :

نجحت القوى الكبرى في تسميم أجواء العلاقات القائمة بين السودان والدول المحيطة به ، لفرض حالة من العزلة والحصار على هذا البلد ، ومحاولة تطويقه من جميع الجوانب ، بغية إذلاله وإخضاعه للتوجهات الغربية الصليبية اليهودية .

ولعل أبرز الأمثلة في هذا المضمار ، ما قامت به تلك القوى من تحطيم أواصر الأخوة بين

---

(1) ينظر جنوب السودان و « الوصاية » الدولية . (مقال) : أحمد نافع الأهرام ص 5 في 25 / 2 / 1994 م .
(2) ينظر : الأمة في عام ص 223 . السياسة الدولية : ع 111 يناير 1993 شهريات (سبتمبر 1992) ص 330 .
(3) الأخبار : 24 / 4 / 1994 م ص 2 .

مصر والسودان ، وكذلك بث بذور الشقاق والخلاف بين السودان والدولة الأريترية الوليدة .

فعلى صعيد العلاقة بين مصر والسودان ، أفلحت القوى الكبرى في إثارة نزاع حدودي بين البلدين حول منطقة « حلايب » المصرية [1] ، مما أدى إلى توتر العلاقات بين الدولتين .

وفي جانب العلاقات السودانية الأريترية ، وصلت الخلافات بين البلدين إلى حد القطيعة التامة وقطع العلاقات الدبلوماسية ، وذلك بسبب الاتهامات الأريترية للسودان بدعم وإيواء المعارضين الأريتريين ، وتدريبهم في معسكرات بالسودان ، خاصة من عناصر « الجهاد الإسلامي » [2] . والواقع أن هذا السلوك من جانب أريتريا يعود إلى محاولتها استغلال الحملة الدولية على السودان لتثبيت وتوطيد دعائم الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا – التي تولت الحكم بمفردها بعد الاستقلال – وهي حركة نصرانية تتجاهل تماما دور الحركات الإسلامية في حرب التحرير ، رغم أن هذه الحركات هي التي تحملت العبء الأكبر والقسط الأوفر من النضال .... يضاف إلى ذلك أن الدولة الأريترية الوليدة ترتبط ارتباطا وثيقا بالكيان الصهيوني الغاصب ، وقد زار الرئيس الأريتري الدولة الصهيونية الغاصبة مرتين في يناير وفبراير 1993 م ، وأعلن في أكثر من مناسبة عن رغبته في أن تأخذ بلاده بالنموذج السياسي والاقتصادي الصهيوني [3] .... من هنا يمكن فهم دوافع الهجوم الأريتري على السودان في إطار الحملة الظالمة على هذا البلد المسلم .

* * *

هذه بعض جوانب الحملة التآمرية على السودان ، يتولى كبرها النظام الدولي الجديد ممثلا في الدول الكبرى – الصليبية اليهودية – وتؤيدها بكل أسف ثلة من الدول الإسلامية دون وعي أو إدراك لخطورة قضية السودان وانفصال جنوبه [4] ....

وفي تقديري أن خطورة هذه القضية تكمن في جوانب عدة ، لعل أهمها : أن قيام

(1) يراجع في تفصيل هذا النزاع : الحدود المصرية السودانية د / أحمد الرشيدي (ضمن ملف منازعات الحدود العربية – العربية) السياسة الدولية : ع 111 يناير 1993 م ص 207 : 213 .

(2) الأهرام ص 1 ، 6 بتاريخ 7 / 12 / 1994 م والأهرام المسائي ص 2 بنفس التاريخ .

(3) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1993 م ص 130 ، 133 .

(4) تجدر الإشارة هنا إلى أن الحكومة السودانية قدمت – للأسف الشديد – تنازلا كبيرا في هذا الميدان ، حينما أعلنت أنها لن تطبق الشريعة الإسلامية في المناطق الجنوبية ، وأن الدستور السوداني لن يذكر أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة . الأمة في عام ص 222 ، الأهرام 31 / 5 / 1994 م ص 6 . وبهذا يتبين بكل أسف أثر الحملات الصليبية اليهودية على الدول الإسلامية لحملها على التخلي عن التوجه إلى الإسلام .

دولة صليبية في جنوب السودان أمر في غاية الخطورة ، من ناحية إسهامه في خطة تطويق العالم الإسلامي من جهة الجنوب ، ومن ناحية أخرى ، تستطيع هذه الدولة في حالة قيامها - لا قدر الله - أن تتحكم في مصر ، قلب الأمة الإسلامية النابض ، عن طريق مياه النيل التي هي شريان الحياة في مصر ، إذ أن مياه النهر تقسم بين الدول الأعضاء في منظمة حوض النيل المعروفة باسم « الإندوجو » بمقتضى اتفاقيات دولية بينها ... ولن تكون الدولة المقترحة في جنوب السودان ملزمة بتطبيق نصوص هذه الاتفاقيات ، مما يعنى إمكانية حدوث تغير إلى الأسوأ ، وهو الأمر المرجح ، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار صليبية هذه الدولة بالإضافة إلى النفوذ اليهودي الكامل في أثيوبيا .

لذا ؛ فإنه من الضروري الحفاظ على وحدة السودان وتماسكه ، وأن تبذل الدول الإسلامية عموما ، والعربية خصوصا (ومصر على وجه أخص) جهودها الحثيثة لمنع قيام دولة مستقلة في جنوب السودان ، قبل أن يأتي يوم نعض فيه أصابع الندم والحسرة ولكن بعد فوات الأوان ..!

2 – الصومال

تعد الأزمة الصومالية الحالية مأساة إنسانية مروعة ومسرحية هزلية بكل ما ينطوي عليه هذان الوصفان من معان ودلالات .... فلم يعرف التاريخ البشري الاستغلال لمآسي الشعوب وتوظيفها في سبيل المصالح والمطامع ، بقدر ما حدث في هذه المأساة البشعة... فالقوى الكبرى في النظام الدولي الجديد لم تكتف بالمساهمة في صنع المأساة؛ بل سارعت إلى توظيفها واستغلالها على أسوأ وجه [1] .

(1) قبل الخوض في سرد وقائع المؤامرة على الصومال في النظام الدولي الجديد ، لابد من العودة إلى الوراء قليلا لتتبع جذور هذه المأساة ومعرفة الأسباب التي أدت إلى بلوغ الحال هذه الدرجة من السوء .

الجذور التاريخية للمأساة الصومالية :

تضافرت مجموعة من الموروثات التاريخية للوصول بالصومال إلى الوضع المأساوي الحالي سأذكر فيما يلي أهم تلك العوامل :

1 – يمثل الصومال موقعا استراتيجيا بالغ الأهمية ، من حيث تحكمه في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر من الجانب الأفريقي ، فهو يمتلك شاطئا يبلغ 600 ميل على خليج عدن ، وحوالي 1200 ميل على المحيط الهندي ، مما جعله صيدا ثمينا للقوى الاستعمارية قديما وحديثا فقد احتلت فرنسا جزءًا من الصومال ، كان يطلق عليه « الصومال الفرنسي » ثم أعلن استقلاله ممثلا في دولة « جيبوتي » الحالية ، كما احتلت بريطانيا الجزء الشمالي من الصومال وإيطاليا الجزء الجنوبي منه ... ورغم حصول الصومال على الاستقلال عام 1960 م إلا أن الميراث الاستعماري ظل يلقي بظلاله على مسار الأحداث في هذا البلد مثلما حدث من إيطاليا التي ساهمت ماديا ومعنويا وألقت بثقلها خلف حزب « وحدة الشباب الصومالي » ليفوز في الانتخابات ويقوم بتشكيل الحكومة ، لأنه يعمل لصالحها ويحقق لها أهدافها .

2 – ساهم الميراث الاستعماري البغيض في إيجاد هوة عميقة تفصل بين جنوب الصومال وشماله نظرا لاختلاف اللغة والأنظمة التشريعية والإدارية بين الجنوب الذي كان خاضعا للاستعمار الإيطالي ، والشمال الذي كان خاضعا للاستعمار البريطاني ، وقد كان استئثار الجنوبيين بالسلطة ، وتركيز الثروة القومية في الجنوب فقط ، سببين أساسيين في شعور الشماليين بالغبن الفادح والظلم الواضح ، واستقر في نفوسهم هاجس الانفصال والاستقلال ، محققين بذلك حلما سعى إليه الاستعمار وسانده بكل قوة ، ولولا أن السلطة المركزية في الجنوب عاملت الشماليين بمنتهى القسوة والتعسف لما تأخر انفصال الشمال وإعلان دولته المستقلة إلى ما بعد سقوط النظام العسكري وانهيار الدولة في مطلع التسعينات ، حيث استغل الشماليون احتدام المعارك الطاحنة بين الفصائل المتناحرة في الجنوب ، وأعلنوا استقلال الشمال وقيام جمهورية أرض الصومال في مايو 1993 م .

3 – كانت الصومال موضع منافسة حامية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق في إطار سعي كل منهما لتوسيع نطاق نفوذه إبان الفترة التي كان يطلق عليها الحرب الباردة « وفي البداية كان النفوذ الأكبر للاتحاد السوفييتي في الصومال في مقابل النفوذ الغربي التقليدي في الحبشة « أثيوبيا » ، ثم بعد قيام الثورة الأثيوبية وإعلان التوجه الماركسي فيها انتقل النفوذ السوفييتي من الصومال إلى أثيوبيا ، مما كان له الأثر الأكبر في هزيمة ساحقة للصومال في حرب الأوجادين الثانية بين الصومال وأثيوبيا (1977 - 1978 م) .

وبعد الانهيار السوفييتي المروع في نهاية 1991 م أصبحت الساحة خالية أمام القوى الغربية وعلى رأسها بالطبع الولايات المتحدة الأمريكية لإعادة ترتيب الأوضاع في منطقة القرن الأفريقي بما يتواءم ومصالحها وأطماعها ، الأمر الذي نتج عنه تلك التطورات التي حدثت في أثيوبيا ، واستقلال أرتريا ، وانهيار الصومال وتفتته .

4 – عاشت الصومال تحت الحكم العسكري الاستبدادي ، الذي أدى بالبلاد إلى منحدر سحيق من الفشل الاقتصادي =

وقائع المؤامرة الدولية في المأساة الصومالية :

ليس أدل على حجم المأساة المروعة في الصومال من تلك الإحصائيات المنشورة بعد عام واحد فقط من بداية الكارثة ، فقد لقي 300 ألف شخص مصرعهم نتيجة الحرب والجوع ، وتهدد المجاعة 2 مليون شخص بصفة مباشرة ، بينما يموت بالفعل 3 آلاف شخص يوميا ، وتقدر نسبة السكان الذين هم بحاجة إلى مساعدات غذائية عاجلة بـ 70% من الشعب البالغ 6,5 مليون نسمة [1] .... ثم ارتفعت هذه الأرقام في بداية يناير 1994 م لتصل إلى 500 ألف قتيل و 2 مليون مشرد داخل الصومال وخارجه [2] .

وكعادة القوى الاستعمارية في استغلال مآسي الشعوب وتوظيفها بما يضمن المصالح والمطامع الاستعمارية البغيضة ، نهضت تلك القوى تحت ستار من الأمم المتحدة وتحت شعارات براقة عن الإنسانية والرحمة والعطف ، نهضت لتحقيق أهداف استعمارية دفينة ، كما سيتضح من السطور التالية :

= والعسكري ، ومن النزاع العشائري والقبلي ، مما كان له الدور الحاسم في وصول الصومال إلى هذه الحالة المأساوية ... فالحكم العسكري - في سبيل توطيد دعائمة وتثبيت سلطانه - سعى إلى إحياء النعرات القبلية والنزاعات العشائرية ، كما جرَّ البلاد بتشجيع من القوى الكبرى - إلى حروب فاشلة ، بدون تخطيط واستعداد ، وتحت شعارات وطنية براقة ، لا لشيء إلا لإلهاء الشعب بإثارة عواطفه الوطنية وتطلعه لتحقيق الوحدة الصومالية الكبرى من خلال استعادة الأقاليم الصومالية الضائعة في أثيوبيا وجيبوتي وكينيا .

ولكن الفشل المتوالي والانكسار المتواصل في هذا المضمار ، أدى إلى قيام عدة منظمات معارضة جعلت إسقاط نظام حكم « محمد سياد بري » هدفها الأول والأخير ، ولكن هذه المنظمات قامت على أساس قبلي وانتماء عشائري صرف مما تسبب في هذه الفوضى التي أعقبت سقوط نظام « سياد بري » في ديسمبر 1991 م .

تآزرت هذه العوامل ، وأسهمت جميعها في حدوث المأساة المروعة التي يعيشها هذا البلد المنكوب في الآونة الأخيرة .

يراجع في تفصيل هذه الجذور التاريخية للمأساة الصومالية :

* الأمة في عام ص 225 : 227 . انهيار الدولة في الصومال د / نجوى أمين الفوال / السياسة الدولية ع 112 أبريل 1993 م التقرير الاستراتيجي العربي 1993 ص 112 : 116 .
* الأزمة الصومالية الحالية ... طبيعتها وأسبابها / إجلال محمود رأفت . مستقبل العالم الإسلامي ع 8 خريف 1992 م ص 81 : 109 .

وللوقوف على أعداد وطبيعة وأهداف الفصائل الصومالية ، يراجع :

* الأزمة الصومالية الحالية ... مصدر سبق ذكره ص 83 : 91 .
* الأمة في عام ص 227 : 230 .

(1) ينظر : الأمم المتحدة تبدأ التحرك لإنقاذ الصومال (مقال) عطية عيسوي / الأهرام ص 6 بتاريخ 4 / 12 / 1992 م.

(2) من الأهرام ص 5 في 1 / 1 / 1994 م رسالة أديس أبابا / هشام فهيم . وينظر ملف : الصومال ... المأساة المنسية إعداد : الآفاق الدولية للإعلام - القاهرة 1993 ص 4 .

1 – حقيقة التدخل الغربي في الصومال ودوافعه الخفية :

اختلفت الأسباب والدوافع التي حدت بالدول الكبرى إلى التدخل في الصومال مع اتحادها في الهدف النهائي ، ويرجع اختلاف الدوافع إلى رؤية كل دولة لطبيعة دورها وحجم مصالحها في هذا البلد ، على النحو التالي :

أ – الولايات المتحدة الأمريكية :

تنوعت دوافع وأسباب التدخل الأمريكي في الصومال ، ما بين سياسية واقتصادية وعسكرية :

أولًا : الموقع الاستراتيجي لمنطقة القرن الأفريقي عمومًا والصومال على وجه الخصوص ، وهو دافع قوي لكي تضع أمريكا أقدامها في هذه المنطقة الحيوية من العالم ... لذا قامت بحشد قواتها وتدخلت في الصومال ، ووقفت إلى جانب الرئيس المؤقت علي مهدي محمد ، لكونه عميلًا أمريكيًا مناسبًا ، يتفهم المصالح الأمريكية ويرحب بالتواجد العسكري الأمريكي [1] .

ثانيًا : الدوافع الاقتصادية البترولية ، حيث تفيد الدراسات التي قامت بها شركة « كونوكو » الأمريكية والأخرى التي قام بها البنك الدولي عن مستقبل الثروة البترولية في بعض الدول الأفريقية ، أن الصومال والسودان يحتلان المركز الأول في قائمة الدول ذات المستقبل الباهر في مجال البترول .... وتوجد أربع شركات بترولية أمريكية في الصومال هي « كونوكو » و « أمكو » و « فيليبس » و « شيفرون » ، وتعد الأولى أهم هذه الشركات ، حيث لا يزال مكتبها مفتوحًا في « مقديشيو » رغم الخراب والدمار الذي لحق بالمدينة ، بل أصبح هذا المكتب المقر الفعلي الجديد للسفارة الأمريكية في الصومال ، وقد ذكر « ريمون مارشان » المسئول عن مكتب الشركة في الصومال أسباب بقائه فيها رغم الأهوال والمآسي قائلًا : بقينا هنا لأهمية هذا البلد لشركتنا ، ومن أجل الدفاع عن أعمالنا ومصالحنا [2] .

ثالثًا : الرغبة في التواجد الفعال في قلب هذه المنطقة للضغط على السودان وتطويقه

---

(1) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 161 . التقرير الاستراتيجي العربي 1993 م ص 125 . الأزمة الصومالية وعام من التدخل الدولي د / نجوى الفوال . السياسة الدولية : ع 115 يناير 1994 م ص 66 .

(2) يراجع : مأساة الصومال بين الدوافع الإنسانية والدوافع البترولية – سعد الدين وهبة / الأهرام 26 / 6 / 1993م ص 16 . الأزمة الصومالية وعام من التدخل الدولي – مصدر سبق ذكره 66 . ملف الصومال – مرجع سابق ص 77 ، 78 ، 79، 170.

من خلال النفوذ الأمريكي في الصومال وأريتريا ، خاصة بعد الحديث المتكرر في أمريكا عن اتصالات سودانية مع الجنرال « محمد فارح عديد » [1] .

رابعا : الخطة الأمريكية البعيدة المدى الرامية إلى بناء نظام جديد في المنطقة الإسلامية العربية يخدم مصالحها وأهدافها .... من هذا المنطلق يمثل الصومال وأثيوبيا أهمية كبرى للولايات المتحدة .... فالصومال بسواحله الممتدة على المحيط الهندي وخليج عدن ، وبأراضيه الملتفة حول جنوب شرق أثيوبيا يمثل عمقا استراتيجيا هاما لمصر والسودان .... أما أثيوبيا فهي تملك منابع النيل الأزرق الذي يغذي مصر بـ 80 % من احتياجاتها من المياه ، ومن ثم تصبح أثيوبيا ورقة رابحة في يد الولايات المتحدة ، وتضغط بها على مصر وتحاصرها من الجنوب ... وجدير بالملاحظة أن الولايات المتحدة كانت قد قامت بدراسات لإقامة سدود على روافد النيل الأزرق وبحيرة « تانا » في سنة 1956 م ، كما تقوم الدولة اليهودية الغاصبة بتنفيذ بعض تلك الدراسات للتوسع في مشروعات زراعية وكهربائية ؛ مما يؤثر – بطبيعة الحال – على نصيب مصر من مياه النيل [2].

خامسا : الرغبة الأمريكية في تقديم نفسها على المسرح الدولي باعتبارها بطل اللعبة والمتحكم الأوحد في تسيير دفة الأحداث العالمية وإدارة محركاتها ، والرغبة الأمريكية كذلك في الظهور بمظهر أخلاقي إنساني ، حريص على حياة البشر وانتشالهم من وهدة المجاعة القاتلة .

هذه أهم أسباب التدخل الأمريكي في الصومال [3] ، وهي – كما هو واضح – بعيدة كل البعد عن الأسباب الإنسانية المعلنة ، والتي ما فتئت وسائل الإعلام تمتدحها وتثني عليها ، دون أن تجهد نفسها في البحث عن الخلفيات والدوافع الحقيقية .

ب – إيطاليا :

سبقت الإشارة إلى أن إيطاليا كانت إحدى الدول الاستعمارية في الصومال ، وأنها أبقت على نفوذها وسيطرتها حتى ما بعد الاستقلال ، من خلال دعم الحزب الذي يرعى مصالحها ويحقق أطماعها ... لذا سارعت إيطاليا بالمشاركة فيما أطلق عليه « عملية إعادة الأمل في الصومال » حتى لا تترك الساحة خالية أمام الولايات المتحدة لتفعل ما تشتهي

---

(1) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 م ص 161 . الأزمة الصومالية الحالية ص 104 . الأهرام 20 / 8 / 1993 م ص 1 .

(2) الأزمة الصومالية الحالية .. ص 104 بتصرف .

(3) يذكر التقرير الاستراتيجي العربي 1992 م ص 161 سببا آخر يعود إلى طبيعة الرئيس الأمريكي السابق « جورج بوش » ورغبته في تأكيد قوة إرادته في بسط الهيمنة الأمريكية على العالم .

وتتصرف كما تريد ، الأمر الذي يهدد المصالح الإيطالية في الصومال [1] .

كما لا يمكن إغفال المصالح البترولية ، حيث كانت شركة « أجيب » البترولية الإيطالية تعمل في الصومال بموجب امتيازات حصلت عليها للتنقيب وإنتاج البترول في بعض المناطق البرية والبحرية ، ولم تشأ إيطاليا أن تترك الكعكة بأكملها للشركات الأمريكية والفرنسية ، خاصة أن شركات هاتين الدولتين قد حصلت على امتيازات أكبر كثيرا من الشركة الإيطالية ، من هنا بادرت إيطاليا بالمشاركة في التدخل الغربي حتى لا تضيع الامتيازات السابقة بالإضافة إلى التفاوض مع حكومة المستقبل في الصومال على امتيازات جديدة [2] .

وقد دأبت إيطاليا على انتقاد الولايات المتحدة والأمم المتحدة ، بسبب الهيمنة الأمريكية المطلقة على عمليات الأمم المتحدة في الصومال ، وتجاهل الدور الإيطالي تجاهلا تاما ، مع أنها ترى في نفسها الجانب الأكثر خبرة ودراية بالواقع الصومالي ، نظرا لأنها كانت إحدى الدول المستعمرة للصومال . وقد طالبت إيطاليا بالمشاركة في القيادة العليا للقوات الدولية بأن تضم في تشكيلها أحد الضباط الإيطاليين ، وكادت تحدث أزمة حينما هاجم القائد الإيطالي الجنرال « برونولوى » عملية-ملاحقة الجنرال « محمد فارح عديد » وما تسببت فيه من قتل المدنيين وإضفاء الطابع العسكري على العملية الدولية ، وطلبت إيطاليا رسميا من الأمم المتحدة القيام بعملية تناوب القيادة الدولية ، ونقل كتيبتها إلى شمال الصومال ... حينئذ طلبت الأمم المتحدة سحب الجنرال « لوي » وإعادته إلى إيطاليا واتهمته بعدم التعاون مع القيادة الدولية ، إلا أنها عادت وتراجعت عن هذا المطلب بعد ما أدركت خطورته على العملية كلها [3] .

ومن البدهي أن يدرك المرء إدراكا تاما أن هذه الاعتراضات الإيطالية لم تكن مدفوعة بالخوف على حياة المدنيين ، وإنما كانت بهدف تحقيق توازن بين الجانبين : الأمريكي والإيطالي ، حفاظا على المصالح الإيطالية ، والدليل على ذلك أن إيطاليا قد انحازت إلى جانب الرئيس المؤقت « علي مهدي » وفتحت سفارتها في الجزء الذي يسيطر عليه من العاصمة [4] : وذلك لأنه كان يرحب بالتدخل الغربي ويتفهم المصالح الغربية ، بينما

(1) يراجع : الأزمة الصومالية وعام من التدخل الدولي ص 66 , 67 .

(2) ينظر : مأساة الصومال بين الدوافع الإنسانية والدوافع البترولية مصدر سبق ذكره .

(3) يراجع في تفصيل ذلك : التقرير الاستراتيجي العربي 1993 م ص 126 ، ملف : الصومال ص 112 . 120 .

(4) ينظر : الأمة في عام ص 233 .

كان خصمه الجنرال « عيديد » يعارض التدخل الأجنبي في بلاده ، ويرى أن حل الأزمة الصومالية بيد الصوماليين وحدهم [1] .

جـ – فرنسا :

كان التدخل الفرنسي في الصومال محدودا إذا ما قورن بمثيله الأمريكي أو الإيطالي ، ويعود ذلك إلى أن المنطقة التي كانت تحتلها فرنسا في الصومال أصبحت منذ عام 1974م دولة مستقلة تحمل اسم « جيبوتي » ، وتتركز فيها المصالح الفرنسية في منطقة القرن الأفريقي ، حيث تحتفظ بتواجد عسكري دائم هناك ، بالإضافة إلى اتفاقية دفاعية تم تجديدها عام 1991 م تحتفظ فرنسا بمقتضاها بقاعدة بحرية و 4000 جندي في جيبوتي التي يتكون جيشها من 3900 جندي فقط بما فيها قوات الشرطة [2] .

« من هنا كانت المصالح الفرنسية في جيبوتي وراء القرار الفرنسي بالمشاركة في القوات الدولية المتدخلة في الصومال ، خوفا من سريان العدوى إلى تلك المنطقة التي تعاني بالفعل من اضطرابات وقلاقل عرقية وسياسية ، ولكن الخوف من التورط في الأزمة الصومالية بعد الانسحاب الأمريكي قد دفع فرنسا إلى تحديد نهاية ديسمبر 1993 م موعدا لسحب قواتها المشاركة في العملية الدولية هناك . » [3] .

د – بريطانيا :

منذ اللحظة الأولى للتدخل العسكري الدولي في الصومال ، عزفت بريطانيا عن المشاركة في القوات الدولية المتحالفة تحت القيادة الأمريكية ، وبررت ذلك بمواجهتها لمصاعب اقتصادية بالداخل .... والواقع أن هذا الموقف يعكس استشعار بريطانيا – الدولة الاستعمارية السابقة لإقليم الصومال البريطاني – أن الأحوال داخل هذا الإقليم قد سارت في طريق الاستقرار بعد إعلان انفصاله تحت اسم « جمهورية أرض الصومال » ، ومن ثم ، فإن المصالح البريطانية المباشرة ليست محلا للتهديد [4] .

* * *

---

(1) يراجع في هذا : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 م ص 158 : 161 .

التقرير الاستراتيجي العربي 1993 م ص 119 , 120 , 125 الأمة في عام ص 227 , 233 , 234 .

(2) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1993 م ص 117 .

(3) الأزمة الصومالية وعام من التدخل الدولي ص 69 . (4) المرجع السابق ص 68 بتصرف يسير .

يتبين من خلال الاستعراض السابق أن المصالح الاستعمارية – الصليبية اليهودية – كانت الدوافع الحقيقية للتدخل في الصومال ، ولم تكن بحال من الأحوال دوافع إنسانية ... فأين أوروبا وأمريكا ، بل أين الحضارة الغربية المادية من الإنسانية والرحمة والشفقة بالمسلمين ؟!

2 – الجانب التنصيري الصليبي في الحملة الغربية على الصومال :

لم يكن غريبا ولا عجيبا اكتشاف الدور التبشيري الصليبي في الحملة الغربية على الصومال ، فهذه طبيعتهم وتلك سجيتهم التي حدثنا عنها القرآن الكريم في قول المولى تبارك وتعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ... ﴾ (1) وقوله سبحانه : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ... ﴾ (2) .

وتصديقا لحديث القرآن الكريم عن الطبيعة النفسية لأعداء الله ورسوله ﷺ ، قامت قوات الدول الغربية الصليبية بواجبها التبشيري خير قيام ، حيث قامت بتوزيع ما يسمونه « الإنجيل » وكتب نصرانية أخرى ومنشورات تتناول محاسن النصرانية كما افتتح الإيطاليون إذاعة خاصة تحث على ممارسات يأباها الإسلام ويحاربها أيما محاربة ، وفعل الأمريكيون مثلهم ، كما تفشت ظاهرة الصلبان التي يرفعها أفراد القوات الدولية الذين يسكنون عمارات عالية في مختلف أحياء مقديشيو .... وقد قامت الإذاعة التابعة للجنرال « محمد فارح عديد » بتحذير المواطنين من هذه المنشورات والكتب والبرامج الإذاعية ، وتناولتها بالشرح والنقد ، مما أغضب القوات الغربية الصليبية ، وجعلها تشن حملة على الجنرال عديد وأنصاره (3) .

3 – الجريمة الكبرى : دفن النفايات النووية والسامة في الأراضي الصومالية :

على الرغم من خطورة هذه الجريمة وكونها نقطة سوداء في جبين الإنسانية والحضارة إلا أنها لم تأخذ حقها من الدراسة والبحث ، والعجيب في أمر هذه الفضيحة أن الحديث عنها قد انتهى تماما بعد إثارته بأيام قليلة وكأن شيئا لم يكن ...

ففي شهر سبتمبر من عام 1992 م كشف الدكتور / مصطفى طلبه المدير التنفيذي

---

(1) سورة البقرة جزء من الآية 109 . (2) سورة النساء جزء من الآية 89 .

(3) الحقيقة الغائبة في الصومال / المسلمون ع 437 في 28 من ذي الحجة 1413 هـ – 18 يونيو 1993 ص 4 وينظر ملف الصومال ص 23 , 99 , 102 .

لبرنامج البيئة التابع للأمم المتحدة عن تفاصيل هذه المأساة ، كما أضافت مجلة فرنسية معلومات جديدة عنها ، واكتفت الأمم المتحدة بالإعلان عن إجراء تحقيق في هذه الفضيحة [1] . كان ذلك في 11/ 9/ 1992 م ، ومن يومها لم يتحدث أحد مرة أخرى عن هذا الموضوع ، رغم خطورته البالغة ليس على الجيل الحالي من الصوماليين فحسب ، بل على جميع الأجيال اللاحقة .

4 – القوات الدولية تنتهك حقوق الإنسان وتقتل الصوماليين دون حسيب أو رقيب :

ارتكبت القوات الدولية عامة والقوات الأمريكية خاصة جرائم عديدة في حق الشعب الصومالي البائس فانتهكت أبسط قواعد حقوق الإنسان ، وقامت بعدة مجازر راح ضحيتها آلاف من المدنيين .. وقد صدرت الإدانة للقوات الدولية من جهات دولية رسمية ، ففي تقرير وضعته لجنة تحقيق تابعة للأمم اتهم كلا من المنظمة الدولية والولايات المتحدة باتباع سياسات مضللة في الصومال ، وطالب بتعويض أهالي الصوماليين المدنيين الذين قتلوا أو أصيبوا أثناء عمليات مطاردة الجنرال عيديد بمقديشيو ، ووجه التقرير انتقادات حادة لكل من أمريكا وإيطاليا لانتهاجهما سياسات خاصة بهما في الصومال [2] .

وقبل ذلك كان تقرير صادر عن الوحدة القانونية لبعثة الأمم المتحدة في الصومال قد انتقد بشدة القوات الأمريكية لتحويلها العملية الإنسانية إلى عملية عسكرية بحتة حينما تورطت في عمليات عسكرية مع بعض الفصائل الصومالية [3] .

كما تحدثت منظمة حقوق الإنسان « أفريكارايتس » عن انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان ترتكبها القوات الدولية [4] وقد نتج عن غلبة الطابع العسكري على عمليات الأمم المتحدة ، أن سقط آلاف من الصوماليين صرعى أو جرحى ، حيث قدر اثنان من كبار المسئولين الأمريكيين في 8/ 12/ 1993 م عدد الضحايا بـ 10 آلاف شخص ما بين قتيل وجريح خلال 4 شهور فقط ، بينما ذكر الجنرال عيديد أن عدد القتلى يبلغ 3 آلاف والمصابين 9 آلاف شخص .. [5] .

---

(1) السياسة الدولية ع 111 يناير 1993 م شهريات الأحداث الدولية سبتمبر 1992 م ص 330 / ملف الصومال ... ص 37 .

(2) الأهرام 1 / 4 / 1994 م ص 4 .

(3) ينظر : السياسة الدولية ع 114 أكتوبر 1993 م نشاط الأمم المتحدة ص 315 . والأهرام 6 / 8 / 1993 م ص 4 . وثبت ارتكاب القوات الدولية جرائم القتل والاغتصاب ينظر ملف الصومال ص 141 .

(4) ينظر : السياسة الدولية المرجع السابق ص 315 ، ملف الصومال .... ص 110 .

(5) ينظر : السياسة الدولية ع 116 أبريل 1994 م ونشاط الأمم المتحدة ص 345 .

5 – الأمم المتحدة .. القناع الزائف في المأساة الصومالية :

سبق أن ناقش البحث قضية دور الأمم المتحدة في النظام الدولي الجديد ، وانتهى إلى أن الدول الكبرى كانت ، ولا تزال وستظل تستخدم الأمم المتحدة كغطاء دولي براق ، أو كقناع زائف ، تضفي به مسحة من الشرعية المزعومة على تحركاتها وسعيها وراء مصالحها ومطامعها .. كان ذلك أثناء الحديث عن دور الأمم المتحدة في أزمة الخليج الثانية .

وهنا في المأساة الصومالية ، تكتسي هذه القضية ثوب الوضوح التام ، فالأمم المتحدة لم تبدأ التحرك لإنقاذ الصومال إلا بعد فترة طويلة من سقوط نظام « سياد برى » وحدوث الفوضى الشاملة في البلاد ، وكان التحرك ضعيفا لم يزد عن جملة قرارات في مجلس الأمن تحث على المصالحة وتدعو إلى وقف إطلاق النار ثم تطور الأمر إلى إرسال قوات قليلة العدد بلغت 3500 جندي بمقتضى القرار 575 . [1] .

وظل الحال هكذا إلى أن عرضت الولايات المتحدة التدخل بـ 30000 ألف جندى في الصومال فصدر القرار 794 في ديسمبر 1992 م ، الذي أشار في مقدمته إلى أن الموقف في الصومال يعتبر حالة فريدة استثنائية ، وأنه يشكل تهديدا للسلم والأمن الدوليين ، لذا يتحرك المجلس وفقا للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ، ويسمح للسكرتير العام والدول الأعضاء باستخدام كافة الوسائل الضرورية من أجل توفير بيئة آمنة في أسرع وقت ممكن لعمليات الإغاثة الإنسانية في الصومال .... وأعطى القرار صلاحية الإشراف على القوات للأمم المتحدة من خلال مجلس الأمن والسكرتير العام ، كما نص على قيام مجلس الأمن بإرسال مبعوث خاص إلى الصومال لوضع تقرير عن الإنجازات التي تمت ، وكذلك على أن يلحق ضابط اتصال من قبل الأمم المتحدة بمركز العمليات الرئيسي .

ويلاحظ على هذا القرار أنه لم يشر صراحة إلى أن التدخل كان لأسباب إنسانية وإنما أشار إلى أن الحالة في الصومال تمثل تهديدا للسلم والأمن الدوليين ، مما أتاح استخدام الفصل السابع من الميثاق والذي يجيز استخدام القوة في حالات تهديد السلم الدولي ، ومن هنا تمكنت الولايات المتحدة من الحصول على صلاحيات غير محددة من مجلس الأمن ، ودون قيود على تعريف المهمات أو الإطار الزمني للعملية . بمعنى آخر أصبحت الولايات المتحدة طليقة اليدين في الصومال ، أما إشراف الأمم المتحدة على العملية فقد

---

(1) يراجع : الأمة في عام ص 232 . التقرير الاستراتيجي العربي 1992 م ص 39 , 40 .

* الدور المصري الغائب في الصومال (مقال) سعد الدين وهبة الأهرام 24 / 7 / 93 ص 19 .

أصبح حبرا على ورق ، بعد أن منحت الولايات المتحدة الأمين العام صلاحيات رمزية ، لا تخرج عن مشاركته في وضع ترتيبات وهياكل القيادة الموحدة ، دون التدخل المباشر في آليات التنفيذ ..

انطلاقا من هذا التفويض الدولي ، تصرفت الولايات المتحدة في الصومال وفق مصالحها وأطماعها فتمركزت قواتها في المناطق الحيوية ، وقامت بأكبر عملية تمشيط ضد العناصر التي لا تحظى بالرضا الأمريكي ، ونزعت سلاحها ، بينما أبقته في أيدي القوات الأخرى التي تحظى بدعمها ورضاها متجاهلة بذلك خطة الأمم المتحدة لنزع أسلحة جميع الفصائل .

كانت هذه هي المرحلة الأولى للتدخل في الصومال ، والتي أطلق عليها « إعادة الأمل » أو « يونيصوم 1 » ، ثم جاءت المرحلة الثانية التي أطلق عليها « يونيصوم 2 » وتسلمت الأمم المتحدة رسميا قيادة القوات الدولية بمقتضى قرار مجلس الأمن رقم 814 في 26 / 3 / 1993 م ، الذي استند هو الآخر إلى الفصل السابع من الميثاق ... ولكن الهيمنة الفعلية على قيادة العملية كانت بيد الولايات المتحدة التي واصلت انتهاج سياستها الخاصة ، مما أثار الجانب الإيطالي وأشاع التذمر في صفوف كافة القوات الأخرى .

وتتجلى الهيمنة الأمريكية المطلقة على العملية الدولية في الصومال في انسياق المنظمة الدولية خلف الولايات المتحدة في ملاحقة ومطاردة الجنرال عيديد ، بمقتضى القرار 837 في 6 / 6 / 1993 م ، ورصد مكافأة مقدارها 100 ألف دولار لمن يدلي بمعلومات عن مكان وجوده أو يقتاده إلى مقر قيادة « يونيصوم 2 » .... ثم عادت الأمم المتحدة وتراجعت في نوفمبر 1993 م عن ملاحقة عيديد طبقا للرغبة الأمريكية أيضا [1] .

وقد ظلت الأمم المتحدة تتخبط في الصومال ، وتنسحب قوات الدول المشاركة في العملية تباعا إلى أن انسحبت القوات الدولية نهائيا في مارس 1995 م بعد فشلها في تحقيق أي من الأهداف المعلنة المحددة لها [2] .

يتضح مما تقدم أن الأمم المتحدة في المأساة الصومالية لم تكن إلا مجرد أداة بيد القوى الكبرى ، أو مجرد قناع زائف تتخفى وراءه المصالح والمطامع والأهداف الحقيقية للتدخل الغربي في الصومال .

---

(1) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1993 م ص 124 : 127 .

(2) ينظر : الصومال ... ما بعد التدخل الدولي د / نجوى أمين الفوال / السياسة الدولية ع 121 يوليو 1995 م ص 143 ، 144 .

6 – **الخطوة الأخيرة .. تفتيت الصومال وتقطيع أوصاله :**

عند الحديث عن الجذور التاريخية للمأساة الصومالية ، أشار البحث إلى أن الصومال كان مقسما بين الاستعمار الفرنسي والبريطاني والإيطالي ، وأن الجزء الفرنسي قد أعلن استقلاله ممثلا في دولة جيبوتي ، وأن الحكم العسكري والميراث الاستعماري قد ساهما بعد استقلال البلاد عام 1960 م في حدوث فجوة بين الجزئين : الشمالي والجنوبي ، نتج عنها رسوخ عقيدة الانفصال لدى الشماليين ، وما أن سنحت لهم الفرصة بعد سقوط « سياد برى » وحدوث الفوضى في الجنوب حتى سارعوا إلى إعلان الانفصال وقيام جمهورية أرض الصومال وعاصمتها « هرجيسيا » ، برئاسة « عبد الرحمن علي تور » عام 1991 م .

وحظيت هذه الخطوة بتأييد غير علني فقد « أدى تجاهل القوى الدولية لانفصال الإقليم الشمالي تحت اسم « جمهورية أرض الصومال » إلى اكتسابه فرصة لتدعيم هذا الانفصال وإقامة نوع من الحكم المركزي ، باتفاق العشائر والقبائل المكونة للإقليم ، واقتسام السلطة فيما بينها . ورغم عدم الاعتراف الدولي بالجمهورية الجديدة ، وما يعنيه ذلك من الانتقاص من شرعيتها ، إلا أن صمت الأمم المتحدة والقوى العالمية المتداخلة تحت لوائها تجاه ما يحدث في الإقليم الشمالي يشير إلى الاتجاه الدولي غير الرافض للانفصال . كذلك فإن استقرار الأوضاع في هذا الإقليم ، وتشكيل حكومة له ، ووجود رئيس للجمهورية ومجلس للشيوخ ، يعكس جدية القوى الشمالية في الانفصال والمضي فيه إلى آخر المطاف ، كما أنه لم يمنح القوات الدولية الذريعة اللازمة لتدخلها العسكري فيه [1] » .

يضاف إلى هذا ما يثار من شكوك قوية حول دعم كل من بريطانيا وفرنسا لا نفصال شمال الصومال عن جنوبه ، وقد عبر عن هذا « محمد عبدي حاشي » رئيس الحزب الصومالي المتحد ، الذي طالب نائب وزير الخارجية الإيطالي « كارميلو إسارا » بإقناع كل من بريطانيا وفرنسا بالإقلاع عن دعمهما لانفصال الإقليم الشمالي [2] .

ثم تطورت الأمور إلى الأسوأ حينما أعلنت الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال التي تسيطر على الشمال الشرقي انفصالها عن الجزء الشمالي الغربي ، وقام رئيس الجبهة محمد أبشر بتعيين رئيس لإدارة الحكم الذاتي في المنطقة.التي اتخذت مدينة « بوصاصو »

---

(1) الأزمة الصومالية وعام من التدخل الدولي ص 64 بتصرف .

(2) ورد ذلك في حديث لصحيفة الأهرام في 21 / 2 / 1994 م ص 6 كما أن أمريكا أيضا تدعم انفصال الشمال لرغبتها القديمة في الحصول على تسهيلات بحرية في ميناء بربرة .. ينظر ملف الصومال ص 7 .

عاصمة لها ، وقام رئيس الإدارة بتشكيل مجلس لإدارة المنطقة يعد أعضاؤه بمثابة الوزراء المختصين ، وأعلن أنه لن يعترف بأي إجراء يتخذ في شمال شرق الصومال ما لم تتم استشارته ، مما يعني تكوين دولة ثالثة في الصومال [1] ...

أي مزيدا من التفتت والتجزئة وتقطيع الأوصال في البدن الصومالي .

7 – دول الجوار ودورها في استثمار الأزمة الصومالية :

استفادت الدول المجاورة للصومال من أزمته ، وأحسنت استثمارها للأسف الشديد فيما يفيدها ويحقق أغراضها وأهدافها ، بصرف النظر عن عمق المأساة التي يكابد الشعب الصومالي مشاقها ومتاعبها :

أ – أثيوبيا :

تعد أثيوبيا أكثر الدول استفادة من المأساة الصومالية ، حيث يهمها في المقام الأول والأخير أن يبقى الصومال ضعيفا مفتتا ، حتى لا ينهض مرة أخرى للمطالبة بإقليم الأوجادين والصومال الغربي الذي أصبح جزءًا من الأراضي الأثيوبية بعد الهزيمة الصومالية القاسية في حرب الأوجادين الثانية (77 / 1978) ، لذا أبدت أثيوبيا اغتباطها وارتياحها عندما قررت الحركة القومية الصومالية إعلان استقلال شمال الصومال وإقامة دولة جمهورية أرض الصومال فيه واكتفت أثيوبيا بإعلان بعض التحفظات الشكلية حفاظا على صورتها ومصالحها [2] .

ومن المفارقات الطريفة هنا أن أثيوبيا حصلت على تفويض من منظمة الوحدة الأفريقية ببذل الجهود لتحقيق المصالحة الصومالية والبحث عن حل للمأساة التي يعانيها هذا البلد ، ووجه المفارقة والعجب أن أثيوبيا التي تحرص على بقاء الصومال ضعيفا مفككا يناط بها البحث عن حل لهذا الضعف والتفكك .

ب – جيبوتي :

الدولة التي تجمعها بالصومال رابطة الأخوة الإسلامية والعربية لجأت هي الأخرى – شأنها شأن أثيوبيا – إلى استثمار الأزمة الصومالية فيما يعود عليها بالنفع والمصلحة ،

(1) يراجع : الأمة في عام ص 229 , 230 .

(2) يراجع : الأمة في عام ص 230 , 231 . التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 121 . انهيار الدولة في الصومال د .نجوى الفوال . السياسة الدولية ، مرجع سابق ص 24 , 25 .

حيث تقوم جيبوتي على أساس عرقي ، فتسيطر قبائل « العيسى » على رئاسة الدولة ، بينما تسيطر قبائل « العفر » على منصب رئاسة الوزراء – وهو محدود الصلاحيات مقارنة بمنصب الرئاسة – ونظرا لامتداد قبائل العيسى في شمال الصومال فإن جيبوتي سعت باستمرار لدعم « العيسى » في الشمال الصومالي لكي تمكن تلك القبائل من مواجهة الحركة الوطنية الصومالية التي تسيطر على شمال البلاد .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن من مصلحة جيبوتي أن تظل قبائل « العيسى » في موقع القوة ، حتى تظل شوكة قبائل « العفر » ضعيفة في مواجهتها ، خاصة وأنهم يسعون للحصول على امتيازات جديدة في جيبوتي . ومن هنا يمكن فهم الصراع الدائر بين جمهورية أرض الصومال من ناحية وجيبوتي من ناحية أخرى حول مناطق شمال الصومال الغنية بالبترول .

وإلى جانب تلك السياسة الرامية إلى الاحتفاظ بمنطقة نفوذ لجيبوتي في شمال الصومال ، حاولت – في الوقت ذاته كما فعلت أثيوبيا – القيام بدور في المساعي الحميدة للتوفيق بين الأطراف الصومالية المتنازعة [1] .

جـ – كينيا :

من مصلحة كينيا هي الأخرى أن يبقى الصومال ضعيفا مفتتا ، حتى لا يتمكن من المطالبة باستعادة إقليم صومالي صرف يقع داخل الأراضي الكينية ويرمز له بالحرف اللاتينية (N . F D) كانت السلطات الاستعمارية البريطانية قد اقتطعته من الصومال وضمته إلى كينيا منذ بداية هذا القرن [2] .

لذا « قدمت الحكومة الكينية بعض التسهيلات للقوات الأمريكية وقوات الأمم المتحدة وسمحت باستخدام مطار « موي » الدولي لتوصيل مواد الإغاثة ، كما وافقت على اقتراح بريطاني يقضي بنشر قوات دولية على الحدود الصومالية الكينية رغبة في منع تسلل المسلحين الصوماليين إلى الأراضي الكينية » [3] .

وبهذا يتبين أن الصومال قد وقع بين قطبي الرحى أوفكي الكماشة ، أي بين المؤامرة الغربية العسكرية الصليبية ومؤامرات دول الجوار التي يسعدها أن يبقى الصومال على

---

(1) الأمة في عام ص 231 بتصرف .

(2) للوقوف على تفاصيل هذه القضية طيلة السنين الماضية يراجع : الحدود الجنوبية للوطن العربي / هانئ رسلان ، ضمن ملف (الحدود العربية الإقليمية .. الإشكاليات النظرية والتحديات العملية) ، السياسة الدولية ع 2 11 أبريل 1993 ص 90 : 92 .

(3) الأمة في عام ص 231 بتصرف يسير .

هذه الحال المأساوية .

8 – مؤامرة الصمت .. غياب عربي إسلامي في المأساة الصومالية :

شاركت الدول العربية والإسلامية في المؤامرة الدولية على الصومال ، إما بالصمت والتجاهل وهو موقف الغالبية العظمى ، أو بالمشاركة الهامشية غير المؤثرة في إطار العمل الدولي تحت راية الأمم المتحدة وليس الجامعة العربية أو منظمة المؤتمر الإسلامي .

والعجيب « أن بعض هذه الدول اهتمت بتأمين نفوذها المستقبلي في الصومال أكثر من إنقاذ البلد نفسه ، ففضّلت السعي لاستمالة الزعيمين الرئيسيين المتقاتلين – مهدي وعيديد – أو أحدهما من أجل أن يكون لها النفوذ قبل الإنقاذ » [1] .

واقتصر التحرك العربي الإسلامي على مجال الإغاثة والمعونات ، بل كان الإسهام العربي الإسلامي حتى في المجال الإنساني قاصرا مبتسرا ، تاركا المجال فسيحا أمام المنظمات الأمريكية والأوروبية التي يعلم الجميع براعتها في استغلال هذه المآسي الإنسانية استغلالا تبشيريا صليبيا رهيبا ، فقد « كشف تقرير لمنظمة حقوق الإنسان « أفريكا ووتش » عن تقصير المنظمات الإقليمية في هذا المجال ، مقارنا بما تقوم به المنظمات الدولية والحكومية الأوروبية والأمريكية وباستثناء السعودية ومصر ، وجهت المنظمة نقدًا إلى باقي الدول العربية لعدم الإسهام الواجب في إغاثة اللاجئين وبخاصة الكويت التي لم تقدم ما يتفق مع ثرائها في الوقت الذي تبرعت فيه بمليون جنيه إسترليني لإنقاذ حديقة حيوان لندن » [2] .

إذا .. آثرت الدول العربية والإسلامية الصمت الذي هو من الذهب على الكلام الذي هو من فضة ، ولاذت الأمة الإسلامية والعربية بالصبر وضبط النفس ، وهي ترى عضوا آخر في بدنها يتم بتره ، بعد أقل من عامين فقط من اقتطاع العضو الأول العراق ، وعلى الأمة الإسلامية أن تجهز نفسها لاستئصال دولة أخرى .... ورابعة .... إلخ .

---

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 208 , 209 .

(2) انهيار الدولة في الصومال ص 25 ، ملف : الصومال .. المأساة المنسية ص 2 .

3 – ليبيا

سبق أن أشار البحث للأزمة الليبية الغربية ، التي اصطلح على التعبير عنها بـ « أزمة لوكربي » وذلك في المبحث الأول من الفصل الأول – عند الحديث عن دور الأمم المتحدة في النظام الدولي الجديد ، واقتصر الحديث هناك على مجرد إشارة إلى قرارات مجلس الأمن بشأن الأزمة كدلائل قوية على قضية استخدام القوى الكبرى للأمم المتحدة كأداة لتحقيق مطامع بعيدة كل البعد عن الشرعية والعدالة .. والواقع أن لهذه الأزمة جذورا تاريخية عميقة [1] .

---

(1) **الجذور التاريخية للصراع الليبي / الغربي :**

لم يكن اتهام ليبيا بدعم الإرهاب وإسقاط الطائرتين الأمريكية والفرنسية أمرا غريبا ولا مستبعدا في إطار الحملة الغربية على هذا البلد ، والتي تضرب بجذورها في أعماق تاريخ العلاقات بين ليبيا وكل من بريطانيا وفرنسا ، وبين ليبيا والولايات المتحدة على وجه الخصوص .

أ – بين ليبيا والولايات المتحدة الأمريكية :

يغيب عن أذهان الكثيرين أن بداية الصدام بين ليبيا والولايات المتحدة تعود إلى ما قبل نهاية القرن الثامن عشر ، ومازال مستمرا حتى الآن (يراجع : قضية لوكربي ومستقبل النظام الدولي مرجع سابق ص 10 : 12 . جذور الإرهاب / محمد السماك / مرجع سابق ص 27 : 30) .

ومن ثم يمكن تقسيم هذه الفترة الطويلة إلى المراحل الآتية :

المرحلة الأولى (1784 : 1816) :

1 – في عام 1784م ألف الكونجرس الأمريكي لجنة خاصة تتألف من « بنيامين فرانكلين ، وجون آدامز ، وتوماس جيفرسون » (أصبح هؤلاء جميعا رؤساء للجمهورية فيما بعد) للدخول في مفاوضات مع دول المغرب العربي من أجل عقد اتفاقيات خاصة لحماية السفن التجارية الأمريكية من هجمات القراصنة مقابل رسوم مالية ، وتمكنت اللجنة عام 1786 من عقد اتفاقية مع المغرب مقابل عدة آلاف من الدولارات ، بينما فشلت في عقد اتفاقيات مماثلة مع الجزائر وليبيا .

2 – اقترح « جيفرسون » تكوين قوة خاصة لتتولى بنفسها الدفاع عن السفن الأمريكية ، ووافق الكونجرس على اقتراحه ، وتكون الأسطول من ست سفن حربية عام 1794 م (ولا يزال الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط يحمل اسم « الأسطول السادس » نسبة إلى هذه السفن الستة) .

3 – تمكنت الولايات المتحدة بعد ذلك من التوصل إلى اتفاق مع الجزائر في نوفمبر 1795 تدفع بموجبه الولايات المتحدة رسوما سنوية بمبلغ 21600 دولار ، بالإضافة إلى مبلغ أولي بلغت قيمته 642500 دولار .. ثم توصلت إلى اتفاق مع ليبيا برسوم قدرها 56 ألف دولار عام 1796 م .

4 – بعد أن استكملت الولايات المتحدة تكوين أسطولها ، نكثت بعهودها واتفاقياتها مع دول المغرب العربي التي اعترضت على هذا الإجراء اللا أخلاقي المفاجئ ، فما كان من الولايات المتحدة ألا أن أعلنت الحرب على ليبيا عام 1801 م وكان ذلك أول إعلان حرب وأول حرب تخوضها الولايات المتحدة بعد الاستقلال والاتحاد .

5 – واستمرت الحرب عدة سنوات وفي كل مرة تحاول فيها الولايات المتحدة حصار طرابلس واقتحامها تمنى بالفشل الذريع ، ورغم هذا الفشل المتوالي خاصة في حملة الكومندور « صموئيل بارون » إلا أنها اعتبرت نصرا مشرفا للبحرية الأمريكية ولايزال النشيد القومي للبحرية الأمريكية حتى اليوم يحتوي على فقرة تشيد بالانتصار على ليبيا .

6 – لم تتمكن الولايات المتحدة من إخضاع ليبيا إلا عام 1805 م حينما قامت بعملية إنزال غادرة بعيدا عن شواطئ=

....

= طرابلس والتفت القوات الأمريكية حول المدينة من الصحراء وأصبح الحصار مزدوجا من البر والبحر فاضطرت ليبيا إلى التسليم والدخول في مفاوضات أسفرت عن توقيع اتفاقيات تعسفيه لصالح أمريكا بالطبع .
7 – كما فرضت الولايات المتحدة اتفاقيات مماثلة على تونس والمغرب والجزائر ، بعد معارك طاحنة استمرت حتى 1816 م .
المرحلة الثانية : (1951 : 1969) :
وقعت الولايات المتحدة اتفاقية مع الحكومة الليبية عام 1952 ، تضفي الصبغة القانونية على الوجود العسكري الأمريكي في ليبيا لمدة عشرين عاما ، حيث أنشأت أمريكا قاعدة عسكرية تسمى « هويلس – فيلد » ومطارا في جنوب « زوارة » وسارية إذاعية في منطقة « مصراته » ومحطات للرادار في طرابلس وطبرق ودرنة ، ومحطة للتليفزيون في قاعدة هويلس – فيلد ، كما منحت الاتفاقية الولايات المتحدة حقوقا غير محدودة في استخدام الأراضي الليبية في الأهداف العسكرية ... كل هذا في مقابل دفع مليون دولار للحكومة الليبية من أجل تطوير الزراعة والتعليم والخدمات الصحية ... وغيرها (يراجع : العلاقات الليبية الأمريكية – دراسة في عقد الصراعات (1982 - 1992) د / رفعت سيد أحمد ضمن مجلد : قضية لوكربى ومستقبل النظام الدولي ، مرجع سابق ص 80 : 83) .
المرحلة الثالثة : (1969 : 1990) :
1 – قامت الثورة في ليبيا عام 1969 ، ونجحت من خلال المفاوضات الشاقة في إنهاء الوجود العسكري الأمريكي ، فخرجت القوات الأمريكية نهائيا من الأراضي الليبية في شهر يونيو 1970 م بعد أن كان الأمريكيون قد فكروا في توجيه ضربة قوية لإجهاض الثورة بعد ثلاثة أشهر فقط من قيامها إلا أنهم تراجعوا بعد ذلك . ورغم التراجع عن العمل العسكري إلا أن النشاط الاستخباراتي من جانب المخابرات الأمريكية والصهيونية لم يتوقف ، بل زادت حدته وتضاعفت خطورته ، مما أدى إلى حدوث بعض المناوشات بين الطائرات الأمريكية والليبية عام 1973 م (المرجع السابق – يراجع ص 84 : 86) .
2 – نجحت الولايات المتحدة في إفساد العلاقات الليبية مع البلدان المجاورة خاصة مصر التي بلغت القطيعة بينها وبين ليبيا إلى حد المواجهات العسكرية في يوليو 1977 م (ينظر : قضية لوكربى ص 15 . جذورالإرهاب ص 24) .
3 – بعد وصول الرئيس الأمريكي السابق « رونالد ريجان » إلى السلطة ، وفي إطار السعي الأمريكي الحثيث لترتيب الأوضاع العالمية خصوصا في المنطقة العربية الإسلامية ، وتوقيعها ما سمي « معاهدة السلام » بين مصر والدولة الصهيونية الغاصبة ، تصاعدت حدة المواجهة ، بين ليبيا والولايات المتحدة لتصل إلى المواجهات العسكرية عدة مرات :
أولها : اشتباك خليج سرت في 19 / 8 / 1981 حيث أسقطت طائرتان أمريكيتان من طراز (إف 14) طائرتين ليبيتين من طراز (سوخوى) .
ثانيها : العدوان الأمريكي الغادر على ليبيا في 14 / 4 / 1986 والذي استهدف عدة أهداف عسكرية ومدنية ، من بينها : مطار طرابلس العسكري ، وميناء سيدي بلال ، ومقر المخابرات الليبية ، ومطار « بنينة » العسكري ، ومقر إقامة القذافي في ثكنة باب العزيزية ، والمقر الآخر في ثكنة بنغازي والملفت للنظر في هذه الغارات المكثفة أن أمريكا قد حشدت لها قوات عسكرية ضخمة بلغت 14700 رجل على متن 17 سفينة بينها حاملتا طائرات تحملان 155 طائرة من أنواع مختلفة وقد أحدثت الغارات العدوانية دمارا بالغا وأوقعت العديد من الضحايا الأبرياء .
ثالثها : في الأيام الأخيرة لولاية « ريجان » الثانية ، وبالتحديد يوم 4 / 1 / 1989 ، قامت المقاتلات الأمريكية بإسقاط طائرتين ليبيتين في مياه البحر المتوسط .
4 – كانت هذه المواجهات المسلحة والاعتداءات الغادرة ، تأتي في إطار استراتيجية خاصة للتعامل مع ليبيا قام بإعدادها كل من : مركز الدراسات والبحوث التابع لوزارة الخارجية الأمريكية – مركز الأمن القومي – المخابرات الأمريكية – وقد اشتملت هذه الاستراتيجية على القيام أيضا بعمليات تخريبية داخل ليبيا ، ومحاولة اغتيال القذافي (يراجع في تفصيل ذلك كله :
* أزمة لوكربي .. التطورات والاحتمالات المستقبلية في ضوء الأبعاد التاريخية للصراع الليبي الأمريكي ، ريتاحمدان ، الفكر =

الحملة الغربية الحالية على ليبيا .. وقائعها ، ودوافعها :

جاءت الحملة الحالية وسط مناخ دولي مهيأ تماما لها من وجهة نظر القوى الكبرى التي رأت الساحة العالمية خالية أمامها ، بعد سحق العراق وتدميره ، وتفكك ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي سابقا .

= الاستراتيجي العربي : ع 41 (تموز) يوليو 1992 ص 136 : 142 . قضية لوكربى .. ص 12 : 17 ، ص 421 : 432 جذور الإرهاب ص 15 : 25 ، العلاقات الليبية الأمريكية ، ... ص 84 : 94 ،، ومن الجدير بالذكر هنا أن الولايات المتحدة قد بررت عدوانها على ليبيا بدعوى مسئوليتها عن حادثة تفجير ملهى ليلي يرتاده جنود أمريكيون في برلين الغربية في 5 / 4 / 1986 واتهام ليبيا كذلك بمسئوليتها عن حادثة تفجير مطارى « روما » و « فيينا » في وقت واحد يوم 27 / 12 / 1985 .. وقد ظهر فيما بعد أن المخابرات الشيوعية في ألمانيا الشرقية سابقا كانت وراء الحادث الأول ، بينما قامت مجموعة فدائية فلسطينية بالعملية الثانية .. يراجع المراجع السابقة) .

5 – شنت الولايات المتحدة حملة سياسية وإعلامية ضخمة على ليبيا بحجة قيامها بتصنيع أسلحة كيميائية في مصنع « الرابطة » الذي قالت السلطات الليبية : إنه مجرد مصنع لإنتاج الأدوية ، وقد شب حريق كبير في 4 / 3 / 1990 م أتى على معظم أجزاء هذا المصنع ، ومع أن ليبيا لم توجه اتهاما رسميا لهذا الطرف أو ذاك ، إلا أن الأمر في تقديري لا يحتاج إلى ذكاء غير عادي لتحديد مرتكبي هذه الجريمة .

هذه بعض أهم وأبرز مراحل الصراع بين ليبيا والولايات المتحدة عبر التاريخ ، تؤكد أن الحملة الأمريكية الحالية على الجماهيرية ليست شيئا مستحدثا ، وإنما هي حلقة من سلسلة طويلة في الصراع الليبي / الأمريكي خاصة ، والأمريكي / العربي الإسلامي عامة .

(ب) بين ليبيا وبريطانيا :

تعد السياسة البريطانية من « توابع » السياسة الأمريكية ، فالبلدان حليفان متكاملان ، ظهر هذا جليا في موقفهما المشترك من بعض القضايا الدولية ، مثل حرب الخليج الثانية وفرض الحصار على العراق ومأساة البوسنة وعيرها من القضايا (وقد سبق في الباب الأول بيان الجهود البريطانية النشطة للمحافظة على بقاء دور مهم لأمريكا في قضية الأمن الأوروبي ، ومعارضتها المستمرة لبناء هوية أمنية أوروبية مستقلة) .

من هنا لم يكن غريبا أن تضع بريطانيا نفسها في خندق واحد مع الولايات المتحدة في مواجهة ليبيا ... ومع هذا فقد كان لبريطانيا أسبابها الخاصة لتصعيد الحملة على ليبيا ... فالعلاقات بين البلدين كانت قد بلغت غاية التفجير والتوتر ، بسبب الاتهامات البريطانية لليبيا بدعم الجيش الجمهوري الإيرلندي ، وهي منظمة مناهضة للوجود البريطاني في أيرلندا الشمالية ، ثم كان قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في أعقاب حادث السفارة الليبية في عام 1984 م وهو الحادث الذي قتلت فيه إحدى الشرطيات البريطانيات برصاص من داخل السفارة أثناء مظاهرات احتجاج ضد ليبيا (ينظر – التقرير الاستراتيجي العربي 1993 ص 74) .

(جـ) بين ليبيا وفرنسا :

تحاول فرنسا دائما إبراز خصوصيتها وعدم انسياقها خلف التوجهات الأمريكية ومع ذلك ، فإنها بادرت بمؤازرة أمريكا وبريطانيا في الحملة المعلنة على ليبيا ، ولم تتردد في هذا لحظة واحدة ، بل على العكس تماما كانت هي السبّاقة في هذا المضمار كما سيأتي .

والسبب في ذلك أن ليبيا حريصة على أن يكون لها دور في القارة الأفريقية . وتنتهج في هذا المقام سياسة رأت فيها فرنسا خطرا على مصالحها في القارة السوداء ، فهبت لمواجهتها وتحجيمها . وليس أدل على ذلك مما حدث بين الجانبين في المسألة التشادية [في الخلاف بين ليبيا وتشاد حول شريط « أوزو » الحدودي المتنازع عليه ووقوف فرنسا عسكريا إلى جانب تشاد] (يراجع : الأبعاد غير المعلنة للحملة الغربية ضد الجماهيرية – السياسة الليبية في أفريقيا نموذجا – د . أحمد الصاوي ، ضمن مجلد (قضية لوكربى ومستقبل النظام الدولي) ص 157 : 189) .

1 – نقطة البداية : توجيه الاتهام إلى ليبيا :

« بدأت تلك الحملة بإعلان فرنسا في آخر أكتوبر 1991 م نتائج التحقيقات في قضية تفجير طائرة شركة « يو . تي . ايه » [(1)] والتي تضمنت اتهام أربعة ليبيين [(2)] وإصدار مذكرات اعتقال دولية لهم .. وتلا ذلك مباشرة صدرو قرار اتهام في « واشنطن » و « لندن » يؤكد أن عميلين للمخابرات الليبية [(3)] دبَّرا حادث تفجير طائرة لشركة « بان أمريكان » [(4)] وكان أكثر وضوحا وحسما في تحميل النظام الليبي نفسه مسئولية الحادث ، فقد نص صراحة على أن حكومة ليبيا أيدت عملية التفجير ، وأن أحد عنصري المخابرات المتهمين على صلة وثيقة مع المسئولين في هذه الحكومة ، الذين وصفوا بأنهم (قادوا ونفذوا أعمال الإرهاب على مر السنوات . كأداة لسياسات الحكومة الليبية) ، وقد انطوى القرار على إدانة مسبقة ليس فقط للمتهمين ولكن أيضا للنظام الليبي نفسه ، فقال (لقد شهدنا خطا متواصلا من حوادث الإرهاب التي أوعزت بها ليبيا ، وتعود إلى بداية عهد القذافي تقريبا ، واستمرت إلى ما بعد حادث (بان أمريكا – 103) وحتى الوقت الحاضر . وهذا المنهج يستبعد بدرجة عالية أي قول بأن الحادث المذكور لم يكن سوى مجرد عملية عصابات لا توافق عليها السلطات الليبية العليا !! فعملية بهذه الأهمية ما كان يمكن أن تتم لولا موافقة معمر القذافي » [(5)] .

2 - توظيف الأمم المتحدة وتسخيرها :

قذفت الدول الغربية قضية ليبيا إلى ملعب الأمم المتحدة لاستصدار قرارات من مجلس الأمن تضفي الشرعية « المزعومة » على عملية ذبح ليبيا والقضاء عليها ... ونجحت الخطة بالفعل حيث أصدر مجلس الأمن قرارات ثلاث .

والواقع أن هذه القرارات قد صيغت بأسلوب يتوافق – كما يقول الأستاذ محمد شومان – مع الاعتبارات الثقافية الحضارية التي تشكل الرؤية الغربية للعالم بصفة عامة

---

(1) التي تحطمت فوق صحراء النيجر في 19 سبتمبر 1989 م عند ما كانت في رحلة من الكونغوبرازفيل إلى فرنسا مرورا بتشاد وراح ضحيتها 170 شخصا – يراجع أزمة لوكربى ؛ الفكر الاستراتيجي العربي . مرجع سابق ص 148 .

(2) هم : الرجل الثاني في المخابرات الليبية و ضابطان في المخابرات ومستشار في السفارة الليبية في برازافيل ينظر : المرجع السابق : نفس الفصحة .

(3) هما : عبد الباسط المقراحي والأمين خليفة .

(4) كان ذلك في 21 / 12 / 1988 حينما تحطمت الطائرة البوينج 747 التابعة للشركة في الرحلة رقم 103 فوق بلدة « لوكربى » الاسكتلندية وذهب ضحيتها 270 شخصا معظمهم من الأمريكيين – يراجع أزمة لوكربى ص 143 ، العلاقات العربية الأمريكية بعد أزمة الخليج في ضوء حادث لوكربى ، د . حسن بكر ضمن مجلد (قضية لوكربى) ص 61 .

(5) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 206 .

والعالم الإسلامي بصفة خاصة :

أ – ففيما يتعلق بالقرار الأول رقم 731 : (الصادر في 1992/1/21) يلاحظ الآتي :

1 – صيغ القرار بأسلوب ولغة مراوغة تجمع في آن واحد بين الغموض التام والوضوح الشديد ، وغموض وإبهام في كل ما يتعلق بالتحقيقات وصلاحيتها ، ومفهوم الإرهاب الدولي ، ووضوح وحسم في إدانة الحكومة الليبية وتحميلها مسئولية الحادثين ، وبالتالي تحميلها مسئولية الإرهاب الدولي .

2 – سلم القرار تماما بصحة التحقيقات الأمريكية البريطانية الفرنسية ، واعتبرها من وثائق مجلس الأمن ثم بنى عليها مطالبة ليبيا بتسليم المتهمين .

3 – تعمد القرار في صياغته أن لا يميز بين الإرهاب أو الأنشطة الإرهابية الدولية وبين الأعمال غير القانونية ، مع أنه استخدم التعبير الأول ست مرات والثاني مرتين ... وهذا الغموض وعدم التحديد مقصودان هنا ، لأن من شأنهما دعم الرؤية الغربية للعالم ، التي ترى كل عمل يتعارض مع توجهاتها ومصالحها عملا إرهابيا وغير قانوني .

4 – استُخدمت في صياغة القرار ألفاظ حاسمة في وصف الاستجابة المطلوبة من ليبيا مثل « استجابة كاملة وفعالة » وتكرر استخدام لفظي « كامل » و « كاملة » أربع مرات مقترنين بأوصاف مثل « فعال » أو « فعالة » ، ورغم الحدة والصرامة في هذه النعوت إلا أنها في الوقت ذاته غير محددة المضمون مما يتيح للدول الغربية أن تتحكم في ليبيا كما تشتهي وأن تفعل بها ما تريد ، حيث تستطيع القول بأن الاستجابة الليبية لم تكن « كاملة » أو « فعالة » « خاصة وأن القرار قد ترك الباب مفتوحا وأن تبقى المسألة قيد النظر ، بمعنى إتاحة الفرصة لصدور قرارات أخرى أكثر خطورة » [1] .

ب – وبعد سبعين يوما فقط صدر القرار الثاني ويحمل رقم 748 في نهاية مارس 1992 م ، تقرر بمقتضاه فرض العقوبات على ليبيا ... ومن الملاحظ على هذا القرار :

1 – استند دون مبرر إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ، الخاص بالحالات التي تهدد السلم والأمن الدوليين ، مما يتيح الفرصة لتصعيد العقوبات والإجراءات الاقتصادية لتصل إلى الإجراءات العسكرية المباشرة .

---

(1) يراجع : التحليل الثقافي والحضاري لإدارة مجلس الأمن للأزمة الليبية – الغربية . محمد شومان مستقبل العالم الإسلامي ع (9) شتاء 1993 ص 23 : 25 .

2 - استفاد هذا القرار من الثغرات المشار إليها في القرار السابق ؛ حيث ورد في تعليل فرض العقوبات أن ليبيا لم تقدم بعد الردَّ الفعال والكامل على الطلبات الواردة في القرار « 731 » ، ومن ثم تطلَّب الأمر من الناحية المنطقية إبداء مزيد من التشدد في القرار (748) والقرار بهذه الصيغة يضيف للجماهيرية اتهاما جديدا خطيرا في زعمهم ، ألا وهو : عدم احترام الشرعية الدولية ممثلة في قرارات مجلس الأمن .

3 - كان هذا القرار أكثر وضوحا وحسما في إلصاق تهمة الإرهاب بالجماهيرية الليبية ؛ حيث جاء النص بأنه يتعين على الحكومة الليبية أن تلزم نفسها - بشكل نهائي - بوقف كافة صور الأعمال الإرهابية ووقف كل مساعدة للجماعات الإرهابية ، كما يتعين عليها أن تُظهر على الفور وبأعمال محددة - نبذها للإرهاب . ومن الواضح أن القرار لم يحدد المراد بالأعمال الإرهابية أو الجماعات الإرهابية ، حتى يكون ذلك خاضعا للرؤية الغربية للعالم ، تجعل من تشاء مناضلا ثوريا ، ومن تشاء أيضا مجرما إرهابيا [1] .

جـ - ثم جاء القرار الثالث والأخير رقم 883 في 11 / 11 / 1993 ليضيق الخناق على ليبيا أكثر وأكثر حيث يقضي بتجميد الأموال والموارد المالية للحكومة أو الشعب الليبي في كافة أنحاء العالم وعدم التعامل مع مكاتب الخطوط الجوية الليبية ، أو تقديم قطع الغيار لصيانة طائراتها .. [2] ويلاحظ على هذا القرار :

1 - أنه يسير في اتجاه تصاعدي باتجاه زيادة الضغط على ليبيا لإذلالها وإخضاعها ، ويمهد لخطوات أوسع ، طالما هددت الدول الغربية باتخاذها ، ألا وهي فرض حظر على النفط الليبي ، ومن ثم اتخاذ الإجراءات العسكرية .

2 - أن التصويت على هذا القرار جاء على نمط القرار السابق « 748 » حيث لم يحظ القراران ، إلا بتأييد الدول الغربية أو السائرة في ركابها فالقرار الأول صدر بأغلبية 10 أعضاء وامتناع 5 دول عن التصويت هي : المغرب - الصين - الهند - زيمبابوي - جزر الرأس الأخضر ، والقرار الآخر صدر بأغلبية 11 صوتا وامتناع كل من الصين والمغرب وباكستان وجيبوتي عن التصويت .

لكل ما سبق يحق القول على المنظمة الدولية بأنها لم تكن إلا أداة مسخرة لإضفاء

---

(1) المرجع السابق يراجع ص 25 : 28 .

(2) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1993 ص 79 . السياسة الدولية : ع (115) يناير 1994 ، نشاط الأمم المتحدة ص 354 .

الصيغة القانونية المزعومة أو الشرعية المدعاة ، على تحركات الدول الغربية الكبرى الرامية إلى فرض رؤيتها واتجاهها على العالم أجمع .

3 – معاناة الشعب الليبي [1] من آثار الحصار الدولي :

عاش الشعب الليبي المظلوم تحت وطأة الحصار الظالم ، الذي فرضته الدول الكبرى عن طريق الأمم المتحدة وأدى إلى تدهور الأوضاع يوما بعد يوم ، مما ينذر بكارثة كبرى ومآسي عظمى إذا ظل الحال على ما هو عليه .

إذ بعد خمسة أشهر فقط من بداية الحظر الجوي والحصار بلغت خسائر ليبيا ما يزيد على 2 مليار دولار في 1992/9/4 م [2] وفي نهاية أبريل عام 1994 م أعلنت أمانة الصحة الليبية (وزارة الصحة) أن 300 رضيع ، وأكثر من 140 سيدة ماتوا بسبب نقص الأدوية أو تأخر وصولها من جراء الحظر الجوي المفروض على ليبيا منذ أبريل 1992 م ، كما مات أكثر من 300 مريض كانوا بحاجة للعلاج في الخارج خلال نقلهم برًّا إلى الدول المجاورة .

كما أفادت الإحصائيات أن قطاع الزراعة تأثر إلى حد كبير – وبخاصة تربية المواشي – حيث أدى نقص الأدوية البيطرية إلى خسارة تقدر بحوالي 40 ألف طن من اللحوم ... وبلغت خسائر قطاع الطيران أكثر من 700 مليون دولار ، وقطاع الصناعة 500 مليون دولار ، بالإضافة إلى الارتفاع الجنوني في أسعار المنتجات الصناعية [3] .

وقد رفعت ليبيا إلى مجلس الأمن مرتين تقريرا عن الأوضاع الاقتصادية والإنسانية الناجمة عن الحظر ، وكانت المرة الأولى في 1992/8/17 م [4] ، والثانية بعد ذلك بعامين أي في 15 / 8 / 1994 . وتضمن التقرير الثاني لمدى تأثرها بالعقوبات المفروضة عليها بموجب قراري المجلس رقمي 748 و 883 وعن الأضرار البالغة التي لحقت بالشعب الليبي في مختلف أوجه الحياة الإنسانية والاجتماعية ، خاصة في قطاع الصحة والضمان الاجتماعي والخدمات العلاجية والتعاون الفني الدولي ، وما لحق بقطاع الاقتصاد والتجارة وقطاع الزراعة والثورة الحيوانية من خسائر » [5] .

(1) يلاحظ في هذا العنوان التركيز على أن الشعب الليبي هو الذي يعاني من الحظر المفروض على بلاده ، وهذا مقصود تماما ، إذ يتركز اهتمام البحث على الشعوب فهي المغلوبة على أمرها ، أما الأنظمة الحاكمة الحالية فلا تستحق أن يذرف المرء من أجلها دمعة واحدة ، لأنها هي المسئولة – في المقام الأول – عن الوصول بشعوبها إلى هذه الحال البائسة .

(2) ينظر : السياسة الدولية : ع 1 11 يناير 1993 شهريات الأحداث الدولية (سبتمبر 1992) ص 331 .

(3) ينظر : الأهرام 30 / 4 / 1994 ص 6 .

(4) السياسة الدولية ع 1 11 يناير 1993 شهريات الأحداث الدولية (أغسطس) 1992 ص 327 .

(5) السياسة الدولية ع 8 11 أكتوبر 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 341 .

ورغم هذا كله لم يتحرك مجلس الأمن باتجاه رفع العقوبات ، ولم تؤثر هذه الأرقام في مشاعر وأحاسيس الدول الكبرى ، وأنى بها أن تتأثر أو تشعر وهي التي تسببت في حدوث هذا كله أصلا بقرارات ظالمة ليس لها من العدالة حظ ولا نصيب .

4 – قرارات مجلس الأمن ضد ليبيا تخالف القانون الدولي :

من الواضح تماما أن لجوء الدول الكبرى إلى مجلس الأمن واستصدار قرارات ضد ليبيا قد أخرج القضية من النطاق القانوني الذي كان يجب أن تبقى فيه إلى النطاق السياسي الذي وظفته الدول الغربية لصالح رؤيتها وتوجهاتها في ظل النظام الدولي الجديد .

ومع ذلك تصر هذه الدول على أن موقفها ينطق من أسس قانونية دولية . لذا كان لابد من وقفة مع مبادئ القانون الدولي الخاصة بمثل هذه القضايا وهي تتلخص فيما يلي :

أولا : من المتفق عليه بين كافة فقهاء القانون الدولي أن تسليم المجرمين – أو تسليم المتهمين بارتكاب جرائم – هو عمل من أعمال السيادة ، وليس في القواعد العامة للقانون الدولي العام أي قاعدة تفرض على الدولة التزاما بتسليم المجرمين أو المتهمين المقيمين على أراضيها ويحق لها الامتناع عن التسليم مهما كان نوع الجريمة أو التهمة ، ما لم يلزمها بذلك نص في معاهدة وافقت عليها أو نص في قوانينها الوطنية الداخلية .

ثانيا : تلتزم الغالبية العظمى من دول العالم بقاعدة « عدم جواز تسليم المواطنين أو الرعايا إلى الدول الأخرى » .. وقد أيدت الجمعية العامة للأمم المتحدة ذلك في المادة الرابعة من مشروع معاهدة نموذجية لتسليم المجرمين ثم إقرارها بالقرار 28 لمؤتمر الأمم المتحدة الدولي الثامن بشأن منع الجريمة ومعاملة المجرمين المنعقد في العاصمة الكوبية (هافانا) في المدة من 27 / 8 - 7 / 9 / 1991 ، إذ تنص هذه المادة على أنه يجوز رفض التسليم إذ كان الشخص المطلوب تسليمه من رعايا الدولة المطالبة (أي المطلوب منها التسليم) ، وفي حالة الرفض تقوم تلك الدولة بعرض الحالة على سلطاتها المختصة لاتخاذ الإجراء الملائم بحق هذا الشخص بشأن الجريمة المطلوب تسليمه من أجلها ، ويحدث هذا عندما تلتمس الدولة الأخرى حدوثه .

ثالثا : تتبع بريطانيا والولايات المتحدة قاعدة أخرى غير القاعدة التي يجري العمل بها في معظم دول العالم ، حيث تجيزان بصفة عامة تسليم مواطنيهما ولكنهما تشترطان أن يتم ذلك بناء على معاهدة ومن البدهي أن جواز التسليم في القوانين الأمريكية والبريطانية لا يعطي هاتين الدولتين الحق في إلزام الدول الأخرى بالتسليم وإلا كان ذلك

الإلزام انتهاكا لسيادة الدول واستقلالها .

رابعا : بتطبيق هذا كله على الحالة الليبية يتبين أن موقف الجماهيرية قانوني تماما ، حيث لا يوجد نص في معاهدة عقدتها أو في قوانينها الداخلية يلزمها بتسليم مواطنيها إلى الدول الأخرى .

خامسا : فيما يتعلق باتفاقية « مونتريال » لعام 1971 ، فإنها لا تلزم الدولة التي يتواجد على أراضيها الجاني أو المتهم بارتكاب جرائم تمس سلامة الطيران المدني بتسليمه ، بل على العكس تنص على إمكانية عدم تسليمه ، وتطالب الدولة بإجراء تحقيقات وفقا لقانونها الوطني الداخلي [1] .

5 – مرونة الموقف الليبي في مواجهة التعنت الغربي :

رغم انتفاء الصفة القانونية عن مطالب الدول الغربية – كما سبق – فإن الموقف الليبي في رأي محمد عبد الله رسلان – قد تميز بمرونة بالغة في مواجهة التعنت الغربي ، « فقد كان يمكن لليبيا أن تنفي عن نفسها تهمة الإرهاب وأن تمتنع عن أي مساءلة أو تحقيق طبقا للقانون الدولي ، ولكنها آثرت أن تتعامل مع الموقف بحكمة ومرونة ، إدراكا منها لخلفيات الاتهام ودوافعه ، فوافقت على إجراء محاكمة للمتهمين الليبيين في القضية بشرط ألا تتم المحاكمة في أمريكا أو بريطانيا ... ومن هنا أصبح الخلاف محصورا في تحديد مكان المحاكمة ، لا في إجرائها من حيث المبدأ » [2] .

وقد قدمت ليبيا في هذا الصدد كثيرا من المقترحات على مدى السنوات الماضية بل وحتى قبل صدور قرار مجلس الأمن الأول (731 في 21 / 1 / 1992) :

1 – في نوفمبر 1991 اقترحت ليبيا الحلول التالية :

---

(1) للوقوف على تفاصيل الجوانب القانونية للأزمة ، يراجع في مجلد ، قضية لوكربى .. الأبحاث التالية :

* الجوانب القانونية للاتهامات الأمريكية البريطانية المتعلقة بحادث طائرة (بان أمريكان) فوق لوكربى / د . علي عبد الرحمن ضوى ص 227 : 238 . حادث الطائرة الأمريكية في ضوء القانون الدولي .. الأبعاد القانونية للنزاع الليبي الأمريكي / المستشار عثمان حسين عبد الله ص 239 : 258 .

* أحكام القانون الجنائي الليبي في شأن محاكمة المواطنين عن الجرائم التي يرتكبونها في الخارج د . سامي سالم الحاج ص 259 : 270 . الحملة الأمريكية ضد الجماهيرية الليبية في ضوء أحكام القانون الدولي د . محمد الغمري / ص 327 : 364 ميثاق الأمم المتحدة بين التأويل والتسخير دراسة في علاقة القوى الكبرى بالأمم المتحدة في ضوء الممارسات الأمريكية تجاه ليبيا / محمد عاشور مهدي ص 365 : 390 . نصوص اتفاقية مونتريال 1971 ترجمة مركز دراسات العالم الإسلامي ص 433 : 443 .

(2) يراجع : تطورات الأزمة الليبية الغربية ، محمد عبد الله رسلان ، ضمن ملف الإسلام والعنف في السياسة الدولية ، ع (113) يوليو 1993 ص 125 : 129 .

أ – تولى لجنة من الجامعة العربية التحقيق في الحادث بسؤال جميع المتهمين وسماع أقوال الشهود .

ب – تولى لجنة دولية محايدة التحقيق في الحادث بالأسلوب نفسه .

جـ – تولى لجنة ليبية – غربية التحقيق بالأسلوب نفسه واتخاذ كافة التدابير القانونية اللازمة وفق قواعد القانون الدولي [1] .

2 – وفي أبريل 1992 وبعد صدور القرارين (731 , 748) « كشف أحد محامي المتهمين الليبيين أنهما مستعدان لأن يُحاكما في الولايات المتحدة أو اسكتلندا ، شرط الحصول على ضمانات بنزاهة المحاكمة » [2] .

3 – وفي نوفمبر 1992 عرضت ليبيا تسليم المتهمين إلى مقر الأمم المتحدة في جنيف [3] .

4 – وفي سبتمبر 1993 أعلنت ليبيا موافقتها على محاكمة المشتبه فيهما أمام محكمة اسكتلندية مكونة من قضاة اسكتلنديين وتطبيق القانون الاسكتلندي ، ولكن في مقر محكمة العدل الدولية في لاهاي [4] .

5 – وفي نوفمبر من العام نفسه (1993) طلبت ليبيا رسميا من سويسرا محاكمة المتهمين في القضية [5] .

6 – ثم قدمت ليبيا اقتراحا آخر في يناير 1994 م يقضي بحضور ممثلي الدفاع عن المتهمين المشتبه في تورطهما في قضية لوكربي أمام محكمة أمريكية دون حضور المتهمين نفسيهما [6] .

7 – وأخيرا في نوفمبر 1994 م قدمت ليبيا اقتراحا بتسليم المتهمين إلى الجامعة العربية حتى يتم التفاهم على محاكمتهما خارج بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية [7] .

كان يجب على الدول الغربية أن تتجاوب مع هذه المقترحات ، إذا كانت حقا تريد إنهاء النزاع وترغب في أن تبقيه في الإطار القانوني والإنساني – ولكن التصلب والعناد كان دأب هذه الدول وديدنها في التعامل مع هذه المقترحات الإيجابية ، مما يؤكد أن

---

(1) ينظر : أزمة لوكربي – مرجع سابق ص 150 . (2) المرجع السابق ص 155 .

(3) السياسة الدولية : ع (1 11) يناير 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 339 .

(4) السياسة الدولية ع (115) يناير 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 354 ،، وينظر : الأهرام ص 6 بتاريخ 17 / 4 / 1994 .

(5) السياسة الدولية ع (5 11) يناير 1994 ، شهريات الأحداث الدولية نوفمبر 1993 ص 347 .

(6) يظر الأهرام 6 / 1 / 1994 م ص 6 .

(7) السياسة الدولية ع (9 11) يناير 1995 نشاط الأمم المتحدة ص 364 .

ثمة أهدافا غير معلنة ونوايا خفية ومؤامرات مبيتة ضد ليبيا اتخذت من الكارثة البشعة ستارا ومن الأمم المتحدة قناعا تتخفى وراءه تلك الأهداف والنوايا والمؤامرات [1] .

6 – حقيقة هذه الحملة ودوافعها غير المعلنة :

تكاد الكتابات السياسية التي تعرضت للحديث عن الأزمة الليبية الغربية تُجمع على أن الهدف منها إسقاط النظام الليبي باعتباره من مخلفات الحرب الباردة ، ومن الأنظمة التي تعارض الهيمنة الغربية على العالم ، والسيطرة الأمريكية على زمام النظام الدولي الجديد [2] .

وأرى أنه ينبغي الخروج من إطار خصوصية هذه الحملة على ليبيا إلى إطار أعم وأشمل ، ويستلزم هذا إعادة النظر في التحركات الدولية الفاعلة والربط المباشر بينها للخروج برؤية متكاملة :

إن المتتبع لمسيرة الأحداث العالمية في السنوات القلائل الماضية يجدها تصب جميعا في مصب واحد ألا وهو تطويق العالم الإسلامي واستنزاف موارده وإمكاناته ، فالحملة العسكرية الغربية على العراق وتحطيم آلته العسكرية وقدراته الصناعية كانت أولى حلقات السلسلة الهادفة إلى تطويق العالم الإسلامي بدءا من الجبهة الشرقية للوطن العربي الذي هو قلب العالم الإسلامي النابض ، يضاف إلى ذلك الاتهامات الغربية لإيران بدعم الإرهاب وزعزعة الاستقرار والأمن الإقليمي والعالمي ... إذاً ، تدخُّل واضح في العراق وحملة عنيفة على إيران .. وفي الجبهة الجنوبية كذلك ، تدخل مباشر في الصومال وحملة عنيفة على السودان تمهيدا لتدخل مباشر يهدف إلى فصل الجنوب عن الشمال كما سبق .. أما في الجبهة الغربية فلم يكن أمام الغرب إلا ليبيا كمرشح وحيد لاستكمال حلقات مؤامرة التطويق المحكم ، إذ أن كلا من تونس والمغرب يحتفظان بعلاقة جيدة مع الغرب ويقومان بقمع الحركات الإسلامية فيهما ، أما الجزائر

(1) ومما يؤكد ذلك بشدة أن كلا من أمريكا وبريطانيا قد تمسكت بتوجيه الاتهام إلى ليبيا بالرغم من اعتراف أحد أعضاء جماعة « أبو نضال » الفلسطينية بأنه هو الذي قام بتفجير الطائرة الأمريكية فوق « لوكربي » ، فقد أكدت الخارجية الأمريكية أن هناك أدلة واضحة على تورط ليبيا ، وأنه ليس لدى الولايات المتحدة معلومات تدعم اعترافات الفلسطيني « يوسف شعبان » وسلكت بريطانيا المسلك ذاته بتأكيد تورط ليبيا في الحادثة .
(ينظر : الأهرام ص 6 والأخبار ص 1 بتاريخ 14 / 6 / 1994 ، الأهرام 16 / 6 / 94 ص 6)

(2) يراجع على سبيل المثال : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 207 . التقرير الاستراتيجي العربي 1993 . العلاقات الليبية الأمريكية د . رفعت سيد أحمد – مرجع سابق ص 103 , 104 . نقد المفهوم الأمريكي الجديد عن الإرهاب الدولي ، د . أحمد ثابت ، ضمن مجلد : قضية لوكربي ص 133 : 134 . أزمة لوكربي ... ص 152 , 153 .

فكانت مسرحا للتدخل من وراء ستار ، بهدف الحيلولة دون اعتلاء الإسلاميين قمة السلطة ، رغم فوزهم في الانتخابات فوزا ساحقا ... [1] .

يتضح إذا أن المؤامرة الكبرى تقوم على أساس التدخل المباشر في بلد وإثارة القلاقل في بلد مجاور تمهيدًا للتدخل المباشر فيه أيضا ، ويتضح تبعا لذلك أن الحملة الغربية ضد ليبيا ليست إلا حلقة في سلسلة كبيرة ، هدفها النهائي إحكام القبضة الصليبية اليهودية على العالم الإسلامي بأسره .

هذا ولا نُنكر أهمية الأسباب والدوافع التي قيلت في تعليل الحملة الغربية ضد ليبيا من كونها تهدف إلى إسقاط النظام الليبي لأنه يقف ضد المخططات التغريبية العالمية ، أو لأنه يعارض ما يسمى « بالمسيرة السلمية في الشرق الأوسط » ، أو لأنه ينتهج سياسة وحدوية عربية أو لأن ليبيا تملك السيادة الكاملة على إنتاجها النفطي ... أو لأسباب أخرى غير ذلك كله [2] .

كل هذا صحيح في بعضه ، ولكن النظر إلى القضية في إطارها الأعم الأشمل هو المنهج الأكثر صوابا والأهدى سبيلا .

7 - الموقف العربي المتخاذل تجاه قضية لوكربي :

اتسم رد الفعل في الدول العربية تجاه قضية لوكربي بالتخاذل الشديد ، وغلب على الساحة العربية الاكتفاء بالتضامن الإعلامي المحدود ، والتعبير عن الشجب والإدانة ، والحزن البالغ في مواجهة سياسة الانتقائية وازدواجية المعايير والكيل بمكيالين في الأمم المتحدة ومجلس أمنها .

أما على المستوى السياسي الرسمي ، فقد رصد التقرير الاستراتيجي العربي 1992 مواقف الدول العربية حيال الأزمة ، فذكر فيما يتعلق بدول الخليج أنها لم تشارك في « التحركات والوساطات العربية التي استهدفت حل الأزمة ، رغم علاقاتها الوثيقة مع الدول الغربية المعنية بها ، كما كان تمثيلها منخفضا في أهم اجتماع وزاري طارئ لبحث الأزمة في إطار الجامعة العربية في 22 مارس 1992 م ، فباستثناء السعودية التي

(1) للوقوف على تفاصيل التدخل الأجنبي في الجزائر : يراجع : الجزائر : والمؤامرة على الإسلام والديمقراطية ، أحمد السيوفي ، ص 109 : 121 د . ن . ق . ت .

(2) المراجع السابقة ويراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 205 : 208 .

* أزمة لوكربي ... ص 148 ، 149 ، ص 151 .

مثلها وزير الدولة للشئون الخارجية كان تمثيل بقية دول الخليج على مستوى المندوبين الدائمين . والواقع أن لمستوى التمثيل دلالة على مدى الاهتمام الذي توليه الدولة للموضوع محل البحث . وكان هذا الاجتماع الطارئ المخصص للأزمة الليبية – الغربية هو الذي شهد أدنى مستوى من التمثيل الخليجي طوال العام » [1] .

وفيما يتعلق باتحاد دول المغرب العربي الذي يضم بالإضافة إلى ليبيا كلا من تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ، فقد بالغت ليبيا كثيرا « فيما توقعته من مساندة بقية دول الاتحاد لها ، تطبيقا لما تضمنته معاهدة تأسيسه من أن كل اعتداء على دولة عضو يعتبر اعتداء على بقية دوله لكن لم يكن بمقدور هذه الدول تجاهل الظرف الدولي الذي لا يتيح لها قدرة على تحدي الحملة التي تتعرض لها ليبيا ، وهو الظرف الذي اضطر المغرب كعضو بمجلس الأمن عام 1992 لتأييد القرار 831 مع إبداء تحفظ مؤداه : أن تبني هذا القرار لا يجب أن يخرق مبادئ القانون الدولي فيما يتعلق بتسليم المجرمين ... » [2] .

أما مصر فقد بذلت جهودا مكثفة لاحتواء هذه الأزمة سواء بمفردها أو داخل اللجنة السباعية التي تشكلت في إطار جامعة الدول العربية في مارس 1992 م وتضم أيضا سوريا ودول الاتحاد المغاربي وتجاوبت معها ليبيا بتقديم المقترحات البناءة التي سبق ذكرها [3] .

ولكن هذه الجهود المكثفة لم تكن لتجدي فتيلا إزاء التعنت الغربي الذي أبدته الدول المعنية ، والتي لا تجعل قضية تسليم المتهمين بتفجير الطائرة الأمريكية نهاية المطاف ، بل تنظر إليها كما سبق بيانه باعتبارها حلقة في سلسلة التحركات الغربية الصليبية اليهودية ضد العالم الإسلامي .

* * *

بهذا ينتهي الفصل الأول في هذا الباب ، تبين من خلاله مدى سوء وضع المسلمين في القارة الأفريقية ومدى المؤامرة التي يتعرضون لها في هذا الجزء من العالم .. وفي أماكن أخرى من هذه القارة يتعرض المسلمون أيضا لحملات بشعة (عسكرية وتنصيرية) تهدف إلى القضاء على الإسلام والمسلمين ، ولكن رغم هذه الحملات العنيفة لا يزال الإسلام بحمد الله صامدا وراسخا ، ولله وحده الفضل والمنة .

---

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 207 . (2) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 208 .

(3) يراجع : تطورات الأزمة الليبية الغربية ، مرجع سابق ص 125 : 129 .

الفصل الثاني

في القارة الآسيوية

ونستكمل هنا استعراض موقف النظام الدولي الجديد من بعض قضايا المسلمين ، وبالتحديد هنا في القارة الآسيوية التي تضم بين جنباتها أكثرية المسلمين .

1 – فلسطين

حينما تترامى إلى مسامع المسلم الصادق هذه الكلمة .. فلسطين .. فإنها تثير في نفسه على الفور مشاعر الحزن العميق والأسى البالغ على هذه القطعة الغالية من الديار الإسلامية ، التي باركها المولى تبارك وتعالى وأعلى شأنها حينما جعلها مهبط كثير من الرسالات وموطن العديد من الأنبياء الكرام – صلوات الله عليهم وسلامه – ومسرى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ ، يقول المولى تباركت أسماؤه : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1] .

يتذكر المسلم الصادق جميع المؤامرات الدولية التي أدت فى النهاية إلى اغتصاب هذه الدرة الثمينة وتقديمها لقمة سائغة لشذاذ الآفاق من المجرمين الصهاينة ، الذين يدعون زورا وبهتانا الانتساب إلى نبي الله موسى عليه السلام ..

وتزداد الحسرة والمرارة في قلب الإنسان المسلم الصادق حينما يرى الوجود الصهيوني في فلسطين لم يعد يحظى بتأييد ومباركة الدول الكبرى الصليبية والمنظمات الدولية فحسب ، بل إن كثيرا من الدول الإسلامية باتت تعترف بهذا الوجود المتمثل في كيان غاصب يسمى « إسرائيل » ...

وليت الأمر قد اقتصر على مجرد الاعتراف ، فالمصيبة العظمى والداهية الكبرى أن تيمم هذه الدول « الإسلامية » وجهها شطر الدولة الصهيونية تخطب ودها ، وتنشد رضاها ، وتسعى لنيل الحظوة والمكانة لديها ، وكأن الكل في سباق محموم لإضفاء صبغة الشرعية – في زعمهم – على الوجود والاحتلال الصهيوني ، بالاعتراف بحق

---

(1) سورة الإسراء : الآية (1) .

« إسرائيل » في الوجود ، ووقف حالة الحرب معها ، وأن هناك قسما يسمى « إسرائيل » وقسما آخر يسمى « الأراضي المحتلة » ، وأنه قد آن الأوان لترفرف على المنطقة رايات السلام والرخاء والازدهار والتعايش السلمي ، بعد سنوات طويلة من الكراهية والعنف والحروب ، استنزفت الموارد وأهلكت الحرث والنسل .

أما من يعتبرون فلسطين كلها أرضا إسلامية مغتصبة ، يجب بذل الجهد الجهيد والتضحية بالنفس والمال والولد في سبيل تحريرها وتطهيرها من دنس الاحتلال اليهودي... هؤلاء أصبحوا متهمين بالتخلف والرجعية ، وبأنهم أناس تائهون في غيبوبة كاملة ، يبنون قلاعا من الرمال ، وتسيطر عليهم الأوهام والتخيلات والرؤى ، فيتصورون إمكانية القضاء على الدولة اليهودية الغاصبة ، مع أن وجودها بات حقيقة مؤكدة واضحة ، أكثر وضوحا من الشمس في رائعة النهار !!!!

هكذا ... صار المعروف منكرا والمنكر معروفا ، وقلبت الأوضاع والحقائق رأسا على عقب ، وهذا يؤكد ما سبق أن أثبتناه ، من أن تبعة الوضع السيئ للمسلمين في ظل النظام الدولي إنما تعود أولا وأخيرا إلى المسلمين أنفسهم ... ولهذا فلا عجب من موقف النظام الدولي إزاء المذابح والمجازر التي ارتكبها المجرمون الصهاينة ضد إخواننا المسلمين في المسجد الأقصى المبارك والمسجد الإبراهيمي في الخليل ، والتي سبقت الإشارة إليها .

أقول : لاعجب في موقف النظام الدولي إزاء هذا كله ، إذ أن المسلمين أنفسهم لم يحركوا ساكنا ولم يفعلوا شيئا تجاهها ، اللهم إلا صيحات الشجب والإدانة ، وفي الوقت نفسه التعبير عن الأمل العميق في أن لا تؤثر هذه الأحداث العارضة على المسيرة السلمية ... ولا عجب أيضا أن تفعل الدولة اليهودية الغاصبة بنا الأفاعيل طالما أن الجميع يهرول إليها ، ويحقق لها ما تصبوا إليه .... وتتمثل هذه الهرولة فيما يلي :

أولا : التنافس في إبرام المعاهدات مع الكيان الصهيوني الغاصب :

سارعت الولايات المتحدة الأمريكية لاستثمار انتصارها الكاسح في حرب الخليج الثانية (1991 م) وما أحدثه من آثار نفسية ومعنوية هائلة ، فجمعت العرب واليهود معا في العاصمة الأسبانية « مدريد » لتبدأ من هناك المسيرة التي أطلق عليها « المسيرة السلمية في الشرق الأوسط » ... وقد تمخض عن مؤتمر « مدريد » الذي عقد في 30 أكتوبر 1991 م : المباحثات الثنائية بين الدولة اليهودية وكل من منظمة التحرير الفلسطينية

والأردن وسوريا ولبنان ، والمباحثات متعددة الأطراف وتشارك فيها معظم دول المنطقة ودول أخرى كثيرة [1] .

وبينما المباحثات الثنائية تجرى في العاصمة الأمريكية وتتعدد جولاتها وفي كل مرة يتحدث الجميع عن تقدم أو تأخر المفاوضات ، وبينما كانت الوفود العربية تعقد اجتماعات تنسيقية قبل كل جولة ... بينما يحدث هذا كله إذ بالدولة اليهودية تعلن توصلها إلى اتفاق لإعلان المبادئ مع الفلسطينين – بعد مباحثات سرية للغاية جرت في العاصمة النرويجية « أوسلو » – تم توقيعه وسط مظاهر احتفالية كبيرة في واشنطن « في 13 سبتمبر 1993 م .. » [2] .

ثم وقعت الدولة اليهودية الغاصبة مع الفلسطينيين اتفاقا جزئيا في 9 فبراير 1994 م في القاهرة حول تنفيذ إعلان المبادئ [3] ... وبعد ذلك تم التوقيع في القاهرة أيضا على اتفاق الحكم الذاتي في قطاع غزة ومنطقة أريحا ، وكان ذلك في 4 / 5 / 1994 م [4] .

وبعد أن وصلت منظمة التحرير الفلسطينية إلى نهاية المضمار في ميدان السباق والهرولة نحو الدولة اليهودية ، إذ بالأردن أيضا يعلن أنه سيمضي قدما في مسعاه نحو توقيع اتفاقية سلام مع الكيان الصهيوني الغاصب ، دون انتظار لحدوث تقدم في المسارات التفاوضية الأخرى ، وبالفعل وقع ملك الأردن مع رئيس الوزراء الصهيوني اتفاقا في 25 يوليو 1994 م يقضي بإنهاء حالة الحرب وإلغاء المقاطعة الاقتصادية [5] ... ثم وقع الطرفان معاهدة سلام بينهما في 26 أكتوبر 1994 . [6] في منطقة وادي عربة الأردنية وسط احتفالات ضخمة شهدها الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ...

في سياق هذا التنافس المحموم ، وتحت ضغط الأضواء المبهرة والاحتفالات الضخمة ، استطاعت الدولة الصهيونية الغاصبة أن تملي شروطها وأن تستدرج الطرف

---

(1) ينظر التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 114 و ص 122 : 125 .

(2) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1993 ص 195 : 214 .

* السياسة الدولية ع 5 11 يناير 1994 . شهريات الأحداث الدولية سبتمبر 1993 ص 340 , 341 .

(3) ينظر : السياسة الدولية ع 7 11 يوليو 1994 . شهريات .. (فبراير 1994) ص 359 .

(4) ينظر : اتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني .. قراءة في المضامين والإشكاليات والتطورات المستقبلية . أحمد إبراهيم محمود السياسة الدولية – ع 7 11 يوليو 1994 ص 168 . من مدريد 1991 إلى القاهرة 1994 الأهرام ص 3 بتاريخ 4 / 5 / 1994 م .

(5) السياسة الدولية ع 8 11 أكتوبر 1994 شهريات .. (يوليو 1994) ص 327 .

(6) السياسة الدولية ع 9 11 يناير 1995 شهريات .. (أكتوبر 1994) ص 310 .

العربي إلى معاهدات مثل اتفاق غزة أريحا الذي تضمن شروطا مخزية منها :

1 - تبقى القوات اليهودية في قطاع غزة ومنطقة أريحا ، للاضطلاع بمهام الأمن الخارجي والدفاع ضد التهديدات الخارجية من البحر والجو ، وحماية الحدود مع مصر والأردن وكذلك تعيد الدولة اليهودية نشر قواتها حول وداخل المستوطنات اليهودية والقواعد العسكرية ، ويحق لليهود استخدام جميع الطرق بحرية تامة في كافة مناطق الحكم الذاتي ، بينما لايحق للفلسطينيين استخدام طرق معينة في مناطق المستوطنات اليهودية .

2 - تلتزم سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لمنع وقوع أي اعتداء على الدولة اليهودية أو المستوطنات أو القواعد العسكرية .

3 - كما تلتزم أيضا بوقف الدعاية ضد الكيان الصهيوني وفرض قيود على الحركات والمنظمات المناهضة له .

4 - تقوم السلطة الفلسطينية بحماية الأشخاص الذين تعاونوا أو سيتعاونون أو يعتقد في تعاونهم وتواطئهم مع الكيان الصهيوني .

5 - كما تقوم أيضا بإطلاع الحكومة اليهودية على أسماء أعضاء السلطة أو أي تغييرات تحدث في تشكيلها .

6 - في حالة نشوب أعمال عدائية ، أو تهديدات وشيكة الوقوع من جراء هذه الأعمال ، أو في حالة عدم قدرة السلطة الفلسطينية على منع الهجمات ضد المستوطنات أو « الإسرائيلين » فإن الكيان الصهيوني سيكون بمقدوره اتخاذ كافة الإجراءات الضرورية للرد على هذه الأعمال ، بما فيها إدخال قوات عسكرية إضافية حسبما يتطلب الأمر لحين إزالة هذا التهديد أو توقف الأعمال العدائية [1] .

ثم تواصلت حلقات مسلسل التنازلات ، وبعد مفاوضات طويلة في طابا المصرية ثم الإعلان عن التوصل إلى اتفاق لتوسيع مناطق الحكم الذاتي وقعه الطرفان في واشنطن يوم 1995/9/28 م وسط احتفالات ضخمة - كالعادة - ويُعني هذا الاتفاق - بصفة أساسية - بتأسيس « سلطة حكومة ذاتية فلسطينية » لفترة انتقالية لاتزيد على خمس سنوات ، اعتبارا من يوم توقيع اتفاق غزة أريحا في 1995/5/4 م أي حتى عام 1999 م .

---

(1) النص الكامل لاتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني منشور في الأهرام 4 / 5 / 1994 ص 5 . وينظر : اتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني . أحمد إبراهيم محمود - مرجع سابق - ص 168 : 170 .

ويجب التوقف طويلا أمام النقاط الآتية في هذا الاتفاق :

1 – فصَّلت المادة الحادية عشرة من الفصل الثاني الحديث عن « الأرض » التي سيمارس عليها « مجلس السلطة » الحكم الذاتي ، وجرى رسم ثلاث خرائط لها : قسمتها إلى فئة (أ) وهي المناطق كثيفة السكان ، وفئة (ب) وهي مناطق مسكونة تضم أراضي أميرية وأراضي وقف إسلامي ، وفئة (ج) وهي بقية مناطق الضفة الغربية التي سيجرى التفاوض بشأنها في مفاوضات الوضع النهائي .

وهذه الفئة الأخيرة تشمل كل منطقة القدس الكبرى ، وجميع المستوطنات « الإسرائيلية » ومختلف القواعد العسكرية الصهيونية .. وقد صدر تصريح عن مفاوض فلسطيني بأنها تمثل 67 % من أراضي الضفة الغربية ، بينما قال شيمون بيريز : إنها تمثل 72% .. وهذا يعني أن سلطة الحكم الذاتي ستمارس « مهامها » على 28 % فقط من أراضي الضفة الغربية .

2 – وما هي ياترى هذه المهام أو السلطات التي ستمارسها سلطة الحكم الذاتي ؟!

تنص المادة الثالثة عشرة على أن المجلس سيتقلد سلطات ومسئوليات الأمن الداخلي والنظام العام في مدن : جنين – نابلس – طولكرم – قلقيلية – رام الله – بيت لحم .. أما في الخليل فتطبق ترتيبات أمن خاصة لحماية « المستوطنين » المقيمين بها (350 مستوطنا بين 120 ألف عربي) .. وهناك 450 بلدة وقرية تحيط بهذه المدن وتضم 68 % من السكان الفلسطينيين سيكون للمجلس في مرحلة تالية سلطة عليها .. بينما تتولى « إسرائيل » – وفقا لنص المادة – سلطة الأمن العليا لحماية مواطنيها ومكافحة الإرهاب !!.. وتكون لهذه المسئولية الأسبقية عن المسئولية الفلسطينية .

3 – تكفَّل الفصل الرابع ببيان شكل العلاقة بين الجانبين وذلك عن طريق اللجان المشتركة التي يستفاد من نصوص المادة الثانية والعشرين أن كل « مسئول » في سلطة الحكم الذاتي محكوم من قبل مسئول « إسرائيلي » يناظره في مجال عمله [1] .

هذه بعض بنود اتفاق الحكم الذاتي الذي وقعته منظمة التحرير مع الكيان الصهيوني الغاصب .. تهدف جميعها إلى تثبيت أركان هذا الكيان ، بتمكين طرف فلسطيني خائن وتوكيله في مهمة القضاء على الحركات الشعبية التي تكافح وتناضل لتحرير

(1) يراجع التعرف على اتفاق طابا – واشنطن د / أحمد صدقي الدجاني ، الأهرام 1 / 1 / 1996 م ص 10 .

فلسطين وتطهيرها من الدنس الصهيوني .... أي أن الدولة اليهودية - بكل بساطة - جعلت الخنجر المسموم المصوب إلى قلب الفلسطيني بيد أخيه الفلسطيني الذي أسلم قياده وزمامه إلى الأيدي الصهيونية المجرمة تحركه كيفما تشاء وتوجهه حيثما تريد .

وقد أظهرت السلطة الفلسطينية همة ونشاطا لاحدود لهما في حماية الصهاينة ومحاولة القضاء على التيار الإسلامي في فلسطين الذي لايزال يتمسك براية الجهاد في سبيل تحرير الأرض المقدسة من براثن المجرمين الصهاينة .. فبعد أشهر قليلة من تسلمها السلطة قامت الشرطة الفلسطينية بإطلاق الرصاص في شوارع غزة على أنصار الحركات الإسلامية ، وقامت باعتقال أكثر من مائتي شخص منهم ، وقال ياسر عرفات أثناء رئاسته لاجتماع المجلس الأعلى أن لديه معلومات تؤكد أن « حماس » و « الجهاد » تلقتا أوامر من الخارج بمضاعفة الهجمات ضد « الإسرائيليين » وأكد وزير العدل في السلطة الفلسطينية أنها لن تسمح بوقوع أية عمليات عسكرية ضد الدولة اليهودية [1] .

وبعد وقوع عمليتين استشهاديتين في تل أبيب خلال شهر مارس 1996 م ، شمَّر عرفات ورجاله عن سواعد الجد ، وشنوا حملات عنيفة على أعضاء حركتي « حماس » و « الجهاد » وأعلن عرفات بكل زهو خلال استقباله وفدا من أعضاء المؤتمر اليهودي العالمي أن السجون في غزة أصبحت مكتظة بالمعتقلين من الإسلاميين الذين وصل عددهم إلى أكثر من 900 معتقل وأنه سيواصل حملاته لاعتقال المزيد منهم ... وقد استحق عرفات ورجاله الثناء الجارف من « شيمون بيريز » الذي أعلن عن ارتياحه ورضاه عن الجهود التي بذلتها السلطة الفلسطينية للقضاء على الإسلاميين [2] .

ورغبة من عرفات ورجاله في تقديم أقصى فروض الولاء وأعلى درجات التخاذل والاستسلام ألغى المجلس الوطني الفلسطيني في اجتماعاته في غزة من 22 إلى 1996/4/25 م ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية الذي كان ينص على أن الكفاح المسلح يشكل الطريق الوحيد لتحرير فلسطين ضمن حدودها التي كانت قائمة في عهد الانتداب البريطاني [3] .

وعلى الجانب الأردني لم تختلف المأساة كثيرا ، فقد أعيدت للأردن أرضه المحتلة مع بقاء المستوطنات اليهودية على حالها ، وقامت الحكومة الأردنية بتأجير الأراضي لليهود

---

(1) الأهرام 21 / 4 / 1995 ص 6 . (2) الأهرام 24 / 3 / 1996 ص 8 .
(3) الأخبار 22 / 4 / 1996 م ص 2 .

لمدة خمسين سنة [1] .

والحقيقة أن موقف الأردن بالذات يحتاج إلى وقفة تأمل طويلة ، فبعد اغتيال رئيس وزراء الكيان الصهيوني الراحل « إسحاق رابين » أدلى الملك حسين بتصريح لإذاعة الجيش الإسرائيلي أعرب فيه عن شعوره « بالغضب » و « الصدمة » و « الأسى » مؤكدا أن هذا الحادث البشع أكبر من أن يستطيع التعبير عنه بالكلمات ، وقال إن « رابين » كان « أخا » و« صديقا » و « زميلا » و « جنديا ومحاربا من أجل السلام » و « شهيدا » لقضية السلام [2] .

والأعجب من ذلك ما ذكرته صحيفة « هاتسوفيه » اليهودية من أن الملك حسين حذر الدولة اليهودية من الإفراط في « مغازلة » سوريا ومن التنازلات غير المحسوبة لها .. وأضافت الصحيفة أن رابطة مستوطني الجولان أعربت عن رضاها التام عن هذا الموقف وقالت : إنه لأمر طيب أن يوجد زعيم في الشرق الأوسط يحرص على مصالح دولة إسرائيل .. وقد دعت الرابطة الحكومة الصهيونية إلى أن تأخذ في اعتبارها مثل هذه التحذيرات وتكف عما سمته بـ « اللهاث المخزي » وراء الرئيس السوري حافظ الأسد [3] .

ومن هنا فلا عجب أن يؤيد « شيمون بيريز » تزويد الأردن بالأسلحة الأمريكية المتطورة وأن يعرب عن شعوره بأن الأردن أصبح شريكا حقيقيا من أجل السلام الحقيقي والأمن الحقيقي [4] .. هذا في الوقت الذي كانت فيه الدولة اليهودية تقيم الدنيا ولا تقعدها إذا حصلت أية دولة عربية أخرى على أسلحة أمريكية .

ولا عجب كذلك أن يتواصل المديح والثناء على الأردن من جانب رئيس الوزراء الصهيوني الحالي « بنيامين نيتنياهو » ووزرائه .

ثانيا : فتح الأبواب على مصراعيها أمام الكيان الصهيوني :

ما إن تم التوقيع على اتفاق الحكم الذاتي حتى دخلت الدول العربية في سباق محموم نحو الكيان الصهيوني الغاصب :

* فقد اجتمع وزير الخارجية القطري حمد بن جاسم في لندن مع وزير خارجية العدو

---

(1) تراجع الصحف الصادرة يومي 25 , 26 / 10 / 1994 ، للوقوف على الانتقادات الموجهة للأردن .

(2) الأهرام 6 / 11 / 1995 م ص 12 .

(3) عن الملك .. وسوريا وإسرائيل – إحسان بكر – الأهرام 14 / 1 / 1996 م ص 11 .

(4) الأهرام 9 / 1 / 1996 م ص 8 .

الصهيوني في 24 يناير 1994 ، لبحث مشروع يتكلف مليار دولار لتصدير غاز طبيعي قطري إلى أوروبا عن طريق خط أنابيب يربط ميناء إيلات بالبحر المتوسط [1] .

* كما أعلنت المتحدثة باسم وزارة الطاقة الصهيونية أن عددا من دول الخليج عرضت على الدولة الصهيونية الغاصبة تزويدها بالغاز الطبيعي [2] .

* وفي 30 / 10 / 1994 قررت دول الخليج إلغاء المقاطعة الاقتصادية ضد الكيان الصهيوني ، من الدرجتين الثانية والثالثة (وهما خاصتان بالشركات التي تتعامل مع العدو الصهيوني) [3] .

* أما الخطوة الأكثر خطورة فكانت في مؤتمر قمة الدار البيضاء الاقتصادية لدول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، التي عقدت في 31 / 10 / 1994 ولمدة يومين ، وحضرها عدد كبير من رؤساء الحكومات والوزراء ورجال الأعمال في معظم الدول العربية وبعض الدول الأوروبية والأمريكية بالإضافة إلى وفد كبير يضم 250 شخصا من الدولة اليهودية الغاصبة ، بينهم رئيس وزراء العدو ووزير خارجيته .. ففي هذا المؤتمر تجسد الإلغاء الفعلي للمقاطعة العربية بجلوس العرب مع الصهاينة المجرمين على مائدة واحدة ، ومناقشة مشروعات اقتصادية مشتركة ... وكان التخطيط للمؤتمر وجدول أعماله وإدارة مناقشاته وصياغة قراراته وتوصياته صناعة صهيونية أمريكية مشتركة ، بهدف فتح الأبواب على مصراعيها أمام الهيمنة الصهيونية الشاملة على المنطقة ، حيث قدمت الدولة اليهودية نفسها في هذا المؤتمر باعتبارها قارب النجاة وسفينة الإنقاذ التي ستصل بالمنطقة إلى شاطئ الرخاء وبر الازدهار بعد معاناة طويلة من الحروب التي أكلت الأخضر واليابس ، وفي هذا يقول وزير الخارجية الصهيوني في مؤتمر صحفي عقده بالدار البيضاء : « إنه لا يجب أن تستمر « إسرائيل » كدولة رفاهية ، بينما يحيا جيرانها في حالة فقر ، لأن الفقر يولد المرارة التي تدفع إلى التسلح ، الذي يقود بدوره إلى التطرف والعنف ... من ثم يجب العودة إلى جذور الصراع وهي : الفقر ، والتمييز ، وفقدان الأمل » [4] .

(1 ، 2) السياسة الدولية : ع 6 11 أبريل 1994 شهريات .. (يناير 1994) ص 304 .

(3) ينظر قرار مجلس التعاون الخليجي ومصير المقاطعة العربية لإسرائيل . عبد المنعم علي حسن السياسة الدولية ع / 11 9 يناير 1995 . ص 167 : 172 وانظر أيضا ص 352 شهريات أكتوبر 1994 .

(4) يراجع : قمة الدار البيضاء الاقتصادية د / عبد المنعم المشاط . السياسة الدولية : ع 9 / 11 يناير 1995 ص 227 : 236 .. وقد عقدت القمة الثانية في العاصمة الأردنية في نهاية أكتوبر 1995 ، والثالثة بالقاهرة في نوفمبر 1996 م .

* وتعددت بعد ذلك اللقاءات والاجتماعات ، وأصبح التعامل مع المجرمين الصهانية دليلا على التحضر وسعة الأفق والنظر الثاقب والفكر المستنير ، أما الحديث عن الجهاد لتحرير الأقصى وفلسطين فهو حديث ضيقي الأفق ذوي الفكر الظلامي المتخلف ..

ورغم كل هذا ، فإن المسلم الصادق على يقين من أنه سيأتي يوم غير بعيد ، يستعيد فيه المؤمنون المجاهدون أمجاد الإسلام الأولى ، فيدخلون المسجد الأقصى فاتحين ظافرين ، يقول الحق تبارك وتعالى في معرض الحديث عن إفساد بني إسرائيل في الأرض وانتصار أهل الإيمان عليهم : ﴿ .... فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [1] .. ويقول الحبيب المصطفى ﷺ : « لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله ورائي يهودي تعال فاقتله ، إلا شجر الغرقد ، فإنه من أشجار اليهود » [2] .

الحرب إذا قادمة لا محالة ، والمسلمون عنها غافلون ، بينما على الجانب الآخر تجد اليهود الملاعين يستعدون لها تمام الاستعداد ، فقد أعلن رئيس وزراء الكيان الصهيوني أنه يتعين على « إسرائيل » أن تكون مستعدة لخوض حرب شاملة على المدى المتوسط وعلى المدى البعيد .. [3] وبالفعل فإن الدولة اليهودية تبذل قصارى جهدها لتكون دائما على أهبة الاستعداد ، وتمتلك ترسانة ضخمة من الأسلحة الحديثة بكافة أنواعها [4] ، بينما يرفع المسلمون رايات السلام وينشدون شعارات المحبة والإخاء .

---

(1) سورة الإسراء : جزء من آية (7) والآية (8) .

(2) مسلم : ك الفتن / ب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء 4/ 2239 (82- 2922) - أحمد 2 / 17 .. كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(3) الأهرام 10 / 1 / 1995 ص 1 .

(4) هذا ما قاله « إسحاق رابين » في احتفال لتأبين ثلاثة آلاف جندي صهيوني قتلوا في حرب أكتوبر 1973 م ، وقال رابين : لن نكرر أخطاء يوم الغفران ، ونحن مستعدون لأي احتمال ونعزز جيشنا بأحدث تجهيزات الحرب الحديثة : الأهرام 6 / 10 / 1995 م ص 1 .

2 – لبنان

لا تزال فصول المأساة اللبنانية تتوالى يوميا ، حيث تحتل الدولة اليهودية جزءا كبيرا من الجنوب اللبناني تطلق عليه « الحزام الأمني » وأنشأت ما يسمى « جيش لبنان الجنوبي » ليكون ذراعها القوية في جنوب لبنان ، كما واصلت اعتداءاتها اليومية بالغارات الجوية والقصف الصاروخي والمدفعي المكثف ، ولا يكاد يمر يوم واحد دون حدوث اعتداء يهودي على لبنان ، في الوقت الذي يصم فيه النظام الدولي آذانه عما يحدث من مآس في هذا البلد ، ويتعامى ويتغافل عن تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 425 الذي يقضي بانسحاب الدولة اليهودية من جنوب لبنان .

كما تقاعس النظام الدولي في مواجهة الاعتداءات المكثفة من قبل الكيان الصهيوني على لبنان خلال صيف عام 1994 ، والتي وصفت بأنها أعنف حملة تشنها الدولة الصهيونية على لبنان منذ غزوها له عام 1982 . [1]

ولكن هذه الاعتداءات لا تساوي شيئا إذا ما قورنت بالحرب العنيفة التي شنتها الدولة الصهيونية الغاصبة على لبنان وأطلقت عليها اسم « عناقيد الغضب » طوال أسبوعين كاملين من شهر أبريل 1996 م . ويكفي لبيان مدى شناعة وبشاعة هذا العدوان الآثم أنه في اليوم الثالث لبدئه أطلقت المدفعية الإسرائيلية ما يزيد على ثلاثة آلاف قذيفة خلال أربع وعشرين ساعة ، كما بلغ عدد الغارات الجوية ست عشرة غارة استهدفت الضاحية الجنوبية للعاصمة بيروت وتسعا وأربعين قرية في الجنوب وموقعا للجيش السوري وآخر للجيش اللبناني كما بلغ عدد الضحايا أربعا وأربعين قتيلا وأكثر من مائة مصاب ، وترتب على ذلك نزوح ما يزيد على مائتي ألف لبناني عن قراهم في الجنوب اللبناني [2] .

وفي إحصائية للقوات الدولية العاملة في جنوب لبنان تبين أن الطيران الصهيوني قد شن – على مدى أسبوعين – 523 غارة على لبنان ، تم خلالها إسقاط 32 ألف قذيفة . وأن العدوان الصهيوني قد أدى إلى وفاة 155 لبنانيا وإصابة عدة مئات معظمهم من المدنيين ... وقد تبين أن القذائف الصهيونية قد أطلقت عمدا على محطات المياه والكهرباء وشبكات الصرف الصحي وكذلك تعمدت القوات الصهيونية قصف طرق

---

(1) ينظر على سبيل المثال : الأهرام ص 4 والجمهورية ص 2 كلاهما في 3 / 6 / 1994 والأخبار 4 / 6 / 94 ص 1 و8 / 6 / 1994 ص 2 .

(2) الأهرام 14 / 4 / 1996 ص 8 .

المواصلات لقطع طريق قوافل الإغاثة والإسعاف والمعونات الغذائية والطبية عن مدن وقرى جنوب لبنان [1] .

أما جريمة الجرائم في العدوان الصهيوني الآثم فتمثلت في مذبحة قرية « قانا » التي سقط فيها أكثر من 104 شهداء في لحظة واحدة ، إثر قصف صهيوني متعمد لمعسكر تابع للقوات الدولية في جنوب لبنان ، كان كثير من اللبنانيين قد لجأوا إليه طلبا للحماية من القصف الصهيوني العنيف لقراهم .. وكان الكيان الصهيوني الغاصب قد حاول التنصل من جريمته هذه مدعيا أن قصف موقع الأمم المتحدة قد تم بطريق الخطأ وأن الجيش الصهيوني لم يكن يعلم بوجود مدنيين في الموقع .. ولكن شريط « فيديو » قام بتصويره أحد جنود الأمم المتحدة أكد أن القوات الصهيونية كانت تعلم يقينا بوجود المدنيين في المعسكر وقد تعمدت قصفه معتمدة على طائرة استطلاع بدون طيار كانت تحلق فوق الموقع أثناء قصفه .. وقد ادعى الكيان الصهيوني أن الطائرة كانت في مهمة أخرى .. ثم عاد ليقول : إن القصف حدث بطريق الخطأ نتيجة لوجود عيوب في الخرائط العسكرية ، ولكن تقرير محققي الأمم المتحدة أثبت أن قصف الموقع وقتل المدنيين كان متعمدا [2] .

ورغم هذه المشاهد المأساوية ، وقف النظام الدولي موقف المتفرج ، واستطاعت الولايات المتحدة أن تشل حركة مجلس الأمن وتمنعه من مجرد إصدار قرار بإدانة الكيان الصهيوني – مجرد إدانة لفظية – بل إنها حمّلت المقاومة الإسلامية مسئولية العدوان الآثم .. وكأن المطلوب في نظر الولايات المتحدة أن يغض اللبنانيون الطرف عن جزء من بلادهم يقع تحت براثن الاحتلال الصهيوني ، وإلا فإنهم في نظر أمريكا والنظام الدولي الجديد إرهابيون يستحقون التقتيل والتشريد .

وتكررت عمليات القرصنة والاختطاف اليهودية ضد زعماء المقاومة الإسلامية في الجنوب اللبناني وطلبت الدولة الصهيونية من لبنان نزع أسلحة المقاومة ووقف العمليات الفدائية التي يقوم بها حزب الله والمقاومة الإسلامية .

وتحرص الدولة اليهودية دائما على بث الذعر والرعب في نفوس أهل الجنوب اللبناني لدفعهم إلى الهجرة والفرار ، وذلك باستخدام أسلحة ذات قوة تدميرية عالية ومحاربة الناس في أرزاقهم وأقواتهم .

(1) الأهرام 26 / 4 / 1996 م ص 3 .　　(2) الأهرام 7 / 5 / 1996 م ص 1 , 9 .

فقد استخدم الجيش الصهيوني صواريخ من طراز (ذهب – 50) تحمل رؤوسا زنتها نصف طن من المتفجرات ، وهي تنشر الدمار في منطقة مساحتها 400 مترا ، ويصل الحطام الناتج عنها إلى أماكن تبعد 2 كيلو مترا [1] .

ومن ناحية أخرى لجأت قوات الاحتلال الصهيوني إلى سياسة الأرض المحروقة حيث أحرقت مساحات شاسعة من الأراضي والمحاصيل الزراعية في جنوب لبنان على مرأى من أصحابها [2] ... كما فرضت حصارا بحريا على ميناء « صور » ومنعت الصيادين من الخروج إلى عرض البحر للبحث عن أرزاقهم وأقواتهم .

والأخطر من ذلك أن الدولة اليهودية تخطط وتنفذ مشروعات عديدة في جنوب لبنان ، مما يوحي بأنها لا تنوي الانسحاب من تلك المنطقة ، بل وقامت بتحويل مجرى بعض الأنهار اللبنانية وسرقة مياهها ... وحينما قدمت الحكومة اللبنانية طلبًا إلى الأمم المتحدة بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق حول هذه القضية ، رفض الدكتور بطرس غالي السكرتير العام للأمم المتحدة هذا الطلب [3] .

هذا ... وسوف تظل المشاهد المأساوية مستمرة في جنوب لبنان ، طالما أن الدولة اليهودية تغدو فيه وتروح دون حسيب أو رقيب ، وطالما أن النظام الدولي يتعامى عن تنفيذ القرارات الدولية الخاصة به ، وطالما أن الدول العربية والإسلامية تكتفي بالشجب والإدانة كلما انتهكت حرمة الأراضي اللبنانية واعتدى على أهل الجنوب اللبناني .

* * *

---

(1) الأهرام ص 6 , 13 / 8 / 1994 .

(2) الأهرام 6 , 31 / 7 / 1994 .

(3) الجمهورية 30 / 7 / 1994 ص 1 .

3 – العراق

تحدثنا فيما سبق عن العراق في غير موضع ، وناقشنا قضية تسخير الأمم المتحدة واستخدامها كأداة قانونية لتحقيق أهداف خفية تصب في النهاية في مصالح القوى الكبرى الصليبية اليهودية ، وأثبتنا أن حرب الخليج الثانية (1991 م) لم تكن إلا عملا صهيوني الدوافع صليبي الغاية .

وهنا نستكمل أهم وقائع المؤامرة الدولية على العراق بعد حرب الخليج .

1 – مواصلة الاعتداء على العراق عسكريا :

تواصلت عمليات الاعتداء على العراق وضربه عسكريا ، إذ أن القوى الكبرى – وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية – يبدو أنها جعلت ضرب العراق – والاعتداء عليه عسكريا – عملا سهلاهينا روتينيا ، يتم تنفيذه دون حسيب أو رقيب ، وتحت أوهى الأسباب المختلفة والدوافع الكاذبة ، ودون الرجوع إلى الأمم المتحدة أو الخوف من رد الفعل في العالم الإسلامي .

* كانت البداية متمثلة في حظر فرضته القوى الكبرى على تحليق الطيران العراقي في جنوب العراق وشماله في أغسطس 1992 ، ووجهت كل من أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا إنذارًا إلى العراق بأن أي طائرة عراقية تحلق في أجواء هاتين المنطقتين سيتم إسقاطها على الفور ... [1] . وبالفعل أسقطت الطائرات الأمريكية طائرة عراقية من طراز « ميج » في 27 / 12 / 1992 م . [2] .

* ثم جاء شهر يناير 1993 ليشهد عدوانا غبيا خسيسا على العراق .. حيث عادت الدول الأربع المذكورة سابقا ووجهت إنذارا رباعيا إلى العراق بسحب عدة صواريخ قام بنشرها في المنطقة التي فرض حظر على الطيران العراقي فيها ، وادعت هذه الدول أن تلك الصواريخ تشكل خطرا على طائرات التحالف التي تقوم بمهمة مراقبة الحظر الجوي ... [3] .

وحينما رفض العراق هذا الإنذار لانتهاكه سيادته واستقلاله ، شنت قوى العدوان الصليبية الصهيونية هجمات متتابعة على العراق :

---

(1) السياسة الدولية ع 1 / 11 يناير 1993 . شهريات ... أغسطس 1992 ص 326 .
(2) السياسة الدولية ع 2 / 11 أبريل 1993 . شهريات ... ديسمبر 1992 ص 266 .
(3) المرجع السابق . نشاط الأمم المتحدة ص 280 .

– كان أولها في 13 / 1 / 1993 م ، حينما قامت طائرات التحالف بتوجيه ضربة خاطفة ضد ستة قواعد عسكرية عراقية ، مما أدى إلى مقتل 19 وإصابة 15 شخصا [1] .

– وبعدها بأربعة أيام وفي 17/1/1993 قصفت الطائرات الأمريكية بالقنابل العنقودية قواعد للرادار والصواريخ ، كما شنت السفن الحربية الأمريكية في الخليج هجوما صاروخيا على عدة أهداف داخل العاصمة العراقية [2] .

– حينئذ ظن العراق أن رحيل الرئيس الأمريكي « جورج بوش » وتولى « بيل كلينتون » مقاليد الحكم سيكون كفيلا بإنهاء العدوان وحدوث انفراجة في الموقف الأمريكي تجاه بغداد لذا ... أعلن العراق في اليوم السابق لنقل السلطة من « بوش » إلى « كلينتون » وقف إطلاق النار من جانب واحد ، والسماح لطائرات الأمم المتحدة بالهبوط في بغداد وضمان سلامتها ، واستعداد العراق للتفاهم مع الإدارة الأمريكية الجديدة ... وساد اعتقاد في الأوساط العراقية بحتمية حدوث تغيير في الموقف مع مجيء « بيل كلينتون » .. ولكن هذه الأماني العراقية لم تكن إلا أضغاث أحلام ومجرد تخيلات وأوهام ... فبعد تولي كلينتون السلطة بساعات قليلة شنت الطائرات الأمريكية هجوما عنيفا على العراق في 21 / 1 / 1993 م [3] ثم قامت 75 طائرة حربية أمريكية وبريطانية وفرنسية بغارات عنيفة على شمال وجنوب العراق ، وذلك بعد مضي أقل من 24 ساعة على تولي « كلينتون » السلطة في « واشنطن » [4] .

– كما شهد شهر أبريل 1993 م حدوث اعتداءين على العراق ، كان أولهما في 9/4/1993 حينما قصفت طائرات أمريكية موقعا عراقيا ، وكان ثانيهما في 18/4/1993 حينما قتل 3 جنود عراقيين من جراء قصف أمريكي لمحطة رادار عراقية في الشمال ، بدعوى أنها حاولت استكشاف طائرتين أمريكيتين كانتا تحلقان في المنطقة المحظورة [5] .

– ويأتي شهر يونيو 1993 ليشهد المهزلة الكبرى ، حينما وجهت الولايات المتحدة ضربة عسكرية إلى العاصمة العراقية ، وقصفت مقر المخابرات العراقية وأصابت أهدافا

---

(1) المرجع نفسه ص 268 وص 280 ، كما يراجع : العراق .. أبعاد وأهداف الضربة الجوية . أيمن السيد عبد الوهاب ص 191 : 193 .

(2) ينظر : السياسة الدولية ع 2 / 12 أبريل 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 268 , 280 ،، كما يراجع في العدد نفسه : العراق .. أبعاد وأهداف الضربة الجوية – أيمن السيد عبد الوهاب – ص 191 : 193 .

(3) المرجع السابق .

(4) المرجع نفسه .

(5) السياسة الدولية ع 113 يوليو 1993 . شهريات ... أبريل 1993 ص 310 .

مدنية بأكثر من 23 صاروخ « كروز » مما أدى إلى سقوط العديد من الضحايا الأبرياء ... كل هذا بحجة الانتقام من العراق لمحاولة المخابرات العراقية اغتيال الرئيس الأمريكي السابق « جورج بوش » أثناء زيارته للكويت . ومن العجيب أن الولايات المتحدة بعد هذا العدوان الإجرامي سارعت بتقديم شكوى عاجلة إلى مجلس الأمن ضد العراق ، بسبب الادعاءات الأمريكية بتورط العراق في محاولة الاغتيال المذكورة [1] .

يحدث هذا في الوقت الذي لم تكن المحكمة الكويتية الخاصة بمحاكمة المتهمين في تلك القضية لم تكن قد أصدرت حكمها بعد ، وإنما تم التأجيل عدة مرات قبل أن يصدر الحكم النهائي بإدانة المتهمين بعد عام تقريبا من الغارة الأمريكية ، مما يعني أن حكم الإدانة كان سياسيا بدرجة أكبر من كونه مجرد حكم قضائي .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كشفت مجلة « نيوزويك » الأمريكية نقلا عن كتاب بعنوان « الكوماندوز ... القصة الحقيقية للجنود السريين لأمريكا » أن المخابرات الأمريكية كانت قد وضعت خطة لاغتيال الرئيس العراقي صدام حسين أثناء تنقله بين بغداد والكويت أثناء الاحتلال العراقي للكويت ، ولكن العملية لم تتم بسبب معارضة الجنرال « نورمان شوا رزكوف » قائد قوات التحالف لها ... [2] أقول : ألم يكن من حق العراق أن ينتقم من أمريكا وأن يجأر بالشكوى إلى مجلس الأمن ، قياسا على ما فعلته أمريكا نفسها ؟!

وأقول أيضا : كيف تكون أوضاع العالم إذا أقدمت كل دولة على الانتقام من الأخرى بسبب معلومات غير مؤكدة عن محاولة لاغتيال أحد مواطنيها ؟! لا شك أنها ستكون فوضى لا مثيل لها ومهزلة لا نظير لها على الإطلاق .

* ثم واصلت الولايات المتحدة عدوانها الإجرامي على العراق ، فقامت الطائرات الأمريكية في 1993/6/29 بتدمير محطة رادار عراقية في منطقة البصرة جنوب العراق ... والمأساة هنا أن الرئيس الأمريكي قد أبلغ السكرتير العام للأمم المتحدة بالغارة قبل وقوعها بقليل ولكنه لم يتشاور معه بشأنها .. [3] وليس لهذا الموقف من دلالة سوى أن الولايات المتحدة قد أعطت لنفسها الحق المطلق والحرية الكاملة في أن تعتدي على من تريد كيفما

---

(1) السياسة الدولية ع 114 أكتوبر 1993 شهريات .. يونيو 1993 ص 305 ، نشاط الأمم المتحدة ص 316 .

(2) الأخبار 4 / 1 / 1994 ص 2 .

(3) السياسة الدولية ع 114 أكتوبر 1993 . نشاط الأمم المتحدة ص 316 .

تريد في أي وقت تريد ، طالما أن الأمم المتحدة التي تدعي المحافظة على السلم وتزعم صيانة استقلال الدول - تغط في سبات عميق ، وتعطي الضوء الأخضر للسيد الأمريكي الأكبر ليعيث في الأرض فسادا وليحيل الزرع الأخضر رمادا .

* أما شهر يوليو 1993 فقد شهد حدوث غارتين : إحداهما في 24/7/1993 وفيها دمرت الطائرات الأمريكية بطارية صواريخ مضادة للطائرات ، والأخرى في 29 من الشهر نفسه حينما قصفت موقعين للصواريخ العراقية المضادة للطائرات [1] .

* ثم عاودت الولايات المتحدة عدوانها الآثم على العراق ، فأطلقت يومي 1996/9/4,3 م ما مجموعه 44 صاروخا من طراز (توماهوك - كروز 86) أدت إلى تدمير 15 موقعا عراقيا (8 مواقع صواريخ دفاع جوي + 7 منشآت لمراكز القيادة والسيطرة وإدارة العمليات) ، وأعلنت الولايات المتحدة توسيع منطقة الحظر الجوي في جنوب العراق لمسافة 60 ميلا في اتجاه الشمال لتصل إلى خط عرض 33 شمالا [2] .

وقد حاولت الولايات المتحدة تبرير عدوانها الإجرامي على العراق بأنه ردٌّ على تدخل القوات العراقية لصالح قوات الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البرزاني ضد قوات حزب الاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة جلال الطالباني المدعوم من إيران . وهذا - لعمري - عذر أقبح من الذنب ، فالقوات العراقية تدخلت في الصراع الكردي بناء على طلب من البرزاني ، بالإضافة إلى أن الجيش العراقي لم يعتد على دولة أجنبية وإنما مارس مهامه على أرض عراقية تمثل جزء من الدولة العراقية ، كما أن الحظر المفروض على الطيران العراقي في الشمال لا يمتد إلى تحركات القوات البرية .

من هنا لا يمكن فهم العدوان الأمريكي ودوافعه إلا في إطار الخطة غير المعلنة لتقسيم العراق وتقطيع أوصاله .

هذا ... ولا تزال هذه المأساة مستمرة ، حيث تغدو الطائرات الغربية في سماء العراق وتروح [3] ، وكلما شكا إلى مجلس الأمن من الانتهاكات المستمرة لسيادته واستقلاله لا

---

(1) السياسة الدولية العدد السابق شهريات (يوليو 93) ص 308 .

(2) للوقوف على تفصيلات العدوان والظروف الدولية والإقليمية المحيطة . يراجع : حرب الخليج الثالثة .. ضربة الصحراء د / ممدوح أنيس فتحي . السياسة الدولية ع 126 أكتوبر 1996 م ص 197 - 201 .

(3) ذكر وزير خارجية العراق أن الطائرات الغربية انتهكت أجواء العراق من خلال 8917 طلعة جوية خلال الفترة من يوليو حتى ديسمبر 1994 فقط ، الأهرام 11 / 2 / 1995 ص 6 .

يجد إلا الإهمال واللامبالاة .

2 – تدمير قدرات العراق العسكرية وإخضاعه للتفتيش الدائم :

أثبتنا في الفصل الأول – عند الحديث عن السيطرة اليهودية على النظام الدولي الجديد – أن حرب الخليج الثانية كانت تهدف بدرجة أو بأخرى إلى تدمير القدرات العسكرية العراقية ، حفاظا على المصالح الصهيونية والصليبية في المنطقة الإسلامية .

وبعد الحرب ، تركز موقف هذه القوى من العراق في استغلال وتسخير الأمم المتحدة من أجل ضمان تدمير ما تبقى من إمكانات وقدرات عسكرية عراقية يمكن أن تشكل خطرا مستقبليا محتملا ضد الأطماع الصهيونية الصليبية في قلب العالم الإسلامي وقد عبر عن ذلك بوضوح « مارتن أنديك » الباحث ومدير قسم الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي الأمريكي حينما قال : « نحن محظوظون لأننا ورثنا توازنا للقوى في المنطقة فيه مستوى منخفض إلى درجة كبيرة من القدرة العسكرية التي تهدد مصالحنا ، وأن الجيش العراقي المؤلف من مليون رجل وسبعين فرقة غير موجود . والتحدي هنا هو المحافظة على هذا الوضع . »[1] ....

ولقد اضطر العراق – تحت وطأة الضربات العسكرية المتلاحقة وزيادة الضغط الاقتصادي والعسكري – إلى الموافقة غير المشروطة قبل انتهاء عام 1993 على « تنفيذ كافة الالتزامات الواردة في القرارات الدولية الصادرة بحقه في أعقاب حرب الخليج ، لاسيما بعض الفقرات والمواد ذات الصلة بعمليات تدمير ووقف إنتاج الأسلحة الصاروخية ذات المدى الأبعد من 1250كم والأسلحة البيولوجية والكيماوية ، مع القبول بخطط الوكالة الدولية للطاقة الذرية بشأن التفتيش المستمر وطويل الأمد لبرامج التسليح العراقية في المجالات النووية . وتبرز هنا الفقرة (ج) من القرار الدولي رقم 687 الصادر في أبريل 1991 ، وهي الفقرة التي تتضمن ثماني مواد تقرر حق الوكالة الدولية في القيام بعمليات تفتيش وتحقُّق فورية للمواقع النووية العراقية ، كما تبيح للوكالة عمليا وضع خطة للتفتيش طويل المدى ، إلى جانب الحق في التحقق من أية معلومات تظهر لاحقا عن البرنامج النووي العراقي ...

وكذلك القرار 715 الصادر في صيف 1991 والخاص بتدمير برامج الأسلحة والصواريخ الأبعد من 150 كم ، والذي ينص أيضا على وضع كاميرات للمراقبة في مواقع تجارب الصواريخ العراقية للتحقق من التزامها الشروط الواردة في القرار . »[2] .

---

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1993 ص 73 .   (2) التقرير الاستراتيجي العربي 1993 ص 78 , 79 .

وقد نجحت القوى الكبرى بالفعل في استثمار تلك القرارات وتوظيفها في إذلال العراق وإخضاعه وامتهان سيادته واستقلاله ، فقد قامت بالتفتيش في جميع المواقع العسكرية بل وطلبت تفتيش الوزارات [1] ، ثم دمرت جميع المخزون العراقي من الأسلحة الكيماوية [2] ، ثم قامت بوضع نظام للمراقبة يغطي كافة الأراضي العراقية ويعتمد على أحدث الأجهزة التكنولوجية تحت مسئولية 100 شخص يقودهم خبير سويدي [3] .

ولم تكتف قوى العدوان بهذا كله ، بل ذهبت إلى ما هو أخطر كثيرا ، حينما أكد « رولف إيكيوس » رئيس فريق التفتيش الدولي المكلف بنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية أن فريقه قد وضع خطة محكمة للسيطرة على صادرات وواردات العراق للتأكد من عدم قدرته على إعادة بناء آلته العسكرية عندما يتم رفع العقوبات ... وتقوم هذه الخطة على ضرورة أن تسجل كل الدول الأعضاء بالأمم المتحدة أية سلعة تباع أو تشترى من العراق ويمكن استخدامها في الصناعة العسكرية [4] .

كما أجبرت القوى الكبرى العراق على القبول بوضع كاميرات للمراقبة في مواقع الإنتاج العسكري رغم ما يمثله هذا الوضع من خطورة بالغة ومن عدوان على سيادة العراق واستقلاله [5] .

ومع هذا كله ، ورغم التدمير الشامل لقدرات العراق وإمكاناته العسكرية – بل والصناعية أيضا – لا يزال هناك حديث متواصل في الغرب عن القوات العسكرية الهائلة التي يمتلكها العراق ، وعن الخطر الذي يترتب على ذلك :

* فالرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » يؤكد أن العراق لا يزال يشكل خطرا استثنائيا وغير عادي على أمن الولايات المتحدة وسياستها الخارجية وعلى السلام في الشرق الأوسط [6] .

* وخبير أمريكي في السياسة الدولية يحذر من أن العراق سيكون مصدر الخطر وبؤرة الحرب في المنطقة خلال السنوات القليلة المقبلة . [7] .

---

(1) السياسة الدولية ع 111 شهريات . أغسطس 1992 ص 326 .
(2) الأهرام 21 / 4 / 1994 ص 6 ، السياسة الدولية ع 117 يوليو 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 375 .
(3) السياسة الدولية : المرجع السابق ، والأخبار 16 / 9 / 1994 ص 2 .
(4) الأهرام 2 / 6 / 1994 م ص 6 .
(5) السياسة الدولية ع 114 أكتوبر 1993 شهريات .. ص 308 ونشاط الأمم المتحدة ص 316 .
(6) السياسة الدولية ع 118 أكتوبر 1994 ونشاط الأمم المتحدة ص 341 .
(7) الأخبار 4 / 4 / 1994 ص 2 .

* ومجلة « جينز » المتخصصة في الشئون العسكرية تؤكد أن العراق لديه 2500 دبابة و 30 فرقة عسكرية ، وأن المصادر العسكرية الغربية تؤكد قدرة العراق على غزو الكويت مرة أخرى بما يمتلكه من قدرات عسكرية هائلة [1] .

وهنا أقول : هل يصدق عاقل أن العراق بعد الضربات الساحقة التي تلقاها في حرب الخليج وما تلاها لا يزال يمتلك كل هذه الأسلحة والقوات ؟! أم أن هذه الإحصائيات والأرقام ما هي إلا خدعة كبرى لتصوير العراق على أنه القوة المخيفة التي تشكل تهديدا خطيرا للمنطقة مما يقتضي بقاء وتدعيم الوجود الصليبي واليهودي في المنطقة لمواجهة هذا التهديد المزعوم والقضاء عليه ؟!

3 - العراق يئن تحت وطأة الحصار الظالم :

يعد الحصار الذي فرضته القوى الكبرى - تحت ستار الأمم المتحدة - على العراق أخطر جوانب المؤامرة الصهيونية الصليبية ضد هذا البلد المسلم ، لما ينتج عنه من آثار مأساوية على الجانب الإنساني متمثلة في وفاة العديد من الأطفال الرضع والشيوخ المسنين ، نتيجة لنقص الأغذية والأدوية وعدم التمكن من الحصول على الخدمة الصحية العادية في الداخل أو السفر للعلاج في الخارج .

وقد دأب مجلس الأمن على تجديد العمل بالعقوبات المفروضة على العراق كل شهرين ، رغم أن العراق قد أقدم على جميع الخطوات التي طلبت منه لقاء رفع العقوبات ، وقطع الطريق على الأعذار والحجج التي كانت تسوقها الدول الكبرى - خاصة الولايات المتحدة - التي كانت تتذرع دائما بأن العراق لم يمتثل بعد لجميع قرارات مجلس الأمن الخاصة به ، ولم ينفذ كل ما هو مطلوب منه لرفع الحصار المضروب عليه منذ ست سنوات ، وأخذت تتلاعب بالعراق كيفما تشاء مستغلة في هذا المضمار تقارير اللجنة الخاصة بنزع الأسلحة العراقية النووية والكيماوية .. وغيرها ..إذ أنه كلما حان موعد المراجعة الدورية للعقوبات في مجلس الأمن يأتي تقرير اللجنة بما يفيد أن العراق لا يزال يخفي برامجه التسليحية ولا يتعاون مع فرق التفتيش الدولية [2] ، مما يؤدي إلى صدور القرار باستمرار العمل بالعقوبات ، بينما يعلن رئيس اللجنة في مناسبات أخرى أنه تم القضاء تماما على أسلحة الدمار الشامل العراقية وأن العراق يتعاون

---

(1) السياسة الدولية ع 111 يناير 1993 شهريات ... أغسطس ص 326 .

(2) ينظر السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 ص 239 ، ع 115 يناير 1994 ص 353, 354 والأهرام 11/2/1995 ص 6 .

مع المفتشين الدوليين بشكل جيد .. [1] ولا شك أن هذا يؤكد مدى عمق المؤامرة الدولية ضد هذا البلد الذي فعل كل شيء طلب منه فعله لرفع العقوبات ، ولكن هيهات ... فالمؤامرة الصليبية الصهيونية محبوكة تماما بحيث لا يستطيع العراق الفكاك منها مهما قدم من تنازلات ومهما قطع من الأشواط في سبيل إرضاء قوى العدوان ... [2] .

ومن الخطوات المهمة التي أقدم عليها العراق بهدف رفع العقوبات :

* موافقته غير المشروطه على تنفيذ جميع بنود القرارات الدولية الصادرة ضده في أعقاب حرب الخليج بما فيها تدمير قدراته النووية والكيميائية وغيرها ، وخضوعه للرقابة والتفتيش الدائم على برامجه التسليحية والصناعية كما تقدم بيانه .

* تقديمة قائمة بأسماء الهيئات والشركات الأجنبية التي ساهمت في برنامجه لإنتاج الأسلحة الكيميائية ، بناء على طلب الدول الكبرى [3] .

* اعترافه بسيادة دولة الكويت واستقلالها السياسي وحدودها الإقليمية التي تم ترسيمها بواسطة الأمم المتحدة .. [4] .

وغيرها من الخطوات التي كان يجب على مجلس الأمن أن يتفاعل معها إيجابيا برفع الحصار عن العراق إن كان حقا يسير على مبادئ الشرعية كما يدعي قادة النظام الدولي الجديد ... ولكن الحقيقة المؤلمة التي سبق أن أكدناها مرارا تنطق بأن مجلس الأمن خاصة والأمم المتحدة عامة ما هي إلا شعارات زائفة أو غطاء خادع تستخدمه قوى البغي والعدوان لإضفاء الصبغة القانونية على تحركاتها الآثمة في العالم أجمع ...

ومما يؤكد هذه القضية هنا أن البيت الأبيض الأمريكي قد علق على قرار العراق الاعتراف بالكويت بأن هناك عددا من البنود الواردة في القرارات الدولية يجب أن يلتزم

(1) ينظر السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 ص 239 ، ع 115 يناير 1994 ص 353 , 354 ، والأعداد من يناير 1995 حتى أكتوبر 1996 م في باب : نشاط الأمم المتحدة . والأهرام 11 / 2 / 1995 ص 6 .

(2) ينبغي الإشارة هنا إلى كلمات « مادلين أولبرايت » مندوبة الولايات المتحدة في مجلس الأمن في 24 / 2 / 1995 م ، أثناء احتدام المناقشات في المجلس حول مسألة رفع أو تخفيف العقوبات عن العراق ، فلقد شككت في احتمال أن يقدم « رالف إيكيوس » تقريرًا إيجابيا لصالح العراق ، وقالت : إن الولايات المتحدة مصممة على إبقاء الحظر النفطي على العراق حتى ولو قدم إيكيوس تقريرًا إيجابيا . ينظر السياسة الدولية ، 120 [أبريل 1995] – نشاط الأمم المتحدة ص 322 .. ويعتقد الباحث أن كلمات المندوبة الأمريكية ناطقة بما فيه الكفاية ولا تحتاج إلى أي تعليق .

(3) الأهرام 30 / 4 / 1994 ص 6 .

(4) السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 ص 359 , 360 ، ع 120 أبريل 1995 ص 313 .

بها العراق قبل مناقشة رفع العقوبات ، ومنها : الإفراج عن السجناء السياسيين ، وإعادة الممتلكات الكويتية ، وتفكيك برنامج الأسلحة العراقي [1] .

وقد كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن اتجاه كل من فرنسا وروسيا والصين وتركيا إلى المطالبة برفع الحظر عن العراق لأسباب اقتصادية تتعلق بديون عراقية لكل من فرنسا وروسيا ومصالح اقتصادية للصين وتركيا وغيرها من الدول الأخرى .. [2] والواقع أن الحديث عن الخلاف بين الدول الكبرى ذات العضوية الدائمة في مجلس الأمن حول هذه المسألة حديث غير واقعي إلى حد كبير ، فالقرارات الدولية الخاصة باستمرار فرض العقوبات على العراق كانت تصدر بالإجماع غالبا أو بالأغلبية الساحقة على أقل تقدير ، أضف إلى هذا أن الدول الكبرى تعودت على مراعاة مصالح بعضها البعض عند اتخاذ أي قرار ، فالحديث عن الخلافات في هذا الصدد حديث لا مبرر له في نظري .

وعلى سبيل المثال تجد أن القرار الذي أصدره مجلس الأمن في أبريل 1995 ويقضي بالسماح للعراق بتصدير بترول قيمته 2 مليار دولار على مدى 6 أشهر قادمة لأسباب إنسانية قد تمت الموافقة عليه بإجماع الآراء ، مع أن الواجب على الدول المذكورة أن تسعى لرفع العقوبات بشكل كامل إن كانت حقا تريد ذلك ، وهذا مما يثير الشكوك حول حدوث خلافات بين الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن إزاء هذه المسألة .

ومن العجيب أن هذا القرار (986) ظاهره الرحمة والإنسانية ولكن باطنه عذاب أليم ، فقد نص على السماح للعراق بتصدير كميات من البترول بقيمة مليار دولار كل 3 شهور على أن يتم إيداع عائد البيع في حساب مصرفي ينشئه الأمين العام للأمم المتحدة ، وإن يخصص 30% من عائد البيع لتمويل التعويضات المفروضة على العراق بعد حرب الخليج ولتمويل نفقات لجنة تدمير الأسلحة العراقية ، أما الاحتياجات الإنسانية الضرورية فيتم تخصيص ما بين 650 و 850 مليون دولار لها ، على أن يستقطع منها ما بين 130 إلى 150 مليون دولار لشراء احتياجات الأكراد في محافظات العراق الشمالية ... وقد رفض العراق هذا القرار رفضا قاطعا [3] .

---

(1) الأهرام ص 4 بتاريخ 11 / 11 / 1994 .

(2) ينظر : العراق ومستقبل العلاقات الدولية . عبد الرحمن عبد العال . السياسة الدولية ع 120 أبريل 1995 ص 229 , 232 ماذا وراء حملة بغداد الجديدة . أحمد نافع . الأهرام 22 / 4 / 1994 ص 5 ، الأهرام ص 2 في 10 / 2 / 1994 ص 6 في 9 / 6 / 1994 .

(3) أخبار اليوم 15 / 4 / 1995 ص 1 .

ولكن العراق عاد مرة أخرى - تحت ضغط العقوبات الظالمة - إلى الموافقة على هذا القرار ، وبالفعل دخل العراق في مفاوضات مكثفة مع الأمم المتحدة للاتفاق على كيفية تنفيذه ، إلا أن الولايات المتحدة أخذت تُملي شروطا وقيودا جديدة ، تنطوي على إذلال وامتهان لاحدود لهما ، ومع ذلك وافق العراق على كافة الشروط والقيود على أمل أن يكفل تنفيذ القرار الحد الأدنى الضروري من الاحتياجات الغذائية والطبية للشعب العراقي ، إلا أن الولايات المتحدة عادت وقررت تعليق تنفيذ الاتفاق بعد تدخل القوات العراقية في شمال العراق إبان الصراع بين الحزبين الكرديين هناك . وفي نهاية المطاف بدأ تنفيذ الاتفاق خلال شهر ديسمبر 1996 م .

ويكفي للتدليل على عمق المأساة التي يعيشها الشعب العراقي تحت وطأة الحصار الظالم ، ما أوردته الأمم المتحدة في تقاريرها الرسمية ، والتي أظهرت ما يلي :

* 4500 طفل عراقي يموتون شهريا ، بسبب النقص الحاد في الغذاء والدواء والماء النقي ، نتيجة للعقوبات المفروضة على العراق .

* ارتفعت حالات الوفيات بين المواليد من 24 بين كل ألف مولود قبل الحظر إلى 170 حاليا ، كما زادت نسبة الولادات دون الوزن الطبيعي .

* وفاة 850 ألف عراقي منذ عام 1990 م بسبب العقوبات والحظر والحصار .

* الأمراض التي تم القضاء عليها منذ سنوات بعيدة مثل : - الكوليرا - الجرب - شلل الأطفال - الحمى التيفودية - التهاب الكبد الفيروسي .. هذه الأمراض الخطيرة عادت للظهور مرة أخرى .

* تحول عدد كبير من الأطفال دون سن الخامسة إلى ما يشبه الهياكل العظمية بسبب نقص الطعام والدواء والمستلزمات الطبية .

* أصبحت المستشفيات تعمل بثلث طاقتها فقط [1] .

من هذا يتضح أن المؤامرة الدولية الكبرى ضد العراق تهدف - ضمن ما تهدف - إلى استنزاف ثروات هذا البلد والقضاء على كافة مقوماته حتى لا تقوم له بعد ذلك قائمة .

---

(1) أطفال العراق - نبيل زكي - الأخبار 4 / 11 / 1996 م ص 2 .

4 – اتهام العراق بانتهاك حقوق الإنسان :

كعادتها في التعامل مع الدول المغضوب عليها ، دأبت الدول الغربية على توجيه الاتهام للعراق بانتهاك حقوق الإنسان خاصة مع السكان الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال ... وقد نجحت الدول الكبرى في قطع الصلة بين السلطة المركزية في بغداد وبين المناطق الشيعية الجنوبية والكردية الشمالية من خلال فرض حظر على تواجد القوات النظامية العراقية فيهما ، خاصة مناطق الأكراد في الشمال التي أصبحت شبه مستقلة بعد عزلها تماما عن السلطة المركزية ...

وإني لأتساءل هنا ... أين كانت القوى الكبرى وأين كانت الإنسانية والرحمة حينما قصف النظام الحاكم في العراق القرى الكردية بالأسلحة الكيماوية والغازات السامة إبان حربه مع إيران ؟! ألم يصمت المجتمع الدولي وقتها صمت القبور إزاء هذه المأساة المروعة لأن العراق كان وقتها يقوم بمهمة خاصة لصالح الغرب بالوقوف في وجه القوة الإيرانية المتنامية مما أدى إلى تدمير البلدين المسلمين معا ؟!

وإني لأتساءل كذلك ... أين القوى الكبرى وأين الإنسانية والرحمة حينما دخلت جحافل القوات التركية شمال العراق وأعملت القتل والذبح والتشريد في صفوف الأكراد من أعضاء ومؤيدي حزب العمال الكردستاني الذي يطالب بحقوق الأكراد الأتراك في حياة كريمة داخل المجتمع التركي ؟! ألم تبارك الدول الغربية أعمال القتل والذبح والتشريد هذه أو على الأقل التزمت الصمت والتجاهل حيالها ؟! اللهم إلا بعض صيحات الاستنكار الهادئة في ألمانيا وفرنسا من باب التجمل وذر الرماد في العيون لا أكثر ولا أقل ... فهل أكراد العراق جنس آخر غير أكراد تركيا ؟! ولماذا تلتزم قوى البغي والعدوان بحماية أولئك في الوقت الذي تشجع ذبح وتقتيل هؤلاء ؟! ... ويا أيتها الرحمة والإنسانية ، عذرا لكما مما يرتكب من جرائم شنيعة باسمكما وتحت رايتكما ..

5 – اتهام العراق بدعم وممارسة الإرهاب :

دأبت الولايات المتحدة الأمريكية على دمغ واتهام الدول التي لاتنصاع لسياستها وتوجهاتها بتهمة دعم وممارسة الإرهاب الدولي ، وقد سبق بيان ذلك عند الحديث عن كل من السودان وليبيا ، وسيأتي كذلك عند الحديث عن إيران ....

أما فيما يتعلق بالعراق ، فقد جعلها التقرير السنوي للخارجية الأمريكية عن الإرهاب

في العالم ضمن أكثر الدول ممارسة للإرهاب في العالم عام 1993 ، بالإضافة إلى كل من إيران وكوبا وكوريا الشمالية .. [1] ثم احتفظت العراق بـ « مكانتها الإرهابية » في التقرير التالي عن عام 1994 م ولكن شاركها هذه المرة بعض الدول العربية مثل السودان وليبيا وسوريا ، بالإضافة إلى إيران بالقطع [2] .

6 – نهاية المطاف .. تجزئة العراق وتقطيع أوصاله :

تسير المؤامرة الصليبية اليهودية ضد العراق في طريقها قدما نحو الخطوة الأخيرة والهدف النهائي ، ألا وهو تقسيم العراق وتجزئته إلى ثلاث دول : الأولى كردية في الشمال ، والثانية شيعية في الجنوب ، والثالثة سنية في الوسط .. [3] هذا هو التخطيط النهائي الذي لم يعلن عنه صراحه ، وإنما يتم تطبيقه على أرض الواقع عمليا دون جلبة أو ضوضاء ، وسط غفلة كاملة وتجاهل تام من العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة ، اللهم إلا بعض التصريحات الصحفية الصادرة عن الجامعة العربية وبعض رؤساء الدول العربية ، والتي تنادي بالحفاظ على وحدة العراق وسلامة أراضيه .

ولن تصمد هذه التصريحات الصحفية أمام ما يتم تنفيذه عمليا من شبه انفصال الجزء الشمالي الكردي وتكوين سلطة مستقلة فيه لا علاقة لها بالسلطة المركزية في بغداد ، وكذلك لن تصمد هذه التصريحات أمام التفتيت العملي للعراق من خلال إقامة المنطقتين الآمنتين في الجنوب والشمال ... [4] .

---

(1) الأهرام 11 / 5 / 1994 ص 2 . (2) إذاعة « مونت كارلو » نشرة أخبار الصباح . 28 / 4 / 1995 .

(3) يراجع : المؤامرة والنظام العالمي الجديد . صلاح وقيع ص 27 : 38 .

(4) لا يمكن أن يغفل البحث هنا قضية الأطماع التركية في شمال العراق بدعم ومساندة لا حدود لهما من جانب كل من الولايات المتحدة والكيان الصهيوني ، وأبرز ما يمكن إيراده في هذا المقام نقطتان في غاية الأهمية :

أولا : الغارات العديدة التي شنتها تركيا على شمال العراق ، بدعوى مطاردة مقاتلي حزب العمال الكردستاني ، ففي إحدى هذه الغارات حشدت تركيا ما يزيد على 35 ألف جندي مدججين بالمدفعية والمدرعات والطائرات المقاتلة ، كل هذا بدعوى مطاردة 500 عنصر من الحزب المذكور .. ويومها صرح الرئيس التركي سليمان ديميرل بأن منطقة شمال العراق حتى الموصل كانت ضمن أراضي الدولة العثمانية ، وأن الفراغ السياسي في هذه المنطقة أحدث قدرًا من التوتر بها ، وأن مصالح تركيا تقتضي إعادة النظر في حدودها المتوترة . (يراجع : بين جروزني وديار بكر . عبد السلام عوض – محمود عبد الوهاب . الأهرام 13 / 5 / 1995 م ص 5 .

ثانيا : أعلنت تركيا إنشاء منطقة أمنية لها على طول الحدود العراقية – التركية البالغ طولها 330 كم وبعمق يصل إلى مدى 20 كم داخل الأراضي العراقية ، وقد أعلنت أمريكا مساندتها لهذه الخطوة التركية ، كما أن تركيا ستستعين بالكيان الصهيوني في إنشاء هذه المنطقة الآمنة على غرار مايسمى بـ « الحزام الأمني » الذي أقامه الكيان الصهيوني الغاصب في جنوب لبنان [الأهرام 10 / 9 / 1996 ص 9] .

4 – إيران

تعد الحملة الصليبية الصهيونية الحالية على إيران استكمالا لحلقة التآمر على الأمة الإسلامية من ناحية المشرق ، فبعد القضاء على القوة العراقية بدأ التخطيط والعمل المكثف لمحاصرة إيران وتضييق الخناق عليها تمهيدا لتوجيه ضربة عسكرية ساحقة ضدها على غرار ما حدث مع العراق ، حتى لا يبقى في المنطقة قوة كبرى تستطيع – في يوم ما – أن تقف في وجه المخططات التآمرية (الصليبية اليهودية) ضد العالم الإسلامي .

هذا هو التحليل الصحيح الذي يرتضيه الباحث المنصف المدقق ، وهو ما نطقت به ألسنة المسئولين في الدول الغربية الكبرى ، أما ما يذكره بعض الباحثين في معرض تحليلهم للحملة الغربية على إيران من كونها تأتي في إطار سياسة الاحتواء المزدوج لكل من العراق وإيران حتى لا تستفيد هذه الأخيرة من تدمير القوة العسكرية العراقية لتصبح بمفردها القوة الكبرى في المنطقة .. [1] هذا التحليل وإن كان صحيحا في بعض جوانبه إلا أنه يتجاهل الإطار العام الذي تشكل الحملة على إيران جزءا حيويا منه ، وهو ما سبق أن أثبتناه مرارا من عملية تطويق شاملة للعالم الإسلامي عامة والعرب خاصة .

وفيما يلي أستعرض بعض وقائع المؤامرة الكبرى ضد إيران :

(1) اتهام إيران بدعم وممارسة الإرهاب الدولي :

إن الاتهام بدعم الإرهاب وممارسته هو القاسم المشترك الأعظم في الحملة والمؤامرة الصليبية الصهيونية ضد دول العالم الإسلامي ، وقد سبق بيان ذلك في كل من ليبيا والسودان والعراق .. ومن هنا لا يعد اتهام إيران بهذا أمرا جديدا أو مبتكرا ولكنه – في الوقت ذاته – أكثر حدة وأشد عنفا من اتهام السودان أو ليبيا أو العراق ، إذ أن إيران متهمة بأنها العقل المدبر ورأس المال الممول وجهة التدريب والتخطيط لكل المنظمات التي تعد في نظر الحكومات الغربية والعربية التابعة لها – منظمات إرهابية يجب القضاء عليها قضاء مبرما :

1 – فقد وجهت بريطانيا الاتهام مباشرة إلى إيران بدعم منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي بالمال والسلاح [2] .

---

(1) ينظر على سبيل المثال – التقرير الاستراتيجي العربي 1993 ص 74 .. تطور السياسة الخارجية الأمريكية تجاه منطقة الخليج د / علي الطراح . السياسة الدولية ع 117 يوليو 1994 ص 208 .

(2) الأهرام 30 / 4 / 1994 ص 1 ، 11 / 7 / 1994 ص 4 .

2 – كما اتُّهمت إيران بدعم منظمات أخرى مثل منظمة « إيتا » التي تطالب بانفصال إقليم « الباسك » عن أسبانيا ، ومجموعة 17 نوفمبر اليونانية اليسارية ، ومنظمة الوطنيين في جزيرة « كورسيكا » الفرنسية ، وأن اجتماعا عقد في طهران في نوفمبر 1993 للتنسيق بين إيران وهذه المنظمات وتقديم الدعم اللازم لها [1] .

3 – كما وجه الاتهام أيضا إلى إيران بتدبير وتنفيذ الهجمات التي استهدفت المركز اليهودي في العاصمة الأرجنتينية « بيونس إيرس » والسفارة اليهودية في العاصمة البريطانية لندن [2] .

4 – أما الاتهام الأكبر فكان خاصا بدعم إيران للمنظمات التي تسمى في الغرب والإعلام العربي بالمنظمات الأصولية أو المتطرفة أو جماعات العنف المسلح .. إلخ ..

ووصل هذا الاتهام إلى حد القول بأن إيران تعد مخططات لقلب نظم الحكم ببعض الدول العربية خاصة مصر وتونس والجزائر ، وأنها تقدم الأموال والسلاح وتقيم المعسكرات في السودان لتدريب العناصر المتطرفة ، وأنه يوجد 18 ألف جندي إيراني في السودان مدعومين بطائرات مقاتلة ودبابات وقطع مدفعية ، علاوة على وحدات هامة من البحرية الإيرانية في البحر الأحمر ، وأن إيران قد دعمت الجماعات الإرهابية بـ 186 مليون دولار عام 1992 وحده ، وأنها قدمت أموالا طائلة وهربت أسلحة كثيرة إلى الجماعات المسلحة في الجزائر ... إلى غير ذلك من الاتهامات المتعلقة بالنشاط الإرهابي في المنطقة [3] .

وكما حدث مع السودان ، فقد بدأت الحملة على إيران واتهامها بدعم الإرهاب من خلال تقارير إخبارية وأنباء صحفية ، ثم انتقل زمام قيادة هذه الحملة إلى الجهات الحكومية الرسمية التي بدأت تنشر تقاريرها واتهاماتها مباشرة بعد أن كانت تفعل ذلك من وراء حجاب ، وكانت المخابرات المركزية الأمريكية فارس الميدان الأوحد ، حيث قامت بتقديم تقاريرها عن ضلوع إيران في مخططات الإرهاب خاصة في مصر والجزائر ، ومخططات زعزعة الاستقرار والأمن في دول الخليج ، ومحاولات بسط

---

(1) الأهرام 4 / 5 / 1994 ص 4 .
(2) الجمهورية 30 / 7 / 1994 ص 1 , 4 .
(3) يراجع في تفصيل ذلك : إيران وجماعات العنف السياسي في الشرق الأوسط د / وليد محمود عبد الناصر ضمن ملف : الإسلام والعنف في السياسة الدولية . السياسة الدولية ع 113 يوليو 1993 ص 97 : 107 . التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 143 . السودان والحركات الإسلامية الدور وأبعاد العلاقات هانئ رسلان . المرجع السابق ص 109 : 112 . السياسة الدولية شهريات ع 113 يوليو 1993 ص 309 ، ع 114 أكتوبر 1993 ص 301 - 309 الأخبار 29 / 3 / 1993 ص 1 .

النفوذ في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى [1] .. وأعلن « جيمي دولي » مدير المخابرات الأمريكية في تقرير إلى مجلس الشيوخ أن إيران تحاول الحصول على أسلحة الدمار الشامل لدعم الإرهاب ، وأن الإرهاب لا يزال هو المحور الرئيسي الذي يعتمد عليه الإيرانيون في تحقيق أهدافهم من الجزائر إلى طاجيكستان .. [2] . كما قدم وزير الخارجية الأمريكي لنظرائه الأوروبيين ما وصفه بالأدلة الدامغة على الدعم الإيراني للإرهاب في مصر والجزائر ... [3] ثم أكد الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » في أبريل 1995 أن إيران هي أكبر خطر يهدد أمن منطقة الخليج ، وأن أمريكا يجب أن تكون في منتهى الحزم في تعاملها مع إيران [4] .

ومن المؤسف حقا أن تنساق الحكومات العربية خلف هذه المعلومات الأمريكية ، وتهاجم إيران بشدة وعنف ، بل ووصل الحال من السوء إلى درجة أن يعلن عن تنسيق مصري جزائري تونسي ضد الإرهاب الإيراني السوداني [5] ، بل وأسوأ من ذلك بكثير ما حدث من تشاور وتنسيق وتبادل للمعلومات بين حلف الأطلنطي وهذه الدول بدعوى مكافحة الأصولية والعنف والتطرف والإرهاب [6] .

يحدث هذا في الوقت الذي تؤكد فيه أبحاث لا تنتمي للتيار الإسلامي صعوبة الحكم بصحة المعلومات عن تشجيع إيران للإرهاب وعن المعسكرات الإرهابية الإيرانية في السودان ، فيقول التقرير الاستراتيجي العربي 1992 على سبيل المثال : « ... من الصعب الحكم بصحة هذه المعلومات التي تستغل في الصراع النفسي والدعائي بين المعارضة السودانية والحكومة . كذلك فإن كافة الأنباء والاتهامات المتعلقة بتشجيع إيران للجماعات الأصولية لا تستند إلى وثائق أو أدلة دامغة ، وهو الأمر الذي لا يمكن معه نفي أو إثبات هذه الأنباء أيضا » [7] .

وهكذا - بكل أسف - أصبح أمرنا بيد أعدائنا يبذرون بذور الخلاف والشقاق بين

---

(1) السياسة الدولية ع 118 أكتوبر 1994 ص 315 ، الأخبار 4/ 4 / 1994 ص 2 الأهرام 4 / 3 / 1993 ص 2 ، 10 / 12 / 1994 ص 6 .

(2) السياسة الدولية ع 116 أبريل 1994 شهريات 5 ص 334 .

(3) المرجع السابق ع 114 أكتوبر 1993 ص 304 .

(4) أخبار اليوم 15 / 4 / 1995 ص 1 ، ويراجع أيضا مقال الأستاذة / مها عبد الفتاح على الصفحة الأخيرة من الأخبار في 29 / 6 / 1994 .

(5) السودان والحركات الإسلامية .. الموضع السابق ذكره .

(6) الأهرام 19 / 2 / 1995 ص 1 .

(7) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 143 .

قاتلون ويتنازعون ، مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ . ﴾ [1] .

(2) اتهام إيران بانتهاك حقوق الإنسان :

هذا هو الطرف الثاني من فكي الكماشة أو قطبي الرحا اللذين تطبق بهما القوى الصليبية الصهيونية العالمية على أعناق الدول التي تتخذ لنفسها خطا سياسيا وفكريا مستقلا عن المنهج التغريبي الذي تمارسه الدول الكبرى في إطار النظام الدولي الجديد .

وفيما يتعلق بإيران خاصة ، أصدرت منظمة العفو الدولية تقريرا أدانت فيه بشدة السلطات الإيرانية بدعوى انتهاكها حقوق الإنسان ، وذلك لما توافر لديها من معلومات عن عمليات إعدام وتعذيب وحشي واعتقال تعسفي للمعارضة الإيرانية [2] .

وبافتراض صحة هذه المعلومات يحق للمرء هنا أن يتساءل عن السبب في تجاهل هذه المنظمة الدولية لنفس الجرائم والعمليات في الدول الأخرى ضد المسلمين ، بل وحتى في بعض البلدان العربية تجاه الحركات الإسلامية المعتدلة التي لا تجنح للتطرف ولا تميل إلى العنف ... فلماذا يخرس صوتها وتعمى أبصارها عن هذه الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان ؟ اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بمدى انصياع هذه الدولة أو تلك للتوجهات التغريبية في النظام الدولي الجديد ..

(3) محاولة فرض الحصار الاقتصادي على إيران :

تصاعدت وتيرة الحملة الشعواء التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية منذ فترة طويلة لفرض حصار اقتصادي خانق على إيران :

* فقد تحدث وزير الخارجية الأمريكي « وارين كريستوفر » أمام مجلس الشيوخ الأمريكي في مارس 1993 ذاكرا أن إيران دولة خارجة على القانون الدولي ، ولا تستحق الدعم من البنك الدولي ، وأن الولايات المتحدة ستعارض بشدة حصول إيران على قروض أو ائتمانات من المؤسسات المالية الدولية [3] .

* كما دعا في أبريل ويونيو من العام نفسه إلى نبذ إيران دوليا وتطبيق سياسة الاحتواء

---

(1) سورة آل عمران الآية : 149 .

(2) الأخبار 29 / 3 / 1993 ص 1 .

(3) المساء 31 / 3 / 1993 ص 2 .

الجماعي من قبل الأوروبيين والأمريكيين ضد الخطر القادم من إيران [1] .

* ثم تطورت الحملة لتصل في أبريل 1995 إلى فرض حظر أمريكي شامل على البترول الإيراني ، وكانت الولايات المتحدة قد فرضت حظرا بتروليا على إيران منذ عام 1980 ، إلا أن الشركات الأمريكية استمرت في شراء البترول الإيراني وتسويقه خارج الولايات المتحدة ، ولكن بعد هذا القرار لن يصبح من حق الشركات الأمريكية شراء البترول الإيراني ..

كما ألغت الحكومة الأمريكية عقدا مبرما بين شركة النفط الأمريكية « كونوكو » وإيران لتطوير أحد حقول النفط الإيرانية قرب مضيق هرمز ... وكذلك مارست الولايات المتحدة ضغوطا علنية مكثفة على أذربيجان حتى اضطرت إلى إلغاء تعاقدات سابقة مع إيران بخصوص البترول والغاز الطبيعي [2] .

ولا تزال تمارس ضغوطها على معظم الدول لوقف التعامل مع إيران ومقاطعتها اقتصاديا .. وقد أصدر الكونجرس الأمريكي في الآونة الأخيرة قانونا يقضي بفرض عقوبات على الشركات المحلية والأجنبية التي تستثمر في قطاع النفط الإيراني ما يزيد على 40 مليون دولار .

4 - إجهاض محاولات تنمية القوة العسكرية الإيرانية :

تمثل القوة العسكرية الإيرانية غصة في حلاقيم القوى الصليبية الكبرى والكيان الصهيوني الغاصب كذلك ، رغم أن القوة الإيرانية ليست بالضخامة ولا بالحجم الذي يثير كل هذه المخاوف ... « إن استعراض العناصر الرئيسية للقوة العسكرية الإيرانية حسب أرقام عام 1992 لا يقدم دلالات ذات أهمية فيما يتصل بالسياسة العسكرية الإيرانية ودور إيران الذي تتصوره في تفاعلات المنطقة . فلازال العراق مثلا - رغم كل خسائره في حرب الخليج - يمتلك عناصر تسليحية أكبر عددا وأكثر تطورا على بعض المستويات مما تمتلكه إيران ، ويكاد يتفوق عليها في كافة عناصر القوة العسكرية ، ما عدا عدد القوات البرية (مضافا إليها الحرس الثوري) وعناصر التسليح البحرية والصاروخية . بل إن دول الخليج العربي - السعودية تحديدا - تتفوق على إيران في بعض عناصر القوة

---

(1) السياسة الدولية : ع 114 أكتوبر 1993 شهريات يونيو 1993 ص 304 ، الأهرام 4/ 4 / 1993 ص 6 .
(2) أخبار اليوم 15 / 4 / 1995 ص 1 .

التسليحية كما وكيفا ، رغم وجود معضلة لدى تلك الدول في القوة البشرية اللازمة لتحويل تلك الأسلحة إلى عناصر قوة عسكرية فعالة ... لكن المسألة الأكثر أهمية في تحليل هيكل القوة العسكرية الإيرانية ترتبط بدلالات تلك القوة في المستقبل القريب والمتوسط ، وعلاقة التوجهات التسليحية الإيرانية الحالية بالسياسة العسكرية الإيرانية القائمة والمتصورة » [1] .

من هنا تبذل قوى البغي الصليبية الصهيونية كافة جهودها لإجهاض كافة محاولات تنمية القوة العسكرية الإيرانية كما وكيفا ، وقد فرضت الدول الغربية منذ قيام الثورة الإيرانية حظرا شاملا على الصادرات العسكرية لإيران ، مما أدى لحرمانها من الحصول على أسلحة جديدة أو على قطع الغيار اللازمة لصيانة ما هو موجود بالفعل . ثم تطورت الأمور إلى الأسوأ فالأسوأ مع الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات وأهلكت قسما كبيرا من المقدرات العسكرية لكل من العراق وإيران على السواء .

ولم تكتف قوى البغي بهذا الحظر من جانبها ، بل إنها تسارع بالضغط على كل دولة تتعاون عسكريا مع إيران ، خاصة روسيا والصين وكوريا الشمالية وباكستان ، ولا ينسى المرء هنا تلك الضجة التي أثارتها الولايات المتحدة وأذنابها في العالم الغربي والعربي حينما تعاقدت إيران على شراء ثلاث غواصات روسية من طراز « كيلو » وتسلمت إحداها بالفعل ، وأيضا تلك الضجة الكبرى عند حصول إيران على طائرات وصواريخ وبعض المساعدات في المجال النووي السلمي من تلك الدول المذكورة ... وقد قال الناطق باسم وزارة الخارجية الأمريكية يوما : « إن إيران تشكل تهديدا خطيرا محتملا للسلم والأمن في منطقة الخليج ، وإن بيع أو نقل أي مواد أو معدات من شأنها تعزيز قدرة إيران العسكرية – خصوصا قدرتها في مجال الأسلحة غير التقليدية – أمر ينظر إليه في واشنطن بقلق عظيم » وقريب من هنا ما قاله الناطق باسم وزارة الدفاع .... وقد أسفر الضغط الغربي الشديد على تلك الدول عن خضوع بعضها وإلغاء بعض الصفقات الإيرانية .

ولا تزال حلقات المؤامرة متصلة من خلال الحديث المتواصل وإثارة الغبار الكثيف حول القدرات النووية الإيرانية وسعي إيران لامتلاك الأسلحة النووية ، بل يتحدث الغرب عن حصول إيران على رؤوس نووية جاهزة من جمهورية كازاخستان المستقلة

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 148 .

حديثا عن الاتحاد السوفييتي المنهار [1] . وتعلل الدولة الصهيونية تشبثها ببرنامجها وأسلحتها النووية بأن نوايا إيران النووية تشكل خطرا داهما عليها ، الأمر الذي يفسر حقيقة الحملة الصليبية الصهيونية ضد القوة العسكرية الإيرانية .

(5) إثارة الشائعات حول الأوضاع الإيرانية الداخلية :

تلجأ الدول الغربية في إطار حملتها على الدول المغضوب عليها - إلى إثارة شائعات حول الأوضاع الداخلية في تلك الدول وتصوير الأمر على أن أنظمة الحكم في تلك الدول تتهاوى وتترنح تحت ضغط موجات الغضب الشعبي والسخط الجماهيري ، حتى ليخيل أمام من يقرأ هذه التقارير أنه لن تشرق الشمس حتى يكون نظام الحكم في هذه الدولة أو تلك في خبر كان .

وللأسف الشديد تنساق الصحف العربية خلف هذه التقارير وتبرزها في إطار عناوين ضخمة جذابة ، لا لشيء إلا لأن السياسة الرسمية للدولة تنتهج سياسة خارجية تختلف مع أنظمة الحكم في الدول المعنية التي صدرت التقارير ضدها ... حدث هذا مع السودان ويحدث أيضا مع إيران .... ومن أمثلة الحالة الإيرانية :

(1) ما ذكرته الأهرام نقلا عن مجلة « جينز » البريطانية المتخصصة في الشئون العسكرية من أن إيران ستشهد قريبا انقلابا عسكريا ، وأن هناك صراعا قويا بين السلطة السياسية ممثلة في الرئاسة والسلطة الدينية ممثلة في المرشد الروحي للثورة .. [2] كان ذلك في مارس 1994.... وقد مضى حتى الآن مايقرب من ثلاثة أعوام ولم تشهد إيران انقلابا عسكريا .

(2) ما أوردته الأهرام والأخبار في مايو من العام نفسه نقلا عن مجلة « أفريك آزي » الفرنسية الشهرية من قرب سقوط نظام « الملالي » في إيران واندلاع حرب أهلية على غرار ما يحدث في أفغانستان نتيجة لانتشار الدسائس والمؤامرات في أجواء السلطات السياسية والدينية الإيرانية منذ وفاة الخوميني عام 1989 . [3]

---

(1) يراجع السياسة العسكرية الإيرانية في التسعينات / أحمد إبراهيم محمود ، السياسة الدولية ع 111 يناير 1993 ص 255 : 264 . إيران .. نحو الحسم والتصعيد أم الاستمرار / وليد محمود عبد الناصر ، السياسة الدولية ع 117 يوليو 1994 ص 24 : 37 . التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 148 : 151 . قبل المؤامرة على إيران والسودان / أحمد مصطفى / الشعب 24 / 11 / 1992 ص 3 ومقال محفوظ عزام ص 8 .

(2) الأهرام 4 / 3 / 1994 ص 1 .

(3) الأهرام ص 4 ، الأخبار ص 1 كلاهما بتاريخ 8 / 5 / 1994 .

(3) ما نقلته الأهرام في يونيو 1994 عن وكالة رويتر من أن رجل الشارع الإيراني بات يضيق ذرعا بما تفرضه عليه الحكومة من التزامات ... وبكل أسف تابعت الصحيفة الصادرة في دولة إسلامية وكالة الأنباء الأجنبية في السخرية من بعض التعليمات الحكومية الإيرانية التي هي في معظمها مبادئ إسلامية أصيلة مثل تحريم الاختلاط بين الجنسين وتحريم الخمور والمخدرات ... وغيرها [1] .

(4) ما أوردته الأخبار نقلا عن صحفية ألمانية في 22/6/1994 من ترديد لنغمة تهاوي نظام الحكم وقرب انهياره [2] .

هذه مجرد أمثلة لما تطفح به الصحف المصرية - والعربية كذلك - من حديث عن الأوضاع الداخلية السيئة في إيران دون أن تدري أنها بهذا الصنيع تساهم في المؤامرة الصليبية الصهيونية ضد هذا البلد المسلم .

6 - فرض العزلة على إيران وإثارة الخلافات مع جيرانها :

نجحت قوى البغي في إثارة الخلافات بين إيران ومعظم الدول العربية والإسلامية ، من خلال ما سبق إيراده من حديث عن دعم إيران المزعوم للإرهاب وتخطيطها لقلب نظام الحكم في الدول العربية ... ومما يبعث الأسى والحسرة في قلب المسلم الصادق أنه على حين تتسم التصريحات العربية تجاه المذابح والمجازر الصهيونية بالنبرة الهادئة والجنوح إلى تهدئة الأوضاع وتطييب الخواطر ، إذا هي تكتسي نبرة غاضبة انفعالية وجنوحا إلى العنترية وإظهار العضلات ضد إيران .

ولا يكاد يمر يوم دون أن تطالعنا الصحف بتصريح لهذا المسئول أو ذاك في هذا البلد أو ذاك يكيل الاتهامات ضد إيران ويحملها مسئولية زعزعة الاستقرار في هذه المنطقة الحيوية من العالم ... وبالطبع لا يفوت هؤلاء أن يتحدثوا في الوقت نفسه عن أملهم في استمرارا عملية « السلام » مع الكيان الصهيوني ، وأن لا تسمح قوى الاعتدال للمتطرفين بتخريب المسيرة السلمية وإضاعة الفرصة التاريخية السانحة لتحقيق الرخاء والازدهار في ظل التعايش السلمي والمصالح المتبادلة ...

وهكذا صار العدو بيننا سعيدا حظيا والأخ المسلم منبوذا شقيا ، وانقلبت الأوضاع رأسا على عقب ... ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(1) الأهرام 18 / 6 / 1994 ص 1 .　　(2) الأخبار 22 / 6 / 1994 ص 1

5 – أذربيجان

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وتفككه عام 1991 م حصلت جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز المسلمة على استقلالها ، ولكن روسيا الاتحادية – التي ورثت مكانة الاتحاد السوفييتي المنهار – لم تشأ أن تدع هذه الجمهوريات وشأنها ، بل سعت بكل قوة إلى احتوائها والحيلولة دون نشوء تكتل إسلامي حقيقي في هذه المنطقة . وقد تنوع أسلوب الاحتواء الذي انتهجته روسيا إزاء هذه الدول ، تبعا لحالة كل دولة ومدى الأخطار المحتملة من جانبها :

* فدولة قوية مثل قازاخستان ، اتُّبع معها أسلوب هادئ يهدف إلى إضعافها بتجريدها من القوة النووية التي تمتلكها ونقلها إلى روسيا ، عن طريق ممارسة الضغوط الروسية الأمريكية والتلويح بالمساعدات الاقتصادية .

* ودول أخرى مثل : أوزبكستان – تركمانستان – طاجيكستان – قيرغيزستان .. اختير لها أسلوب الإبقاء على القيادات والهياكل الشيوعية التي كانت تحكم هذه البلاد إبان الحكم الشيوعي ولا تزال تدين بالولاء لموسكو ، إذ أن بقاءها كفيل بتحقيق الأهداف الروسية .

* أما أذربيجان ذات التيار الإسلامي القوي نسبيا فقد اختير لها أسلوب الحرب للوقوف ضد هذا التيار .... وكان النزاع بين أرمينيا النصرانية وأذربيجان المسلمة أرضا خصبة لوضع بذور المؤامرة الدولية ضد هذا البلد المسلم [1] .

وقائع التآمر الدولي في المأساة الأذربيجانية :

تكاتفت قوى البغي والعدوان الروسية والأمريكية لتقديم يد العون والمساعدات السرية أحيانا والعلنية غالبا إلى أرمينيا النصرانية في عدوانها على أذربيجان المسلمة ، مما أدى إلى استيلاء أرمينيا على ما يقرب من 20% من أراضي أذربيجان ، التي تحولت – أوكادت – إلى دولة لاجئين بعد فرار أكثر من 100 ألف من مواطنيها هربا من الهجوم الوحشي والمذابح البربرية الهمجية التي يرتكبها الأرمن ، بالإضافة إلى حوالي 60 ألف آخرين محاصرين في مناطق القتال وسط ظروف مأساوية ... [2] .

---

(1) ينظر : تركيا بين الضغوط الداخلية والخارجية – نبيل شبيب – المسلمون 29 / 5 / 1992 ص 1 .

(2) ينظر : أذربيجان وأحلام أرمينيا الكبرى – عبد الله عبد السلام – الأهرام في 16 / 4 / 1993 ص 6 .

بمعنى آخر ، انتقلت المسألة من مجرد نزاع على إقليم « قرة باغ » أو « ناجورنو كاراباخ » إلى اعتداء عسكري سافر على دولة مستقلة ذات سيادة تتمتع بعضوية الأمم المتحدة ، والواقع أنه لولا الدعم الروسي المادي والأمريكي المعنوي لما تمكنت أرمينيا من تحقيق هذه الانتصارات العسكرية ، وسط حالة من اللامبالاة من قبل العالم الإسلامي بصفة عامة وتركيا وإيران بصفة خاصة ..

فتركيا لم تحرك ساكنا وهي ترى القوات الأرمينية تتوغل داخل أراضي أذربيجان ، رغم أن تركيا كانت تسعى إلى استثمار عوامل التقارب بينها وبين الجمهوريات الإسلامية المستقلة في آسيا الوسطى لبسط نفوذها السياسي والاقتصادي والثقافي في هذه المنطقة ، ولتقطع الطريق أمام المحاولات الإيرانية المماثلة . ولم تتحرك تركيا إلا بعد مظاهرات شعبية عارمة تطالب الحكومة بالتدخل لنجدة المسلمين في أذربيجان ، في أعقاب نشر أنباء سلسلة المذابح الأرمينية في « ناجورنو كاراباخ » و « ناختشيفان » وغيرها من الأقاليم الأذرية ... فقد أرسلت تركيا حشودا عسكرية قرب الحدود وأعلنت عن نيتها في التدخل العسكري ما لم يتم وقف إطلاق النار ..

وسرعان ما تبين أن هذا التحرك لم يكن إلا عملا مظهريا قصد به امتصاص الغضب الجماهيري ، خاصة بعد أن اعترضت كل من روسيا وأمريكا على الموقف التركي ، وأعلنت تركيا أن هذه الحشود تتعلق فقط بإجراء مناورات عسكرية ... [1] ومن هنا يتبين الخط الأحمر الذي رسمته قوى البغي والعدوان للدور التركي في هذه المنطقة بحيث لا يتجاوز نشر الأفكار العلمانية والوقوف في وجه المد الإسلامي الكاسح .

أما إيران فقد كان موقفها عجيبا ، مخالفا لأبسط قواعد الأخوة الإسلامية ؛ ففي البداية قدمت إيران دعما لأرمينيا كعقاب لأذربيجان لتفضيلها النفوذ التركي على الإيراني في إطار التنافس بين الجانبين ، بالإضافة إلى التخوف الإيراني من انتصار أذربيجان الذي قد يفضي إلى المطالبة بضم الأقاليم التي تسكنها أغلبية أذرية في شمال إيران ... ولكن سرعان ما غيرت موقفها بعد أن أحست بالخطر الشديد من جراء

(1) يراجع : ناجورنو كاراباخ ... الصراع بين الجغرافيا والهوية القومية – عبد الله صالح – ضمن ملف : أزمة التفكك في الكومنولث – السياسة الدولية ع 120 أبريل 1995 ص 177 : 178 .. الجمهوريات الإسلامية والاتحاد الروسي .. الروابط والمخاوف – عماد جاد – المرجع السابق ص 167 : 169 .. تركيا بين الضغوط الداخلية والخارجية – مصدر سبق ذكره .. أذربيجان وأحلام أرمينيا الكبرى – مصدر سبق ذكره .

الانتصارات الأرمينية المتوالية واقتراب قواتها من الحدود الإيرانية ، هنا فقط تحركت إيران باتجاه المطالبة بوقف القتال وانسحاب القوات الأرمينية من أراضي أذربيجان .... [1] .

الأمم المتحدة والمأساة الأذربيجانية :

كلما تصاعدت حدة المعارك بين أرمينيا وأذربيجان ، وكلما توغلت القوات الأرمينية داخل الأراضي الأذربيجانية ، يجتمع مجلس الأمن ليصدر قرارا أو بيانا رئاسيا ، لا يزيد أي منهما عن بضع عبارات إنشائية تطالب أرمينيا بالانسحاب الفوري وتدعو الطرفين إلى بذل الجهود الممكنة لتسوية المشكلات بينهما بالطرق السلمية :

* فقد أصدر مجلس الأمن قراره رقم 821 في 7 / 4 / 1993 بإدانة أرمينيا ومطالبتها بالانسحاب ، ولم يسفر هذا القرار إلا عن مزيد من الهجمات الأرمينية المكثفة لفتح ممر ثالث يربط بينها وبين إقليم ناجورنو كاراباخ [2] .

* ثم عاد المجلس ليصدر قرارا آخر يحمل رقم 853 في 31 / 7 / 1993 يطالب بإنهاء القتال في الإقليم المذكور وانسحاب القوات الأرمينية انسحابا فوريا غير مشروط ، كما أهاب بالأطراف المعنية الامتناع عن تنفيذ أي عمل عسكري من شأنه إعاقة حل النزاع بالطرق السلمية [3] .

* ولكن هذا القرار – كسابقه – لم يسهم إلا في مزيد من الاحتلال والتوغل الأرمني داخل الأراضي الأذرية ، مما دعا أذربيجان لطلب عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن لمواجهة هذا الخطر الداهم .. ولكن هيهات ... فكيف ينتظر من مجلس الأمن أن يهب لنجدة المسلمين ؟! ولم تثمر الجهود والتحركات سوى بيان رئاسي أصدرته مندوبة الولايات المتحدة بصفتها الرئيس الدوري لمجلس الأمن آنذاك ، تكرر فيه مضمون القرارين السابقين ، مع إشارة خبيثة في نهاية البيان ، ترمي إلى تصوير الوضع على أنه حرب أهلية داخلية ، مما يعني تبرئة أرمينيا وإلقاء التبعة على العناصر الأرمينية في أذربيجان ، حيث نص البيان على « مطالبة أرمينيا باستخدام نفوذها لدى قيادة الأرمن في « قرة باغ » من أجل تطبيق قرارات مجلس الأمن » [4] .

---

(1) يراجع : المراجع السابقة .

(2) السياسة الدولية : ع 113 يوليو 1993 م شهريات أبريل 1993 ص 310 .

(3 ، 4) السياسة الدولية : ع 114 أكتوبر 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 318 .

* ولم يختلف القراران اللذان أصدرهما المجلس في أكتوبر ونوفمبر 1993 عما سبق سوى تكرار الإشارة الخبيثة السابقة والتأكيد عليها [1] .

وقد ذهبت كافة هذه القرارات أدراج الرياح وطواها النسيان والتجاهل الدولي التام لهذه الحرب التي أطلق عليها « الحرب المنسية » ... وأعتقد أن – ما سبق بيانه من – تلاقي المصالح والمطامع الروسية الأمريكية في أذربيجان هو السبب في إهمال هذه القرارات الصورية وتجاهلها ، إضافة إلى السبب الأساسي المتمثل في كون هذه الحرب لا يسال فيها إلا الدم المسلم ، وما هو عليهم بعزيز ولا غال .

ولكن اللوم والعتاب حقا لابد أن يكون من نصيب العالم الإسلامي صاحب القضية والمسئول الأول عنها أمام الله يوم القيامة ... ولله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

(1) السياسة الدولية : ع 115 يناير 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 351 .

6 – الشيشان

هي جمهورية مسلمة صغيرة كانت تشكل جزءا من روسيا الاتحادية قبل أن تعلن استقلالها في نهاية عام 1991 م .... وقد اجتاحتها جحافل القوات الروسية الغاشمة في نهاية عام 1994 م للقضاء على هذا الاستقلال وإعادتها بقوة السلاح إلى الاتحاد الروسي ... وهذه ليست المرة الأولى التي تنصب فيها المجازر لهذا الشعب الأبي المتمسك بدينه ، بل يقف التاريخ شاهدا على صلابة وقوة إيمان هذا الشعب العظيم ورفضه الاستسلام وتمسكه بالنضال والجهاد حتى آخر نفس وحتى آخر قطرة من دم [1] ...

(1) **لمحات من التاريخ النضالي المجيد للشعب الشيشاني المجاهد :**
وصل الإسلام الحنيف إلى منطقة القوقاز – التي تقع جمهورية الشيشان في شمالها الشرقي – في مرحلة مبكرة ، حيث دخلت جيوش الفتح الإسلامي أذربيجان عام 22 هـ في عهد الخليفة الثاني سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه ، ولكنها لم تصل إلى المنطقة الحالية لجمهورية الشيشان إلا في العصر الذهبي للإسلام في منطقة القوقاز على يد الفاتح العظيم « تيمور لنك » في القرن الرابع عشر . ثم توطدت أركان الوجود الإسلامي على يد العثمانيين وخانات القرم حتى أصبح الإسلام سائدا في أرجاء القوقاز بما فيها الشيشان والأنجوش ... وقد لعبت الطرق الصوفية دورا هاما في نشر الإسلام وتثبيت دعائمه في قلوب سكان هذه المنطقة (يراجع في تفصيلات هذا الموضوع :
* الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين – مصطفى دسوقي كسبه – ص 54 : 60 هدية مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة عام 1415 هـ .
* معلومات أساسية لفهم المسألة الشيشانية – د / محمد حرب – مجلة الأزهر : السنة السابعة والستون ، الجزء الثامن ، شعبان 1415 هـ – يناير 1995 ص 1076 , 1077) .
ويبدأ التاريخ النضالي المجيد للشعب الشيشاني خاصة والشعوب القوقازية المسلمة عامة حينما واجهوا الاستعمار الروسي الرهيب وقاوموه مقاومة عنيفة وأنزلوا به هزائم نكراء لا تزال ذكرياتها محفورة في أذهان الروس حتى الآن .... وفي عالمنا الإسلامي لا تكاد تجد أحدا يتحدث عن الاستعمار الروسي في إطار الحديث عن الغزو الاستعماري للعالم الإسلامي ، مع أن الغزو الروسي كان أشد فظاعة وأكثر دموية .... وقد بدأت أولى خطواته نحو الاستيلاء على المناطق المسلمة منذ عام 943 م واستمرت حلقات تكوين الإمبراطورية القيصرية عدة قرون .
ويشهد التاريخ أن الشعوب المسلمة في شمال القوقاز لم تخضع للغزاة الروس خضوعا مطلقا في يوم من الأيام ، بل كانت هذه الشعوب تنهض للمقاومة والنضال كلما سنحت لها الفرصة و لم تكن المقاومة لتهدأ إلا لتشتعل من جديد ... ومن أبرز فترات المقاومة الإسلامية ما يلي :
1 – في عام 1785 م ظهر في الشيشان الإمام منصور الذي نجح في جمع المسلمين من جميع شعوب شمال القوقاز تحت راية الجهاد في سبيل الله ضد الاستعمار الروسي ، وتمكن من هزيمة الجيش الروسي عدة مرات ، ومما يدل على نجاحه المذهل أن الأتراك استنجدوا به إبان حربهم مع روسيا عام 1787 م فلبى نداءهم وانتصر على الروس في معركة « تتارتوب » ، ثم أجبرهم على الانسحاب في معركة أخرى تسمى « كبيرسكوى » وظل الإمام البطل يجاهد في سبيل الله إلى أن سقط شهيدا بعد أسره وهو جريح في معركة « أنابا » التي ظل يقاوم الروس فيها حتى النهاية رغم خذلان الأتراك له وتفاوضهم مع الأعداء ، وكان قتل الإمام منصور في سجن « شليسبرغ » في أبريل 1794 م (ينظر الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين ص 78 : 81 ، ص 116 : 117) .
2 – تواصلت الحركات الجهادية ضدالروس ، حتى جاء عام 1830 ليشهد انتفاضة جهادية جديدة على يد أحد زعماء حركة المريدية ، وهو الإمام « غازي ملا » الذي أذاق المستعمرين الروس كثيرا من الويلات على مدار ثلاث سنوات أباد=

....

= فيها العديد من جيوشهم ودمر الكثير من معداتهم إلى أن أنعم الله عليه بالشهادة عام 1832 م .... وتولى القيادة بعده الإمام حمزة إلى أن استشهد أيضا عام 1834 م (ينظر المرجع السابق ص 88 ، ص 122 , 1223) .

3 - ونصل الآن إلى أبهى صور البطوله والفداء وأنصع صفحات الجهاد الإسلامي في شمال القوقاز عامة والشيشان بصفة خاصة ، تلك التي سطرها التاريخ بأحرف من نور للمجاهدين بقيادة الإمام شامل الذي فعل بالمجرمين الروس الأفاعيل على مدى يزيد على ربع قرن من الزمان .

بدأ الإمام شامل مسيرة الجهاد في داغستان ، واستطاع الصمود أمام الروس من عام 1834 إلى عام 1839 حيث تم القضاء على قواته في بلدة « أضولكو » بسبب خيانة بعض أمراء « داغستان » الذين تحالفوا مع العدو طمعا في المكاسب الدنيوية الرخيصة ... فانتقل الإمام إلى الشيشان حيث التف حوله الناس مطالبين بقيادته لهم في الجهاد في سبيل الله ... وتمكن الإمام بفضل الله من تكوين جيش جديد استطاع به استرجاع معظم « داغستان » من الروس والانتصار عليهم انتصارات ساحقة ، مما جعل القيصر « نيقولا » يستشيط غضبا ويأمر بإرسال تعزيزات ضخمة للقضاء على المجاهدين المسلمين .

وبالفعل تم تجهيز حملة كبيرة بقيادة الجنرال « غراب » وبلغ تعدادها 10000 جندي معهم 24 مدفعا .... واستغل القائد الروسي فرصة غياب الإمام شامل في حملة عسكرية فزحف بجيشه الضخم إلى مقر قيادة المجاهدين في مدينة « دارغو »

ولكن المولى تبارك وتعالى كان لهم بالمرصاد حيث هطلت الأمطار الغزيرة لتعيق مسيرة الجيش الروسي ، وأخذ أهل الشيشان في الاستعداد لملاقاة القوات الغازية ، وبلغ عددهم 2000 مجاهد تحت قيادة « شعيب » نائب الإمام شامل ، الذي أمرهم باعتلاء أشجار البلوط الضخمة التي تسع الواحدة منها ما بين 30 إلى 40 رجلا قاموا بصب النيران على قوات العدو أثناء سيرها .... ولم تفلح طلقات المدافع الكثيفة في إنزال المجاهدين من فوق الأشجار ، واستمرت المعركة يومين إلى أن تقهقر الروس وارتدوا على أعقابهم خاسرين بعد أن قتل منهم 66 ضابطا وأكثر من 1700 جندي بين قتيل وجريح بالإضافة إلى فقدان جميع المؤن والتجهيزات .

وتعززت بهذا الانتصار مكانة المجاهدين الشيشان فانتقلوا إلى الهجوم على القلاع والحصون الروسية وحصارها ، وبلغ حجم الخسائر الروسية خلال خمسة أشهر فقط من عام 1843 أكثر من 3000 قتيل وسقوط 12 حصنا ، وغنم المجاهدون 24 مدفعا .... وجن جنون القيصر وأمر بتجميع كافة القوات الروسية تحت قيادة واحدة في المنطقة ، أسندت إلى الجنرال « فورنستوف » للقيام بحملة عسكرية ضخمة بهدف القضاء على المجاهدين وتدمير عاصمتهم وحرقها .

وتحرك الجيش الروسي في 31 / 5 / 1845 م وكان مكونا من 18000 جندي معززين بـ 46 مدفعا ، ووصل « دارغو » في 16 / 6 / وأمر « فورنستوف » باقتحامها ، ودارت رحى حرب الحواجز والمتاريس إلى أن تمكنت القوات الروسية من احتلال القرية بعد 21 يوما ، ودخل الجنود الروس القرية وأحرقوها بعد أن تبين لهم خلوها من قوات الإمام شامل ، الذي بنى خطته الاستراتيجية في المعركة على أساس قطع طريق العودة على الجيش الروسي ، ونصب الكمين في الغابات على الطريق التي لابد أن يسلكها في رحلة العودة ، ونجحت الخطة بفضل الله نجاحا باهرا ، وتم تلقين الروس درسا لم ولن ينسوه طوال تاريخهم ، حيث لم ينج منهم سوى 5000 جندي نصفهم من الجرحى ، حتى قائدهم « فورنستوف » لم تكتب له النجاة إلا بعد وصول قوات ضخمة لنجدته ....

وظل الإمام شامل مجاهدا مناضلا إلى أن استجمعت روسيا القيصرية كافة إمكاناتها ووجهت إليه جيوشا جرارة تمكنت من هزيمته بعد معركة طاحنة في « غونتيب » في إقليم داغستان .... ولكن ..... رغم هذه الهزيمة فإن روسيا ظلت تتذكر بمرارة حركة الجهاد في الشيشان تحت قيادة هذا المجاهد العظيم ... وستبقى هذه الذكريات محفورة في أذهان الروس لتلقي دائما بظلالها على منهج التعامل الروسي مع هذا الشعب المسلم العظيم (المرجع نفسه : يراجع ص 89 : 95 ، ص 123 : 125) .

4 - لم تخمد جذوة الجهاد في نفوس الشعب الشيشاني ، وإنما تواصلت الحركات الجهادية ضد الاستعمار الروسي على يد زعماء مخلصين من أمثال « باي صونقور » و« أومادوييف » و « آطابي آييف » و « دارة زالمايف » ، ولكن أكبر حركات الجهاد بعد الإمام شامل كانت بقيادة الزعيم الشيشاني « علي بك حاجي » الذي استشهد عام 1878 بعد =

الحملة الإجرامية الحالية على الشيشان :

تتعرض جمهورية الشيشان المسلمة حاليا لحملة إجرامية شرسة ، ترتكب فيها كافة الجرائم ، وتنتهك كافة الحرمات ، وسط حالة من الرضا والمباركة والتأييد العالمي ، وصمت مطبق في العالم الإسلامي .. في وقت ملت فيه آذاننا من سماع الحديث المضلل عن حقوق الإنسان وكرامة البشر في ظل النظام الدولي الجديد ..

1 - الدوافع الدينية وراء الحملة الإجرامية الروسية على الشيشان :

يتعب الكثير من الباحثين أنفسهم في تحليل الدوافع التي حدت بروسيا إلى شن حملتها الإجرامية على الشيشان ، وهم في الغالب يرجعونها إلى دوافع سياسية تتعلق بوضع روسيا في النظام الدولي ، أو اقتصادية تتعلق بالثروة البترولية في جمهورية الشيشان وموقعها الاستراتيجي الذي يتحكم في خطوط أنابيب النفط والغاز وخطوط السكك الحديدية ... إلخ [1] .

= إعدامه على يد القوات الروسية في العاصمة « جروزني » وكذلك الشيخ « أوزون حاجي » الذي تمكن من إقامة حكم إسلامي مستقل لم تنجح روسيا في القضاء عليه إلا عام 1920 م .

5 - تمكنت شعوب شمال القوقاز المسلمة من تكوين دولة لهم تحت اسم اتحاد أبناء جبال القوقاز عام 1917 م ، ولكن الجيوش الروسية عادت لتقضي على هذه الدولة بعد عامين من تأسيسها .... وردا على ذلك قام المجاهدون بحروب شاملة وأسسوا دولة داغستان المستقلة التي ضمت جميع شعوب القوقاز المسلمة ، ولكن الشيوعيين المجرمين بعد قيام ثورتهم على أكتاف المسلمين نكثوا بعهودهم التي خدعوا المسلمين بها ، واجتاحت جحافلهم جمهورية داغستان ، وقاموا بتفتيتها إلى أقاليم صغيرة حتى لا تتوحد الشعوب المسلمة مرة أخرى ، وأصبحت الشيشان مجرد إقليم داخل الاتحاد الروسي ، ثم جمع الشيوعيون كلا من الشيشان والأنجوش في جمهورية واحدة ذات حكم ذاتي في إطار الاتحاد الروسي عام 1939 م .

6 - تنفيسا عن الحقد المتأصل في قلوب الروس ضد الشعب الشيشاني المسلم قام الديكتاتور الشيوعي المجرم « جوزيف ستالين » بتهجير المسلمين الشيشان والأنجوش إجباريا وطردهم إلى صحراء سيبيريا في أطراف قازقستان ، متهما إياهم بالتعاون مع القوات النازية في الحرب العالمية الثانية ، وتم بالفعل ترحيل الشعب الشيشاني رجاله ونسائه وأطفاله ، وظلوا بالمنفى حتى عام 1957 م ، حتى أعيدوا إلى ديارهم وأعيد تكوين جمهورية الشيشان والأنجوش ، بعد أن استشهد منهم في هذه الفترة ما يزيد على 200000 شهيد .

7 - وظل الشيشان كغيرهم من مسلمي الاتحاد السوفييتي السابق يرزحون تحت نير الشيوعية والاستبداد والمحاولات المستمرة لإذابتهم وسط المجتمع الإلحادي وطمس هويتهم الإسلامية بشتى الطرق ومختلف الوسائل .... ولكنهم ظلوا - بفضل الله - مستمسكين بحبل الله المتين معتصمين بنوره المبين ، حتى سنحت لهم الفرصة بتفكك الاتحاد السوفييتي وانهياره عام 1991 م ، فأعلنوا استقلالهم التام عن روسيا في 7 / 11 / 1991 م وتكوين جمهورية الشيشان المستقلة بعد أن فضَّل إخوانهم الأنجوش البقاء في إطار الاتحاد الروسي ... ولم تعترف روسيا بهذا الاستقلال وحاولت القضاء عليه وقتها لكنها تراجعت ، إلى أن جاءت الحملة الأخيرة في ديسمبر 1994 م (يراجع : المرجع نفسه ص 96 : 110 ،، معلومات أساسية لفهم المسألة الشيشانية ص 1078 : 1080) .

(1) جمع الأستاذ / مصطفى دسوقي كسبه هذه الآراء وأيدها في كتابه : الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين ص 182 : 191 وينظر أيضا : الدب الروسي يقع في مصيدة الشيشان . هاني علي / الأهرام 6 / 1 / 1995 ص 5 .

ومع الاعتراف بأهمية هذه الدوافع ، إلا أن الإنصاف يقتضي البحث عن الدافع الأول والسبب الأساسي المتمثل في « الإسلام » ذلك الدين الذي يتمسك به الشيشان ويملك عليهم أقطار نفوسهم .... وليس أدل على أولية الدافع الديني في الحملة على الشيشان مما يلي :

(1) هذا الميراث التاريخي الذي سبق عرض بعض لمحات منه ، فالروس لم ينسوا بعد أن الشيشان كانوا على الدوام منبع الثورات والقلاقل ضد الاستعمار الروسي في آسيا الوسطى والقوقاز ، ولا يزال الروس المجرمون يتحينون الفرص للانتقام من هذا الشعب الذي أذل نفوسهم وأهان كبرياءهم القومي على مدار تاريخهم .

(2) ومما يؤكد ذلك أيضا تلك الوثيقة الخطيرة التي أزاح الستار عنها الرئيس الشيشاني في 16 نوفمبر 1994 م ، « وهي خطة روسية صدرت عن قصر « الكرملين » وموقعة من الرئيس « يلتسين » نفسه تقضي صراحة بضرورة تعاون كافة الأجهزة والمؤسسات الروسية المختلفة لتهجير كل شعب الشيشان تهجيرا إجباريا من أرضه لتوزيعه على مختلف أرجاء الاتحاد الروسي . » [1] ... لقد كانت النية مبيتة لتكرار المأساة التهجيرية للشيشان في الأربعينات ، مما يدل على أن الروس هم الروس في عدائهم للإسلام ، سواء في ذلك الشيوعيون ومن أعلنوا القضاء على الشيوعية .

(3) ظلت روسيا صامتة إزاء الاستقلال الشيشاني مدة طويلة كان الدستور الشيشاني فيها يؤكد علمانية الدولة ، وما إن بدأ التوجه الحقيقي نحو الإسلام حتى بدأت روسيا التحرش بالجمهورية المستقلة ، فقد تقدم « جوهر دوداييف » في فبراير 1993 م بمشروع خاص للإصلاح الدستوري يقضي بإعلان الإسلام الدين الرسمي للدولة ، وبالفعل وافق البرلمان على هذاالتعديل الدستوري في مايو 1993 م .... وكان الدستور الشيشاني الموروث من العهد الشيوعي لاينص على ذلك [2] .

(4) دأب الرئيس الروسي « بوريس يلتسين » على اتهام الشيشان وزعيمهم « دوداييف » بالإرهاب والإجرام وأنهم من أنصار « المافيا » والجريمة المنظمة ، ويقومون بإيواء ودعم الجماعات الإرهابية والاتجار بالمخدارت [3] .... ومعلوم مما سبق في هذا الفصل أن الاتهام

---

(1) الشيشان .. لماذا الدفاع عن الذات ؟! د / محمد حرب الأهرام 23 / 2 / 1995 م ص 8 .

(2) المرجع نفسه .

(3) ينظر : الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين ص 118 ، ص 201 : 204 ، والأهرام 6 / 12 / 1994 م ص 4 ، مأزق يلتسين بين الشيشان والروس ، عبد الملك خليل (مراسل الأهرام في موسكو) الأهرام 31 / 12 / 1994 م ص 5 .

بالإرهاب والجريمة هو سلاح قادة النظام الدولي الجديد في مواجهة حركات الصحوة الإسلامية في كافة بلدان العالم الإسلامي .

(5) مما يؤكد الدوافع الدينية في هذه الحملة أيضا ، أن الروس لم يفلحوا في تذويب الشعب الشيشاني داخل بوتقة القومية والثقافة الروسية ، بينما نجحوا مع شعوب مسلمة أخرى مثل جمهورية « تتارستان » المسلمة ذات الاستقلال الذاتي داخل الإطار الفيدرالي الروسي ، حيث أصبح هؤلاء التتار المسلمون جزءا من المجتمع الروسي ، يتحدثون بلغته ويجهلون لغتهم الأصلية ، ويعرفون تاريخه ويجهلون تاريخهم التتاري العظيم ، ومن هنا سهل الاتفاق بينهم وبين الروس على شكل الارتباط بين جمهوريتهم والاتحاد الروسي .. أما الشيشان فقد حافظوا على هويتهم واستمسكوا بدينهم فكان لابد من القضاء عليهم وإخضاعهم قسرا للسيادة الروسية .. [1] .

لهذه الأسباب كلها يقرر الباحث المدقق في ثقة واطمئنان أن الدافع الديني كان أهم وأول دوافع الغزو والاجتياح الروسي للشيشان .

2 – صور من المذابح والمآسي التي ارتكبتها القوات الروسية في الشيشان :

لم يكن اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر 1994 م البداية الحقيقية للحملة الإجرامية الروسية ، وإنما كان البداية الرسمية العلنية لها ، فلقد قامت روسيا بتكوين بعض العصابات وأمدتها بكافة أنواع الأسلحة وادعت أنها تشكل المعارضة الشيشانية للرئيس « دوداييف » وللاستقلال عن روسيا ، وظلت تنفي باستمرار دعمها العسكري لهذه العصابات ، إلى أن تمكن المجاهدون الشيشان من سحق هذه القوات ، وتم أسر 70 جنديا روسيا ، وهدد الرئيس الشيشاني بمعاملتهم كمرتزقة إن لم تعترف روسيا بأنهم من رعاياها وأن الغارات الجوية على جروزني قد قامت بها طائرات روسية ، وبالفعل اعترف « بافل جراتشيف » وزير الدفاع الروسي علنا بقصف الشيشان ودعم قوات المعارضة [2] .

ثم بدأت الحملة الإجرامية في التاريخ المذكور ، وارتكبت القوات الروسية كثيرا من الجرائم البشعة التي يندى لها جبين الإنسانية والمدنية في نهاية القرن العشرين ... ورغم التعتيم الإعلامي على أنباء الجرائم الروسية في الشيشان إلا أن القليل المتوافر منها يميط

---

(1) ينظر الشيشان .. لماذا الدفاع عن الذات – الأهرام – مصدر سابق .

(2) الأهرام 6 / 12 / 1994 ص 4 ، السياسة الدولية ع 120 أبريل 1995 شهريات ديسمبر 1994 ص 316 .

اللثام عن نمط من الوحشية لا يكاد يصدقه عقل :

* فعلى بعد 15 كم من العاصمة « جروزني » سيذكر التاريخ أنه كانت في هذا المكان بلدة تسمى « برجوما بسكويه » كان يسكنها آدميون كل جريرتهم أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وهي في نظر الروس المجرمين جريمة كبرى تكفي وحدها سببا مقنعا لإبادة القرية تماما وتسويتها بالأرض بعد ذبح جميع سكانها المؤمنين .... [1] .

* ولم تكن قرية « تماشكي » أسعد حظا ولا أحسن حالا من أختها المذكورة ، حيث دخلها المجرمون الروس بعد تعاطيهم المخدرات والخمور وأحرقوا كل من قابلوه من أهل القرية - الرجال والنساء والأطفال - وهم أحياء ، مستخدمين قاذفات اللهب والبنادق الأوتوماتيكية والقنابل اليدوية .... ولم يكتف المجرمون بذلك بل سارعوا بإخراج أهل القرية من داخل المخابئ والملاجئ التي كانوا يحتمون بها ، وقتلوهم بالطريقة نفسها ... ومما يدل على هول المأساة وفظاعتها أن عملية دفن الموتى من أبناء القرية قد استغرق تنفيذها أسبوعا كاملا [2] .

* أما العاصمة « جروزني » فقد حولها المجرمون الروس إلى مدينة للأشباح بعد أن أمطروها بقذائفهم المدفعية والصاروخية والقنابل العنقودية والأسلحة الكيماوية المحرمة دوليا ، وبعد أن كان القذف بمعدل قذيفة كل 20 ثانية في 15/12/1994 م مع استخدام الأسلحة الكيماوية [3] . تزايد معدله إلى قذيفة كل 15 ثانية في 16/1/1995 م [4] ... وقد أضافت روسيا إلى جرائمها العديدة جريمة أخرى باستخدام القنابل العنقودية في قصف مدينة « جروزني » ، الأمر الذي أدى إلى وفاة العديد من السكان ، وقد اعترف « سيرجي كوفاليف » رئيس لجنة حقوق الإنسان وعضو البرلمان الروسي بحجم المأساة المروعة التي شاهدها بنفسه بعد إقامته مدة طويلة في « جروزني » فقد أكد أن الجثث مكدسة بالمئات في شوارع جروزني تنهشها الكلاب الضالة ولا تجد من يدفنها ... ووصف « كوفاليف » الذي يشغل أيضا منصب مستشار الرئيس الروسي لحقوق الإنسان وصف الحكام الروس بأنهم كذابون وخنازير ، وقال إنه لا يفخر بالعيش في بلد

(1) للوقوف على تفاصيل المأساة ينظر الأخبار 16 / 12 / 1994 ص 2 .

(2) أخبار اليوم 15 / 4 / 1995 ص 6 .. وينظر الأهرام 12 / 4 / 1995 م ص 4 .

(3) الأخبار 16 / 12 / 1994 ص 2 . (4) الأهرام 16 / 1 / 1995 ص 1 .

يقتل أبناءه [1] .

* وفي تقرير أعده خبراء المفوضية الروسية لحقوق الإنسان تبين أن عدد ضحايا الغزو الإجرامي الروسي من المدنيين الشيشان بلغ أكثر من 24 ألف شخص ، من بينهم 3700 طفل تحت سن 15 سنة ، و4650 امرأة فوق 15 سنة ، و 13350 رجلا غير مسلح بين 15 إلى 50 سنة ... [2] وقد ارتفع هذا الرقم إلى 78 ألف شخص بعد مرور عام ونصف على بدء العدوان الغاشم [3] وهذه الأرقام وحدها كفيلة ببيان مدى وحشية وهمجية الروس المجرمين .

* ولقد هزت هذه الجرائم الوحشية مشاعر بعض الروس ممن بقي في نفوسهم رصيد من الإنسانية مثل « كوفالييف » المذكور آنفا .... بل إن والدة وزير الدفاع الروسي قالت : إنه من الأفضل فصل وعزل وإقصاء ابني من الجيش الروسي ... [4] .

إذا كانت هذه مواقف بعض الروس ، فما هو يا ترى موقف المجتمع الدولي من هذه المأساة ؟!

3 – التآمر الدولي في المأساة الشيشانية :

حظيت الحملة الإجرامية الروسية على الشيشان بتأييد ومباركة القوى الكبرى في النظام الدولي الجديد سواء أعلنت ذلك صراحة أو اكتفت بالصمت المشبع بالرضا والتعاطف :

* فوزير الخارجية الأمريكي « وارين كريستوفر » أعرب عن تعاطفه مع الغزو الروسي [5] وأعلن أنه أمر داخلي روسي ، وأن الولايات المتحدة لن تضحي بعلاقتها ودعمها لروسيا من أجل الشيشان [6] .

* كما أن الرئيس الأمريكي أكد أكثر من مرة عدم اكتراث الولايات المتحدة بما يحدث في الشيشان لأنه شأن من شئون روسيا الداخلية [7] .

* وصمتت الدول الغربية صمت القبور تجاه ما يحدث في الشيشان ، مما دعا إلى توكيد الفكرة القائلة بأن الغرب لا يهتم إلا بتقوية « يلتسين » وتدعيمه في مواجهة خصومه

---

(1) ينظر الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين ص 191 ، الأهرام 6 / 1 / 1995 ص 1 .
(2) الأهرام 23 / 2 / 1995 ص 4 .
(3) الأهرام 23 / 3 / 1996 م ص 5 . وبمقارنة الإحصائيتين يتبين أن عدد الضحايا خلال عام واحد قد بلغ 54 ألف شخص .
(4) مأزق يلتسين بين الشيشان والروس – عبد الملك خليل – الأهرام 23 / 12 / 1994 ص 5 .
(5) الأخبار 16 / 12 / 1994 ص 2 . (6) المساء 23 / 12 / 1994 ص 5 .
(7) ينظر : الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين ص 198 .

السياسيين ولو كان ذلك على حساب الشيشان والمجازر المرتكبة في حق أهلها [1] .

* وأعلنت الأمم المتحدة بدورها أن ما يحدث في الشيشان أمر داخلي معربة عن أملها في توقف المعارك [2] . وقد يرفض البعض قضية التآمر الدولي ومباركة الغرب للمذابح المرتكبة في الشيشان مستندين في ذلك إلى بعض التصريحات المتناثرة هنا وهناك ، مثل :

- اتهام وزارة الخارجية الألمانية لروسيا بانتهاك حقوق الإنسان [3] .

- دعوة فرنسا إلى تدخل منظمة الأمن والتعاون الأوروبي لإيجاد حل للمشكلة الشيشانية بوضع أسس للتسوية السلمية [4] .

- ما أوردته الأنباء من أن وزراة الخارجية الأمريكية قد حثت روسيا على أن تطلب من منظمة الأمن والتعاون الأوروبي مساعدتها على حل النزاع [5] .

- ما أوردته أيضا من أن نائب الرئيس الأمريكي « آل جور » قد ناشد الحكومة الروسية محاولة حل الأزمة عن طريق المفاوضات [6] .

أقول : قد يستند البعض إلى مثل هذه التصريحات في نفي فكرة التآمر الدولي ومباركة الغرب للجرائم الروسية في الشيشان ... ولكن التحليل الصحيح يثبت أنه لا تناقض بين هذه التصريحات وتلك ، فالدول الغربية الصليبية ظنت أن الغزو الروسي للشيشان سيكون مجرد نزهة قصيرة للجيش الروسي الضخم سرعان ما تنتهي وتعود الشيشان إلى روسيا دون ضجيج أو إزعاج ... ولكن المقاومة البطولية للمجاهدين الشيشان لم تكن متوقعة على الإطلاق فطال أمد الغزو الإجرامي ، وتسربت أنباء المذابح المروعة التي ارتكبها الجيش الروسي إلى وسائل الإعلام ، فكان لابد أن تصدر بعض التصريحات في هذا البلد أو ذاك للتعبير عن مجرد « القلق » من انتهاك حقوق الإنسان - دون أن يصل إلى حد الإدانة الكاملة - ومناشدة الأطراف المعنية حل الأزمة سلميا ... كل هذا من باب التجمل وذر الرماد في العيون لا أقل ولا أكثر .

وتبقى الحقيقة المؤكدة وهي أن الغرب قد بارك العمل الإجرامي الروسي وأيده ، في

---

(1) الأهرام 17 / 2 / 1995 ص 5 تحت عنوان : مذبحة جروزني .
(2) الأخبار 16 / 12 / 1994 ص 2 .
(3) الأهرام 3 / 1 / 1995 ص 1 .
(4) الأهرام 3 / 1 / 1995 ص 1 .
(5) الأهرام 6 / 1 / 1995 ص 1 .
(6) الأهرام 10 / 1 / 1995 ص 1 .

الوقت الذي شحذ فيه أسلحته ووجه ضربات موجعة للعراق بدعوى حماية الأكراد والشيعة من بطش السلطة الحاكمة في بغداد مع أنه أمر داخلي .... وكذلك تدخل الغرب في دولة « هاييتي » الصغيرة الفقيرة تحت غطاء الأمم المتحدة ، بدعوى استعادة الديمقراطية وعودة الرئيس المخلوع ، مع أن هذا شأن داخلي .... ولم يقف كون الموضوع شأنا داخليا حائلا دون التدخل العسكري الغربي في الحالتين السابقتين وغيرهما ... ولكن الأمر يتعلق هذه المرة بحماية مسلمين من بطش قوة كبرى في النظام الدولي الجديد ، هي عضو دائم في مجلس الأمن ، فما كان منتظرا من الغرب – والحالة كذلك – إلا أن يؤيد ويبارك هذا العمل الإجرامي الروسي ، ولتذهب جميع الشعارات عن حقوق الإنسان والعدالة والمساواة إلى الجحيم .

والواقع أن هذا الموقف الغربي الصليبي غير مستغرب ، فهذه طبيعتهم ، وتلك سجيتهم في كل شأن يخص المسلمين .... ولكن السؤال هنا .... أين موقف العالم الإسلامي ؟!

4 – التخاذل المأساوي في العالم الإسلامي :

يشعر المسلم بالخزي العميق وهو يبحث عن موقف العالم الإسلامي من المأساة الشيشانية المروعة .... وكالعادة لم يشعر بالمأساة وخطورتها إلا نفر ممن يفهمون حقيقة الأمر وخلفياته التاريخية ، أما التصريحات الصادرة عن الحكومات في معظم البلاد الإسلامية فكانت تجنح إلى التعبير عن الأسف والحزن لما يحدث والرغبة في تسوية الأزمة سلميا .

أما منظمة المؤتمر الإسلامي فقد تصورت أنها قد أراحت ضميرها بالبيان الذي أصدره أمينها العام بعد أسبوعين تقريبا من بداية الغزو داعيا المجتمع الدولي إلى استخدام كل ما لديه من تأثير ونفوذ سياسي ودبلوماسي لوضع حد للنزاع في الشيشان وتسوية الأزمة ، كما ناشد كلا من الرئيس الروسي والشيشاني بذل كل ما في وسعهما لإيجاد حل سلمي للأزمة [1] .

5 – من صور النضال البطولي في الجهاد الشيشاني :

على الرغم من بشاعة الغزو الروسي ومذابحه الوحشية .... ووضوح التآمر الدولي ضدهم .... وخذلان العالم الإسلامي لهم ....

---

(1) الأهرام 27 / 12 / 1994 ص 1 .

على الرغم من هذا كله .... أبى الشعب الشيشاني إلا أن يصل الحاضر بالماضي ، وأن يعيد إلى الأذهان تلك الصفحات المجيدة من البطولة والجهاد والتضحية .... نعم والله ! لكأن التاريخ يعيد نفسه من خلال صور البطولة والجهاد والتضحية التي أبدع تشكيلها المجاهدون الشيشان .... وكم كان عجيبا وجميلا في آن واحد أن يرى العالم وهو يودع القرن العشرين أناسا يعيدون أمجاد الإسلام الأولى تحت راية الجهاد في سبيل الله ، وتحت شعار « الله أكبر » .....

(1) نعم ! كم كان عجيبيا ورائعا أن نرى الرئيس الشيشاني يرتدي أكفانه تحت سترته العسكرية ، ويؤكد إصراره على مقاومة الغزو الروسي والحفاظ على استقلال بلاده حتى آخر رمق في حياته .

وأن نسمع وزير خارجية الشيشان يعلن للعالم كله أن الشعب يحارب من أجل هدف واحد : إما النصر أو الشهادة [1] .

(2) ولكم كان شيئا عظيما أن يعلن الرئيس الشيشاني بكل ثقة أن الشيشان ستقضي على يلتسين ، تماما مثلما تسببت أفغانستان في انهيار الاتحاد السوفييتي [2] .

(3) وكم كان شيئا مبهرا أن يفشل الروس سبع مرات في اقتحام العاصمة جروزني وأن تجبر المقاومة الشيشانية الباسلة وزارة الدفاع الروسية على تغيير خطتها عشر مرات ، على الرغم من أن المجاهدين الشيشان قد نفذت ذخيرتهم وهم يستعملون بنادق الصيد وأسلحة الحرب العالمية الثانية ، بينما الروس مدججون بأحدث الأسلحة .... [3] ولم تستطع القوات الروسية اقتحام جروزني إلا بعد انسحاب المجاهدين الشيشان منها في أعقاب القصف الروسي العنيف الذي دك المدينة دكا ودمرها تدميرا شاملا باستخدام القنابل العنقودية والأسلحة الكيماوية ، وكلاهما محرم دوليا [4] .

ولكن الأبطال الشيشانيين عادوا مرة أخرى في أغسطس 1996 م ليفاجئوا العالم كله باقتحام « جروزني » وعدة مدن كبرى ، وحصار ما يزيد على سبعة آلاف جندي

---

(1) الأهرام 25 / 12 / 1994 ص 1 .

(2) الدب الروسي يقع في مصيدة الشيشان – هاني علي – الأهرام 6 / 1 / 1995 ص 5 .

(3) روسيا .. هزيمة بلا حدود – عبد الملك خليل – الأهرام 16 / 1 / 1995 ص 5 وانظر أيضا ص 1 .

(4) للوقوف على مدى الدمار الذي أصاب « جروزني » وبقية المدن الشيشانية ينظر : مشاهد القيامة في جروزني – فهمي هويدي – الأهرام 25 / 7 / 1995 ص 7 .

روسي ، وإسقاط الحكومة الموالية لموسكو وأسر جميع أعضائها .. مما شكل إهانة كبرى وإذلالا عظيما لروسيا في اليوم الذي كانت تحتفل فيه بتنصيب يلتسين رئيسًا لها لفترة ثانية .. ومما زاد من مرارة الهزيمة في حلوق الروس : الفشل الذريع الذي مني به أكثر من 30 ألف جندي روسي مدججين بالطائرات والدبابات والمدرعات في إخراج المجاهدين من جروزني ، الذين لم يتجاوز عددهم - باعتراف القيادة الروسية نفسها - ثلاثة آلاف رجل .. بل ثبت أن كثيرين من الجنود والضباط قد هربوا وتركوا أسلحتهم [1] .

(4) وكم كان أمرا جليلا أن تتحدث وكالات الأنباء العالمية عن شجاعة وبسالة المجاهدين الشيشان [2] في نفس الوقت الذي تتحدث فيه عن جبن الجنود الروس ونكوصهم وتقاعسهم عن اقتحام المواقع الشيشانية [3] .

(5) وكم كان عجيبا ورائعا أن يعلن الرئيس يلتسين في يوم القوات المسلحة الروسية أن الجيش الروسي بدأ يتفكك بعد حرب الشيشان التي أظهرت أن الإصلاحات في الجيش ستستغرق وقتا طويلا . كما أعلن وزير الدفاع في اليوم نفسه أن سحق جميع عناصر المقاومة الشيشانية ربما يستغرق عدة سنوات [4] .

(6) وكم كان شيئا مدهشا أن تتحدث الصحف الروسية نفسها عن تدليس السلطات الرسمية وخداعها فيما يتعلق بحجم الخسائر الهائلة التي منيت بها القوات الروسية الغازية .

فقد اعترفت السلطات الرسمية بما يلي :

* وقوع 47 جنديا في الأسر ، وفقد 6 عربات مدرعة بعد يوم واحد من بداية الغزو [5] .

* مقتل 500 وإصابة 1000 وفقد 200 وأسر 150 جنديا حتى يوم 16/1/1995 م [6] .

* ارتفاع عدد القتلى إلى 560 جنديا حتى يوم 26 / 1 / 1995 م [7] .

في الوقت نفسه لم تذكر الحقائق التالية :

* وقوع وحدة كاملة من المظليين الروس في الأسر وتدمير 37 عربة مدرعة في 9/1/1995 م [8] .

---

(1) ينظر : حرب الشيشان .. هل يستوعب يلتسين الدرس ؟ - عطية عيسوي الأهرام 16 / 8 / 1996 ص 5 .

(2) الأهرام 10 / 1 / 1995 ص 1 .

(3) الأهرام 17 / 1 / 1995 ص 1 .

(4) الأهرام 24 / 2 / 1995 ص 4 .

(5) الأخبار 13 / 12 / 1994 ص 2 .

(6) الأهرام 17 / 1 / 1995 م ص 1 .

(7) الأهرام 27 / 1 / 1995 ص 4 .

(8) الأهرام 10 / 1 / 1995 م ص 1 .

* الهزيمة المهينة التي منيت بها سبع مرات عند محاولة اقتحام جروزني ، واستسلام مجموعات كبيرة من الجنود الروس ، وتدمير عشرات الدبابات والعربات المصفحة ، وسقوط المئات من القتلى [1] . وقد سبق إيراد الاتهام الذي وجهه « سيرجي كوفالييف » إلى القيادات العسكرية والسياسية الروسية بالكذب والتضليل .

* أنكرت روسيا الأرقام الحقيقية لعدد القتلى في صفوف قواتها ، حيث أكدت مصادر عسكرية روسية أن الرقم الحقيقي قد بلغ 5 آلاف جندي ، في الوقت الذي بلغ فيه عدد الجنود الهاربين من وحداتهم أكثر من 3 آلاف جندي [2] .

إن هذا التضليل الروسي الحكومي يهدف إلى التعتيم على مظاهر القوة والبطولة والفداء التي ميزت الجهاد الشيشاني .

(7) وكم كان عجيبا ورائعا أيضا أن يُحدث الصمود والاستبسال الشيشاني زلزالا هائلا في المؤسسات العسكرية والسياسية الروسية :

* فقد عزل وزير الدفاع الروسي قيادة جيش القوقاز الشمالي بأكملها ، وأجبر النائب الأول لوزير الدفاع ونائب رئيس القوات البرية على تقديم استقالتيهما [3] .

* وقرر الرئيس الروسي خفض رتب ثلاثة جنرالات يشغلون منصب نائب وزير الدفاع [4] .

وإزاء الصمود البطولي للمجاهدين الشيشان اعترف كثير من كبار الضباط بأن الغزو كان عملاً خاطئا وأنه إجراء غبي وإجرامي سيؤدي إلى إشعال النار في جميع أنحاء القوقاز [5] .

* كما سلك كثير من السياسيين الروس المسلك ذاته ، حيث استغلوا الهزائم المتتالية للقوات الروسية في صب جام غضبهم على الرئيس يلتسين والمطالبة باستقالته [6] .

---

(1) روسيا ... هزيمة بلا حدود .. مصدر سابق ، الأهرام 3 / 1 / 1995 م ص 1 .

(2) الأهرام 11 / 2 / 1995 م ص 4 . (3) الأهرام 25 / 12 / 1994 م ص 1 . (4) الأهرام 20 / 1 / 1995 م ص 1 .

(5) من هؤلاء الجنرالات : بوريس جراموف ، نائب وزير الدفاع وايفابا بتشيف قائد الفيلق المدرع ، وعدد كبير من الضباط الميدانيين وضباط وزارة الداخلية وغيرهم .... ينظر في هذا كله : الشيشان يكسرون أنف يلتسين – سليمان قناوي – الأخبار 20 / 12 / 1994 م ص 11 روسيا هزيمة بلا حدود – مصدر سابق ، الأهرام 10 / 1 / 1995 م ص 1 و 17 / 1 / 1995 م ص 1 .

(6) من هؤلاء السياسيين : « إيجور جيدار » رئيس حزب « خيار روسيا » المؤيد ليلتسين ، و « إميل باينا » أحد مستشاري الرئيس ، « وسيرجي كوفالييف » مستشار الرئيس لحقوق الإنسان ، والدكتور « فلينسكي » مستشاره الاقتصادي وغيرهم كثير وخاصة أعضاء البرلمان .. الأهرام 20 / 12 / 1994 م ص 1 و 6 / 1 / 1995 م ص 1 . ، الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين ص 191 : 193 .

باختصار .... كان الروس يظنون أن غزو الشيشان لن يكون إلا نزهة سريعة وعملية خاطفة ، فلقنهم الشيشان درسا عظيما في البطولة والتضحية والفداء ، ووجهوا إلى العالم كله رسالة خاصة ، فحواها أن المسلم حينما يعتصم بحبل الله ويلوذ بجنابه لن تستطيع الأسلحة الفتاكة ولا الجيوش الضخمة أن تنال منه قنطارا ولا قطميرا ..

وحسب هؤلاء المجاهدين فخرا أنهم صمدوا طيلة هذه المدة أمام جيش جرار يعد ثاني جيوش العالم قوة ... وحتى لو تمكنت روسيا من احتلال المدن الشيشانية فلن يكون ذلك هزيمة للمجاهدين ، لأن الحرب الحقيقة تبدأ بلجوئهم إلى الجبال لتنطلق من هناك حركة جهادية طويلة نسأل الله جميعا لهم الصبر والثبات والنصر المبين (1) .

* * *

بهذه الصفحة المضيئة من الجهاد في الشيشان ينتهي الحديث عن موقف النظام الدولي الجديد من بعض قضايا المسلمين في قارة آسيا ، استعرضت فيه أهم تلك القضايا والمشكلات وإن كان الواقع المشهود يؤكد أن المسلمين في معظم أرجاء هذه القارة يعيشون أوضاعا مأساوية ولكن أناتهم وصرخاتهم لم يكتب لها بعد أن تخترق آذان المجتمع الدولي عامة والإسلامي خاصة ، ونتوجه جميعا إلى المولى العلي القدير أن يكشف كربهم وأن يزيل همهم ... اللهم آمين .

---

(1) يجدر بالذكر هنا أن الرئيس الروسي كان قد عين الجنرال « الكساندر ليبيد » سكرتيرًا لمجلس الأمن القومي الروسي ومبعوثا رئاسيا إلى الشيشان .. وإزاء الصمود البطولي للمجاهدين أرغمت روسيا على توقيع اتفاق مع المجاهدين ، بعد مفاوضات شاقة بين « ليبيد » والجنرال « أصلان مسخادوف » رئيس أركان المقاومة الشيشانية ، ويقضي هذا الاتفاق بإرجاء البت في تحديد الوضع السياسي النهائي لجمهورية الشيشان لمدة خمس سنوات [31 / 12 / 2001 م] مع انسحاب القوات الروسية من أراضي الجمهورية وتشكيل لجنة مشتركة تحل محل الحكومة الموالية لموسكو [الأهرام 1 / 9 / 1996 م ص 4] .

ولكن الشكوك تحيط بهذا الاتفاق خاصة بعد إقالة « ليبيد » من منصبه وتزايد الصراع على السلطة بين كبار المسئولين الروس في ظل مرض الرئيس واعتلال قلبه .

الفصل الثالث
في القارة الأوروبية

بعد أن ذكر البحث نماذج لموقف النظام الدولي الجديد من بعض قضايا المسلمين في قارتي أفريقيا وآسيا ، ينطلق الآن إلى أوروبا التي كانت دائما حائلا منيعا في وجه انتشار الإسلام ، انطلقت منها الحملات الصليبية المتتالية ، كما انطلقت منها كذلك الحملات الاستشرافية والتنصيرية بعد فشل الحملات العسكرية .

سيكتفي البحث بإيراد نموذج واحد لموقف النظام الدولي الجديد من قضايا المسلمين في القارة الأوروبية - المأساة الدامية في البوسنة والهرسك - وإن كان الوجود الإسلامي في تلك القارة يواجه - بشكل أو بآخر - حملات مكثفة تهدف إلى إنهائه والقضاء عليه تماما ، حتى تصبح القارة الأوروبية نصرانية خالصة ..

(1) البوسنة والهرسك

لا تعد المأساة الدامية الحالية في البوسنة والهرسك أمرا مستغربا عند من لديه أدنى فكرة عن تاريخ الإسلام في تلك الجمهورية بصفة خاصة وفي يوغوسلافيا السابقة بصفة عامة وفي شبه جزيرة البلقان بصفة أعم .. فلقد نصبت للمسلمين على مدار تاريخهم العديد من المجازر والمذابح التي كانت - ولا تزال - تهدف إلى محو الوجود الإسلامي تماما في هذه المنطقة من العالم ..

ولهذا لا يمكن فهم الأوضاع المأساوية الحالية في البوسنة والهرسك حق الفهم إلا بالعودة إلى تاريخ الإسلام والمسلمين في هذا البلد [1] .

---

(1) **تاريخ الإسلام والمسلمين الدامي في البوسنة والهرسك :**
يمتد تاريخ المسلمين في هذه البلاد إلى أعماق تاريخية بعيدة منذ دخول الإسلام إليها في أواخر القرن الرابع الهجري وحتى الآن ويمكن - بصفة عامة - تقسيم هذه الفترة الطويلة إلى عدة مراحل ، كما يلي : (تابعت في هذا التقسيم ما كتبه الأستاذ الدكتور / عبد الحي الفرماوي في كتابه : الصربيون خنازير أوروبا .. يحاولون إبادة الوجود الإسلامي في البلقان ، ص 38 : 42) .

1 - المرحلة الأولى : (من القرن الرابع حتى التاسع الهجري « العاشر حتىالخامس عشر الميلادي ») .
تبدأ هذه المرحلة في أواخر القرن الرابع الهجري ، حين قدم شعب « البوشناق » مهاجرين من منطقة نهر « الفولجا » في =

....

= آسيا ، واستقروا في منطقة جبلية في شبه جزيرة البلقان وهي المنطقة التي تشكل الآن جمهورية البوسنة والهرسك ، وقد حمل بعض هؤلاء المهاجرين معهم عقيدة الإسلام الذي عرفوه وآمنوا به قبل هجرتهم ، ومع مرور الأيام تكونت دولة البوسنة والهرسك التي ظلت قائمة حتى الفتح الإسلامي التركي لها .. وقد سبق شعب « البوشناق » في الهجرة إلى البلقان شعوب أخرى من العنصر السلافي في القرن الرابع الميلادي ، ومنهم الصرب والبلغار والكروات وغيرهم . وقد اعتنق الصرب المذهب الأرثوذكسي بينما اعتنق الكروات المذهب الكاثوليكي ، في الوقت الذي كان البشانقة يعتنقون مذهبا يسمى « البوجوميلية » يُعَدُّ أتباعه من الهراطقة في نظر كل من الكاثوليك والأرثوذكس ، ويجب القضاء عليهم .. ومن ثم تعرض البشانقة لمجازر عنيفة من الطرفين لهذا السبب ، ولسبب آخر هو رغبة كل من الصرب والبلغار والكروات والمجريِّين في توسيع ممالكهم بالاستيلاء على أراضي البوسنة والهرسك .

في هذه الأثناء كان نجم الدولة العثمانية يشرق ويتلألأ بقوة في سماء أوروبا ، وبدأت الفتوحات الإسلامية العثمانية تتوالى ، ولكن الممالك السلافية في البلقان كونت حلفا دفاعيا نصرانيا بقيادة ملك البوسنة ، تمكن من وقف تقدم العثمانيين بعض الشيء ، إلى أن قيض الله للإسلام السلطان مراد الأول الذي أنزل بالصرب هزيمة فادحة في معركة « كوسوفو الأولى » عام 1389 م وهي المعركة التي لا تزال عالقة بأذهان الصرب حتى الآن – حيث أقام الصرب عام 1987 م احتفالا بمرور 600 سنة على هزيمة قائدهم « لازار » وأرسلوا نعشه ليطوف بالقرى الصربية عاما كاملا لتأجيج المشاعر والتوعد بالانتقام الشامل من المسلمين ..... وبعد هذه المعركة توطدت أركان الوجود الإسلامي في البلقان ، ولكن البوسنة ظلت تحتفظ باستقلالها إلى أن تم فتحها على يد السلطان المجاهد أبو المعالي محمد خان بن مراد المعروف بمحمد الفاتح عام 1463 م ، ثم تم فتح الهرسك عام 1483 م (يراجع : مذابح البوسنة والهرسك .. أندلس جديدة في أوروبا – لواء أ . ح . د / فوزي محمد طايل ص 29 : 33 .

* البوسنة والهرسك – د / جمال الدين سيد محمد ص 13 : 14 .

* البوسنة والميراث الدامي نزار سمك ص 3 : 11 * سلسلة : تحت دائرة الضوء « 1 » .

* الصربيون .. خنازير أوروبا – مرجع سابق ص 31 ، 34 ، 38) .

2 – **المرحلة الثانية** : (867 - 1295 هـ / 1463 - 1878م) :

البوسنة والهرسك في ظل الحكم العثماني :

تمثل هذه الفترة التي تبلغ 428 عاما هجريا قمة ازدهار الوجود الإسلامي في البلقان وخاصة في البوسنة والهرسك ، حيث خضعت للحكم العثماني .. ومن الجدير بالتسجيل هنا . ومما يبين عظمة هذا الدين الحنيف أن أكثر الفئات البلقانية معارضة للإسلام ومحاربة له هي التي سارعت بالدخول فيه واعتناقه طواعية واختيارًا ، حيث بهرتهم تعاليم الإسلام السمحة ومبادؤه العظيمة فدخلوا في دين الله أفواجا ، لما رأوه من سياسة التسامح التي انتهجتها الدولة العثمانية إزاء غير المسلمين في المناطق المفتوحة .

وقد ظلت الدولة العثمانية محافظة على قوتها وتماسكها إلى أن دب في جسدها داء الأمم والحضارات فانتقلت من موقع الهجوم إلى الدفاع وأصبحت رجل أوروبا المريض ، ونهضت القوى الصليبية الأوروبية لتستقطع من الجسد العثماني المنهك ، ما يتوافق وأطماعها وأهدافها ، وكانت منطقة البلقان واحدة من أهم المناطق التي تشابكت فيها المصالح والأطماع ، فالصرب يطمعون في توسيع ممتلكاتهم لتحقيق أحلامهم في صربيا الكبرى ، وكرواتيا تسعى كذلك للهدف ذاته بتكوين كرواتيا الكبرى ، وإمبراطورية النمسا والمجر هي الأخرى لها مطامعها التوسعية .. توافقت أهداف الجميع في ضرورة إخراج العثمانيين من البلقان ، وتحققت أول خطوة في هذا السبيل حينما استقلت البوسنة والهرسك في أعقاب ثورة أشعلها النصارى الصربيون في البوسنة بمعاونة إخوانهم في صربيا وتشجيع من النمسا وروسيا .. وفي مؤتمر برلين (13/ 6 - 13/ 7/ 1878 م) تم منح الاستقلال إلى كل من صربيا والجبل الأسود ، بينما وضعت البوسنة والهرسك=

....

= تحت الانتداب النمساوي ، مع بقاء السيطرة الاسمية لتركيا ، إلى أن تم ضمها نهائيا لامبراطورية النمسا والمجر عام 1908 م (يراجع : الصربيون .. خنازير أوروبا .. ص 39 . مذابح البوسنة والهرسك ص 29 : 34 . الأمة في عام . ص 71 : 76. البوسنة والميراث الدامي ص 9 : 13 و ص 15 : 21) .

3 – المرحلة الثالثة : (1295 - 1336 هـ / 1878 - 1918 م) :

البوسنة والهرسك تحت الاحتلال النمساوي المجري :

بدأت في هذه المرحلة حلقات المجازر الدامية المسلسلة لأبناء البوسنة والهرسك المسلمين . فلقد واجهت قوات الاحتلال النمساوية – المجرية مقاومة باسلة لم تكن في الحسبان ، وإزاء هذه المقاومة اتخذت قوات الغزو إجراءات صارمة لتحطيمها ، فقامت بتشريد المسلمين وطردهم واضطهادهم ومحاولة تنصيرهم بالقوة ، ونتج عن ذلك أن هاجر أكثر من 300 ألف من المسلمين إلى تركيا فرارا بدينهم ، وعاش الباقون يرزحون تحت نير الاحتلال وقراراته التعسفية التي كان من بينها :

أ – منع المسلمين من بناء المساجد أو ترميم ما وهن منها ، بحجة أن المساجد كانت في الأصل كنائس نصرانية .

ب – تمكين البنوك من الاستحواذ على الأوقاف الإسلامية ، وتعيين (ملتزم) يتصرف في أراضي المسلمين فيتعمد الإهمال فيما تحت يده لينتهي الأمر بالمسلمين إلى العيلة والفقر .

ج – إثارة غير المسلمين ضد المسلمين باختراع قصص لا أصل له يرمي المسلمين بالوحشية حين الفتح الإسلامي ، ورسم صور لجنود الفتح العثماني وهم يفصلون الرؤوس عن أجسادها ويجدعون الأنوف ويقطعون الألسن ، ونشر أكاذيب عن إلقاء المساجين داخل أبراج عميقة جياعا عطاشا حتى نهاية آجالهم .

د – السعي إلى تنصير المسلمين بالقوة خاصة في مدينة « مسطار » أو « موستار » عاصمة إقليم الهرسك .

هـ – السخرية من النساء المسلمات ، والاستهزاء بلباسهن الإسلامي المحتشم ، ومحاولة التحرش بهن والانتقاص من كرامتهن .

لهذا كله أشعل المسلمون نيران ثورة عاصفة استمرت تسع سنوات بقيادة (علي فهمي جاويتش) تمكنوا بعدها من الحصول على الحكم الذاتي في الأمور الدينية .

وكانت صربيا تهدف إلى توسيع مملكتها وأراضيها بضم البوسنة والهرسك إليها فأشعلت نيران حروب البلقان (1912, 1913 م) ، وتعرض المسلمون خلالها لمذابح عنيفة على يد الصرب راح ضحيتها الكثيرون (ينظر : الصربيون ص 40 و ص 84 ، 85 . مذابح البوسنة والهرسك . ص 24 : 27 . البوسنة والميراث الدامي ص 72 ، 73) .

4 – المرحلة الرابعة : (1336 هـ – 1360 هـ / 1918 م – 1941 م) :

البوسنة والهرسك ضمن المملكة الصربوكرواتية (يوغوسلافيا فيما بعد) :

تكونت في هذه الفترة المملكة الصربوكرواتية أو مملكة الصرب والكروات والسلوفيينين عام 1918 ، ويلاحظ أنه لم يذكر اسم المسلمين ضمن الشعوب التي تضمها المملكة المذكورة مما يعني عدم الاعتراف بهم كهوية أو قومية مستقلة ، وبتعبير آخر محاولة طمس هو يتهم ودمجهم قسرا في المجتمع النصراني أو القضاء عليهم قضاء مبرما .

وقد تحدثت الوثائق اليوغوسلافية ذاتها عن نماذج للمجازر الدامية التي واكبت هذه الفترة ، من بينها :

أ – خلال السنة الأولى فقط من تكوين هذه المملكة تم قتل آلاف المسلمين وتدمير وحرق ونهب 27 قرية مسلمة .

ب – نتج عن المذابح المروعة والمجازر الدامية هجرة 300 ألف مسلم من البوسنة والهرسك ، مما أدى إلى هبوط نسبة المسلمين بها من 7 , 38 % إلى 9 , 30 % فقط من السكان .

ج – انتزعت الأراضي الزراعية من أيدي أصحابها المسلمين في محاولة لإفقارهم ودفعهم إلى الهجرة الجماعية . =

= د - أغلقت المساجد والمدارس الإسلامية والتكايا وكتاتيب تحفيظ القرآن الكريم ، وهدم بعضها أو تم تحويله إلى متاحف أو مخازن للخمور أو حظائر للخنازير .
هـ - كما مُنع المسلمون من ارتقاء الوظائف العليا في الدولة ، وتم التضييق على أبنائهم في الالتحاق بالمدارس والجامعات .
ويلاحظ هنا أن السلطات النصرانية الغاشمة قد استخدمت مع المسلمين أسلوبين ، يقوم الأول منهما على التصفية الجسدية ، أو إفقار المسلمين وإضعافهم بحيث يموتون جوعا ، ويقوم الثاني على دفعهم إلى النزوح والهجرة بتضييق الخناق عليهم وليس أدل على وضع المسلمين المأساوي في هذه الفترة مما أورده المؤرخ الكرواتي « برانكو هو رفان » من أن ملك يوغوسلافيا « كرال بيتر » مرَّ في طريقه من « كوسوفو » إلى « مقدونيا » بحشد هائل من الناس تحت رقابة جنود صربيين ، فسأل : من هؤلاء ؟ فقالوا : هم مسلمون ، فقال : إن هؤلاء لا فائدة منهم .. (الصربيون ... ينظر ص 86 ، 87 وينظر كذلك : الأمة في عام ص 78 ، 79) .
وليس لهذا القول - في نظري - من معنى يُحمل عليه سوى التصريح الرسمي بالتخلص من المسلمين وذبحهم ..
5 - المرحلة الخامسة : (1360 - 1364 هـ / 1941 - 1945 م أثناء الحرب العالمية الثانية) :
البوسنة والهرسك تحت الاحتلال النازي :
وقعت يوغوسلافيا تحت الاحتلال النازي ، ووجدها الكروات فرصة لتوسيع أراضيهم وتكوين كرواتيا الكبرى بمساعدة أصدقائهم الألمان ، كما وجدها الصرب فرصة لإقامة صربيا الكبرى ، ولم يكن تحقيق حلم الفريقين إلا على حساب المسلمين ، الذين تعرضوا لمذابح عنيفة من قبل المنظمة الصربية الفاشية المعروفة باسم « جينتك » والمنظمة النازية الكرواتية المعروفة باسم « أوستش » ، الأولى تمثل النصارى الأرثوذكس ، والثانية تمثل الكاثوليك .. وقد ارتكبت كل منهما في حق المسلمين مذابح تقشعر من هولها الأبدان (ينظر : الصربيون ... ص 89 ، الأمة في عام ص 80 ، البوسنة والميراث الدامي ص 23 . كما ينظر أيضا : أزمة يوغوسلافيا ومأساة البوسنة في ظل النظام الدولي الجديد - محمد خليفة . مستقبل العالم الاسلامي : السنة الثالثة ع 10 , 11 ربيع وصيف 1993 م ص 87) .
ومن أبرز الأمثلة على تلك المذابح ما اشتهر في التاريخ اليوغسلافي بحادثة « فوجا » عام **1941** م ، ففي شهر سبتمبر من هذا العام ، وبينما الرجال المسلمون مشغولون بالحرب العالمية الثانية قام الصرب بجمع 9 آلاف من النساء والأطفال والشيوخ من بعض قرى ومدن متجاورة وحشدوهم في سهل « فوجا » وأطلقوا النار عليهم جميعا فاستشهدوا عن آخرهم ، ثم ألقى الصرب بجثثهم في نهر « درينا » .
وفي شهر ديسمبر من العام نفسه عاود المجرمون المتوحشون اقتراف جريمتهم ولكن بحق **130** ألف مسلم هذه المرة ، حيث قاموا بتعذيبهم تحت درجة حرارة عشرين درجة مئوية تحت الصفر ثم قتلوهم وألقوا بجثثهم في النهر الذي امتلأ عن آخره بالجثث وصار يلفظها ، فقام البرابرة الهمجيون يبقر بطون الموتى حتى تغرق الجثث في قاع النهر !!!
هذا وقد أقيمت صلاة الغائب على أرواح هؤلاء الضحايا لأول مرة عام **1990** في احتفال مهيب حضره آلاف المسلمين .. ومن الغريب أن المشاركين في هذه الصلاة قد تعرضوا على طول الطريق الموصل إلى هذه المنطقة لاعتداءات الصرب الذين كانوا ينشدون أغانيهم القديمة التي يقول مطلعها : تعالوا نذبح أولاد الأتراك (الصربيون ... ص 89 ، 90 بتصرف واختصار) .
6 - المرحلة السادسة : (1364 - 1412 هـ / 1945 - 1992 م) :
البوسنة والهرسك تحت الحكم الشيوعي :
أثناء الحرب العالمية الثانية برز « جوزيف بروزتيتو » كقائد لحركة تحرير يوغوسلافيا من الاحتلال النازي ، والتي اتخذت شعارا لها هو المساواة بين جميع الشعوب والأقليات في يوغوسلافيا ، فانضم إليه المسلمون وكانوا الدعامة الأساسية لقواته التي نجحت في تحرير البلاد من النازيين ، وتشكلت جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية من عدة جمهوريات ذات =

....

= وسرعان ما نكث تيتو بعهوده التي قطعها على نفسه بالاعتراف بكيان وهوية مستقلين للمسلمين (ينظر : المرجع السابق ص 91 ، البوسنة والميراث الدامي ص 23 ، 24) .
ولم لا وهو اليهودي الأصل الشيوعي الاعتقاد ، وكل من اليهودية والشيوعية وجهان لعملة واحدة .. ففي المؤتمر التأسيسي للرابطة الشيوعية تواطأ الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك واليهود ، وبذل الجميع جهودهم الحثيثة لمنع قيام جمهورية في البوسنة تكون غالبيتها من المسلمين ، وقد نجح هؤلاء بالفعل في مسعاهم ، فلم يُعترف للمسلمين بهويتهم المستقلة بل واعتبروا أخطر أعداء الثورة ومكتسبات الشعب ومنجزات الاشتراكية .. وفي نهاية الأربعينيات سجلت اللجنة المركزية لرابطة الشيوعيين اليوغسلاف – الحزب الحاكم – في وثيقة رسمية أنه يجب مكافحة الإسلام لأنه ظاهرة خطرة ، ولأن الأصولية الإسلامية تهدد مصالح الجميع في يوغوسلافيا و أوروبا (ينظر : أزمة يوغوسلافيا ومأساة البوسنة مرجع سابق ص 99 ، 100) .
ومنذ هذه اللحظة بدأت حملة المجازر العنيفة والاضطهادات الشاملة ضدد المسلمين في يوغوسلافيا عامة والبوسنة والهرسك خاصة ، ومن مظاهر ووقائع تلك الحملة الدامية :
1) قتل 24 ألف مسلم بعد انتهاء الحرب مباشرة ، منهم 18 ألفا في البوسنة والهرسك وحدها (15 ألفا في توزلا شرق البوسنة و 3 آلاف في سراييفو) و 6 آلاف في مقدونيا وكوسوفو .
2) تطبيق الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ بصفة دائمة على البوسنة والهرسك .
3) تحريم دخول المساجد ، وهدم 200 مسجد في بلجراد وحدها ، وهدم مسجد مدينة « زغرب » .
4) قتل العلماء وإصدار الأحكام القاسية عليهم ، إما بالإعدام أو بالأشغال الشاقة ، وكانت الأحكام القضائية تصدر بعد التنفيذ الفعلي بوقت طويل .
5) إغلاق الكلية الإسلامية العليا للتربية الإسلامية في سراييفو ، وكذلك إغلاق جميع المدارس الدينية ، ما عدا واحدة فقط أبقوا عليها للاستفادة بها في الدعاية للشيوعية وتسامحها .
6) منع تدريس الدين الإسلامي في المدارس .
7) تحريف الآيات القرآنية وشحن كتب التاريخ بالعديد من المغالطات والأكاذيب عن الإسلام .
8) منع النساء المسلمات من ارتداء الحجاب ، وفرض التبرج عليهن .
9) إرغام المسلمين على السير ووجوههم ناحية الأرض إمعانا في إذلالهم .
10) في حالة اعتراض المسلمين على أي من هذه الإجراءات يكون مصيرهم الإعدام ، أو السجن لعشرات السنين ، أو الدفن أحياء في مقابر جماعية .. (ينظر : الصربيون ... ص 92 ، 93 ، وينظر كذلك : مخطط تدمير الإسلام وإبادة المسلمين – نبيل بن عبد الرحمن المحيش ص 15) .
وفي الوقت الذي كان فيه هذا المجرم الشيوعي « تيتو » يرتكب كل هذه الجرائم ويسوم المسلمين صنوفا شتى من العذاب ، كان أيضا يُستقبَل في البلدان الإسلامية والعربية استقبال الأبطال الفاتحين ، باعتباره رفيق الدرب وزميل الكفاح ، وأحد أقطاب حركة عدم الانحياز ، وأحد كبار المناصرين للقضايا العربية خاصة « فلسطين » .. وقد نسي هؤلاء السذج أن الرجل نفسه كان يهوديا ويرتبط بعلاقات وثيقة مع أسياده من اليهود الغاصبين ، ويعامل اليهود في يوغوسلافيا معاملة تفوق كل خيال .
ظل المسلمون على هذا الوضع السيئ إلى أن اعتُرف بهم كهوية مستقلة عام 1971 م ، ونُصَّ على ذلك في دستور 1974م ، وتكونت جمهورية البوسنة والهرسك كواحدة من الجمهوريات الست المكونة ليوغوسلافيا الاتحادية ورغم هذا فقد تواصل الاضطهاد والتنكيل بالمسلمين ومحاولة جعلهم أقلية في جمهوريتهم ، فقد قام « تيتو » بنقل عمال من صربيا – وأحيانا من كرواتيا – للعمل في المصانع التي أقامها في البوسنة والهرسك ، تحت شعار أن أهل البوسنة مزارعون ، وهو =

المؤامرة الدولية الحالية في البوسنة والهرسك :

في عصر يدعي الإنسان أنه قد بلغ فيه أوج التحضر والتمدن والرقي ، يعيش مسلمو البوسنة والهرسك في ظل محنة ومأساة دامية ، تشهد بأن الإنسانية لم تنل من التحضر إلا اسمه ومن التمدن إلا رسمه ، حيث تُرتكب بحقهم أبشع الجرائم ، وتُنصب لهم المجازر ، تحت رعاية القوى الكبرى ، وبمباركة الأمم المتحدة ، في الوقت الذي يلتزم فيه العالم الإسلامي بمجرد الكلمات .

وسأتحدث فيما يلي عن بعض وقائع المؤامرة الدولية في المأساة البوسنية ، ذاكرا الأدلة القاطعة على كل عنصر من عناصرها :

(1) الدوافع الصليبية في المأساة البوسنية :

تضافرت كثير من الأدلة لتأكيد قضية الدوافع الصليبية وراء ما يحدث حاليا من مآس في البوسنة والهرسك .. ومن أهم هذه الأدلة :

(أ) اعتراف قادة الصرب :

أجمع قادة الصرب على أن هدفهم الأول والأخير يتمثل في منع قيام دولة إسلامية في البوسنة والهرسك :

* فقد قال . « سلو بودان ميلوسيفيتش » رئيس صربيا : « إن النظام العالمي الجديد لن يسمح بقيام جمهورية إسلامية في البلقان ، وإلا كان قد سمح بها في الجزائر وأفغانستان ، وعلى المسلمين أن يدركوا أن العالم لم يتخلص من الشيوعية ليسمح بظهور الإسلام .. » [1] .

* كما اعترف بذلك أيضا « رادوفان كارادزيتش » زعيم الصرب في البوسنة والهرسك ، حيث أعلن رفض الصرب القاطع لقيام دوله إسلامية [2] .

= الأمر الذي ترتب عليه زيادة وجود الأقليات الصربية والكرواتية داخل البوسنة (البوسنة والميراث الدامي ص 25) ...
من خلال هذا العرض التاريخي الموجز يتبين أن شعب البوسنة والهرسك المسلم قد تعرض لكثير من المذابح والمجازر على مدار تاريخه ، لا شيء إلا لأنه شعب مسلم متمسك بإسلامه محافظ على هويته ..

(1) ينظر : الصربيون ... ص 163 ، السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 - شهريات .... (ديسمبر 1992 م) ص 267 ، البوسنة : وقائع مأساة دامية (ملف شامل من الصحف العصرية .. أكتوبر 1992 - مايو 1993 م) إصدار : الآفاق الدولية للإعلام - القاهرة ص 165 ، الأمة في عام ص 90 ، المؤامرة الكبرى ص 58 .

(2) ينظر : الأمة في عام ... ص 103 ، والجمهورية 28 / 11 / 1993 ص 2 .

* أما زعيم حزب التجديد الصربي فيخاطب المسلمين في 9/9/1990 قائلا : « ... أما أنتم أيها المسلمون فسوف نمهد لكم الطريق للرحيل إلى مكة والمدينة وإيران وتركيا ، إذ لا يمكن لكم أن تعيشوا هنا ؛ فهذه ليست أرضا إسلامية » [1] .

* وكشف « فوشيتك » أحد كبار قادة الصرب في البوسنة عن الهدف الحقيقي من الحرب هناك فقال في حديثه لمجلة « ديرشبيجل » الألمانية : « هدفنا القضاء على المسلمين ، فالمسلمون في أوروبا يجب أن يختفوا كأمة ... إن على المسلمين في البوسنة إعلان تحولهم عن الإسلام ليصبحوا صربيين أو كروات ، أما الخيار الآخر فهو الموت [2] » .

(ب) اعتراف قادة الغرب :

لم يقتصر الاعتراف بصليبية الحرب في البوسنة على الصربيين وحدهم ، إذ ليسوا وحدهم في الميدان ، فقد تبين أن « للدول الغربية مصلحة أكيدة في منع نشوء دولة إسلامية في البلقان ، وهو الأمر الذي عبرت عنه بعض التصريحات الرسمية للمسئولين الغربيين بصورة ضمنية أو صريحة . » [3] ومن أمثلة ذلك :

* ذكر سياسي بريطاني مسئول أن أوروبا لن ترضى بقيام دولة إسلامية على غرار ليبيا في البوسنة [4] .

* أما « جون ميجور » رئيس الوزراء البريطاني فكان أكثر صراحة في إظهار كراهيته للإسلام والمسلمين ، ففي وثيقة رسمية سرية شاء الله أن يتم تسريبها ، قال ميجور : يجب علينا – مهما كلفنا الأمر – أن نتأكد أنه لا يمكن لدولة تعتبر إسلامية أن تقوم في المنطقة ، وعليه فإنه من الضروري أن نستمر في المحادثات الصورية للسلام ، بهدف تأخير أي تحركات ممكنة ، حتى لا يبقى هناك أي وجود للبوسنة ويزاح التجمع الإسلامي تماما من أرضه ...

ومضى « ميجور » يتهم الإسلام بأنه سيدمر أوروبا لو انتشر فيها المهاجرون المتطرفون الإسلاميون .. ثم تحدث عن عجز المسلمين عن الوقوف في وجه النظرة الغربية للنظام

---

(1) الصربيون ... ص 81 .

(2) ينظر : المؤامرة الكبرى – مرجع سابق ص 93 ، البوسنة : ص 97 ، الصربيون – ص 9 .

(3) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 109 .

(4) البوسنة في صحافتنا عام 1993 م – ص 60 ، سلسلة : يوميات / رقم « 3 » يصدرها : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات .

العالمي الجديد [1] .

(جـ) دور البرلمان والمدارس والكنائس الصربية :

* أصدر برلمان صربيا مرسوما يدعو إلى تطهير البوسنة والهرسك وإقليمي « السنجق » و « كوسوفو » من المسلمين .

* تبث المدارس الصربية في نفوس الأطفال عقيدة ذبح المسلمين وبغض الإسلام .. ففي المدارس الابتدائية تدرس ملحمة شعرية باسم « إكليل الجبل » كتبها أرثوذكسي متعصب ، تقول :

سلك المسلمون طريق الشيطان ... دنَّسوا الأرض ... ملأوها رجسا ... فلتعد للأرض خصوبتها ... ولنطهرها من تلك الأوساخ ... ولنبصق على القرآن ... وليقطع رأس كل من يؤمن بدين الكلاب ويتبع محمدا .. فليذهب غير مأسوف عليه .

* أما الكنائس الأرثوذكسية الصربية فقد أوحت إلى شباب الصرب بأن عملية ذبح المسلم إذا تمت مقترنة بشرب النبيذ تعد أمرا يجلب مرضاة الرب ، وتتبنى كلية « اللاهوت المسيحي » في صربيا هذا المنطق ، وتُدَرِّسه لمن سيكونون قساوسة ورهبانا في المستقبل .. كما أصدرت هذه الكنائس فتوى تبيح أعراض المسلمات لكل من يدين بالأرثوذكسية [2] .

(د) التحالف الصربي الكرواتي :

من أبرز الأدلة على صليبية المجازر في البوسنة والهرسك : التحالف النصراني بين الصرب والكروات ، ذلك أنه رغم الاختلاف المذهبي الكبير ، ورغم الأحقاد الدفينة التي يكنها كل طرف تجاه الطرف الآخر ، ورغم ميراث العداوة التاريخية بينهما ، إلا أنهما – في مواجهة الإسلام ومحاولة القضاء عليه – تناسوا خلافاتهم المذهبية ، وطرحوا العداوة التاريخية وراءهم ظهريا ، وأجمعوا أمرهم على اجتثاث الإسلام من جذوره في البوسنة والهرسك :

---

(1) قامت دار البشير بنشر هذه الوثيقة مع وثائق أخرى في كتاب بعنوان : البوسنة في المواجهة ، ص 45 : 49 ، وينظر كذلك : البوسنة في صحافتنا – ص 87 , 88 ، 92 .

(2) الصربيون ... ص 79 ، 80 بتصرف واختصار ، وينظر أيضا : رسالة المهندس – نشرة غير دورية تصدرها نقابة المهندسين المصرية – عدد خاص بعنوان : البوسنة والهرسك : أمة تذبح وشعب يباد ، العدد (26) ذو القعدة 1412 هـ – مايو 1992 م .

* فقد اتفق كل من رئيس الاتحاد اليوغسلافي الجديد والرئيس الكرواتي على خطة للتنسيق المشترك في مواجهة المسلمين ، وكان ذلك برعاية وسيط الأمم المتحدة السابق « سايروس فانس » [1] .

* كما أن الصرب أعادوا إلى الكروات جميع الأسلحة والأراضي التي سبق الاستيلاء عليها من جانبهم ،ثم أطلقوا سراح 900 جندي كرواتي وأرسلوهم إلى المواقع الكرواتية لمقاتلة المسلمين [2] .

* وقام الكروات بتسليم مدينة « فوكوفار » الكرواتية إلى الصرب نظرا لأهميتها الاستراتيجية لهم ، حيث تقع على الحدود المشتركة بين صربيا والبوسنة وكرواتيا ، مما يتيح للصرب إمكانية اجتياح أراضي المسلمين من الناحية الجنوبية الشرقية .. يضاف إلى ذلك : تلك الصفقة الشيطانية بين الجانبين والتي تم بموجبها انسحاب الجيش الصربي من مدينة « فولكا » في كرواتيا في مقابل مساعدة الكروات للصرب في احتلال مدينة « بوسانس كيبروت » المسلمة في شمال البوسنة ذات الأهمية الاستراتيجية الفائقة [3] .

* ساهم الكروات بنصيبهم في مؤامرة تمزيق البوسنة وتقطيع أوصالها ، حيث اقتدوا بإخوانهم الصرب بإعلان دولة مستقلة لهم تحت مسمى « جمهورية هرسك بوسنة الكرواتية » عاصمتها « موستار » [4] .

* كما شاركوا إخوانهم الصرب في المجازر الدموية التي ارتكبوها في حق المسلمين، وشاركوا في عمليات التطهير العرقي والاغتصاب وغيرها من الجرائم البشعة [5] .

(هـ) التحالف الأرثوذكسي بين صربيا وحلفائها :

وقفت كل من روسيا واليونان وبلغاريا ورومانيا وأوكرانيا إلى جانب الصرب في عدوانهم الأثيم على مسلمي البوسنة والهرسك .. ولا شك أن هذا الموقف من أقوى دلائل الدوافع الدينية في ذلك العدوان البشع ، إذ أن ما يربط هذه الدول كلها أولا وأخيرا كونها تدين بالنصرانية الأرثوذكسي ، وقد أكد ذلك وزير الخارجية الروسي

---

(1) البوسنة ... ينظر ص 18 ، التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 105 .

(2) ينظر : البوسنة في صحافتنا ... ص 71 ، 72 .

(3) ينظر : البوسنة ... ص 99 .

(4) ينظر الأمة في عام ص 93 ، السياسة الدولية : ع 114 أكتوبر 1993 ص 310 ، ص 313 .

(5) سيأتي تفصيل ذلك بعد قليل إن شاء الله .

« أندريه كوزيريف » حينما قال : إن روسيا تخطط لإعادة إحياء حلف عام 1914 مع الصرب .. واستنتج « ألان فيلبس » المحلل السياسي البريطاني من هذا التصريح أن روسيا تتجه لإقامة تحالف أرثوذكس في جنوب شرق أوروبا ، وأن هذا التحالف يشق أوروبا إلى دول أرثوذكسية في البلقان ودول كاثوليكية وبروتستانتية في شمال القارة وغربها ..[1] .

من هنا وقفت هذه الدول جميعا إلى جانب الصرب ، وساندوهم بالمال والرجال والعتاد [2] .

(و) محاولة طمس الهوية الإسلامية :

استخدم الصرب جميع الوسائل الهمجية الوحشية لطمس معالم الهوية الإسلامية لشعب البوسنة ، من قتل وتشريد واغتصاب وغيرها مما سيأتي تفصيله ، بالإضافة إلى تدمير المساجد وقتل الأئمة والعلماء ، ففي خلال الشهور الخمسة الأولى فقط من بداية المجازر الوحشية تم تدمير 750 مسجدا [3] .. كما أن أول شيء كان يفعله الصرب إثر دخولهم مدينة إسلامية أن ينسفوا مساجدها لطمس معالمها وهويتها الإسلامية ، مثلما فعلوا في مدينة « بانيا لوكا » المسلمة [4] .. ويأتي هذا ضمن خطة شاملة كشفت النقاب عنها صحيفة « يوربا » التي تصدر في صربيا وتقضي بتدمير المساجد في البوسنة وإزالة حطامها تماما لمحو أي آثار للوجود الإسلامي هناك [5] .

بعد عرض هذه الحجج والبراهين ، يمكن القول أن قضية الدافع الصليبي في المجازر الدامية في البوسنة أصبحت واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار .. ومن المؤسف حقا أن ينساق كثير من المفكرين والمسئولين في بلاد الإسلام وراء الدعاية الغربية المضللة ، بأن الحرب في البوسنة والهرسك هي حرب أهلية عرقية لا علاقة لها بالدين .. ولئن هانت المصيبة في جانب الكتاب والمفكرين فإن المصيبة العظمى أن يكون قادة المسلمين وأصحاب القرار في الدول الإسلامية من مؤيدي هذه الفكرة ومعتنقيها .. فقد

---

(1) ينظر : البوسنة ... ص 208 .

(2) سيأتي بيان ذلك مفصلا في حينه .

(3) السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 شهريات ... (أكتوبر 1992) ص 261 .

(4) السياسة الدولية : ع 116 أبريل 1994 شهريات .. (ديسمبر 1993) ص 332 ، الأهرام 17 / 12 / 1993 ص 4 .

(5) ينظر : البوسنة والميراث الدامي ص 71 .

أكد أحد قادة الدول الإسلامية على أن الحرب في البوسنة مشكلة عرقية وإنسانية في المقام الأول ، ووصف إضفاء الطابع الديني على الصراع في يوغوسلافيا السابقة بأنه إعلام مسموم .. مع أنه اعترف بمصرع آلاف المسلمين واغتصاب آلاف المسلمات على أيدي القوات الصربية .. [1] .

والحق أنه لا ينفرد بهذا الرأي ، فقد قال أحد وزراء الخارجية بعد اجتماع لوزراء خارجية الدول الإسلامية في جنيف : إن دول منظمة المؤتمر الإسلامي أكدت أهمية معالجة الأزمة ليس على أنها حرب بين مسلمين وديانات أخرى ولكن على أنها مجرد دولة تتعرض لظلم من قبل دولة أخرى ، وأن الحرب الدائرة في البوسنة حرب دولية .. [2].

إن هذه الأقوال المرسلة - فيما أرى - لا تصمد طويلا أمام الأدلة القاطعة المذكورة آنفا .. وأتساءل في هذا المقام : إذا كان قادة الصرب أنفسهم قد اعترفوا بصليبية مجازرهم في البوسنة فلماذا يجهد البعض منا نفسه في الدفاع عنهم ؟!!

* * *

(2) صور دامية للمجازر البشعة في البوسنة والهرسك :

عندما لاحت في الأفق بوادر تفكك يوغوسلافيا وانهيارها في نهاية الثمانينات ؛ بدأت كل جمهورية من جمهورياتها الست - ما عدا البوسنة والهرسك - الاستعداد الجدي لمواجهة مرحلة ما بعد التفكك ، فقامت كل من كرواتيا وسلوفينيا بإعلان استقلالهما ، بينما اقترحت البوسنة بقاء الشكل الاتحادي مع بعض التغييرات الجوهرية في مدى الارتباط بين الجمهوريات والدولة الاتحادية ، ولكن كرواتيا وسلوفينيا كانتا مصممتين على الاستقلال ، مما أدى إلى نشوب الحرب بين الصرب وكل من هاتين الدولتين ، ولكن القتال مع « سلوفينيا » لم يدم أكثر من أسبوعين ، ومع كرواتيا ستة أشهر فقط ، بسبب التحرك السريع والفعّال للدول الأوروبية خاصة ألمانيا وإيطاليا وفرنسا لحماية الكروات والسلوفينيين النصارى ، بالإضافة إلى الجهود الخارقة التي بذلها يوحنا

---

(1) ينظر : ملف « البوسنة ... » ص 214 .

(2) الأهرام المسائي 7 / 12 / 1994 ص 2 .

بولس الثاني بابا الكنيسة الكاثوليكية لحماية أتباعه والدفاع عنهم .. [1] .

أما البوسنة والهرسك ذات الأغلبية المسلمة ، فقد تركها الغرب غنيمة باردة للنصارى الصرب والكروات يقتسمونها فيما بينهم ... وكانت اللحظة التي أعلن فيها استقلال البوسنة والهرسك عن يوغوسلافيا هي بداية التنفيذ الفعلي للمخطط الذي تم إعداده منذ فترة طويلة .. فقد تم الكشف مؤخرا عن اتصالات جرت بين صربيا وصرب البوسنة حول توقيت الهجوم على البوسنة منذ عدة سنوات .. ومما يؤكد ذلك أيضا أن الحكومة البوسنية حينما طلبت من الجيش الاتحادي اليوغوسلافي الانسحاب من أراضيها بعد إعلان الاستقلال ، أعلنت صربيا أنها لن تسحب سوى الجنود الصربيين الذين هم من غير صرب البوسنة ، وادَّعت أن هؤلاء يشكلون فقط 20 % من جملة الجيش الاتحادي الموجود في البوسنة ، وكان هذا جزءا من الخطة الشيطانية للقضاء على مسلمي البوسنة والهرسك ، حيث إن النسبة الحقيقية للجنود الصربيين من غير ذوي الأصول البوسنية تزيد على 80 % وليست 20 % فقط كما ادعت صربيا ، ونتج عن ذلك تكوين جيش صربي في البوسنة يزيد على 100 ألف جندي مجهزين بالأسلحة الفتاكة التي تركها لهم الجيش الاتحادي ، الذي كان يمثل رابع أقوى جيش في أوروبا ، مما أدى إلى احتلالهم 65% من أراضي جمهورية البوسنة والهرسك قبل أن تبدأ المعارك الفعلية [2] .

وقد ارتكب هذا الجيش كثيرا من المجازر والفظائع التي تقشعر من هولها الأبدان .

وسأذكر فيما يلي نماذج منها للوقوف على مدى عمق المأساة التي يعيشها المسلمون في البوسنة ، وللوقوف كذلك على بشاعة المؤامرة ضد المسلمين في النظام الدولي الجديد .

(أ) القتل والمذابح الجماعية :

* خلال شهرين فقط بعد إعلان استقلال البوسنة ؛ أي في المدة من 1992/4/5 حتى 1992/6/23 م فقط ، بلغت حصيلة القتلى 40 ألف مسلم ، من بينهم 30 ألفا قتلوا وذبحوا في مجازر جماعية ، ومثَّل المجرمون الصرب بجثثهم ، كما بلغ عدد الجرحى 40 ألفا

---

(1) للوقوف على تفاصيل ذلك ، يراجع : « التقرير الاستراتيجي العربي 1991 ص 69 .
الأمة في عام ص 87 : 91 . الصربيون ... ص 95 : 98 .

(2) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 100 , 101 ، الأمة في عام ... ص 93 .

والمعوقين 20 ألفا ، والمعتقلين في سجون الصرب 100 ألف ، واللاجئين 150 ألفا [1] .

وإذا كان الدكتور عبد الحي الفرماوي قد نقل عن وكالة رويتر أن عدد القتلى يوم 3/6/1992 كان قد بلغ 27700 شخص [2] فمعنى ذلك أنه قد سقط خلال عشرين يوما فقط 12300 قتيل ...ثم يذكر أيضا أن العدد قد وصل إلى 50 ألف شخص في 1/7/1992 . [3] ، ومعنى هذا أيضا أن الصرب قد قتلوا 10 آلاف شخص في مدى سبعة أيام فقط ، أي بمعدل يزيد على 1330 مسلما يوميا ..ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* ثم أخذت الحصيلة تتزايد يوما بعد يوم لتصل في نهاية ديسمبر 1992 إلى 128 ألف قتيل و 133 ألف مصاب [4] .. وأعلن حارث سيلاجيتس في يناير 1993 أن عددِ القتلى قد بلغ 200 ألف قتيل [5] . ثم وصل إلى 250 ألفًا في يونيو [6] 1993 .. ولا يزال يتزايد إلى يومنا هذا ..

أما عن المجازر الجماعية في قرى ومدن البوسنة فهي كثيرة ومأساوية ، تدل على مدى همجية ووحشية هؤلاء المجرمين العتاة .. [7] .

---

(1) هذه الإحصائية صادرة عن رئاسة الطائفة الإسلامية في البوسنة .. ينظر : ملف البوسنة ص 502 .

(2) الصربيون .. ص 108 . (3) المرجع السابق : هامش « 1 » ص 108 .

(4) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 106 . (5) ملف « البوسنة ... » ص 148 .

(6) البوسنة في صحافتنا ... ص 71 .

(7) من أمثلة تلك المذابح :

* مذبحة « سراييفو » في 27 / 5 / 1992 : حيث قصف المجرمون الصرب منطقة تجارية بوسط المدينة مما أدى إلى سقوط 20 قتيلا و 160 جريحا ، كانوا يقفون في طابور طويل أمام أحد المخابز في المنطقة انتظارا للقمة العيش . (الصربييون ... ص 107) .

* مذبحة مدينة « فوتشا » قبيل عيد الأضحى عام 1412 هـ : حيث قام المجرمون الصرب بشحن أهالي المدينة العزل في جرافات قامت بدفنهم أحياء تحت الأرض ثم أحرقوا المدينة تماما حتى تحولت إلى أكوام من الرماد الأسود . (المرجع السابق ص 108) .

* مذبحة قرية « فيش جراد » يوم وقفة عرفة عام 1412 هـ : فقد جمع المجرمون 47 مسلما من أهل القرية داخل سيارة كبيرة ثم ذبحوهم فردا فردا وهم يوجهون إليهم كلمات السخرية في نشوة شيطانية ، ثم ألقوا بجثثهم في نهر « الدوينا » . (المرجع نفسه ص 109) .

* مذبحة قرية « جورنيه توليه » في مايو 1992 م : والتي ذبح فيها الصرب المجرمون جميع أهالي البلدة ، مبتدئين بالمسجد الذي كان غاصا بالمصلين ، فقتلوهم جميعا ومثلوا بجثثهم ، فسكبوا عليها الخمور ، ورسموا الصليب على الأجساد الطاهرة ، ثم انتقلوا إلى مدرسة للأطفال فحصدوا جميع التلاميذ حصدا ، وما هي إلا ساعة واحدة حتى تحولت القرية المسلمة إلى كتل نيرانية واستشهد جميع من فيها حتى النساء والشيوخ والأطفال . (رسالة المهندس ص 24 - 25) .

* مذبحة مدينة « ياجيتش » في أكتوبر 1992 م : حيث فتح المجرمون الصرب نيران المدفعية على 5 آلاف مسلم أثناء =

(ب) التشريد والطرد والترحيل الإجباري :

من أهداف الصرب الأساسية المعلنة : القضاء على المسلمين ، وتخليص البلقان بأكمله منهم ، لذا قامت قواتهم بطرد المسلمين من أرضهم ، وإجبارهم على توقيع وثائق بتنازلهم عنها .. وبعد شهر واحد من بداية المجازر ، تم تشريد وطرد ما يقرب من مليون مسلم ، في إطار ما يسمى بسياسة التطهير العرقي ، وقد ذكر تقرير لمجلس الأمن الدولي أن عمليات الطرد والعدوان تتم على نطاق لم تشهده القارة الأوروبية منذ الحرب العالمية الثانية [1] .

وقد بلغ عدد من قام الصرب بطردهم 1,5 مليون مسلم في يناير 1993 حسبما صرح

= هروبهم من المدينة بعد سقوطها .. وقد اكتفى مجلس الأمن بإصدار بيان يعلن عن فزعه الشديد إزاء هذه المذبحة المروعة وإدانته لها . (ملف البوسنة ... ص 48) .

* مذبحة قرية « أهنيسي » في أبريل 1993 م : وقد قام بها المجرمون الكروات ، وأدلى بتفاصيلها الجنود البريطانيون في القوات الدولية ، حيث شاهدوا الكروات وهم يذبحون كل مسلم يقابلهم في طرقات القرية ، ثم يلقون القنابل على البيوت لإحراق من فيها ، ومَنْ يخرج يكون مصيره القتل بالمدافع الرشاشة ... وقد بلغ من وحشية المجرمين الكروات أنهم قاموا بقتل جميع الأحياء في القرية ، من الآدميين وغيرهم حتى القطط والكلاب .. (المرجع السابق ص 407) .

* مذبحة قرية « ستوبن دو » في أكتوبر 1993 م : حيث قام المجرمون الكروات بذبح جميع سكانها بالكامل ، وأحرقوها تماما ، واستخدموا القوة لمنع القوات الدولية من دخول القرية للتحقيق في هذه المذبحة الشنيعة . (البوسنة .. من فرض التقسيم إلى تكريس الانفصال : عماد جاد . السياسة الدولية : ع 115 يناير 1994 ص 105 – والبوسنة في صحافتنا . ص 137) .

* مذبحة معسكر « سوسيتشا » : فقد قام المجرمون الصرب بقتل 3 آلاف مسلم على دفعات ليلية بشكل متصل ، في المدة ما بين أبريل إلى يوليو 1994 م . (الأخبار 2 / 8 / 1994 – ص 2 نقلا عن « نيويورك تايمز » الأمريكية) .

* مذبحة مدينة سربرينتسا : وهي أبشع المذابح التي ارتكبها المجرمون الصرب ، إذ بعد احتلالهم المدينة التي كانت إحدى المناطق المسماة بـ « الآمنة » قام المجرمون تحت إشراف قائدهم العسكري المجرم « راتكو ميلاديتش » بإطلاق الرصاص على ما يزيد عن خمسة آلاف مسلم .. وبعد عام تقريبا من وقوع المذبحة كشف فريق من المحققين الدوليين أن القتلى الذين وجدوا في مقبرة جماعية قرب المدينة كانوا يرتدون ملابس مدنية ، وأن أغلب الجثث وُجدت مكبَّلة بالأسلاك والحبال من الخلف ، وأن الدلائل تؤكد إطلاق الرصاص عليهم وهم أحياء من مسافات قريبة . (ينظر الأهرام 22 / 3 ، 23 / 3 ، 14 / 7 / 1996 ص 4) .

وقد أعلن « برنار جرانجون » رئيس منظمة « أطباء العالم » الإنسانية أن جيلين مسلمين كاملين من الرجال القادرين على حمل السلاح بين 12 إلى 60 عاما لم يعد لهما وجود في البوسنة بعد استيلاء الصرب على مدينتي « جيبا » و « سربرينتسا » المسلمتين . (الأهرام 8 / 8 / 1995 ص 4) .

هذه مجرد نماذج لمذابح بشعة كثيرة ارتكبها المجرمون النصارى من الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ... ﴾ (التوبة : 8) وإذ يقول : ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . ﴾ (الممتحنة : 2) .

(1) الصربيون ... ينظر ص 113 ، 114 .

به « حارث سيلاجيتس » رئيس وزراء البوسنة [1] .. وعلى سبيل المثال : كان في مدينة « بانيا لوكا » قبل بداية المجازر نصف مليون مسلم تناقص عددهم إلى 50 ألفا فقط في يونيو 1994 ، بسبب عمليات الاغتصاب والاضطهاد التي أصبحت روتينا يوميا [2] ، .. وقد اقترب المجرمون الصرب من تحقيق هدفهم بإنشاء دولة صربية خالصة على حد تعبير « نيكولاس موريس » مبعوث اللجنة العليا لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة [3] .

وكما ساهم الكروات في ذبح المسلمين ساهموا كذلك في تشريدهم وطردهم ، حيث مارسوا بدورهم سياسات التطهير العرقي على نطاق واسع في وسط البوسنة وشمالها .. [4] .

أما في مدينة « موستار » فقد تفوّق الكروات على إخوانهم الصرب في طرد المسلمين وتشريدهم ، حيث طردوا النساء والأطفال خارج المدينة ، واحتجزوا الرجال في مصنع للألمونيوم ، وقاموا بتجريد جميع المسلمين من ممتلكاتهم ، في الوقت نفسه كانت أعمدة الدخان والأتربة تتصاعد في سماء المدينة وجثث القتلى مكدسة في شوارعها ، واكتفى مجلس الأمن بالإدانة والشجب كعادته مع المسلمين [5] .

(جـ) جرائم الاغتصاب البشعة :

من أشد الجرائم التي ارتكبها المجرمون النصارى شناعة وبشاعة ؛ جرائم الاغتصاب وهتك الأعراض ، فلقد لجأ البرابرة المتوحشون إلى الاغتصاب كوسيلة هامة وسياسة عامة تؤدي لتحقيق الغرض النهائي والهدف الأخير ، ألا وهو القضاء على المسلمين وطمس هويتهم تماما .. وقد أكدت تقارير دولية عدة وقوع هذه الجرائم الشنيعة :

* منظمة العفو الدولية أثبتت في تقرير لها اغتصاب 50 ألف فتاة مسلمة [6] .

* لجنة تحقيق تابعة للبرلمان الأوروبي برئاسة الوزيرة الفرنسية السابقة « سيمون فيل » تمكنت من إحصاء 20 ألف حالة فقط ، ولكنها أكدت في تقريرها أن الاغتصاب أداة من أدوات الحرب عند الصرب [7] .

* لجنة تقصي الحقائق فى البوسنة التابعة للاتحاد الأوروبي ، أكدت هي الأخرى في

---

(1) ينظر : ملف « البوسنة ... » ص 148 .
(2) الأهرام 3 / 6 / 1994 ص 4 .
(3) الأهرام : 2 / 9 / 1994 ص 1 .
(4) ينظر : البوسة في صحافتنا ... ص 118 .
(5) ينظر : ملف « البوسنة ... » ص 453 .
(6) ينظر : المرجع السابق ص 272 .
(7) ينظر : المرجع نفسه ص 210 , 272 .. ولذلك أدانت القمة الأوروبية في « أدنبرة » هذه الجرائم معتبرة إياها إحدى حلقات استراتيجية متعمدة ، تهدف إلى تحقيق التطهير العرقي ... ينظر : الأمة في عام ص 116 .

تقريرها أن جرائم الاغتصاب ليست مجرد حالات فردية ، وإنما هي سياسة عامة منظمة لإذلال المسلمين وقهرهم وإجبارهم على الهجرة ، وترك ديارهم ليستولي عليها المجرمون الصرب [1] .

* واعترف الجنود الصرب الذين وقعوا في الأسر بأن جرائم الاغتصاب قد تم التخطيط لها على أيدي كبار قادة الصرب ، وخاصة سلوبودان ميلو سيفيتش رئيس صربيا [2] .

(د) التخريب الشامل واستخدام الأسلحة المحظورة دوليا :

دأب الصرب والكروات على تدمير وتخريب كافة القرى والمدن التي تمكنوا من احتلالها :

* في تقرير عن أوضاع البوسنة تحدث « تاديوش مازوفسكي » رئيس وزراء بولندا عن عمليات إحراق قرى إسلامية وتدميرها بكاملها ، وإبادة أهلها ودفنهم في مقابر جماعية [3] .

* وفي مايو 1993 قام الصرب بإحراق 15 قرية مسلمة بعد تدمير مبانيها [4] .

* وأثناء هجومهم على مدينة « تيساني » في أكتوبر 1993 كانوا يقصفونها بمعدل 1500 قذيفة في اليوم [5] .

* وفي سراييفو قصفوا المدينة بما يزيد على 1350 قذيفة في ليلة واحدة [6] .

* أما في جورازدي فقد حولوها – على حد تعبير « لاري هولينجورث » رئيس عمليات المفوضية العامة لشئون اللاجئين في البوسنة – إلى حفرة من الجحيم المطلق ، وقال : إن أفعال الصرب لا يمكن تصديقها ، وإنهم ليسوا بشرا .. وقد أكد عمدة المدينة أن الصرب قد هاجموها بالغازات السامة المحرم استعمالها دوليا .. [7] وقد قاموا بإحراق 41 قرية تماما وهم في الطريق إلى جورازدي [8] .

* كما استخدموا القنابل العنقودية وقنابل النابالم الحارقة في هجومهم على مدينة « بيهاتش » المسلمة ، وكلا النوعين يحرم استعماله دوليا . وقد اكتفى مجلس الأمن

---

(1) ينظر : المرجع نفسه ص 293 .
(2) ينظر : المرجع نفسه ص 340 : 344 .
(3) البوسنة في صحافتنا .. ص 2 .
(4) ينظر : المرجع السابق ص 65 .
(5) الأخبار 17 / 10 / 1993 ص 2 .
(6) الأهرام 7 / 1 / 1994 ص 4 .
(7) الأهرام 20 / 4 / 1994 ص 1 .
(8) السياسة الدولية : ع 114 أكتوبر 1993 شهريات (يونيو 1993) ص 307 .

بالتنديد والشجب [1] .

* ثم استخدموا الأسلحة الكيماوية في كل من توزلا وسربرينتسا ، وقد فرض الإعلام الغربي حالة من التعتيم الشامل على مثل هذه الجرائم ... [2] .

(هـ) حرب الحصار والتجويع :

أضاف الصرب والكروات إلى سجل جرائمهم في البوسنة جريمة جديدة بشعة ، تتمثل في استخدام سلاح الحصار والتجويع ضد الشعب المسلم في المدن البوسنية ... وقد بلغت الحالات التي منع الصرب فيها قوافل الإغاثة من الوصول إلى أهدافها ، أو منعوا طائرات الإغاثة من الهبوط في مطار سراييفو ، أو استولوا على القوافل ذاتها - عدة مئات من المرات ، بينما يكتفي مجلس الأمن بالإدانة والإعراب عن شعوره بالقلق العميق إزاء المدنيين المحاصرين [3] .

(و) التعذيب البشع داخل معسكرات الاعتقال :

أنشأ الصرب والكروات الكثير من معسكرات الاعتقال التي شهدت تعذيب المسلمين فيها بصورة بشعة ، لم تشهد لها البشرية مثيلا من قبل ، باعتراف المجرمين أنفسهم وباعتراف التقارير الدولية أيضا :

* فقد ذكر الأمين العام للأمم المتحدة - في تقرير قدمه إلى الجمعية العامة في 1992/12/8 - أن الصرب يحتجزون 10 آلاف أسير مسلم في 41 معسكرا ، وأنهم أجبروا 3 ملايين على ترك ديارهم [4] .

* بينما يذكر التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ، أن عدد الأسرى قد بلغ 60 ألفا بعد شهرين فقط من بدء المجازر في البوسنة [5] .

---

(1) الأخبار 20 / 11 / 1994 ص 2 .

(2) قضية البوسنة من منظور الإعلام الغربي - يحيى غانم ، السياسة الدولية : ع 113 يوليو 1993 م ص 213 , 214 ، وقد قام الأستاذ / يحيي غانم بالتأكد شخصيا من جريمة استخدام الأسلحة الكيماوية ، حيث ذهب إلى كل من توزلاو سربرينتا ، وشاهد بنفسه آثار الجريمة التي لم يتحدث عنها أحد من المراسلين الغربيين رغم معاينتهم لها ، مما يؤكد انحياز الإعلام الغربي إلى جانب المجرمين الصرب .

(3) ينظر على سبيل المثال : السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 - نشاط الأمم المتحدة ص 277 ، 334 ، و ع 118 أكتوبر 1994 - ، الأهرام 1 / 8 / 1994 ص 4 ، والأهرام أيضا 12 / 10 / 1994 ص 1 ، الأمة في عام ... ص 116 : 118 .

(4) السياسة الدولية ع 111 يناير 1993 - نشاط الأمم المتحدة ص 343 .

(5) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 105 .

* أما عن الفظائع التي يرتكبها المجرمون داخل هذه المعسكرات ، فقد ذكر اثنان من الناجين من أحد معسكرات الاعتقال الصربية ، أن التعذيب قد بلغ من الفظاعة حدّا لا يصدقه عقل ، حيث أجبر الصرب هذين الرجلين على نقل جثث ضحايا التعذيب في ليلة واحدة ، فكانت الحصيلة 300 جثة لسيدات وأطفال ، من بينهم أطفال تقل أعمارهم عن العامين ، كما قام المجرمون في 1992/7/22 بإلقاء قنابل الغاز داخل إحدى غرف المعتقل ؛ مما أدى إلى مقتل 125 شخصا وإصابة 25 آخرين في هذا اليوم وحده [1] .

ولم تختلف معسكرات الاعتقال الكرواتية عن ذلك كثيرا ، فقد كشف الناجون عن مدى وحشية وبشاعة الكروات ، حيث استخدموا معهم سلاح التجويع والضرب المبرح ، واضطروهم إلى شرب البول للبقاء على قيد الحياة ، كما استخدموهم كدروع بشرية في جبهات القتال .. وإزاء هذه الجرائم البشعة لم يستطع المتحدث باسم المفوضية العليا لشئون اللاجئين إلا أن يصرح بأن المفوضية توصي بممارسة الضغوط على سلطات كروات البوسنة - وعلى أعلى المستويات - لوقف الانتهاكات الفاضحة للقوانين الإنسانية الدولية [2] .

هذه كلها مجرد نماذج تمثل نقطة واحدة في سجل الجرائم والمجازر التي ارتكبها الصرب والكروات ضد إخواننا المسلمين في البوسنة والهرسك ، وهو سجل ضخم لا تزال صفحاته تتزايد يوما بعد يوم مع استمرار المأساة البشعة وتوالي المجازر الدامية .

* * *

(3) تواطؤ الأمم المتحدة في المأساة البوسنية :

كان من المنتظر أن تقف الأمم المتحدة موقفا حاسما ضد العدوان الصربي الغاشم على مسلمي البوسنة والهرسك ، طبقا لشعارات العدالة والشرعية ومواجهة العدوان .. تلك الشعارات التي طالما تشدق بها زعماء القوى الكبرى ، في إطار الحديث عن النظام الدولي الجديد ، والتي تُخدع بها كثير من السذج ، الذين ظنوا أن الغرب النصراني يمكن أن يغير جلده ، أو أن يتنكر لماضيه الطافح بكراهية المسلمين والحقد عليهم ، والمحاولات العديدة لفتنتهم عن دينهم أو القضاء عليهم قضاء مبرما ..

من هنا لم أتعجب حينما تجمعت لدي الأدلة التالية على تواطؤ الأمم المتحدة بجميع

(1) ينظر : ملف « البوسنة ... » ص 6 .　(2) ينظر : البوسنة في صحافتنا ... ص 119 .

أجهزتها – بصورة مباشرة أو غير مباشرة – في مآسي المسلمين في البوسنة والهرسك :

(أ) مجلس الأمن الدولي :

أبدأ بمجلس الأمن ، لأنه الجهاز التنفيذي الذي تكتسي قراراته الصفة الإلزامية الواجبة التنفيذ ، أما الجمعية العامة فليست قراراتها إلا مجرد توصيات لا تزيد أهميتها عن المداد الذي كتبت به ؛ ولهذا صدر عنها عدة قرارات بخصوص البوسنة والهرسك لم يلتفت إليها أحد رغم ما تنطوي عليه من صياغة نارية وأسلوب محكم دقيق [1] .

وفيما يتعلق بمجلس الأمن وأدلة تواطئه مع الصرب والكروات فقد ظهر ذلك جليا من خلال عدة مواقف :

أولا : الاكتفاء بإصدار القرارات دون الاهتمام بتنفيذها :

حينما يقارن الباحث المنصف بين قرارات مجلس الأمن المتعلقة بالعراق وليبيا والصومال ، وقراراته المتعلقة بالبوسنة والهرسك ، يجد أن المجلس الذي كان أسدا هصورا أمام العراق وليبيا والصومال تحول إلى حَمَل وديع أمام الصرب والكروات .. فالقرارات الصادرة ضد المسلمين كانت تستند دائما إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذي يتضمن إجراءات عسكرية صارمة ، كما أن نصوص هذه القرارات كانت تحتوى على ضمانات كثيرة لتنفيذها .. أما فيما يتعلق بالإجراءات المتخذة ضد الصرب ؛ فلم تستند إلى الفصل السابع ، ولم تتعرض من قريب ولا من بعيد إلى ضمانات التنفيذ أو العقوبات التي ستحل بمن يخل بهذه القرارات .. [2] .

وقد دفع هذا كله رئيس صربيا إلى القول بصراحة تامة : نحن لا نهتم بأي عقوبات ضدنا ، فمن كانوا أصدقاءنا سيظلون كذلك ، ولن تؤثر عقوبات مجلس الأمن علينا ، فلدينا حدود مشتركة مع 7 دول أوروبية كلهم أصدقاؤنا [3] .

وانظر مثلا القرار رقم 781 الصادر في 9/10/1992 ويقضي بفرض حظر على تحليق

---

(1) اعتادت الدول الإسلامية أن تستصدر كل عام قرارا من الجمعية العامة ، يقضي بإدانة العدوان الصربي على البوسنة ، ويطالب مجلس الأمن أن يبحث بصورة عاجلة التدخل عسكريا لوقف العدوان ، أو رفع حظر الأسلحة عن المسلمين .. يراجع ، السياسة الدولية ع 112 أبريل 1993 ص 275 ، ع 116 أبريل 1994 ص 341 ، ع 119 يناير 1995 ص 357 , 358 ، الأهرام 5 / 11 / 1994 ص 4 ، التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 95 ، الأمة في عام ص 100 .

(2) ينظر على سبيل المثال : لماذا تدخلت الأمم المتحدة في الصومال وتركت البوسنة سليمان قناوي الأخبار 8/12/1992 ص 11 .

(3) الصربيون ص 163 بتصرف يسير .

الطائرات العسكرية في المجال الجوى للبوسنة .. لقد ثار جدل طويل حول تنفيذ هذا القرار ، وهل يتم استخدام القوة العسكرية لتنفيذه ؟! .. حتى بعد أن تم الاتفاق على قيام طائرات حلف الأطلنطي بفرض احترام وتنفيذ هذا القرار ، هل امتنع الصرب والكروات عن استخدام الطائرات في قصف مواقع المسلمين ؟!.. لقد اعترفت الأمم المتحدة مرارا بأن كلا من الصرب والكروات ينتهكون الحظر الجوي ، ويستخدمون الطائرات في قصف المسلمين وتدمير مواقعهم العسكرية والمدنية ، تحت سمع وبصر طائرات الأطلنطي [1] .

قس على هذا القرارات الصادرة عن مجلس الأمن بشأن البوسنة ، فقد كانت جميعها مجرد فرقعة إعلامية وضجيج لا فائدة منه ، مما يؤكد تواطؤ المجلس في المجازر الصربية ضد مسلمي البوسنة .

ثانيا : الرفض المستمر لرفع الحظر عن تسليح المسلمين :

دأب مجلس الأمن على رفض رفع الحظر عن تسليح مسلمي البوسنة ، بحجة أن هذا سيؤدي إلى تأجج الصراع ، وتزايد حدة القتال ، وإغراق المنطقة في بحور من الدماء [2] !!! أرأيت إلى هذه الحجج العجيبة والتبريرات الغريبة ؟! أليست المنطقة غارقة أصلا في بحر من الدماء ولكن دماء المسلمين فقط ؟! ألم يعترف المجلس نفسه في كثير من قراراته وبياناته بوقوع العديد من المجازر البشعة والأعمال الوحشية التي ارتكبها الصرب والكروات ضد المسلمين ؟!.. إذا كان الوضع بهذه الصورة ؛ فلا معنى لما يحدث سوى أن مجلس الأمن يتواطأ مع الصرب والكروات ، ويمنحهم الفرصة للقضاء على المسلمين العزل المحرومين من السلاح ، بينما الجزارون المجرمون يمتلكون أشد أنواع الأسلحة فتكا وتدميرا ، فضلا عن الإمدادات العسكرية المستمرة من داخل يوغوسلافيا السابقة وخارجها ، تحت سمع وبصر مجلس الأمن .

ومن العجيب في هذا المقام أن قرار حظر توريد الأسلحة للمسلمين باطل من أساسه ، ولا يجب الالتزام به من الناحية القانونية البحتة .. وبيان ذلك أن المادة 41 من ميثاق الأمم المتحدة تبيح لمجلس الأمن فرض حظر على توريد الأسلحة للأطراف المعتدية التي تهدد وتضر بسلوكها الأمن والسلام في أي مكان في العالم ، ويستثنى شرط الإضرار

---

(1) الأهرام 28 / 11 / 1993 ص 4 ، الأخبار 16 / 1 / 1994 ص 2 وينظر : الأمة في عام ص 106 , 107 .
(2) ينظر : الأمة في عام ص 107 : 110 .

بالسلام إذا وافقت الدولة المعنية على فرض الحظر عليها .. وهذا ما حدث في يوغوسلافيا السابقة ، إذ أن الصرب أرادوا احتكار القوة العسكرية المتوافرة لديهم فوافقوا على فرض الحظر الذي قرره مجلس الأمن في 1991/9/25 – على ما كان يعرف سابقا بـ « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية في يوغوسلافيا » ... وبما أن جمهورية البوسنة والهرسك قد أعلنت استقلالها عن هذا الاتحاد ، واعترفت الأمم المتحدة والعالم كله بهذا الاستقلال ، وبما أنها ليست وريثة الاتحاد اليوغوسلافي السابق ، وبما أنها ليست دولة معتدية تضر بالسلام الدولي ، وبما أنها لم توافق على فرض حظر توريد الأسلحة عليها ، فينتج عن ذلك كله بطلان الحظر المفروض على تسليح البوسنة ، ويترتب عليه حق هذه الدولة في الحصول على الأسلحة للدفاع عن نفسها – بمقتضى المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة – وإباحة توريد السلاح إليها من كافة دول العالم [1] .

ولكن مجلس الأمن برفضه رفع الحظر الظالم يضرب بهذه الحجج القانونية المنطقية عرض الحائط ، مشاركة منه في المجازر والمذابح المأساوية .

ثالثا : تلاعب الصرب بمجلس الأمن وإذلالهم الأمم المتحدة :

عندما قُتل عدد من جنود الأمم المتحدة في الصومال ، سارع مجلس الأمن بإصدار قرار لاعتقال الجنرال محمد فارح عيديد والقضاء على قواته ، دون أن تُجري الأمم المتحدة التحقيقات اللازمة في مثل هذه الأحوال ...

وعندما قام العراق بنشر بعض الصواريخ في منطقة تقع ضمن أراضيه وداخل حدوده ، سارعت قوات التحالف الظالم – بتفويض من مجلس الأمن – بتدمير هذه الصواريخ على أساس أنها تشكل خطرًا على طائرات التحالف التي تنفذ الحظر الجوي المفروض على الطيران العراقي .

هذا المجلس الذي كان حريصا على كرامة الأمم المتحدة ومصداقيتها في العراق والصومال ، أخذ يتلقى الضربات المتوالية من قبل الصرب والكروات ، دون أن يغضب لامتهان كرامة الأمم المتحدة ، دون أن يثور لهيبة مجلس الأمن .. ويبدو أن مجلس الأمن قد نظر إلى هذه الضربات المتلاحقة وهذا الإذلال والامتهان على أنه نوع من المزاح بين الأصدقاء وشركاء الجريمة ، فلا ينبغي أن يواجه إلا بالصفح والإغضاء والعفو الجميل .

---

(1) مصير البوسنة ... بين إرادة بلجراد والصمت الغربي المهذب – مصطفى عبد الله – الأهرام 28 / 9 / 1994 ص 5 .

وسأذكر فيما يلي نماذج قليلة لمواقف مجلس الأمن تجاه بعض المواقف الإجرامية للصرب والكروات ، تنطوي على احتقار شديد وإذلال وامتهان لا حدود لهما تجاه الأمم المتحدة :

* فقد اكتفى مجلس الأمن بتوجيه احتجاج شديد اللهجة إلى الصرب ، بعد احتجازهم اللواء / حسين عبد الرازق قائد القوات الدولية في 1992/10/19 ، وتفتيشهم سيارات الأمم المتحدة بطريقة مهينة [1] .

* وحينما اغتيل نائب رئيس وزراء البوسنة وهو في حماية القوات الدولية ، اكتفى مجلس الأمن بإدانة هذا الحادث ووصفه بالإرهابي .. وليت الأمر قد اقتصر على ذلك ، ولكن المجلس تمادى في غيه حينما وجه تحذيرا ضمنيا للمسلمين بمطالبته جميع الأطراف بضبط النفس إلى أقصى درجة والامتناع عن أي عمل يؤدي إلى تفاقم الوضع .. مع أن الاغتيال تم في وضح النهار ، حينما أجبر الصرب المسئول البوسني على النزول من المصفحة الفرنسية التي كان يستقلها ، وأطلقوا عليه النار بقسوة بالغة ، في حماية الجنود الفرنسيين التابعين للأمم المتحدة ، فلقي مصرعه في الحال [2] .

* ثم واصل الصرب جرائمهم فاختطفوا اثنين من مسئولي وزارة الداخلية البوسنية من داخل إحدى سيارات الأمم المتحدة ، وأمام جنودها الذين لم يحركوا ساكنا .. وأصدر رئيس المجلس بيانا يعلن فيه أن الأمم المتحدة ستجري تحقيقا حول ملابسات الحادث [3] .

* التزم المجلس بالصمت التام إزاء احتجاز الصرب للجنرال « مايكل روز » قائد القوات الدولية ، ومنعه من دخول مدينة بيهاتش ، وإعلانهم عدم السماح للقوات الدولية بحراسة قوافل الإغاثة في الأراضي الخاضعة لاحتلالهم [4] .

* كما التزم المجلس بالصمت التام إزاء الاعتداءات الصربية المتكررة على القوات الدولية وإحداث كثير من الإصابات والقتل في صفوفها مثل : احتجاز 500 جندي كندي وإطلاق سراحهم على فترات بعد ممارسة التعذيب البدني في حقهم [5] ..

---

(1) السياسة الدولية : ع 111 يناير 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 335 .

(2) السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 275 وينظر أيضا : البوسنة في صحافتنا ص 3 ، ملف « البوسنة ... » ص 145 , 155 .

(3) السياسة الدولية : ع 115 يناير 1994 ، نشاط الأمم المتحدة ص 350 .

(4) السياسة الدولية : ع 120 أبريل 1995 ، نشاط الأمم المتحدة ص 319 .

(5) الأخبار 6 / 12 / 1994 ص 42 الأهرام 9 / 12 / 1994 ص 4 ، القوات الدولية تحت النار في البوسنة – مصطفى سامي – الأهرام 8 / 1 / 1994 ص 5 ، الأخبار 12 / 1 / 1994 ص 2 .

الهجوم على وحدة بريطانية [1] .. إصابة جنود سويديين وبريطانيين في هجوم بقذائف الهاون [2] .. إسقاط طائرة بريطانية تابعة لحلف الأطلنطي ، وإصابة طائرة فرنسية بصاروخ [3] .. محاولة اغتيال الجنرال مايكل روز [4] .. سرقة حاويات الوقود والسيارات المجهزة بمعدات اتصال بالأقمار الصناعية [5] .. احتجاز مسئول مساعدات الإغاثة الدولية .. حرمان قوات الحماية الدولية من دخول سراييفو أو الخروج منها .. الاعتداء على رئيس قطاع سراييفو في القوات الدولية .. قصف مقر إقامة مبعوث الولايات المتحدة واضطراره للهروب في عربة مدرعة عبر الجبال تحت جنح الظلام [6] .. منع الكروات لمسئولي المفوضية العامة لشئون اللاجئين من إجلاء الأطفال والسيدات وكبار السن في إحدى المدن البوسنية [7] .. استخدام الكروات للقوة العسكرية في منع القوات الدولية من التحقيق في مذبحة قرية « ستوبن دو » [8] .. مقتل عدة جنود فرنسيين في سراييفو .. إلخ .

أما أكثر المواقف دلالة على تواطؤ مجلس الأمن مع المعتدين الصرب فكان في وقوفه موقف المتفرج وهو يشاهد كلا من « سربرينتسيا » و « جيبا » تسقطان في أيدي الصرب خلال شهر يوليو 1995 ، دون أن يحرك ساكنا ، على الرغم من كون هذين المنطقتين ضمن المناطق التي أسمتها الأمم المتحدة بالمناطق الآمنة .

هذه مجرد أمثلة لحالات انتهكت فيها كرامة الأمم المتحدة ووقف مجلس الأمن تجاهها موقفا متخاذلا معيبا ، بينما وقف مواقف حاسمة ضد حالات أخرى تقل عن هذه مهانة وإذلالا ، لمجرد أن الحسم والتأديب سيكون موجها ضد مسلمين ، كما حدث مع العراق وليبيا والصومال ، مما يؤكد أن مجلس الأمن شريك كامل في المؤامرة على البوسنة المسلمة .

رابعا : مواجهة المجازر والفظائع بالشجب والإدانة :

لم يزد رد فعل مجلس الأمن تجاه المجازر والفظائع الصربية على مجرد الشجب والإدانة والتنديد ، دون تحرك فعلي ، أو إجراءات فعالة لحماية المدنيين في المناطق التي

(1) الأهرام 1 / 5 / 1994 ص 4 ، الأخبار 14 / 6 / 1994 ص 2 .
(2) الأهرام 23 / 2 / 1994 ص 1 , 26 / 3 / 1994 ص 4 .
(3) الأهرام ص 1 والأخبار ص 2 كلاهما في 17 / 4 / 1994 .
(4) الأهرام 2 / 5 / 1994 ص 1 . (5) الأهرام 13 / 12 / 1994 ص 4 .
(6) مأساة البوسنة ... التخاذل الدولي يبلغ ذروته . عامر سلطان . الأهرام 5 / 8 / 1994 ص 5 .
(7) الأهرام 28 / 11 / 1993 ص 4 .
(8) السياسة الدولية : ع 115 - يناير 1994 ، نشاط الأمم المتحدة ص 350 .

وضعتها الأمم المتحدة تحت حمايتها وأعلنت أنها مناطق آمنة .

ومن الجدير بالذكر هنا أن قرار مجلس الأمن بتحديد المناطق الآمنة كان - كبقية قرارات المجلس - مجرد حبر على ورق ، يضاف إلى هذا ما كشفت عنه صحيفة « إيكونو ميست » البريطانية من تلاعب في ألفاظ هذا القرار ، باستخدام تعبير « مناطق آمنة » بدلا من « ملاجئ آمنة » ، والفارق بينهما أن التعبير الثاني يلزم المجلس بالتدخل لضمان حماية السكان كما حدث في القرار الخاص بحماية الأكراد في شمال العراق ، بينما التعبير بـ « مناطق آمنة » لا يلزم المجلس بالتدخل [1] .

إذًا لم يتجاوز الأمر كونه مجرد خدعة كبرى من جانب مجلس الأمن يشارك من خلالها بصورة غير مباشرة في المأساة البوسنية ، من هنا فإننا لا نندهش حينما نجد مجلس الأمن يكتفي بالشجب والإدانة كلما أمعن الصرب في تشديد قبضتهم على مسلمي البوسنة ، وكلما تساقطت المدن المسلمة واحدة تلو الأخرى :

* فقد اكتفى المجلس بالإعراب عن شعوره بالفزع من مذبحة مدينة « ياجيتش » التي سبق ذكرها [2] ، وكذلك مذبحه قرية « ستوبن دو » .

* واكتفى بإدانة جرائم الاغتصاب واعتبرها أعمالا وحشية يعف اللسان عن ذكرها [3] .

* كما اكتفى بإدانة عمليات القتل والفظائع ضد المدنيين في شرق البوسنة [4] .

* ثم أعلن المجلس عجز الأمم المتحدة عن حماية المناطق الآمنة وأنها لا تستطيع عمل أي شيء لمنع الهجمات الوحشية الصربية ضد المسلمين .. حدث ذلك أولا في « جورازدي » [5] ثم في « بيهاتش » [6] .. والعجيب أن البيانات الصادرة عن مجلس الأمن بهذا الخصوص كانت تحمل إدانة ضمنية للمسلمين وهم ضحايا العدوان ، فمثلا : البيان الذي أصدره المجلس بشأن العدوان على « بيهاتش » ، جاء فيه « أن المجلس يؤكد على ضرورة احترام المناطق الآمنة من جانب كل الأطراف لمصلحة السكان

---

(1) ينظر : البوسنة والميراث الدامي ص 56 .
(2) السياسة الدولية : ع 111 يناير 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 335 .
(3) السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 275 .
(4) السياسة الدولية : ع 113 يوليو 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 313 .
(5) السياسة الدولية : ع 117 يوليو 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 370 .
(6) السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 نشاط الأمم المتحدة ص 358 ، الأهرام 15 / 11 / 1994 ص 1 .

المدنيين .. مع أن البيان نفسه اعترف بوحشية الهجوم الإجرامي لصرب البوسنة يدعمهم إخوانهم صرب كرواتيا » [1] .

* وقريب من هذا ما جاء في بيان مجلس الأمن بشأن جرائم التطهير العرقي .. فبعد أن أدان البيان بشدة الجرائم الصربية بهذا الخصوص ، وطالب بالكف عنها ، وأعرب عن استيائه لعدم سماح الصرب لمبعوث الأمم المتحدة بزيارة منطقة « بانيا لوكا » ... بعد هذا كله يأتي البيان ليقول : يناشد المجلس أطراف النزاع بالإفراج فورا عن جميع المعتقلين والسماح لمندوبي اللجنة الدولية للصليب الأحمر بتفقد أحوال السجناء ... [2] .

ومكمن الخطورة هنا أن المجلس لا ينظر إلى مأساة البوسنة باعتبارها عدوانا صريحا على المسلمين ، وإنما ينظر إليها باعتبارها حربا أهلية بين أطراف متساوية ، ولذلك يأتي التعبير في بياناته بجملة « أطراف النزاع » ... وهذه مأساة أخرى لا تقل عن المأساة الأصلية خطورة .

ولابد هنا من القول : إذا كان المجلس قد اعترف بعجزه عن حماية المناطق التي اعتبرها مناطق آمنة ، فلماذا يصر على حرمان المسلمين المعتَدَى عليهم من الحصول على سلاح يدافعون به عن أنفسهم ضد ما يرتكب في حقهم من مجازر وفظائع ، اعترف بها مجلس الأمن وأدانها في أكثر من مناسبة ؟ ! ... ألا يعد هذا الموقف مشاركة فعلية للصرب من جانب مجلس الأمن الذي هو أعلى سلطة في الأمم المتحدة ؟!!

خامسا : تخاذل مجلس الأمن تجاه حرب الحصار والتجويع :

في إطار مؤامرة التواطؤ بين الصرب ومجلس الأمن ضد مسلمي البوسنة والهرسك ، التزم المجلس بموقف واحد تجاه الاعتداءات الإجرامية الصربية المتكررة ضد قوافل الإغاثة الإنسانية ، لا يزيد عن الشجب والإدانة والاستنكار ، والإعراب عن القلق العميق تجاه المدنيين .. وكم من مرة طالب المجلس الصرب بالكف عن إعاقة ونهب قوافل الإغاثة ، ولكنهم في كل مرة كانوا يتحدون مجلس الأمن بصورة علنية سافرة ، كما تعبر صحافتنا في البلاد الإسلامية [3] .. ولكن الحقيقة المؤكدة أن المسألة لم تكن في إطار

---

(1) المرجع السابق .

(2) السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 نشاط الأمم المتحدة ص 356 ، الجمهورية 3 / 7 / 1994 ص 2 .

(3) ينظر على سبيل المثال : السياسة الدولية : ع 113 يوليو 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 314 ، ع 117 يوليو 1994 ص 369 ، الأهرام 7 / 3 / 1994 ص 1 ، 26 / 3 / 1994 1 ص 4 ، الأخبار 3 / 10 / 1994 ص 2 ، الجمهورية 9 / 12 / 1994 ص 2 ، ملف « البوسنة ... » ص 232 : 235 .

التحدي ، وإنما كانت مؤامرة يلعب فيها كل طرف الدور المرسوم له بمهارة فائقة .. **وليس أدل على ذلك مما يلي :**

* تناقض مجلس الأمن مع نفسه ، فبينما تعترف جميع بياناته صراحة بأن الصرب هم الذين يتعمدون إعاقة قوافل الإغاثة ونهبها ، إلا أن هذه البيانات - وكعادة المجلس - لم تخل من إشارة ضمنية إلى تحميل الضحية - وهم المسلمون - جانبا من المسئولية .. وعلى سبيل المثال : البيان الذي أصدره المجلس في 1993/2/18 ، بعد أن أدان الصرب ، وطالبهم بالامتناع عن إعاقة جهود الإغاثة ، إذا به يطالب جميع الأطراف المتنازعة بتأمين حرية انتقال قوافل المساعدة الإنسانية ، وأن تُقَدِّمَ أطرافُ النزاع وجميعُ المعنيين الآخرين الضمانات الكافية بهذا الخصوص !!! [1] .

* دأبت قوات الصرب على مهاجمة طائرات الإغاثة الإنسانية ، وبدلا من أن يقوم مجلس الأمن بمعاقبة الصرب وتأديبهم على هذه الأفعال الدنيئة ، فإنه سرعان ما يأمر بإغلاق مطار العاصمة « سراييفو » ووقف عمليات الإغاثة لمدة طويلة ، ولتعليل ذلك يقول مسئول المنظمة الدولية : إن أية خطوات عسكرية عقابية ضد الصرب قد تدفعهم للرد ، والانتقام من القوات الدولية ذات التسليح الخفيف في سراييفو [2] ... وليس لهذا الكلام من معنى سوى أن يظل المسلمون تحت رحمة الصرب يسومونهم سوء العذاب بالتجويع والموت البطيء بمباركة مجلس الأمن وتأييده .

* وقد تكشفت أبعاد هذه المؤامرة بشكل جلي في « بيهاتش » ، فمن بين 143 قافلة للإغاثة لم يصل للمسلمين المحاصرين بداخلها سوى 12 قافلة فقط [3] .

وهكذا وقع مسلمو البوسنة بين مطرقة الصرب وسندان مجلس الأمن الدولي .

* * *

(ب) الأمين العام للأمم المتحدة :

وقف الأمين العام للأمم المتحدة منذ بداية المجازر - إلى جانب الصرب على طول الخط ، يلتمس لهم الأعذار ، ويدفع عنهم الأخطار ، ويجنبهم العقوبات ما استطاع إلى ذلك سبيلا ..

---

(1) السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 277 .

(2) السياسة الدولية : ع 118 أكتوبر 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 334 .

(3) فصل في سجل العار فهمي هويدي الأهرام 13 / 12 / 1994 ص 7 .

وفيما يلي أستعرض قائمة بأهم مواقف الرجل ، الدالة على تواطئه مع المجرمين الصرب ، في أبشع جريمة شهدها القرن العشرون حتى الآن :

(1) كان حريصا منذ البداية على صرف الأنظار بعيدا عن اتهام الصرب مباشرة بارتكاب المجازر البشعة ، وذلك من خلال تصوير الموقف على أنه حرب أهلية يلام فيها الجميع ، وفي ذلك يقول : « إن الوضع المضطرب ، والقتال الدائم في البوسنة ، يجعل من الصعب تحديد مهام واضحة لقوات الأمم المتحدة ، كما أن جميع الأطراف تتحمل اللوم بدرجة أو بأخرى في الانتهاكات المستمرة لوقف إطلاق النار [1] .

(2) جعل نفسه بمثابة المحامي الأول عن الصرب ، حيث عارض بكل ما يملك من قوة مسألة التدخل العسكري في البوسنة ... وبالرغم من أنه رفع تقريرا إلى الجمعية العامة في 8/12/1992 ، يتضمن مآسي وأهوال المجازر الصربية البشعة ضد مسلمي البوسنة ، إلا أنه عاد بعدها بيومين ليؤكد أن مجلس الأمن هو الجهة الوحيدة التي يمكنها إجازة عملية تدخل عسكري في البوسنة ، وأن المفاوضات والمساعدة الإنسانية هما الصيغتان المقبولتان في الوقت الحاضر .. ثم أفصح عن نيته وأهدافه الحقيقية حينما اعتبر في 30/12/1992 أن مفهوم التدخل العسكري في البوسنة يتعارض مع شرعية الأمم المتحدة ، حيث إنه يتعارض مع مبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول [2] .

عجيب حقا هذا المنطق الخبيث .. فالعدوان الصربي الصريح على مسلمي البوسنة والهرسك يعد – في نظر الأمين العام – شأنا داخليا لا يصح لمجلس الأمن أن يتدخل فيه ، بينما النزاع بين قبائل الصومال البدائية الفقيرة شأن دولي يهدد السلام والأمن الدوليين ، ويجيّش مجلس الأمن والأمين العام من أجله الجيوش الجرارة .. إن هذا لشيء عجاب !

(3) كما بذل الأمين العام جهودا جبارة للاستمرار في حظر تزويد المسلمين بالسلاح ، وما فتئ يتحدث ليل نهار عن خطورة ومحاذير رفع الحظر عن المسلمين .. وكانت حجته : أن السماح لطرف واحد بالحصول على السلاح يضع عملية السلام في موقف صعب ، ويعرض الجهود الإنسانية التي تقوم بها المنظمة الدولية للخطر ... [3] ثم عاد

---

(1) الصربيون ص 163 .

(2) السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 275 ، ملف « البوسنة ... » ص 121 ، البوسنة والميراث الدامي ص 49 .

(3) السياسة الدولية ع 114 أكتوبر 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 311 .

فيها رئيس الجمهورية مستعدًا للاعتراف بحقوق ومتطلبات 20 مليون أمريكي من الجنسين يمارسون الشذوذ الجنسي بكافة أنواعه [1] .

وأثناء الحملة الانتخابية لمنصب الرئاسة عام 1980 اجتمع السيناتور « روبرت كنيدي » بممثلي جماعات الشذوذ الجنسي وتعهد لهم بالدفاع عن حقوقهم إذا ما تم انتخابه رئيسا للجمهورية [2] .. وقد تحقق ذلك بالفعل ، ولكن على يد الرئيس الحالي « بيل كلينتون » الذي تمادى في الاعتراف بحقوق الشواذ إلى حد لا يكاد يصدقه عقل .

* **وفي دول شمال أوروبا** : أصبح الشذوذ الجنسي من الأمور التي لا يعاقب عليها القانون ، بل يوجد في بعض الدول كنائس خاصة بهم ، يتم فيها عقد الزواج المزعوم بين الشواذ .

* **وفي فرنسا** : حصلوا على ترخيص رسمي بإنشاء إذاعة خاصة بهم [3] .

ومن المفارقات العجيبة في هذا المقام ، أن والدة الرئيس الأمريكي « جيمي كارتر » كانت أعلنت عن مكافأة ضخمة قدرها مليون دولار لمن ينجح في اغتيال الزعيم الشيعي الراحل « آية الله خوميني » لأنه - تطبيقا للشريعة الإسلامية - أمر بإعدام اللواطيين ورجم الزناة المحصنين ، الأمر الذي اعتبره الإعلام الغربي وحشية وقسوة وهمجية [4] .

وهكذا صار المعروف منكرا والمنكر معروفا ، وانعكست الفطرة في منهج الحضارة الغربية المادية الزائفة .

(ب) الفوضى الجنسية في المدارس والجامعات الغربية :

لاشك أن المدارس والجامعات جزء من صميم المجتمع ، فإذا كان المجتمع طافحا بالمنكرات مليئا بالفواحش ، فليس من المستغرب أن تكون مدارسه وجامعاته كذلك ، خاصة وأن الجنس يدرس نظريا وتطبيقا ، بدعوى « التربية الجنسية » :

ففي بريطانيا : تدل الإحصائيات التي أجريت في المدارس الثانوية المختلطة أن 80 ٪ من طالباتها يحملن أقراص منع الحمل في حقائبهن .. [5] وفي إحدى الكليات الجامعية حيث توجد 684 فتاة - تبين أن نصف الفتيات غير المتزوجات منهن قد تحصّلن على

---

(1) المرجع السابق ص 8 .

(2) المرجع السابق نفسه ص : 23 .

(3) جذور البلاء يراجع ص : 180 .

(4) من نافذة الشذوذ الجنسي ص : 27 ، 28 .

(5) يراجع : من نافذة الإباحية ص : 118 - 121 .

خبرة جنسية كاملة ، وكانت 6 منهن حوامل ، و 65 حملن قبل ذلك ، و 5 لجأن للإجهاض . وقد أعرب الأطباء المشرفون وزعماء الطلبة وحتى مدير الجامعة عن تأييدهم للحرية الجنسية الكاملة للفتيات [1] .

وحينما قامت وزارة التربية بإيقاف مدرسة شابة عن العمل إثر قيامها بتدريس الجنس عمليا لطلاب المرحلة الثانوية ، عمدت الصحف إلى إثارة حملة شعواء على الوزارة متهمة إياها بالتخلف والرجعية ، ودعت إلى خروج مظاهرات حاشدة لحمل الوزارة على التراجع عن قرارها ، ونشرت صورة عارية للفتاة على صدر الصفحات الأولى ... وبالفعل خرجت مظاهرات ضخمة لتأييد الفتاة ومناصرة تدريس الجنس عمليا ، وانصاعت وزارة التربية صاغرة لرغبة الجماهير وأعادت الفتاة لعملها [2] .

وفي أمريكا : ذكرت الإحصائيات أن نسبة الحبالى من تلميذات المدارس الثانوية بلغت 48 ٪ في مدينة « دنفر » عاصمة ولاية « كلورادو » وحدها .. كما أنشئت في جميع مدارس « نيويورك » غرفة للولادة ، وتم تدريب اثنين من موظفي كل مدرسة للقيام بأعمال التوليد في حالة الطوارئ ريثما يستدعى الطبيب المختص ، نظرا لأن عدد الطالبات الحبالى في مدارس المدينة - دون زواج - قد بلغ 2487 طالبة [3] .

ومن العجيب أن بعض الجامعات الأمريكية قد خصصت منحا دراسية للطلاب الشاذين جنسيا ، بل إن جامعة (جورج وليامز) تشترط للحصول على منحها أن يكون المتقدم شاذا جنسيا [4] .

وفي السويد : طالب مدرِّس الدين في إحدى المدارس بفصل تلميذين وتلميذتين ارتكبوا الفاحشة ، مما أدى إلى حمل التلميذتين ، ولكن ناظر المدرسة رفض فصلهم ، بل ومنحهم الدرجة العظمى في حسن السلوك ، وعندما طرح الموضوع على هيئة التدريس أيدت موقف الناظر ، بحجة أن المدرسة لايحق لها أن تعاقب على شيء لم يعد المجتمع يعاقب عليه ، فضلا عن أن العلاقات الجنسية تدرس الآن للتلاميذ في جميع المدارس السويدية .. وحينئذ لم يجد المدرِّس بُدًّا من رفع الأمر إلى الحكومة ، ولكن مجلس الوزراء خيب أمله حينما أصدر قرارًا برفض فصل التلاميذ .. واغتبط ناظر المدرسة وفسر القرار الحكومي بقوله : إن التلاميذ متفوقون في الدراسة ، وسلوكهم العام حسن ، وليس

---

(1) نفس المرجع السابق .

(2) ينظر المرجع السابق ص : 147 ، 148 .

(3) يراجع : المرجع نفسه ص : 118 - 121 .

(4) من نافذة الشذوذ الجنسي ص : 24 .

(2) كما ساهمت بصورة فعالة في سقوط المدن المسلمة في أيدي الصرب .. فعلى سبيل المثال : في مدينة « سربرينتسا » المسلمة التي ظل الصرب يحاصرونها عاما كاملا ، وأصبحت رمزا للنضال البطولي والمقاومة الباسلة ، حينما شدد الصرب هجومهم الوحشي عليها ، سارعت القوات الدولية بنزع أسلحة المجاهدين المسلمين المدافعين عن المدينة ؛ بحجة أن مجلس الأمن قد جعلها منطقة آمنة تخضع لحماية الأمم المتحدة .. وسرعان ما سقطت المدينة في أيدي الصرب ، وانتهت قصة الصمود البطولي في « سربرينتسا » بفضل خيانة مجلس الأمن والقوات الدولية [1] .. وقد أكد « هانسي كوزي » قائد القوات البرية الهولندية التي كانت متمركزة في « سربرينتسا » أن الجنرال الفرنسي « برنارجا نفييه » الذي كان قائد القوات الدولية في يوجوسلافيا السابقة قد تلقى تعليمات من « باريس » بعدم تقديم الدعم الجوي الذي يكفل حماية المدينة من السقوط [2] ..

(3) لم تقم القوات الدولية بمهامها ، ولم تتدخل في مسار الأحداث إلا في الحالات التي يحاول فيها المجاهدون المسلمون فك الحصار عن سراييفو وإيجاد ثغرات في هذا الحصار الذي يتحكم في كل شيء داخل العاصمة .. والأدهى من ذلك أن قائد القوات الدولية قد هدد المسلمين بتوجيه ضربات جوية بطائرات حلف الأطلنطي ضدهم إن لم يكفوا عن استفزاز الصرب [3] .

(4) قامت القوات الدولية باستخدام القوة العسكرية ضد 500 جندي مسلم لطردهم من منطقة جبل « إيجمان » حول العاصمة سراييفو ، وهددت باستخدام الضربات الجوية ضدهم في حالة العودة ،كل ذلك رضوخا لتهديدات المجرمين الصرب ، بدعوى أن هذه المنطقة تدخل ضمن المنطقة المنزوعة السلاح حول سراييفو [4] . في الوقت نفسه تتغاضى قوات الأمم المتحدة عن مئات الضحايا من المسلمين الذين يسقطون يوميا في شوارع العاصمة برصاص القناصة الصرب المتمركزين في المرتفعات الجبلية المحيطة بها .. كما سمحت القوات الدولية لسبع دبابات صربية بالمرور بحرية تامة في المنطقة المنزوعة

---

(1) يراجع : الأمة في عام ص 118 . (2) الأهرام 6 / 7 / 1996 ص 5 .

(3) ينظر : ماذا يجري على الساحة الدولية د / محمد إسماعيل علي – الأهرام 24 / 9 / 1994 ص 8 ، الأهرام 1994 / 12 / 29 ص 4 ، ملف : البوسنة ص 336 .

(4) السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 نشاط الأمم المتحدة ص 357 ، ع 120 أبريل 1995 شهريات (أكتوبر 1994) ص 312 والأخبار 9 / 10 / 1994 ص 2 .

السلاح ، مخالفة بذلك قرارات مجلس الأمن [1] ...

أليس هذا دليلا على مدى تواطؤ ومشاركة تلك القوات في المؤامرة الدولية ضد مسلمي البوسنة والهرسك ؟!

(5) أما أكثر المواقف دلالة على تواطؤ القوات الدولية مع الصرب فكان في مدينة «بيهاتش » :

* فقد قامت قيادة القوات بسحب كتيبة فرنسية ضخمة مسلحة تسليحا جيدا من بيهاتش قبل أيام قلائل من الهجوم الصربي الوحشي على المدينة ، واستبدلت بقوات من بنجلاديش قليلة العدد خفيفة التسليح ، يرتدي أفرادها الملابس الصيفية ، وتمدهم قيادتهم بطعام .. يتشكل أساسا من لحم الخنزير المحرم تناوله على المسلمين ، مما جعلهم في حالة بدنية ونفسية سيئة ، ووقعوا في أسر الصرب بكل سهولة [2] .

* وقد طلب القائد العام للقوات الدولية من العقيد الكندي المسئول عن تلك القوات في منطقة بيهاتش ، أن يقوم بنشر مراقبين عسكريين على الحدود بين البوسنة وكرواتيا ، لمنع صرب كرواتيا من التدخل في الهجوم على بيهاتش ، ولكنه لم ينفذ هذه التعليمات ، وأدى ذلك إلى إفساح المجال أمام صرب كرواتيا للمشاركة في الهجوم بصورة واسعة .. وحين سقط بعضهم قتلى ووقع آخرون في الأسر ؛ فإن القوات الدولية بالمنطقة رفضت إثبات هويتهم ، وظل مبعوث الأمم المتحدة « يا سوشي أكاشي » ينفي نفيا قاطعا ومعلقًا اشتراك صرب كرواتيا في القتال .

* ثم فرضت القيادة العليا للقوات الدولية حصارا إعلاميا على كل ما يجري في بيهاتش ، ومنعت وجود أي صحفي أجنبي في المدينة أو المناطق المحيطة بها ، بهدف التعتيم على وحشية الهجوم الإجرامي لصرب البوسنة وكرواتيا ، واستخدامهم الأسلحة المحظورة دوليا ، وقد دأبت تلك القيادة على التقليل من شأن الهجوم وحجم القتال في المنطقة [3] .

لا شك أن هذه المواقف الثلاثة في بيهاتش ناطقة بما فيه الكفاية ولا تحتاج إلى تعليق .

---

(1) يراجع : البوسنة : أوهام المراهنة على الحسم العسكري عماد جاد . السياسة الدولية ، ع 117 يوليو 1994 ص 231 : 234 ، الأهرام 6 / 5 / 1994 ص 4 .

(2) ينظر حديث نائب رئيس البوسنة في الأهرام 3 / 1 / 1995 ص 1 وحديث قائد الجيش البوسني في الأهرام 30 / 12/ 1994 ص 5 .

(3) ينظر : فصل في سجل العار . فهمي هويدي الأهرام 13 / 12 / 1994 ص 9 .

(6) قامت القوات الدولية بالتجسس على مواقع القوات المسلمة ، ونقل المعلومات المتعلقة بأوضاعها العسكرية إلى المجرمين الصرب ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ماحدث من أحد ضباط سلاح المظلات الملكي البريطاني واسمه « باول جودال » ، الذي تم ضبطه داخل سيارة إغاثة تابعة للأمم المتحدة متنكرا في هيئة سائق ، وحينما تم اكتشاف أمره حاول الهرب مستخدما - هو ومرافقوه - الأسلحة النارية الكثيفة ، ولكنه أردي قتيلا عند نقطة تفتيش تابعة للجيش البوسني .

وفي هذا المضمار أيضا تم التقاط رسالة لاسلكية بين ضابط فرنسي تابع للقوات الدولية وآخر في المخابرات الصربية يخبره فيها الأول بتحركات طائرات حلف شمال الأطلنطي [1] ..

(7) بذل قادة القوات الدولية قصارى جهدهم لتجنيب الصرب ضربات جوية من قبل حلف الأطلنطي .. ففي فضيحة « جوارازدي » سارع مبعوث الأمم المتحدة « ياسوشي أكاشي » إلى تأكيد انصياع الصرب لإنذار حلف الأطلنطي وانسحاب قواتهم بعيدا عن جورازدي ، بينما الحقيقة التي أكدتها حكومة البوسنة وقائد القوات الدولية أن شيئا من ذلك لم يحدث على الإطلاق ، وطالبت الحكومة البوسنية بإقالة « أكاشي » بعد افتضاح تواطئه مع الصرب ، ولكن بطرس غالي تمسك به ورفض إقالته ، مدعيا أنه لم يخطئ في « جورازدي » ، ولم يخطئ كذلك في سماحه بتحريك الدبابات الصربية في المنطقة المحظورة حول سراييفو [2] ، مما يؤكد أن « أكاشي » ليس إلا أداة لتنفيذ سياسة الأمين العام المتواطئة مع الصرب في البوسنة والهرسك .. وليس ببعيد موقفه من مسأله اشتراك صرب كرواتيا في الهجوم الوحشي على بيهاتش [3] .

والحقيقة أن « أكاشي » لا يقف في هذا الميدان وحده ، فلقد كان قادة القوات الدولية جميعا يسيرون في نفس الاتجاه .. فقد وصف رئيس الوزراء البوسني قائد القوات الدولية الجنرال « فيليب مرويون » بأنه « أحد القادة الأوربيين الذين يميلون إلى فكرة

---

(1) المصدر نفسه .

(2) ينظر : البوسنة : أوهام المراهنة على الحسم العسكري ، مصدر سابق ص 231 : 234 ، وينظر : ص 371 , 372 .

(3) ومن المواقف التي لابد من ذكرها لإثبات تواطؤ « أكاشي » أنه بمجرد الإعلان عن إنشاء قوات للتدخل السريع في مطلع عام 1995 م سارع بطمأنة الصرب عبر رسالة وجهها إلى قادتهم بأن القوات الجديدة لن تتصرف بأي صورة تخالف ما تقوم به حاليا قوات حفظ السلام الدولية [السياسة الدولية - أكتوبر 1995 م ص 275] . ثم إنه بعد سقوط سربرينتسا وصدور قرار من مجلس الأمن بانسحاب الصرب منها وعودتها منطقة آمنة ، سارع أكاشي بالقول بأن انسحاب الصرب منها وعودتها منطة آمنة أمر غير ممكن [المرجع السابق ص 276] .

تخليص أوروبا من الوجود الإسلامي ، وهو يمارس ذلك في ظل شرعية دولية »[1] .. أما الجنرال « مايكل روز » البريطاني ، فقد وصفه مندوب البوسنة في الأمم المتحدة بأنه « مجرد مخلب قط لجهات أخرى تعمل خارج قوة الحماية الدولية »[2] .

(8) شاركت القوات الدولية في جرائم الاغتصاب الدنيئة ، وقد اعترفت الأمم المتحدة نفسها بهذه الحقيقة في تقرير أعده « جويتر جرندل » بعد تحقيقات استمرت عاما كاملا[3] .. كما اعترف بذلك أيضا المجرم الصربي « بورسيلاف هيراك » بعد وقوعه أسيرا في أيدي القوات المسلمة ، حيث ذكر أنه شاهد قائد القوات الدولية الجنرال « لويس ماكنزي » الكندي الجنسية يتردد أكثر من مرة على المعسكرات الصربية المخصصة لجرائم اغتصاب المسلمات ، وأن قادة الصرب كانوا يجهزون له حفلات راقصة يتناول فيها الخراف المشوية ، ثم يصطحب معه في كل مرة مجموعة من الفتيات المسلمات ليقوم باغتصابهن هو ورجاله ..

وقد أكدت حكومة البوسنة أنها تملك وثائق وأدلة قاطعةِ على الجرائم التي ارتكبها هذا السفاح ، الذي تم عزله من منصبه كقائد للقوات الدولية في البوسنة ، ثم عاد إلى كندا ليلقى نفس المصير ، حيث تم عزله من الجيش ، ولكنه لن يفلت بجرائمه إن شاء الله[4] .

(9) استغلت القوات الدولية حالة المجاعة التي يكابدها سكان البوسنة المسلمون ، فارتكبت جرائم عديدة تتعلق بالاستغلال والاتجار في السوق السوداء ، وقد سجل الجنرال النمساوي « جويتر جرندل » ذلك كله في تقريره المشار إليه آنفا .. كما أن الأستاذ « يحيى غانم » مراسل الأهرام في سراييفو قد شاهد بنفسه نماذج لهذه الجرائم ، تتمثل في قيام الكتيبتين الفرنسية والأوكرانية ببيع الطعام والوقود الخاص بالأمم المتحدة لمواطني سراييفو مقابل السلاسل الذهبية أو آلاف الماركات الألمانية ، وتبين أن كثيرا من جنود القوات الدولية قد أصبحوا من كبار الأثرياء في مدة بسيطة بسبب هذه الجرائم القذرة[5] .

(10) فشلت القوات الدولية فشلا ذريعا في تحقيق أول وأهم أهدافها وهو توصيل معونات الإغاثة الإنسانية إلى السكان المحاصرين ، ويرجع ذلك إلى كثرة التحرشات

(1) البوسنة في صحافتنا ص 44 . (2) الأخبار 23 / 11 / 1994 ص 2 .
(3) السياسية الدولية : ع 117 يوليو 1994 . نشاط الأمم المتحدة ص 369 ، 370 .
(4) يراجع ملف : البوسنة . ص 342 كما أكدت المنظمة الدولية لحقوق الإنسان في تقرير قدمته إلى الأمم المتحدة أن جنود قوات حفظ السلام يشاركون القوات الصربية في عمليات الاغتصاب البشعة .... ينظر الأخبار 3 / 10 / 1992 ص 4 .
(5) يراجع : المرجع السابق ص 336 .

الصربية بقوافل المساعدة وقيامهم بنهب الكثير منها ، وبدلا من توسيع دور القوات الدولية ظل بطرس غالي يرفض باستمرار « إجازة استخدام القوة من جانبها للدفاع عن قوافل الإغاثة ، وذلك تحت حجة الخوف من انتهاك صفة حيادها ، أو تورطها في أعمال عسكرية لا تقدر إمكانياتها على التصدى لها .. ولذا ، حين تزايدت الهجمات على القوافل في وسط البوسنة ؛ لم يتمثل الحل إلا في تخفيض هذه القوافل التي كان السكان في أشد الاحتياج إليها في ظروف الشتاء . أما مدن شرق البوسنة فلقد ظلت محرومة تماما من قوافل الإغاثة نظرا للاعتراض الصربي عليها منذ بداية عمليات الإغاثة » (1) . ومع هذا كله قامت القوات الدولية بإمداد المجرمين الصرب بالوقود رغم مخالفة ذلك لتعليمات الأمم المتحدة (2) .

وليس لموقف الأمين العام وقوافل الإغاثة من دلالة سوى أن القوات الدولية قد ساهمت بصورة غير مباشرة في حرب الحصار والتجويع .

(11) ساهمت القوات الدولية بدور فعال في الضغط على المسلمين لقبول تقسيم بلادهم على أساس عرقي ظالم ، وقد تمثل ذلك في التصريحات العديدة الصادرة عن قادة تلك القوات ، والتي كانت تهدف إلى بث اليأس في نفوسهم من تحقيق الانتصار والحفاظ على وحدة البوسنة ، ومن ذلك مثلا تأكيد الجنرال « مايكل روز » على أنه لا أمل للمسلمين في استرجاع الأراضي التي فقدوها عن طريق الحرب (3) .. ومؤدى هذا الكلام أن على المسلمين القبول بما يعرض عليهم في خطط السلام وفقط ، لأنه لا أمل لهم في تحقيق أهدافهم بالقوة العسكرية .

(12) اقتدى المبعوث الدولي « ياسوشي أكاشي » برئيسه بطرس غالي في تحميل كل من الجاني والضحية مسئولية المجازر البشعة والمذابح الدامية .. ففي غضون الهجوم الإجرامي الوحشي على بيهاتش . أكد « أكاشي » أن الأمم المتحدة لا تستطيع عمل أي شيء لمنع الهجمات الوحشية على منطقة بيهاتش ، كما أكد أنه ما لم يكن لدى الطرفين رغبة قوية في وقف القتال فإن ما يمكن لقوات حفظ السلام الدولية عمله قليل للغاية (4) ...

سبحانك ربي هذا بهتان عظيم .. يعترف الرجل بوحشية الهجوم الصربي على

---

(1) الأمة في عام ص 116 : 117 . (2) الأهرام 10 / 11 / 1994 ص 1 .

(3) البوسنة : أوهام المراهنة على الحسم العسكري مرجع سابق ص 233 .

(4) السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 نشاط الأمم المتحدة ص 358 ، الأهرام 15 / 11 / 1994 ص 1 .

المسلمين ، ثم بعد ذلك يتهم الطرفين بعدم الرغبة في وقف القتال .. أي منطق هذا إلا أن يكون منطق التآمر ضد المسلمين بإفساح المجال أمام الصرب لإبادتهم واستئصال شأفتهم ..

* * *

هذه بعض المواقف الدالة على تواطؤ القوات الدولية في أشد جرائم القرن العشرين شناعة وبشاعة .. وإذا أضيفت هذه المواقف إلى مواقف مجلس الأمن والأمين العام صارت قضية تواطؤ الأمم المتحدة في المأساة البوسنية واضحة كل الوضوح ..

والحقيقة أن انتقاد موقف الأمم المتحدة إزاء المأساة البوسنية لم يصدر عن المسلمين وحدهم ، بل نطقت به ألسنة الكثيرين حتى داخل الأمم المتحدة ذاتها ، فقد طلب الجنرال « فرانسيس بيكمون » أحد من تولوا قيادة الأمم المتحدة في البوسنة إعفاءه من منصبه احتجاجا على دور الأمم المتحدة الهامشي ، ومنتقدا عدم توفير القوات اللازمة للقيام بالأهداف المعلنة [1] .

كما انتقد رئيس الوزراء الفرنسي التأخر الطويل والإجراءات السياسية والإدارية المعقدة للرد العسكري على مصادر النيران التي تستهدف قوات الأمم المتحدة ، وطالب بالرد السريع على الاستفزازات الصربية للقوات الدولية .. [2] وقال الجنرال « جان كوت » القائد الأعلى لقوات الأمم المتحدة في البوسنة : إن رغبة الصرب المتعمدة في إهانة الذراع العسكري للمجتمع الدولي بلغت أقصى الحدود ولم أعد قادرا على تحملها [3] ... وغير ذلك كثير [4] .

* * *

(1) السياسة الدولية : ع 116 أبريل 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 341 .

(2) السياسة الدولية : ع 117 يوليو 1994 نشاط الأمم المتحدة ص 369 .

(3) الأخبار 3 / 1 / 1994 ص 2 .

(4) أورد الأستاذ فهمي هويدي شهادات لبعض الكتاب الغربيين عن تواطؤ الأمم المتحدة في المأساة البوسنية .. ينظر مقاله : فصل في سجل العار . مصدر سابق . كما ينظر الأهرام 8 / 8 / 1995 م ص 4 للاطلاع على شهادة « برنارجراانجون » رئيس منظمة أطباء العالم ، الذي قال : لا أصدق أن مجموعة من المتعصبين [صرب البوسنة] تتحكم في مصير العالم .. وإن عدم توافر الإرادة لوضع حدٍّ لما يحدث يجعل المنظمات الدولية – وخاصة الأمم المتحدة – في وضع « عدم نجدة شعب يتعرض للإبادة » في أفضل الظروف ، وفي حالة « تواطؤ » في أسوأ الأحوال .

(4) **تآمر « الوسطاء » الدوليين :**

عندما بدأت المجازر الحالية في البوسنة والهرسك ؛ أعلنت كل من المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة تعيين مندوبين عنهما للقيام بمهمة « الوساطة » ، وقد اختارت المجموعة الأوروبية اللورد « كارينجتون » وزير الخارجية البريطاني الأسبق ، بينما اختارت الأمم المتحدة وزير الخارجية الأمريكي الأسبق « سايروس فانس » .. وبعد فترة وجيزة استقال « كارينجتون » ليحل محله اللورد « ديفيد أوين » ، ثم ما لبث « فانس » أن استقال هو الآخر ليتم تعيين « ثورفالد شتولتنبرج » وزير الخارجية النرويجي الأسبق بدلا منه .. كما استقال « ديفيد أوين » ليحل محله « كارل بلت » السويدي في مايو 1995 م .

ورغم تعدد الأسماء واختلاف الجنسيات إلا أن المبدأ الذي سار عليه هؤلاء جميعا مبدأ واحد لم يتغير على الإطلاق ، ويتمثل في بذل أقصى جهد ممكن لتحقيق أهداف المجرمين الصرب ، والضغط بشدة على المسلمين للرضا بالأمر الواقع الذي فرضه العدوان الغاشم ..

وسيتضح ذلك جليا من الحديث عن مواقف هؤلاء وتصريحاتهم تجاه المأساة البوسنية الدامية :

(أ) **لورد كارينجتون** : تعكس أقوال هذا الرجل التصور التآمري الذي كان يسيطر على نظرته للمجازر البشعة في البوسنة والهرسك ، حيث أكد في تصريحاته التي أدلى بها في 1992/7/25 « أنه لن يحاول بعد الآن التفاوض على وقف النار في البوسنة إلى أن يصطدم المتنازعون في هذه الجمهورية بطريق مسدود أو تتلاشى قواهم . كما أكد أنه لم يعد يرى سببا لاتخاذ مبادرة جديدة إلى أن تتغير الظروف في البوسنة بصورة جذرية ، وأعرب عن اعتقاده بأنه – من أجل التوصل إلى فرض احترام وقف النار – يتوجب على الصرب أن يعتبروا أنهم ضموا ما فيه الكفاية من الأرض ، أو يتوجب على أحد الأطراف كالمسلمين في الأرجح أن يعترفوا بأنهم من الضعف بحيث لا يستطيعون مواصلة القتال . » [1] .

أرأيت إلى هذا المنطق التآمري الخبيث ، فالحرب لن تنتهي – من وجهة نظره – إلا بعد أن يقنع الصرب بتحقيق أطماعهم ، أو أن يخضع المسلمون لحكم الواقع الذي فرضه العدوان الإجرامي .. وقد بذل الرجل جهودا جبارة لتحقيق هذا الهدف الأخير .

---

(1) الأمة في عام ص 98 .

(ب) سايروس فانس : لم يختلف موقف هذا الرجل عن موقف شريكه الأول « كارينجتون » ، فلقد كان منحازا إلى الصرب على طول الخط ، تدل على ذلك مواقفه التالية :

* فقد رفض رفضا قاطعا رفع الحظر المفروض على تسليح مسلمي البوسنة .. ففي الوقت الذي « أبدى فيه قلقه البالغ من انتهاك حقوق الإنسان والقانون الإنساني في صورة منهجية في البوسنة ، وفي نفس الوقت الذي ناشد فيه أعضاء مجلس الأمن زيادة المساعدة الإنسانية وسرعتها ، أعلن مجددا معارضته لرفع الحظر المفروض على البوسنة ، لأنه سيعمق الحرب ويوسع نطاقها .. » [1] .

وقد تكرر منه هذا الموقف أكثر من مرة ، مما دعا الرئيس علي عزت بيجوفيتش إلى الاحتجاج ضد هذا الموقف ، الذي اعتبره ظلما فادحا ، لأنه يعامل الجانبين على قدم المساواة ودون تمييز بين المعتدي والضحية [2] .

* اكتفى الرجل بمشاهدة جرائم التطهير العرقي عن قرب دون أن يفعل شيئا حيالها ، فقد قام هو وزميله « أوين » بزيارة مدينة « بانيا لوكا » المسلمة قبل سقوطها ، واعترفا سويا باحتمال حدوث مجزرة بها ، دون أن يفعلا شيئا للحيلولة دون حدوثها .. [3] .

* قام هو و « أوين » بوضع خطة لمستقبل البوسنة عرفت بخطة « فانس – أوين » للسلام ، كانت مجرد تقنين لمنجزات العدوان ، وتثبيت الأمر الواقع الناتج عنه ، فقد قامت الخطة على تقسيم البوسنة إلى عشرة مناطق إدارية على أساس عرقي ديني ، يحصل الصرب على ثلاثة منها ، تقدر مساحتها بنسبة 43 % من أراضي البوسنة ، ويحصل الكروات على ما نسبته 15 % من مساحة الجمهورية ، بينما يحصل المسلمون على ثلاثة أقاليم فقط تمثل نسبة 25 % من المساحة الكلية ، والباقي يكون منطقة مفتوحة للجميع – هذا في الوقت الذي يشكل فيه المسلمون نسبة تزيد على 45 % من السكان ، بينما تبلغ نسبة الصرب 31 % فقط والكروات 15 % فقط من سكان البوسنة والهرسك [4] .. الأمر الذي يبرز فداحة الظلم الواقع على المسلمين ، وهو ما يعبر عنه الرئيس علي عزت

---

(1) المرجع نفسه ص 107 وينظر أيضا : السياسة الدولية : ع 111 – يناير 1993 نشاط الأمم المتحدة ص 336 .

(2) ينظر : المرجع نفسه ص 107 .　　(3) ينظر : المرجع نفسه ص 105 .

(4) للوقوف على تفاصيل الخطة وشروطها المجحفة يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 96 , 97 . الأمة في عام ص 121 : 127 . ضياع البوسنة بين خطة أوين وقرار الأطلنطي عامر سلطان . الأهرام 6 / 8 / 1993 ص 5 . البوسنة .. دبلوماسية الموت السياسي عامر سلطان . الأهرام 27 / 8 / 1993 ص 5 .

في تعليقه على الخطة بأنها « تصادق وتضفي الشرعية على حصيلة التطهير العرقي ، وتمنع عودة اللاجئين إلى ديارهم » [1] .

ومع ذلك فقد وافق المسلمون على الخطة بعد ضغوط مكثفة من قبل كل من فانس وأوين والدول الكبرى ، بينما رفضها الصرب رغم أنها تعطيهم الكثير والكثير .. وعجبا !.. يرضى القتيل وليس يرضى القاتل .

* وفي إطار حملته ضد مسلمي البوسنة بذل « فانس » جهودا حثيثة لتوحيد صفوف المجرمين النصارى من الصرب والكروات ، وقد نجح في ذلك نجاحا باهرا ، حيث تم برعايته الاتفاق بين الرئيس الاتحادي ليوغوسلافيا الجديدة والرئيس الكرواتي ، على تنسيق مواقفهما وجهودهما في البوسنة والهرسك ، وكان هذا الاتفاق ضربة موجعة للمسلمين [2] .

هذه بعض مواقف « سايروس فانس » ناطقة بما يكنه في نفسه من حقد على الإسلام والمسلمين .. والحقيقة أن موقفه هذا في البوسنة والهرسك ليس بغريب أبدا على رجل قدم لليهود خدمات كثيرة حينما كان وزيرا للخارجية في الولايات المتحدة الأمريكية ، ومواقفه في هذا المجال لا تخفى على أحد .

(جـ) لورد « ديفيد أوين » : رغم خطورة وتآمرية الدور الذي قام به كل من « كارينجتون » و « فانس » إلا أن الدور الذي لعبه « ديفيد أوين » يعد الأكثر خطورة والأكثر تآمرا .. والمواقف التالية تؤكد هذه القضية أيما تأكيد :

* فلقد كشف الرجل عن حقيقة نواياه ومكنونات ضميره حينما أعلن أن إنشاء دولة إسلامية في البوسنة والهرسك سيصبح أمرا حتميا بسبب رفض الولايات المتحدة خطته المشار إليها سابقا ، والتي تقضي بتقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات عرقية في إطار اتحاد كونفيدرالي هش – على حد تعبيره – ويؤدي هذا الرفض – من وجهة نظر « أوين » – إلى حتمية قيام دويلة إسلامية مستقلة في أوروبا ، الأمر الذي كان « أوين » حريصا على عدم حدوثه ، ولكنه يعود ليقول : إن ذلك يجب ألا يثير مخاوف الأوروبين ، لأنها ستكون دويلة هزيلة ضعيفة ، لا خطورة منها [3] .

(1) التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 97 ، البوسنة في صحافتنا ص 2 .
(2) ينظر : ملف : « البوسنة ... » ص 18 والتقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 105 .
(3) يراجع : البوسنة والميراث الدامي ص 62 , 63 .

وقد أغنانا الرجل بأقواله هذه عن البحث في حقيقة الموقف الأوروبي بصفة عامة تجاه المجازر البشعة في البوسنة والهرسك .

* وعندما قام « أوين » بوضع خطته لتقسيم البوسنة تقسيما جائرا ، مارس الرجل ضغوطا لا نظير لها على الجانب المسلم من أجل الموافقة على هذه الخطة الظالمة وقالها بكل صراحة : ليس أمامكم إلا القبول أو الموت [1] .. وهدد أكثر من مرة بسحب القوات الدولية [2] ..

وقد وافق المسلمون فعلا – كما سبق القول – على هذه الخطة نتيجة لضغوط هائلة من جانب الدول الكبرى والأمم المتحدة و « أوين » نفسه ، وقد رفض الصرب هذه الخطة رفضا قاطعا ، ولم يكتفوا بذلك بل كثفوا هجومهم الوحشي على المسلمين .. وكان من المنتظر في هذه الحالة أن يغضب « أوين » ، وأن يدافع عن خطته ، وأن يطالب بتوقيع عقوبات على الصرب ، فهم الطرف الرافض للخطة ، المعطل لمسيرة السلام ، ولكن الرجل بدلا من ذلك أعلن فشل خطته وأنها قد ماتت ، ولا يمكن تجاهل المكاسب التي حققها الصرب والكروات على أرض الواقع [3] ..

والأدهى من ذلك أنه عاد ليطلب من المسلمين التنازل عن أراضيهم للصرب ، فقد أكد أنه لا يعتبر إعطاء الصرب جزءا من أراضي المسلمين مكافأة للمعتدي على عدوانه ، وأضاف أنه بعد هذه المدة من الحرب بين المسلمين والصرب ، لابد من الاعتراف بالأمر الواقع والعمل في حدوده .. [4] .

* وفي الوقت الذي كانت مشاعر العالم كله ملتهبة ضد الصرب بسبب مذبحة سوق سراييفو التي راح ضحيتها في لحظة واحدة ما يقرب من 70 قتيلا وإصابة 200 شخص .. في هذا الوقت الذي كان الكل يطالب بمعاقبة الصرب المتوحشين ، إذ باللورد أوين يطالب الدول الغربية بعدم توجيه ضربات جوية لمواقع الصرب بدعوى أن ذلك سيجر الأمم المتحدة إلى الحرب في البوسنة ، وقال : إن الأمم المتحدة لابد أن تظل في موقف الحياد [5] .

* عارض « أوين » دائما رفع الحظر عن تسليح المسلمين ، ولم يترك الرجل مناسبة إلا وتحدث فيها عن خطورة هذا الأمر وأثره في تحويل المنطقة إلى بحور من الدماء .

---

(1) المرجع السابق ص 39 وينظر أيضا : البوسنة في صحافتنا ص 83 , 84 , 115 , 116 .

(2) الأخبار 5 / 1 / 1994 ص 1 .

(3) السياسة الدولية : ع 114 أكتوبر 1993 شهريات ... (يوليو 1993) ص 309 ، نشاط الأمم المتحدة ص 311 .

(4) الأهرام 19 / 8 / 1993 ص 4 .

(5) الأهرام 7 / 2 / 1994 ص 4 .

* كما عارض بشدة تشكيل محكمة لمجرمي الحرب ، « ففي الوقت الذي أعرب فيه عن اشمئزازه من عمليات التطهير العرقي فإنه رأى أن رفض التحدث إلى هذا أو ذاك لأنه مصنف كمجرم حرب أمر غير مُجْدٍ ، ويجب البحث بجدية عن حل بطريق التفاوض وترك الأحكام الأخلاقية للآخرين . » [1] .

* شارك « أوين » مع زميله « فانس » في اجتماعات مؤتمر وزراء خارجية الدولة الإسلامية في جدة يومي 1992/12/2,1 م ، وكان له الأثر الأكبر في توجيه مسار المؤتمر وقراراته ، فقد تحدث أمام المؤتمر قائلا : « من ناحية : فإنه بالرغم من احترام شعور الدول الإسلامية بالاستياء والقلق من فرض حظر السلاح على البوسنة ، وبالرغم مما ألحقه قرار الحظر من أذى بالمسلمين في البوسنة ، إلا أن هذا القرار قد بني على مبدأ تبنته الأمم المتحدة في الصراعات الإقليمية . ومن ناحية أخرى : تمكنت الأمم المتحدة من منع قصف الطائرات الحربية الصربية للمسلمين . ومن ناحية ثالثة : سيؤدي إلغاء الحظر إلى إعطاء الموافقة لجميع المتحاربين لامتلاك أكبر كمية من الأسلحة لتصعيد الحرب والعنف ، مما يتعارض مع أهداف ومساعي الحل السياسي . ومن ناحية رابعة : ليست قلة السلاح وحدها سبب خسارة المسلمين في المعارك ، وإنما لأنهم يواجهون قوات كبيرة ومدربة . ومن ناحية خامسة : ما يجب عمله هو زيادة الجهود الهادفة إلى الحدِّ من القتال وتشديد الرقابة ، وإيصال المساعدات إلى مستحقيها . [2] » ...

وقد نجح « أوين » بالفعل في فرض أفكاره وتوجهاته على قرارات المؤتمر .. ومع أننا نقر بأن اللوم هنا يتجه أول ما يتجه إلى الوزراء المسلمين أنفسهم ؛ إلا أن الدفاع المستميت عن الصرب والكروات يميط اللثام عن حقيقة الرجل ونواياه .

والواقع أن الحديث عن تآمر اللورد « أوين » لم يقتصر على المسلمين وحدهم ، فقد تحدث كثير من مفكري الغرب أنفسهم عن هذا الأمر ، وعلى سبيل المثال ذهب « جيم هوجلاند » إلى القول بأنه « كان على « أوين » أن يستقيل بدلا من حفر مزيد من القبور لضحايا الحرب في البوسنة » [3] ، وقد وصف « جون سويني » في مقال بجريدة « الأوبزرفر » البريطانية اللورد « أوين » بأنه كان أداة لفرض الأمر الواقع بالقوة . [4] .. كما اتهم المعلق السياسي للتليفزيون الألماني كلا من « فانس » و « أوين » بالتواطؤ مع

---

(1) الأمة في عام ... ص 116 بتصرف يسير . (2) المرجع السابق ص 111 بتصرف يسير .
(3 - 4) البوسنة في صحافتنا ... ص 106 .

الصرب في ضرب المسلمين ومحاولة إفنائهم وإزالتهم من الخريطة الأوروبية [1] .

(د) **ثورفالد شتولتنبرج** : هذا هو الرجل الذي عينته الأمم المتحدة وسيطا لها في المأساة البوسنية خلفا لـ « يايروس فانس » ولقد كان تعيينه في هذا المنصب مأساة بحد ذاته ، فقد سبق له أن عمل في سفارة النرويج لدى بلجراد ثلاث سنوات ، كما أنه يجيد التحدث باللغة الصربوكرواتية ، ويحتفظ بعلاقات صداقة متينة مع قادة السفاحين الصرب وعلى رأسهم « سلوبودان ميلو سفيتش » رئيس صربيا ، وقام بعدة زيارات للصرب والتقى بأصدقائه هناك ..

فهل ينتظر من مثل هذا الرجل أن يكون نزيها ومحايدا ؟! لقد وجهت جماعات حقوق الإنسان في النرويج اتهامات وانتقادات حادة له لأنه لم يجاهر بإدانة العدوان الإجرامي الصربي مجاملة لأصدقائه الصربيين [2] .

وقد أفصح هذا الرجل عن حقيقة نواياه ومكنونات نفسه عندما سقطت مدينة « سربرينتسا » في أيدي الصرب خلال شهر يوليو 1995 م ، فرغم أن هذه المدينة تعد من المناطق الخاضعة لحماية الأمم المتحدة كإحدى المناطق الآمنة ، إلا أن شتولتنبرج لم تهتز له شعرة بعد سقوط المدينة وقيام الصرب بقتل وتهجير جميع سكانها ، ثم أعلن بعدها بكل وقاحة أنه لا ينبغي للمجتمع الدولي أن يتحدث عن طرد الصرب منها ، لأنه يجب التعامل مع الأمر الواقع الذي فرضه الصرب باحتلالهم المدينة .

وإذا أردت – أخي القارئ – تفسيرا أو تعليلا لموقف الرجل ، فإنه بنفسه قد تكفل بذلك حينما قال : « إن المسلمين والكروات هم في الحقيقة صربيون » .. ولا أجد تعليقا على هذا أفضل مما قاله « حارث سيلاجيتش » رئيس وزراء البوسنة آنذاك حينما علق على كلام « شتولتنبرج » قائلا : « إن الغرب يقدم البوسنة على طبق من فضة إلى وحوش هتلر وستالين ، لينام مرتاح الضمير ، وإن البوسنة تحولت إلى رمز لاستئصال العنصر الإسلامي من أوروبا » [3] .

والحقيقة أن هذا الرجل كان مجرد ظل لزميله « أوين » فأفكارهما واحدة ، وتصريحاتهما متطابقة ؛ مما يعني أنه لا أمل للمسلمين في المجموعة الأوروبية ولا في الأمم المتحدة .

* * *

(1) ينظر : ملف البوسنة ... ص 283 . (2) ينظر : المرجع السابق ص 283 .

(3) يراجع : الأهرام 30 / 7 / 1995 ص 4 .

هذه مواقف من أطلق عليهم « الوسطاء » في المأساة البوسنية ، تطفح بالتآمر والتواطؤ التام مع مجرمي الصرب ، في حرب الإبادة التي يشنونها على مسلمي البوسنة .. وأرى أن إطلاق وصف « الوسطاء » على هؤلاء يحمل شبهة التآمر والتواطؤ ؛ إذ أن « الوسيط » هو من يتدخل بين طرفين متخاصمين للإصلاح بينهما ، وفي المأساة البوسنية لا يوجد إلا مُعْتَدٍ أثيم وهو الجانب الصربي / الكرواتي ، وضحية مظلوم هو الجانب المسلم ، فلا مجال إذا للوساطة بين المعتدي وضحيته ، بل يجب نصر المظلوم وإيقاف الظالم عند حده .

هذا وقد شكلت كل من أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا ما يسمى بـ « مجموعة الاتصال الدولية حول البوسنة » في بداية الثلث الثاني من عام 1994 ، ولم تكن هذه المجموعة إلا شكلا جديدا من أشكال التآمر ضد مسلمي البوسنة والهرسك والتواطؤ التام في المجازر الدامية التي يتعرضون لها ..

فقد اتخذت المجموعة عدة مواقف تدل على ذلك دلالة واضحة :

* كانت المجموعة حريصة كل الحرص على استرضاء الصرب وتحقيق مطامعهم على حساب المسلمين ، وليس أدل على ذلك من الخطة « السلمية » التي قدمتها هذه المجموعة وتقضي بمنح المسلمين والكروات 51 % من أراضي البوسنة فقط بينما يحصل الصرب على 49 % أي أكثر مما منحته لهم خطة (فانس – أوين) بما نسبته 6 % ، مما يعني الخضوع التام للمعتدي ، والاعتراف بالأمر الواقع الناتج عن عدوانه .

* ورغم إجحاف هذه الخطة والظلم فيها ، إلا أن المسلمين – كالعادة – وافقوا عليها تحت ضغط عسكري مكثف من جانب الصرب والكروات ، وتخاذل تام في العالم الإسلامي [1] .. ولكن الصرب – كالعادة أيضا – رفضوا هذه الخطة وطالبوا دول المجموعة بالإقرار بحقهم في الاتحاد مع جمهورية صربيا مستقبلا .. وقد وافقت دول المجموعة على هذا المطلب خضوعا للصرب وتحقيقا لرغباتهم الشيطانية [2] .. ولكن الصرب – إمعانا في إذلال الدول الكبرى ، وإظهارًا لجريمة التواطؤ بين الجانبين – عادوا وطالبوا بالاعتراف أولا بجمهورية مستقلة لهم في البوسنة قبل الاتحاد مع صربيا [3] .

(1) الأهرام 8 / 6 / 1994 ص 1 .

(2) البوسنة : ضغوط لتعديل خطة التقسيم – عماد جاد – السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 ص .

(3) ينظر : المؤامرة ضد البوسنة : هل بدأ الفصل الأخير لإعلان صربيا الكبرى عامر سلطان – الأهرام 6 / 5 / 1994 ص 5 . مأساة البوسنة .. التخاذل الدولي يبلغ ذروته – عامر سلطان – الأهرام 5 / 8 / 1994 ص 5 . الأهرام 8 / 3 / 1994 ص 1 , 20 / 10 / 1994 ص 4 ، 6 / 12 / 1994 ص 4 ، المساء 7 / 12 / 1994 ص 2 .

* عرضت المجموعة على الرئيس الصربي صفقة هائلة تتمثل في رفع العقوبات الدولية المفروضة على بلاده ، مقابل الاعتراف رسميا بجمهورية البوسنة والهرسك بحدودها الدولية الحالية ، وتتمثل خطورة هذه الخطة في أن هذا الاعتراف لن يؤثر من قريب ولا من بعيد في إنهاء المجازر البشعة في البوسنة باعتراف قادة المجموعة أنفسهم .. وليس لهذا من دلالة سوى أن هذه الخطة ما هي إلا محاولة لرفع العقوبات عن صربيا - وهي أصلا عقوبات صورية يتم اختراقها بصفة يومية - دون مقابل .. ومع هذا فقد رفض « سلوبودان ميلوسيفيتش » هذه الخطة مطالبا برفع العقوبات أولا قبل التفكير في الاعتراف بالبوسنة والهرسك .

* وقفت مجموعة الاتصال التي تضم الدول الكبرى - عاجزة عن الحركة تجاه جريمة احتجاز الصرب لأكثر من 350 جنديا من جنود الأمم المتحدة كرهائن واستخدامهم كدروع بشرية ، ووضعهم مقيدين بالأغلال في مواقع عسكرية صربية لمنع طائرات الأطلنطي من قصفها .. وكان من المنتظر أن تواجه هذه الدول الكبرى هذه المهانة وهذا الإذلال بما يناسبه من قرارات رادعة - على غرار ما اتخذته من إجراءات ضد العراق حينما فعل شيئا مشابها لذلك إبان أزمة الخليج الثانية - ولكن الاجتماع الذي عقدته المجموعة في « لاهاى » في 1995/5/29 لم يجرؤ على إدانة هذه الأفعال الصربية ، وإنما اكتفى بإصدار قرار يدين العدوان على قوات الأمم المتحدة من جانب أي طرف من الأطراف .

إن هذا كله ليؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن المؤامرة على مسلمي البوسنة والهرسك مؤامرة متشعبة الأطراف : فطرف يتولى التنفيذ على الأرض ، وأطراف أخرى تتولى تقنين هذا التنفيذ في صورة قرارات دولية أو خطط توصف بأنها سلمية ، مع أنها ليس لها في السلام حظ ولا نصيب .

* * *

(5) تآمر حلف الأطلنطي وضرباته الصورية :

شن حلف شمال الأطلنطي عدة غارات على مواقع الصرب في البوسنة والهرسك ، وقد تصايح كثيرون لتلك الغارات ، وكثر الحديث عن الحسم الغربي في مواجهة العدوان الصربي ، وعن تحرك الشرعية الدولية لرد الأمور إلى نصابها ..

ولا شك أن الصياح لتلك الغارات - فيما أرى - إنما هو من فعل السذج البسطاء الذين

ظنوا أن الغرب سيقف بجوار المسلمين وسيدافع عنهم ، بينما الحقيقة أن هذه الغارات لم تكن إلا عملا مظهريا شكليا لا أثر له على الإطلاق ، وقد استفاد منه الصرب كثيرا ، حيث ظهروا في صورة المعتدى عليه الذي يواجه حلف الأطلنطي بكل قوته وجبروته ..

ومن خلال الاستعراض التالي للغارات سيتضح هذا الأمر جليا :

(أ) كانت الضربة الأولى في أبريل 1994 حيث قامت طائرتان أمريكيتان من طراز إف – 16 بشن غارة جوية على مواقع الصرب حول « جورازدي » المسلمة ، وقد أعلن وزير الدفاع الأمريكي أن الطائرتين قد قامتا بإلقاء ثلاثة قنابل تزن الواحدة منها 250 كيلو جراما من المواد المتفجرة ..

أما عن آثار تلك الغارة فلم تتعد تدمير عربتين مصفحتين ومركز للقيادة فقط ، رغم أن وسائل الإعلام أخذت تتحدث باستفاضة مشيدة بالهجوم ، ومستعرضة ردود الأفعال الناتجة عنه .. [1] .

وكان السبب المعلن وراء ذلك الهجوم هو صد العدوان الصربي الوحشي على « جورازدي » ، بينما أكد الأستاذ / عامر سلطان أن الهدف الحقيقي كان تحذير الصرب من التعرض للمراقبين الدوليين في المدينة بسوء ، واستشهد بالأثر المحدود للغارة – رغم استخدام قنابل ذات قدرة تدميرية كبيرة [2] ، كما استشهد أيضا بسقوط المدينة في أيدي الصرب فيما بعد دون أن يخسر الصرب شيئا ، اللهم إلا هاتين العربتين المدرعتين [3] .

أما عن المكاسب التي حصل عليها الصرب في أعقاب هذه الغارة ، فقد احتلوا مدينة « جورازدي » بعد سحق حاميتها المسلمة ، وقتل جنديين من القوات الدولية وإسقاط إحدى طائراتها ، واحتجاز 300 جندي كندي .. فعل الصرب هذا كله لإذلال القوات الدولية والحصول على تنازلات ضخمة من جانبها ، وقد كان .. حيث سارع مبعوث الأمم المتحدة « ياسوشي أكاشي » بالاعتذار للصرب ، وعرض عليهم منع طائرات حلف الأطلنطي من القيام بواجباتها في شرق البوسنة ، كما قدمت الولايات المتحدة هي

---

(1) السياسة الدولية : ع 117 يوليو 1994 – نشاط الأمم المتحدة ص 370 ، الأهرام ص 1 ، الأخبار ص 2 كلاهما في 12 / 4 / 1994 .

(2) محنة جورازدي : تراجع الغرب أمام تهديدات روسيا عامر سلطان الأهرام 23 / 4 / 1994 ص 5 .

(3) البوسنة 95 ، صراع مع العالم من أجل البقاء عامر سلطان الأهرام 30 / 12 / 1994 ص 4 .

الأخرى تنازلا للصرب حينما أعلنت استعدادها لرفع الحظر المفروض على صربيا [1] .

بعد هذا كله ، ألا يحق لكل ذي عقل وبصيرة أن يحكم على هذه الغارة بأنها إن لم تكن مؤامرة فلا أقل من أن تكون عملا شكليا استفاد منه المجرمون إلى أقصى الحدود .

(ب) في أغسطس 1994 كانت الغارة الثانية للأطلنطي ، بسبب قيام الصرب بسرقة بعض الأسلحة الثقيلة من إحدى نقاط التجميع التابعة لقوات الأمم المتحدة حول « سراييفو » ، وتشمل دبابة ، وناقلتين مدرعتين للجنود ، وأسلحة مضادة للطائرات [2] .

وأتعجب كيف تسرق هذه المعدات الثقيلة من مخازن تشرف عليها حراسة قوية تابعة للقوات الدولية !!!

فماذا فعل حلف الأطلنطي في مواجهة هذه الإهانة الصربية المتعمدة ؟! لقد كان من المنتظر – عند من يحسنون الظن بالغرب ويثقون في نواياه – أن يقوم الحلف بتوجيه ضربة تأديبية قوية ضد الذين اعتدوا على كرامة الأمم المتحدة والنظام الدولي الجديد ... وبالفعل تحرك حلف الأطلنطي – وليته ما تحرك – فعندما يعلن الحلف أن 16 طائرة مقاتلة شاركت في الغارة التي تم خلالها إسقاط 600 قذيفة نارية ، يتصور المرء أن المواقع الصربية المستهدفة قد دمرت تدميرا شاملا ، ولكن العجب العجاب ما أعلنته وزارة الدفاع الأمريكية من تدمير مدفع مضاد للدبابات من عيار 76 مليمتر أمريكي الصنع ، يرجع تاريخ تصنيعه إلى 40 عاما مضت [3] !! والموقف لا يحتاج إلى تعليق ..

(جـ) بعد غارة بسيطة لم يكشف عن تفاصيلها في سبتمبر 1994 ، كانت الغارة الكبرى في نوفمبر من العام نفسه حينما قصفت 39 طائرة أمريكية وبريطانية وهولندية مطار مدينة « أوبدينا » في منطقة « كراايينا » التي يحتلها الصرب في كرواتيا ، لأن هذا المطار تقلع منه الطائرات الصربية لقصف منطقة « بيهاتش » المسلمة شمال غرب البوسنة والهرسك .. [4] .

وقد استمرت طلعات طائرات الأطلنطي مدة 24 ساعة ، وساعد على كثرة الطلعات

---

(1) محنة جورازدي – مصدر سابق .

(2) السياسة الدولية : ع 118 أكتوبر 1994 – نشاط الأمم المتحدة ص 334 ، الأهرام 6 / 8 / 1994 ص 1 ، الأخبار 7 / 8 / 1994 ص 2 .

(3) الأخبار 7 / 8 / 1994 ص 2 .

(4) ينظر : البوسنة : ضغوط لتعديل خطة التقسيم – عماد جاد السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 ص 188 ، ع 120 أبريل 1995 شهريات ... (نوفمبر 1994) ص 314 ، الأهرام 22 / 11 / 1994 ص 1 , 4 .

أن القاعدة التي انطلقت منها الطائرات في إيطاليا تبعد عن مطار « أوبدينا » بمسافة لا تستغرق أكثر من 6 دقائق ، ماذا كانت حصيلة تلك الطلعات المكثفة ؟! .. في حين يتصور المرء أن غارة تقوم بها 39 طائرة وتستمر 24 ساعة يمكن أن تدمر المطار والطائرات الرابضة فيه بل ومدينة « أوبدينا » كلها ،إلا أن طائرات ذلك الحلف الجبار « فشلت » في إصابة أي طائرة صربية ، ولم تتسبب هذه الغارة « الهائلة » سوى في إحداث بعض الفجوات في مدرج المطار ، الأمر الذي أمكن إصلاحه على وجه السرعة ، ثم إعادة استخدام المطار لإقلاع الطائرات الصربية مرة أخرى بعد أيام معدودة .. وقد تصدرت أخبار هذه الغارة الصفحات الأولى للصحف حين تمت ، لكن أحدا لم يعرف ماذا فعلت [1] ..

(د) كما هاجمت طائرات الأطلنطي بعض مواقع الصرب يومي 1995/5/26,25 بسبب اعتداءاتهم المتكررة على القوات الدولية .. وقد انتقد « ألان جوبيه » رئيس الوزراء الفرنسي الجديد هذه الغارات ، مؤكدا أنه لم يتم الإعداد لها جيدا ، ولم تنفذ بدقة كاملة [2] .

بعد هذا الاستعراض يتبين أن غارات حلف الأطلنطي كانت مجرد ضربات صورية ، وأن الحلف كان مجرد شريك في المؤامرة المتعددة الأطراف ضد مسلمي البوسنة والهرسك .

* * *

(6) فضائح عمليات الإغاثة :

في مواجهة المجازر الصربية الكرواتية البشعة ، اكتفى العالم بإرسال بعض المعونات الغذائية محاولة لإرضاء الضمير ، أو من باب ذر الرماد في العيون .. فلقد وقف العالم كله مكتوف الأيدي وهو يشاهد المجرمين ينهبون قوافل الإغاثة أو يمنعون وصولها إلى مستحقيها ، وقد سبق أن بيّنّا كيف أن مجلس الأمن اكتفى بالشجب والإدانة في كل مرة حدث فيها ذلك ، وكيف أن الحل الوحيد الذي لجأت إليه الأمم المتحدة ومنظمات الإغاثة إزاء جرائم الصرب في نهب القوافل ومنع وصولها - تمثل في إيقاف عمليات الإغاثة وتعليق نشاطاتها ، دون مبالاة بوضع السكان الجوعى المحاصرين .

هذا وقد لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إسقاط المعونات الغذائية جوا

---

(1) فصل في سجل العار . فهمي هويدي . مصدر سق ذكره بتصرف .
(2) الأهرام 29 / 5 / 1994 ص 1 .

باستخدام الطائرات .. ولكن هل كانت هذه العملية ذات دوافع إنسانية محضة ؟! وهل حققت أهدافها ؟! .. الحقيقة أنها كانت ذات أبعاد سياسة واضحة ، تتلخص في إظهار أمريكا بالمظهر القيادي الفاعل ولكن دون تدخل عسكري [1] .. والدليل على ذلك أن هذه العملية لم تفلح في تحقيق أهدافها الإنسانية المعلنة ، بل كانت فضيحة أخلاقية بكل المقاييس ، لما يلي :

(أ) اعترف المسئولون الأمريكيون أنفسهم بأن المعونة لم تصل لمستحقيها [2] .. وهو تعبير دبلوماسي خبيث ، حيث إن الحقيقة التي اعترف بها الجنرال « راتكو ميلاديتش » قائد جيش الصرب أن المعونات قد تم إسقاطها في المواقع الصربية حول مدينة « سيرسكا » [3] !!!

(ب) أما عن حجم ومحتويات الصناديق التي تم إسقاطها على كل من « جورازدي » و « سربرنيتسا » فكان مهزلة بكل المقاييس ، فلقد أسقطت الطائرات 15 طنا لحوالي 70 ألف مواطن أي بمعدل 200 جرام فقط لكل شخص .. وكان من المتصور أن تحتوى الصناديق على المواد الضرورية للإبقاء على حياة السكان الجوعى المحاصرين منذ مدة طويلة ، ولكن العجب العجاب أن تحتوي على مواد مثل (اللبان وزبدة البندق والجاتوه) بالإضافة إلى كميات من الخضروات جاهزة التحضير والخبز الجاف .. [4]

(جـ) أما الجريمة الكبرى والمصيبة العظمى فقد تمثلت فيما كشفت عنه المصادر البوسنية من قيام الطائرات الأمريكية بإسقاط أطعمة فاسدة وأدوية فاسدة انتهت صلاحيتهما ، مما أدى إلى إصابة المسلمين المرضى والجرحى بمضاعفات خطيرة .. [5] .

بعد إيراد هذه الحقائق حول عمليات الإغاثة يتأكد لدى من ينظر إلى الأمور بدقة وموضوعية أنها لم تكن إلا خدعة كبرى ، حاول الغرب من خلالها الظهور بمظهر خادع براق يخفي حقيقة المؤامرة الدولية الشاملة ضد مسلمي البوسنة والهرسك .

* * *

---

(1) ينظر : الأمة فى عام ص 117 . أخيرا .. السماء تمطر إفطارا وسحورا في البوسنة – سليمان قناوي الأخبار 16/ 3/ 1993 ص 11 . ليس بالمساعدات الغذائية وحدها يحل العالم أزمة البوسنة – عطية عيسوي الأهرام 5 /3 / 1993 ص 5 .

(2) البوسنة في صحافتنا .. ص 23 .

(3) ينظر : ملف البوسنة ... ص 275 .

(4) ينظر : المرجع السابق ص 423 : 424 .

(5) ينظر : البوسنة في صحافتنا ص 132 هذا .. وكانت إذاعة « مونت كارلو » قد نقلت عن مراسلها في برلين يوم الأحد 28 / 2 / 1993 – أن الصحف الألمانية كشفت عدم صلاحية المعونات الغذائية التي أسقطتها الطائرات الأمريكية على البوسنة ؛ لأن هذه المعونات موجودة في مخازن القوات الأمريكية في قاعدة فرانكفورت منذ عام 1989 م . وقد حاول أحد قادة العملية الأمريكية تخفيف وطأة هذه الفضيحة قائلا : نعم إنها قديمة ولكنها صالحة من الوجهة الطبية البحتة .

(7) تآمر الدول الكبرى ولعبة تقسيم الأدوار فيما بينها :

شاركت جميع الدول الكبرى في المأساة البوسنية ، حيث تم تقسيم الأدوار فيما بينها ، بحيث تظهر بعض الدول بمظهر المؤيد للصرب ، وتظهر الأخرى بمظهر المتعاطف مع المسلمين ، ومن هنا تدار اللعبة بحيث يستبعد تماما العمل العسكري ضد الصرب ، أو رفع الحظر عن تسليح المسلمين ، بدعوى عدم اتفاق الآراء حول هاتين القضيتين .

ومن خلال الاستعراض التالي لمواقف بعض الدول الكبرى يتبين بوضوح مبدأ توزيع الأدوار بينها :

(أ) روسيا واليونان :

وقفت هاتان الدولتان منذ البداية إلى جانب الصرب ، بالدعم والتأييد المادي والمعنوي ، وقد تكفلت اليونان بالعمل لصالح الصرب داخل المجموعة الأوروبية وحلف الأطلنطي ، بينما تكفلت روسيا بذلك داخل مجلس الأمن ومجموعة الاتصال الخماسية .. وقد سبق أن أثبتنا أن التحالف بين كل من روسيا واليونان – بالإضافة إلى أوكرانيا ورومانيا وبلغاريا – وبين المجرمين الصرب يعود في الأساس إلى دوافع دينية بحتة ، حيث ينتمي الجميع إلى المذهب الأرثوذكسي . ومن هنا فلا عجب أن يقف الجميع في خندق واحد :

* فلقد دأب كبار المسئولين الروس على الحديث عن تحالفهم الديني التاريخي مع الصرب .. وقد سبق أن ذكرنا تصريحات وزير الخارجية الروسي « أندريه كوزيريف » عن إحياء التحالف الروسي الصربي الأرثوذكسي [1] ، كما عاد وكرر هذا الموقف في أكثر من مناسبة [2] ، وشاركه في ذلك وزير الدفاع « بافل جراتشيف » [3] .. وعلى الجانب اليوناني أعلن وزير الخارجية اليوناني أثناء زيارته لبلجراد في 15 / 2 / 1994 عن مساندة بلاده التامة للصرب [4] .

* ثم انتقل التأييد من مجرد الدعم اللفظي إلى الدعم الفعلي بالأسلحة والبترول

---

(1) ينظر : ملف « البوسنة » .. ص 208 . (2) الأهرام 8 / 7 / 1994 ص 4 .
(3) الجمهورية 30 / 7 / 1994 ص 2 وينظر : البوسنة والميراث الدامي : ص 40 : 41 ، البوسنة في صحافتنا ... ص 6 .
(4) الأهرام 25 / 2 / 1994 ص 5 .

والإمدادات الاقتصادية من جانب روسيا ، وباعتراف المصادر الرسمية الغربية ذاتها [1] ، وكذلك الدعم البشري عن طريق المتطوعين الروس والأوكرانيين في صفوف المجرمين الصرب [2] . وقد وقع بعضهم أسرى في أيدي المسلمين ، واعترفوا بوجود أعداد كبيرة منهم يشاركون في القتال إلى جانب المجرمين الصرب [3] .

* كما بذلت روسيا جهودا جبارة لمواجهة الأصوات المنادية برفع الحظر عن تسليح مسلمي البوسنة ، وأكد وزير الخارجية الروسي أن بلاده ستسحب قواتها المشاركة في قوات الأمم المتحدة في حالة رفع الحظر ، كما وصفه بأنه سيكون انتحارا [4] .

* أما المساهمة الكبرى فكانت في وقوف روسيا واليونان بكل قوة ضد الاقتراحات الخاصة بالتدخل العسكري ضد الصرب أو مجرد توجيه ضربات ضدهم .. ويتضح هذا جليا في موقف الدولتين من الإنذار الذي كان حلف الأطلنطي قد وجهه إلى الصرب في فبراير 1994 بسحب أسلحتهم الثقيلة حول سراييفو في غضون عشرة أيام وإلا تعرضوا لغارات جوية .. وهنا نهضت روسيا لتحذر من توجيه ضربات إلى الصرب ، وبعث وزير الخارجية رسالة إلى بطرس غالي تتضمن هذا المعنى ، كما هدد زعيم القوميين الروس « فلاديميرجير ينوفسكي » بأن أي اعتداء على الصرب سيكون بمثابة اعتداء مباشر على روسيا ، وأن الدول التي ستشارك في قصف الصرب ستكون عرضة لقصفها بالقنابل الروسية .. وقبل انتهاء المدة المحددة قامت روسيا بنشر 400 جندي من قواتها على تلال سراييفو لإبطال مفعول الإنذار ، بحجة أن طائرات الأطلنطي لن تجرؤ على القصف الذي سينال القوات الروسية .. وقد أذعن الأطلنطي لهذه الخطوة الروسية وأعلن عدم قصف الصرب بدعوى أنهم قد التزموا بسحب الأسلحة الثقيلة مع أن ذلك لم يحدث بتمامه ، ورحبت الدول الأخرى بقرار الأطلنطي وما أطلق عليه « المبادرة الروسية » ، مما يؤكد أن المسألة مجرد تقسيم للأدوار بين الدول الكبرى بهدف إطالة أمد المبادرات والاقتراحات المضادة لإتاحة الفرصة أمام الصرب لتحقيق أهدافهم .. [5] .

---

(1) ينظر : ملف البوسنة ... ص 215 . (2) ينظر : المرجع السابق ص 371 .

(3) ينظر : المرجع نفسه ص 237 .

(4) السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 – نشاط الأمم المتحدة ص 356 . والأخبار 3 / 10 / 1994 ص 2 .

(5) للوقوف على التفصيلات ، يراجع : أبعاد الصراع في البوسنة والهرسك – عماد جاد السياسة الدولية ع 113 يوليو 1993 ص 208 : 212 . البوسنة : من فرض التقسيم إلى تكريس الانفصال عماد جاد : السياسة الدولية : ع 115 – =

وكانت اليونان من جانبها قد أعلنت أنها لن تشارك في قصف الصرب ، ولن تسمح للحلف باستخدام قواعدها في القصف ، كما أنها ستسحب الأفراد اليونانيين العاملين على طائرات الإنذار المبكر التابعة للحلف والتي قد تستخدم في هذا القصف [1] .

وإذا كانت الدولتان قد وقفتا هذه الوقفة الحازمة ضد مجرد غارة يقوم بها الحلف الأطلسي ، فمن المنطقي أن تقفا موقفا أكثر حزما في مواجهة أي احتمال لتدخل عسكري مباشر من جانب أي طرف خارجي ضد الصرب ، وهذا ما فعلته روسيا حينما اتخذت قرارا باستخدام حق النقض « فيتو » في مجلس الأمن ضد أي مشروع لقرار بهذا الشأن [2] .

ومن باب تقسيم الأدوار ، دأبت الدول الغربية على التأكيد بأن أي تدخل عسكري ضد الصرب لابد أن يصدر عن مجلس الأمن ، كما أكد هذا أيضا الأمين العام للأمم المتحدة .. ومعنى هذا أنهم يرفضون التدخل العسكري في البوسنة ، ولكن خلف ستار الرفض الروسي لقرار من هذا القبيل في مجلس الأمن .

(ب) بريطانيا :

لعبت بريطانيا دورا غاية في الخطورة إزاء المأساة البوسنية الدامية .. فلقد انحازت إلى جانب الصرب انحيازا سافرا .. والحقيقة أن بريطانيا كانت دائما منحازة إلى الصرب منذ فترة طويلة ، وليس أدل على ذلك من الوصف الذي أطلقه رئيس الوزراء البريطاني القديم « لويد جورج » على الصرب بأنهم « حراس البوابة » الذين يدافعون عن الحضارة الغربية المسيحية في مواجهة زحف الحضارة الإسلامية [3] .. ولذا فلا عجب الآن أن تقف بريطانيا بكل ثقلها خلف الصرب ، **ومواقفها التالية دليل واضح على هذا :**

* فقد أعلنت منذ البداية أن جميع الأطراف تتحمل مسئولية اندلاع الحرب ووقوع المجازر ، وفي تأكيد ذلك يقول أحد كبار مسئولي وزارة الخارجية البريطانية : « تتلخص وجهة نظرنا في أنه في حين أن الصرب كانوا أكبر القوى المؤدية إلى عدم الاستقرار ،

= يناير 1994 ص 106 . الصراع في البوسنة : تجاوز حسابات الأطراف المباشرين – عماد جاد – السياسة الدولية : ع 116 أبريل 1994 ص 216 : 219 البوسنة ... بين مناورة الصرب ومبادرة روسيا – عامر سلطان – الأهرام 25 / 2 / 1994 ص 5 الإنذار والصفقة السرية – الأهرام 25 / 2 / 1994 ص 5 . الأخبار 10 / 2 / 1994 ص 2 ، 16 / 2 / 1994 ص 2 .

(1) ينظر : اليونان ترفض المشاركة في قصف الصرب – سامح عبد الله ، الأهرام 15 / 2 / 1994 ص 5 .

(2) ينظر : المراجع المذكورة في هامش رقم « 5 » من الصفحة السابقة .

(3) فصل في سجل العار مصدر سبق ذكره .

فإن أيدي أي من الأطراف الأخرى ليست نظيفة » [1] .

* عارضت بريطانيا على الدوام مسألة رفع الحظر عن تسليح مسلمي البوسنة ، ولوحت أكثر من مرة باستخدام حق « الفيتو » ضد أي مشروع قرار بهذا الشأن في مجلس الأمن .

* كما عارضت بكل ما تملك من قوة أي تحرك يهدف إلى التدخل العسكري ضد الصرب ، وحذرت من خطورة هذا المسلك ، وهددت مرارا بسحب قواتها العاملة في البوسنة في حالة التدخل العسكري أو رفع الحظر [2] .

* ولم تكتف بريطانيا بهذا كله ، بل قامت بتزويد الصرب بالسلاح والإمدادات الاقتصادية ، وهذا ما أكدته مصادر حكومة البوسنة [3] .

(جـ) فرنسا :

اعتمد الدور الفرنسي إزاء المأساة البوسنية أسلوب المراوغة والنفاق والازدواجية ؛ إذ كانت التصريحات تصدر في الصباح متعاطفة مع المسلمين ، ومطالبة بالتدخل العسكري ضد الصرب ، وفي المساء تبرز نبرة أخرى تهاجم التدخل العسكري وتندد بمحاولة الزج بفرنسا في خضم الحرب الدائرة في البوسنة :

* فقد تعهد الرئيس الفرنسي السابق « فرانسوا ميتران » أمام مجموعة الاتصال المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي ؛ بأنه سيطالب المجموعة الأوروبية برفع الحظر المفروض على بيع الأسلحة الدفاعية للحكومة الشرعية في البوسنة .. ولكنه سرعان ما تراجع وعدل عن موقفه وندد بمن وصفهم بـ « مثيري الحروب » الذين يطالبون فرنسا بالتدخل في البوسنة [4] .

* وفي أعقاب مقتل نائب رئيس وزراء البوسنة وهو في حماية القوات الفرنسية العاملة في إطار القوات الدولية في 8 / 1 / 1993 ، أعلن وزير الخارجية الفرنسي تكليف وزير الصحة والشئون الإنسانية بإعداد خطة لاقتحام معسكرات الاعتقال الصربية باستخدام القوة إذا لزم الأمر .. وهنا قامت الدنيا ولم تقعد ، إذ سرعان ما تراجع الوزير الفرنسي

---

(1) ملف البوسنة .. 96 بتصرف يسير .

(2) ينظر : البوسنة في صحافتنا : ص 7 , 37 , 52 ، ملف البوسنة : ص 215 , 432 ، 450 البوسنة والميراث الدامي ص 38 , 39 .

(3) ينظر : البوسنة في صحافتنا ... ص 132 .

(4) ينظر : البوسنة والميراث الدامي ص 40 ، البوسنة في صحافتنا ... ص 1 .

عن موقفه مؤكدا أن الاهتمام الرئيسي لفرنسا هو أن تحرز عملية المفاوضات في « جنيف » تقدما وأن تنجح إذا كان ذلك ممكنا .. وقد تعرض الوزير لانتقادات حادة من جانب وزير الدفاع الذي أعلن أن في سلوك وزير الخارجية تجاوزا لصلاحيات رئيس الجمهورية ووزير الدفاع - كما أعلن رئيس الوزراء الفرنسي أن على الجميع التزام التعقل وتجنب الاستخفاف بالحديث عن الحرب [1] .

* أما أكثر المواقف دلالة على الازدواجية والمراوغة والنفاق فكان - بلا شك - تلك الزيارة التي قام بها الرئيس الفرنسي السابق إلى سراييفو ، حيث أسهبت وسائل الإعلام العالمية - والإسلامية من بينها - في امتداح هذه الجرأة اللامتناهية والشجاعة المطلقة للرئيس الفرنسي ، الذي غامر بحياته وهبط في مطار سراييفو ، وتجول في شوارعها ، رغم ضراوة المعارك واشتداد حدة القتال ..

وفي خضم هذا الثناء الجارف تناسي الجميع أن هذه الزيارة كانت أساسا لخدمة مصالح الصرب وتمت بالترتيب التام معهم وتحت حمايتهم ، فقد كان هدف ميتران من هذه الزيارة التأكيد على أن مطار سراييفو مفتوح ويمكن استخدامه في عمليات الإغاثة ، دون الحاجة إلى عمل عسكري من جانب الأمم المتحدة لفتحه بالقوة ، كما أن الزيارة قد جرت في وقت كان المسلمون فيه على وشك تحرير المطار من قبضة الصرب ، ولكنهم اضطروا إلى التوقف حتى إتمام الزيارة ؛ مما أعطى الصرب فرصة لالتقاط الأنفاس .. كذلك لا يمكن إغفال الجانب التنصيري في هذه الزيارة المشبوهة حيث قصد ميتران إلى إبراز تعاطف النصارى الكاثوليك في فرنسا مع مسلمي البوسنة ، في الوقت الذي تخلى عنهم إخوانهم في العالم الإسلامي [2] .

(د) ألمانيا :

يذهب كثير من المحللين [3] إلى إدراج ألمانيا في قائمة المتعاطفين مع مسلمي البوسنة والهرسك ، بدعوى أن ألمانيا هي صاحبة الاتجاه الداعي إلى تفتيت يوغوسلافيا ، بدليل أنها سارعت بالاعتراف بكل من كرواتيا وسلوفينيا قبل بقية دول المجموعة الأوروبية التي

---

(1) ينظر : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 95 .

(2) ينظر : الصربيون .. خنازير أوروبا ... ص 156 , 157 ، البوسنة والميراث الدامي ص 38 .

(3) يراجع على سبيل المثال : استغلال العرقية في يوغوسلافيا - سمير أمين - السياسة الدولية : ع 113 - يوليو 1993 ص 203 , 204 ، البوسنة والميراث الدامي ص 37 , 38 .

اضطرت في النهاية إلى مجاراة السلوك الألماني ، بالإضافة إلى الرغبة الألمانية في تعظيم نفوذها في شرق وجنوب أوروبا وتحويل المنطقة إلى ما يشبه أمريكا اللاتينية التابعة لها ..

ولكن التأييد الألماني القوي لاستقلال كرواتيا - فيما أرى - لا يعني بالضرورة أن يتواصل التأييد الألماني لاستقلال جمهوريات الاتحاد اليوغوسلافي السابق بنفس القوة والفعالية .. بل على العكس فإن التعاطف الألماني الظاهري مع مسلمي البوسنة لا يعدو أن يكون مجرد تقسيم للأدوار بين القوى الكبرى ، والدليل على ذلك ما صرح به المستشار الألماني « هيلموت كول » من معارضة ألمانيا للتدخل العسكري ضد الصرب في البوسنة [1] .. يضاف إلى هذا أن ألمانيا عضو في مجموعة الاتصال الدولية الخماسية ، وقد سبق بيان دور هذه المجموعة في تحقيق مطامع الصرب والانصياع التام لمطالبهم والضغط على المسلمين للقبول بها .

(هـ) الولايات المتحدة الأمريكية :

يعد الدور الأمريكي تجاه المأساة البوسنية أكثر الأدوار الدولية تآمرية وخطورة ، فالمواقف التي انتهجتها الولايات المتحدة إزاء هذه المأساة من أقوى الدلائل على قضية تآمر الدول الكبرى وتقسيم الأدوار فيما بينها .. ومن العجيب أن التصريحات الصادرة عن كبار المسئولين الأمريكيين قد خدعت الكثير في العالم الإسلامي ، بحيث أصبح الأمريكيون في نظرهم طوق النجاة وسفينة الإنقاذ لمسلمي البوسنة ، وبات من المؤكد لديهم أن الولايات المتحدة تريد التدخل العسكري ضد الصرب لولا أن الأوروبيين هم الذين يقفون في طريقها ويعترضون سبيلها ...

لذا سأذكر فيما يلي بعض نماذج لتصريحات ومواقف المسئولين الأمريكيين تؤكد بوضوح أن التصريحات والمواقف المتعاطفة مع مسلمي البوسنة والهرسك لم تكن إلا مجرد تقسيم للأدوار ، ومجرد جزء من المخطط التآمري الدولي ضد المسلمين ، في هذه البقعة من القارة الأوروبية :

أولا : في عهد الرئيس « جورج بوش » : (1) رفضت الحكومة الأمريكية أي إجراء يؤدي إلى إشعار المسئولين الصرب بعدم الرضا عن سياساتهم المعتمدة على العنف وإباحة دماء الآخرين [2] .

---

(1) الأخبار ص 2 .

(2) الصربيون ... ص 153 .

(2) شكك الرئيس الأمريكي في المعلومات التي تحدثت عن الفظائع والمجازر الصربية للمسلمين في معسكرات الاعتقال والتعذيب ، وقال : « يجب على العالم ألا يصب جام غضبه وإرهابه على مجرد تصور عقلي لمعسكرات الاعتقال وما يثيره في الذهن من مشاهد وارتباطات »[1] .. مع أن التقارير الرسمية للأمم المتحدة – بل والولايات المتحدة نفسها – أكدت أن ما يحدث من فظائع في معسكرات الاعتقال كان حقيقة واقعة وليس مجرد تصور عقلي كما يقول بوش .

(3) وحينما تأكد لدى العالم كله ارتكاب الصرب لجميع الجرائم في البوسنة اكتفت الحكومة الأمريكية بالتعبير عن شعورها بالصدمة ، ورفضت رفضا قاطعا التدخل لحماية المسلمين ، بحجة أن الاستراتيجية الأمريكية تضع في اعتبارها مدى تهديد أحداث البوسنة والهرسك للأمن القومي الأمريكي ..[2] .

(4) اعتمدت الإدارة الأمريكية أسلوب الازدواجية والمراوغة ، بإصدار تصريحات رنانة ضد الصرب ثم إتباعها بتصريحات أخرى للضغط على المسلمين بهدف القبول بالمبادرات الرامية إلى تقسيم البوسنة بشكل يحقق مطامع المجرمين الصرب .. ففي الوقت الذي أعلن فيه المتحدث باسم الخارجية الأمريكية أن بلاده ستعارض أي حل سياسي للأزمة يكافئ صرب البوسنة على عدوانهم أو يقسم الدولة إلى مناطق عرقية ، كانت الحكومة الأمريكية تطلب من القيادة البوسنية أن تبذل جهدا كبيرا للتوصل إلى تسوية تفاوضية ، أي الموافقة على خطة « فانس – أوين » القائمة أصلا على مكافأة المعتدي الصربي بتقسيم البوسنة على هواه تقسيما عرقيا[3] .

(5) وحينما وجه « بوش » تحذيرا للصرب إذا حاولوا توسيع نطاق الحرب ومدها إلى إقليم « كوسوفو » ، تم تفسيره على أنه تغيير جوهري في الموقف الأمريكي باتجاه أكثر حسما .. ولكن الحقيقة التي غابت عن الأذهان أن هذا التصريح قد أوحى للصرب بأنه لا مانع من توسيع نطاق مجازرهم في البوسنة والهرسك[4] .

ثانيا : في عهد الرئيس « بيل كلينتون » : في خضم الحملة الانتخابية شن « كلينتون » هجوما حادا على سياسة الولايات المتحدة تجاه البوسنة ، ووصفها بالتخاذل والتردد

---

(1) ملف البوسنة ... ص 96 .   (2) ينظر : الصربيون ... ص 153 , 154 .

(3) ينظر : البوسنة والميراث الدامي ص 42 ، البوسنة في صحافتنا ... ص 1 , 2 .

(4) ينظر : البوسنة والميراث الدامي ص 42 .

والجبن ، وتعهد في حالة فوزه بالرئاسة أن يحدث تغييرا جوهريا في سياسة أمريكا إزاء قضية البوسنة .. وكالعادة أحدثت هذه التصريحات النارية رد فعل متفائلا لدى السذج والبسطاء في عالمنا الإسلامي .. ولكن سرعان ما تبين للجميع أنها لم تتجاوز كونها مجرد استغلال بشع لمأساة دامية في تحقيق مآرب سياسية دنيئة ..

وهذه عينة من المواقف الأمريكية تحت إدارة كلينتون :

(1) في البداية أعلن « ليس أسبن » وزير الدفاع السابق أنه « إذا لم يفعل العالم شيئا تجاه ما يحدث في البوسنة فإن ذلك قد يغري بتكرار هذه الأحداث في مناطق أخرى كالاتحاد السوفييتي سابقا . وأضاف : إن المصلحة الأمريكية مهددة بالخطر في البوسنة أكثر من التهديدات التي تتعرض لها في الصومال . » [1] .. وهنا توقع البعض من ذوي السذاجة والبساطة أن التدخل العسكري الأمريكي في البوسنة بات وشيك الحدوث ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الوهم حينما أعلن « كلينتون » أن إرسال قوات أمريكية برية إلى البلقان أمر مستبعد .. ثم قال : لا يوجد في العالم رئيس يمكن أن يزج بجيش بلاده في حرب لا تؤثر على مصالح بلاده مباشرة [2] .

(2) كان التلويح المستمر من جانب الولايات المتحدةبالتدخل العسكري في البوسنة سلاحا يستخدم بمهارة فائقة للضغط على المسلمين بهدف قبول خطط التقسيم العرقي : فقد أعلن المتحدث باسم الخارجية الأمريكية أن بلاده مستعدة للقيام بعمل عسكري منفرد لوقف عمليات القتال بالبوسنة ، وأنه من المحتمل أن تتم الهجمات على مواقع القوات الصربية خلال أيام قليلة وليس أسابيع أو شهورا .. وبعدها بخمسة أيام فقط أعلن البيت الأبيض أن أمريكا طلبت من حكومة البوسنة استئناف مفاوضات جنيف ، وهددت بتأجيل الضربات الجوية إذا رفض المسلمون مواصلة المحادثات [3] .

(3) ومما يؤكد قضية تقسيم الأدوار بين الدول الكبرى ، أن الولايات المتحدة قد دأبت على تأكيد أنها تسعى جاهدة إما لتدخل عسكري ، أو لرفع الحظر عن تصدير السلاح إلى المسلمين ، وأن الدول الأوروبية هي التي تقف حجر عثرة في سبيل إتمام أي من هذين الأمرين ، وقد بالغت أمريكا في التعبير عن شعورها بالغضب والإحباط من جراء هذا الموقف الأوروبي ، ووصفته بأنه يتيح للصرب القيام بمزيد من عمليات إراقة

(1) المرجع السابق ص 42 .   (2) ينظر : المرجع نفسه ص 43 , 44 .

(3) ينظر : البوسنة في صحافتنا ... ص 99 ، البوسنة والميراث الدامي ص 57 , 58 .

الدماء ، ومزيد من الإبادة الجماعية لمسلمي البوسنة ، واحتلال المزيد من أراضيهم .. [1] .

والحقيقة أن الولايات المتحدة لن تتدخل عسكريا في البوسنة منفردة أو في إطار عمل عسكري جماعي ، وقد جاء تأكيد ذلك على لسان الرئيس الأمريكي نفسه حينما قال « من المؤكد أننا لن نتدخل في النزاع – سواء وحدنا أو مع سوانا – إلى جانب هؤلاء أو أولئك من المقاتلين » [2] .. ومن هنا فإن الحديث المتكرر من جانب الأمريكيين عن عدم القيام بعمل عسكري منفرد إنما هو من قبيل توزيع الأدوار لا أكثر ولا أقل .

(4) وفي هذا المضمار أيضا تحدثت وسائل الإعلام العالمية عن وجود شروخ كبيرة في جدار العلاقات الأمريكية / البريطانية ، بسبب الخلافات الناشبة بينهما حول قضايا رفع الحظر عن تسليح مسلمي البوسنة ، والتدخل العسكري ضد الصرب ، والضربات الجوية ضد المواقع الصربية ، وكثر الحديث عن خطاب وجهه « جون ميجور » رئيس الوزراء البريطاني إلى الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » يحذره من التأييد الأمريكي لهذه القضايا ..

وقد نفت مصادر الحكومة البريطانية وجود خلاف بين الجانبين ، وأكدت أن موقفيهما تجاه أزمة البوسنة متقارب إلى حد كبير [3] .

(5) وقد وقفت الحكومة الأمريكية موقفا مخزيا تجاه المدن المسلمة المحاصرة ، حيث رفضت اقتراحا فرنسيا بإرسال قوات أمريكية للاشتراك في عمليتين عسكريتين لتخفيف الضغط الذي يتعرض له عدد من المدن المسلمة المحاصرة .. [4] ورغم اعتراف وزير الدفاع الأمريكي بتعرض مدن : « جورازدي ، وبيهاتش ، وبريادور » ، لهجوم وحشي من قبل الصرب إلا أنه أكد أن أمريكا لن تتدخل لإنقاذ هذه المدن من الوقوع في براثن المجرمين الصرب [5] .

(6) ورويدا رويدا بدأ الدور الأمريكي يظهر على حقيقته بتأييد تقسيم البوسنة وتقطيع أوصالها . وقد كانت نقطة البداية متمثلة في تأييد خطة تقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات عرقية مع توجيه اللوم إلى الأمم المتحدة ، فقد أعلن كلينتون أنه رغم موافقته على تقسيم البوسنة فقد كان يفضل دولة واحدة متعددة الأصول العرقية ، وألقى

---

(1) ينظر : ملف البوسنة ... ص 447 , 448 .

(2) ينظر : المرجع السابق ص 495 ... هذا وقد استخدم « كلينتون » حقه الرئاسي في نقض قرار للكونجرس الأمريكي يقضي برفع الحظر عن تسليح البوسنة والهرسك ، ينظر السياسة الدولية – ع أكتوبر 1995 ص 277 ، الأهرام 12 / 8 / 1995 ص 1 .

(3) ينظر : البوسنة في صحافتنا .. ص 7 . (4) الأهرام 8 / 1 / 1994 ص 4 . (5) الأهرام 4 / 4 / 1994 ص 4 .

بمسئولية ذلك على الأمم المتحدة التي فرضت حظر السلاح على المسلمين ، بينما الصرب والكروات ينالون ما يحتاجون ، واعترف بأن التقسيم مكافأة للمعتدي الصربي .. [1] وهو الذي كان يؤكد سابقا رفض أمريكا لأي خطة تؤدي إلى مكافأة المعتدي على عدوانه أو تقسيم البلاد تقسيما عرقيا .

(7) ثم وضعت الولايات المتحدة خطة السلام التي منحت الصرب وحدهم 49% من أراضي البوسنة والهرسك مقابل 51 % لكل من المسلمين والكروات .. ومارست أمريكا ضغوطا هائلة على المسلمين للموافقة على هذه الخطة المجحفة التي أعلنت مجموعة الاتصال الدولية أنها نهائية وغير قابلة للتعديل .

(8) وبعد رفض الصرب لهذه الخطة كان من المنتظر أن تقف الولايات المتحدة ضدهم موقفا حازما بناء على تصريحات قادتها بمعاقبة الطرف الرافض للخطة ، ولكن الحكومة الأمريكية بعد عقد اجتماعين لمجلس الأمن القومي الأمريكي برئاسة « كلينتون » تجاوبت مع مطالب المجرمين الصرب فيما يتعلق باتحادهم فيدراليا مع جمهورية صربيا ومنحهم الأراضي اللازمة لربط المناطق التي احتلوها في البوسنة بكل من جمهورية صربيا والمناطق التي احتلها إخوانهم المجرمون في إقليم كرايينا الكرواتي .. [2] .

(9) ثم عاد الصرب للمطالبة بالاعتراف بدولتهم المستقلة في البوسنة قبل اتحادهم مع صربيا كشرط مسبق للدخول في أية مفاوضات .. فما كان من الولايات المتحدة إلا الإذعان لهذه المطالب بدعوى أن الصرب لن يغيروا موقفهم ولن يتزحزحوا عنه ، ومارست ضغوطها المكثفة مرة أخرى على المسلمين للقبول بتعديل خطة التقسيم لمصلحة الصرب ، واجتمع مندوب أمريكا في مجموعة الاتصال « تشارلز ريدمان » مع زعيمي الصرب في كل من البوسنة وكرواتيا بحضور « سلوبودان ميلو سيفيتش » رئيس صربيا ، واستجاب المندوب الأمريكي لجميع مطالب الصرب لدرجة أن زعيم الصرب في البوسنة أشار في نهاية الاجتماع إلى أن الموقف الأمريكي يقترب من موقف الصرب [3] .

---

(1) ينظر : البوسنة والميراث الدامي ص 56 ، البوسنة في صحافتنا ... ص 73 .

(2) ينظر : البوسنة .. ضغوط لتعديل خطة التقسيم – عماد جاد – السياسة الدولية : ع 119 يناير 1995 ص 189 ، الأخبار 30 / 11 / 1994 ص 2 .

(3) يراجع : المرجع السابق ص 189 : 190 . الانقلاب الدبلوماسي الأمريكي ودعم العدوان على البوسنة – عامر سلطان – الأهرام 9 / 12 / 1994 ص 5 . البوسنة .. بين أطماع الصرب وتردد الدول الكبرى – عطية عيسوي – الأهرام 27 / 1 / 1995 ص 5 . البوسنة ... ولعبة المؤتمرات الدولية – عامر سلطان 17 / 2 / 1995 ص 5 .

(10) يبرر وزير الدفاع الأمريكي « وليام بيري » خضوع أمريكا ورضوخها لمطالب الصرب ؛ بأن الصرب قد كسبوا الحرب فعليا وأظهروا تفوقا عسكريا وفرضوا أمرا واقعا لا يمكن إنكاره ، ولن تتدخل الولايات المتحدة بقوات برية وليس لها نية المشاركة في أي عمل عسكري ضد الصرب ، أما إرسال السفن الأمريكية إلى البحر الأدرياتيكي فله علاقة بعمليات الإغاثة فقط [1] .

(11) لم تنس الولايات المتحدة - في خضم تنازلاتها المتعددة للصرب - أن تقوم ببعض التحركات الشكلية التي في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب .. فقد أصدر الرئيس الأمريكي تعليماته إلى القوات الأمريكية بالتوقف عن المشاركة في إقرار حظر تصدير الأسلحة إلى البوسنة اعتبارا من 12 نوفمبر 1994 ، وقد حاولت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا تصوير هذا القرار على أنه خرق للشرعية الدولية وانتهاك لقرارات الأمم المتحدة ، مما سيكون له أوخم العواقب على قضية البوسنة .. كما حظى هذا القرار بحفاوة بالغة من جانب الدول الإسلامية !!! ومن المؤسف حقا أن يتزايد الاهتمام بهذه الخطوة رغم أنها - باعتراف وزير الخارجية الأمريكي - عديمة الجدوى ، وأن هذا القرار لا يعني تأييد واشنطن تزويد حكومة البوسنة بالأسلحة ، بل ستظل أمريكا ملتزمة بحظر تزويد جمهوريات يوغوسلافيا السابقة بالأسلحة ، كما اعترف « كريستوفر » أيضا أن هذا القرار لن يكون له تأثير كبير لأن أطرافا أخرى تنفذ حظر السلاح [2] .

ومع هذا الاعتراف الصريح ظلت الدول الكبرى الأخرى على نهجها في تضخيم هذا الحدث وإعطائه حجما لا يستحقه ، في محاولة للإيحاء بأن هناك خلافات حادة بين القوى الكبرى تجاه قضية البوسنة ، مع أن الأمر - كما هو واضح - لا يتجاوز مجرد عملية لتقسيم الأدوار في مؤامرة دولية لا نظير لها .

هذه بعض دلائل التآمر الأمريكي ضد مسلمي البوسنة والهرسك .. والواقع أن انتقاد الموقف الأمريكي ووصفه بالتآمر ضد المسلمين ليس مجرد استنتاج من المواقف المذكورة آنفا ، وإنما هي حقيقة نطقت بها ألسنة بعض مسئولي وزراة الخارجية الأمريكية الذين تقدموا باستقالاتهم - بطريقة فردية حينا أو جماعية في أحيان كثيرة - اعتراضا على

---

(1) البوسنة .. ضغوط لتعديل خطة التقسيم مصدر سابق ص 188 ، الأخبار 3 / 11 / 1994 ص 2 .

(2) يراجع البوسنة .. ضغوط لتعديل خطة التقسيم - مصدر سبق ذكره ص 188 ، وينظر في المصدر نفسه ص 158، صخب عربي وعدوان صربي ضد البوسنة - عامر سلطان - الأهرام 18 / 11 / 1994 ص 421 .

سياسة بلادهم تجاه الأزمة البوسنية التي وصفوها بالتحيز التام للمجرمين الصرب – وهم الطرف المعتدي – على حساب المسلمين وهم الضحية ..

* * *

وبعد هذا العرض الموجز لمواقف الدول الكبرى فإنه لم يبق للشك مكان في قضية تآمر هذه الدول ضد مسلمي البوسنة والهرسك ، وقيامها بتقسيم الأدوار فيما بينها ، بغية الوصول للهدف النهائي ، وهو القضاء على المسلمين ، وتمكين الصرب من تحقيق حلمهم القديم في تكوين صربيا الكبرى ، والكروات من تحقيق هدفهم بإنشاء كرواتيا الكبرى .

ومن أكثر الوسائل الغربية خطورة لتحقيق هذه الأهداف : قيام تلك الدول بمساعدة الصرب والكروات في تهجير المسلمين وطردهم من ديارهم ، من خلال إجبارهم على توقيع وثيقة بعدم العودة إلى البوسنة خلال سبع سنوات وبالتنازل عن جميع ممتلكاتهم وأراضيهم ، كل ذلك في مقابل الخروج من بلادهم سالمين [1] .. وقد غض الإعلام الغربي الصليبي الطرف عن هذه الجرائم البشعة .

من هنا حق لرئيس جمعية الشعوب المهددة بالانقراض « تيلمان شولتز .. أن يوجه الاتهام إلى الغرب بالتواطؤ مع الصرب لمحو الهوية الإسلامية من أوروبا » [2] .. وحق لرئيسة الوزراء البريطانية السابقة « مارجريت تاتشر » أن تصف التقصير الغربي في منع الصرب من مهاجمة المسلمين بأنه يشبه المشاركة في المذبحة [3] .. كما وصفت عجز أوروبا وحلف الأطلنطي ومجلس الأمن عن وضع حد لمآسي شعب البوسنة بأنه إهانة للحضارة .. [4] .

* * *

(8) اتفاق « دايتون » .. مؤامرة خفية لتقسيم البوسنة والهرسك :

ألقت الولايات المتحدة بكامل ثقلها ، ومارست جميع أنواع الضغوط على المسلمين لوقف إطلاق النار والدخول في مفاوضات مكثفة مع الصرب والكروات ، وتواصلت المفاوضات في إحدى القواعد الجوية بمدينة « دايتون » التابعة لولاية « أوهايو »

---

(1) ينظر : البوسنة في صحافتنا ... ص 130 .
(2) الأهرام 29 / 1 / 1995 ص 2 .
(3) ينظر : البوسنة في صحافتنا ... ص 41 .
(4) ينظر : المرجع نفسه ص 16 .

الأمريكية ، وأسفرت في النهاية عن اتفاق للسلام في 21/ 11/ 1995 م تم التوقيع عليه في باريس في 14/ 12/ 1995 .. [1] .

ولقد أشاد الكثيرون بهذا الاتفاق ، وأثنوا على الجهود الأمريكية التي أدت إلى التوصل إليه .. ولكني أعتقد اعتقادا جازما أن اتفاق « دايتون » ما هو إلا مؤامرة خفية لتقسيم البوسنة والهرسك بين كل من صربيا وكرواتيا ، ونسخة معدَّلة من خطة « فانس – أوين » وخطة « مجموعة الاتصال الدولية الخماسية » .. **وذلك يرجع إلى الواقع والأدلة الآتية :**

(1) جاء وقف إطلاق النار وتثبيت مواقع الأطراف المتقاتلة في الوقت الذي كانت فيه قوات المسلمين تحقق تقدما كبيرا وتكسب أرضا جديدة من الصرب ، خصوصا على الجبهة الشمالية الغربية .. والثابت أن القوات المسلمة كانت على بعد يومين فقط من مدينة « بانيالوكا » معقل القوات الصربية ، وأن سقوط تلك المدينة بأيدي المسلمين كان كفيلا بقلب موازين الصراع وخرائطه ، وهو أمر لا ترتضيه أمريكا ولا الدول الكبرى ولا الحلف الأطلنطي ، ومن هنا كانت المبادرة بوقف إطلاق النار وقطع الطريق على المسلمين .

وقد أكد العقيد « قادر » نائب رئيس الفيلق الثالث في الجيش البوسني ، والعقيد « عصمت هادجيتش » قائد المقاومة في شمال سراييفو ، أن تقديرات الحكومة البوسنية كانت تهدف إلى تحرير كامل أراضي البوسنة مع نهاية عام 1995 م ، وأن ما تحقق على الجبهة الشمالية الغربية يؤكد ذلك ، وأنه ليس سرا تعزيز قدرات الجيش البوسني مع بدايات عام 1995 م [70 % من السلاح تم الاستيلاء عليه من الصرب] ، وأن المعنويات العالية التي تمتع بها أفراد الجيش كانت إعلانا بانتهاء الهيمنة الصربية .

كل هذه المؤشرات رصدتها قيادة حلف الأطلنطي ، التي أقضَّ مضاجعها انتقال المسلمين من الدفاع إلى الهجوم ، فتدخلت أمريكا بسرعة حتى لا يخسر الصرب كل شيء أمام المسلمين بعد ما خسروا أرضهم التي استولوا عليها من الكروات [2] .. **هذا فيما يتعلق بتوقيت الاتفاق .**

(2) أما فيما يتعلق بالمضمون ، فإن الاتفاق قد أعطى الصرب والكروات فرصة سانحة

---

(1) يراجع : السياسة الدولية . ع 123 [يناير 1996] نشاط الأمم المتحدة ص 370 ، 371 ، الأهرام 15/ 12/ 1995 ص 1 .
(2) يراجع : سراييفو بعد الاتفاق – فهمي هويدي الأهرام 12 / 12 / 1995 م ص 11 .

لتنفيذ مخططاتهم القديمة ولكن بشكل مختلف :

«أ» **فعلى الجانب الصربي** : رغم أن الاتفاق اعترف بالبوسنة والهرسك كجمهورية موحدة ذات سيادة ، ولها حدودها الدولية المعترف بها ، ورغم توقيع الصرب على نصٍّ دستوري بعدم الانفصال عن البوسنة الموحدة ... رغم هذا كله ، فإن الاتفاق قسَّم البوسنة والهرسك إلى كيانين منفصلين : أحدهما للصرب ويشكل 49 % من أراضي البوسنة والهرسك ، والآخر للاتحاد الفيدرالي بين المسلمين والكروات 51 % .. ولكل كيان حكومته وبرلمانه وجيشه وشرطته المستقلة .. مما يعني عمليا انفصال الجزء الصربي واستقلاله عن الدولة الفيدرالية .. وبالفعل فإن الصرب في عاصمتهم الاقتصادية « بانيالوكا » يمارسون جميع مظاهر السيادة والاستقلال ، بداية من رفع علم قومي ، والحصول على تأشيرة لدخول الأراضي التي يسيطر عليها الصرب وغيرها من مظاهر سيادة الدولة المستقلة .. ومن الملفت للنظر أن المنظمات الدولية وقوة حلف الأطلنطي المكلفة بتنفيذ اتفاق السلام والمعروفة باسم « آيفور » تتعامل مع هذا الوضع كأمر واقع بدعوى الخشية من استفزاز الصرب ، وذلك في الوقت الذي يرفض فيه قادة صرب البوسنة السماح للاجئين المسلمين بالعودة إلى ديارهم التي طردوا منها بحجة أنهم ليسوا مواطنين صربيين .

فهل هناك معنى لكل ما تقدم سوى أن الكيان الصربي منفصل واقعيا عن الدولة البوسنية وإن كان خاضعا لها نظريا بمقتضى أوراق اتفاق « دايتون » ؟!!

«ب» **وعلى الجانب الكرواتي** : ينص الاتفاق على أن 51 % من أراضي البوسنة يخضع لسلطة الاتحاد الفيدرالي المسلم – الكرواتي دون تحديد أو تقسيم للأراضي داخل هذا الاتحاد .. وقد استغل الكروات ذلك وهم الآن يستولون على أكثر من نصف الأراضي المخصصة للاتحاد رغم أن المسلمين يشكلون الأغلبية الساحقة فيه .. بالإضافة إلى أن الكروات يتمسكون بما يسمونه أحقيتهم في السيطرة على السلطة في المناطق ذات الأغلبية الكرواتية ، ويرفضون في الوقت ذاته أن يمارس المسلمون نفس الحق في مناطق الأغلبية المسلمة .. فضلا عن ذلك يصر الكروات على استخدام عملة دولتهم الأم كرواتيا (كونا) في أراضيهم ، ويرفضون بإصرار تنفيذ أحد بنود اتفاق « دايتون » القاضي بإدماج جيشهم في الجيش البوسني .

أما أكثر المواقف الكرواتية دلالة على الانفصال ، فتمثل في اشتراك كروات البوسنة

في عملية الانتخابات الكرواتية التي جرت في نهاية أكتوبر 1995 ، الأمر الذي اعتبرته حكومة البوسنة مقدمة تمهيديه لضم المناطق الكرواتية في البوسنة إلى كرواتيا .. ومما ضاعف من شكوك الحكومة البوسنية ؛ أن كرواتيا رفضت طلبا بوسنيا بتسليم المنشق « فكرت عبديتش » ليحاكم قضائيا في المحكمة العليا ، ولم تكتف كرواتيا بذلك ، بل وقعت اتفاقا مع « عبديتش » ينص على تشكيل إقليم في مقاطعة « بهاتش » يكون مقره في « فيليكا كلادوتشا » يتولى المنشق المذكور رئاسته ، كما وافقت كرواتيا على منح جنسيتها لمن يريد من مسلمي « بيهاتش » التابعين لـ « عبديتش » [25 ألف نسمة] [1] .

أفبعد هذا كله يبقى للشك مجال ؟! .. الحقيقة أن الصرب سينضمُّون يومًا إلى دولتهم الأم (صربيا) وأن الكروات سيسلكون المسلك ذاته بانضمامهم إلى كرواتيا .. وسيبقى المسلمون بين فكي الكماشة تحت رحمة الفريقين .. هذا إن كان في قلوب أيٍّ منهما ذرة رحمة ..

(3) أين العدالة في منح الصرب – وهم لا يمثلون أكثر من 31 % من سكان البوسنة – نسبة 49% من أراضي الجمهورية .. ألا يعدُّ هذا اعترافا من النظام الدولي الجديد ، وتقنينا لمنجزات العدوان ومكاسبه ؟! ألايتناقض هذا مع ما يدعيه أقطاب النظام الدولي الجديد من الوقوف في وجه العدوان أيا كان مصدره ، وعدم الاعتراف بضم أراضي الغير عن طريق القوة ؟! .. تبًّا لهذه الشعارات الجوفاء ولأصحابها ومروجيها ..

* * *

(9) الأيدي اليهودية الخفية في المأساة البوسنية :

كلما نصبت للمسلمين المجازر الدموية في أية بقعة من العالم لابد من البحث عن الأيدي اليهودية الخفية التي تخطط وتساهم خلف الأستار الكثيفة في هذه المجازر .. وقد يعجب كثير من الناس حين يعلمون أن العلاقة بين الصرب وإخوانهم المجرمين الصهاينة علاقة وطيدة منذ أكثر من 100 عام ، حينما تحالف الجانبان تحت راية إعادة إحياء الوطن القومي لليهود في فلسطين والوطن القومي للصرب في البلقان ، واجتمعا تحت شعار « الأخوة الصربية – اليهودية » التي يزعمون أنها « أخوة تعمَّدت بالدم ، وأنها تتغذى اليوم من وحدة العدو المشترك الذي يواجهونه معا وفي آن واحد ، أي المسلمون

(1) ألغام داخل صناديق الانتخابات البوسنية – يحيى غانم – عامر سلطان – الأهرام 21 / 9 / 1996 م ص 7 .

الإرهابيون في فلسطين أو في كوسوفو والبوسنة ويقولون : إن القضاء والقدر وضعا الدولة اليهودية وصربيا في الخندق الأمامي لمواجهة العالم الإسلامي المتطرف ، وعليهما أن يتعاونا للقيام بمسئولية المواجهة .. [1] .

« ومع بداية التقارب بين السوفييت والأمريكان ، أخذ الصربيون يعززون علاقاتهم بالدول الغربية المؤثرة ، وركزوا بشكل خاص على الولايات المتحدة الأمريكية والدولة الصهيونية ، ووضعوا خطة واسعة للتحرك في الساحة الأمريكية وتكوين جماعات ضغط « لوبي » مؤيدة لهم ، بدعم ومساندة مباشرة من اللوبي اليهودي .. وتكونت فعلا عشرات الجمعيات الصربية - اليهودية لهذا الغرض في الساحة الأمريكية ، وبدأت صربيا تفصح عن غرامها بالتراث اليهودي وبالإسرائيليين ، وتتحدث عَن أخوتهما في مواجهة أخطار الأصولية الإسلامية المتصاعدة في العالم كله » [2] .

من هنا ، لا يكون من قبيل المفاجأة الكشف عن إمداد اليهود إخوانهم الصرب بأسلحة متطورة تشمل : مدافع بعيدة المدى ، وعربات مصفحة ، وصواريخ متوسطة المدى ، وأكثر من مليون صندوق ذخيرة متعددة الأنواع ، وعشرات الألوف من « المسدسات » صغيرة الحجم ، بالإضافة إلى 500 ضابط يهودي يشرفون على العمليات العسكرية ، والدعم المالي بمبلغ 600 مليون دولار ، والدعم الاقتصادي للتغلب على الحظر الاقتصادي المفروض على الصرب ، وقيام اليهود بشراء احتياجات الصرب من الأسواق العالمية ونقلها إليهم بعد ذلك [3] .

ومن ناحية أخرى ، قام جهاز المخابرات اليهودية « الموساد » بتدريب القوات الصربية على المذابح الجماعية ، وقطع الأطراف ، وبقر البطون ، وفقء العيون ، واغتصاب النساء ، وكافة وسائل الإجرام الأخرى لاستخدامها في عمليات التطهير العرقي [4] .

وهكذا تحالف اليهود والنصارى على إبادة الإسلام وسحق المسلمين ، تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... ﴾ [5] وقوله جل شأنه :

---

(1) ينظر : أزمة يوغوسلافيا ... ص 93 , 94 . (2) المرجع السابق ص 102 بتصرف .

(3) يراجع : الصربيون ... ص 158 , 159 . السياسة الدولية : ع 112 أبريل 1993 . شهريات ... (يناير 1993) ص 270 . البوسنة في صحافتنا ... ص 7 . ملف البوسنة ... ص 7 .

(4) ينظر : المؤامرة الكبرى ص 70 ، ملف البوسنة ... ص 192 . (5) سورة البقرة : جزء من الآية (109) .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... ﴾ [1] .

* * *

(10) الموقف السلبي في العالم الإسلامي :

كان من المنتظر أن يهبّ العالم الإسلامي لنجدة مسلمي البوسنة والهرسك وإنقاذهم من براثن هذا التحالف بين اليهود والنصارى .. كان من المنتظر أن لا يغمض للعالم الإسلامي جفن بعدما ترامت إلى مسامعه أنباء المجازر ، والفظائع التي يرتكبها هؤلاء المجرمون العتاة بحق إخواننا في الدين والعقيدة ...

ولكن رد الفعل في العالم الإسلامي كان متباينا غاية التباين بين موقف شعبي متحمس للقضية ، متعطش لنصرة أخوته في الدين ، مسارع إلى التبرع بما تجود به نفسه لإغاثتهم وتخفيف الكرب عنهم .. وبين موقف رسمي فاتر لا يرقى إلى مستوى الحدث ، ويقتصر على تأييد لفظي في أحسن الأحوال .. بل انعكس الموقف الرسمي لبعض الدول الإسلامية ليصل في بعض الأحيان إلى التعاون مع المجرمين المعتدين ..

وفي السطور التالية تفصيل لهذا الإجمال :

(1) عقد وزراء خارجية الدول الإسلامية اجتماعا استثنائيا في « استانبول » في يونيو 1992 وتحدث وزير خارجية البوسنة مناشدا إخوانه العمل على التدخل العسكري السريع لدحر العدوان الصربي .. ولكن المؤتمر اكتفى في قرارته بإدانة العدوان الصربي ، وحض مجلس الأمن على اتخاذ إجراءات بمقتضى المادة 42 من ميثاق الأمم المتحدة التي تتضمن الإجراءات العسكرية للحفاظ على السلام والأمن الدوليين ..

وإزاء هذا الموقف الهزيل أعرب وزير الخارجية البوسني خلال جولته في عدد من الدول الإسلامية عن أمله في أن يدرك المسلمون أن هذه المرحلة التاريخية تتطلب أكثر من هبات تبلغ عشرين أو ثلاثين مليون دولار ، لأن هذه المبالغ لا تحرر وطنا مغتصبا [2] .

(2) وبينما العدوان الصربي تتواصل حلقاته ، إذ بمنظمة المؤتمر الإسلامي تعلن تأجيل مؤتمر لوزراء خارجية دول المنظمة مرة تلو أخرى ، إلى أن انعقد أخيرا في « جدة » يومي 1 ، 1993/12/2 ، وسط توقعات كبيرة بأن يسفر المؤتمر عن قرارات حاسمة بعد

---

(1) سورة البقرة : جزء من الآية (120) .
(2) يراجع : الأمة في عام .. ص 99 : 101 .

التصريحات العديدة لأمين عام المنظمة وبعض الوزراء عن ضرورة عمل حاسم وإجراءات ملموسة لإنقاذ مسلمي البوسنة ... ورغم الضجة الإعلامية الهائلة التي صاحبت انعقاد المؤتمر إلا أنه خيب جميع الآمال - كالعادة - بإصدار قرار هزيل مكون من 27 بندا ، ليس فيها من شيء يزيد على الشجب والإدانة والتنديد ، إلا بعض المطالبات الموجهة إلى مجلس الأمن بأن يقوم - فقط - قبل 15 يناير 1993 بمراجعة للوضع في البوسنة من حيث تنفيذ القرارات ذات الصلة ، وأن يسمح لجمهورية البوسنة والهرسك باستلام أسلحة دفاعية مقدمة من الدول الأعضاء في المنظمة ...

ويشعر المسلم الصادق بالأسف العميق من جراء هذا المؤتمر ، حيث إن قراراته قد صيغت بواسطة « ديفيد أوين » وزميله « فانس » ، اللذين حضرا المؤتمر وكان لهما التأثير الأكبر على توجهاته وقراراته .. [1] **وقد سبق ذكر تصريحات « أوين » في هذا الشأن .**

(3) وانعقد مؤتمر قمة مصغرة للدول الإسلامية في « داكار » العاصمة السنغالية وحضره الرئيس علي عزت بيجوفيتش في 12 / 1 / 1993 ، أي قبل ثلاثة أيام من انتهاء المهلة التي حددتها الدول الإسلامية لمجلس الأمن كي يرفع الحظر عن تسليح مسلمي البوسنة ، وكالعادة ، لم يتجاوز حصاد المؤتمر إعلان مساندة الدول الإسلامية لتدخل عسكري ضد الصرب .. وصدقت توقعات الرئيس البوسني بعدم تدخل الدول الإسلامية عسكريا في البوسنة طالما أن الدول الغربية ترفض ذلك [2] .

(4) وفي أول خطوة عملية تتخذها منظمة المؤتمر الإسلامي ، تم الاتفاق بين وزراء خارجية دولها في اجتماعهم بالعاصمة الباكستانية « إسلام أباد » على إرسال 18 ألف جندي للمساهمة في حماية المناطق الآمنة ، وعرضت إيران إرسال 10 آلاف جندي ، إلا أن الحكومة الأمريكية عارضت هذه الخطوة الإيرانية محتجة بأن ذلك سيثير مشاكل كبيرة ، كما أن الأمم المتحدة قابلت هذا العرض الإسلامي بفتور شديد ، رغم أنها كانت تشكو مرارا من عدم توافر قوات لتنفيذ قراراتها الخاصة بحماية المناطق الآمنة [3] .

(5) ولم يتغير الحال كثيرا في مؤتمر قمة الدار البيضاء في يناير 1995 ، فتواصل التأييد اللفظي البلاغي دون اتخاذ إجراءات ملموسة .. ومن المفارقات العجيبة أن هذا المؤتمر قد

---

(1) يراجع : المرجع السابق ص 109 : 112 التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 93 , 94 . ملف : البوسنة ... ص 81 : 82 .

(2) ينظر : الأمة في عام ... ص 127 ، البوسنة والميراث الدامي ص 46 .

(3) ينظر : البوسنة والميراث الدامي ص 47 ، البوسنة في صحافتنا ... ص 88 .

خصص معظم جلساته ومناقشاته لما سمي بقضية « التطرف الإسلامي » وكيفية مواجهته وكأن ما يفعله الصرب والكروات بإخواننا في البوسنة والهرسك لا صلة له بالتطرف من قريب ولا من بعيد [1] .

(6) ومن العجب العجاب - في هذا المضمار - أن اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية ، الذي كان مقررا انعقاده في اليمن خلال شهر أغسطس 1995 م قد ألغي بعد أن تبين وجود خلافات حادة بين الدول الإسلامية إزاء مأساة البوسنة ، وأن الحكومات ترغب في إبقاء المسألة محصورة فقط في نطاق تهييج الرأي العام الإسلامي ، الذي بادر تلقائيا إلى جمع التبرعات بسخاء حتى في أكثر الدول الإسلامية فقرا [2] .

من هنا يتبين أن التحرك الرسمي في العالم الإسلامي لم يكن إلا تحركا شكليا لا يرقى إلى مستوى الحدث ، وأن الدول الإسلامية قد آثرت التحرك في إطار ما يسمى بالشرعية الدولية ممثلة في الأمم المتحدة ، التي سبق أن أثبت البحث تآمرها ضد مسلمي البوسنة وتواطؤها الكامل مع المعتدين الصرب والكروات .

وليت الأمر قد اقتصر على مجرد التحرك الشكلي من جانب الدول الإسلامية ، فإن هذا يهون في جانب ما تم الكشف عنه من مشاركة بعض الدول الإسلامية بصورة غير مباشرة في المؤامرة ضد مسلمي البوسنة ، من خلال دعم المعتدين المجرمين من الصرب والكروات ، والتعاون الاقتصادي معهم ، وغيرها من أشكال المشاركة في المؤامرة ..

وهذه عينة من مواقف بعض الدول الإسلامية :

(1) كان من المفترض أن تقف تركيا موقفا حاسما ضد المجازر الصربية لمسلمي البوسنة والهرسك ، وضد الأطماع الصربية في منطقة البلقان بوجه عام ، نظرا للميراث التاريخي العدائي بين الصرب الأرثوذكس والأتراك المسلمين .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تمثل الأحلام التوسعية الصربية والمساندة الأرثوذكسية لها من جانب اليونان وبلغاريا ورومانيا وروسيا خطرا داهما على تركيا وأمنها القومي .

ولكن تركيا - للأسف الشديد - طرحت كل الاعتبارات جانبا ، ونظرت فقط - كما يرى كثير من المحللين - إلى مصالحها الخاصة الضيقة ، حيث تسعى تركيا جاهدة

---

(1) تراجع الصحف الصادرة في الفترة ما بين 24 / 12 / 1994 إلى 15 / 1 / 1995م .
(2) الأهرام 27 / 8 / 1995 ص 9 .

للانضمام إلى الجماعة الأوروبية ، ولذا فإنها لا ترغب في القيام بعمل جدي لصالح مسلمي البوسنة حتى لا تتهم من قبل النصارى الأوروبيين باحتضان « الأصولية الإسلامية » ، مما يعيق انضمامها للركب الأوروبي أو حتى مجرد الحصول على امتيازات ومعونات اقتصادية من الجماعة الأوروبية [1] ..

من هنا حرصت تركيا على حصر دورها في إطار حلف الأطلنطي ومجلس الأمن وهي تعلم يقينا أنهما لن يحركا ساكنا ولن يفعلا شيئا لنصرة المسلمين ، كما حرصت تركيا على أن تتحرك في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي للقيام بعمل عسكري جماعي ، واشترطت أن يتم ذلك تحت رايات الشرعية الدولية وبتفويض من مجلس الأمن ، أو بتأييد من أمريكا وحدها على الأقل ، وكم كان لافتا للانتباه أن تُظهر تركيا للمرة الأولى منذ انضمامها لمنظمة المؤتمر الإسلامي حرصا شديدا على تفعيل هذه المنظمة وعلى التحرك من خلالها ، بعد أن كانت دائما عضوا غير فعال فيها ، ولا تلتزم بقراراتها ولا توصياتها [2] .

(2) طالبت ليبيا أكثر من مرة على لسان رئيسها برفع الحظر المفروض على صربيا واعتبرته حصارا ظالما يشبه الحصار الظالم المفروض على ليبيا .. وقد تطرّف القذافي إلى حد القول بأن المسلمين ليسوا أصحاب البوسنة ، وأنه لافرق بين علي عزت بيجوفيتش ورادوفان كرادزيتش ، وأضاف أنه صديق قديم للصرب ، وأن الدول الإسلامية جاهلة تماما فيما يتعلق بالبوسنة [3] .

(3) أشارت بعض التقارير الصحفية المستقاة من مصادر غربية أن كلا من العراق وإيران صدرتا بترولا إلى صربيا مقابل الحصول على السلاح من ترسانة الجيش اليوغوسلافي السابق [4] .

(4) جاء في تقرير للجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء أن إجمالي التبادل التجاري بين مصر والصرب وصل حتى نهاية شهر ديسمبر 1992 إلى 187 مليون جنيه ، حيث بلغت قيمة الصادرات المصرية إلى الصرب 27 مليون ، أما الواردات فقد بلغت 160 مليون جنية [5] .

كما واصلت الشركة المصرية لتجارة الأدوية استيراد كميات كبيرة من الأدوية

---

(1) يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1992 ص 92 ، أبعاد الصراع في البوسنة والهرسك - مرجع سابق ص 207 .
(2) ينظر : أزمة يوغوسلافيا ... ص 114 .
(3) ينظر : الأهرام 25 / 7 / 1995 م ص 6 .
(4) يراجع : البوسنة في صحافتنا ... ص 65 , 111 ، ملف البوسنة .... ص 20 .
(5) البوسنة في صحافتنا ... ص 7 .

والأمصال من صربيا ، رغم أن الحكومة المصرية قد أعلنت في وقت سابق مقاطعة الصرب بسبب المجازر البشعة التي يرتكبونها ضد مسلمي البوسنة والهرسك [1] .

(5) كما أفادت الوثائق التي حصلت عليها إحدى الصحف المصرية قيام العديد من الشركات والبنوك في العديد من الدول الإسلامية بالتعامل مع الصرب رغم الحظر [2] .

(6) دافعت بعض الصحف الخليجية عن موقف بريطانيا إزاء مأساة البوسنة ، وبالغت في ذلك لدرجة وصف بريطانيا بالسماحة الدينية ونبذ التعصب [3] .

(7) أورد الأستاذ / فهمي هويدي قائمة بمواقف عربية مخجلة تجاه البوسنة من بينها : قلة التبرعات الحكومية المرسلة إلى البوسنة [4] .. قيام بعض الدول الإسلامية بمنع إرسال التبرعات الشعبية إلى مسلمي البوسنة .. رفض استقبال الجرحى وعلاجهم ... [5] إلخ .

هذه مجرد نماذج بسيطة للموقف السلبي في الأوساط الحكومية في بعض الدول الإسلامية ؛ يقف المسلم أمامها في غاية الخجل والحيرة .. هل هذه هي الأخوة الإيمانية التي تجعل المؤمنين كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص ؟!! .. هل هان الدم المسلم على المسلمين إلى هذا الحد ؟!!! .. إذا كان هذا موقف بعض الحكومات التي تصف نفسها بـ « المسلمة » فلا ينبغي أن تصيبنا الدهشة والحيرة من موقف النظام الدولي وتآمره ضد المسلمين ..

* * *

وبهذا ينتهي الحديث عن موقف النظام الدولي الجديد من بعض قضايا المسلمين في القارة الأوروبية ، وقد خصصته للحديث عن المجازر البشعة التي تعرض لها المسلمون في جمهورية البوسنة والهرسك ، والتي إن لم ينهض العالم الإسلامي لمواجهتها ؛ فلسوف تتكرر - لا قدر الله - بصورة أكثر بشاعة وأشد شناعة في أقليم « كوسوفو » الذي تقطنه أغلبية إسلامية داخل حدود جمهورية صربيا ، في إطار الحملة الصليبية الجديدة لاستئصال الوجود الإسلامي ومحو الهوية الإسلامية تماما من أوروبا ...

* * *

(1) ملف البوسنة ... ص 188 . (2) البوسنة في صحافتنا ... ص 144 , 145 . (3) المرجع السابق ص 93 .
(4) فعلى سبيل المثال تبرع سلطان « برو ناي » الذي يعتبر أغنى أغنياء العالم بمليون دولار فقط ، وبعض دول الخليج الغنية اكتفت بالوعود ولم تفعل شيئا ، في حين قدم أحد اليهود الأثرياء واسمه « جورج سورس » مبلغ 50 مليون دولار لإنشاء محطة مياه في سراييفو تحت الأرض لإنقاذ 350 ألف مسلم محاصرين ، بينما قدم أمير الكويت مبلغ مليون جنيه استرليني لحديقة حيوان لندن و 10 ملايين دولار لضحايا إعصار « أندرو » في الولايات المتحدة ونسي إخوانه المسلمين في البوسنة .
(5) تقرير عن بحار الحزن والخزي فهمي هويدي - الأهرام 27 / 4 / 1993 ص 9 .

بهذا ينتهي هذا الباب الذي استعرض مواقف النظام الدولي الجديد من بعض قضايا المسلمين في القارات الثلاث : أفريقيا – آسيا – أوروبا .. وقد بات جليا بعد هذا الاستعراض أن النظام الدولي الجديد لا يُكِنُّ للإسلام والمسلمين إلا حقدا دفينا وبغضاء لا متناهية ، الأمر الذي يؤكد ما سبق أن أوردناه في سياق تعداد ملامح النظام الدولي الجديد .. ومن أبرز تلك الملامح : **العداء الشديد للإسلام والمسلمين .**

وقد بات جليا كذلك – كما سبق وأن أكدناه في التمهيد لهذا الباب – أن المسلمين بتفرقهم شيعا وأحزابا وانحراف بعضهم عن صراط الله المستقيم – قد مهدوا السبيل لأعدائهم ليكيلوا لهم الضربات المتلاحقة دون خشية على الإطلاق من رد فعل إسلامي قوي ..

من هنا أؤكد على أهمية الوحدة الإسلامية كسبيل وحيد لاسترجاع مكانة المسلمين وهيبتهم على الصعيد الدولي ، مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى ..

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ... ﴾ [1] وقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ . ﴾ [2] ..

وهذا ما سنتعرض له مفصلا في الباب السادس والأخير إن شاء الله تعالى ...

ولكن قبل ذلك ، لابد بعد الحديث عن موقف النظام الدولي الجديد من الإسلام والمسلمين ، لابد من معرفة موقف الإسلام من هذا النظام .. وهذا هو موضوع الحديث في الباب التالي .. وبالله التوفيق ،

* * *

(1) سورة آل عمران : جزء من الآية (103) .
(2) سورة الأنفال : الآيتان (45 , 46) .

الباب الثالث

النظام الدولي الجديد
بين أحقية البقاء أو حتمية الانهيار
(دراسة حضارية)

الفصل الأول : عوامل الانهيار الحضاري كما بينها القرآن الكريم .

الفصل الثاني : بعض الشواهد القرآنية والتاريخية للسقوط الحضاري .

الفصل الثالث : الانهيار الحضاري في النظام الدولي الجديد .

تمهيد :

ظل زمام الحضارة الإنسانية بيد المسلمين حينا من الدهر ، تذوقت فيه البشرية حلاوة الأمن في ظل الإيمان ، والسلام في ظل الإسلام ، والاستقرار والرخاء في ظل المبادئ العظيمة لهذا الدين الحنيف ... ولكن ... مالبث الزمان أن دار دورته ، وأهمل المسلمون في الحفاظ على مكانتهم القيادية ، حينما تخلوا عن كتاب ربهم عز وجل وسنة نبيهم ﷺ ؛ فانتقلت القيادة الحضارية إلى الحضارة الغربية منذ ذلك الحين .

والنظام الدولي الجديد أثر من آثار تلك الحضارة الغربية ، وإفراز طبيعي من إفرازاتها ، فهو يتخذ ماء حياته من منابعها ، ويرتكن في أسسه ومقوماته على أسسها ومقوماتها ..

لهذا سوف نتجه - في نقدنا وتقويمنا للنظام الدولي الجديد - وجهة حضارية ، تنفذ إلى أعماق الحضارة الغربية المادية ذاتها ، لبحث مدى أحقيتها بقيادة مسيرة الحضارة الإنسانية ، وكذلك مدى بقائها في تلك المكانة القيادية .

وما من شك في خطورة هذه القضية وأهميتها ، إذ لابد من معيارٍ آمن ومقياسٍ له اعتبار في ميدان تقويم الحضارات ..

من هنا كان لابد من البحث في القرآن الكريم - الوحي الإلهي الصادق - عن عوامل الانهيار الحضاري التي أدت إلى سقوط الحضارات المختلفة وانهيارها ، وذكر نماذج لهذه الحضارات ، تحدث عنها القرآن الكريم أو ذكرتها كتب التاريخ .. ومن ثم ننطلق إلى الحضارة الغربية المعاصرة لنخضعها لهذا الاختبار الحضاري القرآني ، للحكم عليها - في النهاية - بأحقية البقاء أو حتمية الانهيار ..

الفصل الأول

عوامل الانهيار الحضاري في القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم عن كثير من الحضارات الإنسانية ، ما كان منها صالحا مستقيما كالحضارة التي شيد دعائمها نبي الله سليمان عليه السلام ، والحضارة التي قامت على يد الملك الصالح « ذي القرنين » .. وما كان منها فاسدا منحرفا كحضارات عاد وثمود وسبأ وغيرها ..

والمتأمل في ثنايا الآيات القرآنية يلمح التركيز الكامل على أن صلاح الحضارة وبقاءها يرتكز في أساسه على العقيدة السليمة والإيمان الخالص .. ولعل هذا واضح كل الوضوح في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [1] وقوله جل شأنه ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [2] ..

وعلى الجانب الآخر .. تجد فساد العقيدة ، وانحراف الفطرة ، والبعد عن المنهج الإلهي – من أهم أسباب الانهيار الحضاري ؛ إذ أن فقدان الأساس الديني في الحضارة – أي حضارة – يحرمها من توجيهات الوحي الإلهي ، فتصبح كافة قيمها وتوجهاتها جاهلية أرضية ، خاضعة لنزعات البشر وأهوائهم ، وأحوالهم المزاجية التي لا تستقر على وضع ولا تثبت على حال .. وبفقدان الدين الصحيح تفقد الحضارة ماء الحياة وروح الوجود الحقيقي .. نعم ! قد تبلغ الحضارة – البعيدة عن الدين الصحيح – مبلغا عظيما في الرقي المادي والتطور التقني ، ولكنها حضارة محكوم عليها بالسقوط والانهيار لا محالة ، وذلك أنها تحمل بين طياتها جرثومة فنائها و « ميكروب » زوالها .

وقد أكد القرآن الكريم هذه القضية في آيات عدة ، تحدثت عن حضارات بلغت في التمدن والرقي المادي منزلة هائلة .. ولكن هذا كله لم يكن ليغني عنها من الله شيئا ، إذ اندثرت هذه الحضارات ، وأصبحت أثرا بعد عين . ليس لنقص في التمدن أو الرقي ، ولكن لانحراف الفطرة وفساد العقيدة .. **ومن أمثلة ذلك** :

– قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ

(1) سورة الأنبياء : الآية (105) . (2) سورة الحج : الآية (41) .

قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [1] .

– قوله جل شأنه : ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [2] .

– قوله سبحانه : ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [3] .

ويلاحظ في هذه الآيات أن التعبير عن فساد العقيدة قد جاء بلفظ « الكفر » ، وأن نزول العذاب بهذه الأمم والحضارات إنما كان بارتكابهم الذنوب العظيمة ..

وفي آيات أخرى جاء التفصيل لهذا الإجمال ، من خلال بيان بعض الذنوب التي ارتكبها هؤلاء المنحرفون عن منهج الله ، والتي يمكن اعتبارها بمثابة الروافد ، التي تصب – في نهاية المطاف – في المصب الأساسي المشار إليه في الآيات السابقة . **وذلك على النحو التالي :**

1 – **فتارة يُعبَّر عن ذلك بـ « الظلم »** : إذ أن الظلم – كما هو معروف – وضع الشيء في غير موضعه ، والمنحرفون عن المنهج الإلهي قد وضعوا الأشياء في غير موضعها الصحيح حينما اتجهوا بعبادتهم إلى غير الله سبحانه أو أنكروا وجوده أصلا ، وحينما وضعوا لأنفسهم مناهج لحياتهم وطرحوا منهج الله وراءهم ظهريا ، وحينما أنكروا على الرسل رسالتهم بدعوى أن الرسول لا يمكن أن يكون من البشر ، وحينما نعتوا المؤمنين – وحاشاهم – بالضعة والحقارة .. وحينما ... وحينما ...

من هنا جاء تذييل الآيات التي تتحدث عن انهيار الحضارات المنحرفة مسجلا عليهم ظلمهم لأنفسهم أولا ولغيرهم ثانيا .. كما يتضح جليا من الآيات التالية :

* قوله جل شأنه بعد الحديث عن عاد وثمود وقوم فرعون – وغيرهم من أصحاب

---

(1) سورة غافر : الآيتان (21 ، 22) . (2) سورة الأنفال : الآية (54) .

(3) سورة العنكبوت : الآيات (38 : 40) .

الحضارة الفاسدة المنحرفة : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [1] .

* قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [2] .

* قوله عز ثناؤه : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [3] .

* وفي دعوة سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [4] وقوله سبحانه : ﴿ ... وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [5] .

* وفي دعوة سيدنا هود عليه السلام : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [6] .

* وفي دعوة سيدنا صالح عليه السلام : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [7] .

* وفي دعوة سيدنا لوط عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [8] .

* وفي دعوة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [9] .

2 - **وتارة يعبر عنه بـ « الطغيان »** : لأن الطغيان هو مجاوزة الحدِّ ، وأصحاب الحضارات الفاسدة المنحرفة قد تجاوزوا الحد في كل شيء ، فكان طغيانهم سببا

---

(1) سورة هود : الآيات (100 : 102) .
(2) سورة الأنبياء : الآية (11) .
(3) سورة الحج : الآية (45) .
(4) سورة العنكبوت : الآية (14) .
(5) سورة المؤمنون الآية (27) .
(6) سورة المؤمنون الآية (41) .
(7) سورة النمل : الآية (52) .
(8) سورة العنكبوت : الآيتان (31 : 32) .
(9) سورة الشعراء : الآيتان (10 , 11) .

لهلاكهم .. وليتأمل المرء قوله تبارك وتعالى في سورة الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [1] .

3 – **وتارة يعبر عنه بـ « الفساد »** : والفساد ناتج عن الطغيان ، وهذا واضح من آيات سورة الفجر ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ وهي تبين أن فسادهم كان كثيرا ، بدليل التعبير عنه بالفعل « أكثروا » ، الذي يفيد أيضا – كجملة فعلية – التجدد والحدوث ، وهذا يعني أن الفساد كان شغلهم الشاغل وصناعتهم الرئيسة ..

ولقد نعى عليهم القرآن الكريم هذا المسلك الشائن في مواضع كثيرة ، منها على سبيل المثال :

* في دعوة صالح عليه السلام : ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [2] .ويقول تعالى : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [3] .

* وفي دعوة لوط عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [4] .

* وفي دعوة شعيب عليه السلام : ﴿ .. وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [5] وقال سبحانه : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [6] .

* وفي دعوة موسى عليه السلام : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [7] ويقول جل شأنه : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [8] .

---

(1) سورة الفجر : الآيات (6 : 14) .
(2) سورة الشعراء : الآيتان (151 , 152) .
(3) سورة النمل : الآية (48) .
(4) سورة العنكبوت : الآية (30) .
(5) سورة الأعراف : الآيتان (85 ، 86) .
(6) سورة العنكبوت الآية (36) .
(7) سورة الأعراف الآية (103) .
(8) سورة القصص : الآية (4) .

4 – **وتارة يعبر عنه بـ « الإجرام »** : إن الإنسان الذي لا يمتلك بين جوانحه قلبا عامرا بالإيمان لا يجد غضاضة في أن يفعل ما يريد لينال ما يشتهي ، فينطلق في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، فلادين يردع ولا ضمير يمنع .. والمجتمعات في هذا شأنها شأن الأفراد ، فكلما كانت الحضارة مادية جاهلية لا تجدها تتورع عن ارتكاب أشنع الجرائم وأبشع المنكرات ..

وقد سجل القرآن الكريم على الحضارات الهالكة إجرامها الذي لاحدَّ له .. ومن ذلك :

* قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [1] .

* قوله تبارك اسمه : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [2] .

* قوله جل شأنه : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [3] .

* وفي دعوة هود عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [4] .

* وفي دعوة لوط عليه السلام : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [5] ، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [6] .

* وفي دعوة موسى عليه السلام : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [7] .

---

(1) سورة يونس : الآية (13) .

(2) سورة الدخان : الآية (37) . قال القرطبي [9 / 6194] : ليس المراد بـ « تُبّع » رجلا واحدًا ، بل المراد به ملوك اليمن ، فكانوا يسمون ملوكهم « التبابعة » فـ « تبع » لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين وكسرى للفرس وقيصر للروم .

(3) سورة المرسلات : الآيات (16 : 18) .

(4) سورة الأحقاف : الآيتان (24 ، 25) .

(5) سورة الأعراف : الآية (84) .

(6) سورة الذاريات الآيات (31 : 34) .

(7) سورة يونس : الآية (75) .

5 – **وتارة يعبر عنه بـ « الاستكبار »** : تقف عوامل الجاه والثروة والسلطة حائلا منيعا دون انصياع الجاهلين الماديين لدعوة الحق ، ولهذا يتكرر في آيات القرآن الحديث عن « الملأ » [1] ووقوفهم في وجه الرسل ، يعارضونهم ويصدون الناس عن سبيل الله ، لا لشيء إلا لمجرد العتو والاستكبار .. ومن الأمثلة على ذلك :

* في دعوة نوح عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [2] .

* وفي دعوة هود عليه السلام : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [3] .

* وفي دعوة صالح عليه السلام : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [4] .

* وفي دعوة شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [5] .

* وفي دعوة موسى عليه السلام : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ [6] .

6 – **وتارة يظهر في صورة « الترف » المفسد** : إذ أن الترف والتنعم والاشتغال بالملذات – دون حدود أوضوابط – يؤدي إلى وجود أمة لاهدف ولا غاية لها سوى إشباع الرغبات وإرضاء الشهوات .. وإذا وصل الحال بالأمة إلى هذه الدرجة تجد السمة الغالبة عليها هي الانشغال بسفاسف الأمور وتوافه القضايا ، ومن ثم تستحق الحضارة الفناء والزوال عن جدارة ، ذلك أن المترفين همتهم فاترة وقواهم خائرة ، لا يصمدون في موقع ، ولا يثبتون في ميدان .. يقفون بقوة في وجه الحق وأهله ، ولا يحبون الخروج

---

(1) الملأ : هم الكبراء والسادة ، ووصفوا بذلك لأنهم يملأون صدور المجالس ، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم ، أولأنهم – كما يقول الزجاج – ممتلئون بما يحتاج إليه منهم .. يراجع : الرازي 3 / 483 ، 7 / 163 . القرطبي 1 / 1154 .

(2) سورة نوح : الآية (7) .

(3) سورة فصلت : الآية (15) .

(4) سورة الأعراف : الآيتان (75 ، 76) .

(5) سورة الأعراف الآية (88) .

(6) سورة المؤمنون : الآيات (45 : 48) .

مما هم فيه من ترهُّل وترفُّل وتنعُّم ، وفي سبيل ذلك يتمسكون بالموروثات الحضارية الباطلة .. وتبرز آيات القرآن الكريم هذا المعنى في كثير من المواضع ، ومن ذلك :

* قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [1] .

* قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [2] .

ولقائل أن يقول : كيف تؤخذ الحضارة بذنب هؤلاء المترفين وهم قلة في الأمة ؟! وكيف تهلك الأمة بسبب انحراف البعض القليل من أفرادها ؟! .. ويجيب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [3] .. إذ تبين الآية أن الطبقة المترفة تعيث في الأرض فسادا ، ولا تجد من بقية أفراد الأمة وطبقاتها من يقف في طريقها ليمنعها من الفسوق والعصيان ، وحينئذ تكون المسئولية مشتركة بين الجانبين : الجانب المترف الفاسق ، والجانب الآخر الذي رضي بهذا الفسق وهذا الإفساد ، ولم يقطع عليه الطريق .. ولما كانت المسئولية جماعية كان العقاب جماعيا .

7 – **وتارة يتجلى في صورة « الجمود والتقليد الأعمى »** : يحاول أصحاب الحضارات المنحرفة التمسك بتقاليد الآباء وموروثات الأجداد ، رغبة منهم في الحفاظ على المكاسب المادية الجاهلية الرخيصة التي يتمتعون بها ، دون النظر إلى أحقية أو بطلان هذه التقاليد والموروثات ، مما يؤدي إلى الانهيار الحضاري في نهاية المطاف ..

ومن الآيات القرآنية الكريمة الدالة على ذلك :

* قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [4] .

* وفي دعوة نوح عليه السلام : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

---

(1) سورة سبأ : الآيتان (34 ، 35) .

(2) سورة الزخرف : الآية (23) .

(3) سورة الإسراء : الآية (16) .

(4) سورة الزخرف : الآيات (23 : 25) .

يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [1] .

* وفي دعوة هود عليه السلام : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [2] .

* وفي دعوة صالح عليه السلام : ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [3] .

* وفي دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [4] .

* وفي دعوة شعيب عليه السلام : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [5] .

* وفي دعوة موسى عليه السلام : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [6] .

ومن الجدير بالتأمل في هذه الآيات – بصفة خاصة – مدى الجمود العقلي الذي أصيب به هؤلاء إلى درجة أن يقول قوم هود : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ... ﴾ « إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول ، هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصلية : حرية التدبر والنظر ، وحرية التفكير والاعتقاد ، ويدعه عبدًا للعادة والتقليد ، وعبدًا للعرف والمألوف ، وعبدًا لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور » [7] .

8 – **وتارة يتبدى في فساد المنهج الاقتصادي** : ويقصد به قيام المعاملات التجارية والمبادلات الاقتصادية على أساس غير ديني أو خلقي ، فتجد الربا والغش والاستغلال والتطفيف والاحتكار – وغير ذلك من السلوكيات اللاشرعية – هي القانون السائد في

---

(1) سورة المؤمنون : الآية (24) .
(2) سورة الأعراف : الآيتان (70 ، 71) .
(3) سورة هود : الآية (62) .
(4) سورة الأنبياء : الآيات (52 - 54) .
(5) سورة هود : الآية (87) .
(6) سورة يونس : الآية (78) .
(7) في ظلال القرآن 3 / 1311 .

المجتمع ، ويحدث ذلك دائما حينما ينحرف المجتمع عن المنهج الرباني ؛ فينشأ الفساد الشامل في كافة المرافق وشتى المجالات ، ومن بينها المجال الاقتصادي .

وتمثل حالة أهل مدين النموذج الأكثر وضوحا لبيان مدى ارتباط الفساد الاقتصادي بالانهيار الحضاري ، فلقد كانت معاملاتهم قائمة على الغش والخداع من خلال تطفيف الكيل والميزان .. وتبرز الآيات مدى المجهود الضخم الذي بذله نبي الله شعيب – عليه السلام – لإصلاح شأنهم وردّهم إلى جادة الصواب .. وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (1) .

9 – **وتارة يتمثل في الانحطاط الخلقي** : لا يشك عاقل في أن الأخلاق الفاضلة في كل أمة هي دعامة حضارتها وأساس قوتها ونهضتها ، فإذا فسدت الفطرة وانحطت الأخلاق في الأمة فإن هذا شاهد سقوطها وآية انهيارها .. وقد عرض القرآن الكريم قصة قوم لوط – عليه السلام – مثالًا بارزًا للانحطاط الخلقي وأثره في الانهيار الحضاري ، إذ يُلاحظ أن القرآن الكريم قد دمغهم بنقائص عديدة : كالجهل والإجرام ، والفسق والإسراف ، والفساد ، مما يؤكد مدى الانحراف الشائن المتأصل في نفوس قوم لوط ..

ويتضح ذلك جليا من التأمل في الآيات التالية :

* ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (2) .

* ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ (3) .

---

(1) سورة هود : الآيات (84 : 87) . (2) سورة الأعراف : الآيات (80 : 84) .
(3) سورة الأنبياء : الآية (74) .

* ﴿ .. بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [1] .

* ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [2] .

ولا ريب أن نقيصة واحدة من هذه النقائص تكفي لانهيار حضاري مروع ، فما بالك حينما تجتمع كلها في أمة واحدة ؟!.. ما من شك في حتمية السقوط وضرورة الانهيار التام ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [3] .

10 – **وتارة يكون استخدامًا للنعم في غير موضعها :** فلقد سخر الله سبحانه هذا الكون للإنسان ، يقول تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [4] ، وكان من الواجب على الإنسان أن يحسن توظيف نعم الله فيما يعود عليه بالنفع والخير في العاجل والآجل ، ولكن أصحاب الحضارات الفاسدة أساءوا التعامل مع الكون المسخر لهم ، فاستخدموا النعمة في غير موضعها ، وانحرفوا بها عن طريقها الصحيح ، وفي ذلك يقول سبحانه :

* ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [5] .

* ويقول جل شأنه ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [6] .

* وهذا نبي الله هود عليه السلام ينعي على قومه سوء استخدامهم لنعمة ربهم فيقول : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [7] .

* وهذا صالح عليه السلام يخاطب قومه – فيما يحكي القرآن الكريم عنه . فيقول :

---

(1) سورة النمل : جزء من الآية (55) .
(2) سورة العنكبوت : الآية (30) .
(3) سورة هود : الآيتان (82 ، 83) .
(4) سورة الجاثية : الآية (13) .
(5) سورة إبراهيم : الآيات (28 : 30) .
(6) سورة النحل : الآية (112) .
(7) سورة الشعراء : الآيات (128 : 138) وسيأتي في الفصل التالي تفسير لهذه الآيات وتحليل لمعانيها .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [1] .

11 – **وتارة يظهر في سلبية الشعوب تجاه انحراف وضلال القادة** : إن من أعظم البلايا التي يبتلى بها مجتمع ما ، أن يصبح الانحراف فيه قاسما مشتركا بين الزعامة والشعب .. بين القائد والأمة .. بين الحاكم والمحكوم ، حينئذ يصبح المجتمع كالمستنقع الآسن ، أو كالبحيرة الراكدة ، فالكل راضٍ بالانحراف ومستفيد منه ، فلا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر .. وإذا وصلت الأمور إلى هذا الحد فلا فائدة ترجى من الأمة ، ولن تستطيع القلة الصالحة أن تفعل شيئا في مواجهة طوفان الانحراف وعاصفة الفساد .

ويبين القرآن الكريم أن بقاء الحضارة وازدهارها مرهون باستقامة الزعماء والقادة من جهة ، واستقامة الشعوب ووقوفها في وجه القادة المنحرفين من جهة أخرى .. وفي ذلك يقول المولى تبارك اسمه : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [2] .

« أي لم يكن في المجتمعات البشرية التي انهارت وتقوضت فيما مضى إلا عدد ضئيل يحرص على الصلاح فيها ، وهم من أنجاهم الله من العذاب .. ومن أجل ذلك ، لم يستطع هذا العدد القليل من المصلحين الذين نجوا أن يحول دون أن يتبع الزعماء ترفهم ، مما أدى بهم إلى الظلم والإجرام في حق أنفسهم ، وفي حق الآخرين معهم ، ولهذا كان تغيير [تلك المجتمعات] ضرورة اجتماعية .

ومعنى ذلك : أن المجتمع البشري طالما فيه رقابة قوية من الأفراد المستقيمين تحول دون استشراء الظلم وارتكاب الجريمة فيه ، لا يوجد فيه ما يدعو بالضرورة إلى تغييره ، بإيجاد زعامة مؤمنة قوية في مجتمع جديد ، تحقق العدل والإحسان فيه » [3] .

والمثال البارز لسلبية الشعوب في مواجهة طغيان الحكام يتمثل في فرعون وقومه ،

---

(1) سورة الشعراء : الآيات (146 : 154) . (2) سورة هود : الآيتان (116 ، 117) .
(3) تفسير سورة هود د / محمد البهي ص 92 .

حينما وصل الطغيان بفرعون إلى حدِّ ادعاء الألوهية ، فأذعن له الشعب واتخذه إلها من دون الله .. وتؤكد الآيات أن الجريمة مشتركة بين الجانبين ، يقول تعالى :

- ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] .

- ويقول سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا [2] ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [3] .

يجب التأمل هنا في قوله ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ فالمعنى أنه « وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الضلالة ، فاستجابوا له لأنهم كانوا فاسقين منحرفين » [4] .. كما يجب التأمل في قوله سبحانه ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ ، إذ أنه يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن البوار والدمار مصير محتوم لكل من سلك طريق قوم فرعون في سلبيتهم تجاه زعيمهم الضال المنحرف .

« واستخفاف الطغاة للجماهير لاغرابة فيه ، فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ولا يعودون يبحثون عنها ، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة ، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين .. ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلاوهم فاسقون لا

(1) سورة القصص : الآيات (38 : 40) .

(2) قوله ﴿ آسفونا ﴾ : قال القرطبي [9 / 6148 ، 6149 بتصرف] : روى الضحاك عن ابن عباس : أي أغاظونا وأغضبونا ، وروي عن أبي طلحة : أي أسخطونا .. قال الماوردي : ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط : إظهار الكراهة ، والغضب إرادة الانتقام . قال القشيري : الأسف هنا بمعنى الغضب من الله ، والغضب من الله : إما أن يكون إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات : وإما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل .. وقيل : « آسفونا » أي أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين ، كقولهُ تعالى ﴿ يؤذون الله ﴾ وقوله ﴿ يحاربون الله ﴾ أي أولياءه ورسله .

(3) سورة الزخرف : الآيات (51 : 56) .

(4) ابن كثير 4 / 130 ، القرطبي 9 / 6148 .

يستقيمون على طريق ، ولا يمسكون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان .. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة فى مهب الريح »[1] ..

وتبين الآيات القرآنية – في مشهد تصويري رائع مصير الشعوب الفاسقة المسايرة لقادتها المنحرفين الضالين . يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾[2] .. فها هو الطاغية كما كان قائدا لهم في الدنيا إلى الضلال والانحراف ، فهو قائدهم يوم القيامة إلى نار جهنم وبئس المصير ..

* * *

هذه نبذة مختصرة عن الانهيار الحضاري كما عرضه القرآن الكريم ، وهو ما تمثَّل واقعا مشاهدا في بعض الحضارات الضالة المنحرفة كما سيتبين من خلال الفصل التالي .

---

(1) في ظلال القرآن 5 / 3194 .

(2) سورة هود : الآيات (96 : 98) .

الفصل الثاني

بعض الشواهد القرآنية والتاريخية للانهيار الحضاري

المبحث الأول : من الشواهد القرآنية للانهيار الحضاري :

(عاد - ثمود)

المبحث الثاني : من الشواهد التاريخية للانهيار الحضاري :

(الحضارة اليونانية - الحضارة الرومانية)

الفصل الثاني

بعض الشواهد القرآنية والتاريخية للانهيار الحضاري

تعرضنا في الفصل السابق لأسباب وعوامل الانهيار الحضاري - كما بينها القرآن الكريم - والتي اقتضت حكمة المولى تبارك وتعالى أنها إن وجدت - كلها أو بعضها - في أمة أو مجتمع أو حضارة ، فإن هذه الأمة أو هذا المجتمع أو تلك الحضارة ، لابد أن تسقط وتنهار ؛ لتفسح المجال أمام حضارة أخرى صالحة ، تكون أكثر اقترابا من الغاية التي خلق الله الناس من أجلها .

وسنتعرض في هذا الفصل - إن شاء الله - لبعض الحضارات التي تحققت فيها عوامل الانهيار الحضاري ، فكان لابد من سقوطها وفنائها .. والحضارات موضع البحث هنا ، ورد الحديث عن بعضها في القرآن الكريم ، والبعض الآخر أشار إليه القرآن الكريم إشارات عامة ، وتكفلت كتب التاريخ تفاصيل الحديث عنها ، ومن هنا جاء هذا الفصل في مبحثين :

أولهما : من الشواهد القرآنية للانهيار الحضاري .

ثانيهما : من الشواهد التاريخي للانهيار الحضاري .

المبحث الأول

بعض الشواهد القرآنية للانهيار الحضاري

تحدث القرآن الكريم عن كثير من الأمم التي بادت واندثرت ، بسبب كفرها وانحرافها عن منهج السماء ، وتمسكها بالقيم والموازين الأرضية الجاهلية .

وسيقتصر الحديث هنا على اثنتين من أهم تلك الأمم ، وهما « حضارة عاد ، وحضارة ثمود » اللتان سجل لهما القرآن الكريم بعض المظاهر الحضارية ، وبعض أمارات الرقي والتمدن ، ولكنهما كانتا حضارتين ضالتين ، منحرفتين ، بعيدتين عن هدي السماء ، فحق عليهما الفناء والزوال .

(1) حضارة عاد

ذكرت قصتهم في القرآن الكريم عدة مرات [1] .. في بعضها تفصيل لمواقفهم ومساجلاتهم مع نبي الله سيدنا هود عليه السلام ، وفي البعض الآخر حديث عن فنائهم وهلاكهم بسبب كفرهم وعنادهم ومعارضتهم لمنهج السماء .

و« عاد » من القبائل العربية التي يطلق عليها « العرب العاربة » ، وهي القبائل التي كانت قبل سيدنا إسماعيل عليه السلام [2] .

وكانت « عاد » تسكن اليمن – في منطقة حضرموت تحديدا – ويذكر الإمام ابن كثير أنهم كانوا عربا ، يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل ، وتقع بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها « الشحر » ، واسم واديهم « مغيث » [3] .. بينما يذكر الشيخ / عبد الوهاب النجار أن مساكنهم كانت في شمال حضرموت ، وفي شمالها الربع الخالي ، وفي شرقها عمان ، وهذا يعني أن مساكن القوم لم تكن مطلة على البحر كما ذكر الإمام ابن كثير وغيره [4] .

وأيا ما كان الأمر ، فإن تحديد المكان لا تأثير له في الدروس والعبر المستفادة من

---

(1) في سورة : الأعراف (65 - 72) ، وهود (50 - 60) ، والمؤمنون (31 - 41) ، والشعراء (123 - 140) ، وفصلت (13 - 16) ، والأحقاف (21 - 26) ، والفجر (6 - 8) .... إلخ .

(2 – 3) ينظر : البداية والنهاية . ابن كثير 1 / 138 .

(4) ينظر : قصص الأنبياء . الشيخ : عبد الوهاب النجار ص : 71 .

قصتهم ، وغاية ما ذكره القرآن أنهم كانوا يسكنون الأحقاف . قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ .... ﴾ [1] .

وفي تحديد زمان وجودهم ، يذكر القرآن الكريم أنهم كانوا بعد قوم سيدنا نوح عليه السلام ، حيث يخاطبهم سيدنا هود قائلا – كما حكى القرآن عنه : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .... ﴾ [2] .

المظاهر الحضارية في قصة عاد :

يمكن للمرء أن يرصد تلك المظاهر الحضارية من خلال بعض الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن القوم .. ومنها :

(1) قوله تعالى – حكاية عن سيدنا هود عليه السلام وهو يخاطب قومه – :

﴿ ... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [3] .

في هذه الآية بيان لبعض النعم التي أنعم الله بها على عاد قوم هود ، منها ما ذكر نصا كاستخلافهم في الأرض بعد قوم نوح ، وكذلك البسطة في الخلق ، ومنها ما ذكر إجمالا في قوله ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ مما سيأتي تفصيله في سور أخرى .

ودلالة هذه الآية الكريمة على المظاهر الحضارية في قصة عاد من وجهين : –

الأول : استخلافهم في الأرض بعد قوم نوح ، يدل على السيادة والسلطان واتساع الملك .

الثاني : ما قاله سيدنا هود عليه السلام ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ فهو يدل على توافر عنصر القوة والحيوية في الثروة البشرية التي هي عماد صنع الحضارة .

وقد ذكر المفسرون في هذا الموضع أقوالا كثيرة وروايات عدة عن صفة قوم هود لا يطمئن القلب إليها ، وقد أحسن الإمام الرازي – في تفسيره لهذه الآية – حينما بين أن الزيادة إما أن تكون في الأجسام ، أو تكون في القوة ، ثم قال : « لفظ الآية يدل على حصول الزيادة ، وأما اعتداد تلك الزيادة فليس في اللفظ البتة ما يدل عليه ، إلا أن العقل يدل على أن تلك الزيادة يجب أن تكون عظيمة واقعة على خلاف المعتاد ، وإلا

---

(1) سورة الأحقاف جزء من : الآية (21) .

(2 ، 3) سورة الأعراف جزء من : الآية (69) .

لم يكن لتخصيصها بالذكر في معرض الإنعام فائدة » [1] .

(2) قوله تعالى في سورة هود حكاية عنه وهو يدعو قومه :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ... ﴾ [2] .

يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ . « قال مجاهد : شدة على شدتكم . الضحاك : خصبا إلى خصبكم . علي بن عيسى : عِزًّا على عزكم . عكرمة : ولدا إلى ولدكم » [3] .

ويذكر الإمام الرازي أن غاية السعادة والبهجة تتحقق بأمرين :

الأول : كثرة النعم ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ .

الثاني : حصول القوة والقدرة على الانتفاع بتلك النعم ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ... ﴾ .

وذكر أن المفسرين قالوا : إن عادًا كانوا يفخرون على الناس بأنهم أصحاب مزارع وبساتين ، وبأنهم كانوا في غاية القوة والبطش ، ومن ثم وعدهم سيدنا هود – عليه السلام – أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فإن الله تعالى يقوي حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيهما درجات كثيرة [4] .

(3) قوله تعالى في سورة الشعراء في سياق دعوة سيدنا هود – عليه السلام – لقومه :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ .

---

(1) الرازي 7 / 172 . كما يراجع تفسير الآية في : جامع البيان عن تأويل آي الفرقان (تفسير الطبري) – الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (240 - 310 هـ) – المجلد الخامس 8 / 152 ، 153 . غرائب القرآن ورغائب الفرقان – الإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري مطبوع بهامش تفسير الطبري 8 / 140 . روح البيان الإمام الشيخ إسماعيل حقي البروسوي (ت 1137 هـ) 3 / 186 . تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) / الشيخ محمد رشيد رضا – 8 / 498 . الأساس في التفسير – الشيخ سعيد حوى – 4 / 1936 . تفسير ابن جزي – الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ص : 211 – .

(2) سورة هود : الآية (52) .

(3) القرطبي 4 / 3369 .

(4) يراجع : الرازي : 8 / 550 ، 551 .

اختلفت أقوال المفسرين في تأويل هذه الآيات [1] . وحاصل القول أن عادا قد بلغت من الرقي والتمدن مبلغا عظيما ، لدرجة أنهم كانوا يبنون البنايات العجيبة في الجبال والأماكن المرتفعة ، ويشيدون فيها القصور الفاخرة ، والحصون المحصنة ، لا لشيء إلا لمجرد إظهار الغنى والثراء ، وإظهار أنهم أهل تمدن وأصحاب رقي وحضارة .

ثم يأتي قوله : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [2] ليبين أنه قد توافرت لهم كافة المقومات المادية لبناء الحضارة وازدهارها ؛ فهناك الثروة البشرية المشار إليها بقوله ﴿ وَبَنِينَ ﴾ ، والثورة الحيوانية المشار إليها بقوله ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ ﴾ ، والثروة الزراعية المشار إليها بقوله ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ ، والثروة المائية المشار إليها بقوله ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ .

وقد ازدهرت حضارتهم فعلا ونمت وترعرعت ، فقوله تعالى ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ يفيد بأن « عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يذكر ، حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور ، وتشييد العلامات على المرتفعات ، وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشئونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت ، ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء » [3] .

(4) قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [4] .

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بآية سورة الأعراف المذكورة آنفا ، فهناك يذكّرهم سيدنا هود – عليه السلام – بنعمة الله عليهم في زيادة قوتهم وضخامة أجسامهم ، وهنا تطغيهم النعمة ويفتخرون بها قائلين : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ناسين أن الله الذي أعطاهم القوة والذي أوجدهم من العدم أصلا ، هو أشد منهم قوة .

(5) قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ

---

(1) قال ابن عباس – رضي الله عنه – : الريع هو ما ارتفع من الأرض ، وقال قتادة ، والضحاك ، والكلبي ، ومقاتل ، والسدي : الريع هو الطريق ، وقاله ابن عباس أيضا ، وقال عمارة : الريع هو الجبل وقال مجاهد : هو الفج بين الجبلين ، وعنه : الثنية الصغيرة .. واختلف أيضا في المراد بقوله « مصانع » ، فقال الكلبي : منازل ، وقال ابن عباس ، ومجاهد : حصونا مشيدة ، وقال مجاهد أيضا : قصورا مشيدة ، وعنه وعن السدي : بروج الحمام ، وعن قتادة : مآخذ للماء تحت الأرض . (يراجع القرطبي 7 / 5002 ، 5003) .

(2) سورة الشعراء : الآيات (132 - 134) .

(3) الظلال 5 / 2609 ، 2610 .

(4) سورة فصلت : الآية (15) .

مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [1] .

تدل هذه الآيات الكريمات على مدى التقدم والتطور في أمة عاد ، حيث تتحدث الآيات عن مدينة إرم ذات العماد ، أي ذات الأبنية المرفوعة على العمد . وكانوا ينصبون الأعمدة فيبنون عليها القصور .

هذا وقد اختلف أهل التأويل في هذه الآيات اختلافا كبيرا [2] والذي يعنينا أن الآيات تعطي إشارة واضحة للتقدم والمدنية في أمة عاد ، التي لم يوجد مثيل لها في ذلك الزمان ، من حيث التحضر والتمدن والرقي المادي .

التكذيب والإعراض في قصة عاد :

وقف القوم من نبيهم هود – عليه السلام – موقف التكذيب والإعراض ، وأصروا على الكفر إصرارا ، واتهموا نبيهم بالسفه تارة ، وبالجنون تارة أخرى .

وبالجملة ، فقد ارتكبوا جميع الجرائم ، واستكملوا كافة أسباب السقوط الحضاري التي سبق ذكرها وذكْر الآيات القرآنية الكريمة الدالة على ما فعله قوم هود – عليه السلام – ، فكان لابد أن تمضي سنة الله التي لا تتخلف ، فتهلك الأمة الظالمة ويستبدل الله بها غيرها .

المشهد الأخير في قصة عاد (الهلاك والفناء) :

تحدثت كثير من الآيات القرآنية عن هلاك عاد قوم هود ، وتنوعت أساليب العرض في تلك الآيات : فمنها آيات تحدثت عن هلاكهم في سياق حديث عن المكذبين من الأمم السابقة ، ومنها آيات تحدثت عن هلاك عاد خاصة ، ولكن بإجمال دون تفصيل أو إسهاب ، ومنها آيات تحدثت بالتفصيل عن هلاك القوم وفنائهم .. والقسمان الأخيران هما موضع البحث هنا .

فمن الآيات التي تحدثت عن هلاك عاد حديثا إجماليا :

(1) قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

---

(1) سورة الفجر : الآيات (6 : 8) .

(2) قال ابن زيد : « ذات العماد » يعني إحكام البنيان بالعمد . ومن جعل « إرم » اسما للمدينة قدر محذوفا ، تقديره : ألم تر كيف فعل ربك بعاد صاحبة إرم ذات العماد .

يراجع : القرطبي 10 / 7375 : 7381 ، ابن كثير 4 / 507 ، 508 ، الرازي 16 / 394 : 400 أبو السعود المجلد الثالث 5 / 261 .

بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

والآية تفيد استئصال الكافرين المكذبين استئصالا تاما (2) .

(2) وقوله سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (3) .

وفي الآيات إشارة إلى شدة العذاب وهَوْله ، وذلك في وصف العذاب بأنه « غليظ » .

(3) وقوله جل شأنه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ... ﴾ إلى أن قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (4) .

يقول الإمام الرازي : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به (5) .

ومن الآيات التي تحدثت عن هلاك عاد حديثا تفصيليا :

(1) قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (6) .

(2) وقال جل شأنه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (7) .

جمعت عليهم الآية العذاب النفسي والبدني ، فالعذاب النفسي يتجلى في خيبة الرجاء وانقطاع الأمل بعد طول ترقب وطول انتظار لهذا المطر من تلك السحابة التي كانوا ينتظرون منها الخير ، فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والفناء والدمار .. والعذاب البدني تصوره الآيتان تصويرا بديعا حيث الريح تجري بأمر ربها لتدمر كل شيء ،

(1) سورة الأعراف : الآية (71) .

(2) يستفاد ذلك من قوله ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

(3) سورة هود : الآية (58 - 60) .

(4) سورة الفجر : الآيات (6 - 14) .

(5) الرازي 16 / 399 .

(6) قال ابن كثير « فجعلناهم غثاء » أي صرعى هلكى كغثاء السيل ، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه . ابن كثير 3 / 253 . سورة المؤمنون : الآية (41) .

(7) سورة الأحقاف : الآيتان (24 ، 25) .

فأصبحت الديار خالية يصفر فيها الهواء ، فقد هلك القوم ، وهلكت أنعامهم وماشيتهم ، وزالت حضارتهم .

ثم تختم الآيات ببيان أن ما حدث لعاد إنما هو سنة مطردة لكل المجرمين من أصحاب الحضارات الفاسدة الظالمة المنحرفة عن منهج الله .

(3) وقال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [1] .

(4) قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [2] .

انظر إلى قوله سبحانه ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ إنه يفيد أن القوم قد استؤصلت شأفتهم ؛ فلم يبق لهم أثر في الوجود ، وهذه دائما نهاية الظالمين المجرمين .

هذا مثال واضح لحضارة انحرفت عن الطريق السوي ، فكفرت بأنعم الله ، وارتكبت كثيرا من الموبقات فهلكت وفنيت ، ولم يبق لها في الوجود من ذكر سوى تلك اللعنات المتلاحقة إلى يوم القيامة ..

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [3] .

---

(1) سورة الذاريات : الآيتان (41 ، 42) .
(2) سورة الحاقة : الآيات (6 - 8) .
(3) سورة هود : الآية (60) .

(2) حضارة ثمود

« ثمود » قبيلة عربية من العرب العاربة ، وكانوا يسكنون منطقة تسمى « الحِجْر » ، وتقع شمال شبه الجزيرة العربية بين الحجاز وتبوك . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [1] .

وقد مرَّ بها النبي ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك ، فعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما – قال : « لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور ، فأمرهم رسول الله ، فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا فقال : « إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » .

وفي بعض الروايات « أنه ﷺ لما مرَّ بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ، ونهى عن دخول منازلهم ، إلا أن تكونوا باكين » .

وفي رواية : « فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » [2] .

مظاهر الحضارة في قصة ثمود :

(1) قوله تعالى على لسان سيدنا صالح عليه السلام وهو يخاطب قومه ويرغبهم في الإيمان : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [3] .

يقول صاحب الظلال : « ... نلمح من تذكير صالح لهم أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور وينحتون في الجبال البيوت ، فهي حضارة

---

(1) سورة الحجر : الآية (80) .

(2) مسلم : ك الزهد والرقائق ب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين 4 / 2886 (2980) – أحمد 2 / 66 .. كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(3) سورة الأعراف : الآية (74) .

قوله ﴿ بوأكم في الأرض ﴾ قال أبو السعود : أي جعل لكم مباءة ومنزلا في أرض الحجر بين الحجاز والشام . أبو السعود . المجلد الثاني 2/ 176 . وقال الإمام الرازي : ﴿ وبوأكم في الأرض ﴾ أنزلكم ، والمبوأ : المنزل من الأرض . (الرازي 7 / 180) .

عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير .

وصالح – عليه السلام – يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها ، ولكن يبدو أنهم أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضا ، وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض ، محكمين فيها . وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد ، اغترارًا بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين [1] .

(2) قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ [2] .

قوله : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي لا يخافون أن تخرب أو تسقط عليهم . أو ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من الموت أو من عذاب الله [3] .

ويلاحظ أن نحت الجبال واتخاذها بيوتا هو العنصر البارز في حضارة ثمود ، حيث يذكر دائما في ثنايا قصتهم . وهو بلا شك دليل على مدى التقدم والتطور والرقي المادي في تلك الحضارة .

(3) قوله تعالى – على لسان صالح – عليه السلام – وهو يذكر قومه بنعم الله عليهم : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [4] .

ذكر المفسرون في تأويل قوله : ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ أقوالا كثيرة ، يفيد مجموعها أن ناتج زروعهم ونخيلهم كان هنيئا مريئا ، يانعًا نضيجًا ، يلتذُّ به آكله [5] .

كذلك في قوله ﴿ فَٰرِهِينَ ﴾ ذكروا أقوالا كثيرة ، تنتهي إلى معنيين :

أحدهما : أنهم كانوا حاذقين مهرة ، يتقنون هذا العمل .

ثانيهما : أنهم كانوا يتخذون الجبال بيوتا لا لشيء إلا الافتخار والأشر والبطر والتجبر .

ويقول الإمام ابن كثير : « ولا منافاة بينهما ؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين

---

(1) الظلال : 13 / 1313 .
(2) سرة الحجر : الآية (82) .
(3) القرطبي 5 / 3776 .
(4) سورة الشعراء : الآيات (146 : 150) .
(5) ابن كثير 3 / 354 ، 355 ، القرطبي 7 / 5006 ، 5009 ، أبو السعود المجلد الثالث 4 / 115 .

لنحتها ونقشها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم » [1] .

وآيات سورة الشعراء تبين أن القوم كانوا ينعمون بنهضة زراعية كبيرة ، بالإضافة إلى نهضتهم العمرانية الهائلة التي كانت المعلم الأول من معالم حضارتهم .

(4) قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [2] .

قوله ﴿ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ ﴾ أي قطعوه ، و « الواد » هو وادي القرى كما قال محمد بن إسحاق .. قال القرطبي : « قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود » [3] .

بعد هذا كله يمكن الجزم بأنهم كانوا أصحاب رقي ومدنية وحضارة مادية هائلة .

التكذيب والإعراض في قصة ثمود :

أورثت الحضارة المادية أهلها عتوا واستكبارا ، جعلهم يأنفون من الانقياد لغير شهواتهم وأهوائهم ، فأعرضوا عن منهج الله ، واتهموا تنبيه بالجنون والسحر ، ثم بلغ بهم الكفر والتمرد أن ارتكبوا جريمة شنعاء تمثلت في عقر الناقة التي كانت آية بينة على صدق نبيهم صالح – عليه السلام – ورغم تحذيرات سيدنا صالح لهم إلا أنهم عقروها فاستحقوا الهلاك والدمار .

المشهد الأخير في قصة ثمود (الهلاك والفناء) :

من سنن الله الكونية – كما سبق القول – أنه إذا انحرفت الحضارة عن الصراط المستقيم فلابد أن تسقط وتنهار . وهذا هو ما حدث مع حضارة ثمود كما تبينه الآيات التالية :

(1) قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [4] .

(2) قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ

---

(1) ابن كثير 3 / 355 .
(2) سورة الفجر : الآية (9) .
(3) ينظر القرطبي 10 / 7385 .
(4) سورة الأعراف : الآيات (77 : 79) .
قوله ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ قال الفراء والزجاج ، هي الزلزلة الشديدة ، قال تعالى : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ المزمل : الآية (14) ، الرازي 7 / 13 .
قوله ﴿ جاثمين ﴾ : قال أبو السعود : « خامدين موتى لا حراك بهم » أبو السعود / المجلد الثالث 2 / 177 .

مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [1] .

(3) قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [2] .

هكذا ... هلكت ثمود وبادت ، وذهبت في لجج التاريخ ، لتلحق بأختها عاد وتشاركها في اللعن والطرد من رحمة الله ..

﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [3] .

---

(1) سورة هود : الآيات (65 : 68) .

قوله تعالى ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ قال الرازي : « إنما قال تعالى ﴿ أخذ ﴾ ولم يقل « أخذت » لأن الصيحة محمولة على الصياح ، وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل ، فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث (الرازي 8 / 564) .

وقال أبو السعود : ﴿ الصيحة ﴾ أي صيحة جبريل – عليه الصلاة والسلام – وقيل : أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم « أبو السعود : المجلد الثاني 3 / 23 » . والسر في قوله هنا ﴿ ديارهم ﴾ وفي الأعراف ﴿ دارهم ﴾ كما قال أبو السعود – أنه « حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار ، وحيث ذكرت الصيحة جمعت ، لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة ، فقرن كل منهما بما هو أليق به « السابق . المجلد الثاني 2 / 177) .

قوله ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي « كأن لم يقيموا ويتمتعوا .. وإنه لمشهد مؤثر ، وإنها للمسة مثيرة .، والمشهد معروض ، وما بين الحياة والموت – بعد أن يكون – إلا لمحة كومضة العين ، وإذا الحياة كلها شريط سريع ، كأن لم يغنوا فيها » الظلال 4 / 1909 .

(2) سورة الفجر : الآيات (9 : 14) .

(3) سورة هود : الآية (68) .

المبحث الثاني

بعض الشواهد التاريخية للسقوط الحضاري

نستعرض في هذا الموضع بعض نماذج السقوط الحضاري التي تكفّلت بذكر تفاصيلها كتب التاريخ ، وإن كان من الممكن القول بأن في القرآن الكريم إشارات لهذه الحضارات المندثرة الهالكة ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (1) وقوله ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (2) .. وغيرهما من الآيات .

(1) الحضارة اليونانية

تعد الحضارة اليونانية أرقى حضارات التاريخ القديم ، وقد أسهمت بنصيب وافر في التراث البشري بما قدمته من فلسفة وأدب .

وعلى الرغم من الرقي المادي الهائل ، كان لابد أن تنهار الحضارة اليونانية انهيارًا مروعا ، ذلك أنها قامت على أساس وثني بحت ، وحُرِمَتْ من توجيهات الوحي الإلهي ، فعاشت في براثن الجاهلية المادية ، التي تجلت في عدة صور على النحو التالي :

(1) الانحراف الديني وفساد العقيدة :

« كان لليونان فلسفة إلهية وعقائد يستغرب معها الخشوع لله وعبادته والتضرع له والالتجاء إليه والاطِّراح على عتبته ، فإن من ينفي الصفات عن الله تعالى ويعطله ، وينفي عنه الاختيار والأفعال والخلق والأمر في هذا الكون ، ويربط هذا العالم بما يسمونه « العقل الفعال وحركات الأفلاك » فإنه بطبيعة هذه العقيدة لا يقصد الله في حياته العملية إلا تقليدا ، ولا يرجوه ولا يهابه ولا يحبه ولا يخر لعظمته ، ولا يستغيث به في شدته ولا يسبح بحمده ، ويعيش كأنه لا إله ولا رب » .

ويقول « ليكي » في كتابه « تاريخ أخلاق أوروبا » : « لا نعلم دينا من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده في كثرة الأفراح والأعياد والألعاب ، وفي قلة الخشية والخشوع ، فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم ، وكانوا

---

(1) سورة الإسراء : الآية (17) .

(2) سورة الأنبياء : الآية (11) .

يكتفون في تعظيمه وتمجيده ، برسوم عادية وتقاليد جارية »[1] .

(2) **المادية :**

غلبت المادية على الحضارة اليونانية إلى درجة أنهم « لم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته إلا في شكل آلهة شتى ، نحتوا لها تماثيل ، وبنوا لها معابد وهياكل.. فللرزق إله ، وللرحمة إله ، وللقهر إله .. ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادي ، ونسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات . وصوروا المعاني المجردة وتصوروها في أجسام وأشكال .. فللحب إله ، وللجمال إله .. وليس نظام « العقول العشرة » و « الأفلاك التسعة » في فلسفة « أرسطاطاليس » ، إلا رشحة من رشحات هذه المادية التي لا تتخلى عنها الطبيعة اليونانية »[2] .

(3) **العنصرية :**

كانت العنصرية والتعصب للجنس اليوناني ، من أهم خصائص الحضارة الإغريقية ، ولقد تغلغلت في كيانهم إلى الحد الذي أصاب فكرة العالمية التي نطق بها بعض حكمائهم - كسقراط وإنكساغورس - بالفشل الذريع ، مما جعل حب الوطن والتعصب له يتقدم فضائل الأخلاق التي أجمع عليها حكماء اليونان .

ولم يكتف أرسطاطاليس بالتمييز بين اليوناني وغيره ، بل قال : إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم .

وعندما قال أحد فلاسفتهم أنه لا يخص مواطنيه بمواساته بل سيكون برّه عاما للجميع استشرفه الناس عجبا ونظروا إليه شزرا[3] .

(4) **الانحطاط الخلقي :**

« جعلت الشهوات النفسية تتغلب على أهل اليونان ، ويجرف بهم تيار الغرائز البهيمية والأهواء الجامحة ، فتبوأت العاهرات والمومسات مكانة عالية في المجتمع لا نظير لها في تاريخ البشرية كله ، وأصبحت بيوت العاهرات مركزا يؤمه سائر طبقات المجتمع ، ومرجعا يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة ..... وأصبحن القطب الذي تدور حوله

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . أبو الحسن الندوي ص : 178 .

(2) المرجع السابق ص : 177 .

(3) المرجع السابق ص : 180 .

رحى الأمة اليونانية ، فما كن يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب ، بل كانت المشاكل السياسية أيضا تُحَلُّ عُقَدُها وتَفكُّ معضلاتها بحضرتهن وتحت إشرافهن .

وقد بلغ بهم التعسف في هذا الشأن أن كانوا يرجعون في المسائل الرئيسية التي تعلوا بها أمة وتسفل ، وتحيا لها وتموت إلى المرأة التي ربما لا ترضى أن تعاشر رجلا بعينه أكثر من ليلة أو ليلتين ...

وتبدلت مقاييس الأخلاق إلى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم - لا يرون في الزنا وارتكاب الفحشاء جريمة يلام عليها المرء ويعاب .. وأصبح عامتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظرة من لا يهتم به ولا يرى إليه حاجة ، وقلما يرون بأسا بأن يعاشر الرجل المرأة ويخادنها علنا من غير عقد ولا نكاح ، فكانت النتيجة أن خضعت لأخلاقهم وغرائزهم الشهوانية هذه ديانتهم أيضا ، وانتشرت فيهم عبادة « أفروديت » ، التي كان من قصتها عندهم في الأساطير كونها خادنت ثلاثة آلهة مع كونها زوجة إله خاص ، وأيضا كان من أخدانها رجل من عامة البشر ، علاوة على تلك الآلهة ، ومن بطنها تولد « كيوبيد » إله الحب نتيجة اتصالها بذلك الخدن البشري .

وما رأيك في أخلاق أمة وانحطاطها المعنوي والخلقي ، اتخذت من هذه الطباع رمزا للكمال ، بل إلها يعبد ، وتقدم له جميع آداب العبودية والذل والخنوع ؟!.. هذه - ولا ريب - درجة من الانحطاط الخلقي إذا تردت فيها أمة لم تتمكن من النهوض مرة أخرى ...

ثم ظهرت الغريزة البهيمية في أهل اليونان بمظهر آخر ، هو أن انتشرت فيهم سوءة قوم لوط انتشارا كاد يأتي على الأخضر واليابس ، ورحبت بها الديانة والأخلاق أيضا ...

ولما ترقت المدنية وأخذت في تزيين العري واتباع الشهوات بالأسماء الجذابة - كالفن وتذوق الجمال - التهبت الغرائز الشهوانية في القوم التهابا جعلهم يتنكبون الطريق الفكري ويتخذون لإرواء غليل شهواتهم طريقا تأباه الفطرة وتمجه الطباع السليمة ... وشهد علماء الأخلاق عندهم بأن هذه (العلاقة) آصرة للصداقة وثيقة بين الرجلين .. واليونانيان اللذان هما أول من عظمتهما الأمة وأكرمتهما ببناء تماثيل لهما ، هما : « هرموديس » و « أرستوجتين » اللذان جمع بينهما ذلك الحب المنكر الذي تأباه الفطرة البشرية السوية .

ولم يمض على ذلك عشية أوضحاها حتى آل أمر الحضارة اليونانية إلى الانقراض ،

وأصبح أمرها من خبر كان وأمس الدابر ...

وبعد .. فالتاريخ شاهد بأن اليونان لم يكن من نصيبهم المجد والرقي بعد ذلك مرة أخرى [1] .

(2) الحضارة الرومانية

ورثت الحضارة الرومانية أختها الحضارة اليونانية ، وحلت محلها في الإمساك بزمام القيادة للحضارة الإنسانية .. بيد أن الحضارة الرومانية – وإن تفوقت في جانب القوة والتنظيم واتساع الإمبراطورية – فإنها لم تلحق بأختها في العلم والفلسفة والآداب والشعر [2] .

ومع ذلك « لم يكن الروم – بطبيعتهم الأوروبية – يختلفون عن اليونان في الخصائص الفكرية كثيرا ، بل هناك شبه عظيم بين الأمتين : إيمان بالمحسوس ، وغلو في تقدير الحياة ، وشك في دين ، وضعف في يقين ، واضطراب في العقيدة ، واستخفاف بالنظام الديني وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن . زد إلى ذلك كله اعتدادا بالقوة واحتراما زائدا لها يبلغ العبادة والتقديس » [3] .

تكاد هذه الأمور تكون هي نفس العوامل التي أدت إلى سقوط الحضارة اليونانية :

1 - الانحراف الديني وفساد العقيدة :

يتجلى هذا في الوثنية التي كانت سائدة في سائر أرجاء الإمبراطورية . وكانت نظرتهم لآلهتهم نظرة عجيبة يعبر عنها « سيسرو » بقوله : « لما كان الممثلون ينشدون في دور التمثيل أبياتا معناها أن الآلهة لا دخل لهم في أمور الدنيا ، يصغي إليها الناس ، ويسمعونها بكل رغبة » ويقول الراهب أغسطين : « إن الروم الوثنين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزؤون بهم في دور التمثيل » [4] .

2 - العنصرية والمادية وسيادة منطق القوة :

يقول العالم الألماني المسلم الأستاذ / محمد أسد : « إن الفكرة التي كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هي احتكار القوة لها ، واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة الوطن الرومي فقط . ولم يكن رجالها والقائمون عليها يتحاشون من أي ظلم وقسوة في

(1) مقتطفات من : الحجاب . أبو الأعلى المودودي ص : 14 - 16 .

(2) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . يراجع ص : 180 ، 181 .

(3) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص : 180 . (4) المرجع السابق ص : 182 .

سبيل خفض العيش لطبقة ممتازة . أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للروم فقط .. إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادي محض للحياة والحضارة . وإن كانت ماديتهم قد ذهبت بذوق عقلي لكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية » [1] .

3 - الانحطاط الأخلاقي :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات – هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ... بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتارا .. وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ... » [2] .

« ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل برقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة ، ومازال هذا التبديل يطرأ على نظمهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة وعقد الزواج والطلاق .. إلى أن انقلب الأمر ظهرًا لبطن ، وانعكست الحال رأسا على عقب ، فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدني فحسب ، يتوقف بقاؤه ومضيّه على رضا المتعاقدين ، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلا ...

ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلا جعله شيئا عاديا يُلجأ إليه لأتفه الأسباب .. فهذا « سينكا » الفيلسوف الروماني الشهير (4 ق . م – 56 م) يندب كثرة الطلاق ويشكو تفاقم خطبه بين بني جلدته فيقول : « إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئا يُندم عليه أو يُستحيا منه في بلاد الرومان ، وقد بلغ من كثرته وذيوع أمره أن جعلت النساء يعْدُدْن أعمارهن بأعداد أزواجهن » وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلا بعد آخر وتمضي في ذلك من غير حياء .

وقد ذكر « مارسل » (43 - 104 م) امرأة تزوجت عشرة رجال ، وكذلك كتب « جوونيل » عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات . وأعجب من ذلك ما ذكره القديس جروم (340 - 420 م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هي أيضا الزوجة الحادية والعشرين لبعلها .

ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع ، وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون

---

(1) المرجع نفسه ص : 183 .
(2) المرجع نفسه ص : 184 .

الزنا شيئا عاديا .. فهذا « كاتو » الذي أسندت إليه الحِسْبة الخلقية سنة 84 قبل الميلاد يجهر بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب ، وذاك « شيشرون » المُصْلح الشهير ، يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ، ويشير بإطلاق العنان لهم في هذا الشأن ..

ولا يقتصر الأمر عليهما ، بل يأتي « إيبكتبتس » الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين ، فيقول لتلاميذه مرشدا ومعلما : « تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج إن استطعتم ، ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحدا أو تؤنبوه إذا ما لم يتمكن من كبح جماح شهواته » .

ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا الحد ، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات ، فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعري المشين ، وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء .

ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات ، وانجذبت إليها نساء البيوتات ، وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص في عصر القيصر « تائي بيريس » (4 - 37 م) لمنع نساء البيوتات من احتراف مهنة المومسات وصناعتهن النافقة .

ونالت مسرحية « فلورا » حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوي على سِبَاق النساء العاريات ، وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد . أما سرد المقالات الخليعة والقصص الماجنة العارية فكان شغلا مرضيا مقبولا لا يتحرج منه أحد ، بل الأدب الذي كان يتلقاه الناس بالقبول والرضى هو الذي يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف ، وهو الذي تبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة ، غير مقنَّعةٍ بحُجُب من المجاز والكنايات .

فكان من انغماسهم في الشهوات البهيمية ، ومجاوزتهم الحد في إيجاد طرق لإطفاء أوارها ، أن دالت دولة الرومان ، وتمزق جمعها كل ممزق [1] .

* * *

وبعد ! فهذه شواهد قرآنية وتاريخية ثبت من خلالها واقعيا ما سبق إيراده في الفصل الأول من عوامل الانهيار الحضاري في القرآن الكريم ..

والآن ، حري بنا أن ننطلق إلى الحضارة الغربية – التي تمثل الأساس الحضاري للنظام الدولي الجديد – ليطبق عليها المعايير القرآنية في ميدان تقويم الحضارات ..

---

(1) الحجاب ص : 18 – 20 بتصرف .

الفصل الثالث

الانهيار الحضاري في النظام الدولي الجديد

المبحث الأول : حتمية سقوط الحضارة الغربية المادية

أولا : سيطرة المادية على الحضارة الغربية الحديثة .

ثانيًا : الانحطاط الخلقي في الحضارة الغربية .

المبحث الثاني : بوادر الانهيار في النظام الدولي الجديد

على المستويات : (السياسية - الاقتصادية - العسكرية - الاجتماعية)

الفصل الثالث

الانهيار الحضاري في النظام الدولي الجديد

بعد أن تعرضنا لأسباب السقوط الحضاري - كما جاءت في القرآن الكريم - وبعد أن أوردنا نماذج للسقوط الحضاري من خلال آيات القرآن الكريم وشواهد التاريخ ؛ يتجه الحديث في هذا الفصل إلى الحضارة الغربية الحديثة ، وهي تمثل الأساس الحضاري للنظام الدولي منذ أن تخلى المسلمون عن مؤهلات القيادة والزعامة .

وسيكون الحديث هنا في صورة تقويم للحضارة الغربية الحديثة من خلال المنظور الإسلامي القويم ، الذي يحكم على الحضارة من خلال قربها أو بعدها عن منهج الفطرة السوية ، التي فطر الله الناس عليها ، والتي بعث الأنبياء بالشرائع المنسجمة والمتوافقة معها .

* * *

المبحث الأول

حتمية سقوط الحضارة الغربية المادية

تحدث كثير من كبار المفكرين في الغرب عن الحضارة الغربية الحديثة ، موجهين إليها سهام النقد اللاذع . وسيفسح المجال هنا لبعض هؤلاء المفكرين والقادة وهم يتحدثون عن الإفلاس الحضاري في حضارتهم المادية الحديثة .

يقول « برتراندرسل » الفليسوف الإنجليزى المعاصر : « لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض .. وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة . وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التي لقيها خلال أربعة قرون .... » [1] .

ويقول العالم الأسباني « فيلاسبازا » : « إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة ، ولا خلق ابتسامة واحدة .. وليس أجدر من أمم الشرق — المحتفظة بالثقافة العربية الإسلامية ، والقائمة على إذاعتها - بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤم ، الذي يجر الإنسانية إلى هوة التوحش والتسلط المادي » [2] .

والفيلسوف الفرنسي « ألكسيس كاريل » يعد واحدا من أكثر مفكري الغرب صراحة ووضوحا في توجيه النقد للحضارة الغربية الحديثة ، حيث أصدر كتابه « الإنسان ذلك المجهول » معدِّدًا فيه مثالب تلك الحضارة ومندِّدًا بها فيقول :

« إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، فقد أنشئت دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم .. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ... إننا قوم تعساء ، ننحط أخلاقيا وعقليا . إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي - على وجه الدقة - الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ؛ إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العالم حولها .. وحقيقة الأمر أن مدنيتنا التي

(1) المستقبل لهذا الدين – سيد قطب .

(2) الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري – عمر بهاء الدين الأميري – ص : 22 .

سبقتها ، أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة ..... » [1] .

والواقع أن هؤلاء المفكرين ليسوا وحدهم في هذا الميدان ، فهناك كتب عدة تكفلت بمعالجة هذا الموضوع [2] .

لقد أجمع هؤلاء على أن الحضارة الغربية في سبيلها إلى الزوال والانهيار ، ذلك أنها – كما يرى رئيس أساقفة كنيسة « كانتربري » – قد استشرى فيها أهم عاملين من عوامل الانهيار الحضاري وهما :

1 - **اضمحلال الجانب الروحي ، وغلبة المادية وسيطرتها على جميع مناحي الحياة .**

2 - **الانحطاط الخلقي وانتشار الفوضى والإباحية** [3] .

وهذا ما سنتناوله في السطور التالية :

---

(1) يراجع المستقبل لهذا الدين ص : 59 - 61 ، الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة ص : 20 ، 21 .

(2) من أهم هذه الكتب :

* العودة إلى عالم جديد جريء – ألدوس هيكسلي .
* المهزلة البشرية – وليم سارويان .
* الغزو المجهول – ميشيل رونالد .
* أوربا بعد المطر آلان بوزنسن .
* تدهور الغرب – أزولد شبنكلر .

يراجع الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة ص : 19 ، 20 .

(3) يراجع : الحضارة الغربية على شفا جرف هار – مصطفى فوزي غزال ص 9 : 11 .

أولا : سيطرة المادية على الحضارة الغربية الحديثة

يعبر « شارل ديجول » الزعيم الفرنسي الشهير عن فقدان الحضارة الغربية للجانب الروحي فيقول بكل وضوح : « إن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئا ثمينا جدا تحت وطأه تقدمها الضخم ، ألا وهو « الإنسانية » ، وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا ، فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض . لقد جف شعورنا ، وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت » [1] .

ولم يجد الرئيس الأمريكي الأسبق « ريتشاد نيكسون » حرجا في أن يخاطب الشعب الأمريكي بعد فوزه بمنصب الرئاسة قائلا : « إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ولكن ممزقين في الروح .. ونصل بدقة رائعة إلى القمر ، وأما على الأرض فنتخبط في متاهات ومتاعب كبيرة » [2] .

ويقول مستر « دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق في كتابه «حرب أم سلام » : « إن هناك شيئا ما يسير بشكل خاطىء في أمتنا ، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية ... إن الأمر لا يتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية . إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي ، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلا . وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها... فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية فإن النتائج السيئة تصبح أمرا حتميا .. وفي بلادنا ، لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها ، وهناك حيرة في عقول الناس ، وتآكل لأرواحهم ... » [3] .

تأصل المادية في النفسية الأوروبية :

إن المادية أصل أصيل وركن ركين في النفسية الأوروبية ، منذ الحضارة اليونانية ، مرورا بالحضارة الرومانية ، ووصولا إلى الحضارة الحديثة .

يقول الأستاذ / أبو الحسن الندوي : « ليست الحضارة الغربية في القرن العشرين المسيحي وليدة هذه القرون المتأخرة – التي تلت القرون المظلمة في أوروبا – أو حديثة

(1) الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة ص 21 .

(2) المرجع السابق ص 22 .

(3) المستقبل لهذا الدين ص : 67 ، 68 .

كما يتوهم كثير من الناس ، بل يرجع تاريخها إلى آلاف السنين ، فهي سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية ، فقد خلفتهما في تراثهما السياسي والعقلي والمدني ، وورثت عنهما كل ما خلَّفتا من ممتلكات ، ونظام سياسي ، وفلسفة اجتماعية ، وتراث عقلي وعلمي ، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما ، بل انحدرت إليهما في الدم .

فقد كانت الحضارة اليونانية أول حضارة - سجلها التاريخ - قامت على أساس الفلسفة الأوروبية وتجلت فيها النفسية الأوروبية . وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومانية تحمل روحا واحدة هي الروح الأوروبية ... وظلت الشعوب الأوروبية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها ، حتى برزت بها في القرن التاسع عشر في ثوب براق ، يوهمك - بطلاوته وزهو ألوانه - أنه جديد النسج ، ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان (1) .

الفساد الديني وأثره في سيادة المادية :

اعترفت الإمبراطورية الرومانية بالنصرانية على يد قسطنطين ، الذي نجح في تكوين خليط من الوثنية الرومانية والديانة النصرانية ، وجعله الدين الرسمي للدولة بهدف تحقيق أغراضه السياسية وأهدافه الشخصية .

ولم تستطع هذه النصرانية المشوهة والملقحة بالوثنية الرومانية ، أن تغير من سيرة الروم المنحطة أو تبعث فيهم حياة جديدة ، بل إنها (ابتدعت) رهبانية مفرطة كانت شرا على الإنسانية والمدنية من بهيمية روما الوثنية . وقد ذكر « و . هـ . ليكي » في كتابه « تاريخ أخلاق أوروبا » الكثير من عجائب الرهبان ، الذين جعلوا تعذيب الجسم مثلا كاملا في الدين والأخلاق ، فيروى عن الراهب « مكاريوس » أنه نام ستة أشهر في مستنقع عاريا حتى يقرص جسمه الذباب السام ، وأن الراهب « يوحنا » ظل قائما في العبادة ثلاث سنين على رجل واحدة ...

إلى غير ذلك من عجائب الرهبانية العاتية ، ورغم ذلك لم تفلح هذه الرهبانية في أن تكبح جماح المادية الرومانية ، أو أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس ، بل على العكس من ذلك ، كانت هذه الرهبانية العاتية سببا في ردة فعل عنيفة ، فكانت حركة الفجور والإباحية وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنبا إلى جنب ،

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - بتصرف يسير ص : 175 : 176 .

بل الأصح أن الرهبانية كانت معتزلة في الصحاري والخلوات ، لا سلطان لها على الحياة وحركة الخلاعة والإباحية كانت ذاخرة طافحة في المدن والحواضر [1] .

« ومما زاد في تمسك القوم بالمادية ما رأوه من الفساد الفاضح والانحراف الشديد في المراكز الدينية ذاتها ، التي أصبحت تزاحم المراكز الدنيوية – وربما تسبقها – في الفسق والفجور .

يقول الراهب « جروم » : « إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما ، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعَدَوْا طورهم حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع ، وقد تباع بالمزاد العلني ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأدوات النقد وطوابع البريد ، ويرتشون ويرابون ، وقد بذروا المال تبذيرا ، حتى اضطر البابا « أنوسنت الثامن » أن يرهن تاج البابوية ، ويذكر عن البابا « ليو العاشر » أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال ، وأنفق نصيبه ودخله ، وأخذ إيراد خليفته المرتقب سلفا وأنفقه ، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم .. » [2] .

وفي القرن الحادي عشر بدأ النزاع والخلاف بين البابوية والإمبراطورية يشتد بعنف ، وكانت الغلبة في البداية للبابوية ، وليس أدل على ذلك مما حدث لـ « هنري الرابع » ممثل الإمبراطورية ، الذي اضطر في عام 1077 إلى أن يتقدم نحو البلاط البابوي في قلعة « كانوسا » خاضعا صاغرا ذليلا ، وأمعن البابا في إذلاله حيث لم يسمح له بالدخول إلا بعد أن شفع له البعض ، وسمح له بالمثول بين يديه ، فدخل الإمبراطور حافيا ذليلا لابسا الصوف وأعلن توبته فمنحه البابا المغفرة .. [3] .

وظلت الحرب سجالا بين الطرفين ، والشعب بين مطرقة البابا وسندان الإمبراطور يتلظى في الجحيم .

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص : 185 - 190 .

(2) المرجع السابق ص : 191 .

(3) للوقوف على تفصيلات النزاع بين البابوية والإمبراطورية في أدواره الثلاثة ، يمكن الرجوع إلى :
أوروبا العصور الوسطى – دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور – الجزء الأول « التاريخ السياسي » ص 338 - 394 .
تحديات في طريق الدعوة . د . محمد رجب الشتيوي . ص : 54 - 58 .

الصراع بين الدين والعلم وأثره في سيادة المادية (1) :

لم يكتف رجال الدين النصراني بما أحدثوه من فساد وانحراف ، بل إنهم ارتكبوا أعظم جناية على أنفسهم وعلى الدين الذي يمثلونه ، حين دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلّمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، وأحاطوها بسياج من التقديس والإجلال . ثم قدسوا كل ما تناقلته الألسنة واشتهر بين الناس وذكره شراح التوراة والإنجيل من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية ، وصبغوها صبغة دينية ، وعَدُّوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها ، وألفوا في ذلك كتبا وتآليف ، وسموا هذه الجغرافية - التي ما أنزل الله بها من سلطان - الجغرافية المسيحية ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وكفَّروا كلَّ مَنْ لم يَدِنْ بها .

وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا ، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقييد الديني ، فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب ، وانتقدوها في صرامة وصراحة ، وأعلنوا على الناس اكتشافاتهم واختباراتهم العلمية ؛ فقامت قيامة الكنيسة ، وكفرت هؤلاء العلماء ، واستحلت دماءهم ، وأنشأت محاكم التفتيش ، التي تعاقب - كما يقول البابا - أولئك الملحدين والزنادقة المنتشرين في المدن والبيوت والغابات والمغارات ، فجدّت واجتهدت ، وسهرت على عملها ، وعملت على أن لا تدع في العالم النصراني نابضا ضد الكنيسة ، وانبثت عيونها في طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس ، وناقشت عليهم الخواطر ، لدرجة أن قال عالم نصراني : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحيا ويموت حتف أنفه » .

ويذكر أن من عاقبتهم هذه المحاكم قد بلغ عددهم ثلاثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفا أحياء ، كان منهم العالم الطبيعي المشهور « بروتو » الذي حكمت عليه الكنيسة بالقتل ، واقترحت أن لا تراق قطرة من دمه ، بمعنى أن يتم حرقه حيا وهو ما حدث بالفعل ، كذلك قتل العالم الطبيعي الشهير « جاليليو » لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس . وكثير من العلماء كان مصيرهم القتل والحرق لمخالفتهم آراء الكنيسة .

هنالك ثار المجدِّدُون والمتنورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حربًا لرجال الدين وممثلي

---

(1) لابد من الإشارة هنا إلى أن الدين الصحيح لا يتعارض مع العلم مطلقا ، وإنما يحدث التعارض حينما يقع التحريف في الدين ، فيشتط رجاله ويتجاوزون المدى ، رغبة في الحفاظ على مكاسبهم وشهواتهم . وقد عصم الله ديننا الإسلامي من ذلك ، فلله الحمد والمنة .

الكنيسة ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويُعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وخاصموا الدين المسيحي أولا ، ومطلق الدين ثانيا ، واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية وزعماء الدين المسيحي حربا بين العلم والدين مطلقا .

وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثاني .. وإذا تذكروا تلك الدماء البريئة التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة وجباه مقطبة ، وعيون ترمي بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيفة بليدة .. إذا تذكروا ذلك كله أشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة الدين ورجاله ، وتغلغل ذلك في قلوبهم وتواصوا به ، وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم [1] .

هذه لمحة عن الصراع الذي اشتعل أواره ، وتأججت نيرانه بين من يزعمون أنهم رجال الدين وحُماته ، وأصحاب الفكر العلمي والبحث العقلي .

ولقد نتج عن هذا الصراع المحموم آثار بالغة على الحضارة الغربية الحديثة ، من أهمها :

(1) « صارت الفكرة السائدة عند حملة العلوم الجديدة ورافعي لواء الحضارة الحديثة ، أن الدين – في حد ذاته – إن هو إلا نوع من الدجل والتزوير ليس في وسعه أن يثبت أمام ضربة من ضربات الاختبار العقلي ، وإنما بنيت عقائده على الإذعان الأعمى والخضوع المحض من دون حجة ولا برهان ، وإنما يخاف على نفسه ازدياد نور العلم واتساع رقعة المعرفة ؛ لكي لا يفتضح أمره وتتضح للناس حقيقته » .

(2) « جعلوا من المبادئ الأساسية للحضارة الحديثة أن لا حق للدين في التعرض للسياسة أو الاقتصاد أو الأخلاق أو القانون أو العلوم والفنون والمعارف .. أو ما إليها من شعب الحياة الاجتماعية الأخرى ، وإنما هو شأن من الشئون الفردية فحسب ، حيث إن للفرد – إذا شاء – أن يعتقد بالله ويؤمن برسله ويقتدي بهداهم في حياته الشخصية .. وأما الحياة الاجتماعية فلا يُوضَع ولا يُسَيَّر نظامها إلا بصرف النظر – صرفا تاما – عن الدين وتعاليمه » .

(3) « تغلغلت في عروق الحضارة الجديدة عقلية الإلحاد ، والتحلل من قيود الدين ،

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص : 193 : 195 . بتصرف .

ولذا فإن كل ما حصل في هذه الحضارة من الارتقاء في العلوم والفنون والآداب قد وجد في أصله - وما زال موجودا - ذلك العداء الذي تولد في بدء اليقظة العلمية للدين وما يتلعق به ، فالحضارة التي أرضعت بلَبَان مثل هذه الفكرة الخاطئة جعلت من وجهة الناس في التفكير أن كل شيء يأتي به الدين - سواء كان اعتقادا بالله واليوم الآخر والوحي والرسالة ، أو مبدأ من المبادئ الخلقية المعنوية - فإنه عرضة للشك والارتياب ، ولابد من شيء يثبت صحته ، وإلا يجب الجحود به ونبذه نبذ النواة . وبالعكس من ذلك : كل ما يأتي من أساتذة العلوم والفنون الدنيوية الحديثة ، فهو جدير بالقبول والاستحسان والتسليم » [1] .

هذه هي الأفكار التي شُيِّدَ على أساسها بنيان الحضارة الحديثة .

آثار نظرية « دارون » [2] :

ظهرت نظرية النشوء والارتقاء على يد « دارون » الذي ولد عام 1809 م ، ثم نشر كتابه « أصل الأنواع » عام 1859 م ، وكتابه الآخر « أصل الإنسان » عام 1871 م ، وكان ظهور هذه النظرية الدارونية بمثابة خط فاصل في التاريخ ، فالكنيسة وإن كانت قد خسرت الكثير والكثير بعد حربها الضروس مع أصحاب النهضة العلمية ، إلا أنه قد بقي لها في نفوس الجماهير تأثير كبير .. ثم جاء « داروين » بنظريته ليهدم ما بقي للكنيسة من مكانة ، فحينما أعلن نظريته قامت قيامة الكنيسة وجُنَّ جنونها ، ووصمت « دارون » ومشايعيه بالكفر والإلحاد ، وقامت معركة حامية الوطيس ، وقفت فيها الجماهير - في بادئ الأمر - بجوار الكنيسة ، فقد عز عليها بطبيعة الحال أن يصمها « دارون » بالحيوانية وينزع عنها مكانتها وتميزها ورفعتها حين ينزع كرامة الإنسان ويردها إلى أصل حيواني .

ورويدا رويدا ، بدأت الجماهير تغير موقفها ، وانحازت إلى « دارون » ، لا إيمانا بنظريته الباطلة ، ولكن انتهازا لفرصة سانحة للانقضاض على ذلك الغول البشع الذي يضطهد الناس ويمتص دماءهم باسم الدين .

وبعد فترة ، نسيت الجماهير كرامتها الإنسانية ، وفرحت بالانطلاق والتحرر - ولو

---

(1) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم . أبو الأعلى المودودي ص : 143 ، 144 .
وهو مطبوع مع كتاب : موجز تاريخ تجديد الدين « وإحياؤه » ، للمؤلف نفسه .

(2) يراجع في تفصيلات نظرية دارون وآثارها على الفكر الأوروبي المعاصر : معركة التقاليد - محمد قطب ص : 14 : 25 . التطور والثبات في حياة البشرية - محمد قطب - ص 19 : 24 . الإنسان بين المادية والإسلام - محمد قطب - ص 15 : 17 ، 19 : 24 - . تحديات في طريق الدعوة - مرجع سابق - ص : 40 : 44 .

في ثياب الحيوانية – وحمدت لداروين وقفته في وجه الطغيان ، وحمدت له أكثر من ذلك أنه أعطاها السلاح البتار الذي تحطم به ما بقي من سلطان الكنيسة الجائر [1] .

وشيئا فشيئا أصبحت الداروينية أساس الفكر الأوروبي القائم على المادية البحتة ، وأصبح لها السيادة على العقلية الأوروبية .. ومما هو جدير بالذكر هنا أن داروين كان ملحدا حيث يقول في اعتراضه على تفسير شئون الحياة بوجود خالق له إرادة في الخلق : « إن ذلك يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت » [2] .

وعلى دربه سار كثيرون ممن يسمُّون أنفسهم « العلماء » ، الذين جعلوا إنكار الإله قضيتهم الأولى ، وهدم الدين غايتهم العليا ..

وينقل وحيد الدين خان عن أحدهم قوله : « لقد أثبت نيوتن أنه لا وجود لإله يحكم النجوم . وأكد « لابلاس » بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكي لا يحتاج إلى أي أسطورة لاهوتية ، وقام بهذا الدور العالمان العظيمان « داروين » و « باستيور » في ميدان البيولوجيا ، وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التي حصَّلناها في هذا القرن بمكان الإله ، الذي كان مفروضا أنه هو مدير شئون الحياة الإنسانية [3] .. كما ينقل عن عالم كبير من علماء النفس قوله : « ليس الإله سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون ، وما عقيدة الدنيا والآخرة إلا صورة مثالية للأماني الإنسانية على الأرض ، وما الوحي والإلهام إلا إظهار غير عادي لأساطير الأطفال المكبوتة » [4] .

ويبلغ الشطط بأستاذ أمريكي كبير في علم وظائف الأعضاء أن يقول : « لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ » [5] .

هي مؤامرة إذا ، أن تشيع الأفكار الداروينية وتنتشر إلى الحد الذي تصبح معه قانونا يلتزم به « العلماء » في الفكر الغربي الحديث . فعلى أساس نظرية داروين صاغ كل من « فرويد » و « ماركس » و « دوركيم » نظرياتهم الهدامة : الأول في المجال النفسي ، والثاني في المجال الاقتصادي ، والأخير في المجال الاجتماعي ، فلقد استلهم الثلاثة من النظرية الداروينية فكرة حيوانية الإنسان وماديته ، فمدُّوها ووسعوا نطاقها ، وعمَّموا

(1) نفس المراجع السابقة .

(2) يراجع الهامش رقم (1) ص : 21 من كتاب : الإنسان بين المادية والإسلام – مرجع سابق .

(3) الإسلام يتحدى – وحيد الدين خان – ترجمة : ظفر الإسلام خان – مراجعة وتقديم د / عبد الصبور شاهين ص : 34 / 35 .

(4) المرجع السابق ص : 36 . (5) المرجع نفسه ص : 40 .

إيحاءاتها المسمومة في كل اتجاه » [1] .

وهنا لا ينبغي أن نغفل دور اليهودية العالمية في نشر الأفكار الداروينية وإشاعتها .. فلم لا ؟ وهي فرصتهم للانتقام من غريمتهم النصرانية وإصابتها في مقتل ، ثم تحطيم الأديان الأخرى - غير اليهودية - تمهيدا لسيطرتهم على العالم .

تقول بروتوكولات حكماء صهيون - « إن داروين ليس يهوديا ، ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها في تحطيم الدين ..... » .

ويعلق الأستاذ محمد قطب قائلا : بذل اليهود جهودًا جبارة لتوسيع الهوة التي قامت بين الدين وبين الداروينية ، على أمل تحطيم الدين في النهاية ؛ تحقيقا لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة ، وحقدهم - في أوروبا - على المسيحيين بصفة خاصة ، من أجل مالاقوه منهم من اضطهاد .

واستغلت اليهودية العالمية نظرية داروين أبشع استغلال ... استغلتها على يد ثلاثة من أكبر علمائها ، قاموا بصياغة الفكر الأوروبي كله في ميدان الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع - أخطر ميادين ثلاثة في عالم الفكر - على أساس معاد للدين ، بل محطم لكل مفاهيمه .. أولئك هم : ماركس ، وفرويد ، ودوركايم [2] .

وتقول البروتوكولات : « لقد رتبنا نجاح داروين وماركس ونيتشه ، بالترويج لآرائهم ، وإن الأثر الهدام للأخلاق - الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي - واضح لنا بكل تأكيد » [3] .

سقوط النصرانية وانتصار المادية :

من عجائب الأمور في الحضارة الغربية المعاصرة ، أن المادية قد تغلغلت في أعماق قلوب القوم ، وملكت عليهم أقطار نفوسهم ، إلى درجة يصل فيها موقفهم من الدين إلى حد التعصب المقيت . ويعترف بذلك السير « جميس جينز » الذي يعد أعظم علماء العصر الحديث حين يقول في كتابه « عالم الأسرار » : « إن في عقولنا تعصبا يرجح التفسير المادي للحقائق .. » وذكر « ويتكرشلبنرز » في كتابه « الشهادة » حادثا كان من

(1) يراجع فصل اليهود الثلاثة (ماركس وفرويد ودور كايم) من كتاب التطور والثبات في حياة البشرية - مرجع سابق .

(2) المرجع السابق ص : 34 .

(3) الخطر اليهودي ... بروتوكولات حكماء صهيون - محمد خليفة التونسي ص : 123 - 124 .

الممكن أن يصبح نقطة تحول في حياته . ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظرة ، فأخذ يفكر في أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق - كهذه الأذن - بمحض اتفاق ، بل لابد أنه وُجد نتيجة إرادة مدبرة ، لكنه طَرَدَ هذه الوسوسة من قلبه ، حتى لا يضطر أن يؤمن - منطقيا - بالذات التي أرادت فدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة .

ويقول الدكتور « تامس ديودباركس » بعد أن يذكر هذا الحادث : « إنني أعرف عددا كبيرا من أساتذتي في الجامعة ، ومن رفقائي العلماء ، الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية في المعامل .. » [1] .

والأعجب من ذلك ، أن كثيرا من هؤلاء العلماء يعترفون بفشل نظرية دارون وقيامها على غير أساس علمي ، ومع ذلك فهم يتمسكون بها ويقولون : « إنهم لا يؤمنون بهذه النظرية .... إلا أنه لا يوجد أي بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرة .. وكتب سير « آرثركيت » يقول : « إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر ، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه ... » [2] .

وأحسب أن النصرانية هي المسئول الأول عن ذلك ، إذ أنها استحالت مجموعة من الخرافات اللامعقولة والطقوس الغريبة اللامفهومة ، واكتست ثوب الديانة ، وهي أبعد ما تكون عن الدين .. لذا كان من الطبيعي أن يفر العلماء من هذه الوثنية الملقحة بشيء من النصرانية - فرار الصحيح من الأجرب - وقصة « وليم جيمس » خير دليل على ذلك . لنستمع إليه وهو يقول :

« كانت مشيئة والدي أن أكرس حياتي لخدمة الدين ، وكثيرا ما فكرت أن أصبح مبشرا في بلد أجنبي ، ولكني حين ذهبت إلى الجامعة طرأ عليَّ تغير كبير ، فقد درست علم الأحياء والعلوم المختلفة والفلسفة ومقارنة الأديان . وقرأت كتبا كثيرة في تفسير الكتاب المقدس ، فبدأت أشك في الكثير مما أكده الإنجيل ، ورحت أرتاب في العقائد المتزمتة التي يلقيها علينا وعاظ الدين ، وتنازعتني الحيرة ، وأصبحت شغوفا بالتقصي والاستطلاع ، تتزاحم داخلي أسئلة لا حصر لها .. لم أدر ما أصدق ؟ ! ولا بأي شيء

---

(1) الإسلام يتحدى ص : 57 - 58 .

(2) المرجع السابق ص : 58 : 59 .

أؤمن ؟ ! ... وكففت عن الصلاة والعبادة . وأوشكت أن أكون ملحدًا .. » [1] .

ولقد كان « برتراندرسل » كذلك شديد العلاقة بالدين في أول حياته ، مواظبا على حضور صلوات الكنيسة باهتمام ، ولكنه عندما تجاوز الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه - بفعل البيئة التي أحاطت به - إلى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة إلى « برتراندرسل » الفيلسوف الملحد الذي لا يؤمن بالحقائق السماوية .. وقد أجرت الإذاعة البريطانية حديثا معه عام 1959 م ، وسئل : هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة ممكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الإنسان ؟ ! فأجاب قائلا : « نعم لقد وصلت في سن الأربعين إلى الطمأنينة التي قال أفلاطون أنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات .. إنها عالم أبدي حر ، لا يقاس بزمان ، ولقد حظيت في هذا العالم بسكينة تشبه تلك التي يحصلون عليها في الدين » [2] .

إلى هذا الحد كان نفور العلماء والمفكرين من الدين المحرف .. وليتهم قرؤوا عن الإسلام وعقائده السلسة ، وشرائعه السمحة ، وأخلاقه السامية .. ولكنهم تسرعوا فابتعدوا عن مطلق الدين ، وباينوه ثلاثا لارجعة فيهن ، وفجروا في خصومته فكان أن أطبقت على حضارتهم ظلمات كثيفة من المادية ، يحدثنا عنها واحد ممن عاش حينا من الدهر في أحضان هذه الحضارة المادية ثم كتب الله له الهداية والإسلام .

يقول الأستاذ / محمد أسد « ليوبولدفايس سابقا » : « لا شك أنه لا يزال في الغرب أفراد يعيشون ويفكرون بأسلوب ديني ، ويبذلون جهدهم في تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم ، ولكنهم شواذ . إن الرجل العادي في أوربا - ديمقراطيا كان أو فاشيا ، رأسماليا كان أو اشتراكيا ، عاملا باليد أو رجلا فكريا - إنما يعرف « دينا واحدا » وهو عبادة الرقي المادي ، والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل - وبالتعبير الدارج « حرة مطلقة » من قيود الطبيعة - .. أما كنائس هذا « الدين » فهي المصانع الضخمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية ، ودور الرقص ، ومراكز توليد الكهرباء .. وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارف والمهندسون ، والممثلات وكواكب السينما ، وأقطاب التجارة والصناعة ، والطيارون ، والمبرزون الذين يضربون رقما قياسا .

ونتيجة هذه النهاية للقوة والشره للذة ، النتيجة اللازمة هي ظهور طوائف متنافسة

---

(1) ظلام من الغرب - الشيخ : محمد الغزالي ص : 22 .

(2) الإسلام يتحدى ص 246 بتصرف يسير .

مدججة بالسلاح ، والاستعدادات الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها بعضا إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها .. أما في جانب الحضارة ، فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادي لاغير ...

إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة ، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة ، ولا تعرف له فائدة ، ولا تشعر بحاجة إليه ... [1] .

وإذا كانت هذه الشهادة موضع طعن ، من جهة أن صاحبها أصبح مسلما ، فإننا نسوق هذه الشهادة لأحد المفكرين الغربيين . يقول « جيرالد هيرو » : « إن الغرب تعس ومتخلف بتحكيمه القانون العلمي في كل شيء ، حتى غدا الإنسان آلة قابلة للتحكيم والتحكم ؛ مادام كل شيء ماكينة فكل شيء لاهدف له ولا أخلاق له ولا قيم له ... كل ما يملك الغرب هو القدرة على التصنيع ، والقدرة وحدها قد تدمر ... » [2] .

وينقل الأستاذ أبو الحسن الندوي عن الأستاذ « جود » رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن ، أنه سأل عشرين طالبا وطالبة – كلهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم – هل أنت مسيحي بأي معنى من معاني الكلمة ؟ !

فلم يجب بـ « نعم » إلا ثلاثة فقط ، وقال سبعة منهم : إنهم لم يفكروا في هذه المسألة أبدا ، أما العشرة الباقون فقد صرحوا بعداوتهم للمسيحية .. ويعلق الأستاذ جود فيقول : إنني أرى أن هذه النسبة بين من يؤمن بالمسيحية ويدين بها ومن لا يؤمن بها في هذه البلاد ليست شاذة ولا غريبة ... إن الأحوال والآثار في هذه البلاد لتدل على أن الكنيسة النصرانية ستموت في القرن الآتي ... [3] .

وبطغيان المادية على الحضارة الغربية الحديثة أصبحت صورة صادقة لأصولها المتمثلة في الحضارة اليونانية ووريثتها الرومانية ... وكما زالت هاتان الحضارتان الماديتان ، فلسوف تزول – بإذن الله – هذه الحضارة المادية الحديثة تحقيقا للسنة الإلهية التي لا تتخلف أبدا ...

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص : 199 : 200 .

(2) الصحوة الإسلامية .. منطلق الأصالة وإعادة البناء للأمة على طريق الله – أنور الجندي ص : 258 .

(3) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص : 200 ، 201 .

ثانيا : الانحطاط الخلقي في الحضارة الغربية

يُعَدُّ الانحطاط الخلقي في الحضارة الغربية نتيجة حتمية لتردِّيها وانغماسها في أوحال المادية البحتة ، إذ أن المادية تدفع إلى التحلل من كافة القيم والفضائل ، والتخلص من كل قيد يقف حائلا بين الإنسان وإرضاء غرائزه وإشباع شهواته .. ومن هنا وجدنا المجتمعات الغربية منغمسة في شهواتها ، غارقة في لذاتها ، حيث لا دين يردع ولا ضمير يمنع .

وقد تنوعت وتعددت أوجه الانحطاط الخلقي في الحضارة الغربية .. وسأحاول في السطور التالية الإلمام بأهم مظاهره :

(1) الإباحية والفوضى الجنسية

اجتاحت المجتمعات الغربية الحديثة موجة عاتية من الانحلال والإباحية والفوضى الجنسية العارمة ، حتى بلغ بهم الأمر إلى درجة أطلق عليها مفكرو الغرب أنفسهم « الثورة الجنسية » .. ويقصدون بذلك أن الحضارة الغربية بعد أن عاشت في أحضان « الثورة الصناعية » فإنها تعيش اليوم في كنف « الثورة الجنسية » .

(أ) تقنين الإباحية والفوضى الجنسية في الدول الغربية :

(1) من الأمور التي يندى لها جبين كل امرئ شريف يحب الفطرة ويتمسك بالقيم ، أن المجتمعات الغربية قد اعترفت بالزنا واعتبرته مهنة كبقية المهن ، التي يدفع أصحابها الضرائب ، في مقابل قيام الدولة بتوفير الرعاية الطبية والأمنية لأصحاب هذه المهنة القذرة .

والأدهى من ذلك أن الفاحشة أصبحت من الموارد الأساسية للدخل القومي في تلك الدول .. ففي إحصائية عن الأرباح الحكومية التي تحصل عليها فرنسا من بيوت الفجور ، تبين أنها تصل إلى « 3 » بلايين فرنك فرنسي في مدينة « بوردو » وحوالي « 1,5 » بليون في مدينة « جرينوبل » و « 7 » بلايين في « مارسيليا » و « 8 » بلايين في منطقة « كوت دازير » [1] .

(2) وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت المصيبة أعظم ، حيث تعد الإباحية سياسة رسمية تنتهجها الحكومة ، وتستخدمها كسلاح لتحقيق مآربها والوصول إلى

---

(1) من نافذة الإباحية (ضمن سلسلة : أفول شمس الحضارة الغربية) – مصطفى فوزي غزال ص : 7 ، 51 ، 68 - 70 .

أهدافها ، فقد أنشأت وزارة الخارجية الأمريكية منذ عام 1908 م دائرة رسمية ، تنحصر مهمتها في تقديم الفتيات إلى الزوار الأجانب من رؤساء الدول والسياسيين البارزين ، للحصول على المعلومات التي تحتاج إليها السياسة الخارجية الأمريكية ، وتضم هذه الدائرة ملفات بأسماء وعناوين فتيات يتم اختيارهن بعناية فائقة ، ويطلق عليهم في الأوراق الرسمية « فريق الحب » [1] .

(3) أما عن موقف القوانين الغربية من جريمة الزنا فهو موقف شائن عجيب ، فأكثرية الدول لايعد الزنا في قوانينها جريمة ، ومن ثم فلا عقوبة على الإطلاق [2] .. وبعضها يعاقب على الجريمة المرتكبة من قبل الزوجة فقط [3] .. وهناك دول قليلة تعاقب على الجريمة المرتكبة من قبل أي من الزوجين [4] .. غير أن كثيرا من هذه الدول تقصر جريمة الزنا على المرأة المتزوجة عندما تمارس العلاقة الجنسية مع رجل آخر غير زوجها ، وأيضا على الرجل الذي يمارس العلاقة الجنسية مع امرأة يعلم أنها متزوجة .. وينص القانون الفرنسي والقوانين التي استقت منه – على أنه يحق للزوج المطالبة بالتفريق بينه وبين زوجته إذا أثبت زناها – ولو خارج بيت الزوجية – مرة واحدة ، بينما لا يحق للزوجة أن تطالب بالتفريق بينها وبين زوجها بسبب الزنا ، إلا إذا أثبتت زناه في بيت الزوجية أكثر من مرة .

وحينما أنشئ في أمريكا أحد النوادي لتبادل الزوجات ، أعلن مكتب النائب العام أن نشاط هذا النادي ليس خارجا على القانون ولا مخالفا لمادة من مواد قانون العقوبات في ولاية « كاليفورنيا » [5] .

(4) لم تكتف المجتمعات الغربية بتقنين الزنا ، بل انحدرت إلى درك سحيق من الانحراف والشذوذ ، حينما اعترفت باللواط والسحاق ، واعتبرتهما عملا عاديا ، لا يمثل جريمة يعاقب عليها القانون :

* **ففي بريطانيا** : سارت مظاهرة ضخمة إلى مجلس العموم البريطاني ، يتقدمها عدد

---

(1) جذور البلاء . مرجع سابق ص : 176 بتصرف واختصار .

(2) منها : بريطانيا – السويد – المجر – الاتحاد السوفييتي (سابقا) – بولندا – النرويج – الدانمارك – تشيكوسلوفاكيا (سابقا) – اليابان – معظم الولايات المتحدة الأمريكية .

(3) مثل : – إيطاليا – بلجيكا – فرنسا – ... وتابعتها في ذلك للأسف الشديد بعض الدول العربية .

(4) منها : – ألمانيا – النمسا – اليونان – هولندا – سويسرا – ولاية نيويورك الأمريكية .

(5) يراجع : من نافذة الإباحية (ص) 160 : 163 .

كبير من أساقفة الكنيسة وأساتذة الجامعات ولفيف من كبار الشخصيات البريطانية ، للمطالبة بإباحة الشذوذ الجنسي وعدم اعتباره مخالفا للقانون ، وبالفعل تم إقرار مشروع القانون في مجلس العموم بأغلبية 164 ضد 107 ، ثم وافق مجلس اللوردات أيضا بأغلبية 94 ضد 49 صوتا .. وتهللت أسارير قادة الشذوذ فرحا بهذا الانتصار ، وقال أحد قادتهم : إن عاطفة الشخص الشاذ نحو رفيقه عاطفة صافية خالية من الأنانية ، تماما كعاطفة الحب بين الرجل والمرأة ، ولذا ليس من الضروري اعتبار هذه العلاقة إثما [1] .

ومما يثير الاشمئزاز أن ملكة بريطانيا منحت بعض المخنثين أوسمة رفيعة ، بدعوى أنهم يساهمون في الرواج السياحي ويجلبون عملة صعبة للدولة [2] .

* **وفي الولايات المتحدة الأمريكية** : تبلغ نسبة الشواذ جنسيا 1 : 10 أي حوالي 17 مليون شخص [3] ، لهم مؤسسات تجارية وسياسية مختلفة ، وكذلك لهم جمعيات للدفاع عنهم والمطالبة بحقوقهم .

وقد أقرت الهيئة التشريعية في ولاية كاليفورنيا قانونا يبيح الشذوذ الجنسي ويحافظ على حقوق الشاذين في المجتمع ، وتعتبر سان فرانسيسكو عاصمة الشذوذ الجنسي في العالم .. [4] .

ومن العجيب أن مرشحي الكونجرس ، بل ومرشحي الرئاسة ، يتنافسون لجذب الشواذ إلى صفوفهم ، ويعدونهم بتقديم قوانين للحفاظ على حقوقهم في الدولة والمجتمع .. ففي عهد الرئيس الأمريكي السابق « جيمي كارتر » استقبلت مساعدته للعلاقات العامة وفدا من 20 شخصا يمثلون منظمات اللواطة والسحاقة في الولايات المتحدة ، حيث طالبوا بحق الشواذ في العمل بحرية تامة داخل المؤسسات العسكرية ، والسماح بتعيين مزيد منهم في مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية ، كما طالبوا بإعفاء منظماتهم من الضرائب ... وفي أعقاب اللقاء قال رئيس الوفد : إن هذه هي المرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة التي رأينا

---

(1) يراجع : غضب الله تعالى يلاحق المتمردين على الفطرة (الإيدز) ضمن سلسلة : نصائح إسلامية (91) – فؤاد بن سيد عبد الرحمن الرفاعي ص 22 د . ن . ق . ت . (جذور البلاء ص : 179 ، 180) .

(2) جذور البلاء ص : 179 بتصرف .

(3) كان هذا في الثمانينات ، ولاشك أن هذا الرقم قد تضاعف كثيرا الآن .

(4) من نافذة الشذوذ الجنسي (الكتاب الخامس من سلسلة : أفول شمس الحضارة الغربية) مصطفى فوزي غزال ص : 5 ، 19 . بتصرف واختصار .

فيها رئيس الجمهورية مستعدًا للاعتراف بحقوق ومتطلبات 20 مليون أمريكي من الجنسين يمارسون الشذوذ الجنسي بكافة أنواعه [1] .

وأثناء الحملة الانتخابية لمنصب الرئاسة عام 1980 اجتمع السيناتور « روبرت كنيدي » بممثلي جماعات الشذوذ الجنسي وتعهد لهم بالدفاع عن حقوقهم إذا ما تم انتخابه رئيسا للجمهورية [2] .. وقد تحقق ذلك بالفعل ، ولكن على يد الرئيس الحالي « بيل كلينتون » الذي تمادى في الاعتراف بحقوق الشواذ إلى حد لا يكاد يصدقه عقل .

* **وفي دول شمال أوروبا** : أصبح الشذوذ الجنسي من الأمور التي لا يعاقب عليها القانون ، بل يوجد في بعض الدول كنائس خاصة بهم ، يتم فيها عقد الزواج المزعوم بين الشواذ .

* **وفي فرنسا** : حصلوا على ترخيص رسمي بإنشاء إذاعة خاصة بهم [3] .

ومن المفارقات العجيبة في هذا المقام ، أن والدة الرئيس الأمريكي « جيمي كارتر » كانت أعلنت عن مكافأة ضخمة قدرها مليون دولار لمن ينجح في اغتيال الزعيم الشيعي الراحل « آية الله خوميني » لأنه - تطبيقا للشريعة الإسلامية - أمر بإعدام اللواطيين ورجم الزناة المحصنين ، الأمر الذي اعتبره الإعلام الغربي وحشية وقسوة وهمجية [4] .

وهكذا صار المعروف منكرا والمنكر معروفا ، وانعكست الفطرة في منهج الحضارة الغربية المادية الزائفة .

(ب) الفوضى الجنسية في المدارس والجامعات الغربية :

لاشك أن المدارس والجامعات جزء من صميم المجتمع ، فإذا كان المجتمع طافحا بالمنكرات مليئا بالفواحش ، فليس من المستغرب أن تكون مدارسه وجامعاته كذلك ، خاصة وأن الجنس يدرس نظريا وتطبيقا ، بدعوى « التربية الجنسية » :

ففي بريطانيا : تدل الإحصائيات التي أجريت في المدارس الثانوية المختلطة أن 80 ٪ من طالباتها يحملن أقراص منع الحمل في حقائبهن .. [5] وفي إحدى الكليات الجامعية حيث توجد 684 فتاة - تبين أن نصف الفتيات غير المتزوجات منهن قد تحصّلن على

---

(1) المرجع السابق ص 8 .
(2) المرجع السابق نفسه ص : 23 .
(3) جذور البلاء يراجع ص : 180 .
(4) من نافذة الشذوذ الجنسي ص : 27 ، 28 .
(5) يراجع : من نافذة الإباحية ص : 118 - 121 .

خبرة جنسية كاملة ، وكانت 6 منهن حوامل ، و 65 حملن قبل ذلك ، و 5 لجأن للإجهاض . وقد أعرب الأطباء المشرفون وزعماء الطلبة وحتى مدير الجامعة عن تأييدهم للحرية الجنسية الكاملة للفتيات [1] .

وحينما قامت وزارة التربية بإيقاف مدرسة شابة عن العمل إثر قيامها بتدريس الجنس عمليا لطلاب المرحلة الثانوية ، عمدت الصحف إلى إثارة حملة شعواء على الوزارة متهمة إياها بالتخلف والرجعية ، ودعت إلى خروج مظاهرات حاشدة لحمل الوزارة على التراجع عن قرارها ، ونشرت صورة عارية للفتاة على صدر الصفحات الأولى ... وبالفعل خرجت مظاهرات ضخمة لتأييد الفتاة ومناصرة تدريس الجنس عمليا ، وانصاعت وزارة التربية صاغرة لرغبة الجماهير وأعادت الفتاة لعملها [2] .

وفي أمريكا : ذكرت الإحصائيات أن نسبة الحبالى من تلميذات المدارس الثانوية بلغت 48 ٪ في مدينة « دنفر » عاصمة ولاية « كلورادو » وحدها .. كما أنشئت في جميع مدارس « نيويورك » غرفة للولادة ، وتم تدريب اثنين من موظفي كل مدرسة للقيام بأعمال التوليد في حالة الطوارئ ريثما يستدعى الطبيب المختص ، نظرا لأن عدد الطالبات الحبالى في مدارس المدينة - دون زواج - قد بلغ 2487 طالبة [3] .

ومن العجيب أن بعض الجامعات الأمريكية قد خصصت منحا دراسية للطلاب الشاذين جنسيا ، بل إن جامعة (جورج وليامز) تشترط للحصول على منحها أن يكون المتقدم شاذا جنسيا [4] .

وفي السويد : طالب مدرِّس الدين في إحدى المدارس بفصل تلميذين وتلميذتين ارتكبوا الفاحشة ، مما أدى إلى حمل التلميذتين ، ولكن ناظر المدرسة رفض فصلهم ، بل ومنحهم الدرجة العظمى في حسن السلوك ، وعندما طرح الموضوع على هيئة التدريس أيدت موقف الناظر ، بحجة أن المدرسة لايحق لها أن تعاقب على شيء لم يعد المجتمع يعاقب عليه ، فضلا عن أن العلاقات الجنسية تدرس الآن للتلاميذ في جميع المدارس السويدية .. وحينئذ لم يجد المدرِّس بُدًّا من رفع الأمر إلى الحكومة ، ولكن مجلس الوزراء خيب أمله حينما أصدر قرارًا برفض فصل التلاميذ .. واغتبط ناظر المدرسة وفسر القرار الحكومي بقوله : إن التلاميذ متفوقون في الدراسة ، وسلوكهم العام حسن ، وليس

---

(1) نفس المرجع السابق .

(2) ينظر المرجع السابق ص : 147 ، 148 .

(3) يراجع : المرجع نفسه ص : 118 - 121 .

(4) من نافذة الشذوذ الجنسي ص : 24 .

من حق أحد أن يرغمهم على الزواج ، ويكفي أنهم يعيشون معًا في سعادة ، وقالت إحدى التلميذتين – 19 عاما – : إن الحمل والولادة قد شغلاني أنا وزميلي عن الدراسة قليلا فقط ، أما الدين فإننا نحترمه ، ولكننا نعارض آراءه التي أصبحت عتيقة [1] .

(جـ) الفوضى والإباحية في أوساط الحكم والشخصيات الكبرى :

من المفترض في الشخصيات العامة وكبار المسئولين – خاصة في المناصب الرئاسية والبرلمانية – أنهم صفوة المجتمع ، بماأنهم قد حازوا ثقة الناس بتزكيتهم لهذا المنصب أو ذاك .. هذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى لابد أن يكون هؤلاء على درجة عالية من النزاهة وحسن الخلق حتى يصبحوا مثالا حسنا وأسوة طيبة لشعوبهم .. أما إذا كان المجتمع نفسه طافحا بالفساد فإنه لن يُفْرِزِ إلا قادة فاسدين منحرفين ، وهذا ما حدث بالفعل في المجتمعات الغربية :

ففي الولايات المتحدة الأمريكية : كثيرا ما وجهت التهم إلى أعضاء في الكونجرس وكبار مساعدي الرئيس بالتورط في فضائح جنسية ، وخاصة في عهد الرئيس الأسبق « رونالدريجان » فهو الذي قام – بمعاونة مساعديه – بزرع عميل لهم في أوساط الحملة الانتخابية لمنافسه الرئيس الأسبق « جيمي كارتر » ، ليمدهم بالمعلومات مقابل خدمات جنسية [2] .

وفي بريطانيا : لا تزال الحكومة البريطانية تتلقى مزيدا من الصفعات والضربات المتلاحقة إثر اكتشاف العديد من الفضائح الجنسية لأعضائها منذ حكومة « مارجريت تاتشر » وحتى الآن .. وكان « جون ميجور » رئيس الوزراء الحالي قد أطلق دعوة للعودة إلى الأخلاق الحميدة ، بعد توالي الفضائح ، ولكن حملته هذه لم تلبث أن صارت أضحوكة يتندَّر بها الشعب البريطاني في أعقاب اكتشاف المزيد من الفضائح بعد بداية الحملة بأيام قلائل .

وقد تبين أن عددا هائلا من كبار الشخصيات البريطانية قد انغمسوا في حمأة رذيلة الشذوذ الجنسي وغاصوا فيها إلى الأذقان ، فقد ظهرت البشاعة والحقارة في أجلى

---

(1) ظلام من الغرب ص : 197 بتصرف .

(2) يراجع : من نافذة الإباحية ص : 180 ، 188 .. هذا ولا يغيب عن بال أحد أنباء الفضائح الغرامية التي كان بطلها الرئيس الأمريكي السابق « جون كنيدي » وكذلك ما تطالعنا به الأنباء من القضايا التي ترفعها العديد من الفتيات ضد الرئيس الحالي « بيل كلينتون » يتهمنه فيها بالتحرش بهن جنسيًا .

صورها حينما تم الكشف عن حركة بريطانية سرية تسمى : حركة تبادل المعلومات عن الحب الجنسي للأطفال ، تهدف إلى إضفاء الشرعية على عمليات الاعتداء الجنسي على الأطفال ، وتبين أن عددا من الشخصيات البارزة أعضاء في هذه الحركة ، وقاموا فعلا بالاعتداء على طفل كانوا قد اختطفوه في مدينة « برايتون » [1] .

وفي إيطاليا : تم الكشف كذلك عن شبكة ضخمة للدعارة ، وتبين أثناء التحقيق أن عددا كبيرا من الشخصيات البارزة والأسماء اللامعة متورطون في هذه القضية ، من بينهم وزراء في الحكومة وعدد من القضاة والدبلوماسيين وكبار رجال الأعمال [2] .

وفي كندا : اتسع نفوذ الشواذ جنسيا حتى بلغوا كبريات المناصب الحكومية ، حيث يوجد في مقاطعة « كويبك » ثلاثة وزراء يتفاخرون بأنهم شاذون جنسيا [3] .

وفي المانيا : أحالت وزارة الدفاع الجنرال (جونتر كيسلينج) مساعد قائد عام حلف شمال الأطلنطي إلى التقاعد المبكر باعتباره خطرا على الأمن القومي ، بعد ثبوت تورطه في جرائم الشذوذ الجنسي .. تأتي هذه القضية لتعيد إلى الأذهان قضية قائد الجيش الألماني الجنرال (فون فونتيس) الذي أقاله الزعيم النازي (هتلر) عام 1938 للسبب نفسه ، مما يؤكد أن هذا الداء الوبيل متغلغل في أعماق القادة الألمان [4] .

(د) الفوضى والإباحية بين رجال الكنائس الغربية :

ليت الفضائح اقتصرت على رجال السياسة ، ولكن المصيبة العظمى أن يمتد نطاقها إلى من يفترض فيهم أن يكونوا حائط الصد المنيع وخط الدفاع الأول في مواجهة تيار الإباحية وموجات الانحلال :

(1) تؤكد إحصائية نشرتها صحيفة « الديلي ميل » البريطانية أن ما يقرب من 80 ٪ من الرهبان والراهبات ورجال الكنيسة يمارسون الزنا [5] .. وأن 40 ٪ منهم يمارسون الشذوذ الجنسي [6] .. وقد نُشرت مذكرات إحدى العاهرات في فرنسا فجاء فيها أسماء ثلاثة باباوات وأحد عشر كاردينالا [7] .

---

(1) يراجع : من نافذة الشذوذ الجنسي ص : 84 : 91 .
(2) يراجع : من نافذة الإباحية ص : 180 - 188 .
(3) من نافذة الشذوذ الجنسي ص : 27 .
(4) يراجع : المرجع السابق ص : 91 : 95 .
(5) ينظر : من نافذة الإباحية ص : 66 ، 67 .
(6) ينظر : من نافذة الشذوذ الجنسي ص : 24 .
(7) ينظر : من نافذة الإباحية ص : 66 ، 67 .

(2) أما المصيبة العظمى فتتمثل في موقف الكنائس من جرائم الشذوذ الجنسي .. فحينما شنت إحدى مجلات الشذوذ الجنسي هجوما شديدا على الدين المسيحي بسبب تحريمه للشذوذ ، رد عليها أحد كبار الكرادلة بأن الكنيسة الأجليكانية هي في حالة مخاض الآن ، وأنه عما قريب ستعترف بالشذوذ ، وأنه شخصيا يعتبر الشاذ جنسيا إنسانا عاديا ، وأنه لا يمانع إذا أراد مثل ذلك الشخص أن يصبح قسيسا أو أي شيء آخر [1] .

وقد تحقق الاعتراف فعليا بما سبق أن ذكرناه من وقوف القساوسة والأساقفة على رأس المظاهرات التي أدت إلى تقنين الشذوذ الجنسي .

(3) وفي الفاتيكان معقل البابوية كانت الطامة الكبرى ، حيث نشرت صحيفة الفاتيكان اليومية (أوبرزفاتور رومانو) في صفحتها الأولى مقالة بعنوان : انعكاسات حول المسائل المتعلقة بالشذوذ الجنسي .. تتضمن تحليلا للأب (نومينيكو كابوني) رئيس معهد روما للاهوات الخلقي حول وثيقة بابوية تتعلق بالشذوذ الجنسي .. وقد تضمن هذا المقال العجيب بعض الجمل والعبارات التي لم تكتف بإباحة الشذوذ بل تمتدحه وتكاد تحث عليه .. ومن أمثلة ذلك :

« إن المصابين بالشذوذ الجنسي يعانون من تفرقة في المعاملة ، وهي أمر غير عادل - فيما عدا بعض التحفظات - لأن المصابين بالشذوذ الجنسي يتمتعون بشخصيات أكثر عطاء - في الغالب - من أولئك الذين ينتقدونهم ...

إن البعض أصبح مقتنعا اقتناعا فوق كل دليل بأنه ليس ثمة خطيئة ما في الشذوذ الجنسي ...

أعتقد أنه من الأفضل عدم التحول إلى الجمود في تمحيصنا للحقيقة ، حتى نتفادى تحطيم أولئك الذين يجدون أنفسهم ضحايا الاضطراب الخلقي ، سواء كانوا مذنبين أم لا .. فبالجمود نكون قد أضفنا مسحة من الكآبة على الكنيسة ، وعلى القوانين الدينية » [2] .

إذا كان هذا هو الموقف الرسمي لمعقل الكاثوليكية ، فلا عجب أن تصل نسبة الشاذين جنسيا في صفوف الرهبان والراهبات إلى 40 ٪ كما سبق ذكره منذ قليل ..

ولا عجب كذلك أن يسمح أحد القساوسة لنفسه بالاعتداء على طفل بريء .. وتبدأ القصة حينما طلب القس « دونالد جيس » من أسرة الطفل « جوني أثود »

---

(1) ينظر : من نافذة الشذوذ الجنسي ص : 24 ، 25 .   (2) يراجع : المرجع السابق ص : 35 ، 36 .

مساعدته على تنظيم منزله مقابل أجر كبير ، وفرحت الأسرة بذلك ، ولكن المأساة قد بدأت حينما اكتشف والد الطفل أن رجل الدين « المحترم » لم يكتف بالاعتداء الجنسي المتكرر على الطفل المسكين ، بل قام بتصويره في أوضاع شائنة ، وباع تلك الصور إلى المجلات الجنسية الماجنة .. وعندما هجمت قوات الأمن على منزل القسيس الفاجر وجدت « ألبوما » حافلا بصوره وهو يرتكب جريمة اللواط مع الطفل .. أما المأساة الكبرى والداهية العظمى فكانت في الحكم الذي أصدرته المحكمة بحق هذا المجرم الفاجر ، إذا اكتفى القاضي بالحكم على القس بخدمة المجتمع لمدة مائتي ساعة [1] !!!!

أرأيت إلى هذا الحكم العجيب .. وأي خدمة يمكن أن يقدمها مثل هذا الرجل للمجتمع ، ولكن لا عجب .. فهذه هي الحضارة الغربية ، وهذه هي قيمها ومبادؤها .. أفتراها بعد هذا جديرة بالبقاء في موقع القيادة الحضارية الإنسانية ؟ ! اللهم لا ...

* * *

(2) الخمور

الخمر هي أم الخبائث ، فإذا انتشرت في مجتمع تفشت فيه – بالتالي – جميع البلايا والمصائب المادية والمعنوية ، وهذا ما حدث بالفعل في المجتمعات الغربية التي شاعت فيها الإباحية والفوضى والجرائم ، بسبب هذا الوباء المدمر الذي سرى فيها سريان النار في الهشيم :

ففي الولايات المتحدة الأمريكية : تظهر الإحصائيات الرسمية في نهاية السبعينات ما يلي :

* يتراوح عدد مدمني الخمر ما بين 96 إلى 97 مليون نسمة .

* عدد العاملين في صناعة الخمور 1,9 مليون نسمة ، بنسبة 2,4 ٪ من جملة العمال في أمريكا .

* نصف عدد حوادث السيارات التي مات فيها 55500 شخص كان سببها الخمر .

* تبلغ خسائر الاقتصاد الأمريكي بسبب الخمر 43 مليار دولار سنويا .

* أقيم 7500 مركز لمكافحة إدمان الخمر بشتى الطرق والوسائل الاجتماعية والطبية

---

(1) ينظر : المرجع نفسه ص : 14 .

والنفسية ، بلغت تكاليفها 194 مليون دولار [1] .. إذا كان هذا في نهاية السبعينات فكيف يكون الوضع الآن ؟

ما من شك في أن هذه الأرقام قد تضاعفت عدة مرات .

وفي بريطانيا : أجريت دراسة عن الزيادة في معدل استهلاك الشعب البريطاني للخمور بين عامي 1938 - 1969 ، فكانت نتائجها على النحو التالي [2] :

النوع / السنة	1938م	1969م
البيرة	25 مليون برميل	33,39 مليون برميل
النبيذ	22 مليون جالون	44,88 مليون جالون
الكحول	10 مليون جالون	17,54 مليون جالون

(1) يراجع : من نافذة الخمور (الكتاب الرابع من سلسلة : أفول شمس الحضارة الغربية) مصطفى فوزي غزال ص : 19 - 32 . هذا .. ولقد كان للولايات المتحدة مع الخمر تجربة شديدة الإثارة عميقة الدلالة ... فبعد دراسات مستفيضة أصدر الكونجرس الأمريكي في 16 يناير 1919 م قانونا يقضي بتجريم الخمر (صناعتها وبيعها وتصديرها ونقلها وحيازتها سرا أو جهرا) ومعاقبة من يخالف ذلك بالسجن أو الغرامة أو كليهما معا ، على أن يبدأ التنفيذ في أول يناير 1920 م ، وقد سبق المنع دعاية واسعة ضد الخمر وأضرارها على الفرد والمجتمع ، وأصبح ذلك جزءا من المواد الدراسية التي يدرسها الطالب في جميع المراحل التعليمية ، وبلغت تكاليف الحملة الإعلامية في هذا العام وحده حوالي 65 مليون دولار ، وبلغ عدد الصفحات التي سود بياضها لبيان مضار الخمر 9 آلاف مليون صفحة .
واجتهدت الحكومات المتعاقبة في تنفيذ القانون بالقوة .. ولكن الإرادة الشعبية الفاسدة كانت أقوى من القانون وأقوى من الحكومة ، فقد أعيد النظر في القانون بإباحة البيرة والسيدا [وهي نوع من الخمور يحتوي على نسبة 3,2 ٪ فقط من الكحول] في شهر أبريل 1933 ، ولم تمض بضعة أشهر حتى تم رفع الحظر نهائيا في ديسمبر من العام نفسه .
وفي هذه الفترة التي تبلغ 14 عاما سجلت الأوراق الرسمية ما يلي :
* انتشار المصانع والحانات السرية لتصنيع الخمور ، فقد كان عدد المصانع المرخصة قبل التحريم لا يتجاوز 400 مصنع ، وبعد سبع سنوات تم العثور على ما يقرب من 80 ألف مصنع وأكثر من 90 ألف أتون لصنع الخمر ، مع اعتراف قادة الشرطة بأن هذه الأرقام لا تمثل سوى 10 ٪ فقط مما هو موجود بالفعل .
* زادت كمية الخمور المستهلكة عن سنوات ما قبل التحريم ، حيث قدرت الكمية المستهلكة سنويا بـ 200 مليون جالون .
* تم إعدام 200 شخص ، وسجن 500 ألف شخص آخر ، وبلغت قيمة الأشياء المصادرة 400 مليون دولار .
* انتشرت في سنوات المنع أنواع من الخمور السامة ، أودت بحياة 7500 شخص ، وتسببت في إصابة 11 ألف آخر بأمراض فتاكة في عام 1927 وحده .
* ازدادت نسبة الجرائم وتضاعف عدد المجرمين ، فأصبحت نسبتهم 1 : 3 ، وزادت نسبة جرائم القتل بمقدار 300 ٪ عما كان من قبل . يراجع : المرجع السابق ص : 32 - 36 كما يراجع : نحن والحضارة الغربية أبو الأعلى المودودي ص 52 - 60 .
(2) من نافذة الخمور ص : 11 .

ولا يخامر الباحث أدنى شك في أن هذه الأرقام قد زادت بصورة كبيرة في السنوات التالية .

وفي المانيا : تؤكد الإحصائيات ما يلي :

* 24 ٪ من الفتيان والفتيات في سن الثانية عشرة يتعاطون البيرة والخمور بأنواعها المختلفة بشكل يومي ومنظم ، كذلك 42 ٪ ممن هم في سن الرابعة عشرة ، 53 ٪ ممن هم في سن السادسة عشرة .

* يتراوح عدد المرضى من المدمنين على الخمر ما بين 1,2 إلى 1,8 مليون نسمة .

* عدد ضحايا المشروبات الكحولية من الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين 10 - 12 سنة لا يقل عن 100 ألف .

* يولد ما بين 3 إلى 5 آلاف طفل مشوه نتيجة لتعاطي الأم الخمور .

* تسببت الخمر في وقوع 30 ٪ من حوادث الطرق في ألمانيا [1] .

وفي فرنسا : تعتبر فرنسا من أكثر دول العالم إنتاجا واستهلاكا وتصديرا للخمور ، إذ أنها تعد من أساسيات المائدة الفرنسية ، وشعارا للمناسبات السعيدة والأعياد ، والمشروب الذي يتم تقديمه للضيوف .. وتشير الأرقام إلى ارتفاع معدلات الوفيات الناتجة عن الخمر ، ودائما يذكر عام 1956 كنموذج مثالي على ذلك .. فقد مات بسبب مرض السل في هذا العام 12 ألف شخص ، بينما مات بسبب الخمر 17 ألف شخص .. كما تبين الإحصائيات ارتفاع نسبة النساء المدمنات خلال عشر سنوات من 1 : 20 إلى 1 : 4 .. [2] .

وفي كندا : تعد كندا – في نظر الغرب – من أكثر الدول المحافظة على المبادئ الدينية ، وخاصة مقاطعة (ساسكاجوان) التي يحرم القانون فيها بيع الخمر لمن تقل أعمارهم عن 19 عاما ، كما يحظر شربها في الطرقات والسيارات والحدائق العامة ، وكذلك يمنع الإعلان عن الخمور في محطات التليفزيون .. ولا تباع إلا في مناطق مخصصة لذلك ، وهي أماكن غير مكشوفة للمارة ..

ورغم كل هذه الإجراءات ، انتشر الخمر والإدمان عليها بين الطلاب ، حيث تشير الإحصائيات في مدينة (ساسكاتون) ثاني أكبر مدن المقاطعة إلى أن نصف طلبة

---

(1) يراجع : المرجع السابق ص : 46 : 54 .

(2) يراجع : المرجع نفسه ص : 57 - 60 .

المرحلة الثانية عشرة الدراسية مدمنون على الخمر ، وأن 95 ٪ من الطلاب قد جربوا شرب الخمر [1] .

وفي الفاتيكان : معقل البابوية ، ومركز النصرانية ، وجه الأب (جوزيف ماكنمارا) رئيس رهبان الروح الأقدسي إنذارًا لجميع القساوسة ورجال الدين ، بسبب تفشي إدمان الخمور بصورة مأساوية بينهم ، واقترح وسائل للعلاج الروحاني والطبي ، والعلاج بالصدمة إذا لزم الأمر [2] .

ولا شك أن موقف النصرانية المحرفة من الخمر – فيما أرى – هو السبب الأول وراء انتشار شرب الخمور والإدمان عليها في المجتمعات الغربية ، وذلك واضح في عقيدة ما يسمى بالعشاء الرباني ، حيث يضع رجال الفكر الكنسي الخمر على قليل من الخبز ، ويدعون استحالة الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه ..

أفبعد هذا يبقى مجال للتساؤل عن أسباب تفشي شرب الخمر وإدمانها في المجتمعات الغربية ؟ !

* * *

(3) المخدرات

من المنطقي أن تعاني المجتمعات الغربية من وبال المخدرات .. فالمجتمع الذي يبيح الخمر ويسمح بتداولها ، لابدَّ وأنه سيسير حتما إلى طريق المخدرات وإدمانها .

ومن العجب أن تؤمن بعض الدول الأوروبية بأن إباحة المخدرات وتسهيل الحصول عليها هو الطريق الأيسر لمكافحتها والقضاء عليها . وعلى هدي من هذه الفلسفة ، أصبحت المخدرات تتداول جهارا نهارا في بعض دول شمال أوروبا ، الأمر الذي أدى إلى التأخير في تطبيق اتفاقية (شينجن) التي سبق الإشارة إليها في موضع سابق .

وقد تم تعديل القانون الأسباني لإسقاط صفة الجريمة عن متعاطي المخدرات ، كما تقضي التعديلات بمعاقبة من يتعاطون المخدرات في الأماكن العامة بغرامة بسيطة دون الحاجة إلى مثولهم أمام المحاكم الجنائية أو دخولهم السجن ، إلا إذا وجدت أدلة على قيامهم بالاتجار في المخدرات [3] .

(1) المرجع نفسه يراجع ص : 60 - 64 .

(2) ينظر المرجع نفسه ص : 54 - 56 .

(3) ينظر : من نافذة المخدرات (ضمن سلسلة : أفول شمس الحضارة الغربية) – مصطفى فوزي غزال ص : 52 ، 53 .

ولقد أصبحت تجارة المخدرات من الضخامة بحيث صار لها نفوذ عالمي يصعب على المجتمع الدولي التصدي له ، بل إن أباطرة المخدرات وصل بهم الحال إلى إعلان قيام دولة مستقلة لهم في جزء من أراضي دولة « ميانمار » (بورما سابقا) لها جيشها النظامي وأجهزتها المستقلة .

وفي دولة كولومبيا لم تستطع الحكومة إيقاف نشاط أباطرة المخدرات رغم المساعدات الهائلة التي تلقتها من الولايات المتحدة وغيرها من الدول .

وتجارة المخدرات تقع تحت سيطرة المافيا العالمية التي تمكنت من استقطاب بعض كبار المسئولين في كثير من الدول الغربية وتسخيرهم لحماية هذه التجارة .. وعن طريق التحالف بين عصابات المافيا والمحافل الماسونية ، استطاع بارونات المخدرات أن يعقدوا صفقات خيالية لتجارة الأسلحة والمخدرات ... ولقد تورطت المخابرات الإيطالية في عملية تهريب زعيم المحفل الماسوني الإيطالي من داخل أحد السجون السويسرية ، وذلك خوفا من كشف أسرار كبار رجال السياسة والدين في إيطاليا ؛ بدءا من رؤساء الحكومات والوزراء وقادة الأحزاب ، حتى بعض رجال الفاتيكان ، وتبين أن المحفل كان مرتبطا بنشاطات مالية واستثمارية مع الفاتيكان والمخابرات المركزية الأمريكية ، وأنه كان يعقد الصفقات عن طريق وسطاء وسماسرة تبين أن فيهم عددا من رجال الدين ومديري المصارف ورجال المخابرات .. وأصبح لهذا المحفل القوة اللازمة للتدخل في تعيين وعزل الحكومات ، وأصبح رئيسه شخصا محترما لدى الإدارة الأمريكية [1] .

إذا كانت تجارة المخدرات بهذا الحجم الهائل وبهذا النفوذ الواسع فلا عجب أن تغرق المجتمعات الغربية في بحور المخدرات وأن تنحدر الشعوب إلى هذا المستنقع الآسن .

ففي الولايات المتحدة : انتشرت المخدرات في أوساط الشباب ، خاصة طلاب المدارس والجامعات ، حيث بلغت نسبة المتعاطين للمخدرات في جامعة « لوس انجيليس » 52 ٪ .

وذكرت إحصائية أجريت في مدرسة ثانوية تضم 1000 طالب ، أن ما بين 70 : 80 ٪ منهم قد جربوا المخدرات ، وأن ما لا يقل عن 5 ٪ منهم مدمنون .. وبعد عشر سنين فقط جرى إحصاء مماثل فتبين أن 60 ٪ من طلاب المدارس والمعاهد في لوس انجيليس يتعاطون المخدرات مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيا .. وفي إحدى الجامعات في كاليفورنيا بلغت

(1) يراجع المرجع السابق ص 16 - 34 .

نسبة مدمني مخدر « الماريجوانا » 85 ٪ من الطلاب وفي المدارس بلغت النسبة 75 ٪ [1] .

وفي الجيش الأمريكي لا تختلف الصورة كثيرا ، « فقد ذكرت صحيفة التايمز البريطانية » أن جنديا واحدا على الأقل من القوات الأمريكية المرابطة في بريطانيا ، يطرد من الخدمة العسكرية يوميا ويعاد إلى بلاده بسبب تعاطيه المخدرات ، وأضافت الصحيفة أن هؤلاء الجنود يعملون على أسلحة نووية [2] .

وفي روسيا : رفع الرئيس الروسي بوريس يلتسين الحظر المفروض على تعاطي المخدرات وذلك في عام 1991 ، مما أدى إلى إغراق البلاد بكميات وفيرة من المخدرات بكافة أنواعها وأشكالها ، وفي بحث قامت به وزارة التعليم الروسية عام 1992 ، تبين أن 1,5 مليون شخص من بين سكان روسيا البالغ عددهم 150 مليون نسمة يتعاطون المخدرات ، كما تشير الإحصائيات الأمنية إلى أن أكثر من 53 ألف جريمة متعلقة بالمخدرات وقعت في عام 1993 م وحده ، مقابل 29 ألف . عام 1985 م [3] .

وفي ألمانيا : أجري استطلاع بين الطلاب لمعرفة مدى تفشي المخدرات بينهم فتبين أن واحدا من كل خمسة طلاب يتعاطون المخدرات ، وقد جاء طلاب الطب في جامعة (بون) في مقدمة المتعاطين للمخدرات ، يليهم طلاب العلوم النظرية .. كما ظهر أن بعض الرؤساء والوزراء والدبلوماسيين يتواطؤون مع المهربين ويسهلون لهم عمليات التهريب [4] .

وفي بريطانيا : كشفت دراسة علمية عن أن المخدرات والمشروبات الكحولية أصبحت تلعب دورًا كبيرا في حياة التلاميذ في بريطانيا ، حيث تبين أن أكثر من 40 ٪ من التلاميذ يتناولون المخدرات والمشروبات الكحولية بصورة منتظمة [5] .

كما حذرت دراسة أخرى من أن تعاطي المخدرات في المدارس البريطانية – خاصة المرحلة الثانوية – أصبح أمرا روتينيا ، وأن التلاميذ الذين لا يتناولون المخدرات أصبحوا هم الأقلية في هذه المدارس ، وأظهرت الدراسة التي أجريت على تلاميذ تتراوح أعمارهم بين 14 و 16 عاما ، أن نسبة التلاميذ الذين عرض عليهم تعاطي المخدرات ارتفعت من 59 ٪ إلى 76 ٪ كما أن نسبة الذين تناولوا المخدرات بالفعل زادت من 36 ٪ إلى 51 ٪ » [6] .

---

(1) المرجع السابق يراجع ص : 38 : 40 .
(2) المرجع السابق ص : 43 .
(3) الأهرام 14 / 2 / 1994 م ص : 1 .
(4) من نافذة المخدرات – مرجع سابق ص : 51 ، 52 .
(5) الأهرام 5 / 7 / 1995 م ص 1 .
(6) الأهرام 25 / 7 / 1995 م ص 1 .

وفي فرنسا : حذر التقرير السنوي للمرصد الفرنسي لمكافحة المخدرات من استمرار ارتفاع عدد مدمني المخدرات في فرنسا .. بحيث وصل عدد مدمني الحشيش إلى 4 ملايين شخص ، وعدد مدمني المخدرات البيضاء إلى 300 ألف شخص معظمهم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 20 و 34 عاما .. وأشار التقرير إلى أن الصعاب التي تواجه واضعي القوانين في تعريف « المدمن » قد جعلت إمكانية علاج هذه الظاهرة تزداد صعوبة ؛ لأن الحكومة والرأي العام في فرنسا لم يحدّدا بعد ما إذا كان المدمن مريضا أو مجرما .. وأضاف التقرير أن الصعوبة الأخرى في علاج ظاهرة إدمان المخدرات هي تحديد مدى قدرة المدمن على التخلص من المخدر بشكل إرادي ، وهو ما يطلق عليه الخبراء « مرض التعود » [1] .

* * *

(4) الجرائم

ترتبط الجرائم بالخمور والمخدرات ارتباطا وثيقا .. فهي في الغالب إما أن تكون سببا لها أو مسببا عنها ؛ لذا كان من الطبيعي أن تجد المجتمعات الغربية التي تفشت فيها الخمور والمخدرات ، تقاسي الويلات من الجرائم المتعددة الأشكال ، والتي تبلغ من البشاعة حدًا لا يكاد يصدق من فرط هوله وبشاعته .

ففي الولايات المتحدة الأمريكية : (1) تضاعفت الجرائم خاصة جرائم الأحداث في الفترة ما بين عام 1960 ، 1973 بنسبة 144 ٪ والجرائم الخطيرة بنسبة 116 ٪ .. وفي عام 1981 بلغ عدد الجرائم 13,5 مليون جريمة بلغت خسائرها 9 مليار دولار ، وذكرت إحدى الإحصائيات أنه كل 6 دقائق تحدث جريمة اغتصاب ، ويسقط قتيل كل 23 دقيقة وتحدث جريمة سرقة بالإكراه كل 8 ثوان .. وفي نيويورك وحدها يتعامل البوليس سنويا مع أكثر من 1600 جريمة قتل ، 3500 جريمة اغتصاب ، و 100 ألف حادث سرقة ، 200 ألف حالة اقتحام منازل بغرض السرقة بالإضافة إلى جرائم أخرى .

(2) وتضيف مصادر الشرطة في نيويورك أنه في الفترة ما بين 1978 : 1983 لقي 29 ضابطا حتفهم ، وتعرض 503 من رجال البوليس لنيران الأسلحة الخاصة بالمجرمين الذين اعتقل منهم 600 ألف شخص . ولقد اعترف الرئيس الأمريكي « رونالد ريجان » بتفشي

---

(1) الأهرام 5 / 7 / 1995 م ص 1 .

وباء الجريمة في بلاده عندما صرح في سبتمير عام 1982 م قائلا : إنه لا يسعنا الاعتقاد بأنه في مقدور المواطنين القيام بالنزهات المسائية في الحدائق بشكل طبيعي وهادئ ، ثم أضاف قائلا : إن « نقابات » الإجرام تشكل جزءا مأساويا من تاريخ أمريكا [1] . وهناك جرائم أخرى مثل الرشوة ، تجد لها سوقا رائجة في الولايات المتحدة وتورط فيها كبار الشخصيات .

(3) هذا في الثمانينات ، أما في أوائل عقد التسعينات فتقول أحدث التقارير : إنه في اليوم الواحد :

* يتم القبض على 1253 شخصا بتهمة تعاطي الحشيش .
* يولد 1282 طفلا غير شرعي .
* يتم اغتصاب 1180 امرأة .
* يقتل 53 شخص .
* تسرق 2618 سيارة .
* يعقد 5962 زواجا .
* يفسخ 2616 زواجا .
* يُحدث السائقون المخمورون خسائر بحوالي 11 مليون دولار .
* تُشرب 50 مليون زجاجة بيرة .
* يهرب 2710 طفلا من منزل والديهم .
* تحمل 2740 مراهقة من الزنا .
* تُجهض 3234 امرأة حبلى .
* يُصاب 68433 شخصا بجرثومة الزهري (السفلس) [2] .

(4) كما تشير إحصائيات وزارة العدل الأمريكية عن معدلات الجريمة والعنف عام 1993 إلى ما يلي :

* سجلت جرائم العنف التي استخدمت فيها الأسلحة النارية رقما قياسيا حيث بلغت في نهاية عامِ 1993 م أكثر من 930 ألف جريمة قتل واغتصاب وسرقة واعتداء .
* يلقى 14 طفلا مصرعهم يوميا .
* ألقي القبض على 3000 قاصر بتهمة قتل .
* يمتلك الأفراد العاديون 210 ملايين قطعة سلاح .

---

(1) جمعت هذه الأرقام من الكتاب رقم (3) في سلسلة : أفول شمس الحضارة الغربية وهو بعنوان : من نافذة الجرائم مصطفى فوزي غزال . يراجع ص 42 ، ص : 142 - 145 .

(2) مجلة منار الإسلام / السنة التاسع عشرة / العدد الأول / محرم 1414 هـ - يونيو 1993 م ص : 123 .

* ثلاثة أرباع المراهقين يحملون الأسلحة .

* تدخل المدارس الإعدادية والثانوية يوميا 270 ألف قطعة سلاح .

* زاد عدد مصانع الأسلحة على عدد محطات خدمة السيارات .

* يتم إنتاج سلاح خفيف كل 20 ثانية .

* يصاب شخص واحد كل 20 ثانية بأحد الأسلحة الأتوماتيكية [1] .

يضاف إلى هذا : حوادث قتل الأجانب والسياح ، والتي تضاعفت عدة مرات في العام 1994 م ، بشكل أصبح يهدد الدخل السياحي الأمريكي الذي يبلغ 74 مليون دولار سنويا مما جعل الحكومة تقوم بحملة تستهدف توفير الأمن للسائحين والزوار الأجانب [2] .

(5) ويتلقى كل (زائر) للولايات المتحدة مجموعة من النصائح والتحذيرات من بينها :

* لا تحمل أموالك في صورة عملات ، بل اشتر فورا (الشيكات السياحية) التي تستطيع بها الحصول على ما تريد من معظم المحلات التجارية والمطاعم الكبرى .

* احذر النشالين .

* لا تترك أموالك ، وأشياءك الثمينة في غرفة الفندق الذي تنزل به بل ضعها في خزانة الأمانات .

* لا تترك متاعك بغير حراسة في أي مكان عام ولو للحظات معدودة .

* اسأل عن ظروف المكان الذي أنت فيه والمكان الذي تريد الذهاب إليه ، لأن هناك مناطق غير مأمونة في معظم المدن الأمريكية .

* تعجز الشرطة في كثير من الأحيان عن أداء واجبها وعلى سبيل المثال : توجد في مدينة نيويورك منطقة تسمى (مرتفعات جاكسون) بها أكبر مركز لتجارة الكوكايين والهيروين في العالم ، حيث يبلغ حجم النشاط في تلك المنطقة عدة مليارات من الدولارات .

* بلغ عدد قتلى الشرطة 13500 قتيل .

---

(1) الأهرام 6 / 1 / 1994 م ص : 1 ، 17 / 5 / 1994 م ص : 1 .
(2) الأهرام 8 / 1 / 1994 ص : 1 ، 4 / 5 / 1994 م . ص : 4 ، الأخبار 28 / 1 / 1994 ص : 1 .

* يتعرض 60 ألف رجل شرطة للهجوم سنويا ويصاب منهم 20 ألفا [1] .

(6) والعجيب في ملف الجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية هو ارتفاع معدل الجرائم التي يرتكبها أطفال في سن تتراوح بين 14 ، 17 عاما ، فلقد زادت هذه الجرائم – كما يقول « جيمس فوكس » عميد كلية العدل الجنائي في أتلانتا في دراسة علمية له – بنسبة 165 ٪ منذ عام 1985 م ، وأضاف أن هذه النسبة ستتصاعد ، حيث يصل 40 مليون طفل إلى سن الشباب ، خاصة أن نصف هذا العدد يعيش بعيدًا عن أحد أبويه أو في أسرة تعمل طوال اليوم .. وأشار إلى أن هذه الظاهرة ستستمر حتى القرن القادم مع زيادة نسبة الشباب بـ 23 ٪ عام 2005 م .

وقد كررت التحذير من « حمامات الدم » المتوقعة في الولايات المتحدة خلال عشر سنوات نتيجة ارتفاع حاد في معدلات الجريمة وسط جيل من الأطفال يتسم بقدر أكبر من العدوانية ومسلح تسليحا أفضل .. وأكدنا من قبل أن الاستراتيجيات التي وضعها الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » لمكافحة الجريمة لن يكون لها أي تأثير في المستقبل لأن فرض حظر التجول في منتصف الليل لا تأثير له لكون معظم جرائم الأطفال والشباب تحدث في وقت مبكر .. ودعونا إلى اتخاذ إجراءات مباشرة وأكثر صرامة ، مثل مصادرة الأسلحة وحظر تجارتها [2] .

(7) ويتكبد الاقتصاد الأمريكي خسائر فادحة تزيد على 20 مليار دولار سنويا بسبب هذه الجرائم ، فقد كشفت دراسة أجرتها جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو ، أنه علاوة على الخسائر في الأرواح فإن الإصابات الناجمة عن العنف المسلح تكلف البلاد نفقات اقتصادية هائلة من بينها :

* 1,4 مليار دولا نفقات طبية .

* 1,6 مليار فاقد الإنتاج الناجم عن العجز الجسماني للمصابين .

* 17,4 مليار ، فاقد الإنتاج الناجم عن الوفيات المبكرة .

وأوضحت خبيرة الاقتصاد الطبي المشرفة على الدراسة ، أن هذه الأرقام متحفظة جدا ولا تكشف عن الحجم الحقيقي للأضرار الناجمة عن العنف المسلح ، وأن الأرقام

(1) هذه هي أمريكا . د / محمد عبد اللاه / الأهرام 9 / 6 / 1994 م ص : 4 .
(2) الأهرام 19 / 2 / 1994 م ص 1 .

الحقيقية أكبر من ذلك بكثير [1] .

وقد صدقت توقعات الخبيرة الأمريكية ، فقد جاء في دراسة لوزارة العدل الأمريكية أن الجريمة بمختلف أنواعها من قتل وسرقة واغتصاب وغيرها أصبحت تشكل عبئا ثقيلا على المجتمع الأمريكي بعد أن بلغت التكاليف والخسائر التي تتسبب فيها الجريمة نحو 450 مليار دولار سنويا .

وذكرت الدراسة أن هذا الرقم يشمل أتعاب المحاماة ومصاريف التقاضي ، وخسائر ساعات العمل المفقودة ، ومصاريف التحريات ، والنفقات الأخرى غير الملموسة التي تتحملها العائلات ضحايا جرائم القتل والاغتصاب .. إلا أن الدراسة استبعدت من هذا الرقم مصاريف إدارة السجون ونفقات المراقبة للمفرج عنهم والتي تضيف 40 مليار دولار أخرى لما يتكبده الشعب الأمريكي [2] .

(8) لهذا كله قطع الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) على نفسه وعدا بأن يضع حدا للجريمة التي تجتاح المدن الأمريكية [3] .. وكثف جهوده للضغط على الكونجرس بمجلسيه (النواب والشيوخ) لإقرار مشروع قانون مكافحة الجريمة والعنف . وفي البداية وافق مجلس النواب بأغلبية ضئيلة جدا على قانون يقضي بفرض الحظر على إنتاج وبيع 19 نوعا من الأسلحة نصف الآلية ، وقد حظى القانون بموافقة 216 عضوًا في حين عارضه 214 عضوا ورغم ذلك فقد وصفت هذه الموافقة بأنها انتصار كبير للرئيس الأمريكي [4] .

ولكن الانتصار الحقيقي تحقق عندما وافق مجلس الشيوخ بأغلبية 61 صوتا ضد 38 ، على مشروع القانون الموسع الذي اقترحه الرئيس كلينتون لمكافحة الجريمة والعنف في أمريكا ، ومن أهم مواد هذا القانون الجديد الذي يتكلف 30 مليارا من الدولارات :

* توسيع عقوبة الإعدام لتشمل 60 نوعا من الجرائم المختلفة .
* اعتبار العنف ضد النساء انتهاكا للحقوق المدنية .
* فرض عقوبات فيدرالية على إساءة معاملة الزوجات .
* حظر حمل وبيع واستعمال 19 نوعا من الأسلحة نصف الآلية .

---

(1) الأهرام 9 / 1 / 1994 م ص : 4 .
(2) الأهرام 23 / 4 / 1996 م ص 1 .
(3) الأخبار 15 / 7 / 1994 م ص : 2 .
(4) الأهرام 7 / 5 / 1994 م ص : 1 .

* يعاقب بالسجن مدى الحياة من ارتكب جريمة من جرائم العنف ثلاث مرات متتالية .

* تخصيص 13,5 مليار دولار على مدى 6 سنوات لتعيين 100 ألف ضابط شرطة إضافي .

* 9,9 مليار لبناء سجون جديدة . * 5,5 مليار لبرامج منع الجريمة .

* 1,4 مليار لبرامج مكافحة تعاطي وتهريب وترويج المخدرات .

واعتبر معارضو القانون أنه لن يكون له سوى تأثير محدود لأن 95 ٪ من الجرائم تقع في اختصاص القوانين المحلية للولايات ، وأكدوا أن في هذا القانون إهدارًا للمال العام بالنظر إلى محدودية تأثيره [1] . فهل تتمكن الولايات المتحدة - ياترى - من قطع دابر الجريمة واستئصال شأفتها بهذا القانون أم أنه سيلاقي نفس المصير الذي لقيته حملة تحريم الخمور في العشرينات والثلاثينات ؟ !

وفي بريطانيا : تضاعفت الجرائم الخطيرة بنسبة 9 ٪ في بداية الثمانينات وجرائم السرقة بالذات زادت بمقدار 400 ٪ [2] .

وفي تقرير لحزب العمال البريطاني عن الجريمة في إنجلترا وويلز خلال سبع سنوات [1987 - 1993] تبين أن معدل الجريمة قد زاد بنسبة 42 ٪ مما يجعل بريطانيا صاحبة أسوأ سجل في مجال الجريمة بين الدول الثماني عشرة الأكثر تقدما في العالم بما فيها الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا . وقال التقرير : إن الإحصائيات الرسمية أكدت وقوع 5,526,255 عام 1993 م ، وأن البرتغال تلي بريطانيا من حيث نسبة زيادة معدلات الجريمة كما تشير الإحصائيات إلى أن ارتفاع معدل الجريمة في الدول الأخرى كان بالنسب الآتية : بلجيكا 32 ٪ ، النمسا 26 ٪ ، النرويج 25 ٪ ، نيوزيلاندا 24 ٪ ، هولندا 23 ٪ ، فرنسا 22٪ ، إيطاليا 21 ٪ ، إيرلندا الجنوبية 16 ٪ كندا 15 ٪ ، اليابان 14 ٪ ، سكوتلاندا 13٪ ، فنلندا والسويد 9 ٪ ، إيرلندا الشمالية 4 ٪ » [3] .

وفي إيطاليا :في بداية الثمانينات شهدت إيطاليا جريمة قتل كل ساعتين وجريمة سرقة في كل دقيقة .. [4] أما عن الرشوة في إيطاليا فقد تبين أن كثيرا من الشخصيات الكبرى مثل رؤساء الوزارة والوزراء وقادة الأحزاب وبعض رجال الدين عملاء لدى عصابات

(1) أخبار اليوم 27 / 8 / 1994 م ص : 6 ، الأهرام 29 / 8 / 1994 ص : 4 .

(2) ينظر : من نافذة الجرائم ص : 54 .

(3) الأهرام 12 / 4 / 1995 م ص 4 .

(4) المرجع نفسه ص : 54 .

الجريمة المنظمة (المافيا) وقد سبقت الإشارة إلى المحفل الماسوني وجرائمه .

ولم يسلم السلك القضائي من طوفان الإجرام ، فقد تم التحقيق مع 23 عضوا في المجلس الأعلى للقضاء الإيطالي بتهمة اختلاس الأموال العامة [1] .

وفي الفاتيكان : تسببت قضية إفلاس مصرف (امبرزيانو) في تفجير فضائح كبرى تتعلق بطبيعة الاستثمارات المالية للفاتيكان والتي تبين أنها تتعلق بـ (المافيا وتجار السلاح والأفيون) . وقد قتل رئيس المصرف المذكور في العاصمة البريطانية لندن في ظروف غامضة مشبوهة تثير كثيرا من التساؤل حول علاقة أطراف دولية كثيرة بهذه الفضيحة كما تبين أن الفاتيكان لم يقم بدفع ضرائب للدولة الإيطالية تقدر بملايين الدولارات [2] .

وفي فرنسا : ارتفعت بصورة حادة معدلات الجرائم التي يرتكبها الأطفال في السنوات الأخيرة ، فقد كانت نسبة جرائم الأحداث 17 ٪ من جملة الجرائم التي تم ارتكابها خلال عام 1994 م [3] .

وفي ألمانيا : تشهد ألمانيا أيضا مشكلة حقيقية في هذا الصدد ، بعد أن أدت الوحدة بين الشطرين الشرقي والغربي - بصورة غير مباشرة - إلى انعدام الرعاية الأسرية الكافية ، وانشغال أولياء الأمور - الذين أنهكتهم البطالة - بالسعي لتحسين ظروف المعيشة « كما سجلت جرائم النشل وسرقة المحلات التجارية ارتفاعا بلغ أكثر من 40 ٪ » [4] .

وتسود ألمانيا حاليا حالة من الذعر والرعب الشديد بسبب تزايد حدة العنف في أوساط التلاميذ والشباب في ألمانيا ، وأعلن « هاينز فاسمان » أحد كبار مسئولي الشرطة أن الأطفال يذهبون إلى المدارس وهم مسلحون ، وأنه بات من المعتاد يوميا أن يحضر هؤلاء الصغار وبحوزتهم سكين على الأقل ، وأن تحدث عمليات سرقة بالإكراه ، وابتزاز ، وإصابات خطيرة في فناء المدرسة ، موضحا أن التلاميذ الذين يرتكبون أعمال العنف أصغر سنا من ذي قبل [5] .

وفي روسيا : التي ورثت الاتحاد السوفييتي السابق ، أصبحت الجرائم تشكل معلما بارزا من معالم الحياة اليومية الروسية ، فعصابات الجريمة المنظمة (المافيا) تمارس نشاطها الإجرامي في الخطف والسلب والنهب وابتزاز الأموال علانية .. وقد بلغ عددها في

(1 ، 2) ينظر : المرجع نفسه ص : 75 .

(3 ، 4) الأهرام 25 / 7 / 1995 م ص 1 .

(5) الأهرام 9 / 12 / 1995 ص 1 .

الآونة الأخيرة ما يزيد على 3000 عصابة إجرامية ، ترتبط 150 منها بعلاقة وثيقة مع عصابات المافيا الإيطالية .. وقد اعترف متحدث باسم السفارة الروسية في لندن بأن الوضع الأمني تدهور بشدة خلال عامي (92 - 93) وأن الأجانب بمن فيهم رجال الأعمال أصبحوا هدفا للعصابات الإجرامية التي جعلت السفر إلى موسكو وسان بطرسبورج (لينجراد سابقا) مسألة محفوفة بالمخاطر .

وتعد هذه المخاطر الأمنية أهم المخاطر التي تواجه عمليات الاستثمار الأجنبية في روسيا حيث سجلت 7000 جريمة ضد الأجانب في النصف الأول فقط عام 1993 م معظمها لابتزاز الأموال بالتهديد والعنف . وتعترف دوائر الأمن الروسية بأن العدد الحقيقي لهذه الجرائم يفوق الرقم المعلن كثيرا ، وأنه يصعب معرفة عدد جرائم الابتزاز التي ارتكبت ضد الشركات والاستثمارات الأجنبية [1] ولقد ساهم الوضع الاقتصادي المتردي والأوضاع الاجتماعية السيئة والتفكك الأسري في وقوع الأطفال في براثن عصابات المافيا ، التي تستغلهم في ارتكاب الجرائم من السرقة إلى القتل ، لأن القانون الروسي يحظر محاكمة الأحداث تحت 14 سنة ويحمل ذويهم المسئولية كاملة [2] .

واتسع نشاط المافيا الروسية ليشمل الاغتيالات المنظمة لرجال البنوك ورجال الأعمال بل وبعض النواب في البرلمان الروسي .. واعترفت السلطات الأمنية في سان بطرسبورج التي تعد العاصمة الثانية لروسيا ، أن الأحياء السكنية بها مقسمة بين عصابات المافيا ، وأن المدينة تحفل بالجرائم الاقتصادية والاغتصاب والسطو على الشقق السكنية وتحطيم المحال التجارية واختطاف الأطفال .. لذا نصحت القنصلية الأمريكية في المدينة رعاياها الأمريكيين من رجال الأعمال والسائحين بعدم زيارة هذه المدينة ، بسبب انتشار العنف والجريمة بها وبالمناطق المحيطة بها [3] .

وسيأتي - بمشيئة الله تعالى - الحديث عن دور المافيا الروسية في سرقة وتهريب المواد النووية ، وذلك عند الحديث عن الانهيار في الجانب العسكري من النظام الدولي الجديد ، ويكفي هنا الإشارة إلى أن المخابرات قدمت معلومات إلى الكونجرس الأمريكي عن نشاط المافيا الروسية في تطوير جيل جديد من الأسلحة الكيماوية والنووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل مما أثار ضجة كبرى في الأوساط الأمريكية [4] .

---

(1) الأهرام 17 / 1 / 1994 م ص : 1 .
(2) الأهرام 30 / 4 / 1994 م ص : 4 .
(3) الأهرام 28 / 4 / 1994 م ص : 1 .
(4) الأهرام 30 / 4 / 1994 م ص : 4 .

وفي الصين : بدأت الحكومة الشيوعية حملة جديدة للقضاء على أنشطة الجريمة المنظمة [المافيا] ، والسرقة ، والاغتصاب ، واختطاف الأطفال والنساء بغرض التجارة ، وذلك بعد أن أكدت الإحصائيات أن معدل الجرائم الكبيرة في الصين قد ارتفع بنسبة 15٪ عام 1994 مقارنة بعام 1993 م وفشلت حملة الإعدامات المستمرة وعقوبات السجن لمدة طويلة في الحد من تفشي الجرائم خاصة في المدن المكتظة بالسكان .

كما قررت الحكومة فرض عقوبات على المسئولين المحليين إذا ثبت تراخي قبضتهم في فرض الأمن والنظام وفي التصدي لرؤساء العصابات المحلية التي أصبحت تمثل تهديدا خطيرا لاستقرار الصين [1] .

كما كشفت الإحصائيات الرسمية عن وجود سبعة آلاف عصابة لخطف الأطفال والنساء وبيعهم ، وتبين أنه خلال عامي 1993 ، 1994 تم اختطاف 33 ألف سيدة وطفل ، وتم إلقاء القبض على 500 ألف ممن يقومون بتهريب النساء والأطفال المختطفين ، وأكد كبار مسئولي الحكومة الصينية أن « تجارة الرقيق » باتت تمثل مشكلة خطيرة للصين [2] .

---

(1) الأهرام 21 / 2 / 1995 م ص 1 .

(2) الأهرام 1 / 4 / 1995 م ص 1 .

الدور اليهودي في نشر الإباحية والانحلال الخلقي في المجتمعات الغربية

كما كان لليهود دور كبير في رفع راية المادية وعلو كلمتها ، كان لهم الأثر الأكبر في شيوع الإباحية والانحلال في المجتمعات الغربية .. ولا يستطيع أحد أن ينسى كتابات (سيجموند فرويد) اليهودي ، وأنه هو الذي أشعل شرارة الثورة الجنسية في علم النفس ومنه إلى الفنون والآداب . وتقول بروتوكولات حكماء صهيون .. (يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا على العالم ، إن (فرويد) منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار الأخلاق .

وتعتبر جهود فرويد في تحطيم الأخلاق جزءا من الخطة اليهودية الكبرى للقضاء على الأديان تمهيدا لسيطرتهم على العالم سيطرة كاملة . ولهذا فإن فرويد يحارب الدين ويعاديه ويقول في ذلك : « إن التحليل النفسي يمثل المرحلة الأخيرة من الثورة العلمية التي مازالت تعري للبشرية خرافاتها المتمثلة في الدين » [1] .

ولا شك أن اليهود أساتذة الفجور والفسق في العالم وأنهم هم الذين يذهبون يديرون هذه المهنة القذرة على المستوى العالمي [2] . فتاريخهم الأسود مليء بالعديد من المواقف التي استخدموا فيها الجنس وسيلة أساسية لتحقيق مآربهم والوصول إلى أهدافهم .. وقد امتلأت كتبهم المحرفة بالعديد من المشاهد الجنسية التي لم يتورع كتابها عن نسبتها إلى الأنبياء الكرام . وحاشاهم عليهم الصلاة والسلام [3] .

ومع ذلك فإنني أرى أن هناك عدة عوامل – بالإضافة إلى الدور اليهودي – قد تشابكت وتضافرت لتغرق المجتمع الأوروبي في أوحال الإباحية والانحلال الخلقي . وأهمها :

(1) أن الإنسان الأوروبي طوال تاريخه لم يعرف غير المادية دينا يدين به ويخضع

---

(1) عن أثر فرويد في الحضارة الغربية يراجع :

* الإنسان بين المادية والإسلام . * التطور والثبات في حياة البشرية .

(2) يراجع اليهود : عقيدتهم ، طبيعتهم ، مصادر فكرهم د / فرج محمد إبراهيم ص : 50 : 61 .

(3) ينظر على سبيل المثال من العهد القديم أسفار : تكوين 19/ 30: 38 ، 49/ 1: 4 ، صموئيل الثاني 11 ، 13/ 1: 20 وغيرها .

له . والمادي بطبيعته لا يتورع عن ارتكاب شتى أنواع المنكرات ، وكافة ضروب الفواحش ، إذ أن الفضيلة في نظره مرتبطة بالمادة والمنفعة ولا علاقة لها بالفضيلة التي يعرفها أهل الدين والمروءة .

(2) إن التعاليم الكنيسية ذاتها قد تسببت في إيجاد نوع من الكبت النفسي ، فالمرأة – طبقا لهذه التعاليم – هي مصدر الخطيئة والإثم حينما دفعت آدم للأكل من الشجرة المحرمة ، والعملية الجنسية ينظر إليها على أنها رجس ونجس يحسن بالزاهد الحقيقي أن ينفر منه ويبتعد عنه حتى ولو كان ذلك في الصورة الشرعية المباحة . هذه التعاليم وغيرها كانت الثغرة التي استغلها أعداء الكنيسة للهجوم عليها أولا ثم على النصرانية ثانيا ، ثم على مطلق الدين ثالثا وأخيرا .

ولا يعني ذلك أبدا إعفاء اليهود من المسئولية عن شيوع الانحلال والإباحية في المجتمعات الغربية ، ولكن المقصود هو بيان أن الدور اليهودي لم يكن العامل الأوحد ، بل يمكن القول بأن طبيعة الرجل الغربي وطبيعة النصرانية المحرفة مهدتا السبيل لنجاح اليهود في خطتهم ، إذ وجدوا أرضا صالحة لوضع بذرتهم الخبيثة وبيئة صالحة لنموها وترعرعها .

* * *

وبعد !! فهذه هي الحضارة الغربية ، حضارة مادية منحطة أخلاقيا ، بعيدة كل البعد عن الله . وحضارة هذا شأنها وتلك طبيعتها محكوم عليها بالفناء والزوال طبقا للقانون الإلهي الذي لا يتخلف أبدا .

وقد بدأت تظهر بالفعل بعض بوادر الانهيار الشامل وتطفو على السطح ، مما ينبئ بسقوط وزوال النظام الدولي الجديد ، القائم حضاريا وثقافيا على هذه الحضارة المادية وهذا ما رصدته في المبحث التالي وبالله التوفيق .

المبحث الثاني

بوادر الانهيار في النظام الدولي الجديد

بعد أن أثبتنا في المبحث السابق أن الحضارة الغربية المادية - التي تمثل الأساس الحضاري والفكري والقيمي للنظام الدولي الجديد - هي في طريقها إلى السقوط والفناء، فإننا هنا نرصد بوادر هذا السقوط وإرهاصات هذا الفناء على مختلف المستويات : السياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية .

أولا : على المستوى السياسي :

تتمثل بوادر الانهيار على المستوى السياسي في عدة مظاهر ، منها ما يتعلق بحالة عدم الاستقرار السياسي وكثرة تغيير الحكومات في زمن قياسي ، ومنها ما يتعلق بحالة التخبط الواضح في سياسات بعض الدول تجاه بعض القضايا الدولية ، ومنها ما يتعلق بحالة الفوضى الشاملة والصراع الحاد على السلطة في بعض الدول الكبرى ، يضاف إلى ذلك كله ما يتكشف يوميا من قضايا الفساد والانحلال التي جعلت الشعوب الغربية تفقد الثقة في مصداقية النخبة السياسية الحاكمة في معظم هذه الدول :

ففي الولايات المتحدة الأمريكية : التي تمثل القوة العظمى الأساسية في النظام الدولي الجديد ، يمكن أن نبين ما يلي :

(1) هاجم الرئيس الأمريكي السابق « جورج بوش » بعنف السياسة الخارجية الأمريكية الحالية لأنها تتسم بالتردد وعدم الحزم ، بل تتسم أحيانا بالتخبط الواضح تجاه القضية الواحدة ، وتسببت في توجيه الطعنات لكرامة أمريكا . وضرب « بوش » لذلك أمثلة بالمواقف الأمريكية تجاه البرنامج النووي لكوريا الشمالية ، وقضية هايتي ، وقبل ذلك مواقفها تجاه كل من الصومال والبوسنة ورواندا [1] .

(2) كما وجه أربعة من وزراء الخارجية السابقين - منهم جيمس بيكر وألكسندر هيج - اتهامات إلى وزير الخارجية خلال فترة كلينتون الأولى « وارين كريستوفر » بأنه قليل الحيلة في قضايا السياسة الدولية ، وقالوا له أثناء اجتماعهم به : إن تذبذب وتردد

---

(1) ينظر : الأهرام ص : 4 ، الأخبار ص : 2 كلاهما بتاريخ 10 / 2 / 1994 م .

السياسة الخارجية الأمريكية قد أفقد الولايات المتحدة الأمريكية مصداقيتها [1] .

(3) أما الرئيس « كلينتون » فلا يكاد ينتهي من زوبعة إلا ويواجه أخرى ، وقد حاصرته الاتهامات من كل جانب حول تعاملاته المالية - هو وزوجته - حينما كان حاكما لولاية « أركانصو » في القضية التي تعرف باسم « قضية وايت ووتر » التي يواجه الرئيس الأمريكي فيها مأزقا حقيقيا [2] ، يضاف إلى ذلك مشاكله الأخرى مع القضايا الكثيرة المرفوعة ضده من قبل فتيات يتهمنه جميعا بالتحرش بهن جنسيا [3] .

وفي بريطانيا : سبق الحديث عن الفضائح الجنسية العديدة لأصحاب المكانة العظمى في الحكومة البريطانية ، وحملة الأخلاق الحميدة التي أعلنها « جون ميجور » والتي تحولت إلى أضحوكة يتندر بها الشعب البريطاني .. يضاف إلى ذلك الفضائح المتلاحقة لأفراد العائلة المالكة وكان آخرها اعتراف ولي العهد الأمير « تشارلز » علنا بخيانة زوجته ، ومطالبته علانية بفصل الكنيسة عن الدولة ، الأمر الذي أحدث ضجة كبرى وزلزالا هائلا في جميع الأوساط البريطانية [4] . وقد ردَّت زوجته « ديانا » الصاع صاعين ، حينما اعترفت - خلال مقابلة تليفزيونية - بالخيانة الزوجية عدة مرات ، مما أدى في النهاية إلى الطلاق ، ووقوع حرب كلامية شعواء تنذر باقتراب نظام الملكية البريطانية من نهايته المحتومة .

وفي إيطاليا :كفر الشعب الإيطالي بالسياسة والسياسيين ، حينما تبين له أن معظم القادة الذين تولوا حكم البلاد ، وكان الجميع ينظرون إليهم بعين التقدير والإجلال ، لم يكونوا إلا مجموعة من كبار وعتاة الإجرام ، وعلى علاقة وطيدة بعصابات الجريمة المنظمة العالمية (المافيا) فقد أدان القضاء الإيطالي بصورة رسمية أكثر من 6 آلاف

---

(1) ينظر : الأهرام ص : 4 بتاريخ 30 / 1 / 1994 م .

(2) ليس أدل على ذلك من أن الكونجرس الأمريكي يواصل عقد جلسات استماع للتحقيق في هذه القضية ولا يستبعد أحد إمكانية استدعاء الرئيس لسماع شهادته (الأهرام 24 / 3 / 1994 ص 1) كما أن الرئيس كلينتون قد عبر عن سخطه الشديد لهذا قائلا : إن هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا الأمر مع رئيس أمريكي (الأخبار 24 / 3 / 1994 ص 1 ، الأهرام 11 / 5 / 1994 ص 4) ومن العجب العجاب أن الرئيس الأمريكي قد فتح حسابا بأحد البنوك لجمع التبرعات المالية التي تمكنه من دفع تكاليف وأتعاب المحامين في القضايا الكثيرة المتعلقة به (الأخبار 22 / 6 / 1994 ص 1) والمعروف أن ثروة كلينتون تقدر بـ 1,5 مليون دولار ، بينما تبلغ أتعاب المحامين 1,6 مليون دولار بخلاف 770 ألف دولار تطلبها بولاجونز كتعويض .

(3) ينظر : المشاكل تحاصر كلينتون - آمال المغربي - الأخبار 4 / 1 / 1994 ص 11 ، كلينتون وهيلاري وسط العاصفة - ثناء يوسف - أخبار اليوم 13 / 1 / 1996 م ص 6 .

(4) الأهرام 29 / 6 / 1994 ص 1 ، 3 / 7 / 1994 ص 4 .

مسئول كبير ، من بينهم الرئيس « فرانشيسكو كوسيجا » ورئيس الوزراء عدة مرات « جوليو أندريوتي » كما حكم على رئيس الوزراء السابق « بتينو كراكسي » بالسجن 7 سنوات ، ولكنه هرب إلى تونس .. كما ثبت تورط ثلثي أعضاء البرلمان في قضايا الفساد والجريمة المنظمة .

من هنا عبر الشعب عن سخطه في الانتخابات العامة الماضية بمنح الأغلبية لرجل لم يدخل عالم السياسة إلا منذ عدة أشهر - وقتها - معتمدا على إمبراطوريته المالية والإعلامية ألا وهو « سيلفيو بيرلسكوني » الذي قام بتشكيل الحكومة بالائتلاف مع الفاشيين .. ولكنه كان تحالفا هشا لم يلبث أن تفككت أوصاله بعد أشهر قليلة لتسقط الحكومة ، ولتدخل إيطاليا في مرحلة جديدة من عدم الاستقرار [1] .

وفي اليابان : تعاقب على منصب رئاسة الحكومة سبعة أشخاص في مدة سبع سنوات ، وبعض الحكومات لم تبق في الحكم سوى بضعة أشهر ، وإحداها لم تستطع البقاء في الحكم سوى 59 يوما فقط .. وكان سقوط هذه الحكومات سقوطا مدويا تحت وطأة الفضائح المالية أو الجنسية مما جعل الشعب الياباني - مثله مثل الشعب الإيطالي - يلعن السياسة والسياسيين . ومن أعجب ما يذكر في هذا المقام أن رئيس الوزراء الياباني السابق « موريهيرو هوسوكاوا » كان قد تولى الحكم في أعقاب سقوط الحكومة السابقة بزعامة « كيشي ميازاوا » بسبب الفضائح المالية والفساد الحكومي الرهيب ، وأعلن « هوسوكاوا » الحرب على الفساد ، وأن القضاء عليه هو أول وأهم أهداف حكومته .. وكانت المفاجأة الكبرى حينما تبين أن بطل مكافحة الفساد هو نفسه أحد زعمائه ، إذ سرعان ما استقال « هوسوكاوا » بعد أقل من تسعة أشهر في أعقاب اكتشاف الرشوة التي حصل بمقتضاها على « مليار » ين ياباني من إحدى الشركات الخاصة ، مقابل تسهيل حصولها على التعاقدات الحكومية .. [2] .

---

(1) للوقوف على تفاصيل وافية حول الأزمات السياسية في إيطاليا ، يراجع :
- إيطاليا .. ومرحلة تاريخية جديدة - سوسن حسين - السياسة الدولية : ع 117 يوليو 1994 ص 235 - 241 .
- طريق بيرلسكوني لايؤدي إلى الاستقرار في روما - محمد إبراهيم - الأهرام 11 / 4 / 1994 ، ص : 5 .
- بيرلسكوني يتقدم وسط العواصف - ميشيل داجاتا - الأهرام 25 / 5 / 1994 ص : 5 .
(2) لمزيد من التفصيلات ، يراجع :
- قضية الإصلاح السياسي في اليابان . نزيرة الأفندي . السياسة الدولية : ع 117 يولية 1994 م - ص : 215 - 219 .
- اليابان في مفترق الطريق بين الإصلاح السياسي والفساد - هاني محمد فرج - الأخبار 4 / 1 / 1994 م - ص : 11 . =

وفي أسبانيا : لا يختلف المشهد كثيرا ، حيث كانت الحكومة الاشتراكية السابقة بزعامة « فيليب جونزاليس » كريشة في مهب رياح الفساد العاصفة ، والتي تكشفت ملامحها بهروب رئيس الحرس المدني من البلاد بعد ثبوت استغلاله لمنصبه في الحصول على أرباح غير مشروعة بلغت 3,7 مليون جنيه استرليني ، واتُّهمت الحكومة بتسهيل هروبه تجنبا للفضائح .. ومما يؤكد هذا الاتهام أن الرجل قد هدد من مخبئه بأنه إذا أجبر على العودة لمحاكمته فلسوف يكشف قضايا الفساد التي شارك فيها كبار أركان الحكومة ، وأنه سوف ينهي سنوات حكم الاشتراكيين لأسبانيا بفضيحة مزرية .. وقد اضطر وزير الداخلية لتقديم استقالته بسبب فشله في تبرير كيفية هروب المسئول الهارب .

ولم يكد « جونزاليس » يفيق من هذه الصدمة حتى تعرض لهزة أخرى عنيفة تمثلت في القبض على محافظ البنك المركزي والرئيس السابق لبورصة مدريد بتهمة الاختلاس والتهرب الضريبي ، مما أدى إلى استقالة وزير الاقتصاد .. وشنت المعارضة هجوما على الحكومة متهمة إياها بأن الجهود التي تبذلها غير كافية لإقناع الرأي العام بقدرتها على مكافحة الفساد ، بل إنها تنم عن عجز الحكومة في مكافحته ، أو رغبتها في التغطية عليه [1] . وقد سقطت بالفعل حكومة « فيليب جونزاليس » الاشتراكية في الانتخابات العامة الأخيرة .

وفي فرنسا : تشير أحدث الإحصائيات إلى أن 43 ٪ من كبار السياسيين الفرنسيين هم أيضا من كبار مدمني المخدرات [2] .

وفي اليونان : وافق البرلمان على إجراء تحقيق مع رئيس الوزراء السابق « قسطنطين ميتسوتاكيس » وابنته ، بسبب عمليات تصنت غير مشروع [3] .

وفي ألمانيا : اتهم تقرير لمعهد « ويكرت » الساسة الألمان بأن صورتهم قد أصبحت أسوأ من أي وقت مضى ، وذكر التقرير بعض الشواهد التي تؤكد هذا الحكم ، ومنها ما

= - أخبار اليوم 9 / 4 / 1994 م - ص : 5 .
- اليابان في دوامة الإصلاح - منصور أبو العزم - الأهرام 12 / 4 / 1994 م - ص : 5 .
- اليابان .. حكومة مؤقتة واختبارات صعبة - هاني علي - الأهرام 8 / 7 / 1994 ص 6 .
- ديمقراطية « الكاروكيم » في اليابان .. - منصور أبو العزم - الأهرام 11 / 7 / 1994 ص : 5 .

(1) يراجع : الفساد يهدد حكومة جونزاليز . أمال المغربي . الأخبار 10 / 5 / 1994 م - ص : 13 . وباء الفساد يجتاح أسبانيا . مشيرة موسى . الأهرام 8 / 6 / 1994 م - ص : 5 .

(2) أخبار اليوم 27 / 8 / 1994 ص : 7 .

(3) الأهرام 8 / 6 / 1994 م ص : 5 .

فعله وزير المالية « ثيوديجل » الذي استغل منصبه لتسهيل الحصول على تصاريح استيراد حكومية لأشخاص معينين بطريقة غير قانونية ، كما أنه أصدر أمرا بوقف التحقيق مع إحدى شركات اللحوم التي يساهم مالكها ماديا في تمويل حزب الاتحاد المسيحي الاجتماعي الذي ينتمي إليه الوزير .. ومن بين الشواهد التي ذكرها التقرير أيضا رئيس وزراء مقاطعة بافاريا « ماكس ستريبل » قد تلقى رشاوى من عدة شركات ألمانية من بينها إحدى الشركات التي ساهمت في حملة انتخابه [1] .

وفي الصين : أعلنت الحكومة الصينية أنه تمت معاقبة حوالي 60 ألف مسئول مدني وحربي بتهمة الفساد خلال الشهور الثلاثة الأخيرة فقط من عام 1993 م ، وأوضح تقرير للجنة الانضباط بالحزب الشيوعي أن حجم الرشاوى قد زاد في الفترة المذكورة بمقدار الضعف عنه في نفس الفترة من عام 1992 م ، وأن الشيء الأكثر إثارة للقلق هو الزيادة الكبيرة في حجم الفساد بين المسئولين في المناصب الرفيعة نسبيا ، وذكر التقرير أن قضايا الجريمة الاقتصادية بين الشخصيات القيادية في المقاطعات أو الأعلى منها قد تزايدت بمقدار 6,8 مرة عنها في نفس الفترة من عام 1992 م ، بينما قفزت القضايا بين المسئولين الكبار في الحزب والدولة بمقدار 11 مرة [2] .

وفي روسيا : تسير الدولة سيرا حثيثا نحو الانهيار التام :

(1) فقد نجح التيار اليميني المتطرف بزعامة « فلاديمير جيرينوفسكي » في فرض توجهاته على السياسة الخارجية الروسية .. وقد اعترف بذلك وزير الخارجية نفسه [3] .

(2) كما نجح هذا التيار في إطلاق سراح زعماء الانقلاب الفاشل ضد الرئيس السوفييتي السابق « ميخائيل جورباتشوف » في أغسطس 1991 م وزعماء التمرد العسكري ضد الرئيس الروسي « بوريس يلتسين » في أكتوبر 1993 م .. وقد أصدر البرلمان الروسي قرار العفو بأغلبية 253 ضد 67 صوتا ، رغم المعارضة الشديدة التي أبداها الرئيس الروسي [4] .. وتكمن خطورة هذا الإجراء فيما يمكن أن يترتب عليه من نشوب حرب أهلية في روسيا - كما يقول « إيجورجيدار » زعيم حزب خيار روسيا الإصلاحي - الذي حذر كذلك من أن الإفراج عن هذه القيادات الشيوعية سيؤدي

---

(1) الشعب 13 / 4 / 1993 ص : 8 .

(2) الأهرام 27 / 2 / 1994 ص : 4 .

(3) الأهرام 5 / 4 / 1994 م ص : 4 .

(4) الأهرام 24 / 1 / 1994 م ص : 4 .

لانهيار شامل في البلاد [1] .

(3) وقد تفاقمت الأزمة السياسية في روسيا إلى حد كثر معه الحديث عن قرب وقوع انقلاب يميني للإطاحة بـ « يلتسين » وقد جاء الاعتراف بهذا على لسان « أنا تولي تشوباياس » نائب رئيس الوزراء ، كما أن الرئيس نفسه لم ينف وجود مؤامرة لزعزعة الاستقرار في البلاد والإطاحة به بأي ثمن [2] .

(4) أما عن الفوضى الشاملة داخل الحكومة الروسية والجهاز السياسي والإداري في هذه الدولة الكبرى ، فهي شيء يصعب تخيله ، فلا نظام ولا انطباط ، والتسيب والإهمال هما أساس التعامل ، وليس أدل على هذا من توجيه رئيس الوزراء الروسي « فيكتورتشرنومردين » اللوم إلى عدد كبير من الوزارت التي لم تراع الانضباط في عملها ، وأوضح أن نصف المراسيم التي أصدرها الرئيس لم تنفذ ، ولم يجهد الوزراء المعنيون أنفسهم في قراءتها [3] .

(5) والأمر الأكثر دلالة على بوادر الانهيار : ما تواجهه روسيا من خطر تفككها وتمزيقها إلى جمهوريات صغيرة ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك ..

وأكثر المواقف دلالة على هذا الأمر ما يحدث في جمهورية الشيشان من استبسال أهلها في سبيل الاستقلال التام عن روسيا وتمسكهم بهذا الموقف العظيم حتى النهاية ..

ولاشك أن هذه العناصر جميعا تتضافر للتأكيد على أن الدولة الروسية قد بدأت بالفعل أولى خطواتها على طريق الانهيار التام .

ثانيا : على المستوى الاقتصادي :

تتمثل بوادر انهيار النظام الدولي الجديد على المستوى الاقتصادي في حالة التعثر والركود التي تمر بها اقتصاديات معظم الدول الكبرى ، وقد سبق أن عرضنا جانبا من هذه القضية – في الباب الأول – ولكن المظهر الأكثر دلالة على ذلك يتمثل في الحروب التجارية المشتعلة بضراوة بين كافة أطراف القوى الكبرى في هذا النظام . ووجه الدلالة في ذلك أن هذه الخلافات والحروب التجارية تدل على مدى هشاشة التحالف بين المجموعة القيادية في النظام الدولي الجديد ، وأن قانون المصلحة هو الذي يحكم

(1) الأهرام 25 / 2 / 1994 م ص : 4 .
(2) الأهرام 29 / 3 / 1994 م ص : 4 .
(3) الأهرام 1 / 5 / 1994 ص : 4 .

علاقاتها ، الأمر الذي لابد وأن يحدث أثره على المستوى السياسي مستقبلا ، خاصة وأن الجوانب الاقتصادية - كما سبق القول - أصبحت تحوز المرتبة الأهم في أولويات العلاقات الدولية في ظل النظام الدولي الحالي .

(أ) بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان :

منذ أن تولى « بيل كلينتون » رئاسة الولايات المتحدة وهو يحاول تحقيق الوعود التي قطعها على نفسه أثناء الحملة الانتخابية ، والمتمثلة في الخروج بالاقتصاد الأمريكي من مرحلة الركود إلى مرحلة الانتعاش والازدهار .

ويعتقد الأمريكيون أن أهم العقبات التي تحول دون تحقيق هذا الهدف تتمثل في العجز التجاري الهائل لصالح اليابان ، والذي أعلنت وزارة التجارة الأمريكية ارتفاعه في نهاية عام 1993 م بنسبة 23,7 ٪ ليصل إلى 59,3 مليار دولار ، مسجلا بذلك أعلى معدل له منذ عام 1987 م [1] .. ثم واصل ارتفاعه ليصل في منتصف عام 1995 م إلى 66,6 مليار دولار .. ولمحاولة تقليل العجز الكبير لجأت الولايات المتحدة - فيما أرى - إلى عدة وسائل منها :

أولا : الضغط المتواصل على اليابان لفتح أسواقها التجارية أمام البضائع الأمريكية ، والتهديد المتواصل بتطبيق المادة 301 من القانون التجاري الأمريكي ، والتي تقضي بفرض عقوبات تجارية على الدول التي تضع حواجز أمام صادرات البضائع الأمريكية [2] . قد أسفر هذا الضغط المتواصل عن اتفاق أمريكي - ياباني على فتح أسواق اليابان أمام المنتجات الأمريكية بعد مفاوضات شاقة استمرت عدة سنوات [3] .

ثانيا : تخفيض أسعار الدولار الأمريكي مقابل الين الياباني .. وقد نجحت أمريكا بالفعل في النزول بسعر الدولار إلى مستوى أقل من 80 ينا (بعد أن كان يزيد على 110 ينا) وهو أدنى معدل منذ أكثر من 50 عاما ، مما أثر على الاقتصاد الياباني وأصابه بحالة من الركود .. بل إن ارتفاع سعر الين الياباني له تأثيره الحاد على الاقتصاد العالمي ككل ، إذ أن اليابان من أكبر الدول المصدِّرة في العالم ولها أرصدة وديون خارجية مستحقة على دول العالم ، وصلت في نهاية عام 1992 م إلى ما يعادل 513,6 مليار دولار ، كما

---

(1) الأهرام 29 / 2 / 1994 م ص : 4 . (2) الأهرام 27 / 5 / 1994 م ص : 4 .

(3) نذكر هنا على سبيل المثال أن اليابان قد صدرت للولايات المتحدة 4 ملايين سيارة مقابل استيرادها 40 ألف سيارة أمريكية فقط .

أن الفائض التجاري الياباني مع العالم وصل في نهاية العام نفسه إلى 136 مليار دولار [1] .

هذا ولا تزال الخلافات التجارية الأمريكية – اليابانية تتفاقم يوما بعد يوم .

(ب) بين الاتحاد الأوروبي واليابان :

كما هو الحال مع الأمريكيين ، فإن اليابان تحقق فائضًا تجاريا لصالحها مع الأوروبيين يقدر بحوالي 40 مليار دولار .. ومن هنا جعلت الولايات المتحدة من ضمن وسائلها في الحرب التجارية مع اليابان محاولة جذب الأوروبيين إلى صفوفها للعمل سويا ضد اليابان .. وقد لقيت هذه الدعوة الأمريكية ترحيبًا شديدا من جانب المجموعة الأوروبية التي تحاول خفض العجز الهائل في تجارتها مع اليابان .. ولكن الأوروبيين وإن وافقوا على مبدأ ممارسة الضغوط على اليابان لفتح أسواقها أمام البضائع الأجنبية ، إلا أنهم مختلفون مع أمريكا في أسلوب المواجهة ، حيث يرون أن ما تطالب به الولايات المتحدة من إجراءات ضد اليابان يتعارض مع المبادئ الدولية للتجارة الحرة .. [2] .

(جـ) بين الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية :

برزت الخلافات الحادة بين الجانبين خلال مفاوضات جولة أوروجواي للاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة (الجات) .. فقد طالبت الولايات المتحدة بخفض الدعم الذي تقدمه دول أوروبا للمنتجين الزراعيين والمصدرين والمستهلكين ، لأن هذا الدعم يعطي المنتجات الغذائية الأوروبية قدرة تنافسية مصطنعة ، تجعل من الصعب جدا تدفق الحبوب والسلع الغذائية من الولايات المتحدة إلى أوروبا .. وقد تزعمت فرنسا حركة المعارضة العنيفة للمطالب الأمريكية ، وتبادل الجانبان الأخذ والرد إلى أن تم الاتفاق بينهما أخيرا ، مما مهد لإنهاء جولة أوروجواي التي استمرت 7 سنوات كاملة ورغم

---

(1) ينظر : معركة الين بين الولايات المتحدة واليابان – منصور أبو العزم – الأهرام 6 / 6 / 1993 ص : 5 ..ولا ينسى المرء هنا أن المخابرات المركزية الأمريكية قد جلعت الأولوية القصوى في نشاطها التجسسي موجهة إلى عمليات التجسس الاقتصادي وجمع المعلومات عن المواقف التفاوضية للمنافسين في الصراع الاقتصادي الحاد مع اليابان وألمانيا على وجه الخصوص . وتبين أن المعلومات التي قدمتها المخابرات لصانعي السياسة الأمريكية لعبت دورًا كبيرا في إنهاء الأزمة التي تفجرت مع اليابان حول تجارة السيارات بصورة تخدم مصالح الولايات المتحدة .. كما أن المخابرات الأمريكية ساهمت بشكل حاسم في فوز الشركات الأمريكية بعقود حكومية أجنبية تزيد قيمتها على 30 مليار دولار على مدى ثلاث سنوات [الأهرام 25 / 7 / 1995 م ص 1] .

(2) الأهرام 22/ 2 / 1994 م ص : 4 .

ذلك ، فلا تزال الخلافات الحادة تطرأ بين الحين والحين على جانبي الأطلنطي [1] .

ومما هو جدير بالتسجيل في هذا المقام - وإن كانت له انعكاسات في جوانب أخرى - أن الولايات المتحدة قد أصدرت تشريعا - يُعرف باسم « قانون داماتو » - يقضي بمعاقبة الشركات التي تتعامل مع ليبيا وإيران في قطاعي النفط والغاز بما يزيد على 40 مليون دولار ، وقد أثار هذا القانون ثائرة الدول الأوروبية ، نظرا لحجم معاملاتها الاقتصادية الهائل مع كل من ليبيا وإيران ، وقد ارتفعت بعض الأصوات في الاتحاد الأوروبي ، منادية بفرض عقوبات تجارية مضادة على الشركات الأمريكية ، كما بحث مؤتمر قمة الاتحاد الأوروبي - الذي انعقد في بلفاست - عدة إجراءات متنوعة لمواجهة الموقف الأمريكي المتصلب .

(د) بين الولايات المتحدة والصين :

كانت البداية حينما قامت أمريكا بتخفيض حصة الواردات الأمريكية من المنسوجات والملابس الجاهزة الصينية بنسبة تتراوح ما بين 25 إلى 35 ٪ اعتبارا من 17 / 1 / 1994 م .. وكانت الصين قد صدرت ما قيمته 7,3 مليار دولار من المنسوجات رخيصة الثمن إلى الولايات المتحدة عام 1993 م ، واستأثرت بنسبة تزيد على 30 ٪ من سوق المنسوجات في أمريكا ، مما أدى إلى تضخم فائضها التجاري مع الولايات المتحدة إلى 25 مليار دولار ، لتحتل المركز الثاني في هذا الميدان بعد اليابان ، الأمر الذي أدى إلى اتخاذ القرار الأمريكي السابق .

ولم تقف الصين مكتوفة الأيدي ، بل أعلنت أنها ستتخذ إجراءات انتقامية ضد أمريكا مالم يتم التوصل إلى اتفاق لحل هذه المشكلة ، التي ستؤدي إلى تشريد 300 ألف عامل عامل صيني ، وتكبيد صناعة المنسوجات الصينية خسائر تبلغ 1,2 مليار دولار [2] .

ويبدو أن الولايات المتحدة - في رأيي - سترضخ للتهديدات الصينية إذ أنها لا تستطيع المغامرة بفقدان السوق الصينية الضخمة (أكثر من 1,2 مليار نسمة) .. وليس أدل على ذلك من قرار الرئيس الأمريكي « بيل كلينتون » بتجديد منح الصين وضع الدولة الأولى بالرعاية كل عام ، رغم الحديث المتكرر عن عدم الرضا الأمريكي تجاه

---

(1) لمزيد من التفصيلات عن الخلافات التجارية بين أمريكا والمجموعة الأوروبية يراجع : التقرير الاستراتيجي العربي 1993 م ص : 154 - 158 .

(2) الأهرام 8 ، 13 / 1 / 1994 م ص : 4 .

انتهاكات حقوق الإنسان في الصين . وهذا ما يؤكد ما سبق ذكره من أن المصالح المادية وحدها هي التي تحكم إطار العلاقات الدولية في هذا النظام الجديد ، بعيدا عن الشعارات الجوفاء والجمل البليغة عن حقوق الإنسان والعدالة والمساواة .

(هـ) بين الولايات المتحدة وكندا :

نشب النزاع التجاري الحامي الوطيس بين البلدين بسبب تدفق كميات كبيرة من القمح الكندي - المدعوم حكوميا - إلى الأسواق الأمريكية بأسعار تقل عن مثيله الأمريكي كثيرا ، مما حدا بالحكومة الأمريكية إلى طلب خفض صادرات القمح الكندي ، وتحديد حصص محددة منه للدخول إلى الأسواق الأمريكية .. وكما هو متوقع فإن الحكومة الكندية هددت بفرض تعريفات جمركية على وارداتها من الولايات المتحدة ، مما أدى إلى تراجع الأمريكيين عن مطالبهم ، خاصة وأن كندا قد اشترت في عام 1993 م من المنتجات الزراعية الأمريكية ما يعادل 5,3 مليار دولار ، وهي بهذا تحتل المركز الثاني في هذا المضمار بعد اليابان ..

لاشك أن الولايات المتحدة ستفكر جديا قبل اتخاذ أي قرار من شأنه تعكير صفو العلاقات مع كندا ، لأنها تعلم - كما ذكر 18 عضوا في الكونجرس في رسالة للرئيس « كلينتون » - مدى الضرر الذي سيلحق بالعديد من العمال والمزارعين الأمريكيين [1] .

* * *

هذه الخلافات التجارية الحادة - والتي تكاد تكون حربا تجارية بمعنى الكلمة - تدل على أن القانون السائد في النظام الدولي الجديد هو قانون المصلحة المادية البحتة ، وهو قانون يؤدي إلى التنافر الشديد والتطاحن المستمر بين أقطاب هذا النظام تبعا لتعارض المصالح وتصادم المنافع ، الأمر الذي يمكن أن يضرب قاعدة « جماعية القيادة » التي سبق الحديث عنها في الصميم ..

ومن هنا ، يبدو واضحا أن الخلافات والحروب التجارية بين القوى الكبرى بادرة من بوادر انهيار النظام الدولي الجديد ، خاصة وأنها تتواكب مع حالة التعثر والركود التي تعاني منها اقتصاديات معظم تلك الدول .

---

(1) الأهرام ص : 4 بتاريخ 21 / 4 ، 31 / 7 / 1994 م .

ثالثا : على المستوى العسكري :

طفت على السطح بعض مظاهر القصور الحاد في مقدرات الجيوش ، وأجهزة الاستخبارات في الدول الكبرى ، بما يمكن اعتباره إرهاصا للانهيار على الصعيد العسكري في النظام الدولي الجديد .

(أ) أوجه القصور في القوة العسكرية للدول الكبرى :

في الولايات المتحدة الأمريكية :كشف تقرير لوزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) أن الجيش الأمريكي يمكن أن يتعرض لضغوط شديدة إذا ما تعين عليه خوض حربين إقلميتين كبيرتين بنجاح في وقت واحد ، وذلك بسبب مشكلات تتعلق بدرجة الإعداد للحرب ، والتنسيق بين الفروع الأربعة للقوات المسلحة ، والتنبوء بقدرات القوات في مواجهة المعارك أو أي تهديد للأمن . وقال التقرير الذي أعده فريق من كبار المسئولين السابقين بالجيش الأمريكي بتكليف من (ليس آسبن) – وزير الدفاع السابق – إن درجة الاستعدادات الدفاعية في الجيش الأمريكي « مقبولة » ، إلا أنهم حثوا « البنتاجون » على مزيد من التركيز على تنسيق القوات البرية والجوية والبحرية ومشاة البحرية (المارينز) فيما بينها أثناء المعارك ، مشيرا إلى أن كلا من الفروع الأربعة للقوات المسلحة اعتاد أن يقوِّم مدى استعداده للعمليات المختلفة منفردا ، ولكنها لم تعط اهتماما لمدى قدرتها على العمل كفريق واحد في ميدان القتال ، كما كشف التقرير عن القصور في استعدادات الوحدات المساندة ، وكذلك في استعداد القوات لمواجهة تهديد أسلحة الدمار الشامل .

كانت الولايات المتحدة قد وضعت لنفسها هدفا استراتيجيا يتمثل في القدرة على القتال والانتصار في حربين إقليميتين متزامنتين ، ولكن الجنرال المتقاعد (إدوارد ماير) رئيس الفريق الذي قام بإعداد التقرير قال : إن هناك بضع مشكلات تجعل من الصعب على الولايات المتحدة أن يحقق هذا الهدف في الوقت الراهن [1] .

هذا جانب من جوانب القصور في جيش الدولة العظمى ، وجانب آخر يتجلى في إعلان المؤسسة العسكرية الأمريكية أن إمكانياتها قد أُجْهِدَت تماما أثناء عمليتي إنزال الجنود الأمريكيين في كل من جرينادا ولبنان رغم صغر حجم العمليتين ، وذلك بسبب تضخم قطاع الخدمات في القوات المسلحة ، إذ يتطلب إنزال جندي أمريكي واحد

---

(1) الأهرام 20 / 2 / 1994 م ص : 4 .

خدمات عدة جنود آخرين يصل عددهم أحيانا إلى عشرة ، بمعنى أن إنزال 10 آلاف جندي يستلزم خدمات ما بين 50 إلى 100 ألف جندي آخر [1] .

أما الشيء الأكثر مدعاة للعجب حقا فهو ما تم الكشف عنه حديثا من عمليات سرقة ضخمة لأسلحة متقدمة تكنولوجيا ، تم الاستيلاء عليها من معسكرات الجيش الأمريكي وتباع حاليا في شوارع المدن الأمريكية ، وتشمل هذه الأسلحة المسروقة : الصواريخ المضادة للطائرات ، والأخرى المضاده للدبابات ، والمتفجرات ، والبنادق الآلية [2] . وإني لأندهش كيف تسرق هذه الأسلحة الضخمة من معسكرات الجيش الذي يعد أقوى جيوش العالم ؟ ! .. إن هذا – لعمري – ليدل دلالة قاطعة على حدوث تسيب خطير في المؤسسة العسكرية لأقوى دولة في العالم ، يمكن اعتباره إرهاصا بسقوط النظام الدولي الجديد .

وفي روسيا الاتحادية : تأثرت أحوال الجيش الروسي بالأوضاع السياسية غير المستقرة والأوضاع الاقتصادية البالغة السوء ، فقد تلقى الجيش صفعة قوية من البرلمان الذي تسيطر عليه المعارضة . وذلك حينما رفض البرلمان طلبا للجيش بزيادة ميزانية الدفاع ، رغم مساندة الرئيس يلتسين القوية لهذا الطلب وكان الجنرال (بافل جراتشيف) وزير الدفاع الروسي السابق قد احتج على ضعف المخصصات الدفاعية في الميزانية ، معربا عن تخوفه من خطورة هذا الوضع على الجيش الروسي ، حيث تُقَدّر وزارة الدفاع احتياجاتها بحوالي 87 ألف مليار روبل أي أكثر من 40 ٪ من نفقات الدولة [3] .

ونتيجة لهذا الوضع المتردي ، أكد وزير الدفاع الروسي أن الجيش يعاني من نقص واضح في مجال البحوث العلمية العسكرية ، كما أنه لا يستطيع تدبير المأوى والمسكن لمئات الآلاف – من الجنود والضباط الذين انسحبوا من الجمهوريات السوفيتية السابقة ، حيث إن المخصصات المالية لوزارة الدفاع لا تكاد تكفي سوى لدفع مرتبات العسكريين [4] .

وتتجسد المفارقات العجيبة في أن الجيش الروسي لا يجد المال اللازم لاستبدال الملايين من رموز الاتحاد السوفييتي السابق – والمتمثلة في الملابس والشارات والسلاح –

---

(1) يراجع : النظام العالمي الجديد د / عبد الوهاب المسيري بحث بمجلة « منبر الشرق » التي يصدرها : المركز العربي الإسلامي للدراسات – القاهرة – السنة الثالثة – العدد (14) صفر 1415 هـ – يوليو 1994 م ص : 2 .
(2) الأخبار 20 / 2 / 1994 ص : 2 .
(3) الأهرام 10 / 5 / 1994 م ص : 4 .
(4) الأهرام 8 / 5 / 1994 م ص : 4 .

برموز روسيا الجديدة وريثة الاتحاد السوفييتي السابق ، ولا يزال وزير الدفاع الروسي يرتدي شارات المطرقة والمنجل فوق (الكاب) العسكري الذي يرتديه ، مثله في ذلك مثل بقية الجنود في الجيش الروسي .

وتقول وزارة الدفاع الروسية : إن الجيش الروسي يعاني من « أزمة هوية » عميقة لا تزال تتفاعل وتتطور داخل المؤسسة العسكرية ، وتضيف الوزارة أن جنود الاتحاد السوفييتي السابق كانوا منتشرين في جميع أركان المعمورة ، ويعرفون القضية والتحدي الذي يجب عليهم أن يواجهوه .. أما الآن فإن الكثيرين من الجنود الروس لا يجدون المال الكافي أو المسكن الملائم ، بل إن بعضهم أصبح يتسول الآن في الشوارع [1] .

هذه الحالة المتردية لأفراد الجيش الروسي دفعت البعض منهم إلى محاولة الحصول على مكاسب مادية ضخمة من الجيش نفسه .. وإذا كان قد بدى الدهش من سرقة بعض الصواريخ والبنادق في الجيش الأمريكي ، فكيف يكون الحال إذا وصلت السرقة في الجيش الروسي إلى المواد النووية ؟!!!!

نعم هذه حقيقة مؤكدة .. فقد كشف تقرير إلى الرئيس الروسي بوريس يلتسين عن ضلوع عصابات الجريمة المنظمة (المافيا) في عمليات سرقة وتهريب ضخمة للمواد النووية في روسيا وغيرها من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق .

يسجل التقرير الذي قام بإعداده جهاز المخابرات الروسية أن هناك 900 حالة سرقة للمواد النووية من الأراضي السوفييتية السابقة قد وقعت في الفترة من يونيو إلى ديسمبر 1993 م . ويتراوح حجم هذه السرقات من عينات (اليورانيوم 235) من جرام واحد إلى عدة طوربيدات ذات رؤوس نووية ، يبلغ وزن كل منها 3,8 طن .. كما سجلت في نفس الفترة 700 حالة اختلاس للتكنولوجيا الذرية .. وفي أحد المصانع النووية الذي تعرض للسرقة ، عثرت قوات الشرطة على 250 كيلو من اليورانيوم مخبأة في المطابخ والحمامات في شقق العمال والفنيين بالمصنع ولم تعلم الشرطة بالسرقة إلا بعد ضبط كيلو من اليوارنيوم يبيعه أحد العمال مقابل 20 زجاجة فودكا .

ويكشف التقرير أيضا أن بعض كبار المسئولين الحكوميين متورطون في هذه الجرائم التي تطورت لتصبح صفقات تجارية ، حيث بدأت بعض البنوك في دول البلطيق في

(1) الأهرام 5 / 7 / 1994 م ص : 1 .

شراء المواد المشعة وقبولها بدلا من الأموال لسداد القروض التجارية .

وقد تزايدت كميات المواد النووية التي تضبط بحوزة اللصوص وتضاعفت عدة مرات في الفترة من يناير 1993 حتى أغسطس 1994 . ويشير التقرير إلى ضعف وسائل تأمين وحراسة المواقع النووية . ففي نهاية نوفمبر 1993 هاجم اللصوص قاعدة نووية تسمى (جاسك 26) في تركمانستان ، وسرقوا رأس قنبلة هيدروجينية ، وتبين أن حراس القاعدة جميعهم قد تجاوزوا الستين عاما ، ولا يحملون في حراستهم سوى بنادق صيد قديمة ، يرجع تاريخها إلى أيام الحرب العالمية الأولى .

كانت الضجة الكبرى حول سرقة المواد النووية قد أثيرت بصورة علنية ومكثفة بعد أن تمكنت الشرطة الألمانية من ضبط كميات كبيرة من اليورانيوم حاولت المافيا تهريبها عن طريق ألمانيا [1] .

وفي بريطانيا : كشفت الشرطة البريطانية النقاب عن أن كمية كبيرة من الأسلحة التي ضبطت خلال حملاتها لمداهمة أوكار عصابات الجريمة المنظمة ، قد تم تهريبها من مخازن الجيش البريطاني ، فقد صادرت وحدة مكافحة الجريمة 70 قطعة سلاح متطورة تشمل مدافع رشاشة وبنادق ... وغيرها ... وقد أصيبت السلطات البريطانية بالهلع الشديد من جراء تفاقم المشلكة ، بحيث أصبح من الصعوبة بمكان السيطرة عليها ، لاسيما وأنه أصبح من الممكن تداول السلاح بدون أوراق رسمية ، وتعتقدد السلطات البريطانية أن سرقة السلاح وتهريبه يتم بهدف تسديد أثمان المخدرات ، حيث بدأت عصابات تهريب المخدرات تحصل على السلاح بدلا من المال ثمنا للمخدرات المباعة [2] .

وفي ألمانيا : ألقت أعباء الوحدة الألمانية بظلالها الكثيفة على الوضع العسكري لألمانيا ، فقد تسببت الأوضاع الاقتصادية في تخفيض عدد أفراد الجيش بمقدار 130 ألف جندي ليصبح 240 ألفا بدلا من 370 ألف جندي ، وقال المستشار هيلموت كول - عقب موافقته على هذا الإجراء - أنه على الرغم مما تكبده الشعب الألماني من نفقات بسبب الوحدة إلا أن هذه الوحدة مصير لا يمكن الاستغناء عنه ، وأكد أنه سيتم زيادة عدد أفراد الجيش بعد توافر الأموال اللازمة لذلك [3] .

---

(1) يراجع : قنابل ذرية للبيع : تحقيق نشرته أخبار اليوم 13 / 9 / 1994 م ص : 7 .

(2) الأهرام 24 / 3 / 1994 م ص : 4 .

(3) الأهرام 27 / 4 / 1994 م ص : 4 .

(ب) حرب الجاسوسية وقصور أجهزة الاستخبارات في الدول الكبرى :

ظن الناس أنه بمجرد انتهاء فترة الحرب الباردة وأفول نجم الاتحاد السوفييتي السابق فإن الحاجة إلى التجسس على الغير لم تعد ذات جدوى ، أو على الأقل لا حاجة إليها ، ولكن الأحداث أثبتت عكس ذلك تماما ، إذ تكشفت حقائق جديدة ، غيرت المفاهيم المتفائلة حول النظام الدولي الجديد ، وحول المناخ الدولي المتغير والأسس الجديدة للعلاقات الدولية .

(1) **بين أمريكا وروسيا** : كشفت السلطات الأمريكية في 1994/2/22 م عن اعتقال (ألدرتش أيمز) رئيس وحدة مكافحة أنشطة التجسس الروسية بالمخابرات الأمريكية ، وزوجته (ماريادیل روساريو) الكولومبية الأصل ، بتهمة التجسس لحساب الاتحاد السوفييتي سابقا وروسيا حاليا منذ عام 1985 .. وقد أعلن الرئيس كلينتون بنفسه نبأ القبض على الجاسوس الروسي مما يدل على أهمية الموضوع وخطورته ، وأمر كلينتون بتشكيل لجنة على أعلى مستوى من مجلس الأمن القومي والمخابرات للتحقيق في مدى خطورة المعلومات والأسرار التي سرَّبها مسئول المخابرات الكبير لصالح الروس ، ومدى تأثيرها على الأمن القومي الأمريكي .. وأعلنت وزارة العدل الأمريكية أن التحقيقات التي أجريت مع (أيمز) كشفت عن حصوله على 1,5 مليون دولار من روسيا أودعها في حسابات سرية في بنوك سويسرية [1] .

وقد شهدت العلاقات بين أمريكا وروسيا توترا خطيرا في أعقاب هذه الفضيحة فقد قررت الحكومة الأمريكية طرد القنصل الروسي في واشنطن (فلا ديمير ليسنكو) لاتهامه بالإشراف على أنشطة الجاسوس (أيمز) مما أدى إلى غضب روسيا التي قررت طرد أحد الدبلوماسيين الأمريكيين في موسكو [2] .

والواقع أن عملية التجسس لم تكن من طرف واحد ، فلقد كانت أمريكا هي الأخرى تتجسس على الاتحاد السوفييتي السابق وروسيا حاليا ، حيث تبين من التحقيقات التي أجريت مع (أيمز) أنه قام بالإبلاغ عن عشرة مواطنين روس كانوا يعملون لحساب المخابرات الأمريكية ، مما أدى إلى إعدامهم من قبل السلطات الروسية . وذكرت وزارة العدل الأمريكية أن ثلاثة مواطنين أعدموا في الفترة من 1985 إلى 1990

---

(1) الأهرام 23 ، 24 / 2 / 1994 م ص : 1 .

(2) الأخبار 24 / 2 / 1994 م ص : 2 ، الأهرام 27 / 2 / 1994 م ص : 4 .

بعد وشاية (أيمز) بهم حيث كانوا يتجسسون لصالح الولايات المتحدة [1] وهنا يكون العجب .. ففي الوقت الذي كان يتحدث فيه الرئيس السوفييتي السابق (ميخائيل جورباتشوف) من عالم جديد وأفكار جديدة ومشاعر جديدة كانت حرب الجاسوسية متوهجة على أشدها .. وفي الوقت الذي قام فيه الرئيس كلينتون بزيارة لموسكو ، وصفها بأنها ناجحة للغاية ، يعود ليفاجأ بهذه القضية الخطيرة التي يرى حمدي فؤاد أنها نهاية (شهر العسل) الذي لم يدم طويلا في العلاقات الروسية الأمريكية [2] .

والذي أريد التركيز عليه هنا في إطار الحديث عن بوادر الانهيار في النظام الدولي الجديد ، أن هذه القضايا التجسسية تثبت بما لا يدع مجالا للشك مدى القصور الذي تعاني منه أجهزة المخابرات في الدول الكبرى ، وأن هناك ثغرات عديدة داخل الأجهزة .. وقد اعترف كبار المسئولين الأمريكيين بهذا ؛ فقد أعلن مدير المخابرات الأمريكية أمام لجنة المخابرات بمجلس النواب عن تشديد إجراءات الأمن الداخلي في المخابرات الأمريكية بما يضمن عدم تكرار الموقف .. وقال (دان جيلكمان) رئيس لجنة المخابرات بمجلس النواب أن قضية (أيمز) تثير تساؤلات حول إجراءات السيطرة والإدارة الداخلية في المخابرات الأمريكية [3] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المخابرات الأمريكية لم تكن صاحبة الفضل الأول في اكتشاف الجاسوس ، بل يرجع الفضل في ذلك إلى الوثائق السرية التي حصلت عليها من جهاز المخابرات في ألمانيا الشرقية سابقا ، والذي كان معروفا باسم (ستازي) ، حيث سلمت الحكومة الألمانية الحالية بعض ملفات (ستازي) إلى المخابرات الأمريكية ، وقد أثبتت تلك الملفات أن عدد الأمريكيين الذين تجسسوا لصالح السوفيت سابقا والروس حاليا يصل إلى عدة مئات ، وأنهم نجحوا في اختراق أهم المؤسسات الأمريكية بدءا بالكونجرس ومرورا بوزارة الخارجية ووصولا إلى البيت الأبيض نفسه [4] .

إن هذا العدد الهائل من الجواسيس وتنوع نشاطهم داخل المؤسسات الحساسة ، يضاف إليه قدرة الجاسوس على التخفي طوال هذه المدة الطويلة إن هذا كله دليل قاطع على القصور الشديد في جهاز المخابرات في أقوى دولة في العالم .. هذا القصور الذي

---

(1) الأهرام 26 / 2 / 1994 م ص : 1 .

(2) حرب الجواسيس بعد حرب الصواريخ : حمدي فؤاد : الأهرام 26 / 2 / 1994 م ص : 5 .

(3) الأهرام 26 / 2 / 1994 م ص : 1 .

(4) الأهرام 21 / 4 / 1994 م ص: 4 .

اعترفت به السلطات الأمريكية حينما أعلنت أن الخلافات البيروقراطية والتنافس الشديد بين جهاز المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالية هو السبب في تأخير اكتشاف أمر الجاسوس ، وأن الوكالتين لم تنجحا إلا بعد أن قررتا ضم جهودهما والاشتراك معا في التحقيقات ابتداء من عام 1991 م . كما اعترفت السلطات الأمريكية بأن قدرة الجاسوس على تجنب اكتشافه لعدة سنوات ، كانت ترجع إلى حالة الاسترخاء في إجراءات الأمن الداخلية ، وإلى سلسة من الإخفاقات من جانب المحققين الحكوميين ، من بينها الفشل في مراقبة سفرياته للخارج والتحقيق في ظروف ثرائه المفاجئ ، والإهمال في حراسة الوثائق البالغة السرية في مقر المخابرات المركزية وحمايتها ضد السرقة [1] .

وفي محاولة لسد الثغرات بدأ البيت الأبيض في إجراء بعض الإصلاحات في المخابرات الأمريكية من شأنها الكشف المبكر عن الجواسيس ، من بين هذه الإصلاحات محاولة حل الخلافات بين المخابرات المركزية والمباحث الفيدرالية حول السيطرة على فرع مكافحة التجسس ، ويدرس البيت الأبيض نقل بعض الاختصاصات الهامة من رجال المخابرات إلى مسئولي المباحث الفيدرالية [2] .

وأيا ما كان الأمر فإن هذا الاختراق لجهاز بحجم وضخامة وكالة المخابرات المركزية يبرز بوضوح مدى الاختلال الذي أصاب المؤسسات العسكرية الكبرى في الدول العظمى التي تتولى قيادة خطى النظام الدولي الجديد .

وقد تكشفت مؤخرا أبعاد فضيحة جديدة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، حيث وجِّهت إليها اتهامات بقيامها ببيع المخدرات في أحياء السود الفقيرة ، وتحويل أرباحها إلى متمردي نيكاراجوا الذين كانوا يحاربون ضد النظام الشيوعي السابق هناك .. وقد أثارت هذه الاتهامات ثائرة السود الأمريكيين ، مما أدى إلى مثول مدير المخابرات أمام لجنة المخابرات بمجلس الشيوخ ، وتعهده بإجراء تحقيق شامل في الموضوع [3] .

أما الحلقة الجديدة في مسلسل الإخفاقات المتوالية لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، فتمثلت في الإعلان خلال شهر ديسمبر 1996 م عن اكتشاف جاسوس جديد يعمل لحساب روسيا منذ فترة طويلة .

---

(1) الأهرام 7 / 3 / 1994 م ص : 1 . (2) الأهرام 27 / 4 / 1994 م ص : 4 .
(3) الأهرام ص 4 ، أخبار اليوم ص 6 : كلاهما بتاريخ 21 / 9 / 1996 م .

(2) **بين روسيا وبريطانيا** : أدى الكشف عن اختراق روسيا للمخابرات الأمريكية إلى إثارة القلق البالغ لدى أجهزة المخابرات الغربية ، وخاصة في بريطانيا التي تعد الحليف الأول للولايات المتحدة . ومما زاد من قلق وذعر المخابرات البريطانية أن الجاسوس (أيمز) لم يكتف بإبلاغ روسيا عن الجواسيس الأمريكيين فيها فحسب ، بل قام بالوشاية بجواسيس بريطانيا كذلك .

لذا ، بدأت بريطانيا محاولات سرية للكشف عن مدى اختراق المخابرات الروسية لأجهزة المخابرات ومكافحة التجسس الغربية عموما والبريطانية خصوصا . وقد أجرت المخابرات البريطانية اتصالات بعدد من عملاء مخابرات ألمانيا الشرقية سابقا (ستازي) - تماما كما فعلت المخابرات الأمريكية - وعرضت عليهم أموالا كبيرة مقابل تزويدها بالمعلومات المطلوبة [1] .

واشتعلت فيما بعد حرب الجواسيس بين روسيا وبريطانيا فقد قامت الحكومة الروسية في شهر مارس 1994 م بطرد أحد الدبلوماسيين البريطانيين في موسكو ويدعى (جون سكارليت) بعد اتهامه بالتجسس ، بناء على اعترافات أدلى بها أحد ضباط المخابرات الروسية وهو (فاديم سينتسون) الذي تم القبض عليه واعترف بالتجسس-لصالح بريطانيا ، وأنه سلم معلومات سرية هامة إلى (سكارليت) ، الذي كان يشغل منصب رئيس وحدة الاستخبارات والتجسس البريطانية (إم . آى - 6) في موسكو ، تتعلق تلك المعلومات بصفقات الأسلحة الروسية لدول الشرق الأوسط .

وقد قامت الحكومة البريطانية هي الأخرى بطرد أحد الدبلوماسيين الروس من بريطانيا في أبريل 1994 م ردا على طرد (سكارليت) من موسكو [2] .

(3) **بين أمريكا والصين** : تم الكشف عن عمليات التجسس المكثفة التي قامت بها المخابرات الصينية ضد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذكر (نيك أفيتميادس) خبير الشئون الصينية بالمخابرات الأمريكية أن الصين تتجسس على الولايات المتحدة أكثر من أي دولة أخرى ، وأن الحكومة الأمريكية وأجهزة مخابراتها قد تجاهلت عمليات التجسس الصينية خلال فترة الحرب الباردة ، لأنها كانت تعتقد أن الاتحاد السوفييتي السابق يشكل تهديدا أكبر . وأوضح أنه حتى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ، فإن

---

(1) الأهرام 28 / 2 / 1994 م ص : 1 .

(2) الأهرام 2 / 4 / 1994 م .

الحكومة الأمريكية مازالت لا تهتم كثيرًا بالنشاط المكثف لأجهزة المخابرات الصينية ، وذلك لافتقار أجهزة المخابرات الأمريكية للمهارات اللازمة لمكافحتها واتهم الخبير القادة السياسيين في الولايات المتحدة بالتخاذل في اتخاذ إجراءات حاسمة لمواجهة التجسس الصيني (1) .

* * *

هذه الحرب المستعرة بين القوى الكبرى في النظام الدولي الجديد تبرز بلاشك مبدأ عدم الثقة من جانب كل طرف ضد الطرف الآخر ، وهذا بشيرٌ بقرب انهيار النظام الدولي الحالي ، إذ أن كلاما كثيرًا قد قيل عن التعاون بين أجهزة المخابرات الروسية والصينية والأوروبية والأمريكية ، لمكافحة المخدرات والقضاء على الإرهاب الدولي ، فتأتي هذه الأحداث لتثبت أن هذا التعاون لا يعدو أن يكون حبرا على ورق ، وأن ما قيل عنه لا يتجاوز مرحلة التمنيات التي لا وجود لها إلا في أذهان أولئك المحلّقين في أجواء الخيال الفسيح .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإني أرى أن النظام الدولي الجديد لم يواجه اختبارا عسكريا جادا مع قوة عسكرية ذات شأن . أما حرب الخليج الثانية فلا يصح أن تكون مقياسا حقيقيا ، إذ أن القوة العسكرية العراقية لم تكن بهذا الحجم الذي صورته لنا أجهزة الإعلام .. يضاف إلى ذلك أن قوات التحالف الدولي قد احتاجت إلى ما يزيد عن خمسة أشهر حتى أصبحت جاهزة لخوض غمار المعركة وهي مدة طويلة نسبيا .

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة صعوبة الحسم العسكري الدولي للأزمات والصراعات الناشبة في أماكن عديدة من العالم .. فالفشل الأمريكي في الصومال دليل واضح على ذلك .

أفلا يكون هذا كله إرهاصا بقرب انهيار النظام الدولي الجديد .

رابعا : على المستوى الاجتماعي :

في المبحث السابق تحدثنا عن مظهرين من مظاهر التردي والانحدار في الحضارة الغربية وهما :

* سيادة القيم المادية على الفكر والسلوك .

---

(1) الأهرام 25 / 5 / 1994 م ص : 4 .

* والانحطاط الأخلاقي الشامل .

ولا شك أن هذين العنصرين هما من أهم بوادر الانهيار في النظام الدولي الجديد على الصعيد الاجتماعي فلا يخفى على أحد ما تعاني منه المجتمعات الغربية سواء على مستوى الفرد أو الجماعة من خواء روحي وجفاف إيماني جعلا حياة الإنسان أشبه بالكابوس الرهيب ، ينوء به الصدر ويفزع منه القلب ، فإذا الحياة سلسلة متصلة من الشقاء والنصب ، والكد والتعب ، مما يتسبب في زيادة هائلة لأعداد المنتحرين ، الذين يتخلصون من حياتهم بطرق غاية في العنف .. ناهيك عن حالات الاكتئاب الحاد والإحساس بالملل من الحياة ، التي أصبحت سمة أساسية من سمات الحضارة الغربية الحديثة .

ولا ريب أن حضارة هذا حالها وتلك طبيعتها لابد أن يكون مصيرها إلى الزوال والفناء ، طبقا لقانون السقوط الحضاري الذي بينه القرآن الكريم ، وهذا ما يجعل انهيار النظام الدولي الجديد حتمية مؤكدة .

* * *

هذه بوادر الانهيار في النظام الدولي الجديد على المستويات المختلفة : السياسية والاقتصادية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، وهي تأتي – فيما أرى – في إطار تحقيق وعد الله رب العالمين للمؤمنين الصالحين بالتمكين في الأرض ، إن هم تحققت فيهم شروط هذا التمكين التي حددها رب العالمين في قوله سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (1) .

وتتطلع أنظار البشرية إلى المسلمين ، باعتبارهم طوق النجاة ، بما يملكون من منهج رباني : يوازن بين المادية والروحانية ، وبين مطالب الروح ومطالب الجسد ، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة .

فالنظام العالمي في المنظور الإسلامي نظام قائم على العدالة والمساواة ويتسم بالشمولية والتوازن ، وهذا ما سيتبين – بمشيئة الله تعالى – فيمايلي .

* * *

(1) سورة النور : الآية (55) .

الباب الرابع

عالمية الرسالة الإسلامية

تمهيد : معنى العالمية

الفصل الأول : مبدأ العالمية في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

الفصل الثاني : خصائص الإسلام العامة وأثرها في تحقيق عالميته .

تمهيد :

فشلت الحضارة الغربية فشلا ذريعا في قيادة المسيرة الحضارية الإنسانية ، ولم تفلح في توفير الحد الأدنى من السعادة لبني الإنسان .. وليس هذا بمستغرب على حضارة نمت وترعرعت في أحضان المادية ، بعيدا عن هدي السماء ، وتوجيهات الوحي الإلهي .

نتيجة لذلك ، عاشت البشرية – في ظل تلك الحضارة المادية – أسوأ فترات حياتها .. فهناك – على سبيل المثال – تلك الفجوة الهائلة بين الشمال الغني والجنوب الفقير ، حيث تتحكم الفئة الأولى – وهي الأقل عددا والأصغر مساحة والأقل مواردا – في مقدرات ومصائر الفئة الثانية الأكثر عددا والأكبر مساحة والأضخم مواردا .. [1] .

لذا تتطلع أنظار البشرية إلى قيادة حضارية جديدة ، تأخذ بأيدي الناس إلى عالم أرحب وأفق حضاري أوسع .. « وليس هنالك من يستطيع القيام بالدور الحضاري المرتقب إلا أمة واحدة هي أمتنا ، ولن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد غيرنا » [2] وذلك لأننا – نحن المسلمين – « حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة ، لن نتخذ من الوصول إلى الفضاء دليلا على إنكار وجود الله ، ولن نتخذ من الصواريخ عابرة القارات ذريعة إلى تهديد الأمم والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولن نتخذ من الإذاعة وسيلة للتضليل ، ولا من السينما آلة للإغراء ، ولا من المرأة متعة للجسم ، ولا من التقدم الحضاري أداة لاستغلال الشعوب المختلفة واستثمار خيراتها وإذلال كرامتها » [3] .

لن نفعل هذا كله لأننا أصحاب دين عظيم :

---

(1) تبرز أرقام المعهد العالمي لمراقبة البيئة مدى عمق المأساة التي يعيشها سكان الجنوب الفقير .. حيث تؤكد الإحصائيات وجود ما يلي :

– 100 مليون نسمة بلا مأوى . * 400 مليون نسمة يعيشون على الكفاف .

– 1,9 مليار نسمة يشربون مياها ملوثة بالطفيليات القاتلة ومسببات الأمراض .

– نصف سكان العالم لا تتوافر لهم المراحيض الصحية .

– وفاة 14 مليون نسمة في عام واحد بسبب أمراض بسيطة كالإسهال والجفاف ، لأن دول العالم فشلت فى تدبير خمسة دولارات لكل طفل لمواجهة نفقات القضاء على تلك الأمراض البسيطة في حين نجحت تلك الدول في إنفاق تريليون دولار على التسليح بمعدل 200 دولار لكل شخص .. يحدث هذا في الوقت الذي يوجد فيه 157 بليونير و 2 مليون مليونير على مستوى العالم .. وقد أنفق الأمريكيون وحدهم (5) بلايين دولار على وجبات غذائية للتخسيس ، ناهيك عن نفقات باهظة ينفقها الأمريكيون والأوروبيون على القطط والكلاب .. ينظر الأخبار 28 / 12 / 1993 – ص 9 .

(2) من روائع حضارتنا د / مصطفى السباعي ص 18 . (3) المرجع السابق ص 20

* العقيدة فيه قائمة على التوحيد الخالص والانقياد التام لله رب العالمين .

* والعبادة فيه ليست طقوسا مبهمة أو حركات غامضة ، بل هي وسيلة للأخذ بأيدي الإنسانية إلى مدارج السمو والكمال .

* والخلق الكريم فيه هو أساس التعامل بين بني آدم جميعا .

* والشريعة فيه سمحة يسيرة ، تتواءم مع قدرات الإنسان وإمكاناته ، وتوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي في النفس الإنسانية ، وتجعل الناس جميعا - على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأوطانهم - على قدم المساواة في الحقوق الإنسانية الأساسية ..

باختصار .. نحن أصحاب دين عالمي ، جاء بهدايته للبشر جميعا ، وهو الدين الحق ، الذي - إن صدق أتباعه في تطبيق أصوله ومبادئه - فهم أحق الأمم بقيادة النظام الدولي ، وأجدرها بقيادة المسيرة الحضارية الإنسانية .

يدور الحديث في هذا الباب حول عالمية الإسلام من خلال بيان أدلة إثبات هذه العالمية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ثم بيان عالمية هذا الدين العظيم من خلال مبادئه وخصائصه العامة .

ولكن يجدر بنا التوقف قليلا أمام هذا المصطلح « العالمية » لبيان المراد به عند الحديث عن عالمية الإسلام .

معنى العالمية :

« العالمية » نسبة إلى « العالم » وهو جميع الخلق كما بينت معاجم اللغة [1] . وحينما تضاف تلك النسبة إلى الإسلام فيقال : « عالمية الإسلام » فإن المعنى ينصرف حينئذ إلى ثلاثة نواح مجتمعة هي :

1 - أن الإسلام رسالة موجهة إلى جميع الخلق ، وهم جميعا مطالبون باعتناقه .

2 - وأنه يشتمل على أصول جميع الديانات السابقة ، فهو اللبنة الأخيرة في صرحها الشامخ .

---

(1) يراجع : لسان العرب : 4 / 3085 . مختار الصحاح : 451 ، 452 . القاموس المحيط : 4 / 153 ، 154 . المعجم الوسيط 2 / 647 .

3 - وأن مبادئ الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان [1] .

هذا هو المقصود بـ « عالمية الإسلام » التي يدور حولها الحديث في هذا الباب [2] .

* * *

(1) ينظر : الإسلام والحضارة الغربية د / محمد محمد حسين ص 185 مرجع سابق . الدعوة إلى الله تعالى .. خصائصها ، مقوماتها ، مناهجها (دراسة مقارنة) . د / أبو المجد السيد نوفل ص 36 ، 37 د . ن . ق . ت .

(2) لقد حرصت على تحديد المقصود بـ « عالمية الإسلام » لأن هناك دعوة هدامة يتبناها الماسونيون والشيوعيون والبهائيون ويطلقون عليها « العالمية » وهي « مذهب يدعو إلى البحث عن الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء المظاهر المتعددة في الخلافات المذهبية المتباينة .. ويزعم أصحاب الدعوة والقائمون عليها أن ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهب واحد تزول معه خلافاتهم الدينية والعنصرية لإحلال السلام في العالم محل الخلاف » . (الإسلام والحضارة الغربية ص 171) .
ويهدف هؤلاء من وراء مذهبهم هذا إلى القضاء على سلطان الدين في النفوس وزعزعة ثقة الناس في معتقداتهم ، بغية القضاء على جميع المعتقدات لتحقيق الحلم اليهودي بالسيطرة على العالم .
يقول محمد رشاد فياض ، رئيس محفل الشرق الأكبر العالمي والملقب عند الماسون بـ « القطب الأعظم » .
« الماسونية على حقيقتها ليست عمالة لأي ديانة أو عنصرية معينة ، إنها عقيدة العقائد وفلسفة الفلسفات ، وبالمبادئ الإنسانية مزينة .. عقيدة الأحرار .. هي عقيدة لجميع أبناء البشرية دون تمييز أو تفريق ، وإنها لن تمنح الفضل والأولوية لفريق دون فريق .
الميمات الثلاث في الموسوية والمسيحية والمحمدية يجتمعون في ميم واحد هو ميم الماسونية ، لأن الماسونية عقيدة العقائد وفلسفة الفلسفات – إنها تجمع وتوحد المتفرقات والمشتتات .. وإن باء البرهمية والبوذية يجتمعان في باء البناء .. بناء هيكل المجتمع الإنساني الصالح المنزه عن العمالة العنصرية والعملاء .. » .
ويقول عزيز ميرهم ، أحد كبار الماسون : « إن ما تبغيه الماسونية هو وصول الإنسانية شيئا فشيئا إلى النظام الأمثل ، الذي تتحقق فيه الحرية بأكمل معانيها وتزول فيه الفوارق بين الأفراد والشعوب ، ويسود في العلم والجمال والفضيلة » (ينظر : المرجع السابق ص 181) .
هذه عالميتهم المزعومة ، أما « عالمية الإسلام » فهي شيء آخر مختلف تمام الاختلاف كما سيتبين بمشيئة الله تعالى في الصفحات التالية .

الفصل الأول

مبدأ العالمية في القرآن الكريم والسنة المطهرة

المبحث الأول : مبدأ العالمية في القرآن الكريم .

المبحث الثاني : مبدأ العالمية في السنة المطهرة .

الفصل الأول

مبدأ العالمية في القرآن الكريم والسنة المطهرة

« العالمية » خصيصة من خصائص الإسلام ، ومبدأ أصيل من مبادئه العظيمة جاء به القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى ، وطبقه النبي ﷺ منذ اللحظة الأولى كذلك ، مما يؤكد أن مبدأ العالمية أصيل في الإسلام ، وليس أمرا عارضا أو تطورا دعت إليه الحاجة واقتضته الضرورة ..

والسطور التالية تؤكد هذه القضية من خلال آيات الكتاب الكريم وأحاديث النبي ﷺ .

المبحث الأول

مبدأ العالمية في القرآن الكريم

جاء الحديث عن عالمية الإسلام في القرآن الكريم حديثا مسهبا ، تعددت أساليبه ، وتنوعت صيغه ما بين نصوص تقرر مبدأ العالمية ، وأخرى تطبقه عمليا .. كذلك تعددت الألفاظ الدالة على عموم الرسالة وأنها موجهة للبشرية كلها ، مثل « الناس » و « العالمين » و « بني آدم » وغيرها .. وقد جاء الحديث عن عالمية الإسلام في الآيات المكية ، بل وفي أوائل السور نزولا ، لذا سأبدأ بالحديث عن الآيات المكية .

أولا : الآيات المكية :

(أ) آيات تثبت مبدأ العالمية وتقرره : [1]

وهي آيات كثيرة ... منها :

(1) آيات تثبت « العالمية » بلفظ « الناس » [2] **.. ومنها :**

(1) قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [3] .

---

(1) يراجع : عالمية الدعوة الإسلامية : د / علي عبد الحليم محمود : ص 164 ، 234 الدعوة إلى الله تعالى ... مرجع سابق ص 40 ، 45 .

(2) الناس : اسم للجمع من بني آدم ، واحده : إنسان ، من غير لفظه .. ينظر : المعجم الوسيط 2 / 1001 ط الثالثة .

(3) سورة الأعراف : الآية (158) .

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – في تفسيرها : يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل « يا محمد » يا أيها الناس – وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي – إني رسول الله إليكم جميعا ، أي جميعكم . وهذا من شرفه وعظمه ﷺ ، أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [3] والآيات في هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة ، أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم » [4] .

(2) وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ [5] لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [6] .

يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية : يقول تعالى جل ذكره : وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة ، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين ، العرب منهم والعجم ، والأحمر والأسود ، بشيرا من أطاعك ، ونذيرا من كذبك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر .

وغير ذلك من الآيات التي تحدثت عن المصطفى ﷺ باعتباره رسولا إلى الخلق كافة ، وعن القرآن الكريم باعتباره كتاب الهداية للناس عامة .

هذا بخلاف آيات أخر ، توجه الخطاب فيها إلى الناس جميعا ، إما بأمر أو نهي أو وعد أو وعيد .. ومنها : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ

---

(1) سورة الأنعام : جزء من الآية (19) .

(2) سورة هود : جزء من الآية (17) .

(3) سورة آل عمران : جزء من الآية (20) .

(4) ابن كثير 2 / 26 .. ويراجع : القرطبي 4 / 2830 . الرازي 7 / 310 ، 312 .

أبو السعود المجلد الثاني 2 / 202 ، 203 . الظلال 3 / 1379 ، 1380 .

(5) لفظ « كافة » يدل على العموم . يقال في اللغة : جاء الناس كافة ، أي جميعا ، وقد قال الله عز وجل ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ (سورة التوبة : 36) ينظر : المعجم الوسيط 2 / 824 .

(6) سورة سبأ : الآية (28) .

ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [1] .

(2) آيات تثبت العالمية بلفظ « العالمين » [2] ومنها :

1 - قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [3] .

أي : ما بعث المصطفى ﷺ إلا رحمة للعالمين ، من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء . فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به ، طائعة أو كارهة ، شاعرة أو غير شاعرة . وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد أن يستظل بها ، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية ، في هجير الأرض المحرق ، وبخاصة في هذه الأيام [4] .

2 - وقال جل شأنه : ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [5] .

وقد اتفقت كلمة المفسرين على أن « العالمين » في هذه الآيات هم جميع الخلق من إنس وجن ، فالرسول ﷺ – وكذلك القرآن الكريم – تذكير لهم جميعا [6] .

ويلاحظ أن هذه الآيات جاءت ضمن سور قرآنية هي الأسبق نزولا بين سور القرآن الكريم مما يؤكد أيضا تأصيل مبدأ العالمية منذ اللحظات الأولى لبدء الدعوة .

(3) آيات تثبت العالمية بلفظ « بني آدم » ومنها :

1 - قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [7] .

فالخطاب هنا موجه إلى جميع بني آدم يحذرهم من فتنة الشيطان وغوائله .

2 - وقال جل شأنه : ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ

---

(1) سورة لقمان : الآية : 33 ، وينظر الآية (3) من سورة فاطر وغيرها .

(2) العالمين : نسبة إلى العالم . وهو جميع الخلق كما جاء في معاجم اللغة وقد سبق بيانه في هامش آخر في التمهيد لهذا الفصل عند الحديث عن معنى العالمية .

(3) سورة الأنبياء : (107) .

(4) الظلال 4 / 2402 .

(5) سورة التكوير : الآيات / 27 : 29 .

(6) ينظر : القرطبي : 6 / 4530 ، 4531 . ابن كثير 4 / 480 .

(7) سورة الأعراف . الآيتان (26 ، 27) .

﴿ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (1) .

وغيرها من الآيات التي توجه الخطاب فيها إلى جميع بني آدم ، وهل هناك عموم ينظم الجنس البشري كله أروع من نسبتهم إلى أصلهم الأصيل وأبيهم الأول ، آدم عليه السلام ؟! هل تستطيع طائفة من سكان الأرض أن تشذ عن كونها من ولد آدم ؟! هل زعم زاعم عنده مسكة من عقل – أن أهل مكان ما في هذه الدنيا غير منسوبين إلى آدم عليه السلام ؟! (2) .

(4) آيات تثبت العالمية بلفظ « مَنْ » :

يستعمل لفظ « مَنْ » في اللغة العربية لإفادة العموم والشمول فيمن يعقل .. وبهذا الاستعمال جاءت آيات كثيرة متضمنة هذا اللفظ ، لإفادة عالمية الرسالة الإسلامية وشمولها لكافة الناس . ومن ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (3) .

قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أي هو نذير لمن بلغه ، كقوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ (4) .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن محمد بن كعب في قوله ﴿ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه (5) .

2 - وقال سبحانه : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (6) .

قال الإمام ابن كثير : « وهذا كتاب » يعني القرآن « أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى » يعني مكة « ومن حولها » من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم (7) .

---

(1) سورة يس الآيتان (60 ، 61) .
(2) عالمية الدعوة الإسلامية . مرجع سابق . ص 178 .
(3) سورة الأنعام : الآية (19) .
(4) سورة هود : جزء من الآية (17) .
(5) ابن كثير : 2 / 128 ، 129 : بتصرف يسير .
(6) سورة الأنعام الآية (92) .
(7) ابن كثير : 2 / 160 .

3- قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [1] .. وغيرها من الآيات [2] .

هذه بعض الآيات القرآنية المكية التي تقرر مبدأ عالمية الإسلام ، وتثبته بكل وضوح من خلال الألفاظ الدالة على العموم مثل « الناس - العالمين - بني آدم ... » حتى لا يبقى للشك مجال في ثبوت هذا المبدأ وتقريره .

(ب) آيات تطبيقية لمبدأ العالمية :

لم تكتف آيات القرآن الكريم المكية بمجرد إثبات وتقرير مبدأ العالمية ، بل تعدت ذلك إلى تطبيق هذا المبدأ عمليا ، في صورة الرفض الكامل للعقائد الباطلة ، ودعوة أهل الكتاب وغيرهم إلى الدخول في حظيرة الدين الخاتم الذي بشرت برسوله الكتب السابقة .

وفي هذا الإطار وردت العديد من الآيات ، أذكر بعضها فيما يلي :

1- قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [3] .

يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ .. أي ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عدد خزنة جهنم موافقة لما عندهم . قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم [4] .

ويقول ابن كثير في تفسيره : « ... أي يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله » [5] .

ولا شك أنه يلزم من تيقن أهل الكتاب من صدق الرسول محمد ﷺ ، أنهم مطالبون بالإيمان به وتصديق رسالته ، لموافقة ما جاء به لما بقى عندهم من بقايا علم صحيح لم تمتد إليه يد التحريف ، وهذا دليل على عالمية الإسلام . وتقرير هذا أنه لو

---

(1) سورة يس : الآيتان (69 ، 70) .
(2) تراجع الآيات (29) من سورة الكهف ، (1 - 3) سورة طه ، (91 ، 92) من سورة النمل .
(3) سورة المدثر : جزء من الآية (31) .
(4) القرطبي 10 / 7118 .
(5) ابن كثير 4 / 444 .

كان الإسلام خاصا بمشركي العرب لما كان هناك داع للتعرض لعقائد أهل الكتاب ، لا سيما وأن عبدة الأصنام من العرب لا يؤمنون بهذه الأديان . فلا يقال : إنه جاء بهذا للاستدلال على صحته وتأكيده ، وكأنه يقول للمشركين : إن ما جئت به إليكم تشهد به الأديان الأخرى .. لا يقال هذا لأن المشركين لا يؤمنون بهذه الأديان ، فلا يستدل لهم بما لا يؤمنون به [1] .

3 - وقال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

« إنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي ، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى – عليهما السلام – منذ أمد بعيد ، جاءهم الخبر اليقين ببعثه ، وبصفاته ، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته .

وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل – على يد نبيهم موسى عليه السلام – كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه ، وعن حامل رايته ، وعن طريق أتباعه ، وعن مستقر رحمته .. فلم يبق عذر لأتباع الديانات السابقة بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين » [3] .

يتبين من هاتين الآيتين – وغيرهما – أن القرآن الكريم قد هاجم عقائد أهل الكتاب الباطلة ، ودعاهم إلى الإسلام دعوة صريحة لا غموض فيها .. وقد كان ذلك في مكة ، حيث المسلمون فئة قليلة مستضعفة ، لا تملك من أمر نفسها شيئا ، بينما أهل الكتاب هؤلاء كثرة كاثرة، بيدهم القوة والسيادة والسلطان ، ممثلا في الدولة الرومانية النصرانية التي كانت إحدى قوتين عظميتين تقتسمان قمة النظام الدولي في ذلك الوقت .. فلو لم يكن مبدأ العالمية مبدأ أصيلا لما سيق على هذا النحو وفي هذه الظروف الصعبة التي كان يمر بها المسلمون .. مع ملاحظة أن أهل الكتاب المذكورين في الآيات ليسوا فقط أهل الكتاب من سكان الجزيرة العربية ، بل هم أهل الكتاب أينما وجدوا وحيثما كانوا ، إذ

---

(1) الدعوة إلى الله تعالى : ص 43 .

(2) سورة الأعراف : الآيتان (156 ، 157) .

(3) في ظلال القرآن 3 / 1378 : باختصار .

لم يأت في النص ما يفيد التقييد .

* * *

هذه هي بعض الآيات القرآنية الكريمة المعلنة والمطبقة لمبدأ العالمية في المرحلة المكية ، وهي تؤصل مبدأ العالمية منذ اللحظة الأولى - ولو كانت « عالمية الإسلام » فكرة بشرية طارئة ، لكان من المنطقي أن لا يتم إعلانها هكذا منذ البداية ، بل يسكت عنها النبي ﷺ إلى أن يعد العدة وتكتمل القوة العسكرية والمكانة السياسة اللازمة لإعلان فكرته .. ولكن الأمر هنا أمر الله القوي القادر ، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، لا جيوش فارس ولا جحافل الروم ولا غيرهما [1] .

* * *

ثانيا : الآيات المدنية :

(أ) آيات تثبت مبدأ العالمية ...

وهي آيات عديدة أذكر بعضها فيما يلي :

1 - آيات تثبت العالمية بلفظ « الناس » منها :

(1) قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [2] .

(2) وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [3] .

هذا بخلاف آيات أخرى جاء فيها الخطاب للناس جميعا متضمنا بعض الأوامر أو النواهي وهي كثيرة منها :

1 - قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [4] .

2 - وقال جل شأنه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [5] .

---

(1) الدعوة إلى الله تعالى : ص 45 بتصرف .
(2) سورة النساء الآية (170) .
(3) سورة الحج : الآية (49) .
(4) سورة البقرة : الآية (21) .
(5) سورة الحج : الآية (1) .

3 – وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (1) وغير ذلك من الآيات .

2 - آيات أخرى عامة :

(1) قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (2) .

قال ابن كثير : « أي من سلك طريقا سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ... » (3) ومعنى هذا أن من لم يُسْلم من جميع الخلق فهو داخل في جملة الخاسرين ، والعموم هنا مستفاد من لفظ « مَنْ » .

(2) وقال سبحانه : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (4) .

« هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة ، حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبي غير نبيهم – صلوات الله وسلامه عليه – ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه ، ولا دين إلا ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق ، لا كذب فيه ولا خلف ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ ، أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأوامر والنواهي . فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة » (5) .

« إن المؤمن حينما يقف أمام إكمال الدين ، ليستعرض موكب الرسالات منذ أول رسول – آدم عليه السلام – إلى خاتم الرسل ﷺ ، يجد أن كل رسالة قبل الرسالة الأخيرة ، إنما جاءت لمرحلة من الزمان . رسالة خاصة لمجموعة خاصة ، في بيئة خاصة ، حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر ، أرسل إلى الناس كافة خاتم النبيين برسالة « للإنسان » لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة ، في زمان خاص ، في ظروف خاصة .. رسالة تخاطب « الإنسان » من وراء الظروف والبيئات والأزمنة ، لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ، ولا ينالها التغيير » (6) . قال تعالى : ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ

---

(1) سورة الحجرات : الآية (13) .

(2) سورة آل عمران : الآية (85) .

(3) ابن كثير 1 / 379 .

(4) سورة المائدة : جزء من الآية (3) .

(5) ابن كثير 2 / 13 .

(6) الظلال 2 / 842 : بتصرف واختصار .

لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

(3) وقال جل شأنه : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [2] .

قال القرطبي : قال ابن عطية : هذه الألفاظ – عند جماعة علماء الأمة خلفا وسلفا – مُتَلَقَّاة على العموم التام ، مقتضية نصا أنه لا نبي بعده ﷺ [3] .

ويقول ابن كثير : « ... فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ، فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ .

فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له » [4] .

ولا شك أن كون النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، دليل على عالمية رسالته ، من جهة أن كل الرسالات السابقة كانت محلية ، فلابد أن تكون الرسالة الخاتمة عالمية ، لأنه لن يأتي نبي آخر بعد رسول الله ﷺ ، فليس هناك قوم أولى بالرسالة الخاتمة من الآخرين ، فوجب أن تكون عامة للناس جميعا .

هذه بعض الآيات القرآنية المدنية التي أثبتت مبدأ « عالمية الإسلام » وأعلنته إعلانا صريحا لا لبس فيه ولا غموض .

(ب) آيات تطبيقية لمبدأ العالمية :

ورد في هذا المضمار آيات عديدة توجه الدعوة إلى أهل الكتاب للدخول في الإسلام ، مبينة زيف عقائدهم وبطلان ملتهم وتحريف كتبهم ، وموضحة أن الإسلام هو الدين الخاتم ، الذي لابد لهم من اعتناقه ، لتكتب لهم النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة .

(1) من الآيات التي تدعو المخالفين لاعتناق الإسلام :

1- قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ

---

(1) سورة الروم : جزء من الآية (30) .
(2) سورة الأحزاب : الآية (40) .
(3) القرطبي 8 / 5465 .
(4) ابن كثير 3 / 509 .

بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [1] .

يقول ابن كثير .. « يقول تعالى آمرا بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، ومهيجا لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره : يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق ، كما تقول : يا ابن الكريم افعل كذا ، يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم ، اطلب العلم ونحو ذلك » [2] .

ويقول الواحدي : قوله عز وجل ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ ﴾ يعني القرآن ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ موافقا للتوراة في التوحيد والنبوة [3] .

وروى ابن جرير – بسنده – عن مجاهد في قول الله تعالى ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ يقول : إنما أنزلت القرآن مصدقا لما معكم : التوراة والإنجيل ...

وروى كذلك عن أبي العالية في الآية نفسها ، يقول : يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمد مصدقا لما معكم . يقول : لأنهم يجدون محمدا ﷺ مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل [4] .

يتضح من هذه الآية أن الله عز وجل يطالب أهل الكتاب – يهودًا أو نصارى – بالإيمان برسالة محمد ﷺ ، فلو كانت رسالة الإسلام خاصة بعرب الجزيرة لما طالبهم بذلك ، فتوجيه الدعوة إلى بني إسرائيل دليل على عالمية هذا الدين ، وتطبيق عملي لهذا المبدأ الأصيل .

2- وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [5] .

قال الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ « هذه الآية متناولة لجميع المخالفين لدين محمد ﷺ ، وذلك لأن منهم من كان من أهل

(1) سورة البقرة : الآيتان (40 ، 41) .
(2) ابن كثير 1 / 82 .
(3) الوسيط في تفسير القرآن المجيد : الإمام المفسر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت 468 هـ) تحقيق وتقديم : محمد حسن أبو العزم الزفيتي : 1 / 92 .
(4) تفسير الطبري : 1 / 561 : ط دار المعارف : الثانية – بدون تاريخ – تحقيق : محمود محمد شاكر ، مراجعة : أحمد محمد شاكر .
(5) سورة آل عمران : الآيتان (18 ، 19) .

الكتاب – سواء كان محقا في تلك الدعوى كاليهود والنصاري ، أو كان كاذبا فيها كالمجوس – ومنهم من لم يكن من أهل الكتاب ، وهم عبدة الأوثان » [1] .

وقال القرطبي : ﴿ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ ﴾ استفهام معناه التقرير ، وفي ضمنه الأمر ، أي أسلموا كذا قال الطبري وغيره [2] .

وقد جمعت الآية بين إعلان مبدأ عالمية الإسلام وتطبيقه ، فإعلان العالمية واضح في قوله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ ، والتطبيق واضح في توجيه دعوة الإسلام إلى جميع المخالفين من أهل الكتاب وغيرهم ، في قوله ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ ﴾ .

3 - وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾ [3] .

توضح الآية توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب للإيمان بالإسلام تطبيقا لمبدأ « العالمية » .

(2) آيات تفند عقائد أهل الكتاب [4] الباطلة ومنها :

قال تعالى : ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [5] ... وغيرها من الآيات الكثيرة [6] .

---

(1) الرازي 4 / 142 .　　(2) القرطبي 2 / 1397 .　　(3) سورة النساء الآية (47) .

(4) عقيدة : يقال : عَقَد السائل : أي جَمُد ، وعقد الزهرُ : تضامَّت أجزاؤه فصار ثمرا .. وعلى هذا فالعقيدة هي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، ينظر : المعجم الوسيط 2 / 637 – وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، والأغلب إطلاق وصف أهل الكتاب على الفريقين في آيات الكتاب العزيز ، وقد يراد به أحدهما فقط كما في قوله تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا ﴾ (سورة النساء : الآية 153) .. فمن الواضح أن المراد بـ « أهل الكتاب » هنا اليهود فقط .　　(5) سورة المائدة : الآيات (72 / 77) .

(6) تراجع الآيات (170 ، 171) من سورة النساء (30 ، 31) ، (72 - 76) من سورة المائدة .

المبحث الثاني
مبدأ العالمية في السنة المطهرة

تضافرت الأحاديث النبوية الشريفة مع الآيات القرآنية الكريمة في إثبات وتوكيد مبدأ عالمية الإسلام ، وسأسوق ههنا بعضا من أحاديث النبي المصطفى ، والحبيب المجتبى ﷺ في المرحلتين : المكية والمدنية .

أولا : في المرحلة المكية :

1- أخرج البخاري في صحيحه - بسنده - عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : كانت بين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضبا ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر الله له ، فلم يفعل ، حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ قال أبو الدرداء : ونحن عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « أما صاحبكم هذا فقد غامر » أي غاضب وحقد . قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم ، وجلس إلى النبي ﷺ ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر . قال أبو الدرداء : فغضب رسول الله ﷺ وقال : « هل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ إني قلت : أيها الناس ، إني رسول الله إليكم جميعا ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت .... » [1] .

ووجه دلالة الحديث على إثبات عالمية الإسلام في المرحلة المكية واضح جلي ، فلا ريب أن النبي ﷺ يبين مناقب الصديق رضي الله عنه وأرضاه ،وأعظمها وأجلها : وقوفه إلى جوار النبي ﷺ في أحلك اللحظات ، حينما أعلن النبي عليه السلام عالمية رسالته ، فكذبه الناس وصدقه أبو بكر رضي الله عنه .

2- أخرج الإمام أحمد في المسند - بسنده - عن علي كرم الله وجهه قال : جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بني عبد المطلب وهم رهط ، وكلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرَق ، فصنع لهم مدا من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو ، كأنه لم يمس ، ثم دعا بغُمَر فشربوا حتى رووا ، وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب ، وقال : ... « يا بني عبد المطلب ، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ... » [2] .

(1) البخاري : ك فضائل أصحاب النبي ﷺ ب - مناقب أبي بكر (3661) . فتح الباري 10 / 542 - 545 .
(2) أحمد 1 / 159 . وإسناده صحيح كما قال الشيخ / أحمد شاكر في تحقيقه برقم 1371 - وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 8 / 302 وعزاه لأحمد وقال : رجاله ثقات .

كما تجلت « عالمية الإسلام » واقعا عمليا في المرحلة المكية ، بإسلام بلال الحبشي وسلمان الفارسي وعداس النصراني وغيرهم .

وبهذا يتبين أن « عالمية الإسلام » لم تكن فكرة غامضة عند رسول الله ﷺ ، بل كانت مبدأ دينيا واضحا كل الوضوح ، ومطبقا على أرض الواقع تطبيقا عمليا في مكة ، أي في المرحلة التي كانت مليئة بالمصاعب حافلة بالمشاق .

ثانيا : في المرحلة المدنية :

(أ) أحاديث تثبت مبدأ العالمية :

وهي أحاديث كثيرة ، تكاتفت لإثبات هذا المبدأ من عدة نواح ، أذكر أهمها فيما يلي :

(1) « العالمية » من خصائص الرسول ﷺ :

* أخرج البخاري في صحيحه - بسنده - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » [1] .

(2) النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين :

إذا كان النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فلابد أن تكون رسالته عالمية لجميع الخلق ، وقد نطقت بذلك الأحاديث الكثيرة منها :

1 - عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » [2] .

---

(1) البخاري في صدر كتاب التيمم 1 / 519 (335) من حديث جابر . وفي رواية أبي هريرة عند الإمام مسلم في صدر كتاب المساجد ومواضع الصلاة 1 / 371 (253) ، يقول المصطفى ﷺ . « وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون .. » وفي رواية ابن عباس في مسند الإمام أحمد 1 / 301 « بعثت إلى الناس كافة : الأحمر والأسود ... » .

(2) البخاري : ك المناقب ب خاتم النبيين ﷺ 6 / 645 (3534 ، 3535) عن جابر وأبي هريرة . مسلم . ك الفضائل ب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين 4 / 1790 (2286) عن أبي هريرة ، (2287) عن جابر .

يبين هذا الحديث أن رسالة الإسلام جاءت مكملة لبنيان الرسالات الإلهية ، وأنها اللبنة الأخيرة في صرحها الشامخ .

2- وعن جبير بن مطعم – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » [1] .

ونص الحديث واضح في إفادة أنه لا نبي بعده ﷺ ، فلا رسول بطريق الأولى ، إذ أن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإذا نفى الأعم انسحب النفي على الأخص .. وقد أوضح ذلك بجلاء الحديث التالي .

3- وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي » [2] .

(3) لا يُقبل من الناس جميعا سوى الإسلام :

من البدهي أنه إذا كان محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، فلن يقبل من أحد إلا الإيمان برسالته العالمية الخاتمة ، وقد جاء في هذه الناحية الكثير من الأحاديث منها :

1- عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة – يهودي ولا نصراني – ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » [3] .

ونص الحديث واضح في إفادة العالمية من طريق وجوب إيمان جميع أفراد أمة البلاغ به ﷺ ، وخاصة اليهود والنصاري في أي مكان في العالم .

(4) ظهور الإسلام وانتشاره في جميع أنحاء المعمورة :

تحدث النبي ﷺ عن عالمية الإسلام ، فذكر أن هذا الدين العظيم سينتشر انتشارا عظيما ، وسيعم نوره آفاق الأرض كلها ، وقد جاء هذا المعنى في كثير من الأحاديث الشريفة من بينها :

---

(1) البخاري : ك المناقب ب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ 6 / 641 (3532) ، مسلم : ك الفضائل ب في أسمائه ﷺ 4 / 1828 (2354) .

(2) الترمذي : ك الرؤيا (ب) ذهبت النبوة وبقيت المبشرات 4 / 462 (2272) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، غريب من هذا الوجه .

(3) مسلم . ك الإيمان ب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس 1 / 134 (153) .

1 - عن تميم الداري - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزًا أو يذل ذليلا ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر » فكان تميم الداري يقول : « قد عرفت ذلك من أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية » (1) .

دلالة الحديث على عالمية الإسلام واضحة في ألفاظه التي تبين أن الإسلام سينتشر في جميع أرجاء المعمورة .

2 - وقال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي مازوى لي منها » (2) .

تثبت هذه الأحاديث الشريفة - وغيرها - عالمية هذا الدين ، وتؤكد أنه رسالة للخلق أجمعين وليست خاصة بقوم أو شعب أو أمة .

(ب) أحاديث تطبيقية لمبدأ العالمية :

كما طبق النبي ﷺ مبدأ العالمية في مكة ، فإنه كذلك طبقه في المدينة ، حيث توجه بدعوته إلى اليهود وغيرهم ممن يقطنون الجزيرة ، كما بعث بكتبه وسفرائه إلى ملوك ورؤساء العالم وأصحاب السيادة والسلطان فيه ، يدعوهم إلى الإسلام ، الدين الحق الذي ختم الله به الرسالات . وسأذكر فيما يلي بعض النماذج والأمثلة ...

(1) توجيه الدعوة إلى غير المشركين :

توجه النبي ﷺ بدعوته إلى اليهود والنصارى ، ليقدم الدليل العملي والبرهان التطبيقي على أن رسالته ليست مقتصرة على المشركين من العرب وحدهم .

فمن الأحاديث الدالة على توجيه الدعوة لليهود :

* عن عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله عنه - قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه ، حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول

---

(1) أحمد 4 / 103 - الطبراني في الكبير 2 / 58 (128) الحاكم (4 / 430) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(2) مسلم ك الفتن ب هلاك الأمة بعضهم ببعض 4 / 2215 (2889) .

أبو داود ك الفتن والملاحم ب ذكر الفتن ودلائلها 4 / 95 (4252) - كلاهما من حديث ثوبان رضي الله عنه .

الله ﷺ : « أروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه » فسكتوا فما أجاب منهم أحد ، فقال « أبيتم اللعن ، فو الله لأنا الحاشر وأنا العاقب ، وأنا المقفى ، آمنتم أو كذبتم » . ثم انصرف ﷺ وأنا معه حتى كدنا نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد ، فأقبل ، وقال ذلك الرجل : أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ؟ فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله تعالى ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدك . قال : فإني أشهد الله أن هذا النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل . فقالوا : كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا شرا .. فقام رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام .. فأنزل الله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ .. ﴾ [1] .

* وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبي ﷺ ، فدخل عليه – وأبوه قاعد عند رأسه – فقال له النبي ﷺ : « يا فلان ، قل : لا إله إلا الله ، فنظر إلى أبيه ، فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ ، فنظر إلى أبيه ، فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن إلا إله لا الله وأنك رسول الله . فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذي أخرجه لي من النار » [2] .

ومن الأحاديث الدالة على توجيه الدعوة للنصارى :

قصة نصارى نجران ، الذين بعث إليهم النبي ﷺ كتابا يدعوهم فيه إلى الإسلام ، وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم » باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب . أما بعد ، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله تعالى من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب ، والسلام » .

وكان من قصتهم أنهم أرسلوا وفدا إلى رسول الله ﷺ ، فأخذوا يجادلونه في أمر المسيح عليه السلام ، وأنزل الله عز وجل في هذا قدرا كبيرا من سورة آل عمران .

وموضع الاستشهاد في قصتهم الطويلة ، أن النبي ﷺ دعاهم إلى الدخول في

(1) حديث صحيح ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده 6 / 25 – ابن جرير 26 / 8 .

(2) البخاري . ك الجنائز ب / إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه 3 / 259 (1356) .

الإسلام – كما هو واضح من نص كتابه إليهم – ثم دعاهم مرة أخرى بعد أن أفحمهم في شأن المسيح عليه السلام ، حيث قال – وهو يخاطب اثنين من كبار رؤسائهم وكهنتهم – : « أسلما » قالا : قد أسلمنا . قال : « إنكما لم تسلما فأسلما » . قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام : ادِّعاؤكما لله ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير .... « ودعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة فخافوا وفزعوا ، وقبلوا أن يدفعوا الجزية ، فكتب لهم النبي ﷺ كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وديارهم وكنائسهم وصلبانهم ... » [1] .

يستخلص من هذا أن النبي ﷺ قد توجه بدعوته إلى اليهود والنصارى من العرب ليبين أن رسالته ليست مقتصرة على المشركين وحدهم .

(2) توجيه الدعوة رسميا إلى ملوك ورؤساء العالم :

بعث النبي ﷺ بكتبه ورسله إلى قادة العالم المعروف . في هذا الوقت يدعوهم فيها إلى الإسلام .. ولن أتعرض هنا إلى كتب النبي ﷺ التي بعث بها إلى الحكام المحليين في أركان شبه الجزيرة العربية ، بل سأتحدث عن الكتب التي بعث بها إلى الملوك والرؤساء خارج الجزيرة ، ومن بينها كتابه إلى هرقل قيصر الروم ، وإلى كسرى عظيم فارس ، وإلى المقوقس عظيم القبط في مصر ، وإلى النجاشي ملك الحبشة .

كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم :

بعث النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي – رضي الله عنه – حاملا كتاب النبي ﷺ إلى هرقل قيصر الروم ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، و ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [2] .

وكان هرقل قد أرسل في طلب بعض تجار قريش الذين كانوا بالشام حينئذ ، وفيهم

---

(1) البيهقي في دلائل النبوة 5 / 382 وما بعدها ب وفد نجران – ابن هشام 1 / 108 .

(2) سورة آل عمران : الآية (64) بلفظ : ﴿ قل يا أهل الكتاب .. ﴾

أبو سفيان – قبل إسلامه – فسأله هرقل عن صفة النبي ﷺ وأحواله ، فأجابه أبو سفيان ، ثم قال هرقل : « ... فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ... » [1] .

والواقع أن تأثير الكتاب كان عظيما في نفس هرقل ، وأنه كان أدنى إلى الإسلام . لولا أنه خاف على نفسه وملكه ، ووقف الملك والسلطان حائلا بينه وبين نور الحق والإيمان .

كتابه ﷺ إلى كسرى عظيم فارس :

بعث النبي ﷺ شجاع بن وهب – رضي الله عنه – إلى كسرى ، فمضى بالكتاب إليه ، ووقف أمام بابه مستأذنا مع عظماء الفرس ، وقد أذن لعظماء الفرس ثم أذن له من بعدهم ، فلما دخل أراد كسرى أن لا يأخذ الكتاب بنفسه ، فأبى شجاع بن وهب وقال : لا ، حتى أدفعه أنا إليك كما أمرني رسول الله ﷺ ، فقال كسرى : ادن ، فدنا منه وناوله الكتاب ، ثم دعا كاتبا من أهل الحيرة فقرأه ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم » . من محمد عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم الفرس .. سلام على من اتبع الهدى ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله تعالى ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . وإن تُسلِم تَسلَم ، وإلا فإن عليك إثم المجوس » [2] .

غضب كسرى غضبا شديدا . ومزق كتاب النبي ﷺ ولم يكتف بهذا بل كتب إلى عامله على اليمن يطلب إلقاء القبض على النبي ﷺ ، فكان من عقاب الله له أن قتله ولده ، ومُزِّقَ ملكه تمزيقا .

كتابه ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط :

بعث النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ، بكتاب يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع

---

(1) البخاري / ك الجهاد ب / دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة 6 / 128 (2940) مسلم / ك الجهاد ب / كتاب النبي ﷺ إلى هرقل 3 / 1393 (74 - 1773) مطولا .. كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما .. وينظر : خاتم النبيين المجلد الثاني 3 / 970 - 973 .

(2) البخاري / ك الجهاد ب / دعوة اليهود والنصارى 6 / 127 (2939) عن ابن عباس ، وينظر : خاتم النبيين المجلد الثاني 3 / 974 - 977 .

الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (1) .

وقد بالغ المقوقس في إكرام حاطب بن أبي بلتعة ، وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في خف من عاج وختم عليه ، وقد دارت بينه وبين حاطب محاورة قال المقوقس في نهايتها : إني نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده ، بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آيات النبوة بإخراج الجن والإخبار بالنجوى ، وسأنظر .

ثم كتب إلى النبي ﷺ كتابا جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم » . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك . أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها . والسلام » (2) .

هذا ما كتبه المقوقس ، وهو يدل على أنه - كصاحبه هرقل - قد اقتنع بالقرآن الكريم والإسلام ولكنه تردد في القبول ، وتلطف في الرد ، وبنى تردده على أنه كان يظن أنه سيخرج من الشام .

كتابه ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة :

كان للنجاشي مواقف عظيمة تجاه الإسلام والمسلمين .. وهل ينسى أحد إكرامه للمهاجرين إلى بلاده من صحابة النبي ﷺ في بدء الدعوة ؟ ! وهل ينسى أحد أنه رفض رفضا باتا أن يسلمهم إلى مبعوثي قريش ؟ ! لقد كان الرجل جديرا بامتداح النبي ﷺ ، حينما قال لأصحابه « ... اذهبوا إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد » .

لهذا لم يكن غريبا أن يعلن النجاشي إسلامه ويشهد شهادة الحق ، عندما أرسل إليه النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري حاملا كتابا يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم »

---

(1) البيهقي في دلائل النبوة ب / ما جاء في كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس 4 / 395 - ابن هشام 4 / 216 البداية والنهاية 4 / 272 .

(2) خاتم النبيين المجلد الثاني 3 / 977 - 979 .

من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة . فإني أحمد الله تعالى إليك ، الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى .. » .

وبعث النجاشي بكتاب إلى رسول الله ﷺ ، هذا نصه : بسم الله الرحمن الرحيم « . إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي أصحمه . سلام عليك يا نبي الله من الله رحمة الله وبركاته . الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد : فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، إنه كما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد عرفنا ابن عمك (جعفر بن أبي طالب) وأصحابك ، فأشهد أنك رسول صادقا مصدقا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين » [1] .

* * *

هذا هو مبدأ « عالمية الإسلام » في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، مبدأ ثابت راسخ ، وخصيصة من خصائص هذا الدين العظيم .

---

(1) خاتم النبيين : المجلد الثاني 3 / 977 - 979 .

الفصل الثاني

خصائص الإسلام العامة وأثرها في تحقيق عالميته .

المبحث الأول : الربانية .

المبحث الثاني : العقلانية .

المبحث الثالث : الإنسانية .

(التوافق مع الفطرة . تكريم الإنسان ، وضمان حقوقه) .

المبحث الرابع : الشمول .

المبحث الخامس : الوسطية (التوازن) .

المبحث السادس : الإيجابية .

المبحث السابع : الواقعية .

تمهيد :

يأتي هذا الفصل استكمالا للفصل السابق في بيان عالمية الرسالة الإسلامية ، فإذا كان الفصل السابق قد ساق الأدلة النقلية من القرآن الكريم والسنة المطهرة على « العالمية » ، فإن هذا الفصل يسوق ما يمكن أن يطلق عليه « الأدلة العقلية » على هذا المبدأ ، من خلال بيان صلاحية مبادئ الإسلام لجميع البشر في كافة الأزمنة والأمكنة ذلك أنها جاءت للإنسان – مطلق إنسان – فتوافقت مع فطرته التي فطره الله عليها ، وتواءمت مع مقوماته الروحية والمادية ، وتلاءمت مع كينونته الإنسانية في جميع أحوالها .

والحق أنه « ما من فكرة عرفتها البشرية حتى اليوم ، في تنظيم المجتمع كوحدة إنسانية ، وفي تنظيم المجتمع كوحدة بشرية ، إلا وفكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان أكبر منها وأرحب ، وأعظم قابلية للنمو والتجدد ، وأكثر قدرة على التوفيق والتنسيق بين قوى الحياة وطاقات الإنسان وحاجات البشرية على وجه العموم – وإن النظام الاجتماعي المستمد من هذه الفكرة ، المنبعث تلقائيًا من مجرد استقرارها في الضمير البشري ، هو أعدل النظم وأكثرها توازنا ومراعاة للفطرة ، وإطلاقا للقوى والطاقات الصالحة لتعمل على إنماء الحياة وترقيتها » [1] .

ومن البدهي أننا لن نستعرض هنا مبادئ الإسلام في العقيدة والعبادة والخلق والنظم استعراضا تفصيليا ، فهذا أمر يصعب استقصاؤه هنا – ولذا سنكتفي بعرض أهم خصائص هذا الدين العظيم ، التي تبرز انسجامه الكامل مع فطرة الإنسان ومقتضيات المهمة التي من أجلها خلقه الله وسواه [2] .

---

(1) نحو مجتمع إسلامي . سيد قطب ص 42 . وينظر كذلك : تربية الناشئ المسلم د / علي عبد الحليم محمود ص 36 .

(2) كان جل اعتمادي في هذا الفصل على آيات الكتاب الكريم وأحاديث النبي العظيم ﷺ .. أما في تقسيم الفصل ووضع بعض عناوينه فقد اعتمدت بصفة خاصة على ما ذكره الدكتور / يوسف القرضاوي في : الخصائص العامة للإسلام كما استفدت كثيرا من الكتب التالية : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته . سيد قطب . أصول الدعوة د / عبد الكريم زيدان . الثقافة الإسلامية د / عبد الواحد محمد الفار . معالم الثقافة الإسلامية د / عبد الكريم عثمان .

المبحث الأول : الربانية

هذه هي أولى وأهم خصائص الإسلام الدالة على عالميته ، ووجه دلالتها على ذلك أنه طالما أن المنهج الإسلامي منهج رباني منزل من عند الله ، فلابد أن يكون صالحا لجميع البشر ، في كافة بقاع الأرض ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأنه منهج صادر من خالق الإنسان ، العالم وحده بطاقات وقدرات وغرائز هذا المخلوق – وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [1] .

معنى الربانية وأقسامها :

« الربانية » نسبة إلى الرب أي الله سبحانه وتعالى ، ويوصف الإنسان بأنه « رباني » إذا كان وثيق الصلة بالله ، عالما بدينه وكتابه ، معلما له – وقد جاء اللفظ بهذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [2] .

وفي قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [3] .

أما عن الربانية كخصيصة من خصائص الإسلام الدالة على عالميته فإنها :

1 - ربانية المصدر والمنهج . 2 - ربانية الغاية والوجهة [4] .

القسم الأول : ربانية المصدر والمنهج :

معناها : أن كل ما جاء به الإسلام منهج رباني خالص ، مصدره الوحيد والأوحد هو الوحي ، ولا دخل لبشر – أيا كان – في تكوينه وإنشائه .

---

(1) سورة الملك : الآية (14) .

(2) سورة آل عمران : الآية (79) .

(3) سورة المائدة : الآية (44) .

(4) ينظر : الخصائص العامة للإسلام : ص 7 .

أولاً : الآيات القرآنية الدالة على ربانية المصدر :

تنوعت الأساليب القرآنية الدالة على ذلك :

(أ) فمنها آيات تدل على ذلك دلالة مباشرة ، بالتأكيد على أن القرآن منزل من عند الله مثل :

* قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [1] .

* وقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] .

يلاحظ في الآيتين التعبير بقوله « من ربكم » وكذلك التعبير في الآية الأولى بقوله ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ﴾ .. كل هذا يؤكد ربانية مصدر المنهج الإسلامي ، وبالتالي فهو المنهج العالمي الأمثل .. ويشار هنا إلى ابتداء الآيتين بقوله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ..

ويدخل في هذا الإطار : الآيات التي تتحدث عن تنزيل القرآن من عند الله ، وهي كثيرة ، منها قوله سبحانه : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [3] وقوله جل شأنه ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [4] وغيرها من الآيات .

(ب) ومنها آيات تتحدث عن مهمة المصطفى ﷺ ، وأنها منحصرة في التبليغ والإنذار والتبشير ، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [5] وقوله سبحانه ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [6] .

(جـ) ومنها آيات تبين أنه لا يمكن للنبي ﷺ أن يغير أو يبدل من الوحي شيئا .. مثل :

* قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [7] .

---

(1) سورة النساء : الآية (174) .

(2) سورة يونس : الآية (57) .

(3) سورة غافر : الآية (2) .

(4) سورة الجاثية : الآية (2) ، وسورة الأحقاف : الآية (2) .

(5) سورة الشورى : جزء من الآية (48) .

(6) سورة فاطر : الآيتان (23 ، 24) .

(7) سورة يونس : الآيتان (15 ، 16) .

فالمصطفى ﷺ ليس له أن يغير أو يبدل من المنهج الإلهي مثقال ذرة ، ويعبر عن ذلك بما أمره الله به ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ .

* وقوله جل شأنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ (1) .

تعد هذه الآيات من أقوى دلائل ربانية المصدر ، فهي تتضمن وعيدا شديدا في حالة التقول على الله بما لم يقل – وحاشاه ثم حاشاه ﷺ – ولكن وجود مثل هذه الآيات دليل قاطع على ربانية المصدر . وغير ذلك من الآيات ..

فإذا ثبت أن القرآن منزل من عند الله ، وأن الرسول الله ﷺ قد انحصرت مهمته في التبليغ والإنذار والتبشير ، وأنه ﷺ لا يملك أن يغير أو يبدل من الوحي شيئا .. إذا ثبت هذا كله فقد ثبتت ربانية المصدر .

ثانيا : ربانية المنهج الإسلامي : (2)

إن منهج الإسلام رباني خالص ، في عقيدته وعباداته وشرائعه ونظمه وأخلاقه كما سيتبين مما يلي :

(1) **عقيدة ربانية** : بمعنى أنها مستقاة من القرآن الكريم الذي أرسى دعائمها ووضح معالمها ، ومن السنة المتواترة المبينة للقرآن ، والتي هي وحي من الله عز وجل فليست هذه العقائد من وضع مجمع من المجامع ، ولا من إضافة هيئة من الهيئات ، ولا من إملاء « بابا » من البابوات .

وهنا يقف الإسلام شامخا ، حيث حفظه الله من التحريف والتبديل ، بخلاف اليهودية التي حرفها أتباعها وبدلوا فيها ، حتي آلت إلى ديانة عنصرية بعيدة كل البعد عن التوحيد الحق (3) ، وبخلاف النصرانية التي حولها بولس إلى ديانة وثنية تختلف تمام الاختلاف عن ديانة التوحيد التي بعث بها المسيح عليه السلام .

أما العقيدة الإسلامية فقد حفظها الله من التحريف والتبديل ، فليس لمؤتمر ولا لمجمع ولا لجماعة – أيا كانت مكانتها – أن تضيف أو تحذف شيئا منها على الإطلاق .

---

(1) سورة الحاقة : الآيات (44 - 47) . (2) يراجع الخصائص العامة للإسلام ص 35 : 42 .

(3) يراجع في هذا : اليهودية د / أحمد شلبي ص 151 ، 225 . اليهودية واليهود . د / علي عبد الواحد وافي ص 33 : 51 .

(2) **عبادات ربانية** : بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي رسم صورها وحدد أشكالها وأركانها وشروطها ، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان ، ومكانها فيما يشترط فيه المكان .

ولم يقبل من أحد – مهما كان مجتهدا في الدين ، ومهما علا كعبه في العلم والتقوى – أن يبتكر صورا وهيئات من عنده للتقرب إلى الله تعالى ، فإن هذا افتئات على صاحب الحق الأوحد في ذلك ، وهو الله تعالى صاحب الخلق والأمر .

(3) **آداب ربانية** : من جهة أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها ، وحدد أساسياتها التي لابد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية [1] ، حتى تبدو متكاملة متماسكة ، متميزة في مخبرها ومظهرها ، عالمة بوجهتها وطريقها ، إذا التبست على غيرها المسالك واختلطت الدروب ... ولهذا تجد القرآن الكريم والسنة المطهرة حافلين بجميع الأخلاق والآداب في كافة تعاملات المسلم : مع والديه ، وجيرانه ، وذوي القربى ، وذوي الأعذار الخاصة وأصحاب الحاجات ، بل وفيما يتعلق بأمور العادة وآداب التزاور ، والاستئذان ... إلخ .

ثم إن المصدر الأساسي للإلزام الخلقي في الإسلام ليس هو اللذة ولا المنفعة ولا العقل ولا الضمير ، ولا العرف ، ولا المجتمع ، ولا التطور ، ولا غير ذلك مما ذهبت إليه مدارس الفلسفة الخلقية – مثالية وواقعية – ، وإنما مصدر الإلزام ومقياس الحكم الخلقي – في الأساس – هو الوحي الإلهي .. فالخير هو ما أمر الله به ، والشر هو ما نهى الله عنه .

(4) **تشريعات ربانية** : جميع ما جاء به الإسلام من تشريعات لضبط الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والدولية تشريعات ربانية ، في أسسها ومبادئها وأحكامها الأساسية ، التي أراد الله أن ينظم بها سير القافلة البشرية ، ويقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد وأعدل المبادئ ، بعيدا عن قصور البشر وتطرفهم وأهوائهم وتناقضاتهم .

وحق التشريع في الإسلام محفوظ لله وحده [2] ، فهو الذي يأمر وينهى ، ويحلل ويحرم ، ويكلف ويلزم ، بمقتضى ربوبيته وألوهيته وملكه لخلقه جميعا وليس لأحد غيره حق التشريع المطلق ، إلا ما أذن الله فيه مما ليس فيه نص ملزم ، فيحق للناس أن يعملوا

---

(1) تراجع مقدمة كتاب : خلق المسلم لفضيلة الشيخ محمد الغزالي ص 5 : 25 .

(2) ينظر : الحلال والحرام في الإسلام د / يوسف القرضاوي : ص 21 : 26 .

عقولهم فيه وحينئذ فهم مجتهدون مستنبطون - في حدود القواعد العامة والأحكام الإجمالية - وليسوا مشرعين .

ومن زعم لنفسه حق التشريع والتحليل والتحريم ، فقد نازع الله في الألوهية ، وجعل نفسه إلها يعبد من دون الله .. وقد وصف الله عز وجل أهل الكتاب بقوله : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

فقد اعتبر القرآن هؤلاء الأحبار والرهبان أربابا يعبدون من دون الله ، وما كانت عبادتهم إلا طاعتهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، أي إعطائهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى ، كما فسر ذلك النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي حينما دخل عليه وهو يقرأ الآية السابقة ، فقال عدي : إنهم لم يعبدوهم . فقال النبي ﷺ : « بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام . فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » (2) .

والنص القرآني يفيد بأن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده . ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته ولا تقديم الشعائر التعبدية له (3) .

ثالثا : آثار ربانية المصدر والمنهج في النفس والحياة :

منبع هذه الآثار ومصدرها هو كمال الله عز وجل ، فمن المعلوم بداهة « أن صفات الصانع تظهر فيما يصنعه ، ولما كان الله تعالى له الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ويستحيل في حقه خلاف ذلك ، فإن أثر هذا الكمال يظهر في ما يشرعه من أحكام ومناهج » (4) . وقد تجلى هذا الكمال في عدة ثمار يانعة . منها : (5)

(1) **العصمة من التناقض والاختلاف** : إذ أنه منهج الله الذي وسع كل شيء علما ويعلم استعدادات خلقه ومواهبهم ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (6) .

فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء قال تعالى : ﴿ ... عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا

---

(1) سورة التوبة الآية 31 .

(2) البخاري / كتاب : المناقب . ب علامات النبوة في الإسلام .

(3) ينظر في ظلال القرآن : 3 / 1642 .

(4) أصول الدعوة ص 45 .

(5) يراجع الخصائص العامة للإسلام ص 43 ، 49 .

(6) سورة الملك : الآية 14 .

يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [1] .. لذا كان منهجه خاليا من الاضطراب والتناقض والاختلاف ، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [2] .

نعم .. لو لم يكن هذا المنهج ربانيا خالصا لوقع فيه من الاختلاف والتناقض الكثير والكثير ، كما هو مشاهد في جميع الأنظمة البشرية ، ومرد ذلك إلى أن البشر - بطبيعتهم يتناقضون ويختلفون من عصر إلى عصر - بل في العصر الواحد من زمن إلى آخر - ومن قطر إلى قطر - بل في القطر الواحد من إقليم إلى آخر ، وفي الإقليم الواحد من بيئة إلى أخرى ، وفي الأمة الواحدة من بلد إلى آخر ، وفي الشعب الواحد من فئة إلى أخرى ، وفي الفئة الواحدة من فرد إلى آخر ، بل في الفرد الواحد من حالة إلى أخرى ، ومن وقت إلى آخر .

لذا .. كان من عظيم رحمة الله بعباده أن تكفل سبحانه برسم منهاج حياتهم بعيدا عن تصوراتهم الناقصة وأفكارهم القاصرة .

(2) **البراءة من التحيز والهوى** : فإن من آثار وثمرات ربانية المصدر والمنهج اشتماله على العدل المطلق ، وبراءته من التحيز والجور واتباع الهوى .. والمنهج الرباني وَضَعَه من لا يتأثر بالزمان والمكان لأنه خالق الزمان والمكان . ومن لا تحكمه الأهواء والنزعات لأنه المنزه عن الأهواء والنزعات . ومن لا يتحيز لجنس ولا لون ولا فريق لأنه رب الجميع وكلهم عباده ، فلا يتصور تحيزه لفئة دون الأخرى ولا لجيل دون غيره ولا لشعب على حساب غيره من الشعوب .

أما مناهج البشر فإنها خاضعة لأهواء واضعيها ، وتأثرهم بالأهواء والميول ، والنزعات الشخصية والأسرية والإقليمية والحزبية والقومية .. ومن هنا سمى القرآن الكريم ما عدا شريعة الله وحكمه « أهواء » يجب الحذر منها ومن أصحابها .

- والآيات في هذا المضمار كثيرة : منها :

* قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ... ﴾ [3] .

(1) سورة سبأ : الآية 3 . (2) سورة النساء : الآية 82 . (3) سورة المائدة : جزء من الآية 49 .

* وقوله سبحانه : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ .. ﴾ (1) .

* وقوله جل شأنه ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (2) .

* وقوله عز سلطانه : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (3) .

(3) **الاحترام وسهولة الانقياد** : وهي من أهم مقتضيات « ربانية المصدر والمنهج » أنها تضفي على المنهج الرباني قدسية وإجلالا ، يتبعهما استسلام مطلق وانقياد تام له ، وهو مالا يحظى به أي منهج بشري (4) ، ذلك أن المؤمن يتلقى منهاج ربه وهو موقن بأنه المنهج الأمثل لأنه من عند الله ، صاحب الكمال المطلق ، وهو الذي أحسن كل شيء خلقه .

ومن عجيب أمر المؤمن ، أنه يستقبل منهج ربه ، وهو به فرح منشرح الصدر ، لأن هذا من مقتضيات الإيمان وشروطه قال تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (5) ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (6) ، ويقول عز شأنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ... ﴾ (7) .

ومن أروع أمثلة الاستجابة الفورية لأمر الله عز وجل ، ما حدث من صحابة النبي ﷺ عند تحريم الخمر تحريما نهائيا قاطعا ، إذ لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد في نوادي المدينة « ألا أيها القوم إن الخمر قد حرمت » فمن كان في يده كأس حطمها ومن كان في فمه جرعة مجها ، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه .. وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر (8) .

---

(1) سورة ص : جزء من الآية 26 .

(2) سورة الجاثية : الآيات (18 : 20) .

(3) سورة الجاثية : الآية 23 .

(4) ينظر أصول الدعوة : ص 47 ، 48 .

(5) سورة النساء الآية (65) .

(6) سورة النور : الآية (51) .

(7) سورة الأحزاب الآية (36) .

(8) في ظلال القرآن : 2 / 975 .

ويتحدث عن ذلك الصحابي الجليل أنس بن مالك - رضي الله عنه - فيقول : « بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وأبي دجانه ، ومعاذ بن جبل ، وسهيل بن بيضاء ، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر ، فسمعت مناديا ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت .. فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أم سليم ، ثم خرجنا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [1] .

وكذلك موقف الصحابيات الجليلات - رضوان الله عليهن - حينما أوجب الله عليهن التستر والاحتشام ، فقد سارعن بتنفيذ الأمر الإلهي دون انتظار أو تسويف .. روى الإمام البخاري بسنده عن أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : « يرحم الله نساء المهاجرين الأول .. لما أنزل الله ﴿ .... وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها » [2] وجلس إليها بعض النساء يوما فذكرن نساء قريش وفضلهن ، فقالت : إن لنساء قريش لفضلا ، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، ولا أشد تصديقا لكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل ؛ لقد أنزلت عليهن سورة النور ﴿ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ﴾ فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به ، تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله متعجرات كأن على رؤوسهن الغربان [3] .

هذا هو الاستسلام المطلق والانقياد التام للمنهج الرباني ، بخلاف مناهج البشر التي

---

(1) أخرجه أبو داود في (ك) الأشربة (ب) في تحريم الخمر 3 / 334 (3673) وله شاهد من حديث عمر أخرجه :
* الترمذي في ك التفسير ب ومن سورة المائدة 5 / 236 (3049) قال أبو عيسى : قد روي عن إسرائيل هذا الحديث مرسلا ، ثم رواه موصولا عن عمر بن الخطاب وقال : وهذا أصح من حديث محمد بن يوسف .
* النسائي في الأشربة ب تحريم الخمر 8 / 286 ، 287 .

(2) البخاري : ك التفسير ب قول الله تعالى ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ 8 / 347 (4758) .

(3) أبو داود : ك اللباس ب في قوله تعالى ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ 4 / 60 (4100) .. وفي سنده إبراهيم بن مهاجر قال عنه الحافظ في التقريب ص 94 صدوق لين الحديث .. ولكن يشهد له عند أبي داود في الموضع نفسه حديث أم سلمة رقم 4101 ، فيه عبد الله بن عثمان بن حاتم ، قال عنه الحافظ في التقريب ص 313 : صدوق ، وبقيه رجاله ثقات ، فإسناده حسن .. والله أعلم .

لا تلقى إلا الازدراء ، والتي تحتوي دائما على ثغرات كثيرة ، ينفذ منها هواة الانحراف فتصبح القوانين والأحكام جثة هامدة لا روح لها ولا حياة فيها .. وقد مضى في الباب السابق الإشارة إلى المحاولة الأمريكية لتحريم الخمر والتي لاقت فشلا ذريعا وهزيمة منكرة .

(4) **التحرر من العبودية لغير الله** : وهذه واحدة من أعظم ثمار « ربانية المصدر والمنهج » فالإنسان يخضع للمنهج الرباني لأنه صادر من الله صاحب الخلق والأمر والمتصرف في هذا الوجود ، وبهذا يتحرر الإنسان من العبودية والخضوع لغير الله رب العالمين .

أما إذا خضع الإنسان لمنهج من وضع بشر مثله ، فقد اتخذه إلها من دون الله ، وإن لم يقدم له العبادة والقرابين . وقد مر بنا في العنصر السابق عند الحديث عن ربانية الشرائع أن القرآن الكريم قد عاب على أهل الكتاب إعطاءهم حق التشريع والتحليل والتحريم للأحبار والرهبان ، وجعل ذلك بمثابة اتخاذهم أربابا من دون الله فقال سبحانه : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

* * *

هذا هو القسم الأول من خاصية الربانية وهو « ربانية المصدر والمنهج » وهذه هي آثاره وثماره في حياة الإنسان – مطلق إنسان – لا شك أنها ناطقة بأن هذا الدين قد جاء للناس – كل الناس – وليس لفئة أو مجتمع أو أمة بعينها ، بل للناس جميعا بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * *

القسم الثاني : ربانية الغاية والوجهة :

يقصد بـ « ربانية الغاية والوجهة » أن يجعل المسلم غايته وهدفه حسن الصلة بالله عز وجل والحصول على مرضاته ، في كل ما يأتي أو يذر ، وما يقول أو يفعل ، في غدوه أو رواحه ، في ذهابه أو مجيئه .. يقول تبارك وتعالي مخاطبا حبيبه ونبيه محمدا ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ

(1) سورة التوبة : الآية (31) .

﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] ويقول جل شأنه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [2] ويقول سبحانه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [3] .

آثار « ربانية الغاية والوجهة » وثمارها في النفس والحياة : [4]

لاشك أن المسلم حينما يجعل غايته وهدفه حسن الصلة بالله وتحصيل مرضاته ، فإن ذلك سيعود عليه بفوائد كثيرة في نفسه وحياته .. من هذه الفوائد :

(1) **معرفة الغاية من وجوده** : فالإنسان الرباني يعلم ويوقن أنه لم يخلق سدى ولم يأت للحياة عبثا ، وإنما جاء لحكمة عظيمة وهدف سام ، يبينه له ربه تبارك وتعالى في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [5] .

وحينما يعرف الإنسان لوجوده غاية ، ويعرف لمسيرته وجهة ، ويعرف لحياته رسالة ، فهو يحس بأن لحياته قيمة ومعنى ، ولعيشه طعما ومذاقا ، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة في الفضاء ، ولا مخلوقا سائبا يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء ، كما يدعي هؤلاء الذين حرموا نعمة معرفة غاية وجودهم ، فظنوا أن الحياة لا هدف لها ولا غاية ترجى من ورائها ويرد عليهم القرآن الكريم في كثير من آياته ذلك الزعم الخاطئ والانحراف الشائن ، ومن ذلك قوله جل وعلا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [6] وقوله جل شأنه : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [7] .

(2) **الاهتداء إلى الفطرة** : وذلك لأن الله عز وجل جعل التدين فطرة إنسانية خالصة فقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [8] وقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ... ﴾ [9] .

---

(1) سورة الأنعام : الآيتان (162 ، 163) .
(2) سورة الانشقاق : الآية (6) .
(3) سورة النجم : الآية (42) .
(4) يراجع : الخصائص العامة للإسلام ص 10 : 17 .
(5) سورة الذاريات الآيات (56 : 58) .
(6) سورة المؤمنون : الآيتان (115 ، 116) .
(7) سورة القيامة : الآيات (36 : 40) .
(8) سورة الروم : الآية (30) .
(9) سورة الأعراف : جزء من الآية (172) .

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس شيئا تافها ، بل هو كسب كبير فيه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه ، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله ، فالكون كله رباني الوجهة يسبح بحمد الله ، قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (1) .

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغا لا يملأه علم ولا ثقافة ولا فلسفة ، إنما يملأه الاتصال بالله جل وعلا ، وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تؤمن بالله وتتوجه إليه (2) .. هناك تستريح من تعب ، وترتوي من ظمأ ، وتأمن من خوف .. هناك تحس بالهداية بعد الحيرة ، والاستقرار بعد التخبط ، والاطمئنان بعد القلق ، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغربة ، والضرب في أرض التيه .

(3) **سلامة النفس من التمزق والصراع** : إن ربانية الغاية والوجهة تكفل سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات وشتى الاتجاهات .. لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله ، وركز همومه في هم واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه .

ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها ووجهتها في الحياة ، فتعرف من أين تبدأ ، وإلى أين تسير ، ومع من تسير .

ولا يشقي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته وتباين اتجاهاته ، وتضارب نزعاته فهو حينا يشرق وحينا يغرب ، وتارة يتجه إلى اليمين وطورا يتجه إلى اليسار .. ولقد أراحه الإسلام من هذا العناء بتحديد غايته ووجهته .

(4) **التحرر من العبودية للأنانية والشهوات** : فإن من ثمرات هذه الربانية – حين تستقر في أعماق النفس – تحرر الإنسان من العبودية لأنانيته وشهوات نفسه ولذات حسه ، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية ورغباته الشخصية .

وذلك أن الإنسان الرباني يَقِفُهُ إيمانه بالله واليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه ومتطلبات دينه ، وبين ما تدفعه إليه شهوته وما يأمر به ربه ، بين ما يمليه عليه الهوى وما يمليه عليه الواجب ، بين متعة اليوم وحساب الغد ، أو بين لذة عاجلة في دنياه

(1) سورة الإسراء : الآية (44) .

(2) ينظر : نحن والحضارة الغربية « أبو الأعلى المودودي » ص 48 .

وحساب عسير ينتظره في أخراه .

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوى والشهوات ، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية .. أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها ، لا بوحي بطنها وفرجها .

فإذا لم يرتق الإنسان إلى هذا الأفق الوضيء ، فإنه يظل رانيًا إليه ، حريصا عليه متشبثا به .. وإذا انحدر عنه يوما فسرعان ما يعود إليه تائبا من ذنبه مستغفرا لربه ، فالإنسان « الرباني » دائما « أواب » و « منيب » .

* * *

لاشك أن هذه الآثار والثمار ضرورة حتمية لابد منها لإسعاد الإنسان .. الإنسان الذي أورثته الفلسفات المختلفة والمدارس الفكرية المتعددة حيرة وشقاء وعناء ، لن يجد منها مهربا إلا بالإسلام .. فهو وحده الدين الذي تمثل الربانية - بمعنييها السابقين - خاصيته الكبرى .. ولذا « فهو وحده مناط الثقة في أنه التصور المبرأ من النقص ، المبرأ من الجهل ، المبرأ من الهوى .. هذه الخصائص المصاحبة لكل فكر بشري ، والتي نراها مجسمة في جميع التصورات التي صاغها البشر ابتداء ، من وثنيات وفلسفات ، أو التي تدخَّل فيها البشر من العقائد السماوية السابقة .. وهو كذلك مناط الضمان في أنه التصور الموافق للفطرة الإنسانية ، الملبّي لكل جوانبها ، المحقق لكل حاجاتها .. ومن ثم فهو التصور الذي يمكن أن ينبثق منه ، ويقوم عليه ، أقوم منهج للحياة وأشمله » [1] .

* * *

(1) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته : ص 27 .

المبحث الثاني : العقلانية

معنى العقلانية [1]

أعني بـ « العقلانية » هنا .. في معرض الحديث عن خصائص الإسلام ودلالتها على عالميته – أعني بها – موافقة ما جاء به المنهج الإسلامي للعقل ، كذلك احتفاء الإسلام بالعقل والاعتراف بدوره في تلقي وتدبر وتنفيذ التصور الإسلامي الصادر عن الله عز وجل .

« وإذا كان الفكر البشري لم ينشئ هذا التصور ، فإنه ليس منفيا من مجاله ولا محظورا عليه العمل فيه .. كلا .. ففي ميزان التصور الإسلامي ، يعتبر الفكر البشري أداة قيمة وعظيمة ، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوماته ، مستقاة من مصدرها الإلهي ، وتحكيمها في كل ما حوله من القيم والأوضاع ، دون زيادة عليها من خارجها ، ودون نقص كذلك منها » [2] .

تنظيم القرآن للعمل العقلي :

بقدر اهتمام الإسلام بالعقل واحتفائه به [3] بقدر ما هو حريص على صيانته من التبدد في غير المجال المناسب له ، وصيانته كذلك من الخبط في التيه بلا دليل .

والقاعدة التي تنظم ذلك في منظور الإسلام ، تتلخص في أن الإنسان محكوم أولا بطبيعته ، طبيعة أنه مخلوق حادث ، ليس كليا ولا مطلقا ، ليس أزليا ولا أبديا ومن ثم فإن إدراكه لابد أن يكون محدودا بما تحده به طبيعته .

ثم هو محدود بوظيفته ، وظيفة الخلافة في الأرض لتحقيق معنى العبادة لله فيها . ومن ثم فقد وهب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة بلا نقص ولا زيادة [4] .

(أ) بعض المجالات التي لا تدخل في إطار العمل العقلي : [5]

هناك بعض الأمور التي لم يُزَوَّد العقل الإنساني بالقدرة على الإحاطة بها – بماهيتها

---

(1) يقال في اللغة : عقل يعقل عقلا : أدرك الأشياء على حقيقتها ، وعقل الغلام : أدرك وميز ، يقال : ما فعلت هذا مذ عقلت ... ينظر : المعجم الوسيط 2 / 639 .

(2) خصائص التصور الإسلامي ص 45 ، 46 بتصرف واختصار .

(3) يراجع في هذه القضية : الدعوة الإسلامية هداية وفكر للإنسان ، مرجع سابق ص 11 ، 12 .

(4) ينظر : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 47 .

(5) المرجع نفسه : يراجع ص 47 : 49 .

أو بكيفيتها - إما لأنها لا تدخل في حدود طبيعته البشرية المحدودة ، وإما لأنها لا تلزم له في النهوض بوظيفته المحددة كذلك ، ومن هذه الأمور :

(1) مسألة كنه الذات الإلهية :

فإن الكينونة الإنسانية لا تدركها ، كما أنه لا توجد ذات تشبه ذات الله فيقاس عليها .. وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1] .

ويقول تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

ويقول الحبيب المصطفى ﷺ مرشدا إلى المسلك الأقوم في هذا السبيل « تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » [3] .

ولذلك عوقب بنو إسرائيل عقابا أليما ، حينما ظنوا أنهم بكينونتهم الإنسانية يستطيعون إدراك كنه ذاته ، فطلبوا من نبي الله موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة . وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿ ..وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [4] ، ويقول سبحانه : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [5] .

(2) مسألة المشيئة الإلهية وكيفية تعلقها بالخلق :

فحينما تتدخل المشيئة الإلهية لتغير شيئا من النواميس الكونية ، فليس للعقل هنا أن يحاول معرفة كيفية تعلق المشيئة الإلهية بالخلق لأنها فوق إدراكه . ومن أمثلة ذلك :

* سؤال سيدنا زكريا عليه السلام عن كيفية حصول ولد له مع كبر سنه وعقم

---

(1) سورة الأنعام : الآية (103) . (2) سورة النحل : الآية (74) .

(3) أورده العجلوني في كشف الخفا 1 / 371 (1005) وقال : رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس ، ورواه ابن أبي شيبة في كتاب (العُرْس) له بلفظ : تفكروا في كل شيء ولا تتفكروا في الله ... ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن ابن عمر مرفوعا : تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله ... مطولا . وساق العجلوني عدة شواهد وقال : وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسبه قوة ، ومعناه صحيح .

(4) سورة البقرة : الآية (55) . (5) سورة النساء : الآية (153) .

زوجه ، ويحكي القرآن عنه ذلك في قوله سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [1] ويأتيه الرد بأن إدراك هذه الكيفية خارج عن نطاق العقل البشري ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [2] وفي آية أخرى ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [3] .

* كذلك في قصة السيدة مريم ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [4] وفي موضع آخر ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [5] .

* وقيل ذلك في قصة الخليل إبراهيم عليه السلام على لسان زوجه ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [6] .

ففي هذه الآيات ، لا يتعرض النص لبيان الكيفية ، بل يردها إلى أمر الله وقضائه ، فكل من أراد من البشر بيان الكيفية تخبط وخلط ، لأنه قاسها على كيفيات عمل الإنسان .. وشتان شتان .. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [7] .

(3) مسألة الروح :

سواء كان المقصود بها « الحياة » أو « جبريل » أو « الوحي » .. فهي مما استأثر الله بعلمه واختص به نفسه ، فأي محاولة من جانب العقل البشري لاستكناه حقيقة الروح ، إنما هي تبديد للطاقة العقلية وخروج بها عن دائرتها وحدودها ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [8] .

(4) مسألة الغيب المطلق :

فهو محجوب عن البشر ، ليس لهم أن يتعبوا عقولهم في محاولة استشرافه ومعرفته .. بخلاف الغيب النسبي الذي يأذن الله لمن يشاء من عباده بعلم طرف منه .. [9] وعن الغيب المطلق تتحدث آيات القرآن الكريم مبينة أن الله عز وجل قد استأثر وحده بعلمه .. ومن

(1 ، 2) سورة آل عمران : الآية (40) .
(3) سورة مريم : الآية (9) .
(4) سورة آل عمران : الآية (47) .
(5) سورة مريم : الآية (21) .
(6) سورة هود : الآيتان (72 ، 73) .
(7) سورة الشورى : جزء من الآية (11) .
(8) سورة الإسراء : الآية (85) .
(9) يراجع : الغيب . فضيلة الشيخ / محمد متولي الشعراوي ص 15 ، 16 .

الآيات في هذا المضمار قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (2) .

والرسل الكرام البررة - عليهم جميعا الصلاة والسلام - ينفون عن أنفسهم معرفة الغيب المطلق ؛ فنوح عليه السلام يخاطب قومه قائلا - كما حكى القرآن - : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (3) .

وخاتم الرسل محمد ﷺ يخاطبه ربه ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (4) .

(5) موعد قيام الساعة :

فهو مما استأثر المولى بعلمه ، ولم يُطلع عليه أحدًا من خلقه ، فليس للعقل البشري أن يحاول معرفته ، يقول تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (5) .

ويقول جل شأنه : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (6) .

وفى حديث جبريل المشهور حينما سأل النبي ﷺ « متى الساعة ؟ » فأجابه النبي ﷺ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » (7) .

وفي حديث آخر حينما سئل النبي ﷺ متى الساعة ؟ ! فوجه ﷺ السائل إلى المسلك الرشيد ، بالابتعاد عن إعمال العقل فيما لا عمل له فيه ، والتوجه مباشرة إلى الشيء المجدي والمفيد فقال له : « ما أعددت لها » ؟ فقال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : « أنت مع من

---

(1) الأنعام : الآية (59) .
(2) سورة الرعد الآية (9) .
(3) سورة هود - عليه السلام - : الآية (31) .
(4) سورة الأنعام : الآية (50) .
(5) سورة الأعراف : الآية (187) .
(6) سورة الأحزاب : الآية (63) .
(7) البخاري : ك الإيمان ب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام 1 / 140 (50) .

أحببت » [1] هذه هي المجالات التي لا تدخل في إطار العمل العقلي .

(ب) مجالات العمل العقلي في المنظور الإسلامي :

فيما عدا هذه المسائل ، فإن العقل أمامه مجال فسيح للتدبر والتفكر ، والنظر والاعتبار .. إذ أن وجود الوحي الإلهي لا يلغي دور العقل الإنساني وإيجابيته في فهم الوحي والاستنباط منه والقياس عليه ، وقد ترك الوحي للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته ويبرز قدراته [2] ..

(1) في مجال العقيدة :

تمتاز العقيدة الإسلامية بأنها تخاطب العقل بما يفهمه ويدركه وليس بمُعَمَّيَات تستعصي على الفهم والإدراك .. واعترافا من القرآن الكريم بقيمة العقل وأهميته في مجال العقيدة ، فإنه أقام الأدلة العقلية الواضحة على أمور العقيدة ، وترك للعقل أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود :

الحقيقة الأولى : وجود الله ووحدانيته : فوجود الله تعالى كما تهدي إليه الفطرة السليمة ، يقتضيه كذلك العقل الصحيح الصريح ، ولا غرو إذا أقام القرآن الكريم الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [3] وقال سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [4] كما ساق القرآن الكريم الأدلة العقلية على وحدانية الله سبحانه :

* قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [5] .

* وقال سبحانه : ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ

---

(1) البخاري : ك فضائل الصحابة ب مناقب عمر بن الخطاب 7 / 51 ، 52 (3688) .
(2) يراجع : الخصائص العامة للإسلام ص 55 : 58 .
(3) سورة آل عمران : الآية (190) .
(4) سورة الطور : الآيتان (35 ، 36) .
(5) سورة الأنبياء : الآيات (21 : 24) .

مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [1].

الحقيقة الثانية : ثبوت الوحي والنبوة والرسالة : فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله .. نعم .. العقل هو الحكم الأول في هذه القضية من جهة أن النقل يأتي في مرحلة تالية ، إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد ، فالعقل السليم – بعد اقتناعه بوجود الله ووحدانيته واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص – يرى أنه من تمام حكمة الحكيم ورحمة الرحيم سبحانه وتعالى أن لا يترك عباده سدى ، وأن لا يدعهم في بحر لجي من الجهالة والعمى وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، كما يدرك العقل السليم أن الحكمة الإلهية تقتضي أن يكون هناك من يبلغ عن الله رب العالمين حيث يستحيل التلقي المباشر ، ويدرك العقل السليم أنه لا ينبغي أن يكون هذا المبلغ عن الله من الملائكة لاختلاف الطبيعة الملائكية عن الطبيعة الإنسانية [2] ، فلم يبق إلا أن يكون من البشر الذين يصطفيهم الله عز وجل[3] ، ويعدهم لهذه المهمة إعدادا خاصا . وبهذا يكون العقل قد اهتدى إلى إثبات الوحي والنبوة .

ولا يقف دور العقل عند هذا الحد ، بل إن له أدوارًا أخرى :

* فهو يطالب من ادعى النبوة والرسالة بمعجزة تدل على صدق دعواه .

* ثم ينظر في هذه المعجزة لتمييزها عن مظاهر الدجل والشعوذة .

* ثم يتأمل في مدى دلالة هذه المعجزة على صدق من أظهرها الله على يديه .

* ثم يتأمل كذلك سيرة هذا الشخص الذي يدعي النبوة والرسالة ، ليعرف منها أهليته للاصطفاء والنبوة ..

وبعد هذا كله يكون العقل قد اطمأن إلى صدق هذا الرسول وصحة رسالته ، فيتلقى عنه منهج الله وهو مطمئن تمام الاطمئنان ..

---

(1) سورة المؤمنون : الآيتان (90 ، 91) .

(2) يقول تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ الأنعام (8 ، 9) فالبشر لا يستطيعون رؤية الملائكة في صورتهم الأصلية ، ولذا استحال أن يكون الرسل من الملائكة .

(3) ولهذا يمتن الله على الناس بأن الرسل من جنسهم ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ التوبة (128) أي من جنسكم .

ومن أجل ذلك ، احتكم القرآن الكريم في إثبات صدق رسالة خاتم الرسل محمد ﷺ إلى العقول المفكرة وحدها ، فقال في صراحة ووضوح ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (1) ، وقال .. ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (2) .

وكذلك فعل نوح وهود وصالح وشعيب – عليهم جميعا الصلاة والسلام – فقد بذلوا جهدهم في إثبات صحة نبوتهم بطريق عقلي ، ويتضح ذلك في خطابهم لأقوامهم الذي قصه علينا القرآن الكريم في مواضع عدة (3) .

(2) في مجال التشريع :

ترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يجول ويصول في فهم النصوص ، فيفرع على الأصول ، ويقيس على الفروع ، ويستنبط الأحكام ، ويكيف الوقائع ، ويراعي القواعد في جلب المصالح ودرء المفاسد ، ورفع الحرج وتحقيق اليسر ، وتقدير الضرورات بقدرها ، واعتبار العرف ، ورعاية ظروف الزمان والمكان .

ونتيجة لهذا ، تعددت المذاهب الفقهية ، واختلفت المشارب (4) ، وخلف لنا العقل المسلم – في ضوء الوحي وهديه – ثروة فقهية هائلة لها مكانها الرفيع في التراث الإنساني . وقد حدث في عهد النبي ﷺ نموذج واقعي لاختلاف الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – في فهم النص النبوي ، حينما عاد النبي ﷺ من غزوة الأحزاب وأمر أصحابه بالتوجه إلى بني قريظة قائلا : « من كان منكم سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة » (5) وحينما حانت صلاة العصر – وهم في الطريق – اختلفوا فيما بينهم .. ففريق وقف عند حرفيه النص ولم يصل العصر إلا بعد بلوغ الهدف – وكان ذلك في وقت العشاء – وفريق تجاوز حرفية النص وفهم روحه – مدركا أن النبي ﷺ ما كان يهدف إلا إلى المسارعة في الذهاب للقاء هؤلاء الخونة من اليهود ، فحينما أدركته

---

(1) سورة سبأ : الآية (46) . (2) سورة يونس : الآية (16) .

(3) سبق في الباب الماضي استعراض طرف من خطاب الأنبياء مع أقوامهم .

(4) يراجع في مسألة نشأة المذاهب الفقهية :

* تاريخ المذاهب الإسلامية : الشيخ محمد أبو زهرة . المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية د / عبد الكريم زيدان ص 111 ، 154 .

(5) البخاري ك المغازي ب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب 7 / 471 (4119) . مسلم ك الجهاد والسير ب المبادرة بالغزو 3 / 1391 (69 - 1770) .

الصلاة في الطريق صلى .. ولم يعنف النبي ﷺ أحدا من الفريقين ، ليبين أن أمام العقل البشري فسحة للعمل في فهم النصوص في الإطار العام للشريعة الإسلامية .

ويعد هذا الأمر ميزة من أعظم مزايا هذا الدين العظيم ، فكلما ترقّت بالناس حياتهم ، جدَّت لهم أقضية وأحكام تحتاج إلى بيان حكم الدين فيها ، وهنا ينهض العلماء المجتهدون ليقيسوا هذه القضية الحديثة على حكم قديم ، أو يجتهدوا في فهم النصوص لاستخراج الحكم الصحيح فيها .. وبهذا يتميز الإسلام بجمعه بين الثبات والمرونة وبكونه مسايرا لتطورات الحياة .

(3) في مجال الأخلاق :

أتاح الإسلام الفرصة للعقل في الميدان الخلقي ، حيث إن الشريعة الإسلامية – بعد أن بينت الحلال الصريح والحرام الصريح – تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف ، ويشتبه فيها الحكم ، وفوضت لكل امرئ أن يتفحصها بعقله ، ويستفتي فيها قلبه ، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه ، أخذا بالأحوط والأسلم .. فعن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا إن حمى الله محارمه ... » [(1)] .

ويقول أيضا : « استفت قلبك واستفت نفسك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » [(2)] .

ولئن كان المصدر الأساسي للإلزام الخلقي هو الوحي الإلهي ، وكان الخير هو ما أمر به الشرع والشر هو ما نهى عنه ، فليس معنى ذلك أن الشرع يأتي بتحسين ما يقبحه العقل ، أو بتقبيح ما يحسنه .. كلا .. فإنه لم يعرف ذلك في الأخلاق الإسلامية ولا

---

(1) البخاري : ك الإيمان ب فضل من استبرأ لدينه 1 / 153 (252) .

مسلم : ك المساقاة ب أخذ الحلال وترك الشبهات 3 / 1219 (107 - 599) .

(2) الدارمي ك البيوع ب دع ما يريبك إلى مالا يريبك 2 / 320 (2533) أحمد في المسند 4 / 194 ، 328 أبو يعلى في المسند 3 / 160 ، 161 ، (1586، 1587) ، جميعا من حديث وابصة بن معبد .

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (1 / 175) ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى وفيه أيوب بن عبد الله بن مكرز قال ابن عدي : لا يتابع على حديثه ، ووثقة ابن حيان .. والحديث حسنه الإمام النووي .

في الشريعة الإسلامية كلها . فهي شريعة ملائمة للفطرة السليمة موافقة للعقل الرشيد .. ومن هنا أطلق القرآن الكريم على أصحاب الأخلاق الفاضلة وصف « أولي الألباب » ، كما عقب على بعض أوامره ونواهيه بما يفيد مراعاة الجانب العقلي في التشريع والأخلاق .. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [1] .. وقوله سبحانه في نهاية أحكام الطلاق في سورة البقرة : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [2] .

فالأخلاق في الإسلام لا تعتمد على مجرد الأمر الصارم والتكليف التعبدي فحسب ، بل تعتمد كذلك على مخاطبة العقول واستشارة الضمائر ، فهي أخلاق مفهومة معللة بالمصالح والحكم المترتبة عليها في الدنيا والآخرة .

(4) التفكر والتدبر في الآيات الكونية والإنسانية :

لم يكتف الإسلام بدعوة العقل إلى النظر في آيات الله المبثوثة في نفسه وفي الكون من حوله ؛ بل أمره بذلك وحثه عليه في كثير من الآيات القرآنية الكثيرة .. من بينها :

* قوله تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] .

* وقوله جل شأنه : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .. ﴾ [4] .

(5) الاستكشاف والابتكار :

القاعدة الإسلامية الذهبية تتلخص في أن الإنسان هو سيد هذا الكون بكل ضخامته ، فالله قد سخر له السماوات والأرض بما فيهما ..

* قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ

---

(1) سورة الأنعام : الآية (151) .

(2) سورة البقرة : الآيتان (241 ، 242) .

(3) سورة يونس : الآية (101) .

(4) سورة الذاريات : الآيتان (20 ، 21) .

مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (1) .

* وقال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (2) .

* وقال جل شأنه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (3) .

وما دام هذا الكون مسخرًا لخدمة الإنسان فإن العقل البشري مطالب بأن يصول ويجول فيه ، ليستخلص منه وسائل ترقية حياته ، وتطوير معيشته في كافة المجالات .. إن الفرصة أمامه سانحة ليستكشف ويبتكر ويرتقي صعدًا إلى آفاق أعلى ، ما دام ذلك كله في حدود الحق والعدل ، وفي حدود المقاصد والأهداف الكلية للشريعة الإسلامية .

ويفتح الإسلام الباب أمام العقل الإنساني في هذا المجال .. من خلال آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة .. ففي القرآن الكريم ، وفي قصة قارون يتوجه بعض قومه إليه ليرشدوه إلى الطريق الأمثل والسبيل الأقوم ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (4) .

فلابد من تأمل قوله عز وجل ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ومجيئه بعد قوله ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ .. إن هذا هو التوازن الإسلامي بين مطالب الروح والجسد .. والآية تشير إلى أن الإنسان في هذه الأرض له مهمة تتمثل في كونه هو « الخليفة » فله أن يأخذ حظه ونصيبه من الدنيا ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾

(1) سورة إبراهيم : الآيات (32 ، 34) .
(2) سورة النحل : الآيات (10 ، 16) .
(3) سورة الجاثية : الآية (13) .
(4) سورة القصص : الآية : (77) .

ولكن تذكر أيها الإنسان وأنت تستمتع بنصيبك وحظك من الدنيا أنك مطالب بالإحسان فيه، بأن تستخدمه الاستخدام الأمثل فيما يرضي الله ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ، وإياك أن تنحرف به عن وجهته فتكون باغيًا مفسدًا ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

والمصطفى ﷺ في هذا المجال يقول : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » [1] أي في دائرة المباحات الواسعة ، فللعقل أن يعمل ويبدع طالما أنه بعيد عن البغي والفساد .

(6) الاعتبار بسنن الله في الأمم والحضارات :

من الأشياء التي يمتاز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات أنه كائن مفكر ، أنعم الله عز وجل عليه بنعمة الاستفادة من تجارب نفسه وتجارب الآخرين ، ومن ثم فقد وجه القرآن الكريم العقل الإنساني إلى ضرورة وأهمية الاعتبار بمصائر الأمم السابقة والحضارات السالفة ، ومن الآيات القرآنية في هذا المضمار :

* قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [2] .

* وقال جل شأنه : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [3] ، وآيات أخرى .

بعد هذا كله .. ألا يحق أن يقال .. إن الإسلام دين العقل ، ومن ثم فهو الدين العالمي المنزل إلى كافة الخلق ؟ ! إن الإسلام حينما يخاطب العقل ويحثه على العمل فإنما يخاطب – في الحقيقة – الإنسان .. الإنسان الذي كرمه الله بالعقل والفكر .. ومن هنا فهو خطاب لكل من يعقل ، لكل من يفكر .. وبعبارة أكثر وضوحا : إنه يخاطب الإنسان في كافة الأزمنة والأمكنة فهو رسالة الله إلى الخلق أجمعين .

« إن الإنسان حينما ينظر فيما يسمى عند اليهود والنصارى بـ « الكتاب المقدس » لا

---

(1) مسلم : ك الفضائل ب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي 4 / 1835 ، (141 - 2363) عن عائشة رضوان الله عليها .

(2) سورة آل عمران : (الآية 137) .

(3) سورة الروم : الآية 9 . وينظر : دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين . فضيلة الشيخ / محمد الغزالي ص 112 ، 113 .

يجد فيه كلمة العقل ، ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فُضِّل الإنسان بها جميع أنواع الجنس الحي ، كاللب والنهى .. لا لأن هذه المادة لم تذكر في كتب العهدين القديم والجديد وخَلَتا منه ، بل لأنها لم ترد فيهما أساسا لفهم الدين ودلائله والاعتبار به ، وكذلك لأن الخطاب الديني غير موجه إلى العقل وغير قائم به أو عليه »[1] .

« وجاء في دائرة معارف « لا روس » في القرن التاسع عشر ، تحت كلمة « دين » وأثناء الحديث عن رجال الدين (أي رجال الكنيسة النصرانية) : ... إن قلنا : إن الذوق الإنساني يقتضي اعتقاد الأشياء التي يمكن تعقلها يقولون : لا .. لا .. ثم يحاولون إذلال هذا العقل الإنساني الذي يدعي لنفسه حق التمييز بين الخير والشر ، وبين العدل والظلم ، حتى إذا تم تعمية عين العقل ، وتغشية باصرة البصيرة – إلى حد أن تعتبر المعجزات أمورا عادية وأن يتوهم الأبيض أسود وأن تعود الرذيلة فضيلة – يعود الدين فيهيب بالناس إلى الطاعة ، فإن سألتهم : نطيع من ؟ ! أنطيع القوانين المفيدة للإنسانية والتي تنتج عن تلك الأصول المتقدمة نفسها ؟ ! أجابوك لا .. أطع وأنت أعمى »[2] .

ويقول القديس « أنسيلم » : يجب أن تعتقد أولا ما يعرض على قلبك ، بدون نظر فيه ، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت . ويعلق الإمام محمد عبده على ذلك قائلا : فليس الإيمان – وهو الوسيلة إلى النجاة – في حاجة إلى نظر العقل والكون وما فيه ، لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره .. وقول القديس أنسيلم : ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت ، نوع من التفضل على النزعة البشرية إلى الفهم ، ثم الويل كل الويل لطالب الفهم إذا أدى اجتهاده إلى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه ، فكان معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلي به نفسه على إيمانه بغير المفهوم »[3] .

إن النصرانية تعتبر الإيمان منحة إلهية تسمو فوق النظر العقلي ، وتقول لمن يريد أن يصل إلى حقيقة الإيمان : أطع وأنت أعمى .. أما الإسلام فيقول : أطع وأنت مبصر ومدرك لما تؤمن به ، واجعل عقلك أساس اعتقادك .. ولهذا عاب القرآن الكريم مسلك الذين ألغوا عقولهم وسلكوا سبيل التقليد والجمود على موروثات أسلافهم فقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[4] .

---

(1) الوحي المحمدي الشيخ محمد رشيد رضا ص 179 - 180 ، نقلا عن أساليب الدعوة في القرآن والسنة .. الأساليب العقدية . دراسة تحليلية د / أبو المجد سيد نوفل ص 263 بتصرف يسير .

(2) المرجع السابق ص 262 ، وينظر للمؤلف نفسه أيضا ، دراسة مقارنة في المسيحية والإسلام ص 99 : 103 .

(3) الدعوة إلى الله تعالى . مرجع سابق ص 77 ، 78 .

(4) سورة الزخرف الآية 23 .

المبحث الثالث : الإنسانية

[التوافق مع الفطرة . تكريم الإنسان ، وضمان حقوقه]

المراد من الإنسانية في هذا المقام أن الإسلام دين إنساني النزعة ، يكرم الإنسان ، ويعلي من شأنه ، ويضمن له حقوقه .

وإذا كان الإسلام دينا « رباني المصدر والمنهج » فإن الإنسان هو الذي يتلقاه ويستنبط منه ، ويجتهد في فهم تعاليمه ، ويحوله إلى واقع تطبيقي ملموس .

وإذا كان الإسلام دينا « رباني الغاية والوجهة » فإن مضمون هذه الغاية هو سعادة الإنسان في الدنيا ، وفوزه بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين في الآخرة [1] .

فلا تعارض ولا تناقض بين الربانية والإنسانية كغصنين وارفين من أغصان شجرة الخصائص العامة لهذا الدين الحنيف .

وسأبدأ الآن في الحديث عن النزعة الإنسانية في رسالة الإسلام من خلال النقاط الآتية :

1 - الإنسانية في المنهج الإسلامي .　　　　2 - مظاهر تكريم الله للإنسان .

3 - حقوق الإنسان في منظور الإسلام .

أولا : الإنسانية في المنهج الإسلامي

إن الناظر في المنهج الإسلامي سيجده في عقيدته وعباداته وتشريعاته وأخلاقه ؛ يولى الجانب الإنساني عناية فائقة واهتماما بالغا :

(أ) في العقيدة :

تجد الجانب الإنساني ملحوظا فيها ، من جهة أنها عقيدة واضحة ، لا تستعصي على الفهم ، ولا ينفر منها العقل الإنساني ، كما أنها ليست ألغازا مبهمة ولا خرافات مصطنعة .. وقد مضى قريبا في المبحث السابق بيان دور العقل الإنساني في الاهتداء إلى أعظم حقيقتين في الوجود وهما : حقيقة وجود الله عز وجل وتوحيده ، وحقيقة الوحي والنبوة والرسالة .. وهذا دليل على مراعاة العقيدة الإسلامية للجانب الإنساني واهتمامها به .

---

(1) ينظر : الخصائص العامة للإسلام ص 52 .

(ب) في العبادات :

إن العبادات في الإسلام ليست طقوسا مبهمة ، أو مجرد حركات وأعمال تؤدَّى ، بل هي تعبير عن حقيقة العبودية والخضوع لله رب العالمين .. وفي إطار هذه العبودية لله يتحقق الجانب الإنساني في العبادات ، وذلك على النحو التالي :

● **في الصلاة** : إن للصلاة أثرا عظيما في حياة الفرد والجماعة ..

ففي حياة الفرد تعطيه زادا روحانيا عظيما يعينه على مواجهة مشاق الحياة ومصاعبها .. فحينما يقف المرء بين يدي ربه خاشعا ضارعا ؛ يشعر بطاقة إيمانية تسري في أوصاله ، فتعطيه دفعة هائلة ، تشير إليها الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [1] . ولعل هذه هي الحكمة الإلهية في جعل الصلاة المكتوبة خمس مرات ، موزعة توزيعا ربانيا حكيما ، يغطي معظم النهار وطرفا من الليل. قال تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [2] . وقال سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [3] .

كما أن المتأمل يدرك أيضا أن هذا التوزيع فرصة للتطهير البدني والروحي ، ومحو آثار الغفلة عن الله .. ولعل هذا بعض ما يشير إليه حديث المصطفى ﷺ : « أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، أيبقي ذلك من درنه شيئًا ؟ » قالوا : لا يبقى من درنه شيئا قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » [4] .

والصلاة أيضا تنتج للمجتمع فردا صالحا ، ينأى بنفسه عن كل ما يغضب المولى تبارك وتعالى ، قال تعالى ﴿ .. وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ... ﴾ [5] .

هذا عن أهم آثار الصلاة في حياة الفرد .

وفي حياة الجماعة : ستجد هذا الفرد الصالح الذي أثرت فيه الصلاة ، ستجده ، كخلية نحل ، يمد يد الإحسان إلى كل أصحاب الحاجات . يقول رب العزة سبحانه وتعالى في

(1) سورة البقرة : الآية 153 . (2) سورة الإسراء : الآية 78 .

(3) سورة هود : الآية 114 .

(4) البخاري : ك مواقيت الصلاة ب الصلوات الخمس كفارة 2 / 14 ، 15 (528) .

مسلم : ك المساجد ومواضع الصلاة / ب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا 1 / 462 (283 - 667) .

(5) سورة العنكبوت : جزء من الآية 45 .

الحديث القدسي : « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ، ولم يبت مصرًّا على معصيتي ، وقطع النهار في ذكري ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب » [1] .

ومن جهة أخرى .. تجد للصلاة أثرا اجتماعيا إنسانيا في تحقيقها للمساواة التامة بين سائر أعضاء المجتمع المسلم .. فالغني يقف بجانب الفقير ، والرئيس بجوار المرؤوس ، والكبير بجوار الصغير .. الكل أمام الله سواء .

ومن جهة ثالثة تجد في صلاة الجماعة صورة مصغرة لما يجب أن يكون عليه حال الأمة المسلمة ، فهم يقدمون الأقرأ والأفقه والأسن والأكثر ورعا وتقوى .. كذلك يجب عليهم أن ينتخبوا لقيادتهم من هو أجدر الناس بهذا المنصب من حيث التقوى والورع والكفاءة « كما أنهم في صلاة الجماعة يقتدون بإمامهم ويطيعونه ؛ فلا يسبقونه بركوع أو سجود ؛ فكذلك هم مع إمامهم ورئيسهم في الحياة يسمعون له ويطيعون ، في حدود طاعة الله ورسوله .. وكما أنهم في صلاة الجماعة يجعلون خلف الإمام أهل الصلاح والتقوى – ليصححوا للإمام خطأه – فكذلك هم مطالبون بأن يجعلوا خلف الحاكم الصالح بطانة صالحة ، تعينه إذا أحسن وتقومه إذا أساء » [2] .

ومن جهة رابعة .. تجد للصلاة أثرا اجتماعا إنسانيا حضاريا ، فهي دافعة إلى استكمال جميع جوانب النشاط لحضاري : من زراعة وصناعة وتجارة .. وغيرها ، وذلك أن هناك شروطا لصحة الصلاة – من بينها مثلا ستر العورة بلباس طاهر – .. فالمسلم لكي يحقق هذا الشرط لابد له من الزراعة لتوفير المادة الخام ، ومن الصناعة لتحويل المادة الخام إلى مادة مصنعة ، وهذه الصناعة لابد لها من استخراج المعادن لتصنيع الآلات ، وتصميم هذه الآلات يحتاج إلى علماء وباحثين يأتون من جامعات ومعاهد علمية ومراكز بحثية .. إلخ .. كل هذا من أجل تحقيق شرط واحد من شروط صحة الصلاة ... [3] أليس هذا دليلا واضحا على الجانب الإنساني في فريضة الصلاة ؟ ! فإذا جمعنا أثر الصلاة على كل من الفرد والجماعة في إطار واحد ، صارت القضية واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار .

---

(1) ورد بمعناه في كنز العمال 15 / 910 برقم (43573) .

(2) هذه الفكرة مقتبسة من محاضرة غير منشورة للاستاذ الدكتور / يسري هاني .

(3) هذه الفكرة مقتبسة من الخواطر الإيمانية لفضيلة الشيخ / محمد متولي الشعراوي .

● **في الزكاة :** لا تعدو الزكاة في نظر بعض الناس إلا مجرد اقتطاع جبري لجزء من المال ، بهدف إعطائه للفقراء والمساكين ، ولكنها في النظرة الإسلامية الصحيحة ليست كذلك ، وإنما هي عبادة من ناحية ، وواجب اجتماعي من ناحية أخرى .. ومن عظمة الإسلام أنه يجعل الواجبات الاجتماعية من الفرائض الدينية والشعائر التعبدية ، ليضمن التنفيذ الكامل لهذه الواجبات ، حيث يسارع المسلم إلى القيام بها ، رغبة في نيل رضا ربه ، وطمعًا في تحقيق ثوابه ، وهربا من عذابه وعقابه .. يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [2] .

وكما كان للصلاة آثارها الجليلة على الفرد والمجتمع ، فإن للزكاة كذلك آثارها العظيمة في حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة :

ففي حياة الفرد : تجد الزكاة طهارة للنفس والقلب من الشح وغريزة حب الذات .. فالمال عزيز ، والملك حبيب ، فحين تجود النفس به للآخرين ، إنما تطهر وترتفع وتشرق ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [3] .

ولعل الزكاة قد سُمِّيت بهذا الاسم ؛ لما فيه من معنى التطهير والتنقية القلبية من أدران الشح والبخل .

وكما أن الزكاة تطهير للقلب والنفس ، فهي كذلك تطهير للمال بأداء حق الله فيه ، وصيرورته بعد ذلك حلالا طيبًا خالصا .

وبالإضافة إلى تطهير النفس وتطهير المال ، فإن الزكاة وسيلة لتنمية المال وتكثيره ، إذ أن من معاني الزكاة : النماء والزيادة .. وقد تغيب هذه الحقيقة عن أذهان من لا يرون في الأمور إلا ظواهرها ، حيث الزكاة في نظرهم نقصان للمال وانتقاص منه ، ولكن صاحب البصيرة النافذة يدرك أن المال وإن كان قد نقص في الظاهر ؛ فإن الله عز وجل

---

(1) سورة الأنبياء : الآية (90) . (2) سورة السجدة : الآية 16 .

(3) سورة التوبة : الآيتان (103 ، 104) .

يُخلِف على المزكّي ، ويطرح عنصر البركة في المال الباقي حتى يصير أضعافا مضاعفة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [1] ويقول : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [2] ويقول عز من قائل : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [3] .

وفي حياة الجماعة : تعد الزكاة وسيلة من أنجح وسائل التكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم ، فالفرد الذي لا يجد كفايته من دخله ، أو لا دخل له مطلقا ، يجد من إخوانه المسلمين كل العون والمساعدة حتى يصل إلى درجة الكفاية التامة .

كما أن لها أثرا في إزالة الفوارق بين أفراد الأمة .. فالإسلام يكره أن تعيش جماعة في مستوى الترف ، وتعيش جماعة أخرى في مستوى الشظف ، أو تتجاوزه إلى الحرمان والجوع والعري . يقول ﷺ : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » [4] .

وللزكاة دورها في تحقيق الرواج الاقتصادي طبقا للقاعدة القرآنية ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [5] فوجود المال في أيدي أكبر عدد من الناس يؤدي إلى زيادة الإنفاق على شراء السلع ، وهذا من شأنه زيادة الإنتاج وتشغيل الأيدي العاملة ... ومن ثَمَّ تدور عجلة الحياة الاقتصادية دورتها الطبيعية [6] .

كما تسهم الزكاة أيضا في توفير الأمن والسلام للمجتمع ، فلا سرقة ولا اغتصاب ؛ لأن الغني قام بواجبه تجاه الفقير فوجد كفايته ، وزال من قلبه كل حقد أو بغضاء تجاه الأغنياء ، فعاش الجميع آمنين مطمئنين .

● **في الصيام** : ليس الصيام مجرد الامتناع عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في نهار رمضان ، بل إن للصيام آثاره العظيمة في الفرد والجماعة أيضا :

---

(1) سورة سبأ : الآية (39) . (2) سورة البقرة : الآية (245) .

(3) سورة الحديد : (11) .

(4) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 8 / 167 وعزاه للطبراني والبزار عن أنس وقال : إسناد البزار حسن .. وذكر نحوه عن ابن عباس وعزاه للطبراني وأبي يعلى وقال : ورجاله ثقات .

- وذكر حديث أنس السيوطي في الجامع الصغير 2 / 476 (7771) وعزاه للطبراني والبزار ورمز لحسنه .

(5) سورة الحشر : جزء من الآية 7 .

(6) ينظر العدالة الاجتماعية في الإسلام للشهيد سيد قطب .

فعلى المستوى الفردي : تجد الثمرة الأولى للصيام والهدف الأسمى منه هو تحقيق التقوى الكاملة ، بمعنى : المراقبة التامة لله رب العالمين .. يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [1] ، فالصيام يجعل صاحبه بعيدا كل البعد عما يغضب الله رب العالمين ، كما أنه العبادة الوحيدة التي لا يتوجه بها إلا إلى الله وحده ، حيث لم يحدث أن صام واحد من البشر تقربا لبشر مثله ، ولعل هذا هو السر في قوله عز وجل في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له ، إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به » [2] .

وإذا لم يحقق الصيام الغاية المرجوة منه - بإبعاد الصائم عن جميع ما حرم الله - يصبح عملا روتينيا لا فائدة فيه ، ولا ثواب لصاحبه ، يقول النبي ﷺ : « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » [3] ، ويقول أيضا : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » [4] .

وعلى مستوى الجماعة : فإن الصيام ينشر الفضائل ويمحق الرذائل ، ويقضي على أسباب الشحناء والبغضاء بين أفراد المجتمع ، من خلال استحضار معاني التقوى ومراقبة الله .. يقول النبي ﷺ : « الصيام جُنَّة ، فإذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، ولا يفسق ، وإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل : إني صائم ... » [5] .

ومن جهة أخرى ، فإن للصيام أثره في تربية الإرادة الإنسانية على الصبر ، وتربية المشاعر على الإحساس بآلام الغير فيكون ذلك دافعا لمواساته والعطف عليه .

ومن جهة ثالثة ، فإن للصيام أثره في تنمية الشعور العام بوحدة الجماعة المسلمة ؛ حيث يصوم المسلمون جميعا في شهر واحد - هو شهر رمضان - مما يضفي صفة

---

(1) سورة البقرة الآية : 183 .

(2) البخاري ك الصوم ب فضل الصوم 4 / 125 (1894) .
مسلم ك الصيام ب حفظ اللسان 2 / 806 (151 - 1161) .

(3) ابن ماجه ك الصيام ب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم 1 / 539 (1690) عن أبي هريرة وفي الزوائد : إسناده ضعيف .. وذكره السيوطي في الجامع الصغير 2 / 270 (4404) وعزاه لابن ماجه عن أبي هريرة ورمز له بالصحة . وبترجمة رجال الإسناد تبين أن فيهم أسامة بن زيد بن أسلم العدوي ، قال عنه ابن حجر : ضعيف من قبل حفظه (التقريب ص 98) قلت : له متابع عند ابن حبان وهو عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة - ينظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان : ك الصوم ب آداب الصوم 5 / 199 (3472) .

(4) البخاري ك : الصوم ب من لم يدع قول الزور والعمل به 4 / 139 (1903) .

(5) البخارى : ك الصوم ب فضل الصوم 4 / 125 (1894) . مسلم : ك الصيام ب أفضل الصيام 2 / 806 (162 - 1151) .

الجماعية والعالمية على هذا الدين العظيم .

● **الحج** : يمتاز الحج بأنه عبادة مالية وبدنية في آن واحد ، وبأنه رحلة جهادية عظيمة ، لها أثرها البالغ على الفرد والمجتمع :

ففي حياة الفرد : يسير الحج في ركاب العبادات السابقة من حيث إنه يبث في قلوب ونفوس الحجيج معاني الإخلاص لله ، ويستجيش في نفوسهم معاني العبودية المطلقة له سبحانه .. فالحاج يذهب إلى مكان حدده الله .. في زمان حدده الله .. على الهيئة التي أرادها الله ؛ ليؤدي المناسك والشعائر بالكيفية التي بينها الله .. والعبد في ذلك كله سامع مطيع ، صاغر لربه خاضع له .. وهذه العبودية هي التي تنتج تقوى الله ومراقبته .. ولذا تكرر ذكر كلمة التقوى وما في معناها خلال الحديث عن فريضة الحج في القرآن الكريم .. ﴿ ... وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [1] ..

ففي ثنايا الآيات يلمح المتأمل ألفاظا مثل ﴿ التَّقْوَى ﴾ ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ ... إلخ .. إنها تفيد أن الحاج في معيّة الله دائما .. يذكره ويستغفره .. يتقيه ويراقبه .. يدعوه ويرجوه .. وهذه المعية لها أثرها القوى في نفس المسلم ، لذا .. أكدها القرآن لكريم مرة أخرى عند الحديث عن الحج – في السورة التي سميت باسمه – فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [3] .

---

(1) سورة البقرة : الآيات 197 : 203 .

(2) سورة الحج : جزء من الآية 30 .

(3) سورة الحج : جزء من الآية 32 .

وفي حياة المجتمع : يساهم الحج في رفع المستوى الأخلاقي ، حيث إنه يربي في النفس كافة معاني الخير والفضيلة ، ويمحق فيها كافة معاني الشر والرذيلة .. يقول الله عز وجل : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ... ﴾ [1] فهذه الأشياء المنهي عنها في الحج إنما هي جماع كل شر ، فحينما يربي الإنسان نفسه على تجنبها والابتعاد عنها فقد فاز فوزا عظيما ، وعاد ذلك على المجتمع بالخير العميم ، ولذا يقول النبي ﷺ : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » [2] ، أي : كأنه بدأ حياة جديدة ، فليجعلها خالية من المعاصي والرذائل .. ويقول ﷺ : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » [3] .

والحج المبرور هو الذي لم يخالطه إثم ولا بغي ، وهو الذي يجعل صاحبه طاهرا مطهرا ، سيرته بعد الحج خير منها قبله ، وهو بهذا من أفضل الأعمال كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ في حديثه الشريف حينما سئل : أي العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله » قيل ثم ماذا ؟ قال : « جهاد في سبيل الله » ، قيل ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور » [4] .

ومن آثار الحج الاجتماعية أيضا : تحقيقه لمعنى المساواة التامة بين كافة أفراد المجتمع حيث الكل في صعيد واحد ، في زمن واحد ، في زي واحد ، يتجهون بدعائهم وتضرعهم إلى الإله الواحد .. لا فوارق هنا ولا تمايز ، بل الكل أمام الله سواء ، غنيهم وفقيرهم .. حاكمهم ورعيته .. صغيرهم وكبيرهم .. والمتأمل في هذا المشهد العظيم يدرك طرفا من حكمة المولى جل وعلا ، حينما أمر الجميع أن يتخلوا عن أزيائهم ورياشهم وزينتهم – التي هي من مظاهر التمييز والاختلاف – ليكتفي الجميع بزي واحد في غاية البساطة ، تعبيرا عن أصلهم المشترك ، بعيدا عن أسباب التمييز ومظاهر الاختلاف .

كما أن في الحج أيضا تعبيرا عن وحدة المسلمين وكونهم أمة واحدة .. رغم اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وأوطانهم ؛ فقد جمعهم الإيمان على كلمة سواء ،

---

(1) سورة البقرة : 197 .

(2) االبخاري ك المحصر ب قول الله عز وجل ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ 4 / 25 (1819 ، 1820) . مسلم : ك الحج ب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة 2 / 982 (436 - 1348) .

(3) البخاري : ك الحج ب وجوب العمرة وفضلها 2 / 240 . (1773) . مسلم : ك الحج ب فضل الحج والعمرة .. 2 / 983 (437 - 1346) .

(4) البخاري : ك الحج ب فضل الحج المبرور 3 / 446 (1519) . مسلم : ك الإيمان ب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال 1 / 88 (135) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [1] وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [2] ..

يجيء الحجيج من كافة بقاع الأرض متحدين في الهدف .. متحدين في الزمان والمكان .. متحدين في الزي والهيئة قال تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [3] .

وللحج كذلك دوره في تحقيق التكافل الاجتماعي وإطعام الجائعين والعطف على البؤساء المحرومين من خلال ذبائح الهدي - سواء كان دما واجبا أو كان تطوعا وصدقة - قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [4] .. وقال سبحانه ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [5] .

وبهذا الحديث عن الحج وآثاره على الفرد والمجتمع يكون الحديث عن النزعة الإنسانية في العبادات الإسلامية قد أوفى غايته ..

(جـ) في الأخلاق :

النزعة الإنسانية في الأخلاق الإسلامية واضحة كل الوضوح في كونها أخلاقا اجتماعية تتعلق بالعلاقات الإنسانية : فالوفاء بالعهد ، والصدق ، والأمانة ، والحياء ، وإغاثه الملهوف ، والعدل ... وغيرها من أخلاق المسلم ، إنما تهدف في المقام الأول إلى تكوين الإنسان الصالح الذي يكون نواة لمجتمع صالح .

ولذا ربط النبي ﷺ حسن الخلق بالإيمان ؛ فعندما سئل ﷺ : أي المؤمنين أكمل إيمانا ؟ قال : « أحسنهم خلقا » [6] وقال : « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في

---

(1) سورة الأنبياء : الآية 92 .
(2) سورة المؤمنون : الآية 52 .
(3) سورة الحج : الآيتان 27 ، 28 .
(4) سورة الحج : جزء من الآية 28 .
(5) سورة الحج : جزء من الآية 37 .
(6) أبو داود ك السنة ب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه 4 / 219 (4682) . الترمذي ك الرضاع ب ما جاء في حق المرأة على زوجها 3 / 466 (1162) وقال : حسن صحيح ، وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه بلفظ « إن خياركم أحسنكم أخلاقا » أخرجه البخاري : ك الأدب ب حسن الخلق والسخاء 10 / 470 (6035) .

شيء ، وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا »[1] ..

وجعل المصطفى ﷺ سوء الخلق دليلا على ضعف الإيمان وربما فقدانه تماما .. يقول عن الحياء مثلا : « الحياء والإيمان قرنا جميعا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر »[2] وقال « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن .. قيل : من يا رسول الله قال : من لا يأمن جاره بوائقه »[3] .

كما يرفع النبي ﷺ شأن الأخلاق الحميدة ليصل بها إلى درجة العبادة كالصلاة والصيام . فيقول : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يكره الفاحش البذي ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة »[4] .

ويقول أيضا : « تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة »[5] ثم يجعل النبي ﷺ هذه الأخلاق الإنسانية واجبا دينيا اجتماعيا يوميا كصدقة يتصدق بها الإنسان عن كل « سلامي » أي مفصل من مفاصل الجسم الإنساني ، فيقول « كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو تحمل عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط

---

(1) أحمد 5 / 89 . البخارى في التاريخ الكبير 6 / 291 .. أبو يعلى 13 / 458 ، 468 . ابن أبي شيبة في المصنف ك الأدب ب ما ذكر في حسن الخلق 8 / 514 . الطبراني في الكبير 2 / 256 (2072) جميعا من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 8 / 25 ب ما جاء في حسن الخلق وقال رواه الطبراني وأحمد وابنه . وأبو يعلى بنحوه ، ورجاله ثقات . وصححه السيوطي في الجامع الصغير 1 / 128 (2082) .

(2) الحاكم : 1 / 22 وصححه ووافقه الدهبي . أبو نعيم في حلية الأولياء 4 / 297 كلاهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وصححه السيوطي في الجامع الصغير 1 / 234 (3861) .

(3) البخاري ك الأدب ب إثم من لا يأمن جاره بوائقه 10 / 457 (6016) عن أبي شرع وأبي هريرة . مسلم : ك الإيمان ب بيان تحريم إيذاء الجار 1 / 68 (71 ، 72) عن أنس بن مالك و (73) عن أبي هريرة .

(4) أبو داود : ك الأدب ب حسن الخلق 4 / 253 / 254 (4799) . الترمذي : ك البر والصلة ب ما جاء في حسن الخلق 4 / 319 (2002 / 2003) وقال حديث غريب . أحمد 6 / 442 ، 446 ، 448 ، 451 .. جميعًا عن أبي الدرداء رضي الله عنه . وصححه السيوطي في الجامع الصغير 2 / 292 (8046) .

(5) الترمذي ك البر والصلة ب ما جاء في صنائع المعروف 4 / 229 (1956) وقال : هذا حديث حسن غريب - البخاري في الأدب المفرد رقم 891 . - ابن حبان كما جاء في الإحسان 1 / 348 ، 372 (474 ، 530) . وذكره السيوطي في الجامع الصغير 1 / 194 (3231) من حديث أبي ذر رضي الله عنه وضعفه . قلت : قد حكم الترمذي له بالحسن ، والحديث التالي يقوي معناه .

الأذى عن الطريق صدقة » [1] .

ولاهتمام النبي ﷺ بالنزعة الإنسانية في أخلاق المسلم ، تجد بعض الأحاديث تعطى قيمة لبعض الأعمال الإنسانية تجعل ثوابها أعظم من ثواب بعض العبادات ، وإذا أمعنت النظر في هذه الأعمال وجدتها تتسم بالطابع الإنساني بما فيها من نفع للعباد أو إبعاد للشر عنهم .. يقول النبي ﷺ : « من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين . ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين » [2] ويقول : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هو الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » [3] .

* * *

ثانيا : مظاهر تكريم الله للإنسان

لا يمكن أن تفهم نظرية التكريم الإلهي للإنسان حق الفهم ، إلا بذكر لمحة سريعة عن النظرة التي ينظر بها الماديون لهذا الإنسان .

إنه في نظرهم قبضة من تراب هذه الأرض .. من الأرض نشأ ، وعلى الأرض يمشي ، ومن الأرض يأكل ، وإلى الأرض يعود ..

إنه كتلة من اللحم والدم ، والعظام والأعصاب ، والأجهزة ، والغدد ، والخلايا .. وما العقل والتفكير إلا مادة يفرزها المخ كما تفرز الكبد الصفراء .. إنه أحد الأحياء الكثيرة على الأرض .

والأرض التي يحيا على ظهرها هذا الإنسان إن هي إلا ذرة تافهة في الفضاء الشاسع لا قيمة لها وسط المليارات الهائلة من الكواكب والنجوم والمجرات .

إن أحد العلماء رد جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية فيه فوجدها كما يلي :

---

(1) البخاري : ك الصلح ب فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم 5 / 364 (2707) - مسلم : ك الزكاة ب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف 2 / 699 (56 - 1009) .

(2) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين 6 / 292 ، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال 8 / 532 (24019) وعزاه للطبراني والحاكم والبيهقي وضعفه ، والخطيب وقال غريب .

(3) أبو داود ك الأدب ب في إصلاح ذات البين 4 / 283 (4919) . الترمذي ك صفة القيامة (ب رقم 4456 / 572 / 573 (2509) وقال : هذا حديث حسن صحيح . أحمد 6 / 445 جميعا من حديث أبي الدرداء .

* قدر من الدهون يكفي لصنع « 7 » قطع من الصابون .

* قدر من الفوسفور يكفي لصنع رؤوس « 120 » عود ثقاب .

* قدر من الكربون يكفي لصنع « 7 » أقلام رصاص .

* قدر من ملح الماغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات .

* قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .

* قدر الجير يكفي لتبييض بيت للدجاج .

* قدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التي تسكن شعره .

* قدر من الماء يملأ برميلا سعته عشرة جالونات .

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ يساوي خمسين أو ستين قرشا مصريا ، وتلك هي قيمة الإنسان في نظر الماديين [1] .

أما الإنسان في نظر الإسلام ، فهو مخلوق مكرم ، وهذه هي بعض مظاهر تكريمه :

(1) خُلق بيد الله في أحسن تقويم :

هذه أولى وأعظم دلائل تكريم الله للإنسان ، فلقد تولى الله رب العالمين خلقه وتكوينه بيديه ، يقول الله عز وجل مخاطبا إبليس اللعين : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [2] .

ولهذا جاء خلقه في أحسن صورة ، فالله يقول عن نفسه : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [3] وقال ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ ... ﴾ [4] ، وقال وهو يتحدث عن تكريم الإنسان بالصورة الحسنة والخلقة الجميلة : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ [5] ، وقال سبحانه : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [6] وقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [7] .

---

(1) يراجع : الإيمان والحياة د / يوسف القرضاوي ص 51 ، 52 . (2) سورة ص : الآية (75) .
(3) سورة السجدة : جزء من الآية (7) . (4) سورة النمل : جزء من الآية (88) .
(5) سورة التين : الآية (4) . (6) سورة التغابن : الآية (3) .
(7) سورة غافر : الآية (64) .

(2) **تزويده بنفحة روحية إلهية :**

هذا تكريم فوق تكريم ، فالإنسان فيه نفحة من روح الله وقبس من نوره جعله جديرا بأن يأمر الله عز وجل ملائكته بالسجود إجلالا وتكريما لهذا المخلوق الجديد ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [1] ، وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [2] .

وتمييز الإنسان بهذا العنصر الروحي هو مفرق الطريق بين الإسلام والفكر المادي ، فهذا الفكر لا يرى في الإنسان إلا الجانب المادي الطيني الذي يتساوي فيه الإنسان والحيوان ؛ من أجل ذلك ينظرون إلى الإنسان على أساس أنه حيوان ، قد يسمونه بـ « الحيوان المتطور » أو « الحيوان الراقي » أو « الحيوان الناطق » أو « الحيوان الاجتماعي » ، أو غير ذلك . المهم في نظرهم أنه مجرد حيوان .. والحيوانية أساس وجوده ، ومن زاويتها يُنظر إليه ، ويُتعامل معه ، ويُفسر سلوكه ، وتُحدد علاقاته [3] .

(3) **استخلافه في الأرض :**

من الآثار العظيمة لتمييز الإنسان بالعنصر الروحي أن الله قد أوكل إليه مهمة الخلافة عن الله في أرضه يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [4] .

« إنها المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، وتسخير هذا كله بإذن الله ، في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه » [5] .

ولقد تشوفت أنفس الملائكة إلى هذه المهمة ، واشْرَأَبَّتْ إليها أعناقهم ، وظنوا أنهم

---

(1) سورة الحجر : الآيتان (28 ، 29) .

(2) سورة ص : الآيتان (71 ، 72) .

(3) يراجع الإيمان والحياة : ص 62 .

(4) سورة البقرة : الآية 30 .

(5) في ظلال القرآن : 1 / 56 .

بفطرتهم الملائكية البريئة – التي لا تتصور إلا الخير المطلق – أحق بهذه المهمة من هذا الإنسان الذي سيفسد في الأرض وسيسفك الدماء ، وكانوا يرون أن التسبيح بحمد الله والتقديس له هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو وحده العلة الأولى للخلق ، وهو متحقق بوجودهم يسبحون بحمد الله ويقدسون له ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته .

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا ، في بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفي تنمية الحياة وتنويعها ، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها ، على يد خليفة الله في أرضه .. هذا الذي قد يفسد أحيانا ، وقد يسفك الدماء أحيانا ، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل ، خير النمو الدائم والرقي الدائم ، خير الحركة الهادمة البانية ، خير المحاولة التي لا تكف ، والتطلع الذي لا يقف ، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير [1] .

(4) تمييزه بالعقل والإرادة والاختيار :

من أعظم نعم الله على الإنسان ، ومن أعظم دلائل تكريمه ؛ أَنْ منحه الله نعمة العقل والفكر ، والقدرة على الاختيار بين البدائل المتعددة ... وكان من تمام حكمة الحكيم سبحانه وتعالى أن خلق الإنسان مختارا ، أي صالحا لأن يطيع أو يعصي ، لأن يسلك طريق الخير أو الشر .. يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [2] ، ويقول عز شأنه : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [3] .

وهذا الاختيار هو الأمانة التي ارتضى الإنسان لنفسه حملها بعد أن رفضت السماوات والأرض والجبال حملها .. قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا .. ﴾ [4] .

إن السماوات والأرض والجبال – التي اختارها القرآن ليحدث عنها – هذه الخلائق الضخمة الهائلة التي يعيش الإنسان فيها أو حيالها فيبدو شيئا صغيرا ضئيلا .. هذه الخلائق تعرف بارئها بلا محاولة ، وتهتدي إلى ناموسه الذي يحكمها بخلقتها وتكوينها ونظامها ، وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة بلا تدبر ولا واسطة ، وتجري وفق هذا

---

(1) المرجع نفسه ص 56 ، 57 .
(2) سورة الإنسان : الآيتان (2 ، 3) .
(3) سورة الكهف : جزء من الآية (29) .
(4) سورة الأحزاب : الآية (72) .

الناموس دائبة لا تني ولا تتخلف دروتها جزءا من ثانية ، وتؤدي وظيفتها بحكم خلقتها وطبيعتها غير شاعرة ولا مختارة .. لقد أشفقت من أمانة التبعة .. أمانة الإرادة .. أمانة المعرفة الذاتية أمانة المحاولة الخاصة « وحملها الإنسان » .

الإنسان الذي يعرف الله بإدراكه وشعوره ، ويهتدي إلى ناموسه بتدبره وبصره ، ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده ، ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه ومقاومة انحرافاته ونزعاته ، ومجاهدة ميوله وشهواته ، وهو في كل خطوة من هذه الخطوات مريد مدرك .. يختار طريقه وهو عارف أين يؤدي به هذا الطريق .

إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم ، القليل القوة ، الضعيف الحول ، المحدود العمر ، الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع .

وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة ، ومن ثم كان ظلوما لنفسه جهولا لطاقته ، هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله ، فأما حين ينهض بالتبعة :

حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه ، والاهتداء المباشر لناموسه ، والطاعة الكاملة لإرادة ربه .. المعرفة والاهتداء والطاعة التي تصل – في طبيعتها وفي آثارها – إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال في السماوات والأرض والجبال .. الخلائق التي تعرف مباشرة ، وتهتدي مباشرة ، وتطيع مباشرة ، ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل ، ولا تقعد بها المثبطات عن الانقياد والطاعة والأداء ...

حين يصل إلى هذه الدرجة – وهو واع مدرك مريد – فإنه يصل حقا إلى مقام كريم ومكان بين خلق الله فريد .

إنها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة .. هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله ، وهي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملأ الأعلى – وهو يأمر الملائكة بالسجود لآدم – وأعلنه في قرآنه الباقي وهو يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ .. فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله ، ولينهض بالأمانة التي اختارها ، والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها [1] .

(1) في ظلال القرآن 5 / 2884 ، 2885 بتصرف واختصار .

(5) تزويده بالعلم والمعرفة :

حينما أراد المولى جل وعلا أن يظهر للملائكة أفضلية الإنسان ومزيته ، جعل آية ذلك : قدرة الإنسان على تحصيل العلم والمعرفة ، إما بتعليم الله إياه ، أو بما هيأ الله له من عقل وملكة فكرية ، بها يستطيع التلقي والتحصيل والمقارنة والاستنتاج والاستنباط .. وإلى طرف من ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [1] .

(6) الاحتفاء به في الملأ الأعلى :

سبق القول بأن الله عز وجل قد ميَّز الإنسان بالعنصر الروحاني – المستمد من النفخة الروحية الإلهية – وأن هذه النفخة هي سبب الأمر الإلهي لملائكته الكرام بالسجود لهذا المخلوق الجديد ، سجود تكريم وإجلال ، لا سجود عبادة وتقدير .

والقول بأن هذا الاحتفاء بالنوع الإنساني نابع من إمداده بقبس من الروح الإلهي هو ما نص عليه القرآن الكريم ، ففي قول الله عز وجل : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [2] يتضح أن الأمر بالسجود قد أتى بعد الإخبار بأن هذا المخلوق المحتفى به قد حاز شرفا عظيما ، بأن نفخ الله فيه من روحه كما نلحظ هذا المعنى في تعليل إبليس – لعنه الله – لعدم سجوده لآدم عليه السلام ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [3] وفي سورة أخرى ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [4] فإبليس – عليه اللعنة – لم يلحظ في آدم عليه السلام إلا الجانب المادي الطيني ، ولم ينتبه إلا للصلصال المأخوذ من الحمأ المسنون ، ولم يُعر الجانب الروحي المستمد من النفخة الإلهية اهتماما .. تماما كهؤلاء الماديين الذين لم يلتفتوا إلى الجانب الروحي في الإنسان ، فهم – بهذا الصنيع – على درب إبليس سائرون وبآثاره مقتدون .

---

(1) سورة البقرة : الآيات (31 – 33) .

(2) سورة ص : الآيتان (71 ، 72) .

(3) سورة ص : الآيتان (75 ، 76) .

(4) سورة الحجر : الآيتان (32 ، 33) .

(7) **تسخير الكون له :**

إن هذا المخلوق الصغير .. الإنسان .. يحظى من رعاية الله سبحانه بالقسط الوافر الذي يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة وينتفع بها على شتى الوجوه [1] قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [3] وقال جل وعلا : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [4] .. وغيرها من الآيات .

إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان - بخلافته في الأرض - عاملا مهما في نظام الكون ملحوظا في هذا النظام . فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتى ، مع السماوات ، ومع الرياح ، ومع الأمطار ، ومع الشموس والكواكب .. وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض ، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة ... فأين هذه المكانة العظيمة للإنسان في القرآن الكريم من ذلك الدور الذليل الصغير الذي تخصصه له المذاهب المادية ولا تسمح له أن يتعداه [5] .

(8) **إمداده بالمنهج الرباني :**

من مظاهر تكريم الله للإنسان - والتي هي في الوقت ذاته من آثار رحمة الله بخلقه - أنه لم يتركهم سدى ، يتخبطون في دياجير العماية والضلال ، بل هداهم إلى صراطه المستقيم وطريقه القويم ، فأرسل إليهم الرسل - عليهم جميعا الصلاة والسلام - وأنزل عليهم الكتب ..

ووجه الارتباط بين إرسال الرسل وقضية التكريم الإلهي للإنسان ، أنه يدل على عناية الله بهذا المخلوق وحفاوته به .. ولهذا خاطب الله آدم وحواء عليهما السلام بعد عصيانهما أمر الله ، ثم إنابتهما ورجوعهما إلى الله : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن

(1) في ظلال القرآن : 5 / 3226 .
(2) سورة البقرة الآية (29) .
(3) سورة لقمان : جزء من الآية (20) .
(4) سورة الجاثية : الآيتان (12 ، 13) .
(5) الظلال 1 / 60 ويراجع - علل وأدوية - الشيخ / محمد الغزالي ص 7 : 14 .

ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [1] وفي موضع آخر ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [2] .

فهذا هو القانون الإلهي الخالد للبشر كلهم ، بينه الله لهم من اللحظة الأولى لوجودهم على ظهر هذه الأرض ، رحمة منه وفضلا ، وإظهارا لكرامتهم على الله .

(9) اصطفاء الرسل من البشر :

قد يكون إيراد هذا العنصر في إطار الحديث عن مظاهر تكريم الله للإنسان أمرا غريبا ، إذ كيف يكون اصطفاء الرسل من البشر دليلا على تكريم الإنسان ؟ !

والحق أن الارتباط بين الأمرين وثيق ، فالإنسان مُسْتَخْلف من قبل الله في أرضه ، وهي « وظيفة خطيرة ضخمة ، لابد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيئون لحمل الرسالة باختيار الله لهم ، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه » [3] .

ولهذا كان اعتراض الجاهلين الماديين على بشرية الرسل ناشئا عن قصور نظرتهم لهذا الإنسان ، وجهلهم بالمكانة العظيمة والمنزلة السامية التي رفعه الله إليها ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [4] .

(10) إلغاء الوساطة الكهنوتية بين الله والإنسان :

في آيات كثيرة من سور شتى ، بين القرآن قرب الإنسان من الله وقرب الله من الإنسان ، ذلك القرب القريب الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان ، الذين جعلوا من أنفسهم « حجابا » على « أبواب » رحمة الله الواسعة ، والله يعلم إنهم لكاذبون قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ [5] .

---

(1) سورة طه : الآيتان (123 ، 124) .

(2) سورة البقرة : الآيتان (38 ، 39) .

(3) في ظلال القرآن 4 / 1871 .

(4) سورة إبراهيم : الآيتان (10 ، 11) .

(5) سورة البقرة : الآية (186) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] .

– وقال جل شأنه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [2] .

– وقال تباركت أسماؤه : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

ويقول في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني : فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » [4] وقال النبي ﷺ لجماعة من الناس يرفعون أصواتهم بالدعاء « أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا وإنما تدعون سميعا بصيرا » [5] .

ففي منظور الإسلام ، لا حاجة بالإنسان إلى وساطة كاهن يصل عن طريقه إلى الله ، ولا يقبل الله منه عبادة بغير توسطه ، ولا يستطيع التوبة من ذنب ارتكبه إلا بالجلوس أمامه في ذل وخنوع على كرسي الاعتراف المشهور .. فليس في الإسلام كاهن ولا كهنوت .. وبهذا يستطيع المسلم أن يقرع باب ربه متى شاء وأين شاء بعيدا عن سيطرة طبقة الدجاجلة المدعين للسّمسرة بين الله وعباده .

وليس هذا لخاصة الأتقياء والصالحين دون العصاة والمذنبين .. كلا فإن باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ورجاه ووقف على عتبته ضارعا مستغفرًا ، يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [6] ،

---

(1) سورة البقرة : جزء من الآية (115) .　　(2) سورة ق : الآية (16) .

(3) سورة المجادلة : جزء من الآية (7) .

(4) أخرجه البخاري ك التوحيد ب قول الله تعالى ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ 13 / 508 تعليقا عن أبي هريرة ووصله في كتابه خلق أفعال العباد . كما ذكر الحافظ بن حجر في فتح الباري 13 / 509 .

(5) البخاري ك التوحيد ب ﴿ وكان الله سميعا بصيرا ﴾ 13/ 384 (7386) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(6) سورة آل عمران : الآيتان (135 ، 136) .

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] .

ويقول المصطفى ﷺ : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » [2] .

إلى غير ذلك من الآيات العديدة والأحاديث الكثيرة ، التي تبين جميعها أن باب الله عز وجل مفتوح أمام الناس جميعا ، حتى هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم بالعصيان دون حاجة إلى واسطة بين الله وعباده [3] .

(11) تشريع التوبة وقبولها من المذنبين :

إن تشريع التوبة وقبولها من المذنبين لهو تكريم عظيم للإنسان ، وفي الوقت ذاته مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده .. وآية ذلك أن هذا المذنب – لو لم يفتح أمامه باب التوبة – سينقلب إلى وحش كاسر ، يهلك الحرث والنسل ، ويروع العباد والبلاد ..

ولقد كانت التجربة الأولى للخطيئة والتوبة مع أبي البشرية آدم عليه السلام ، حينما أكل من الشجرة المحرمة ، ثم تاب إلى الله وأناب ، فقبل الله توبته ، يقول سبحانه ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [4] وفي موضع آخر يقول ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [5] .

« ومن عظمة التصور الإسلامي أنه يعترف للفرد بدوافع الخطأ والخطيئة ، ويذهب في هذا إلى حد بعيد ، حتى ليحسبه المرء عند النظرة السريعة يزين للناس الخطيئة ، يقول المصطفى ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » [6] ، ويقول أيضا « والذي نفسي بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » [7] .

---

(1) سورة الزمر : الآية (53) .

(2) مسلم ك التوبة ب قبول التوبة من الذنوب 4 / 2113 (11 - 2759) .

(3) يراجع : الإيمان والحياة ص 54 ، 55 .

(4) سورة البقرة الآية (37) .

(5) سورة طه : الآيتان (121 ، 122) .

(6) الترمذي : ك صفة القيامة ب (49) 4 / 568 (2499) ، وقال : هذا حديث غريب – ابن ماجة : ك الزهد ب ذكر التوبة 2 / 1420 (4251) – أحمد 3 / 198 – وقال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام : سنده قوي (ينظر : سبل السلام 4 / 346) – وحسنه الألباني في صحيح الجامع 4 / 171 ، جميعا من حديث أنس رضي الله عنه .

(7) مسلم : ك التوبة ب سقوط الذنوب بالاستغفار 4 / 2106 (11 - 2749) .

وهو لا يزين الخطيئة هنا ، ولكن ييسر التوبة ، ويملأ نفوس الخاطئين بالرجاء ، وينير لأرواحهم الطريق ، ويُمَنِّي هذه الأرواح المتعبة الخائفة بالراحة والأمان ، فلا تظل أبدا قلقة حائرة لا يقر لها قرار [1] .

هذه بعض مظاهر التكريم الإلهي للإنسان ، ناطقة كلها بمنزلته العالية ومكانته السامية ، فهو خليفة الله في أرضه ، وهو سيد هذا الكون المحيط به .. هذه النظرة الإسلامية للإنسان تعطي لهذا الدين صفة الإنسانية التي تمثل بدورها دليلا على عالمية هذا الدين العظيم .

* * *

ثالثا : حقوق الإنسان في المنظور الإسلامي

هذه هي النقطة الثالثة التي لابد من التطرق إليها لاستكمال الحديث عن « الإنسانية » كواحدة من خصائص هذا الدين العظيم الدالة على عالميته .. ومن البدهي أن الحديث عن حقوق الإنسان فى الإسلام يحتاج إلى بحث مستقل - لذا سأكتفي في هذا المقام بذكر الخطوط العريضة لهذه الحقوق ، مستشهدا لها بالقرآن الكريم والسنة المطهرة .

(1) حق الحياة :

حياة الإنسان - في نظر الإسلام - هبة من الله ، ولهذا فهي مقدسة مصونة ومحترمة لا يجوز لأحد من خلق الله أن يعتدي عليها :

(1) فقد تحدثت آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي العظيم ﷺ عن حرمة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأن القتل من أكبر الكبائر .. يقول تعالى في صفة عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [2] ، ويقول عز وجل : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ ﴾ إلى أن قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [3] .. بل بلغ من تقدير الإسلام لحق الحياة أن جعل قتل النفس الواحدة بغير حق بمثابة الاعتداء على الإنسانية كلها ، وأن جعل السبب في استبقاء حياة الإنسان بمثابة إحياء للجنس البشري كله . يقول المولى تبارك اسمه :

---

(1) يراجع : السلام العالمي والإسلام - سيد قطب - ص 48 - 50 .

(2) سورة الفرقان : الآيات (68 : 70) .　　(3) سورة الأنعام : الآية (151) .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [1] .

ثم تأتي أحاديث المصطفى ﷺ لتزيد الأمر تأكيدا ووضوحا ، ففي خطبة عرفة في حجة الوداع ، يضع الحبيب المصطفى ﷺ الأساس المتين لحرمة حياة الإنسان في أسلوب قوي مؤثر ، حيث يسأل الناس - فيما يرويه أبو بكرة رضي الله عنه - « أي يوم هذا » ؟ ! فقلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظَنَنَّا أن سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس هذا يوم النحر » ؟ ! قلنا : بلى . ثم قال : « أي شهر هذا » ؟ ! قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت ، حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس هذا ذا الحجة » قلنا : بلى . ثم قال : « أي بلد هذا » ؟ ! قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليست البلدة مكة » ؟ ! .. قلنا : بلى ، قال : « فإن دماءكم وأموالكم - أحسبه قال وأعراضكم - عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ... » [2] .

ويقول المصطفى ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات ... إلى أن قال : « وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .. » [3] وغير ذلك من الآيات والأحاديث .

(2) ومن عظمة الإسلام هنا ، أن حرمة الحياة ثابتة للمسلم وغيره .. فكما أنه ﷺ قال : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم » [4] ، وقال وهو يخاطب الكعبة « ما أعظمك وأعظم حرمتك وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » [5] فإنه ﷺ

(1) سورة المائدة : جزء من الآية (32) .

(2) أخرجه البخاري ك العلم ب قول النبي ﷺ - رب مبلغ أوعى من سامع 1 / 190 (67) . مسلم ك الحج ب حجة النبي ﷺ 2 / 886 (147 - 1218) .

(3) البخاري : ك الوصايا ب قول الله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ﴾ 5 / 462 (2766) . مسلم : ك الإيمان ب بيان الكبائر وأكبرها 1 / 92 (145) .

(4) الترمذي : ك الديات - ب ما جاء في تشديد قتل المؤمن 4 / 10 (1395) ورجح وقفه قائلا : الموقوف أصح من المرفوع . النسائي : ك تحريم الدم - ب تعظيم الدم 7 / 82 مرفوعا وموقوفا . البيهقي في السنن الكبرى 8 / 23 . أبو نعيم في الحلية 7 / 270 . ابن عدي في الكامل 3 / 1004 جميعا عن عبد الله بن عمرو بن العاص وينظر كشف الخفا للعجلوني 2 / 137 . وله شاهد من حديث البراء بن عازب أخرجه ابن ماجة في كتاب الديات ب التغليظ في قتل مسلم ظلما 2 / 874 (2619) وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله موثقون .

(5) ابن ماجه : ك الفتن ب حرمة دم المؤمن وماله 2 / 1297 (3932) . وفي الزوائد : في إسناده مقال ، ونصر بن محمد شيخ ابن ماجة : ضعفه أبو حاتم ، وذكره ابن حبان في الثقات . وينظر : كشف الخفا 2 / 404 والمغني للعراقي على هامش الإحياء 4 / 146 ، والدر المنثور للسيوطي 6 / 42 ، وإتحاف السادة المتقين للزبيدي 9 / 179 .

قال أيضا : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة »[1] وقال : « من قتل قتيلا من أهل الذمة حرم الله عليه الجنة »[2] .

(3) وقد أنكر القرآن الكريم على أهل الجاهلية اعتداءهم على الحياة ، في صورة « وأد البنات » خشية العار والفضيحة ، أو في صورة قتل الأولاد بسبب الفقر الحاصل أو الفقر المتوقع ، ففي النهي عن وأد البنات ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3] ويقول : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[4] .

وفي النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر الحاصل ، يقول جلا وعلا : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[5] ، وعن قتلهم خشية حدوث الفقر يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[6] .

(4) ولتقديس حق الحياة شرع الإسلام عقوبات رادعة لمن اعتدى عليها .. فقد شرع القصاص جزاء وفاقا في حال القتل العمد ، مع إتاحة الفرصة أمام صاحب الحق للتنازل عنه إلى الدية يقول المولى تباركت أسماؤه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[7] .

كما شرع سبحانه الدية والكفارة في قتل الخطأ يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ﴾[8] .

(5) ومن عجائب المنهج الإلهي في تقديس حق الحياة ، أنه قد أمر بالحفاظ على حياة الإنسان وهو لم يزل جنينا في بطن أمه ، حتى وإن كان هذا الجنين ناتجا عن

(1) البخاري : ك الجزية والموادعة – ب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم 6 / 311 (3166) .
(2) النسائي : ك الديات – ب تعظيم قتل المعاهد 8 / 24 - 25 ، أحمد 2 / 186 كلاهما عن عبد الله بن عمرو . الحاكم في المستدرك 2 / 126 من حديث أبي بكرة ، وصححه ، ووافقه الذهبي .
(3) سورة النحل الآيتان : (58 ، 59) .
(4) سورة التكوير : الآيتان (8 ، 9) .
(5) سورة الأنعام : جزء من الآية (151) .
(6) سورة الإسراء : جزء من الآية (31) .
(7) سورة البقرة : الآيتان (178 ، 179) .
(8) سورة النساء : جزء من الآية (93) .

الفاحشة وفعل الحرام ، فلا يجوز الاعتداء عليه بإجهاضه ، إذ لا ذنب له فيما اقترفته أمه ، ولأنه نفس لا يجوز الاعتداء عليها ، وفي قصة الغامدية خير دليل على ذلك .

فقد جاءت هذه المرأة تطالب الرسول ﷺ بإقامة حد الزنا عليها وهي حبلى ، وتقول يا رسول الله ، طهرني .. فقال لها : « اذهبي حتى تلدي » فلما ولدت جاءت إلى النبي ﷺ فقال لها : « اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه » .. فلما فطمته أتت بالصبي في يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام . فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فأقيم عليها حد الرجم .. [1] .

(6) ومن آثار تقديس حق الحياة أن الإسلام يأمر بمراعاة الكرامة الإنسانية للميت مسلما أو غير مسلم .. فقد أخرج البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « مرت بنا جنازة فقام لها النبي ﷺ وقمنا ، فقلنا : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودي ؟ ! قال : « إذا رأيتم الجنازة فقوموا » وفي رواية أخرى : « أليست نفسا .. » [2] .

وذكر ابن حزم عن الشعبي أن أم الحارث بن أبي ربيعة ماتت وهي نصرانية فشيعها أصحاب النبي ﷺ ... وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رجل فينا مات نصرانيا وترك ابنه . قال : ينبغي أن يمشي معه ويدفنه [3] .

وإن ننسى فلا ننسى موقف النبي ﷺ مع جثث مشركي قريش بعد غزوة بدر الكبرى ، حيث أمر النبي ﷺ بدفنهم في القليب (وهو بئر جافة) .. يروى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قولها : أمر النبي ﷺ بالقليب فطُرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خلف ؛ فإنه انتفخ في درعه فملأها ، فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه فأقرّوه ، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة [4] .

إن هذا الموقف العظيم بما فيه من تكريم لإنسانية الإنسان لا يحتاج إلى تعليق أو بيان ، فهو ناطق وحده بكل معاني العظمة والسمو في هذا الدين العظيم .

---

(1) مسلم : ك الحدود – ب – من اعترف على نفسه بالزنا 3 / 1323 (23 - 1695) .

(2) البخاري : ك الجنائز – ب من قام لجنازة يهودي 3 / 214 (1312) . مسلم : ك الجنائز – ب – القيام للجنازة 2 / 660 (78 - 960) .

(3) يراجع حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة الشيخ / محمد الغزالي / ص 34 .

(4) البخاري : ك المغازي ب قتل أبي جهل 7 / 351 (3979) بمعناه .

مسلم : ك الجنائز – ب الميت يعذب ببكاء أهله عليه 2 / 643 (26 - 932) بمعناه أيضا .

(7) وكيف لا يقدس الإسلام حياة الإنسان وقد اهتم بحياة الحيوان الأعجم ؟ ! .. أجل .. فقد بين النبي ﷺ أن إشقاء الحيوان وإزهاق روحه ظلما إنما هو طريق إلى غضب الله وعقابه الأليم ، ويقول في ذلك « دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » (1) .

وعلى العكس من ذلك ، يبين النبي ﷺ أن الإحسان إلى الحيوان والحفاظ على حياته باب إلى رضوان الله ومغفرته ، فيقول « بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجدا بئرا فنزل فشرب منها ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي كان قد بلغ مني ، فنزل فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له .. قالوا يا رسول الله إن لنا في البهائم لأجرا ؟ قال : في كل ذات كبد رطبة أجر .. » (2) .

إذا كانت هذه نظرة الإسلام للحياة عند الحيوان ، فلا عجب إذا رأينا في العناصر السابقة مدى تقديس الإسلام لحق الحياة كحق أصيل من حقوق الإنسان .

(2) حق الكرامة وحماية العرض :

● أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان مع حرمة الدماء والأموال ، وذلك واضح في خطبة الوادع التي مضى ذكر طرف منها ... ومن هنا حرم الإسلام كل عمل ينتقص من هذا الحق ، سواء أكان هذا العمل تخويفا أو إهانة أو ضربا أو اعتقالا ، أو تطاولا أو طعنا في العرض ، فإن حياة الإنسان المادية والأدبية موضع الرعاية والاحترام .

وفي هذا يقول النبي ﷺ : « من جرد ظهر مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان » (3) .

● وليس هذا التحذير خاصا بالمسلمين وحدهم ؛ فقد روى هشام بن حكيم أنه مر بالشام علي أناس من الأنباط وقد أقيموا في الشمس وصب على رؤوسهم الزيت ، فقال : ما هذا ؟ قيل : يعذبون في الخراج ، فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ

---

(1) البخاري : ك بدء الخلق ب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم 6 / 409 (3318) عن ابن عمر .
مسلم : ك التوبة ب في سعة رحمة الله تعالى 4 / 2110 (251 - 2619) عن أبي هريرة .
(2) البخاري : ك الأدب ، ب رحمة الناس بالبهائم 10 / 452 (6009) . مسلم : ك السلام ، ب فضل البهائم المحترمة وإطعامها 4 / 1761 (153 - 2244) .
(3) الطبراني في الكبير 8 / 136 عن أبي أمامة رضي الله عنه .
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 6 / 253 وعزاه للطبراني في الكبير والأوسط وقال : إسناده جيد .

يقول : « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا » [1] ، ودخل على الأمير فحدثه فأمر بهم فخُلُّوا .

● كذلك حينما حذر الإسلام من ترويع المسلم وإفزاعه فإنه فعل ذلك مع غير المسلمين .. ففي الوقت الذي يقول فيه النبي ﷺ « لا يحل لمسلم أن يروع مسلما » [2] ، نجده في الوقت ذاته يرعى هذا الحق مع واحد من أحبار اليهود .. حدث زيد بن سعنة – وهو أحد أحبار اليهود – أنه أقرض النبي ﷺ قرضا – كان قد احتاج إليه ليسد به خللا في شئون نفر من المؤلفة قلوبهم – ثم رأى زيد أن يذهب قبل ميعاد الوفاء المحدد ليطالب بدينه ، قال : أتيته – يعني رسول الله ﷺ – فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت له : يا محمد ، ألا تقضيني حقي ؟ ! فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب إلا مطللا ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم .. يقول زيد : ونظر إليَّ عمر ، وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني ببصره ، فقال : يا عدو الله ! أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ، وتصنع به ما أرى ؟ ، فوالذي نفسي بيده ، لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك .. يقول زيد : ورسول الله ﷺ ينظر إليَّ في سكون وتؤدة . فقال : « يا عمر ! أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة اذهب يا عمر فأعطه ، وزده عشرين صاعًا من تمر مكان مارُعْتَهُ . قال زيد : فذهب بي عمر فأعطاني حقي ، وزادني عشرين صاعا من تمر . فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان مارُعْتُكَ [3] .

● ومراعاة لحق كرامة الإنسان وحماية عرضه : حرم الإسلام الغيبة والنميمة ، والهمز واللمز ، والسخرية ، والاحتقار ، وسوء الظن ، ودخول البيوت دون استئذان ،

(1) مسلم : ك البر والصلة ب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق 4 / 2017 ، 2018 (117 ، 119 - 2613) . أبو داود : ك الخراج والإمارة ب في التشديد في جباية الجزية 3 / 166 (3045) . أحمد 7 / 403 ، 404 ، 468 . ابن حبان كما جاء في موارد الظمآن (1567) ، البيهقي في السنن الكبرى 9 / 205 جميعا من حديث هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنه .

(2) أبو داود : ك الأدب ب من يأخذ الشيء على المزاح 4 / 303 (5004) . الترمذي ك الفتن ب ما جاء لا يحل لمسلم أن يروع مسلما 4 / 402 (2160) عن السائب بن يزيد ، وقال : حديث حسن غريب . البيهقي في السنن الكبرى 10 / 249 . البغوي في شرح السنة 10 / 264 . وصححه الحافظ السيوطي في الجامع الصغير 2 / 587 (9958) . وينظر كشف الخفا 2 / 218 .

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 2 / 32 في كتاب البيوع وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي بقوله : مرسل . والبيهقي في السنن الكبرى ك التفليس باب ما جاء في التقاضي 6 / 52 .
وذكره الهيثمي في المجمع 8 / 239 - 240 مطولا وعزاه للطبراني وقال : رجاله ثقات .

والنظر إلى مالا يحل ، وتتبع عورات الناس .. إلى غير ذلك مما تكفلت ببيانه بعض السور المدنية ، وبصفة خاصة سور : النور ، والأحزاب ، والحجرات وغيرها .

(3) حق الإطعام من جوع (الكفاية التامة) :

● الأصل في حياة الإنسان أن يكون له عمل يكتسب منه للإنفاق على نفسه ومن تلزمه نفقتهم من أصوله أو فروعه أو زوجته .. ولقد حث الإسلام على العمل والاكتساب في كثير من آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي العظيم ﷺ .

● فمن الآيات القرآنية . قوله جل وعلا : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] وقوله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [2] وقوله عز شأنه : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [3] ، وغيرها من الآيات الكريمة .

ومن أحاديثه الشريفة ﷺ :

– عن أبي عبد الله الزبير بن العوام رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » [4] .

– وعن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » [5] .

● وقد بين النبي ﷺ جزاء الذي يسأل الناس وهو قادر على الاكتساب أو عنده ما يغنيه ، فقال :

– « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم » [6] .

---

(1) سورة التوبة : جزء من الآية (105) . (2) سورة الملك : الآية (15) .

(3) سورة الجمعة : الآية (10) .

(4) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس 2 / 721 (107 - 1041) .
والنسائي في كتاب الزكاة باب المسألة 5 / 93 ، وأحمد في المسند : 2 / 455 . جميعا من حديث أبي هريرة .

(5) أخرجه البخاري في كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده 4 / 355 (2072) وأحمد في المسند 4 / 131 .
كلاهما من حديث المقداد بن معد يكرب .

(6) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب من سأل الناس تكثرا 3 / 396 (1474) .
ومزعة لحم : مُزعة بضم الميم ، وحكي بكسرها ، وسكون الزاي ، بعدها مهملة : أي قطعة وانظر فتح الباري 3 / 397 .

- « من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرا ، فليستقل أو ليستكثر » [1] .

- « إن المسألة كد يكد بها الرجل وجهه ، إلا أن يسأل الرجل سلطانا أو في أمر لابد منه » [2] .

- وعن أبي بشر قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله - ﷺ - أسأل فيها ، فقال : « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » ثم قال : « يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - أو قال : سدادا من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحْتًا يأكلها صاحبها سُحْتًا » [3] .

● وقد أوجب الإسلام على الدولة المسلمة توفير فرص العمل المناسبة لرعاياها ، وإعانتهم بإتاحة الفرصة للكسب الحلال .. والأصل في هذا حديث النبي ﷺ الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء رجل من الأنصار ليسأل النبي ﷺ فقال : « أما في بيتك شيء ؟ » قال : بلى .. حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقُعْبٌ نشرب فيه الماء . قال : « ائتني بهما » فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله ﷺ وقال : « من يشتري هذين ؟ » قال رجل : أنا آخذها بدرهم . قال : « من يزيد على درهم ؟ » - مرتين أو ثلاثا - قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وآخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري ، وقال : - « اشتر بأحدهما طعاما وانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به » فشد فيه رسول الله ﷺ عوُدًا بيده ، ثم قال له : « اذهب فاحتطب وبعْ ، ولا أَرَيَنَّكَ خمسة عشر يوما » ، فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما ، فقال رسول الله

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس 2 / 720 (105 - 1040) .

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني 2 / 123 (1640) وإسناده صحيح - والنسائي في كتاب الزكاة باب مسألة الرجل ذا سلطان 5 / 100 . وأحمد في المسند : 5 / 19 جميعا من حديث سمرة بن جندب .

(3) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب من تحل له المسألة 2 / 722 رقم (109 - 1044) . قال محققه الشيخ / محمد فؤاد عبد الباقي : - « سُحْتًا يأكلها صاحبها سحتا » ، هكذا هو في جميع النسخ . سحتًا ، وفيه إضمار ، أي أعتقده سحتا ، أو يؤكل سحتا ، والسُّحْتُ هو الحرام .

ﷺ : « هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة : لذي فقر مدقع ، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِع ، أو لذي دمٍ موجع » [1] .

« إن هذا الحديث يحتوي خطوات سباقة ، سبق بها الإسلام كل النظم التي لم تعرفها الإنسانية إلا بعد قرون طويلة من ظهور الإسلام :

* إنه لم يعالج مشكلة السائل المحتاج بالمعونة المادية الوقتية كما يفكر كثيرون .

* ولم يعالجها بالوعظ المجرد والتنفير من المسألة . كما يصنع آخرون .

* ولكنه أخذ بيده في حل مشكلته بنفسه وعلاجها بطريقة ناجحة .

* علمه أن يستخدم كل ما عنده من طاقات وإن صغرت ، وأن يستنفد ما يملك من حِيَلٍ وإن ضَؤُلَتْ ، فلا يلجأ إلى السؤال وعنده شيء يستطيع أن ينتفع به في تيسير عمل يغنيه .

* وعلمه أن كل عمل يجلب رزقا حلالا هو عمل شريف كريم ، ولو كان احتطاب حزمة يجتلبها فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، أن يراق ماؤه في سؤال الناس .

* وأعطاه فرصة خمسة عشر يوما ، يستطيع أن يعرف منه بعدها مدى ملاءمة هذا العمل له ووفاءه بمطالبه .. فيقره عليه أو يدبر له عملا آخر .

وبعد هذا الحل العملي لمشكلته ، لقنه ذلك الدرس النظري الموجز البليغ ، في الزجر عن المسألة والترهيب منها ، والحدود التي تجوز في دائرتها « لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع ، أو لذي دم موجع » [2] .

هذا هو الطريق الأول الذي رسمه الإسلام لضمان هذا الحق (حق الكفاية التامة) وهو العمل والكسب .. فإذا لم يتمكن الإنسان من العمل والسعي على رزقه – لأي سبب كان – فإن الإسلام قد شرع وسائل أخرى ..

● فقد أوجب الإسلام على الموسرين من أقارب المعسر كفالته والإنفاق عليه ، يقول

---

(1) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ما تجوز فيه المسألة 2 / 123 - 124 (1641) .
وإسناده حسن ، فيه أولا : عيسى بن يونس الطرسوسي قال عنه ابن حجر في (تقريب التهذيب ص 441) : صدوق .
ثانيا : الأخضر بن عجلان الشيباني قال عنه ابن حجر في (تقريب التهذيب ص 97) : صدوق . وبقية رواته ثقات .
وابن ماجة في التجارات باب بيع المزايدة 2 / 740 (2198) .

(2) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام د / يوسف القرضاوى ص 47 ، 48 .

تعالى ﴿ وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .. ﴾ [1] .. وقال عز من قائل : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [2] وقال : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [3] .

وروى أبو داود في سننه بسنده عن كليب بن منفعة الحنفي عن جده ، أنه أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : « أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ومولاك الذي يلي ذاك ، حق واجب ، ورحم موصولة » [4] وروى النسائي عن طارق المحاربي قال : قدمت المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول : « يد المعطي العليا ، وابدأ بمن تعول : أمك وأباك ، فأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك [5] » وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » . قال : ثم من ؟ قال : « أمك » . قال : ثم من ؟ قال : « أبوك » ، ثم أدناك أدناك » [6] .

وفي رواية الترمذي عن معاوية القشيري أنه قال له : « ... ثم الأقرب فالأقرب » [7] ... وروى النسائي من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذوي قرابتك » [8] .

● إذا لم ينجح هذان الطريقان (العمل و كفالة الأقارب) في تحقيق حق الكفاية ، هنا يأتي دور المجتمع ، دور الدولة ، من خلال فريضة الزكاة ومن خلال بيت المال بمصادره المتعددة .

---

(1) سورة الأنفال : جزء من الآية (75) . (2) سورة الإسراء : الآية (26) .

(3) سورة الروم : الآية (38) .

(4) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب في بر الوالدين 4 / 338 (5140) ، وفي إسناده كليب بن منفعة ، قال عنه ابن حجر في تقريبه (ص 462) : مقبول ، والحارث بن مرة : صدوق (التقريب ص 148) . وبقية رواته ثقات .

(5) النسائي : ك الزكاة ب أيتهما اليد العليا 5 / 61 وإسناده حسن فيه يزيد بن زياد بن أبي الجعد الأشجعي الكوفي : صدوق كما قال ابن حجر في تقريبه (ص 61) وبقيه إسناده ، ثقات .

(6) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب من أحق الناس بحسن الصحبة 10 / 415 (5971) ومسلم في كتاب البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق به 4 / 1974 (1 - 2548) . وقال محققه : الصحابة هنا بمعنى الصحبة .

(7) أبو داود في كتاب الأدب باب في بر الوالدين 4 / 338 (5139) .

وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في بر الوالدين 4 / 273 (1897) وقال : حديث حسن .

(8) أخرجه النسائي في كتاب الزكاة باب أي الصدقة أفضل 5 / 69 - 70 وإسناده حسن لأن أبا الزبير المكي صدوق كما في (التقريب ص 506) وبقية رواته ثقات .

« ومن عجائب التشريع الإسلامي الفريدة أنه لم يضمن للفقير أو المسكين حد الكفاية فقط بل ضمن له تمام الكفاية ، ولهذا فإن علماء الفقه الإسلامي قد جعلوا الزواج مثلا من تمام الكفاية ، فلابد للمجتمع أن يعين راغبي النكاح ممن عجزوا عن تكاليفه المادية كالمهر ونحوه ، كما أن على الدولة أن تفعل ذلك ، فقد روى أبو عبيد في الأموال أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه زوج ابنه عاصما ، وأنفق عليه شهرا من مال الله .

وروى ابن كثير في البداية والنهاية أن عمر بن عبد العزيز أمر مناديا أن ينادي في الناس كل يوم : أين المساكين ؟ أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ (أي الراغبون في الزواج ولا يقدرون على تكاليفه) أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء .

والأصل في هذا ما رواه أبو هريرة أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني تزوجت امرأة من الأنصار . فقال : « على كم تزوجتها ؟ » قال : على أربع أواق . فقال النبي ﷺ : « على أربع أواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل !! ما عندنا ما نعطيك ، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب فيه » [1] – ففي الحديث الشريف دليل على أن إعطاء النبي ﷺ معونة لراغب النكاح غير القادر عليه كان أمرا معروفا عند الناس ، ولهذا قال له النبي ﷺ : « ما عندنا ما نعطيك » ومع هذا فقد أتاح له فرصة أخرى للحصول على المال .

ومن عجائب هذا التشريع العظيم كذلك ، أن فقهاء الإسلام أجازوا إخراج الزكاة لمن يتفرغ لعلم نافع ، في حين يمنعون ذلك عن المتفرغ للعبادة ، ذلك أن العبادة في الإسلام لا تحتاج لتفرغ كما يحتاج العلم والتخصص فيه ، كما أن عبادة المتعبد لنفسه ، أما علم المتعلم فله ولسائر الناس » [2] .

● ومن عظمة الإسلام أنه لم يجعل هذا الحق (حق الكفاية التامة) خاصا بالمسلمين وحدهم ، بل يستوي فيه المسلم وغيره .. وأعظم من ذلك أن الدولة الإسلامية ملتزمة بكفالة غير القادرين من غير المسلمين .. ذكر الإمام أبو يوسف في الخراج ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى شيخا ضريرا يسأل على باب ، فسأل ، فعلم أنه يهودي ، فقال له : ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال : انظر هذا

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب النكاح باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها 2 / 1040 (75 - 1424) .

(2) ينظر مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام د / يوسف القرضاوي ص 85 : 91 .

وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » وهذا من مساكين أهل الكتاب .. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

ولما سافر رضي الله عنه إلى الشام مر بأرض قوم مجذمين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجري عليهم القوت [1] ..

وقد اقتدى به حفيده عمر بن عبد العزيز ، حينما كتب إلى واليه على البصرة عدي بن أرطأه يوصيه قائلا - كما روى أبو عبيد في الأموال - « وانظر مِن قِبَلك من أهل الذمة قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأَجْر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه ، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال : ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه » .

وقد استقر هذا المبدأ الجليل في حياة صحابة النبي الكرام - رضي الله عنهم - إلى ما يشبه الإجماع عليه ، ودليل ذلك ما رواه أبو يوسف عن خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في المعاهدة التي صالح فيها أهل الحيرة بالعراق - وهم نصارى - حيث كتب لهم صلحا جاء فيه ... « وجعلت لهم : أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دِينِه يتصدقون عليه ، طُرِحَتْ جِزْيَتُه ، وعِيلَ من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام ، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام ، فليس على المسلمين النفقة على عيالهم ... » .

ويعلق الدكتور / يوسف القرضاوي قائلا : « هذا ما كتبه خالد في خلافه أبي بكر وأقره عليه مَن كان معه من الصحابة المجاهدين ، وكذلك أقره الخليفة الأول أبو بكر الصديق ومن معه من كبار الصحابة ، ولم ينقل إنكار أحد منهم لما صنعه خالد في ذلك . ومثل هذا العمل الذي يفعله صحابي ، وينتشر في الصحابة ، ولا ينكره أحد منهم ، يعده كثير من الفقهاء إجماعا [2] .

وبهذا يكون الإسلام قد كفل للإنسان - أيا كان جنسه أو لونه أو عقيدته - حياة كريمة تليق بإنسانيته ، أي بالمنزلة العالية التي أنزله الله إياها .

---

(1) العدالة الاجتماعية في الإسلام . سيد قطب ص 152 ، 153 .

(2) مشكلة الفقر ص 103 .

(4) حق الأمن من خوف (العيش بأمان وسلام) :

يمثل هذا الحق مع السابق له المطلبين الأساسيين للإنسان في حياته المادية ، ولذا امتن الله على قريش بهما ، وطالبهم بأداء حق الشكر عليهما ، بالتوجه إلى الله وحده في العبادة ، وإفراده عز وجل بالخضوع له واللوذ بحماه ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [1] .

ومن حق الإنسان أن يعيش آمنا على نفسه وأهله وماله وعرضه ، وقد كفل الإسلام ذلك كله ، كما مضى في بيان حق الحياة وحق الكرامة وحماية العرض .

(5) حق الحرية :

كفل الإسلام حق الحرية الكاملة للإنسان بكافة صورها ، ومن جميع جوانبها . وسأتحدث عن بعض مجالات « الحرية » كحق من حقوق الإنسان في الإسلام :

1 - **حرية العقيدة** : وهي أعلى صور الحرية وأهمها ، إذ أنها تتعلق بأهم وأعظم جوانب الحياة الإنسانية . وقد بين الإسلام أن الإنسان حر في اختيار عقيدته والدين الذي يؤمن به ، إذ لا إكراه على اعتناق عقيدة الإسلام – وهي العقيدة الحقة – لأن مبادئها تتوافق مع فطرة الإنسان السوية وعقله المستقيم ، فلا تحتاج إلى إكراه على اعتناقها ، وفي ذلك يقول الحق تباركت أسماؤه : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [2] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [3] ويقول جل شأنه ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ .. ﴾ [4] .

وقد مضى الحديث في هذا المطلب عن العقل والاختيار كمظهر من كظاهر تكريم الله عز وجل للإنسان ، كما مضى في المطلب السابق « العقلانية » حديث عن دور العقل في الوصول إلى حقائق العقيدة .

2 - **الحرية الفكرية** : ترك الإسلام المجال فسيحا أمام الفكر الإنساني في هذا الكون ليستخلص منه كل ما يعود عليه بالنفع العظيم في حياته ورقيه وتطوره ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا

---

(1) سورة قريش .

(2) سورة البقرة الآية (256) .

(3) سورة يونس : الآية (99) .

(4) سورة الكهف : جزء من الآية (29) .

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1] ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ .. ﴾ [2] ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [3] .

كما أتاح الإسلام للفكر الإنساني أن يعمل في النصوص القرآنية والنبوية ليستنبط منها أحكام الدين ، وليقيس عليها في بحثه عن أحكام القضايا التي لم يرد فيها نص صريح ويمتاز الإسلام الحنيف بأنه النظام الوحيد الذي يعطي للمخطئ نصيبه من الأجر والثواب إذا أخطأ في اجتهاده مع توافر النية الحسنة واستفراغ الجهد المتاح ، يقول المصطفى ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران » [4] .

أما حين تلوى النصوص ليا يخرجها عن طبيعتها ، بهدف استخراج حكم معين إرضاء لنزعة شيطانية أو سلطة مستبدة ، فإن الأمر حينئذ ينتقل من دائرة الحرية الفكرية التي كفلها الإسلام إلى دائرة العبث الممقوت ، خاصة حينما يتولى كبره من لا يملك اصلا أدوات البحث والاستنباط .

(3) **الحرية السياسية** : وهي تعني حق الإنسان في ولاية الوظائف الإدارية - صغراها وكبراها - ما دام بكفايته أهلا لتوليها ، وتعني كذلك حق كل إنسان أن يبدي رأيه في سير الأمور العامة وتخطئتها أو تصويبها وفق ما يعتقد اعتقادًا جازما أنه الحق ... وقد كفل الإسلام هذا الحق بمعنييه :

فمن حق كل إنسان أن يتطلع إلى تقلد أعلى المناصب وأرفع الوظائف ، طالما تحقق فيه الورع والكفاية ، ولا يغني أحدهما عن الآخر .. ألا ترى إلى سيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام ؟! إنه لم يرشح نفسه لإدارة شئون المال والدولة بنبوته وتقواه فحسب بل بحفظه وعلمه معا فقال ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [5] ولهذا حذر النبي ﷺ أبا ذر رضي الله عنه من الإمارة ، باعتبارها أمانة كبرى ومسئولية عظمى .. عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله . ألا تستعملني ؟! قال : فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : « يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها » [6] .

---

(1) سورة يونس : جزء من الآية (101) . (2) سورة فصلت : جزء من الآية (53) .

(3) سورة الذاريات : الآيتان (20 ، 21) .

(4) البخاري : ك الاعتصام بالكتاب والسنة ب أجر الحاكم إذا اجتهد 13 / 330 (7352) - مسلم : ك الأقضية ب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد 3 / 1342 (15 / 1716) . (5) سورة يوسف : جزء من الآية (55) .

(6) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب كراهة الإمارة بغير ضرورة 3 / 1457 (16 - 1825) وأحمد في المسند : 5 / 173 .

ويجب على الدولة أن تجعل الفرصة أمام الجميع متساوية [1] ، بعيدا عن المجاملات والرشاوى وغيرها من وسائل الانحراف ، يقول النبي ﷺ : « من استعمل رجلا على عصابة ، وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » [2] وعن يزيد ابن أبي سفيان قال : قال لي أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - حين بعثني إلى الشام يا يزيد ، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعدما قال رسول الله ﷺ : « من ولي من أمر المسلمين شيئا ، فأمر عليهم أحدا محاباة ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم » [3] وجاء رجل يسأل رسول الله ﷺ : متى تقوم الساعة ؟ : فقال له : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » [4] .

ومن حق كل إنسان أيضا أن يبدي رأيه في أمور الدولة والسياسة ، ما دام متقيدا بالأسلوب المثالي في إسداء النصيحة وإبداء الرأي .

ولقد طبق النبي ﷺ هذا المبدأ بنفسه ، ففي غزوة بدر وبعد أن أفلتت قافلة أبي سفيان توجه النبي ﷺ إلى أصحابه طالبا منهم إبداء آرائهم حول الخروج للنفير بعد أن نجت العير . وكان الهدف من ذلك أن يعلم موقف الأنصار بالذات ، لأن بيعة العقبة الثانية لم تتضمن نصا يفيد بخروج الأنصار معه لملاقاة الأعداء خارج المدينة .. قال النبي ﷺ :

« أشيروا علي أيها الناس » . فقام أبو بكر الصديق وأحسن القول ، فدعا له النبي بخير ، وقام عمر كذلك فأحسن القول .. كل ذلك والنبي ﷺ يقول أشيروا علي أيها الناس ، فقام المقداد بن عمرو وقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن - والله - لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » . فدعا له النبي ﷺ بخير . ثم قال : « أشيروا علي أيها الناس » فقال سعد بن معاذ : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أجل » قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ،

(1) ينظر : خلق المسلم - محمد الغزالي - ص 43 - 47 .

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك 4 / 92 وقال : هذا حديث صحيح الإسناد . ولم يذكره الذهبي في تلخيص المستدرك . وذكره السيوطي في الجامع الصغير 2 / 512 (8414) وعزاه للحاكم عن ابن عباس وصححه .

(3) أحمد 1 / 6 ، وأورده الهيثمي في المجمع 6 / 232 وقال : وفيه رجل لم يسم .

(4) البخاري : ك العلم ب من سئل علما وهو مشتغل ... 1 / 142 (59) ، وك الرقاق ب رفع الأمانة 11 / 333 (6496) .

وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منَّا ما تقرُّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله »[1] .

كما أنه ﷺ أخذ بالرأي الذي أبداه الحباب بن المنذر رضي اللّه عنه ، بكل أدب واحترام من الجندي لقائده ، ومن المؤمن لنبيه .. فحينما سار النبي ﷺ بالجيش نزل بهم عند أقرب ماء من بدر ، فجاء الحباب وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ : فقال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال : يا رسول الله : إن هذا ليس بمنزل ، فامض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ، ثم تغور ماوراءه من القلب ، ثم تبني عليه حوضا فتملؤه ماء ، ثم تقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون[2] .

وفى هذه الغزوة أيضا ، أبدى سعد بن معاذ رأيا ببناء عريش لرسول الله ﷺ فأخذ به[3] . وفيها أيضا ، أخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر رضي الله عنه في شأن الأسرى[4] .

كما أخذ النبي ﷺ برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه ببناء الخندق حول المدينة لمواجهة جموع الأحزاب .. وغيرها من المواقف كثير كثير .. وهي تبين مدى الحرية السياسية التي تمتع بها المسلمون مع قائدهم ونبيهم ﷺ .. وعلى نهجه سار خلفاؤه من بعده ، فحينما تولى الصديق رضي الله عنه الخلافة خطب قائلا :« أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم »[5] .

والتراث الإسلامي حافل بكثير من المواقف المشهودة التي تبين مدى الحرية التي كان يتمتع بها المسلمون على مر التاريخ ، يقف الرجل من عامة الناس فيقول للحاكم

(1) يراجع : السيرة الحلبية 2 / 385 ، 386 ، زاد المعاد 3 / 173 ، فقه السيرة محمد الغزالي 239 - 241 ، خاتم النبيين المجلد الثاني 2 / 621 ، 622 .

(2) يراجع في تفصيل ذلك : زاد المعاد 3 / 175 – فقه السيرة : محمد الغزالي 241 ، خاتم النبيين : المجلد الثاني 2 / 629 ، 630 .

(3) يراجع في تفصيل ذلك : زاد المعاد 3 / 175 ، السيرة الحلبية 2 / 394 ، خاتم النبيين المجلد الثاني 2 / 630 .

(4) يراجع في تفاصيل ذلك : زاد المعاد 3 / 271 ، الغزالي 315 ، خاتم النبيين المجلد الثاني 2 / 778 ، السيرة الحلبية 2 / 446 ، 447 .

(5) العدالة الاجتماعية في الإسلام ص 156 .

أخطأت .. فلا يغضب ولا يثور ، بل يتقبل النصيحة باطمئنان قلب وهدوء نفس ، وسأكتفي في هذا المقام بموقفين جليلين لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فقد وقف يخطب الناس يوما فقال : « إن رأيتم فيَّ اعوجاجًا فقوِّموني » فقال رجل : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا .. فما زاد عمر أن قال « الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقومه بحد سيفه » [1] .

وذات يوم غنم المسلمون أبرادا يمانية (جمع بُرْد) ، فخصه بُرْدٌ وخص ابنَه عبدَ الله بُرْدٌ كأي رجل من المسلمين .. ولما كان الخليفة في حاجة إلى ثوب ، فقد تبرع له عبد الله ببرده ، ليضمه عمر إلى برده فيصنع منهما ثوبا . ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب ، فقال : « أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا » فوقف سلمان رضي الله عنه فقال : لا سمع لك علينا ولا طاعة . قال عمر : ولم ؟ قال سلمان : من أين لك بهذا الثوب ، وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟ قال عمر : لا تعجل .. ثم نادى : يا عبد الله .. فلم يجبه أحد ، فنادى : يا عبد الله بن عمر . قال لبيك أمير المؤمنين . قال : نا شدتك الله ، البُرْدُ الذي ائتزرت به أهو بُرْدُك ؟ قال : اللهم نعم . قال سلمان : الآن مُرْ نَسْمَعْ ونُطِعْ » [2] .

والشاهد واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان أو تعليق .

(4) **الحرية المدنية** : ويقصد بها « كل التصرفات النابعة من شعور الإنسان بذاته وضرورة اعتراف الجماعة بشخصه وأهليته المطلقة للتصرف وفق ما يريد .

وعلى أساس هذه الحرية ، يملك كل إنسان أن يقيم حيث يشاء ، وأن يسافر متى شاء، وأن يجتمع بمن يريد الاجتماع بهم ، وأن يحوز من المال ما يكسب ، وأن يحترف من المهن ما يهوى ، وأن يباشر العقود التي يرى إبرامها ، ويفسخ التي يريد فسخها ، من بيع وشراء ووكالة وكفالة وإيجار .. إلخ ، وذلك كله – بداهة – وفق قانون يمنع الضرر والعدوان ، حتى لا يشتط أحد في استخدام حريته فيؤذي الآخرين وينال من حرياتهم هم » [3] ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ

---

(1) المرجع السابق ص 158 . (2) المرجع السابق نفسه .

(3) ينظر : حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص 93 .

ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . ويقول سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [2] .

وقد يثار هنا اعتراض بأن الإسلام إذا كان قد كفل الحرية المدنية فلماذا لم يحرِّم الرق أو الاستعباد ؟ ولماذا لم يأت في القرآن أو السنة نص صريح بتحريمه ؟ .

والحق أن موقف الإسلام من الرق قد تعرض لظلم عظيم وإفك كبير ، .. فلقد تعامل الإسلام مع مشكلة الرق بـ « واقعية » عظيمة ، حيث سلك معها مسلك التدرج الذي من شأنه أن الأمور لو كانت قد سارت إلى وجهتها الصحيحة التي رسمها الإسلام ، لما بقيت مشكلة الرق هذه المدة المتطاولة .

فقد جاء الإسلام والرق نظام عالمي متعارف عليه ، فكانت سياسته في المكافحة تعتمد على تجفيف منابعه ، فقد أبطل الإسلام جميع وسائل الاسترقاق التي كانت معروفة في ذلك الوقت ، وأهمها وأكبرها اختطاف الأحرار من بلادهم وطبعهم بخاتم الرق ، يقول الله عز وجل في حديثه القدسي : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطي بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يعطه أجره » [3] .

ولم يعترف الإسلام بالاسترقاق إلا في حالة واحدة ، وهي استرقاق أسرى الحرب من غير المسلمين ، وذلك لأن العرف السائد وقتها هو استرقاق أسرى الحرب أو قتلهم ، وقد وقعت الحرب بين المسلمين وغيرهم ، وبالتالي قد وقع بعض المسلمين في الأسر وكُتب عليهم الرق والاستعباد ، فهل من العدالة أو من حسن السياسة أن يطلق المسلمون سراح الأسرى من الأعداء ، بينما الأسرى من المسلمين يرزحون تحت نير العبودية والرق ؟! .. الحق أنه من باب المعاملة بالمثل - على الأقل - أباح الإسلام استرقاق أسرى الحرب من الأعداء كإجراء وقتي اضطراري ليس إلا .. فالآية التي

---

(1) سورة الأعراف : الآيات (31 - 33) . (2) سورة الأعراف : جزء من الآية (157) .

(3) أخرجه البخاري في كتاب البيوع باب إثم من باع حرا 4 / 487 (2227) .

تعرضت لأسرى الحرب [1] . لم تذكر شيئا عن الاسترقاق وإنما تحدثت عن المَنِّ – أي إطلاق السراح دون مقابل – أو الفداء – أي إطلاق سراحهم بمقابل – وهذا يدل على أن الاسترقاق ليس تشريعا دائما . وإنما هو إجراء وقتي ريثما يتغير العرف الدولي .

يضاف إلى هذا أن الأسير يعامل – طبقا لتوجيهات الإسلام – معاملة تشرئب إليها الأعناق .. يقول تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [2] .. والرسول ﷺ يقول : « فكّوا العاني وأجيبوا الداعي ، وعودوا المريض » [3] . أي أطلقوا سراح الأسير . وقال النبي ﷺ لأصحابه بعد غزوة بدر : « استوصوا بالأسرى خيرا » [4] ... وقد امتثل الصحب الكرام – رضي الله عنهم – لهذا الأمر النبوي الكريم .. يقول أحد أسارى بدر من المشركين (وهو أبو عزيز ابن عمير ، أخو مصعب بن عمير رضي الله عنه) : « كنت في رهط من الأنصار – حين أقبلوا بي من بدر – فكانوا إذا قدموا غداء أو عشاء خصّوني بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية الله إياهم بنا ..

هذا عن تجفيف المنابع .. أما عن الرقيق الآخرين ، فقد وضع الإسلام لتحريرهم عدة وسائل :

(أ) **العتق الاختياري من جانب السادة** : فقد رغب فيه النبي ﷺ ، وبين عظيم ثوابه في كثير من أحاديثه الشريفة ، منها ما رواه أبو نجيح السلمي قال : حاصرت مع رسول الله ﷺ الطائف فسمعته يقول : « أيما رجل مسلم أعتق رجلا مسلما فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظما من عظام محرره ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظما من عظام محررتها من النار » [5] .

---

(1) هي قوله تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . ﴾ سورة محمد : الآية (4) .
(2) سورة الإنسان : الآيتان (8 ، 9) .

(3) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب حق إجابة الوليمة والدعوة 9 / 149 (5174) .

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط 1 / 146 ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 6 / 86 وعزاه للطبراني وقال : إسناده حسن وانظر كنز العمال رقم 11036 .

(5) أخرجه أبو داود في كتاب العتق باب أي الرقاب أفضل 4 / 28 (3965) .
والترمذي في كتاب النذور والأيمان باب ما جاء في فضل من أعتق 4 / 100 (1547) .
وقال : حسن صحيح غريب . وابن ماجة في كتاب العتق باب العتق 2 / 843 رقم 2522 . وأحمد في المسند 4 / 235 .

وقوله ﷺ : « من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار ، حتى فرجه » [1] .

(ب) **المكاتبة** : وفيها يقوم السيد بمنح الحرية لغلامه مقابل مبلغ مالي يتفق عليه فيما بينهما . وعلى السيد أن يستجيب لرغبة غلامه في المكاتبة ، وأن يخفف عنه فيها ، وأن يتيح له فرصة العمل لدى الغير بأجر ، حتى يتمكن من الأداء . يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ... ﴾ [2] .. وعلى المجتمع هنا أن يقدم يد العون والمساعدة بإعطاء هؤلاء المكاتبين جزءًا من الزكاة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ ... ﴾ [3] .

(جـ) **تحريم أم الولد** : وذلك إذا ولدت الأمة لسيدها ولدا ، فإنها تصبح حرة هي وولدها بمجرد وفاة السيد ، ولا يجوز له أن يتصرف فيها قبل موته ببيع أو هبة .

(د) **جعل العتق كفارة لبعض الذنوب** : فقد جعل الإسلام تحرير الأرقاء سبيلا إلى تحرير المسلم من ربقة بعض المعاصي والذنوب فمثلا :

– **في كفارة اليمين** : قول تعالى : ﴿ ... فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ ... ﴾ [4] .

– **في كفارة الظهار** : يقول سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [5] .

– **في كفارة القتل الخطأ** : يقول جل وعلا : ﴿ .... وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ

---

(1) البخاري : ك الكفارات – ب قول الله تعالى : ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ 11 / 607 (6715) مسلم ك العتق – ب فضل العتق 2 / 1147 (22 ، 23 - 1509) – كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) سورة النور : جزء من الآية 33 .

(3) سورة التوبة : جزء من الآية 60 .

(4) سورة المائدة : جزء من الآية 89 .

(5) سورة المجادلة : الآيتان (3 ، 4) .

فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ ... ﴾ [1] .

ومن جوانب العظمة في هذه الآية الكريمة ، ما فيها من بيان نظرة الإسلام إلى الرق على أنه موت أو شبيه بالموت ، « فالقتيل الذي قتل خطأ هو روح إنسانية ، قد فقدها أهلها كما فقدها المجتمع دون وجه حق ، لذلك يقرر الإسلام التعويض عنها من جانبين ، التعويض لأهلها بالدية المُسَلَّمة لهم ، والتعويض للمجتمع بتحرير رقبة مؤمنة .. فكأن تحرير الرقيق هو إحياء لنفس إنسانية تعوّض النفس التي ذهبت بالقتل الخطأ .. والرق – على ذلك – هو موت أو شبيه بالموت في نظر الإسلام – على الرغم من كل الضمانات التي أحاط بها الرقيق – ولذلك فهو ينتهز كل فرصة « لإحياء » الأرقاء بتحريرهم من الرق » [2] .

هذه بعض وسائل تحرير العبيد في الإسلام ، وهي كلها مرتبطة بعنصر الإيمان والتقوى ليضمن الإسلام تنفيذها تنفيذا شاملا .

وقبل أن يحصل هؤلاء الأرقاء على حريتهم المادية ، كان الإسلام قد حررهم وجدانيا وعاطفيا ، بأن كفل لهم في المجتمع حقوقا . تتطاول إليها أعناق بعض شعوب العالم في هذا الزمان . منها :

(أ) **كفل لهم حق الحياة :** فنفس العبد محترمة وحياته مصونة ، يقول ﷺ : « من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده خصيناه » [3] .

(ب) **كفل لهم حفظ كرامتهم وصيانة عرضهم :** فالنبي ﷺ يحرص على مشاعر الرقيق وعدم إهانتهم إلى الحد الذي جعله يقول : « لا يقل أحدكم : هذا عبدي، وهذه أمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي » [4] ... كما حذر النبي ﷺ من خدش كرامتهم بكلمة نابية أو ضرب أو غيره ، يقول : « من قذف مملوكه بريئا مما قال أقيم عليه الحد يوم

---

(1) سورة النساء : جزء من الآية (92) . (2) شبهات حول الإسلام ص 44 ، 45 .

(3) أبو داود : ك الديات ب من قتل عبده أو مثل به 4 / 174 (4515 ، 4516) – الترمذي : ك الديات ب ما جاء في الرجل يقتل عبده 4 / 18 ، 19 (1414) وقال : حديث حسن غريب – النسائي ك القسامة ب القود من السيد للمولى 8 / 21 – ابن ماجة ك الديات ب هل يقتل الحر بالعبد 2 / 888 (2663) – الدارمي ك الديات ب القود بين العبد وبين سيده 2 / 250 (2358) – أحمد 5 / 10 ، 11 ، 12 ، 18 ، 19 .

(4) مسلم : ك الألفاظ من الأدب وغيرها ب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد 4 / 1764 (13 ، 15 / 2249)– أحمد 2 / 444 ، 496 .

القيامة . إلا أن يكون كما قال » [1] . ويقول أيضا : « من ضرب مملوكه ظلما قِيدَ منه يوم القيامة » [2] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أعتق مملوكا له ، ثم أخذ من الأرض عودًا أو شيئا فقال : ما لي فيه من الأجر ما يساوى هذا - سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من لطم مملوكا له أو ضربه فكفارته عتقه » [3] ...

وعن أم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان في بيتها ، وكان بيده سواك ، فدعا وصيفة لها فلم ترد ، حتى استبان الغضب في وجهه ، فخرجت أم سلمة فوجدت الوصيفة تلعب ببهيمة ، فقالت : أراك تلعبين بهذه البهيمة ورسول الله يدعوك ، فقالت : لا والذي بعثك بالحق ما سمعتك ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا خشية القَوَدِ لأوجعتُكِ بهذا السواك » [4] ...

وعن أبي مسعود البدري - رضي الله عنه - قال : كنت أضرب غلاما لي بالسوط ، فسمعت صوتا من خلفي : اعلم أبا مسعود ، فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ ، فإذا هو يقول : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك ، منك على هذا الغلام . فقلت : لا أضرب مملوكا بعده أبدا . وفي رواية فقلت يا رسول الله ، هو حر لوجه الله تعالى : فقال : « أما لو لم تفعل للفحتك النار - أو لمستك النار » [5] .

(جـ) **كفل لهم حق المساواة الإنسانية :** فالسادة والعبيد سواء في حق « الإنسانية » والقرآن الكريم يقول للسادة عن الرقيق ﴿ ... بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ... ﴾ [6] والرسول ﷺ : يقول : « كلكم لآدم . وآدم من تراب .. ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا

(1) البخاري : ك الحدود ب قذف العبيد 12 / 192 (6858) - مسلم : ك الإيمان ب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنا 3 / 1282 (37 / 1660) .

(2) ذكره السيوطي في الجامع الصغير 2 / 533 (8829) وعزاه للطبراني عن عمار بن ياسر ورمز لحسنه .

(3) مسلم : ك الإيمان ب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده 3 / 1278 (29 / 1657) - أبو داود : ك الأدب ب في حق المملوك 4 / 344 (5168) أحمد 2 / 45 ، 61 - جميعا عن ابن عمر .

(4) أبو يعلى الموصلي في مسنده 12 / 329 (6901) - ابن سعد في الطبقات الكبرى 1 / 2 / 102 أبو نعيم في الحلية 8 / 378 - وذكره الهيثمي في المجمع 10 / 353 بعدة أسانيد وقال روى هذا كله أبو يعلى والطبراني بنحوه ، وإسناده جيد عند أبي يعلى .

(5) مسلم : ك الإيمان ب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده 3 / 1281 (34 ، 36 / 1659) - أبو داود : ك الإيمان ب في حق المملوك 4 / 342 ، 343 (5159) .

(6) سورة النساء : جزء من الآية (25) .

لأعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى » [1] .

ومراعاة لهذه المساواة الإنسانية ، أمر الإسلام بحسن معاملة الرقيق ، وجعل هذا الإحسان في مرتبة واحدة مع الإحسان إلى الوالدين والأقارب والجيران وغيرهما – بعد الأمر بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به – وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ... ﴾ [2] كما جعل القرآن الكريم السادة : بمثابة أهل الرقيق وعشيرته ، وذلك في قوله سبحانه في شأن من لم يستطع نكاح الحرائر وأراد أن ينكح أمة مؤمنة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [3] فانظر إلى قوله سبحانه ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ أي أن الأمة عند سيدها كأنها عند أهلها وعشيرتها .. فيا للروعة .. ويا للعظمة ..

(د) **كفل لهم حق الكفاية التامة** : فقد أوجب على سادتهم الإنفاق عليهم ، وتوفير الغذاء والكسوة وغيرها مما يحتاجه الإنسان ، بنفس مستوى غذاء وكسوة أوليائهم ، فعن المعرور بن سويد قال : دخلنا على أبي ذر بالربذة ، فإذا عليه بُرْد ، وعلى غلامه مثله ، فقلنا : يا أبا ذر لو أخذت برد غلامك إلى بردك فكانت حُلَّة ، وكسوته ثوبا غيره ؟ ! قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فَلْيُطْعِمْه مما يأكل ، ولْيَكْسه مما يكتسي ، ولا يكلِّفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فَلْيُعِنْه » [4] .. وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إذا مشى بين عبيده لا يميزه أحد ، لأنه لا يتقدمهم ، ولا يلبس إلا من لباسهم [5] وأعطى علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه ورضي الله عنه – غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة ، فلما أحضرهما ، أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة ، وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق مني بأجودهما لأنك شاب تميل نفسك للتجمل ، أما أنا فيكفيني هذا » [6] .

---

(1) سبق تخريجه . (2) سورة النساء : جزء من الآية (36) .

(3) سورة النساء جزء من الآية (25) .

(4) البخاري : ك الإيمان ب المعاصي من أمر الجاهلية 1 / 106 (30) – مسلم : ك الإيمان ب إطعام المملوك مما يأكل 3 / 1283 (40) .

(5)حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام واعلان الأمم المتحدة (الغزالي) ص 105 . (6) العدالة الاجتماعية في الإسلام .

(هـ) **كفل لهم حقوقهم السياسية** : فلهم الحق في إبداء رأيهم في مسائل الدين والدنيا ، ولهم كذلك الحق في تولي الوظائف العامة :

ففيما يتعلق بالناحية الأولى : فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين ، يعارضه بلال بن رباح رضي الله عنه في مسألة الفيء معارضة شديدة فلا يجد الخليفة سبيلا إلى رده إلا أن يقول : « اللهم اكفني بلالا وأصحابه » [1] .

وفي الناحية الثانية يقول النبي ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى » [2] . وقد ولي النبي ﷺ مولاه زيد بن حارثة قيادة جيش المسلمين في مؤتة [3] ، ثم ولي ابنه أسامة بن زيد قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر وغيرهما من كبار صحابة النبي ﷺ فلما مات النبي ﷺ ، أخذ الصديق – رضى الله عنه – على عاتقه إنفاذ الجيش بقيادة أسامة رغم اعتراض البعض .. ومن العجيب في هذا المقام أن الصديق رضي الله عنه أراد استبقاء الفاروق عمر بالمدينة ليعاونه في أمور الحكم والخلافة ، ولكنه لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه – وهو القائد الأعلى بلغة هذا العصر – بل استأذن أسامة بن زيد قائلا : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » [4] .

وقد ولي عمر رضي الله عنه عمار بن ياسر على الكوفة وهو من الموالي .. وحينما لقيه واليه على مكة نافع بن الحارث بعسفان . سأله عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى : قال : وما ابن أبزى ؟ قال : رجل من موالينا . قال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ قال نافع : إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض ، فقال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين » .. وما كان سؤال عمر استنكارًا ، إنما هو استفهام ليعلم فيم كانت مزية ابن أبزى وهو لا يعرفه ، وإلا فهو الذي يقول حينما شارف على الموت « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لوليته » فسالم عنده آثر من أهل الشورى الذين سماهم

(1) ينظر : الخراج : ص 70 ، 71 .

(2) البخاري في عدة مواضع منها : ك الأذان ب إمامة العبد والمولى 2 / 184 (693) ، ك الأحكام ب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية 13 / 121 (7142) – مسلم ك الإمارة ب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية 3 / 1467 (1837) .

(3) ينظر : فقه السيرة (الغزالي) ص 387 ، دراسة في السيرة د / عماد الدين خليل ص 295 .

(4) العدالة الاجتماعية في الإسلام ص 138 .

ليختار من بينهم خليفة المسلمين من بعده [1] .

وبعد !! فهذا عرض لموقف الإسلام الحنيف من الرق ، تبين من خلاله مدى مراعاة الإسلام لكافة جوانب الحرية المدنية لجميع أفراد المجتمع ، والتي بانتهاء الحديث عنها ينتهي الحديث عن حق الحرية كواحد من حقوق الإنسان في الإسلام .

(6) حق الإخاء البشري والمساواة الإنسانية العامة :

يُعَدُّ هذا الحق مع الذي قبله منظومة واحدة ، أو هي ثلاثية : الحرية والإخاء والمساواة، التي تعلن كل منظمة أو ثورة أنها تسعى إلى تحقيقها ، بينما هي في الإسلام متحققة على أكمل وجه وأتمه .

وقد مضى الحديث عن الحرية في العنصر السابق ، والحديث الآن عن الإخاء والمساواة ، الإخاء العام بين البشر ، والمساواة التامة بينهم في أصل الإنسانية :

● ففي نظر الإسلام ، يُعَدُّ « البشر المنتشرون في القارات الخمس أسرة واحدة ، انبثقت من أصل واحد ، لا مكان بينهم لتفاضل في أساس الخلقة وابتداء الحياة .

والتكليف الإلهي يتجه إليهم جميعا على سواء ، بوصف أنهم يتوارثون الخصائص النفسية والعقلية الشائعة في جنسهم كله ، وأنهم أهل لكل ما كفل الله للإنسانية من كرامة ، وناط بها من واجب » [2] قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [3] وما أروع كلمة الأرحام في هذا الموضع ، وما أجدرها بأن « تُفَسَّر بحيث تشمل بعمومها الرحم الإنسانية العامة ، لتتسق مع بداية الخطاب بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ، ومع ذكر النفس الواحدة التي خلق الله منها جميع الناس رجالا ونساء وهي نفس آدم عليه السلام .. وعَطْفها على لفظ الجلالة « الله » في هذا المقام يدل على أن لهذه الأرحام شأنا أي شأن » [4] .

وفي كثير من آيات القرآن الكريم نداء للبشر جميعا بـ ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ ، وهو ما أوردناه عند الاستدلال على مبدأ عالمية الإسلام من القرآن الكريم .

إن هذه النداءات تدل على أن « الإنسانية معنى مشترك ، يتساوى سكان الأرض في

(1) المرجع السابق ص 131 .
(2) الخصائص العامة للإسلام ص 81 .
(3) سورة النساء : الآية (1) .
(4) الخصائص العامة للإسلام ص 82 .

حقيقته ونتيجته ، لا فرق بين أهل المناطق الحارة والمناطق الباردة ، ولا فرق بينهم جميعا الآن وبين آبائهم من قرون مضت أو ذراريهم بعد قرون مقبلة » [1] .

● « ولا نكران أن البشر يختلفون في لغاتهم وألوانهم من الناحية العامة ، لكن هذا الاختلاف لا يؤبه له ، ولا يخدش ما تقرر من تساويهم في الحقيقة الإنسانية الأصيلة ، إنه كاختلاف ألوان الورود في البستان ، أو اختلاف الأزياء التي يرتديها الانسان . وقد رفض الإسلام رفضا حاسما أن يكون ذلك مثار تفرقة أو سبب انقسام ، بل جعله بالنسبة إلى الخالق الكبير آية على إبداعه ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [2] وبالنسبة إلى الناس أنفسهم مثار تعارف لا تناكر ، وائتلاف لا اختلاف ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [3] . ويقول صاحب الرسالة ﷺ وهو يخطب الناس في حجة الوداع : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » [4] .

● وقد كان النبي ﷺ يقرر مبدأ الإخاء البشري ويؤكده كل يوم أبلغ تأكيد وأوثقه ، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة : « اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك . اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك .

اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة » [5] .

إن هذا الحديث الشريف ليدل على قيمة الإخاء البشري في رسالة الإسلام – كما يقول د / القرضاوي – من عدة نواح :

(1) فهو أولا يعلن الأخوة بين عباد الله كلهم – لا بين العرب وحدهم ، ولا بين المسلمين وحدهم – مشيرا إلى الجامع المشترك بينهم ، الموحد بين أجناسهم وألوانهم

---

(1) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص 15 .
(2) سورة الروم : الآية (22) .
(3) سورة الحجرات : الآية (13) .
(4) الحديث سبق تخريجه – وينظر : حقوق الإنسان .... ص 15 ، 16 .
(5) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه .

وطبقاتهم ، وهو العبودية لله تعالى .

(2) وهو ﷺ يقرر ذلك في صيغة دعاء يناجي به ربه ، ويشهد بنفسه أمامه سبحانه على حقية هذا المبدأ وصدقه ، أي أن تقرير هذا المبدأ ليس مجرد كلام للاستهلاك المحلي أو للتضليل العالمي ، وإنما هو حقيقة دينية لا ريب فيها .

(3) أنه قرن هذا المبدأ بالمبدأين الأساسيين في عقيدة الإسلام ، واللذين لا يدخل أحد هذا الدين إلا إذا آمن وشهد بهما . وهذا الاقتران دليل على أهمية مبدأ الإخاء لدى الإسلام .

(4) ثم إنه ﷺ لا يكتفي بإعلانه مرة في العمر ، أو حتى سنويا أو شهريا أو أسبوعيا ، بل يدل هذا الحديث أنه كان يكرر ذلك عقب كل صلاة ، أي خمس مرات فى اليوم والليلة . وهذا - بلاشك - دليل على مزيد العناية والاهتمام بهذا المبدأ الإنساني الأصيل .

(5) أنه ﷺ جعل ذلك من الأذكار والأدعية التي يتعبد بها ، ويتقرب بها إلى الله عز وجل وهذا يضفي عليه قدسية ومنزلة في قلوب المؤمنين [1] بعيدا عن الشعارات الجوفاء التي تصاغ في دهاليز السياسة من باب التجمل والنفاق لا أكثر ولا أقل .

(6) ولا ريب أنه إذا اجتمع مع العنصر الإنساني عصر الإيمان فإن الإخاء يزداد قوة وتوثيقا ، فالمؤمنون جميعا أخوة يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ [2] ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ... ﴾ [3] ويقول النبي ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » [4] ويقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » [5] . ويقول : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ، التقوى ههنا

(1) الخصائص العامة للإسلام - ص 83 ، 84 - بتصرف واختصار .

(2) سورة الحجرات جزء من الآية (10) . (3) سورة الأنفال : جزء من الآية (72) .

(4) البخاري : ك الصلاة ب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره 1 / 674 (481) مسلم : ك البر والصلة ب تراحم المؤمنين وتعاطفهم 4 / 1999 (65 - 2585) .

(5) البخاري : ك الأدب ب رحمة الناس والبهائم 10 / 452 (6011) - مسلم : ك البر والصلة ب تراحم المؤمنين وتعاطفهم 4 / 1999 (66 - 2586) - أحمد 4 / 270 .

– ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » [1] وغيرها من الآيات والأحاديث [2] .

ولقد كان المجتمع المسلم الأول نموذجا فريدا للأخوة والحب والإيثار ، وسجل التاريخ بأحرف من نور لهذا الجيل الفذ النادر من صور المحبة والأخوة والإيثار ما لو أردنا ذكر طرف منه لاحتجنا إلى مجلدات ضخام .

(7) وبعد أن استقر في الوجدان معنى الإخاء البشري العام بين جميع الخلق ، لابد أن ينتج عن ذلك حتما المساواة الإنسانية العامة كذلك .. فالإسلام يحترم الكرامة الإنسانية من منطلق ما سبق عرضه من مظاهر التكريم الإلهي للإنسان .

وعلى هذا ، فالإسلام لا يعترف – بل يحارب بشدة – كل أسباب التفرقة بين بني آدم ، من جنس أو لون أو دين أو لغة أو بيئة أو .. أو .. إلخ .. فالكل في أصل « الإنسانية » سواء : الأبيض والأسود ، الحاكم والمحكوم ، الغني والفقير ، المسلم وغير المسلم ... إلخ ..

وقد مضى في حق الحياة بيان أن النبي ﷺ قام لجنازة يهودي ، وأنه أمر بدفن جثث قتلى قريش في بدر .. وهذا وغيره دليل على أن اختلاف الدين لا يسقط الاعتبار الإنساني .

كما مضى في حق الحرية ذكر طرف من خطبة الصديق أبي بكر رضي الله عنه ، وهو يبين فيها المساواة التامة بين الحاكم والمحكوم .

كما أن لون البشرة – في نظر الإسلام – لا ينبغي أن يكون عاملا من عوامل التفرقة بين الناس فالنبي ﷺ غضب غضبا شديدا حينما اشتم رائحة التفرقة العنصرية في قول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه لأحد السود : يا ابن السوداء . وقال له النبي ﷺ : « أعيَّرته بأمه ؟ ! إنك امرؤ فيك جاهلية » وقال له كذلك : « طف الصاع ، طف الصاع .. ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » [3] .

وحينما جاء المسلمون لفتح مصر ، وتوغلوا فيها ، حتى وقفوا أمام حصن « بابليون » رغب المقوقس في مفاوضتهم ، فأرسل إليه عمرو بن العاص – رضي الله عنه – وفدا

(1) البخاري : ك الأدب ب ما ينهى عن التحاسد والتدابر 10 / 496 (6065) – مسلم : ك البر والصلة ب تحريم الظن والتجسس 4 / 1985 - 1986 (28 ، 31 - 2063) .

(2) يراجع : الأخوة الإسلامية عبد الله ناصح علوان ص 15 : 32 .

(3) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار 4 / 363 ، 365 ، وذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين 8 / 375 عن أبي ذر رضي الله عنه .

يضم عشرة من الجنود ، فيهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وكان عبادة أسود شديد السواد ، طويلا فارع الطول ، وأمره عمرو أن يكون رئيس الوفد ، فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة ، فهابه المقوقسَ لسواده ، وقال لهم : نَحُّوا عني هذا الأسود ، وقَدِّموا غيره يكلمني .. فقال رجال الوفد جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .. فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ ! قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى ، فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .. فقال المقوقس : تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة . فقال عبادة وقد رأى فزع المقوقس من السواد .. إن في جيشنا ألف أسودٍ هم أشد سوادا مني .

وكان عبد الملك بن مروان يأمر أن يُنادَى في موسم الحج بأن لا يفتي الناس إلا عطاء ابن أبي رباح إمام أهل مكة وعالمها وفقيهها .. ومَنْ عطاء بن أبي رباح ؟ ! لقد كان أسود ، أعور ، أفطس ، أشل ، أعرج ، مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلا .. كان إذا جلس في حلقته العلمية بين الآلاف من تلاميذه بدا كأنه غراب أسود في حقل من القطن .. هذا الأسود الأعور الأفطس جعلته حضارتنا إماما يرجع إليه الناس في الفتوى ، ومدرسة يتخرج على يده الألوف من البيض ، وهو عندهم محل الإكبار والحب والتقدير [1].

هذا عن المساواة الإنسانية العامة في المنظور الإسلامي ، فإذا تطلع المرء إلى أرباب الحضارة المادية الحديثة ، فماذا يجد عندهم بخصوص المساواة ؟ !

« في القرن العشرين ، وفي عصرنا الحاضر ، وبالرغم من الضجيج الهائل في العالم حول المساواة ، وتسطير هذا المبدأ في دساتير الدول . فإنه لا يزال مجرد كلام ، لا نصيب له في الواقع إلا الشيء القليل .

ففي الولايات المتحدة الأمريكية : لا تزال الفروق قائمة بين المواطنين في أبسط الحقوق على أساس اللون والجنس ، فصاحب البشرة البيضاء أسمى منزلة وأعلى قدرا من صاحب البشرة السوداء ، ولا مساواة بين الاثنين في الحقوق الآدمية ولا أمام القانون .

---

(1) من روائع حضارتنا د / مصطفى السباعي ص 64 ، 65 بتصرف .

ولو كان هذا التفريق والتمايز في واقع الحياة فقط لأمكن أن يدعي البعض أنه من انحراف الأفراد ولا تُسأل عنه الدولة ، ولكن الواقع أن القانون نفسه يُقِرُّ ويعترف صراحة بهذا التمايز الظالم بين الأسود والأبيض ويحميه ، وإن كان الاثنان يحملان الجنسية الأمريكية . فمن هذه النصوص القانونية في بعض الولايات الأمريكية : « إن النكاح بين شخصين (أبيض وآخر زنجي) يعتبر نكاحا باطلا » ... وبطلان العقد هنا لا يرجع إلى نقص في أهلية العاقدين ، فأهليتهما كاملة ، وإنما يرجع إلى شيء آخر خطير في نظر واضع القانون ، هو أن أحد طرفي عقد النكاح ذو بشرة بيضاء ، بينما الطرف الآخر في العقد ذو بشرة سوداء » .

وفي ميدان التعليم ، تنص الفقرة 207 من دستور ولاية « ميسيسبي » على ما يلي :

« يراعي في هذا الحقل – حقل التربية والتعليم – أن يفصل أطفال البيض عن أطفال الزنوج ، فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة » !! . وفي ولاية « فلوريدا » تقضى قوانينها بأن تفصل الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج في معزل عن الكتب الخاصة بالطلاب البيض » .

وفي ميدان العمل ، تقضي قوانين بعض الولايات بأنه لا يسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع العمال البيض على صعيد واحد في المصانع ، ولا يجوز للزنوج أن يدخلوا أو يخرجوا من الأبواب عينها التي يدخل منها البيض ويخرجون .

وفي ميدان الشئون الاجتماعية ، تقضي قوانين أربع عشرة ولاية بإقامة أماكن خاصة بالسود في القطارات والحافلات وغرف الهاتف والمستشفيات حتى في مستشفيات الأمراض العقلية .... وأعجب من هذا أن صاحب مقبرة لدفن الكلاب أعلن أنه لن يقبل جثث الكلاب المملوكة للسود بسبب رفض أصحاب البشرة البيضاء من الآدميين أن تهان كرامة كلابهم بدفنها مع كلاب كان يمتلكها أصحاب البشرة السوداء [1] .

وفي ميدان العبادة في الكنائس ، حدث ذات مرة أن دخل شاب زنجي من جمهورية « بنما » كنيسة كاثوليكية في « واشنطن » ، وحينما لمحه القس بين المصلين بعث إليه

---

(1) أصول الدعوة . ص 46 . بتصرف واختصار .

بورقة صغيرة كتب فيها عنوان الكنيسة الخاصة بالزنوج [1] .

ولقد بلغ الشطط بواضعي القوانين في بعض الولايات الأمريكية إلى الحد الذي يصل إلى تجريم كل دعوة إلى المساواة بين الناس ، ويقول النص : « إن كل من يطبع أو ينشر أو يوزع ما فيه دعوة أو حث للجمهور على إقرار المساواة الاجتماعية ، والزواج بين البيض والسود ، أو تقديم حجج للجمهور ، أو مجرد اقتراح في هذا السبيل ، يعتبر عمله جريمة يعاقب عليها القانون بغرامة لا تتجاوز خمسمائة دولار ، أو بالسجن مدة لا تتجاوز ستة أشهر ، أو بالعقوبتين [2] وأعتقدُ أن النص القانوني بهذه الصياغة لا يحتاج إلى تعليق .

وقد يظن البعض أن هذه القوانين باتت قديمة وتم تعديلها ولا يمكن اتخاذها مقياسا لمدى المساواة أو العنصرية في المجتمع الأمريكي في الوقت الحاضر ...

ومن هنا نضع أمام القارئ الكريم بعض الوقائع الجديدة التي تثبت – بما لا يدع مجالا للشك – مدى هشاشة القشرة السطحية التي تتباهى بها الولايات المتحدة ، وتدعي – من خلالِها – أنها معقل المساواة بين جميع الأجناس البشرية :

1 - **أحداث « لوس أنجيليس »** : التي كانت بدايتها متمثلة في تبرئة ساحة أربعة من رجال الشرطة البيض انهالوا ضربا وركلا على شاب أسود حتى فارق الحياة ، وكان أحد هواة تصوير « الفيديو قد قام بتصوير الواقعة ، وقدم الشريط إلى المحكمة كدليل مادي قوي على الجريمة العنصرية ، إلا أن المحكمة قضت ببراءة رجال الشرطة البيض ، الأمر الذي أثار ثائرة السود ، فانطلقوا في المدينة غاضبين يحطمون كل شيء ، واستمرت الأحداث الملتهبة عدة أيام حتى تدخلت قوات الجيش واستطاعت السيطرة على الموقف .

2 - **قضية « أوجي سيمسون »** : وهو لاعب أمريكي وممثل تليفزيوني شهير ، اتهم بقتل زوجته البيضاء وعشيقها ، واستمرت محاكمته عدة أشهر وسط تركيز إعلامي لا نظير له على الإطلاق ، وحصل الرجل على البراءة في النهاية لعدم كفاية الأدلة ، وهنا قامت القيامة فلقد برزت المشاعر العنصرية الدفينة وطفت على السطح ، وتمثل ذلك في الحملة الشعواء التي شنها البيض على الزنوج ، واتهم البيض العنصريون هيئة محلَّفي المحكمة بمحاباة « سيمسون » خاصة أن أغلبيتهم كانت من السود ، وساد الأجواء الأمريكية شعور عام مضاد للسود ، الأمر الذي حدا بالزعيم الأمريكي الأسود المسلم « لويس

---

(1) يراجع : من روائع حضارتنا . ص 68 : 72 .

(2) أصول الدعوة ص 46 .

فرقان » إلى تنظيم مسيرة حاشدة شارك فيها ما يربو على المليون رجل أسود ، للمطالبة بتحسين أوضاع السود في المجتمع الأمريكي [1] .

3 - **إحراق كنائس السود في الولايات الجنوبية** : إذا أنه على مدار عام ونصف أحرق ما يقرب من 32 كنيسة خاصة بالسود ، واتجهت الأنظار إلى عدة جماعات عنصرية بيضاء ، تنتهج نفس الخط الذي كانت تلتزم به جماعة « كوكلوكس كلان » العنصرية التي نشرت الرعب والذعر بين الأمريكيين السود ردحا طويلا من الزمان [2] .

4 - **قضايا سكان أمريكا الأصليين** : فبعد أن ذهب عشرات الملايين من الهنود الحمر ضحايا لجرائم الجنس الأبيض في الولايات المتحدة لا تزال حلقات مسلسل اضطهاد السكان الأصليين تتوالى ، وآخرها ما يحدث في محمية « باين ريدج » الخاصة بقبيلة « أوجلالا سيوكس » الهندية ، ففي هذه المحمية التي تتكون من منازل صغيرة ذات أسقف مجدولة ومجموعة من المنازل المتنقلة الصغيرة ، من هذا المكان الفقير يتم اختطاف الأطفال وتبنيهم قسرًا بواسطة البيض ضد رغبة آبائهم من الهنود الحمر .. ومع أن هناك لائحة خاصة بعمليات التبني صادرة عام 1978 م وتنص على أن يكون التبني بموافقة محكمة القبيلة ، إلا أن المختطفين البيض لا يأبهون بها ، بل وأصدر الكونجرس الأمريكي تشريعا جديدا يكاد يضفي الصبغة القانونية على هذه الجرائم .. ويعبر « فيليب أندر باجيدج » أحد كبار الشخصيات في القبيلة عن رأيه في هذا القانون قائلا : إنهم يساعدوننا على الإقدام على الانتحار الثقافي [3] .

5 - **المخابرات الأمريكية والأمريكيين السود** : تكشفت في الآونة الأخيرة فضيحة كبرى عن تورط المخابرات الأمريكية في بيع أطنان من مادة الـ « كراك » المشتقة من الكوكايين في أحياء السود وتحويل أرباح هذه المبيعات إلى متمردي نيكاراجوا ، وقد وجه زعماء السود اتهامات صريحة إلى الحكومة الأمريكية بتبني « مؤامرة منظمة » لنشر المخدرات والسلاح والإيدز بين السود والأقليات الأخرى ، حتى يستمر تخلفهم واستبعادهم بصورة عصرية ، وتساءل هؤلاء أيضا عن أسباب سهولة حصول المهاجرين الجدد على قروض مصرفية ضخمة لإقامة مراكز تجارية كبيرة في أحياء السود ، بينما

---

(1) ينظر السياسة الدولية : ع 123 يناير 1996 م – شهريات – الأحداث الدولية [أكتوبر 1995 م] ص 361 .
(2) يراجع : نيران العنصرية تشتعل في الجنوب الأمريكي – الأهرام 25 / 6 / 1996 م . ص 7 .
(3) يراجع : المجتمع الأمريكي وأزمة الضمير المفقود – الأهرام 7 / 5 / 1996 م . ص 6 .

ترفض ذات المصارف منح نفس القروض للسود أنفسهم [1] .

6 ـ **العنصرية في البحث العلمي** : هذه أخطر وقائع اضطهاد السود في المجتمع الأمريكي ، إذ أن البحث العلمي حينما يتخلى عن نزاهته ، وينزلق إلى منحدر سحيق من العنصرية البغيضة ، فإنها الطامة الكبرى والمصيبة العظمى .. إذ صدر كتاب في الولايات المتحدة – بيع منه فى أيام معدودات ما يزيد على 200 ألف نسخة – يحتوي على دراسة قام بها أستاذان في جامعة « هارفارد » الأمريكية ، هما « تشارلز موري » أستاذ علم الاجتماع ، و « ريتشاردهير نشتاين » أستاذ علم النفس ، تحت عنوان : منحنى الجرس : الذكاء والبناء الطبقي في الحياة الأمريكية .. يزعم فيها المؤلفان أنه لا يمكن تحقيق المساواة بين البيض والسود في المجتمع الأمريكي ، ولا يمكن للسود الارتقاء في السلم الاجتماعي للوصول إلى أعلى المناصب السياسية والاقتصادية والثقافية .. كل هذا بحجة أن نسبة ذكاء السود تقل بمقدار « 15 » درجة عن ذكاء البيض [85 مقابل 100] . ويزعم المؤلفان أيضا أن الذكاء يختلف بحسب الجنس ولون البشرة ، وأنه وراثي ... ونتيجة لأن السود أقل ذكاء من البيض فإن المجتمع الأمريكي يسير – بالضرورة – بسرعتين ، وينقسم – بالضرورة أيضا – إلى طبقتين : طبقة من الأغنياء المثقفين الذين يحكمون وهم البيض ، وطبقة أخرى من العمال الذين ليس لديهم فرصة في التقدم الاجتماعي ، على أساس أن وضعهم هذا فرضه عليهم جنسهم ولون بشرتهم ، وهو شيء لا يمكن تغييره .

وبما أن الذكاء وراثي ، فإن الطبقة العالية الذكاء تتزاوج وتلد أبناء أذكياء يكونون في المستقبل الطبقة الحاكمة ، بينما الآخرون يتزوجون ويلدون أبناء كثيرين ، يصبحون فيما بعد مجرمين يعيشون عالة على الإعانات الاجتماعية التي تقدمها لهم الحكومة ..

ويصل الكاتبان – في النهاية – إلى أن أية محاولة لرفع المستوى الثقافي والاجتماعي للسود ستبوء بالفشل ، ومن ثَمَّ يتوجهان بالنصح إلى الحكومة الأمريكية بأن تقطع المعونات الاجتماعية المقدمة إلى فقراء السود ، وأن تُوقف على الفور البرامج الهادفة إلى رفع المستوى الثقافي والاجتماعي للسود ، لأن أصل الداء – في زعمهما – بيولوجي ، ولأن الذكاء الناقص يتوارثه السود جيلًا بعد جيل [2] .

هذا موقف الحضارة الغربية من قضية المساواة الإنسانية العامة ، وهو موقف –

(1) ينظر : الأهرام 20 / 9 / 1996 ص 4 ، 7 / 10 / 1996 م . ص 4 .
(2) الأهرام 5 / 11 / 1994 ص 5 .

بلاشك – شائن معيب .. أما في الإسلام – وليس هذا من قبيل المقارنة ، إذ كيف يقارن شرع الله بشرائع العبيد – فتجد الإخاء البشري والمساواة الإنسانية العامة حقا أصيلا من حقوق الإنسان في هذا الدين العظيم .

بقيت نقطة أخيرة في مسألة المساواة الإنسانية ، وهي المساواة بين الجميع في الناحية القانونية ، فالكل أمام القانون سواء ، لا فرق بين غني أو فقير ، حاكم أو محكوم ، أمير أو من عامة الناس .

فهذا رسول الله ﷺ يغضب أشد الغضب حينما حاول أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يشفع لامرأة مخزومية سرقت ، فقال له رسول الله ﷺ : « أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ ! إنما هلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد .. وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » [1] .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يصر على الاقتصاص من جبلة بن الأيهم ، وهو واحد من أمراء الغساسنة ، لطم أعرابيا بسبب أنه داس على ثوبه أثناء الطواف غير قاصد ، وحينما رفعت القضية إلى عمر رضي الله عنه حكم بالقصاص إلا أن يعفو الأعرابى ، فاستنكر جبلة ذلك وقال : كيف يقتص مني وهو سوقة وأنا ملك ؟! فقال عمر : إن الإسلام سوى بينكما .. ولكن جبلة لم يتحمل هذه المساواة ولم يكن مؤهلا للارتفاع بنفسه إلى أفقها العالي الوضيء ، فطلب مهلة يراجع فيها نفسه .. ولم يكن هذا المطلب إلا حيلة قام بها للفرار والارتداد عن دين الله [2] .

وهذا علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – يسمع عمر بن الخطاب يقول للناس يوما : ما قولكم لو أن أمير المؤمنين شاهد امرأة على معصية ؟ . يعني : أتكفي شهادته في إقامة الحد عليها ؟ فيقول علي : يأتي بأربعة شهداء ، أو يجلد حد القذف ، شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين [3] .

وهذا أيضا علي رضي الله عنه يفقد درعه ، فتوجد عند رجل نصراني ، فأقبل به إلى

---

(1) البخاري : ك الحدود ب كراهية الشفاعة في الحد 12 / 89 (6788) – مسلم : ك الحدود ب قطع السارق الشريف وغيره 3 / 1315 (8 ، 9) .

(2) ينظر : حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص 35 ، الخصائص العامة للإسلام ص 89 .

(3) حقوق الإنسان ... ص 25 .

شريح القاضي ، فقال علي : إنها درعي ، ولم أبعْ ، ولم أهب . فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ . قال : ما الدرع إلا درعي ، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب .. فالتفت شريح إلى علي يسأله : يا أمير المؤمنين ، هل من بينة ؟ فضحك علي وقال : صدق شريح . ما لي بينة . فقضى شريح بالدرع للنصراني ، فأخذها ومشى ، وأمير المؤمنين ينظر إليه .. إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد ليقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه فيقضي عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .. الدرع درعك والله يا أمير المؤمنين . اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين ، فخرجت من بعيرك الأورق فقال علي : أما إذ أسلمت فهي لك [1] .

والأمثلة والشواهد في هذا المضمار أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تشهر .

ويكفي ما قدمناه كنماذج للإخاء البشري والمساواة الإنسانية العامة اللذين يمثلان – كما سبق القول – حقا أصيلا من حقوق الإنسان في الإسلام .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التعبير بـ « حقوق الإنسان » – فيما أرى – تعبير قاصر ؛ فهذه الحقوق – في واقع الأمر – حقوق من ناحية وواجبات من ناحية أخرى ، فمثلا : حق الحياة حق للإنسان أن تحفظ حياته ويصان دمه وفي الوقت ذاته واجب عليه أن يحافظ على حياة الآخرين ويصون دماءهم ... وكذلك أيضا حق الكرامة وصيانة العرض ، فكما كفل الإسلام للمرء حفظ كرامته وصيانة عرضه ، أوجب عليه أن يحفظ كرامة الآخرين ويصون عرضهم ... وهكذا ..

* * *

وبعد !! فهذه هي النزعة الإنسانية في ديننا الإسلامي الحنيف ، تدل دلالة واضحة على عالمية هذا الدين ، وأحقيته وحده بأن يكون حقا النظام العالمي الأمثل . وقد تبين ذلك بوضوح ، سواء من خلال الحديث عن الإنسانية في المنهج الإسلامي ، أو عن مظاهر تكريم الله للإنسان . أو عن حقوق الإنسان في المنظور الإسلامي .

* * *

(1) البداية والنهاية 8 / 4 - 5 العدالة الاجتماعية في الإسلام : ص 162 ، 163 .

المبحث الرابع : الشمول [1]

الشمول ، خاصية من خصائص الإسلام ، وهي نابعة من كونه منهجا ربانيا ، لأن الشمول طابع أصيل للصنعة الإلهية .. أما الإنسان فإنه يعجز عن تكوين منهج شامل ، ويرجع ذلك إلى أنه محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان ، ومحدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة والإدراك ، وفوق ذلك محكوم بضعفه وميله وشهوته ورغبته ، فوق ما هو محكوم بقصوره وجهله [2] .

« الإنسان – وهذه ظروفه – حينما يفكر في إنشاء تصور اعتقادي من ذات نفسه ، أو في إنشاء منهج للحياة الواقعية من ذات نفسه كذلك ، يجيء تفكيره محكوما بهذه السمة التي تحكم كينونته كلها يجيء تفكيره جزئيا .. يصلح لزمان ولا يصلح لآخر .. فوق أنه لا يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه ، وجميع ملابساته وأطواره ، وجميع مقوماته وأسبابه . لأن هذه كلها ممتدة في الزمان والمكان ، وممتدة في الأسباب والعلل ، وراء كينونة الإنسان ذاته ومجال إدراكه . وذلك كله فوق ما يعتور هذا التفكير من عوامل الضعف والهوى ، وهما سمتان إنسانيتان أصيلتان .

وكذلك لا يمكن أن تجيء فكرة بشرية ، ولا أن يجيء منهج من صنع البشرية يتمثل فيه « الشمول » أبدا ... إنما هو تفكير جزئي ، وتفكير وقتي . ومن جزئيته يقع النقص ، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذي يحتم التغيير ... ويتمثل في الأفكار التي استقل البشر بصنعها ، وفي المناهج التي استقل البشر بوضعها دوام « التناقض » أو دوام « الجدل » ، فأما حين يتولى الله سبحانه ذلك كله .. فإن التصور الاعتقادي ، وكذلك المنهج الحيوي المنبثق منه ، يجيئان بريئين من كل ما يعتور الصنعة البشرية من القصور والنقص والضعف والتفاوت [3] .. ولذا كان « الشمول » خاصية من خصائص الإسلام .

ولهذا « الشمول » معان عدة ، هي في الوقت ذاته صور ومظاهر له ..

---

(1) الشمول في اللغة هو : العموم ، يقال : شمل الأمر القوم .. أي عَمَّهُمْ .. ينظر : المعجم الوسيط 1 / 514 .

(2) ينظر : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، ص 91 .

(3) المرجع السابق ص 91 ، 92 بتصرف يسير .

أهم معاني الشمول ومظاهره

يتجلى شمول الإسلام ويظهر معناه في عدة صور ، سأستعرض بعضها في السطور التالية :

(1) اشتمال الإسلام على أصول الرسالات السابقة :

الإسلام بمعناه الأعم هو رسالة كل الرسل - عليهم جميعا الصلاة والسلام - يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (1) ، ورسالة محمد ﷺ هي الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة المباركة ، يقول جل شأنه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴾ (2) ويقول المصطفى ﷺ : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت تلك اللبنة ؟ ! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » (3) .

والأنبياء جميعا - عليهم الصلاة والسلام - قد أعلنوا ذلك وقرروه - كما حكى عنهم القرآن الكريم :

- فهذا نوح : عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (4) .

- وهذا خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - يتجهان إلى ربهما بالدعاء قائلين : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (5) .

- وهذا خليل الله أيضا يحكي الله عنه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (6) .

- كما أنه يوصي أولاده بالإسلام ، وكذلك حفيده ، يعقوب يوصي أولاده : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (7) وهذا يوسف عليه السلام يدعو ربه قائلا : ﴿ ... أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(1) سورة آل عمران : جزء من الآية (19) .
(2) سورة المائدة : جزء من الآية (3) .
(3) سبق تخريجه .
(4) سورة يونس : الآية (72) .
(5) سورة البقرة : الآية (128) .
(6) سورة البقرة . الآية (131) .
(7) سورة البقرة . الآية (132) .

وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [1] ، وموسى عليه السلام يخاطب قومه ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [2] ، وسحرة فرعون حين أعلنوا إيمانهم قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [3] ، وهذا سليمان عليه السلام يبعث إلى ملكة سبأ وقومها : ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [4] .

وهذه الملكة حينما تيقنت من نبوة سليمان قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [5] .

– وهذا عيسى عليه السلام يقول لقومه ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .. ﴾ [6] .

– وهذا خاتم الرسل محمد ﷺ يوحي إليه ربه أن يقول : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [7] .

وبهذا تقرر مبدأ وحدة الدين ، فالأصول العامة واحدة في جميع الرسالات وهي عقيدة التوحيد الخالص . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [8] وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [9] .

وبناء على هذا ، فإن الاسلام دين شامل من ناحية اشتماله على أصول الرسالات السابقة كلها .. وإذا تقرر هذا فقد ثبت أن الإسلام هو دين الإنسان في مختلف العصور والأزمان منذ أن وجد الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(2) الإسلام رسالة عالمية :

إذا كانت الرسالة الإسلامية التي جاء بها جميع الرسل – عليهم السلام – متفقة في الأصول العامة وهي العقائد ، فإنها قد اختلفت في الشرائع والأحكام تبعا لمستوى النضوج في العقل البشري من ناحية ، أو تبعا للبيئة التي بعث فيها النبي من ناحية أخرى إلى أن جاءت رسالة محمد ﷺ ، فاقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن تكون خاتمة

(1) سورة يوسف : جزء من الآية (101) .
(2) سورة يونس : جزء من الآية (84) .
(3) سورة الأعراف : جزء من الآية (126) .
(4) سورة النمل : الآية (31) .
(5) سورة النمل : جزء من الآية (44) .
(6) سورة آل عمران : جزء من الآية (52) .
(7) سورة النمل : الآية (91) .
(8) سورة النحل : جزء من الآية (36) .
(9) سورة الأنبياء : الآية (25) .

الرسالات ، ولذا جاءت صالحة لكل الناس ، لكل البيئات ، لكل الأزمنة والأمكنة .. أي أنها وحدها الرسالة التي خرجت من نطاق المحلية إلى نطاق أعم وأشمل .

« إنها الرسالة الشاملة . التي تخاطب كل الأمم ، وكل الأجناس وكل الشعوب ، وكل الطبقات – إنها ليست رسالة لشعب خاص يزعم أنه وحده شعب الله المختار وأن الناس جميعا يجب أن يخضعوا له ، وليست رسالة لإقليم معين ، يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض ، وتجبى إليه ثمراتها وأرزاقها .

وليست رسالة لطبقة معينة مهمتها أن تسخر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها ، أو اتباع أهوائها ، أو السير في ركابها . سواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم الضعفاء ، من السادة أم من العبيد ، من الأغنياء أم من الفقراء أو الصعاليك .. إنها رسالتهم جميعا ، وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها .

وليس فهمها ولا تفسيرها ولا الدعوة إليها حكرا على طبقة خاصة ، كما قد يتوهم كثير من الناس . إنها هداية رب الناس لكل الناس ، ورحمة الله لكل عباد الله [1] .

وبالقطع ، فإن هذه النقطة هي مور الحديث في هذا الباب كله .. وقد مضى في الفصل الأول استعراض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد عالمية هذا الدين نظريا وعمليا .

وهذا الفصل أيضا توكيد لعالمية الإسلام ، كما سبق في بداية الحديث فيه .

(3) الشمول في مخاطبة الكيان الإنساني كله :

نظر الإسلام إلى الكيان الإنساني نظرة شاملة واعترف به كله ، كما فطره الله : جسمه وروحه ، عقله وقلبه ، إرداته ووجدانه . فلم يغفل حق جانب من هذه الجوانب لحساب آخر :

1 - ولهذا أمره بالسعي في الأرض والمشي في مناكبها ، والأكل من طيباتها ، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده فيها ، وحثه على النظافة والتجمل والاعتدال ، ونهاه عن المسكرات والمفترات وكل ما يضر تناوله وفاء بحظ جسمه .

2- وأمره بعبادة الله وحده ، والتقرب إليه بأنواع الطاعات ، من صلاة وصيام وصدقة وزكاة وحج وعمرة ، وذكر ودعاء ، وإنابة وتوكل ، وخوف ورجاء ، وبر وإحسان ،

---

(1) الخصائص العامة للإسلام ص 97 .

وجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من ألوان العبادة الظاهرة والباطنة ... وفاء بحق الروح .

3 - وأمره بالنظر والتفكير في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ، وفي مصاير الأمم ، وسنن الله في المجتمعات . كما أمره بطلب العلم والتماس الحكمة من أي وعاء خرجت منه . وأنكر عليه الجمود والتلقيد للآباء والكبراء .... كل ذلك وفاء بحق العقل .

4 - ولفته إلى جمال الكون بأرضه وسمائه ، ونباته وحيوانه ، وما زانه الله به من مظاهر الحسن والبهجة ، ليشبع حاسة الجمال في نفسه ، ويشعر في أعماقه بعظمة ربه ، الذي أحسن كل شيء خلقه .. كما أنه أباح له التمتع بألوان من اللهو وترويح النفس دفعا للسآمة عنها ، فإنها تمل كما تمل الأبدان ، ووتتعب كما تتعب .. وفي هذا رعاية لجانب الوجدان والعاطفة [1] .

(4) شمول المنهج الإسلامي :

يتجلى الشمول كخاصية من خصائص الإسلام ، في جميع جوانب المنهج الإسلامي... على النحو التالي :

(أ) في العقيدة :

العقيدة الإسلامية عقيدة شاملة ، ويتجلى هذا الشمول من عدة نواح أهمها :

1 - « فهي توصف بالشمول ، باعتبار أنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود .. القضايا التي شغلت الفكر الإنساني ، ولا تزال تشغله ، وتلح عليه بالسؤال ، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة ، وينتشله من متاهات الفلسفة والنحل المتضاربة قديما وحديثا : قضية الألوهية – قضية الكون – قضية الإنسان – قضية النبوة – قضية المصير ... فإذا كانت بعض العقائد تعني بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد ، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة ، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي ، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها ، وقالت كلمتها فيها بشمول واضح ووضوح شامل » [2] .

2 - وتوصف بالشمول كذلك لأنها ترد هذا الوجود كله – بنشأته ابتداء ، وحركته بعد نشأته وكل انبثاقة فيه وكل تحور ، وكل تغير ، وكل تطور ، والهيمنة عليه ، وتدبيره ،

---

(1) المرجع السابق ص 73 ، 74 .　　(2) المرجع نفسه ص 103 .

وتصريفه وتنسيقه إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة .. [1] .

يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [2] ويقول سبحانه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [3] ويقول تباركت أسماؤه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [4] .

(ب) في العبادة :

جعل القرآن الكريم العبادة غاية الوجود الإنساني ، يقول تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [5] .

وقد بين القرآن الكريم أن العبادة مفهوم شامل لكل النشاط الإنساني في هذه الحياة يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [6] .

والنص القرآني الجليل يفيد أنه لاشيء في حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة التي تنحصر فيها غاية الوجود الإنساني على هذه الأرض ، وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة ، كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها ونطاقاتها .

- الصلاة والنسك عبادة ، والكدح عبادة سواء أكان كدحا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو فكريا أو علميا ... إلخ . والترويح عن القلوب لكي لا تكل ولا تمل عبادة [7] بمعنى آخر : تطلق العبادة – كما يقول الشيخ محمد الغزالي – على نوعين من الأعمال [8] .

- أحدهما : أنشأ الشارع حقيقته وصورته فليس يعرف إلا عن طريقه كالصلاة والصيام وغيرهما

- والآخر : أنواع النشاط الإنساني كلها إذا وقعت بين ضابطين من حسن القصد وشرف الغاية .

---

(1) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 92 .

(2) سورة القمر : الآية (49) .

(3) سورة الفرقان : جزء من الآية (2) .

(4) سورة الأعراف : الآية (54) .

(5) سورة الذاريات الآيات (56 : 58) .

(6) سورة الأنعام : الآيتان (162 ، 163) .

(7) مفاهيم ينبغي أن تصحح ص 204 .

(8) هذا ديننا محمد الغزالي ص 104 ، 105 .

والفرق بين سلوك المسلم وسلوك غيره أن المسلم يَسِمُ ما يقع تحت يده بالطابع الإلهي ، فأعماله العامة وتصرفه المعتاد يصطبغان دائما بنية معينة وهدف محدد وهذا النوع من العبادة يحتاج إلى شيء من البيان : فالتجارة مثلا عمل عادي يباشره الناس من كل نحلة ، ويبنون عليه جانبا مهما من حياتهم ومكاسبهم ، لكن هذا العمل العادي يتحول من تلقاء نفسه إلى عبادة إذا ما اشتغل المسلم به ناويا إعفاف نفسه وتربية ولده وإعزاز قومه ، وقد اعتبره النبي ﷺ في هذه الحالة جهادا ، وعدَّه القرآن الكريم مساويا للجهاد في إعفاء صاحبه من قيام الليل والإكثار من تلاوة القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [1] .

على أن التجارة إنما تكون عبادة بتلك الإرادة السامية التي تقارنها ، وبشيء آخر لابد منه ، وهو : بعدها عن مساوئ الأخلاق التي نفر منها الإسلام ، كالغش ، والكذب والقسوة والربا .... إلخ .

وما يقال في التجارة يقال في الزراعة ، فهي عمل من أعمال الناس العامة ، يحسن القيام به من له دين ومن لا دين له .. لكن الإسلام يعد هذا العمل عبادة ، إذا اكتنفته المقاصد والأهداف التي شرحناها آنفا .. قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر ، كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل » [2] .

وبقدر ما يعم النفع تكون المثوبة عند الله مطردة نامية . روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « سبع يجرى للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته : من علم علما ، أو كرى نهرا ، أو حفر بئرا ، أو غرس نخلا ، أو بنى مسجدا ، أو ورث مصحفا ، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته » [3] .

---

(1) سورة المزمل : جزء من الآية (20) .

(2) أحمد 4 / 61 ، 5 / 374 - وذكره المتقى في الكنز 3 / 897 (9081) وعزاه لأحمد والبغوي والبيهقي .. قلت وفى إسناد أحمد داود بن قيس الصنعاني قال ابن حجر في تقريبه ص 200 : مقبول ، كما أن فيه راويًا يسمى (قنج) لم أقف له على ترجمة .

(3) الحديث بهذا اللفظ ذكره المتقي الهندي في كنز العمال 15 / 954 وعزاه للبزار عن أنس رضي الله عنه ، ولم أقف عليه ، أما الإمام أحمد في المسند 5 / 260 ، 261 والطبراني فى الكبير 8 / 243 (7831) فقد أخرجاه عن أبي أمامة =

وأضيف إلى ما قاله الشيخ ، أن المسلم – بنيته الصالحة – يمكن أن يجعل العادات الضرورية التي لا يستغني عنها أي إنسان ، عبادة يثاب عليها .... كل إنسان يأكل ويشرب لاستبقاء حياته والحفاظ عليها ، ولكن المسلم يضيف إلى ذلك هدفا آخر ، فهو ينوي بطعامه وشرابه أن يتقوى بهما على طاعة الله عز وجل ، وأن يقوم بواجبه في عمارة الأرض التي أمره ربه بعمارتها ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [1] ... وبهذا تحول الطعام والشراب من مجرد حاجة ضرورية للإنسان إلى عبادة يثاب عليها المسلم ثوابا عظيما .

وأعجب من ذلك أن الإسلام يجعل إرواء الغريزة وإشباع الشهوة الجنسية عبادة يتقرب بها الإنسان المسلم إلى الله عز وجل ، بشرط أن يكون هذا في حلال وبهدف إعفاف النفس وتحصينها ، والبعد عما حرم الله .. وفي ذلك يقول النبي ﷺ ، وهو يبين لأصحابه كثرة أبواب الخير والصدقة .. « وفي بضع أحدكم صدقة » قالوا يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ ! قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ ! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » [2] .

وهكذا .. فإن العبادة في الإسلام تشمل كافة مجالات الحياة وصورها .

(جـ) في الأخلاق :

النظرة الإسلامية للأخلاق نظرة شاملة ، ويتجلى هذا الشمول الأخلاقي من ناحيتين :

(1) أن الأخلاق في الإسلام تتسع لتشمل جميع علاقات الإنسان : علاقته بربه ، علاقته بنفسه وعلاقته بالناس والمجتمع .

فهو مطالب في علاقته بربه سبحانه وتعالى : **بالإخلاص له في السر والعلانية** ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ... ﴾ [3] .

= رضي الله عنه بلفظ « أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت : مرابط في سبيل الله ، ومن عمل عملا أجرى له مثل ما عمل ، ورجل تصدق بصدقة فأجراها له ما جرت ، ورجل ترك ولدا صالحا يدعو له » .. وقال الهيثمي في المجمع 1 / 167 : رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط والبزار ، وفيه ابن لهيعة ورجل لم يسم ..

(1) سورة هود : جزء من الآية (61) .

(2) مسلم : ك الزكاة ب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف 2 / 197 (53 - 1006) أبو داود : ك الأدب ب في إماطة الأذى عن الطريق 4 / 363 ح 5243 – أحمد 5 / 154 ، 167 ... جميعا من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(3) سورة البينة : جزء من الآية (5) .

ومراقبة ربه في كل آن وحين قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [1] .

والسعي لنيل مرضاته جل وعلا .... إلخ .

وهو مطالب في علاقته بنفسه : **أن يبتعد بها عن كل شيء يغضب المولى تبارك وتعالى** : قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [2] .

وأن يسير بها في طريق الفلاح والنجاح ، بمداومة ذكر الله وطاعته قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [3] وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [4] .... إلخ .

وهو مطالب في علاقته بالناس ، أن يلتزم بالفضائل التي حثه الإسلام على التمسك بها كالصدق ، والوفاء ، والأمانة ، والإيثار ، والمحبة ، والأخوة .... إلخ .

(2) وتوصف الأخلاق بالشمول كذلك من ناحية أخرى ، وهي أن دائرة الأخلاق الإسلامية تتسع لتشمل جميع الناس ، مسلمين أو غير مسلمين ...

ففي القرآن الكريم أمر بالإحسان إلى الوالدين ، حتى ولو كانا على غير الإسلام . قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [5] وقد مضى في مبحث « الإنسانية » عند الحديث عن حفظ الكرامة وصيانة العرض – كحق من حقوق الإنسان – موقف النبي ﷺ مع زيد بن سعنة الحبر اليهودي .

وقد ورد عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنه ذبحت له شاة في أهله ، فلما جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودي ؟ ! أهديتم لجارنا اليهودي ؟ ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » [6] .

---

(1) سورة البقرة : جزء من الآية (186) .
(2) سورة التحريم : الآية (6) .
(3) سورة آل عمران : الآية (200) .
(4) سورة الأحزاب : الآيتان (41 ، 42) .
(5) سورة لقمان : الآيتان (14 ، 15) .
(6) البخاري : ك الأدب ب : إثم من لا يأمن جاره بوائقه 10 / 457 (1016) ، عن عائشة وابن عمر – مسلم : ك البر والصلة والآداب – ب الوصية بالجار والإحسان إليه 4 / 2025 (2624) عن عائشة (2625) عن ابن عمر .

والمواقف الجليلة في هذا المضمار كثيرة ، وكلها شاهدة بعظمة هذا الدين الذي اتسعت دائرة أخلاقه العظيمة لتشمل جميع الناس .

(د) في التشريع :

التشريع الإسلامي شامل كامل ، فهو يتناول الإنسان قبل أن يولد - أي ما زال جنينا في بطن أمه - ثم في جميع أطوار حياته ، ثم ما يتعلق به من أحكام بعد وفاته .

كما أنه يتناول جميع مجالات الحياة ، حيث إن « الإسلام نظام شامل ، يتناول مظاهر الحياة جميعا ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة - وهو خلق وقوة - أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون ، أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغني ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة - كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء » (1) .

إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في تعبده ، وصلته بربه ، وهذا ما يفصله قسم « العبادات » في الفقه الإسلامي ، وهو مالا يوجد في التشريعات الوضعية .

ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام ، وهذا يشمل ما يسمى « الحلال والحرام » أو « الحظر والإباحة » .

ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة : من زواج ، وطلاق ، ونفقات ، ورضاع ، وميراث ، وولاية على النفوس والمال ... ونحوها .. وهذا يشمل ما يسمى في عصرنا « الأحوال الشخصية » .

ويشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية ، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع ، بعوض أو بغير عوض ، من البيوع والإجارات ، والقروض والمداينات ، والرهن والحوالة ، والكفالة والضمان .. وغيرها مما تتضمنه في عصرنا القوانين المدنية والتجارية .

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعا كالحدود والقصاص ، أو المتروكة لتقدير أهل الشأن كالتعازير .... وهذا يشمل ما يسمى الآن بـ « التشريع الجنائي » أو « الجزائي » و « قوانين العقوبات » .

ويشمل التشريع الإسلامي ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين ، وواجب

---

(1) ينظر : نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام .... د / يوسف القرضاوي ص 42 ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين محمد الغزالي ص 19 .

المحكومين نحو الحكام ، وتنظيم الصلة بين الطرفين ، ما عنيت به كتب السياسة الشرعية والخراج والأحكام السلطانية في الفقه الإسلامي ، وتضمنه في عصرنا « التشريع الدستوري » أو « الإداري » و « المالي » .

ويشمل التشريع الإسلامي ، ما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب بين المسلمين وغيرهم ، مما عنيت به كتب « السير » أو « الجهاد » في فقهنا الإسلامي ، وما ينظمه في عصرنا « القانون الدولي » .

ومن هنا ... لا توجد ناحية من نواحي الحياة إلا دخل فيها التشريع الإسلامي آمرا أو ناهيا أو مخيرا [1] .. وفي هذه القضايا جميعا ، تجد التناول الإسلامي لها تناولا شاملا ينفذ إلى أعماق القضية ، ويتناول جميع أبعادها .. وهذه مزية التشريع الإلهي ، بخلاف التشريع البشري الذي يتناول القضايا تناولا سطحيا ، يعوز إلى التبديل والتعديل من حين لآخر .

* * *

هذه لمحة سريعة عن خاصية « الشمول » كواحدة من خصائص هذا الدين العظيم تبين من خلالها أن الإسلام نظام شامل للحياة كلها ، تكفل بوضعه رب الناس لكل الناس ، وهو بهذا الوصف جدير وحده بأن يكون النظام العالمي الأمثل ، قال تعالى ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ... ﴾ [2] .

---

(1) ينظر : الخصائص العامة للإسلام ص 111 ، 112 .

(2) سورة النمل : جزء من الآية (88) .

المبحث الخامس : التوازن (الوسطية) (1)

التوازن (أو الوسطية) خاصية من خصائص الإسلام ، ويقصد بها - كما يقول د / يوسف القرضاوي - : « التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ويطغى على مقابله ويحيف عليه » (2) .

وهناك مظاهر كثيرة لوسطية الإسلام وتوازنه .. من أهمها :

(1) التوازن بين المادية والروحانية :

التوازن بين المادية والروحانية ، من أبرز مظاهر التوازن في الإسلام ، لأنه يتفق مع أصل الخلقة الإنسانية ، التي جمع الله فيها بين هذيه الجانبين .. فالإنسان مكون أساسا من هذين العنصرين : المادة (ممثله في الطين) والروح (ممثلة في النفخة الروحية الإلهية التي كانت منبع التكريم ومصدر التعظيم) .

من أجل هذا كان « الإسلام دين الروح والمادة ، ودين الدنيا والآخرة . وهو ينظر إلى الحياة نظرة شاملة ، تتناول شطريها المادي والروحي بالإصلاح دون أن يطغى ركن على آخر .

إنه لا روحانية على حساب المادية ، ولا مادية على حساب الروحانية ، وإنما توسط واعتدال بينهما (3) قال تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (4) .

- وقال جل شأنه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (5) .

---

(1) يطلق التوازن في اللغة على التساوي بين شيئين ، يقال : اتَّزَنَ العِدْل : اعتدل بالآخر وصار مساويا له في الثقل والخفة ، ويقال : توازن واتزن الشيئان : تساويا في الوزن .. ينظر المعجم الوسيط 2 / 1071 ، 1072 .

أما عن الوسطية فيقال في اللغة : وسط الشيء يَسِطه وسْطًا وسِطَة : صار في وسطه . ووسَّطه : جعله في الوسط ، وتوسط فلان : أخذ الوسط بين الجيد والرديء ، والأوسط : المعتدل من كل شيء . والوسيط : المعتدل بين شيئين ينظره : المعجم الوسيط 2 / 1073 .

(2) الخصائص العامة للإسلام . ص 115 .

(3) الدعوة إلى الله تعالى ... ص 97 .

(4) سورة القصص : الآية (77) .

(5) سورة المؤمنون : الآية (51) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (1) .

وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) وغيرها من الآيات الكريمة .

وقد بين النبي ﷺ في كثير من أحاديثه الشريفة ، أن الإسلام دين الوسطية والاعتدال ، وهو أيضا دين التوازن بين متطلبات الروح وحاجات الجسد .

– فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها وقالوا : أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدًا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدًا ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا . فجاء رسول اللّه ﷺ إليهم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا .. أما واللّه إني لأخشاكم للّه وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني (3) .

– وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما أن النبي ﷺ قال له : « ألم أُخْبَرْ أنك تصوم النهار وتقوم الليل » ؟! قلت : بلى يا رسول اللّه . قال : « فلا تفعل ، صُمْ وأفطر ، ونَمْ وقُمْ ، فإن لجسدك عليك حقًّا ، وإن لعينيك عليك حقًّا ، وإن لزورك عليك حقًّا ... (4) .

– وعن أبي جحيفة وهب بن عبد اللّه رضي اللّه عنه قال : آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال : ما شأنك ؟! قالت : أخوك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا .. فجاء أبو الدرداء فصنع له

---

(1) سورة البقرة : الآية (172) .
(2) سورة الأعراف : الآيتان (32 ، 33) .

(3) البخارى : ك النكاح ب الترغيب في النكاح 9 / 104 (5063) – مسلم : ك النكاح – ب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه 2 / 1020 (1402) .

(4) البخاري : ك الصوم ب حق الضيف في الصوم 4 / 217 (1974) ، وفي الأبواب التالية 4 / 220 ، 221 ، 224 (1975 ، 1976 ، 1977 ، 1978 ، 1979) ، وأخرجه أيضا في : ك الأدب ب حق الضيف 10 / 531 (6134) – مسلم : ك الصيام ب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا ... 2 / 812 (1159) .

(أي لسلمان) طعامًا ، فقال له : كل فإني صائم . قال (أي سلمان) : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . فقال له : نم ، فنام . ثم ذهب يقوم فقال له : نم . فلما كان آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا جميعا . فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه .. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبي ﷺ : « صدق سلمان » [1] .

- وعن أبي ربعى حنظلة بن الربيع الأسيدي قال : « انطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « وما ذاك ؟ » قلت : يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى العين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا (أي لاعبنا) الأزواج والأولاد والضيعات ، فنسينا كثيرا . فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسي بيده ، لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة » [2] .. وغير ذلك من الأحاديث .

كل هذه النصوص القرآنية والنبوية - وغيرها - ناطقة بأن الإسلام روح ومادة ، دنيا وآخرة .. أما ما جاء في بعض النصوص من ذم للدنيا وتنفير الناس من زخرفها وزينتها واحتقار للمال والغنى ، فإن ذلك كله فيمن يبتغون الدنيا لذاتها ، باعتبارها هدفا وغاية ، فهم بها مفتونون ، ولا يبالون - في سبيل تحصيل المتع واللذائذ - بأي وسيلة حصلوها ، ولا بأي طريق اكتسبوها .. يهون في نظرهم أن تداس الفضيلة وأن تطرح جميع المعاني النبيلة ، وأن يضرب بكل القيم السامية عرض الحائط ، في مقابل كسب دنيوي زائل ، وعَرَض فان .. هذا الصنف هو المستحق للذم والتوبيخ .. وفي هذا الإطار تأتي الآيات الكريمة ، من مثل قوله تعالى ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [3] وقوله ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [4] .. والأحاديث النبوية من مثل قوله ﷺ : « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم

---

(1) البخاري : ك الصوم ب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ... 4 / 209 (19068) ، وأيضا في : ك الأدب ب صنع الطعام والتكلف للضيف 10 / 534 (6139) .

(2) مسلم : ك التوبة ب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة ... 4 / 21006 (2750) .

(3) سورة لقمان : جزء من الآية (33) ، وسورة فاطر : جزء من الآية (5) .

(4) سورة الأحقاف : الآية (20) .

وعبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش »[1] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول اله ﷺ مر بالسوق والناس كَنَفَتَيْه ، فمرَّ بجدي أَسَكّ ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ » فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ ثم قال : « أتحبون أنه لكم ؟ » قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « فوالله ، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم »[2] .

وقوله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء »[3] .. وغير ذلك من الآيات والأحاديث ، التي تبين حقارة الدنيا ، وتحث على الزهد فيها وفي متاعها .

« نعم .. في الزاهد العابد خير ، لكن في الزاهد العابد المجاهد ألف خير .. وفي الزاهد الفقير خير لكن في الزاهد الغني المنفق ألف خير . وفي الضعيف الزاهد خير ، لكن في القوى الزاهد ألف خير .. ومن هنا نفهم حديث رسول الله ﷺ « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير .. »[4] .

فليس في الإسلام رهبانية ولا رهبان .. وما تخلف المسلمون عن الركب ، وما فقدوا زمام القيادة الحضارية ، إلا حينما فهموا دينهم فهما خاطئا ، فحسبوه رسوما وأشكالا ، وطقوسا وشعائر لا تؤتي أكلها ولا تنتج ثمرها ... بينما هو في الحقيقة مادة وروح .

وهذا التوازن بين المادية والروحانية خصيصة ينفرد بها الإسلام الحنيف ، فاليهودية المحرفة ديانة تجنح إلى المادية البحتة ، وتجعل الحصول على المال – بأي وسيلة كانت – غاية غايات اليهودي ... ويعتبر اليهود أنفسهم أجزاء من الله ، ومن ثم فهم مالكون لكل ما في الأرض من ثروات ، نيابة عن الإله . ونتيجة لذلك فإن الاستيلاء على أموال غير اليهود بالسرقة أو

---

(1) مسلم : ك الجهاد – ب الحراسة في الغزو في سبيل الله 6 / 81 (2887) ، وأيضا في : ك الرقاق ب ما يتقى من فتنة المال 11 / 253 (6435) .

(2) مسلم : ك الزهد والرقائق في أوله 4 / 2272 (2957) ، (كنفتيه) أي جانبيه ، و(أسكّ) أي صغير الأذنين .

(3) الترمذي : ك الفتن ب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة 4 / 419 (2191) وقال : هذا حديث حسن صحيح – ابن ماجة 2 / 1325 (4000) .

(4) الدعوة إلى الله تعالى : ص 57 .. والحديث الشريف أخرجه الإمام مسلم : ك القدر – ب في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله ، وتفويض المقادير لله 4 / 2052 (2664) – ابن ماجة في المقدمة – ب في القدر 1 / 31 (79) – أحمد 2 / 366 .

الغش أو الربا ، لايعدو في نظرهم أن يكون مجرد استرداد للأموال ممن سلبوها .

وقد جاء في وصايا موسى : « لا تسرق مال القريب » وفسر علماء التلمود هذه الوصية بأن أباحوا سرقة مال غير القريب (أي غير اليهودي) كما أجازوا لليهودي أن يبيع ما يملكه غير اليهودي ، كما جعلوا الغش وسيلة شرعية للاستيلاء على ثروات العالم ، ويقول الحاخام « رِشّي » : مُصَرَّحٌ لليهودي أن يغش غير اليهودي ، ويحلف له أيمانا كاذبة .. ومن وسائلهم أيضا عدم رد الأشياء المفقودة ، فقد جاء في التلمود أن الله لا يغفر ذنبا ليهودي يرد للأممي (غير اليهودي) ماله المفقود .. والربا أيضا من وسائلهم فقد قال التلمود : غير مصرح لليهودي أن يقرض للأممي إلا بالربا .

ويشرح التلمود فكرة اليهود في تعاملهم مع غيرهم فيقول : إن مثل بني إسرائيل كمثل سيدة في منزلها ، يحضر لها زوجها النقود فتأخذها وتنفقها ، دون أن تشترك معه في الشغل والتعب فعلى الأمميين أن يعملوا ، ولليهود أن يأخذوا نتاج هذا العمل .

وقد انعكست هذه المادية على العقيدة اليهودية المحرفة ، حيث جعلوا لهم إلها خاصا بهم ، وهم شعبه المختار ، يفعل لهم ما يريدون ، ويعطيهم ما يشتهون [1] .

والنصرانية المحرفة ، اختارت أن تسلك طريق الروحانية المحضة ، وحرص مؤلفو أناجيلها على طبعها بطابع الزهد والتقشف ، وإظهار الغنى والثراء بصورة مبغوضة منفرة ، يقول الإنجيل : « لدخول الجمل في ثقب إبرة أيسر من دخول الأغنياء ملكوت الله » .. يضاف إلى ذلك موقف النصرانية من الغريزة الجنسية على أنها رجس ودنس حتى ولو أخذت صورتها الشرعية ، وكذلك دعوتها إلى التبتل والعزوبة والرهبنة ... وقد سبق ذكر طرف من عجائب الرهبان وأفعالهم .

أما الإسلام فقد جاء بحمد الله متوازنا بين المادية والروحانية ، ليتوافق مع الفطرة التي خلق الله الناس عليها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [2] .

(2) التوازن بين الفردية والجماعية :

أقام الإسلام التوازن بين الفرد والمجتمع ، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع كما أنه في الوقت ذاته لا يحيف على المجتمع من أجل الفرد . لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي

---

(1) للوقوف على التفاصيل يراجع : اليهودية واليهود ص 31 : 66 ، اليهود : عقيدتهم : طبيعتهم ، مصادر فكرهم د / فرج الوصيف ص 56 .

(2) سورة الملك : الآية (14) .

تمنح له ، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه . إنما يكلفه بما هو في حدود وسعه دون حرج ولا إعنات [1] :

(أ) فالحياة التي صانها الإسلام للفرد : إذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته وجب عليه أن يقدمها راضي النفس ، قرير العين ، معتقدا أن الموت هنا هو عين الحياة ... هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى ، فإن الفرد إذا اعتدى على حياة فرد آخر ، أو اعتدى على حق المجتمع في الأمن والاستقرار ، فقدت حياته ما لها من عصمة .

(ب) وحق التملك ، مقيد بأن يراعي الفرد تحري الحلال في الاكتساب والإنفاق ، وبأداء حق الله وحق المجتمع في المال ، سواء الحقوق الدورية الثابتة أو الحقوق غير الدورية .. فالحقوق الدورية كالزكاة والضرائب وغيرها ، والحقوق غير الدورية التي يفرضها الحاكم المسلم عند الحاجة .

(جـ) وحق الحرية بأنواعها ومجالاتها (الحرية الدينية - السياسية - الفكرية - التعليم ... إلخ) كلها مقيدة بأن لا تتجاوز نطاقها إلى الإضرار بالغير أو المساس بعقائد المجتمع وأخلاقياته ومثله العليا .

(د) ومع تأكيد الإسلام لمبدأ المسئولية الفردية ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [2] وكما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ [3] ... فإنه في الوقت ذاته يؤكد مسئولية الفرد عن الجماعة ، فكل فرد في المجتمع على ثغرة من الثغور ، عليه القيام بحفظها وأداء حق الله فيها ، يقول النبي ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة في مال زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع ومسئول عن رعيته . ألا وكلكم راع ومسئول عن رعيته » [4] .

وتأكيدا لمسئولية الفرد عن المجتمع ، أوجب الإسلام فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

(1) الخصائص العامة للإسلام ص 138 بتصرف يسير . (2) سورة الطور : جزء من الآية (21) .

(3) سورة فاطر : جزء من الآية (18) .

(4) البخاري : ك الجمعة ب الجمعة في القرى والمدن 2 / 380 (893) ، وأيضا في : ك الأحكام ب قول الله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ 13 / 111 (7138) - مسلم : ك الإمارة ب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ... 3 / 1459 (1829) .

يقول تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴾ [1] ويقول المصطفى ﷺ : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » [2] .

وفي هذا المضمار أيضا : النصحية ، يقول النبي ﷺ : « الدين النصيحة » قلنا : لمن ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم [3] » بل يجعل النبي ﷺ النصيحة ركنا من أركان الدين بعد الصلاة والزكاة ، يقول جرير بن عبد الله رضي الله عنه : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » [4] .. وقد حذر الإسلام من التقصير في هذا الأمر ، لأنه يعود على المجتمع كله بالدمار والهلاك ، يقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ... ﴾ [5] . ويقول النبي ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعا » [6] .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا أيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » [7] .

(هـ) ومن معاني الجماعة في الإسلام : ما عرف في الشريعة بـ « فروض الكفاية »

---

(1) سورة آل عمران : جزء من الآية (110) .

(2) أبو داود : ك الملاحم ب الأمر والنهي 4 / 119 (4336) - والترمذي : ك الفتن ب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر 4 / 406 (2169) وقال : هذا حديث حسن - أحمد 5 / 388 ، 390 ، 391 .

(3) مسلم : ك الإيمان ب بيان أن الدين النصيحة 1 / 74 (55) .

(4) البخاري ، ك الأحكام ب كيف يبايع الإمام الناس 13 / 193 (7204) - مسلم : ك الإيمان بيان أن الدين النصيحة 1 / 75 (56) .

(5) سورة الأنفال : جزء من الآية (25) .

(6) البخاري : ك الشركة ب هل يقرع في القسمة ؟ والاستهام فيها 5 / 157 (2493) - الترمذي : ك الفتن ب تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب .. 4 / 470 (2173) وقال : هذا حديث حسن صحيح - أحمد 4 / 268 ، 269 .

(7) أبو داود : ك الملاحم ب الأمر والنهي 4 / 120 (4338) - الترمذي : ك الفتن ب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر 4 / 406 (2168) وقال هذا حديث صحيح ، ك التفسير ب 6 ومن سورة المائدة 5 / 240 ح (3057) وقال : هذا حديث حسن صحيح - أحمد 1 / 7 .

فكل علم أو صناعة أو حرفة أو نظام أو مؤسسة ، تحتاج إليها الجماعة المسلمة في دينها أو دنياها ، فتحقيقها فرض كفاية على المسلمين ، بمعنى أنه إذا قام بها عدد كاف فقد ارتفع الحرج ، وسقط الإثم عن باقي الجماعة ، وإلا أثمت الجماعة كلها واستحقت عقوبة الله .

(و) والمسلمون كلهم مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام وإقامة حدوده ، ومن هنا كان خطاب التكليف في القرآن موجها إلى الجماعة ، وتكرر قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بهذه الصيغة الجماعية ليؤكد وجوب التكافل بين الجماعة في تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه .

خوطبت الجماعة كلها بمثل قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [1] وقوله : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [2] وإن كان الذي يقوم على هذه الحدود هو الدولة والحكام ، لأن الجماعة كلها مسئولة عن إقامتها ، مؤاخذة بعقاب الله إذا عطلتها .

(ز) وقد أضفى الإسلام الصبغة الجماعية على شعائره التعبدية ، فالصلاة مثلا يحرص الإسلام على إضفاء الروح الجماعية عليها ، من خلال الترغيب في أدائها جماعة ، حيث يقول النبي ﷺ : « صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته ، وفي سوقه خمسا وعشرين ضعفا ، وذلك أن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يحدث ، تقول : « اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه .. ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » [3] .

وبلغ من حرص النبي ﷺ على تأكيد معنى الجماعة في الصلاة ، أنه لم يرخّص للرجل فاقد البصر أن يتخلف عن حضور الجماعة في المسجد ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال : يا رسول الله ، ليس لي قائد يقودني إلى المسجد . فسأل رسول الله ﷺ أنه يرخص له فيصلي في بيته ، فرخص له . فلما ولى دعاه فقال له : « هل تسمع النداء بالصلاة » قال : نعم . قال : « فأجب » [4] « بل

---

(1) سورة المائدة : جزء من الآية (38) . (2) سورة النور : جزء من الآية (2) .

(3) البخارى : ك الأذان ب فضل صلاة الجماعة 2 / 131 (647) مسلم : ك المساجد ومواضع الصلاة ب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها 1 / 449 (649) .

(4) سنن أبي داود كتاب الصلاة باب التشديد في ترك الجماعة 1 / 148 (552) وإسناده حسن ، فيه عاصم بن بهدلة وهو حسن الحديث (ينظر التقريب ص 285) .

إنه ﷺ يتوعد المتخلفين عن الجماعة.وعيدا شديدا ، فيقول : « والذي نفسي بيده ، لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم آمر رجلا فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم » [1] .

وفي هذا الإطار شرعت صلاة الجمعة ، وصلاة العيدين ، كما فرض الحج على المستطيع في العمر مرة ، توكيدا لروح الجماعة في عبادات الإسلام .

(ح) وفي مجال الآداب العامة ، حث الإسلام على جملة من الآداب الاجتماعية ، أراد بها أن يخرج المسلم من دائرة الفردية والانعزالية ، التي قد تروق للانطوائيين والانعزاليين .. مثل .. إفشاء السلام ، والمصافحة عند اللقاء ، وتشميت العاطس ، وعيادة المريض ، وتهنئة المسرور ، وتعزية الحزين ، وزيارة الناس ، والإهداء إليهم ، وغير ذلك من الآدب والواجبات التي جعلت الشعور الجماعي والتفكير الجماعي ، والسلوك الجماعي جزءا لا يتجزأ من حياة المسلم [2] .

بهذا كله ، أقام الإسلام الموازين القسط بين الفرد والمجتمع ، كما أقامها قبل ذلك بين الروح والجسد ، وهذا من أبرز مظاهر الوسطية أو التوازن في الإسلام .

(3) التوازن في المنهج الإسلامي :

جاء الإسلام وسطا في عقيدته وشريعته وأخلاقه :

(أ) في العقيدة :

العقيدة الإسلامية عقيدة متوازنة ، ويتجلى هذا التوازن في عدة مظاهر : منها :

1 - فهي عقيدة متوازنة بين الخرافة والمادية .. فالإسلام وسط بين المذاهب الخرافية التي تسرف في الاعتقاد ، فتصدق بكل شيء وتؤمن بغير برهان ، والمذاهب المادية التي تنكر ما وراء الحس .. فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني [3] .

2- وهناك أيضا التوازن بين الجانب الغيبي الذي لا يملك المرء حياله إلا التسليم المطلق (كمسألة المشيئة الإلهية وكيفية تعلقها بالخلق) وبين الجانب الآخر الذي تكون الفرصة

---

(1) البخاري : ك الأذان ب وجوب صلاة الجماعة 2 / 125 (644) – مسلم ك المساجد ومواضع الصلاة ب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها 1 / 451 (651) .

(2) ينظر : الخصائص العامة للإسلام ص 143 .

(3) يراجع : المرجع السابق ص 123 ، 125 .

متاحة فيه أمام العقل البشري والفكر الإنساني ليعمل ويفهم ويدرك .

« إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول ، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود ، ليست عقيدة ، ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها وأشواقها الخفية إلى المجهول المستتر وراء الحجب المسدلة .. كما أن العقيدة التي لا شيء فيها إلا المعميات التي لا تدركها العقول ليست عقيدة ... فالكينونة البشرية تحتوي على عنصر الوعي . والفكر الإنساني لابد أن يتلقى شيئا مفهوما له فيه عمل ، يملك أن يدبره ويطبقة .

والعقيدة الشاملة هي التي تلبي هذا الجانب وذاك ، وتتوازن بها الفطرة ، وهي تجد في العقيدة كفاء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق » [1] .

3- وهناك أيضا التوازن بين ثبات السنن الكونية وطلاقة المشيئة الإلهية .. فإذا كانت الإرادة الإلهية قد شاءت أن تظهر للناس في صورة نواميس مطردة وسنن جارية ، يدركها الناس ، ويملكون أن يراقبوها ويكيفوا حياتهم وفقها ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ .. ﴾ [2] وقال ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [3] وقال : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [4] وقال ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [5] ... إذا كان الأمر كذلك ، فإن هناك المشيئة الإلهية المطلقة التي تقف وراء السنن الكونية والتي تملك أن تعطلها حينما تشاء ، كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [6] . وقال : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [7] وقال سبحانه في قصة زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [8] .

« وبين ثبات السنن وطلاقة المشيئة ، يقف الضمير البشري على أرض ثابتة مستقرة ، يعمل فيها ، وهو يعلم طبيعة الأرض ، وطبيعة الطريق ، وغاية السعي ، وجزاء الحركة .

---

(1) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 114 ، 115 . (2) سورة البقرة : جزء من الآية (258) .
(3) سورة الرحمن : الآية (5) . (4) سورة يس : الآية (40) .
(5) سورة الأحزاب : الآية (62) . (6) سورة الأنبياء : الآيتان (68 ، 69) .
(7) سورة الشعراء : الآيات (61 ، 63) . (8) سورة مريم : الآيتان (8 ، 9) .

ويتعرف إلى نواميس الكون وسنن الحياة ، وطاقات الأرض وينتفع بها وبتجاربه الثابتة فيها بمنهج علمي ثابت .. وفي الوقت ذاته ، يعيش موصول الروح بالله ، معلق القلب بمشيئته ، لا يستكثر عليها شيئا ، ولا يستبعد عليها شيئا ، ولا ييأس أمام ضغط الواقع أبدا » [1] .

(4) وهناك أيضا التوازن بين عبودية الإنسان لله ، وبين مقامه الكريم ومنزلته السامية في الأرض ، « وقد سلم التصور الإسلامي في هذا الصدد من كل الهزات والأرجحات التي تعاورت المذاهب والمعتقدات والتصورات : ما بين تأليه الإنسان – في صوره الكثيرة – وتحقير الإنسان إلى حد الزراية والمهانة » [2] وقد سبق بيان أن الإنسان مخلوق مكلف مسئول ، سيد في الكون ، عبد لله ، قادر على تغيير ما حوله ، بقدر ما يغير ما بنفسه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [3] .

(5) والعقيدة الإسلامية أيضا وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية أو البنوة للإله ، وبين الذين كذبوهم واتهموهم وصبوا عليهم كؤوس العذاب .

فالأنبياء بشر مثلنا ، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ولكثير منهم أزواج وذرية، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق ، أن الله منَّ عليهم بالوحي وأيدهم بالمعجزات ، ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [4] .

(6) ومن مظاهر التوازن في عقيدة الإسلام أيضا ، ذلك التوازن في علاقة العبد بربه .. بين موجبات الخوف والرهبة والاستهوال . وموجبات الأمن والطمأنينة والأنس .. فصفات الله الفاعلة في الكون وفي حياة الناس والأحياء ، تجمع بين هذا الإيحاء وذاك في توازن تام .

ويقرأ المسلم في كتاب الله الكريم من صفات ربه ما يخلع القلوب ويزلزل الفرائص ويهز الكيان ، من مثل قوله تعالى :

- ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ... ﴾ [5] .
- ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [6]

(1 ، 2) ينظر : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 117 ، 120 .

(3) الخصائص العامة للإسلام ص 124 ، والنص القرآني جزء من الآية (11) من سورة الرعد .

(4) سورة إبراهيم : الآية (11) وينظر المرجع السابق ص 124 .

(5) سورة البقرة : جزء من الآية (235) .

(6) سورة آل عمران : جزء من الآية (4) .

- ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [1] .

* ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [2]

وصور العذاب في مشاهد القيامة رعيبة رعيبة .

ويقرأ المسلم كذلك من صفات ربه ما يملأ قلبه طمأنينة وراحة ، وروحه أنسا وقربا ، ونفسه رجاء وأملا . من مثل قوله تعالى :

- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ... ﴾ [3] .

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4]

- ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [5] .

- ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [6] .

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [7] .

وصور النعيم في مشاهد القيامة رخية رخية .

« ومن هذا وذاك يقع التوازن في الضمير بين الخوف والطمع ، والرهبة والأنس ، والفزع والطمأنينة ... ويسير الإنسان في حياته ، يقطع الطريق إلى الله ، ثابت الخطو ، مفتوح العين ، حي القلب ، موصل الأمل ، حذرا من المزالق ، صاعدا أبدا إلى الأفق الوضيء » [8] .

بهذا كله ظهر جليا مدى التوازن والوسطية في عقيدة الإسلام .

(ب) التوازن في التشريع :

كما كان الإسلام وسطا في عقيدته فهو أيضا وسط في تشريعاته ونظمه ، وسأكتفي بذكر بعض الأمثلة :

(1) **ففي الجانب الاجتماعي** : كانت الوسطية وكان التوازن في مجال تهذيب الغريزة الجنسية فلم يأمر الإسلام بكبتها وتعطيلها لما فيه من أضرار نفسية وجسدية بالغة ،

---

(1) سورة البروج الآية (12) .
(2) سورة هود : الآية (102) .
(3) سورة البقرة : جزء من الآية (186) .
(4) سورة الحج : جزء من الآية (65) .
(5) سورة البقرة : جزء من الآية (207) .
(6) سورة البروج : الآية (14) .
(7) سورة مريم : الآية (96) .
(8) يراجع خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 134 - 137 .

ولم يطلق لها العنان لتصرف في أي موضع ، لما في ذلك من انحلال للمجتمع وشيوع الفساد فيه ، وإنما كان الإسلام وسطا في تناوله لهذه المسألة ، حيث ضمن للشهوة الجنسية التصريف النظيف من خلال الزواج الشرعي .

كذلك في مسألة الطلاق ، تجد النظرة الإسلامية نظرة متوازنة ، فلم يحرم الطلاق تحريما باتا كما في بعض المذاهب النصرانية ، أو يقيده بالخيانة الزوجية كما في البعض الآخر .. أيضا لم يكن متساهلا في أمر الطلاق ذلك التساهل الحادث في بعض المجتمعات .. وإنما أباح الإسلام الطلاق حينما تفشل جميع محاولات رأب الصدع وإزالة أسباب الشقاق ، واعتبره الإسلام أبغض الحلال ، كما يقول النبي ﷺ « إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق » [1] ، وجعله الإسلام رجعيا في المرة الأولى والثانية ليتيح للزوجين أن يعيدا جمع الشمل ولم شعث الأسرة .

وأيضا في قضية تعدد الزوجات كان موقف الإسلام موقفا متوازنا ، حيث وقف موقفا وسطا بين الذين أباحوه بإطلاق ، دون التقيد بحد أقصى ، وبين الذين رفضوه وأنكروه وسخروا من إباحة الإسلام له ...

فقد أباح الإسلام التعدد ، وقيده بأربع زوجات ، ووضع له شرط العدل كأساس للجواز والإباحة . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ... ﴾ [2] .

(2) **وفي الجانب الاقتصادي** : كان الإسلام وسطا بين المذاهب التي أطلقت العنان للفرد ، والمذاهب التي جعلته عبدا للدولة والمجتمع ... فقد كانت النظرة الإسلامية وسطا بين هؤلاء وأولئك ، كما سبق وتبين ذلك من خلال التوازن بين الفردية والجماعية .

(3) **وفي الجانب السياسي** : يظهر التوازن في علاقة الحاكم بالرعية ، فللحاكم حق السمع والطاعة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [3] وطاعته مقيدة – كما هو واضح من نص الآية – بطاعة الله ورسوله ، ويقول النبي ﷺ : « اسمعوا

---

(1) أبو داود : ك الطلاق ب في كراهية الطلاق 2 / 261 (2177 ، 2178) – ابن ماجة : ك الطلاق ب (1) حدثنا سويد بن سعيد 1 / 650 (2018).

وصححه السيوطي في الجامع الصغير 1 / 10 (53) وعزاه لأبي داود وابن ماجه والحاكم عن ابن عمر .

(2) سورة النساء : جزء من الآية (3) وينظر : حديث من القلب عبد الحميد كشك ص 101 : 105 .

(3) سورة النساء : جزء من الآية (59) .

وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى »[1] .
ويقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان »[2] وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[3] .

وفي مقابل هذا الحق ، فإن للرعية حقوقا على الحاكم ، من أهمها : أن يسوسهم بالعدل ، وأن لا يحابي أو يجامل ، وأن يعطي كل ذي حق حقه ، وأن يترفق بهم ويحسن إليهم ، يقول النبي ﷺ : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا حرم الله عليه الجنة »[4] .

وقد مضى في المبحث السابق عند الحديث عن الحرية السياسية ، ذكر بعض الأحاديث الشريفة التي تبين عاقبة الولاة الذين لا يرعون لله حرمة ، فيحابون ويجاملون على حساب الدين والمجتمع .

وبهذه النبذة المختصرة ، يتبين لنا مدى وسطية الإسلام وتوازنه في الجانب التشريعي .

(جـ) التوازن في الإخلاق :

جاء الإسلام وسطا في أخلاقياته ، فلم ينظر إلى الإنسان باعتباره خيرا محضا أو شرا محضا ، أي لم يكن تعامله مع الإنسان على أنه ملك أو شيطان .. وإنما تعامل معه بما يتوافق مع أصل فطرته وطبيعة تكوينه ، فهو مخلوق مكلف مختار ، صالح للطاعة أو المعصية ، فيه الجانب المادي والجانب الروحاني .. وسأضرب لذلك مثالا واحدا ..

---

(1) سبق تخريجه .

(2) البخاري : ك الأحكام ب كيف يبايع الإمام الناس 13 / 192 (7199 ، 7200) – مسلم : ك الإمارة ب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية 3 / 1470 (1709) .

(3) البخاري : ك الجهاد – ب السمع والطاعة للإمام 6 / 115 (2955) ، وفي : ك الأحكام – ب : السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية 13 / 121 (7144) – مسلم : ك الإمارة ب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية 3 / 1469 (38 - 1839) .

(4) البخاري : ك الأحكام ب من استرعى رعية فلم ينصح 13 / 126 ، 127 (7150) – مسلم : ك الإيمان ب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار 1 / 125 (227) ، وأيضا : ك الإمارة ب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ... 3 / 1460 – (21 - 1830) .

إذا وقع اعتداء على إنسان ما ، فإن النصرانية مثلا تدعوه إلى الإفراط في التسامح والعفو وفي هذا يقول إنجيلهم : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر » ويقول : « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ... » ولا شك أنها نظرة مثالية محمودة ، ولكنها ليست متوازنة . لأن الإنسان بطبيعته وفطرته يميل إلى الدفاع عن نفسه ورد الاعتداء الواقع عليه ، والانتقام ممن أهانه أو غض من كرامته ، فإذا وقع الاعتداء ، وطلب منه إلزاما أن يعفو ويصفح ، فلا شك أنه سيكبت غضبه وغيظه على كره ومضض ، وسيحاول التنفيس عن غضبه وغيظه حينما تسنح الفرصة المناسبة .

أما الإسلام ، فلأنه دين متوازن وواقعي ، فإنه سيأتي وسطا في هذه القضية ، بأن يراعي في النفس البشرية نوازع الرغبة في الانتقام والثأر ، فأباح للمعتدى عليه أن يرد الاعتداء بمثله فقط ، بحيث لا تنتقل المسألة من خانة رد الاعتداء إلى خانة التشفي والظلم ، يقول تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (1) ويقول سبحانه : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... ﴾ (2) .

ولكن الإسلام وهو يبيح رد الاعتداء ، فإنه يرغّب في العفو والتسامح ، أي أنه يطلب من المعتدى عليه أن يتسامى بغريزة رد الاعتداء إلى مستوى أعلى وأفق أرحب ..

ويتضح ذلك مما يلي :

(1) أطلق الإسلام على عملية رد الاعتداء ، صفة « الاعتداء » كما بينت الآية المذكورة آنفا ﴿ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وصفة « السوء » كما قال في الآية الأخرى ﴿ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ .. مع أن الأصل أن لا يطلق على رد الاعتداء صفة « الاعتداء » ولا على رد السيئة « سيئة » .. لكن هذا - في حقيقة الأمر - ترغيب في العفو والمسامحة من طرف خفي ، فالمسلم بطبيعته ينأى بنفسه بعيدا عن الاعتداء وعن السيئة ، فهو يؤثر العفو والتسامح .

(2) اشترط الإسلام تحقق « المثلية » في عملية رد الاعتداء ، وأكد عليها ، وحذر من تجاوزها .. وهذا أيضا في واقع الأمر دعوة إلى العفو والتسامح إذ أن المسلم الورع الذي يخشى الله ويراقبه ، يخاف أن لا يلتزم بهذه « المثلية » ويخاف أن تدفعه غريزة الانتقام إلى رد الصاع صاعين ، والتشفي من غريمه .. لذا فإنه يؤثر السلامة ، ويجنح إلى

(1) سورة البقرة : جزء من الآية (194) .

(2) سورة الشورى : جزء من الآية (40) .

العفو والتسامح .. خاصة وأن الله عز وجل قد استجاش فيه مشاعر التقوى ، حينما قال في نهاية الآية الأولى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

(3) بين الإسلام أن العفو والتسامح هو المسلك الأولى والأجدر بالقبول ، وذلك في ختام الآية الثانية ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [2] .

(4) ثم يحث الإسلام على السمو إلى منزلة أعلى ومكانة أسمى ، وذلك حينما لا يكتفي بالترغيب في العفو ، وإنما يرغب في الإحسان إلى المسيء ، ومواجهة السيئة لا بسئية مثلها وإنما بحسنة تزيل أسباب العداوة وتمحو دوافع البغضاء .. ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [3] ويقول جل شأنه : ﴿ .. وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [4] ويقول ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [5] ويقول المصطفى ﷺ : « أمرني ربي بتسع أوصيكم بهن – وكان من بينها – وأن أعفو عمن ظلمني وأعطي من حرمني وأصل من قطعني ... » .

وبهذا أقام الإسلام التوازن في خلق المسلم فلا إفراط ولا تفريط ولا وكس ولا شطط .

* * *

هذه نبذة عن وسطية الإسلام وتوازنه ، تأتي كحلقة في هذه السلسلة الذهبية التي تمثل أهم خصائص ديننا الإسلامي الحنيف ، الدالة على عالميته ، والمؤكدة لشمول رسالته ، فهو بحق المنهج الأوحد الصالح لجميع الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، فمهما ابتغت البشرية الهدي والرخاء والاستقرار في غير هذا المنهج الرباني الشامل المتوازن ، فإنها لن تحقق أملها ولن تصل إلى مبتغاها ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [6] .

---

(1) سورة البقرة : جزء من الآية (194) .
(2) سورة الشورى : جزء من الآية (40) .
(3) سورة فصلت : الآية (36) .
(4) سورة آل عمران : جزء من الآية (134) .
(5) سورة الشورى الآية : (43) .
(6) سورة طه : جزء من الآية (123) والآية (124) .

المبحث السادس : الإيجابية

يمتاز الإسلام الحنيف بأنه دين إيجابي ، وليس دينا سلبيا يكتفي بأن يكون مجرد عقيدة في الصدور ، أو مجرد أخلاقيات مثالية لا صلة لها بالواقع .. وإنما كان الإسلام منهج حياة ، دافعا الإنسان إلى ممارسة مهمته التي من أجلها خُلق وبسببها وُجد .

ولزيادة وضوح هذه القضية ، أعرض فيما يلي بعض مظاهر الإيجابية في المنهج الإسلامي :

(1) الإيجابية في علاقة الله بالكون والحياة :

قدمت لنا بعض التصورات الفلسفية (قديما وحديثا) ، وبعض الأديان الوضعية ، وبعض الأديان السماوية المحرفة ، تصورات شتى للإله وصفاته .. وهي تصورات محرفة منحرفة ، إذ أنها تجعل الإله سلبيا ، لا علاقة له بالكون ولا بالحياة والأحياء ، بزعم أنه أجل وأعظم من الموجودات وأن هذه الموجودات أقل شأنا من أن يعلمها الله [1] .

أما في عقيدة الإسلام : فإن الله عز وجل « موجود ، خالق ، مريد ، مدبر ، مهيمن ، قادر ، فعال لما يريد .. كامل الإيجابية والفاعلية .. إليه يرجع الأمر كله .. وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء ، وكل انبثاقة فيه بعد ذلك ، وكل حركة ، وكل تغير وكل تطور .. ولا يتم في هذا الكون شيء إلا بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره .. وهو سبحانه مباشر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عبد من عباده في كل حال من أحواله ، ولكل حي ، ولكل شيء في هذا الوجود كذلك » [2] .

وفي القرآن الكريم الكثير والكثير من الآيات التي توضح هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [3] .

* ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [4] .

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ

---

(1) يراجع خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 146 : 148 .

(2) المرجع السابق ص 149 .

(3) سورة آل عمران : الآيتان (26 ، 27) .

(4) سورة الرعد : الآية (39) .

بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ... ﴾ [1] .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] .. وغيرها من الآيات .

إن هذه الإيجابية في علاقة الله سبحانه بخلائقه كلها هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة ، والعقيدة الصورية السلبية ، وفرق كبير بين الإنسان الذي يتصور أن إلهه لا يحفل به ولا يحس بوجوده ، أو لا يعلم بوجوده أصلا - كما يقول بعض الفلاسفة - والإنسان الذي يحس ويعلم أن الله هو خالقه ورازقه ، ومالك أمره كله في الدنيا والآخرة .

نعم .. الفارق كبير والبون شاسع - فالمؤمن بالله وبفاعليته وإيجابيته في الكون ، يشعر بيد العناية الإلهية وهي تحوطه بالعناية والتأييد والنصرة ، فتسكب في نفسه الطمأنينة والسكينة فيمضي واثق الخطو ، قرير العين ، موقنا بنصر الله وعونه ، كما حدث في هجرة المصطفى ﷺ وفي غزوة بدر ، وفي جميع مواقف المسلمين الكبرى ، وقبلها في جميع قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعدها مع كل مسلم موقن بربه حق اليقين .

(2) الإيجابية في علاقة الإنسان بالكون والحياة :

« إن التصور الإسلامي ليس تصورا سلبيا يعيش في عالم الضمير قانعا بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية ، أو تصوفية روحانية ، إنما هو « تصميم » لواقع مطلوب إنشاؤه وفق هذا التصميم . وطالما هذا الواقع لم يوجد فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته ، إلا باعتباره حافزا لا يهدأ لتحقيق ذاته .

هذا ما يثيره التصور الإسلامي في شعور المسلم .. ومن ثم يجد دائما هاتفا ملحا في أعماقه ، يهيب به إلى تحقيق هذا التصور في دنيا الواقع ، ويؤرقه ، حتى يهب للعمل ، ويفرغ طاقته الإيمانية كلها في هذا العمل الإيجابي البناء ، وفي إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة في حياة الناس .

---

(1) سورة الرعد : الآيات (8 : 11) .

(2) سورة الأنعام : الآية (59) .

وحيثما ذكر الإيمان في القرآن أو ذكر المؤمنون ، ذكر العمل ، الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان ، فليس الأمر مجرد مشاعر ، إنما هو مشاعر تفرغ في حركة ، لإنشاء واقع وفق « التصميم » الإسلامي للحياة ، أو وفق التصور الإسلامي للحياة » [1] .

والآيات في هذا المقام كثيرة ... من بينها :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [2] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [3] .

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [4] .

(3) الإيجابية في إلغاء الوساطة الكهنوتية بين الله والإنسان :

سبق بيان مدى التكريم الإلهي للإنسان في إلغاء الوساطة بين الله وعباده ، وهذا القرب بين الخالق والمخلوق له أثره الإيجابي في حياة المرء ، إنه يقف بين يدي ربه خاشعا ضارعا ، يرجو رحمته ويخاف عذابه ، هكذا بكل بساطة ، دون تعقيدات كهنوتية أو مراسيم كنسية .. وهنا يشعر الإنسان بالروحانية الحقة تسري في أوصاله ، لتدفعه إلى الحياة الواقعية ، ليعمر الأرض ويصلح من شأنها .. فإذا تعثر في سيره ووقع فريسة لشهواته ، وأسيرا لنزعات الشيطان ، فباب التوبة لا يوصد ، وسبيل الإنابة لا يغلق ، وما عليه إلا أن يندم على معصيته بعد الإقلاع التام عنها ، ثم يعزم على عدم العودة إليها ، وبهذا يعود مرة أخرى لفاعليته وإيجابيته ، ويواصل مسيرة حياته .

(4) الإيجابية في العبادات والشعائر :

ليست الشعائر التعبدية في المنظور الإسلامي مجرد طقوس أو مراسم شكلية ، وإنما لكل شعيرة دورها في تزكية الفرد وتطهيره ، وفي ترقية المجتمع وتطويره [5] .

وقد مضى في مبحث « الإنسانية » بحمد الله ، بيان أثر الشعائر التعبدية على الفرد والمجتمع .

---

(1) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 157 .

(2) سورة الكهف : الآية (107) .

(3) سورة لقمان : الآية (8) .

(4) سورة العصر .

(5) يراجع في النفس والمجتمع ص 135 : 144 .

(5) الإيجابية في الإيمان بالبعث والجزاء :

إن الإيمان بالبعث والجزاء ، وبالحياة الآخرة التي لا انتهاء لها ، أمر ضروري لتحقيق معنى الإيجابية في الإسلام .. وتقرير ذلك أنه لو كانت الدنيا نهاية المطاف ، لا بعث ولا آخرة ولا حساب ، ولا جزاء ، ولا جنة ولا نار ، كما يقول الماديون الدهريون ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [1] ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [2] .

لو كان الأمر كذلك لما وجد الناس أمامهم أي مانع يمنعهم من الظلم والسلب والنهب وارتكاب الفواحش والمنكرات ، ولو كان الأمر كذلك أيضا لكانت خسارة أهل الخير والطاعة خسارة جسيمة ، حيث حاربوا أهواءهم وشهواتهم ، وحرموا أنفسهم من ملذات كثيرة طلبا لمرضاة الله .

ولو كان الأمر كذلك أيضا لسعى الإنسان في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، لأنه - والحالة هذه - لا يخشى عذابا ولا يخاف عقابا .

وهذا كله عبث يتنزه الله عنه ... وهذا كله أمر يدفع إلى السلبية ، إذ الدافع إلى فعل الخيرات والتزام الطاعات مفقود معدوم .. وهو أمر لا يتلاءم مع الإسلام وإيجابيته .

لذا كان الإيمان بالحياة الآخرة الدائمة الباقية أمرا إيجابيا ، دافعا إلى عمل الصالحات وفعل الخيرات ، أي أنه دليل ومظهر من مظاهر الإيجابية في هذا الدين العظيم .

(6) إيجابية الإنسان أمام القدر الإلهي :

لا يقع حدث في هذا الكون إلا بمشيئة الله وقدره ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [3] ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا .. ﴾ [4] .. هذه حقيقة لا ريب فيها .. وحقيقة أخرى أن الله عز وجل قد خلق الإنسان وكرمه بالعقل والاختيار ، أي أن الله عز وجل قد أثبت للمشيئة الإنسانية ما يمكن أن يسمى بـ « الإيجابية » في الكون .

ولا تعارض بين الحقيقتين ، لأن الله هو الذي شاء الاختيار للإنسان ، فكل ما يصدر

---

(1) سورة الجاثية : جزء من الآية (24) .
(2) سورة الأنعام : الآية (29) .
(3) سورة القمر ، الآية (49) .
(4) سورة الحديد : جزء من الآية (22) .

عن الإنسان باختياره ، إنما يرجع إلى طلاقة المشيئة الإلهية التي منحت الإنسان هذا الاختيار .. وهذا واضح في قول الله عز وجل في أعقاب غزوة أحد وهو يخاطب المؤمنين : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [1] .

فانظر إلى قوله ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ وقوله ﴿ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ واجتماعهما في نفس الموضع : إن قدر الله في الناس هو الذي ينشيء ويخلق كل ما ينشأ وما يخلق من الأحداث والأشياء والأحياء .. وهو الذي يصرف حياة الناس ويكيفها .. شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله .. كل شيء فيه مخلوق بقدر ، وكل حركة تتم فيه بقدر .. ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم ، وما يحدثونه فيها من تغييرات « إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. » .

وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة لا يبطل هذا ولا يعطله [2] . من هنا ، فإن الإيمان بالقضاء والقدر قوة دافعة بناءة محركة ، أي أنه :

* لا ينفي مسئولية الإنسان عن عمله .

* لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب .

* لا يتعارض مع العمل على تغيير الواقع السيئ بكل قوة .

* يؤدي إلى إحداث التوازن في نفس الإنسان ، بين السلبية المحضة – حينما يعتقد بالجبرية المطلقة – وبين تأليه ذاته والفتنة بنفسه – حينما يظن أنه المحرك للأحداث المتحكم في مسارها – [3] .

* * *

هذه بعض مظاهر « الإيجابية » في ديننا العظيم ، ناطقة بأنه ليس دينا سلبيا معزولا في عالم الضمير وعالم المثل ، بل هو منهج حياة لابد أن يطبق ، ومنهج رباني لابد أن يتحقق ، ومن هنا يأتي توافقه مع الفطرة الإنسانية التي خلق الله الناس عليها .. ومن هنا فهو المنهج الأمثل للعالمين .

---

(1) سورة آل عمران : الآيتان (165 ، 166) . (2) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 123 .

(3) يراجع مفاهيم ينبغي أن تصحح محمد قطب ص 255 : 288 .

المبحث السابع : الواقعية

معنى الواقعية :

يطلق على الإسلام وصف « الواقعية » مرادا به أحد معنيين :

أحدهما : مراعاته لواقع الكون والحياة والإنسان :

الكون : من حيث هو حقيقة واقعة ووجود مشاهد ، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه ووجود أسبق وأبقى من وجوده ، هو وجود الله سبحانه وتعالى .

الحياة : من حيث إنها مرحلة حافلة بالخير والشر ، تنتهي بالموت ، وتمهد لحياة أخرى خالدة ، توفَّى فيها كل نفس ما كسبت .

الإنسان : من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة ، فهو نفخة من روح الله في غلاف من الطين ، ففيه العنصر السماوي والعنصر الأرضي .

ومن حيث هو ذكر وأنثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته .

ومن حيث هو عنصر في مجتمع ، لا يستطيع أن يعيش وحده ، ولا أن يفنى تماما في المجتمع .. هذا هو المعنى الأول ... وقد ذكره الدكتور / يوسف القرضاوي [1] .

ثانيهما : التحقق في عالم الواقع ... وهو ما ذكره الشهيد / سيد قطب [2] .

وإنني أرى أن بين التعريفين تلازما .. فما دام الإسلام يتعامل مع حقائق واقعية ، وما دام يراعي واقع الكون والحياة والإنسان ، فيلزم من ذلك حتما قابليته للتحقق في عالم الواقع المشهود .

تفرد الإسلام بخصيصة الواقعية :

تنبع خصيصة الواقعية في هذا الدين من خصيصته الأولى وهي « الربانية » .. فما دام الإسلام من عند الله ، الخالق لهذا الوجود كله ، العالم بكل ما فيه ومن فيه ، فلابد أن يأتي منهجه متوائما مع واقع هذا الوجود ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [3] .

---

(1) ينظر : الخصائص العامة للإسلام فصل : « الواقعية » .

(2) ينظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، هامش (1) ص 163 .

(3) سورة الملك : الآية (14) .

أما جميع الأفكار والمذاهب البشرية أصلا ، أو التي كانت سماوية الأصل ثم تدخل فيها البشر بالتحريف والتبديل ، فإنها لن تكون متوافقة تمام الموافقة مع الفطرة الإنسانية من جانب ، ولا مع قوانين الوجود العام من جانب آخر .

ويرجع ذلك لما سبق بيانه من عجز الإنسان عن إنشاء نظام شامل متكامل متوازن ، نتيجة قصور الفكر البشري ، وغلبة الشهوات عليه .

مظاهر الواقعية في المنهج الإسلامي

أولًا : في العقيدة :

من مظاهر الواقعية في عقيدة الإسلام :

(1) **اعتماد الإيمان بها على العقل والوحي معا** : الكينونة الإنسانية - كما سبق بيانه في مبحثي الشمول والتوازن - فيها الجانب الذي يتلقى ليسلم والجانب الذي يتلقى ليدرك ويفكر ويبحث .. وقد جاءت عقيدة الإسلام موافقة لطبيعة الإنسان ، ففيها الجانب الذي لا يدرك الإنسان منه شيئا ، مثل كيفية تعلق المشيئة الإلهية بالمخلوقات إيجادا وعدما ، وفيها الجانب الذي يدرك الإنسان بفطرته السوية وعقله المستقيم طرفا منه ، مثل مسألة وجود الله ، وإمكان الوحي ... وغيرها .. وفي هذا واقعية عظيمة .

(2) **الواقعية في الإيمان بالآخرة وما فيها** : إن الإيمان بالبعث والحساب والجزاء ، يتوافق مع فطرة الإنسان وغرائزه . وبيان ذلك من عدة نواح :

الأولى : أن الإيمان بدار أخرى ، فيها الحساب ، وفيها الثواب والعقاب ، يمثل أكبر دافع للإيجابية . فالإنسان بفطرته لا يتحرك ولا يسعى إلا بحافز يحفزه على السعي ودافع يدفعه إلى الحركة ، وترهيب يمنعه من القعود والنكوص . ومن الواقعية في عقيدة الإسلام أنها تجعل الترغيب بالثواب والترهيب بالعقاب دافعا إلى فعل الخيرات واجتناب الفواحش والمنكرات .. والآيات القرآنية والأحاديث النبوية في هذا المضمار لا تعد ولا تحصى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [1] .

---

(1) سورة الفتح : جزء من الآية (17) .

الثانية : أن الفطرة الإنسانية السوية تؤمن بضرورة إثابة الطائع ومعاقبة العاصي ، والإسلام بواقعيته يتواءم مع هذه الفطرة ، فيجعل الإيمان بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء ركنا من أركان عقيدته .

الثالثة : أن طبيعة الإنسان تجنح إلى الخلود وطول البقاء ، وليس أدل على ذلك من إغواء إبليس عليه اللعنة – لآدم وحواء – عليهما السلام – بالأكل من الشجرة المحرمة ، مدعيا أن الأكل منها يمنحهما الخلود والبقاء ، ويصور القرآن الكريم ذلك فيقول سبحانه ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [1] .

وتتجلى واقعية الإسلام الحنيف ومراعاته للفطرة الإنسانية ، حينما جعل الحياة الآخرة هي الدار الباقية الخالدة ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

وهو بهذا : يعترف بالغريزة الإنسانية ويهذبها ويتسامى بها .

الرابعة : أن الإنسان مكون من عنصرين : مادي ومعنوي ، ولهذا جاء الجزاء الأخروي جامعا بين العنصرين ، فالنعيم : منه مادي يتمثل في الجنة وثمارها وأشجارها وأنهارها والحور العين ، وغير ذلك من صنوف النعيم المادي الذي حفلت به آيات القرآن الكريم ، ومنه المعنوي ويتمثل في رضوان الله عز وجل ، وفي التجلي الإلهي على أهل الجنة ، كما جاء في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي العظيم ﷺ .. والعذاب أيضا منه مادي يتمثل في الزقوم والضريع والغسلين وغيره ، ومنه معنوي يتمثل في الخزي والهوان والنكال .

وبهذا كان الإسلام متوائما مع واقع الإنسان وفطرته .

(3) **الواقعية في تحقيق التوازن بين المادية والروحانية** : من مظاهر الواقعية في عقيدة الإسلام أنها حققت التوازن التام بين الجانب المادي والجانب الروحاني في الكينونة الإنسانية ، كما سبق ذكره في مبحث « التوازن » .

---

(1) سورة الأعراف : الآية (20) .

(2) سورة العنكبوت : الآية (64) .

(4) **الواقعية في بشرية الأنبياء والرسل :** إن المشيئة الإلهية حينما اصطفت من البشر أفرادا ليحملوا رسالة الله إلى الناس ، إنما راعت واقع البشر ، وتوافقت مع فطرتهم .. فلو افترضنا أن الأنبياء كانوا من الملائكة ، فكيف يتصور نجاحهم في مهمتهم ، في الوقت الذي لا يستطيع البشر فيه أصلا رؤية الملائكة في صورتهم الأصلية ؟ يضاف إلى هذا افتقاد الأسوة التطبيقية ، بمعنى أن الملائكة الكرام لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغوطون ، ولا يتناكحون ولا يتناسلون ، فكيف يتصور قيامهم بمهمة التطبيق الفعلي لما يأمرون الناس به ؟ .

لذا كان من واقعية المنهج الإلهي أن تكون طبيعة المرسلين مِنْ طبيعة مَنْ أرسلوا إليهم ، أي أن يكون رسل الله بشرا عاديين ، يأكلون ويشربون ، ويعيشون كما يعيش الناس [1] .

(5) **الواقعية في فتح باب التوبة أمام المذنبين :** اقتضت حكمة المولى تبارك وتعالى أن يخلق الإنسان مختارًا ، صالحا لأن يطيع أو يعصي ، وبين له طريق الفلاح ليسلكه ، وطريق الهلاك ليتنكبه ويجتنبه فإذا اختار الإنسان طريق الطاعة والفلاح ، فإن الإسلام لا ينظر إليه على أنه كائن مثالي لا يخطئ ولا يتعثر ، وإنما نظر الاسلام إليه نظرة واقعية :

فهو إنسان ، يخطئ ويصيب ، يذكر وينسى ، تنازعه أهواؤه ، وتغالبه شهواته ، فإذا أصاب ذنبا أو اقترف إثما ، فباب التوبة أمامه مفتوح على مصراعيه ، يقبل على ربه خاشعا ضارعا ، تائبا منيبا ، دون وسيط أو كاهن .. وفي هذا من الواقعية ما فيه .

ثانيًا : في العبادة :

جاء الإسلام واقعيا في شعائره التعبدية من نواحي عدة .. من بينها :

(1) **استيعابها لجزء يسير من وقت الإنسان :**

إن الناظر في شعائر الإسلام التعبدية يراها بحمد الله واقعية ، حيث إنها لا تستوعب جميع وقته فتشغله عن تحصيل رزقه ، والسعي لكسب قوته ، والضرب في الأرض والمشي في مناكبها ، وممارسة جميع ألوان النشاط الإنساني الأخرى ، التي هي في نظر الإسلام أيضا عبادة ، كما سبق بيانه في مبحث « الشمول » .

---

(1) هذه الفكرة مقتبسة من الخواطر الإيمانية لفضيلة الشيخ / محمد متولي الشعراوي .

وعلى هذا فلا رهبانية في الإسلام ، ولا اعتزال للنشاط الإنساني بدعوى التفرغ التام للعبادة ، فهذا مخالف لروح الإسلام وإيجابيته وواقعيته .

(2) **كونها في دائرة الوسع والطاقة :**

جميع الشعائر التعبدية التي فرضها المولى تبارك وتعالى على عباده لا تخرج عن دائرة الطاقة البشرية يقول تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [1] ويقول ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [2] ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [3] .

(3) **مراعاتها للظروف الخاصة والطارئة :**

من يسر الإسلام وسماحته التي بينتها الآيات المذكورة في العنصر السابق ، أنه يرعى الضرورات والأعذار والظروف الاستثنائية ، ويقدرها حق قدرها ، ويشرع لها أحكاما استثنائية تناسبها ، من الرخص والتخفيفات الكثيرة .

وتعداد هذه الرخص والتخفيفات في أبواب الطهارة والصلاة والصيام والحج وغيرها ، مما لا يتسع له المجال ، وهي بحمد الله مشهورة معروفة [4] .

(4) **توافقها مع الفطرة الإنسانية :**

« عرف الإسلام طبيعة الملل في الإنسان ، فنوَّع العبادات ولوَّنها بين عبادات بدنية كالصلاة والصيام ، وأخرى مالية كالزكاة والصدقات ، وثالثة جامعة بينهما كالحج والعمرة . وجعل بعضها يوميا كالصلاة ، وبعضها سنويا أو موسميا كالصيام والزكاة ، وبعضها مرة في العمر كالحج . ثم فتح الباب لمن أراد مزيدا من الخير والقرب من الله ، فشرع التطوع بنوافل العبادات ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ [5] .

وبهذا كله تجلت واقعية الإسلام في العبادات على أكمل وجه وأتمه .

ثالثًا : في التشريعات :

كما كان الإسلام واقعيا في عقيدته وشعائره التعبدية ، فإنه جاء أيضا بتشريعات واقعية ، راعت الفطرة الإنسانية ، وتعاملت مع الإنسان كما خلقه الله عز وجل .

(1) سورة البقرة : جزء من الآية (286) . (2) سورة البقرة : جزء من الآية (185) .
(3) سورة الحج : جزء من الآية (78) .
(4) يراجع : عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية د / يوسف القرضاوي ص 65 : 69 .
(5) الخصائص العامة للإسلام ص 151 .. والنص القرآني جزء من الآية (184) من سورة البقرة .

وتظهر هذه الواقعية في جميع مجالات الحياة :

(1) **في الجانب السياسي** : تظهر واقعية التشريع الإسلامي في المجال السياسي ، حينما ترك الإسلام للناس أن يحددوا لأنفسهم الشكل الذي يقوم عليه نظام الحكم ، من نظام ملكي أو رئاسي أو برلماني .... بما يتوافق مع واقعهم وحالهم ومدى نضجهم السياسي خاصة والحضاري عامة .

المهم في نظر الإسلام أن يكون نظام الحكم قائما على العدالة والشورى وكفالة حقوق الإنسان والقيام بالواجبات الدينية والدنيوية خير قيام .

(2) **في الجانب الاقتصادي** : تتجلى الواقعية هنا في التوازن الذي أحدثه الإسلام بين الفرد والمجتمع ؛ فقد أجاز الإسلام حق الملكية الفردية ، مراعاة لفطرة الإنسان التي تنزع إلى حب التملك والسيطرة ، وفي الوقت نفسه اعترف الإسلام بالجانب الآخر في الفطرة الإنسانية ، وهو النزعة الاجتماعية ، فوضع بعض القيود على الملكية الفردية ، حفاظا على مصالح المجتمع وحقوقه .

(3) **في الجانب الاجتماعي** : أما عن الواقعية في تشريعات الإسلام الاجتماعية فلها عدة مظاهر :

- **الزواج وشئون الأسرة :**

مضى في مبحث « التوازن » ذكر طرف من وسطية الإسلام في تشريعات الزواج والأسرة ، وهنا يزداد الأمر وضوحا وجلاء ، حينما يتبين أن هذه « الوسطية » هي عين « الواقعية » في تشريعات الإسلام في هذه الناحية .

– فقد اعترف الإسلام بالغريزة الجنسية ، قوتها وعنفوانها ، فأباح الزواج وحث عليه ، كسبيل شرعي نظيف لتصريف الشهوة ، فيما يعود على الفرد والمجتمع بكل خير .

وتتجلى الواقعية هنا في أن الإسلام لم يأمر بكبت تلك الشهوة ، ولم ينظر إليها نظرة احتقار وازدراء كما فعلت بعض المذاهب البشرية والنحل المحرفة .

– وأباح الإسلام الطلاق كحل واقعي ، حينما تصبح الحياة الزوجية مستحيلة بين زوجين استحكمت بينهما البغضاء ، وحل بينهما النفور التام .

وهذا أيضا من واقعية الإسلام ، فإن بعض المذاهب التي نادت بتحريم الطلاق ، رأت

أن العلاقة الزوجية علاقة مؤبدة ، وأن ما ربطه الله لا يفصمه الإنسان ، هذه المذاهب عادت – تحت ضغط الواقع وإكراه الوقائع – لتبيح الطلاق .

– كما شرع الإسلام تعدد الزوجات .. كعلاج واقعي نظيف لبعض الأوضاع الاستثنائية ، فقد يحدث في بعض المجتمعات أن يزيد عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال ، خاصة في أعقاب الحروب الطاحنة .

وقد يحدث أن تكون الزوجة عاقرا لا تلد ، والزوج تتوق نفسه إلى الإنجاب ، استجابة لغريزة الامتداد وحب الخلود في نفس الإنسان .

وقد يحدث أن تكون الزوجة مريضة بمرض لا يرجى برؤه ، والزوج تنازعه غريزته ، وتناوشه شهوته ، وتغالبه فطرته ...

فما هو الحل الواقعي النظيف لمثل هذه الوقائع والأحداث ؟ !

ارتضت بعض المذاهب المثالية أن تكبت الدوافع الجنسية ، وطالبت الإنسان بمغالبة غريزته ، ومدافعة شهوته .. وهو حل غير واقعي يؤدي إلى كثير من الأمراض النفسية .

وارتضت بعض المجتمعات أن تعترف بتعدد الخليلات والعشيقات ، واعترضت بشدة على تعدد الزوجات الشرعيات ... وهو حل يؤدي بالمجتمع إلى الفوضى والبهيمية والانحلال .

أما الحل الواقعي المثالي النظيف .. فهو إباحة تعدد الزوجات بشرط تحقيق العدل بينهن وكفالة الحياة الإنسانية الكريمة لهن .. وهو ما جاء به الإسلام الحنيف .

● **الترويح عن النفس ، واللهو البريء :**

الملل من طبيعة النفس البشرية ، ولذا فهي تجنح كثيرا إلى الميل للترويح واللهو ، وقد راعى الإسلام هذه الناحية في النفس البشرية ، فأباح الترويح النظيف واللهو البريء ... ما دام في سياق شرعي ملتزم بالقيم السامية والفضائل العالية .

* فقد سابق النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها ، فسبقته ، ثم سابقها مرة أخرى – بعد أن غشيها اللحم – فسبقها ، وقال لها ، « هذه بتلك » [1] .

* كما أباح النبي ﷺ للأحباش أن يلعبوا بالحراب في مسجده الشريف ، وسمح

---

(1) أخرجه أبو داود في الجهاد باب في السبق على الرجل 3 / 30 (2578) ، ابن ماجة في النكاح باب حسن معاشرة النساء 1 / 636 (1979) ، وقال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح على شرط البخاري .

للسيدة عائشة رضي الله عنها أن تشاهدهم حتى شبعت [1] .

* وحينما دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على النبي ﷺ وعنده جاريتان تغنيان ، وأراد أن ينهرهما ، قال له النبي ﷺ : « دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا » وقال أيضا : « حتى تعلم اليهود أن في ديننا فسحة ، وأني بعثت بحنيفية سمحة » [2] .

* وقد كان ﷺ يمازح أصحابه ويضاحكهم ، ولا يقول إلا حقا .. ومواقفه ﷺ في هذا المضمار كثيرة وجليلة .

● **التمتع بطيبات الحياة ومباهجها (في حدود الشرع والفضيلة) .**

من أعظم مظاهر الواقعية في التشريع الإسلامي ، أن أباح للإنسان التمتع بطيبات الحياة وزينتها ومباهجها ، لأن النفس الإنسانية مجبولة على التطلع والتشوق دائما إليها .. ومن ثم استنكر القرآن مسلك نفر جعلوا النفور من زينة الحياة الدنيا مذهبهم وقاعدة حياتهم ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [3] .

كما راعت التشريعات الإسلامية فطرة المرأة ، وميلها إلى الزينة والتجمل ، فأباح لها لبس الحرير والتختم بالذهب ، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال عن الذهب والحرير : « هذان حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم » .

ولكن ينبغي أن ينتبه الإنسان إلى أن الإسلام كان متوازنا في نظرته إلى الحياة الدنيا ، ما بين الزهد التام فيها والرغبة عن زينتها ومباهجها ، وبين الانطلاق التام والانسياق الكامل في التمتع بزينة الحياة .. وهذا التوازن هو في الوقت نفسه نظرة واقعية يمتاز بها هذا الدين الحنيف .

* * *

هذه لمحة سريعة عن « الواقعية » كواحدة من خصائص الإسلام ، وهي واقعية تختلف تمام الاختلاف عن « الواقعية » التي يتحدث عنها بعض الفلاسفة ، ويعنون بها الإيمان بالواقع المحسوس وحده ، وعدم الاعتراف بما وراء الحس والمشاهدة .

(1) أخرجه البخاري في العيدين باب الحراب والدرق يوم العيد 2 / 440 (949 ، 950) ، ومسلم في صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد 2 / 607 (892) .
(2) أخرجه البخاري في العيدين باب سنة العيدين لأهل الإسلام 2 / 445 (902) ومسلم في الموضع السابق .
(3) سورة الأعراف : جزء من الآية (32) .

كما أنها تختلف تمام الاختلاف عن « الواقعية » التي يتحدث عنها بعض أصحاب المذاهب الفكرية والأدبية ، ويعنون بها إظهار الواقع والاعتراف به ، بجميع إيجابياته وسلبياته .

ولكن الإسلام يجعل « الواقعية » طريقا إلى المثالية ، أي أنه يجمع بينهما في توازن دقيق ، لا يعترف بالواقع فقط ، وإنما يهذبه وينقيه ويرتفع به إلى آفاق مثالية .

* * *

وبعد !!! ... هذه بعض أهم خصائص الإسلام العامة ، تدل دلالة واضحة على توافقه مع الفطرة الإنسانية ، وعلى أنه وحده النظام الذي يصلح لقيادة مسيرة الحضارة الإنسانية ، وعلى أنه وحده الذي يخاطب الكيان الإنساني كما خلقه الله ، روحا ومادة ، عقلا وعاطفة ، فكرا ... ووجدانا ..

ولذا .. فهو وحده الذي يصلح لقيادة مسيرة النظام الدولي ، لأنه يؤسس مجتمعا عالميا مفتوحا أمام جميع الأجناس والألوان .. فهو مجتمع قائم على العقيدة .. العقيدة وحدها ..

« ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة ، وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى (كالجنس أو اللون أو اللغة ... إلخ) أن ينشئ مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا ، يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي ، لا يصدهم عنه صاد ، ولا يقوم في وجوههم حاجز ، ولا تقف دونه حدود مصطنعة ، خارجة عن خصائص الإنسان العليا .

وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية ، وتجتمع في صعيد واحد لتنشيء « حضارة إنسانية » تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ، ولا تغلق دون كفاية واحدة ، بسبب من اللون أو العنصر أو النسب والأرض » [1] .

وقد تحقق هذا بالفعل في المجتمع الإسلامي الأول ، الذي تجمع فيه البشر من كافة الأجناس والألوان والأوطان .. وفي ظله قامت حضارة عالمية ، نعمت بها البشرية ، وسعدت بها الإنسانية ، وهو الآن سفينة الإنقاذ وقارب النجاة ، ترنو إليه الأنظار ، وتتطلع إليه الأفئدة .

---

(1) في ظلال القرآن 4 / 1889 .. ويراجع : معالم في الطريق ، ص 58 : 61 .

الباب الخامس

قواعد التنظيم الدولي في النظام الإسلامي العالمي

الفصل الأول : منهج الإسلام في تحقيق الأمن والتعاون الدوليين .

الفصل الثاني : نظام الإسلام في المجال الدولي في حالي السلم والحرب .

تمهيد :

بعد أن أثبتنا في الباب السابق أن الإسلام وحده هو المنهاج الصالح لنظام عالمي رشيد ؛ لأنه المنهاج الرباني الذي يراعي الفطرة الإنسانية التي خلق الله الناس عليها ... يأتي هذا الباب ليتناول جانبا خاصا من جوانب المنهاج الإسلامي القويم ...

فموضوعنا في السطور التالية هو المجتمع الدولي ، والتنظيم الإسلامي له ، لبيان أن الإسلام وحده هو النظام الذي يكفل للبشر كلها وللإنسانية بأكملها ما تتطلع إليه من أمن وسلام واستقرار ورخاء وازدهار ، وعدالة وحرية ومساواة .

ومن أجل هذا ، جاء هذا الباب في فصلين :

الفصل الأول :

منهج الإسلام في تحقيق الأمن والتعاون الدوليين .

الفصل الثاني :

نظام الإسلام في المجال الدولي ، في حالتي الحرب والسلام .

.. وأسأل الله الهداية والتوفيق ..

الفصل الأول

منهج الإسلام في تحقيق الأمن والتعاون الدوليين

سلك الإسلام مسلكا يتسم بالواقعية والشمولية وهو يبين الصورة المثلى للمجتمع الإنساني . وإن هذا نابع من واقعية الإسلام وشموليته في كافة النواحي والمجالات .

ولاشك أن الأمن والتعاون من كبريات القضايا التي يتطلع العالم أجمع إلى الوصول للصيغة المثلي لتحقيقهما وترسيخ دعائمهما في العلاقات الدولية . وللإسلام في هذا المجال منهج عظيم ، سأحاول استعراضه من خلال مبحثين :

الأول : الإسلام والأمن الدولي **الثاني : الإسلام والتعاون الدولي**

* * *

المبحث الأول : الإسلام والأمن الدولي

أولا : نعمة الأمن كما تحدث عنها القرآن الكريم والسنة المطهرة

« الأمن » نعمة عظيمة ينعم بها المولى تبارك وتعالى على من يشاء من عباده ، وقد جاء حديث القرآن الكريم والسنة المطهرة عن هذه النعمة الجليلة من نواحي عدة ... منها :

1 - امتنان الله عز وجل على عباده بنعمة الأمن :

وقد جاء ذلك في سياق حديث القرآن الكريم عن كفار قريش ... فحينما حاولوا تعليل امتناعهم عن اتباع هدى الإسلام بالخوف من اعتداء القبائل العربية الأخرى عليهم ، رد عليهم المولى تبارك وتعالى مقولتهم وأسقط حجتهم مبينا أنه أنعم عليهم بالحرم الآمن ونعمة الأمن حال كفرهم ، فكيف ينزعها منهم حال إيمانهم ... قال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

وفي السورة التي سميت بسورة « قريش » يتوجه الأمر الإلهي إليهم ، مطالبا إياهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، فهو الذي كفل لهم الرخاء الاقتصادي والأمن الشامل

---

(1) سورة القصص : الآية 57 .

من كل خوف ... قال سبحانه : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (1) .

وفي موضع ثالث يمتن المولى عز وجل عليهم أيضا بنعمة الأمن والاطمئنان ، حيث يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (2) .

2 - « الأمن » من أهم عوامل قيام الحضارة وازدهارها :

يتجلى هذا في حديث القرآن الكريم عن حضارتي ثمود وسبأ . ففي قصة ثمود ، يتحدث القرآن الكريم عن مظاهر حضارتهم ، التي من أعظمها وأكبرها قيامهم بنحت الجبال واتخاذها بيوتا فيقول جل شأنه ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ (3) فعنصر الأمن بارز هنا كعامل مساعد لقيام الحضارة وازدهارها . فلولاه ما قامت الحضارة ولا تيسر لهم نحت الجبال .

وفي قصة سبأ ، يتحدث القرآن الحكيم عن حضارتهم في قوله جل وعلا : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (4) .

3 - وجود « الأمن » مشروط بوجود « الإيمان » :

تؤكد كثير من الآيات القرآنية هذه الحقيقة ... يقول الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (5) ويقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (6) .. ونص الآية الكريمة واضح في إفادة تحقيق « الاستخلاف » ، و« التمكين » و « الأمن » بعد وجود الإيمان والعمل الصالح .

وفي القرآن الكريم آيات عدة تفيد هذا المعنى ... ومن ذلك قوله تباركت أسماؤه

---

(1) سورة قريش : الآيتان (3 ، 4) .
(2) سورة العنكبوت : آية 67 .
(3) سورة الحجر : آية 82 .
(4) سورة سبأ : الآية 18 .
(5) سورة الأنعام : آية 82 .
(6) سورة النور : آية 55 .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [1] وقوله ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2] وقوله : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [3] .. وغيرها من الآيات .

ويقول النبي ﷺ : « إن من عباد الله أناسا ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله » . قالوا : خبرنا من هم يا رسول الله نعمل بأعمالهم قال : « هم قوم تحابوا بروح الله ، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ قول الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [4] .

فالإيمان يحقق لصاحبه الأمن الكامل في الدنيا والآخرة ... حتى ليظل الأمن والاطمئنان مصاحبا للمؤمن بعد دخوله الجنة ... يقول تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [5] ويقول : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [6] ، ويقول : ﴿ .. وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [7] .

4 - ضياع « **الأمن** » بضياع « **الإيمان** » :

إن الانحراف عن المنهج الإلهي والهدي الرباني من أعظم أسباب فقدان الأمن ، وأكبر عوامل الانهيار الحضاري ... وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [8] .

وفي قصة ثمود الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأمن والتقدم المادي : حينما انحرفوا عن الصراط السوي وتنكبوا سبل الهداية والرشاد ، حل بهم العذاب ، فتبدل الأمن خوفا ، وزالت الحضارة في غمضة عين قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ

(1) سورة الأنعام : آية 48 . (2) سورة الأعراف : آية 35 .

(3) سورة البقرة : آية 112 .

(4) أحمد 5 / 343 من حديث أبي مالك الأشعري – وأورده الهيثمي في المجمع 10 / 276 ، 277 وقال رواه كله أحمد والطبراني بنحوه ورجاله وثقوا . والآيات الكريمة من سورة يونس عليه السلام (62 : 64) .

(5) سورة الحجر : آية 46 . (6) سورة الدخان : الآية 55 .

(7) سورة سبأ : جزء من الآية 37 . (8) سورة النحل : آية 112 .

عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [2] .

وكذلك في قصة سبأ ... حينما بطر القوم بالنعمة ، وانحرفوا عن الجادة ، كانت العاقبة المريرة والنهاية الوخيمة التي صورها القرآن العزيز في قول المولى جل وعلا : ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [3] ، وقوله سبحانه ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [4] .

هذا طرف من حديث القرآن الحكيم عن « الأمن » كنعمة من أعظم نعم الله عز وجل على عباده يحرص المؤمنون على العيش في ظلها ... وقد كان الاهتمام الأول لخليل الله إبراهيم – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – حينما دعا ربه في البلد الحرام ، أن قال – كما حكى عنه القرآن الكريم – ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ...﴾ [5] وفي موضع آخر ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا .. ﴾ [6] مما يدل على أهمية نعمة الأمن وعظم شأنها .

ثانيا : منهج الإسلام في توطيد دعائم الأمن الدولي

يقوم المنهج الإسلامي في تحقيق الأمن وتوطيد دعائمه على عدة أسس ، من أهمها وأعظمها :

1 – ترسيخ مبدأ الإخاء البشري والمساواة الإنسانية

ينظر الإسلام الحنيف إلى المجتمع البشري باعتباره وحدة واحدة ، فالناس جميعا ينتسبون إلى أصل واحد ، فلا فضل لجنس على جنس ، ولا لشعب على شعب ، ولا لأمة على أمة – في أصل الخلقة والنشأة – بل الكل سواء .. والتكريم الإلهي للإنسان يشمل بني آدم جميعا قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا .. ﴾ [7] .

---

(1) سورة الحجر : الآيتان 83 ، 84 .
(2) سورة هود : الآيتان 67 ، 68 .
(3) سورة سبأ : الآيتان 16 ، 17 .
(4) سورة سبأ : آية 19 .
(5) سورة البقرة : جزء من الآية 126 .
(6) سورة إبراهيم : جزء من آية رقم 35 .
(7) سورة الإسراء : آية 70 .

ولا شك أن لهذا المبدأ أثره البالغ في توطيد دعائم الأمن الدولي . إذ أن استحضار معنى الأخوة الإنسانية كفيل بالقضاء على النزاعات المادية عند من يقدر هذا المعنى حق قدره - يقول الله عز وجل - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [1] .

يعلق صاحب الظلال على هذه الآية بقوله « يا أيها الناس ، يا أيها المختلفون أجناسا وألوانا المتفرقون شعوبا وقبائل ، إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ، ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددا » .

يا أيها الناس !. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى . وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل .. إنها ليست التناحر والخصام . إنما هي التعارف والوئام ، فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطبائع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس ، ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض ، وترخص جميع القيم المادية التي يتكالب عليها الناس ... ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع وخلقهم من أصل واحد ... كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته ، لواء التقوى في ظل الله [2] .

2 - تحريم الأسباب المؤدية للنزاعات والحروب :

تثور النزاعات وتنشب الحروب الطاحنة بين البشر لأسباب كثيرة ، ترجع في أغلبها إلى دوافع مادية دنيئة ... والإسلام الحنيف في سعيه لتحقيق الأمن الدولي وتثبيت أركانه حارب كل هذه الدوافع وقطع عليها الطريق حتى لا تبلغ غايتها في إيقاد نيران الحروب التي تأتي على الأخضر واليابس ، وتلتهم جميع منجزات الحضارة الإنسانية .

وهنا تتجلى عظمة الإسلام فهو لا ينتظر حتى تقوم المعركة ويلتهب الميدان ، وإنما يواجه المواقف منذ البداية للقضاء على النزاعات ووأدها في مهدها ...

---

(1) سورة الحجرات : آية 13 .

(2) في ظلال القرآن 6 / 3348 ، بتصرف يسير .

وفيما يلي نستعرض الدوافع المادية للحروب ومنهج الإسلام في مواجهتها :

أ – التعصب للجنس وتقديس الأمة :

من أعظم الآفات التي تبتلى بها أمة من الأمم ، أن تسري فيها روح العصبية القومية البغيضة والعنصرية العمياء ... حينئذ تسيطر على الأمة عقيدة الكراهية والبغضاء لجميع الأمم وكافة الشعوب ، وتجعل غايتها الأولى وهدفها الأعظم هو اليسطرة الكاملة على جميع أنحاء الكرة الأرضية .

واليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة – هم أصحاب الحظ الأوفر والنصيب الأكبر في هذا المضمار ، فقد جعلوا أنفسهم شعب الله المختار ، الذي يجب أن تدين له جميع الشعوب ، بالخضوع والذلة ... وقد أدخلوا في توراتهم المحرفة نصوصا تؤكد هذا الاصطفاء ... فمثلا في سفر التثنية – يحكي الكاتب أن إله اليهود « يهوه » قال لموسى « ... لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك . إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم . بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم أخرجكم الرب بيد شديدة وفداكم من بيت العبودية ، من يد فرعون ملك مصر » [1] .

وفي الأسفار الأخرى من هذا الكثير والكثير ، بالإضافة كذلك إلى ما جاء في التلمود في هذا الشأن مما يعف القلم عن كتابته .

وكما فعل اليهود فعل النصارى ... ويسجل القرآن الكريم على الفريقين هذا المسلك الشائن في قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ... ﴾ [2] .

وفي العصر الحديث ، قامت الحركة النازية على أساس عنصري ممقوت حيث اعتبرت الشعب الجرماني شعبا ذا مواصفات خاصة يتفوق بها على سائر الشعوب .

وأيضا ... في الولايات المتحدة يكثر الحديث عن خصوصية الأمة الأمريكية وعن الرسالة التي اختصت بها العناية الإلهية هذه الأمة لتحقيقها في عالم الواقع .

كل هذه العصبيات أورثت العالم شقاء وتعاسة من خلال تلك الحروب الطاحنة

---

(1) سفر التثنية : الإصحاح 7 ، فقرات 2 : 8 .

(2) سورة المائدة : جزء من الآية (18) .

الناشئة بسببها ... وهل ينسى أحد ما فعله اليهود بغيرهم من أجناس البشر – مما سجلته توراتهم المحرفة – من قتل وذبح وتنكيل وتشريد ؟ ! وهل ينسى أحد ما فعله النصارى بالمسلمين في الأندلس وبيت المقدس ؟ ! وهل ينسى أحد ما يفعله الفريقان (اليهود والنصارى) بالمسلمين في فلسطين والبوسنة وليبيريا ... وغيرهم ؟ !

وهل ينسى أحد ما فعلته ألمانيا النازية بأوروبا والعالم ؟ ! وهل ينسى أحد ما تفعله الولايات المتحدة ، نتيجة العصبية الممقوتة والعنصرية البغيضة ؟ !

لهذا كله حارب الإسلام العصبية إذا كانت لغير دين الله – من وطن أو قبيلة أو أمة أو شعب أو عشيرة – لأن المبدأ الإسلامي – كما سبق – أن أصل الخلقة الإنسانية واحد ، وأن الناس جميعا سواسية ، وميزان التفاضل بينهم ليس بلون البشرة أو الموقع الجغرافي أو الثروة الطائلة ، إنما هو الميزان الإلهي كما سبق في الآية الكريمة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (1) .

فهذا وحده « هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس والعصبية للأرض والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت ، وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء وتسمى بشتى الأسماء وكلها جاهلية عارية من الإسلام .

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة : راية الله .. لا راية الوطنية ، ولا راية القومية ، ولا راية البيت ، ولا راية الجنس ، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام » (2) .

وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ .. « من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة ، أو ينصر عصبة ، فقتل ، فقتلة جاهلية ... » (3) ويقول أيضا : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان » (4) .

وعندما سمع النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق ، بما حدث من دعاوى العصبية قال

---

(1) سورة الحجرات : جزء من الآية (13) .
(2) في ظلال القرآن 6 / 3348 .
(3) مسلم : ك الإمارة ب وجوب ملازمة جماعة المسلمين 3 / 1476 (57 - 1848) .
(4) أبو داود : ك الأدب ب في التفاخر بالأحساب 4 / 333 (5116) ، والترمذي : ك المناقب ب في فضل الشام واليمن 5 / 690 (3955) وقال : هذا حديث حسن غريب .

ﷺ « دعوها فإنها منتنة ... » [1] كما أنه ﷺ وقف موقفا حازما حينما نجحت خدعة اليهودي شاس بن قيس في إيقاد نيران العصبية الجاهلية بين الأوس والخزرج لمَّا ساءه ما وجدهم فيه من انسجام وصفاء ومحبة بعد طول الخصام والقتال الذي كان بينهم في الجاهلية .. فأهاج في نفوسهم ذكريات قديمة فتخاصموا وحملوا السلاح وتواعدوا على اللقاء والنزال فلما بلغ ذلك المصطفى ﷺ أسرع إليهم وهو يقول « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » [2] فعاد القوم إلى رشدهم وفيها نزل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [3] ... ويلاحظ في الآية الكريمة أنها جعلت الاندفاع وراء العصبية ومشايعة أهل الكتاب في هذا المجال بمثابة الارتداد إلى الكفر بعد الإيمان .

إلى هذا الحد وإلى هذه الدرجة بلغ الإسلام في محاربة العصبية والعنصرية .. وقد يقال هنا : إن الإسلام جعل المسلمين خير الأمم وأعلاها شأنا .. يقول سبحانه ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [4] أليست هذه عصبية ؟ ! ألا تعد هذه عنصرية ؟ !

والحقيقة أن بقية الآية تنفي عن الإسلام شبهة العصبية البغيضة .. فخيرية الأمة المسلمة مشروطة بتحقيق أمور ثلاثة هي : الأمر بالمعروف – النهي عن المنكر – الإيمان بالله ... فلو لم تتحقق هذه الشروط مجتمعة فليس للأمة الإسلامية في الخيرية حظ ولا نصيب .. ولعمري فإن في هذه الآية من التكليف ما يفوق التشريف فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسئولية جسيمة تحتاج من الأمة إلى بذل الجهد الجهيد والعمل المتواصل ..

أمة .. هذا شأنها وتلك طبيعتها ما أجدرها أن تكون بحق خير أمة أخرجت للناس ، فتكريمها نابع من عملها الصالح لا من شيء آخر ، وفرق شاسع بين هذا التكريم الإلهي للأمة المسلمة وبين ما يدعيه الآخرون من أنهم أبناء الله وأحباؤه ، أو أنهم شعب الله المختار أو أن جنسهم أفضل أجناس الأرض .

---

(1) البخاري : ك التفسير ب قوله ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم ... ﴾ 8 / 516 (4905) ، مسلم : ك البر والصلة ب نصر الأخ ظالما ومظلوما 4 / 1998 (63 - 2584) .

(2) ابن جرير في جامع البيان 4 / 17 ،، السيوطي في الدر المنثور 2 / 278 ، 279 مطولا وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن زيد بن أسلم .. وانظر سيرة ابن هشام 2 / 204 .

(3) سورة آل عمران : الآيتان (100 ، 101) .

(4) سورة آل عمران : جزء من الآية (110) .

وبهذا يتبين أن الإسلام قد حارب العنصرية والعصبية اللذين يمثلان أهم دوافع الحروب ، والنزاعات .

ب – السيطرة واستغلال مقدرات الشعوب :

الرغبة في التوسع والسيطرة والاستغلال من أهم الدوافع لنشوب الحروب وتفجر النزاعات مما يؤدي إلى زعزعة الاستقرار وفقدان الأمن .

وقد كانت الحملات الأوروبية المسماة بـ « الاستعمارية » هي أوضح الدلائل على مدى الاستغلال والنهب ... يقول الدكتور رمزي زكي :

« لقد نهب الاستعمار كميات كبيرة من الذهب والفضة من مناطق النفوذ في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا ، ثم نقلها جميعا إلى أوروبا ، بحيث أدى هذا إلى إفقار قارات كانت من أغنى قارات العالم بثرواتها الطبيعية ، وأصبحت في حكم أفقر القارات في العالم المعاصر .

واستطاع الاستعمار أن ينهب أكثر من ثمانية آلاف مليون ماركا فضيا من قارة أمريكا اللاتينية وحدها ، أما الذهب فلم يكن الاستعمار أقل عنفا في نهبه ، خصوصا وأن البحث عن الذهب كان أحد أهم دوافع الاستعمار الغربي ، وقد وجد الأوروبيون ضالتهم المنشودة فانغمسوا في عمليات سرقة لا هوادة فيها ولا رحمة .. حيث بلغ حجم ما نهبه الاستعمار الأوروبي من مناجم الذهب في أمريكا اللاتينية ستة آلاف مليون ماركا ذهبيا ... أما كميات الذهب المنهوبة من قارة أفريقيا فتقدر بحوالي ثمانمائة مليون ماركا ذهبيا ومن قارة آسيا حوالي سبعمائة مليون ماركًا ذهبيا .. أي أن الأوروبيين قد نهبوا ما مجموعه سبعة آلاف وخمسمائة مليون ماركا ذهبيا من الجنوب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر » [1] .

ويندرج في هذا الإطار ما تقوم به القوى الكبرى في النظام الدولي – قديمه وجديده – من تحركات عسكرية تصب في خدمة المصالح الاقتصادية لها .

ولقد حارب الإسلام الاستغلال والسيطرة واعتبر الحرب من أجل استغلال الشعوب والسيطرة على مقدراتها وطاقاتها حربا قذرة وهي من قبيل الإثم والبغي الذي نهى عنه

---

(1) يراجع : التاريخ النقدي للتخلف د . رمزي زكي ص 21 : 35 ، سلسلة عالم المعرفة (118) ، كما ينظر : الإمبريالية من عصر الاستعمار إلى اليوم / هارى ماجدوف ص 45 .

الإسلام .. فحينما سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى . أي ذلك في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[1] والحديث الشريف واضح في إفادة أن الحرب من أجل المغنم – أي من أجل السيطرة والاستغلال – حرب غير مشروعة .. وما دامت كذلك فهي من قبيل الظلم والبغي ، والإسلام يحارب الظلم والبغي أيما محاربة حيث إنه يفضي إلى الفساد في الأرض .

يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[3] .

ويقول المصطفى ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ... »[4] ويقول أيضا : « من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين »[5] .

ومن الأدلة الدامغة على تحريم حروب السيطرة والاستغلال أن الإسلام لا يعترف بما درج عليه العرف الدولي من أحقية الدولة في إلغاء المعاهدات التي قامت بإبرامها مع دولة أو عدة دول أخرى إذا رأت أن مصلحتها تقتضي ذلك ، كأن تصبح أكثر قوة وأضخم حجما وأوسع نفوذا . وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ... ﴾[6] .

تفيد الآية أنه لا يجوز للأمة المسلمة أن تنقض عهدها ، لمجرد أن وجدت في نفسها قوة عن الطرف الآخر ، وأنه لا يجوز لها كذلك نقض العهد لمجرد أن الحليف أو الطرف

---

(1) البخاري : ك الجهاد ب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا 6 / 33 (2810) ، مسلم : ك الإمارة ب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا 3 / 512 (1904) ، أحمد 4 / 402 .. كلهم من حديث أبي موسى الأشعري .

(2) سورة البقرة : الآية 27 .

(3) سورة إبراهيم : آية 42 .

(4) البخاري / ك الظلم ب الظلم ظلمات يوم القيامة 5 / 120 (2447) ، ومسلم : ك البر والصلة ب تحريم الظلم 4 / 1996 (56 ، 57 - 2578 ، 2579) .

(5) البخاري : ك المظالم ب إثم من ظلم شيئا من الأرض 5 / 123 (2452) ، مسلم : ك المساقاة ب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها 3 / 1231 (140 - 1610) .

(6) سورة النحل : الآيتان (91 ، 92) .

الآخر في المعاهدة قد كثر أعداؤه ومنابذوه [1] .

فهذا دليل على محاربة الإسلام للنزاعات والحروب القائمة على المصلحة المادية والسيطرة والاستغلال .

جـ - السعي وراء المجد والشهرة :

كم من أرواح أزهقت ، وكم من دماء سفكت ، وكم من مدائن خربت ، بسبب نزوة طائشة من زعيم يسعى إلى إرواء نزواته وإشباع رغباته في بقاء سيرته وامتداد ذكره على مدار التاريخ .. أو من أمة آثرت أن تكتب لنفسها سجلا من الحروب المتواصلة والغزوات المتتالية .

والإسلام الحنيف في سعيه لتحقيق الأمن الدولي ومنع نشوب النزاعات يشن حربا شعواء على هؤلاء الذين يشعلون نار الحرب لمجرد الجري وراء المجد والشهرة وحسن الأحدوثة .. يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [2] .

تشير الآية إلى ما فعله كفار قريش في غزوة بدر الكبرى .. إذ أن أبا سفيان حينما تمكن من النجاة بقافلته أرسل إلى قريش يطلب إليهم الرجوع ، ولكن أبا جهل ركب رأسه ، وصمم على الخروج قائلا : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا فلن تزال العرب تهابنا أبدا ...

وحينما علم أبو سفيان بمقولة أبي جهل قال : « واقوماه !! هذا عمل عمرو بن هشام (يعني أبا جهل) ، كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغي منقصة وشؤم ، وإن أصاب محمد النفير ذللنا .. » [3] .

وصدقت فراسة أبي سفيان ووقعت قريش فريسة البغي والبطر ، والاندفاع وراء المجد الزائف والشهرة الحمقاء .. والآية الكريمة تحذر الأمة الإسلامية من هذا المسلك وتبين لهم عاقبته الوخيمة ونتيجته الأليمة .

كما أن النبي ﷺ قد بين أن إشعال نيران الحرب لمجرد الاندفاع وراء المجد والشهرة أمر محرم ومذموم .. ففي الحديث الذي مضى ذكره في العنصر السابق ، سئل النبي

(1) يراجع : تفسير أبي السعود . المجلد الثاني 3 / 190 . (2) سورة الأنفال : آية 47 .

(3) يراجع هذا الموقف في : فقه السيرة (الغزالي) 237 ، زاد المعاد 3 / 174 ، 175 ، خاتم النبيين المجلد الثاني 2 / 623 ، 625 .

ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) [1] .

د - الجدال الديني المذموم :

لاشك أن الجدال الديني غير الملتزم بقواعد علمية وأسس أخلاقية يعد من أهم أسباب النزاعات ودوافع الحروب .. فالإنسان حينما يؤمن بعقيدة ما - حقة كانت أو باطلة - فإنه يسوؤه أن يتعرض أحد لعقيدته بسوء ويثير حفيظته أن يلمزها أحد بعيب أو منقصة .

والإسلام الحنيف في سعيه لتحقيق الأمن الدولي والقضاء على كافة أسباب النزاعات والحروب يُلزم أتباعه بعدم الاندفاع إلى مهاترات دينية مع مخالفيهم في العقيدة ، ويوجههم إلى اتباع أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى حينما تثور بينهم وبين غيرهم مناقشات ومحاورات في أمور العقيدة كما يرشدهم إلى البعد عن الألفاظ غير الجميلة في هذا المقام :

يقول المولى جل وعلا : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۢ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [2] ويقول سبحانه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [3] .. وأهل الكتاب في هذا الشأن لهم طريقة خاصة في الجدال يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [4] ويقول جل شأنه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [5] .

إن المسلم مطالب بالتزام قواعد الجدل المحمود ، الذي لا يؤدي إلى إثارة نزاعات أو إشعال نيران الحقد والكراهية ، التي لا تلبث أن تتحول إلى حروب طاحنة يرفضها الإسلام رفضا باتا .

---

(1) سبق تخريجه ص 612 .

(2) سورة الأنعام : آية رقم 108 .

(3) سورة النحل : آية رقم (125) .

(4) سورة العنكبوت : آية رقم (46) .

(5) سورة آل عمران : الآية (64) .

3 - التربية الصحيحة للفرد والمجتمع :

هذا هو الأساس الثالث من أسس توطيد دعائم الأمن الدولي في المنظور الإسلامي وهو من أهم هذه الأسس وأعظمها شأنا إذ أن التربية الصحيحة للفرد والمجتمع تكفل ترسيخ مبدأ الإخاء البشري ، كما تكفل الابتعاد عن الظلم والبغي والتعصب الممقوت - وغيرها من أسباب النزاعات ودوافع الحروب :

● فالعقيدة الإسلامية تُعنى ببث نوازع التقوى والمراقبة والخشية من الله عز وجل في نفس الإنسان المسلم وهو الشعور الذي يجعله نزّاعا إلى الخير ، نفورا من الشر ، ملتزما جانب العدالة والإنصاف والخير في كل ما يأتي وما يذر ، حريصا كل الحرص على الابتعاد عن العدوان بغير حق وعن ترويع الآمنين ، وعن إثارة الفتن وإشعال نيران الحروب الظالمة ... ذلك أنه يؤمن بالبعث والحساب والجزاء ويوقن بأنه سيأتي يوم يقف فيه بين يدى ربه ليسأله عما قدم في دنياه من خير أو شر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [1] ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [2] .

● كما أن المسلم مأمور بالتحلي بالفضائل والتمسك بالأخلاق الحسنة والصفات الحميدة ، مثل : الوفاء بالعهد ، كظم الغيظ ، العفو عن المسيء ، والإحسان إليه ، الصدق في الأقوال والأفعال ، الأمانة ... وغيرها من الأخلاق الحميدة .

إنسان بهذه الأخلاق العالية وتلك القيم النبيلة لا يتصور منه إلا أن يكون مثاليا ، منبعا لكل خير ومصدرا لكل بر .

● في الوقت نفسه ، تجد الإسلام ينهى عن التخلق بالصفات الذميمة مثل : الغدر والخيانة ، الكذب ، الغيبة ، النميمة ، الحقد ، الحسد ... وغيرها ... وبالتالي فإن المسلم لن يكون أبدا مصدرا للقلاقل أو منبعا للنزاعات التي تنشأ من جراء الاتصاف بهذه الصفات الذميمة والأخلاق القبيحة [3] .

---

(1) سورة الزلزلة : الآيتان 7 ، 8 . (2) سورة الأنبياء : الآية (47) .

(3) من أقوى الدلائل على هذا الأمر ماذاقه العالم من ويلات نتيجة الأخطاء التربوية لكثير من زعماء الدول الغربية من أمثال : هتلر وموسوليني وستالين وغيرهم .. وفى الوقت الراهن يتابع الجميع تصريحات وتهديدات المتطرف الروسي « فلاد يميرجير نوفسكي » بإثارة الحروب والدمار في كل مكان ، ويعترف هذا الرجل بنفسه بجميع الأخطاء التربوية التي عاناها في فترة طفولته وشبابه وأثرها في تكون شخصيته .

● والمجتمع المسلم ، مجتمع مسالم ، ينشد الأمن والاستقرار ، ويلتزم كل أفراده بالقاعدة التي يقوم عليها هذا الأمن وذاك الاستقرار ، ألا وهي قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « فالخير إذا وجد من يأمربه ويحث على فعله ساد وعمَّ ، وأدى واجبه كاملا في تعبيد سبيل السلام ... والشر إذا وجد من يقاومه وينكر على مرتكبه ويحاول حمله على تركه والتخلص منه ، سكن وهدأ ، وأراح المجتمع من كوارثه وفواجعه .

أما إذا نضب معين الخير لأن أحدا لم يهتم به ، وفدح أمر الشر لأن أحدا لم يقاومه فلا ينتظر أن تقوم للأمن قائمة ولا أن يطيب للبشرية حياة » [1] .

وهكذا ... فإن الإسلام لا ينظر إلى قضية الأمن الدولي نظرة جزئية ، وإنما يتعامل معها على أنها قضية شاملة تبدأ من تربية الفرد الصالح ، مرورا بالأسرة الصالحة فالمجتمع الصالح والدولة الصالحة ، وانتهاء بالأسرة الدولية الواحدة التي تعيش في وئام وسلام وأمن واطمئنان .

4 - اعتبار السلام أصل العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول :

هذا هو الأساس الرابع في منهج الإسلام لتحقيق الأمن الدولي وتوطيد أركانه فالإسلام الحنيف جعل حالة « السلم » هي الأصل في علاقة الدولة المسلمة بغيرها من دول العالم ، أما الحرب فهي الاستثناء ، تلجأ إليها الدولة المسلمة في حالة الضرورة .

أولا – الأدلة على كون السلام أصل العلاقات الدولية في الإسلام :

أ – من القرآن الكريم :

تطالعنا في هذا المقام آيات كثيرة من كتاب الله الكريم ... منها :

1 - قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [2] .

جاء في « المنار » عند تفسير هذه الآية : « بعدما بين الله عز وجل اختلاف الناس في الصلاح والفساد أراد أن يهدينا إلى ما يجمع البشر كافة على الصلاح والسلام والوفاق الذي قرره الإسلام ، وجعل هذه الهداية بصيغة الأمر ، وشرف أهل الإيمان به فقال

(1) الإسلام والأمن الدولي ، محمد عبد الله السمان ، ص 19 .
(2) سورة البقرة : آية (208) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ فالسلم : المسالمة والانقياد والتسليم ، ويطلق على : الصلح ، والسلام ، وعلى دين الإسلام . وفسره بعض المفسرين بالصلح وقال الجلال في تفسير « كافة » : حال من السلم .. أي في جميع شرائعه ، ومن أصولها : الوفاق ، والمسالمة بين الناس ، وترك الحرب والقتال »[1] .

إن المسلم حينما يستجيب لهذا النداء الإلهي يدخل في عالم كله سلام « عالم كله ثقة واطمئنان ، وكله رضى واستقرار ، لاحيرة ولا قلق ولا شرود ولا ضلال سلام مع النفس والضمير ، سلام مع العقل والمنطق ، سلام مع الناس والأحياء ، سلام مع الوجود كله ومع كل موجود ، سلام يرف في حنايا السريرة ، وسلام يظلل الحياة والمجتمع ... »[2] .

2 - قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[3] .

فما المعنى المستفاد من هذه الآية : أن من يسالم المسلمين ولو كان غير مؤمن بالدين الإسلامي فلا يجوز محاربته ابتغاء المغانم وعرض الحياة الدنيا[4] .

3- قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[5] .

قال القاسمي : « هذا ترخيص من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم من جميع أصناف الملل والأديان « أن تبروهم ، وتصلوهم »[6] .

وقال ابن كثير : « أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين ولم يظاهروا أي يعاونوا على إخراجكم كالنساء والضعفة منهم « أن تبروهم » أي تحسنوا إليهم « وتقسطوا إليهم » أي تعدلوا[7] .

4 - قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[8] .

---

(1) المنار 1 / 325 .
(2) الظلال 1 / 207 .
(3) سورة النساء : الآية (94) .
(4) هذه خلاصة ما جاء في ابن كثير 1 / 532 : 534 .
(5) سورة الممتحنة : الآية 8 .
(6) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) 5 / 392 .
(7) ابن كثير 4 / 349 .
(8) سورة الأنفال : الآية 61 .

قال ابن كثير : « وإن جنحوا » أي مالوا « للسلم » أي المسالمة والمصالحة والمهادنة « فاجنح لها » أى فَمِلْ إليها ، واقبل منهم ذلك .. [1] .

هذه بعض الأدلة من القرآن الكريم ، ناطقه بأن السلام هو أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم .

ب – من سنة النبي ﷺ وسيرته :

جاء عن المصطفى ﷺ الكثير من الأحاديث الدالة على جنوح الإسلام إلى السلام باعتباره القاعدة الأصيلة في التعامل بين الدولة المسلمة وغيرها من الدول ، ومن ذلك :

– قوله ﷺ : « يا أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ... » [2] فالمسلم بمقتضى هذا الحديث ليس عدوانيا بطبعه ، وهو ينتهز أي فرصة ليحل القضايا بطريقة سلمية ، ولذلك قال المصطفى ﷺ يوم الحديبية (لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ...) [3] .

– وفي الفتح العظيم – فتح مكة – أخذت الحماسة سعد بن عبادة ودفعته إلى أن يقول : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمات » ولكن النبي ﷺ رد عليه قائلا « اليوم يوم المرحمة ، اليوم يوم تُعظَّم فيه وتُعز الكعبة الشريفة » [4] .

هذه نماذج من أحاديث النبي الكريم ﷺ الدالة على النزعة السلمية للإسلام وقد طبق النبي عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ تطبيقا عمليا :

فقد عقد ﷺ معاهدة مع اليهود في المدينة جاء فيها : « ... إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين .. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ « أي يهلك » إلا نفسه وأهل بيته .. وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح

---

(1) ابن كثير 2 / 330 .

(2) البخاري : ك الجهاد ب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس 6 / 140 (2966) ، مسلم ك الجهاد ب كراهية تمني لقاء العدو 3 / 1362 (1742) .

(3) البخاري في ك الشروط ب الشروط في الجهاد 5 / 388 (2731 - 2732) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطولا .

(4) البخاري ك المغازي ب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح 7 / 597 (4280) مطولا من حديث هشام بن عروة عن أبيه ، وينظر : خاتم النبيين : المجلد الثاني 3 / 1004 .

والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم ... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ... وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره » [1] .

– كما عقد النبي ﷺ صلح الحديبية مع مشركي قريش ... وبرغم ما تضمنه من شروط تعسفية قاسية إلا أن المصطفى ﷺ أمضاه وأقره ، إيثارا للسلم ورغبة في تحقيق الأمن .

كما تسامح النبي ﷺ عند كتابة نص المعاهدة إلى أقصى درجة فقد دعا الرسول ﷺ على بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له : اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » فاعترض ممثل قريش في المفاوضات وهو سهيل بن عمرو قائلا : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ : اكتب « باسمك اللهم » فكتبها على . ثم قال ﷺ « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . ولكن عليا كرم الله وجهه رفض أن يمحوها فمحاها النبي ﷺ بيده ، وقال : « اللهم إنك تعلم أني رسولك » ثم قال : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو :

– اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

– وأن بيننا عيبة مكفوفة ، (أي يكف بعضهم عن بعض) وأنه لا إسلال ولا إغلال (أي لا سرقة خفية ولا خيانة) .

– أنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

هذا هو صلح الحديبية بشروطه المجحفة ، التي جعلت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذهب إلى رسول الله ﷺ قائلا : يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال : « بلى » قال :

---

(1) أحمد : 1 / 271 ، خاتم النبيين : المجلد الثاني 2 / 564 - 566 ، الإسلام والمعاهدات الدولية د . محمد الصادق عفيفي ص 205 : 208 .

أولسنا بالمسلمين ؟ قال : « بلى » ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : « بلى » قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ! قال ﷺ : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني .. » [1] .

فالنبي ﷺ قد أمضى هذه المعاهدة استجابة لأمر إلهي ، تجلت حكمته فيما بعد حين فتحت مكة سلما دون حرب أو قتال ، ولذا كان صلح الحديبية فتحا عظيما ونصرا مبينا وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [2] .

* * *

هذه بعض الأدلة من سنة المصطفى ﷺ وسيرته ، تضافرت مع الأدلة القرآنية الكريمة في إثبات أن السلم هو أصل العلاقة بين الأمة المسلمة وغيرها .

ثانيا : حالات اللجوء إلى القتال :

تبين مما سبق أن « السلام » – في نظر الإسلام – هو القاعدة ، وأن « الحرب » هي الاستثناء ، ولهذا فإن الإسلام لا يندفع إلى القتال اندفاعا ، وإنما يلجأ إليه فقط في حالات قليلة حينما لا تفلح الوسائل السلمية في إخماد النزاعات والقضاء على الخلافات .

ومن البدهي أن الإسلام لا يلجأ للقتال تعصبا لجنس ، أو رغبة في الخامات والموارد أو سعيا لمجد زائف ... وإنما يلجأ الإسلام إلى القتال لهدف سام وغاية نبيلة ، تحدث عنها المصطفى ﷺ في حديثه الشريف الذي يقول فيه : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » [3] ... والحديث الشريف قد أتى موضحا لكثير من آيات الكتاب العزيز التي تبين أن الجهاد بالنفس والمال وغيرهما لابد أن يكون في سبيل الله مثل قوله تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [4] ، وقوله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [5] والآيات في هذا المقام أكثر من أن تحصر .

وانطلاقا من هذه القاعدة فإن اللجوء إلى القتال في المنهج الإسلامي مقيد بوجود حالة « اعتداء » سواء كان هذا الاعتداء على الدولة المسلمة ، أو على العقيدة الإسلامية ، أو على شعب مظلوم ، مسلما كان أو غير مسلم :

---

(1) سبق تخريجه عند تخريج قوله ﷺ : « لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .. » ص 614 .

(2) سورة الفتح : آية (1) .

(3) سبق تخريجه ص 608 .

(4 ، 5) سورة التوبة /:الآيتان (41) ، (20) .

1 - **الدفاع الشرعي عن ديار المسلمين وأوطانهم وحرماتهم :**

إن الدفاع الشرعي عن النفس حق فطري ، اعترفت به كافة الأعراف والقوانين في مختلف العصور والأزمان .. فإذا وقع اعتداء على المسلمين وجب عليهم دفعه والرد عليه بمثله ، دون شطط أوتجاوز أو اندفاع محموم وراء غريزة الانتقام .

يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ... ﴾ [1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [2] .

تدل الآيات الكريمة في الموضعين على أن المسلمين مطالبون برد الاعتداء الواقع عليهم وأن لا يكونوا هم البادئين بالعدوان .

2 - **الدفاع عن العقيدة الإسلامية :**

إذا وقع الاعتداء على العقيدة الإسلامية بأن حاربتها قوى الأعداء ، أو ضيقت سبل الدعوة ، أو ضايقت الدعاة ، أو اضطهدت من آمن بالإسلام بمحض اختياره ، إذا حدث واحد من هذه الأمور فإنه يجب على الأمة المسلمة الجهاد المتواصل حتى تتحقق حرية العقيدة ، وتزال كافة السدود والعوائق من طريق الدعوة الإسلامية وتوفر الحماية الكاملة لمن هداه الله إلى الإسلام وأنار به قلبه .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [3] ويقول جل شأنه في موضع آخر : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

---

(1) سورة الحج : الآيتان رقم 38 ، 39 . وجزء من الآية 40 .

(2) سورة البقرة : الآيات (190 : 194) .

(3) سورة البقرة : آية (193) .

﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (1) .

« إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية ومن ثم فهي أشد من القتل أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة ، ويستوي أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلي أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله ...

وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة ، وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني ...

وأكرم ما في الإنسان حرية الاعتقاد ... فالذي يسلبه هذه الحرية ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة ، يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته ، ومن ثم يدفعه بالقتل ... (2) .

3 - نصرة المظلوم فردًا أو جماعة ، مسلمًا أو غير مسلم :

من ثمار مبدأ الإخاء البشري والمساواة الإنسانية أن الإسلام يعد الاعتداء على الفرد الواحد اعتداء على الإنسانية بأجمعها ... يقول الله عز وجل : ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (3) .

ولهذا أوجب الإسلام نصرة المظلومين تطبيقا لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الظالم إن لم يجد من يعترض سبيله ويوقفه عند حده ، تمادى في ظلمه وطغيانه ، كما قال الله سبحانه وتعالى في حق فرعون وقومه ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (4) .

فإذا وقع ظلم على فئة أو شعب أو طائفة قام المسلمون بواجبهم في رفع الظلم والمعاناة عن كاهل المظلومين ... يقول الحق جل وعلا :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (5) .

---

(1) سورة الأنفال : الآيتان (39 ، 40) .
(2) ينظر : في ظلال القرآن 1 / 189 .
(3) سورة المائدة: جزء من الآية (32) .
(4) سورة الزخرف : الآية (54) .
(5) سورة النساء : الآية (75) .

ولكن التدخل العسكري من جانب الدولة المسلمة في هذه الحالة مشروط بشروط ثلاثة [1] :

أولها : أن تستغيث بها الجماعة المستضعفة المعتدى عليها ، والتي عجزت عن صد العدوان أو عن الهجرة إلى الديار الإسلامية ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [2] .

ثانيها : أن لا يكون بين الدولة المسلمة والدولة المعتدية عهد أو ميثاق ... يقول الله تعالى : ﴿ ... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [3] .

وليس معنى الآية – فيما أرى – أن تترك الدولة المسلمة المجال أمام الدولة الأخرى المعتدية لتفعل ما تشاء ، معتمدة على العهد الذي بينها وبين الدولة المسلمة ، لأن الاضطهاد إذا وقع على مسلم فهو من باب الفتنة في الدين ، وهو سبب يبيح للدولة المسلمة التدخل العسكري – كما سبق في العنصر السابق – حيث يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ... ﴾ وإذا وقع الاضطهاد على غير المسلم فإن مبدأ الأخوة الإنسانية ونصرة المظلوم يبيح للدولة المسلمة أيضا التدخل العسكري . ألا ترى أن النبي ﷺ سارع بنصرة خزاعة حينما وقع عليها الاضطهاد من قبل بني بكر وحلفائهم من مشركي قريش .

غاية الأمر أن العهد والميثاق يقيد حركة الدولة المسلمة بعض الشيء ... فبدلا من العمل العسكري المباشر يجب عليها أن تطبق تعاليم الآية الأخرى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [4] أي يجب على الدولة المسلمة أن تُعلن للدولة الأخرى نبذ العهد وإلغاء الميثاق .

ثالثها : أن يسبق تدخل الدولة الإسلامية في القتال ، إنذار إلى الدولة المعتدية بالكف

---

(1) يراجع في تفصيل هذه الشروط : الثقافة الإسلامية ص 275 ، 276 .

(2) سورة النساء : الآيات (97 : 99) .

(3) سورة الأنفال : جزء من الآية (72) .

(4) سورة الأنفال : الآية (58) .

عن العدوان والعمل على إزالة أسبابه .

هذه هي حالات اللجوء للقتال في المنهج الإسلامي ، وهي - كما ترى - حالات استثنائية لا تخرق القاعدة الأصيلة وهي أن السلم أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم في النظام الدولي الإسلامي . **وينتج عن ذلك أمران :**

أولهما : أن الحرب ليست وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية ، وإنما يلجأ إليها فقط لتحطيم القوى الباغية ، التي تحول بين الناس وبين الهدي الرباني . وتقف حجر عثرة في طريق الدعوة الإسلامية - فإذا ما أزيلت هذه العقبات وأصبح وصول الدعوة إلى الجميع أمرا ميسورا ، فإن الإسلام لا يكره أحدا على اعتناقه ، بل يدع كل إنسان واختياره :

قال تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [2] .

ثانيهما : أن مناط القتال هو الحرابة والمقاتلة والاعتداء ، أي أن الباعث الحقيقي على الجهاد هو دفع العدوان ، لا الكفر ، فلا يقتل شخص لكفره ، وإنما يقتل لاعتدائه على المسلمين أو الإسلام . بدليل أن غير المقاتِل من المدنيين لا يُقَاتَلُ ، وإنما يُسَالَم لأن النبي ﷺ حرم قتل النساء والشيوخ والأولاد فقال : « لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا امرأة » [3] .

ولو كان مجرد الكفر مبيحا للقتل لما قبل الرسول ﷺ التحكيم في بني قريظة ، ولكان الإكراه على الدين جائزا ، ولما جاز قبول الجزية من أهل الكتاب .

قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ... ﴾ إلى قوله ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [4] .. حدد القرآن الكريم غاية القتال بقبول معاهدة الذمة (أي العهد والحماية) ، فلو كان القصد قتالهم لكفرهم أو مخالفتهم في الدين لجعلت غاية القتال إسلامهم ، ولما قبلت منهم الجزية وأقروا على دينهم « هذا هو رأي الجمهور » [5] .

أما ما جاء في بعض النصوص مما يدل ظاهره على أن المبيح للقتل هو الكفر ، فإنه

---

(1) سورة الكهف : جزء من الآية (29) . (2) سورة البقرة : جزء من الآية (256) .
(3) سيأتي تخريجه قريبا بإذن الله . (4) سورة التوبة : آية رقم (29) .
(5) ينظر العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث / د . وهبة الزحيلي / ص 25 ، 16 .

حكم مطلق يحمل على المقيد وهو أن القتال خاص بالمعتدين .. وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ...﴾ (1) وقوله ﷺ : « اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم » (2) أي لا تقتلوا الشباب الذين لم يبلغوا الحلم بعد ..

فهذان النصان وغيرهما يدلان على أن الكفر هو مناط القتل والمحاربة ، ولكن التحقيق أنها نصوص عامة تحمل على النصوص الأخرى التي تجعل القتال والمحاربة خاصة بمن اعتدى على الإسلام أو المسلمين (3) .

---

(1) سورة التوبة : جزء من الآية (5) .

(2) الترمذي / ك السير ب ما جاء في النزول على الحكم 4 / 133 (1583) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب - ، أحمد 5 / 12 كلاهما من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه .

(3) ينظر : العلاقات الدولية فى الإسلام ، فضيلة الشيخ / محمد أبو زهرة ص 49 - 52 ،، العلاقات الدولية في الإسلام (الزحيلي) ص 27 ، 28 .

وقد ذهب ابن قدامة وابن العربي والجصاص من القدامي ، والدكتور / عبد الكريم زيدان ، والشهيد / سيد قطب من المحدثين ، إلى أن الحرب هي أصل العلاقات الدولية في الإسلام ، فعلى سبيل المثال : يقول د . عبد الكريم زيدان : « إن الدولة الإسلامية لا تعترف اعترافا شرعيا بوجود الدول غير الإسلامية ، ويرجع ذلك إلى أن الدولة غير الإسلامية لا تقوم على أساس الإسلام ، ولا تتخذ أهدافه أهدافا لها ولا شرعته قانونا لها ، ومن ثم فهي في نظر الشريعة الإسلامية كيان باطل قام على أساس باطل ، وما كان هذا شأنه ووصفه لا يمكن أبدا أن تعترف به الدولة الإسلامية اعترافا شرعيا ، لأن شرعية الشيء وأحقيته تُستمدان من مفاهيم الشريعة وأحكامها ، والشريعة الإسلامية تعتبر ما لا يقوم على أساس معانيها باطلا قطعا .

وتأسيسا على هذا النظر ، فإن هذه الكيانات - أي الدول غير الإسلامية - التي تقوم على غير الإسلام وترفض أحكامه تعتبرها الدولة الإسلامية كيانات باطلة لا تستحق البقاء لأن الباطل منكر وفساد والمنكر يجب أن يُزال ، وزواله يكون ببنائها من جديد على أساس الإسلام بأن يكون حكامها مسلمين ويكون قانونها هو القانون الإسلامي أي الشريعة الإسلامية ، ويتم ذلك على اختيار بأن تعتنق الإسلام وتطبق قانونه أو تخضع لسلطان الدولة الإسلامية السياسي وقانونها الإسلامي .. وعلامة ذلك التزامها بدفع الجزية ، فإن لم تختر هذا أو ذاك كان على الدولة الإسلامية أن تقاتلها حتى تخضعها لسلطانها السياسي وقانونها الإسلامي ، فتصير من دار الإسلام .

ومعنى ذلك كله أن الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول علاقة حرب لا سلم وأن للدولة الإسلامية الحق في إخضاع الدولة غير الإسلامية لسلطانها السياسي وقانونها الإسلامي ولو بالقتال إذا رفضت هذا الخضوع باختيارها .

ومعنى ذلك أيضا أن السّلم بين دار الإسلام ودار الحرب لا يكون إلا بمعاهدة ، أو بإسلام دار الحرب أو استسلامها كما بينا .

ولهذا سمى الفقهاء جميعا الدول غير الإسلامية باسم (دار الحرب) ، واعتبروا الأصل في علاقة دار الإسلام بها علاقة الحرب ، وأن السلم لا يكون إلا بأمان - أي عهد أو ذمة - أو إيمان - أي إسلام - ويريدون بذلك كله ما قررناه من حق الدولة الإسلامية في إخضاع دار الحرب لسلطانها وقانونها الإسلامي (مجموعة بحوث فقهية د . عبد الكريم زيدان ص 53 ، 54) .

ويستدل هذا الفريق لرأيه بالآيات والأحاديث وإجماع الصحابة .

فمن الآيات القرآنية :

قوله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .. ﴾ (البقرة : 193) .

قال الإمام الجصاص في أحكام القرآن : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ يوجب فرض قتال الكفار حتى =

....

= يتركوا الكفر . قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع : إن الفتنة هنا الشرك ، وأما الدين فهو الانقياد لله بالطاعة . والدين الشرعي هو الانقياد لله عز وجل والاستسلام له . ودين الله هو الإسلام لقوله تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (أحكام القرآن الإمام أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت 370 هـ) .

قوله تعالى ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ... ﴾ (البقرة 191) . تدل الآية على قتال غير المسلمين في جميع أماكن وجودهم لأنهم يعملون جاهدين على فتنة المؤمنين .

قوله تعالى ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ (التوبة : 5) . فهذه الآية صريحة في إفادة أن العلاقة بين المسلمين وغيرهم هي الحرب حتى يدخل هؤلاء الكافرون في الإسلام .

وغير ذلك من الآيات الكريمة .

ومن الأحاديث النبوية :

ما جاء في الأحاديث الكثيرة من وصية النبي ﷺ لأمراء الجند بدعوة الناس إلى الإسلام فإن أبوا فالجزية فإن أبوا فالقتال ... وقد جاء التأكيد على ذلك صريحا في قوله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » . (البخاري 1 / 94 (25) 2 / 131 ، مسلم 1 / 51 (32) - ، أحمد 1 / 11 ، 2 / 314) .

ومن إجماع الصحابة الكرام رضي الله عنهم :

أنهم قد « فتحوا البلاد المجاورة وأبطلوا أنظمتها الباطلة ، ونفذوا فيها القانون الإسلامي وأدخلوها في سلطان الدولة الإسلامية وصارت جزءا منها ولم ينكر عليهم أحد مطلقا ، فيكون هذا النهج مجمعا عليه من قبل الجميع ، وهو أعظم إجماع قام على مسألة شرعية (مجموعة بحوث فقهية ص 57) .

هذه بعض أدلة القائلين بأن الحرب هي أصل العلاقات الدولية في الإسلام وقد ردوا على أدلة الجمهور بأن النصوص التي تدعو إلى السلم والمهادنة منسوخة بآيات السيف والقتال وهذا رأي القدامى ، أما المحدثون - كالشهيد / سيد قطب والدكتور / عبد الكريم زيدان وغيرهما - فيرون أن الأحكام التي تضمنتها آيات السلم والمهادنة أحكام مرحلية يلتزم بها المسلمون في حالة ضعفهم وقوة عدوهم ، أما في حال القوة فليتزم المسلمون بالأحكام النهائية القاضية بإخضاع الكيانات الجاهلية للدولة الإسلامية (في ظلال القرآن 3 / 1431 - 1452 ، 1578 - 1593) .

وهنا لابد من وقفه لاستعراض أدلة القائلين بأن الحرب هي أصل العلاقات الدولية في الإسلام أما عن الآيات القرآنية الكريمة : فالآيتان - الأولى والثانية - جاءتا في سياق آيات تحدثت عن القتال بين المسلمين وغيرهم وقد بدئت هذه الآيات بقوله سبحانه ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. ﴾ (البقرة : 190) .. وقد حددت الآية الكريمة الباعث على القتال وهو وقوع الاعتداء ﴿ الذين يقاتلونكم ﴾ وبينت أنه يحرم على المسلمين أن يكونوا هم البادئين بالعدوان ﴿ ولا تعتدوا ﴾ وعللت ذلك بأن المعتدي مغضوب عليه من الله عز وجل ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

ثم جاءت الآية التي يستدل بها هذا الفريق ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ فيجب أن تفهم الآية في إطار السياق العام الذي وردت فيه ، دون انتزاعها من بين أخواتها انتزاعا ... وحسنا فعل صاحب تفسير المنار حينما فسر هذه الآية بقوله « إذا نشب القتال بينكم بسبب اعتدائهم فاقتلوهم أينما أدركتموهم وصادفتموهم » (تفسير المنار 2 / 209) .

وبعد هذا جاءت الآية الأخرى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .. ﴾ محددة سبب القتال وهو فتنة المسلمين عن دينهم فإن لم تكن فتنة فلا قتال ، بدليل قوله تعالى في نفس الآية ﴿ فإن إنتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ والذي تفيده الآية الكريمة هو أن « الوقوف في وجه الدعوة بأي وسيلة وصد الناس عنها والحيلولة دون حريتها ، والطعن فيها ، والعداون عليها وعلى دعاتها والمستجيبين لها ، مما يبرر للدولة الإسلامية وللمسلمين عامة الجهاد =

....

= حتى ينتهي الباغون عن موقفهم ، ويضمن للدعوة ودعاتها والمستجيبين لها الحرية والسيادة والانطلاق (الدستور القرآني محمد عزة دروزة 1 / 77) .

وأما آية سورة التوبة ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ فقد قال ابن كثير في تفيسرها : « أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام » (ابن كثير 2 / 410) . واستنبط الشيخ / محمود شلتوت من ذلك أن الآية « جاءت إرشادا للمسلمين بنوع من نظام الحرب وهو ما يسمى بـ « تكتيك الحرب » وذلك أنهم إذا أرادوا حرب من بدؤوهم بالحرب والعدوان من المشركين الذين أذنوا بقتالهم ، فيجب أن يبدأوا بحرب الأقرب فالأقرب ، حتى يخلوا طريقهم ويأمنوا مفاجأة العدو من الخلف إن هم بدؤوا بحرب الأبعد » (الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب / الشيخ / محمود شلتوت ص 37) .

وبالجملة فإن الآيات التي وردت بتشريع الحرب والقتال دون تقييد ذلك بحدوث الاعتداء ، هذه الآيات مقيدة بالآيات الأخرى التي تجعل الاعتداء على المسلمين أو الإسلام مناط القتال والمحاربة ، إذ تقضى القواعد الأصولية بأنه إذا اتحد الموضوع فإن المطلق يحمل على المقيد (ينظر : أصول الفقه / الشيخ / محمد أبو زهرة ص 34) .

« فالله سبحانه وتعالى تارة يذكر القتال مقرونا بسببه وتارة يذكره مطلقا اكتفاء بعلم السبب في آيات أخرى » (السياسة الشرعية الشيخ / عبد الوهاب خلاف ص 78) .

هذا عن الآيات القرآنية التي استدلوا بها .

وأما عن الأحاديث النبوية :

فليس في الأحاديث التي أوردها أصحاب هذا الرأي ما يؤيد مذهبهم فالحديث الذي يقول فيه المصطفى ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ... » خاص بمشركي العرب بإجماع العلماء ، فهم الذين نقضوا العهود وبذلوا المحاولات المتعددة للقضاء على الدعوة الإسلامية ، ولذلك جاء في حقهم قوله سبحانه ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا ولهم كل مرصد ... ﴾ .

وأما الأحاديث الأخرى التي يوصي فيها النبي ﷺ أمراء الأجناد بدعوة الناس إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، فهي لا تفيد إلا دعوة الناس بهذه الأمور قبل مباشرة القتال – كما سيأتي في الفصل التالي عند الحديث عن قواعد الحرب في المنهج الإسلامي إن شاء الله ...

وأما عن الفتوحات الإسلامية وإجماع الصحابة عليها :

فلقد كانت الدولتان – الفارسية والرومانية – هما البادئين بالعدوان وشن الحروب ، فعلى الجانب الفارسي تبين في الباب السابق أن النبي ﷺ أرسل كتابا إلى كسرى عظيم الفرس يدعوه إلى الإسلام ، ولكنه غضب غضبا شديدا وقام بتمزيق الكتاب وبعث إلى « باذان » واليه على اليمن يأمره بقتل النبي ﷺ ، وهذا عدوان صريح وإعلان للحرب ، يضاف إليه ما قام به الفرس من شن الغارات على القبائل العربية المسلمة المجاورة ، مما يدخل تحت باب الفتنة في الدين ، فالمسلمون حينما انساحوا في الإمبراطورية الفارسية ينشرون دين الله ويعلون رايته حينما فعلوا ذلك لم يكونوا هم البادئين بالعدوان وإنما كانوا يقومون برد الاعتداء ومنع الفتنة في الدين (ينظر : العلاقات الدولية في الإسلام ... (الزحيلي) ص 28) .

وعلى الجانب الروماني كان الرومان كذلك هم البادئين بالعدوان فقد قتل والي الشام مِنْ قبل الرومان مَنْ أسلم مِنْ عرب الشام ، كما أن النبي ﷺ قد أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى الشام ثم إلى ملك الروم ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقة رباطا ، ثم قدمه فضرب عنقه ... ومن المعلوم أن الرسل لا تقتل ... فكان لابد وأن يتحرك المسلمون تحركا سريعا لتأديب هؤلاء الغادرين الذين فتنوا المؤمنين وبالفعل بعث النبي ﷺ ثلاثة آلاف من أصحابه في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة وكان ما كان من أمر غزوة مؤتة .

كما أن الرومان قتلوا فروة بن عمرو الجذامي ، مما كان سببا من أسباب غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة النبوية =

وهكذا .. ينتهي الحديث عن الأساس الرابع في المنهج الإسلامي لتحقيق الأمن الدولي وتوطيد أركانه .

* * *

تلك هي الأسس التي تكفل تحقيق الأمن الدولي في المنهج الإسلامي .. وهي أسس راسخة تمثل جزءا من صميم المنهج الرباني الشامل الذي أكمله الله وأتم به النعمة ، قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (1) وهذا هو ما يعطيها الحيوية الكاملة وضمانة التنفيذ ... فهي ليست مجرد مجموعة من النظريات البشرية المثالية التي قد تطبق أو لا تطبق - تبعا لقانون المصالح المادية - وإنما هي مبادئ دينية واجبة التطبيق والتنفيذ ، قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (2) .

= (يراجع : دراسة فى السيرة ص 294 ، 301 ، فقه السيرة - الغزالي 387) .

بهذا يتبين رجحان القول بأن السلام هو أصل العلاقات الدولية في المنهج الإسلامي فهو الرأي الذي تؤيده آيات الكتاب الكريم وأحاديث النبي العظيم ﷺ .

كما يتبين أيضا أن تقسيم العالم إلى دارين : دار الإسلام ودار الحرب ، إنما كان حكما زمنيا وليس أصلا دينيا ، فالفقهاء قد نظروا إلى الواقع الذي كان يعيشه المسلمون وقت التدوين الفقهي فالحرب مستعرة ، والنيران مشتعلة ، والميدان ملتهب ، والأعداء من كل حدب وصوب يتكاتفون للقضاء على الإسلام والمسلمين (ينظر العلاقات الدولية في الإسلام (أبو زهرة) ص 51 ، 52) .

(1) سورة المائدة : جزء من الآية (3)

(2) سورة آل عمران : الآية (132) .

المبحث الثاني

الإسلام والتعاون الدولي

لاشك أن التعاون ينمو ويزدهر في البيئة الآمنة المستقرة ... فإذا كان المنهج الإسلامي قد كفل تحقيق الأمن على المستوى الدولي ، فإنه بذلك يهيئ الفرصة أمام المبادلات التجارية والمعاملات المالية والاقتصادية والثقافية بجميع صورها وكافة أشكالها .

والنظرة الإسلامية للتعاون – كما أرى – أنه قبل أن يكون فريضة دينية فهو ضرورة بشرية ؛ ذلك أن الله تبارك وتعالى حينما خلق الأرض جعل فيها ثرواتها التي تكفل القوت لكل من استدعاه الله إلى هذا الوجود . يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ (1) .

واقتضت الحكمة الإلهية أن توزع هذه الثروات وتنشر في جميع جنبات الأرض ما بين ثروات زراعية في مكان وثروات معدنية في مكان آخر ، وثروة مائية في مكان ثالث ، وثروة بشرية في مكان رابع .. وهكذا .. بحيث يكون التكافل والتعاون بين بني آدم مطلبا حيويا ضروريا لا مفر ولا استغناء عنه ... ولعل في القرآن الكريم إشارة إلى هذا المعنى في قول المولى تبارك وتعالى ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ (2) فالأرض كلها للخلق كلهم ، يشتركون جميعا في خيراتها ويستفيدون جميعا من ثرواتها (3) .

ولعمري فإنه ما حدثت المجاعات وما وجد العوز والفقر ، إلا حينما وضعت الحواجز بين بني البشر ، وإلا نتيجة لسياسات بغيضة نبعت من نوازع الأثرة والأنانية ، والاستغلال والمادية الممقوتة .

هذا وقد حث الإسلام على التعاون كفضيلة عظيمة ، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (4) وقال النبي ﷺ : (... والله في عون العبد ما كان العبد

---

(1) سورة فصلت : الآيتان 9 ، 10 .
(2) سورة الرحمن : الآية (10) .
(3) هذه الفكرة مقتبسة من الخواطر الإيمانية لفضيلة الشيخ / محمد متولي الشعراوي .
(4) سورة المائدة : جزء من الآية (2) .

فى عون أخيه ...) [1] وفي هذا المقام من الآيات والأحاديث الكثير والكثير .

أما ما جاء في النصوص القرآنية والنبوية من إباحة التعامل والتعاون مع غير المسلمين فسأذكر طرفا منه فيما يلى :

أ – من القرآن الكريم :

تواترت في هذا المقام كثير من آيات الكتاب العزيز ، تدل دلالة واضحة ليس على مجرد إباحة التعامل مع المسالمين من غير المسلمين ولكنها تكاد تحث عليه وتأمر به .

– قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [2] .

هذا التعارف لابد وأن يتبعه تبادل للمعارف والعلوم والصناعات والتجارات .... وغيرها .

– قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [3] .

لا تكتفي الآية الكريمة بإباحة التعامل مع المسالمين من غير المسلمين بل تأمر الآية الكريمة ببرهم والعدل معهم ...

ويتضح هذا جليا في سبب نزول هذه الآية .. فقد جاءت قتيلة بنت عبد العزى لزيارة ابنتها السيدة أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – وقدمت إليها بعض الهدايا – وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية وظلت على شركها – فأبت أسماء أن تقبل هداياها فأرسلت إلى أختها السيد عائشة رضي الله عنها أن سلي رسول الله ﷺ عن هذا ؟ فأخبرته فأمرها أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها وأنزل الله ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ ... الآيتان ﴾ [4] .

– قوله تعالى ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ

---

(1) الترمذي : ك الحدود ب ما جاء في الستر على المسلم 4 / 26 (1425) وصححه / أبو داود : ك الأدب ب في المعونة للمسلم 4 / 288 (4946) ، النسائي في الكبرى ك الرجم ب الترغيب في ستر العورة 4 / 308 (7284 ، 7285 ، 7286) جميعا من حديث أبي هريرة .

(2) سورة الحجرات : الآية (13) .

(3) سورة الممتحنة : الآية (8) .

(4) الآيتان من سورة الممتحنة (8 ، 9) والحديث أخرجه : البخاري : في ك الهبة باب الهدية للمشركين وقول الله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين 5 / 275 (2620) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : إن أمي قدمت وهي راغبة ، افأصل أمي ؟ قال : نعم ، صلي أمك .

لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [1] .

ولا شك أن الترخيص للمؤمنين بتناول طعام أهل الكتاب والتزوج من نسائهم ، إنما هو من أعظم أبواب تشجيع التعاون الدولي .

ب – من السنة المطهرة :

– قوله ﷺ : (.. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ..) [2] ... صحيح أن سياق الحديث يبين أن هذا في جانب التعامل بين المؤمنين ولكن العموم في ألفاظ الحديث الشريف يمكن أن يستدل به في جانب التعاون الإنساني العام .

– ما جاء عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها من أن النبي ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين وسقا من شعير لأهله [3] .

– قال عبد الرحمن بن أبي بكر : كنا مع النبي ﷺ ثم جاء رجل مشرك مُشْعانٌ (أي ذو شعر طويل) طويل ، بغنم يسوقها ، فقال النبي ﷺ : « أبيعا أم عطية أم هبة ؟ فقال : لا .. بيع ..فاشترى منه شاة » [4] .

– وفي الهجرة النبوية المباركة استعان المصطفى ﷺ برجل من المشركين تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها : « واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه رجلا من بني الديل ثم من بني عبد بن نميري ، هاديا خِرِّيتا (أي خبيرًا بالطرق) وهو على دين كفار قريش ، فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال .. » [5] وهذا الدليل هو

---

(1) سورة المائدة : الآية (5) .

(2) مسلم : ك الذكر والدعاء ب فضل الذكر والدعاء 4 / 2074 (38 - 2699) ، أبو داود : ك الأدب ب في المعونة للمسلم 4 / 288 (4946) ، الترمذي : ك الحدود ب ما جاء في الستر على المسلم 4 / 26 (1425) ... جميعا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(3) البخاري : ك الجهاد ، ب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب 6 / 116 (2915) عن عائشة ، والترمذي ك البيوع ب ما جاء في الرخص في الشراء إلى أجل 3 / 519 (1215) وقال هذا حديث حسن صحيح ، أحمد 1 / 236 .. كلاهما عن ابن عباس .

(4) البخاري : ك البيوع والشراء ب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب 4 / 410 (2216) .

(5) البخاري : ك الإجارة ب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام 4 / 442 (1263) ابن سعد في الطبقات الكبرى 1 / 177 من حديث زيد بن أرقم وأنس والمغيرة .

عبد الله بن أريقط وكان مشركا ، ومع ذلك استعان به النبي ﷺ بعد أن لمس فيه الأمانة .

– وفي غزوة حنين استعار النبي ﷺ بعض الأسلحة من صفوان بن أمية وهو ما زال مشركا ... يقول الإمام ابن القيم : لما أجمع النبي ﷺ السير إلى هوزان ، ذُكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعا وسلاحا ، فأرسل إليه – وهو يومئذ مشرك – فقال : « يا أبا أمية ! أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا » فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟ فقال ﷺ « بل عارية ، وهي مضمونة حتى نؤديها إليك » [1] .

– وإن المعاهدة التي عقدها النبي ﷺ مع اليهود لهي من أقوى الدلائل على إباحة التعامل مع غير المسلمين ، ودعوة الإسلام إلى التعاون الدولي .

– ومن بين بنودها ما يدعو إلى التعاون والنصرة ، فقد جاء فيها « ... وإن بينهم (المسلمين واليهود) النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ... » [2] .

– وقد ذهب النبي ﷺ إلى يهود بني النضير يستعين بهم في دية القتيلين اللذين قتلهما – خطأ – عمرو بن أمية الضمري ، وذلك تطبيقا لنصوص المعاهدة التي عقدها معهم ولكنهم – عليهم لعنة الله – وجدوها فرصة سانحة لاغتيال النبي ﷺ ، فأظهروا الترحيب والسرور خداعا وغدرا ونفاقا ، وانتدبوا عمرو بن جحاش بن كعب ليعتلي سطح البيت الذي يجلس النبي ﷺ إلى جواره ، ليلقي عليه صخرة ليقتله ، ولكن الله عز وجل عصم نبيه من تدبيرهم ومكرهم وأوحى إليه بكيدهم وغدرهم ، فقام مسرعا وعاد مع أصحابه إلى المدينة وكان ما كان من إجلاء اليهود الغادرين من بني النضير عليهم جميعا اللعنة » [3] .

– وفي صلح الحديبية استعان رسول الله ﷺ ببشر بن سفيان الخزاعي عينا له على قريش ليأتيه بخبرها ... وبشر يومئذ مشرك » [4] .

– وفي قصة أسرى بدر من المشركين أن النبي ﷺ جعل فداء أسرى قريش – ممن ليس له مال – أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة ويخلي سبيله [5] .

---

(1) زاد المعاد 2 / 186 ، أبو داود : ك البيوع ب في تضمين العارية 3 / 294 (3562) ،، أحمد 3 / 401 .

(2) سبق تحريجها : ص 615 .

(3) ينظر : زاد المعاد 3 / 238 ، خاتم النبيين المجلد الثاني 2 / 748 ، 749 .

(4) ينظر : خاتم النبيين المجلد الثاني 2 / 844 .

(5) ينظر : زاد المعاد 3 / 112 ،، خاتم النبيين المجلد الثاني 2 / 646 .

ووجه دلالة هذا الموقف على التعاون الدولي في منهج الإسلام ، أن النبي ﷺ بعمله هذا أباح للمسلمين الاستفادة من غيرهم في الميادين التي يحتاجون إلى الغير فيها ، مما يفتح الباب واسعًا أمام التعاون الدولي بكافة صوره وجميع أشكاله .

هذه لمحة سريعة عن منهج الإسلام في تحقيق التعاون الدولي ، وقد سبقها حديث عن منهج الإسلام في تحقيق الأمن الدولي .

وبتحقيق هذين المطلوبين يتحقق للمجتمع الدولي ما ينشده من استقرار ورخاء وازدهار ، إذ أن السعادة الكاملة لا تتحقق إلا بهما ، فالإطعام من جوع – وهو ما يعبر عنه الآن بالرخاء والازدهار – والأمن من خوف ، هما أعظم آمال البشرية ومنتهى طموحها .

ولقد قامت الفلسفات البشرية والمنظمات الدولية على أساس الرغبة في إيجاد عالم تسوده ، روح الوئام وترفرف عليه رايات المحبة والسلام .. ولكن هذه الجهود – رغم نبل مقصدها وشرف غايتها – قد ذهبت سدى ، وفشلت فشلا ذريعا ، لا لشيء إلا لغياب الوازع الديني الداخلي الذي يكفل لها ضمانة التنفيذ ، فقد وقعت المنظمات الدولية في قبضة المطامع أو المصالح الخاصة بالدول الكبرى ، التي أفلحت في تسخير هذه المنظمات لأهدافها ومصالحها ... وإن شئت الحق فإن هذه المنظمات ما كانت إلا إطارا جديدا للسيطرة على العالم من خلال أشكال لها الصفة القانونية بعيدًا عن الشكل « الاستعماري » القديم .

لهذا ... فإن منهج الإسلام في تحقيق الأمن والتعاون الدوليين يتميز بأنه جزء من المنهج الإسلامي الشامل ، ذلك المنهج الرباني الذي يعتمد في تطبيقه وتنفيذه على عنصر تقوى الله ومراقبته في كل آن وحين قال تعالى :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [2] .

وقال عز شأنه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [3] .

(1) سورة البقرة : جزء من الآية (223) .
(2) سورة البقرة : جزء من الآية (203) .
(3) سورة الزلزلة : الآيتان (7 ، 8) .

الفصل الثاني

نظام الإسلام في المجال الدولي في حالي السلم والحرب

في السطور التالية سوف نتعرض لبعض أحكام الشريعة الإسلامية في مجال التنظيم الدولي :

وبما أن الإسلام الحنيف يجعل السلم أصل العلاقات الدولية ، فإننا سنبدأ أولا بالحديث عن أحكام الشريعة في التنظيم الدولي حال السلم ، ثم نتحدث بعد ذلك عن حال الحرب .

لذا سيتكون هذا الفصل من مبحثين :

الأول : نظام الإسلام في المجال الدولي في حال السلم .

الثاني : نظام الإسلام في المجال الدولي في حال الحرب .

* * *

المبحث الأول

نظام الإسلام في المجال الدولي في حال السلم

يعني النظام الإسلامي الدولي بتنظيم علاقات الدول ببعضها البعض وعلاقات الأفراد بوصفهم أعضاء في المجتمع البشري . فالدول والأفراد من أشخاص القانون الدولي بتعبير القانونيين .

الفرع الأول : تنظيم علاقات الدول ببعضها البعض :

ينشد الإسلام للمجتمع الدولي الاستقرار والأمن والرخاء ، إذا هو الأساس العام لنظام الإسلام في المجال الدولي .

أما عن الأحكام التفصيلية والقواعد التنظيمية التي وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها فهي نابعة أساسا من الدعائم الأخلاقية العامة التي جعلها الإسلام أساس التعامل بين الناس أفرادا وجماعات ، والتي بين المرحوم الشيخ / محمد أبو زهرة أنها تشمل : الكرامة الإنسانية - الوحدة الإنسانية - التعاون الإنساني -

التسامح – الحرية – الفضيلة – العدالة – المعاملة بالمثل (في حدود الفضيلة) – الوفاء بالعهد – المودة ومنع الفساد [1] .

بناء على هذه القواعد يمكن التعبير عن الإطار العام لمنهج الإسلام في النظام الدولي حال السلم ، بلغة السياسة المعاصرة بأنه يقوم على ما يلي :

1 - الاعتراف بسيادة الدول الأخرى واستقلالها .

2 - المحافظة على أمن الدول الأخرى وسلامة أراضيها .

3 - المساواة التامة بين جميع الدول في كافة الحقوق القانونية الدولية .

4 - القضاء على كافة الخلافات ، وحل جميع المشكلات بالطرق السلمية .

5 - عدم استخدام القوة أو التهديد بها ، إلا في الحالات الضرورية التي تقتضي ذلك .

6 - التعاون بين جميع دول العالم للقضاء على المشكلات الكبرى التي تواجه الإنسانية جمعاء .

الفرع الثاني : تنظيم علاقات الأفراد بالدولة المسلمة :

بناء على هذه القواعد العامة التي تحكم علاقات الدول ، قام النظام الإسلامي بوضع بعض القواعد التي تحكم حقوق وواجبات الأفراد وعلاقاتهم بالدولة الإسلامية .

وهذه القواعد إما أن تتعلق بغير المسلمين داخل الدولة الإسلامية أو بالمسلمين في خارج الديار الإسلامية . وسأتحدث إن شاء الله عن هذين الجانبين :

الجانب الأول : غير المسلمين داخل حدود الدولة الإسلامية

يتواجد على أرض الدولة المسلمة بصفة عامة صنفان من الناس :

الصنف الأول : وهم المسلمون الذين يخضعون لسلطان الدولة وتطبق عليهم أحكام الشريعة الإسلامية كاملة .

الصنف الثاني : وهم غير المسلمين ، وينقسمون إلى فريقين :

الأول : أناس هم من مواطني الدولة الإسلامية الخاضعين لسلطانها ، الحاصلين على

---

(1) يراجع : العلاقات الدولية في الإسلام ص 19 : 46 .

جنسيتها ، المقيمين بها إقامة دائمة ... وهؤلاء هم أهل الذمة .

الثاني : أناس من غير المسلمين لا يستوطنون دولة الإسلام ، وإنما دخلوها لغرض معين كالتجارة أو السياحة أو طلب العلم ، أو غير ذلك ... وهؤلاء هم المستأمنون أو الأجانب .

ولكل واحد من الفريقين أحكامه الشرعية الخاصة به ، باعتبارهما من أشخاص القانون الدولي الإسلامي .

وسأتناول فيما يلي بعض هذه الأحكام :

أولا : أهل الذمة

« جرى العرف الإسلامي على تسمية المواطنين من أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي باسم أهل الذمة » أو « الذميين » .

و « الذمة » كلمة معناها : العهد والضمان والأمان ، وإنما سموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين ، أن يعيشوا في حماية الإسلام ، وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين ، فهم في أمان المسلمين وضمانهم بناء على « عقد الذمة » .. فهذه الذمة تعطي أهلها من غير المسلمين ما يشبه في عصرنا « الجنسية السياسية » التي تعطيها الدولة لرعاياها ، فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين ويلتزمون بواجباتهم .. فالذمي – على هذا الأساس – من « أهل دار الإسلام » كما يعبر الفقهاء ، أو من حاملي الجنسية الإسلامية كما يعبر المعاصرون [1] .

وبما أن « الذمة » عقد فإنه يترتب عليه حقوق والتزامات من الجانبين ، وقد كفلت الشريعة الإسلامية السمحاء لأهل الذمة حقوقا عظيمة في مقابل التزامات قليلة ... وفيما يلي حديث عن حقوق الذميين وواجباتهم .

أ – حقوق أهل الذمة :

بما أن عقد الذمة يكسب صاحبه « المواطنة » أو « الجنسية » أي أنه يصبح واحدا من المواطنين في الدولة الإسلامية ... فإن له من الحقوق والامتيازات ما لباقي مواطني الدولة الإسلامية ، فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة التي يقابلها إعفاؤه من بعض الواجبات المفروضة على المواطنين المسلمين .

---

(1) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 7 بتصرف يسير .

ومردُّ هذه الاستثناءات : أن بعض الحقوق والواجبات تستلزم العقيدة الإسلامية أو تقوم عليها أو تتصل بها ، ولا يكفي للتمتع بها أو الالتزام بها توافر عنصر المواطنة والجنسية في الشخص .

والحقيقة أن استثناء بعض المواطنين في بعض الحقوق والواجبات مسألة داخلية مأخوذ بها بين الدول ، وتهم الدولة وحدها ، وهي حرة في تنظيم تمتع المواطنين بالحياة القانونية فقد تساوي بينهم وقد تفرق ... ولا شك أن الدولة عندما تفرق بين المواطنين في بعض الحقوق والواجبات ، إنما تقيم هذه التفرقة على أساس اختلافهم في بعض الأوصاف التي تراها كافية لتبرير هذه التفرقة ، والدولة الإسلامية تعتبر الوصف الديني هو الأساس المقبول للتمييز بين المواطنين ببعض الحقوق والواجبات ، لأنها محكومة بالإسلام ولا تملك الخروج على أحكامه . والإسلام يشترط للتمتع ببعض الحقوق والتحمل ببعض الواجبات : توافر العقيدة الإسلامية في المواطن .

وعلى هذا الأساس لا يكلف الذمي بأداء الزكاة ولا بواجب الجهاد والقتال عن دار الإسلام ، كما لا يجوز له تولي منصب رئاسة الدولة ونحوه . لأن هذه الأمور يشترط لها توافر العقيدة الإسلامية في الشخص [1] .

ولندرة هذه الاستثناءات فإنه قد شاع القول المشهور عن أهل الذمة : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » وقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا » [2] .

وسأذكر فيما يلي أهم حقوق أهل الذمة في النظام الدولي الإسلامي :

1 - **حق الحماية** : كفل الإسلام لأهل الذمة حق الحماية .. وهي نوعان :

النوع الأول : الحماية من الاعتداء الخارجي :

يجب على الدولة المسلمة أن توفر الحماية الكاملة لأهل الذمة من أي اعتداء خارجي.. يقول صاحب « مطالب أولي النهى » : « يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يؤذيهم وفك أسرهم ، ودفع من قصدهم بأذى ، إن لم يكونوا بدار حرب ، بل كانوا بدارنا ، ولو كانوا منفردين ببلد » وعلل ذلك بأنهم : جرت عليهم أحكام

(1) مجموعة بحوث فقهية ص 67 - 68 .

(2) ينظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 13 ، العلاقات الدولية في الإسلام (أبو زهرة) ص 61 ، 62 .

الإسلام وتأبّد عقدهم ، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين .

ونقل الإمام القرافي في « الفروق » قول ابن حزم في « مراتب الإجماع » : « أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه ، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ، ونموت دون ذلك ، صونا لمن هو في ذمة الله وذمة رسوله ﷺ ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة » وحكى في ذلك إجماع الأمة ... وعلق القرافي على ذلك بقوله : « فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صونا لمقتضاه عن الضياع ، إنه لعظيم » [1] .

وإذا وقع أحد أهل الذمة في الأسر ، وجب على الدولة المسلمة أن تبذل قصارى جهدها في تخليصه من أيدي الأعداء ، ولو بدفع الفداء عنه من بيت المال ، وهذا ما أفتى به الإمام الليث بن سعد [2] .

ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك : أن الإمام ابن تيمية بعد أن تغلب التتار على الشام ذهب إلى قائدهم « قطلو شاه » لإطلاق سراح الأسرى ، فوافق القائد على إطلاق سراح الأسرى من المسلمين فقط ، ولكن شيخ الإسلام قال له : « لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى ، فهم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرا ، لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة » وتم فعلا إطلاق سراح جميع الأسرى [3] .

وإذا لم تستطع الدولة المسلمة توفير الحماية لأهل الذمة فإنها تلتزم برد الجزية التي قامت بتحصيلها منهم ... وقد فعل هذا الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح « رضي الله عنه » أثناء فتح الشام ، فعندما بلغه أن الروم قد جمعوا جموعا عظيمة لملاقاة المسلمين ، أمر برد المبالغ المالية التي قام المسلمون بتحصيلها من أهل هذه المناطق ، كما أمر بأن يتلى عليهم البيان التالي : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم (أي نحميكم) وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذ منكم ، ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » ... وقد أثر هذا الموقف الجليل في نفوس أهل الشام تأثيرا بالغا ، ودعوا بالنصر للمسلمين على عدوهم [4] .

---

(1) ينظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 9 ، 10 .

(2) مجموعة بحوث فقهية ص 71 ، 72 بتصرف .

(3) ينظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 10 .

(4) ينظر : المرجع السابق ص 35 ، العلاقات الدولية في الإسلام على ضوء الإعجاز البياني في سورة التوبة : د . كامل سلامة الدقس ص 300 .

النوع الثاني : الحماية من الظلم الداخلي :

إذا كانت الدولة المسلمة تتكفل بحماية أهل الذمة من الاعتداء الخارجي ، وتبذل في سبيل ذلك الدماء والأموال ، فإنها من باب أولى تتكفل بحمايتهم من أي اعتداء أو ظلم داخلي .

فدماؤهم وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم مصونة محفوظة ، فإذا اعتدي على أي من هذه الجوانب كان للدولة المسلمة موقف وأي موقف .

ففيما يتعلق بعصمة الدماء : يقول النبي ﷺ : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما »[1] . وقد ذهب الشعبي والنخعي وابن أبي ليلى ، وأبو حنيفة وأصحابة إلى أن المسلم يقتل بالذمي ، لعموم النصوص الموجبة للقصاص في الكتاب والسنة ولاستوائهما في عصمة الدم المؤبدة ، ولما روي أن النبي ﷺ قتل مسلما بمعاهد ، وقال : « أنا أكرم من وفى بذمته »[2] ، وما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه أتى برجل من المسلمين قتل رجلا من أهل الذمة فقامت عليه البينة فأمر بقتله فجاء أخوه (أي أخو القتيل) فقال : إني قد عفوت . قال علي : فلعلهم هددوك وفرقوك ؟ ! قال : لا ، ولكن قتله لا يرد علي أخي ، وعوضوا لي ، ورضيت . قال : أنت أعلم من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا ، وديته كديتنا .. وفي رواية أنه قال : « إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا »[3] . قال القرطبي : ناقلا عن الكوفيين والثوري : « الذمي مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص ، وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد . فإن الذمي محقون الدم على التأبيد ، والمسلم كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام ، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي ، وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم ، فدل على مساواته لدمه . إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه »[4] .

وأما حديث النبي ﷺ « لا يقتل مسلم بكافر »[5] والحديث الآخر « ألا لا يقتل

---

(1) سبق تخريجه في المبحث الثالث من الباب الرابع .

(2) عبد الرزاق في المصنف 10 / 101 ، والبيهقي في السنن الكبرى : ك الجنايات ب بيان ضعف الخبر الذي روي في قتل المؤمن بالكافر وما جاء في ذلك عن الصحابة 8 / 30 ، وإسنادهما ضعيف .

(3) المرجع السابق [البيهقي] .

(4) القرطبي 1 / 732 .

(5) الترمذي ك الديات ب ما جاء في دية الكفار 4 / 18 (1413) عن عبد الله بن عمرو ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، والبيهقي في السنن الكبرى ك الجنايات ب فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين 8 / 29 عن علي .

مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده » [1] فقد وجههما أصحاب هذا الرأي بأن المراد بالكافر هو الحربي وبذلك تتعاضد النصوص ولا تتعارض .. هذا عن عصمة الدماء .

وفيما يتعلق بعصمة الأموال : فقد جاء في عهد النبي ﷺ لنصارى نجران : « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول اللّه ﷺ على أموالهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ... » [2] .

وجاء في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل بيت المقدس : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم - سقيمها وبريئها - وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ... » [3] .

كما أوصى عمر بن الخطاب أبا عبيدة - رضي الله عنهما - بأهل الذمة خيرا فقال : « امنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم ، وأكل أموالهم إلا بحلها » [4] .

وقد بالغ الأحناف في تعظيم حرمة أموال الذميين إلى حد أنهم ألزموا المسلم بقيمة ما أتلفه من مال متقوم عند أهل الذمة وإن لم يكن مالا متقوما عند المسلمين كالخمر والخنزير [5] وإن كان مذهب الجمهور يخالف ذلك إلا أن مجرد وجود مثل هذا الرأي يدل دلالة واضحة على مدى سماحة الإسلام في التعامل معهم .

وفيما يتعلق بحماية الكرامة والعرض : فقد جاء عن المصطفى ﷺ كثير من الأحاديث التي تنهى عن امتهان كرامة أهل الذمة أو الاعتداء على أعراضهم ، يقول ﷺ : « من ظلم معاهدا ، أو انتقصه حقا ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير

---

(1) ابن ماجة : ك الديات ب لا يقتل مسلم بكافر 2 / 888 (2658 - 2660) من حديث علي وعبد الله بن عمرو وابن عباس بأسانيد حسنة ، والبيهقي في الكبرى : ك الجنايات ب فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين 8 / 30 من حديث علي .

(2) ينظر الخراج لأبي عبيدة .

(3) يراجع : تاريخ الطبري 3 / 609 ، كما يراجع : الحرب في الإسلام وفي المجتمع الدولي المعاصر . توفيق وهبه ص 27، سلسلة كتب إسلامية رقم (145) يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة 1393 هـ - 1973م .

(4) ينظر : غير المسلمين ... ص 14 ، 15 .

(5) ينظر : العلاقات الدولية في الإسلام (أبو زهرة) ص 12 .

طيب نفس منه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » [1] .

فهذا الحديث الشريف وغيره يجعل إيذاء الذمي عملا شنيعا يجعل صاحبه في عداوة وخصومة مع رسول الله ﷺ ، ومَن مِن الناس يرضى بهذا أو يطيقه ؟ ! !

وعلى هذا فلا يجوز إيذاء أهل الذمة أو تعذيبهم حتى وإن قصروا بعض الشيء في أداء واجباتهم فقد رأى حكيم بن هشام الصحابي الجليل رضي الله عنه ، رأى رجلا يعذب بعض أهل الذمة بسبب امتناعهم عن أداء الجزية فأنكر ذلك قائلا : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا » [2] .

يقول الإمام القرافي : « إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقا علينا لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا (أي حمايتنا) ، وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسول الله ﷺ ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم – ولو بكلمة سوء أو غيبة – فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام » [3] .

وبهذا انتهى الحديث عن الحق الأول من حقوق أهل الذمة وهو حق الحماية .

(2) **حق الحرية** : هذا هو الحق الثاني من حقوق أهل الذمة ، وهو أيضا أنواع عدة منها :

أ – حرية العقيدة :

إن حرية العقيدة أصل عظيم من أصول الإسلام يقول الله عز وجل : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ... ﴾ [4] وقد كفل الإسلام لأهل الذمة بمقتضى هذا الأصل العظيم حريتهم الدينية ، فقد مضى قريبا ذكر طرف من عهد النبي ﷺ لنجران ، وطرف من عهد الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه إلى أهل بيت المقدس ... وفي كلا العهدين تبرز عظمة الإسلام في توفير الحرية الدينية حيث أعطاهم الأمان على كنائسهم وصلبانهم وملتهم وسائر أمورهم الدينية .

---

(1) أبو داود : ك الخراج والإمارة ب التشديد في جباية الجزية 3 / 168 (3052) من حديث صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن آبائهم دنية عن رسول الله ﷺ ، وصفوان بن سليم هو المدني أبو عبد الله الزهري الثقة العابد مات سنة اثنين وثلاثين ومائة (التقريب ص 276) فهو تابعي أو تابع تابعي فحديثه مرسل أو معضل .

(2) سبق تخريجه في المبحث الثالث من الباب السابق .

(3) الفروق : شهاب الدين القرافي 3 / 14 ، نقلا عن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 15 .

(4) سورة البقرة : جزء من الآية (256) .

وقد جاء أيضا في هذا المضمار عهد خالد بن الوليد رضي الله عنه لأهل « عانات » حيث كان من بنوده : « ... ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلاة وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم ... » [1] .

ب - حرية العمل والكسب :

هذا حق طبيعي من حقوق الإنسان عموما ... (وقد سبق - بحمد الله - بيان ذلك في معرض الحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام) .

فلأهل الذمة مطلق الحرية في العمل والكسب ما دام ذلك في الإطار القانوني العام للدولة المسلمة .. واشتراط أن يكون تعاملهم في إطار قانون الدولة الإسلامية يعني أنه يحرم عليهم التعامل بالربا ، لأن الشريعة الإسلامية تحرمه ، كما يحرم عليهم بيع الخمر والخنزير في بلاد المسلمين ، أو فتح حانات لشرب الخمور ... أو غير ذلك مما يؤدي إلى تسهيل ارتكاب المحرمات . وفيما عدا ذلك لهم مطلق الحرية في العمل والكسب .

جـ - الحق في تولي المناصب العامة إلا ما غلب عليه الوصف الديني :

يحق لأهل الذمة أن يتولوا جميع الوظائف في الدولة مثلهم في ذلك مثل المسلمين إلا في بعض المناصب والوظائف التي تتطلب أن يكون شاغلها مؤمنا بعقيدة الإسلام مثل رئاسة الدولة وقيادة الجيش والقضاء والولاية على الصدقات ونحو ذلك .

فرئاسة الدولة الإسلامية أو ما يعبر عنها بالخلافة أو الإمامة هي : « رياسة عامة في الدين والدنيا » خلافة عن النبي ﷺ ، ولا يجوز أن يخلف النبي في ذلك إلا مسلم ، ولا يعقل أن ينفذ أحكام الإسلام ويرعاها إلا مسلم .

وقيادة الجيش ليست عملا مدنيا صرفا بل هي عمل من أعمال العبادة في الإسلام ، إذ الجهاد في قمة العبادات الإسلامية .

والقضاء إنما هو حكم بالشريعة الإسلامية ولا يطلب من غير المسلم أن يحكم بما لا يؤمن به ، ومثل ذلك الولاية على الصدقات ونحوها من الوظائف الدينية .

وما عدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة إذا تحققت فيهم الشروط التي لابد منها من الكفاية والأمانة والإخلاص للدولة . بخلاف الحاقدين الذين

---

(1) الخراج 146 ، وينظر : العلاقات الدولية في الإسلام .. (الدقس) ص 317 : 320 .

تدل الدلائل على بغض مستحكم منهم للمسلمين كالذين قال الله فيهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (1) .

وفي التاريخ الإسلامي - قديمه وحديثه - نماذج كثيرة لتولي بعض أهل الذمة كبريات المناصب الرفيعة ، بل بلغ التسامح بالمسلمين في هذا الأمر إلى حد الانحراف ، فقد أتى على المسلمين زمان أصبح فيه أهل الذمة أصحاب التصرف والقرار ، مما جعل بعضهم يرفع عقيرته بالشكوى والتبرم من هذا الوضع العجيب . يقول الحسن بن خاقان وهو يصف استيلاء اليهود على مقاليد السلطة الفعلية في مصر إبان العهد الفاطمي :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملكوا

المجد فيهم والمال عندهم   ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إني نصحت لكم   تهودوا قد تهود الفلك

وقال الفقيه الحنفي ابن عابدين يصف تحكم اليهود في كل شيء :

أحبابنا نوب الزمان كثيرة   وأمر منها رفعة السفهاء

فمتى يفيق الدهر من سكراته   وأرى اليهود بذلة الفقهاء (2)

د - الحق في كفالة الدولة عند العجز والمرض والفقر والشيخوخة :

من عظمة النظام الإسلامي أنه أوجب على الدولة المسلمة كفالة غير المسلمين من الفقراء والمرضى والمحتاجين ، وقد أجمعت الأمة على ذلك ، فعندما صالح خالد بن الوليد رضي الله عنه أهل الحيرة وهم نصارى ، كتب لهم كتابا جاء فيه : « ... وجعلت لهم : أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم ... » . وقد أقر الخليفة الصديق رضي الله عنه والصحابة

---

(1) سورة آل عمران : الآية (118) وينظر غير المسلمين .. ص 22 ، 23 ، مجموعة بحوث فقهية ص 68 ، 69 .

(2) يراجع فصل : « تسامح فريد » من كتاب غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 51 / 54 ، وينظر أيضا ص 24 .

جميعا ما فعله خالد رضي الله عنه ولم ينكسر عليه أحد شيئا منه فكان ذلك إجماعا .

وقد مضى ذكر موقف الفاروق عمر رضي الله عنه مع اليهودي الذي كان يسأل الناس بسبب الجزية والحاجة والسن ، فأخذه إلى منزله وأعطاه ما يكفيه ، ثم بعث إلى خازن بيت المال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ وهذا من مساكين أهل الكتاب ... ووضع عنه الجزية وعن أمثاله .

كما أن الفاروق رضي الله عنه عندما سافر إلى الشام مر بأرض قوم مجذومين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت .

وقد اقتدى به حفيده عمر بن عبد العزيز فكتب إلى عدي بن أرطأة والي البصرة قائلا : « .. وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه ... » .

وقد سبق بيان أن حق الكفاية التامة واحد من حقوق الإنسان في الإسلام للمسلمين وغيرهم ...

هـ - حق العدالة والمساواة :

من حق أهل الذمة أيضا المساواة التامة بينهم وبين غيرهم بمقتضى مبدأ الإخاء البشري العام والمساواة الإنسانية الكاملة وبمقتضى اكتسابهم صفة المواطنة والجنسية في الدولة الإسلامية ولهم الحق كذلك في العدالة التامة التي هي أصل من الأصول الإسلامية العظيمة قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

ومن أدلة هذا الحق ما جاء في المعاهدة التي عقدها النبي ﷺ مع اليهود في المدينة من « أنه لا يأثم امرؤ بحليفه » .. وما جاء أيضا في عهد النبي ﷺ لنصارى نجران من أنه « لا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر » .

والقصة الشهيرة عن الفاروق عمر رضي الله عنه من أكبر الدلائل على ما تكفله

---

(1) سورة النحل : جزء من الآية (90) .

(2) سورة المائدة : الآية (8) .

الشريعة الإسلامية لأهل الذمة من عدالة ومساواة .. فقد حدث أن لطم أحد أبناء عمرو ابن العاص رضي الله عنه رجلا من أقباط مصر على وجهه ، وحينما توعده القبطي بالشكوى إلى أمير المؤمنين عمر قال له : اذهب ، فأنا ابن الأكرمين .. فذهب الرجل إلى أمير المؤمنين شاكيا ما فعله ابن الوالي ، فقام عمر باستدعاء عمرو وابنه ، وأعطى القبطي سوطا وقال له ، اضرب ابن الأكرمين كما ضربك - فضربه الرجل .. ثم قال عمر : اضرب صلعة عمرو ، فباسمه ضربك ، فقال الرجل : إنما ضربت من ضربني ... فالتفت عمر إلى عمرو وقال له تلك الكلمة التي أصبحت شعار الأحرار في كل زمان ... « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ... » [1] .

والملفت للنظر في هذه الحادثة أن هؤلاء الأقباط كانوا يضربون في العهد الروماني ضربا مبرحا ، بل يعذبون ويقتلون ، فما يرفع أحدهم بالشكاية رأسا .. وقد كانت مصر يومئذ حديثة عهد بالفتح الإسلامي فكان من المنتظر أن يستكين المضروب لابن القائد الفاتح الذي هزم أكبر دولة في الأرض ورمى بجيشها في البحر الأبيض ... خاصة وأن ذكريات العهد الروماني المؤلمة لا تزال عالقة بالأذهان .. فما الذي حدث من تطورات جعلت هذا الرجل يقطع الفيافي والقفار ليشكو ابن الوالي إلى أمير المؤمنين في المدينة المنورة ؟ ! .. لا شك أنها عدالة الإسلام ولاشك أنها مساواة الإسلام .. جعلت الرجل يثق ثقة مطلقة في أن جهده لن يضيع سدى وأن سفره لن يذهب هباء منثورا [2] .

وقد سبق ذكر قصة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - مع اليهودي في شأن الدرع التي حكم بها القاضي شريح لليهودي ، لأن أمير المؤمنين ليست له بينة على ملكية الدرع .

كل هذا وغيره يؤكد أن الشريعة الإسلامية الغراء تكفل لأهل الذمّة حق العدالة التامة والمساواة الكاملة .

و - كافة حقوق الإنسان الأخرى :

يكفل الإسلام لأهل الذمة كافة الحقوق والضمانات التي تتعلق بأشخاصهم كآدميين ، فالإنسان مخلوق مكرم له منزلته العالية ومكانته السامية بين الخلائق الأخرى -

---

(1) ينظر : العدالة العمرية ومبادئ الإسلام ، عبد العزيز حافظ دنيا ، ص 45 ، 46 .

(2) ينظر : حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص 23 .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [1] .

ومن هذا المنطلق ... فلأهل الذمة كافة الحقوق التي تضمنها البيان العالمي عن حقوق الإنسان في الإسلام من الحرية الفكرية والسياسية ، وتكوين الأسرة ، وحق التنقل والسفر وغيرها من الحقوق .

والواقع أن ما تضمنه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وما اشتملت عليه قواعد القانون الدولي في حقوق الأقليات ، كل هذا لا يرقى إلى الأفق العالمي الذي تضمنته قواعد القانون الدولي الإسلامي [2] .

هذه هي الحقوق التي تقررت لأهل الذمة في الشريعة الإسلامية تبين مدى سماحة الإسلام وعظمته .. كيف لا ؟ وهو الدين الذي أكمله الله وارتضاه للناس دينا .. يقول سبحانه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [3] وهي ليست مجرد حقوق قانونية مقررة ، بل هي مبادئ دينية يحرص المسلم على الالتزام بها لينال رضا الله تعالى .

وتظهر فائدة الوازع الديني حينما يقع انحراف عن الخط الصحيح والطريق المستقيم ، فإنه سرعان ما يواجه بحسم ، مهما كان صاحبه ، ومهما علت منزلته ، وارتفعت مكانته .

ومن الأدلة على ذلك ، موقف الإمام الأوزاعي فقيه الشام من الوالي العباسي صالح ابن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو أحد أقارب الخليفة ... فقد قام هذا الوالي بإجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ، بعد أن ثبت قيام بعضهم بالتجسس لصالح الروم ، واللحاق بهم فاستنكر الأوزاعي أن يؤخذ الجميع بذنب البعض ، خاصة وأن هناك منهم من كان ينكر على الخائنين خيانتهم ، فأرسل الأوزاعي رسالة طويلة إلى الوالي ، كان مما جاء فيها : « ... فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وحكم الله تعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [4] وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به .. وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ ، فإنه قال : (من ظلم ذميا أو

---

(1) سورة الإسراء : الآية (70) .

(2) ينظر : حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص 222 : 229 ، ص 231 : 253 ، موجز القانون الدولي العام ص 69 : 71 .

(3) سورة المائده : جزء من الآية (3) .

(4) سورة النجم : الآية رقم (38) .

كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) ... إلى أن قال في الرسالة : فإنهم ليسوا بعبيد فتكون في حل من تحويلهم من بلد إلى بلد ، ولكنهم أحرار أهل ذمة »[1] .

وموقف الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حينما شكا إليه النصارى أن الوليد بن عبد الملك كان قد أخذ كنيسة يوحنا وأدخلها فى المسجد الأموي ، فأمر الخليفة برد كنيستهم إليهم ولكنهم تنازلوا عن ذلك مقابل تعويضهم بما يرضيهم .. وقد حدث[2] .

والمواقف في هذا المضمار كثيرة كثيرة .. وكلها ناطقة بأن الضمير الإسلامي اليقظ هو أعظم الضمانات الكفيلة بتحويل المبادئ المثالية إلى واقع تطبيقي مشهود .. وهذا ما يمتاز به المنهج الإسلامي العظيم .

وبعد هذا العرض الموجز لحقوق أهل الذمة ، أنتقل إلى الجانب الآخر من طرفي المعادلة ، وهو الواجبات التي تطالب الشريعة الإسلامية بها أهل الذمة .

ب – واجبات أهل الذمة :

من المعلوم بداهة أن كل حق يقابله واجب – كما سبق الحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام – .. فمثلا حق الحياة يقابله واجب المحافظة على حياة الآخرين ، وحق الكرامة وصيانة العرض يقابله واجب المحافظة على كرامة الآخرين وصيانة أعراضهم وهكذا ...

وانطلاقا من هذه القاعدة . فرض النظام الإسلامي بعض الواجبات على أهل الذمة لا تمثل شيئا بجوار تلك الحقوق العظيمة التي كفلها لهم ... من هذه الواجبات :

1 - الولاء للدولة الإسلامية :

من المعلوم أن عقد الذمة يكسب صاحبه حقوق الجنسية والمواطنة في الدولة الإسلامية ، ومعنى هذا أنه يجب عليه الولاء للدولة والخضوع لسلطانها ، وأن لا يصدر منه ما يعتبر إخلالا بواجبات المواطن تجاه دولته كالتجسس لصالح الأعداء ، أو التسبب في ضرب المصالح السياسية والاقتصادية للبلاد ، أو القيام بأعمال من شأنها زعزعة

---

(1) ينظر : غير المسلمين ... ص 28 ، مجموعة بحوث فقهية ص 71 .

(2) ينظر : غير المسلمين ص 29 .

الاستقرار وضرب السلام الاجتماعي والوحدة الوطنية في مقتل ... إلى غير هذا من واجبات تجاه الدولة بحكم أنه حامل جنسيتها وأنه أحد رعاياها .

2 - التزام أحكام الإسلام في الجوانب المدنية والجنائية :

يلتزم الذميون بأحكام الإسلام في معاملاتهم المدنية والجنائية فيكونون فيها كالمسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ... أما شعائرهم الدينية في أحكام الأسرة من زواج وطلاق وغيره فإن أولياء الأمر المسلمين كانوا يتركونهم في هذا يتبعون ما يعتقدونه دينا لهم ، وذلك لصلة أحكام الأسرة بأصل التدين ، فكان من المحافظة على حريتهم الدينية أن يتركوا في عباداتهم وأحكام الأسرة إلى دينهم . ولذلك جاءت قاعدة فقهية تقول : « أمرنا بتركهم وما يدينون » أي في الأسرة والشعائر الدينية وفيما عدا ذلك يلتزمون بأحكام الإسلام [1] .

وعن أسباب التفرقة بين الأحوال الشخصية وغيرها من الجوانب المدنية والجنائية يقول الشيخ / محمد أبو زهرة : « إن المعاملات من شأنها أن تجرى بين المسلمين والذميين ، فيكون التبادل قائما بين كل الرعايا . وإن المعاملات المالية أساس للنظام الاقتصادي في الأمة وتبادل المنافع بين الرعايا . وليس من المعقول أن ينحاز الذميون في محلة يتعاملون فيها دون سائر الناس الذين يجاورونهم وإلا كانوا دولة في داخل الدولة ، وإن ذلك لا يتفق مع الاندماج الذي قبلته الدولة بالنسبة لهم ، فإنه إذا قبل الذمي أن يكون جزءا من الدولة وجب أن يعتبر نفسه جزءا من كيانها ، فيما يتعلق بالنظام المالي والاقتصادي والاجتماعي ولذلك كانت العقوبات الإسلامية واجبة التطبيق عليه .

أما الأحوال الشخصية التي لا تتجاوز الشخص أولا تتجاوز أسرته ، فإنها لا تتصل ذلك الاتصال بالمجتمع الإسلامي ... فشخص الذمي فيما يتعلق بعقيدته وشعائره الدينية وأسرته يصح أن تكونا منقطعتين عن هذا المجتمع ، إذ كانت أحوالهما لا تعدو الشخص أو الأسرة ولا تتجاوزهما ، فكان من حماية حريته في التدين أن يترك أمرهما له ، أي أننا أمرنا بتركهم وما يدينون .

على أنه يلاحظ أن ذلك أمر التزمه ولي الأمر المسلم حماية لحرية التدين ما أمكن ، وليس امتيازا يعطى ، وأنه لا ولاية على الحاكم المسلم في إعطاء رعيته ذلك الالتزام من

---

(1) يراجع : العلاقات الدولية في الإسلام (أبو زهرة) ص 63 ، و (الدقس) ص 314 .

جانبه ، وليس لدولة أخرى أن تتدخل باسم أنه امتياز يجب رعايته .. فإن اتجه الذمي ذلك الاتجاه واستعان بدولة أخرى – كما حدث عند ضعف الدولة العثمانية – فإنه يكون قد نقض عقد الذمة وجعل انتماءه لدولة أخرى فينبذ إليه عقده ، ولا يكون ذميا » (1)

3 - احترام شعائر الإسلام ومراعاة مشاعر المسلمين :

يجب على أهل الذمة احترام شعائر الإسلام ، بأن لا يصدر عنهم ما يشعر بالسخرية أو الاستهزاء بالعقيدة الإسلامية وشعائرها في أى جانب من الجوانب . كما يجب عليهم مراعاة الشعور الإسلامي بالامتناع عن تناول الخمر ولحم الخنزير وغيرهما مما حرم الإسلام جهرة ، والامتناع أيضا عن بيع ذلك للمسلمين لما فيه من تحريض على المعصية والامتناع أيضا عن تناول الطعام والشراب في نهار رمضان علانية .. كل هذا احتراما لمشاعر المسلمين .

فإذا حدث من جانبهم إخلال بهذا الواجب – في أي صورة كان – فإنه نقض لعقد الذمة من أساسه .. « فعن عرفة بن الحارث – وكانت له صحبة مع النبي ﷺ وقاتل مع عكرمة بن أبي جهل باليمن في الردة – أنه دعا نصرانيا إلى الإسلام ، فذكر النصراني النبي ﷺ فتناوله – أي بسوء القول – فرفع ذلك إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال عمرو : قد أعطيناهم العهد .. فقال عرفة : معاذ الله أن نكون أعطيناهم العهود والمواثيق على أن يؤذونا في الله ورسوله ، إنما أعطيناهم على أن نخلي بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم وألا نحملهم مالا طاقة لهم به ، وأن نقاتل من ورائهم ، وأن نخلي بينهم وبين أحكامهم ، إلا أن يأتونا فنحكم بينهم بما أنزل الله .. فقال عمرو : صدقت » (2) .

4 - أداء التكاليف المالية المفروضة عليهم :

وهي ثلاثة أنواع :

1) **الجزية** : يتعرض الإسلام الحنيف لهجمات شرسة ومتلاحقة من خصومه وأعدائه بسبب الجزية إذ ينظرون إليها باعتبارها من دواعي الذلة والاحتقار والمهانة التي يكابدها

(1) العلاقات الدولية .. (أبو زهرة) ص 63 ، 64 .

(2) غير المسلمين ... ص 42 ، أورده الهيثمي في مجمع الزوائد 6 / 13 ، وقال : رواه الطبراني بسند فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ، قال فيه عبد الملك بن سعيد : ثقة مأمون ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات .

غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .

والواقع أن هذه الهجمات الشرسة والمتلاحقة إنما تنبع من حقد دفين على الإسلام كدين عظيم شامل كامل حيوي ، وليست مجرد انتقادات لحكم من أحكام الشرع الإسلامي العظيم .. فما الجزية إلا مقدار زهيد يدفعه الذمي القادر على حمل السلاح فقط دون بقية فئات الذميين من النساء والشيوخ والأطفال والعجزة وأصحاب الظروف الخاصة وهذا يدل على أنها ليست في مقابل بقائه على دينه وإلا لفرضت على الجميع دون استثناء ...

وأما عن حكمة فرض الجزية فإنها ترجع إلى أمور ثلاثة :

أولها : أن الإسلام قد أوجب « على أبنائه » الخدمة العسكرية « باعتبارها فرض كفاية أو فرض عين ، وناط بهم واجب الدفاع عن الدولة ، وأعفى من ذلك غير المسلمين وإن كانوا يعيشون في ظل دولته ، ذلك أن الدولة الإسلامية دولة « عقائدية » أو بتعبير المعاصرين « أيديولوجية » أي أنها دولة تقوم على مبدأ وفكرة ، ومثل هذه الدولة لا يقاتل دفاعا عنها إلا الذين يؤمنون بصحة مبدئها وسلامة فكرتها . وليس من المعقول أن يؤخذ شخص ليضع رأسه على كفه ، ويسفك دمه ، من أجل فكرة يعتقد ببطلانها ، ومن أجل دين لا يؤمن به ، والغالب أن دين المخالفين ذاته لا يسمح لهم بالدفاع عن دين آخر والقتال من أجله .

ولهذا قصر الإسلام واجب « الجهاد » على المسلمين ، لأنه يعد فريضة دينية مقدسة وعبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه ، حتى إن ثواب المجاهد ليفضل ثواب العابد القانت الذي يصوم النهار ويقوم الليل .

ولكن الإسلام فرض على هؤلاء المواطنين من غير المسلمين أن يسهموا في نفقات الدفاع والحماية للوطن عن طريق ما عرف في المصطلح الإسلامي باسم « الجزية » [1] .. أي أنها في الحقيقة ليست إلا بدلا ماليا عن « الخدمة العسكرية » المفروضة على المسلمين أو بتعبير آخر هي ضريبة الدفاع الوطني بلغة هذا العصر .

ثانيها : أن المسلمين يساهمون في نفقات الحكومة بما يقدمونه من زكاة أموالهم والكفارات الواجبة على بعض الذنوب .. فكانت الجزية إسهاما ماليا من أهل الذمة في

(1) غير المسلمين ص 33 ، ويراجع العلاقات الدولية .. (الدقس) ص 299 : 305 .

هذه النفقات التي يتمتع جميع المواطنين بمردودها الخدمي في صورة مرافق عامة كالطرق والمستشفيات والمدارس والقضاء والشرطة وغيرها [1] .

ثالثها : أن إعطاء الجزية دليل ملموس على خضوع صاحبها للدولة الإسلامية وصدق ولائه لها ، يقول الله عز وجل : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [2] .

وليس للجزية مقدار معين بل هي راجعة لتقدير الحاكم المسلم الذي يراعي في تقديرها حال أهل الذمة من غنى أو فقر أو توسط .. وتسقط الجزية بالإسلام ، وهذا واضح ، كما أنها تسقط عندما لا تستطيع الدولة الإسلامية توفير الحماية الكاملة لأهل الذمة ، وقد سبق ذكر موقف أبي عبيدة في ذلك ، كما أنها تسقط أيضا عن الفئات السابق الإشارة إليها ، بل إن الدولة المسلمة ملزمة شرعا بكفالة المحتاجين وأصحاب الأعذار من أهل الذمة ، وقد مضى بيان ذلك في حقوق أهل الذمة . كما تسقط عن الذمي إذا اشترك في القتال .

ولقد كان المسلمون يترفقون بأهل الذمة ويخففون عنهم في تحصيل الجزية .. فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي بالتخفيف عن أهل الذمة قائلا : « من لم يطق الجزية خففوا عنه ، ومن عجز فأعينوه ... » وحينما قدم أحد عماله بأموال الجزية فوجدها كثيرة فقال له : « إني لأظنكم قد أهلكتم الناس ؟ ! فقال : لا ، والله ما أخذنا إلا عفوا صفوا . فقال عمر : بلا سوط ولا نوط ؟ فقال : نعم .. قال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني » [3] .

2) **الخراج** : وهو ضريبة مالية تفرض على رقبة الأرض التي فتحها المسلمون عنوة ثم أبقوها في أيدي أصحابها ... فهي أشبه بضرائب الأملاك العقارية في هذا العصر ...

والفرق بين الجزية والخراج :

- أن الجزية في مقابل حماية الدولة ، أما الخراج فهو ضريبة على بقاء الأرض في يد أهلها .
- وأن الجزية تسقط بالإسلام ، أما الخراج فيبقى ثابتا إذا أسلم الذمي .

---

(1) المرجعان السابقان الأول ص 34 ، والثاني ص 296 ، 297 .

(2) سورة التوبة : الآية (29) .

(3) ينظر : الأموال مرجع سابق ص 43 .

وتقدير الخراج يرجع إلى رأي الإمام مراعيا مصلحة الأمة المسلمة وطاقة الذميين .. وكما كان المسلمون غاية الرفق في تحصيل الجزية فإنهم كانوا كذلك في تحصيل الخراج .. فقد أوصى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أحد عماله على الخراج قائلا : « إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفا ، ولا رزقا يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربن أحدا منهم سوطا واحدا في درهم . ولا تبع لأحد منهم عرضا « متاعا » في شيء من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو .. فإن أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله دوني ، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك .. قال الوالي : إذن أرجع إليك كما خرجت من عندك . قال علي : وإن رجعت كما خرجت »[1] .

3) **الضريبة التجارية** : وهي التي فرضها عمر بن الخطاب على أهل الذمة بمقدار نصف العشر في المال الذي يتجرون به في السنة ، إذا انتقلوا به من بلد إلى آخر ، فهي أشبه بالضريبة الجمركية في عصرنا ... ولم تكن هذه الضريبة خاصة بأهل الذمة ، بل كان رضي الله عنه يأخذ من تجار المسلمين ربع العشر ، ومن تجار أهل الذمة نصف العشر ، ومن تجار أهل الحرب العشر ... أما ما يؤخذ من المسلمين فهو مقدار الزكاة الواجبة في عروض التجارة سواء انتقل بها التاجر أو لم ينتقل ... ، وأما ما يؤخذ من تجار أهل الحرب فكان من باب المعاملة بالمثل كما ذكر أبو عبيد في « الأموال »[2] ... وأما ما كان يؤخذ من تجار أهل الذمة وهو نصف العشر فقد اختلفت أقوال أهل الفقه في تعليل زيادته على المقدار المأخوذ من تجار المسلمين .

وأرجح التعليلات – في نظر الدكتور / يوسف القرضاوي – هو ما ذكره الدكتور / عبد الكريم زيدان حينما قال : « السبب في هذا التضعيف : هو أن الذمي لا يؤخذ من أمواله شيء ، سوى ما يؤخذ من أمواله التجارية التي ينتقل بها من بلد إلى بلد ... أما أمواله التجارية التي في بلده ، وأمواله الباطنة كالذهب والفضة ، وزروعه وسوائمه ، فلا يؤخذ منها شيء ، بخلاف المسلم إذ يؤخذ من أمواله زكاة هذه الأموال جميعا . وعلى هذا تكون التكاليف المالية على المسلم أكثر منها على الذمي . ولا يمكن جعل ضريبة المسلم كضريبة الذمي لأن المأخوذ من المسلم زكاة حقيقة وهذا هو مقدارها فلا يمكن أن يزاد عليه .

وقد يقال إن الذمي تؤخذ منه الجزية ، كما يؤخذ منه خراج أرضه مما يجعل

---

(1) الخراج ص 15 ، 16 .

(2) الأموال ص 706 .

التكاليف المفروضة عليه مساوية لما على المسلم .

والجواب : أن الخراج لا يختص به الذمي ، فإذا أسلم بقى الخراج مفروضا عليه ، وأن المسلم إذا كانت تحت يده أرض خراجية لزمه الخراج .. أما الجزية فإنها وإن كانت خاصة بالذمي إلا أن مقدارها زهيد جدا ، ولا تجب على كل ذمي وإنما على القادر على حمل السلاح وتسقط عنه إذا دعي إلى الخدمة العسكرية » [1] .

وعلى هذا لو تغير الوضع بالنظر إلى الذمي ، وأصبح يؤخذ منه ضرائب على أمواله الظاهرة والباطنة (من أنعام وزرع وثمار ونقود وعروض وتجارة) مساوية للزكاة التي تؤخذ من المسلم ، فيمكن حينئذ أن يؤخذ من التاجر الذمي مثل ما يؤخذ من المسلم ولا حرج [2] .

بعد هذا العرض الموجز لحقوق أهل الذمة وواجباتهم في النظام الدولي الإسلامي ، يتبين بوضوح أن الإسلام حقا هو دين السماحة والمودة والوفاء ، وأنه المنهج الأوحد الذي كفل للأقليات والطوائف غير الإسلامية كافة حقوقها داخل المجتمع الإسلامي .

* * *

ثانيا : المستأمنون (الأجانب)

هذا هو الفريق الثاني من غير المسلمين الذين يقيمون في دولة الإسلام والفرق بين الذمي والمستأمن : أن الذمي يقيم في أراضي الدولة الإسلامية إقامة دائمة ، ولذا فهو مواطن فيها ويحمل جنسيتها ، أما المستأمن فهو غير المسلم الذي يأتي دار الإسلام بنية الإقامة غير الدائمة أي لفترة محدودة بهدف التجارة أو السياحة أو طلب العلم أو التعرف على دين الإسلام ، أو سفيرا لدولته لدى الدولة المسلمة ... أو غير ذلك .

وعلى هذا فالمستأمن في تعبير النظام الإسلامي ، يعني « الأجنبي » في اصطلاح القانون الدولي العام ... وهو يقيم في دار الإسلام بمقتضى عقد الأمان ، الذي يشبه في العصر الحديث التأشيرات التي تمنحها الدول للأجانب للسماح لهم بدخول أراضيها [3] .

وعقد الأمان يمنح صاحبه حقوقا ويفرض عليه واجبات ... سأذكرها فيما يلي :

(1) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ص 186 .
(2) غير المسلمين .... ص 39 .
(3) مجموعة بحوث فقهية ص 75 بتصرف .

أ – حقوق المستأمن :

منحت الشريعة الإسلامية للأجانب حقوقا عظيمة تشرئب إليها أعناق القواعد الدولية الخاصة بمعاملة الأجانب ... من هذه الحقوق :

1 - الحق في دخول دار الإسلام :

كانت الأعراف السائدة قبل الإسلام تنظر إلى الأجنبي باعتباره غنيمة يحل قتله وسلبه ... فلما جاء الإسلام برسالته العالمية اعتبر السلم أصل العلاقات الدولية ، ودعا إلى التعاون الدولي بكافة صوره وجميع أشكاله المشروعة .

ومن هذا المنطلق نظر الإسلام إلى الأجانب نظرة تليق بإنسانيتهم ، فجعل لهم الحق في دخول أرض الإسلام بإذن من الإمام أو نائبه ... بل توسعت الشريعة الإسلامية في إعطاء هذا الحق (حق إعطاء الأمان للأجنبي) فجعلته لجميع أفراد الشعب ، بشرط أن يكون المؤمِّن مسلما بالغا عاقلا مختارا ... فلا تشترط الذكورة ولا الحرية في مانح الأمان [1] ... وقد أجاز النبي ﷺ الأمان الذي منحته السيدة أم هانئ رضي الله عنها لاثنين من أقاربها أثناء فتح مكة ، وقال لها : قد أجرنا من أجرت ، وأمَّنا من أمَّنت [2]... كما أنه ﷺ أجاز الأمان الذي طلبته أم حكيم لزوجها عكرمة بن أبي جهل يوم الفتح أيضا [3] .. كما أجاز الفاروق عمر رضي الله عنه أمان العبد [4] .

ولكن حق إعطاء الأمان مقيد بإجازة الإمام أو نائبه ، أي أنه لابد من موافقة الحكومة على هذا الأمان حتى ينتفع به صاحبه ... والدولة المسلمة لها الحق في السماح للأجنبي بدخول أراضيها أو منعه من ذلك ، تبعا لتقديرها في هذا الشأن ، إلا في حالة ما إذا طلب الأجنبي دخول دار الإسلام بهدف التعرف على مبادئ الدين الإسلامي وشرائعه ، فإن الدولة المسلمة ملزمة شرعا بمنحه الأمان قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [5]

(1) يراجع العلاقات الدولية في الإسلام (أبو زهرة) ص 113 ، 114 ، العلاقات الدولية .. (الدقس) ص 132 : 139 .

(2) البخاري : ك الجهاد ب أمان النساء وجوارهن 6 / 315 (371) – مسلم : ك صلاة المسافرين ب استحبابه صلاة الضحى 1 / 498 ح 82 – أبو داود : ك الجهاد ب في أمان المرأة 3 / 84 (2763) من حديث ابن عباس – الترمذي : ك السير ب ما جاء في أمان العبد والمرأة 4 / 121 من حديث أم هانئ وقال : هذا حديث حسن صحيح – زاد المعاد 3 / 121 ، 410 .

(3) زاد المعاد 3 / 411 ، 413 .

(4) ينظر العلاقات الدولية (أبو زهرة) ص 114 وسنن الترمذي 4 / 121 بعد الحديث رقم 1579 .

(5) سورة التوبة : الآية 6 .

فهذه الآية تفيد وجوب قبول طلب الأجنبي في هذا الشأن .

أما غير تلك الحال فللدولة المسلمة الحق في رفض الطلب خاصة إذا تبين حدوث مفسدة أو ضرر من قبوله ... وبالجملة فإن من المستحب - بصفة عامة - السماح للأجنبي بدخول دار الإسلام لما يرجى من وراء ذلك من اطلاعه على محاسن الإسلام وسماحة شرائعه وسمو مبادئه ، فربما أدى ذلك إلى إسلامه ، خاصة وأن ظاهر الآية السابقة يوحي بأن غاية الأمان الممنوح للأجنبي هو سماع كلام الله ، وليس فيها ما يفيد تقييد الأمان بأن يكون هدفه التعرف على الإسلام والاطلاع على مبادئه ، والدليل على ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسيرها من « أن مَنْ قدم مِنْ دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أمانا أعطي أمانا ما دام مترددا في دار الإسلام . وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه » [1] .

2 - **عصمة دمه :**

يجب على الدولة المسلمة حماية المستأمن حماية كاملة ، فإن دمه بمقتضى الأمان معصوم وحياته محترمة لا يجوز المساس بها ، وكرامته محفوظة لا يصح امتهانها ... قال محمد بن الحسن الشيباني : « إن على الإمام أن يحمى المستأمنين ما داموا في ديارنا ، وأن ينصفهم ممن يظلمهم ، كما يجب عليه ذلك في حق الذميين . ولا يجوز مفاداة المستأمن بالأسير المسلم ولو طلب أهل دار الحرب ذلك إلا برضاه ، ولا يجوز تسليمه لدولته في مدة الأمان ولو طلبت ذلك وهددت بقتال المسلمين ، وذلك لأن المستأمن في حماية الدولة الإسلامية ، ويجب أن يبقى آمنا حتى تنتهي مدة إقامته ويخرج من دار الإسلام ، وهذا هو مقتضى الأمان ، والوفاء بمقتضى الأمان واجب على دار الإسلام ، وتسليمه غدرٌ به وعدم وفاء لا رخصة فيه فلا يجوز » [2] .

3 - **عصمة ماله :**

إذا كانت أحكام الإسلام التي تكفل عصمة دم المستأمن تثير الإعجاب والتقدير فإن أحكامه التي تكفل عصمة أمواله فيها من الجلال والروعة ما يفوق الخيال .

فلقد قرر النظام الإسلامي الدولي أن المال الذي اكتسبه المستأمن في دار الإسلام لا

---

(1) ابن كثير 2 / 344 .

(2) ينظر : شرح السير الكبير الإمام محمد بن الحسن الشيباني 3 / 300 - تحقيق عبد العزيز أحمد .

تزول عنه ملكيته ولو عاد إلى دار الحرب ، بل لا تزول ولو حمل السلاح فعلا ليقاتل المسلمين ... يقول ابن قدامة : « إذا دخل حربي دار الإسلام بأمان ، فأودع ماله مسلما أو ذميا أو أقرضهما إياه ثم عاد إلى دار الحرب ، نظرنا : فإن دخل تاجرا أو رسولا أو متنزها أو لحاجة يقضيها ثم يعود إلى دار الإسلام فهو على أمانة في نفسه وماله ، لأنه لم يخرج بذلك عن نية الإقامة في دار الإسلام فأشبه الذمي لذلك ... وإن دخل (أي دار الحرب) مستوطنا ، بطل الأمان في نفسه وبقي في ماله ، لأنه بدخوله دار الإسلام بأمان ثبت الأمان لماله ، فإذا بطل الأمان في نفسه بدخوله دار الحرب بقي في ماله ، لاختصاص المبطل بنفسه ، فيختص البطلان به » [1] .

وقرر النظام الإسلامي أيضا أن مال المستأمن ينتقل لورثته ، سواء كانت وفاته بدار الإسلام أو بدار الحرب حتى وإن كانت الوفاة قد حدثت في معركة بين دولته والدولة الإسلامية .

والأعجب من ذلك أن النظام الإسلامي يقدم حق المستأمن في ماله على حق المسلم ... ومن أروع الأمثلة على ذلك – كما ذكر الشيخ أبو زهرة – أنه إذا جاء عبد مبعوثا من حربي للاتجار في مال الحربي ، فأسلم في دار الإسلام ، بيع العبد وكان ثمنه للحربي الذي أرسله ، لأن الأمان يثبت في نفس العبد ويثبت في مال الحربي ، والعبد من ضمن ملكه ، ولا يستطيع أن يملكه بعد إسلامه ، لأن غير المسلم لا يصح أن يملك المسلم ، ولكن لا تذهب المالية التي يملكها بالنسبة للعبد ، فيباع ويحفظ للحربي ثمنه مع بقية أمواله وتلتزم الدولة الإسلامية بردها إليه [2] .

4 - حريته الكاملة :

يتمتع المستأمن بحريته كاملة : حرية العقيدة ، وحرية التنقل ، وحرية العمل ، وحرية الفكر ... إلى غير ذلك من صور الحرية ... فالمستأمن فيها كالذمي ... فكما أن الدولة المسلمة لا تُكره الذمي على اعتناق الإسلام وهو أحد رعاياها ، فإنها من باب أولى تحافظ على الحرية الدينية للمستأمن وهو غريب عنها ... وكذلك فيما يتعلق بالتنقل والرواح والمجيء يجوز للمستأمن أن يتنقل بحرية كاملة في ربوع دار الإسلام ، ما عدا المناطق التي لا يحق له دخولها لاعتبارات دينية كالحرم المكي ، الذي لا يجوز لغير المسلم دخوله ، ذميا كان أو مستأمنا .

(1) المغني أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت 620 هـ) ص 5 / 165 .

(2) ينظر : العلاقات الدولية ... (أبو زهرة) ص 69 .

5 - **إعانة الدولة المسلمة له عند الحاجة :**

إذا أصابت المستأمن فاقة فإن على الدولة المسلمة بمقتضى الإحسان الذي أمر به الإسلام أن تمد له يد العون والمساعدة ... فالله عز وجل يقول : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (1) كما سبق ذكر موقف النبي ﷺ حينما أصاب القحط قريشا فأرسل النبي ﷺ إليهم معونة توزع على فقرائهم ...

6 - **تمتعه بكافة الحقوق الإنسانية الأخرى :**

يتمتع المستأمن في دار الإسلام بكافة حقوق الإنسان الأخرى ، مثل حقه في محاكمة عادلة وعدم ملاحقته قضائيا إلا بسبب مشروع .. إلى غير هذا من حقوق الإنسان ، ويستثنى منها الحقوق السياسية ، فهي خاصة بمواطني الدولة فقط ، وهذا واضح .

* * *

هذه حقوق الأجنبي في دار الإسلام كما بينها النظام الإسلامي ، تسهر الدولة المسلمة علي تنفيذها وتطبيقها ، فإذا حدث انحراف سرعان ما عولج ، وإذا وقع خلل سرعان ما أصلح ، والدليل التطبيقي على ذلك ما حدث في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد بلغه أن أحد المجاهدين في حروب فارس أعطى أمانا لرجل من الفرس قائلا : لا تخف ، ثم بعد أن تمكن منه قتله ، فكتب الفاروق رضي الله عنه لقائد الجيش : « إنه بلغني أن رجالا منكم يطلبون العِلْج - أي الرجل من العجم - حتى إذا اشتد في الجبل وامتنع يقول له : لا تخف ، فإذا أدركه قتله وإني والذي نفسي بيده لا يبلغني أن أحدا فعل ذلك إلا قطعت عنقه .. » وقال عمر أيضا : « لو أن أحدكم أشار إلى السماء بأصابعه لمشرك ثم نزل إليه على ذلك فقتله ، لقتلته به » (2) .

* * *

(ب) واجبات المستأمن :

في مقابل تمتعه بهذه الحقوق الكثيرة تفرض الشريعة على المستأمن بعض الالتزامات ،

---

(1) سورة الممتحنة : الآية (8) .

(2) ينظر : العلاقات الدولية في الإسلام (أبو زهرة) ص 114 .

وهي نفس الالتزامات السابق ذكرها عند الحديث عن واجبات الذمي : من احترام لشعائر الإسلام ومراعاة شعور المسلمين ، وخضوع لأنظمة الدولة المسلمة وقوانينها في النواحي المدنية والجنائية ، وعدم الاشتغال بأنشطة سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو غيرها من أنشطة تتعارض مع سياسة الدولة وسيادتها واستقلالها وسلامة أراضيها ووحدتها الوطنية وسلامها الاجتماعي .

ويختلف المستأمن عن الذمي في أن الأول لا يحظى بجنسية الدولة الإسلامية ولا يكلف بأداء الجزية ولا الخراج وإنما يؤخذ منه فقط الضريبة التجارية التي تقررها الدولة المسلمة في قوانينها حسب ظروفها ومصلحتها .

* * *

(جـ) السفراء والمبعوثون :

سبق النظام الإسلامي كافة الأعراف والقوانين الدولية في تقرير حماية السفراء والمبعوثين أو الدبلوماسيين – بالتعبير الاصطلاحي الحديث – يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [1] وقال النبي ﷺ للرجلين الذين أتياه من قبل مسيلمة الكذاب : (لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما) قال عبد الله بن مسعود : « فمضت السنة أن الرسل لا تقتل [2] » ... وأيضا قام النبي ﷺ برد أبي رافع مبعوث قريش ، رغم أنه أعلن إسلامه ، وقال له : « إني لا أخيس بالعهد (أي لا أنقضه) ولا أحبس البرود (أي الرسل) ولكن ارجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع » [3] .

من هنا قررت الشريعة الإسلامية إعطاء الأمان وحماية الرسل والسفراء ، وأجازت للمبعوث السياسي أن يدخل بلاد المسلمين بدون حاجة إلى عقد أمان .

---

(1) سورة التوبة : جزء من الآية (6) .

(2) أبو داود : ك الجهاد ب في الرسل 3 / 84 (2761) ، أحمد 3 / 487 ، 488 من حديث نعيم بن مسعود ، وأخرجاه أيضا من حديث عبد الله بن مسعود وكذلك عبد الرزاق في مصنفه ك اللقطة ب في الكفر بعد الإيمان 1 / 169 ، وإسناد أحمد حسنٌ ، فيه محمد بن إسحاق وهو صدوق يدلس إلا أنه صرح بالتحديث فانتفت شبهة تدليسه .

(3) أبو داود : ك الجهاد ، ب في الإمام يستجن به في العهود 3 / 83 (2758) ، أحمد 6 / 8 ابن حبان – كما في الإحسان ك الجهاد ب الموادعة والمهادنة 11 / 223 (4877) ، الحاكم في المستدرك ، ك معرفة الصحابة ب ذكر أبي رافع وسكت عنه الحاكم وكذلك الذهبي ... وإسناد أحمد وأبي داود صحيح .

ولم تستقر قواعد التمثيل الدبلوماسي على المستوى الدولي إلا في عامي 1907 ثم 1949 م ، حيث منح القانون الدولي المبعوثين السياسيين حصانات ثلاثة .

أولها : الحصانة الشخصية : وهي تتعلق بحمايته ضد أي اعتداء يقع على شخصه أو مسكنه أو حقائبه ... إلخ حتى يتمكن من أداء عمله على أتم وجه وأكمله .

ولا شك أن الإسلام الحنيف قد أتى في هذا المجال بأكثر وأكمل مما قررته قواعد القانون الدولي وهذا واضح مما سبق بيانه من حقوق المستأمن .

ثانيها : الحصانة المالية : وهي تتعلق بإعفائه من بعض الضرائب والرسوم ، والشريعة الإسلامية لا تمانع في ذلك إذا كان من باب المعاملة بالمثل [1] فقد سبق عند الحديث عن التكاليف المالية الواجبة على الذميين بيان أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر بفرض ضريبة على تجار دار الحرب بمقدار العشر من باب المعاملة بالمثل ، لأنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين هذه القيمة إذا ذهبوا إليهم .

ثالثها : الحصانة القضائية : وهي تقضي بحماية رجال السلك الدبلوماسي من الملاحقات القضائية : المدنية والجنائية والإدارية ... وغيرها .

وهنا يختلف موقف النظام الإسلامي مع قواعد القانون الدولي ، فالنظام الإسلامي يقضي بخضوع المستأمن لأحكام الإسلام في الجوانب المدنية والجنائية ، وعلى هذا فإن ارتكب جريمة تستوجب إقامة الحد أقيم عليه في رأي الجمهور . بينما يرى الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه أنّ العقوبات التي هي حق خالص لله عز وجل حماية للفضيلة كحد الزنا ، أو ما كان حق الله غالبا فيها كحد السرقة فإنها لا تقام على المستأمن ، وحجته أن شرط إقامة الحدود هو تحقق الولاية الكاملة ، وولاية الدولة الإسلامية على المستأمن غير كاملة ، لأن إقامته مؤقتة » [2] .

ولا ريب أن رأي الجمهور هو الأصح ، لأنه أقرب إلى روح الشريعة الإسلامية التي تحارب الفساد والانحلال ، فمن غير المعقول أن يسعى المستأمن في الأرض ليفسد فيها ويشيع الانحلال ، ويهلك الحرث والنسل ، دون عقاب رادع ، أو جزاء لاذع ... والأعراف الدولية ذاتها لا تسمح بإفلات الجاني من العقاب ، فالدولة التي وقعت الجريمة

(1) يراجع : الخراج ص 188 ، المغني 8 / 519 .

(2) يراجع : شرح السير الكبير 1 / 206 ، فتح القدير 5 / 155 ، الفروق 3 / 174 .

في أراضيها تبلغ الدولة الأخرى التي يمثلها الموفد السياسي لمعاقبته ، ولها أن تعتبره شخصا غير مرغوب فيه وتطلب من دولته سرعة استدعائه ، بل لها في الجرائم الخطيرة أن تطرده وأن تقبض عليه إذا كان ذلك ضروريا للمحافظة على سلامتها [1] .

(د) اللجوء السياسي :

يحدث في بعض الأحيان أن يلتجئ شخص إلى دولة ما طالبا حمايتها والعيش فيها هربا من اضطهاد يواجهه في بلده ، بسبب آرائه ومواقفة السياسية وهذا ما يطلق عليه اللجوء السياسي .

وفي تقديري أنه يندرج في أحكام المستأمنين ، فإذا حدث أن طلب أحد رعايا دولة ما اللجوء إلى دولة الإسلام فإنه يمنح عقد الأمان لفترة محددة يتم تجديدها لأن طبيعة عقد الأمان أنه محدود بمدة مهما طالت أو قصرت ... أما إذا رغبت الدولة في إعطائه الأمان بصورة مؤبدة فإنه يدخل حينئذ في أحكام الذميين ، لأن طبيعة عقد الذمة التأبيد ... وفي هذه الحالة يصبح اللاجيء السياسي أحد مواطني الدولة وحاملا لجنسيتها .

بانتهاء الحديث عن المستأمنين وأحكامهم ينتهي الحديث عن الجانب الأول من جوانب علاقة الأفراد بالدولة الإسلامية وهو المتعلق بأحكام غير المسلمين داخل حدود الدولة الإسلامية وقد تبين من خلاله مدى عظمة الإسلام في رعايته وحمايته للأقليات غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامي ولقد تسربت بعض المبادئ الإسلامية في هذا المجال إلى الفكر الغربي الأوروبي من خلال الحروب الصليبية أو الحواضر الثقافية الإسلامية خاصة الأندلس ... وأثمر ذلك التسرب بعض القواعد القانونية الدولية العامة التي أعيد تصديرها إلينا على أنها نتاج أفكارهم ولكنها في الحقيقة إسلامية الأصل والمنشأ ... وأنتقل الآن إلى الجانب الثاني .

* * *

الجانب الثاني : المسلم في ديار غير المسلمين

من أبرز مظاهر العظمة في النظام الإسلامي أنه جعل الدين المحرك الأساسي للإنسان المسلم فهو مسلم أولا وقبل كل شيء ، وبحكم إسلامه هذا ينتسب إلى الدولة الإسلامية ، فهو أحد رعاياها أينما وجد وحيثما كان ... ويرجع هذا إلى أن ولاية المسلم لا تكون لغير

(1) يراجع : العلاقات الدولية .. (أبو زهرة) ص 72 ، 73 ، (الزحيلي) ص 153 : 157 ، (الدقس) ص 139 : 143 .

المسلم ، وعليه فإن ولاءه الأول لدينه ، وخضوعه الأول لسيادة الدولة الإسلامية . ويترتب على مبدأ سيادة الدولة الإسلامية على المسلم أيا كان موطنه ، عدة أمور :

1 - التزامه بأحكام الشريعة الإسلامية :

يجب على المسلم المقيم ببلاد غير إسلامية أن يكون صورة حية وواقعا تطبيقيا لمبادئ الإسلام العظيمة ، فعليه واجب الدعوة إلى الله عز وجل عن طريق المعاشرة الطيبة والمعاملة الحسنة . وما انتشر الإسلام في ربوع آسيا وأصاع أفريقيا إلا عن طريق تجار المسلمين الذين قدَّموا بحسن خلقهم وكريم خصالهم صورة طيبة لدينهم الحنيف جعلت الشعوب تدخل في دين الله أفواجا .

وبناء على هذا فإن المسلم المقيم بالبلاد غير الإسلامية مطالب بالامتناع تماما عما حرمته شريعة الإسلام وإن كان غير محرم في قوانين الدولة التي يقيم فيها كالزنا وشرب الخمر والربا وغير ذلك . يقول الله عز وجل ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] ويقول النبي ﷺ : (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن) [2] ... وبالتأمل في ألفاظ هذا الحديث الشريف يظهر بجلاء مدى انطباقه على حالة المسلمين في البلاد غير الإسلامية فقوله : « اتق الله حيثما كنت » يفيد أن المسلم ملتزم بشرع الله في أي مكان كان وفي أي بلد حل . وقوله « وخالق الناس بخلق حسن » يدل على وجوب التعامل مع الناس جميعا بمقتضى القواعد الأخلاقية الإسلامية العظيمة فالمصطفى ﷺ لم يقل وخالق المسلمين بخلق حسن ، وإنما قال : « وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن هنا قال ابن قدامة : « من دخل إلى أرض العدو بأمان ، لم يخنهم في مالهم ولم يعاملهم بالربا ، أما خيانتهم فمحرمة ، لأنهم إنما أعطوه الأمان مشروطا بتركه خيانتهم وأمنه إياهم من نفسه ، وإن لم يكن ذلك مذكورا في اللفظ فهو معلوم في المعنى ولذلك من جاءنا منهم بأمان فخاننا كان ناقضا لعهده . فإذا ثبت هذا لم تحل له خيانتهم لأنه غدر ولا يصلح في ديننا الغدر ، فإن خانهم المسلم أو سرق منهم أو اقترض شيئا ، وجب عليه ردُّ ما أخذ إلى أربابه ، فإن جاء أربابه إلى دار الإسلام بأمان أو إيمان

(1) سورة الأنعام : الآيتان (162 ، 163) .

(2) الترمذي : ك البر والصلة ، ب ما جاء في معاشرة الناس 4 / 312 (1987) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، الدارمي : ك الرقاق ب في حسن الخلق 2 / 415 (2791) كلاهما من حديث أبي ذر مرفوعا .

ردَّه عليهم ، وإلا بعث به إليهم لأنه أخذه على وجه حرم عليه أخذه ، فلزمه رده كما لو أخذه من مال مسلم »[1] .

وقد خالف الإمام أبو حنيفة جماهير الفقهاء في ذلك ، حيث يرى أن المسلم إذا دخل إلى دار الحرب بأمان ثم تعامل بالربا أو أبرم عقدا فاسدا في نظر الشريعة الإسلامية فالعقد صحيح ، لأن أخذ الربا فيه معنى إتلاف المال ، وإذا أخذ المسلم ربا من الحربي فكأنه أتلف ماله ، وإتلاف مال الحربي جائز ، لأنه لاعصمة لماله ، فللمسلم أخذه ، مادام ليس بطريق الغدر والخيانة ، وهنا قد انتفى الغدر والخيانة لأن الحربي قد رضي بالتعامل بالربا مع المسلم[2] .

ولا شك أن رأي جمهور الفقهاء هو الأصح ، فالربا حرمته الشريعة الإسلامية دون تقييد بزمان أو مكان ، بل إن الشرائع جميعا تحرمه ، قال تعالى في حق بني إسرائيل ﴿ ... وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ ... ﴾[3] .

2 - وجوب هجرته إلى دار الإسلام عند مواجهة الفتنة في الدين :

يجب على المؤمن إذا اضطهد في دينه ومنع من ممارسة شعائره أن يبادر بالهجرة إلى دار الإسلام فهو أحد رعاياها ، وهي صاحبة السيادة الأولى عليه ... فإذا تخاذل واستكان فلا عذر له عند الله يوم القيامة إلا إذا كان من ذوي الأعذار الذين لا يستطيعون الهجرة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[4] .

3 - ثبوت التوارث بينه وبين أقاربه في دار الإسلام :

من مظاهر سيادة الدولة الإسلامية على المسلم المقيم في غير أراضيها أن المسلم يرث المسلم أيا كان موطنه ... وضرب الشيخ / محمد أبو زهرة مثلا لذلك فقال : « إذا مات مسلم في القاهرة ، وله قريب إنجليزي مسلم فإنه يرثه ، لأن أساس الميراث القرابة والنصرة ، وهما متحققان ، أو أحدهما متحقق والآخر ينبغي أن يتحقق »[5] .

---

(1) المغني 8 / 458 .

(2) العلاقات الدولية ... (الزحيلي) ص 109 ، 111 .

(3) سورة النساء : جزء من الآية (161) .

(4) سورة النساء : الآيات (97 : 99) .

(5) العلاقات الدولية (أبو زهرة) ص 60 .

4 ـ معاقبته على الجرائم التي ارتكبها في ديار غير المسلمين :

إذا دخل المسلم الديار غير الإسلامية بأمان ، ثم ارتكب جريمة توجب الحد أو القصاص ثم عاد إلى الدولة الإسلامية ، فإن جمهور الفقهاء يرون وجوب الاقتصاص منه وإقامة الحد عليه عند ثبوت الجريمة ثبوتا شرعيا .

وخالف في ذلك أيضا الإمام أبو حنيفة لأنه يشترط في إقامة الحدود أن يكون المسلم وقت ارتكابه ما يوجب الحد خاضعا بالفعل لسلطان الدولة الإسلامية ، بحيث يمكن إقامة الحد وقت ارتكاب الجريمة ولا يكتفى في هذا بالسيادة الحكمية أو الولاية الحكمية .

ولا ريب أن رأي الجمهور هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية وحرصها على منع الفساد ، ويعزز هذا أن الإمام أبا حنيفة يوجب دفع الدية إذا قَتَلَ المسلمُ عمدا في دار الحرب ويعلل ذلك بأن شرط إقامة العقوبة البدنية (القصاص) القدرة على إقامتها وقت ارتكاب الجريمة ولم يكن ذلك ممكنا لعدم الولاية ، فتجب الدية لأنه لا يذهب دم هدرا ، فحيث تعذرت العقوبة البدنية فإنه يحل محلها العقوبة المالية ، ولا يمنع ذلك من التعزير في كل الأحوال .

فطالما أن المسلم يعاقب ولو بالدية فقط دون القصاص ، فإن هذا في حد ذاته اعتراف بامتداد سيادة الدولة الإسلامية على المسلمين في كل مكان ، وهو ما يتفق فيه المذهب الحنفي مع مذهب جمهور الفقهاء .. » [1] .

هذه بعض مظاهر تدل على تحقق سيادة الدولة الإسلامية على الفرد المسلم وهو في غير الديار الإسلامية ... وبناء على هذا ؛ فإن سيادة الدولة المسلمة لها جانبان :

الأول : داخلي ، ويتمثل في خضوع جميع المواطنين المقيمين على أرضها مسلمين كانوا أو أهل ذمة ، وخضوع الأجانب المقيمين إقامة مؤقتة بعقد الأمان .

الثاني : خارجي ، ويتمثل في أن المسلم في أي مكان هو أحد رعايا الدولة الإسلامية . وانتماؤه لدولة أخرى لا ينفي سيادة الدولة الإسلامية عليه .

وأنتقل الآن إلى الحديث عن نظام الإسلام في المجال الدولي حال الحرب ... **والله الموفق .**

---

(1) المرجع السابق ص 60 ، 61 ، وينظر : العلاقات الدولية (الزحيلي) ص 110 : 113 .

المبحث الثاني

نظام الإسلام في المجال الدولي في حال الحرب

إن الحرب محكومة – في المنهج الإسلامي – بحدود الفضيلة واحترام الكرامة الإنسانية .. وهذا من أبرز مظاهر عظمة الإسلام إذ يتحدث النظام الإسلامي عن الفضيلة في الميادين الحربية التي اعتاد الناس فيها فعل كل ما من شأنه تحقيق النصر والغلبة والتمكن من رقاب الأعداء ، دون تقيد بفضيلة أو خلق كريم .. ولكن الإسلام حينما تحدث عن الفضيلة واحترام الكرامة الإنسانية ، إنما نظر إلى غاية القتال وهدفه ، فإنه ليس الاستعلاء العنصري أو الاستغلال المادي ، وإنما غايته وهدفه أولا وأخيرا إعلاء كلمة الله ، يقول سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] ويقول المصطفى ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » [2] .

وسأتحدث فيما يلي عن النظام الإسلامي الدولي وقت الحرب . وفق ما جاء بيانه في الكتاب الكريم والسنة المطهرة ..

أولا : ما قبل بداية المعركة :

تطبيقا لقاعدة الإسلام الأصيلة في اعتبار السلم أصل العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها ، ولقاعدة أن القتال في الإسلام لإعلاء كلمة الله ورفع راية التوحيد : تطبيقا لهاتين القاعدتين ، يأمر النظام الإسلامي بعدم الاندفاع إلى القتال اندفاعا ، ويبين أنه لابد من توجيه الدعوة إلى الخصوم وتخييرهم بين أمور ثلاثة : إما الإسلام ، وإما الجزية وإما الحرب وفائدة هذه الدعوة أنها قد تثير في نفس الخصوم أن المسلمين لا يقاتلون من أجل القتال وإنما لهم هدف سام وغاية جليلة .... فلعل في هذا ما يدفع القوم إلى إيثار السلم بالاستجابة لداعي الهدى والرشاد ، إما بإعلان إسلامهم أو قبول الجزية والمصالحة فتحقن الدماء وتصان الأنفس .

فعن بريدة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرا على جيش أو سرية ، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا .. ثم قال له .... « وإذا

---

(1) سورة البقرة : الآية (193) .

(2) سبق تخريجه .

لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ... فإن أبوا فسلهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، وإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم .. » وقد كان ﷺ حريصا على هذه الدعوة أشد الحرص ، ففي غزوة خيبر قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا رسول الله ، نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا (أي مسلمين) ؟ فقال ﷺ : « على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فلأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » [1] .

ولقد كان هذا مبدأه الثابت في كافة المواقع ، فلقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : « ما قاتل رسول الله ﷺ قوما قط إلا دعاهم ... » [2] وعن فروة بن مسيك رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أقاتل بمقبل قومي مدبرهم ؟ قال : « نعم » فلما وليت دعاني فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » [3] .

ومن مظاهر عظمة هذا الدين وسموه أيضا ، ما حدث من أهل سمرقند حينما رفعوا شكواهم إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز مما فعله القائد الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي ، من قتالهم وإخراجهم من ديارهم دون إنذار أو دعوة أو تخيير ... فكلف عمر ابن عبد العزيز قاضيه سليمان بن أبي السرى ، أن يبحث هذه القضية ويحكم فيها ... وقد تحقق القاضي بالفعل من صحة الشكوى فحكم بخروج جيش المسلمين من المدينة ، وتخيير أهلها بين الإسلام أو صلح جديد أو القتال .... فقالوا : بل نرضى بما كان ولا نحدث حربا ، وتراضوا بذلك [4] .

فهل يوجد في التاريخ الإنساني - قديما أو حديثا - مثل هذه العدالة ؟!

ثانيا : أثناء المعركة :

إذا لم يستجب العدو لهذه الروح السلمية وكان لابد من اللقاء والنزال ، فإن حروب

---

(1) البخاري : ك فضائل الصحابة . ب / مناقب علي بن أبي طالب 7 / 87 ، 2701 ، مسلم : ك فضائل الصحابة . ب / من فضائل علي بن أبي طالب 4 / 1872 (2406) كلاهما من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .
(2) أخرجه أحمد في المسند 1 / 231 ، وأبو يعلى في المسند 4 / 374 (2494) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 5 / 304 ، وعزاه لأبي يعلى والطبراني بأسانيد أحدها رجال الصحيح ولم يعزه إلى أحمد .
(3) أبو داود : ك الحروف والقراءات بدون باب 4 / 30 ، (3988) ، والترمذي : ك / تفسير القرآن . ب / ومن سورة سبأ 5 / 361 (3222) وقال : هذا حديث حسن غريب . (4) الكامل لابن الأثير 5 / 44 .

المسلمين محكومة بعدد من القواعد التي تصب كلها في النهاية لصالح الفضيلة والروح الإسلامية السلمية التي تحترم حقوق الإنسان ... هذا المخلوق الذي كرمه ربه وأعلى منزلته ... ومن هذه القواعد :

1 - تضييق نطاق الحرب ، وتحقيق الغرض منها بأقل درجة ممكنة من الخسائر :

ومن أجل تحقيق هذا الهدف أمر النظام الإسلامي بتجنيب المدنيين ويلات الحرب ، فحرم قتل من ليس له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالمعركة . كالنساء والأطفال والشيوخ ، والرهبان المنقطعين للعبادة ، والفلاحين .... وغيرهم .

أ – ففي النهي عن قتل النساء : قال رباح بن الربيع رضي الله عنه : ... كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فرأى الناس مجتمعين على شيء فقال لرجل : « انظر علام اجتمع هؤلاء ؟ فجاء فقال : امرأة قتيل ... فقال ﷺ : « ما كانت هذه لتقاتل ... وعلى المقدمة خالد بن الوليد رضي الله عنه ، بعث النبي ﷺ رجلا فقال : قل لخالد : لا يقتلن امرأة ولا عسيفا » [1] .

ب – وفي النهي عن قتل الأطفال : روي عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث سرية يوم حنين ، فقاتلوا المشركين فأفضى بهم القتل إلى الذرية فلما جاءوا قال رسول الله ﷺ : « ما حملكم على قتل الذرية ؟ » قالوا : يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين . قال : « أوهل خياركم إلا أولاد المشركين ؟ والذي نفس محمد بيده ، ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ... » [2] .

جـ – وفي النهي عن قتل الشيوخ : قال ﷺ لبعض الجند : « انطلقوا باسم الله ، وبالله وعلى بركة رسول الله . لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » [3] .

---

(1) أبو داود : ك الجهاد ، باب قتل النساء 3 / 54 (2669) ، وابن ماجة : ك الجهاد ، ب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان 2 / 948 (2842) عن حنظلة ، أحمد 4 / 178 عن حنظلة البيهقي في السنن الكبرى ك السير ، ب ترك قتل من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهما 9 / 91 عن خالد بن زيد ، الحاكم في المستدرك : ك الجهاد ، ب لا يقتلن ذرية ولا عسيفا 2 / 122 عن رباح . قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وقال الألباني . حديث حسن صحيح . ينظر صحيح سنن ابن ماجة 2 / 137 .

(2) أحمد 3 / 435 ، الحاكم : ك الجهاد ، ب / ما من نسمة تولد إلا على الفطرة 2 / 23 وكلاهما عن الأسود قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ... وأقره الذهبي .

(3) أبو داود ك الجهاد ، ب في دعاء المشركين 3 / 37 (2614) عن بريدة ، النسائي في الكبرى ك السير ، ب / إنزالهم على حكم الله 5 / 207 (2680) عن بريدة ، الدارمي : ك السير ، ب وصية الإمام في السرايا 2 / 284 (2430) عن بريدة ، أحمد 4 / 240 عن صفوان بن عسال المرادي / البيهقي في السنن الكبرى ك ، السير ، ب : ترك =

د – وفي النهي عن قتل الرهبان المنقطعين تماما للعبادة قال ابن عباس رضي الله عنها : كان النبي ﷺ إذا بعث جيوشه قال : (لا تقتلوا أصحاب الصوامع) [1] .

هـ – وفي النهي عن قتل الفلاحين والعمال وغيرهم من المدنيين الذين لا علاقة لهم بالقتال قول النبي ﷺ في الحديث السابق لرباح بن الربيع : (قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفا) والعسيف هو الأجير .

2 - الالتزام بالفضيلة واحترام الكرامة الإنسانية :

وفي سبيل تحقيق ذلك نهى الإسلام عن المثلة ، وهي تشويه جثث القتلى فقد قال ﷺ لجنوده : « سيروا باسم الله في سبيل الله ، وقاتلوا أعداء الله ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تنفروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا » [2] .

ويقول الصحابي الجليل عمران بن الحصين رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة [3] .

3 - تحريم الغدر والخيانة والسلب والنهب والغلول :

فعن عدي بن ثابت قال : سمعت عبد الله بن يزيد الأنصاري وهو يقول : نهى النبي ﷺ عن النهبة والمثلة [4] (والنهبة : هي أخذ المرء ما ليس له بحق) .

وحدث ذات مرة أن انتهب بعض الجند غنما ، ومر عليهم النبي ﷺ وإن قدورهم لتغلى ، فأكفأ قدورهم بقوسه ، ثم جعل يحمل اللحم بالتراب ، ثم قال : « إن النهبة ليست بأحل من الميتة ، والميتة ليست بأحل من النهبة » [5] .

= قتل من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهما 9 / 91 عن علي بن أبي طالب .

(1) أحمد 1 / 300 وفي سنده داود بن الحصين وهو ثقة ، إلا في روايته عن عكرمة كما قال الحافظ ابن حجر في (تقريبه ص 198) والحديث من روايته عن عكرمة .

كما أن فيه ابن أبي حبيبة وهو إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وهو ضعيف كما قال الحافظ في تقريبه ص 87 .

(2) ينظر تخريج مواضع هذا الحديث في الهامش رقم (3) في الصفحة السابقة .

(3 ، 4) البخاري : ك الذبائح والصيد ، ب : ما يكره من المثلة ... 9 / 559 (5516) أبو داود : ك الجهاد ، ب في النهي عن المثلة 3 / 53 (2267) ، وأحمد 4 / 307 ، الدارمي : ك الزكاة ، ب الحث على الصدقة 1 / 478 (1656) .

(5) أبو داود : ك الجهاد ، ب في النهي عن النهبة إذا في الطعام قلة في أرض العدو 3 / 66 (2705) عن رجل من الأنصار – ، البيهقي في السنن الكبرى : ك السير ب النهي عن نهب الطعام 9 / 61 من حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار ، ورواه الإمام أحمد بمعناه : وقال صاحب الفتح الرباني : أورده الهيثمي والطبراني في الكبير والأوسط ، باختصار ورجال أحمد رجال الصحيح ... ينظر : الفتح الرباني 14 / 72 .

وعلى هذا الدرب يسير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما كان يوصي أمراء جيوشه بتقوى الله ، ثم يقول لهم : « باسم الله ، وعلى عون الله ، وامضوا بتأييد الله بالنصر ، وبلزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ، ولا امرأة ، ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات ، وفي شن الغارات ، ولا تغلوا عند الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

4 - الابتعاد عن التخريب والإفساد المتعمد – غير المشروع – للثروات الزراعية والحيوانية وغيرها :

فعن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث الجيوش إلى الشام ، وبعث يزيد بن أبي سفيان أميرا فقال – وهو يمشي ويزيد راكب ، فقال يزيد ، إما أن تركب ، وإما أن أنزل ، فقال الصديق : ما أنا براكب ، وما أنت بنازل ، إني أحتسب خطاي في سبيل الله – : إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم في الصوامع ، فدعهم وما زعموا ، وستجد أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم من الشعر وتركوا منها أمثال العصائب ، فاضربوا ما فحصوا بالسيف ، وإني موصيك بعشر .. لا تقتلن امرأة ولا صبيا ، ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا نخلا ، ولا تحرقنها ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بقرة ، إلا لمأكلة ، ولا تجبن ولا تغلل [1] .

5 - الابتعاد عن وسائل القتال الوحشية ، وكل ما من شأنه تعذيب الفرد وزيادة آلامه :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فقال : (إن لقيتم فلانا وفلانا – لرجلين من قريش سماهما – فحرقوهما بالنار) قال : ثم أتيناه نودعه حين أردنا الخروج فقال : « إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا بالنار ، وإن النار لا يعذب بها إلا الله ، فإن وجدتموهما فاقتلوهما » [2] .

هذه أهم قواعد الدستور الأخلاقي للحرب في النظام الدولي الإسلامي .

---

(1) البداية والنهاية .

(2) البخاري : ك الجهاد ، ب التوديع ... (6 / 115) ح 2954 ، ب لا يعذب بعذاب الله 6 / 149 ح 3016 .

ثالثا : بعد انتهاء المعركة :

من المبادئ المهمة جدا في ديننا الإسلامي الحنيف أنه دين العزة والكرامة ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [2] ولذا فإن المعركة لابد وأن تنتهي بتحقيق أهدافها ، إما بإسلام الخصوم أو استسلامهم وخضوعهم لأحكام الإسلام ..

أما إذا هزم المسلمون - لا قدر الله - فإن المعركة لا تعد منتهية ، وإنما على المسلمين أن يضمدوا جراحهم ، ويعيدوا تنظيم صفوفهم لجولة أخرى يتحقق لهم فيها النصر إن شاء الله ... وليس أدل على ذلك مما فعله المصطفى ﷺ في أعقاب غزوة أحد ، حينما خرج بالمسلمين إلى حمراء الأسد (مكان بينه وبين المدينة ثمانية أميال) - رغم جراحاتهم وآلامهم - بهدف تعقب جيش مشركي قريش ، الذين سارعوا بالفرار بمجرد علمهم بخروج النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم [3] .

وحينما يتحقق النصر للمسلمين - بحمد الله - فإن الفضيلة التي التزموا بها حال قتالهم تظل هي المنهاج الذي يحكم تصرفاتهم ، فلا تشفي ولا انتقام ، ولا تشويه لجثث الأعداء ولا إساءة إلى الأسرى أو المدنيين المسالمين ، ولا سلب أو نهب لممتلكات الدولة المهزومة .

أما قواعد القانون الدولي العام فإنها تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، حيث أباحت لسلطة الاحتلال أن تستولي على الأموال المنقولة المملوكة للحكومة الأصلية ، كالنقود ، والسندات ، والقيم المستحقة ، ومستودعات الذخيرة ، ووسائل النقل ، والمخازن .

أما الأموال العقارية فتبقى ملكيتها للدولة صاحبة الإقليم ، ويحق لسلطة الاحتلال الاستيلاء على ريعها ، كما يحق لها تحصيل الضرائب والرسوم التي كانت مقررة من قبل ، ولها أن تفرض ضرائب أخرى لسد حاجات جيش الاحتلال ونفقات الإدارة [4] .

* * *

بهذا ينتهي الحديث عن نظام الإسلام في المجال الدولي في حالتي السلم والحرب وبه ينتهي هذا الباب عن قواعد التنظيم الدولي في النظام الإسلامي الدولي ، تبين من خلاله

---

(1) سورة المنافقون / جزء من الآية (8) .   (2) سورة النساء : جزء من الآية (141) .

(3) زاد المعاد 3 / 241 ، 242 ، خاتم النبيين ، المجلد الثاني 2 / 719 - 721 .

(4) ينظر : القانون الدولي العام ص 318 - الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ص 337 - 344 .

أن المنهج الإسلامي هو المنهج الأمثل لأنه جزء من النظام الإسلامي العام الذي يتناول جميع الأنشطة الإنسانية بكافة مناحي الحياة البشرية ، وهو المنهج الرباني الذي أكمله الله وأتم على الناس به النعمة ، ورضيه لهم دينا ، قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [1] كيف لا وهو تشريع الخالق الذي يعلم إمكانات خلقه وطاقاتهم وأشواقهم وغرائزهم ، قال جل شأنه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [2] وقال سبحانه : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [3] .

فحق على البشرية – وقد ذاقت ويلات النظم المادية واكتوت بنارها – أن تبادر مسرعة إلى هذا المنهج الرباني العظيم لتتفيأ ظلاله وتنعم بخيراته ... وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [4] .

---

(1) سورة المائدة : جزء من الآية (3) .

(2) سورة الملك : الآية (14) .

(3) سورة النجم : جزء من الآية (32) .

(4) سورة طه : جزء من الآية (123) فالآية (124) .

الباب السادس

مستقبل المسلمين في ظل النظام الدولي الجديد

الفصل الأول : أسباب ضعف الأمة الإسلامية .

الفصل الثاني : سبل النهوض بالأمة الإسلامية .

الفصل الثالث : كيف يكون للمسلمين كلمة مسموعة في النظام الدولي ؟

تمهيد

يدور الحديث في هذا الباب حول مستقبل المسلمين في ظل النظام الدولي الجديد ، ولا شك أن ذلك يتطلب أولا إلقاء نظرة فاحصة على واقع الأمة الإسلامية حاليا ، للوقوف على أسباب ضعفها ، وتشخيص أمراضها وعللها ، إذ أننا نؤمن إيمانا عميقا بأن التشخيص الجيد هو أول وأهم مرحلة في العلاج ... من هنا كان الفصل الأول في هذا الباب عن أسباب ضعف الأمة الإسلامية .

وبعد التشخيص الدقيق لأمراض الأمة ، ومعرفة أسباب ضعفها ، كان لابد من البحث عن العلاج الناجع ، للنهوض بالأمة المسلمة ، فكان الفصل الثاني عن سبيل النهوض بالأمة الإسلامية .

ثم يختم هذا الباب بالفصل الثالث ، الذي نحاول فيه تقديم بعض التصورات حول كيفية تحقيق سيادة الأمة المسلمة ، وعودتها إلى مكان الريادة في مسيرة الحضارة الإنسانية .

ونود هنا التأكيد على أن موضوعات هذا الباب مما تتعدد فيه وجهات النظر تعددا كبيرا ، سواء في بيان أسباب ضعف الأمة أم في بيان سبيل النهوض بها ، ويرجع ذلك إلى ما اقتضته الحكمة الإلهية في اختلاف مشارب البشر ونزعاتهم واهتماماتهم ، فقد يكون جانب ما هو الأكثر أهمية لدى أحد الناس ، بينما هو دون ذلك عند غيره ... وهكذا .. وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [1] ..

فالاختلاف - إذا - وارد ومتحقق لا محالة ، ولكنه - في هذا المقام - خلاف في الأهمية أو الأولوية لا أكثر ولا أقل .. والله الموفق .

---

(1) سورة هود : الآيتان (118 - 119) .

الفصل الأول

أسباب ضعف الأمة الإسلامية

لا خلاف على أن الأمة الإسلامية تعيش - منذ عدة قرون - حالة من الضعف والتخلف ، كان من نتيجتها أن أصبح المسلمون في مؤخرة الصفوف بعد أن كانوا في طليعتها . وأصبحوا في ذيل القافلة الحضارية بعد أن كانوا قادتها ، وأصبحوا الطرف المتأثر في النظام الدولي بعد أن كانوا الطرف المؤثر فيه .

وتعود أسباب هذا الضعف إلى عوامل كثيرة ؛ منها ما هو نابع من داخل الأمة المسلمة ذاتها ، ومنها ما كان نتيجة المؤامرات الخارجية التي نسج خيوطها أعداء الأمة بمهارة شديدة .. وإنه من المؤكد أن بين الجانبين (الداخلي والخارجي) تلازما قويا وعلاقة وثيقة .. فعلى سبيل المثال : الخلافات السياسية والمذهبية ، وسيادة الأفكار القومية ، من العوامل الداخلية لضعف الأمة الإسلامية ، ولكنها في الوقت ذاته أثر من آثار المؤامرات الخارجية ، إذ أن الاستعمار هو الذي أنشأ الحدود السياسية المصطنعة بين الأقطار الإسلامية ، وهو الذي أذكى نيران العصبية والقومية والخلافات المذهبية .

ولكن - رغم التأكيد على تلازم الجانبين إلا أنني أرى أن الأسباب النابعة من داخل الأمة الإسلامية هي أساس المشكلة وأس القضية ، لأنه إذا كانت الأمة قوية القواعد ، سليمة البنيان الروحي والمادي ، فلن تستطيع مؤامرات الأعداء أن تنال منها قنطارا ولا قطميرا ، وليس أدل على ذلك من قول المولى تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [1] .

إذ تفيد الآيات الكريمات أنه مهما عظم كيد الأعداء ، ومهما تعددت مؤامراتهم

---

(1) سورة آل عمران : الآيات (118 - 120) .

وتنوعت ، فإن الأمة الإسلامية لن يضرها هذا الكيد بأدنى ضرر ، طالما كانت معتصمة بحبل الله المتين ، مستمسكة بنوره المبين .. وأما أروع التنكير في قوله سبحانه « شيئا » ، إنه يفيد أن كيد الأعداء لن يضر المسلمين الصابرين المتقين شيئا ولو يسيرا . ثم يأتي تذييل الآية الكريمة بتعليل هذا الحكم ، من خلال التأكيد على أن الله جلت قدرته محيط بمكر الكافرين وكيدهم ، فهو مبطل له مانع لتأثيره .

لذا سأبدأ بذكر العوامل الداخلية لضعف الأمة الإسلامية ، ثم أذكر بعد ذلك - إن شاء الله - العوامل الخارجية :

* * *

أولا : الأسباب الداخلية

تحدث القرآن الكريم عن القانون الإلهي الأزلي ، الذي تسير عليه البشرية منذ اللحظات الأولى للوجود الإنساني على ظهر هذه الأرض ، فلقد خاطب المولى تبارك وتعالى أبا البشرية آدم عليه السلام وزوجه حواء ، حينما أمرهما بالهبوط إلى الأرض ، فقال سبحانه كما يحكي القرآن الكريم : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [1] .

تبين هذه الآيات أن الإعراض عن منهج الله هو سبب الخسران المبين ، بالضنك في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة .. وقد تحقق ذلك بالفعل في أمة مثل أمة سبأ التي أعرضت عن منهج الله فاندثرت حضارتها في غمضة عين ، يقول الحق جل شأنه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [2] .

ولا يمكن بالقطع تشبيه الأمة الإسلامية بسبأ أو غيرها من الأمم الكافرة ، لأن الأمة

---

(1) سورة طه : الآيات (123 - 127) .

(2) سورة سبأ : الآيات (15 - 17) .

المسلمة موصوفة في كتاب الله عز وجل بالخيرية والوسطية ، والخير باق فيها - إن شاء الله - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. ولكن الذي يمكن قوله أنه قد حدث نوع من الإعراض عن منهج الله عز وجل ، كانت له صور عدة ، أستعرض بعضها فيما يلي :

(أ) على المستوى الفردي :

(1) غياب المعنى الصحيح للإيمان :

إن الإيمان الحق - في التصور الإسلامي - ليس مجرد اعتقاد قلبي سلبي ، بل هو محرك إيجابي للتعبير عن مكنونات الصدر ، بسلوك نافع وعمل صالح ، ومن هنا جاء الخطاب في القرآن الكريم - آمرا بفعل الخيرات أو ناهيا عن اقتراف السيئات - موجها إلى تلك الفئة التي تغلغل الإيمان في أعماق قلوبها وملك عليها أقطار نفوسها ، فتكرر النداء القرآني بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ليستجيش في النفوس معاني الإيمان الحق ، ليجعلها طاقات دافعة لفعل الخير ، وحواجز منيعة للبعد عن الشر .

ففي الجانب الأول - على سبيل المثال - يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [1] .. حيث يلاحظ في الآية الكريمة أنها تجعل معاني الإيمان القلبية دافعا إيجابيا للعمل الصالح بالأكل من الطيبات ، وتوظيف نعمة الله فيما يرضيه سبحانه وتعالى .

وفي الجانب الثاني - على سبيل المثال أيضا - يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] .. فلقد تضمنت الآيتان الكريمتان عدة توجيهات خلقية وسلوكية من اجتناب السخرية بالآخرين ، وسوء الظن بهم ، والتجسس عليهم .. إلخ وقد جعلت الآيتان الإيمان هو الحاجز المنيع الذي يكفل لصاحبه الابتعاد عن هذه الرذائل كلها .

ويتضح هذا الأمر جليا في سنة المصطفى ﷺ ، حيث ربط صلوات الله وسلامه عليه بين الإيمان القلبي والسلوك التطبيقي ، وجعل كمال الإيمان متوقفا على تحقيق هذا

---

(1) سورة البقرة : الآية (172) .

(2) سورة الحجرات : الآيتان (11 - 12) .

السلوك الطيب ، فعلى سبيل المثال يقول الحبيب ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (1) .

وفى المقابل ، ينفي المصطفى ﷺ كمال الإيمان عن صاحب السلوك السيئ ، حيث تحدث مثلا عن إيذاء الجيران فقال : « والله لا يؤمن (ثلاثا) ، قيل : من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه » (2) .

وعندما غابت هذه المعاني عن النفوس ، حدثت الغفلة ، التى ترتب عليها منطقيا حدوث الضعف والتخلف :

أ – فقد غاب معنى المراقبة لله رب العالمين ، أو ما عبر عنه المصطفى ﷺ بالإحسان في حديث جبريل المشهور « ... الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (3) .. وأدى ذلك بالتالي إلى وقوع الكثير والكثير من الانحرافات في المجتمع المسلم ، لأن الإنسان إذا تجرد من معاني المراقبة وتقوى الله عز وجل ، أصبح الباب أمامه مفتوحا على مصراعيه للوقوع فيما يغضب الله .

ب – كما تضعضع الإيمان بعقيدة أن الرزق والأجل بيد الله وحده .. وفي يقيني أن الخوف من فوات الرزق أو من انتهاء الأجل هما أساس جل الانحرافات في حياة الفرد ، وبالتالي المجتمع المسلم . إذ أن غلبة المادية وسيطرتها التامة على مناحي الحياة المختلفة ، دفعت الإنسان إلى الدخول في حمأة صراع رهيب لتحصيل المادة بأي شكل ومن أي طريق ، دون التقيد في ذلك بحدود الفضيلة أو قواعد الحلال والحرام .. كما أن الخوف من انقضاء الأجل يجعل ضعيف الإيمان يؤثر القعود والراحة ، لا يجهر بحق ، ولا يجاهد في سبيله ، ولا يبذل روحه ودمه في سبيل إعلاء رايته ..

وقد جمع النبي ﷺ بينهما في حديثه الشريف الذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره 10 / 460 (6018) . ومسلم في الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف 1 / 68 (74 - 47) كلاهما عن أبي هريرة .

(2) البخاري : ك الأدب ب إثم من لا يأمن جاره بوائقه 10 / 457 (6016) .

(3) سبق تخريجه .

وتستوفى أجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، فإن رزق الله لا ينال إلا بطاعته »[1] .

والمؤمن الصادق يضع في يقينه أن الرزق والأجل بيد المولى سبحانه وتعالى وحده دون سواه ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[2] . « .. تشير الآية الكريمة إلى تكفل المولى جل وعلا برزق جميع المخلوقات على ظهر هذه الأرض ، ويأتي التعبير عن ذلك بلفظة « على » الدالة على الوجوب واللزوم – مع أنه لا يجب على الله شيء – لبث الطمأنينة في النفوس ، وكذلك التعبير بقوله « كتاب مبين » لمزيد من التأكيد على هذه القضية .. وقال جل شأنه عن الأجل وتقديره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] .

جـ – ومن مظاهر غياب مفهوم الإيمان الصحيح كذلك سوء فهم الكثير من الناس لعقيدة القضاء والقدر ، وسوء تقديرهم لمدى العلاقة بين المشيئة الإلهية والإرادة الإنسانية ، فتراهم يستقبلون أحداث الحياة على أنها قدر حتمي لا مفر منه ، ومشيئة إلهية لا مهرب منها . وإن كان هذا التفكير صحيحا في بعض جوانبه ، إلا أنه وبال وخطر داهم في جوانب أخرى . فهزيمة المسلمين حضاريا ، وتخلفهم في ميدان التقدم المادي ، وتحكم غيرهم في مصيرهم ... كل هذا قدر حتمي ومشيئة إلهية . نعم !.. ولكنه في الوقت ذاته أثر لتقاعس المسلمين أنفسهم عن الأخذ بأسباب التقدم ، ولنكوصهم عن عوامل القوة والنماء ..

وفي القرآن الكريم إشارة إلى هذه القضية في الحديث عما أصاب المسلمين في غزوة أحد ، إذ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[4] .

وفي الناحية الأخرى يسود الاعتقاد بأن عودة المسلمين إلى مقام الريادة الحضارية قدر حتمي ومشيئة إلهية لابد أن تتحقق ، وهذا بالقطع صحيح تماما ، اعتمادا على ما جاء في كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية العظيمة من مبشرات النصر

---

(1) أخرجه : أبو نعيم فى الحلية 10 / 27 عن أبي أمامة وانظر الجامع الصغير 1 / 138 (2273) .

(2) سورة هود : الآية (6) . (3) سورة الأعراف : الآية (34) .

(4) سورة آل عمران : الآيات (165 - 167) .

والتمكين للأمة الإسلامية في الأرض ، من مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] وقوله جل شأنه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [2] .

ولكن - رغم ذلك - لابد من التنبه إلى أن هذه الآيات الكريمات قد تضمنت شروطا لابد أن يفي بها المسلمون حتى يكونوا - بحق - المؤمنين الجديرين بنصر الله لهم ، وحتى يكونوا بحق هم جند الله الظافرين الغالبين المستحقين للتمكين في الأرض .

فالنظرة إلى القضية من جانب المشيئة الإلهية وحدها ، وإهمال جانب الفعل الإنساني داخل إطار هذه المشيئة ، نظرة قاصرة يأباها الإسلام أشد الإباء ، ويحاربها أيما محاربة .. وهي من عوامل الضعف في كيان الأمة الإسلامية ..

د - أما أهم وأخطر مظاهر غياب المفهوم الصحيح للإيمان ، فيتمثل في إهمال أول متطلبات ومقتضيات الإيمان وهي : السمع والطاعة ، بمعنى الامتثال الفوري والتنفيذ التلقائي لكل ما يصدر عن المولى تبارك وتعالى من الأوامر أو النواهي ، إذ أن طبيعة المؤمن الصادق أن يبادر إلى ذلك بكل قوة وعزم ، كما قال الله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [3] .. ومن العجيب في نظم الآية الكريمة أن المؤمنين بعد أن أعلنوا السمع والطاعة تضرعوا إلى ربهم بطلب المغفرة ، وكأنهم أشفقوا على طبيعتهم البشرية ألا تستطيع الوفاء التام بمتطلبات السمع والطاعة لرب العزة جل شأنه ، فتوجهوا إلى مولاهم ضارعين خاشعين ، راجين أن يغفر لهم ما قد يحدث من تقصير في قضية « سمعنا وأطعنا » .

وفي آية أخرى يبين القرآن الكريم أن آية الإيمان وسبب الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة ينحصر في السمع والطاعة لحكم الله وأمره ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

(1) سورة الروم : جزء من الآية (47) .
(2) سورة النور : الآية (55) .
(3) سورة البقرة : الآية (285) .

﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (1) .

ثم يحكم الله عز وجل بنفي الإيمان عمن يجعله قضية لفظية لسانية لا تنتقل إلى جانب التنفيذ والتطبيق بالانصياع لأمر الله وحكمه ، يقول تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (2) .

ويقول جل شأنه : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (3) .

إن المسلم حينما يحدث في نفسه الانفصام بين ادعاء الإيمان وتحقيق متطلباته من السمع والطاعة يكون قد جنى على نفسه وأمته جناية عظيمة ، لها أوخم العواقب ، وأسوأ النتائج ، مثلما تحدث القرآن عن القوم من بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (4) . وقوله جل شأنه : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (5) .

(2) تضييق مفهوم العمل الصالح (العبادة) وحصره في نطاق الشعائر التعبدية :

هذا هو السبب الثاني من أسباب ضعف الأمة الإسلامية على المستوى الفردي ، وهو بلا شك مترتب على السبب الأول وواحد من آثاره ، فحينما يغيب المفهوم الصحيح للإيمان لابد أن يغيب حتما المفهوم الحقيقي للعمل الصالح ، إذ أنه التطبيق والترجمة الفعلية للإيمان ، ولهذا لا يكاد يذكر الإيمان في القرآن الكريم إلا مشفوعا بذكر العمل الصالح ، ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (6) وقوله جل شأنه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ

---

(1) سورة النور : الآيتان (51 - 52) .
(2) سورة النساء : الآية (65) .
(3) سورة السور : الآيات (47 - 50) .
(4) سورة البقرة : الآية (93) .
(5) سورة النساء : الآية (46) .
(6) سورة الكهف : الآية (107) .

ٱلنَّعِيمِ ﴾ [1] .. والآيات في هذا المقام تعيا على الحصر .

وقد وقع الخطأ والانحراف الشديد حينما فُهم العمل الصالح على أنه مجرد أداء الشعائر التعبدية ، وفسرت « العبادة » التي خلقنا الله من أجلها بذلك ، وكأن الله عز وجل حينما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [2] . « كأنه أراد أن ينحصر النشاط الإنساني في هذه الدائرة لا يتعداها .. مع أن القرآن الكريم قد نطق بغير هذا ، حينما جعل جملة النشاط الإنساني المتنوع داخلا في إطار العبادة التي خلق الله الجن والإنس من أجلها ، بشرط أن يقصد المسلم بعمله هذا وجه الله رب العالمين ، وذلك في قوله تباركت أسماؤه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [3] .

ومما يؤكد خطأ هذا المفهوم الضيق للعبادة ، أن الشعائر التعبدية ذاتها لا يمكن أن تقام إلا بتحقق أوجه النشاط البشري المتعددة من صناعة وزراعة وتجارة وبحث علمي ... إلخ .. وما دام هذا النشاط سبيلا لتحقيق واجب فهو أيضا واجب تطبيقا للقاعدة المشهورة « مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

إذا ، فالمسلم في أي مجال كان ، هو عابد لله رب العالمين ، فى حقله ، أو متجره ، أو مصنعه ، أو مختبره ... أو غير ذلك .. وعمله هذا عمل صالح يتقرب به إلى الله ، إذا تحقق فيه شرط النية الصالحة ، بالإخلاص لله والإتقان التام .

وقد ترتب على هذا الخطأ في مفهوم العبادة والعمل الصالح أن أصبح الدين – في نظر الكثيرين – محصورا في المساجد والزوايا ، لا يتعداها قيد أنملة ، وأصبح « المتدين » هو ذلك الشخص الذي لا يفارق « السجادة والمسبحة » أي أصبح الدين شيئا والدنيا شيئا آخر ، ووجد انفصام تام بين سلوك الفرد داخل المسجد وخارجه .. وهذا بلا ريب من أقوى وأهم أسباب ضعف الأمة الإسلامية .

(3) الانغماس في شهوات النفس وحظوظها :

من المبادئ الإسلامية الأساسية ، أن الإسلام يبيح للإنسان أن يتمتع بطيبات هذه

---

(1) سورة لقمان : الآية (8) . (2) سورة الذاريات : الآيات (56 - 58) .
(3) سورة الأنعام : الآيتان (162 - 163) .

الحياة وزينتها ، وينكر أشد النكير على من يحاول إظهار الإسلام بصورة مترمتة كئيبة ، تخالف حقيقته ، وتتناقض مع جوهره الأصيل ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

وفي الوقت الذي يبيح فيه الإسلام ذلك ، يحذر من التمادي فيه إلى الحد الذي يصبح فيه المرء عبدًا لحظوظ نفسه وشهوات دنياه ، فلا يبالي في سبيل تحصيلها أن تهدر كل القيم ويداس على جميع الفضائل ، فهذا هو « الخطر الأكبر » الذي يواجه المسلمين ، فيما يرى الدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي ، الذي تحدث تحت هذا العنوان قائلا :

« هل تعلم ما هو ، أم هل فكرت فيه قط » ؟

إنه ليس العدو الداهم الذي يستقر مستعمرا في ديارك ، وليس الفرقة التي تشتت القوى وتباعد الصفوف ، ولا تلك الأسلحة المذهلة التي تنذر بالدمار الشامل ، ولا المجاعة الرهيبة التي تهدد نصف الكرة الأرضية .

إنما الخطر الأكبر شيء أشد رهبة من هذا كله !! .. إنه ذاك الذي يمكّن العدو من التسلل إلى الديار ، وهو ذاك الذي يهيىء الأسلحة للانفجار والوقود للاشتعال ، وهو ذاك الذي يوجود أسباب الخصومة والفرقة ويقضي على فرص الوحدة والتعاون ..

إنه أعدى عدو لنا على الإطلاق .. إنه نفوسنا التي بين جنبينا .

أجل ! .. فالنفس الإنسانية التي لم تقترن مع العمل الصالح في سير منضبط على المنهج الإسلامي الصحيح ، هي الخطر الأكبر في حياة المسلمين اليوم ، ما في ذلك شك ولا ريب [2] .

وإنما ينبع هذا الخطر الكبير من مصدر واحد ، هو تعلق القلب بالدنيا ، ووضعها في مرتبة أعلى من المرتبة الحقيقية التي وضعها الله عز وجل فيها . والدنيا ليست - كما قد يُتوهم - محصورة في الدرهم والدينار والأرض والعقارات ، وإنما هي تتمثل في سائر الشهوات التي تميل إليها النفس كالمكانة والجاه ، والزعامة ، والكبر ، والركون إلى

(1) سورة الأعراف : الآيتان (32 - 33) .

(2) باطن الإثم .. الخطر الأكبر الذي يواجه المسلمين د / محمد سعيد رمضان البوطي ص 29 . بتصرف يسير .

مختلف مظاهر النعيم ، فكل ذلك من الدنيا التي ابتلى الله الإنسان بها ليجاهد نفسه في التعالي عليها والتحرر من أسرها ، وليسوقها بعد ذلك مطية في طريق مرضاة الله تعالى .

فعندما يتعلق القلب بأهواء الدنيا ، ولا يقوى على التحرر من أسرها ، ولا يجاهد الرجل نفسه في محاولة تحقيق ذلك ، ينتج عن ذلك حتما أن تترسب في النفس جميع الأمراض القلبية التي تعتبر من أعظم الآفات الخطيرة في حياة المسلمين ، فيبتلى القلب بالكبر والحسد والرياء والعجب وشتى الضغائن والأحقاد ، ويتغلب الشح على النفس ، ويتأصل فيها الزهد في الآخرة ومثوبتها ، ويقل الخوف من عقاب الله وعظيم عذابه ، ويتحول الجهاد عندئذ إلى تنافس على الدنيا ، بعد أن كان سعيا للتحرر من رقها والاستعلاء على مغرياتها .

وفي السنة النبوية إشارة جليلة إلى ذلك في حديث المصطفى ﷺ الذي يقول فيه « ... فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (1) .

ويترتب على امتلاء القلب بتلك الأدواء والأمراض الخطيرة أن تستحيل علائق الأخوة الإسلامية صراعات دامية حادة ، فتتصدع وحدة المسلمين ، ثم تزول الثقة فيما بينهم ، ثم يأكل بعضهم بعضا بنيران العداوة والبغضاء .. ويجني العدو ثمرة ذلك لنفسه قهرا وبطشا وانتصارا .. فلو مات المسلمون اختناقا أو دمارا في بيوتهم لكان ذلك أشرف لهم من هذا الهلاك الذي تحدث عنه المصطفى ﷺ ، ثم أثبته الواقع فيما بعد (2) .

هذه أهم أسباب الضعف على مستوى الفرد المسلم ، وهي - كما هو واضح - مترابطة ومتشابكة ، وهي - في الوقت ذاته - الأساس في أسباب الضعف على مستوى الجماعة - والتي ستذكر بعد قليل - إذ أن المجتمع ليس إلا مجموعة من الأفراد ، وبحسب حالهم من التمسك الحق بمبادئ الإسلام أو البعد عنها يكون حال المجتمع .

* * *

(ب) على المستوى الجماعي :

تكاثفت مجموعة من العوامل على مستوى الجماعة المسلمة للوصول بها إلى حالة

(1) متفق عليه أخرجه البخاري في الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا 11 / 247 - 248 (6425) . ومسلم في الزهد باب (53) 4 / 2273 (6 - 2961) . كلاهما عن أبي عبيدة بن الجراح .

(2) ينظر : باطن الإثم ... مرجع سابق ص 34 - 35 .

الضعف التي تمر بها حاليا . من أهم هذه العوامل :

(1) إبعاد المنهج الإسلامي عن الحياة :

عاش المسلمون دهورا طوالا في ظلال المنهج الإسلامي ، فسعدوا وفازوا ، وسادوا الدنيا من أقصاها إلى أقصاها . إلى أن أتى على المسلمين حين من الدهر ، فانبهروا بما عند غيرهم من مناهج ونظم ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فانحرفوا عن الجادة ، وحادوا عن الصراط السوي .

ولقد كانت بداية الانفصام بين قضايا الدين ومشكلات الحياة في المجتمعات الأوروبية ، نتيجة للفكر الكنسي البشري الذي تسربل بسربال الدين ، وكان وبالا ودمارا على تلك المجتمعات ، حيث فرض قيودا هائلة على التفكير العقلي ، والبحث العلمي ، وظل الحال على هذا المنوال إلى أن انفجر بركان العقلية العلمية انفجارا هائلا ، أتى على هذا الفكر الكنسي من قواعده ، وأعلن أن الدين لا دور له في عصر التقدم العلمي ، إلا أن يقبع في الكنائس والمعابد لأداء الطقوس والتقاليد ، دون أدنى صلة بينه وبين طوفان الحياة وخضم الأحداث .

وتحت وطأة الانبهار بمنجزات الثورة العلمية الحديثة ، سرت في الأوساط الإسلامية - بمساعدة الغرب وتشجيعه - الأصوات والدعوات المنادية بفصل الدين عن الدولة ، وإبعاد الإسلام عن جوانب الحياة المختلفة :

* فلا علاقة للإسلام بنظام الحكم وشئون السياسة ، بل لابد من الأخذ بالنمط الغربي بكافة حذافيره ، دون التفات إلى ما يناسب مجتمعاتنا أو مالا يناسبها .

* ولا دخل للإسلام بالنظام الاقتصادي ، فالمسلمون جزء من العالم ، تحكمهم القواعد الاقتصادية العالمية ، ولا يمكن لهم اعتراض سبيلها ، حتى لو خالفت مبادئ دينهم .

* أما الأوضاع الاجتماعية ، فلابد من تحطيم القواعد الإسلامية « البالية » - في نظرهم - وإطلاق العنان لغرائز النفس وشهوات الجسد دون حسيب أو رقيب ، ولابد من تحرير الفرد من كافة القيود التي يفرضها الدين ، من العفة ، والضرورات الأسرية ... وغيرها .

باختصار .. ليس للإسلام من دور في الحياة البشرية ، اللهم إلا قليلا من الشعائر والطقوس لتحقيق التهذيب الوجداني والسمو الروحاني .. هذه هي الفكرة التي يروج لها أدعياء « الثقافة » ودهاقين الفكر « التقدمي المستنير » ، الذين صدق فيهم قول المصطفى ﷺ : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب

تبعتموهم ، قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : .. فمن » ؟ ! [1] .

(2) التمسك بالشكليات والظواهر دون الحقائق والجواهر :

في مواجهة أهل الحق المستمسكين بدينهم ، المؤمنين بشموليته لكافة مناحي الحياة ، لم يجد أرباب العلمانية والتغريب أمامهم من سبيل سوى خداع الجماهير الغفيرة بشعارات شكلية ، يحاولون من خلالها الظهور بصورة المحافظين على الإسلام المحترمين لمبادئه وعطائه الحضاري للإنسانية .

فعلى سبيل المثال : تنص معظم الدساتير في البلدان الإسلامية على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة ، وأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع ، ومع ذلك ، لا تزال نصوص القوانين في معظم تلك الدول تطفح بما يخالف الشريعة الإسلامية ويتصادم مع المبادئ الأساسية للإسلام .

فهل يكفي مجرد اعتبار الإسلام الدين الرسمي للدولة واعتبار الشريعة الإسلامية مصدر التشريع الأساسي ؟ !

أو هل يجدي مجرد الاحتفال الشكلي بالمناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف ، والهجرة المباركة ، والإسراء والمعراج ... وغيرها ؟ !

أو هل يكفي أن تذاع في وسائل الإعلام برامج دينية مكررة ضعيفة الهدف والمضمون ، وفي أوقات تكون نسبة المشاهدين والمستمعين فيها ضعيفة جدا ؟!

إن هذه الأمور – وغيرها – لا تعدو أن تكون مجرد أوضاع شكلية ظاهرية ، يقصد منها – فقط – الإبقاء على الإسلام كصورة تاريخية تراثية ، دون السماح له بالنفاذ إلى الجوانب الحياتية المختلفة ... وإن هذا ليشبه – بصورة أو بأخرى – ما تحدث عنه القرآن الكريم من حال قوم في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

(1) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم 13 / 312 - 313 (7320) . ومسلم في العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى 4 / 2054 (6 - 2669) .

ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [1] .

(3) الاكتفاء بتمجيد الأسلاف والتغني بتراثهم :

لكل أمة تاريخها وتراثها الذي تفخر به وتعتز ، ولا شك أن المسلم حينما ينظر إلى تاريخ أمته المجيد وتراثها الحضاري العظيم ، تأخذه نشوة فخر واعتزاز ، تدفعه إلى أن يقول للعالم كله : أولئكم آبائي فجيئوني بمثلهم .

ولا يفيق المسلم من هذه النشوة سوى ذلك الفصام النكد بين واقعنا المر المخجل وتاريخنا الرفيع ، وما أصدق كلمات عبد الرحمن الكواكبي في هذا المقام ، إذ يقول : « لقد ملَّ آباؤكم من إطرائكم إياهم ، وكأني سمعتهم بالأمس يقولون : إن كنتم تفخرون بنا فإنا لا نفخر بكم ؛ لأن العمالقة لا تلد أقزاما » [2] .

وهذا حق لا ريب فيه ، فإن كنا حقا نفخر بأسلافنا فلابد من السير على دربهم واقتفاء آثارهم ، ولابد من الأخذ بأسباب النهضة والتقدم التي أخذوا بها .. أما الوقوف طويلا للبكاء على الأطلال ، أو الحديث المتواصل عن عظمة الحضارة الإسلامية التي كانت ، أو عن ماضي الأمة الإسلامية المجيد ، فهو مجرد إضاعة للوقت والجهد فيما لا يجدي ولا يفيد ، وما أصدق ما قيل :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول هأنذا ... ليس الفتى من يقول : كان أبي

(4) الإهمال في استثمار نعم الله وأسبابه المبثوثة في الكون :

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وأمره بعمارة هذه الأرض التي يحيا على ظهرها ، فقال جل شأنه حكاية عن نبي الله صالح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

---

(1) سورة البقرة : الآيات (83 - 86) .

(2) من مقال للدكتور / عبد الرحمن البر في مجلة الأزهر بتصرف يسير .

غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [1] .

ومن أجل أن يقوم الخليفة بهذه المهمة ، سخر الله له هذا الكون ، بما فيه من أجرام ضخمة ، ومخلوقات عظيمة عجيبة ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] .

وقد جعل المولى تبارك وتعالى هذا التسخير قانونا مطردا مع كل بني آدم ، دون التفات لتوافر عنصر الإيمان بالله أو عدم توافره بمقتضى عطاء الربوبية الذي يستوي فيه المؤمن وغير المؤمن ، بخلاف عطاء الألوهية الذي يختص به المؤمنون دون غيرهم . وتزداد هذه القضية وضوحا في تأمل قول رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [3] .

« .. إذ يلاحظ فى الآية الكريمة أن الخليل عليه السلام أراد حصر عطاء الربوبية (الرزق من الثمرات) في دائرة المؤمنين بالله واليوم الآخر فقط ، ولكن رب العزة جل شأنه جعل عطاء الربوبية يَطَالُ أيضا غير المؤمنين ، فإنهم سيحصلون منه على نصيبهم الدنيوي ، وهو مهما كثر وعظم قليل ، بالنظر إلى سوء العاقبة التي تنتظرهم عند الله يوم القيامة .

يستخلص من هذا ، أن نعم الله كثيرة ، وأن أسباب الرزق والعطاء الرباني مبثوثة في الكون لمن يبذل جهده في استخلاصها واستثمارها ، أما القاعدون المتخاذلون فلا نصيب لهم فيها ، حتى ولو كانوا مؤمنين بالله .

وقد كان يجب على المسلمين أن يستفرغوا أقصى جهودهم في استغلال نعم الله وأسبابه المبثوثة في الكون ، فهم أولى بأسباب الله من الكافرين ، ولكن الطامة الكبرى أنهم لم يعيروا هذه القضية أدنى اهتمام :

* فالثروة البشرية الهائلة في العالم الإسلامي – وهي أعز وأغلى ما يملك – لم تستغل الاستغلال الأمثل ، ولم يهتم أحد بحسن تنظيمها وتدريبها .

---

(1) سورة هود : الآية (61) .
(2) سورة الجاثية : الآيتان (12 ، 13) .
(3) سورة البقرة : الآية (126) .

* والمساحات الشاسعة الصالحة للزراعة في البلدان الإسلامية ، لم تجد من يلقي فيها البذرة لتنتج الخير الوفير ، الذي يكفي المسلمين مؤونة الاستجداء والتوسل لأعدائهم ، للحصول على أقواتهم الضرورية ، ولا يحصلون إلا على الفتات ، الذي يدفعون في مقابله كرامتهم وعزتهم [1] .

* والصحراء المترامية الأطراف في معظم الدول الإسلامية ، وما هو مخزون في باطنها من كنوز وثروات معدنية ضخمة ، أليست جديرة بالبحث والتنقيب فيها عن هذا الخير الوفير ؟ !

* والثروة الحيوانية في العالم الإسلامي . لماذا تتناقص أعدادها ويضعف إنتاجها ، رغم أن العالم الإسلامي به مساحات ضخمة للرعي ؟ !

* حتى الثروة النفطية الهائلة .. لم يحسن المسلمون استغلالها ، رغم أن معظم الإنتاج العالمي يخرج من ديارهم ، ورغم أنهم يملكون معظم الاحتياطي العالمي من هذه السلعة الاستراتيجية الضخمة .. فالأسعار متدنية إلى أقصى درجة ، وتتحكم فيها الدول المستهلكة الكافرة ، وسياسات الإنتاج والتسعير والتسويق تملي على المسلمين إملاء ، حتى لا ينعموا بخيرات الله ، وحتى تذهب العوائد الضخمة إلى جيوب أعدائهم .

* وهذه الثروات المالية الضخمة ، لماذا تبقى في مصارف الغرب لتستفيد بها شعوبه ، بينما آلاف المشروعات الحيوية الكبيرة في البلدان الإسلامية تفتقر إلى التمويل الأساسي اللازم لها ، ولا تجده إلا في المؤسسات المالية الغربية والدولية بفوائد مضاعفة مركبة ؟!

* وهذه الجامعات والمعاهد البحثية المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي .. لماذ لم تقم بواجبها في دراسة أسباب تخلف العالم الإسلامي في كافة المجالات وتقديم الحلول العلمية الناجحة لها ؟ ! وهل اقتصر دورها على تفريخ جيوش هائلة من الموظفين أو الخريجين من أنصاف المتعلمين ، الذين يقضون سنوات طوالا قبل أن تُوفَّر لهم فرصة عمل لا تتناسب وإمكاناتهم العلمية القليلة ؟ !

* حتى العقول العلمية الفذة ، لم تجد من يهتم بها أو يوفر لها الإمكانات الملائمة لتؤدي عملا جليلا نافعا ، فاستسلمت لإغراءات الغرب المبهرة ، وهاجرت هجرة دائمة ، وباينت مجتمعاتها المسلمة ثلاثا لا رجعة فيهن .. كيف لا .. والمسئولون في شغل عن هذه الأمور « التافهة » ، أما الجماهير فهي تهتم باللاعب « المحترف » ولا تشغل بالها بالعالم « المغترب » .

---

(1) يراجع : الإمكانات الزراعية في العالم الإسلامي ووسائل توظيفها د / حمعة رجب طنطيش .

* بل حتى البحوث العلمية الجادة ، احتلت مكانها بجدارة في أدراج المكاتب أو فوق أرفف المكتبات ، وضاعت الجهود التي بذلت فيها سدى ، وأهدرت الأموال دون فائدة ..

بعد هذا - كله - ألا يحق أن يقال : إن المسلمين قد قصروا غاية التقصير في استثمار نعم الله وأسبابه في الكون ، فتخلفوا وأصبحوا في مؤخرة الصفوف ، مع أن دينهم العظيم يأمرهم ببذل الجهد الجهيد في هذا المضمار ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [1] . وقال المصطفى ﷺ « إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها ..» [2] والآيات والأحاديث في هذا المقام أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تشهر .

(5) السلبية التامة في مواجهة الانحرافات (إهمال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) :

كرم الله الأمة المسلمة فجعلها خير أمة أخرجت للناس ، وجعل مناط هذه الخيرية متمثلا في قيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في الإطار العام المتمثل في الإيمان بالله تبارك وتعالى ، فقال جل شأنه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [3] . وحينما تهمل الأمة المسلمة هذه الفريضة ، فإنها تفقد مناط خيريتها ، ويفقد المجتمع المسلم الأساس السليم لحيويته وازدهاره ، إذ تشيع الانحرافات في المجتمع ، ولاتجد من يعترض طريقها ويوقفها عند حدها ، وحينئذ يكون الانهيار الشامل .

ولقد تحدث القرآن الكريم عما حل ببني إسرائيل من سخط الله ونقمته ، بسبب عصيانهم واعتدائهم على حرمات الله ، وشيوع الفساد والانحرافات دون وازع من ضمير فرد أو جماعة ، فقال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [4] .

- كما تحدث النبي ﷺ عن ذلك في قوله : « إن أول ما دخل النقص على بني

---

(1) سورة الملك : الآية (15) .

(2) أخرجه أحمد في المسند : 3 / 184 ، 191 من حديث أنس بن مالك ، وإسناده حسن لأن بهز بن حكيم صدوق كما قال الحافظ ابن حجر في تقريبه ص 128 .

(3) سورة آل عمران : الآية (110) .

(4) سورة المائدة : الآيتان (78 - 79) .

إسرائيل : كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا ، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ... » وفي رواية أخرى يقول : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » [1] .

وقد كان المصطفى ﷺ حريصا أشد الحرص على تحذير أمته من مغبة هذه السلبية وبيان مدى خطورتها على المجتمع ، ففي الحديث السابق نفسه أن النبي ﷺ - كان متكئا فجلس - مما يدل على أهمية الأمر وعظم شأنه - ثم قال : « كلا ، والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » .

ويعلن النبي ﷺ أن ترك هذه الفريضة نذير عذاب الله وإهلاكه للأمة فيقول : « والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، فتدعونه فلا يستجيب لكم » [2] .

بل يعلن أن ذلك لن يمنع منه وجود بعض الصالحين السلبيين في الأمة ، فهم - بسلبيتهم هذه - ساهموا في هلاك مجتمعهم ، ولم يسعوا لإنقاذه ، فقد دخل ﷺ على أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها فزعا وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق بأصبعيه : الإبهام والتي تليها . فقالت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » [3] . ولا شك أن كثرة الخبث دليل على أن المنحرفين لم يجدوا من يردعهم أو يردهم عن غيهم ، ومعنى ذلك أن الصالحين قد ركنوا إلى الدعة والراحة ، فلم يؤدوا واجبهم الإصلاحي المنوط بهم ، فلم يشفع لهم صلاحهم السلبي حين نزول العذاب ، وفي ذلك يقول الحق تباركت أسماؤه .. ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ

---

(1) أبو داود : ك الملاحم ب الأمر والنهي 4 / 121 - 122 (4336 - 4337) - الترمذي : ك التفسير ب تفسير سورة المائدة 8 / 412 - 414 (5038 - 5039) وقال : حسن غريب .

(2) الترمذي : ك الفتن ب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 6 / 390 - 391 (2259) وقال : حديث حسن .

(3) البخاري : ك الفتن ب يأجوج ومأجوج 13 / 113 (7135) ، وأيضا في ب قول النبي ﷺ : « ويل للعرب من شر قد اقترب 13 / 14 (7059) - مسلم : ك الفتن وأشراط الساعة 4 / 2207 - 2208 (201 / 2880) .

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [1] .

إن الأمة التي يعيش كل فرد فيها لنفسه ، لا يسدد الآخرين ، ولا يقوم عيوبهم ، ولا يدعوهم بالتي هي أحسن للتي هي أحسن ، ولا تأخذه الشفقة على بني مجتمعه ودينه ، متصورا أنه ليس مسئولا إلا عن نفسه ... هذه الأمة يسرع إليها الفناء ، ويتصدع بنيانها في سرعة ، وينزل بها عقاب الله الأليم [2] . يقول الصديق رضي الله عنه : « يا أيها الناس ، إنكم لتقرأون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه » [3] .

ولقد دب الضعف في الأمة الإسلامية وضاع من بين أقدامها الطريق ، حينما أصيبت بهذا الداء الوبيل - داء السلبية - فأهملت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستشرى الفساد في أرجائها وعلا صوته ، فانعكس الوضع وانقلبت الآية ، وصار المعروف منكرا والمنكر معروفا :

* فالفتاة إذا خرجت من بيتها عفيفة محتشمة فهي متخلفة رجعية ، أما إذا خرجت سافرة متبرجة فهي متحررة تقدمية .

* والشاب المسلم الملتزم ، الذي يحافظ على فرائض دينه ، ويحرص على ما ينفع دينه وأسرته ووطنه ، شاب متطرف متزمت ، أما الشاب المخنث الذي لا هم له إلا الجري وراء شهواته والاندفاع وراء غرائزه ، هو الشاب المتحضر الجدير بالتشجيع والأضواء .

* والحديث عن المؤامرات التي تحاك للأمة وضرورة الإعداد والاستعداد لمكافحتها بكل قوة ، هو حديث أصحاب الفكر التآمري غير الواقعي ... وهكذا دواليك ..

(6) ظلم الولاة وصمت الرعية :

تحدث القرآن الكريم في كثير من آياته عن اندحار كثير من الأمم واندثار كثير من الحضارات بسبب الظلم ، ظلمهم لأنفسهم أولا ، ثم ظلمهم لغيرهم ثانيا ، وذلك في

---

(1) سورة الأنفال : الآية (25) .

(2) ينظر : عوامل الهدم والبناء في المجتمع الإسلامي د / عبد الرحمن البر ص 25 .

(3) أبو داود : ك الملاحم ب الأمر والنهي 4 / 122 (4338) - الترمذي : ك الفتن ب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر 4 / 406 (2168) وقال : حديث صحيح .

مثل قوله تعالى بعد الحديث عن تكذيب مدين وعاد وثمود وغيرهم : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .. ﴾ (1) والأمة الإسلامية ليست بدعا في ذلك ، فإنه يسري عليها ما يسري على غيرها من سنن إلهية مطردة ، ومن ثم يحذر القرآن الكريم من الميل أو الركون إلى الظالمين ، لما فيهما من العواقب الوخيمة ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (2) .

والظلم المقصود - كما يقول الدكتور عبد الرحمن البر - : « هو انحدار الأفكار والمثل والقيم ، وأعظمه الظلم الحاصل من طبقة أولي الأمر ومن تابعهم من العمال لهم ، إذ يظن أولئك أن العقوبات الصارمة هي التي تحمي هيبة الدولة وتحفظ المجتمع ، وهذا إن صح وأدت العقوبات غرضها في إخافة الناس ، فإنها تؤدي كذلك غرضا آخر أكثر خطورة وأهمية ، وهو قتل الروح المعنوية ، وقبرالإيجابية المحركة لعامة الشعب .. بمعنى آخر ، فإنه لكي يؤمِّن الحاكم الظالم نفسه وبطانته ضد تحرك الناس ليتحرروا من ظلمه ، فإنه قتل فيهم النخوة والحمية .

والنتيجة الطبيعية لهذا الظلم الحاصل أن تقعد الكثرة المظلومة عن مقاومة أي عدو خارجي يقصد البلاد بسوء ، ذلك أنه لن يكون عدوا مشتركا للجميع ، بل عدوا للفئة الظالمة وحدها » (3) .

وتتمثل البداية الحقيقية لهذه المأساة في توسيد الأمور إلى غير أهلها ، وتولية المناصب الكبرى لمن لا يستحقها ، حينئذ يستبد بهولاء الغرور والزهو ، فيحسبون أن الحق هو ما وافق هواهم ، وأن الصواب هو ما تطابق مع رؤاهم ، ولا يلتفتون إلى الرأي الآخر ، وإن كان صادرا من أهل الكفاءة والأمانة ، وقد سئل المصطفى ﷺ : متى الساعة ؟ ! فقال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » ؟ قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » (4) .

أما الطامة الكبرى حقا ، فهي في هذا الصمت التام المشبع بالرضا من جانب الرعية

---

(1) سورة العنكبوت : الآية (40) . (2) سورة هود : الآية (113) .

(3) عوامل الهدم والبناء في المجتمع الإسلامي مرجع سابق ص 18 - 19 .

(4) البخاري : ك العلم 1 / 142 (59) ، ك الرقاق ب رفع الأمانة 11 / 333 (6496) .

إزاء هذا الظلم الصارخ ، إذ أن هذا نذير بالهلاك والدمار ، يقول المصطفى ﷺ : « إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له : أنت ظالم ، فقد تودع منهم »[1] وهذا حق لا ريب فيه إذا لا يمكن لظالم متجبر مستبد عنيد ، ومظلوم محروم أشرب قلبه الذل وسكن إلى الأوضاع الفاسدة ، أن يقيما أمة لها شأن ودولة لها كيان محترم .. ذلك حلم المغرورين وأمنية البطالين وما هو إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الضياع والانهيار .

(7) الخلافات السياسية والمذهبية :

الأصل في المسلمين أن يكونوا أمة واحدة ، تحت قيادة وراية واحدة ، هكذا يخاطبهم القرآن الكريم ، وبهذا تحدث عنهم المصطفى ﷺ ، ففي القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2] ويقول المصطفى ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »[3] .

وقد عاش المسلمون طويلا تحت راية الوحدة الإيمانية ، ينعمون بظلالها الوارفة ، وانساحوا في الأرض ينشرون دين الله ، فدانت لهم أقطار وشعوب شتى ، واتسعت أرجاء الدولة الإسلامية لتشمل مختلف الأمم والأجناس ، وانصهر الجميع في بوتقة الإيمان ، لا فرق بين حجازي أو شامي ، ولا بين مصري أو عراقي ، ولا بين أفريقي أو آسيوي ، ولا بين صاحب البشرة البيضاء أو صاحب البشرة السوداء ، بل الكل سواسية كأسنان المشط ، تجمعهم قبلة واحدة ، وكتاب واحد ودستور واحد .

وظل الحال هكذا ، إلى أن انفرطت حبات عقد دولة الخلافة في العصر العباسي الثاني ، بسبب الأطماع الدنيوية وشهوة السلطة لدى كثير من الولاة ، حيث لم يقنعوا بمجرد الولاية على قسم من أقسام الدولة ، بل أعلنوا استقلالهم عن الدولة المركزية ، ولم يبق للخليفة من سلطان سوى الدعاء له على المنبر في خطبة الجمعة .. يضاف إلى هذا السبب أيضا ما حدث من صراعات دامية بسبب العنصر أو الجنس ، مثل الذي حدث بين العرب والفرس ، ثم بين العرب والأتراك .. كل هذا أنهك الدولة الإسلامية وأضعف

---

(1) أحمد 2 / 190 ، 163 – البزار 4 / 105 (2302 - 2303 كشف الأستار) .. وقال الهيثمي في المجتمع 7 / 262: – رواه أحمد ، والبزار بإسنادين ، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح ، وكذا رجال أحمد .

(2) سورة الأنبياء : الآية (92) .

(3) سبق تخريجه .

قواها ، فانقسمت إلى دويلات صغيرة ، متنافسة لا متعاونة ، ومتعارضة لا متعاضدة ، فطمع فيها الأعداء ، ونجحوا في استغلال هذا التشرذم والضعف ، فاحتلوا بيت المقدس وأجزاء كبيرة من بلاد الشام ، في الحروب التي شنتها أوروبا على العالم الإسلامي ، والمعروفة بالحملات الصليبية ، إلى أن قيض الله للمسلمين القائد المجاهد العظيم صلاح الدين الأيوبي ، الذي وفقه الله في توحيد الكلمة وجمع الصف ، فاستطاع - بفضل الله - هزيمة الصليبيين واستعادة بيت المقدس .. ولم يكد المسلمون ينتهون من الكابوس الصليبي حتى جاءت جحافل التتار من الشرق لتقضي على الخلافة الإسلامية في بغداد ، ولتمزق أركان دولة الإسلام تمزيقا ، إلى أن هدى الله هؤلاء القوم إلى الإسلام وأصبحوا من جنوده المخلصين [1] .

ثم كان التدبير الإلهي الحكيم بظهور الدولة العثمانية ، التي أعادت للخلافة الإسلامية هيبتها وصولجانها ، وأصبح المسلمون - أو كادوا - أمة واحدة تحت راية الخلافة العثمانية ، واستطاعوا - بهذه الوحدة - الوقوف في وجه الأطماع الاستعمارية الصليبية ، سواء من الجانب الأوروبي أم من جانب روسيا القيصرية .. إلا أن دولة الخلافة ما لبثت أن دب إليها داء الأمم والحضارات ، فسرى الضعف في أوصالها سريان النار في الهشيم ، وانتهز أعداؤها هذه الفرصة السانحة ، فأجمعوا أمرهم وشركاءهم ، وأذكوا نيران العصبية القومية في نفوس الشعوب المختلفة المنضوية في إطار دولة الخلافة ، واستجاب لهم - للأسف الشديد - كثير من المتطلعين إلى الزعامة والملك الدنيوي ، فكان أن تفككت أوصال الدولة رويدا رويدا ، بعد أن تمكن الصليبيون من احتلال معظم أجزائها ، في إطار الهجمات الاستعمارية الصليبية من جانب القوى الأوروبية في الغرب ، وروسيا القيصرية ثم الشيوعية في الشرق ، إلى أن تمكن هؤلاء من التغلغل داخل تركيا نفسها ، فألغيت الخلافة الإسلامية ، وأعلنت الجمهورية وقيام ما سمي بتركيا الحديثة .

ومنذ هذا الحدث المشئوم والمسلمون يعيشون في إطار وحدات سياسية ذات حدود مصطنعة وحواجز مفتعلة ، ويغلب على كل دولة طابعها القومي العرقي دون التفات إلى الرباط الجامع بينهم ، والراية التي ينضوي الجميع تحت لوائها ، راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .. ومما يثير في النفس الأسى والحسرة ، أن الاستعمار اللعين قد نجح

---

(1) للتوسع والوقوف على التفاصيل .. يراجع : أسباب الضعف في الأمة الإسلامية (القسم الأول) د / محمد السيد الوكيل ص 131 - 248 .

أيما نجاح في إبقاء فتيل النزاعات والصراعات بين الدول الإسلامية قابلا للاشتعال في أية لحظة ، من خلال الصراعات الحدودية ، التي بلغت من الكثرة حدا لا يتصور ، فلا يكاد يوجد بلدان مسلمان متجاوران إلا وبينهما خلافات حدودية ، تنشب بسببها نزاعات بين الفينة والأخرى .

هذا عن الخلافات السياسية ، أما عن الخلافات المذهبية ، فالحديث عنها أكثر ألما وحسرة سواء فيما كان بين السنة والشيعة ، أم ما كان على المستوى الأدنى بين الاتجاهات الفكرية المتعددة من سلفية وصوفية ... إلخ .

لقد أسهم هذان الجانبان (السياسي – المذهبي) بدورهما في إضعاف الأمة المسلمة ، وضياع جهدها وثرواتها في خلافات سياسية وفكرية ، كان من الأجدى تسويتها في إطار الأخوة الإيمانية الرحبة ، التي يتسع نطاقها ليشمل الجميع .

(8) غياب الدور التربوي الإسلامي للبيت والمسجد والمدرسة :

يهتم الإسلام اهتماما بالغا بعنصر التربية الإسلامية ، لما له من عظيم الأثر في تكوين الأمة المسلمة القوية المتحضرة . ومن أجل هذا كانت عناية الإسلام بتكوين البيت المسلم الصالح الذي يمثل النواة الأولى للمجتمع المسلم الصالح ، فوجه الشاب المسلم المقبل على الزواج إلى اختيار الزوجة الصالحة ذات الدين والخلق ، كما لفت نظر أولياء الأمور إلى أن يتخيروا لبناتهم الزوج الصالح التقي ، يفعل الإسلام هذا كله ليكون هذا البيت القائم على الدين والخلق محضنا صالحا لذرية طيبة ، تربى على مبادئ الإسلام ، وتمتلئ أفئدتها بحبه .

كما ينظر الإسلام إلى المسجد ، ليس على أنه مجرد مكان للصلاة والعبادة ، بل على أنه خلية نحل تموج بالعمل الصادق ، للأخذ بزمام المجتمع إلى الخير والفلاح ، فمن المسجد كان النبي ﷺ يدير شئون الدولة الإسلامية ، فيعقد اللواء للمجاهدين ، ويستقبل الوفود ، ويستشير أصحابه فيما يعرض لهم من أمور ... إلخ .

أما الضلع الثالث في مثلث التربية فيتمثل في مؤسسات التعليم من المدارس والمعاهد والجامعات ، إذ يجب أن تكون هذه المؤسسات على قدر المسئولية في الواجب التربوي المنوط بها ، لتتدارك النقص الحاصل في جانب البيت – إن وجد – .

هذا ما يجب أن يكون ، أما ما هو كائن بالفعل فشيء عجاب :

* فالجانب التربوي هو آخر ما ينظر إليه بعين الاعتبار والاهتمام في البيوت المسلمة

اليوم – إلا من عصم الله – ، والحاصل أن الفكر السائد الآن بين غالبية الآباء والأمهات ، أن الحياة سباق محموم ، يفوز فيه من ينجح في الحصول على أكبر قدر من المال ليأتي لأولاده بأفخر أنواع الطعام والشراب والملبس والمسكن ... إلخ .. وفي حمأة هذا الصراع المحموم لا يجد الجانب التربوي له مكانا إلا في زوايا النسيان والإهمال .

ويترتب على غلبة الفكر المادي وإهمال التربية ، أن ينشأ الجيل الجديد خاوي الوفاض في الجوانب التربوية والروحية ، فيسلم قياده إلى شهوات جسده وغرائز نفسه ، ويتمادى في ذلك – تحت وطأة الصحة والفراغ والمال – حتى الثمالة ، ليصبح بعد ذلك صيدا سهلا وسمينا للتيارات الفكرية الهدامة .

* أما المسجد فقد أريد له أن يبقى مكانا تؤدى فيه الصلوات بصورة وظيفية روتينية ، لا روح فيها ولا تأثير لها ، ولا دور له في بحث وعلاج أمراض المجتمع ومشكلاته .

* وانحصر دور المؤسسات التعليمية التربوية في حشو العقول بكم هائل من المعلومات ، وفي تفريخ المزيد والمزيد من الموظفين ، والأدهى من ذلك أن يتم تغيير المناهج التعليمية في معظم البلدان الإسلامية ، ليحذف منها كل ما يربط الطالب بقيم ومبادئ دينه ، وكل ما يتصل بالتراث الحضاري العظيم والتاريخ الإسلامي المجيد ، لتبقى هذه المناهج في نهاية الأمر متلائمة مع التوجهات الغربية العلمانية .

لهذا كله يتبين أن غياب الدور التربوي في البيت والمسجد والمدرسة من أهم أسباب ضعف الأمة المسلمة .

(9) شيوع الترف وغياب معنى التكافل الاجتماعي :

يؤكد القرآن الكريم في كثير من آياته أن الترف أحد العوامل الأساسية في فساد الأمم وانهيار حضاراتها ، وفي ذلك – على سبيل المثال – يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا .. ﴾ [1] وغالبا ما تكون الفئة المترفة هي نفسها الفئة المسيطرة ، فالعلاقة بين الترف والسلطة قائمة إلى حد كبير .

وقد كان الترف من العوامل الأساسية لفساد الأمم ، نظرا لما له من آثار خطيرة على المجتمع :

* فهو يقف في وجه دعوة الحق والخير بكل قوة ، ذلك أن الفئة المترفة تخشى دائما

(1) سورة الإسراء : الآية (16) .

ضياع ما هي فيه من ترف مفسد ، ناتج عن أوضاع وممارسات خاطئة يحاربها الإسلام أيما محاربة ، ويتحدث القرآن الكريم عن ذلك في قول المولى جل وعلا : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (1) .

* كما أنه تنبثق عن الترف ممارسات مَرَضية متضخمة ، تسحق كل إحساس أخلاقي في النفوس وتنكر القيم الغيبية ، وتكفر بلقاء الآخرة ، ولا تقيس الأمور كلها إلا بمقياس الطعام والشراب ، وترى أن الخسارة في الالتزام بنداء يخرج الإنسان من دائرة العلاقات المنفعية المباشرة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (2) .

* كما يتسبب الترف في اختلال الموازين والمقاييس في الأمة ، فتكون منازل الأفراد وقيمتهم بقدر ما يملكون من أدوات الترف وما يحصّلون من أسبابه وألوانه ، ويسوق القرآن الكريم شواهد كثيرة لذلك ، منها ما قاله قوم صالح عليه السلام : ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾ (3) وكذلك استنكار بني إسرائيل أن يجعل الله طالوت ملكا عليهم وقولهم – فيما يحكي القرآن الكريم – ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ﴾ (4) ولم يكن كفار مكة بعيدين عن هذا الميدان ، حيث حكى القرآن الكريم عنهم ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ (5) .

* ومن شأن الترف كذلك أن يحدث انقساما هائلا في صفوف المجتمع ، بين طبقة مترفة : غايتها الدنيا لا الآخرة ، وتتعالى وتتباهى بالمادة والمال لا بالقيم والإيمان ، وطبقة أخرى من المحرومين : تنظر إلى الفئة الأولى نظرة منكسرة وحاسدة ، وتقتل نفسها حسرة على ما فاتها ، وتتطلع بشغف بالغ إلى تحصيل هذه الزينة وهذا الترف ، مهما كانت الوسائل .

وفي هذا الجو المتخم بتفاخر المترفين وحسد المحرومين ، تتبعثر القيم ، وتتبخثر المبادئ ، وتشيع الأنانية ويتوه من بين أقدام الأمة الطريق .. والمثال على ذلك واضح تماما في قصة

(1) سورة سبأ : الآيتان (34 ، 35) .
(2) سورة المؤمنون : الآيتان (33 ، 34) .
(3) سورة القمر : الآية (25) .
(4) سورة البقرة : جزء من الآية (247) .
(5) سورة الزخرف : الآية (31) .

قارون : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [1] .

وقد تحقق ذلك كله في الأمة المسلمة للأسف الشديد ، سواء كان ذلك على المستوى المحلي ، بين أفراد الشعب الواحد ، أم كان على المستوى الأعلى بين الشعوب .. إذ وجدت الطبقية وحدث الانقسام داخل المجتمع الواحد بين الطبقة المسرفة في ترفها ، فتملك القصور المنيفة والسيارات الفارهة والأموال الطائلة ، وتمسك بيدها أزمة القرارات والتوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وبين الطبقة المعدمة ، التي تكافح لمجرد الوصول إلى حد الكفاف والعيش الكريم ، وسط هذا اليم المتلاطم من الفساد والترف ، وأصبح هدف كل شاب وحلم حياته أن يصل إلى مستوى هذه الطبقة المترفة ، بأدنى جهد وأقل قدر ممكن من العمل والتضحية ، ودون اعتبار للجانب الأخلاقي في هذه الرحلة المضنية .

وعلى المستوى الأعلى بين الشعوب الإسلامية المختلفة يتكرر المشهد ولكن بصورة أوسع نطاقا وأكثر مأساوية ، بين شعوب تملك كل شيء وأخرى لا تملك أي شيء ، وقد غاب معنى التكافل الاجتماعي على المستويين ، وبات من المألوف جدا الحديث عن الترف اللامعقول والإسراف اللامحدود والإهدار اللامتناهي للثروات ، من جانب فئات وشعوب مسلمة ، بينما يتضور إخوانهم جوعا في أماكن أخرى ، ولا يكادون يجدون ما يسد رمقهم ويقيم أود حياتهم .

(10) فساد وسائل الإعلام ، ودورها في إشاعة الانحلال الخلقي :

يعد هذا العنصر من أهم أسباب ضعف الأمة الإسلامية ، إذ أن للإعلام دوره الخطير في المجتمع ، إيجابا أو سلبا ... ومما يثير في النفس الحسرة والألم أن وسائل الإعلام في الدول الإسلامية – مقروءة كانت أو مسموعة أو مرئية – قد سارت في ركاب الإعلام العالمي الذي تسيطر عليه الصهيونية والصليبية العالمية ، فجعلت أهم وأعظم أهدافها التفنن في إثارة الغرائز والشهوات ، بالبرامج التافهة ، والمسلسلات الخليعة ، والأفلام

---

(1) سورة القصص : الآيات (79 - 81) ويراجع : عوامل الهدم والبناء في المجتمع الإسلامي ص 27 - 29 .

الماجنة ، والصور العارية ... إلخ .. كل هذا بدعوى التطور ومسايرة العصر .

وبنظرة سريعة إلى أغلب الصحف والمجلات والمحطات الإذاعية والتلفازية ، يتبين أنها تجعل جل اهتمامها منصبا على أخبار « الفن والفنانين » أو « الرياضة » أو متابعة أحدث صيحات « الموضة العالمية » ... وكذلك تسليط الأضواء على أهل هذه المجالات ، وتقديمهم إلى المشاهد أو المستمع أو القارئ ، باعتبارهم النجوم اللامعة أصحاب القدوة الصالحة ... وفي المقابل تتوارى بقية المجالات وخاصة المجال الديني ، حيث لا تعطى له إلا مساحة ضئيلة لا تكاد تذكر ، وفي الوقت نفسه لا روح لها ولا تأثير ، حيث أريد لصفحات الفكر الديني في الصحف وللبرامج الدينية في الإذاعة والتلفاز ، أن تتناول موضوعات محددة ، لا صلة لها بالواقع الذي يعايشه المسلم ، مما يجعلها باهتة ضعيفة التأثير ، إن لم تكن معدومة التأثير أصلا .

نتيجة لهذا الوضع المقلوب ، بات المجتمع المسلم في معظم الدول الإسلامية يغص بالانحرافات الخلقية ، الناتجة - حتما - من هذا الطوفان الهائل والإعصار المدمر .

* * *

هذه أهم أسباب ضعف الأمة المسلمة على المستوى الجماعي ، وهي - بلا شك - نتيجة طبيعية للضعف على المستوى الفردي ، فما المجتمع إلا مجموعة من الأفراد ، يصلح بصلاحهم ويفسد أيضا بفسادهم .

وبانتهاء الحديث عن أسباب الضعف على المستوى الفردي والجماعي ، ينتهي القسم الأول من أسباب ضعف الأمة المسلمة ، وهو الذي كان خاصا بالأسباب الداخلية ، النابعة من داخل الأمة المسلمة ذاتها ، ومن ثم ننتقل الآن إلى الناحية الثانية ..

* * *

ثانيا : الأسباب الخارجية

تحدث القرآن الكريم في كثير من آياته عن الحقد والبغضاء والحسد الذي تمتلئ به صدور أعداء هذا الدين ، مما يدفعهم إلى مواصلة الليل بالنهار في الكيد له ، ومحاولة القضاء عليه ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ

﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] ... وفي بيان سبب هذا الحسد المتمكن من قلوبهم يقول جل شأنه : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [2] .

فهذه هي العقدة ، وبسببها يدبرون المؤامرة تلو الأخرى ، بغية الوصول إلى الهدف الذي تحدثت عنه الآية الأخرى في قول المولى جل وعلا : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [3] .

والكفر كله ملة واحدة ، وأعداء الإسلام – رغم الاختلاف السطحي بينهم – يعملون كجبهة واحدة ضد هذا الدين العظيم ، يستوي في ذلك : اليهود ، والنصارى ، والشيوعيون والوثنيون .... وغيرهم .. فهؤلاء جميعا ينطبق عليهم وصف « الكافرين » الذين حذرنا منهم رب العزة تباركت أسماؤه في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [4] .

وقد سلك هؤلاء في عداوتهم للإسلام خطين متوازيين : يتمثل الأول في المؤامرات الفكرية ، ويتمثل الثاني في المؤامرات السياسية والعسكرية .. والفكرة السائدة الآن في معظم الكتابات التي تناولت قضايا الصراع بين الإسلام من جانب وكل من اليهودية والنصرانية من جانب آخر ، تتلخص في أن الحروب الصليبية حينما فشلت في تحقيق أهدافها بالقوة العسكرية ، فكر الصليبيون في تحويل الحملات العسكرية إلى حملات سلمية ، بالبحث عن أسرار قوة المسلمين ، ومحاولة القضاء على الإسلام ، بالطعن والتشكيك فيه من ناحية ، وتمييعه في نفوس المسلمين ومحو تأثيره القوي في قلوبهم من ناحية أخرى .. من هنا وجد الاستشراق والتبشير والغزو الفكري .

وفيما أرى أن التلازم بين الجانبين (الفكري والعسكري) متحقق منذ ظهور الإسلام ومستمر – في الوقت نفسه – إلى يومنا هذا ، ولم تكن الحملات الفكرية مجرد رد فعل للفشل في الجانب العسكري خلال الحملات الصليبية ، بل كانت موجودة قبلها بزمن طويل ، غاية ما هنا لك أنها أخذت شكلا جديدا ومنظما .

---

(1) سورة البقرة : الآية (109) .
(2) سورة البقرة : الآية (120) .
(3) سورة النساء : الآية (89) .
(4) سورة آل عمران : الآية (149) .

وفي السطور التالية توكيد لهذا الرأي من خلال استعراض المؤامرات الخارجية التي حيكت ضد الأمة المسلمة ، بجانبيها (الفكري - العسكري) :

(أ) المؤامرة الفكرية :

(1) الطعن في الإسلام والتشكيك فيه :

فلقد حاول أعداء الإسلام التشكيك فيه منذ اللحظات الأولى لبزوغ فجره وانبثاق نوره ، وليس ببعيد عن الأذهان ما فعله مشركو قريش من اتهام المصطفى ﷺ - وحاشاه ثم حاشاه - بالسحر والجنون ... إلخ .

أما اليهود فقد كان لهم الدور الأكبر في هذا المجال ، فهذا حبرهم زيد بن اللصيت يتظاهر باعتناق الإسلام ، ليسهل له - في نظره - بث سمومه في المجتمع المسلم من داخله ، وذات يوم حاول هذا اللعين إلقاء الشك في قلوب المسلمين تجاه نبوة المصطفى ﷺ ، حينما ضاعت ناقة الرسول ﷺ ، فقال هذا اليهودي : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ، فقال ﷺ : « والله لا أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها » ، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك [1] .

كما أن فنحاص بن عازوراء ، وزيد بن قيس ، ونفرا من اليهود ، قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ، بعد وقعة أحد : ألم تروا ما أصابكم ؟ ! ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ، ونحن أهدى منكم سبيلا [2] .. فأنزل الله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] .

والمواقف في هذا المضمار كثيرة ، ولكنها لم تفت في عضد المجتمع المسلم ، ولم تفلح في تحقيق أهدافها الخبيثة ، لأن المجتمع وقتها كان قوي الإيمان ثابت البنيان ..

ثم توالت الأيام والسنون ، إلى أن ظهرت الدراسات الاستشراقية ، كأسلوب جديد ومنظم للحملة القديمة الهادفة إلى الطعن في الإسلام والتشكيك في مبادئه ، مستترة هذه

---

(1) ابن هشام 2 / 523 ، ابن كثير (السيرة) 2/ 349 .
(2) يراجع تفسير الرازي 3 / 236 .
(3) سورة البقرة الآية (109) .

المرة خلف شعارات البحث العلمي المجرد والدراسات الأكاديمية الهادفة ، وقد ركب اليهود هذه الموجة وأصبحوا عنصرا أساسيا في إطار الحركة الاستشراقية الأوروبية النصرانية ، ودخلوا الميدان بوصفهم الأوروبي لا بوصفم اليهودي ، وقد استطاع « جولد تسهير » وهو يهودي مجري ، أن يصبح زعيم علماء الإسلاميات في أوروبا بلا منازع ، ولا تزال كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كل فئات المستشرقين [1] .

وسأذكر هنا مثالا واحدًا لآراء هذا اليهودي ، إذ يقول : « إن محمدا نفسه لم يأت بهذا الدين ، لا من عند الله ولا من عند نفسه . لقد نقل أغلب أصوله وفروعه من الرومان والفرس والهنود ، واستطاع أن يمزج هذه النقول المجلوبة بنفسه ومشاعره ، وأن يقتنع بأنه صاحب رسالة لإصلاح العرب الوثنيين ، ثم مضى في طريقه حتى بلغ ما بلغ » [2] .

ويفصح « جون تاكلي » عن أسلوب المستشرقين وأهدافهم ، حين يقول : « يجب أن نستخدم كتابهم (أي القرآن) – وهو أمضى سلاح في الإسلام – ضد الإسلام نفسه ، لنقضي عليه تماما . يجب أن نري هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدا ، وأن الجديد فيه ليس صحيحا » [3] .

وفي الإطار ذاته تسير الحركة التنصيرية (التبشيرية) ، إذ يقول « صموئيل زويمر » رئيس جمعيات التبشير ، في مؤتمر القدس للمبشرين سنة 1935 : « إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية (يقصد الإسلامية) ، ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريما (هكذا يدعى) ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ، ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، وبذلك تكونون أنتم طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام ، وهذا ما أهنئكم عليه ، وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعا من أجله كل التهنئة ... [4] .

وقد قام الشيوعيون أيضا بدورهم في هذا المضمار خير قيام ، حينما شنوا حربا فكرية شعواء ضد الدين والمتدينين ، وزعموا أن الدين مخدر للشعوب ، وبذلوا جهودا جبارة

(1) ينظر : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري د / محمود حمدي زقزوق ص 60 سلسة كتاب « الأمة » رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر .

(2) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين . محمد الغزالي . مرجع سابق ص 20 .

(3) التبشير والاستعمار في البلاد العربية . مرجع سابق ص 40 .

(4) جذور البلاء . عبد الله التل . مرجع سابق ص 275 - 276 .

لنشر الإلحاد وترويج الشيوعية [1] .

أما عن آثار هذه الحملات في المجتمعات الإسلامية ، فإنها قد أحدثت زلزالا هائلا ، تمثل في تغير نظرة الكثيرين من المسلمين للإسلام ، وحصرهم له في أضيق نطاق ممكن ، وقطع أي صلة له بالحياة وشئونها وقضاياها .

(2) بث الفرقة والشحناء وإثارة النعرات القومية والعنصرية :

هذه أيضا من المؤامرات القديمة التي اتخذت فيما بعد شكلا جديدا .. فقد فعلها اليهود ، حينما مر أحد أحبارهم وهو شاس بن قيس على نفر من أصحاب النبي ﷺ ، من الأوس والخزرج ، فغاظه ما رأى من المودة والألفة والمحبة بينهم في ظل الإسلام ، بعد العداء الطويل الذي كان بينهم في الجاهلية ، فامتلأ قلبه غيظا وحقدا ، فأمر فتى شابا من اليهود وقال له : أعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله (وهو يوم حدثت فيه معركة كبرى بين الجانبين) ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ... ونجح اليهودي اللعين في إيغار صدور القوم ، وإيقاد نيران الفتنة في صفوفهم ، حتى كادت الحرب تشتعل بينهم من جديد ، لولا تدخل النبي ﷺ في اللحظة المناسبة [2] .

وفعلها النصارى أيضا ، ففي قصة كعب بن مالك رضي الله عنه ، وتخلفه عن غزوة تبوك ، والمحنة الشديدة التي مر بها بعد أن أمر النبي الكريم ﷺ جميع أصحابه بمقاطعة كعب ومن معه من المتخلفين عن الغزوة مقاطعة تامة ، حتى لقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم .. في هذه المحنة القاسية يلعب الكيد الصليبي دوره بمهارة فائقة ، فقد بادر ملك غسان النصراني بإرسال رسول خاص ، حمَّله رسالة إلى كعب يقول فيها : أما بعد ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك [3] .

إن هذه الرسالة تنطوي – كما يقول د / عبد الله سليمان المشوخي – على عدة دلالات هامة :

(أ) عِلْم ملك غسان بما يدور داخل المجتمع الإسلامي واهتمامه بذلك ، بهدف

---

(1) يراجع : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د / محمد البهي .

(2) سبق تخريج هذه القصة في الفصل الأول من الباب الخامس .

(3) جزء من حديث كعب بن مالك الطويل .. أخرجه البخاري : ك المغازي ب حديث كعب بن مالك 7 / 717 (4418) . مسلم : ك التوبة ب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه 4 / 2120 - 2128 (53 - 2769) .

استغلال أي ثغرة تحدث بداخله .

(ب) استمالة كعب بن مالك ، وكسب وده من قبل ملك غسان .

(جـ) إيجاد فجوة بين كعب رضي الله عنه ، وبين رسول الله ﷺ ، وذلك باتهام الرسول عليه الصلاة والسلام بمجافاة كعب .

(د) الإيماء إلى كعب بضياع حقوقه ، وهوانه في مجتمعه ، بهدف غرس الحقد والكراهية في قلب كعب ضد أفراد مجتمعه ، وقطع علاقته بهم .

(هـ) وَعْد كعب بن مالك رضي الله عنه بالآمال العريضة إذا رغب اللحاق به [1] .

وقد واصل اليهود والنصارى مسيرتهم في هذا الميدان ، وانضم الشيوعيون فيما بعد إلى ركابهم ، فنشروا أسباب الفرقة والشحناء داخل المجتمعات المسلمة :

* فكانت البداية متمثلة في ترويج الإشاعات والأخبار الكاذبة عن تعرض الأقليات غير المسلمة للاضطهاد والتعذيب ، ودَفْع هذه الطوائف إلى الثورة وإثارة الفتن والاضطرابات ، بغية إتاحة الفرصة للدول الصليبية ، للتدخل المباشر ، بحجة حماية الطوائف المضطهدة .

* ثم كانت الخطوة الثانية في تقديم القومية العربية كبديل للوحدة الإسلامية ، بزعم أن الدين لا يصلح كأساس لوحدة العرب ، لوجود أقليات غير مسلمة داخل كثير من الدول العربية ، بخلاف العروبة التي هي الراية التي ينضوي الجميع تحت لوائها .

وقد استجاب نفر من المسلمين لهذه الفكرة القومية إلى الحد الذي يجعل أحد رواد القومية العربية ويدعى (علي ناصر الدين) يقول : « القومية بالنسبة إلينا – نحن القوميين العرب – دينٌ له جنته وناره ، ولكن في الدنيا » .. ويجعل (عمر فاخوري) نهضة العرب متوقفة على الإيمان العميق بالقومية العربية ، فيقول : « لا ينهض العرب حتى تصبح القومية العربية أو المبدأ العربي دينا يغارون عليه ، كما يغار المسلمون على القرآن الكريم ، والمسيحيون على الإنجيل الرحيم » .. أما (عبد الحميد الزهراوي) فتبلغ به الجرأة والوقاحة حدا يجعله يعتبر الرابطة الإيمانية لا تصلح أساسا للوحدة السياسية فيقول فيما سمى (المؤتمر العربي الأول) الذي عقد في باريس عام 1913 : « إن الرابطة

(1) مجتمعنا المعاصر .. أسباب ضعفه ووسائل علاجه د / عبد الله سليمان المشوخي ص 282 ، 283 .

الدينية قد عجزت دائما عن إيجاد الوحدة السياسية » [1] .

* أما الخطوة الثالثة فتمثلت في إحياء العنصرية والشعوبية القديمة ، كبعث الفرعونية في مصر والفنيقية في بلاد الشام ، والآشورية في العراق ، والفارسية في إيران ، والطورانية في تركيا ، والبربرية في بلاد المغرب العربي ... إلخ .. كل هذا بهدف المزيد من التفتيت والتجزئة للعالم الإسلامي وتغليب النزعة الإقليمية المحلية ، على نزعة الجامعة أو الرابطة الإسلامية الواحدة .

* وبعد نجاحهم في تثبيت مبدأ الإقليمية ، كانت الخطوة الأخيرة – وليست الآخرة – بإثارة الفتن والقلاقل الطائفية والعنصرية داخل الوطن أو الإقليم الواحد ، مثلما حدث ويحدث في : لبنان وجنوب السودان ، والجزائر ، والعراق ، وأفغانستان ... إلخ .

(3) إسقاط الخلافة الإسلامية :

كان أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والشيوعيين ، ينظرون إلى الخلافة الإسلامية باعتبارها رمزا لوحدة الأمة المسلمة ، وراية يمكن الالتفاف حولها في أي وقت ، رغم أنها لم تكن سوى خلافة اسمية ، بعد الضربات المتلاحقة والموجعة من جانب هؤلاء الأعداء ، والتي أدت إلى تفتيت أراضي الخلافة العثمانية ، ووقع أغلبها في براثن الاحتلال الصليبي اليهودي من جهة ، والاحتلال الشيوعي من جهة أخرى .

ومع هذا ، واصل الأعداء جهودهم الحثيثة ، وجهزوا خططهم الخبيثة ، للقضاء على الرمق الأخير في حياة الخلافة الإسلامية .. وعن طريق المحافل الماسونية والجمعيات السرية

استطاعوا الوصول إلى المراكز الكبرى والمناصب العليا في دولة الخلافة ، ومن هناك تمكنوا من إدارة دفة الأمور بما يتواءم ومطامعهم ومؤامراتهم .. يقول السلطان عبد الحميد آخر الخلفاء العثمانيين في مذكراته : « كان جدي السلطان سليم خان يصيح قائلا : « إن أيدي الأجانب تسير متنزهة فوق كبدي .. » وكنت أحس أنا أيضا بأيدي هؤلاء الأجانب ، ليست فوق كبدي وإنما في داخله . إنهم يشترون صدوري العظام (أي رؤساء الحكومات) ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي .. » [2] .

وقد كان السلطان عبد الحميد – رحمه اللّه – محقا في ذلك تماما . فلقد كان

(1) يراجع : العالم الإسلامي والمكائد الدولية .. فتحي يكن . مرجع سابق ص 56 - 57 .

(2) مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة : محمد حرب عبد الحميد ص 75 .

مدحت باشا واحدا من هؤلاء الذين استطاعت الماسونية تجنيدهم لحسابها ، فمن خلال منصبه كصدر أعظم (أي رئيس للوزراء) كان يثير الفتن والقلاقل ، ويعمل على إحياء القومية التركية القديمة (الطورانية) ، وإثارة الأحقاد بين الأتراك وسائر الشعوب الأخري المنضوية تحت لواء دولة الخلافة ، وخاصة العرب .. كما سار على دربه مصطفى كمال أتاتورك أحد يهود الدونمة ، الذين أظهروا الإسلام خداعا ونفاقا ، لتسهيل مهمتم في الإجهاز على الخلافة الإسلامية .. وبالفعل ، قام أتاتورك بمهمته خير قيام حين أصدر القوانين المرقمة بـ 429 ، 430 ، 431 وهي تقضي بإلغاء الخلافة ، وطرد الخليفة وأسرته خارج البلاد ، وإلغاء وزارة الأوقاف ، وإلغاء جميع المدارس الدينية ، وإعلان علمانية الدولة التركية .

يقول السلطان عبد الحميد : « لابد للتاريخ يوما أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم .. استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريبا من الماسون ، وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي ، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل .. ولابد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات ، وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية ؟ ! »[1] .

وهكذا تكاتفت قوى الشر الثلاثة (اليهودية - الصليبية - الشيوعية) وأفلحت في إسقاط الخلافة الإسلامية ... هذا السقوط الذي كان له أسوأ الآثار وأوخم العواقب على أمة الإسلام ، حيث أصبحت دولا كثيرة متشعبة ، بعد أن كانت دولة واحدة ، تحت قيادة خليفة واحد ، كما اقْتُطعت الدرة الثمينة الغالية (فلسطين) وقُدِّمت لقمة سائغة لليهود الملاعين ، وأصبح المسلمون في أنحاء العالم كالأيتام على موائد اللئام ، لا وزن لهم ولا تأثير ، ويراق الدم المسلم جهارا نهارا دون حسيب أو رقيب ...

(ب) المؤامرات السياسية والعسكرية :

اتخذ هذا الجانب صورا متعددة ، منذ ظهور الإسلام وحتى وقتنا هذا ، فلقد كانت محاولات مشركي العرب البداية الأولى والصورة البدائية لهذه المؤامرات ، من محاولتهم قتل النبي ﷺ ليلة الهجرة المباركة ، إلى حروبهم الكثيرة مع الفئة المسلمة الصابرة في بدر وأحد والأحزاب .. وغيرها .

أما اليهود والنصارى فلهم في هذا المضمار باع طويل وقدم راسخة ، فاليهود حاولوا

---

(1) مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة : محمد حرب عبد الحميد ص 49 .

مرارا وتكرارا اغتيال النبي ﷺ ، ولكن الله عز وجل عصم نبيه ﷺ منهم ، بالإضافة إلى نقضهم العهد في أحلك الظروف وأقصى الأزمات أثناء غزوة الخندق ... ومواقفهم في هذا المجال كثيرة .. أما النصارى فلم يكونوا أقل من إخوانهم اليهود حقدا على الإسلام والمسلمين وقد تمثلت بداية مؤامراتهم العسكرية في جريمة الحارث بن أبي شمر الغساني ، حينما قتل الحارث بن عمير الأزدي - رضي الله عنه - رسول رسول الله ﷺ ، مما كان سببا في غزوة مؤتة .. ثم استمرت المؤامرات في عهد النبي ﷺ ، إلى أن كانت الفتوحات الإسلامية العظيمة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وفي العهدين الأموي والعباسي ، فانتشر نور الإسلام في أغلب بقاع الأرض وتقهقرت النصرانية وفقدت الكثير من أراضيها .. ولكن الصليبيين لم يغمض لهم جفن أمام هذه الهزائم المتتالية ، فظلوا يتحينون الفرص للانقضاض على المسلمين ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك طوال فترة قوة الدولة الإسلامية ووحدتها ، إلى أن بدأ الضعف والتفكك يعملان عملهما في الدولة الإسلامية ، فانتهز الصليبيون الفرصة ، وتوجهوا بكل قواهم ناحية الشرق الإسلامي في محاولة لاستعادة ما فقدوه إبانَ المد الإسلامي الكاسح :

(1) الحملات الصليبية القديمة :

يقول الدكتور / محمد السيد الوكيل : « يعتبر - في نظرنا - السبب الحقيقي للحروب الصليبية ، هو حقد الصليبيين على الإسلام وأهله ، فقد انتزع من أيديهم أرضا كانت تحت سلطتهم ، وحرر منهم عبيدا كانوا تحت وطأتهم ، واستلب منهم ملكا كان في قبضتهم ، فغلت مراجل الحقد في صدورهم ، وتأججت نار العداوة في قلوبهم ، وأخذوا يتحينون الفرص ليستردوا ما فقدوا ، وينتقموا لأنفسهم ممن نكبوهم ومزقوا ملكهم » [1] .

وقد استمرت هذه الحملات قرابة قرنين من الزمان (490 : 669 هـ - 1096 : 1270 م) ونجح الصليبيون في البداية في احتلال بعض بلاد الشام وتكوين إمارات صليبية بها ، إلى أن تمكن صلاح الدين الأيوبي من القضاء عليها وطردهم منها .. وتابع خلفاؤه المسيرة من بعده ، فأنزلوا بالصليبيين هزائم ساحقة ، كان لها الأثر الأكبر في انحسار هذه الموجة الأولى من الحملات الصليبية [2] .

---

(1) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية . مرجع سابق ص 139 .

(2) للوقوف على تفاصيل الحملات الصليبية .. يراجع المجلد السابع من الكامل لابن الأثير ، والمجلد الثاني عشر من البداية والنهاية .. كما يراجع : الحركة الصليبية د / سعيد عبد الفتاح عاشور .

ومما لا شك فيه أن هذه الحملات – رغم فشلها – قد تسببت في استنزاف خيرات الأمة المسلمة ومواردها ، حتى أصبح المسلمون في حاجة ماسة إلى فترة طويلة من الزمن ، ليعيدوا تنظيم صفوفهم ، وليستردوا قوتهم التي أنهكت خلال هذه الملحمة الطويلة من الكفاح والجهاد المتواصل .

(2) الاجتياح التتري للعالم الإسلامي :

لم يكد المسلمون يفيقون من هول الحملات الصليبية حتى نكبوا بالاجتياح التتري الهائل ، الذي كان كارثة مروعة ، لم يواجه المسلمون في تاريخهم مثلها على الإطلاق ، ففي سنة واحدة هي سنة 616 هـ – 1219 م ، سقطت معظم بلاد الإسلام بأيديهم ، فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرا ، لا يُحصى عددهم إلا خالقهم سبحانه وتعالى ، كما نهب التتار كل ما وقع تحت أيديهم من ثروات ، وخربوا البلاد وأحرقوها ، ودمروا الكثير منها تدميرا [1] .

ومن الأمور المهمة هنا أنه في الوقت الذي بدأ فيه التتار حملتهم على المسلمين ، عاود الصليبيون هجومهم على بلاد الإسلام ، حيث قاموا بحملة على مصر ، ونجحوا في احتلال دمياط مما يؤكد تعاون الفريقين الكافرَيْن في مؤامراتهما الدنيئة ضد الإسلام والمسلمين .. ويؤيد ذلك أن الخليفة العباسي حينما طلب من الملك الأشرف ملك الجزيرة أن يتولى قيادة الجيش الذي جهزه لصد التتار ، اعتذر الأشرف إلى الخليفة ، لأنه كان متوجها إلى مصر لمساعدة أخيه الملك الكامل في التصدي للحملة الصليبية على دمياط .. فهذا دليل على أن الصليبيين لم يقوموا بحملتهم في هذا التوقيت اعتباطا أو مجرد مصادفة ، بل كان الفريقان متعاونين ، بهدف منع سلطان مصر من تقديم المعونة للخليفة في بغداد ، لمواجهة الزحف المغولي الكاسح [2] .

ومن أدلة تواطؤ الفريقين أيضا ، أن حاكم دمشق التتري (إبل سيان) قد اجتمع بالقساوسة والأساقفة ، وزار الكنائس ، وأعطى للنصارى الفرصة أن تكون لهم دولة وصولة ، فعاثوا في الأرض فسادا ، وأخذوا يطوفون بالشوارع والأزقة وهم يسبون الإسلام والمسلمين ، ويرشون الخمر على الناس وعلى أبواب المساجد ، ويصيحون قائلين : ظهر الدين الصحيح دين المسيح ، كما رفعوا الصليب وأجبروا المسلمين على

(1) للوقوف على التفاصيل أيضا .. يراجع المجلد الثاني عشر من الكامل والثالث عشر من البداية والنهاية .

(2) ينظر : أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ص 202 - 203 .

القيام له وتعظيمه .. ولما جأر المسلمون بالشكوى إلى الحاكم التتري طردهم وأهانهم [1] .

يضاف إلى ذلك أيضا أن الجيش الذي أرسله ملك التتار بعد هولاكو (ابنه أبغا) إلى مدينة البيرة (إحدى المدن الشامية) ، كان يضم بين صفوفه خمسة عشر ألفا من الروم الصليبيين [2] .

ومن هنا يتبين بوضوح مدى تكاتف أعداء الإسلام وتآزرهم ضد هذا الدين العظيم .. ولكن الله عز وجل من ورائهم محيط ، فلقد اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن تحدث المعجزة الكبرى باعتناق التتار للإسلام ، وأصبحوا منذ ذلك الحين من جنوده المخلصين .

(3) الحملات الصليبية الجديدة (الغزو الاستعماري) :

واصل الصليبيون حملاتهم على الشرق الإسلامي على يد أسبانيا والبرتغال ، ولكن هذه الحملات اتخذت شكلا جديدا وأسلوبا مستحدثا على يد فرنسا وانجلترا منذ نهايات القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث إنهم قد استفادوا من دروس الحملات الصليبية القديمة ، وعلموا أنها قد منيت بالفشل الذريع بسبب روح الإيمان والجهاد والوحدة التي كانت تدب في أوصال البدن الإسلامي بمجرد استشعار الخطر الصليبي المحدق ، فعمل هؤلاء على إخماد جذوة الإيمان والجهاد المتقدة في قلوب المسلمين .

وكانت وسيلتهم الأولى لتحقيق هذا الغرض متمثلة في إخفاء الدافع الصليبي وراء هذه الحملات ، بل ولجأوا إلى الخداع والتضليل ، كما فعل (نابليون بونابرت) الذي قاد الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 م ، حينما أصدر بيانا وجهه إلى المصريين في أعقاب احتلاله الإسكندرية قال فيه : « أيها المصريون .. قد قيل لكم : إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين : إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإنني أكثر من المماليك ، أعبد الله – سبحانه وتعالى – وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا لهم أيضا ، إن الجميع متساوون عند الله ، وإن الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم » [3] .

ورغم ذلك الخداع والتضليل ، واجهت الجيوش الصليبية الغازية مقاومة عنيفة وثورات متواصلة ، إلا أن الفارق الكبير في القوة العسكرية كان لصالحهم ، الأمر الذي أدى إلى وقوع معظم البلدان الإسلامية في براثن الاستعمار الصليبي : البريطاني ،

---

(1) ينظر : المرجع السابق ص 222 - 223 .　　(2) ينظر : المرجع السابق نفسه ص 229 .

(3) يراجع : تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) 3 / 605 .

والفرنسي ، والهولندي ، والأسباني ، والبرتغالي ، والروسي الصليبي ثم الشيوعي .

ومن خلال سيطرتهم على مقاليد الأمور في البلدان الإسلامية ، أخذ الصليبيون يعملون جاهدين على محو الهوية الحضارية الإسلامية في نفوس المسلمين ، عن طريق فرض القيم والممارسات الغربية العلمانية في مختلف جوانب الحياة الإسلامية : في السياسة ونظام الحكم ، وفي التعليم ، والاقتصاد ، والقوانين المدنية والجنائية ، والأعراف الاجتماعية .. إلخ .. مما كان له أسوأ الآثار على المجتمعات الإسلامية .. وترتب عليه كثير من النتائج الأليمة ، من أهمها :

(أ) تقويض صرح الأمة الإسلامية وتقسيمها إلى دويلات متناحرة :

حيث نجح أعداء الإسلام في القضاء على الرمز الذي يجمع المسلمين تحت راية واحدة ، ألا وهو الخلافة الإسلامية ، وترتب على ذلك تقسيم الأمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة ، ليس ذلك وفقط ، بل تعمد الاستعمار إبقاء فتيل النزاع بين هذه الدويلات قابلا للاشتعال في أية لحظة من خلال الصراعات الحدودية بين معظم الأقطار الإسلامية .

(ب) زرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة الإسلامية :

تكاتف الصليبيون والشيوعيون لتحقيق الحلم الصهيوني القديم بتكوين دولة لهم في فلسطين :

* ففي الجانب الصليبي كانت انجلترا هي الدولة العظمى التي احتضنت المشروع الصهيوني وتبنته رسميا ، ففي اليوم الثاني من نوفمبر سنة 1917 م أرسل وزير الخارجية البريطانية اللورد (آرثر جيمس بلفور) رسالة إلى البارون (روتشيلد) زعيم الجالية اليهودية في بريطانيا ، جاء فيها : « عزيزي اللورد روتشيلد ، يسرني جدا أن أبعث إليكم باسم حكومة جلالة الملك بالتصريح التالي ، وهو يتضمن العطف على الأماني الصهيونية ، وقد رفع إلى هيئة الوزارة ووافقت عليه : إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وسوف تبذل أقصى جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية [1] .

وفي زيارة قام بها (ونستون تشرشل) إلى فلسطين سنة 1921 م – وكان يشغل وقتها منصب وزير الحرب والطيران – قابله وفد من المسلمين ، وطلبوا منه استخدام نفوذه لوقف سيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، فأجاب قائلا : « أنتم تطلبون مني أن

(1) ينظر : القضية الفلسطينية . أكرم زعيتر ص 45 .

أتخلى عن وعد بلفور ، وأن أوقف الهجرة اليهودية ، وهذا ليس في طاقتي ، كما أنني لا أرغب فيه .. نحن نعتقد أنه (أي وعد بلفور) لخير العالم واليهود والإمبراطورية البريطانية والعرب أنفسهم أيضا .. ونحن ننوي أن نحقق هذا الوعد .. » . ثم يفصح تشرشل عن مكنونات نفسه بعد لقائه مع (برنارد باروخ) إذ قال : « أنا صهيوني ، وقد عملت من أجل تقدم الصهيونية » [1] .

* أما على الجانب الشيوعي ، فلقد كان الاتحاد السوفييتي (سابقا) أول دولة في العالم تعترف بالكيان اليهودي الغاصب ، بعد إعلان قيام دولته على أرض فلسطين السليبة في 15 مايو سنة 1948 م .. ومما يؤكد التحالف الشيوعي الصهيوني ، ذلك الخطاب الذي ألقاه المندوب السوفيتي في مجلس الأمن (أندريه جروميكو) الذي أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ، إذ عندما قدم لمجلس الأمن مشروع لقرار يدعو الدول الأعضاء إلى منع مواطنيها اليهود من الهجرة إلى فلسطين قال (جروميكو) في 29 / 5 / 1948 م : « من حق الدولة اليهودية الجديدة أن تفعل ما تشاء في مسألة الهجرة إليها .. إن الدولة اليهودية حقيقة قانونية نعترف بها ، وليس لمجلس الأمن أن يفرض عليها أموزا ليست من اختصاص الأمم المتحدة أصلا ، بل هي في صميم الحق الداخلي للدولة المستقلة .. وحتى لو اتخذ مجلس الأمن مثل هذا القرار – بمنع الهجرة إلى فلسطين – فسيظل حبرا على ورق وكلاما أجوف » [2] .

يضاف إلى ذلك الدعم المعنوي : ما قامت به الكتلة الشيوعية من دعم مادي هائل ، تمثل في تدريب الآلاف من الشبان اليهود عسكريا ، وإرسالهم إلى فلسطين لمساعدة إخوانهم الصهاينة في قتل وتشريد الشعب الفلسطيني المسلم .. وقد بلغ عدد هؤلاء – طبقا للمصادر الصهيونية ذاتها – 20 ألف شخص ، قدموا من تشيكوسلوفاكيا ، وبولندا ، ورومانيا ، وبلغاريا .. بالإضافة إلى كميات هائلة من الأسلحة المتقدمة [3] .

وبهذا يتبين مدى تواطؤ أجنحة المكر الثلاثة (اليهود – النصارى – الشيوعيون) لاقتطاع فلسطين من بدن الأمة الإسلامية وزرع الكيان اليهودي في قلب العالم الإسلامي .

(جـ) فرض العلمانية والأفكار المادية في الدول الإسلامية :

بذل الاستعمار الخبيث جهودا مضنية لفرض توجهاته المادية وأفكاره العلمانية

---

(1) ينظر : أحجار على رقعة الشطرنج . مرجع سابق ص 223 .
(2) التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية . نهاد الغادري ص 128 . (3) المرجع نفسه ص 90 .

الإلحادية على المجتمعات الإسلامية :

* ففي الناحية السياسية : نجح الاستعمار في تمكين الفكرة القائمة على فصل الدين عن الدولة وإبعاد الدين عن السياسة .

* وفي الناحية الاقتصادية : أصبح التعامل الربوي هو الأساس ، بحجة أن الأمة الإسلامية جزء من الاقتصاد العالمي ، تتأثر به ولا تؤثر فيه ، وبزعم أن الإسلام مجرد مجموعة من المبادئ المثالية الروحانية ، ولا علاقة له بالحياة وشئونها .

* وفي الناحية الاجتماعية : أفلح الاستعمار في نشر السفور والاختلاط دون حدود أو قيود .. وتحت ستار زائف من شعارات الحرية والمساواة نجحوا في السيطرة على المرأة المسلمة سيطرة تامة ، لتحقيق هدفهم النهائي بتقويض أركان الأسرة المسلمة .

* وفي المجال التعليمي : تمكن الاستعمار من السيطرة على المناهج التعليمية ، فجعلوها تتوافق مع التوجه العلماني الإلحادي ، لتنقطع الصلة تماما بين الجيل المسلم الجديد وتراث أمته الإسلامية الزاخر وتاريخها المجيد .

* وفي المجال الإعلامي : تمكن الاستعمار الخبيث من امتلاك ناصية وسائل الإعلام المختلفة ، وتسخيرها لخدمة الأهداف الاستعمارية ، من خلال التركيز على النعرة القومية ، والتفنن في إثارة الغرائز ، وإشاعة الانحلال الخلقي في المجتمعات المسلمة .

هذه أهم آثار الحملات الاستعمارية الجديدة - صليبية أو شيوعية - على المجتمعات الإسلامية .. والحق أن الحملات الاستعمارية لم ولن تنتهي ، ولكنها في النصف الثاني من القرن العشرين لم تأخذ شكل الحملات الجماعية أو المتوالية ، وإنما كانت على شكل فردي مباشر من جانب إحدى القوى الكبرى الاستعمارية حينا - كما حدث في الحملة السوفيتية على أفغانستان - أو على شكل غير مباشر من خلال إحداث الفتن والقلاقل وتأجيج نيران النزاعات بين الدول الإسلامية ، كما حدث بين العراق وإيران ، وبين العراق والكويت ، وبين ليبيا وتشاد ، وبين السنغال وموريتانيا ... إلخ ..

بانتهاء الحديث عن المؤامرات السياسية والعسكرية ، ينتهي الحديث عن القسم الثاني من أسباب ضعف الأمة الإسلامية ، وهو الخاص بالأسباب الخارجية .. وبهذا ينتهي الفصل الأول الخاص بأسباب ضعف الأمة الإسلامية ، وأنتقل الآن لأتناول السبل الكفيلة بالنهوض بهذه الأمة العظيمة .

الفصل الثاني

سبيل النهوض بالأمة الإسلامية

بعد الوقوف على أسباب ضعف الأمة الإسلامية ، وتحديد وتشخيص عللها وأمراضها لابد من إتباع ذلك بالحديث عن العلاج لهذه العلل ، وسبيل التغلب على أسباب الضعف ، لاستنهاض الهمم وإثارة الحماسة الإيمانية ، حتى تعود الأمة إلى موطنها الصحيح في طليعة المسيرة الحضارية الإنسانية ، وموقع القيادة فيها .

وما من شك في أن تحقيق ذلك الهدف إنما يتوقف في المقام الأول والأخير على التأسي بما فعله المصطفى ﷺ ، حينما بعثه الله تبارك وتعالى هاديا ومبشرا ونذيرا .

فإن الزمان قد استدار إلى ما يشبه هيئته يوم بعث النبي ﷺ ، فقيادة النظام الدولي والمسيرة الحضارية بيد حضارة مادية جاهلية ، بعيدة كل البعد عن قيم الوحي الإلهي ، تماما كما كان الحال عند بعثته الشريفة صلوات الله وسلامه عليه .. فكان أن بدأ ﷺ طريقه الطويل بتكوين الفرد المسلم الصالح ، وتربيته على مبادئ العقيدة الإسلامية الحقة وصقله بالعبادات الإسلامية والخلق الإسلامي الحسن .. هذا الفرد المسلم الصالح كان بمثابة النواة أو البذرة الطيبة التي أنبتت فيما بعد المجتمع الإسلامي بل الحضارة الإسلامية الزاهرة ، ذلك أن الفرد الصالح - المربى على العقيدة - لابد أن يكون أسرة مسلمة صالحة ، قد ربى جميع أفرادها كذلك على العقيدة الحقة ... ومن خلال الأسرة الصالحة يتكون المجتمع المسلم الصالح ، الذي سينتج عنه حتما تكوين الدولة المسلمة الصالحة ، وصولا في النهاية إلى الأمة الإسلامية الكبرى ، التي تمثلت حقيقة واقعة في فترة تاريخية مجيدة ، والمأمول الآن أن تعود سيرتها الأولى بإذن الله .

لذا سأبدأ بالحديث عن بناء الفرد ثم الأسرة ثم المجتمع ..

المبحث الأول : بناء الفرد المسلم

يقوم بناء الفرد المسلم في الأساس على العقيدة ، فإذا ما تمكن الإيمان من القلب وملك أقطار النفس ، فإن المسلم حينئذ يستحيل إنسانا آخر غير جميع الناس ، والمتأمل في اللحظات الأولى من تاريخ الإسلام المجيد ، يدرك هذه الحقيقة تمام الإدراك ، فبالعقيدة الإسلامية أصبح رعاة الغنم قادةً للأمم ، وبالإيمان الحق صار عباد الحجر هداة للبشر .. فقد صاغ الإسلام نفوسهم من جديد ، وبث فيهم روحا جديدة ، جعلتهم ينساحون في الأرض ينشرون نور الله ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا تقف أمامهم قوة مهما عظمت ، ولا يضرهم كيد أعداء الله شيئا .

من هنا ، فالمسلمون بحاجة إلى إعادة بعث هذه الروح الإيمانية من جديد ، ليتم بناء الفرد المسلم صاحب العقيدة الحقة :

(1) فهو الإنسان الذي يوقن أن الله عز وجل يراقبه ، ويعلم سره وعلانيته ، ويتمثل نصب عينيه دائما قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1] .. فحينما يفعل المسلم ذلك ، لن يحيد عن طريق الحق ، ولن ينحرف عن سبيل الرشاد ، وليس أدل على ذلك من حديث النبي ﷺ عن السبعة الذين يظلهم الله تبارك وتعالى يوم لا ظل إلا ظله ، فلقد كان من بينهم « ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ... » [2] .. وكذلك قصة الفتاة التي سمع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أمها تأمرها بخلط اللبن بالماء ، وحينما اعترضت البنت بأن أمير المؤمنين نهى الناس عن ذلك ، أجابت الأم : إن أمير المؤمنين لا يرانا ... فقالت الفتاة المؤمنة المراقبة لربها : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن رب أمير المؤمنين يرانا .. [3] فعنصر المراقبة لله كان عاصما من الانحراف ، وحائلا منيعا دون الوقوع في معصية لا يتوقف ضررها عند حدود الفرد ، بل يتعداه إلى المجتمع ككل .

---

(1) سورة المجادلة : الآية (7) .

(2) متفق عليه .. سبق تخريجه في الفصل الثاني من الباب الرابع .

(3) مسند عمر بن الخطاب للسهروري 1 / 122 .

(2) وهو الإنسان المتصل بالله صاحب القدرة المطلقة والعلم اللانهائي .. ومن ثم يورثه الإيمان بالله عزة النفس وشجاعة القلب ، لا يرهبه جبروت ، ولا يخيفه بطش .. فهذا ربعى بن عامر يقف أمام قائد الفرس بكل الثبات والشجاعة قائلا : « لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .. » [1] .. بل ولماذا الذهاب بعيدا وهذا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في مؤتة ، يجد في الجيش المسلم القليل العدد (ثلاثة آلاف) تهيبا من لقاء الجيش الرومي العرمرم (مائتي ألف أو يزيدون) ، فيخاطبهم رضي الله عنه بمنطق الفرد المسلم الصالح صاحب العقيدة الحقة قائلا : « يا قوم .. والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة .. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور أو شهادة » [2] .

(3) وهو أيضا الإنسان المستقبل لقضاء الله وقدره ، بكل الرضا والاطمئنان ، فلا جزع على ما فات ولا خوف مما هو آت ، وأمامه دائما قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. ﴾ [3] وقول المصطفى ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » [4] .

(4) وهو أيضا الإنسان الموقن بأن الرزق بيد الله تعالى وحده ، وأن مسألة الفقر والغنى ليست إلا تدبيرا إلهيا حكيما ، لينتظم الكون وتسيير قافلة الحياة ، قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [5] .

وعلى هذا فصاحب العقيدة يمضي في الحياة واثق الخطو ، مجتهدا في الأخذ بأسباب

(1) البداية والنهاية 3 / 112 .
(2) فقه السيرة (البوطي) ص 272 .
(3) سورة الحديد : جزء من الآية (23) .
(4) مسلم : ك الزهد والرقائق ب المؤمن من أمره كله خير 4 / 2295 (64 - 2999) .
(5) سورة الزخرف : الآيات (32 - 35) .

الله المبثوثة في الكون ، ومفوضا الأمر – في الوقت ذاته – إلى رب الكون ومسبب الأسباب – فإذا فاته حظه من الدنيا فهو مذخور له عند الله في الآخرة ، وما عند الله خير وأبقى . قال تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [1] .

(5) وهو الإنسان الموقن كذلك بأن الأجل بيد الله تعالى وحده ، قد كتبه وقدره لكل إنسان قبل أن يوجد على ظهر الأرض ، لا يزيد بالإحجام ، ولا ينقص بالإقدام ، لذا فصاحب العقيدة لا يتوانى إذا طلب منه افتداء دينه بنفسه وحياته ، ولا يجبن حين يجهر بالحق ، بل هو في الحقيقة أشد حرصا على الموت من الناس على الحياة .. قال جل شأنه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] .

(6) وصاحب العقيدة أيضا هو الذي يأتيه التوجيه الإلهي – أمرا أو نهيا – فيبادر إلى التنفيذ الفوري والاستجابة التلقائية ، كما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [3] .. ولا يشوب هذه الاستجابة شائبة من تردد أو تلعثم أو ضيق صدر ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [4] . ويقول جل وعلا : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [5] .

(7) وهو أيضا الإنسان الذي يجعل غايته العظمى وهدفه الأسمى نصرة دين الله وإعلاء رايته ، متحملا في سبيل ذلك كافة المشاق والصعاب ، موقنا بأن هذا الطريق ليس مفروشا بالورود ، بل إنه مليء بالأشواك ، وأنه لا يثبت على الدرب إلا قوي الإيمان راسخ اليقين ، قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [6] ويقول سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [7] .. وهو

(1) سورة الشورى : الآية (36) .
(2) سورة التوبة : الآيات (20 - 22) .
(3) سورة النور : الآية (51) .
(4) سورة الأحزاب : الآية (36) .
(5) سورة النساء : الآية (65) .
(6) سورة العنكبوت : الآية (2) .
(7) سورة محمد : الآية (31) .

يعلم أن هذا الابتلاء سنة من سنن الله في جميع الدعوات ، قال تعالى : - ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (1) . وقال عز من قائل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (2) .

(8) ومع طول الابتلاء ووعورة الطريق ، يظل قلب صاحب العقيدة عامرا بالثقة الكاملة في نصر الله وتأييده ، بمقتضى وعده الذي لا يتخلف أبدا ، فقد قال تباركت أسماؤه : ﴿ ... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (3) . وقال عز سلطانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (4) .. ولا يمكن أن يتسرب اليأس والقنوط إلى قلب صاحب العقيدة الحقة ، لأن اليأس قرين الكفر ، والقنوط قرين الضلال ، كما قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (5) وكما قال حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (6) .

هذه مواصفات صاحب العقيدة الإسلامية الحقة ، تأتي العبادات الإسلامية لترسخ هذه المبادئ في نفسه وتثبتها في قلبه ، فيصبح إنسانا صالحا متحليا بكل فضيلة متخليا عن كل رذيلة (7) ، وعندئذ يكون نواة طيبة لأسرة صالحة قوية .

* * *

---

(1) سورة العنكبوت : الآية (3) .
(2) سورة البقرة : الآية (214) .
(3) سورة الروم : جزء من الآية (47) .
(4) سورة النور : الآية (55) .
(5) سورة يوسف : جزء من الآية (87) .
(6) سورة الحجر : الآية (56) .
(7) للوقوف على أثر العبادات والأخلاق في نفس الإنسان المسلم ، يراجع : المبحث الثالث في الفصل الثاني من الباب الرابع ، عند الحديث عن الإنسانية في العبادات والأخلاق الإسلامية .

المبحث الثاني

بناء الأسرة المسلمة

يهتم الإسلام بالأسرة اهتماما بالغا ، إذ أنها اللبنة الأولى في بناء المجتمع المسلم الصالح ، ومن ثم فقد تدخل الإسلام منذ اللحظات الأولى للتفكير في تكوين الأسرة ، وتواصل اهتمامه بها ليتوافر للبيت المسلم الاستقرار التام والسعادة الكاملة ، وحينئذ يكون بحق محضنا صالحا لتكوين جيل مسلم ، يعلي راية الإسلام ، وينشر نور الله في الآفاق .

أولا : حسن اختيار الزوج والزوجة :

لاشك أن الفرد المسلم الصالح - ذكرا كان أو أنثى - حينما يفكر في تكوين أسرة وإنشاء بيت لاشك أن هذا الفرد صاحب العقيدة سيبحث في شريكه أو شريكته عن الدين والخلق أولا وقبل كل شيء ، ذلك أن صاحب العقيدة ينظر إلى الزواج ليس على أنه مجرد قضاء وطر أو إشباع شهوة ، بل على أنه فطرة إنسانية وضرورة اجتماعية لها قداستها ومنزلتها السامية ، إلى الدرجة التي تجعل الزواج يأتي في سياق آيات قرآنية كريمة تعدد دلائل القدرة الإلهية ، بل إن الزواج يأتي في المرتبة الثانية مباشرة بعد دلالته الخلق المعجز من تراب ، وهذا واضح كل الوضوح في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ... ﴾ [1] .. كما يتضح ذلك أيضا في موضع آخر ، حين يأتي الحديث عن الزواج في سياق سرد الآيات الكونية الدالة على وجود الحق تبارك وتعالى ووحدانيته وقدرته ، ويكفي أن يتأمل المرء قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [2] وموقع هذه الآية الكريمة بين سابقاتها ولاحقاتها .

من هنا يحرص صاحب العقيدة الإسلامية الحقة على التدقيق التام في مسألة انتقاء الزوج أو الزوجة ، امتثالا للتوجيهات القرآنية والنبوية في هذا الشأن :

* ففي جانب اختيار الزوجة الصالحة ، بين النبي ﷺ أن الناس متفاوتون في نظرتهم

(1) تراجع الآيات (17 - 27) من سورة الروم . (2) سورة النحل الآية (72) .

إلى المواصفات المطلوب توافرها في الزوجة ، فمنهم من تكون نظرته إلى المال فقط ، ومنهم من يتجه صوب الحسب المجرد ، ومنهم من يشترط توافر الجمال الشكلي ، وفئة رابعة هي الرابحة الفائزة ، لأنها تبحث عن الأصل الجامع لكل خير وهو الدين ، والذي إذا وجده الإنسان فقد وجد كل شيء وفاز فوزا عظيما ، وفي ذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » [1] .

وليس معنى ذلك أن الإسلام لا يأبه باعتبارات المال والحسب والجمال ولا يقيم لها وزنا ، فلا شك أنها مرغوبة ومحبوبة ، وتساهم في تحقيق الهدف الأسمى من الزواج ، المتمثل في تكوين بيت مؤمن مستقر سعيد ، ولكن الإسلام يحذر من النظر إلى المال وحده دون التفات إلى الدين والخلق ، أو إلى مجرد الحسب دون مراعاة للالتزام الحق بالإسلام ، أو إلى الجمال فقط دونما اهتمام بجانب التقوى .. ذلك أن الجمال المجرد عن الدين والخلق قد يكون سببا في الهلاك ، وأن المال المجرد عن الدين والخلق قد يدفع إلى الطغيان ، فيكون الزوج سائرا في طريق التعاسة والشقاء وهو يظن أنه في درب السعادة والهناء ، وهذا ما يشير إليه قول الحبيب المصطفى ﷺ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل » [2] .

أما من تمسك بالمال أو الحسب أو الجاه ... كل ذلك بعيدا عن الدين والخلق ، فإنه يعامل بنقيض قصده ، فيأتيه الفقر من حيث كان يطلب الغنى ، ويأتيه الذل من حيث كان يأمل العز والجاه ، وفي ذلك يقول النبي ﷺ : « من تزوج امرأة لعزها ، لم يزده الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ، أو يحصن فرجه ، أو يصل رحمه ، بارك الله له فيها وبارك لها فيه » [3] .

---

(1) البخاري : ك النكاح ب الأكفاء في الدين 9 / 35 (5090) - مسلم : ك الرضاع ب : استحباب نكاح ذات الدين 2 / 1086 (53 - 1466) .

(2) ابن ماجة : ك النكاح ب تزويج ذات الدين 1 / 596 (1859) - البيهقي 7 / 80 .. وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي ، وهو ضعيف ، إلا أن المعنى صحيح ، والحديث السابق يشهد له ويقويه .

(3) الطبراني في الأوسط عن الحسن رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 4 / 254 رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب ، وهو ضعيف .

* وفي الجانب المقابل ، يوجه الإسلام نظر ولي الفتاة المسلمة ، ويشده إلى انتقاء الزوج الصالح التقي صاحب الدين والخلق ، قال تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1]. ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » [2] .

وبهذا الاختيار القائم على الدين والخلق - من جانب الزوج والزوجة - يستقيم عود البيت وتثبت قوائمه ، ويصبح على أتم الاستعداد لمواجهة أعتى الأعاصير وأشد الزوابع .

ثانيا : ضمانات البيت المسلم السعيد :

تكفلت توجيهات الإسلام بوضع الأسس المتينة لتحقيق السعادة والاستقرار للبيت المسلم ، ولضمان أن تصل الحياة الزوجية إلى شاطئ الأمان وبر النجاة :

* فقد أمر الإسلام الأزواج بحسن معاملة زوجاتهم ، وفي ذلك يقول الحق تباركت أسماؤه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [3] ويقول الحبيب المصطفى ﷺ في وصيته الجامعة في حجة الوداع : « ... فاتقوا الله عز وجل في النساء ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإن لهن عليكم ولكم عليهن حقا ، أن لا يوطئن فرشكم أحدا غيركم ، ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه ، فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل ... » [4] بل إنه صلى ﷺ يجعل حسن معاملة الرجل أهله من شرائط كمال الإيمان ومن أمارات مروءة الرجل وخيريته ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيمانا : أحسنهم خلقا ،

---

(1) سورة النور : الآية (32) .

(2) أخرجه ابن ماجه في النكاح باب الأكفاء 1 / 633 (1967) وفي الزوائد : قد أخرجه الترمذي ورجح إرساله ، ثم أخرجه من حديث أبي حاتم المزني وقال فيه : إنه حسن ، والترمذي في النكاح باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه 3 / 394 - 395 (1084 - 1085) الأول مرسلا ، الثاني قال عنه : حسن غريب .

(3) سورة النساء الآية (19) .

(4) أحمد 5 / 73 - ابن ماجه في المناسك باب حجة رسول الله ﷺ 2 / 1022 - 1027 (3074) مطولا .

وألطفهم بأهله » [1] . ويقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » [2] .

وبالفعل كان النبي ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى في حسن المعاشرة وملاطفة الأهل [3] .

* وعلى الجانب الآخر ، أمر النبي ﷺ الزوجات بحسن معاملة أزواجهن ، وجاءت الأحاديث في هذا المضمار بما يوحي بعظم حق الزوج على زوجته ، إلى الدرجة التي يجعل فيها المصطفى ﷺ طاعة الزوج وحسن معاشرته تعدل الجهاد في سبيل الله ، فقد اجتمع النسوة ذات مرة ، وأرسلن إحداهن لتسأل النبي ﷺ قائلة : يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك : هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أثيبوا ، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فما لنا من ذلك الأجر؟ ! فقال : « أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك . وقليل منكن من يفعله » [4] .

وأكثر من ذلك أن النبي ﷺ جعل أداء المرأة حق ربها متوقفا على أداء حق الزوج ، وفي ذلك يقول صلوات الله عليه وسلامه : « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ، ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه [5] .

ثم إنه ﷺ يجعل رضا الزوج سببا في دخول زوجته الجنة ، حيث يقول في حديثه الشريف : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » [6] .

وبمراعاة كل من الزوج والزوجة لهذه التوجيهات الحكيمة يتحقق للبيت المسلم الاطمئنان والسعادة والاستقرار ، فيصبح مهيئا وصالحا لتربية جيل مؤمن قوي صالح .

---

(1) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ما جاء في استكمال الإيمان 5 / 10 (2612) وقال : حسن صحيح ولا نعرف لأبي قلابة سماعا من عائشة ، وأحمد في المسند 6 / 47 ، 99 .

(2) ابن ماجه في النكاح باب حسن معاشرة النساء 1 / 636 (1977 ، 1978) عن ابن عباس وابن عمرو ، والثاني صحيح الإسناد .

(3) للوقوف على تفاصيل ذلك ، يراجع ، كواكب حول الرسول ، عبد الحليم خفاجي ص 15 وما بعدها .

(4) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 4 / 305 وعزاه للبزار من حديث ابن عباس . وقال فيه رشدين بن كريب وهو ضعيف . وانظر الترغيب والترهيب 3 / 53 والدر المنثور 2 / 152 .

(5 ، 6) أخرجهما ابن ماجه في النكاح باب حق الزوج على المرأة 1 / 595 (1853 ، 1851) والأول صحيح الإسناد .

ثالثا : تربية الأولاد تربية إسلامية صحيحة :

يحرص الإسلام أشد الحرص على حسن تربية الأولاد وتنشئتهم نشأة إسلامية صحيحة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (1) .. والنبي ﷺ يجعل كلا من الرجل والمرأة مسئولا عن أمانة بيته أمام الله رب العالمين يوم القيامة ، وفي ذلك يقول : « .. والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها » (2) ..

وتبدأ مسئولية الرجل تجاه أولاده منذ اللحظة الأولى التي يتجه فيها تفكيره إلى إنشاء بيت وتكوين أسرة ، إذ أن عليه أن يحسن انتقاء واختيار من ستكون فيما بعد أما لأولاده ، فقد جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو إليه عقوق ابنه وسوء معاملته له ، ولكن الولد حينما مثل بين يدي أمير المؤمنين سأله : أليس للولد حقوق على أبيه ؟ ! فقال عمر ، بلى ، أن ينتقي أمه ، وأن يحسن اسمه ، وأن يعلمه القرآن الكريم .. فقال الولد : إن أبي لم يفعل شيئا من ذلك ، أما أمي فهي زنجية كانت لمجوسي ، وقد سماني جعلا (أي خنفساء) ولم يعلمني من كتاب الله حرفا واحدا ... (3) .

ثم بعد أن يأتي المولود إلى هذه الدنيا ، يأمر المصطفى ﷺ أن تكون كلمة التوحيد أول ما يقرع سمع الوليد ، فقد قال : « افتحوا على صبيانكم أول كلمة بـ (لا إله إلا الله) (4). كما أن من سنته ﷺ التأذين في أذن المولود اليمنى والإقامة في اليسرى ، بالإضافة إلى مظاهر البشر والسرور المتمثلة في العقيقة ، وحلق رأسه يوم السابع والتصدق بوزن الشعر فضة ، واختيار اسم جميل له ... وغير ذلك مما جاء في الأحاديث الشريفة (5) .

أما عن جانب التربية والتأديب فقد أولاه المصطفى ﷺ عناية خاصة ، حيث أوجب على الأب والأم تعليم الأولاد وحسن تأديبهم ، وذلك في قوله : « أكرموا أولادكم

(1) سورة التحريم : الآية (6) .

(2) البخاري في الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن 2 / 441 (893) .

(3) الحقوق الإسلامية . طه عبد الله العفيفي ص 263 ، 264 .

(4) أخرجه الحاكم عن ابن عباس .

(5) تراجع كافة الأحكام المتعلقة بالمولود في : تحفة المودود بأحكام المولود . للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزيه (5715 هـ) بتحقيق / كمال علي الجمل .

وأحسنوا أدبهم ... »[1] بل يجعل ﷺ اهتمام الرجل بتأديب ولده أفضل من بعض الطاعات فيقول في حديثه الشريف : « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع »[2] .. ثم إنه ﷺ يعتبر هذا التأديب خير عطية يعطيها الرجل لولده ، فيقول : « ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن »[3] .

فيجب على كل من الأب والأم أن يبثا في نفوس أولادهما عقيدة الإسلام ومبادئه السمحة منذ نعومة أظفارهم ، فقد قال النبي ﷺ : « أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب آل بيته ، وتلاوة القرآن ، فإن حملة القرآن في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه[4] . « كما أن عليهما أيضا أن يأمرا الأولاد بامتثال ما أمر به الله ، والابتعاد عما نهى عنه ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ، ومروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، فذلك وقاية لهم ولكم من النار » .

ومن المهم جدا في هذا المضمار أن يحرص الأبوان على تعويد الصغار على أداء العبادات ومتابعة ذلك جيدا ، واللجوء إلى العقاب عند حدوث تقصير أو تفريط ، يقول الرسول ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »[5] .

وقد كان السلف الصالح – رضوان الله عليهم – يحرصون على ربط أولادهم بحب دين الله ، وعلى غرس معاني التضحية والفداء في نفوسهم ، من خلال تعليمهم سيرة النبي ﷺ بما فيها من مشاهد جليلة ومواقف عظيمة ، لها أثرها القوي في تنشئة الطفل ، يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : كنا نعلم أولادنا مغازي رسول الله ﷺ كما نعلمهم السورة من القرآن الكريم .

---

(1) أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم ، أخرجه ابن ماجه في الأدب باب بر الوالد والإحسان إلى البنات 2 / 1211 (3671) وفي إسناده الحارث بن النعمان ، وثقه ابن حبان ولينه أبو حاتم ، كما جاء في الزوائد .

(2) أخرجه الترمذي في البر والصلة باب ما جاء في أدب الولد 4 / 297 (1951) . وضعفه .

(3) أخرجه الترمذي في المصدر السابق برقم (1952) وقال : حديث مرسل . وأحمد : 3 / 412 ، 4 / 77 ، 78 .

(4) ذكره السيوطي في الجامع الصغير 1 / 25 (311) وعزاه لأبي نصر عبد الكريم الشيراوني في فوائده ، والديلمي في مسند الفردوس ، وابن الجار جميعا عن علي وضعفه .

(5) أخرجه أبو داود في الصلاة باب متى يؤمر الغلام بالصلاة 1 / 130 (494 - 495) من حديث سبرة ، وعبد الله بن عمرو . والحاكم 1 / 258 وصححه . وصححه السيوطي في الجامع 1 / 339 (5476) .

كما كانوا رضي الله عنهم يحرصون كذلك على حضور أولادهم مجالس العلم والخير ، لينهلوا من معينها الذي لا ينضب ، فهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، كان يحضر مجلس رسول الله ﷺ مع أصحابه الكرام رضي الله عنهم ، وهو غلام حديث السن ، فيلتزم بالأدب والوقار ، ولا يتقدم على الكبار برأي ، ويشجعه أبوه على إبداء رأيه ما دام ملتزما بحدود الأدب والفضيلة .. أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سأل أصحابه ذات يوم : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، حدثوني ما هي ؟ ! » قال عبد الله : فوقع الناس في شجر البوادي ، ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت (أي استحيا أن يجيب عن السؤال في وجود الكبار) فقالوا : يا رسول الله ، أخبرنا بها . فقال رسول الله ﷺ : « هي النخلة » قال عبد الله : فحدثت أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا [1] .

وبهذا يشب الأطفال على الشجاعة والجرأة في الحق ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ويثبتون في مواطن الثبات ، ويقومون ببطولات نادرة يعجز عنها الكثير من الرجال ، كما حدث من معاذ ومعوذ ابني عفراء في غزوة بدر الكبرى ، وقتلهما عدو الله أبا جهل ، وهما دون الحلم .. [2] والأمثلة في هذا المضمار أكثر من أن تحصر .

بمثل هذا الجيل الفذ النادر تنهض أمة الإسلام من جديد ، وتستعيد مكانتها الريادية على المستوى العالمي .

* * *

---

(1) البخاري : ك العلم ب طرح الإمام المسألة عن أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم 1 / 178 (62) . مسلم : ك صفات المنافقين وأحكامهم 4 / 2164 - 2165 (63 ، 64 - 2811) .

(2) البخاري : ك المغازة باب قتل أبي جهل 7 / 342 (3961 - 3964) .

المبحث الثالث

بناء المجتمع المسلم

لا يقوم بنيان المجتمع المسلم المنشود إلا على أساس متين من الأفراد الصالحين أصحاب العقيدة الحقة ، وكذلك من الأسر المسلمة الصالحة ، التي علم كل عضو فيها الدور المنوط به فقام به خير قيام ، وأداه على أكمل وجه وأتمه .

حين يحدث ذلك يوجد المجتمع المسلم من تلقاء نفسه ، دونما حاجة إلى حركة انقلابية ثورية ، ودونما إراقة قطرة دم واحدة ، ذلك أن العنصر الطيب بطبيعته يدفع العناصر الخبيثة بعيدا إلى زوايا الإهمال والنسيان وانعدام التأثير ، قال تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (1) . ويقول جل شأنه : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (2) .

مواصفات المجتمع الإسلامي المنشود

ذكرت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ما يمكن أن يطلق عليه مواصفات المجتمع المسلم ، في كافة مجالات الحياة :

(أ) في المجال السياسي :

يتميز المجتمع المسلم في المجال السياسي بما يلي :

1 - **الانقياد لحكم الله وشرعه** : إذ أن ما شرعه الله عز وجل لعباده هو المنهج الأمثل والطريق الأقوم ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ... ﴾ (3) وما عدا الشرع الإلهي الحكيم فهو « الهوى » الذي حذر القرآن من اتباعه في كثير من الآيات ، كقوله سبحانه : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (4) . وقوله جل شأنه : ﴿ ثُمَّ

---

(1) سورة الأنفال : الآية (37) .
(2) سورة الأنبياء : الآية (18) .
(3) سورة المائدة : جزء من الآية (3) .
(4) سورة المائدة : الآيتان (49 - 50) .

جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

(2) **العدل** : لأن الله تبارك وتعالى قد أمر به في كافة المجالات والأوقات ، وذلك في قوله عز من قائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] . فلا ينبغي أن يغيب العدل بسبب القرابة أو المنزلة الدنيوية ، لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [3] .. وقد طبق المصطفى ﷺ هذا المبدأ بكل الصرامة والوضوح ، حينما كلمه أسامة بن زيد رضي الله عنهما في شأن المرأة المخزومية السارقة ، فلقد غضب النبي ﷺ غضبا شديدا ، وعنف أسامة قائلا : « أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ ! ثم قام في الناس خطيبا فقال : ... إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » [4] .

كما أنه لا ينبغي أن يضيع العدل بسبب كراهية قوم وبغضهم ، فقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [5] .

(3) **الشورى** : وهي من أهم الدعائم التي يقوم عليها النظام السياسي في المجتمع المسلم ، بل الحق أنها صبغة الحياة الإسلامية في جميع المجالات ، وليس أدل على ذلك من تعبير القرآن الكريم في السورة التي سميت بهذا المبدأ العظيم ، إذ جاء الحديث عن الشورى في سياق تعداد صفات المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ

---

(1) سورة الجاثية : الآيتان : (18 - 19) . (2) سورة النحل : الآية (90) .

(3) سورة النساء : الآية (135) .

(4) البخاري في فضائل الصحابة ، ذكر أسامة بن زيد 7 / 110 (3733) . ومسلم في الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره 3 / 1315 (8 - 1688) .

(5) سورة المائدة : الآية (8) .

﴿ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ .. ﴾ [1] .. فالتعبير القرآني « يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة ، وهو نص مكي ، كان قبل قيام الدولة الإسلامية ، فهذا الطابع – إذن – أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين ، إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم بعد » [2] . ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في موضع آخر ، قد لا يتصور أحد من الناس أن يكون للحديث فيه عن الشورى مجال ، ذلكم هو موضوع فطام الطفل الرضيع ، إذ يرشد الإسلام إلى أهمية أن يتقرر فطام الرضيع بعد التشاور والتراضي من جانب الزوجين . وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [3] .

ومن هنا يتبين أن الشورى منهج الحياة السائد في المجتمع المسلم من قاعدته إلى قمته ، أي من الشئون المنزلية الصغيرة إلى نظام الحكم وشئون القيادة ، فالله تعالى قد أمر حبيبه ﷺ بمشاورة أصحابه فقال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [4] .. ومن الملاحظ أن هذه الآية قد نزلت في أعقاب هزيمة المسلمين في غزوة أحد ، التي كان خروج النبي ﷺ إليها على غير رغبته ، أخذا برأي الأغلبية التي آثرت الخروج للقاء المشركين خارج المدينة ، وهنا « قد يتبادر إلى ذهن بعض المسلمين أنهم لو كانوا أطاعوا الرسول ﷺ في رأيه ولم يأخذوا برأي الأغلبية لما كانت النتيجة هكذا ، وإذن ؛ فلا شورى ولا استشارة ، بل عدم الشورى أولى وأوفق ، فجاءت الآية لتؤكد للأمة أن الشورى أساس الحكم ، وأن الأمة إن خسرت معركة نتيجة الشورى فذلك خير من أن تخسر الأمة شخصيتها ويتحكم فرد بعد رسول الله ﷺ في مقدراتها ودمائها وأموالها وأعراضها » [5] .

---

(1) سورة الشورى : الآيات (36 - 39) .
(2) ينظر : في ظلال القرآن 5 / 3165 .
(3) سورة البقرة : الآية (233) .
(4) سورة آل عمران : الآية (159) .
(5) ينظر : عوامل الهدم والبناء ص 148 آخذا من : النظام السياسي في الإسلام د / محمد عبد القادر أبو فارسي . ص 85 .

4- **الحرية .. المساواة** : وقد مضى الحديث عنهما .. [1] .

* * *

(ب) في المجال الاقتصادي :

يمتاز المجتمع الإسلامي في هذا المجال بما يلي :

1- **العمل المتواصل ومحاربة البطالة** : فالقرآن الكريم والسنة المطهرة يحثان على العمل ويشجعان على الإنتاج ، في الوقت الذي يحاربان فيه البطالة والمسألة ، فلقد قال الله عز وجل : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2] . وقال الرسول ﷺ : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده .. » . وحينما جاءه أحد الناس يسأله الصدقة أعطاه درسا عمليا في العمل والإنتاج والابتعاد عن ذل المسألة [3] .

2- **قيام المعاملات المالية والتجارية على الصدق والأمانة** : لقول النبي ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » [4] وقوله عليه الصلاة والسلام : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما (فعسى أن يحققا ربحا ما) مُحِقَتْ بركة بيعهما » [5] .

3- **تحريم الربا بجميع أشكاله** : لما يترتب عليه من أوخم العواقب ، ليس على الاقتصاد فحسب ، بل على جميع مجالات الحياة في المجتمع ، ولذلك يقول الحق وتبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ

(1) يراجع ص 530 - 539 . (2) سورة التوبة : الآية (105) .

(3) يراجع نص الحديث ص 525 - 526 .

(4) الترمذي في البيوع باب ما جاء في التجار ... 3 / 515 (1209) وقال : حديث حسن .

والحاكم في المستدرك 2 / 6 عن ابن عمرو وأبي سعيد . وصححه السيوطي في الجامع الصغير 1 / 203 (3391 ، 3392) .

(5) البخاري في البيوع باب إذا بين البيعان ولم يكتما 4 / 362 (2079) .

ومسلم في البيوع باب الصدق في البيع والبيان 3 / 1164 (47) .

أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (1) . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه (2) .

4 - **الابتعاد عن الغش والتدليس** : لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (3) ، ولما روي عن النبي ﷺ أنه أدخل يده في صبرة طعام فوجده مبتلا ، فنادى صاحب الطعام وقال له : « هلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » (4) .

5 - **الابتعاد عن الاحتكار** : لما له من أسوأ الآثار على المجتمع ، يقول النبي ﷺ : « لا يحتكر إلا خاطئ » (5) .

6 - **تذويب الفوارق بين طبقات المجتمع** : وذلك بتحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع من خلال وسائل عدة من أهمها :

* **الزكاة الواجبة** : وهي تشمل : الثروة الزراعية - الحيوانية - المعدنية (الركاز) - التجارية وغيرها .. وهي تمثل ركنا من أركان الإسلام ، وتسهم بنصيب أساسي في تحقيق التكافل الاجتماعي ، يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (6) .

* **الكفارات الواجبة** : إذ أوجب الإسلام على من يقع في بعض الذنوب كفارة مالية ، يستفيد منها الفقراء والمساكين في المجتمع ، ففي كفارة اليمين - على سبيل المثال - يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ

---

(1) سورة البقرة : الآيات (275 - 279) .
(2) ابن ماجه في التجارات باب التغليظ في الربا 2 / 764 (2277) .
(3) سورة الأنفال : الآية (27) .
(4) أخرجه مسلم في الإيمان باب قول النبي ﷺ : من غشنا فليس منا 1 / 99 (102) .
(5) أخرجه مسلم في المساقاة باب تحريم الاحتكار في الأقوات 3 / 1227 (129 - 130) (1605) .
(6) سورة المعارج : الآيتان (24 - 25) .

كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) .

* **الصدقات التطوعية** : فقد ندب الإسلام أتباعه إلى الإنفاق في وجوه الخير ، وبين القرآن الكريم عظيم ثواب هذا الإنفاق في كثير من آياته البينات ، يقول تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) . ويقول سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (3) ..

بل إن القرآن الكريم يجعل هذا الإنفاق حقا للفقراء والمساكين ، فيقول تعالى في صفات المتقين : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (4) . وبالتالي فلا يمتن الغني بإنفاقه ، ولا يجرح مشاعر الفقراء ، لأن هذا يحبط ثواب عمله ، ويجعله هباء منثورا ، فيقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (263) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (5) .

7 - **تشجيع الاستثمار وتحريم الاكتناز وحبس رأس المال** : إذ يحرص الإسلام حرصا بالغا على أن يأخذ رأس المال دورته في المجتمع ، باستثماره في مشروعات كثيرة يعود نفعها إلى سائر الطبقات من خلال تشغيل الأيدي العاملة ، وتحقيق معدلات إنتاج مرتفعة ، وإيجاد الرواج الاقتصادي وانتعاش الأسواق ، والقضاء على معدلات التضخم والركود ، والقاعدة الإسلامية الذهبية في هذا المضمار هي ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ (6) أي لئلا يكون تداول المال محصورا في طائفة أغنياء المجتمع دون غيرهم .. ويقول الحق تبارك وتعالى في بيان تحريم الاكتناز وحبس رأس المال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ

---

(1) سورة المائدة : الآية (89) .
(2) سورة البقرة : الآية (261) .
(3) سورة البقرة : الآية (274) .
(4) سورة الذاريات : الآية (19) .
(5) سورة البقرة : الآيات (262 - 264) .
(6) سورة الحشر : جزء من الآية (7) .

أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [1] .

* * *

(جـ) في المجال الاجتماعي :

يتمايز المجتمع المسلم في هذا المجال بميزات عديدة ، من بينها :

1 - **الأخوة** : فالمسلمون جميعا تجمعهم رابطة الأخوة الإيمانية ، مهما تباعدت ديارهم ، أو اختلفت أوطانهم ، أو تعددت أشكالهم ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [2] .. وليست هذه الأخوة شيئا هينا ولا يسيرا ، إذ أنها النعمة الكبرى التي يمتن بها المولى تبارك وتعالى على المؤمنين في قوله سبحانه : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [3] .. ويعبر المصطفى ﷺ عن هذه الأخوة الإيمانية فيقول : « إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، وشبك أصابعه [4] .. أما عن متطلبات هذه الأخوة فيتحدث عنها المصطفى ﷺ في حديثه الشريف فيقول : « لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .. المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » [5] .

2 - **المحبة** : الشعور السائد بين المؤمنين جميعا هو المحبة الخالصة ، المبرأة من أغراض الدنيا الفانية فهي محبة لله وفي الله ، والله تبارك وتعالى هو الذي يقذف نور هذه المحبة في قلوب المؤمنين ، يقول جل شأنه مخاطبا المصطفى ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [6] .. ولذلك كان وجود هذه المحبة وتحققها

---

(1) سورة التوبة : جزء من الآية (34) ثم الآية (35) .

(2) سورة الحجرات : الآية (10) . (3) سورة آل عمران : الآية (103) .

(4) البخاري : ك الصلاة ، تشبيك الأصابع في المسجد وغيره 1 / 565 (481) ، وفي ك المظالم 5 / 99 (2446) ، وفي ك الأدب 10 / 450 (6026) – مسلم : ك البر والصلة والآداب 4 / 1999 (65 - 2585) .

(5) البخاري : ك المظالم ب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه 5 / 97 (2442) – وفي الإكراه 12 / 323 (6951) – مسلم : ك البر والصلة والآداب 4 / 1996 (58 - 2580) . (6) سورة الأنفال : الآيتان (62 ، 63) .

شرطا من شرائط كمال الإيمان وتمامه ، يقول المصطفى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » [1] ويقول أيضا : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » [2] .

3- **التعاون** : لاشك أن من ربط الإيمان بين قلوبهم وتأصلت أواصر المحبة الإيمانية في أفئدتهم ، لاشك أنهم سيكونون في جميع أحوالهم يدا واحدة ، يقبل بعضهم عثرة بعض ، ويأخذ كل واحد بحجز أخيه ، يعاضده ويؤازره ويسانده ، استجابة للأمر الإلهي الكريم : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ ﴾ [3] ، وتطلعا إلى الثواب العظيم الذي تحدث عنه المصطفى ﷺ في حديثه الشريف الذي يقول فيه : « من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكافه عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق ، كل خندق أبعد مما بين الخافقين » [4] .

بل يدعو النبي ﷺ المسلم إلى ألا يحتقر خيرا يمكنه أن ينفع به مجتمع المسلمين ، ولو أن يزيل الأذى من طريقهم ، فيقول : « مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال : والله لأنحين هذا عن طريق المسلمين ؛ لا يؤذيهم ، فأدخل الجنة » [5] .. وسأل أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه قائلا : يا نبي الله ، علمني شيئا أنتفع به . قال : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » [6] .. ويعلق الدكتور / عبد الرحمن البر قائلا : « فتصور – أيها الأخ الكريم – مجتمعا بهذه الروح العالية ، بهذه المشاعر السامية ، وبهذا التواصل الفياض ، وارجع البصر كرتين ، لتعرف أن لن يكون لهذا المجتمع مكان إلا فوق هام السحاب ، ولتعرف أن الإسلام يصنع مجتمعا من الأطهار الأبرار ، يعلو ويعلو حتى يداني الملائكة ، ويرتفع فوق حظوظ النفس والأنانيات القاتلة المهلكة [7] .

---

(1) البخاري : ك الإيمان ب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه 1 / 73 (13) عن أنس . مسلم : ك الإيمان ب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه 1 / 67 (71 - 45) .

(2) أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة 8 / 159 (7313) ، 8 / 208 (7337 - 7338) – وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 1 / 90 : « وفيه صدقة بن عبد الله السمين : ضعفه البخاري وأحمد ، وقال أبو حاتم : محله الصدق » . وله شاهد من حديث معاذ بن أنس الجهني ، أخرج أحمد 3 / 438 ، 440 – والترمذي في آخر صفة القيامة 7/ 224 (2642) وقال : منكر حسن .

(3) سورة المائدة : جزء من الآية الثانية .

(4) أورده الهيثمي في المجمع 8 / 192 وعزاه للطبراني في الأوسط ، وقال : إسناده جيد .

(5) مسلم : ك البر والصلة والآداب ، ب فضل إزالة الأذى عن الطريق 4 / 2021 (127 : 130 - 1917) .

(6) أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم (131 - 1918) .

(7) عوامل الهدم والبناء ص 111 .

4 - **الإيثار** : ما من شك في أن المجتمع المتآخي المتحاب المتعاون لابد أن تشيع فيه روح الإيثار ، هذا الخلق الكريم الذي خلد الله تعالى به ذكر الأنصار في آيات قرآنية تتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، مسجلة لهم هذا الموقف النادر العجيب ، يقول تعالى بعد أن تحدث عن المهاجرين وفضلهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] .. ولعمري ، فإن أكثر ما يثير العجب في موقف الأنصار ، ليس مسألة اقتسام أموالهم بينهم وبين المهاجرين – وإن كان هذا عجيبا – ولكنه الموقف الآخر الذي لا نملك حياله إلا مجرد ذكره دونما تعليق أو تعقيب ، فقد روى الإمام البخاري بسنده عن أنس – رضي الله عنه – قال : « آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع (رضي الله عنهما) فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالا ، فاقسم مالي نصفين . ولي امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها لك ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها .. قال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ ! فدلوه على سوق بني قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن » [2] ..

5 - **التناصح** : من شأن المجتمع المسلم أن يتناصح أفراده ، فيما بينهم ، لأن النصيحة السديدة الخالصة لوجه الله هي إحدى ضمانات بقاء المجتمع مستقيما ومحفوظا من الخسران والدمار ، وفي سورة العصر إشارة إلى هذا المعنى ، إذ يقول الحق تباركت أسماؤه : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ [3] .. ومن هنا فلا عجب أن يقول النبي ﷺ : « الدين النصيحة » ويسأله الصحابة الكرام : لمن ؟ ! فيقول : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » [4] ، ولا عجب كذلك أن يأتي النصح لكل مسلم بعد إقام الصلاة وإيتاء الزكاة في بيعة جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه مع النبي ﷺ [5] .

« إن التناصح ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كل ذلك يوفر للأمة النقد الذاتي ، الذي يكشف للأمة عن عيوبها ، فتتلافاها وتتفادى آثارها ، ويكشف لها عن محاسنها

---

(1) سورة الحشر : الآية (9) .

(2) البخاري : ك البيوع ب ما جاء في قول الله : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ 4 / 337 (2045) وفي الموضع نفسه عن عبد الرحمن بن عوف .

(3) سورة العصر .

(4 ، 5) سبق تخريج الحديث في المبحث الخامس من الفصل الثاني في الباب الرابع .

فتتقدم إليها ، كما أنه يربط بين أفرادها برباط الحب ، إذ ليس التناصح تصيدا للعيوب ، ولكنه تسديد وإرشاد وهداية بالحكمة والموعظة الحسنة ، في إطار من الحب والأذى .

وعلى هذا نشأ المجتمع الإسلامي الأول ، يقدم النصيحة ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، دون أن يخشى في الله لومة لائم [1] .

* * *

(د) في المجال العلمي :

وفي هذا المجال سيتميز المجتمع الإسلامي المنشود بأنه سيسخر العلم لخدمة الإنسان ، لأن المسلم ينظر إلى المكتشفات العلمية على أنها أسرار إلهية مبثوثة في الكون ، يتم اكتشافها في الوقت الذي يأذن فيه المولى بميلادها ، وكلما ازداد الإنسان المسلم علما كلما قويت معرفته بربه القدير العليم ، خالق الكون ومدبر أمره ، يقول تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] . ولهذا فللعلماء منزلتهم العالية ، التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله سبحانه : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [3] .

ولن يفعل المسلمون مثلما فعل أصحاب الحضارة المادية ، الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ؛ ففي الوقت الذي حققت فيه الحضارة الغربية المادية منجزات علمية هائلة ، ساهمت في ترقية حياة الإنسان وزيادة رفاهيته ، إلا أنها – في الوقت ذاته كذلك – سخرت هذه المنجزات الهائلة في سبيل إنتاج الأسلحة الفتاكة ، ذات القدرة التدميرية الهائلة ، التي بإمكانها أن تمحو الوجود الإنساني في ثوان معدودات .

أقول : لن يفعل المسلمون هذا لأنهم أصحاب عقيدة صحيحة ، يعلمون أن المسلم في جميع أحواله وأوقاته عابد لله ، فلا يتأتى منه وهو في هذه الحال أن يحيد بالعلم إلى غير هدفه ، ويكفي في التدليل على ذلك قول النبي ﷺ : « من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ،

(1) عوامل الهدم والبناء ص 155 بتصرف يسير .
(2) فصلت : الآية رقم (53) .
(3) سورة المجادلة : جزء من الآية (11) .

وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1]. فهذا الحديث الشريف يبين بوضوح أن التعليم والبحث العلمي من مجالات العبادة في الإسلام ، لهما فضل عظيم ، لا يتوقف علىحياة العالم ، بل يمتد أثره إلى ما بعد مماته ، طالما ينتفع الناس بعلمه ، يقول المصطفى ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[2] .. ومن هنا لا يتصور من العالم المسلم أن ينحرف بعلمه إلى طريق الشر مطلقا .

(هـ) في المجال العسكري :

لابد أن يحرص المجتمع الإسلامي أشد الحرص على تحصيل أسباب القوة ووسائل الغلبة والتمكين ، ذلك أن الحق لن ترتفع له راية . إلا في وجود قوة تحميه ، وترهب الباطل ، وترده على أعقابه خاسئا وهو حسير . ولن يتحقق النصر للمسلمين بركونهم إلى الوعود الإلهية ، في الوقت الذي يتقاعسون فيه عن القيام بدورهم في تحقيق هذه الوعود ، فقد اقتضت حكمة المولى جل في علاه ، أن يظهر قانونه الأزلي بنصر المؤمنين وتمكينهم في الأرض من خلال جهادهم وتضحياتهم في سبيل الله ، وفي القرآن الكريم إشارة إلى هذا المعنى في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾[3] . ويؤكد هذا المعنى كذلك قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[4] .

وعلى هذا ، فالمسلمون مطالبون بالإعداد والاستعداد ، وبذل الجهد الجهيد من جانب جميع أفراد المجتمع ، إذ أن التكليف القرآني قد خاطب الجميع دون استثناء ،

---

(1) روى مطلعه البخاري تعليقات في العلم باب العلم قبل القول والعمل 1 / 192 (باب 10) ووصله أبو داود في العلم باب الحث على طلب العلم 3 / 316 (3641) . والترمذي في العلم باب ما جاء في فضل الفقه 5 / 47 (2682) .

(2) أخرجه مسلم في الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته 3 / 1255 (14 - 1631) عن أبي هريرة .

(3) سورة محمد : الآيات (4 - 8) . (4) سورة الحج : الآيتان (39 - 40) .

فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [1] .

وبعد أن يمتلك المسلمون القوة ، فإنهم يتميزون عن غيرهم بتوظيف هذه القوة التوظيف الصحيح ، واستخدامها الاستخدام الأمثل ، في الدفاع عن حرمات المسلمين وأوطانهم ، وعن الدعوة الإسلامية ودعاتها ، وفي نصرة المظلوم وإعانة الضعيف .. بخلاف الحضارة المادية الغربية التي سخرت قوتها للتوسع والسيطرة ، والاستيلاء على ثروات الشعوب ، وقهرها وإذلالها .

(و) في المجال الإعلامي :

يعد المجال الإعلامي من أشد المجالات خطورة في المجتمع ، إذ أنه يتعلق بصياغة الأفكار وتوجيه الرأي العام .. ومن هنا فالمجال الإعلامي في المجتمع المسلم المنشود يمتاز بالصدق التام والأمانة الكاملة :

(1) فلا تسخر وسائل الإعلام لامتداح الحكام والمبالغة في الثناء عليهم ، فالمسلم يجب أن يحاذر حينما يثني على غيره ، فلا يذكر إلا ما يعلم من خير ، ولا يجنح إلى المبالغة في تضخيم المحامد وطي المثالب ، ومهما كان الممدوح جديرا بالثناء فإن المبالغة في إطرائه ضرب من الكذب المحرم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصرى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » [2] .

وهناك فريق من الناس يتخذ المدائح الفارغة بضاعة يتملق بها الأكابر ، فيصوغ من الشعر القصائد المطولة ، ومن النثر الخطب المرسلة ، ويكيل الثناء جزافا ، وقد يصف الحكام الجائرين بالعدالة ، والأغبياء الخوارين بالشجاعة ، ابتغاء عرض من الدنيا عند هؤلاء وأولئك .. هذا الصنف من الكذبة ، أوصى الرسول ﷺ بمطاردتهم ، حتى يرجعوا من تزويرهم بوجوه عفرها الخزي والحرمان ، فعن المقداد – رضي الله عنه – قال : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثوا في وجوه المداحين التراب » [3] . والمقصود

---

(1) سورة الأنفال : الآية (60) .

(2) البخاري في الأنبياء باب قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ... ﴾ 6 / 551 (3445) عن عمر .

(3) أخرجه مسلم في الزهد باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط 4 / 2297 (68 - 3002) .

بالمداحين هنا : الذين اتخذوا المدح عادة ، يستأكلون به الممدوح ، فأما مدح على الأمر الحسن والعمل المحمود - ترغيبا في أمثاله ، وتحريضا للناس على الاقتداء به - فليس بمداح .

وقد بين النبي الكريم ﷺ الحدود التي يقف عندها المسلم ، ويخرج بها من تبعة الملق والمبالغة ، في الوقت الذي ينفع ممدوحه فلا يسوقه إلى العجب والكبرياء .. فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : أثنى رجل على رجل عند رسول الله ﷺ ، فقال له : « ويحك ، قطعت عنق صاحبك » - قالها ثلاثا - ثم قال : « من كان مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانا - والله حسيبه ولا يزكي على الله أحد - أحسب فلانا كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منه » [1] .

(2) كما لا تستخدم وسائل الإعلام في نشر أخبار كاذبة وحكايات ملفقة وإحصائيات مزورة ، سواء من قبل بعض المحكومين لإثارة الشعوب على حكامها بالباطل ، أم من قبل الحكام وبطانتهم لإعطاء صور خادعة عن حقيقة الوضع ، إذ أنه كلما اتسع نطاق الكذبة كان الوزر عند الله أعظم ، وكان العقاب أشد وأكبر ، ففي حديث طويل عن النبي ﷺ يذكر فيه بعض المشاهد التي رآها في منامه ، كان من بينها أنه رأى رجلا يشق شدقه ، فسأل عنه فقيل له : « ... الذي رأيته يشق شدقه ، فكذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة ... » [2] .

(3) كما لا تستخدم وسائل الإعلام في إثارة الغرائز ، وإيقاد نيران الشهوة الجنسية العارمة ، من خلال الأدب المكشوف ، والمقالات الخليعة والصور العارية ، أو من خلال ما يعرض في الوسائل المسموعة والمرئية من أفلام ومسلسلات ومسرحيات تطفح بالدعوة إلى الفوضى والإباحية .. يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

---

(1) البخاري في الأدب باب ما جاء في قول الرجل ويلك 10 / 567 (6162) .

(2) أخرجه البخاري في الأدب باب قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ 10 / 523 (6096) .

(3) سورة النور : الآيات (19 - 21) .

(4) بالإضافة إلى ما تقدم ، لا تستخدم وسائل الإعلام في ترسيخ التبعية الحضارية ، بتقديم كل ما هو غربي على أنه الأفضل والأكمل ، وكل ما هو إسلامي على أنه القديم المتخلف البالي .

(ز) في المجال الرياضي :

يخطئ كثير من الناس فهم النظرة الإسلامية للرياضة ، فيحسبون أن الإسلام لا يهتم بالرياضة ولا يشجع عليها ، بل يصل التطرف بالبعض من الناس إلى تصور معارضة الإسلام ومحاربته للرياضة ، بدعوى أنها تلهي عن ذكر الله وأداء العبادات .

والحق أن هذا الفهم يخالف روح الإسلام وجوهره الشمولي ، فالمسلم في كل لحظات حياته في عبادة لله رب العالمين ، بشرط أن يخلص النية في كل عمل يقوم به .. وهو حينما يمارس الرياضة بنية بناء جسمه وتقويته ، ليكون جاهزا لتنفيذ متطلبات دينه ، من أداء الشعائر التعبدية على وجهها الصحيح ، أو الجهاد في سبيل رفع راية الإسلام ، أو غير ذلك من المهام ... حينما يمارس المسلم الرياضة بهذه النية فهو في عبادة لله ، يثاب عليها ثوابا جزيلا ، بمقتضى النظرة الشمولية التي يشير إليها قول الحق جل وعلا : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

والمجتمع الإسلامي المنشود سيشجع أفراده على الانتقال من حالة الاكتفاء بمشاهدة الرياضة إلى حالة ممارستها ، إذ أن الخطأ - كل الخطأ - يكمن في الاكتفاء بالمشاهدة والتشجيع المتعصب ، دن الممارسة الفعلية ، التي يدعو الإسلام إليها بهدف تحقيق معنى القوة التي تحدث عنا المصطفى ﷺ في حديثه الشريف الذي يقول فيه : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير .. » [2] وإطلاق لفظ القوة يصح حمله على معنييها : المادي والمعنوي وفي حديث آخر ، يستعيذ النبي ﷺ من العجز والكسل ضمن دعائه وتضرعه إلى الله ، فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » [3] .

وقد مارس النبي ﷺ الرياضة بنفسه ، ضاربا المثل الأعلى والأسوة الحسنة ، فقد ثبت

---

(1) سورة الأنعام : الآية (162) .
(2) مسلم في القدر باب في الأمر بالقوة وترك الفجر 4 / 2052 (34 - 2664) .
(3) البخاري في الجهاد باب من غزا بصبي للخدمة 6 / 101 - 102 (2893) عن أبي طلحة .

أنه ﷺ سابق السيدة عائشة رضي الله عنها فسبقته ، ثم سابقها مرة أخرى فسبقها ، وقال لها : « هذه بتلك » [1] . وقد كان يهتم بالرياضات المتعلقة بالجهاد بصفة خاصة ، وفي ذلك يقول : « عليكم بالرمي فإنه من خير لهوكم » [2] . كما أنه ﷺ مر على بعض أصحابه في حلقات الرمي فشجعهم قائلا : « ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » . ويشترك مع أحد الفريقين ، فيمسك الفريق الآخر عن الرمي إجلالا له ﷺ ، فيشجعهم ويقول : « ارموا وأنا معكم كلكم » [3] كما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ أذن للأحباش أن يلعبوا بحرابهم في مسجده الشريف ، وأذن للسيدة عائشة أن تنظر إليهم ، وهو يقول لهم : « دونكم يا بني أرفدة » (وهي كنية للأحباش) ، وبينما هم كذلك إذ دخل عمر رضي الله عنه فأهوى إلى الحصباء فحصبهم بها ، فقال له المصطفى ﷺ : « دعهم يا عمر » [4] .

ومن عجيب ما يروى عن رسول الله ﷺ في هذا ، أنه كان يجعل لهو الأطفال ولعبهم رياضة مفيدة تنفعهم في مستقبل أيامهم ، يقول عبد الله بن الحارث رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثير بن العباس - رضي الله عنهم - ثم يقول : « من سبق إلى فله كذا وكذا » قال : فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم [5] .

لكل هذا ، لا عجب أن يهتم المجتمع الإسلامي بالرياضة النافعة ، ولكن مع مراعاة الضوابط التي وضعها الإسلام لكل نشاط إنساني ، من إخلاص النية لله ، وعدم تفويت واجب موقوت كالصلاة مثلا ، وعدم الاختلاط بين الجنسين ، والالتزام بالأخلاق الحميدة ... إلخ .

(ح) في المجال الفني :

كما كان الحال في المجال الرياضي، يخطئ الكثير من الناس فهم النظرة الإسلامية للفن ، والنظرة إلى الواقع السيئ هي التي تحكم رؤيتهم للفن ورسالته في الحياة ، وهذا -

---

(1) سبق تخريجه في المحث السادس من الفصل الثاني في الباب الرابع .

(2) ذكره السيوطي في الجامع الصغير 2 / 342 (5524 ، 5525) وعزاه للبزار والطبراني في الأوسط عن سعد وصححه .

(3) البخاري في الجهاد باب التحريض على الرمي 6 / 107 (2899) .

(4) متفق عليه البخاري في الجهاد باب الدرق 6 / 111 (2907) وفي أكثر من كتاب .
ومسلم في صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه 2 / 100 (22 - 893) .

(5) أحمد في المسند عن عبد الله بن الحارث 1 / 214 وذكره الهيثمي في المجمع ، 9 / 17 ، 28 وعزاه لأحمد وقال : إسناده حسن .

بلا ريب – خطأ جسيم ، إذ لا يصح أن يتوارى الحكم الشرعي في ظلمات الواقع الكئيب ، بل الواجب تغيير هذا الواقع إلى حال تتناسب وأصل النظرة الإسلامية الصحيحة ...

والحق أن الإسلام لا يعارض الفن ، إذا كان راقيا منضبطا ، يدعو إلى الفضيلة ، ويحض على القيم النبيلة ، ويروح عن النفوس ترويحًا بريئا ، يقول المصطفى ﷺ : « إن من أفضل الأعمال عند الله تعالى إدخال السرور على قلب امرئ مسلم » . وقال علي كرم الله وجهه : إن القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة .. وقال أيضا : روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلب إذا أكره عمى [1] .

على أن الفن في حقيقته ليس مجرد ترويح وترفيه ، بل هو من أخطر وسائل صياغة الأفكار والتوجهات في المجتمع ، إذ يمكن للوحة فنية واحدة أن تعبر عن قضية ما وتسلط الأضواء عليها ، ويمكن لنشيد واحد أن يلهب حماسة الجماهير ويدفعها إلى نصرة الحق دفعا ، ... وهكذا في كافة المجالات الفنية الأخرى .

من هنا ، سيحرص المجتمع الإسلامي المنشود على الاهتمام بهذا المجال ، وتقديم فن إسلامي راق ملتزم ، بعيدا عن الابتذال والإباحية .

* * *

هذه مواصفات المجتمع الإسلامي المنشود ، ستصبح حقيقة واقعة حينما يتوفر لها الأساس المتين من الفرد المسلم صاحب العقيدة الصافية ، ومن الأسرة المسلمة الصالحة القوية المتماسكة ... وبهذا تنهض أمة الإسلام من جديد ، وتستعيد مجدها التليد ، وتسترد مكانتها الأصيلة ، في طليعة المسيرة الحضارية الإنسانية .

* * *

---

(1) انظر كشف الخفا 1 / 524 ، وتذكرة الموضوعات للفتنى ص 189 واتحاف السادة المتقن 5 / 308 ، 6 / 368 .

الفصل الثالث

كيف يكون للمسلمين كلمة مسموعة في النظام الدولي ؟ !

بعد الوقوف على أسباب ضعف الأمة الإسلامية في الفصل الأول ، وبعد التعرف على سبيل النهوض بها في الفصل الثاني ، يأتي هذا الفصل ليتحدث عن كيفية الوصول بالأمة المسلمة إلى حالة التأثير المباشر في النظام الدولي ، من خلال العودة إلى مكانها الطبيعي القيادي في المسيرة الحضارية الإنسانية .

وما من شك في أن المجتمع المسلم الصالح - الذي قام على أساس متين من الأفراد والأسر الصالحة - سيترتب عليه حتما قيام الدولة المسلمة الصالحة ، التي تمثل حجر الأساس في صرح الأمة الإسلامية الموحدة .

وأرى أنه لن تقوم للمسلمين قائمة في النظام الدولي ، ولن تكون لهم كلمة مسموعة فيه إلا بتحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة ، وإعادة تكوين الأمة الإسلامية الموحدة القوية المستظلة براية الخلافة الإسلامية الجامعة ... والحق أن هذه الأمة الإسلامية الواحدة وإن لم تكن موجودة بالفعل على أرض الواقع ، فإنها موجودة بالقوة في ضمائر وقلوب الأغلبية العظمى من أبناء الإسلام .. فالذي يقرأ واقع المسلمين بعمق - كما يقول الدكتور / يوسف القرضاوي - يدرك - إن كان منصفا - أن الشعور بوجود الأمة ووحدتها ، والإحساس بآلامها وأفراحها ، شعور سائد ومتغلغل في كيان أبنائها وأعماق وجدانهم ، وخصوصا في أوقات الشدائد والمحن ، فهي التي تكشف الدفين ، وتبرز المكنون .. لا أتحدث عن الحكام والمتسلطين وعبيد الفكر الغربي ممن انفصلوا عن ضمير أمتهم ، وغرب الاستعمار الثقافي مشاعرهم كما غرب أفكارهم . إنما أتحدث عن جمهور الأمة العريض من المثقفين وغير المثقفين الذين يَخِفُّون لنجدة كل منكوب ومساندة كل مستضعف ، ومعاونة كل ذي فاقة من أبناء الإسلام حيثما كانوا [1] .

فالأمة المسلمة حقيقة بكل المعطيات :

---

(1) الأمة الإسلامية ... حقيقة لا وهم د / يوسف القرضاوي . مقدمة التقرير الحولي لمركز الدراسات الحضارية بالقاهرة عن الشئون السياسية والاقتصادية الإسلامية (الأمة في عام) مرجع سابق ص 10 - 11 .

(1) **فهي حقيقة بمنطق الدين** : إذ أن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما اللذان أسبغا على المسلمين صفة « الأمة الواحدة » يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [1] وفي الآية الأخرى يقول جل شأنه : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [2].. أما في السنة المطهرة فقد جاء عن المصطفى ﷺ كثير من الأحاديث الشريفة ، التي يتحدث فيها عن أخبار أو أحكام تتعلق بالأمة جمعاء ، ومن ذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه في معرض تعداد ما امتن الله به عليه وعلى أمته : « .. وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ...» [3] .

(2) **وهي حقيقة بمنطق التاريخ** : حيث أن الإسلام قد أخرج للبشرية أمة غيرت وجه التاريخ ، وصاغت حضارة إسلامية عامرة ، وكانت هي القوة العظمى على المستوى الدولي قرابة ألف عام أو يزيد ، واتسعت حدودها لتشمل أغلب أجزاء الكرة الأرضية ، وكان يحكمها خليفة واحد في معظم الأحيان .

وأقول هنا : إن الدول التي كانت تحت الاستعمار البريطاني قبل استقلالها تنضوي معظمها في إطار منظمة « الكومنولث البريطاني » ، حيث تضم شعوبا مختلفة وأجناسا متباينة ، لايربط بينها سوى رباط واحد ، هو أنها كانت تحت السيادة البريطانية في فترة تاريخية ، طالت أو قصرت .. وفي المقابل تنضوي المستعمرات الفرنسية السابقة في إطار منظمة « الفرانكفونية » ذات النشاط السياسي والثقافي والاقتصادي والرياضي ، ولا يجمع بينها كذلك سوى أنها كانت مستعمرات فرنسية سابقة ..

إذا كان الحال كذلك ، فلماذا ينكر على المسلمين كونهم أمة واحدة ، رغم أنهم في معظم فترات تاريخهم كانوا تحت قيادة واحدة .

(3) **وهي حقيقة بالمنطق الجغرافي** : فالأمة الإسلامية تعيش في أقطار متصلة متشابكة بعضها موصول ببعض من (جاكارتا) شرقا إلى رباط الفتح غربا ، أو من المحيط إلى المحيط (أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي) .. ذلك أن امتداد الإسلام كان امتدادا طبيعيا ، يدخل البلد فيؤثر فيماحوله ، ومن حوله يمنة ويسرة ، ثم ينتشر انتشار نور الفجر في الغسق ما شاء الله له أن ينتشر فيما يحيط به وما يجاوره شيئا فشيئا ، حتى

(1) سورة الأنبياء : الآية (92) .
(2) سورة المؤمنون : الآية (52) .
(3) سبق ذكر نص الحديث كاملا وتخريجه ص 467 .

يعوقه عائق ما فيتوقف حتى تتاح له فرصة أخرى .

إن دار الإسلام - على سعتها وتعدد أقطارها - تمثل وطنا واحدا مترابط الأجزاء وتكاد الحدود السياسية بين بلدانه كلها تكون مصطنعة ، وجلها من صنع الاستعمار الذي فرض التجزئة والتشرذم على دار الإسلام منذ احتلاله لها .

(4) **وهي حقيقة باعتراف أعدائها** : إذ أنهم ينظرون إلى المسلمين باعتبارهم أمة ذات عقيدة واحدة ، وقيم أساسية مشتركة ، وأصول فكرية وخلقية جامعة ، وتطلعات طموحة متلاقية ، ولهذا لا يلتفتون إلى التقسيمات السياسية ، ولا إلى الخصوصيات القومية والاختلافات الإقليمية ، ولا إلى الصراعات السياسية والنزاعات الحدودية ، وغيرها مما يعلمون أن لهم في تأجيجه - بل في تكوينه في الأصل - يدا لا تنكر . إنهم يعلمون يقينا أن روح الأمة شيء أعمق من هذه القشرة الظاهرية .، ويدركون جيدا وجود هذا الشعور وتناميه يوما بعد يوم ، كلما عمت اليقظة ، وعمقت الصحوة ، وارتفعت راية الدعوة .. إنهم لهذا يكيدون للصحوة في الشرق ، ويعوقون مسيرتها في الغرب ، حتى إن تمسك بعض التلميذات بارتداء الحجاب في إحدى المدارس الفرنسية ليزلزل كيانهم ويؤرق أجفانهم ، وإن إنشاء كلية أوروبية للدراسات الإسلامية ليزعج كبارهم ويروع صغارهم . وإن استقلال بلد مسلم صغير مثل البوسنة . لم يكن أكثره يعرف من الإسلام إلا الشهادتين ليفزعهم ويخلع قلوبهم ، حتى أجمعوا على إبادته ، كي لا يرتفع علم للإسلام في أوروبا بعد أن طرد منها مرتين ، مرة من الأندلس ، ومرة من البلقان [1] .

لكل هذا .. فالأمة الإسلامية حقيقة لا وهم .. ولكن انتقالها من مجرد شعور وجداني إلى واقع عملي تقف دونه عوائق وعقبات كؤود .

---

(1) تراجع مقدمة (الأمة في عام) ص 9 - 11 .

عقبات في طريق الوحدة الإسلامية الشاملة

توجد كثير من العقبات في وجه مسيرة الوحدة الإسلامية الشاملة ، وهي متداخلة ومتشابكة ، سأذكر أهمها – من وجهة نظري – فيما يلي :

(1) فقدان الفهم الصحيح للأخوة الإسلامية :

إذ أنها ليست مجرد شعارات تزين بها البيانات الختامية للاجتماعات الوزارية أو الرئاسية على المستوى الثنائي أو على المستوى الجماعي .. وإنما الأخوة الإسلامية الحقة تعني المحبة ، والتعاون ، والتناصر والإيثار ... وغيرها من المعاني الجليلة ، التي تضمنتها آيات الكتاب الحكيم وأحاديث النبي العظيم ﷺ ، والتي تمثلت في الواقع الحياتي على يد الجيل الفذ النادر من صحابة رسول الله ﷺ .

ومن المؤسف حقا أن تسود صفحات طوال ، وأن تشغل وسائل الإعلام بأنباء وعناوين ضخمة عن قرارات وتوصيات هائلة ، لو قدر لعشر معشارها أن يدخل حيز التنفيذ لتغير وجه الحياة على المستوى الإسلامي ، بل والعالمي كذلك .

(2) الميراث الاستعماري البغيض :

حيث نجح الاستعمار في تحقيق هدفه الأول ، بتفتيت الكتلة الإسلامية الواحدة إلى أجزاء متناثرة ومتنافرة ، ليسهل افتراسها والقضاء عليها ، ولقد كانوا يخططون لذلك منذ زمن طويل ، يقول (لورانس براون) : « إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نعمة له ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير » .

أما القس (سيمون) فكان أوضح في التعبير لما قال : « إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر ، وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عاملا مُهِمًّا في كسر شوكة هذه الحركة ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين في نور جديد جذاب ، وعلى سلب عنصري القوة والتمركز من حركة الوحدة الإسلامية .. فإذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلا ضد الاستعمار الأوروبي ، ثم استطاع المبشرون أن يظهروا الأوروبيين في غير مظهر المستعمر ، فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسببا من أسباب وجودها » [1] .

---

(1) التبشير والاستعمار ص 37 .

ومن هنا يتبين بجلاء أن الوحدة الإسلامية كانت دوما غصة في حلاقيم المستعمرين وقذى في عيونهم ، فبذلوا قصارى جهدهم للقضاء عليها ، بإحياء الحضارات والعصبيات الإقليمية القديمة ، وبوضع الحدود والحواجز السياسية المصطنعة مع الإبقاء على كثير من المناطق الحدودية دون تحديد دقيق لها ، مما يضمن وجود أحقاد وضغائن مستمرة وقابلة للاشتعال في أية لحظة .

(3) شهوة السلطة الزمنية :

يبلغ عدد الدول الإسلامية الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ما يزيد على ثنتين وخمسين دولة ، لكل منها رئيس أو ملك أو سلطان ، أو أمير ، بحسب اختلاف نظام الحكم من دولة إلى أخرى .. وللحكم شهوته ، وللسلطة بهاؤها ، وللإمارة صولجانها .. والنفس البشرية تتطلع بغريزتها إلى أعلى المراتب وأرفع المناصب .. وما كانت الحركات الانفصالية عن دولة الخلافة العباسية إلا نتيجة استبداد شهوة السلطة بنفوس حكام الولايات ، فأعلنوا الاستقلال عن الدولة المركزية في بغداد .. وهل ينسى أحد أن الثورة العربية الكبرى ضد دولة الخلافة العثمانية كانت بسبب شهوة السلطة في نفس من كان يدعى بـ (الشريف حسين) أمير مكة المكرمة والذي ظل البريطانيون يلعبون على هذا الوتر في نفسيته حتى حصلوا منه على ما يريدون ؟ !

وعلى هذا تقف شهوة السلطة الزمنية حائلا منيعا في وجه الوحدة الإسلامية ، حيث لا يرغب أحد في التضحية بسلطانه وصولجانه من أجل الوحدة الإسلامية المنشودة .

(4) رواسب الكراهية في نفوس بعض الشعوب تجاه البعض الآخر :

تسببت الخلافات الشخصية بين الزعماء في إحداث فجوة هائلة في نفوس بعض الشعوب تجاه بعضها الآخر ، وهي فجوة لايمكن علاجها بين يوم وليلة ، بل تحتاج إلى سنوات طوال حتى تزول آثارها وتخمد جذوتها [1] .. كما ساهم في توسيع هوة الخلافات والشقاق ، غياب معنى التكافل الاجتماعي بين الدول الإسلامية ، فالفئة المترفة تمادت في ترفها وسوء استغلالها للنعمة إلى حد يثير الأحقاد والضغائن في قلوب ضعاف النفوس من الفئات المعدمة المحرومة .

ومما يؤسف له أن هذه الكراهية كانت تجد لها متنفسا في المحافل الدولية : السياسية ،

(1) كانت الخلافات بين بعض الزعماء قد وصلت إلىحد المهاترات والسباب العلني المتبادل في وسائل الإعلام ، مما تسبب في حالة من الكراهية المتبادلة بين الشعوب ، والتي تتحمل نصيبها من المسئولية ، لرضائها بهذا الوضع المشين ، وانسياقها خلف الزعماء الفاسدين .

والثقافية ، والرياضة ... إلخ .. وقد تسبب هذا في ظهور المسلمين بصورة سيئة قاتمة أمام غير المسلمين ، تنعكس بالتالي سلبيا على نظرتهم للإسلام نفسه .

(5) الانقسام المذهبي :

حيث لا تزال الهوة عميقة بين الشيعة والسنة على سبيل المثال ، وتحتاج إلى وقت طويل لردمها ، وإلى جهد جهيد للقضاء على آثارها .. ومما يزيد الأمر صعوبة في هذا المضمار – إلى حد كبير – ذلك التعصب المقيت الذي يبديه الطرف الشيعي بالذات لمبادئة وأصوله .

يضاف إلى ذلك ما يثور من خلافات حادة بين الاتجاهات الفكرية المختلفة على الساحة الإسلامية ، ما بين سلفية وصوفية ... وغيرهما ..

(6) فقدان الرؤية الوحدوية المتكاملة :

إذ أن كل دولة تعمل في إطار مصالحها الإقليمية لا تتعداها ، وتتخذ قراراتها وتوجهاتها في هذا الإطار الضيق ، دونما اهتمام بأثر هذه التوجهات على المستوى الجماعي الإسلامي . وهذا يؤدي – بالتالي – إلى مزيد من الضعف والتشتت في الأمة الإسلامية .

(7) غياب الشخصية القيادية التي يلتف حولها الجميع :

يستفاد من التجارب التاريخية المتعددة ، أنه في حال الضعف والتشتت يحتاج المسلمون إلى شخصية قيادية ، ذات مواصفات خاصة من : الإيمان ، والحزم ، والشجاعة ، لتستطيع أخذ زمام المبادرة نحو توحيد المسلمين تحت راية واحدة .. وليس أدل على ذلك من شخصية صلاح الدين الأيوبي الذي تمكن – بفضل الله وتوفيقه – من جمع شتات المسلمين وتوحيد كلمتهم ، ومن ثم استطاع الوقوف في وجه العدوان الصليبي ، ورده في النهاية على أعقابه خاسئا وهو حسير .

والمسلمون الآن ، وهم على حالهم من الانقسام والفرقة ، بحاجة إلى شخصية من هذا الطراز ، يلتف الجميع حولها ، وينضوي الكل تحت قيادتها ، للوصول – في خاتمة المطاف – إلى الوحدة الإسلامية المأمولة .

هذه أهم العقبات التي تعترض طريق الوحدة الإسلامية – من وجهة نظري – ، يتفاوت التأثير الناتج عن كل عنصر منها ، ولكنها بمجموعها تشكل عقبات خطيرة ، لابد من تجاوزها والقضاء عليها ، إذا ما أراد المسلمون أن يكون لهم دور في النظام الدولي .

* * *

كيفية تذليل هذه العقبات

مع الاعتراف الكامل بخطورة التحديات التي تعترض طريق الوحدة الإسلامية ، إلا أن تحقيق هذه الوحدة ليس مستحيلا ، رغم كل الظروف والأوضاع المعاكسة ..

ويرجع ذلك في الأساس إلى عوامل ذاتية ، نابعة من داخل الإسلام نفسه ، بمبادئه السمحة وتعاليمه العظيمة ، التي تجعل الوحدة الإسلامية تجمعا ربانيا كريما ، غايته الأولى : إفراد الله عز وجل بالعبودية والخضوع له دون سواه ، وهدفه الأساسي : تقديم المحبة والسلام والخير إلى البشرية جمعاء ..

بخلاف المظاهر الوحدوية الأخرى ، التي تقوم على أساس المصالح الدنيوية البحتة ، بهدف السيطرة والاستغلال لا أكثر ولا أقل .. ولهذا سرعان ما تواجه مشكلات كبرى تعصف بها ، وتؤدي إلى الفشل الذريع .

أما عن كيفية التغلب على العقبات السابقة ، فتتمثل أولا وأخيرا في تعميق معاني الأخوة الإيمانية الحقة في قلوب وضمائر المسلمين كافة ، ويمكن تحقيق ذلك من خلال ما يلي :

1- جعل الحديث عن الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية ضمن المقررات الدراسية في مختلف المراحل التعليمية على مستوى العالم الإسلامي ، وهذا من شأنه أن يجعل الجيل الجديد يشب على معاني الأخوة والمحبة والاتحاد ، وحينئذ يسهل تحقيق الوحدة على مستوى القمة ، بعد أن تحققت على مستوى القاعدة .

2 - توعية المسلمين بأن الوحدة الشاملة هي فريضة دينية ، يجب عليهم العمل المتواصل لتحقيقها ، ثم إنها في الوقت نفسه ضرورة يحتمها الواقع ، في ظل النظام الدولي الجديد الذي يعد التكتل والاندماج من أهم ملامحه .

3 - التركيز على ما تنطوي عليه العبادات والشعائر الإسلامية من معاني الوحدة والإخاء والمساواة ، وإبراز هذه الخصائص لتكون ماثلة في ذهن المسلم وهو يؤدي هذه الشعائر ، ومن ثم تدفعه إلى التنفيذ والتطبيق .

4- تنبيه المسلمين إلى ضرورة مواجهة مخططات الأعداء الرامية إلى مزيد من التفتيت في بدن الأمة المسلمة . وعدم الاستجابة لهذه المخططات الشيطانية .

5- نبذ العصبيات الإقليمية ، وابتعاد وسائل الإعلام عن تغذية مشاعر القومية الضيقة ، وتركيزها على مشاعر الوحدة الإسلامية الشاملة .

6- تذويب الخلافات بين الشيعة وأهل السنة ، وصهرها في بوتقة الأخوة الإسلامية التي تجمع كلا الطرفين .. ومما ييسر هذا الأمر ، أن الخلاف بين طوائف المسلمين كان - بحمد الله - خلافا في الأمور الفرعية الجزئية ، وليس في أصول العقيدة الأساسية الكلية ، فالكل يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والكل يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويجاهد في سبيل الله ... إلخ .. وهذا - بلا ريب - من عظيم فضل الله على المسلمين ، إذ أن غيرهم قد اختلفوا في الأصول العقائدية ذاتها فتناحروا وتقاتلوا ، ولم تجتمع لهم كلمة إلا في مواجهة المسلمين .. أما المسلمون فقد وقاهم الله شر ذلك الاختلاف المهلك ، فليجتمعوا على ما اتفقوا عليه من أساسيات العقيدة ، وليعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه من أمور جزئية لا تضر بجوهر الدين .

بهذا يستطيع المسلمون التغلب على كافة العقبات التي تعترض طريق الوحدة الإسلامية ، ومن ثم يمكنهم - وفق شروط خاصة - أن يكونوا قوة مؤثرة في النظام الدولي .

الشروط اللازمة لنجاح الأمة المسلمة في إثبات وجودها وتأثيرها

تستطيع الأمة المسلمة الموحدة أن تثبت وجودها وتؤدي رسالتها ، وأن تتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم ، إذا تمسكت بما يلي :

1 - تحديد الهوية وأساس الانتماء :

فعلى الأمة أن تحدد – بصراحة ووضوح – هويتها وانتماءها ، ولا هوية ولا انتماء لغير الإسلام ، فهو محور حياتها ، وروح وجودها ، وسر بقائها ، وصانع حضارتها ، وأساس وحدتها . وقد قال الفاروق رضي الله عنه : نحن كنا أذل قوم ، فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز من غيره أذلنا الله .. وبهذا ترفض كل العصبيات : العنصرية ، واللونية ، والإقليمية ، واللغوية ، والطبقية ... وغيرها .. التي تهدم ولا تبني ، وتفرق ولا تجمع .

2 - تحديد المرجعية العليا :

ويترتب على تحديد الهوية والانتماء ، تحديد المرجعية العليا لحياة الأمة بمختلف جوانبها : العقدية ، والتشريعية ، والثقافية ، والاجتماعية ... والتي يحتكم إليها الناس إذا اختلفوا ، ويرجعون إليها إذا شردوا أو انحرفوا .. وما دامت أمة مسلمة فلا مرجع لها غير الإسلام ... والمقصود به « الإسلام الأول » ، إسلام القرآن والسنة ، قبل أن تشوبه الشوائب ، بعيدا عن تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فالإسلام هو الإسلام كما أنزله الله في كتابه ، وكما دعا إليه رسوله ﷺ ، وكما عرفه خير قرون هذه الأمة .

3 - ضرورة الاجتهاد والتجديد :

يجب على الأمة المسلمة أن ترفض الجمود والتقليد ، وأن تؤمن بالاجتهاد والتجديد وسيلة ضرورية لفهم مقاصد الإسلام ونصوصه ، وتنزيلها على وقائع الحياة ، مراعية ما قرره علماؤها من تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال . ولا توجد أمة حث دينها على الاجتهاد مثل هذه الأمة ، حتى إن المجتهد فيها ليؤجر على خطئه في اجتهاده ، فهو ليس مجرد معذور ، بل هو عند الله مأجور ، وإنما أجره لتحريه واستفراغه الوسع في طلب الصواب ، وإن كان أجره دون أجر من أصاب الحق ، كما يقول النبي

ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد ، وإن أصاب فله أجران » [1] . هذا بشرط أن يكون الاجتهاد صادرا من أهله في محله .

ولا غرو أن تنوعت المشارب ، وتعددت المذاهب ، واختلفت المدارس ، وتعايشت جنبا إلى جنب في ظل رحابة الإسلام وسماحته .

والتجديد المقصود ينصرف إلى الأمور الدينية البحتة وإلى الأمور الدنيوية الحياتية :

ففي الناحية الأولى : يشير المصطفى ﷺ إلى شرعية التجديد في الدين بقوله : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » [2] وليس معنى التجديد إظهار (طبعات جديدة) من الإسلام في كل قرن أو عصر تتغير بتغير الناس وتتلون بتلون الحياة ، فالحق أن الإسلام - بأصوله الثابتة وأحكامه القطعية - هو الذي يحكم الحياة ويصبغها بصبغة الله ، فهو الحاكم لا المحكوم ، وهو الميزان لا الموزون ، وإنما التجديد هنا : تجديد الفهم للدين ، وتجديد للإيمان به ، وتجديد للعمل به والعمل له .

وليس هذا التجديد عملا يقوم به فرد واحد ، يترقب الناس ظهوره في نهاية كل قرن - كما قد يفهم من الحديث الشريف - إذ أن كلمة « من » تصلح للجميع كما تصلح للفرد ، وعلى هذا فالأولى في فهم الحديث النبوي أن يكون التجديد جماعيا ، بمعنى ألا يقتصر دور الفرد على مجرد انتظار المجدد ، بل لابد من المشاركة بدوره ونصيبه في حركة التجديد ، من خلال العمل الجاد بالإسلام وللإسلام .

وفي الناحية الثانية : يتبين أن التجديد إذا كان مطلوبا في أمر الدين - والأصل فيه الاتباع - فهو أكثر طلبا ولزوما في أمور الدنيا وشئون الحياة - والأصل فيها الابتداع - ، فلابد من تهيئة المناخ العقلي والنفسي والاجتماعي للإبداع والابتكار ، وتنمية المواهب والقدرات الخاصة ، وتشجيع العقول المبدعة ، وتكريم النبوغ والتفوق ، واستعادة العقول المهاجرة إلى ميدانها الطبيعي في رحاب أمتها ، فهي أولى بهم وهم أولى بها ..

كل هذا مطلوب من الأمة الإسلامية بشدة ، حتى ليعتبره الإسلام من فروض الكفاية ، التي لابد أن يقوم بها البعض ليسقط الإثم عن الباقين ، وإلا أثم الجميع بتركها .

---

(1) تراجع : مقدمة الدكتور القرضاوي ص 23 - 24 .

(2) الدار قطني 4 / 211 ، ودلائل النبوة للبيهقي 7 / 185

4 - تجسيد الإسلام في أخلاق وأعمال :

ينبغي على الأمة أن تجسد إسلامها - الذي تفاخر به وتعتز - في أخلاق وأعمال ، ولا يبقى مجرد شعارات ترفع ، أو دعاوى تدعى ، أو أقوال تقال .. « فإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل »[1] كما قال الرسول ﷺ .

وأهم ما يجب أن تحرص الأمة على التمسك به وتطبيقه : التجرد والإخلاص لله ، والانتصار على شهوات النفس وعلى نزعات العصبيات العرقية والقبلية ، التي حطمت الصومال تحطيما شاملا ، وتوشك أن تحطم أفغانستان وتحرق ثمرة جهادها ، وتوشك كذلك أن تمزق دولا إسلامية أخرى شر ممزق .

إن تحويل مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة إلى واقع سلوكي تطبيقي ، هو الذي ساهم بصورة فعالة في نشر نور الإسلام إلى آفاق الأرض ، فما انتشر الإسلام إلا بأخلاق المسلمين ، وأغلب البلدان الإسلامية لم يدخلها جيش فاتح ، بل مسلم تقي صالح .. على أن الجيش قد يفتح أرضا ولكنه لا يفتح قلبا ، إنما القلوب تفتح بالإقناع والقدوة .

5 - الأخذ بأسباب القوة الاقتصادية والعسكرية :

لكي تصبح الأمة المسلمة ذات نفوذ وتأثير قوي في النظام الدولي ، لابد أن يتوافر لديها رصيد ضخم من القوة الاقتصادية والعسكرية ، إذ أنهما يتكاملان في سياق إبراز مكانة الأمة في النظام الدولي ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[2] .. فلقد جاء هذا التكليف الإلهي موجها إلى الأمة جمعاء « وأعدوا » ليكون كل فرد آخذا بنصيبه من هذا الأمر الإلهي ، كل فيما يخصه وفي مجاله وفي حدود أقصى استطاعته .. بهدف تحقيق القوة في جميع المجالات : السياسية والاقتصادية ، والعسكرية ، ولهذا جاء لفظ « قوة » منكرا ليفيد العموم .. ثم كان تخصيص القوة العسكرية بالذكر لبيان مدى أهميتها الفائقة في الوصول إلى الهدف المنشود ، بأن تكون الأمة المسلمة مرهوبة الجانب من قبل أعداء الدين

---

(1) انظر الكامل في الضعفاء لابن عدي : ج 6 ص 2290 .
(2) سورة الأنفال : الآية (60) .

وأعدائها ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .. ﴾ .

وحينما تصبح الأمة قوية مرهوبة الجانب ، فإنها حينئذ تصبح قوة عظمى لها تأثيرها القوي ونفوذها المباشر في النظام الدولي .

6 - **تحقيق نهضة علمية شاملة :**

لا يمكن للأمة المسلمة أن تحقق النمو الاقتصادي والعسكري بدون وجود قاعدة علمية متينة ، فبالنهضة العلمية تمكنت كل من اليابان وألمانيا من النهوض مرة أخرى بعد الدمار الشامل الذي أصاب كليهما في الحرب العالمية الثانية ، وأصبحا في سنوات قلائل من القوى العظمى في المجال الاقتصادي العالمي ، ومن خلال هذا التفريق الاقتصادي – القائم على أسس علمية سليمة – استطاعت ألمانيا – مثلا – أن تستعيد وحدة أراضيها في بداية التسعينات .

ومن هنا ، ينبغي على الأمة الإسلامية أن تستغل الإمكانات المتاحة لديها لتحقيق نهضة علمية شاملة تكون أساسا قويا للنهضة الاقتصادية والعسكرية المنشودة ، بغية الوصول – في نهاية المطاف – إلى المكانة القيادية في النظام الدولي .

* * *

بانتهاء هذه الشروط ينتهي هذا الفصل الثالث عن كيفية وصول الأمة المسلمة إلى درجة التأثير المباشر في النظام الدولي .. وقد كان ذلك بعد التعرف على أسباب ضعف الأمة في الفصل الأول ، وعلى سبيل النهوض والرقي بها في الفصل الثاني .

وبعد .. فهذه رؤية سريعة ومبسطة لمستقبل المسلمين في ظل النظام الدولي الجديد ، وعليهم أن يختاروا لأنفسهم ما بين البقاء على وضعهم الراهن بما فيه من فرقة وانقسام وتناحر ، أو توحيد الكلمة واجتماع الصف ليعيدوا أمجادهم وسيرتهم الأولى .. والطريق إلى تحقيق هذا واضح ، والوصول إليه سهل ميسور بشرط توافر النوايا الصادقة والهمم العالية .. ونسأل الله رب العالمين أن ينير لنا طريق الحق والهدى ، وأن يوفقنا للسير فيه حتى بلوغ الغاية المأمولة .. اللهم آمين .. والحمد لله رب العالمين .

الخاتمة

أولاً : النتائج

ثانيًا : التوصيات

ثالثا : فهرست المراجع

أولا : النتائج

بعد هذه الجولة الطويلة أرجو أن يكون القارئ الكريم قد توصل معي إلى النتائج التالية :

1- النظام الدولي : هو مجموعة قواعد التعامل الدولي الناتجة عن التفاعلات الدينية والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعسكرية ، والثقافية الحاصلة بين القوى الدولية الكبرى وأثرها على العالم كله في مرحلة تاريخية معينة .

2- لم يكن استخدام مصطلح « النظام الدولي الجديد » – إبان أزمة الخليج الثانية – المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا المصطلح ، فلقد سبق إطلاقه على الأوضاع الدولية الجديدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ثم أعيد استخدامه مرة أخرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .. إلى أن بدأ يعود إلى الظهور أثناء المتغيرات الكبرى التي شهدتها الكتلة الشيوعية عمومًا ، وزعيمها الاتحاد السوفييتي على وجه الخصوص .. ولكن المصطلح لم يحظ بالانتشار الواسع النطاق إلا بعد كثرة استخدامه من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، بهدف تكريس الهيمنة الأمريكية التامة على النظام الدولي ، خاصة بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وانهياره في نهاية عام 1991 م .

3- كما تم التوصل إلى أن استخدام هذا المصطلح بالذات كان عملية مقصودة ومخططة بدقة تامة ، لأن الدول النامية كانت – على الدوام – تنادي وتدعوا إلى إنشاء نظام عالمي جديد ، يصحح الأخطاء والانحرافات في الأوضاع الدولية على جميع المستويات : السياسية – الاقتصادية – العسكرية – الاجتماعية – الثقافية .

4- كما ثبت بصورة قاطعة أنه لم يحدث أي تغيير جوهري في النظام الدولي ، وأن كلا من الشيوعية والرأسمالية هما جناحا الحضارة المادية الغربية ، والخلاف بينهما كان كالخلاف بين أفراد البيت الواحد .. ومن ثم فقد اقتصر التغيير في « النظام الدولي » على النواحي الشكلية الثانوية في حدود شكل توزيع مراكز القوة والتأثير في القرارات الدولية .

5- وقد توصلت إلى أن « النظام الدولي الجديد » هو نظام « جماعية القيادة » الذي تتخذ فيه القرارات وفقا لمصلحة المجموعة القيادية ، تبعا لتفاوت المكانة والتأثير فيما بينها ، على أساس العاملين : الاقتصادي والعسكري معا ، إذ أنهما متلازمان في سياق

إبراز مكانة أي دولة في النظام الدولي ، وإن كان العامل الاقتصادي قد ازدادت أهميته كثيرا في الآونة الأخيرة .. ولهذا كله ، انتفت النظريات الثلاث التي سيقت في هذا المقام ، والتي قررت أولاها أن الفترة الحالية مرحلة انتقالية بين نظام دولي انتهى ونظام جديد لما تتضح معالمه بعد .. بينما أكدت الثانية أنه نظام القوة الواحدة ، في حين انتهت الثالثة إلى أنه النظام المتعدد القوى .

6- وقد أثبتّ أن جميع الصفات التي وصف بها « النظام الدولي الجديد » من أنه نظام الأمن الجماعي ، والاستقرار التام ، والرخاء الشامل ، والمساواة الكاملة ... إلخ ، أثبتّ أن قادة الدول صاحبة المصلحة الأولى في هذا النظام هم الذين أسبغوا عليه هذه الصفات بغرض تجميله وإظهاره في أبهى صورة ، ليلقى الرواج والانتشار على المستوى العالمي ، والحقيقة أنها مجرد تصريحات خادعة وأقوال كاذبة لا حظ لها في الواقع التطبيقي ولا نصيب .

7- كما تم الكشف عن المعالم الحقيقية لـ « النظام الدولي الجديد » وهي تؤكد أنه لا جديد حقا في هذا النظام ، إذ أنها ذات الخصائص التي تميز بها النظام الدولي في مراحله السابقة ، مع بعض الاختلافات الطفيفة .. وهذه المعالم هي :

(أ) تسخير الأمم المتحدة لتحقيق أهداف القوى الكبرى .

(ب) ازدواجية المعايير ، والكيل بمكيالين في القضايا الدولية .

(جـ) نظام التكتلات الكبرى والتجمعات الاقتصادية العملاقة .

(د) غلبة الرأسمالية ، وتوحد أهداف القوى الكبرى لتغريب العالم .

(هـ) السيطرة اليهودية التامة على النظام الدولي .

(و) العداء السافر للإسلام والمسلمين .

8- تم البرهان بالحجج القاطعة على قضية العداء السافر للإسلام والمسلمين في النظام الدولي الجديد ، من خلال استعراض مواقف هذا النظام من قضايا المسلمين في أنحاء العالم .. وقد تبين بجلاء أن النظام الدولي الذي يستخدم أقصى درجات الحزم والحسم في مواجهة المسلمين ، يميل إلى اللين والصفح في مواجهة غيرهم :

(أ) **ففي القارة الأفريقية** : بذل التحالف الصهيوني الصليبي أقصى جهوده لفرض

عزله دولية على السودان ، ومحاولة خنقه اقتصاديا ، والعمل على فصل شماله عن جنوبه لإقامة دولة صليبية في الجنوب .

* كما تدخل النظام الدولي في الصومال خلف ستار الدوافع الإنسانية ، لتحقيق أهداف استعمارية وتنصيرية خبيثة ، وارتكبت القوات الدولية هناك جرائم لا تحصى .

* وفرض النظام الدولي حصارا ظالما على ليبيا ، بموجب قرارات دولية ، تخالف القانون الدولي وتتصادم مع الأعراف والاتفاقيات الدولية .

(ب) **وفي القارة الآسيوية** : يواصل النظام الدولي جهوده لتقنين الوجود اليهودي في فلسطين المحتلة ، ولفرض الهيمنة الصهيونية الشاملة على المنطقة بأسرها .

* ويقف النظام موقف المتفرج وهو يشاهد الاعتداءات الصهيونية اليومية على لبنان واحتلال ما يقرب من ثلث أراضيه ، رغم القرارات الدولية العديدة في هذا الشأن .

* في الوقت نفسه يقف هذا النظام وقفة صارمة ضد العراق ، ويتلذذ بصور ومشاهد أطفال العراق وهم يخرون صرعى تحت وطأة الجوع والمرض ، من جراء الحصار الظالم المفروض على بلدهم ، ومشاهد الفقر والجوع الأخرى ، التي تكاد تصل - في تقديرات منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة - إلى حد المجاعة الشاملة .

* كما دأب هذا النظام على اتهام إيران بدعم وممارسة الإرهاب ، وعلى الوقوف بقوة في وجه محاولات تنمية القوة العسكرية الإيرانية.

* كما بارك النظام الدولي الغزو الروسي للشيشان ، وتغاضى عن المذابح البشعة التي ارتكبها الجنود الروس هناك ، واعتبر ذلك كله شأنا داخليا لا علاقة للمجتمع الدولي به .

(جـ) **وفي القارة الأوروبية** : كان العداء للإسلام والمسلمين أكثر وضوحا ومأساوية في البوسنة والهرسك حيث وَضُح - بما لا يدع مجالا للشك - أن ما يحدث للمسلمين في هذا البلد ليس إلا مؤامرة صليبية لاستئصال الوجود الإسلامي في منطقة البلقان ، كما ظهرت مشاركة كل من : الأمم المتحدة « مجلس الأمن - القوات الدولية - الأمين العام - مجموعة الاتصال الدولية - الوسطاء الدوليون - حلف شمال الأطلنطي - الدول الأرثوذكسية - روسيا - اليونان - بلغاريا - رومانيا - المجر .... » فظهر بالأدلة الدامغة مشاركة هؤلاء جميعا في المؤامرة على مسلمي البوسنة والهرسك .

(9) كما توصلت إلى ضرورة الانهيار الحضاري للنظام الدولي الجديد ، إذ أنه يستند في أسسه ومقوماته إلى الحضارة المادية الغربية ، وهي حضارة محكوم عليها بالاندثار لا محالة ، بعد أن استجمعت كافة عوامل الانهيار الحضاري التي ذكرها القرآن الكريم وهي : فساد العقيدة – المادية – الظلم والطغيان – الفساد والإفساد القسوة والإجرام – العتو والاستكبار – انحطاط القيم الخلقية – فساد المنهج الاقتصادى – ضلال الزعماء وسلبية الشعوب .

وقد سبق الحديث عن بوادر الانهيار في النظام الدولي الجديد في الجوانب السياسية والاقتصادية – والاجتماعية – والعسكرية .

(10) كما تبين أن الإسلام وحده هو المنهاج الصالح لإقامة نظام عالمي عادل ورشيد ، يكفل للبشرية ما تتطلع إليه من أمن واستقرار ورخاء ، لأنه وحده المنهاج الرباني ، الشامل المتوازن ، الواقعي ، الإيجابي ، العالمي .

(11) كما تبين كذلك أن القواعد التي وضعها الإسلام الحنيف للعلاقات الدولية تمثل النظام الأمثل لتلك العلاقات ، من حيث اهتمامها بتحقيق الأمن الدولي في أبهى صوره والتعاون الدولي في أسمى أشكاله ، ومن حيث اعتبارها حالة السلم هي أصل العلاقات الدولية ، وأن الحرب هي الاستثناء ، يُلجأ إليها في حالات ضرورية قليلة ، يلتزم المسلمون أثناءها بالقيم السامية والفضائل العالية .

(12) كما أثبتّ أن مستقبل المسلمين في ظل النظام الدولي مرهون بوحدة صفوفهم واجتماع كلمتهم ، وأنه لا سبيل للنهوض بالأمة المسلمة إلا بالقضاء على أسباب ضعفها وعوامل مرضها ، وأن الطريق لتحقيق ذلك يبدأ بإصلاح الفرد ، ومن خلاله ينصلح حال الأسرة ، ويلي ذلك تكوين المجتمع الصالح ، الذي يؤدي إلى إنشاء الدولة المسلمة الصالحة ، والتي تمثل النواة الأولى للأمة الإسلامية الموحدة القوية ، الآخذة بأسباب التقدم المستكملة لعوامل النهوض .

ثانيا : التوصيات

بناء على النتائج السابقة ، أوصي بما يلي :

(1) أوصي نفسي وجميع إخواني المسلمين بتقوى الله ومراقبته في كل لحظة من لحظات الحياة ، والالتزام التام بتعاليم ديننا الإسلامي الحنيف في كافة النواحي ومختلف المجالات .

(2) كما أوصي الشعوب الإسلامية بمختلف أجناسها وألوانها ولغاتها ، أن توحد انتماءها وتجتمع تحت راية واحدة ، هي راية الإسلام ، التي هي الرباط الجامع بينهم رغم اختلاف الأجناس والأوطان واللغات .

(3) وأوصي كذلك حكام المسلمين أن لا يجعلوا شهوة السلطان حائلا دون تحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة ، وعليهم أن يطرحوا خلافاتهم الشخصية وراءهم ظهريا ، وأن يهتموا بتعميق معاني الأخوة والوحدة في نفوس شعوبهم ، بعيدا عن الخطب الجوفاء والشعارات الزائفة .

(4) ولتحقيق هذا الهدف ، أوصي ببذل كافة الجهود الممكنة لتحقيق التكامل التام بين جميع الأقطار الإسلامية وجمعها في إطار واحد ، إذ أن النظام الدولي الجديد لا يعترف بالضعفاء المشتتين ، فهو نظام التجمعات الكبرى والتكتلات العملاقة .

(5) وأوصي في هذا الإطار أيضا ، بأن تكون الوحدة الإسلامية ضمن أساسيات المقررات الدراسية في المراحل التعليمية المختلفة في جميع بلدان العالم الإسلامي بهدف تأصيل هذه الفكرة في قلوب الجيل الجديد ، وتعميق الإيمان بها كسبيل وحيد لتحقيق مكانة دولية مرموقة للأمة الإسلامية .

(6) وإلى أن تتحقق هذه الوحدة ، أوصي الدول الإسلامية بالتنسيق الشامل فيما بينها داخل المحافل الدولية المختلفة والتحدث فيها بصوت واحد ولغة مشتركة ، لتكوين جبهة ضغط قوية تواجه سيل القرارات الدولية المجحفة .

(7) ومن المهم في هذا المجال ، التوصية بتقوية المنظمات العربية والإسلامية الحالية وجعلها أكثر نشاطا وفاعلية ، مع الاعتراف بأن الأساس غير المتين الذي قامت عليه بعض هذه المنظمات – كالجامعة العربية مثلا – لا يمنع الاستفادة منها وتحويل مسارها

إلى الطريق الصحيح .

(8) وفي مجال آخر ، أوصي أجهزة الإعلام المختلفة – مرئية ومسموعة ومقروءة – بأن تطهر مادتها الإعلامية من كافة ما يخالف القيم الإسلامية ، وأن تجعل هدفها وغايتها إنشاء الإنسان المسلم الصالح كنواة للمجتمع المسلم الصالح .

(9) كما أوصي المجلس الأعلى للجامعات بضرورة تدريس مادة « الثقافة الإسلامية » في مختلف الكليات الجامعية ، ليكون الطالب الجامعي ملما – بصورة ما – بتعاليم دينه وقيمه الأصيلة ، ومن ثم يحولها في حياته إلى واقع تطبيقي على مستوى أسرته بشكل خاص والمجتمع بشكل عام .

(10) كما أتوجه إلى جامعة الأزهر بتوصية خاصة ، تتمثل في تطوير مادة « حاضر العالم الإسلامي » المقررة على بعض الشُعب في كليات أصول الدين ، ليتم تعميمها على مختلف كليات الجامعة الأزهرية ، بغية تقديم الرؤية الإسلامية الصحيحة لكل ما يحيط بالطالب من أحداث متلاحقة محليا وعالميا .

(11) وأرى كذلك ضرورة أن يتحقق التواصل الكامل بين الجامعة والمجتمع والابتعاد عن النمط الأكاديمي التقليدي السائد ، إذ أعتقد اعتقادا جازما أن علماء الأزهر الشريف يجب أن يكونوا حملة مشاعل الهداية لمجتمعهم ، بعيدا عن الأخطاء والتجاوزات التي وقع فيها كثير من الدعاة غير المتخصصين – وإن صدقت نيتهم – إلا أن الأزهر الشريف بقى – وسيبقى إلى ما شاء الله – الحصن الحصين للثقافة الإسلامية الأصيلة والهداية المستنيرة .

* * *

وختاما .. أتوجه إلى المولى العلي القدير أن يتقبل مني هذا العمل ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يتحقق للأمة ما تصبوا إليه من وحدة ورفعة وتقدم ورخاء .. ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ .. ﴾ ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ .. ﴾ .. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه تسليما كثيرا ..

* * *

ثالثا : فهرست المراجع

القرآن الكريم .

أولا : كتب التفسير وعلوم القرآن الكريم :

1 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : قاضي القضاة أبو السعود محمد بن محمد العمادي (896 - 951 هـ) ط . المكتبة الحسينية - القاهرة الأولى 1347 هـ / 1928 م .

2 - الأساس في التفسير : الشيخ / سعيد حوى . ط دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة . الأولى 1405 هـ / 1985 م .

3 - تفسير ابن جزى : الإمام الشيخ محمد بن أحمد بن جزى الكلبي . دار الكتاب العربي - القاهرة . 1403 هـ / 1983 م . د . ق .

4 - تفسير سورة هود (ضمن سلسلة : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) د / محمد البهي : مكتبة وهبة - القاهرة . الأولى 1396 هـ / 1976 م .

5 - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) : الشيخ / محمد رشيد رضا . دار المعرفة بيروت . الثانية د . ت .

6 - تفسير القرآن العظيم : الإمام الحافظ المفسر عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ) . المكتبة التوفيقية - القاهرة د . ق . ت .

7 - جامع البيان عن تأويل آي الفرقان (تفسير الطبري) : الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (240 - 310هـ) دار الحديث - القاهرة 1407 هـ / 1987 م . د . ق .. وطبعة دار المعارف ، بتحقيق : فضيلة الأستاذ محمود محمد شاكر ومراجعة فضيلة الأستاذ / أحمد محمد شاكر ، الثانية د . ت .

8 - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي (ت 671 هـ) دار الغد العربي - القاهرة . الأولى 1410 هـ - 1990 م .

9 - الدستور القرآني : الشيخ / محمد عزة دروزه . المكتب الإسلامي - بيروت الثانية 1981 .

10 - روح البيان : الشيخ / إسماعيل حقي البروسوى (ت 1137 هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع د . ق . ت .

11 - غرائب القرآن ورغائب الفرقان : الإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري . مطبوع بهامش تفسير الطبري .

12 - في ظلال القرآن : الشهيد / سيد قطب . دار الشروق . الثالثة عشرة 1407 هـ / 1987 م .

13 - محاسن التأويل (تفسير القاسي) . دار الفكر - بيروت . الثانية 1978 م .

14 - مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) : الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (544 - 606 هـ) دار الغد العربي - القاهرة . الأولى 1412 هـ / 1992 م .

15 - الوسيط في تفسير القرآن المجيد : الإمام المفسر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (468 هـ) تحقيق وتقديم : محمد حسن أبو العزم الزفيتي . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة 1406 هـ .

* * *

ثانيا : كتب السنة النبوية المطهرة وعلومها :

16 - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان . ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي . حققه وخرج أحاديثه وعلق عليها : شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة - بيروت . الأولى 1408 هـ / 1988 م .

17 - الأدب المفرد : الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ) - اعتنى به محمد هشام البرهاني - ط وزارة العدل والشئون الإسلامية والأوقاف بدولة الكويت 1401 هـ / 1981 م .

18 - تاريخ بغداد : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي دار الكتب العلمية - د . ق . ت .

19 - تقريب التهذيب : الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852 هـ) قدم له : محمد عوامة - دار الرشيد - سوريا . الرابعة 1412 هـ / 1992 م .

20 - الجامع الصغير : الإمام الحافظ جلال الدين أبو بكر السيوطي (ت 911) . ط دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى 1410 / 1990 م .

21 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني . دار الريان للتراث . دار الكتاب العربي . الخامسة 1407 هـ / 1987 م .

22 - سلسلة الأحاديث الصحيحة : الشيخ / محمد ناصر الدين الألباني . ط المكتب الإسلامي - بيروت - الرابعة 1405 هـ / 1985 م .

23 - سنن أبي داود : الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (202 - 275 هـ) دار الحديث - القاهرة 1408 هـ / 1988 م .

24 - سنن الترمذي : الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (209 - 297 هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر - دار الكتب العلمية بيروت - د . ق . ت .

25 - سنن الدارمي : الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالدارمي السمرقندي (ت 255) . تحقيق : فؤاد أحمد زمرلى - خالد السبع العلمي . دار الريان للتراث - دار الكتاب العربي . الأولى 1407 هـ / 1987 م .

26 - السنن الكبرى للبيهقي : الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت 458 هـ) مكتبة المعارف - الرياض . دار المعرفة - بيروت د . ق . ت .

27 - سنن ابن ماجة : الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد المعروف بابن ماجة القزويني (ت 275 هـ) دار إحياء الكتب العربية القاهرة - د . ق . ت وأيضا ط : دار الحديث - القاهرة . د . ق . ت / تحقيق الشيخ / محمد فؤاد عبد الباقي .

28 - سنن النسائي : الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب المعروف بالنسائي (ت 303 هـ) بشرح الحافظ السيوطي وحاشية الإمام السندي . دار إحياء التراث العربي بيروت - د . ق . ت . وط دار الكتب العلمية - بيروت - د . ق . ت .

29 - شرح السنة : أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي (516 هـ) . تحقيق شعيب الأرناؤوط - زهير الشاويش - ط : المكتب الإسلامي - بيروت دمشق . الثانية 1403 هـ / 1983 م .

30 - صحيح ابن خزيمة : الإمام الحافظ أبو بكر بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري (ت 311هـ) تحقيق :

د / محمد مصطفى الأعظمي – ط المكتب الإسلامي – بيروت . الأولى 1391 هـ / 1971 م .

31 - صحيح مسلم : الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (206 - 261 هـ) تحقيق : الشيخ / محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – د . ق . ت .

32 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري : الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) ط المكتبة السلفية – الثالثة 1407 هـ – 1987 م – تحقيق : محب الدين الخطيب – ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي .

33 - كنز العمال في سنن الأقول والأفعال : العلامة علاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي / ضبطه وفسر غريبه . الشيخ / بكري حياني ، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه : الشيخ / صفوة السقا – مؤسسة الرسالة – بيروت 1409 هـ / 1989 م .

34 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : الإمام الحافظ نور الدين الهيثمي – ط دار الكتب العربي – بيروت – الثالثة 1402 هـ / 1982 م .

35 - المستدرك على الصحيحين (وبذيله تلخيص المستدرك للذهبي) الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري – ط دار الفكر – بيروت 1398 هـ / 1978 م .

36 - مسند أبي يعلى الموصلي : الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (ت 307 هـ) تحقيق : الأستاذ / حسين سليم أسد / ط دار المأمون للتراث – دمشق . الأولى 1404 هـ / 1984 م .

37 - مسند الإمام أحمد : الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت 241 هـ) دار الفكر العربي – د . ق . ت . والمكتب الإسلامي – د . ق . ت .

38 - مسند الحميدي : الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي (ت 219 هـ) – تحقيق : الشيخ / حبيب الرحمن الأعظمي . ط دار الكتب العلمية – بيروت الأولى 1409 هـ / 1988 م .

39 - مسند الطيالسي : الإمام الحافظ سليمان بن داود بن الجارود الفارسي (ت 204 هـ) – ط دار الكتاب اللبناني ، دار التوفيق – د . ق . ت .

40 - مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه : الشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري (ت 840 هـ) ط دار الكتب الإسلامية – القاهرة – د . ق . ت / تحقيق : موسى محمد علي – أ . د / عزت علي عطية .

41 - مصف ابن أبي شيبة : الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت 235 هـ) د . ن . ق . ت – (في مكتبة كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة) .

42 - مصنف عبد الرزاق : الإمام الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 711 هـ) – تحقيق : الشيخ / حبيب الرحمن الأعظمي . ط المكتب الإسلامي – بيروت – الأولى 1392 هـ / 1972 م .

43 - المعجم الكبير للطبراني – ط مكتبة ابن تيمية – د . ق . ت .

44 - موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان : الإمام الحافظ نور الدين الهيثمي – تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة . ط . دار الكتب العلمية – بيروت – د . ق . ت .

45 - الموطأ : الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة (ت 189 هـ) تحقيق : الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربية – د . ق . ت .

* * *

ثالثا : كتب السيرة المباركة والتاريخ الإسلامي

46 - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون : علي بن برهان الدين الحلبي . دار المعرفة - بيروت - د . ق . ت .

47 - البداية والنهاية : الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير . دار الغد العربي - القاهرة . الثانية 1411 هـ - 1990 م .

48 - خاتم النبيين : فضيلة الشيخ / محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي - د . ق . ت .

49 - دراسة في السيرة : د / عماد الدين خليل . در الوفاء - المنصورة . د . ق . ت .

50 - الرحيق المختوم : صفي الرحمن المباركفوري - دار الوفاء بالمنصورة - الأولى 1400 هـ .

51 - زاد المعاد في هدي خير العباد : الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (691-571 هـ) حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنوؤط . مؤسسة الرسالة بيروت - مكتبة المنار الإسلامية - الكويت - الخامسة عشرة 1407 هـ - 1987 م .

52 - السيرة النبوية : أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري . المؤسسة العربية الحديثة 1964 م .

53 - فقه السيرة : محمد الغزالي . دار الكتب الإسلامية . الثامنة 1402 هـ / 1982 م .

54 - فقه السيرة : د / محمد سعيد رمضان البوطي . دار النور الإسلامية . د . ق . ت .

55 - محمد رسول الله .. منهج ورسالة .. بحث وتحقيق : محمد الصادق عرجون دار القلم - دمشق . الأولى 1405 هـ / 1985 م .

* * *

رابعا : كتب الفقه الإسلامي وأصوله .

56 - أصول الفقه : الشيخ أبو زهرة - دار الفكر العربي - د . ق . ت .

57 - تاريخ المذاهب الإسلامية : الشيخ / محمد أبو زهرة - ط دار الفكر العربي - د . ق . ت .

58 - الحلال والحرام في الإسلام : د / يوسف القرضاوي - مكتبة وهبة - القاهرة الرابعة عشرة 1400 هـ - 1980 م .

59 - السياسة الشرعية : عبد الوهاب خلاف - دار الأنصار - القاهرة 1977 م .

60 - عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية - د / يوسف القرضاوي . ط دار الصحوة للنشر . القاهرة - الأولى 1406 م - 1985 م .

61 - فقه السنة : سيد سابق . ط دار الكتب العلمية - بيروت - دار الريان للتراث القاهرة - د . ق . ت .

62 - مجموعة بحوث فقهية : د / عبد الكريم زيدان - مؤسسة الرسالة - بيروت ، مكتبة القدس - بغداد 1402 هـ / 1982 م .

63 - المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية : د / عبد الكريم زيدان - دار الوفاء المنصورة - مكتبة القدس - بغداد - الثانية عشرة 1412 هـ - 1992 م .

64 - المغني : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت 620 هـ) مكتبة الكليات الأزهرية د . ق . ت .

* * *

خامسا : كتب الأديان وتاريخها .

65 - الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام : د / علي عبد الواحد وافي نهضة مصر للطبع والنشر – د . ق . ت .

66 - جذور البلاء : عبد الله التل . المكتب الإسلامي – بيروت – د . ق . ت .

67 - الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون) : محمد خليفة التونسي . دار الكتاب العربي – بيروت . الرابعة – د . ت .

68 - خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية : عبد الله التل . المكتب الإسلامي – بيروت ، دمشق – الثالثة 1399 ـ – 1979 م .

69 - قصص الأنبياء : عبد الوهاب النجار : دار الحديث . القاهرة . د . ق . ت .

70 - محاضرات في النصرانية : محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي – د . ق . ت .

71 - المسيحية : د / أحمد شلبي – مكتبة النهضة المصرية – الثامنة 1984 م .

72 - المسيحية ونشأتها وتطورها : شارل جبينير . ترجمة : د / عبد الحليم محمود . دار المعارف . د . ق . ت .

73 - الملل والنحل : الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت 548 هـ) تحقيق : سيد محمد كيلاني – ط : عيسى الحلبي – القاهرة – د . ق . ت .

74 - نظرة حول المؤامرات الدولية اليهودية : د / سعيد محمد أحمد باناجة . مؤسسة الرسالة – بيروت – الأولى 1405 هـ – 1985 م .

75 - اليهودية . د / أحمد شلبي – مكتبة النهضة المصرية – السابعة 1984 م .

76 - اليهودية واليهود . د / علي عبد الواحد وافي . نهضة مصر للطبع والنشر د . ق . ت .

77 - اليهود .. عقيدتهم ، طبيعتهم ، مصادر فكرهم . د / فرج محمد إبراهيم – طبعة خاصة بالمؤلف . د . ق . ت .

* * *

سادسا : المعاجم اللغوية .

78 - القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي (ت 817 هـ) – ط دار الحديث – القاهرة – د . ق . ت .

79 - لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري (630 - 711 هـ) تحقيق عبد الله علي الكبير – محمد أحمد حسب الله – هاشم محمد الشاذلي – ط دار المعارف – القاهرة – د . ق . ت .

80 - مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي (ت 666 هـ) – ترتيب محمد خاطر . الهيئة المصرية العامة للكتاب – د . ق . ت .

81 - المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية – ط الثالثة – د . ت .

* * *

سابعا : كتب السياسة والقانون الدولي والعلاقات الدولية .

82 - أحجار على رقعة الشطرنج : وليم غاى كار – ترجمة سعيد جزائرلي . مراجعة وتحرير : م . بدوي – دار النفائس – بيروت . الخامسة 1403 هـ – 1983 م .

83 - أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام : د / عبد الكريم زيدان .

84 - أزمة الحضارة : جوزيف كاميللرى – ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي – سوريا 1983 م .

85 - أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد : مارسيل ميرل . ترجمة د / حسن نافعة ط – مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية – دار سعاد الصباح – سلسلة دراسات أزمة الخليج (4) – الأولى 1992 م .

86 - الاستراتيجية والسياسة الدولية : د / إسماعيل صبري مقلد . ط مؤسسة الأبحاث العربية 1985 م .

87 - الإسلام في خندق : د / مصطفى محمود . سلسلة كتاب اليوم – فبراير 1994 م – دار أخبار اليوم – القاهرة .

88 - الإسلام في وجه الزحف الأحمر : محمد الغزالي .

89 - الإسلام وأزمة الديموقراطية : د / أمين عبد الحميد مبارك . سلسلة كتاب رسالة الجهاد (7) جمعية الدعوة الإسلام العالمية – طرابلس – الجماهيرية الليبية – ط . الأولى 1986 م .

90 - الإسلام وأمريكا – حوار أم مواجهة ؟ (تحليل لكتاب الفرصة السانحة لريتشاد نيكسون) . د / محمد مورو . الروضة للنشر والتوزيع والديِّس للنشر . د . ق . ت .

91 - الإسلام والأمن الدولي – محمد عبد الله السمان – مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة – الأولى 1952 م .

92 - الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب : محمود شلتوت – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1965 م .

93 - الإسلام والقوى الدولية : د / حامد ربيع . ط دار الموقف العربي – الأولى 1981 م .

94 - الإسلام والكونجرس الأمريكي : د / أحمد إبراهيم خضر – بيت الحكمة للإعلام والنشر والتوزيع – القاهرة – الأولى . شعبان 1413 هـ – يناير 1993 م .

95 - الإسلام والنظام العالمي الجديد : الصادق المهدي . نشر دائرة الإعلام الخارجي في حزب الأمة السوداني . سلسلة آفاق جديدة (2) – د . ت .

96 - الإسلام والنظام العالمي الجديد : مولاى محمد علي – ترجمة أحمد جودة السحار . ط : مكتبة مصر – القاهرة – د . ق . ت .

97 - أصول العلاقات السياسية الدولية : د / أحمد سويلم العمري – ط مكتبة الأنجلو القاهرة 1957 م .

98 - الأصولية الإنجيلية (الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكي) : محمد السماك . مركز دراسات العالم الإسلامي – مالطا – الأولى 1991 م .

99 - ألمانيا .. إلى أين المصير ؟ ! : د / جاد طه . ط دار المعارف سلسلة (اقرأ) رقم 557 د . ق . ت .

100 - الإمبريالية من عصر الاستعمار إلى اليوم : هاري ماجدوف . مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت – 1981 م .

101 - الأمة في عام (تقرير حولي عن الشئون السياسية والاقتصادية الإسلامية 1413 هـ – 92 / 1993 م)

مركز الدراسات الحضارية - القاهرة .

102 - الأمة في عام (تقرير حولي عن الشئون السياسية والاقتصادية المصرية 1411 هـ - 90 / 1991 م) - أمة برس - الاستشاريون العرب - القاهرة .

103 - أمتنا والنظام العالمي الجديد : د / عبد الوارث سعيد . ط أمة برس للإعلام والنشر - القاهرة - الأولى 1991 م .

104 - أمريكا وصناعة الجوع : فرانسيس مورلابيه - جوزيف كولينز - ديفيد كينلي ترجمة : د / حسن أبو بكر - ط دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة - الأولى 1986 م .

105 - أمريكا وغطرسة القوة : قدري قلعجي ط دار الكاتب العربي . الأولى 1992 م .

106 - أنكل سام والإسلام (ملف خاص عن سياسات الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين) إعداد : هيئة التحرير بوكالة الصحافة الإسلامية : آن آربور - ميامي - الولايات المتحدة الأمريكية - ترجمة وتعريب : طارق السيد خاطر - ط دار المختار الإسلامي - القاهرة الأولى 1992 م .

107 - البوسنة في صحافتنا عام 1993 م - إصدار : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات - القاهرة - سلسلة : يوميات (3) الأولى 1995 م .

108 - البوسنة .. وقائع مأساة دامية (ملف شامل من الصحف المصرية في الفترة ما بين أكتوبر 1992 - مايو 1993 م) إصدار : الآفاق الدولية للإعلام - القاهرة .

109 - البوسة والميراث الدامي - نزار سمك ، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات - القاهرة - سلسلة تحت دائرة الضوء (1) الأولى 1994 م .

110 - البوسة والهرسك : د / جمال الدين سيد محمد . مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية - دار سعاد الصباح - القاهرة . الأولى 1992 م .

111 - التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية : نهاد الغادري . دار الكتاب العربي - بيروت - 1969 م . د . ق .

112 - تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا : فيصل أبو خضرا . د . ن . ق . ت .

113 - التاريخ النقدي للتخلف : د / رمزي زكي . سلسلة عالم المعرفة (118) يصدرها : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت .

114 - التبشير والاستعمار في البلاد العربية : د / مصطفى خالدي ، د / عمر فروخ المكتبة العصرية - بيروت - ط الرابعة 1390 - 1970 م .

115 - تحليل العلاقات الدولية : كارل دويتش . ترجمة شعبان محمد محمود ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983 م .

116 - تغيير العالم : د / أنور عبد الملك . سلسلة عالم المعرفة (95) صفر 1406 هـ - نوفمبر 1985 م .

117 - التقرير الاستراتيجي العربي 1990 م - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية مؤسسة الأهرام - القاهرة 1991 م .

118 - التقرير الاستراتيجي العربي 1991 م - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية مؤسسة الأهرام -

القاهرة 1992 م .

119 - التقرير الاستراتيجي العربي 1992 م – مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية مؤسسة الأهرام – القاهرة 1993 م .

120 - التقرير الاستراتيجي العربي 1993 – مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية مؤسسة الأهرام – القاهرة 1994 م .

121 - التقرير السنوي للأمين العام للأمم المتحدة (سبتمبر 1993 م) ملحق مجلة السياسة الدولية 144 أكتوبر 1993 م .

122 - التنظيم الدولي : د / عائشة راتب . ط دار النهضة العربية 1970 م .

123 - التنظيم الدولي : د / إبراهيم العناني ط دار النهضة العربية 1979 م .

124 - التنظيم الدولي : د / الشافعي بشير . ط مكتبة الجلاء – المنصورة 1983 م .

125 - الجزائر والمؤامرة على الإسلام والديمقراطية : أحمد السيوفي – د . ن . ق . ت .

126 - جذور الإرهاب : محمد السماك . سلسلة كتاب رسالة الجهاد (8) جمعية الدعوة الإسلامية العالمية – الجماهيرية الليبية . ط الأولى 1986 م .

127 - الحرب في الإسلام وفي المجتمع الدولي المعاصر : توفيق وهبة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – سلسلة كتب إسلامية (145) القاهرة 1393 هـ / 1973 م .

128 - حكومة العالم الخفية : شيريب سبيريد وفتيش . ترجمة : مأمون سعيد . تحرير وتقديم : أحمد راتب عرموش – دار النفائس – الخامسة 1403 هـ / 1983 م .

129 - الحكومة العالمية : د / بطرس غالي : دار المعارف بالقاهرة – الثانية – 1992 م .

130 - الخيار شمشون (قصة البرنامج النووي الإسرائيلي) : سبور هرش . ترجمة : محمد رجب . دار كلمات السعودية ، مكتبة مدبولي الصغير – القاهرة . الأولى 1412هـ / 1992 م .

131 - السياسة الخارجية الأمريكية .. اتجاهاتها وتطبيقاتها وتحدياتها .. من الحرب العالمية الثانية إلى النظام الدولي الجديد : د / حسين شريف . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994 م .

132 - شرح السير الكبير : الإمام محمد بن الحسن الشيباني . تحقيق / عبد العزيز أحمد . معهد الدراسات العربية . جامعة الدول العربية – القاهرة 1971 م .

133 - الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام : المستشار / علي علي منصور . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1384 هـ / 1965 م .

134 - الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين : مصطفى دسوقي كسبة . هدية مجلة الأزهر . ذو القعدة 1415 هـ .

135 - المصريون .. خنازير أوروبا .. يحاولون إبادة الوجود الإسلامي في البلقان د / عبد الحي الفرماوي . دار الاعتصام – القاهرة . د . ق . ت .

136 - صناعة الجوع وخرافة الندرة . فرانسيس مورلابية – جوزيف كوليز ترجمة : أحمد حسان . سلسلة عالم المعرفة (64) .

137 - الصومال : المأساة المنسية (ملف خاص عن المأساة الصومالية) . إعداد : الآفاق الدولية للإعلام –

القاهرة 1993 م .

138 - العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم : موريس غورنييه . المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - 1982 م .

139 - العالم الثالث وتحديات البقاء : جاك لوب . ترجمة : أحمد بليغ . سلسلة عالم المعرفة (104) 1406 هـ / 1986 م .

140 - العالم المعاصر والصراعات الدولية : د / عبد الخالق عبد الله . سلسلة : عالم المعرفة (133) جمادى الأولى 1409 هـ / يناير 1989 م .

141 - العرب والنموذج الأمريكي : د / فؤاد زكريا . دار الرشيد - بيروت 1981 م .

142 - العلاقات الدولية بين النظرية والتطبيق : د / عبد المنعم إبراهيم البندري مطبعة النجاح - المملكة المغربية .

143 - العلاقات الدولية .. دراسة للمفاهيم والمكونات وأنماط التفاعل الدولي د / بلقاسم كرمنى . كلية الحقوق - جامعة محمد الخامس - المملكة المغربية .

144 - العلاقات الدولية في الإسلام : الشيخ / محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي د . ق . ت .

145 - العلاقات الدولية في الإسلام على ضوء الإعجاز ابياني في سورة التوبة د / كامل سلامة الدقس . دار الشروق جدة . الأولى 1396 هـ / 1976 م .

146 - العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث : د / وهبة الزحيلي مؤسسة الرسالة - بيروت الأولى 1401 هـ / 1981 م .

147 - الغرب والإسلام : تقديم وتحليل : منى ياسين . مراجعة وتعقيب : د / محجوب عمر . دار جهاد للنشر والتوزيع - القاهرة الأولى 1994 م .

148 - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي : د / يوسف القرضاوي . مؤسسة الرسالة بيروت - الثانية - 1404 هـ / 1983 م .

149 - قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام .. أبيدوا أهله : جلال العالم . ط المختار الإسلامي - القاهرة . د . ق . ت .

150 - القانون الدولي العام : د / علي صادق أبو هيف . دار نشر الثقافة . الثانية 1948 م .

151 - القانون الدولي العام : د / الشافعي محمد بشير 1985 م . د . ن . ق .

152 - قانون المنظمات الدولية : د / عبد العزيز مخيمر عبد الهادي . مكتبة الجلاء المنصورة 1991 م .

153 - القضية الفلسطينية : أكرم زعيتر . دار المعارف - القاهرة 1955 م .

154 - قضية لوكربي ومستقبل النظام الدولي .. الأبعاد السياسية والاستراتيجية والقانونية . مركز دراسات العالم الإسلامي . سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية (3) . الأولى 1992 م .

155 - كارثة الخليج .. وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي : د / محمد عصفور - دار القارئ العربي للتوثيق والإعلام والتأليف والتراث والنشر - القاهرة الأولى 1411 هـ / 1991 م .

156 - اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة وأوروبا : فايز سارة . منشورات دار الكرمل عمان 1988 م .

157 - مبادئ القانون الدولي العام : د / محمد حافظ غانم . مكتبة نهضة مصر القاهرة 1956 م .

158 - المتلاعبون بالعقول : هربرت سيسللر . ترجمة : عبد السلام رضوان . سلسلة عالم المعرفة (106)

1406 هـ / 1986 م .

159 - مخطط تدمير الإسلام وإبادة المسلمين في العصر الحديث : نبيل عبد الرحمن المحيش . دار المنار - السعودية . الأولى 1412 هـ / 1991 م .

160 - مذابح البوسنة والهرسك .. أندلس جديدة في أوروبا : لواء أ . ح . د / فوزي محمد طايل . الزهراء للإعلام العربي . الأولى 1412 هـ / 1992 م .

161 - مسيرة النظام الدولي الجديد قبل وبعد حرب الخليج : أحمد شرف . دار الثقافة الجديدة . الأولى 1992 م .

162 - المواجهة بين الإسلام والغرب : د / محمد مورو. الدار المصرية للنشر والإعلام القاهرة . الأولى 1413 هـ / 1993 م .

163 - المؤامرة الكبرى : د / مصطفى محمود . سلسلة كتاب اليوم (346) . مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة 1993 م .

164 - المؤامرة والنظام العالمي الجديد : صلاح وقيع . الرافد للنشر والتوزيع لندن . الأولى 1994 م .

165 - موجز القانون الدولي العام : علي صادق أبو هيف . دار المعارف - الإسكندرية الأولى 1954 م .

166 - المنظمات الدولية : د / جعفر عبد السلام . دار النهضة العربية . القاهرة 1980 م .

167 - المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية : د / محمد حسن الإبياري الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978 م .

168 - النظام الإعلامي الجديد : د / مصطفى الصمودي . سلسلة : عالم المعرفة (94) أكتوبر 1985 م .

169 - النظام الدولي بين المقصود والمنشور : محمد خليفة . مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا . سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية (7) . الأولى 1992 م .

170 - النظام العالمي الجديد .. رؤية إسلامية : د / سعد الدين السيد صالح الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع - الزقازيق . الأولى 1412 هـ / 1992 م .

171 - النظام العالمي الجديد ... ملامح ومخاطر : د / شفيق المصري . دار العلم للملايين - بيروت . الأولى 1992 م .

172 - 1999 ... نصر بلا حرب : ريتشارد نيكسون . ترجمة وإعداد وتقديم : المشير / محمد عبد الحليم أبو غزالة . مركز الأهرام للترجمة والنشر مؤسسة الأهرام - القاهرة . الثالثة 1412 هـ / 1992 م .

173 - نهاية التاريخ وخاتم البشر : فرانسيس فوكوياما . ترجمة : حسين أحمد أمين مركز الأهرام للترجمة والنشر مؤسسة الأهرام القاهرة . الأولى 1993 م .

* * *

ثامنا : كتب أخرى متنوعة .

174 - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين : العلامة السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي . دار الفكر - بيروت . د . ق . ت .

175 - أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب : الشيخ / محمد محمود الصواف . دار الاعتصام – القاهرة . د . ق . ت .

176 - أسباب الضعف في الأمة الإسلامية (القسم الأول) : د / محمد السيد الوكيل . دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع – الزقازيق . الأولى 1409 هـ / 1989 م .

177 - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : د / محمود حمدي زقزوق سلسلة كتاب الأمة . رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر .

178 - الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري : عمر بهاء الأميري . مؤسسة الشرق للنشر والترجمة – قطر – الأولى 1983 م .

179 - الإسلام والحضارة الغربية : د / محمد محمد حسين . مؤسسة الرسالة – بيروت – الخامسة 1402 هـ / 1982 م .

180 - الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان . ترجمة : ظفر الإسلام خان . مراجعة وتقديم : د / عبد الصبور شاهين . المختار الإسلامي – القاهرة . السابعة 1397 هـ / 1977 م .

181 - أصول الدعوة : د / عبد الكريم زيدان . دار عمر بن الخطاب – الإسكندرية الثالثة 1396 هـ / 1976 م .

182 - أفول شمس الحضارة الغربية : (1) من نافذة المخدرات . مصطفى غزال دار السلام – القاهرة . الأولى 1405 هـ / 1985 م .

183 - أفول شمس الحضارة الغربية : (2) من نافذة الإباحية . مصطفى فوزي غزال . دار السلام – القاهرة . الأولى 1406 هـ / 1986 م .

184 - أفول شمس الحضارة الغربية : (3) من نافذة الجرائم . مصطفى فوزي غزال . دار السلام . القاهرة . الأولى 1406 هـ / 1986 م .

185 - أفول شمس الحضارة الغربية : (4) من نافذة الخمور . مصطفى فوزي غزال . دار السلام . القاهرة . الأولى 1406 هـ / 1986 م .

186 - أفول شمس الحضارة الغربية : (5) من نافذة الشذوذ الجنسي . مصطفى فوزي غزال . دار السلام . القاهرة . الأولى 1406 هـ / 1986 م .

187 - أفول شمس الحضارة الغربية : (6) الحضارة الغربية على شفا جرف هار . مصطفى فوزي غزال – دار السلام – القاهرة – الأولى 1406 هـ / 1986 م .

188 - الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا : سيد عبد الحميد بكر . هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية . سلسلة الإصدارات الخاصة (1) . د . ق . ت .

189 - الإمكانات الزراعية في العالم الإسلامي ووسائل توظيفها : د / جمعة رجب طنطيش . مركز دراسات العالم الإسلامي (مالطا) . الأولى 1992 م .

190 - الأموال : أبو عبيد القاسم بن سلام .

191 - الإنسان بين المادية والإسلام : محمد قطب . دار الشروق . العاشرة 1409 هـ / 1989 م .

192 - أوروبا العصور الحديثة : د / سعيد عبد الفتاح عاشور . مكتبة الأنجلو القاهرة .

193 - أوروبا في العصور الوسطى : د / سعيد عبد الفتاح عاشور . مكتبة الأنجلو القاهرة . السابعة 1978 م .

194 - إيران في ظل الإسلام : د / عبد المنعم حسنين . دار الوفاء – المنصورة الأولى 1408 هـ / 1988 م .

195 - الإنسان والحياة : د / يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة . السابعة صفر 1401 هـ / ديسمبر 1980 م .

196 - باطن الإثم .. الخطر الأكبر الذي يواجه المسلمين : د / محمد سعيد رمضان البوطي . د . ن . ق . ت .

197 - تحديات في طريق الدعوة : د / محمد رجب الشيتوي . دار الطباعة المحمدية القاهرة . الأولى 1410 هـ / 1990 م .

198 - تحفة المودود بأحكام المولود : الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (ت 751 هـ) المعروف بابن قيم الجوزية . تحقيق : كمال علي الجمل . مكتبة الإيمان بالمنصورة . د . ق . ت .

199 - التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب عليه . د / علي عبد الحليم محمود . دار الوفاء بالمنصورة . الأولى 1414 هـ / 1994 م .

200 - تربية الأولاد في الإسلام : عبد الله ناصح علوان . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع 1404 هـ / 1984 م .

201 - تربية الناشئ المسلم : د / علي عبد الحليم محمود . دار الوفاء – بالمنصورة الثانية 1413هـ / 1992 م .

202 - التطور والثبات في حياة البشرية : محمد قطب . دار الشروق . الثانية 1411 هـ / 1991 م .

203 - الثقافة الإسلامية : د / عبد الواحد محمد الفار . كلية الملك فهد الأمنية الرياض 1980 م .

204 - الحجاب : أبو الأعلى المودودي . دار الفكر . د . ق . ت .

205 - الحركة الصليبية : د / سعيد عبد الفتاح عاشور . مكتبة الأنجلو . الأولى 1963م .

206 - الحضارة : د / حسين مؤنس . سلسلة عالم المعرفة (1) .

207 - الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها : أبو الأعلى المودودي . دار الخلافة د . ق . ت .

208 - الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية : د / توفيق الواعي . دار الوفاء بالمنصورة . الأولى 1988 م .

209 - الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة : د / عبد الغني عبود . دار الفكر العربي القاهرة . الأولى 1981 م .

210 - حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة : الشيخ / محمد الغزالي . دار الكتب الإسلامية – القاهرة . الثالثة 1404 هـ / 1984 م .

211 - الخراج : الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب (113 - 182 هـ) تحقيق وتعليق : د / محمد إبرهيم البنا . دار الإصلاح للطبع والنشر والتوزيع القاهرة . د . ق . ت .

212 - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته : سيد قطب . دار الشروق . الثانية عشرة 1413 هـ / 1992 م .

213 - الخصائص العامة للإسلام : د / يوسف القرضاوي : مكتبة وهبة القاهرة الرابعة 1409 هـ / 1989 م .

214 - خلق المسلم : الشيخ / محمد الغزالي . دار الكتب الإسلامية – القاهرة التاسعة 1403 هـ / 1983 م .

215 - دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين : الشيخ / محمد الغزالي . دار القلم دمشق . الأولى 1407 هـ / 1987 م .

216 - دراسات في الحضارة الإسلامية : د / أحمد الشريف . دار الفكر العربي – القاهرة 1976 م .

217 - الدعوة إلى الله تعالى .. خصائصها ، مقوماتها ، مناهجها .. دراسة مقارنة : د / أبو المجد السيد نوفل . د . ن . ق . ت .

218 - الدعوة الإسلامية هداية وفكر للإنسان : د / محمد السيد أبو يابس . د . ق . ت .

219 - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين : الشيخ / محمد الغزالي دار الكتب الإسلامية .

220 - شبهات حول الإسلام : محمد قطب . دار الشروق .

221 - شروط النهضة : مالك بن نبي . دار الفكر - دمشق . د . ق . ت .

222 - الصحوة الإسلامية .. منطلق الأصالة وإعادة البناء للأمة على طريق الله : أنور الجندي . دار الاعتصام . القاهرة . د . ق . ت .

223 - ظلام من الغرب : الشيخ / محمد الغزالي . دار الاعتصام - القاهرة . الثالثة 1399 هـ / 1979 م .

224 - عالمية الدعوة الإسلامية : د / علي عبد الحليم محمود . دار الوفاء - المنصورة الأولى 1412 هـ / 1992 م .

225 - عجائب الآثار في التراجم والأخبار (تاريخ الجبرتي) : عبد الرحمن الجبرتي دار الأنوار المحمدية - القاهرة . د . ق . ت .

226 - العدالة الاجتماعية في الإسلام : الشهيد سيد قطب . دار الشروق . التاسعة 1403 هـ / 1983 م .

227 - علل وأدوية : الشيخ / محمد الغزالي . دار الدعوة - الإسكندرية . الأولى 1411 هـ / 1991 م .

228 - عوامل الهدم والبناء في المجتمع الإسلامي : د / عبد الرحمن البر . دارنور الإسلام للنشر والتوزيع - المنصورة . الأولى 1415 هـ / 1994 م .

229 - غضب الله تعالى يلاحق المتمردين على الفطرة (الإيدز) : فؤاد بن سيد عبد الرحمن الرفاعي . سلسلة نصائح إسلامية (9) . د . ق . ت .

230 - الغيب : فضيلة الشيخ / محمد متولي الشعراوي : مؤسسة أخبار اليوم القاهرة . سلسلة : مكتبة الشعراوي الإسلامية .

231 - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : محمد البهي . مكتبة وهبة - القاهرة . السابعة عشرة 1411 هـ / 1991 م .

232 - في النفس والمجتمع : محمد قطب . دار الشروق . الثامنة 1408 هـ / 1988 م .

233 - قيم حضارية في القرآن : توفيق محمد سبيع . دار المنار - القاهرة 1984 م .

234 - كواكب حول الرسول : عبد الحليم خفاجي . دار الوفاء - المنصورة . د . ق . ت .

235 - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : الشيخ / أبو الحسن الندوي . دار القلم الكويت . العاشرة 1397 هـ / 1977 م .

236 - مجتمعنا المعاصر .. أسباب ضعفه ووسائل علاجه : د / عبد الله سليمان المشوخي . مكتبة المنار - الأردن . الأولى 1407 هـ - 1987 م .

237 - محنة الأقليات الإسلامية والواجب نحوها : د / صابر طعيمة . دار الجيل بيروت . الأولى 1408 هـ / 1988 م .

238 - محنة الأقليات المسلمة في العالم : محمد عبد الله السمان . دار الاعتصام القاهرة . الثانية . د . ت .

239 - مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة / محمد حرب عبد الحميد . دار الأنصار القاهرة - الأولى 1978 م .

240 - المستقبل لهذا الدين : سيد قطب . دار الشروق . الحادية عشرة 1411 هـ / 1991 م .

241 - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام : د / يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة . الخامسة 1406 هـ / 1986 م .

242 - معالم الثقافة الإسلامية : د / عبد الكريم عثمان . مؤسسة الرسالة . الأولى 1402 هـ / 1982 م .

243 - معالم في الطريق : الشهيد / سيد قطب . دار الشروق . الحادية عشرة 1407 هـ / 1987 م .

244 - معركة التقاليد : محمد قطب . دار الشروق . العاشرة 1980 م .

245 - مفاهيم ينبغي أن تصحح : محمد قطب . دار الشروق . السابعة 1412 هـ / 1992 م .

246 - من أساليب الدعوة في القرآن والسنة .. الأساليب العقدية .. دراسة تحليلية : د / أبو المجد السيد نوفل . مطبعة حسان – القاهرة . الأولى 1404 هـ / 1984 م .

247 - من روائع حضارتنا : د / مصفى السباعي . دار الإرشاد – بيروت . الثانية 1388 هـ / 1968 م .

248 - موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه : أبو الأعلى المودودي . الدار السعودية للنشر والتوزيع – جدة . الأولى 1405 هـ / 1985 م .

249 - نحو مجتمع إسلامي : سيد قطب . دار الشروق . السابعة 1407 هـ / 1987 م .

250 - نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام : د / يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة – القاهرة . الأولى 1412 هـ / 1991 م .

251 - النظام الإلهي للرقي والانحطاط : محمد تقي أميني . ترجمة : مقتدى حسن الأزهري . مراجعة د / عبد الحليم عويس . دار الصحوة للنشر – القاهرة الأولى 1409 هـ / 1989 م .

252 - نظرات في القرآن : الشيخ / محمد الغزالي . دار الكتب الإسلامية .

253 - هذا ديننا : الشيخ / محمد الغزالي . دار الشروق . السابعة 1410 هـ / 1990 م .

254 - هل نحن مسلمون : محمد قطب . دار الشروق . الرابعة 1413 هـ ، 1993 م .

255 - واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم : أبو الأعلى المودودي . الدار السعودية للنشر والتوزيع – جدة . الأولى 1405 هـ / 1985 م .

* * *

تاسعا : البحوث والندوات .

256 - الأبعاد غير المعلنة للحملة الغربية ضد الجماهيرية : د / أحمد الصاوي . ضمن أبحاث مجلد : قضية لوكربي ومستقبل النظام الدولي – مركز دراسات العالم الإسلامي . مالطا 1992 م .

257 - أثر حرب الخليج على مفهوم الأمن القومي : د / عبد المنعم المشاط . ضمن بحوث ندوة : حرب الخليج الثانية .. النتائج والآثار . مركز دراسات العالم الإسلامي – مالطا .

258 - أحكام القانون الجنائي الليبي في شأن محاكمة المواطنين عن الجرائم التي يرتكبونها في الخارج : د / سامي سالم الحاج . ضمن : قضية لوكربي ...

259 - الأمة الإسلامية .. حقيقة لا وهم : د / يوسف القرضاوي . مقدمة تقرير : الأمة في عام 1413 هـ .

260 - بين النظام المقصود والنظام المنشود : محمد خليفة . ضمن بحوث ندوة : العالم الإسلامي

والمستقبل . نظمها ونشر بحوثها : - مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية (5) . الأولى شتاء 1992 م ، بالتعاون مع : مركز الدراسات والبحوث السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة .

261 - الجوانب القانونية للاتهامات الأمريكية البريطانية المتعلقة بحادث طائرة (بان أمريكان) فوق لوكربي : د / علي عبد الرحمن ضوى ضمن : قضية لوكربي ...

262 - حادث الطائرة الأمريكية في ضوء القانون الدولي .. الأبعاد القانونية للنزاع الليبي الأمريكي : المستشار / عتمان حسين عبد الله . ضمن قضية لوكربي ...

263 - الحملة الأمريكية ضد الجماهيرية الليبية في ضوء أحكام القانون الدولي : د / محمد الغمري . ضمن : قضية لوكربي ...

264 - حول مستقبل النظام الدولي : د / علي الدين هلال . ضمن ندوة : العالم الإسلامي والمستقبل ...

265 - السياسة الدولية في إطار النظام الدولي الجديد : ندوة عقدت في كلية الحقوق جامعة المنصورة في 17 / 4 / 1994 م .

266 - العلاقات العربية الأمريكية بعد أزمة الخليج في ضوء حادث لوكربي : د / حسن بكر . ضمن مجلد : قضية لوكربي ..

267 - العلاقات الليبية الأمريكية .. دراسة في عقد الصراعات (1982 : 1992) : د / رفعت سيد أحمد . ضمن : قضية لوكربى ..

268 - ميثاق الأمم المتحدة بين التأويل والتسخير .. دراسة في علاقة القوى الكبرى بالأمم المتحدة في ضوء الممارسات الأمريكية تجاه ليبيا : د / محمد عاشور مهدي . ضمن قضية لوكربي ...

269 - نقد المفهوم الأمريكي الجديد عن « الإرهاب الدولي » د / أحمد ثابت . ضمن قضية لوكربي ...

* * *

عاشرا : الدوريات .

(أ) الأزهر (شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف) .

270 - معلومات أساسية لفهم المسألة الشيشانية د / محمد حرب - السنة 67 - الجزء الثامن - شعبان 1415 هـ - يناير 1995 م .

(ب) الثقافة العالمية : (شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت) .

271 - النظام العالمي الجديد ... أفلح إن صدق / ستيفانو سلفستري - ترجمة : جلال شوقي جلال - السنة التاسعة ع (54) ربيع الأول 1411 هـ - سبتمبر 1992 م .

(جـ) رسالة الجهاد : (شهرية تصدرها : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية - طرابلس ليبيا) .

272 - اليهود والنفط والمستقبل : خير الدين عبد الرحمن - السنة العاشرة ع (105) جمادى الأولى 1411 هـ - ديسمبر 1991 م .

(د) رسالة المهندس : (تصدرها نقابة المهندسين المصرية)

273 - البوسنة والهرسك .. أمة تذبح وشعب يباد – ذو القعدة 1412 هـ – مايو 1992 م .

(هـ) السياسة الدولية : (ربع سنوية يصدرها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية مؤسسة الأهرام)

274 - 1992 م – 1993 م آلام التفكك والاندماج د / أسامة الغزالي حرب السنة (29) ع (111) يناير 1993 م .

275 - اتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني .. قراءة في المضامين والإشكاليات والتطورات المستقبلية / أحمد إبراهيم محمود – ع (117) يوليو 1994 م .

276 - الأزمة الصومالية وعام من التدخل الدولي : د / نجوى الفوال – ع (115) – يناير 1994 م .

277 - الأزمة النقدية ومصير السوق الأوروبية – نيرمين السعدني – ع (114) – أكتوبر 1993 م .

279 - الإصلاحات الاقتصادية والسياسية في الصين – أحمد فرج – ع (114) أكتوبر 1993 م .

279 - انهيار الدولة في الصومال : د / نجوى أمين الفوال – ع (112) إبريل 1993 م .

280 - إيران .. نحو الحسم والتصعيد أم الاستمرار : د / وليد محمود عبد الناصر ع (117) – يوليو 1994 م .

281 - إيران وجماعات العنف السياسي في الشرق الأوسط : د / وليد محمود عبد الناصر ع (113) يوليو 1993 م .

282 - إيطاليا .. ومرحلة تاريخية جديدة – سوسن حسين ع (117) يوليو 1994 م .

283 - البوسنة .. أوهام المراهنة على الحسم العسكري – عماد جاد – ع (117) يوليو 1994 م .

284 - البوسنة .. ضغوط لتعديل خطة التقسيم : عماد جاد – ع (119) يناير 1995 م .

285 - البوسنة .. من فرض التقسيم إلى تكريس الانفصال : عماد جاد – ع (115) يناير 1994 م .

286 - الترتيبات الأمنية والاقتصادية اليابانية في آسيا : أحمد محمد فرج – ع (113) يوليو 1993 م .

287 - تطلعات المستقبل للحكومة اليابانية الجديدة : نبيه الأصفهاني ع (114) أكتوبر 1993 م .

288 - تطورات الأزمة الليبية الغربية : محمد عبد الله رسلان – ع (113) يوليو 1993 م .

289 - تطور السياسة الخارجية الأمريكية تجاه منطقة الخليج : د / علي الطراح – ع (117) يوليو 1994 م .

290 - جذور الأزمة السياسية في روسيا : د / عزمي خليفة – ع (113) يوليو 1993 م .

291 - الجمهوريات الإسلامية والاتحاد الروسي .. الروابط والمخاوف (ضمن ملف أزمة التفكك في الكومنولث عماد جاد – ع (120) إبريل 1995 م .

292 - الحدود الجنوبية للوطن العربي (ضمن ملف : الحدود العربية الإقليمية .. الإشكاليات النظرية والتحديات العملية) ع (112) إبريل 1993 م .

293 - دور جديد للأمم المتحدة .. الديمقراطية وحقوق الإنسان : د / بطرس غالي ع (115) يناير 1994 م .

294 - رؤية مستقبلية لواقع المتغيرات داخل الصين : محمد إبراهيم الدسوقي – ع (112) – إبريل 1993 م .

295 - السودان والحركات الإسلامية .. الدور وأبعاد العلاقة (ضمن ملف : الإسلام والعنف في السياسة الدولية) ع (113) يوليو 1993 م .

296 - السياسة العسكرية الإيرانية في التسعينات : أحمد إبراهيم محمود – ع (111) يناير 1993 م .

297 - الصراع في البوسنة : تجاوز حسابات الأطراف المباشرين – عماد حاد ع (116) إبرايل 1994 م .

298 - العراق .. أبعاد وأهداف الضربة الجوية : أيمن السيد عبد الوهاب يوليو 1993 م .

299 - العراق ومستقبل العلاقات الدولية : عبد الرحمن عبد العال – ع (120) – إبريل 1995 م .

300 - عصر جديد للأمم المتحدة لحفظ السلام .. فرصة جديدة للسلام : د / بطرس غالي ع (115) يناير 1994 م .

301 - العلاقات الأمريكية الروسية وقمة فانكوفر : معتز محمد سلامة – ع (113) يوليو 1993 م .

302 - قرار مجلس التعاون الخليجي ومصير المقاطعة العربية لإسرائيل : عبد المنعم علي حسن – ع (119) يناير 1995 م .

303 - قضية الإصلاح السياسي في اليابان – نزيرة الأفندي : ع (117) يوليو 1994 م .

304 - قضية البوسنة من منظور الإعلام الغربي : يحيى غانم – ع (113) يوليو 1993 م .

305 - القطب الأمريكي .. محاولة الانطلاق وتحديات المنافسة : حسين معلوم ع (112) إبريل 1993 م .

306 - قمة الدار البيضاء الاقتصادية د / عبد المنعم المشاط – ع (119) يناير 1995 م .

307 - المأزق الروسي بين ضروريات الإصلاح وحدود الديمقراطية : أماني محمود فهمي ع (133) يوليو 1993 م .

308 - المبعدون الفلسطينيون .. القضية وأبعادها : عبد الله صالح أحمد ع (112) إبريل 1993 م .

309 - محددات العلاقة بين اليابان والأمم المتحدة : أحمد محمد فرج – ع (112) إبريل 1993 م .

310 - مذبحة الخليل ومسار التسوية السلمية – محمد عبد السلام – ع (116) إبريل 1994 م .

311 - ناجورنو كاراباخ .. الصراع بين الجغرافيا والهوية القومية (ضمن ملف : أزمة التفكك في الكومنولث) عبد الله صالح أحمد – ع (120) إبريل 1995 م .

312 - النافتا .. عوامل القوة وآفاق المستقبل : أحمد محمد فرج – ع (111) يناير 1991م .

313 - نحو دور أقوى للأمم المتحدة : د / بطرس غالي – ع (111) يناير 1993 م .

(و) الشاهد : (شهرية تصدر في قبرص) .

314 - توجهات وأهداف – عوض خليل – ع (90 ، 91) فبراير – مارس 1993 م .

(ز) الفكر الاستراتيجي العربي : (ربع سنوية يصدرها : معهد الإنماء العربي – بيروت الهيئة القومية للبحث العلمي – ليبيا) .

315 - أزمة لوكربى .. التطورات والاحتمالات المستقبلية في ضوء الأبعاد التاريخية للصراع الليبي الأمريكي : ريتا حمدان – ع (41) تموز يوليو 1992 م .

316 - السلام الأمريكي في الشرق الأوسط .. الأهداف والنتائج : د / حسين شعبان ع (43) – كانون الثاني (يناير) 1993 م .

317 - القوة الألمانية الصاعدة .. المعطيات والممارسات في إطار النظام الدولي الراهن د / خالدة شادي – ع (41) يوليو (تموز) 1992 م .

(ح) القاهرة : (تصدرها : الهيئة المصرية العامة للكتاب)

318 - حقوق الإنسان وأسطورة النظام العالمي الجديد – سيد سعيد – ع (127) يونيو 1993 م .

(ط) مستقبل العالم الإسلامي : (ربع سنوية يصدرها : مركز دراسات العالم الإسلامي مالطا) .

319 - الأزمة الصومالية الحية - طبيعتها وأسبابها - إجلال محمود رأفت - ع (8) خريف 1992 م .

320 - أزمة يوغوسلافيا ومأساة البوسنة في ظل النظام الدولي الجديد - محمد خليفة ع (10) ، (11) - ربيع وصيف 1993 م .

321 - الأسرة الأوروبية - من معاهدة روما إلى معاهدة ماستريخت : مفيد قطيش ع (10 ، 11) .

322 - التحليل الثقافي - الحضاري لإدارة مجلس الأمن للأزمة الليبية الغربية : محمد شومان ع (9) شتاء 1993 م .

323 - الجماعة الأوروبية - قراءة في المعوقات السياسية للوحدة : محمد خالد الأزعر - السنة (3) ع (10، 11) - ربيع وصيف 1993 م .

324 - حول التحيز في مفهوم النظام العالمي الجديد : د / سيف الدين عبد الفتاح - ع (8) خريف 1992 م .

325 - السياسة الأمريكية تجاه المنطقة العربية .. توازنات ما بعد حرب الخليج : محمد خالد الأزعر ع (7) صيف 1992 م .

326 - العلاقات الأوروبية العربية في ضوء المتغيرات الدولية : محمود خليل - ع (10 ، 11) .

327 - ما الجديد في النظام الدولي ؟ افتتاحية مستقبل العالم الإسلامي في السنة الثانية ع (8) خريف 1992 م .

328 - مستقبل نظام الأمن الأوروبي - أحمد إبراهيم محمود - ع (10 ، 11) .

329 - المشروع الفيدرالي الأوروبي .. إلى أين ؟ افتتاحية مستقبل العالم الإسلامي ع (10 ، 11) .

330 - مشروع الوحدة الأوربية وتأثيراته في الوطن العربي - حسين معلوم - ع (10 ، 11) ربيع وصيف 1993 م .

(ى) منار الإسلام : (شهرية تصدر عن وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة) .

331 - مجلة منار الإسلام السنة 16 - العدد (1) محرم 1414 هـ - يونيو 1993 م .

(ك) منبر الشرق : (يصدرها المركز العربي الإسلامي للدراسات - القاهرة) .

332 - النظام العالمي الجديد د / عبد الوهاب المسيري - السنة الثالثة - العدد (14) - صفر 1415 - يوليو 1994 م .

حادي عشر : المقالات الصحفية :

(أ) الأخبار :

333 - أخيرا .. السماء تمطر إفطارا وسحورا في البوسنة : سليمان قناوي 16 / 3 / 1993 م .

334 - الفساد يهدد حكومة « جونزاليز » آمال المغربي 10 / 5 / 1994 م .

335 - القرن الأفريقي وإفرازات حرب الخليج : د / رفعت لقوشة 8 / 12 / 1992 م .

336 - قمة كلينتون - يلتسين .. وهموم روسيا : آمال المغربي 6 / 4 / 1993 م .

337 - لماذا تدخلت الأمم المتحدة في الصومال وتركت البوسنة : سليمان قناوي 8 / 12 / 1992 م .

338 - المشاكل تحاصر كلينتون : آمال المغربي – 4 / 1 / 1994 م .

339 - اليابان .. حكومة مؤقتة واختبارات صعبة : هاني علي – 8 / 7 / 1994 م .

340 - اليابان في مفترق الطرق بين الإصلاح السياسي والفساد – هاني محمد فرج 4 / 11 / 1994 م .

(ب) الأهرام :

341 - أذربيجان وأحلام أرمينيا الكبرى : عبد الله عبد السلام – 16 / 4 / 1993 م .

342 - الأمم المتحدة تبدأ التحرك لإنقاذ الصومال : عطية عيسوي – 4 / 12 / 1992 م .

343 - الانقلاب الدبلوماسي الأمريكي ودعم العدوان على البوسنة : عامر سلطان 9 / 12 / 1994 م .

344 - بعد تفتت الاتحاد السوفيتي .. روسيا تواجه خطر تمزيقها إلى جمهوريات صغيرة : عبد الملك خليل – 12 / 7 / 1993 م .

345 - البوسنة بين أطماع الصرب وتردد الدول الكبرى : عطية عيسوي – 27 / 1 / 1995 م .

346 - البوسنة بين مناورة الصرب ومبادرة روسيا : عامر سلطان – 25 / 2 / 1994 م .

347 - البوسنة .. دبلوماسية الموت السياسي : عامر سلطان – 27 / 8 / 1994 م .

348 - البوسنة 95 صراع مع العالم من أجل البقاء : عامر سلطان – 30 / 12 / 1994 م .

349 - البوسنة ولعبة المؤتمرات الدولية : عامر سلطان – 17 / 2 / 1995 م .

350 - بيرلسكوني يتقدم وسط العواصف : ميشيل داجانا – 25 / 5 / 1994 م .

351 - « الجات » في خدمة إسرائيل : سعد الدين وهبة – 23 / 4 / 1994 م .

352 - جذور الأمة الروسية : عبد الملك خليل – 22 / 2 / 1994 م .

353 - جنوب السودان و « الوصاية » الدولية : أحمد نافع – 25 / 2 / 1994 م .

354 - جيش الدفاع الاتحادي والسياسة الأمنية في ألمانيا المتحدة : جيرها رشتولتنبرج (وزير الدفاع الألماني) 3 / 10 / 1990 م .

355 - حرب الجواسيس بعد حرب الصواريخ : حمدي فؤاد – 26 / 2 / 1994 م .

356 - حِلم الوحدة الأوروبية – هل يصبح رهينة ألمانية " طارق الشامي 12 / 2 / 1993 م .

357 - الدب الروسي يقع في مصيدة الشيشان : هاني علي – 6 / 1 / 1995 م .

358 - الدور المصري الغائب في الصومال : سعد الدين وهبة – 24 / 7 / 1993 م .

359 - ديمقراطية « الكاروكيم » في اليابان : منصور أبو العزم – 11 / 7 / 1994 م .

360 - روسيا .. البركان السياسي لم يخمد بعد : عبد الله عبد السلام – 4 / 3 / 1994 م .

361 - روسيا بين الوهم والواقع : عبد الملك خليل – 29 / 7 / 1994 م .

362 - روسيا في قلب الأطلنطي – عبد الملك خليل – 4/ 7 / 1994 م .

363 - الشيشان .. لماذا الدفاع عن الذات : د / محمد حرب – 23 / 2 / 1995 م .

364 - ضياع البوسنة بين خطة أوين وقرار الأطلنطي : عامر سلطان 6 / 8 / 1993 م .

365 - طريق بيرلسكوني لا يؤدي إلى الاستقرار في روما : محمد إبراهيم الدسوقي 1 / 4 / 1994 م .

366 - فصل في سجل العار : فهمي هويدي - 13 / 12 / 1994 م .

367 - القوات الدولية تحت النار في البوسنة : مصطفى سامي - 8 / 1 / 1994 م .

368 - كلينتون وتجديد الليبرالية الأمريكية : د / طه عبد العليم - 20 / 11 / 1992 م .

369 - ليس بالمساعدات الغذائية وحدها يحل العالم أزمة البوسنة : عطية عيسوي - 5 / 3 / 1993 م .

370 - المؤامرة ضد البوسنة .. هل بدأ الفصل الأخير لإعلان صربيا الكبرى : عامر سلطان - 6/5/1994 م .

371 - ماذا يجري على الساحة الدولية ؟ د / محمد إسماعيل علي - 24 / 9 / 1994 م .

372 - مأزق يلتسين بين الشيشان والروس : عبد الملك خليل - 23 / 2 / 1995 م .

373 - مأساة البوسنة .. التخاذل الدولي يبلغ ذروته : عامر سلطان 5 / 8 / 1994 م .

374 - مأساة الصومال بين الدوافع الإنسانية والدوافع البترولية : سعد الدين وهبة 26 / 6 / 1993 م .

375 - محنة جورازدى .. تراجع الغرب أمام تهديدات روسيا : عامر سلطان 23 / 4 / 1994 م .

376 - مصير البوسنة بين إرادة بلجراد والصمت العربي المهذب - مصطفى عبد الله 28 / 9 / 1994 م .

377 - معركة الين بين الولايات المتحدة واليابان : منصور أبو العزم - 6 / 6 / 1993 م .

378 - هذه هي أمريكا : محمد عبد اللاه - 19 / 6 / 1994 م .

379 - وباء الفساد يجتاح أسبانيا : مشيرة موسى - 8 / 6 / 1994 م .

380 - اليابان في دوامة الإصلاح - منصور أبو العزم - 12 / 4 / 1994 م .

381 - اليونان ترفض المشاركة في قصف الصرب : سامح عبد الله - 15 / 2 / 1994 م .

(جـ) الجمهورية :

382 - نار التطرف تحت رماد الهند : بدوي محمود - 20 / 5 / 1993 م .

(د) الشعب :

383 - قبل المؤامرة على إيران والسودان : أحمد مصطفى - 24 / 11 / 1992 م .

(هـ) المسلمون :

384 - تركيا بين الضغوط الداخلية والخارجية : نبيل شبيب - 29 / 5 / 1992 م .

385 - الجديد في النظام العالمي الجديد : د / توفيق الشاوي - السنة (8) - ع (400) الجمعة 6 ربيع الآخر 1413 هـ - 2 أكتوبر 1992 م .

* * *

محتويات الكتاب

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

رقم الإيداع 11273 / 97

الترقيم الدولي I . S . B . N

977 - 5146 - 38 - 0

دار السلام
طبع نشر توزيع
القاهرة ١٢٠ شارع الأزهر ص.ب ١٦١ الغورية
تليفون: ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢) - ٢٧٠٤٢٨٠ - ٥٩٣٢٨٢٠

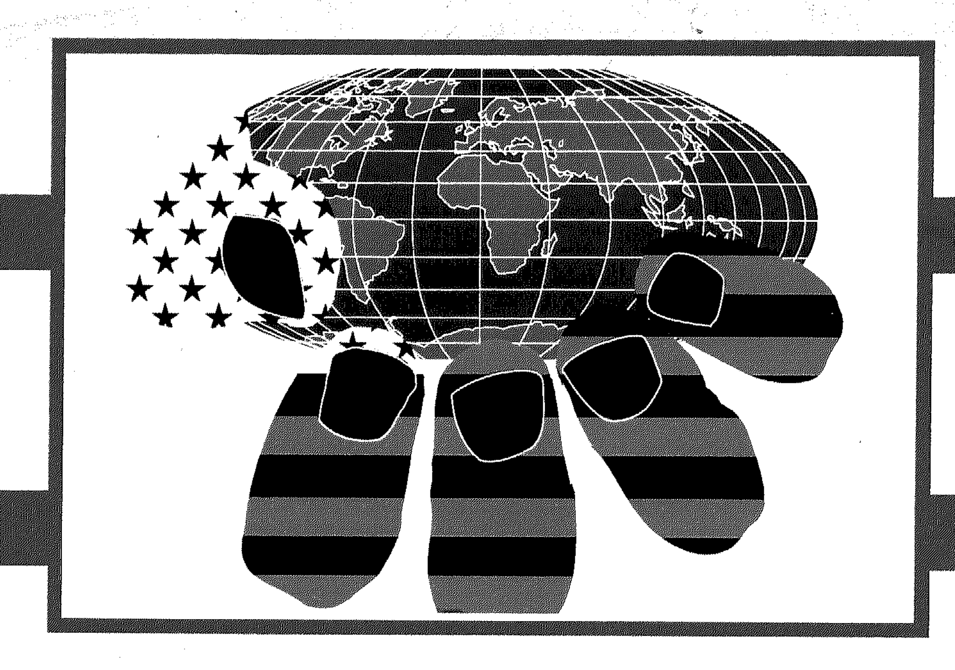
Dar Al Salam
PRINTING, PUBLICATION
& DISTRIBUTION
120 Al Azhar St. P.o Box: 161 El Ghoriah
Tel.: (202) 2741578 - 2704280 - 5932820

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
تأسست سنة
١٩٧٣ م

Dar Al Salam
PRINTING, PUBLICATION
& DISTRIBUTION
120 Al Azhar St. P.o Box: 161 El Ghoriah
Tel.: (202) 2741578 - 2704280 - 5932820

طباعة
نشر
توزيع

جائزة أفضل ناشر للتراث





Bibliotheca Alexandrina
0413272

هذا الكتاب...

إن صدور هذا الكتاب بهذا التوقيت - وإن تأخر إلا أنه - يأتى فى مرحلة دقيقة من مراحل الصراع الحضارى المتأجج على جميع المستويات (السياسية والاقتصادية والفكرية) الأمر الذى يقتضى أن تكون الأمة على بصيرة بما يجرى حولها وبما ينتظرها من أحداث جسام لتتخذ لها الموقع المناسب الذى يمكنها من مواجهة مقتضيات هذا الصراع الحتمى المتواصل